بلابل التغريد

فيما استفدناه أيام التجريد

تأليف

الإمام العلامة الفقيه المؤرخ اللغوي
عبد الرحمن بن عبيد الله بن محسن السقاف
الحسيني الحضرمي الشافعي رحمه الله
١٣٠٠ - ١٣٧٥هـ

وبداخله كتاب الإمام الآخر

السيف الحاد لقطع الإلحاد

تحقيق
علي بن محسن بن علوي السقاف



الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

بلابل التغريد

فيما استفدناه أيام التجريد

تأليف

الإمام العلامة الفقيه المؤرخ اللغوي
عبد الرحمن بن عبيد الله بن محسن السقاف
الحسيني الحضرمي الشافعي رحمه الله
١٣٠٠ - ١٣٧٥هـ

ويداخله كتاب الإمام الآخر

السيف الحاد لقطع الإلحاد

تحقيق
علي بن محسن بن علوي السقاف
سبط الإمام

الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

بلابل التغريد

فيما استفدناه أيام التجريد

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م



للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

هاتف: ٠٣/٩٤٦١٦١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٢٧٦٩٨٨
http://www.Dar-Alamira.com
e-mail:zakariachahbour@hotmail.com



مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم؛ والحمد لله رب العالمين؛ وبعد:

فقد أكرمني الله تعالى بتحقيق بعض كتب الإمام ابن عبيد الله؛ ومنها هذا الكتاب؛ وهي المصنفات القيّمة؛ التي بقيت دهراً من الزمن؛ منسية ومهملة؛ لفترة تجاوزت الثمانين سنة؛ رغم ما فيها من العلوم؛ وما تحويه من الفنون.

ومع أهمية هذه الكتب العظيمة؛ وفوائدها العديدة؛ إلّا انه لم يقربها أحد من الباحثين؛ ولم يتعرف إليها أحد من المحققين؛ إلّا ما كان من أمر النسخ والتصوير؛ بدون تحقيق ولا تصحيح. وكأنَّ الله تعالى؛ قد خبَّأ لي كل هذه الدرر؛ طيلة هذه السنوات الطوال؛ لأتشرف أنا بتنفيذ هذا العمل الجليل؛ برّاً لجدِّي لأمِّي؛ الإمام العلامة عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف؛ بعد وفاته بأكثر من ستين سنة؛ ولكي أقوم بخدمة العلم والمتعلمين؛ والباحثين والمثقفين؛ ورجال الشريعة والدين.

ولقد وجدت في كتب الإمام ابن عبيد الله ﷺ؛ علماً غزيراً؛ وفكراً مستنيراً؛ وأفكاراً حكيمة وآراءً سليمة؛ وتحقيقات فريدة؛ ولعل هذا الكتاب بلابل التغريد؛ هو عصارة لفكر الإمام بكل ما احتواه من علم وفقه وفلسفة وأدب وشعر ونثر. ولو قلت إنَّ الإمام ابن عبيد الله قد شابه في هذا الكتاب ابن خلدون في استنباطاته؛ ووافق الإمام الغزالي في تأملاته؛ وضاهى الإمام الرازي في تحليلاته؛ لم أكن قد ابتعدت عن الحقيقة كثيراً.

والحق أنه لم يوجد في زمن هذا الإمام من يماثله في بلاد المسلمين قاطبة؛ تشهد على ذلك كتبه المطبوعة؛ ومؤلفاته المخطوطة؛ ورسائله البليغة وخطبه العجيبة. فقد بلغ هذا الإمام في كتابه (صوب الركام في أدلة الأحكام) مبلغاً

عظيماً من الفقه؛ وجاء في كتابه المسمى بالعود الهندي بمادة أدبية غزيرة؛ أبهرت محبي الشعر والأدب؛ وقدَّم في كتابه النجم المضيء؛ نقداً أدبياً بليغاً؛ ودراسات شعرية عجيبة؛ ندر أن يوجد مثلها في العصور المتأخرة. وتفوّق الإمام في كتابه (إدام القوت في نتف من تاريخ حضرموت) على من سبقه من المؤرخين؛ بل جعل من كتب التاريخ مائدة شهية لمختلف العلوم وأشتات الفنون. كما أنَّ للإمام ابن عبيد الله ديوان شعر من ثلاثة أجزاء؛ طبع الجزء الأول منه قبل خمسين سنة؛ وعلق عليه الناشر بقوله: لقد حوى الديوان من الألفاظ أجزلها وأرصنها؛ ومن المعاني أبدعها وأشرفها؛ ومن الأغراض ما يعدّ به كتاب علم وأدب ودين وأخلاق وتاريخ وسِيَرْ.

ثُمَّ إن هذا الكتاب الذي بين يديك الآن؛ كتاب بلابل التغريد؛ شاهد على قوة استنباطات الإمام؛ وعميق تحليلاته؛ وصحة استنتاجاته؛ وكأنما عاد إلينا صاحب المقدمة؛ العلامة ابن خلدون؛ ليحلِّل لنا مشاكل عصرنا الحاضر؛ وزاد الإمام في كتابه على مقدمة ابن خلدون بالاستطرادات الفقهية؛ والنوادر الأدبية؛ وببيان الأحكام الشرعية؛ في قالب أدبي مشوِّق وجميل؛ يجعل القارىء لا يستطيع التوقف عن القراءة بعد شروعه فيها.

ومع ما في هذا الكتاب من المباحث العويصة؛ والمفاهيم الدقيقة؛ والاستنتاجات العميقة؛ إلّا أننا نجد فيه أيضاً ما يدل على حبِّ الإمام الشديد للشعر والأدب؛ فنراه ينطلق في هذا المجال كلما سنحت له الفرصة؛ ويطلق لذاكرته العنان؛ فتأتي بدرر الشعر والبيان؛ ولعله يجد في تلك الانطلاقة ترويحاً لنفسه؛ وتطييباً لروحه؛ بعد ما يكِدُّ به دماغه في هذا الكتاب؛ من الفكر العميق؛ والبحث الدقيق؛ والمراجعة والتحقيق. وإذا انطلق الإمام في مجال الشعر والأدب؛ فلا يستطيع أحد أن يكبح جماحه؛ أو يمسك عنانه؛ حتى إنك لتستغرب من أمرك وتستعجب من حالك وتسأل نفسك: هل أنا ما زلت أخوض في بحار الحديث والسنّة؛ أم أنني قد دلفت إلى بستانٍ من الأدب؛ وآويت إلى واحةٍ من الشعر؟

ومن مميِّزات الإمام ابن عبيد الله؛ توخِّي الإنصاف؛ وتحرِّي الحقيقة؛ والبعد الكامل عن الهوى؛ كما سترى مما يأتي في هذا الكتاب وما جاء في كتبه الأخرى. كما أننا نجده بما أُوتِيَ من العلم والفقه والفهم؛ يعترض على كبار العلماء؛ متى أحسَّ منهم الخطأ؛ وهو يتصرف في ذلك تصرف علماء الإسلام البارزين؛ الذين حفظوا لنا الشريعة غرَّاء صافية؛ ببعدهم عن المجاملة في الحق وعدم سكوتهم على الخطأ؛ فنراه يقول: وهذا كله مما يُعْرَف ببادي النظر؛ فذهول الحافظ العراقي وتوهمه مساواة الآيات لما في الحديث من أعجب العجب. ثم قال: وقد تخبَّط الإمام السبكي في هذا الموضوع؛ وسُرَّ من نفسه مع ذلك؛ وتكلم فيه غيره؛ وأخطأ التوفيق، والصواب إن شاء الله ما قلناه؛ فبه تنحل العقد؛ لفظاً ومعنى (انتهى باختصار).

وقد أوتي الإمام ابن عبيد الله؛ ذاكرة عجيبة؛ شبيهة بما ذكروه عن العلماء والأئمة السابقين؛ من أمثال الإمام الشافعي؛ والإمام البخاري؛ وكثير من أمثالهم من العلماء كالسيوطي والسبكي وغيرهم. وقد مكَّنته ذاكرته القوية؛ من اختزان كل هذه العلوم في دماغه؛ وبوحها من ذاكرته عند الضرورة؛ دون الرجوع إلى كتاب أو التوكؤ على ديوان؛ يؤكد ذلك؛ قوله في خاتمة هذا الكتاب: ولا ملام فقد أخذنا من الفكر ما سمح؛ ومن الحفظ ما حضر؛ ومن البديهة ما حصل؛ ويعجبني قول الحطيئة:

فَهَذَا بَدِيهَةٌ لا كَتَحْبِيرِ قَائِلٍ إذا مَا أَرَادَ الْقَوْلَ زَوَّرَهُ شَهْرا

(انتهى).

وإنك لتستغرب من جزالة ألفاظ الإمام وغريبها؛ حتى أنك لتحسب أنك تقرأ لرجل من معاصري سيبويه أو الأصمعي أو الجاحظ أو الشريف الرضي؛ صاحب نهج البلاغة؛ الذي قال عنه الإمام إنه لم يستفد من كتاب استفادته من النهج. ووجه الغرابة أنَّ الإمام عاش في حضرموت؛ حيث لا يتكلم الناس وحتى العلماء إلّا اللغة العاميَّة؛ وهم أبعد الناس عن التمكُّن من اللغة. وقد انبهر

المشرف على طبع ديوانه الشعري بجزالة ألفاظه؛ فقال: ولقد تضمَّن الديوان مادة لغوية واسعة؛ دلَّت على سعة اطلاع صاحبه على مكنون اللغة؛ واستيعاب قواميسها؛ حتى لقد كنا في أثناء الشرح؛ نبحث عن الكلمة؛ فلا نجدها إلّا في أمهات كتب اللغة (انتهى).

والغريب في الأمر؛ أنَّ هذا الإمام لم يغادر بلده حضرموت لطلب العلم؛ ولم يسافر خارج حضرموت إلّا في كهولته؛ حيث قام ببعض الأسفار القصيرة؛ إلى الهند وجاوة واليمن والحجاز وشرق أفريقيا؛ بل إنه كان يقول عن نفسه؛ بأنه لم يزدد من العلم شيئاً بعدما بلغ سن الخامسة والعشرين.

وقد عرف هذا الكتاب بين الناس باسم: بلابل التغريد بما استفدناه من قراءة التجريد. وكان في نفسي شيء من هذا العنوان؛ لأنَّ هذا الكتاب ليس بالشرح لأحاديث التجريد الصحيح ولا هو بتجميع الفوائد من الأحاديث؛ ولكني لما قرأت الكتاب وجدت أن التسمية التي اختارها الإمام لكتابه هي: (بلابل التغريد فيما استفدناه أيام التجريد) فبرد قلبي على هذه التسمية؛ لتوافقها مع محتوى الكتاب.

فالإمام لم يستعرض في هذا الكتاب إلّا بعض الأحاديث؛ المشكلة في معناها الظاهر؛ فجعلها مادة للبحث المستفيض؛ في مواضيع متعلقة بالحديث ومعناه؛ فاستفاض في توضيح ما استشكل على الأفهام؛ وبيان ما غمض من المعاني والأحكام. وانبرى للرَّد على المنكرين؛ ومحاجَّة المحتجين؛ ومقارعة المشككين؛ وإقناع الملحدين. كما قام الإمام بإرسال بلابله بين الحين والآخر؛ إلى أماكن بعيدة؛ وأصقاع نائية؛ ومفاوز مجهولة؛ ليأتينا بالفوائد الغريبة؛ والدرر العجيبة.

والإمام بثاقب فهمه؛ وواسع معرفته؛ وتنوّع مداركه؛ يأتي بالعجب العجاب؛ من المفاهيم الجديدة؛ والأفكار الغريبة؛ والمعاني العجيبة؛ حتى أنك لتندهش أن يكون هذا الرجل قد تلقى كل ما حصل عليه من علوم؛ في تلك البلد

النائية القاحلة؛ حضرموت؛ الخالية في عصره من العلماء والعلوم؛ ومن المحدثين والشيوخ؛ ومن الكتب المخطوطة والمطبوعة؛ إذا استثنينا العلوم الصوفية المعتدلة. لكن حضرموت كانت مليئة بعباد الله الصالحين؛ وبالعبَّاد الأخيار العاملين؛ وأصحاب الزهد والورع والدين؛ الذين لم يوجد مثلهم إلّا في عصور الإسلام الأولى.

وقد أكبر علامة الجزيرة؛ الشيخ حمد الجاسر كتاب الإمام التاريخي (إدام القوت في تاريخ حضرموت) واستغرب أن يكون الإمام ابن عبيد الله قد اقتصر في تحصيل علومه على حضرموت؛ ولم يرتحل لطلب العلم خارجها؛ لمَّا رآه بهذه القوة من العلم واللغة؛ والتمكن من الفقه والأدب والشعر.

والإمام ابن عبيد الله؛ مع علمه وفقهه وشجاعته وسياسته؛ كان ذكي الفؤاد؛ حاضر الذهن؛ سريع البديهة؛ وكان خطيباً مفوَّهاً؛ إذا تكلّم جاء بدرر الكلام؛ وجواهر البيان؛ كما كان لطيفاً أريباً؛ يحب الدعابة ويستملح النكتة؛ وله مع أصدقائه الكثير من المداعبات والممازحات المشهورة.

وكانت له دروس يقيمها بمسجد طه بسيئون؛ وبمنزله؛ ومنها دروس في مختصر البخاري المعروف بالتجريد الصريح؛ والتي بنى عليها هذا الكتاب.

وكتاب التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح كتاب صنفه أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي الزبيدي اليمني المتوفى سنة ٨٩٣هـ. ويسمى أيضاً بمختصر صحيح البخاري. وهو كتاب شهير قال مصنفه عن سبب تصنيفه: إنَّ الأحاديث المتكررة في الجامع الصحيح للإمام البخاري جاءت متفرقة في الأبواب؛ وإذا أراد الإنسان أن ينظر الحديث في أي باب؛ لا يكاد يهتدي إليه إلّا بعد جهد وطول تفتيش؛ ومقصود البخاري رحمه الله بذلك كثرة طرق الحديث وشهرته؛ ومقصودنا هنا أخذ أصل الحديث؛ لكونه قد علم أن جميع ما فيه صحيح (انتهى باختصار).

وكأنِّي بالإمام ابن عبيد الله؛ وقد وجد أنه قد أبعد النجعة؛ في هذا

الكتاب؛ في أشعار العرب؛ وأطلق لنفسه في ذلك العنان؛ مع أن المجال مجال سنة وقرآن وحديث؛ كأنِّي به قد شعر بالحرج من ذلك؛ لذا نراه يقول: وَكَأَنِّي بِمَنْ يُنْكِر إيرادي لهذه الأبيات الغزلية بمناسبة الكلام عن أحاديث سيِّد الوجود؛ وأشرف مولود؛ فيتناولني من العتب بنحو ما تناولوا به المتنبي في قوله:

أَغَارُ مِنَ الزُّجَاجَةِ وَهْيَ تَجْرِي عَلَى شَفَةِ الأميرِ أَبِي الحُسَيْنِ

ولكن ليس الأمر كذلك ولا قريباً من ذلك (انتهى).

كما يبدي الإمام الندم والحرج في الفائدة الثامنة فيقول: وأستغفر الله مع هذا كله؛ وقد جاء أنَّ أبا بكرٍ قال لرسول الله ﷺ: أقرآن وشعر في مجلس واحد؟ فقال له: «**من هذا مرة ومن هذا مرة**»؛ أو ما يقرب من هذا المعنى؛ (انتهى باختصار).

ومع أن الإمام ابن عبيد الله نشأ في بيئة صوفية معتدلة؛ هي صوفية العلويين بحضرموت؛ وهي صوفية ليس من مظاهرها إلّا العلم والعمل؛ والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة؛ وليس فيها دروشة ولا رياضة؛ بل ربما كانت قريبة الشبه بحال الصحابة رضوان الله عليهم. لكن الإمام رغم ذلك يقول عن نفسه: إنه صوفي بالأقوال وليس الأفعال.

ورغم أن الفقهاء بطبيعتهم لا يتفقون مع الصوفية؛ مثل ما رأينا من ابن المقري صاحب الإرشاد؛ إلّا أن تصرف ابن المقري يعكس حال الصوفية في اليمن وليس حضرموت؛ وإلا فقد رأينا جماعة من أفضل الفقهاء وأعلمهم؛ مثل سلطان العلماء العز بن عبد السلام؛ ومثل ابن دقيق العيد؛ ومثل السيوطي؛ وابن حجر الهيتمي صاحب تحفة المحتاج وغيرهم؛ ممن يعتبرون من أهل التصوف المعتدل.

لكن ابن عبيد الله بما جبل عليه من الصراحة والشجاعة؛ ونصرة الشرع والدين؛ وطلب الحقيقة والابتعاد عن الهوى؛ إضافة لتضلعه في الفقه؛ كان مع ذلك يعترض على بعض أحوال الصوفية التي لا تتفق مع الفقه.

لذاه نراه يقول في هذا الكتاب؛ فإن قيل: هل تنكر ما يؤثرونه عن الصوفية والفلاسفة؛ من التأله والتّبَتُّل والانخلاع عن طبائع المادة؛ والانطلاق من قيود الشهوات البشرية؟؛ قلت: لا أنكره جملة؛ وإن أنكرت بعض ما فيه من التجازيف والمبالغة؛ وناقشت فيما لا يصح سنده من جزيئاته؛ ولكنني لا أفَضِّل من ذاك حاله؛ على صناديد الإسلام ولهاميم الرجال (انتهى).

إلا أنه مع ذلك لا يخرج عن دائرة الصوفية العلوية المعتدلة بحضرموت؛ والتي تربَّى فيها وعاش في وسطها؛ وخبر أحوال أهلها؛ فنراه يقول: ولقد شاهدت والدي؛ وما له أنس في شيء من أحيانه؛ إلّا بإقبال الخلق على الله؛ ولا حزن إلّا في أعراضهم عنه. ثم يقول: ونحن نعترف بفضل الصوفية الصادقين؛ ونتبرك بمواطئ أقدامهم (انتهى باختصار).

والإمام يستخدم أحياناً لغة المتكلمين؛ لكنك تمضي معه مطمئناً إلى أن الربَّان الذي يقود سفينة هذا البحث؛ إمام سني؛ ذو عقيدة راسخة وإيمان عميق؛ وفقيه شافعي يرفعه علمه بالفقه لمقام كبار أئمة الفقه السابقين؛ مثل الرملي وابن حجر والبلقيني وابن دقيق العيد.

وقد رأينا الإمام في هذا الكتاب؛ يناقش كبار الأئمة في آرائهم واستنتاجاتهم؛ فهو مثلاً يقول: بأن القاعدة التي يقررها ابن خلدون واضحة الفساد وهي قوله: إنَّ الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية. (انتهى باختصار).

كما قال الإمام ابن عبيد الله عن الإمام الغزالي: وإنني لأتعجب من الغزالي إذ يتعثر جواده في فهم السماع من الحيثية الأولى مع ما جاء عنه في المضنون الصغير[١] في الكلام عن الروح وبعد تشكُّكِه في صحة البراهين العقلية كما في سياقة له في المنقذ من الضلال (انتهى).

---

(١) كتاب منسوب للإمام الغزالي.

لكن الإمام ابن عبيد الله؛ يعود فيتذكر مقام الإمام الغزالي؛ فيستدرك ويقول: وما بنا الإنكار على الغزالي مع ظهور وجوه التأويل لسياقته تلك؛ ومقامه أجلُّ من أن ننتقصه (انتهى).

ويتحرَّى الإمام ابن عبيد الله الصدق والأمانة في كتاباته؛ ما استطاع لذلك سبيلاً؛ وما ضرَّه شيء في حياته؛ وأكسبه عداوة قومه؛ غير صراحته وصدقه وجرأته؛ بل نراه يعترض حتَّى على اقتباسات العلماء غير المعزوَّة. فقال عن الإمام العيني: وقد أغار العيني[1] على قصة فليح المنصوري؛ الذي أخرجها الحافظ بسنده؛ ولم يعزها للحافظ؛ وهو غير مناسب لأمانة العلم (انتهى).

كما نراه يمتدح أحد المصنفين من أهل المغرب؛ عندما اعترض على والده؛ وخطَّأه في مسألة ذكرها الإمام؛ طلباً للأمانة العلمية؛ فقال عنه: ولله در هذا الولد المنصف؛ فلقد جعل الحق رائده؛ ولم تأخذه فيه عاطفة؛ ولم تثنه عنه عصبية؛ فبمثله تقرّ عين الإسلام؛ وعلى مثل هذا درج السلف الكرام؛ فإن الحقَّ عندهم فوق كل شيء؛ كما سنذكر جملة من أخبارهم في ذلك عند المناسبات؛ إن شاء الله تعالى (انتهى).

بل نجد الإمام ابن عبيد الله يخطىء جدّه الفقيه علي بن عمر بن طه المتوفى سنة ١١٠٤هـ؛ في المسألة ١٢٢٦ من كتابه صوب الركام في فتوى اعترض عليه فيها الفقيه عبد القادر بن عمر باكثير؛ واستفتى فيها أئمة الفقهاء بحضرموت؛ فقال الإمام ابن عبيد الله: والحق أن الجدّ علي بن عمر أخطأ؛ وكل من باكثير وابن سراج وأحمد مؤذن؛ أضجعوا في الردِّ على الجد؛ على مراعاة منهم لخاطره؛ وذلك غير لائق بمقام العلم. (انتهى).

وستعرف من هذا الكتاب التزام الإمام الشديد بالعدالة؛ وبعده التام عن

---

(١) الحافظ المحدث بدر الدين العيني له كتاب عمدة القارىء في شرح صحيح البخاري وعدة مؤلفات أخرى وهو من مواليد حلب (٧٦٢ ـ ٨٥٥هـ) سافر إلى مصر وحظي باحترام الأمراء المماليك وأقام مدرسة تقع خلف الأزهر درس بها إلى حين وفاته.

الهوى؛ والبحث عن الحقيقة؛ وعدم الخوض فيما جرى بين الصحابة؛ إلّا فيما اقتضى التوضيح مما يمكن أن يلتبس معناه ومقصده على الناس. وهو لا يترك المسائل دون أن يمحِّصَها من جميع الوجوه؛ ويسوق الأدلة عليها؛ ويأتي بالبراهين لتعضيدها؛ لا يطلب إلّا الحقيقة الناصعة؛ ولا ينشد إلّا الوضوح التام.

كما شعرت بين ثنايا كتب الإمام؛ ومنها هذا الكتاب بإلمام الإمام ابن عبيد الله بعلم الكلام؛ وهو العلم الذي عرفه ابن خلدون بقوله: علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية؛ بالأدلة العقلية؛ للرَّد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة (انتهى). ثم تأكَّد ظنِّي بما كتبه الإمام في الجزء الثاني من (مخطوطة بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت صفحة ٤٨) إذ قال فيها: الخوض في حقائق الصوفية والفلاسفة؛ لا يقل خطراً من الخوض في علم الكلام؛ وقد جلت فيه مع الجائلين؛ حتى خشيت على نفسي من تشوش الفكر؛ فطفت أعالجها بآيات القرآن؛ وتناسي تلك المباحث؛ حتى برئت ولله الحمد؛ وعرفت صدق ما نقله الغزالي في المقصد الأسنى عن الجنيد؛ من تأكيده القسم: بأنه لا يعرف الله إلّا الله؛ وقوله في الإحياء؛ بعد أن بسط مضرَّة علم الجدل: فقس عقيدة أهل الصلاح من عوام الناس؛ بعقيدة المتكلمين؛ فترى اعتقاد العاميّ كالطود الراسخ في الثبات؛ لا تحركه الدواهي والصواعق؛ وعقيدة المتكلم؛ الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل؛ كخيط مرسل في الهواء؛ تميله الرياح مرة هكذا ومرة هكذا. (انتهى).

كما امتلك الإمام ابن عبيد الله السقاف ناصية اللغة العربية؛ وبرع في علم البلاغة والبيان؛ ولهذا كان من المنبهرين ببلاغة القرآن الكريم؛ ونراه بعد أن تكلم عن أسرار الفاتحة يقول: وما ذكرته من أسرار الفاتحة غيض من فيض؛ وَرَشَّة من غدير؛ ومنه تظهر لك وجوه البلاغة التي تقصر عنها الفحول؛ وتَخِرُّ عنها العقول؛ وقد قالوا: إنَّ الالتفات خلاصة علم البيان؛ ومرقاته التي تزلُّ عندها الأقدام. وما قررته من المعاني خيرٌ مما فكر فيه علماء هذا الشأن؛ والإنصاف حَكَمٌ عَدْل؛ والذوق شاهدٌ مَرْضِيٌ.

وقد امتلك الإمام ابن عبيد الله ناصية الخطابة؛ مع الزهد والورع؛ وعدم الالتفات للدنيا؛ وتحلَّى بالشيم العربية والأخلاق الإسلامية؛ وعرف بالشجاعة والكرم؛ وكان عابداً تقياً صالحاً.

وفي اعتقادي الراسخ: أنه لو وجد شخص في القرن الحالي أو القرن الماضي يستحق أن يسمَّى بالشافعي الجديد؛ فذلك هو الإمام ابن عبيد الله؛ لعظم التشابه بينهما؛ وذلك لقوة الإمام ابن عبيد الله في الفقه؛ وقدرته على انتزاع الأحكام؛ واستنباط الحقائق؛ ثم لامتلاكه ناصية اللغة العربية؛ وكونه شاعراً؛ كما يتشابهان في قوة الحفظ؛ والنباهة والذكاء؛ وبتعرضهما للمحنة والشدة؛ ثم اتفاقهما في النسب الشريف؛ مما يقرِّب التشابه بينهما إلى حدّ معقول.

إلّا أن الإمام الشافعي عاش في الحجاز والعراق ومصر؛ في عصر يزخر بالعلماء والمحدثين واللغويين؛ من أمثال الإمام مالك؛ والحسن الشيباني؛ والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم مِمَّن لا يحصيهم العد؛ من العلماء والفقهاء والمحدثين؛ بينما عاش الإمام ابن عبيد الله معزولاً في بلاد نائية؛ وأرض قاحلة؛ يخيِّم عليها التخلُّف والجهل.

ويقدم الإمام في هذا الكتاب نظريات وأفكار وتحليلات؛ فهو يفسر مثلاً كثرة العلماء الأعجام فيقول: لا شك أن نسبة العرب إلى العجم؛ في إحصاء العلماء والمؤلفات؛ تكون قليلة جداً. وقد كَثَّر مالهم فيه؛ قِلَّةَ نصيبهم من الحسد؛ بخلاف العرب؛ فإنهم يجاحدون ما لإخوانهم؛ ولا سيّما المعاصرين منهم؛ ويحاولون كتمانه بكل ما تنتهي مقدرتهم إليه؛ حتى أنهم يسلكون بعض علمائهم في عداد العجم؛ لأدنى مجاورة. (انتهى).

كما نرى الإمام ينصف المرأة؛ ويقف في صفها في كثير من المواضع بهذا الكتاب؛ منها قوله: ولا نذهب في شيء من كلامنا إلى تفضيل النساء على الرجال جملةً واحدة؛ ولكن من نوع ما سبق في الفائدة السابعة؛ من أنَّ قابليتهنّ محدودة؛ لم تنته بهنّ إلى ما وصل إليه الرجال؛ من الخبث والدناءة والخسَّة

والفساد والانحطاط؛ اليوم؛ بنفس الاستعداد الواسع عندهم في القابلية؛ كما قررناه هناك.

بل يعتقد الإمام أن إصلاح الأمة الحضرمية لن يكون إلّا بإصلاح النساء؛ ويعلل ذلك بقوله: ومن ذلك تتوجه نظرتي وتتأكد صحتها؛ وهي أنه لما كاد اليأس يتغلب؛ من جهة إصلاح الرجال؛ لزمانة أمراضهم؛ وشدة إعراضهم؛ ومهانة نفوسهم؛ وانتكاس رؤوسهم؛ واندماجهم على اللوم والحسد؛ وانطباعهم على الذُّلِّ والملق. رأيت أنه لا يمكن إصلاح الأمة الحضرمية؛ إن بقي في القوس منزع؛ إلّا بالالتفات إلى النساء؛ وتعليمهنَّ المبادئ والأولويات؛ وتعريفهنَّ بمكارم الأخلاق؛ وحثِّهنَّ على تأدية الواجب؛ من نصيحة الرجال (انتهى باختصار).

كما أوضح الإمام في هذا الكتاب بعض النظريات الاجتماعية كما فعل ابن خلدون في مقدمته فيقول معلقاً على حديث: «**ما الفقر أخشى عليكم**»؛ أنَّ في الحديث إشارة إلى سُنَّة من سُنَنِ الكون؛ وناموس من نواميس الطبيعة؛ فإنه لا يتحدُّ أهل مدينة في المسكنة؛ أو يتقاربون في الكفاف؛ إلّا كان الغالب عليهم الوداد والصفاء والوئام والإخاء؛ ثم لا يبرحون؛ متى ظهر المال؛ وجاءت الثروة لبعضهم؛ أن تنشقَّ عصاهم؛ ويندق بينهم عطر منشم؛ ومن ذلك تنكسف النفوس؛ وتبدل البشاشة بالعبوس (انتهى).

كما نراه ينكر على بعض علماء السنة جمود أفكارهم فيقول: وأنَّى يسوغ شيء مما يتكلفه المتعمِّقون والعلماء؛ من أهل السنة وغيرهم؛ يأولون الأدلة السمعية؛ والآيات القرآنية؛ لتتفق مع قانون العقل؛ وتسايره جنباً لجنب؛ ويعدُّون التمسك بالظواهر؛ من دون العرض على البراهين العقلية والأقيسة المنطقية؛ جزءاً من الكفر (انتهى).

كما تظهر وسطية الإمام وبساطته وبعده عن التشدد؛ في ما أخذه على الإمام الغزالي بقوله: ولي بعد مناقشة مع الإمام الغزالي؛ فيما تشدد فيه من تهذيب

النفس؛ ومجاهدة الطبيعة؛ والإلزام بالمشقَّة في تنقية الإخلاص؛ لأنَّ كثيراً منه لا يتفق مع سماحة الدين؛ ولا يلتئم مع سيرة السلف ورجالات الإسلام؛ الذين قام بهم عموده؛ وحرست بهم حدوده. (انتهى).

ومن النظريات المهمة التي أوردها الإمام قوله: وما زال الضعف مادة القوّة؛ كما في نظرية لي قررتها غير مرة؛ وفي غير ما كتاب؛ وهاهنا يجيء موضع قولي السابق:

وَقَـوَّةٌ أَصْـلُـهَـا ضَـعْـفٌ وَلا عَـجَـبٌ   إذْ كُـلُّ ذِي شِـدَّةٍ فِـي الأَصْـلِ مِـنْ لِـيـنِ

(انتهى).

كما نرى الإمام يستشف مستقبل الإسلام من خلال غشاء رقيق فيقول: إنَّ ظهور الدين بادياً كان بسرعة مدهشة غريبة؛ لم يعهد لها نظير في تاريخ انتشار الأديان، ولم يسبق لها مثيل في حوادث انقلابات الأكوان، ثم جنى عليه أبناؤه، وتلاعب به المتمسكون بأهدابه؛ واطَّرَحه المنسوبون إليه. ثم يقول: فجاء هذا الحديث؛ يَعِدُ بأنَّ له كرة أخرى إلى الظهور والانتشار؛ بطريقة غريبة؛ وسرعة عجيبة، وأقرب ما يكون لذلك؛ أن تعود به إحدى دوله إلى نور العدالة؛ وضوء الهداية، وثمرة الحكمة؛ وأثر الرحمة، وظِلِّ الإنصاف؛ وعنوان الألطاف. وأحرى بهذه الدولة إذن؛ أن يشتد بنيانها؛ ويقوى سلطانها؛ وتمتد أغصانها. وإلّا بأن تعتنقه أمة أجنبية كبيرة؛ ذات حول وطول، فتخدمه خدمةً باهرة، وتنصره نصرة ظاهرة (انتهى باختصار).

ويتوقع الإمام أن تكون هذه الدولة الأجنبية الكبيرة؛ هي أمريكا؛ ويعلل رأيه هذا تعليلاً لطيفاً بملاحظة استوقفتني كثيراً حيث يقول: وقال أبو حاتم: ومن العجائب أن النخل لا يوجد إلّا في بلاد الإسلام؛ مع أن بلاد الهند والحبش والنوبة حارة خليقة بوجود النخل فيها اهـ. وأقول: أما الهند فقد رأيت النخل في حيدرآباد الدكن منها إذ دخلتها في سنة ١٣٤٩هـ وهي بلاد إسلامية؛ ولكنه بلغني أن في أميركا كثيراً منه فعسى أن تصبح دار إسلام كما أصبحت دار نخل. (انتهى).

وعندما يرى المرء الانتشار السريع للإسلام في هذه الأيام؛ يتأكد له أن ما ذهب إليه الإمام في هذا الشأن؛ يمكن أن يتحقق في زمن قريب.

وقد عانى الإمام ابن عبيد الله من قرابته وقومه بحضرموت معاناة شديدة؛ ذكرها في كثير من مؤلفاته وتصانيفه؛ وقال في هذا الكتاب: فها أنا ذا؛ في أول درجات العقد السادس من عمري؛ ما عاملت أحداً من الرجال إلّا كوفئ بالقبيح؛ ولا سيّما أولو القربى منهم؛ كما قلت من قصيدة نبوية:

وَجُلُّ العِدَاء مِمَنْ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنِي لَوْ صَحَّتْ مَنَاسِبَهُم جَدُّ

فكم تحملنا عن بعضهم من الأثقال؛ وواسيناهم بما نستطيع من المال؛ وضحينا في الدفاع عنهم بالجاه؛ وسعينا في صالحهم جهدنا؛ وخاطرنا بأنفسنا؛ ثم صاروا إلباً علينا؛ مع أعدائنا الذين خاصمناهم فيهم؛ على حدّ قوله:

كَمْ صَاحِبٍ عَادَيْتُهُ فِي صَاحِبٍ فَتَصَادَقَا وَبَقِيتُ فِي الأعْدَاءِ

وبالجملة؛ فقد كادوا لنا بكل ما في وسعهم؛ إلّا أنهم لم يضرونا إلّا أذى؛ وخار الله لنا في عداوتهم؛ وانطبق علينا ولله الحمد قول الشاعر:

ما من مصيبة نكبة أرمي بها إلّا تشرفني وترفع شأني

وقد أطلعناهم على ظاهر أمرنا وخافيه؛ ولو علموا أي شيء من عيبنا لأذاعوه وباعوه (انتهى باختصار).

كما اشترك الوجهاء والأعيان والسلاطين بحضرموت؛ في معاداة الإمام ابن عبيد الله. وما سبب ذلك إلّا مجاهرته بالحق؛ وعدم سكوته على الباطل فيقول: ولله الحمد أنني وقفت نفسي لجهاد الدجالين؛ ومحاربة قضاة السوء المسلَّطين؛ وما عندي إلّا قوة الحق ونصوص العلم، وقد تألَّبُوا ضدِّي؛ كما يعلم الخاص والعام، وانضمَّ إليهم السلاطين والوجهاء والأعيان؛ وأهل العلم الأجوف والولاية الزائفة، واستمالوا سائر الطبقات؛ وكتبوا المحاضر عليّ؛ وسيَّروها إلى دار الاعتماد بعدن؛ وإلى غيرها. وقصدوني بكل أذى (انتهى).

كما كان الإمام ابن عبيد الله من أشد أنصار الدولة العثمانية؛ وكان يعمل لخدمتها ونصرتها؛ وجمع تأييد الحضارمة لها؛ مما أغضب عليه الإنكليز؛ الذين بسطوا حمايتهم على بلده حضرموت؛ لكنه رغم ذلك لم يأبه بهم؛ ولم يلتفت لتهديدهم؛ حتى بعد أن وضعوا جائزة لمن يغتاله. وبقي الإمام على اتصالاته بالجنرالات العثمانيين في لحج وصنعاء؛ ثم لما سقطت دولة الخلافة؛ اتجه إلى الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن؛ يستعين به للتدبير لإخراج الإنجليز من حضرموت؛ وله في ذلك مراسلات كثيرة؛ وقصائد طويلة؛ بقي أكثرها محفوظاً لدى أحفاده إلى اليوم.

ولا يحتمل الإمام ابن عبيد الله كيد الأجانب للدين؛ وتأخذه الحميَّة الشديدة لنصرة الدين؛ والذب عن شريعة المسلمين؛ ولهذا بادر؛ عندما وصله كتاب توحيد الأديان؛ بالرَّدِّ عليه بكتابه (السيف الحاد لقطع الإلحاد) والذي ألحقناه بهذا الكتاب. وقال الإمام في مقدمة السيف الحاد: وردني ذلك الكتاب (يقصد كتاب توحيد الأديان) وأنا أشتغل من ذات نحيين بتأليف معجم لبلاد حضرموت؛ طلبه منِّي الفاضل الوجيه عبد الله بلخير؛ ليضم ما ينويه ناصر العلم ولي عهد الحجاز ونجد؛ من تقويم بلدان شبه الجزيرة، ولكني رأيت هذا ألزم؛ والأخذ بنقده أحزم؛ وهزتني حميَّة الدين، وأخذتني حدَّة تليق بمثلي من المسلمين؛ فهجرت المهاد؛ وأخذت حظي من الجهاد، واستعذبت الألم؛ واعتقلت القلم (انتهى).

هذا وقد استمتعت بتحقيق هذا الكتاب؛ ووجدت فيه تفسيراً وشرحاً لكثير من المسائل العويصة؛ التي كانت ترد على ذهني؛ ولا أعرف لها جواباً؛ ولا أستطيع لها حلاً؛ فوجدت أن الإمام ابن عبيد الله قد أراحني بتفسيرها؛ وأعانني على فهمها؛ بطريقة لم يسبقه أحد إلى مثلها.

وقد قرأت بالصدفة مقالة للشيخ عبد العزيز الحربي في صحيفة الرسالة ذكر فيها: أن أحد أشياخ أبيه سُئل عن تفسير آية؛ فلم يجد لها جواباً في كل

التفاسير؛ ثم وجد أنَّ ابن عبيد الله قد ذكر هذه المسألة بعينها؛ واستوفى معناها؛ في مخطوطة بلابل التغريد.

وذكر الإمام في هذا الكتاب أسماءً لرسائل كتبها؛ ولم نسمع بها من قبل؛ مثل: رسالة سمط الدرر في الذب عن حديث خير البشر؛ ورسالة تأديب المجتري وتكذيب المفتري؛ ورسالته الموسومة بالكوكب الدُّرِي. ورسالته المسماة بأنفس الأغلاق في علم الأخلاق. ولعلَّ هذه الرسائل لا زالت موجودة لدى أحفاده؛ لأنها لو طبعت مع رسائله الأخرى المعروفة؛ لكان ذلك رافداً مهماً للعلم والمعرفة.

ومن المؤسف أن بلابل التغريد الذي بين يديك أيها القارىء الكريم؛ من ثلاثة أجزاء كما صرَّح بذلك الإمام عند الانتهاء من الجزء الأول؛ ولكننا لم نحصل من البلابل إلّا على الجزء الأول فقط؛ والذي هو الآن بين يديك؛ ولعل الجزءين الثاني والثالث لقيا مصير بعض كتب الإمام؛ التي بعثها لأصدقائه ومحبيه ليطبعوها؛ حيث لم تتوفر إمكانية طباعتها في حضرموت؛ ولم يكن باستطاعة الإمام تحمل تكلفة طباعتها خارج حضرموت. كما لم يلق الإمام في بلده حضرموت من يساعده ويعينه على طبعها. وقد وضح هذه المشكلة بقوله: كنت عازماً في طبعه على تجشُّم الكلف، غير طامعٍ من بني وطني مساعد، إذ ليس فيهم إلّا من يفتُّ في الساعد، وبينهم وبين النفع؛ كما بين الجنِّ والثوم، يفر أحدهم منه؛ كما يفر التقيُّ حيث يخشى أنه مأثوم.

ولربما يقبع الآن الجزآن الثاني والثالث من البلابل؛ في مكتبة انتقل صاحبها إلى بارئه. ولا يعرف أبناؤه ولا ورثته شيئاً عن هذه الجواهر والدرر؛ ولا يهتمون بها ولا يفتشون عنها. ولكن الأمل ما زال باقياً؛ بأن ينهض من يبحث عن هذه الكتب الهامة؛ وأن يقدمها للمطابع بعد التدقيق والتحقيق.

ويبعث فينا الأمل أنَّ الجزء الثالث من كتاب الإمام ابن عبيد الله التاريخي العظيم بضائع التابوت؛ كان مفقوداً؛ وطال البحث عنه بلا جدوى لسنوات

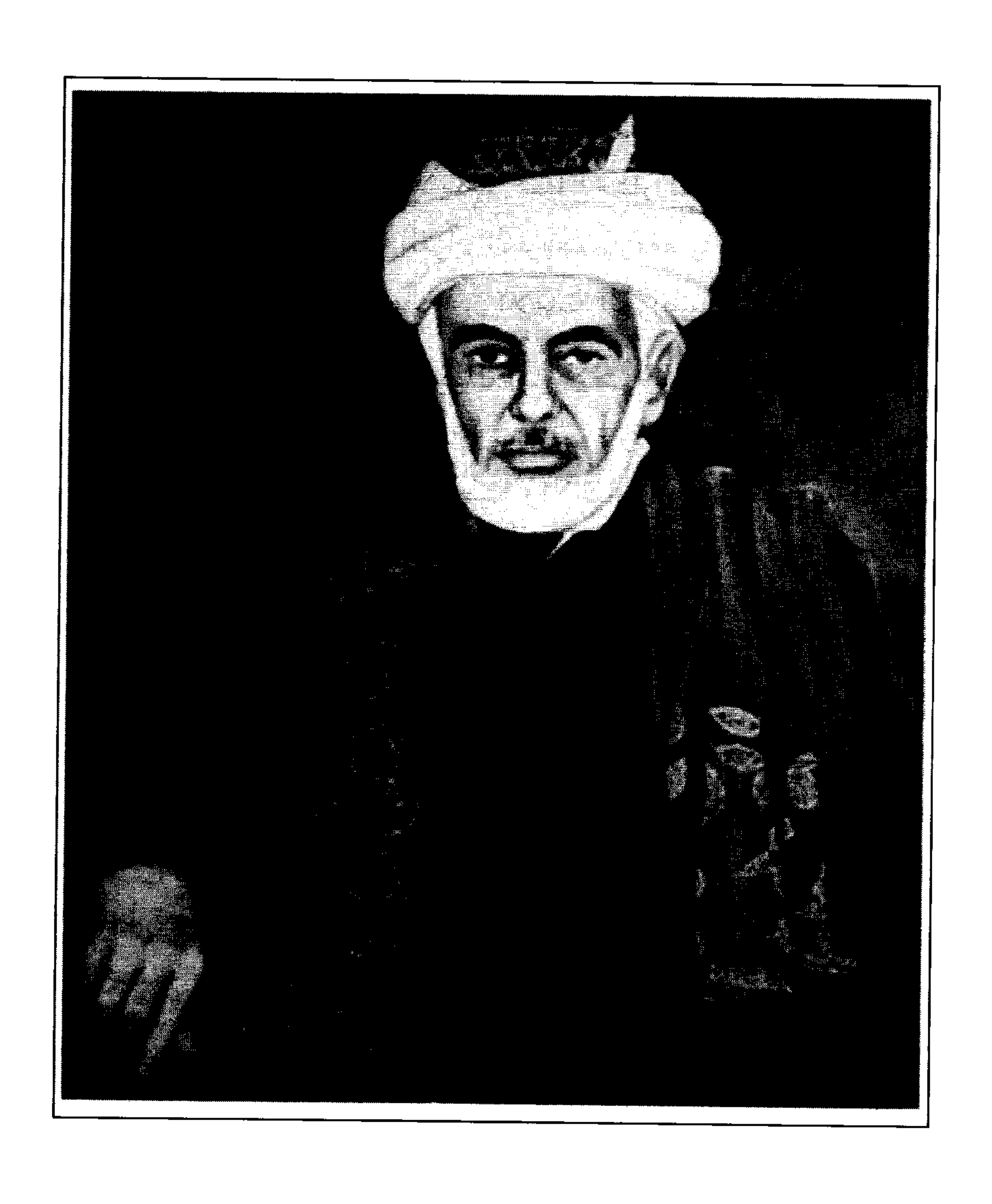
عديدة؛ ثم شاءت إرادة الله أن نجده بمكتبة الشيخ عبد الله بلخير رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ والذي كان على تواصل وصداقة وارتباط مع الإمام ابن عبيد الله.

رحم الله الإمام عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف فقد كان فلتة من فلتات الزمان. نشأ عظيماً؛ وعاش مضطهداً؛ ومات مقهوراً؛ وبقيت الكثير من مؤلفاته العظيمة مهملة ومنسية إلى يومنا هذا.

علي بن محسن بن علوي السقاف

الخامس عشر من محرم سنة ١٤٣٦هـ

التعريف بالإمام عبد الرحمن بن عبيد الله ابن محسن السقاف (١٣٠٠ ـ ١٣٧٥هـ)



ولد الإمام عبد الرحمن بن عبيد الله بن محسن بن علوي السقاف في السابع والعشرين من رجب سنة ١٣٠٠هـ بمدينة سيئون بحضرموت.

ونشأ نشأة صالحة في كنف أسرته؛ وهي إحدى الأسر المشهورة بالعلم والكرم؛ واعتنى بتربيته والده الرجل الصالح العابد، الزاهد الورع، عبيد الله بن محسن والمتوفى سنة ١٣٢٤هـ، وتتلمذ؛ وهو دون سن البلوغ؛ على الإمام العلامة عيدروس بن عمر الحبشي؛ صاحب الغرفة؛ المتوفى بها سنة ١٣١٤هـ؛ وكان تأثره به قوياً؛ وتعلقه به تاماً.

وقد اعتنى والده بتعليمه، وحرص على استصحابه للمجالس العلمية، المنتشرة في حضرموت تلك الأيام، كما اختار لتعليمه؛ نخبة من خيرة المدرسين، وعهد إليهم؛ تعليمه القرآن الكريم، والفقه والنحو؛ ومن المستغرب؛ أن بعض أساتذته أصبحوا فيما بعد؛ من تلامذته المواظبين على حضور دروسه.

وقد أصبح ابن عبيد الله بعد ذلك إمام عصره وذاع صيته في جميع أرجاء حضرموت وبين العرب في أندونيسيا وسنغافورة والهند وشرق أفريقيا وكان بيته منتدى يؤمه العلماء والوجهاء والسلاطين والأعيان. وكانت فتاويه مقبولة وآراؤه محترمة وكان يسمى بمفتي الديار الحضرمية.

وكان عظيم الاهتمام بإصلاح وادي الأحقاف؛ والقضاء على ما أصابه من الفوضى والاستبداد والإجحاف؛ وما مُنِي به أهله من الجهل والتفرق والخمول؛ فجهر بالدعوة لدولة الإسلام في أواخر أيام الحرب العالمية الأولى. وكانت له صلة وثيقة بالقائد العثماني الكبير علي سعيد باشا؛ الذي احتل لحجاً في ذلك العهد. وجمع كثيراً من توقيعات أعيان الوادي ومشايخه بالانضمام إلى الدولة العلية؛ ولما شعرت حكومة عدن الإنكليزية بذلك؛ قررت منح جائزة لمن يغتاله ولكن الله عصمه من كيدها.

وترى في قصائده توجعاً وأسفاً لما حلّ بوادي حضرموت؛ من نكبات أصابت أهله في دينهم ودنياهم. واستنجاداً بالإمام يحيى حميد الدين إمام

اليمن؛ الذي كانت له به رابطة قوية؛ وكان يجيبه على كتبه وقصائده بمثلها بحراً ورَوِياً. ولما اغتيل الإمام أقام عليه صلاة الغائب بمسجد سيئون؛ ثم رحل إلى تعز لتعزية ابنه الإمام أحمد بن يحيى.

وقال ابنه الأديب الخال حسن: وكانت هذه الرحلة آخر رحلاته ثم مرض بعدها بالحمى وبينما هو جالس بين عُوَّاده أراد قراءة قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ فخنقته العبرات؛ حتى أشفقنا عليه؛ ثم أتمَّها بصوت متهدج؛ وبات يصابر الداء حتى أسلم روحه في الفجر في الخامس والعشرين من ربيع الثاني عام ١٣٧٥ بمسقط رأسه مدينة سيئون. فسارت المنعاة بنعيه في طول الوادي وعرضه؛ وشُيِّعت جنازته في مشهد عظيم؛ لم تشهد سيئون أعظم منه؛ وأقيمت حفلات التأبين عليه في مختلف الجهات التي زارها أو التي وصل إليها تلاميذه رحمه الله وأجزل مثوبته.



مصنفات الإمام ابن عبيد الله

■ أولاً: مصنفاته الفقهية:

١ ـ كتاب صوب الركام في عمدة الأحكام وهو مطبوع.

٢ ـ حاشية على كتاب (فتح الجواد بشرح الإرشاد)؛ وهي مخطوطة.

٣ ـ حاشية على كتاب (منهاج الطالبين) للإمام النووي رحمه الله؛ وهي مخطوطة.

٤ ـ حاشية على تحفة المحتاج بشرح المنهاج. لابن حجر الهيتمي؛ وهي مخطوطة.

■ ثانياً: مصنفاته في الحديث:

١ ـ بلابل التغريد فيما استفدناه أيام التجريد وهو هذا الكتاب. ولا يوجد منه إلّا الجزء الأول. قال عنه الأستاذ الزركلي: هو أشبه بكتب الأمالي في ثلاثة أجزاء. وقد صنفه أيام تدريسه للتجريد الصريح للجامع الصحيح (مختصر البخاري) للإمام العلامة الزبيدي الشرجي.

٢ ـ حاشية على الشمائل النبوية للإمام الترمذي.

■ ثالثاً: مصنفاته التاريخية:

١ ـ كتاب بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت (مخطوط) يقع في ثلاثة مجلدات ضخام، قال عنه الزركلي مثنياً عليه: (وأتى فيه بعلم غزير، في تاريخ حضرموت وبيوتها وحكامها وأعلامها، إلى استطرادات في فنون

مختلفة من أدب وحديث ونقد، إلى وثائق سياسية ومعاهدات وملحوظات).

٢ ـ إدام القوت أو معجم بلدان حضرموت (مطبوع).

■ رابعاً: مؤلفاته الأدبية النقدية:

١ ـ العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي من أحفل كتب الأدب بالفوائد والفرائد مع الأشعار والأخبار، مما يدل على ما يتصف به مؤلفه من سعة الاطلاع، وقد يسوق بعد ما يورد من الشواهد؛ طرائف من الشعر أو القصص الحديثة.

٢ ـ مفتاح الثقافة أو النجم المضي في نقد عبقرية الشريف الرضي وهو مطبوع وهو كتاب عجيب في النقد الأدبي والمفاضلة بين المتنبي والشريف الرضي.

٣ ـ النقد العلمي الذوقي في الجواب عن أبيات شوقي: وهو جزء لطيف مخطوط يقع في ٣٢ صفحة ومطبوعاً في ٢٢ صفحة.

■ خامساً: ديوان شعر ابن عبيد الله:

ديوان حافل بأصناف وألوان القصائد وأرقها وأعذبها وأجزلها. وقد طبع في رمضان من سنة ١٣٧٨هـ، تحت نظر وتصحيح الشيخ حسنين مخلوف وبإشراف ابن الإمام السيد حسن بن عبد الرحمن السقاف كما توجد مجموعة أخرى مخطوطة من شعر الإمام ابن عبيد الله تقع في حوالي ٥٠٠ صفحة؛ وتمثل الجزء الثاني من هذا الديوان. وقال عنه الشيخ حسنين مخلوف: ديوان شعر وعلم وأدب وتاريخ وسير ودين وأخلاق.

■ سادساً: أعمال شعرية أخرى:

١ ـ **معارضة البردة**: طبعت بعدن سنة ١٣٦٧هـ.

٢ ـ **نسج البردة**: وهي قصيدة من ١٨٠ بيتاً على منوال بردة البوصيري وقد طبعت مؤخراً.

■ سابعاً: رسائل ورحلات:

١ ـ **الرحلة الدوعنية**: وهي عبارة عن رحلة منظومة.. وقد قام ابن عبيد الله بهذه الرحلة إلى مناطق دوعن سنة ١٣٦٠هـ.. وهي تعد من روائع أدب الرحلات.

٢ ـ النجم الدري في الرد على السيد سالم الجفري.

٣ ـ نسيم حاجر في تأكيد قولي عن المهاجر.

٤ ـ **السيف الحاد لقطع الإلحاد**: طبع بعدن في شعبان ١٣٦٩هـ في ١٣٨ صفحة. وهو رد على كتاب توحيد الأديان. وهو ملحق بهذا الكتاب.

٥ ـ رسائل أخرى ورد ذكرها في هذا الكتاب مثل:

مراسلاته مع الإمام يحيى والقادة الأتراك باليمن.

■ ثامناً: محاضراته وخطبه:

كان الإمام ابن عبيد الله السقاف خطيباً مصقعاً.. ومع ما ترى له من المؤلفات إلّا أنه كان في الخطابة أعظم منه في الكتابة؛ وقد جمعت بعض خطبه وطبع بعضها ومنها:

١ ـ محاضرة في تحقيق الفرق بين العامل بعلمه وغيره وما يتصل بذلك من حدّ الولاية وحكم الإلهام؛ طبعَهُ بمصر سنة ١٣٥٥هـ في ٣٢ صفحة بتقريظ العلامة أحمد المطاع الصنعاني.

٢ ـ **كلمة عن العدالة والمساواة**: ألقاها في درسه بسيئون في ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٧٢هـ.. بعد أن سئل عن حكم الإسلام في ذلك، وكانت على البديهة ارتجالاً بدون تحضير سابق!!

٣ ـ **كلمة حول «تحديد الملكية»**: وهي رد على مقال للشيخ محمد عرفة نشر بمجلة الأزهر.. وتاريخها ١٦ ربيع الثاني ١٣٧٢هـ.

مقدمة المصنِّف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نحمدك اللهم فاتح رتاج المعارف، ومانح نتاج العوارف، عائذين بك من الصوارف، متعرضين لنفحاتك الذوارف، ونصلي ونسلّم على نبيِّك خير من ركب الشوارف، وأفضل من انكشفت بهديه الفتن الجوارف؛ وعلى آله وصحبه الذين تفيأوا بظله الوارف، ما لحظت الطوارف، ووخدت الغوارف.

■ سبب التأليف:

أما بعد فهذا ما فتح الله به عند إقراء التجريد سنة ١٣٥٢هـ؛ وذلك أني أختص بالكلام في آخر كل مجلس لما يعنُّ لنا فيه من الإشكالات من الأحاديث بهيئة الإملاء؛ من غير تحفظ ولا احتياط؛ ولا هياط ولا مياط[(١)]، لهذا اجتمع به الغث والسمين؛ والرث والثمين؛ والجد والهزل؛ والوقش والجذل، وتلاقت الفنون، وانتشبت الغصون، ولم يحضرنا إذ ذاك شيء من المظان؛ سوى شرحه بهامش «نيل الأوطار» وهما لا يتسايران، فأرسلت الفكر ملء فروجه، وألقيت له العنان في هبوطه وعروجه، ولم أشعر وقد افتك عنِّي القيد، إلّا وقد استضرى عليَّ الصيد، وكان قد لُخِّصَ في أوراق متكاثرة؛ ومسودات متناثرة، وكنت أشرت بتبييضها على حالها؛ ثم أرحبت النظر في بعضها، فإذا الوهن دخون؛ وبالحفظ يخون، فلو بَقِيَتْ على ما هي عليه من العثار؛ لكانت من أسوأ الآثار، وليس الخطب فيها مثله في كتابنا العود الهندي؛ إذ أبقيناه على عرِّه؛ وطويناه على غرِّه،

(١) وهياط ومياط أي في ضجاج وشر وجلبة، وقيل: في هياط ومياط في دنو وتباعد.

لأنه أدب خالص، والعذر في ذلك موضح هنالك، بخلاف هذا؛ لتعلقه بالتحليل والتحريم، وكم في الجرأة عليه من تحذير في الكتاب الكريم؛ ودندنته حول الحديث.

■ الاحتياط في التحديث:

وقد أخرج مسلم عن أنس أنه قال: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثاً كثيراً أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من تعمد عليّ كذباً تبوأ مقعده من النار**». وأخرج الحاكم عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «**إياكم وكثرة الحديث عني، فمن قال عني فلا يقول إلّا حقاً**» وقال ﷺ: «**من قال عليَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار**». قال: هذا حديث على شرط مسلم؛ وفيه ألفاظ صعبة ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وذكر له شاهداً عن مسلم المدائني بل عدَّه بعضهم من المتواتر. ومن ثلاثيات البخاري عن مسلمة بن الأكوع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من يقل عليَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار**».

وأخرج الحاكم أيضاً أن عبد الله حدث يوماً عن رسول الله ﷺ فارتعد وارتعدت ثيابه ثم قال: أو نحو هذا. وأخرج عن عمرو بن ميمون قال: ما أخطائي عشية خمس إلّا أتيت فيها ابن مسعود فما سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ حتى إذا كانت ذات عشية قال: قال رسول الله ﷺ فنظرت إليه؛ فإذا هو محلول أزرار قميصه منتفخ أوداجه مغرورقة عيناه؛ ثم قال هكذا، أو فوق ذاك، أو قريب من ذا.

وأخرج عن سعد بن إبراهيم عن أبيه؛ أن عمر بن الخطاب قال لابن مسعود ولأبي الدرداء ولأبي ذر: ما هذا الحديث عن رسول الله ﷺ؛ وأحسبه حبسهم بالمدينة حتى أصيب؛ ووافقه الذهبي في جميع ذلك. وكان عمر وعثمان وعلي وعائشة كثيراً ما يُكَذِّبُون أبا هريرة؛ لانفراده بأحاديث لم يسمعها معه غيره؛ وكانت أشدهم إنكاراً عليه لتطاول الأيام بهما معاً؛ إذ لم تمت إلّا في سنة ثمان

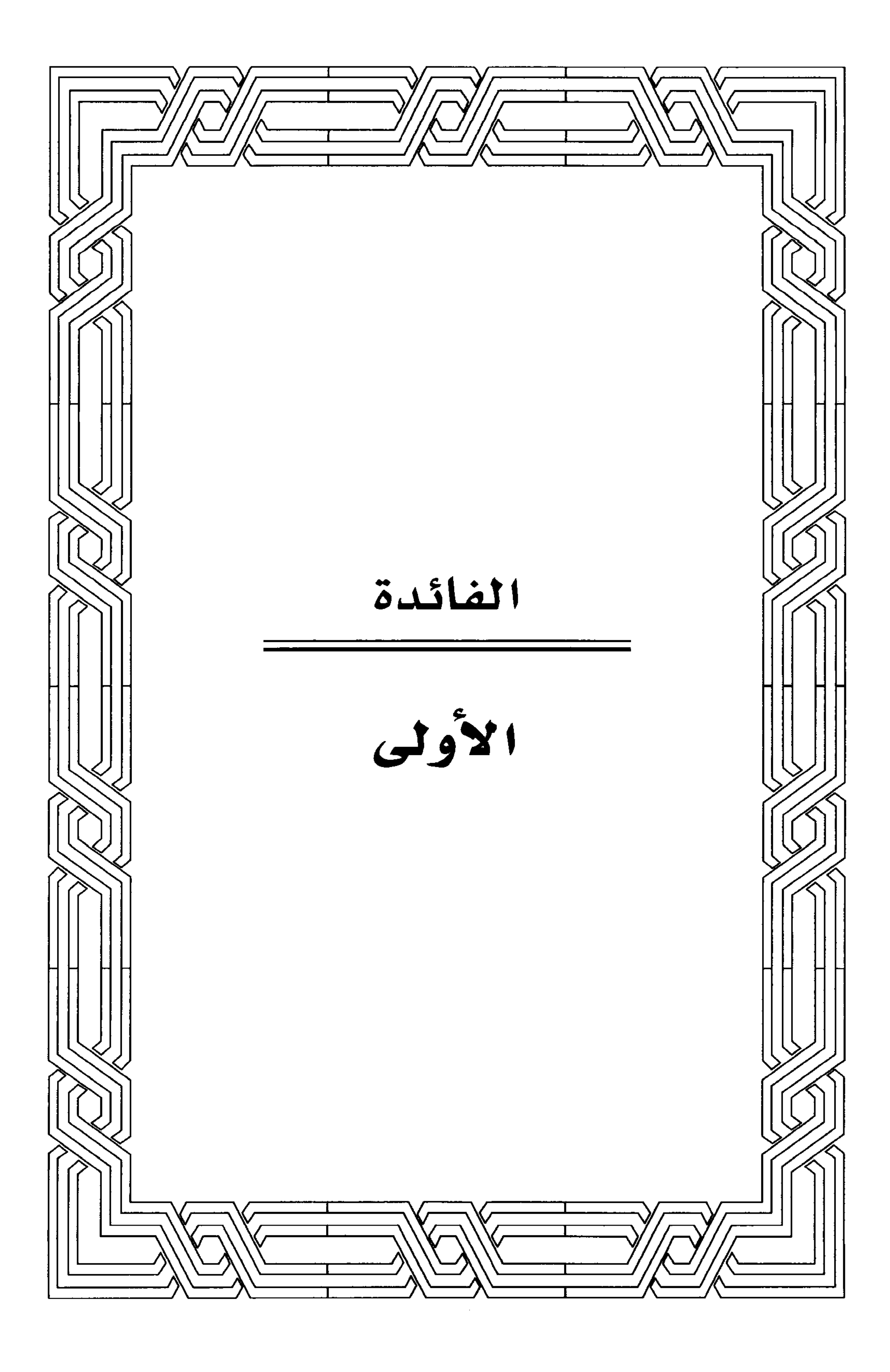
وخمسين؛ ومات هو بعدها بسنة، ولي في الموضوع رسالة سميتها: (سمط الدرر في الذب عن حديث خير البشر) فإن أنا لم أحتط للحديث اختلت، وانطبق عليَّ قولهم: رمتني بدائها وانسلت؛ عند هذا أشفقت من الجناية؛ واحتجت لاستئناف العناية، ولئن كانت الأيام بؤساً، ووجهها عبوساً، وجرحها لا يرقي بمساهرة العلوم ومساورة الفهوم، شققت قنيفها؛ وقهرت عنيفها؛ ورُضت جناحها؛ وقصَّرت طماحها؛ وذَلَّلْتُ خرانها، وعالجتها حتى ضربت جرانها؛ وبيَّضت نحواً من ثلثه خشية التلف، عازماً في طبعه على تجشم الكلف، غير طامع من بني وطني مساعد، إذ ليس فيهم إلّا من يفتُّ في الساعد، بينهم وبين النفع كما بين الجن والثوم، يفر أحدهم منه كما يفر التقي حيث يخشى أنه مأثوم.

■ رجاء الاستحسان:

ثم إن وقع لدى أهل الإنصاف بمنزلة الاستحسان، وشجعوا على إكماله ولو بالنقد والامتحان، فقد يسروا الطريق، وكان الأمل من مولانا قوياً في الإمهال والتوفيق، وإن بقي على تجهم الدهر الأقيس، فإن الفرار بقرابي يكون أكيس.

■ منهج التأليف:

وقد أسميته «بلال التغريد فيما استفدناه أيام التجريد» وعذري لعدم اطِّراد الفوائد على نسق يعرف مما يسبق، وعما يقع من التكرير، هو ما تقتضيه المناسبات من التقرير، ولإيثار الأحماض وتيسير الارتباط، وتنشيط الظائر، واستجلاب الخواطر؛ واستمالة القلوب؛ واستهواء النفوس؛ والاحتيال على مواقع الرغبات ومصائد الشهوات؛ مع ما سيأتي في الفائدة الثامنة تجاوزنا في الجمع بين الطيب والخبيث؛ وتسامحنا في القرن بين الأشعار والآيات والحديث، ونستغفر الله مما اقتضى الندم؛ أو زلت به القدم، أو أفضى بنا إلى ما لا نعني، أو جُمِعَ إلى ما لا يسمن ولا يغني؛ إنه الغفور الرحيم.



الفائدة

الأولى



الفائدة الأولى

ما بنا أن نتكلم على حديث النية لأنه البحر الذي لا يدرك عَبْره، وقد قيل إنه ثلث العلم، بل قيل نصفه، ولكنا نذكر ما فيه من اللطائف:

■ اللطيفة الأولى:

من لطف إشارات البخاري وبديع تلميحه؛ ذكره لهذا الحديث في أول صحيحه، وختمه إياه بحديث التسبيح، والحال أن كلاً منهما غريب. فلم يرو هذا عن النبي ﷺ إلّا عمر بن الخطاب؛ ولم يروه عنه سوى علقمة بن وقاص؛ ولم يروه عن علقمة سوى محمد بن إبراهيم؛ ولم يروه عن محمد إلّا يحيى بن سعيد الأنصاري؛ ومنه تواتر؛ فقد رواه عنه سبعمائة رجل فيما قيل، ولكن؛ قال الحافظ ابن حجر: جهدت نفسي فلم أقدر على بلوغ المائة؛ وقيل: رواه جماعة من الصحابة عن غير عمر؛ ورواه عن عمر خلق سوى علقمة، ولكن الأول هو الأثبت.

ولم يرو حديث التسبيح؛ إلّا محمد بن فضيل بن غزوان؛ عن عمارة بن القعقاع؛ عن أبي زرعة؛ عن أبي هريرة. قال الحافظ ابن حجر: قال الترمذي: هو حسن صحيح غريب، ووجه الغرابة فيه؛ ما ذكرته من تفرد محمد بن فضيل؛ وشيخه؛ وشيخ شيخه؛ وصاحبيه اهـ.

واللطيف في ذلك ما قاله بعض الشيوخ: إن غرض البخاري من البداءة والختم بالحديثين الغريبين؛ الإيهام إلى ما أخرجه مسلم وغيره؛ من قوله ﷺ:

«بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي» وكأنه أعجب بهذا الحديث ولم يتمكن من إدراجه في الصحيح، لعدم وقوعه له على شرطه؛ فاستغنى بهذا الإيماء الخفي إليه؛ وهو من الاستنباط الدقيق؛ والاستنتاج العميق؛ والمعاني التي لا تحتمل الفرك؛ لشبهها بأزهار الربيع. ولهذا الحديث معنيان: **أحدهما**: المتبادر؛ **والثاني**: إنَّ ظهور الدين بادياً كان بسرعة مدهشة غريبة؛ لم يعهد لها نظير في تاريخ انتشار الأديان، ولم يسبق لها مثيل في حوادث انقلابات الأكوان، ثم جنى عليه أبناؤه، وتلاعب به المتمسكون بأهدابه؛ واطَّرَحه المنسوبون إليه، وانتهكه حماته؛ وأضاعه رعاته، وخذله أنصاره؛ خذلة القائد للأعمى في أثناء الطريق المضلة، فجاء هذا الحديث؛ يَعِدُ بأنَّ له كرة أخرى إلى الظهور والانتشار؛ بطريقة غريبة؛ وسرعة عجيبة، وأقرب ما يكون لذلك؛ أن تعود به إحدى دوله إلى نور العدالة؛ وضوء الهداية، وثمرة الحكمة؛ وأثر الرحمة، وظِلِّ الإنصاف؛ وعنوان الألطاف، وأحرى بهذه الدولة إذن؛ أن يشتد بنيانها؛ ويقوى سلطانها؛ وتمتد أغصانها. وإلّا بأن تعتنقه أمة أجنبية كبيرة؛ ذات حول وطول، فتخدمه خدمةً باهرة، وتنصره نصرة ظاهرة[1].

والأدنى أن يعود به أفراد قليلون؛ إلى نصاعته البيضاء؛ وطهارته الحسنى، وطريقته المثلى، في مسايرته للطبيعة؛ وملاءمته للفطرة، ويصقلونه عما ألصقه به باعة الذمم، وبغاة الغوائل، وجهلاء النفوس؛ وعباد المصالح؛ وعشاق الرسوم، وطلاب نصر الله بمعاصيه؛ ويقصرونه عما زاد فيه المتنطعون والمتعمقون وما أشبه ذلك.

وإنه لجدير مع هذا أن يعود سيرته الأولى، وأن يظهر بمظهره الأجلى، فيدخل فيه الناس أفواجاً، ولا يجدون للنجاة من الإنكار غيره معراجاً؛ وقد يتأكد

---

(١) كأن الإمام يستقري المستقبل البعيد بهذه الأفكار رغم أنه يقول هذا الكلام سنة ١٣٥٢هـ مما يدل على بعد نظره ودقة تحليله وعمق استنباطه..

جميع ذلك بقوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين بأمر الله لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة**» وقوله تعالى غير مرة: ﴿. . . لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ. . .﴾[١] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٢]. وبلغنا عن بعض الأجانب أنه يقول المستقبل للإسلام.

وما ذكرناه من تعليق الأمل على اعتناق الأمم له؛ لا يخالف ما لعلنا نذكره في غير هذا الموضع؛ من عداوة بعض الأشراف للحق؛ وأنَّ عداوتهم له سنّة مُتَّبعة؛ وعادَّة مُطَّرِدَة، إذ لا مانع من انخراق العادة؛ زيادة في الإغراب، ولأنَّ ذلك لا يكون إلّا في النفعيين من الأفراد، وفي أدوار الاستبداد، ولا سيما مع امتلاء النفوس بالأحقاد، والاستنكاف عن أقوال المعاصرين من أهل الرشاد، فأما إذا تنهنهت[٣] الأحقاد؛ واجتمعت الآراء للفحص عن طريق السلام؛ والعدل التام؛ والخير العام؛ واستفرغت الجهود في البحث عن السلامة من الأخطار المحدقة؛ والأهوال المتدفقة؛ والحصول على السعادة المنشودة، والوصول إلى الغايات المقصودة، فأجدر بهم مع النظر بعيون المعدلة؛ أن لا يجدوا خلاصاً إلّا في التزامه؛ والنزول على لطائف أحكامه.

أما ما ورد من قوله ﷺ: «**ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل**» فإما يكون نظير ما سلف من قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فيسلك به فجَّها؛ وإما أن يكون المعنى: سرّ الإسلام؛ وذلك مشاهد محسوس؛ إذ قد اعترف أراكين العلم في الغرب؛ بأن حضارتهم لم تكن إلّا من ولائد الإسلام وبنيَّاته، دخل عليهم بِسَوْقِ الطبيعة؛ كما يدخل ضياء الشمس حيثما كان ظلام الليل؛ فتقمصوا ما شاؤوا من بدائع صوره؛ لكن بدون أرواح؛ وأحرى بتلك الصور أن تطلب متمماتها؛ فيتخذوه إماماً ويلتزموا به تماماً.

---

(١) سورة التوبة الآية: ٣٣.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٣) تنهنهت: أي كفَّت وامتنعت. .

وبعد فقد اختلف العلماء في الظهور الذي وعد به الدين الإسلامي على الأديان كلها، فقيل: إنما يكون آخر الزمان؛ وقيل: إنه قد وقع؛ فقد ظهر برسول الله ﷺ؛ على مكة وخيبر والبحرين واليمن وأكثر ديار العرب؛ وصارت الحبشة دار إسلام بإيمان النجاشي؛ وظهر في أيام أبي بكر؛ على بصرى ودمشق وبعض ديار فارس، وعم في أيام الفاروق جميع الإقليم المصري وأكثر الديار الفارسية، وزاد في أيام عثمان؛ حتى انتهى إلى الأندلس والقيروان غرباً؛ والصين شرقاً؛ وغلب في أيام آل عثمان على كثير من القارة الأوروبية، وإنه لمن الظهور ولكن ليس بكلِّه.

والذي عندي في ظهور الإسلام أنه حاصل من حين بلغت حجته وسبقت نعمته، قال جل شأنه في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(١)؛ وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٢)؛ وقال في سورة يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٣) وقال في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٤).

وقد أسكت هذا التحدّي الشقائق؛ وأخرس كل ناطق، وعرك آذان الجاحدين؛ وأذلَّ نواصي الملحدين؛ وأرغم معاطس المعتدين، ولم يأت أحد في المعارضة بشيء يذكر، وإلّا لرجَ الجبال رجة، وملأ الآفاق ضجة، إلى ما لا يُحصى من الآيات الصادحة؛ والبراهين الراجحة، فظهور الدين الإسلامي بآياته

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) سورة هود، الآية: ١٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

الباهرة وأعلامه القاهرة، وحججه الملجمة ودلائله المفحمة، وآياته القرآنية الناطقة وشواهده الكونية الصادقة؛ وهذا والله منتهى الظهور بحقه؛ وغاية الانتصار بصدقة؛ ودولة الاستعلاء بملء معانيها.

ثم إن سبقني إلى هذا المعنى أحد؛ فإنه كما يشهد الله من باب التوارد؛ ووضع الحافر على الحافر، وإن كنت السابق إليه؛ فما هي إلّا من جلائل المنن وكبريات النعم، ويقع في نفسي أن لا بدَّ من وجوده في عشرات الكتب؛ لوضوح مناره وشموخ علم ناره؛ ومع أنه معنى ظاهر شريف لا مقطوع ولا محدود؛ ومورد منهل الشرائع لا يجزر؛ بل هو على الدوام ممدود، فأنَّى يتركه مراجيح التحقيق والتقرير لهذا العبد العاجز الحقير، وعلى كلا الحالتين فما هو إلّا ببركة المشايخ؛ أثر عناية؛ فللّه الحمد على هذه الهداية، ومما يشهد قوله تعالى في الصافات: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[1] إذ لم يكن ......[2] استنال ولا لإبراهيم استعلاء بالقوة ولكن بالحجة والمعجزة؛ فهرب عنهم ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[3] ومثله قوله جل ذكره في سورة المؤمنين: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[4].

وكم من نبيٍّ لم ينصر في الدنيا بالقهر والغلبة، ولا يأتي يوم القيامة كما في حديث الإسراء؛ إلّا ومعه اثنان؛ أو واحد؛ أو لا أحد، فتعيَّن أن يكون أكبر المراد النصر بالحُجَّة، وإن لم تكن هي كل النصر؛ فهي أفضل مظاهره، وغيرها من الغلبة الواقعة لبعضهم ضميمة إليها؛ كما أنَّ النصر يوم يقوم الأشهاد؛ هو شهادة الملائكة كما قالوا لهم بالتبليغ؛ وعلى الكافرين بالتكذيب، فكان مؤيداً لما ذهبت إليه، ثم رأيت ابن القيم يقول في ص ٦٢ جزء (١) أول طبعة من

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٩٨.

(٢) كلمة غير واضحة بالمخطوطة..

(٣) سورة الصافات، الآية: ٩٩.

(٤) سورة غافر، الآية: ٥١.

«مفتاح دار السعادة» أنه سبحانه سمى الحُجَّة العلمية سلطاناً، قال ابن عباس: كُلُّ سلطان في القرآن فهو الحُجَّة كقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢) وقوله جل ذكره: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾(٣) وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤) إلّا موضعاً واحداً اختلف فيه؛ وهو قوله جلَّ ذكره: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾(٥) فقيل: المراد به المعذرة والملك؛ وقيل: هو على بابه؛ والمراد انقطاع الحُجَّة وبطلان الحيلة؛ وما جعل الله الحجة سلطاناً إلّا لأنَّ صاحبها وظهوره أعظم من سلطان السيِّد، وأبلغ في انقياد القلوب؛ وهي التي تذل المخالفين؛ وترغمهم؛ وإن أظهروا العناد والمكابرة؛ فقلوبهم خاضعة ذليلة مقهورة تحت سلطانها وبرهانها، وما لم يكن لسلطان الجاه علم يتوكأ عليه هو؛ فإنما هو كتسلط السباع والوحوش، فالحجة تنصر نفسها على الباطل؛ وتقهره شاء أم أبى. اهـ. بمعناه وأكثر لفظه.

وفيه أكبر تأكيد لما استوجهته؛ من ظهور الإسلام بحجته التي لا تغالب، وبرهانه الذي لا يقاوم، فبذلك وما سواه ضميمه إليه؛ استولى على الأمد وأباد غفراء الباطل؛ ولم ينثن له عنان؛ ولم يشق له غبار، فلا يشوش عليه استيلاء الأجانب على كثير من بلاده؛ مع نصوع حُجَّته، على أنَّ تألّب الأعداء لمحوه؛

(١) سورة يونس، الآية: ٦٨.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥٦.

(٣) سورة النجم، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٥) سورة الحاقة، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

وهو مع خذلان قومه؛ يتلألأ نوراً. ومع توافر الدواعي لكتمه؛ واستغراق شعبه في نومه، يزداد ظهوراً؛ ليؤكد المعنى في وضوحه، وإشراق بُوحه، إذ اللسان الناطق؛ والدليل الصادق؛ هو الذي يرادي الرجال، ويزلزل الجبال، وتدبروا بعناية ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ. . .﴾ الآية.

ومنه ولله الحمد أنني وقفت نفسي لجهاد الدجالين؛ ومحاربة قضاة السوء المسلَّطين؛ وما عندي إلّا قوة الحق ونصوص العلم، وقد تألَّبُوا ضدِّي؛ كما يعلم الخاص والعام، وانضمَّ إليهم السلاطين والوجهاء والأعيان؛ وأهل العلم الأجوف والولاية الزائفة، واستمالوا سائر الطبقات؛ وكتبوا المحاضر عليّ؛ وسيَّروها إلى دار الاعتماد بعدن؛ وإلى غيرها. وقصدوني بكل أذى؛ فصبرت لهم نفسي؛ إذ الأجر والفخر لا تنال إلّا كذا، ولم أزل أثقف العِوَجْ؛ وأكشف الرهج[1] وأقارع بالحُجَجْ، وحيداً فريداً؛ وما زَلَّ لي نعل، ولا خوى نجم؛ ولا جفَّ ريق؛ ولا استبهم طريق، ولم تأخذني وحشة من عدم المعين، ولا دهشة من كثرة المتألبين، وأنا أتحداهم بالمناظرة والمباهلة في كل حين، وأسأل الله أن يعزم لي بالثبات حتى يأتيني اليقين، وهل نصرٌ أكبر من هذا؛ يخرق العوائد ويجمع الفوائد، ويعطي الولد نموذجاً من الشَّبَه بالوالد. وإلى هذا اليوم؛ لا أُقَصِّر في كل محفل عن تحدِّي القوم؛ كما تشهد الآثار، وتتواتر الأخبار، وتنطق الكتب والخُطَبْ والأشعار:

وغايَتُهُمْ أنْ يَكْذِبُوا أوْ مَتَى افْتَرَوْا ... أقولُ تعالوا قابلوني فيهربُوا

يعيبونني غَيْباً وفي كلِّ مشهدٍ ... أقومُ ولا أنسى التحدِّي وأخْطُبُ

ومن يَكُ في شَكٍّ فَهَا أنَا ذَا وما ... أخافُ ولي مِنْ نَاصِعَ الحقِّ مَرْكَبُ

---

(١) الرهج: الغبار أو السحاب الرقيق كأنه غبار. .

■ اللطيفة الثانية:

كثير ممن يخادعون أنفسهم؛ بل يخادعون مولاهم إذا اعتزموا الأمر ذا الوجوه؛ لغرض من الأغراض؛ قالوا: نوينا به كذا وكذا، يقولون بألسنتهم غير ما انبعثت جوارحهم من أجله بعقد قلوبهم، وهذا جهل بطبيعة القلب وحاكميته. فالقلب حاكم لا محكوم عليه، والنية قهرية، وإنما سبيل من أراد إصلاحها عرض الفضائل على نفسه، حتى تميل إلى الأعمال بحكم الترغيب والتشويق، فبذلك يكون اقتناص النيَّات، إذ لا قوادم ولا خوافي للتوفيق سوى صدق التوجه وقوة الإرادة، وأما القول باللسان مع إعراض الجنان وفي يده القوة والسلطان فمما لا قيمة له. وقد رأيت ما يشبه هذا من قديم في سياق للغزالي لا أذكر موضعه الآن: ولولا الجزم بأنَّ النيَّة عمل؛ وإن كان لا يقتنص إلّا بعرض مشروعية العبادة على النفس؛ لامتنع التكليف بها؛ إذ لا يكون إلّا بعمل، ومن ثم قال المحقق التفتازاني؛ ووضحه السيوطي: لا تكليف بالإيمان؛ لأنه من الكيفيات النفسية لا من الأفعال الاختيارية، وإنما التكليف واقع بأسبابه.

وهي مسألة من الغرابة بمكان، وتتعلق بها إشكالات وممارات؛ منها أن بعضهم يقول بحرمة النظر في أصول الدين، ويظهر من سياق الجلال المحلي اطِّراد الخلاف حتى في معرفته تعالى، ويلزم القائل بها أمر شنيع، وهو أنه لا تكليف بالإيمان، ولكن الأحرى بالاعتماد ما قاله المحقق التفتازاني[1] بأن النظر لمعرفته تعالى واجب إجماعاً، وهو ما تظاهرت به آيات الذكر الحكيم؛ ولتُكْشَفْ المسألة مع ما يتعلق بها من كتب أصول الدين كآخر جمع الجوامع وشرحه وحواشيه.

وقد قال ابن القيم: لم يزد النبي ﷺ عند قيامه إلى الصلاة على التكبير؛ فما تلفَّظ بالنية ولا قال: أُصَلِّي لله صلاة كذا مستقبل القبلة أربع ركعات إماماً؛

---

(١) الإمام سعد الدين التفتازاني (٧٢٢ ـ ٧٩٢هـ) عالم وفقيه وأصولي ونحوي؛ فاق أقرانه وانتهت إليه رئاسة العلم بالمشرق؛ وتوفي بسمرقند. .

ولا قال: أداء؛ ولا قضاء؛ ولا فرض الوقت؛ فهذه بدع؛ لم ينقل عنه أحد قط بإسناد صحيح؛ ولا ضعيف؛ لفظةً واحدةً منها، بل ولا عن أحدٍ من أصحابه؛ ولا استحسنه أحد من التابعين؛ ولا الأئمة الأربعة، وإنما غرَّ بعض المتأخرين قول الشافعي في الصلاة: إنها ليست كالصيام؛ ولا يدخل فيها أحد إلّا بذكر، فَظُنَّ الذكر؛ تلفظ المُصَلِّي بالنيَّة. وإنما أراد تكبيرة الإحرام ليس إلا. وكيف يستحِبُّ أمراً لم يفعله النبيُّ ﷺ؛ ولا أحدٌ من خلفائه وأصحابه؛ فإن أوجَدَنَا منهم حرفاً في ذلك؛ قبلناه بالتسليم. اهـ ملخصاً.

وفي بهجة العامري[١] حسبما في ذِكري؛ ما يقرب منه؛ في استنكار ما يتشدد الفقهاء فيه من مسائل النيَّة؛ ولزوم استحضارها؛ وتَحَتُّم مقارنة ذلك الاستحضار؛ بما فيه من الكلفة؛ من أول التكبير إلى خاتمته، وتأكُّد التلفظ بجميع ذلك، وفي الحفظ عن كشف النقاب للونائي[٢]؛ استحباب ذكر يوم الصلاة؛ غير أنِّي لست على يقين من ذلك، إذ عهدي بقراءة الكتاب على والدي رضوان الله عليه؛ وأنا في الحادية عشرة من عمري، غير أن ذلك ليس ببعيد من أخذهم بالشدَّة في الموضوع.

وقد تعرض ابن حجر الهيتمي[٣] في شرحه للمقدمة الحضرمية لطلب الندب، فقال: ويُسَنُّ ذكر الاستقبال؛ لا اليوم والوقت؛ إذ لا يَجِبَان اتفاقاً، اهـ. فَذِكْرُهُ الاتِّفاق على انتفاء الوجوب؛ قد يفهم منه اختلاف في شأن الندب، ولقد جزم الونائي بندب تثليث اللفظ بالنيَّة في الطهارة؛ كالذكر والدعاء والتسمية؛ ولم

(١) بهجة المحافل وبغية الأماثل للإمام يحيى بن أبي بكر العامري دار المنهاج صفحة ٥٤٣.

(٢) هو العلامة علي بن عبد البر الحسني الشافعي؛ الشهير بالونائي؛ ولد سنة ١١٧٠هـ كان فقيهاً صوفياً محدثاً؛ توفي بالمدينة سنة ١٢١١هـ من تصانيفه (دليل السالك إلى مالك الممالك)؛ و(كشف النقاب شرح منهج الطلاب)..

(٣) هو الإمام شهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي المصري الشافعي كان إماماً في الفقه وبرع في علوم كثيرة جاور بمكة من سنة ٩٤٠هـ إلى أن توفي بها سنة ٩٧٤هـ له عدة مؤلفات أشهرها (تحفة المحتاج)..

يذكر خلافاً؛ ومثله في فتاوى الرملي؛ وذكره العلامة ابن قاسم في حواشي المحلِّي، وفي ذلك من العَنَتْ الخارج عن تيسير الشريعة ما لا يخفى.

وما أحسن ما في الحلبي على شرح المنهج؛ من اعتماد عدم ندب التثليث فيه؛ والله أعلم. غير أني رأيت بعد ما سبق؛ من تحدِّي العلامة ابن القيم؛ ما يصلح أن يكون ردّاً عليه؛ وهو ما أخرجه البخاري عن عمر؛ قال: سمعت النبي ﷺ بوادي العقيق يقول: **«أتاني الليلة آتٍ من ربِّي فقال: صَلِّ في هذا الوادي المبارك؛ وقل عمرة في حجة»**[1] فإنَّ حمل القول على الحقيقة؛ صريحٌ في التلفظ بالنية، ومن ص ٢٢٣ ج٢ من «الرياض النضرة» للمحب الطبري[2] عن جابر في حديثه الطويل؛ في صفة حجة النبي ﷺ قال لعلي: **«ماذا قُلْتَ حِينَ فَرَضْتَ الحجَّ؟»** قال: قلت اللهم أُهِلُّ بما أهلَّ به رسول الله ﷺ. أخرجاه الشيخان وبهذا انتهى كلام الطبري.

■ اللطيفة الثالثة:

ذكر بعضهم أن هذا الحديث وارد على سبب، فقد أخرج الطبراني في الكبير عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها أمُّ قيس؛ فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر؛ فهاجر، فكنا نُسَمِّيه مهاجر أمّ قيس.

وفيه إشكال لأنَّ أبا طلحة صنع مثل ذلك؛ ولم يكن ملوماً؛ فقد أخرج ابن عبد البر في الاستيعاب أن أبا طلحة الأنصاري خطب أمَّ سليم مشركاً؛ فلما علم أنه لا سبيل إليها إلّا بالإسلام؛ أسلم وتزوجها وحسن إسلامه، وهكذا روى

---

(١) صحيح البخاري كتاب الحج..

(٢) محب الدين الطبري هو أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري، أبو العباس، ولد سنة ٦١٥هـ وتوفي سنة ٦٩٤هـ. وهو حافظ فقيه من فقهاء الشافعية، ولد وتوفي بمكة، وكان شيخ الحرم في عهده. من أشهر كتبه (الرياض النضرة في مناقب العشرة). وكتابه الآخر (ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى). ولم يكن من المشتهرين بالتفسير والتصنيف..

النسائي من حديث أنس ﷺ قال: تزوج أبو طلحة أمَّ سليم؛ فكان صداق ما بينهما الإسلام؛ وبوَّبَ عليه التزوج بالإسلام؛ فَلِمَ اندفع عنه العَتَبْ؛ وكان مهاجر أمَّ قيس منبوذاً مذموماً؛ مع تقارب الشبه في الصنيع؟

وأجيب من وجوه؛ **أحدها**: أنه ليس في الحديث أنه أسلم ليتزوجها، وإنما رغب في الإسلام بعد امتناعها منه؛ فجعلت صداقها إسلامه شكراً له على ما فعل وزهداً في المال، ولم تجعل صداقها ذلك إلّا لنيّتها مواساته من حيث لا يشعر الناس، كذا قيل؛ وهو باطل لمخالفته صريح ما سبق؛ وإنه لخروج عن الظاهر ومكابرة في المحسوس؛ ولا يقوله إلّا من يحاول مصادرة العقول من المتزمتين .

ثانيها: أنه لا يصح ما ذكروا عن أبي طلحة وإن كان صحيح الإسناد؛ لأنه معلل بأن المعروف أنه لم يكن نزل حينئذٍ تحريمُ المسلمات على الكفار، وإنما نزل تحريم ذلك بين الفتح والحديبية؛ وقد جاء في بعض طرقه؛ أنَّ أمَّ سليم قالت: أنت كافر وأنا مسلمة؛ ولا يحل لي أن أتزوجك. أقول: وهذا أيضاً غير صحيح! لأن هذه الزيادة لم ترد في سائر طرق الحديث، وَهَبْ أنها صحَّت؛ فقد ذكروا أنَّ أمَّ سليم تنزَّهَتْ عنه لكمالها؛ وأرادت بعدم الحل عدم اللياقة؛ وكثيراً ما تتنزَّه العرب عن القبائح من قبل التحليل والتحريم، ألا ترى إلى ما صنعته أمُّ حبيبة، فقد طوت فراش رسول الله ﷺ؛ وأكرمته أن يجلس عليه أبوها؛ لما قدم المدينة كافراً قبيل الفتح، فلا بدع أن تحمي نفسها أمُّ سليم عن افتراش أبي طلحة لها؛ وهو كافر، وقد رغب كفار قريش بأنفسهم يوم بدر عن منازلة الأنصار، وطلبوا أكفاءهم من بني عَمِّهم؛ فلا غَرْوَ أن ترغب بنفسها أم سليم عمَّن لا يكافئها بالإسلام. فإن قُبِلَ تأويل هذه الزيادة بهذا؛ وإلّا حكمنا عليها بالسقوط؛ لشذوذها بمخالفة الصحيح الوارد من غير طريق؛ وحكم المرجوح الاطِّراح إذا لم يمكن الجمع.

وثالث الأجوبة: وهو الصواب إن شاء الله؛ وإن لم أر من ذكره؛ أنَّ مهاجرَ أمّ قيس؛ حصل منه التقصير في الإسلام؛ ولم تتحقق توبته؛ فاستحقَّ العتاب؛

على أن التوبة لا يقطع معها بارتفاع أثر الذنب، وإنما هو مظنون فقط؛ كما صرح به ابن المقري وغيره، بخلاف الإسلام؛ فإنَّ تكفيره لما سلف قطعي؛ كما نصَّ عليه في الروض أيضاً وشرحه، وهو مفاد حديث «**الإسلام يَجِبُّ ما قبله**».

فإن قيل: قد جاء في صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص «**أنَّ الإسلام يَجِبُّ ما قبله؛ والهجرة تَجِبُّ ما قبلها؛ والحج ما قبله**» وهو ظاهر في التسوية بين الهجرة والإسلام، والجواب عن ذلك من وجوه: أدناه أن هجرة صاحب أمَّ قيس لم تكن صادقة بخلاف إسلام أبي طلحة؛ والثاني وهو الذي نتوكأ عليه في سياقنا؛ أنه حصل تسوية الهجرة بكل من الحج والإسلام، والمقرر عند أكثر العلماء أن الحج لا يكفر الكبائر ولا التبعات حملاً لكل مطلق في التكفير على القيد المذكور في الصحيح إذا اجتنبت الكبائر كما سيأتي تحقيقه في الفائدة العشرين.

ولا نزاع في أنَّ الإسلام يكفِّرها فكان الأقرب استواء الهجرة والحج بجامع أنهما من أفضل الأعمال. فإن قلت كيف لا يكفِّر الحج الكبائر وفي الصحيح «**من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**» قال الحافظ: وظاهره غفران الكبائر والتبعات؛ وهو من أقوى الشواهد لحديث العباس بن مرداس المصرح بذلك. انتهى. وقد ذكر مثله النووي وغيره.

ولكنا نقول في الجواب: إن النووي والحافظ؛ قد صرحا في غير موضع من شرحهما على الصحيحين؛ بحمل المطلق على ذلك القيد السابق؛ فتعيَّن المصير إليه، وجاء في مبحث الكلام على صوم يوم عرفة من تحفة ابن حجر: أنَّ المُكَفَّر الصغائر، فإن لم تكن له صغائر رفعت درجته؛ أو وُقِيَ اقترافها أو استكثارها. وقول مجليّ[١]: إنَّ تخصيص الصغائر تحكُّمْ مردود؛ وإنْ سبقه إلى نحو ذلك؛ ابن المنذر؛ بأنه إجماع أهل السنة، وكذلك يقال فيما ورد في الحج

---

(١) الإمام القاضي أبو محمد عبد الله ابن القاضي الإمام محمد بن عبد الله بن مجلي بن حسين الرملي المصري الشافعي توفي سنة ٦١٣هـ..

وغيره؛ لتصريح الأحاديث في كثير من الأعمال المُكَفِّرة؛ بأنه يشترط في تكفيرها اجتناب الكبائر، وحديث تكفير الحج للتبعات ضعيف عند الحافظ؛ بل أشار بعضهم إلى شدّة ضعفه. هذا آخر كلام ابن حجر؛ وقد اعتمده في أكثر كتبه؛ وتبع فيه إمام الحرمين؛ إلّا أنني رأيته يقول في الحج ص ٩٩ ج٢ من فتاويه: الحج المبرور يُكَفِّر ما عدا تبعات الآدميين (انتهى). غير أن الحج المبرور لا يكون إلّا توبةً صادقةً؛ فيندفع التنافي.

أما الرملي[١] فقد حكى في نهايته[٢]؛ كلام إمام الحرمين[٣]؛ وكلام مجلِّي في ردِّه؛ وسكت على ذلك؛ وفهم القليوبي[٤]؛ كما نقله عنه الكردي[٥]؛ أنه مائل إلى كلام مجلي، وفصَّل الكردي بين ما ينص الحديث على تكفيره للكبائر من الأعمال؛ وبين ما يطلق أو يشترط اجتنابها. وأكثر ما يوجد بسط المسألة في صوم يوم عرفة؛ من الكتب الفقهية. وفي مبحث الكفَّارة من التحفة[٦] قولان: **أحدهما** أنها تمحو الذنب؛ **والثاني** تخفِّفه. ثم قال: وعلى الأول؛ فالمحو هو حقُّ الله من حيث هو حقُّه، وأما بالنظر لنحو الفسق بموجبها؛ فلا بدَّ فيه من التوبة نظير نحو

---

(١) محمد بن أحمد بن حمزة، شمس الدين بن شهاب الدين الرملي، (ت ١٠٠٤هـ)، فقيه مصر ومفتيها، لقب بالشافعي الصغير، له عدة مصنفات، طبع منها نهاية المحتاج شرح المنهاج، وغاية البيان شرح زبد بن رسلان، وغيرها..

(٢) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج..

(٣) إمام الحرمين هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني ولد سنة ٤١٩هـ ولد بجوين وجاور بمكة أربع سنين ثم ذهب إلى المدينة فأفتى ودرس بها ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير المدرسة النظامية له مصنفات كثيرة منها نهاية المطلب في دراية المذهب والبرهان وتوفي سنة ٤٧٨هـ..

(٤) هو شهاب الدين أحمد بن أحمد القليوبي الشافعي لازم الشهاب الرملي ثلاث سنين وله حاشية على شرح الجلال توفي سنة ١٠٦٩هـ..

(٥) محمد بن سليمان الكردي ولد بدمشق سنة ١١٢٧هـ ونشأ بالمدينة المنورة وكان مفتي الشافعية بها له عدة مؤلفات وتوفي سنة ١١٩٤هـ..

(٦) تحفة المحتاج لابن حجر الهيتمي..

الحد. انتهى؛ وفي ترجمة ابن عبد السلام من طبقات ابن السبكي؛ عنه: أنَّ القطع بالسرقة يكفِّر ما يتعلق بربع دينار فقط، ولا يكفر الزائد اهـ.

وفي باب الشهادات من التحفة[1]: وليس استيفاء نحو القَوْد مزيلاً للمعصية؛ بل لا بدَّ معه من التوبة؛ وبه صرح البيهقي، وحمل الأحاديث في أن الحدود كفارة على ما إذا تاب. وجرى المصنِّف؛ يعني النووي؛ على خلافه، والذي يتجه الجمع بحمل إطلاق السقوط على حق الآدمي؛ وعدمه على حقِّ الله تعالى، فإذا قِيدَ منه ولم يتب؛ عوقب على عدم التوبة. (انتهى).

وكتب عليه العلامة ابن القاسم[2] ما يأتي؛ وهو في فتح الباري قبيل باب: من الدين الفرار من الفتن؛ في الكلام على قوله ﷺ: «**ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفَّارة**» ما نصه: ويستفاد من الحديث أن إقامة الحد كفارة للذنب؛ ولو لم يتب المحدود؛ وقيل: لا بُدَّ من التوبة، وبذلك جزم بعض التابعين؛ وهو قول للمعتزلة؛ ووافقهم ابن حزم؛ ومن المفسرين البغوي وطائفة يسيرة. (انتهى). وعلى الأوَّل؛ فلعلَّ ذلك في حكم الآخرة دون الدنيا حتى يحتاج في قبول شهادته إلى التوبة، كما فيمن حج مثلاً؛ لا تقبل شهادته وإن كُفِّرَتْ ذنوبه بالحج؛ إلّا بالتوبة؛ وبهذا انتهى ما كتبه العلامة ابن القاسم؛ وهو ممن يذهب إلى تكفير الحج للكبائر وفاقاً لما مال إليه الرملي من كلام مجلِّي.

وأخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي «**أيّما عبد أصاب شيئاً مما نهى الله عنه ثم أقيم عليه حدُّه كَفَّرَ عنه ذلك الذنب**» قال المناوي[3]: قال ابن العربي: هذا في حقِّ الله، أما في حقِّ الآدمي فلا يدخل تحت المغفرة؛ فلو زنى بامرأة

---

(١) تحفة المحتاج بشرح المنهاج..

(٢) أحمد بن قاسم الصباغ، شهاب الدين العبادي، فقيه شافعي له عدة مصنفات معتمدة عند المتأخرين..

(٣) هو زين الدين عبد الرؤوف محمد الحدادي ثم المناوي القاهري الشافعي عالم فاضل ولد سنة ٩٥٢هـ أشهر كتبه شرحه على الجامع الصغير توفي سنة ١٠٣١هـ..

فأقيم عليه الحد كفَّر عنه، ولكن حق زوجها وأهلها باق فيما هتك من حرمتهم وجرَّ من العار إليهم، وكذا القاتل إذا اقتص منه فهو كفارة للقتل في حقِّ الله وحقِّ الولي، لا المقتول؛ فله مطالبة في الآخرة اهـ.

ويتحصل من هذا جواب أشفى للغليل من سوابقه، وهو أن الإسلام يَجِبُّ ما قبله ظاهراً وباطناً دنيا وأخرى، شهادة قول المقداد للنبي ﷺ: أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يديَّ بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة؛ فقال: أسلمت لله؛ أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: «**لا تقتله**»، قال: فقلت يا رسول الله قد قطع يدي؛ ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله؟ قال رسول الله ﷺ: «**لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال**» وغيره من الأحاديث التي لا تحصى كثرة؛ ثم إنهم على اختلافهم في الحجِّ والهجرة والحدود والكفارات؛ هل تمحو الكبائر أو تخفف الإثم؟ لمتفقون على أنَّ ذلك بالنسبة لما عند الله في الدار الآخرة، وأما في الدنيا فلا.

ومن هذه الحيثيات؛ اندفع العار عن أبي طلحة؛ ولصق بمهاجر أمِّ قيس.

وللمسألة نظائر منها: تارك الصلاة كسلاً يجوز قتله قبل الاستتابة؛ بخلاف تاركها جحوداً؛ للاتفاق على إحباط الأعمال بالردَّة بخلاف الفسق. ومنها ما يفعله أهل التسليك من المشايخ بمريديهم من الامتحان؛ كي يروضوا جماحهم؛ ويذللوا نفوسهم، فإنه لا يمكن أن يُجْعَلَ صنيعهم ذلك مخالفاً لسيرة رسول الله ﷺ؛ من تألُّفِهِ لضعفاء القلوب؛ وملاينته لصغار النيَّات في الإسلام؛ وترغيبهم بالإكثار من العطاء؛ لأن هؤلاء لو انحرفوا عن الإسلام؛ لسقطوا في الشقاء الأبدي؛ والهلاك الدائم؛ بخلاف أولئك، فغاية ما في الأمر أن لا يبلغوا مدى الكمال إذا لم يصبروا على الامتحان، وما في ذلك كبير خطر. وقد يستأنس لفعلهم بما كان من الخضر مع موسى عليه السلام، فهو لونٌ غير لون هديه ﷺ؛ المشار إليه في قول البوصيري:

لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعْيَى العقولُ بِهِ   حِرْصاً عَلينَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَم نَهِمِ

وقد بلغنا أن سيدنا علي بن عبد الله السقاف[١]؛ عزم إلى سورت من أرض الهند؛ للأخذ عن السيد علي بن عبد الله العيدروس؛ فابتلاه يوم وصوله بإراقة ماء الغُسَالة عليه[٢]، ثم لما صبر على الامتحان؛ جعله موضع اعتنائه؛ ومرمى نظره؛ وفضَّله على سائر تلاميذه. وما في شيء من ذلك خروج على السنة، ولا مغايرة للاتباع؛ وهذا مَا ظَهَرَ لي من الجواب؛ والفرق ما بين أبي طلحة ومهاجر أم قيس، والله أعلم.

■ اللطيفة الرابعة:

نقل الكردي عن «الأشباه والنظائر» للسيوطي؛ أنَّ العبادات في التعرض للفرضية على أربعة أقسام: ما يشترط فيه بلا خوف؛ وهو الكفَّارات، وما لا يشترط بلا خوف؛ وهو الحج والعمرة، وما يشترط فيه على الأصح؛ وهو الغسل والصلاة؛ والزكاة بلفظ الصدقة، وما لا يشترط فيه على الأصح؛ وهو الوضوء والصوم والزكاة بلفظها والخطبة اهـ. وأقول: قال في باب الكفارة من المنهاج: يشترط نيَّتها، قال ابن حجر: وأفاد قوله نيّتها أنه لا يجب التعرض للفرضية لأنها لا تكون إلّا فرضاً اهـ. ومنه يعلم ضعف ما نقله الكردي. وصرحوا في المختصرات بأنها لا تجب للخطبة نيَّة أصلاً فضلاً عن التعرض للفرضية، وثم مناقشات أخرى فيما نقله الكردي لا يتسع لها المجال.

ثم الأعمال ثلاثة: إمَّا بدني خالص؛ كرد المغصوب والعوادي ولا يشترط له نية، وإما قلبي خالص؛ كالاعتقاد والحب في الله والبغض فيه وهو نيَّة بذاته، وإما مُرَكَّبْ منهما؛ كالصلاة والوضوء والحج وسائر العبادات؛ فالنيَّة شرط فيها؛

---

(١) علي بن عبد الله السقاف ولد بسيئون سنة ١٠٩٢هـ ونشأ بها وتلقى عن علمائها وزار الحرمين الشريفين ورحل إلى سورت بالهند وأخذ عن السيد علي بن عبد الله بن أحمد العيدروس ثم عاد إلى سيئون وبنى مسجده بها وتوفي سنة ١١٨١هـ. .

(٢) الماء المستخدم في غسل الأيدي بعد الطعام. .

قولاً كانت أو فعلاً. ونقلوا عن السبكي من تكملة شرح المهذب عن الإمام: أنه متى أدَّى المدين بغير قصد شيء حالة الدفع؛ لم يكن شيئاً ولم يملكه المدفوع إليه، بل لا بدَّ من قصد الأداء من جهة الدين، وكثير من الفقهاء يغلط في هذا، ويقول: أداء الدين لا تجب فيه النيَّة اهـ.

والمُقُرَّرْ عدم اشتراط النية للترك؛ ونازع بعضهم بأن الترك فعل؛ وهو كفُّ النفس، وبأن المتروك إذا أريد بها حصول الثواب؛ فلا بدّ من قصد امتثال الشارع. وأجابوا عن قوله: الترك فعل؛ بأنه مُخْتَلفٌ فيه؛ ومن حق المستدل على المانع؛ أن يأتي بأمر متفق عليه خارج عن موضوع النزاع.

وأما ما ذكر من اشتراط الاحتساب لنيل الثواب فصواب، ولكن الكلام في الاشتراط الذي يترتب على عدمه العدم، فلا يحصل بدون القصد، فلا يثاب من لم تخطر المعصية بباله، بخلاف من خطرت له فكف عنها من خشية الله؛ والأكثرون على أن لا ثواب في العبادة المندرجة في غيرها؛ كتحية المسجد وسنتي الوضوء والإحرام؛ إلّا بالنيَّة وإلّا سقط الطلب فقط.

قال الحافظ ابن حجر: وأفاد ابن عبد السلام[1] أن النيَّة إنما تشترط في العبادة التي لا تتميز بنفسها، وأما ما يتميز بنفسه فإنه ينصرف بصورته إلى ما وضع له؛ كالأذكار والأدعية والتلاوة؛ لأنها لا تتردد بين العبادة والعادة، ولا يخفى أن ذلك إنما هو بالنظر إلى أصل الوضع، أما ما حدث فيه عرف؛ كالتسبيح للتعجب؛ فلا، ومع ذلك فلو قصد بالذكر القربة إلى الله تعالى؛ كان أكثر ثواباً. ومن ثمَّ قال الغزالي: حركة اللسان بالذكر مع الغفلة عنه؛ مُحَصِّلٌ للثواب؛ لأنه خير من حركة اللسان بالغيبة؛ بل هو خير من السكوت مطلقاً، أي المجرَّد عن التفكُّر. قال: وإنما هو ناقص بالنسبة إلى عمل القلب (اهـ) ويؤيده قوله ﷺ:

---

(١) هو سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام السلمي المصري الشافعي ولد سنة ٥٧٨هـ تفقه على فخر الدين بن عساكر له كتاب القواعد الكبرى في أصول الفقه والأمل في علمي الأصول والجدل توفي بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ.

«**في بُضع أحدكم صدقة**» قالوا: أيأتي أحدنا شهوته ويؤجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام؟**».

وأورد على إطلاق الغزالي؛ أنه يلزم منه؛ أنَّ المرء يثاب على فعل المباح؛ لأنه خير من فعل الحرام؛ وليس ذلك مراده؛ هذا آخر كلام الحافظ ابن حجر؛ وفي بعضه مناقشة. قال الحليمي: ثبت بالكتاب والسنة؛ أنَّ كل عمل لم يعمل لمجرد التقرب إلى الله؛ لم يثب عليه؛ وإن سقط بالفرض منه الوجوب (انتهى)؛ وقال في التحفة: وبين تدبر الذكر كالقراءة، وقضيته: حصول ثوابه؛ وإن جهل معناه. ونظَّر فيه الأسنوي ولا يأتي هذا في القرآن؛ للتعبُّد بلفظه، فأثيب قارئه؛ وإن لم يعرف معناه؛ بخلاف الذكر؛ لا بدَّ أن يعرفه؛ ولو بوجهٍ. اهـ.

■ اللطيفة الخامسة:

نقل الفخر الرازي إجماع المتكلمين؛ على أن من عبد أو صلى لأجل خوف العقاب؛ أو طلب الثواب؛ لم تصح عبادته، لكن النظر حينئذٍ في بقاء إسلامه. **أقول**: وهو كلام تقشعر له الجلود؛ ويذوب منه الجلمود، وتتفسخ له القوائم؛ وتعجز عن حمله القوى؛ وقد تأوَّل له ابن حجر الهيتمي؛ بما إذا تمحضَّت العبادة لقصد ذلك؛ بحيث لم تكن لولاه، ولكنه تأويل بارد؛ لا يخلو عن السفسفة؛ لأنه ممجوج بسائر آيات وأخبار الترغيب والترهيب، ولئن كان الباري جل شأنه يستحق العبادة لذاته؛ فقد أثنى على من يعبده خوفاً وطمعاً؛ فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[(١)]؛ وقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[(٢)] وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[(٣)]؛ وقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى

(١) سورة السجدة، الآية: ١٦.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٩.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1]؛ وقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]؛ وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[3]؛ وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[4]؛ وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾[5]؛ وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[6].

ومتى أثنى الله على الأنبياء؛ بأنهم يدعونه خوفاً وطمعاً، والدعاء مخ العبادة؛ كما ورد مرفوعاً، ولئن ضعِّف فقد صحَّ: «**الدعاء هو العبادة**». قال الطيبي: وفيه الحصر بضمير الفصل؛ وتعريف الخبر باللام (انتهى)؛ فغيرهم من باب أولى؛ ومما قاله كعب بن مالك في بدر؛ كما أخرج ابن هشام قوله:

أَلا هَلْ أَتَى غَسَّانَ فِي نَأْيِ دَارِهَا ... وَأَخْبَر شَيئاً بِالأمورِ عَلِيهِمَا

بِأَنَّا عَبَدْنَا الله لَمْ نَرجُ غَيرَهُ ... رَجَاءَ الجِنَانِ إذْ أَتَانَا زَعِيمُهَا

وهل يعقل أن يقول هذا الشعر؛ ولا ينشده لرسول الله ﷺ؟ فأنَّى يتمعني شيء مما ذكره الرازي مع ما سبق، ومع رخصة الله في شوب العبادات

(١) سورة النحل، الآيتان: ٤٩ ـ ٥٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.
(٤) سورة الحشر، الآية: ٨.
(٥) سورة الفتح، الآية: ٢٨.
(٦) سورة الإنسان، الآيات: ٨ ـ ١٠.

بالأغراض؛ في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾[(١)]. فلم يخرج القتال عن كونه في سبيل الله؛ مع وقوعه ثأراً للجلاء، وقوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾[(٢)] وقوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[(٣)]. فقد استدلوا بها على إباحة التجارة وسائر المكاسب في الحج، وأنَّ ذلك لا يحبط أجراً ولا ينقص ثوباً، وإن تخللت أعماله لعدم اتصالها؛ وإنما جاء التقييد بالفراغ من أعمال الصلاة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾[(٤)] لاتصال أعمالها؛ فلا يحل في أثنائها الاشتغال بغيرها.

وكان نزول قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ﴾ الآية السابقة؛ بعقب أن تأثّم الصحابة من الاتجار في مواسم الحج، فرخَّص لهم فيه؛ كما كانوا في الجاهلية، أخرجه البخاري. وصرحوا بإجزاء صيام من نوى العبادة والحِمْيَة؛ وبصحة طواف من أراد العبادة وملازمة الغريم. ومن النوادر؛ أنَّ مديناً رأى دائنه في المسجد؛ فأحرم بألف ركعة؛ فقال الدائن لما سمع إحرامه بذلك العدد: نويت الاعتكاف في هذا المسجد سنة.

وقد سئل ابن حجر[(٥)] عمن نوى بطوافه ملازمة غريم له، فأجاب: بأنه إن صرفه إلى الملازمة؛ بطل، لأنه يشترط فيه فقد الصارف؛ أما إذا بقي ذاكراً للنيَّة؛ ولم يقصد صرفه؛ بل أشرك مع النية غيرها؛ لم يؤثِّر، كما قاله الزركشي.

ثم رأيت القطب الحداد[(٦)] في مسائل الصوفية يقول: العاملون لله على ثلاثة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦. (٢) سورة الحج، الآية: ٢٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ١٠.

(٥) هو الإمام شهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي المصري توفي سنة ٩٧٤هـ جاور بمكة وتوفي بها له كتاب تحفة المحتاج بشرح المنهاج وله مؤلفات أخرى.

(٦) الإمام عبد الله بن علوي الحداد (١٠٤٤ ـ ١١٣٢هـ) ولد بتريم وكف بصره وهو في =

أقسام: من يعمل خشية العقاب؛ وهم الخائفون، ومن يعمل لرجاء الثواب؛ وهم الراجون، ومن يعمل امتثالاً للأمر؛ وهم العارفون. وما وقع في كلام بعض أهل التصوف؛ مما يوهم نقصاً في حال من يعمل للرجاء أو للخوف؛ محمولٌ على قصد التنبيه؛ على أن الذي يفعل لمجرد امتثال الأمر؛ أفضل، وحالُ كُلٍّ منهم؛ حسن وجميل، والجامع من يعمل على المقامات الثلاثة؛ ولكنه عزيز؛ (اهـ مختصراً). وإنما جاء ما ذكره الإمام الرازي في كلام الفلاسفة؛ فقد نقل عن أرسطو؛ أنه يقول: الأشرار يطيعون خيفةً؛ والصالحون على حب.

واختلف العلماء فيما إذا كان القصد الدنيوي جزء العلة في العبادة؟ والذي اختاره الغزالي: أَنْ لا أجر؛ إلّا حيث كانت داعية العبادة أرجح، فأما عند التساوي أو الرجوحية؛ فلا، ووافقه الرملي من متأخري الشافعية. وقال ابن حجر الهيتمي: والأوجه كما بيَّنته بأدلته في حاشية الإيضاح[١] وغيرها: أنَّ قصد العبادة يثاب عليه بقدره، وإن انضمَّ له غيره؛ ما عدا الرياء ونحوه؛ مساوياً أو راجحاً، اهـ. وعليه جماعة وهو الأليق بسعة فضل الله.

وللعلماء في شأن الرياء تشدُّدٌ لا تحتمله القوى البشرية؛ ولكن قال الحافظ: نقل أبو جعفر بن جرير الطبري عن جمهور السلف؛ أنَّ الاعتبار بالابتداء، فإن كان في ابتدائه خالصاً لله؛ لم يَضُرُّهُ ما يَعْرِضُ له بَعْدُ من إعجاب وغيره (انتهى).

ولي مع المغالين في أمره مناقشة؛ توكأت فيها على مثل ما مرَّ عن ابن حجر؛ وعلى نصوص واضحة من كنز العمال[٢]؛ وصحيح مسلم؛ وفي ذلك أقول:

= الرابعة من عمره حفظ القرآن الكريم وكثيراً من المتون منذ صغره وتصدى للإصلاح والإرشاد وله مؤلفات كثيرة مشهورة.

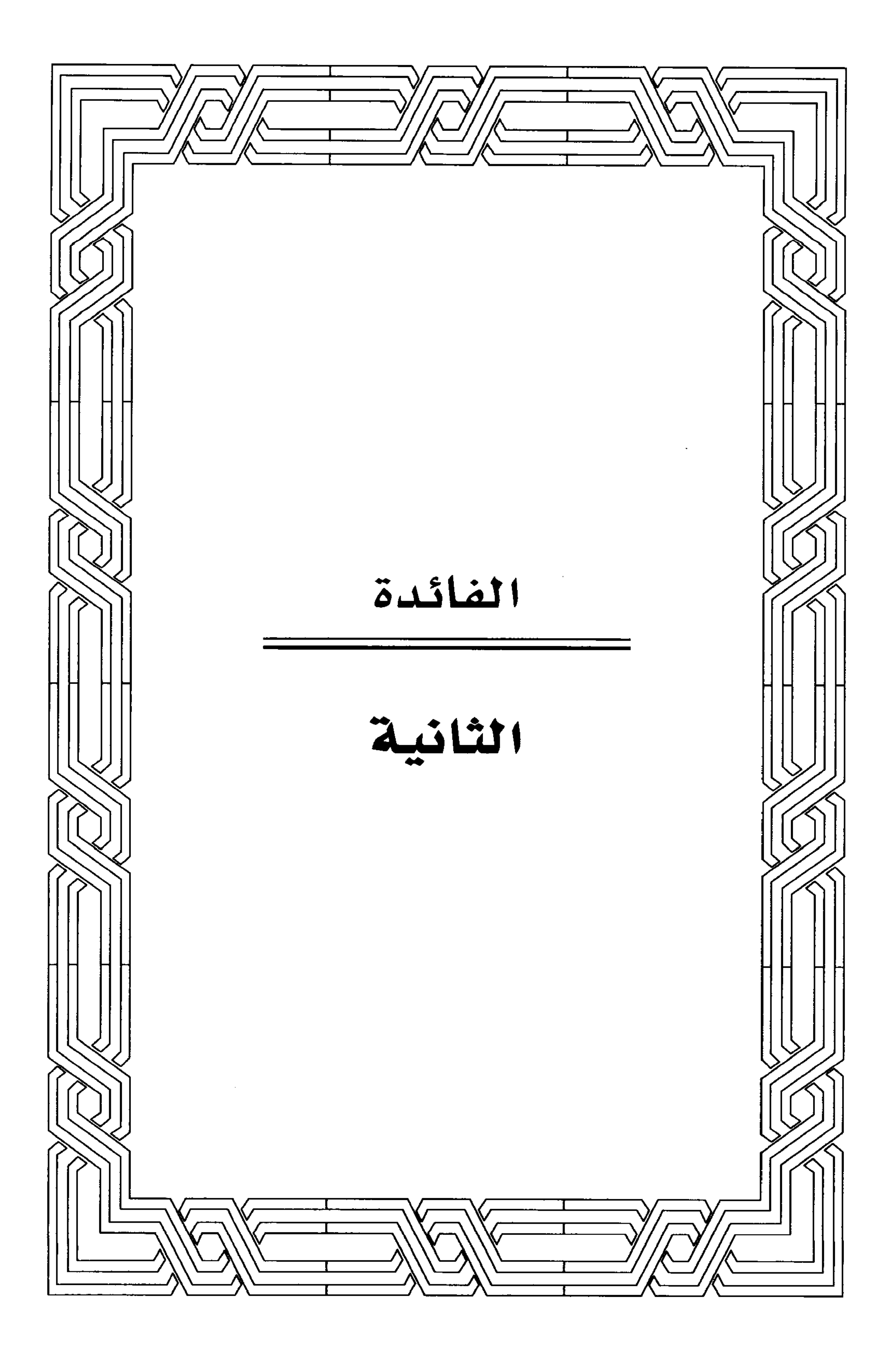
(١) حاشية ابن حجر الهيتمي على شرح الإيضاح في مناسك الحج.

(٢) كتاب «كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال» .هو كتاب في الحديث. من تأليف علاء =

وللقومِ فِي تحقيقِ مسألةِ الرِّيَاء كلامٌ ولكِنْ بعضَهُ فيه إيغَالُ
فقد ذكروا إحباطَهُ المسعى مطلقاً وعِنْديَ أنَّ الحقَّ تفصيلُ ما قَالُوا
فإن كان نَزْراً أوْ أتَى بعدَ مَا انقَضَى فلا يلحقُ المَسْعَى به قَطُّ إبْطَالُ
وفي الظَّنِّ أنَّ الحُجَّةَ الخَبَرُ الذي ذكرتُ من التفصيلِ في الأمرِ مَيَّالُ
وشاهِدُهُ في مُسْلِمٍ وَدَلِيلُه بكنزِ علاءِ الدينِ ما فيه إشكالُ

* * *

= الدين علي المتقي ابن حسام الدين الهندي؛ المشهور بالمتقي الهندي. جمع فيه بين كتابي الجامع الصغير وزوائده وكتاب جمع الجوامع. وبذلك فقد استوعب حوالي خمسين ألف حديث مجرّد من الأسانيد.



الفائدة

الثانية

الفائدة الثانية

في حديث عائشة؛ أنَّ الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ؛ فقال: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحياناً يأتيني مثل صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وهو أشَدُّهُ عليَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وقد وَعَيْتُ عنه ما قال**». الصلصلة: الصوت المتدارك الذي لا يفهم. ولما كانت المسألة من عالم الغيب؛ التي لا عهد للسائل بمثلها؛ اقتضت بلاغة أفصح العرب أن يضرب لها مثلاً من عالم الشهادة؛ فشبَّه الصوت المتدارك الذي يسمع ولا يفهم منه شيء؛ بذلك؛ إشارة إلى أنه يرد على القلب في لبسة الجلال، فتأخذ هيبته بمجامع قلبه، ويلاقي من ثقل القول؛ ما لا يستقر به على قلبه من أول وهلة، فإذا كُشِفَ عنه ذلك؛ وجد القول المنزل بيِّناً مرسوماً في روعه؛ ارتسام المسموع والمفهوم، وهذا معنى قوله ﷺ: «**فَيَفْصِمُ عَنِّي وقد وَعَيْتُ عنه ما قال**» وهو من جنس ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ فِي السَّمَاءِ أَمْراً ضَرَبَتِ الْمَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوْلِهِ كَأَنَّهَا سِلْسِلَة عَلَى صَفْوَانَ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**».

أقول والله أعلم: كأنَّ تلك الصلصلة التي يسمعها النبي ﷺ؛ ويلقى منها الآلاقي؛ حتَّى إن جبينه يتفصد عرقاً من شدتها في اليوم الشاتِّي، هي أثر ارتسام حقائق التنزيل على صفحات قلبه الشريف، وهو الظاهر من فحوى الكلام، ولعله من جنس ما يوحي به الله عز وجل إلى الملائكة؛ وإذا كانت الملائكة تعاني شدة من ثقل الوحي؛ فالنبي ﷺ؛ في هذا النوع منه؛ أحرى بأن تتضاعف الشدائد عليه؛ لأنه لا يمكنه وعيه إلّا بعد أن يتجرد عن الطبائع البشرية؛ ويصير بهيئة

الملائكة؛ وهو مع قوة بشريته التي لولاها لما اجتمعت له أطراف الكمال؛ مركب صعب؛ وطريق وعر؛ ومتسنَّم بعيد الذري، فلا جرم وصف لنا النبي ﷺ من تلك الشدَّة؛ ما لا يستقل شيء منها على عقولنا إلّا بطريق التمثيل.

فإن قيل: قد روى أبو داود من حديث عمر: كنا نسمع عنده مثل دُوِيِّ النحل؛ وها هنا يقول مثل صلصلة الجرس، وبينهما تفاوت. **قلنا**: لا إشكال؛ لأنَّ الأخير بالنسبة للنبي ﷺ؛ والأول بالنسبة إلى الصحابة؛ ولا ننكر من ذلك أن الصحابة يتفاوتون في سماع ذلك الصوت؛ فبعضهم يسمعه كدوي النحل؛ ومنهم عمر، ويمكن أن يسمعه غيره بأظهر من دُوِيِّها؛ وبعضهم بأدنى منه؛ وبعضهم لا يسمعه رأساً؛ لأنه ليس من عالم الملك المحسوس؛ ولكن من عالم الملكوت؛ الذي لا يدخل تحت حكم الميزان؛ وسلطان العقل؛ وضبط الحواس؛ ولكن يظهر منه لبعضهم على طريق المعجزة للنبي ﷺ؛ أو كرامة للسامع؛ بحسب ما عنده من صفاء القلب؛ وطهارة السريرة؛ ورقة الطبع؛ وتنوُّر المادة؛ وتجوهر الروح.

وإنه لجد ظاهر في إبطال الإلحاد في الوحي المقَدَّس؛ ومحاولة التغبير عليه بالأعراض الصرعية؛ وكيف ينطلي شيء من ذلك التمويه البارد المكشوف؛ والحال أن المصروع لا يعي شيئاً مما يقع له في نوبته، والنبي ﷺ؛ لا يكون كله قلباً إلّا في تلك الحال؛ أو ما ضاهاها من مقامات الكمال، ولشد ما تمنَّت قريش أن تغضَّ من قدره؛ فعرفته بشيء من ذلك، فانتكث فتلها؛ وانقطع حبلها؛ وانكشف جهلها؛ وسقطت دعواها؛ وانتكست على أُمِّ رأسها.

فإن قيل: زدنا بياناً عن كيفية سماع النبي أو الملك عن الله؟ **قلنا**: إن الجواب مع ما سبق يعرف من قول الغزالي: إنَّ سماع النبي والمَلَكْ عليهما السلام الوحي من الله بغير واسطة؛ يستحيل أن يكون بحرف أو صوت؛ لكن يكون بخلق الله تعالى للسامع علماً ضرورياً بثلاثة أمور: بالمُتَكَلِّمْ وبأنَّ ما سمعه كلامه؛ وبمراده من كلامه؛ والقدرة الضرورية مليَّةٌ باضطرار النبي والملك إلى تلك الثلاثة، وكما أن كلامه تعالى؛ ليس من جنس كلام البشر؛ فالذي يخلقه لعبده ليس من جنس

سماع الأصوات، ولذلك عسُرَ علينا فهم كيفية سماع موسى عليه الصلاة والسلام؛ لكلامه الذي ليس بحرف ولا صوت، كما يعسر عليَّ الآن؛ كيفية إدراك البصر للألوان[١]؛ أما سماعه عليه الصلاة والسلام من المَلَكْ فيحتمل أن يكون بحرف وصوت دالين على معنى كلامه تعالى؛ فالمسموع الأصوات الحادثة؛ وهي فعل المَلَكْ دون نفس الكلام؛ ولا يكون هذا سماعاً لكلام الله تعالى من غير واسطة؛ وإنْ أطلق عليه؛ باعتبار أنه سماع كلامه تعالى. وسماع الأمة من الرسول ﷺ؛ كسماع الرسول من المَلَكْ، وطريق الفهم تَقَدُّمْ المعرفة بوضع اللغة التي تكون بها المخاطبة (انتهى).

إلا أنه قد يفهم من قوله: وبأن ما سمعه كلامه؛ إثبات الصوت الذي نفاه بادياً، ولكن الصحيح هو ما قدَّمناه؛ من أنَّ الأصوات إنما هي أثر ارتسام التنزيل في روع النبي ﷺ؛ ولذلك فإنه لا يعيه إلّا بعد انفصامه، ولو كان الوحي الصوت نفسه؛ لوعاه من عنده؛ فهو متقدم عليه بالعليَّة على الأقل، فسماعه عن الله؛ إما أن يكون بهذا؛ وإما أن يخلق له؛ كما قال؛ علماً ضرورياً بالمتكلم وبمراده من الكلام من دون صوت.

ومتى تقرر أنه لا يشترط للسماع جارحة مخصوصة؛ وإنما هو إدراك المسموع فقط؛ انتفى ما ذكره من عسر الفهم من هذه الناحية، وعسى أن يتوضح عدم اشتراط الجارحة المخصوصة للسماع؛ مما سيأتي في اطِّلاع النبي ﷺ على من خلفه؛ عندما تنتهي إليه النوبة إن شاء الله تعالى[٢]. ثم انتفاء العسر؛ إنما هو بالنسبة لسماع ما لا صوت له ولا حرف، أما بالنسبة لامتناع تبعُّض المسموع

---

(١) تعتمد رؤية الألوان على وجود خلايا حساسة بشبكية العين تتأثر كلّ منها بموجات معينة من الضوء وهذه الموجات هي التي تعطي الضوء لونه ثم ينقل العصب البصري من خلايا الشبكية هذه المعلومات إلى الدماغ الذي يؤسس الرؤية الملونة ولكن طريقة عمل الدماغ في تركيب الألوان لا زالت سراً مجهولاً.

(٢) أي عندما تأتي المناسبة للكلام عنه في هذا الكتاب.

وترتيبه مع دلالته على سائر المعلومات؛ فإنه لا يمكن للعقول؛ كما أشار إليه الغزالي وغيره؛ أن تتصوره؛ إذ حقيقة ذلك مثل حقيقة الباري جلَّ جلاله؛ تكبر عن العقول الناقصة، فكيف يتصور سماعه ﷺ لكلام الله؛ وهو لا يمكن ترتيبه لِقِدَمِهِ كُلِّه؟

فإن قيل: إنه ﷺ سمع كلام الله كله، كان ذلك خطأً فاحشاً؛ بل كان عين الكفر البواح. وإن قيل؛ لم يسمعه كله؛ جاء التبعيض والترتيب؛ وهما ممنوعان؛ لمنافاتهما لِقِدَمِ الجميع. فالإشكال جَدُّ عظيم؛ ولا يصغر عنه؛ أنه كيف يتصور للمَلَكِ أو للنبيِّ؛ وهما حادثان سماع كلام الله؛ على القول بأنه صفة واحدة قديمة لا تتعدد ولا تتجزأ؛ وما نبس السيوطي بكلمة في الجواب عن التعدد والترتيب؛ ولئن جاء في كلامه الآتي عما قليل؛ شبه جواب؛ عن كون الكلام أزلياً؛ ألمح بأن المراد رفع الحجاب، فإنه لا يبرد عليه القلب. ولا يخلص من هذه المماراة؛ إلّا الاعتراف بالعجز، وإن العقول؛ لأقلُّ وأذّلُّ من أن تحيط علماً بشيء من حقائق واجد الوجود.

يَفْنَى الكَلامُ ولا يُحِيطُ بِوَصْفِكُمْ أيُحِيطُ مَا يَفْنَى بِمَا لا يَنفَدُ

سبحانك هذا بهتان عظيم. فلا أسلم من اللياذ بمذهب السلف؛ من إمرار آيات الصفات وأحاديثها على ما يليق بها.

ثم زعم بعضهم أن الوضع العربي للقرآن؛ إنما كان من وضع الرسول؛ وهو إمَّا النبي ﷺ؛ فإنه المراد من قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[1]؛ وإما جبريل؛ فإنه المراد من قوله تعالى في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[2]؛ لكنه لا يصح ذلك الزعم؛ **أما أولاً**: فلما يلزم عليه من التناقض؛ من نسبته إلى النبيِّ تارة؛ وإلى جبريل أخرى؛ لأنه إن كان من وضع الأوَّل؛

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٤٠.

(٢) سورة التكوير، الآية: ١٩.

استحال أن يكون من وضع الثاني؛ وبالعكس. **وأمَّا ثانياً**: فإن لفظ الرسول من مسالك الملَّة؛ الإيماء إلى أنَّ كلامه؛ إنما هو كلام المُرْسِلْ بكسر السين، فإضافته إلى الرسول؛ إنما هي إضافة أداء؛ لا إضافة ابتداء، فلا يجوز أن يقال: هو كلام الرسول حقيقة؛ كما يتوضح من الوجه الثالث؛ وهو أن الله قد أكفر من قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[1]؛ فلا يجوز أن ينسب حقيقة إليه، وإنما نسب إليه في آية الحاقَّة مجازاً؛ لعلاقة التبليغ؛ فلم يُبَلِّغ هو ولا جبريل إلّا كلام الله؛ بشهادة قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ...﴾[2].

وإنما أضيف إلى كُلٍّ منهما؛ لملابسته الأداء كما مرَّ. ألا ترى أنك لو قلت: قال لي رسول فلان؛ فقال.. فإنه لا يفهم منه؛ إلّا الذي أرسله طلب مجيئك. هذا ما رأيته في سياقة لابن تيمية؛ جرد فيها؛ حسب ما تراه؛ القول؛ غير أنَّ ما فيها من التهويل على مَنْ يَنْسُبْ الأوضاع العربية للنبي أو لجبريل؛ معارض لما سيأتي عن السيوطي.

وقد تذبذب ابن تيمية في مسألة الحرف والصوت؛ ففي موضع من التسعينية[3]؛ وهو صفحة ١١٦ يقول: ليس في كلامي أن كلام الله حرف وصوت قائم به؛ ونقل في صفحة ١١٨ منها؛ عن الإمام أحمد وعامة أصحابه؛ بتبديع من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق؛ كما جَهَّمُوا[4] من قال: اللفظ بالقرآن مخلوق؛

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦.

(٣) كتاب لابن تيمية يرد فيه على الأشاعرة وقد سمي بالتسعينية لأنه فند مذهبهم من تسعين وجهاً.

(٤) الجهمية فرقة نشأت في القرن الثاني الهجري على يد الجهم بن صفوان وهو من مواليد الكوفة وقد نفت صفات التشبيه عن الحق تعالى ونفت رؤية المولى في الآخرة وقالت بخلق القرآن وأن الله موجود في كل مكان وأن العبد مجبور في فعله وهي فرقة تلاشت لكن أخذ المعتزلة عنهم بعض معتقداتهم.

وقال في صفحة ١٣١ منها: إن الله متكلم بصوت كما جاءت به الصحاح؛ وليس ذلك كأصوات العباد؛ فكما أنه لا يشبهه شيء في ذاته؛ ولا في صفاته؛ ولا في أفعاله؛ فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق؛ ولا معانيه تشبه معانيه؛ ولا حروفه تشبه حروفه؛ ولا صوت الرب يشبه صوت العبد (انتهى). وتراه استهل بنسبة الصوت إلى الباري في هذا الكلام من أول وهلة؛ بخلاف الحروف؛ فإنما تدرَّج في نسبته إليه تدرجاً؛ وما ذاك إلّا لتوكئه في الصوت على كثير من الأحاديث؛ بخلاف الحرف؛ ثم قال: إنَّ الجهميَّة تقربت من الصابئة؛ وأخذ ببعض كلام الجهميَّة قوم من الصفاتية؛ فقالوا: نصف القرآن؛ وهو المعنى؛ كلام الله تعالى؛ ونصفه؛ وهو الحروف؛ ليس بكلام الله تعالى؛ وإنما هو من خلقه (انتهى) وأكثَرَ القول في ذلك؛ بعبارات طويلة لا تنتهي إلى تحقيقٍ مُقنعٍ.

ثم لا غرابة في احتجاب حقائق الصفات الإلهية؛ عن مدارك العقول العاجزة عن اكتناه النفوس البشرية؛ حتى لقد اختلفوا فيها إلى ألف قول؛ إذ لا يتمعنى وقوع هذا الاختلاف الهائل في شيء يتناوله صدق الإدراك؛ وإنما جعل الله عجز الحكماء وعِيَّ العلماء عن اكتناه حقائق أنفسهم؛ قَطْماً للأطماع عما لا قابلية عندها البتَّة من اكتناه حقيقته؛ لأنها متى عجزت عن معرفة حقائق ذواتها؛ فهي عن معرفة ما فوق ذلك أعجز.

وإنني لأتعجب من الغزالي؛ اذ يتعثر جواده في فهم السماع من الحيثية الأولى؛ مع ما جاء عنه في المضنون الصغير[1] في الكلام عن الروح؛ وبعد تشككه في صحة البراهين العقلية؛ كما في سياقةٍ له؛ في المنقذ من الضلال؛ بما شاهد من عجائب الرؤى؛ وافتياتها على سلطان المنطق؛ وخروجها عن أقيسة الميزان؛ مع أنه لا يمكن التيقن في صحة الفعل؛ لترتب الأدلة السمعية على تمييزه وحاكميته؛ ولا عبرة بالرؤى؛ لأنها من طور لا تكليف فيه؛ فلا بأس بانعزاله حيث يرتفع التكليف؛ بخلافه مع وجوده؛ فالتشكك فيه؛ مفضي إلى

---

(١) كتاب منسوب للإمام الغزالي.

اطِّراح الحجج وإنكار الحقائق؛ وما بنا الإنكار على الغزالي مع ظهور وجوه التأويل لسياقته تلك؛ ومقامه اجل من أن نتنقصه؛ . . . . الله[١]؛ وأن يجرح شاهداً عَدَّله جل جلاله؛ واستدل به على الإعادة والتوحيد وغيرهما.

وقال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢]: قد ثبت أنه متى وقع التعارض بين العقلي والظاهر السمعي؛ فإما أن نصدقهما معاً، وهو محال، لأنه جَمْعٌ بين النقيضين، وإما أن نكذِّب القاطع العقلي ونرجِّح السمعي؛ وذلك يوجب تطرق الطعن إلى الدلائل العقلية، ومتى كان كذلك؛ فقد بطل التوحيد والنبوَّة والقرآن، لأن ترجيح الدليل السمعي؛ يوجب القدح في الدليل العقلي والدليل السمعي معاً، فلم يبق إلّا أن نسلِّم بصحة الدلائل العقلية ونحمل الظاهر السمعي على التأويل (انتهى).

ومع هذا فقد انقطعت أطماع العقلاء؛ أن يزنوا بعقولهم سائر أمور التوحيد والآخرة؛ وحقائق النبوة؛ والصفات الإلهية، لأن ذاك من وراء طورها؛ حسبما يأتي عما قريب؛ بلا قدحٍ في مدارك العقول؛ ولا شكٍّ في أحكامها على ما تحت سلطانها، لأن ميزانها عادل صحيح؛ مبنيٌّ على العلم واليقين، إلّا أنَّ من طمع أن يزن به ما ذكرنا؛ قال ابن خلدون؛ يكون أشد جهلاً بمن طمع أن يزن الجبال بميزان الذهب؛ أو يكيل البحار بأمداد الحَبْ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

وذكر السيوطي حاصل كلام الأشاعرة في تلقي المَلَك عْن الله، وأنه راجع إلى ثلاثة أقوال: **أحدها**: أنه إلهام وتلقن روحاني؛ **ثانيها**: أنه يسمعه من الله؛ ودلَّل عليه بحديث الطبراني: «إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجداً فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد فينتهي به إلى الملائكة كلما مرَّ بسماء سأله أهلها: ماذا قال ربنا؟ قال: الحق؛ فينتهي به إلى حيث أمر». وبحديث ابن مردويه: «إذا

---

(١) كتابة مطموسة بالمخطوطة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصلةً فيفزعون»؛ وهما من أحاديث الصفات، وفيها شبه بحديث أبي هريرة السابق، فإن قيل: إنه لا يلتئم مع صفة الكلام الأزلية القائمة بذاته جل جلاله، والتي لا تقبل العدم وما في معناه؛ فالجواب كما قالوا: إن الله لم يبتدي كلاماً، وإنما رفع الحجاب عن المَلَكْ حتَّى أدرك الكلام القديم. **وثالثها**: أنَّ الملك إنما يأخذ عن اللوح المحفوظ، وذكر له عدة أدلة، وهو مثل الأوَّل وسهل الفهم.

ثم ذكر عن الزركشي؛ أن العلماء اختلفوا في المُنْزَلِ عليه ﷺ؛ على ثلاثة أقوال: **أحدها**: أنه اللفظ والمعنى، **والثاني**: أنَّ جبريل إنما نزل بالمعاني؛ وأنه ﷺ؛ عبَّر عنها بلغة العرب، **والثالث**: مثله إلّا أنَّ اللفظ لجبريل؛ وأن أهل السماء يقرؤونه بالعربية، وأطال في ذلك بما ينبغي أن يكشف من أول أجزاء الحاوي؛ وما بعدها، والأخيران يناسبان ما سبق عن الغزالي؛ وقد ينحل بهما بعض الإشكالات، إلّا أنه يأتي ما سبق عن ابن تيمية من التهويل على من قال ذلك، ولئن تيسر الانفصال عن قوله: إنه أكفر من قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[1] بأنَّ الإكفار لم يكن لمجرد ذلك، ولكن لانضمامه إلى ادِّعاء السحر؛ واقتضائه الجحود؛ وأن لا صلة للقرآن بالله أصلاً؛ فإنه يصعب عن قوله: إذا قلتم إن جبريل إنما نزل بالمعاني؛ فعبَّر عنها ﷺ بلغة العرب من عنده؛ إذ قضيته أنَّ القرآن ليس بكلام الله حقيقة، وإنما هو كلامه مَجَازاً، ومن المعلوم أنه يجوز نفي المجاز، ولكنه لا يجوز أن يقول ليس القرآن كلام الله؛ فما عدا مما بدا.

وقد يقال إنه يأتي في هذا ما في الأصوات والحروف؛ فإنها على كونها من عندنا قطعاً لا يسوغ لأحد أن يقول إنه ليس بكلام الله تعالى؛ وقد قال ابن عبد السلام في فتياه المشهورة: وكيف يظن بأحمد بن حنبل؛ أن يعتقد أن وصف الله القديم القائم بذاته؛ هو لفظ اللافظين؛ ومداد الكاتبين، مع أن وصف الله قديم؛ وهذه الأشكال والألفاظ؛ حادثة بضرورة العقل وصريح النقل، وقد أخبرنا

(١) سورة المدثر، الآية: ٢٥.

تعالى عن حدوثها في ثلاثة مواضع من كتابه؛ أحدها: قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[(١)]؛ فمن زعم أن هذا الآتي؛ فقد ردَّ على الله، وإنما هذا الحادث دليل على القديم، كما أنا إذا كتبنا اسم الله في رقعة؛ لم يكن الله القديم حالاً في تلك الورقة؛ فكذاك إذا كتب الوصف القديم في شيء؛ لم يحل ذلك المكتوب في الكتابة. الموضع الثاني قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[(٢)]؛ والموضع الثالث قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[(٣)].

والعجب ممن يقول بأن القرآن مركب من حرف وصوت؛ ثم يزعم أنه في المصحف؛ وليس في المصحف إلّا حرف بلا صوت، ومن قال بأنَّ الوصف القديم حالٌ في المصحف؛ لزمه القول باحتراقه عند احتراق المصحف، تعالى الله عن ذلك، إذ القديم لا يلحقه تغير، (انتهى باختصار).

والحاصل أن ما في المصاحف هو القرآن حقيقة لا مجازاً؛ وإن كانت الأصوات والحروف من أعمالنا لدلالتها عليه، ألا ترى أن الواحد ينشد قصيدة لأبي الطيِّب مثلاً، فلا يختلج أدنى شك في نسبتها إليه؛ مع أن الأصوات والحروف إنما هي للذي أنشد، فالأمر قريب من هذه الناحية؛ وإنَّما يوسِّع شقة الخلاف؛ التعَصُّبْ. ثم رأيت ابن تيمية يقول في صفحة ١٣٦ من السبعينية: إذا سمعنا من يحدث بقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**» قلنا هذا كلام رسول الله بلفظه ومعناه، مع علمنا أن الصوت صوت المُبَلِّغْ، وهكذا كل من بَلَّغَ كلام غيره من نظم ونثر (انتهى).

وليس شيء من هذا بكاف في حل الإشكال؛ لأنَّ الخلاف في نسبته الحرف إليه تعالى موجود على أقوال منها: أن كلام الله مخلوق وهو للمعتزلة، ومنها: أنه

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢.

(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٣٨ ـ ٤٠.

(٣) سورة التكوير، الآيات: ١٥ ـ ١٩.

قديم بالحرف والصوت وهو لأكثر الحنابلة، ومنها: أن قدمه يتناول حتى لفظنا به؛ وهو ظاهر الفساد، ومنها: أنَّ المعنى قائم بذاته تعالى؛ واللفظ دال عليه حقيقة لغوية، وكثيراً ما يوجد عند الفخر الرازي أن القول بقدم أصوات القارئين؛ ومداد المصاحف؛ منسوب إلى الحنابلة، ولكن ابن تيمية ينكره إنكاراً شديداً، وغاية ما يعترف به كما مرَّ؛ أنهم يقولون: من قال لفظي بالقرآن مخلوق؛ فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق؛ فهو مبتدع، فأما من يقول: لفظي بالقرآن أزلي؛ فإنه شرٌّ من ذلك، هذا حاصل كلامه. وقد التزم جماعة من السلف؛ بأن اللفظ بالقرآن مخلوق؛ وهو قضية ما أسلفناه.

وقال المحقق الجرجاني في أول حاشيته على الكشاف: إن للمعتزلة على حدوث القرآن دليلاً عقلياً؛ هو متركبه من أجزاء يمتنع اجتماعها في الوجود؛ إذ المتأخر معدوم عند وجود المتقدم، والمتقدم منتفٍ عند وجود المتأخر. ودليلاً سمعياً كقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[1] ويقولون معنى كونه متكلماً؛ مُوجِداً للكلام؛ لا أنه محلٌّ له، ويُرَدْ عليهم؛ أن المشتقات لا تكون إلّا لمن قام بهمٍّ الاشتقاق، ومن هاهنا ينتظم برهان؛ على إثبات الكلام النفي؛ والقائلون به يعترفون بحدوث هذه العبارات؛ ويسمونها كلاماً لفظياً؛ والدليل العقلي على حدوثها لا يدل على نفي القرآن بمعني الكلام المنفي، وإنما يرد على الحنابلة ومن يحذو حذوهم؛ حيث زعموا أنها قديمة قائمة بذاته (انتهى بلقط وتصرف باللفظ). وبه تقرب المسافة بين المعتزلة والأشاعرة؛ إذ لم يبق الاختلاف إلّا في العبارات؛ هل خلقت حتى سمعت؟ وفي شرح أم البراهين للعلامة السنوسي: إنما يقصد العلماء من ذكر الكلام المنفي؛ نقض حصر المعتزلة الكلام على الحروف والأصوات؛ لا تشبيه كلامه عز وجل بكلامنا المنفي في الكنه (انتهى بمعناه).

وبعد ما أطلنا فيه من الأقاويل؛ وضربنا فيه من التأويل؛ نرجع ونقول: إنه

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢.

لا يمكن لنا أن ننتهي من البحث إلّا إلى ما نقله الغزالي والزركشي عن الجنيد: إنه لا يعرف الله إلّا الله، وكذلك صفاته؛ فما لنا وللفضول؛ لا سيّما وأن السيوطي لم يشف في الجواب؛ عما أورده في القول الثاني؛ من أنه لا يلتئم مع صفة الكلام الأزلية؛ ووقف عن الكلام رأساً؛ عندما اصطدم بالتعدد والترتيب. إلّا أنني أعرف أنه قد يُلْقَى الكلام للنائم أحياناً جملة بدون ترتيب، ولربما تكون اللحظة التي ألَمَّ به فيها النوم؛ لا تتسع لمعشار ما وقع له فيها من الكلام؛ فتشرع من هنا منافذ للجواب عن كثير من الإشكالات؛ كما يفيد لكشفها إلينا؛ قول سيدي علوي بن سقاف الجفري[1] في كتابه النهر المتدفق؛ على مخالفة فيه لبعض ما تقدم: اعلم أن الخلاف بين الأشعرية والمعتزلة إلى إثبات الكلام النفي ونفيه؛ فالأشعرية تثبته والمعتزلة تنفيه؛ وإذا تقرر ذلك ظهر موافقة الأشعرية للمعتزلة في حدوث الكلام اللفظي؛ وموافقة المعتزلة في قدم الكلام النفي؛ ولو ثبت عندهم حينئذ؛ لا يحكم بتكفير المعتزلة للقول بخلق القرآن؛ لأنهم لم يقولوا بخلق إلّا ما قال الأشعرية بخلقه؛ وعدم إثباتهم للكلام النفي الغير المتعقل عندهم لا يوجب تكفيرهم (انتهى).

فإن قيل ما سبب الشدة التي يلقاها النبي ﷺ في معاناة الوحي؛ ولا سيما فيما كان من ذلك الجنس؟ ذكروا فيه أجوبة لا تنتهي من الحسن مع قبولها إلى حيث يبرد عليها القلب، وقد مرَّت الإشارة إلى ما عندي في ذلك؛ وهو أن الأمر عظيم؛ والخطب جسيم؛ والوحي ثقيل؛ والحال جليل؛ له قواصف وبوارق تتبعها خوارق، ومعارج وأدوار؛ وخروج عن الطبائع والأطوار، فالشدة له ضرورية؛ ولا بِدْعَ أن يلقى المَلَكُ إذا تمثل رجلاً نحو ما يلاقيه النبي ﷺ في النوع الأول؛ لأنَّ في كلا الأمرين خروجاً عن الأوضاع الأصلية والله أعلم، ثم الأجر غالباً على قدر النصب، والنبوة أقرب درجات الخلق إلى الخالق، وأشرف

---

(١) علّامة وفقيه وُلد ببلدة تريس من حضرموت وتوفي بها سنة ١٢٧٣هـ له شرح مطبوع على عمدة السالك.

درجات الوحي؛ تَلَقِّيه عن رب العزة بدون واسطة؛ فلا جرم كانت الشدة أقوى:

ومن نَصَبٍ شُقّ النصيبُ وقدرُهُ على قدرهِ فانصَبْ تُصبْ كلَّ مُنيةِ

ومعاذ الله أن نقول بدخلٍ ما للاكتساب في منصب النبوة، ولكنه ثبت أنَّ أشدَّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وبوَّب عليه البخاري؛ ومن ثم كان أولو العزم من الرسل أكثرهم امتحاناً وأوفرهم صبراً على المكاره، ثم لم يرض الله إلّا أن كلف محمداً ﷺ ما كلفهم فقال له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1] ولقد كان يوعك كما يوعك الرجلان، والكلام في ذلك طويل منتشر لا حاجة إلى التدليل عليه؛ لأنه من باب تحصيل الحاصل.

أما قوله في الحديث: وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فالمراد به جبريل عليه السلام؛ وطريق تعيينه: الأخبار البالغة حدّ التواتر المعنوي من لدن النبي ﷺ إلى يومنا هذا؛ من غير نكير ولا اعتراض معترض، وإلّا فقد نزل عليه إسرافيل ثلاث سنين كما رواه أحمد. وقد سمِّيَ بالروح غير جبريل كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ وغير ذلك. ثم في الحديث دلالة على قدرة الملائكة على التشكُّل؛ وهو مسلم به حتى في حقِّ غيرهم، واستشكله بعضهم في حقِّ الجن؛ بأنه يلزم عليه فساد كبير؛ إذ يمكنهم أن يتصوروا بصور رجال وينكحون أزواجهم، وبصور رجال ويعترفون بحقوق أمام القضاة والشهود؛ فيطالب بها أولئك؛ ويفضي إلى التشكيك في حقائق الأشياء؛ فلا يدري أحد من أبوه ومن ولده لاحتمال أنه جِنِّي. وأجاب الفقهاء عن ذلك؛ كما في تحفة ابن حجر: بأن الله يصرفهم عما يترتب عليه الفساد والضرر؛ وليس في شيء من ذلك ما أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه: عن عبد الله بن مسعود: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَتَمَثَّلُ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ، فَيَأْتِي الْقَوْمَ فَيُحَدِّثُهُمْ بِالْحَدِيثِ مِنَ الْكَذِبِ فَيَتَفَرَّقُونَ؛ فَيَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ: سَمِعْتُ رَجُلاً أَعْرِفُ وَجْهَهُ وَلَا أَدْرِي مَا اسْمُهُ يُحَدِّثُ**»؛ وما أخرجه فيها أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «**إِنَّ فِي الْبَحْرِ شَيَاطِينَ**

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٥.

مَسْجُونَةً أَوْثَقَهَا سُلَيْمَانُ، يُوشِكُ أَنْ تَخْرُجَ فَتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ قُرْآناً» لأن حديث من لا يعرف مردود؛ فما في ذلك شيء من الضرر والفساد العام؛ إذ من المعلوم أنَّه لا يؤخذ بمثل ذلك؛ ولا سيما إذا انحرف عن جديلة الشريعة. لكن ذكر البغوي وغيره من المفسرين عند قوله: ﴿. . . وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ. . .﴾ عن الإمام جعفر الصادق ﷺ: أنَّ الشيطان يقعد على ذكر الرجل؛ واذا لم يقل: بسم الله؛ أصاب امرأته معه؛ وأنزل في فرجها كما ينزل الرجل، وروي أن رجلاً قال لابن عباس: إن امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة من نار؟ قال: ذلك من وطء الجن، وكم للفقهاء من مسائل تتعلق بهم(١)؛ منها المناكحة فأجازها قوم كالرملي؛ وإن جاءته في صورة كلبة. ومنعها آخرون كابن حجر. والعرب تزعم أنهم يزاوجون الجن، وذكروا أن عمرو بن يربوع؛ تزوج الغول وأولدها بنين؛ وكانت تقول له: إذا لاح برق من جهة؛ وهي كذا؛ فغطِّ وجهي وإلّا طرت وتركتك وبنيك، فغفل ليلة فطارت؛ وإلى ذلك أشار المعرِّي بقوله عن إبله:

إذا لاحَ إيماضٌ سَترت وُجوهَها كأنّيَ عَمْروٌ والمَطِيُّ سَعالِي

وكم هَمّ نِضْوٌ أن يَطيرَ مع الصَّبا إلى الشأمِ لولا حَبْسُهُ بعِقالِ

وهناك إشكال آخر وهو: أنه إذا جاء جبريل في صورة الرجل؛ فما حال جسمه الذي له ستمائة جناح؛ فهل يبقى ميتاً خالياً عن الروح؟ وقد التزم بعضهم الخلو ولا يلتزم الموت؛ لأنَّ مفارقة الأرواح للأجسام لا يجب الموت عندها عقلاً(٢)، ولكن لعادة أجراها الله تعالى في بني آدم، فلا يلزم في غيرهم، وفيه ما فيه.

---

(١) أي الجن.

(٢) يقال إن الروح تفارق الجسم في مرحلة الأحلام من النوم وتعبر الزمان والمكان وتتلاقى في رحلتها بأرواح الأحياء وأرواح أهل البرزخ ثم تعود للجسم عند الاستيقاظ وذكر الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢] ذكر أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فيتعارف ما شاء الله =

والصواب إن شاء الله؛ ما أظن الشعراني[١] نقله عن الشيخ الأكبر؛ أن ما يُرَى من صور الأولياء إذا تشكلوا ليس بخيالٍ محض ولا بحقيقةٍ تامة، والروح مع بقائها في الجسد الأصلي تشرق على سائر الصور من غير خلو ولا موت ولا تناسخ، ومعاذ الله أن نقول في تمثل المَلَك بما قالوه في تعدد الصور؛ من نقص الحقيقة، كلا والله إنها الحقيقة تامة. ولكن إذا كان تشكُّل الآدمي بالصور الكثيرة؛ مع إشراق الروح على الجميع في وقت واحد؛ مما يشاهده الناس وتضبطه الحواس، ويسمى حقيقة في الجملة، فإنه يكفينا لدفع كل إشكال يعرض في تمثيل المَلَكِ رجلاً للنبي ﷺ؛ وإن تباينت المراتب وتفاوتت الحقائق.

وقد اتفق أن حضرت مجلساً ببلادنا في حدود سنة ١٣٢٥هـ غاصاً بالعلماء والأعيان فذكر صاحب الصدر[٢] عدة وقائع من التشكُّل جرت لشيخه، ثم قال: هل ينكر هذا أحد وقد شاهدناه بعيوننا؟ وعرف الناس إذ ذاك أنه إليَّ يشير؛ وبِيَّ يعرِّض؛ فأردت أن أتكلم فغمزني من يحبني أن لا أفعل، ولكنه لم يكفه التعريض، حتى قال: ما تقول في هذا يا عبد الرحمن؟ بهيئة الاستفهام الإنكاري. فقلت له: أنا من المؤمنين بإمكان تشكل الكاملين، وقد ذكر لي الشيخ حسن بن زين بن عوض مخدم[٣] مثل ما ذكرتموه عن شيخكم نفسه فصدقته، إلّا

= منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى أجسادها أمسك الله أرواح الأموات عنده وحبسها، وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها إلى أجل مسمى وذلك إلى انقضاء مدة حياتها (المحقق)..

(١) عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري المشهور بالشعراني؛ (٨٩٨ ـ ٩٧٣هـ، (العالم الزاهد، الفقيه المحدث، المصري الشافعي الشاذلي الصوفي. يسميه الصوفية بالقطب الرباني الشيخ الأكبر هو ابن عربي).

(٢) أي الشخص المتصدر للجلسة.

(٣) الشيخ حسن مخدم (١٢٦٠ ـ ١٣٣١هـ) من مواليد بور وهو علامة متأثر بالطريقة العلوية تربى على علماء بور وسيئون وتريم وله كثير من التلاميذ ولم يكتف بالتدريس المباشر بل إنه أنشأ مدرسة لتعليم الناشئين القرآن الكريم ومبادىء العلوم وقضى عمره في القربات بأنواعها وتردد بين تريم وسيئون والشحر وانتفع الناس بتعليمه وإرشاده في كل مكان قصده. =

أنني سألته عن الروح هل تفارق الجسد الأصلي؟ أم تتعدد الأرواح؟ أم تبقى الصور بلا أرواح؟ أم ماذا يكون؟ فلم يكن عند الشيخ على غزارة علمه جواب عن هذه المسألة؛ وخشي أن يقع الحرج إذا هو تكلم بدون علم، فأرجوكم بمناسبة هذه الفرصة التي أشكر الله عليها أن تكشفوا بمعارفكم ما استبهم عليَّ؛ ولم يهتد الشيخ الفاضل ابن مخدم إليه؛ من حل هذه المشكلة التي تخاف منها أن نحوم حول شيء من آراء التناسخية أعداء المِلَّة الحنيفية.

فلم يكن من الرجل إلّا أن ارْبَدَّ وجهه؛ وقرت شقائقه؛ وغلب على المجلس الوجوم؛ وكان حظِّي منه أسوأ من حظي مع الشيخ حسن، وما زلت في إشكال من المسألة حتى أنحل بما سبق عن الشعراني[1]؛ وحاصله أن الصوفية أثبتوا عالماً ألطف من الأجسام، وأكثف من الأرواح سموه عالم المثال، وبنوا على ذلك؛ التشكل، فالروح مع تدبيرها للجسد الأصلي؛ تدبر الأشباح المثالية، والفرق بين ما يكون منه للأولياء؛ وبين ما يكون للملائكة؛ كالفرق ما بين الظن والعلم؛ والإلهام والوحي. ولا مانع أن يندرج فيه قوله ﷺ: «**نعم وأرجو أن**

= وقال عنه الإمام ابن عبيد الله: وآخر من أدركت من هذه الطائفة سيدي الشيخ حسن بن عوض بن زين مخدم فإن له في هذا المقام قلماً سيالاً متى اعتقله أتى بالغرائب والعجائب وأملى في مجالسه الكراريس بلا توقف ولا تلعثم ولا تروٍ ولا تردد وعلى الملأ فأمره غريب لا يصدقه إلّا من رآه مع سخاء نفس وكبر همة واجتهاد في العبادة حتى أن قدماه لتورمان من طول القيام في رمضان وقد ترك آثار تصدق ما نقول منها شرحه على الحكم في مجلد ضخم وشرحه على الرشفات في خمسة مجلدات ومنها رسائله ووصاياه الكثيرة إلّا أنه مظلوم محسود ضيعه قومه وتعصب عليه بعض العلويين مع تواضعه وإلانته لهم الجانب وقد مات ميتة شريفة جداً مختومة بالتوحيد وجرت له مع موته غرائب.

(١) يفهم من هذا الكلام أن الإمام ابن عبيد الله كان في إشكال كبير من هذه المسألة التي انحلت فيما بعد بكلام الشعراني وأن رده على الشيخ لم يكن بقصد إحراجه وإنما لطلب الجواب لهذا الإشكال الذي صعب عليه حتى أوضحه الشعراني فيما بعد. والشعراني هو عبد الوهاب الشعراني العالم المصري الزاهد الفقيه الصوفي ويسميه الصوفية بالقطب الرباني توفي سنة ٩٧٣هـ.

تكون منهم» في جوابه لأبي بكر وقد قال: هل يدخل أحد من تلك الأبواب كلها؟ وقد يستأنس له بقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[١]؛ وهذا كله ولله الحمد قبل أن أطَّلِع على مؤلَّف السيوطي في ذلك؛ الموسوم: بالمنجلي في تطور الولي.

وقد استطرت فرحاً لما نقل فيه عن علاء الدين القزنوي؛ وعن طبقات السبكي؛ فكلاهما ذكر: أن الصوفية أثبتوا عالم المثال، وبنوا عليه تجسيد الأرواح وظهورها في صور مختلفة من ذلك العالم؛ واستأنسوا له بقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[٢] (انتهى). فكله مؤكِّد لما أسلفناه عن الشعراني؛ ولله الحمد والمنَّة على ما هدانا إليه؛ وبه يتيسر الإصلاح حتى بين الحنيفية والمسيحية في قتل عيسى عليه السلام وصلبه، فإن قوله جل ذكره: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[٣] وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾[٤]؛ فالصريح في أنهم قتلوه ظناً؛ وهو كافٍ لزعمهم؛ كما أنَّ في امتحانه بالتقديم للقتل والصلب؛ ووقوعهما على مثاله الخيالي؛ ما يكفي للتكفير الذي يزعمه العهد الجديد[٥].

فالمسألة إذن قريبة مما امتحن به الخليل في ذبح ولده صلوات الله عليهم أجمعين. ومن هذا يعرف الجواب الشافي عن قول العز بن عبد السلام: إذا أتى جبريل في صورة حيَّة فأين روحه؟ أفي هذا الجسد أم في الجسد الأصلي الذي له ستمائة جناح؟ فإن كان في هذا الأصلي فالذي أتى ليس بجبريل، وإن كان الروح في الذي جاء؛ فهل مات جسده الأصلي كما تموت الأجساد؟

على أن الروح لا تقاس بالمحسوسات؛ التي إذا شغلت مكاناً لا يعقل أن تكون في غيره. ألا ترى أن الروح في الرفيق الأعلى وهي متصلة بعدُ ببدن

---

(١) سورة مريم، الآية: ١٧.

(٢) سورة مريم، الآية: ١٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

(٥) يدل هذا الكلام على مفهوم الإمام الواسع حتى بالديانة المسيحية.

الميت. وقال ابن عطاء الله: يروى أن لله ملكاً يملأ ثلث الكون؛ وملكاً يملأ ثلثيه؛ وملكاً يملؤه كله. وهو مُشْكِلٌ؛ لولا الجواب بأن اللطائف لا تتزاحم، وأقرب ما يدنيها إلى الفهم: السُّرُجْ؛ فإن أنوارها لا تزحم ولا تتزاحم، والله أعلم. وأما ذلك الشيخ الذي وقف حماره في العقبة يوم سألته؛ فلم يكن له هم؛ إلّا كشف سر المسألة. ولقد دَسَّ من يسألني؛ ولكن قبل أن أطَّلِع على ما سبق؛ فلم يظفر منِّي بالجواب إلّا بعد أمَّة من الزمن.

وعلى ذكر الحارث بن هشام في رواية الحديث؛ نقول إنه شقيق أبي جهل، وكان من فضلاء الصحابة وخيارهم، وكان من المؤلفة قلوبهم ثم حَسُنَ إسلامه؛ وكان دخوله فيه يوم الفتح؛ وشهد حنيناً وأعطاه النبي ﷺ مائةً من الإبل؛ ولم يرو عنه مكروه في إسلامه؛ واستشهد بالشام؛ وكان خرج إليها في أيام عمر فتبعه أهل مكة لفراقه؛ فقال: ما كنت لأؤثر عليكم أحداً؛ ولكنها النقلة إلى الله. فلم يزل مجاهداً بالشام حتى قتل يوم اليرموك في رجب سنة خمس عشرة؛ واستسقى يومئذ وهو صريع؛ فلما أُتِيَ بالماء نظر إلى عكرمة بن أبي جهل في مثل حاله؛ فقال للساقي اذهب إليه؛ فأبى عكرمة أن يشرب قبل عمِّه، فعاد إلى الحارث فألفاه قد مات؛ فرجع إلى عكرمة فوجده قد برد. وأهل الحديث يعللون هذا الخبر ويقولون: إنهما لم يموتا في موطن واحد؛ وممن قدح فيه ابن قتيبة. وفي الحارث يقول الشاعر:

أحَسِبْتَ أنَّ أبَاكَ يومَ تَسُبُّنِي ... في المجْدِ كانَ الحارثَ بنَ هِشَامِ

أولى قُرَيْشٍ بِالمَكَارِمِ كُلِّهَا ... فِي الجاهِلِيَّةِ كَانَ وَالإسلامِ

وكان مع المشركين يوم بدر؛ ففر عن أخيه والرماح تنوشه؛ وألقى درعه فقال حسان يُعَيِّرُهُ:

إنْ كنتِ كاذبة الذي حدّثتِني ... فنجوتِ منجى الحارثِ بن هشامِ

تَرَكَ الأحِبّة أنْ يقاتلَ دونَهمْ ... وَنجا برَأس طِمِرَّة ولِجَامِ

وقال يعيّره من أخرى؛ لا أحفظ منها غير بيتين؛ وهما:

دَرَا كـفَـنـاً تـحـت الـعَـجَـاجَـةِ حَـارِثٌ عـلـى ظَـهْـرِ دَرْجَـاءَ بَـاسِـقَـةِ الـنَّـخْـلِ
يُـقَـلِّـبُـهَـا طَـوْراً وَطَـوْراً يَـحُـثـهـا وَيَـعْـدِلُـهَـا بِـالـنَّـفْـسِ وَالـمَـالِ وَالأَهْـلِ

وقد اعتذر الحارث بما زعم الأصمعي أنه لم يسمع بمثله في نوعه وهو:

اللّـه يَـعْـلَـمْ مَـا تَـرَكْـتُ قِـتَـالَـهُـمْ حـتَّـى رَمُـوا مَـهْـرِي بِـأَشْـقَـرَ مُـزْبِـدِ
وَوَجَـدْتَ رِيـحَ الـمَـوْتِ مِـنْ تِـلْـقَـائِـهِـمْ فِـي مَـأْزَقٍ والـخَـيْـلُ لَـمْ تَـتَـبَـدَدِ
فَـعَـلِـمْـتُ أَنِّـي إِنْ أُقَـاتِـلْ وَاحِـداً أُقْـتَـلْ وَلا يَـنْـكـى عَـدُوِّي مَـشْـهَـدِي
فَـصَـدَفْـتُ عَـنْـهُـمْ والأَحِـبَّـةُ بَـيْـنَـهُـمْ طَـمَـعـاً لَـهُـمْ بِـعِـقَـابِ يَـوْمٍ مُـرْصَـدِ

وقال خلف الأحمر: إنَّ أبيات هبيرة بن أبي وهب؛ عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم؛ زوج أم هاني بنت أبي طالب؛ أحسن من أبيات الحارث في الموضوع؛ وهذه أبيات هبيرة:

لَـعَـمْـرُكَ مَـا وَلَّـيْـتُ ظَـهْـرِي مُـحَـمَّـداً وأَصْـحَـابَـهُ جُـبْـنـاً ولا خِـيـفَـةَ الـقَـتْـلِ
ولـكـنَّـنـي قَـلَّـبْـتُ أَمْـرِي فَـلَـمْ أَجِـدْ لِـسَـيْـفِـي غـنَـاءً إِنْ وَقَـفْـتُ ولا نُـبْـلِـي
وَقَـفْـتُ فَـلَـمَّـا خِـفْـتُ ضَـيْـعَـةَ مَـوْقِـفِـي رَجَـعْـتُ لِـعَـوْدٍ كـالـهِـزَبْـرِ إِلَـى الـشِّـبْـلِ

وأنا على موافقة الأصمعي؛ لأنَّ الحارث أراد تدبير حرب شعواء؛ بخلاف هبيرة فإنما هرب ليعود بنفسه؛ فهو مثل قول القطامي الذي تمثَّل به معاوية.

شُـجَـاعٌ إذا مَـا أَمْـكَـنَـتْـنِـي فُـرْصَـةٌ وإلّا تَـكُـنْ لِـي فُـرْصَـةٌ فَـجَـبَـانُ

وقول عمرو بن معد يكرب:

إذا لَـمْ تَـسْـتَـطِـعْ شَـيْـئـاً فَـدَعْـهُ وَجَـاوِزْهُ إِلَـى مَـا تَـسْـتَـطِـيـعُ

على أن الجبن وخوف القتل شيء واحد؛ ففي الجمع بينهما ما يدل على الضعف.

قال ابن عبد البر: لما أسلمت أمُّ هاني عام الفتح هرب زوجها هبيرة إلى نجران، وقال هذه الأبيات في وجهه، وكذا يقول ابن عمرو، والصحيح أنه إنما

قالها يعتذر عن فراره يوم الخندق عن علي بن أبي طالب، وقد ترك عمرو بن عبد ود يركب درعه، وفيها ما يصرح بذلك إذ هي أطول مما ذكر ومنه:

ثَنَى عَطْفِهِ عَنْ قَرْنِهِ حِينَ لَمْ يَجِدْ مَجَالاً وَكانَ الحَزْمُ والرَّأيُ مِنْ فِعْلِي
فلا تَبْعُدَنْ يَا عَمْرُو حَيّاً وَمَيِّتاً فَقِدْ مِتَّ مَحْمُودَ الثَّنَا مَاجِدَ الفِعْلِ
كَفَتْكِ عَلِيٍّ لَنْ تَرَى مِثْلَ مَوْقِفٍ وَقَفْتُ عَلى شِلْوِ المُقَدَّمِ كَالفَحْلِ
فَمَا ظَفِرَتْ كَفَّاكَ يَوْماً بِمِثْلِهَا أمِنْتَ بِهَا مَا عِشْتَ مِنْ زَلَّةِ النَّعْلِ

وقال زفر بن الحارث؛ وقد فرَّ يوم مرج راهط[1] عن ثلاثة بنين له وغلام فقتلوا:

أيَذهَبُ يومٌ واحدٌ إن أسَأتُهُ بصالحِ أيامي وحُسنِ بَلائيا
فلم يُرَ مِنّي زَلّةٌ قبلَ هذه فِراري وتَركِي صَاحِبَيَّ وَرَائِيَا
فلا صُلحَ حتى تَنحِطَ الخيلُ بالقنا وتثأرَ مِن نِسوَانِ كَلْبٍ نِسَائِيَا
فَقَدْ يَنْبُتَ المَرْعَى عَلَى دِمَنَ الثَّرَى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا

وقال عمرو بن معد يكرب يخاطب أخته ريحانة؛ وقد فرَّ من بني عبس:

أجَاعِلَةٌ أمَّ الثُّوَيْرِ خِزَايَةً عَلَيَّ فِرَارِي إذْ لَقِيتُ بَنِي عَبْسِ
وَلَيْسَ يُعَابُ المَرْءُ مِنْ جُبْنِ يَوْمِهِ إذا عُرِفَتْ مِنْهُ الحِمَايَةُ بِالأمْسِ

وفي الإكليل للهمداني؛ أنَّ عَمْراً لقي نفراً من بني الأصيد؛ وهم قبيلة قليلة من سفيان بن أرحب؛ فسلبوه وأخذوا فرسه؛ فكتب إليهم:

---

(١) مرج راهط معركة دارت بين مروان بن الحكم الذي بايعه أهل الشام والضحاك بن قيس الذي بايعه أهل دمشق وكان يدعو لبيعة عبد الله بن الزبير سراً وقد استغرقت المعركة عشرين يوماً على أرض مرج راهط وانتهت بانتصار مروان بن الحكم في سنة ٦٤هـ وتشكيل الدولة الأموية..

يَا بَنِي الأَصْيَدَ رُدُّوا فَرَسِي إِنَّمَا يُفْعَلُ هَذَا بِالذَّلِيل
عَوَّدُوهُ مِثْلَمَا عَوَّدْتُهُ مُقْحِمُ الصَّفِّ وإِيطاء القتيل

وكان عبد الله بن مطيع بن الأسود العدوي فرَّ يوم الحرَّة[1] من جيش مسلم بن عقبة؛ فلما حاصر الحجاج ابن الزبير؛ كسر جفن سيفه؛ وخرج يترجز بين صفوف أهل الشام بقوله:

أَنَا الذِي فَرَرْتُ يَوْمَ الحَرَّهْ وَالشَّيْخُ لا يَفِرُّ إِلّا مَرَّهْ
فَالْيَومَ أَجْزِي كَرَّةً بِفَرَّه لا بَأسَ فَالكَرَّةُ تَمْحُو الفَرَّهْ

ولم يزل يقاتل حتى أصيب.

وهرب سليمان بن عبد الملك من الطاعون؛ فسمع قارئاً يقرأ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2] فقال: ذلك القليل نطلب. وفرَّ بعضهم فقيل له: إن الأمير عليك لساخط؛ فقال: لأن يسخط عليَّ وأنا حي؛ خيرٌ من أنْ يَرضى عَنِّي وأنا ميِّت. وقال بعض العرب؛ ويمكن أن يكون هو زفر بن الحارث:

ألا لا تَلُومَانِي عَلى الجُبنِ إِنَّنِي أَخَافُ عَلى فَخَّارَتِي أَنْ تُحَطَّمَا
وَلَو أَنَّنِي أَبْتَاعُ في السُّوقِ مِثْلَهَا إِذَا شِئتُ مَا بَالَيتُ أَنْ أَتَقَدَمَا

ولما فرَّ أميَّة بن عبد الله بن خالد بن أسد بن أبي فديك الخارجي من البحرين إلى البصرة؛ ودخل أهلها لم يدروا كيف يكلمونه ولا ما يلقونه به من القول، حتى دخل عبد الله بن الأهتم[3] فاستشرف له الناس، فسلم ثم قال: مرحباً بالصابر المخذول، الحمد لله الذي نظر لنا عليك، ولم ينظر لك علينا؛ فقد تعرضت

---

(١) وقعة الحرة كانت بين أهل المدينة والجيش الذي أرسله يزيد بن معاوية من الشام بقيادة مسلم بن عقبة المري وقتل فيها عدد كبير من الصحابة وكانت سنة ٦٣هـ.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٦.

(٣) من مشاهير الخطباء العرب.

للشهادة جهدك؛ ولكن الله علم حاجة الإسلام إليك؛ فأبقاك له بخذلان من معك لك؛ فَسُرِّي عن أمية بذلك القول بعض ما لحقه من خزي الفرار.

وفي قريب منه يقول أبو الطيب لسيف الدولة وقد انهزم جنده:

قُل لِلدمستقِ إِنَّ المُسلَمينَ لَكُم خانوا الأَميرَ فَجازاهُم بِما صَنَعوا

وَجَدتُموهُم نِياماً في دِمائِكُم كَأَنَّ قَتلاكُمُ إِيّاهُمُ فَجَعوا

ضَعفى تَعِفُّ الأَيادي عَن مِثالِهِمِ مِنَ الأَعادي وَإِن هَمّوا بِهِم نَزَعوا

لا تَحسَبوا مَن أَسَرتُم كانَ ذا رَمَقٍ فَلَيسَ يَأكُلُ إِلّا المَيِّتَة الضَّبُعُ

وَإِنَّما عَرَّضَ اللَّهُ الجُنودَ بِكُم لِكَي يَكونوا بِلا فَسلٍ إِذا رَجَعوا

فَكُلُّ غَزوٍ إِلَيكُم بَعدَ ذا فَلَهُ وَكُلُّ غازٍ لِسَيفِ الدَّولَةِ التَّبَعُ

يَمشي الكِرامُ عَلى آثارِ غَيرِهِمِ وَأَنتَ تَخلُقُ ما تَأتي وَتَبتَدِعُ

وَهَل يَشينُكَ وَقتٌ كُنتَ فارِسَهُ وَكانَ غَيرَكَ فيهِ العاجِزُ الضَّرَعُ

مَن كانَ فَوقَ مَحَلِّ الشَّمسِ مَوضِعَهُ فَلَيسَ يَرفَعُهُ شَيءٌ وَلا يَضَعُ

ومما يتصل بالموضوع أنه قيل لبعض أصحاب رسول الله ﷺ: أفررتم يوم حنين؟ فقال: لكنَّ رسول الله لم يَفِر. ويروى أنَّ أبا سفيان بن حرب بارز غسيل الملائكة؛ حنظلة بن أبي عامر في يوم أُحد؛ فصرعه حنظلة وعلاه، حتى جاء ابن شعوب فخلَّص أبا سفيان وقتل حنظلة؛ فتمنى أبو سفيان لو فرَّ؛ إذ رأى الفرار أخفَّ محملاً عل عاتقه من تحمُّل المنة لابن شعوب. ولقد أوفت القيسية على الإجادة في قولها:

أَبَوْا أَنْ يَفِرُّوا وَالقَنَا فِي نُحُورِهِمُ وَلَمْ يَبْتَغُوا مِنْ خَشْيَة المَوتِ سُلَّمَا

وَلَو أَنَّهُمْ فَرُّوا لَكَانُوا أَعِزَّةً وَلَكِنْ رَأَوْا صَبْراً عَلَى الموتِ أَكْرَمَا

ويعجبني ما تمثل به الأعور السلمي في صفِّين من قول قيس بن الخطيم:

إذا مَا فَرَرْنَا كَانَ شَرُّ فِرَارِنَا صُدُودَ خُدُودٍ وَالْتِوَاءَ مَنَاكِبِ

نَشِيحُ قليلاً والقَنا مُتَشَاجِرٌ وَلا تَبْرَحُ الأَقْدَامُ عِنْدَ التَّضَارُبِ

وكم في الموضوع من أشعار؛ ذكرنا في كتابنا «العود الهندي» ما يشنِّف منها الأسماع[١]. وقد أطلق النبي ﷺ؛ الفتح؛ على انهزام خالد بن الوليد في يوم مؤتة؛ لأنه احتفظ بجيش صغير وأنقذه من التهلكة؛ فلم يزد قتلاه على اثني عشر، بعد أن أحاط به الهلاك، وتغلب عليه العدو الكثير؛ فشكره رسول الله ﷺ؛ ومهَّد عذره؛ ودفع عنه المعرَّة. ويأتي في الفائدة الحادية والثلاثين بعض ما يتعلق بالفرار أيضاً، والله أعلم.



(١) العود الهندي كتاب أدبي مطبوع للإمام ابن عبيد الله.



الفائدة

الثالثة

الفائدة الثالثة

جاء في حديث بدء الوحي أنه ﷺ رجع له يرجف فؤاده، وهو بظاهره مع قوله تعالى له في سورة الكهف: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[1]؛ يتفق مع ما تواتر أنه ﷺ كان أشجع الناس، فبلغ من شجاعته يوم حنين أنه ثبت وقد فرَّ عنه المسلمون بأسرهم، ولم يبق معه إلّا سبعة نفر على أصح الروايات، أشار إليها العباس في قوله:

أَلَا هل أَتَى عِرْسِي مَكَرِّي ومُقْدَمِي ... بوادِي حُنَيْنٍ والأَسِنَّةُ شُرَّعُ

نَصَرْنَا رَسُولَ الله فِي الحَرْبِ سَبْعَةٌ ... وَقَدْ فَرَّ مَنْ قَدْ فَرَّ عَنْه وأَقْشَعُوا

ومع ذلك فلم يكن على مركبٍ من مراكب القتال كالخيل المُعَوَّدَةِ على الكرِّ والفر، وإنما كان على بغلة، وما اكتفى بذلك بل حتى ترجَّل، ثم لم يكفه مع حرج الموقف؛ وتزلزل الأقدام؛ واصفرار الوجوه؛ إلّا أنْ عرَّفَ بنفسه، وأخذ يقول:

أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ

ولقد كانت الأبطال تفتخر بقربها منه ﷺ حينما يشتد الوطيس، فمع هذه الشجاعة الخارقة للعوائد؛ كيف يرجف فؤاده من المَلَكْ؛ ويمتلئ رعباً من أهل الكهف؟

هكذا أشكل على بعضهم الأمر؛ وما كان يحضر عندنا شيء من الشروح؛

(١) سورة الكهف، الآية: ١٨.

ولا نستحضر بالذهن شيئاً في ذلك عما سلف من القراءات؛ فقلنا في الجواب: إنَّ الشجاعة لا تكون إلّا فيما تتناوله القدرة الإنسانية ويدخل تحت الطاقة البشرية، وقد كان ﷺ كما ثبت بالتواتر في المحل الأسمى من ذلك، فأما ما تنقطع عنه جِبَلَّةُ الإنسان ويكون من عالم الملكوت؛ فالخوف منه إنما هو أثر الخشية من الله والهيبة له، وسيد المرسلين وخاتم النبيين أوفى الخلق نصيباً من هذا المقام الشريف؛ وأرسخهم قدماً عليه. وعدم التأثر لتلك المظاهر الملكوتية لا يكون إلّا عن شدة قسوة؛ أو قوة غفلة؛ أو كثرة إِلْفٍ؛ أو بنسف إنسانيته، وتأمّل القبريين؛ والذين يمارسون الأموات؛ فإنهم كثيراً ما يشاهدون الأمور الهائلة من أحوال البرزخ ثم لا ينزعجون لذلك، أو لا ترى أنَّ راعية الغنم مع ضعفها لا تستوحش من رؤية السباع كما يستوحش غيرها من الأقوياء الذين لم يألفوا تلك المناظر، ولا يمكن لأحدٍ أن يحمل شيئاً من ذلك على الشجاعة. وقد قال القاضي ابن شبرمة لابنه؛ كما في عيون الأخبار لابن قتيبة: يا بنيَّ لا تُمَكِّنْ الناس من نفسك فإن أجرأ الناس على السباع أكثرهم لها معاينة.

إذن فخوفه ﷺ؛ واضطراب قلبه؛ وارتعاد فرائصه؛ عندما نازله الوحي؛ دليل على علوّ شأنه؛ ورفعة مكانه؛ ومعرفته بجليل حقِّ سلطانه؛ الذي تخرس الألسنة عن صفته، وتنقطع الأصوات من هيبته؛ ولهذا قال لأصحابه: «**لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله**» أو ما هذا معناه أو قريب منه، ومن هنا كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل إذا دخل في الصلاة، ويكون مع أهله في حديثهم؛ فإذا أذن بها بلال قام كأن لم يعرفهم ولم يعرفوه، وإذا رأى المخيلة تغير وجهه ودخل وخرج في كثير من أمثال ذلك[1].

---

(١) (حديث مرفوع) عَنْ مَعْمَر، عَنِ ابْنِ طَاوس، عَنْ أبيهِ، عَنْ عَائِشَة، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، إِذَا رَأَى مَخِيلَةً تَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَدَخَلَ، وَخَرَجَ، وَأَقْبَلَ، وَأَدْبَرَ، فَإِذَا أَمْطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «**مَا أَمِنْتُ أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ**: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

فالنبوة مرتبة عالية لا تبلغها الأسباب؛ ولا تنال بالاكتساب. والرسالة أشرف وأكمل وأعظم وأثقل، فكيف لا يرجف فؤاده وقد أَلْقَى إليه قولاً ثقيلاً؛ وكَلَّفَهُ أمراً عريضاً طويلاً؟ ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾[١] وما كان في الجواب؛ ولا سيما عن رعبه من المَلَكْ؛ وأما عن أهل الكهف فقد يستزاد البيان لأنهم من عالم الشهادة، فنقول: إنه عليه السلام سيد أولي الاعتبار؛ وأفضل ذوي الادِّكَار، ولهذا كثر بكاؤه في صلاة الكسوف حتى نفخ، وكم في القرآن من إلفات النظر إلى استخراج العبر، فلا غرو أن ينفطر قلبه من هيبة الباري وقدرته عند مشاهدة ذلك الأثر[٢].

فإن قيل: كيف تجعلون الرعب هنا من الله وهو خلاف قوله في الآية ﴿مِنْهُمْ﴾؟ قلنا: لا إشكال لأنَّ (من) هنا للتعليل والسببية؛ كما في قول امرئ القيس بن عانس:

وَذلِكَ مِنْ نَبَأٍ جَاءَنِي ... وخُبِّرْتُهُ عن أَبِي الأَسْوَدِ

ويبقى لأصل الإشكال ذيل، وهو أنه ﷺ رأى في ليلة المعراج من الأمور

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.

(٢) الرسول ﷺ من أعظم البشر شجاعة بلا جدال وقد أورد الإمام بعض دلائل شجاعته هنا وقد يخاف الشجاع إذا واجه ما يخالف الطبيعة البشرية فإن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يخف النار ولكنه كما جاء في القرآن: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وسيدنا موسى وهو الشديد القوي لما رأى تحرك الحبال والعصي ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧] ولما رأى عصاه تهتز كأنه جان خاف وهرب ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]؛ وقوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨] المعنى في مفهومي أنَّ منظرهم مما لا يحتمله بشر حتى أنت يا أشجع الناس لو رأيتهم لفررت ولملئت منهم رعباً فالمقصود في مفهومي أن ذلك للتدليل على فظاعة منظر أهل الكهف أثناء نومهم حتى أن أشجع البشر سيفُر لرؤيتهم؛ وليس هو لوصف شجاعة النبي ﷺ وخوفه والله أعلم. (المحقق)..

الغيبية والعجائب الكونية ما لا يحصى، كما اقتصَّ بعضه في حديث الإسراء؛ فأين مقام الهيبة الذي أطنبتم في تفضيله وأعربتم عن دليله؟

فنقول: نعم إن الأمر لكما ذكرنا؛ وإن الخوف من الله تعالى لمن أفضل المراتب وأخصِّ دلائل الكمال، ولهذا قَطَّع نياط قلوب العارفين. والآيات في ذلك كثيرة، ومقام الخشية من فوقه؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[1] وهو شأن العلماء بشهادة قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾[3] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[4]؛ ومن وراء الخشية مقام الهيبة؛ لتفرعها عن مطالعة صفات الجمال والكمال، وتأثيرها عن المخافة المصحوبة بصدق المحبة؛ كذا قال بعضهم؛ وذهب آخرون إلى الترادف، ومهما يكن من الأمر؛ فمقامه ﷺ أشرف من كل مقام.

وأما ما وقع ليلة الإسراء من عدم تأثره؛ فإن كان الإسراء بالروح فقط؛ كما قال بعضهم؛ فلا إشكال من عالم الملكوت، وقد أشبه امرؤ بعض بزِّه[5]، وأحرى بها أن لا تُفَرَّقَ مما يلائمها، وإن كان بالجسم كما هو الأصح المتعين؛ فلا إشكال من جهتين: أحدهما أن الروح قد تغلبت على الجسم ولم يبق له قوة ولا تأثير حينئذ؛ والأخرى أنه لم ير الخوارق إلّا في عالمها وهو عالم الملكوت، وقد صار ملكوتياً مع بقاء بشريته بتقوية الله على ذلك، ولكن بقاءها مع تلك الحال لم يمنعها أن تكون تابعة للروح في سائر النواميس والطبائع؛ وإلّا لاستحال صعود الجسم الحي إلى حيث تتلاشى مادة التنفس، ويذهب سلطان الضغط الجوي، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا

---

(١) سورة البينة، الآية: ٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥٧.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٥) (أشبه امرؤ بعض بزِّه) من أمثال العرب قاله سهيل بن عمرو لابنه لما أجاب لغير ما سئل عنه ومعناه أشبه أمه في حمقها..

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1] لأن الصاعد إلى تلك الطبقات؛ لا بدَّ له من الاختناق لاستحالة التنفس مكانئذٍ، ولكنه لما كان الجسم معزولاً عن الولاية والأمر كله في سلطان الروح؛ استتبعته في سائر الطبائع. ومن هذه الناحية ما يؤثر عن الأولياء من طيران وطيٍّ مسافة؛ فإنِّي به في جملةٍ من المؤمنين.

وفي حفظي عن الشعراني: أنه راض نفسه حتى ضعفت بشريته وقويت روحانيته، قال: فكنت أصعد في الهواء إلى الصاري المنصوب في صحن جامع الغمري[2] فأجلس عليه في الليل والناس نائمون؛ ثم إذا نزلت في السلم يلحقني الجهد لمنازعة الروح إلى جهة العلو، فإنه لا يثقل الإنسان في الأرض إلّا كثرة الشهوات، وهذا هو سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر وتلاوة القرآن، فكأنها تهفو إلى عالمها وتَخِفُّ بذلك التشويق إليه (انتهى بمعناه). وقوله: لا يثقل الإنسان إلّا الشهوات لا ينافي طلب الثقل للمركز؛ لأن إتباع الشهوات يزيد ثقل الجسم فيغلب طبع الروح الذي يطلب العلو.

ولو أنه ﷺ رأى تلك الأهوال مع سلطان البشرية في عالم المَلَكْ لذهبت به المخالفة إلى أقصى حدّ يليق بمعرفته. ألا ترى إلى ما قصَّه الله علينا من حال موسى، وأنه لما تجلّى له صعق واندكَّ طُورُه[3] مع تغلب روحانيته حينئذ عليه؛ وصيرورته قلباً كما أشار إليه ابن الفارض بقوله:

فَصِرْتُ مُوسَى زَمَانِي ... مُذْ صَارَ بَعْضِيَ كُلِّي

وذلك لأن التجلِّي كان في عالم المَلَكْ، فلم تقدره قواه، ولو أنه كان في

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٢) جامع الغمري كان هذا الجامع في شارع مرجوش عن يمين السالك إلى باب البحر أنشأه الشيخ محمد الغمري المولود سنة ٧٨٦هـ وجعل به منبراً وخطبة وهو يشتمل على إيوانين وثلاثين عموداً وله منارة ومنافع تامة من مطهرة وكراسي راحة وبئر ونحو ذلك وبه مخازن يسكنها جماعة من طلبة العلم بالأزهر.

(٣) جبل الطور.

عالم الملكوت لما كان ذلك؛ فافهم[١]. ومما لا نزاع فيه أن الأبدان تقشعر لحضور الأرواح المجردة[٢]، حتى إنه لينبغي اغتنام الدعاء حينئذ، وذلك لبعد ما بين الأجسام والأرواح المجردة من التضاد والتغاير، ويعجبني قول بعض شعراء العصر[٣]:

صُونِي جَمَالَكِ عَنَّا إِنَّنَا بَشَرٌ مِنَ التُّرَابِ وَهَذا الحُسْنُ رَوْحَانِي

وأصله قول صُويحبات يوسف: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[٤] ومنه؛ ومن قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[٥] أخذ الزمخشري تفضيل الكروبيين من الملائكة[٦] على خاصة البشر؛ وردَّ بعضهم عليه.

هذا ما سمح به الخاطر الكليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وللكلام تتمة تأتي بطريق الاستطراد في غير ما فائدة.

---

(١) كأن الإمام يشير هنا إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٨ ـ ١٤]. .

(٢) في كلام الإمام عيدروس بن عمر الحبشي (١٢٣٧ ـ ١٣١٤هـ) أن ما يشعر به الإنسان أحياناً من قشعريرة مفاجأة سببها حضور الأرواح. .

(٣) القائل هو أحمد شوقي. .

(٤) سورة يوسف، الآية: ٣١.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٧٢.

(٦) الكَروبيّون: خَلْقٌ من الملائكة، وجبرئيل عليه السلام هو رأس الْكَرُوبِيِّينَ، والكَروبيّون هم سادة الملائكة القريبون من الله عَزَّ وجَلَّ، وأصل هذه التسمية من «كَرُبَ» أي قَرُبَ، وكَرُبَت الشمس أي قربت للمغيب، وكل دانٍ قريب فهو كارِب، والمراد بقربهم من الله جَلَّ جَلالُه شرف منزلتهم عنده وجلالة محلهم منه.

■ وفي هذا الحديث مباحث (١):

المبحث الأول: جاء فيه أنه ﷺ قال لخديجة: «**لقد خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**» فقالت: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتَصِلُ الرَّحِمَ؛ وتَحْمِلُ الكَلَّ؛ وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ؛ وتَقْرِي الضَّيْفَ؛ وتُعِينُ على نَوَائبِ الحَقِّ. ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نَزَّل الله على موسى.

وفيه أمور، الأول: أن قوله: «**خشيت على نفسي**» وقول خديجة: لا والله لا يخزيك الله أبداً؛ وذهابهم إلى ورقة يستفتونه؛ كل ذلك يدل بالفحوى على الشك، وأنه ﷺ لم يباشره اليقين بحقيقة ما أُرِي إلّا بعد حين، وهو مشكل، وإن التزمه بعضهم، وزعم أن ذلك قبل أن يحصل له العلم الضروري بأنه الوحي.

ولكنني لا أرضاه! لأن تمادي الوهم به إلى جواب ورقة بن نوفل؛ بِمَكَانٍ من الإشكال لا تبرك عليه الإبل؛ ولا يُسَلِّمْ به من يعقل، وقد أطالوا الكلام فيه بما لم ينشرح له الصدر؛ ولم تنبسط به النفس؛ ولا أذكر حاصله الآن. وعندي في الجواب أنه ﷺ عرف الحقَّ من أول وهلة، ولم يختلجه شك ولا وهم، ولكن ربما حدثت الأوهام من قوة اليقين ولا سيما في الأمر العظيم؛ وكلنا يجد من نفسه إذا فوجئ بنعمة أو دهمته مصيبة؛ خواطر شكوك ونوازع أوهام يعلم علم اليقين أنْ لا ظلَّ لها من الحقيقة؛ فهو أمر معروف وشيء مألوف. وقد قال الأعرابي الذي أكرمه عبيد الله بن العباس بخمسمائة دينار لما نزل عليه:

فقلتُ لأهلي فِي الخَلاءِ وَصِبيتي ... أَحَقاً أرى أمْ تِلْكَ أحْلامُ حَالِمِ

فقالوا جميعاً: لا؛ بَلْ الحَقُّ هَذِهِ ... تَخِبُّ بِهَا الرُّكْبَانُ وَسْطَ المَوَاسِمِ

بِخَمْسِمَائِنٍ مِنْ دَنَانِيرَ عَوَّضَتْ ... مِنَ العَنْزِ مَا جَاءَتْ بِهَا كَفُّ حَاتِمِ

ويأتي في الفائدة الرابعة والعشرين: إنهما لما عادت عمارة إلى سيدنا

---

(١) أي: حديث بدء الوحي.

عبد الله بن جعفر؛ قال لها: يا حبيبتي أيقظة هذا أم منام؟ وقد وصل إلى أهل الأدب؛ فتنوعوا فيه؛ قال أبو نواس:

ألا لا أرَى مثلي امترَى اليَوْمَ في رَسْمٍ تغصّ به عيني، ويلفظُهُ وهْمي
أَتَتْ صُوَرُ الأَشْيَاءِ بَيْنِي وَبَينَهُ فَظَنِّي كَلَا ظَنٍّ وَعِلْمِي كَلَا عِلْمِ

وقال صاحبه حسين بن الضحاك الخليع:

ما لِسُرُورِي بِالشَّكِّ مُمْتَزِجٌ حَتَّى كَأَنِّي أرَاهُ فِي حُلُمِ
فَرِحْتُ حتَّى اسْتَخَفَّنِي فَرَحِي وَشَبَتْ عَيْنُ اليَقِينِ بِالتُّهَمِ
أمْسَحُ عَيْنِي مُسْتَثْبِتاً نَظَرِي أخَالُنِي نَائِمٌ وَلَمْ أنَمِ

وقال البحتري:

تَشَكَّكْتُ فِيهِ مِنْ سُرُورٍ وَخِلْتُهُمْ خَيَالاً أتَى فِي النَّوْمِ مِنْ طَيْفِهِ يَسْرِي
وأفْرَطْتُ مِنْ وَجْدٍ بِهِ فَدَرَى بِنَا عَلَى سَاعَةِ اللُّقْيَانِ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَدْرِي

وتلاعب به أبو الطيِّب المتنبي فقال:

أعِلْماً نَرى أمْ زَمَاناً جَدِيداً أمْ الخَلْقَ فِي شَخْصِ حَيٍّ أُعِيد

وقال:

وَمِنَ احْتِقَارِكَ كُلَّ مَنْ تَحْبُو بِهِ فِيمَا ألاحِظُهُ بِعَيْنَيِ نِائِمِ

وأخذ قصب السبق في قوله:

كَبُرَ العَيَانُ عَلَيَّ حَتَّى إنَّهُ صَارَ العَيَانُ مِنَ اليَقِينِ تَوَهُّمَا

وهذا هو الذي ينبغي أن يكون وحده شاهداً لما نحن في سبيله. ومثله قول عمارة اليمني:

أَرَى مَقَاماً عَظِيمَ الشَّأنَ أوْهَمَنِي فِي يَقْظَتِي أنَّه مِنْ جُمْلَةِ الحُلُمِ

وقول ابن المقري:

أَعْـطَـى فَـظَـنَّ الـوَافِـدُونَ بِـأَنَّـهَـا رُؤيَـا فَـظَـلُّـوا يَـمْـسَـحُـونَ الأعْـيُـنَـا
وَيَـقُـولُ بَـعْـضُـهُـم لِـبَـعْـضٍ أنْـتُـم يَـقْـظَـى وَهَـذا كُـلُّـهُ هِـبَـةٌ لَـنَـا

وقال أبو الطيِّب في رثاء أخت سيف الدولة:

طَوَى الـجَـزِيـرَةَ حَـتَّـى جَـاءَنِـي خَـبَـرٌ فَـزِعْـتُ فِـيـهِ بِـآمَـالِـي إلَـى الـكَـذِبِ

وعن وجدان صحيح؛ وحال صادق؛ أقول أنا في رثاء ولدي بصري[1]:

وَلِـي نَـوْعُ سَـلْـوَى بِـاعْـتـقَـادِي نَـجَـاتُـهُ وَمَـا أنَـا رَاجٍ فِـي احْـتَـسَـابِـي مِـن الـذُّخْـرِ
وَمَـا شَـابَ عِـلْـمِـي مِـنْ شُـكُـوكٍ بِـمَـوْتِـهِ فَـمَـا زَالَ مَـلآنـاً بِـتَـمْـثِـيـلِـهِ سِـرِّي
ثَـوَى ذِكْـرُهُ فِـي خَـاطِـرِي وَخَـيَـالُـهُ أمَـامِـي وَمِـنْ رَيَّـاهُ فِـي الأنْـفِ كَـالـعِـطْـرِ

ويمكن أن يجاب بمثل هذا عما قام بنفس ابن الخطاب يوم توفي رسول الله ﷺ، إذ كل جواب سواه لا معنى له؛ إلّا أنه ليس لقائليه عقول. هذا ما أرجو أن يكون الصواب في الجواب عن هذا الحديث، وإنْ لم أرَ من تعرض له؛ فلتعقد عليه الخناصر فكم ترك الأول للآخر.

وبه يندفع استشكال قوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾[2]؛ فلقد جاءت على غرار ما فصلته؛ إذ محال أن يتصور وجود الشكِّ عند غيره من أهل الإيمان فضلاً عنه، وإنما هي غيوم الخواطر التي لا بدَّ أن تتراكم على عين الأمر العظيم حتى تنتهي الطمأنينة إلى القرار.

وقد قال القاضي عياض: وتحقق أنه ﷺ لم يشك ولم يسأل؛ وربما كان المراد بالخطاب في شخصه سواه؛ على حَدِّ قَوْله: إياك أعني واسمعي يا جارة، بأمارة قوله تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾[3] إلى

---

(١) توفي ابن الإمام المسمى بصري في ريعان شبابه وكان خلوقاً أديباً لطيفاً.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٤.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٤.

آخر ما ذكر[١]، والذي قررناه خير منه، وقد سمَّى النبي ﷺ ما حصل من إبراهيم شكاً حيث قال: نحن أولى بالشك من إبراهيم؛ وما هو بشك ولا بقريب؛ ولكن رغبة في الوصول إلى أقوى درجات علم اليقين؛ فالإشكال مُنْتَفٍ من أصله؛ أما سؤال أهل الكتاب فيحتمل أن يختص بمنصفيهم، وأن يعم الجاحدين لأن الحق لا يتلثم، فلا بدّ أن يصادقوا بالقوة على الأقل؛ وما كان قائماً بها فهو في معنى الثابت اليقين، ولذا ترك الله تأكيد البعث في سورة المؤمنين لعدم الحاجة إليه مع شواهد القواطع عليه، وأكَّد الموت لأن الناس يعملون أعمال من لا يموت؛ والله جلَّ شأنه يقول: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[٢] ويقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣] ويقول: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٤] ويقول: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾[٥] إلى ما لا يحصى من تلك الأمثال. فلا شك؛ ولا سؤال؛ ولا حاجة لكثير من الأقوال.

أما قول بعضهم بالحاجة إلى التزام تشكُّكه عليه السلام لرد قول بعض الملحدين: ليس ما رآه بِمَلَك؛ ولكنه إلهام من جهة نفسه لأنه طالما تطلَّب ذلك وتعرَّضَ له، فلما قَوِيَ له به الوهم تجَسَّم وظنه مَلَكاً، فقد عرف ما قررناه عدم الحاجة إليه، لأن الكلام بذاته ساقط ومردود من وجوه سمعية منها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ﴾[٦] وقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٧]

---

(١) أي القاضي عياض.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ١٩٧.
(٥) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٦) سورة القصص، الآية: ٨٦.
(٧) سورة يونس، الآية: ١٦.

ووجوه عقلية منها؛ ثواؤه بمكة أربعين ربيعاً لم يتجَسَّم له فيها شيء من ذلك؛ ومنها أنه ظلَّ ثلاث سنين على أحرٍّ من الجمر من فرط اشتياقه على الوحي؛ حتى قالت أعداؤه: قلاه ربه. فلو كان به الخيال؛ لتجسَّم به في تلك الحال، ومنها إخباره عن المغيَّبات بما يطابق الحقائق؛ ومثله لا يكون من جهة الخيال والوهم؛ لأنَّ المُتَخَيِّل إنما يناجي بما في ضميره وما يذهب إليه وهمه، ومنها نزوله مُنَجّماً بحسب ما يتجدد من الوقائع الطارئة، ومنها أنه تحداهم أولاً بمثله؛ ثم بعشر سور منه؛ ثم بسورة واحدة من مثله؛ وما يجوز من عاقل أن يوقع نفسه في ذلك المضيق؛ بناء على وهمٍ يتوهمه وأمر يتظنَّاه، وكُلُّ ذلك وغيره صريح في إبطال هذه المزاعم الوهمية وتفنيذ هذه المطاعن الساقطة، والله أعلم.

■ المبحث الثاني: التدرج في التصريح:

قد يقال: إذا قلتم إنه على يقينٍ من صريح الحقِّ باديء بدء؛ فلماذا لم يصارح به خديجة؛ مع مزيد اختصاصها وكمال محبته لها؟ فنقول في الجواب: إنه ﷺ؛ وإن باشره روح اليقين من حين وقع بصره على المَلَكْ، قد يكون له غرض في التأخير وعدم مفاجأتها بصريح الإعلام؛ ويبقى السؤال عن ذلك الغرض ما هو؟ فإمَّا أن يقال إنه خشي أن تستَعْظِم الأمر؛ فيحدث لها نوع من الوسوسة وحديث النفس، فأحبَّ التدرُّج في إخبارها كما تدرَّج مؤمن آل فرعون في الكلام عن حال موسى؛ وكما صنع إبراهيم مع قومه؛ ومعاذ الله أن يخشى تكذيبها؛ أو أن يكون غرضنا من ذكر آل فرعون وقوم إبراهيم تشبيهاً بهم؛ كلا؛ ولكن القصد الإشارة إلى التدرج في الأخبار من حيث هو، فقد صرحوا باستحسانه وفضل نتيجته، وإلّا فإنها لم تخطبه لنفسها إلّا لما رأت عليه آثار العناية الإلهية والسعادة الربانية؛ فأنَّى تكذِّبه في حال؛ وإن لم يخطر ببالها لعظمه؛ بعدما صدقها وسم قدحه؛ وعرفت ظاهر أمره وخافيه، غير أن ذلك داع الإيثار أن تسمعه من غيره؛ ليكون أبعد عن التهمة؛ وأوقر في النفس؛ وأدعى للاطمئنان الذي سأله إبراهيم مع قوة الإيمان.

وقد يكون اختار ذلك ليكون لها يد طولى ومنَّة عظمى في اكتشاف الحقيقة وبيان الواقع، وهو معقول مع حبه لها؛ ومزيد إحسانها إليه؛ وحرصه على المكافأة؛ والعارف كثيراً ما يسوق المعلوم مساق غيره لشيء من النكات.

وإما أن يقال إنه خشي من مفاجأتها بالتصريح أن يستفزها الفرح فيتولد لها منه بعض الآلام؛ إذ من الفرح ما يقتل؛ فضلاً عما يؤلم؛ لا سيّما وأن هذا أعلى مفروح به؛ ومما يطلب الفرح به: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾[1]؛ ووجهه ظاهر، ونظائره معروفة؛ وشواهده في المتعارف بين الناس كثيرة. وقد ذكر الحافظ ابن حجر؛ أنه ﷺ؛ تزوج سناء بنت أسماء بن الصلت السلمية؛ فماتت قبل أن يدخل بها، ونقل عن الرشاطي عن بعضهم؛ أنَّ سبب موتها هو أنها سُرَّت لما بلغها أن النبي ﷺ تزوجها، فماتت من الفرح، وقال أبو الطيب: ومن فرح النفس ما يقتل.

ومرَّ عليَّ أيام الاشتغال بالعربية: أنَّ بعض النحاة كانت له أم شديدة الحب له والتعلق به؛ فذهب مرة غير بعيد وجاء بحمار موقَّر فقالت له: ما هذا؟ فتهجَّاه لها كي لا تَنْبَهِتْ من المفاجأة لو لفظ به دفعة واحدة؛ ومع ذلك فإنه لم ينجح في احتياله عليها، بل انصدع قلبها مع آخر الحروف، وسقطت جثة هامدة. ومثله موجود في أخبار أشعب مع أمِّه. ويزعم المتنبي أن وفاة جدته كانت من ذلك النوع حيث يقول:

أَتَاهَا كِتَابِي بَعْدَ يَأْسٍ وَتَرْحَةٍ فَمَاتَتْ سُرُوراً بِي وَمِتُّ بِهَا غَمَّا

وخديجة رضوان الله عليها؛ وإن كانت أعقل وأرزن من ذلك؛ فالنعمة كبيرة؛ والأمر عظيم، وشدة الفرح لا يؤمن معها التغير والاضطراب؛ والفجاءة لها دهشة، وقد قال قيس:

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً فَأُدْهَشُ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.

وكم فات[١] في المقامرة تردَّى من شاهق، وآخر جمد دمه عندما فاجأه الخبر بفوزه، والحوادث من هذا النوع كثيرة، ولا سيّما هذه الأزمنة الأخيرة؛ فالإشكال مدفوع من أصله، لاتصال العمل بالمصلحة؛ وموافقته للمألوف المحسوس؛ ولا يُغَبّر عليه بسؤاله ﷺ من فجاءة الخير، لإمكان حمله على تباشيره لأنها من الخير، وعلى ما لا تضر المفاجأة به كما قررنا؛ والله أعلم.

■ المبحث الثالث: مكانة المرأة:

يؤخذ من شأنه ﷺ مع خديجة؛ وانقياده لها المُصَرّح به قوله في هذا الحديث: فانطلقت به خديجة، ضعف ما يروى أنه ﷺ قال: «**شاوروهن واعصوهن**» وما رواه العسكري عن عمر: «خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة»؛ وما رواه الديلمي عن أنس يرفعه: «**لا يفعلن أحدكم أمراً حتى يستشير فإن لم يجد فليستشر امرأته؛ ثم يخالفها؛ فإن في خلافها البركة**».

وقد صرحوا بضعف هذين من حيث السند، وهما ضعيفان متناً أيضاً، وكيف لا؛ وقد ثبت لهنَّ أصلُ المشورة بقوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾[٢] وقد شاور النبي ﷺ أمَّ سلمة يوم الحديبية، وأشارت بالصواب في الحلق[٣].

---

(١) فات في الشيء أي دخل فيه.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٣) عندما أحجم الصحابة عن حلقِ رؤوسهم يوم الحديبية، فلما قال رسولُ الله ﷺ لهم: «**قوموا فانحرُوا ثمّ احْلِقوا**». قال الراوي: فوَاللّهِ ما قامَ منهم رجُلٌ حتى قال ذَلكَ ثلاثَ مَرّاتٍ. فلمّا لم يَقُمْ منهم أحدٌ دَخلَ على ((أُمّ سَلمةَ)) فذَكرَ لها ما لقيَ منَ الناسِ.
فقالت أُمّ سَلمةَ: يا نبيّ اللهِ أتُحِبّ ذَلك؟ اخرُجْ ثمّ لا تُكلّمْ أحداً منهم كلمةً حتى تَنْحَرَ بُدْنَك وتَدْعو حالِقَكَ فيَحْلِقَك. فأخذ بمشورتها فخرَجَ فلم يُكلّمْ أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحرَ بُدْنَهُ ودَعا حالِقَهُ فحلَقَه، فلما رأوا ذَلكَ قاموا فَنَحروا، وجَعلَ بعضُهم يَحلِقُ بعضاً، حتى كادَ بعضُهم يَقتُلُ بعضاً غَمّاً. كما عند البخاري في الصحيح.

وقول إمام الحرمين[١]: ما أصابت امرأة إلّا أم سلمة يوم الحديبية؛ مردود بالحس وبما كان من ابنة شعيب إذ قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[٢] وقد أُثِرَ عن ابن الخطاب أنه كان يشاور النساء بالآخرة[٣]. وأما من قال إنه يشاورهن إذا التبست عليه الأمور ليعتَدَّ بخلافهن في طلب الصواب، فلا أجد له مثالاً إلّا ما ذكره ابن حجر[٤] في فتاويه: أن بعضهم سوَّلت له نفسه الخبيثة أن لا يدعو الله إلّا بِضِدِّ ما يريد؛ لاعتقاده بشؤم حظِّه؛ وسوء ظَنِّه بالله تعالى، وأنه يعكس عليه دعاءه، فهو يريد أن يخادعه.

أما قوله ﷺ: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً**» فلا يناقض شيئاً مما ذكرناه، لأنه باب آخر، إذ المرأة مخلوقة لتدبير المنزل وإمارته، وتربية النسل وتثقيفه؛ وتسلية الأزواج وتنشيطهم للأعمال؛ وكثيراً ما نسمع العرب يقولون: بئسما أدَّبتك به أمك وعكسه.

فإذا اشرأبت أطماعهن لأعمال الرجال؛ فسدت حتَّى أعمال الرجال؛ إذ لا مشجِّع لهم عليها ولا معينٌ إلّا هنَّ. وفي المثل: من يسوق الحمير وكلهم بصفة الأمير! فالمرأة في مرتبة الوزارة الخاصة؛ ولهذا جاء في الحديث: «نِعْمَ المرأةُ الصالحةُ للرجلِ الصالحِ»[٥] وهي غير صالحة للإمارة العامة وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له[٦].

---

(١) هو أبو المعالي عبد الملك الجويني (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ).

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٦.

(٣) أي في آخر أمره؛ وقد استشار عمر ﷺ النِّساء في كم تصبر المرأة على فراق زوجها، وترك مرة كبار الصحابة واقفين وأخذ يستمع إلى حديث خولة بنت ثعلبة، حتَّى انتهت منه وقال في ذلك ما قال، ومنه قوله: «أصابت امرأة وأخطأ عمر»..

(٤) هو الإمام ابن حجر الهيتمي (٩٠٩ ـ٩٧٣هـ) صاحب تحفة المحتاج وغيرها من المؤلفات وله الفتاوى الكبرى والفتاوى الحديثية.

(٥) لم أقف على صحة هذا الحديث ولا أصله وفي الحديث قالَ رسولُ الله ﷺ: «**نِعْمَ المالُ الصّالِحُ للرَّجُلِ الصَّالح**» رواه البخاري والإمام أحمد.

(٦) في هذا الكلام من الحكمة وبعد النظر ما يغيب عن أذهان كثير من المفكرين المعاصرين..

وفي الصحيح أن رجلاً أراد أن يركب بقرة؛ فقالت له ما معناه: إنا لم نخلق لهذا. وكذلك النساء مخلوقات لأمور خاصة بهنَّ لا يصلح لها الرجال ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] فقد ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2] وأقام كُلاًّ في مقام؛ ومتى وقف كُلٌّ عند حدِّه وأحسن تأدية وظيفته؛ سعدت البلاد؛ وصلحت العباد؛ واندفع الشر والفساد؛ وطاب الوصل؛ والتأم الشمل؛ وحسنت الأعمال؛ ونجحت الآمال؛ وإلَّا كانوا كالغراب الذي يقلد مشي القطا ففاته كلُّ شيء؛ فالمرأة غير صالحة للإمارة؛ وأما القضاء فقد روى الطبراني أنَّ كثيراً من الفقهاء أجازوا قضاءها في حالة الاختيار، أما في حالة الضرورة؛ فقد جاء في تحفة ابن حجر: أنَّه متى وَلي ذو الشوكة امرأةً؛ أو أعمى؛ أو صبياً؛ أو كافراً؛ وعجز الناس عن عزله؛ نفذت توليته؛ ونفذ من أحكامه ما وافق الحق للضرورة، وخالفه الرملي[3] في الكافر، وكذلك لا تصلح المرأة للاستقلال بقيادة الحروب. وقد بلغنا أن امرأةً من طيء يقال لها رقاش تقود المغازي؛ وكانوا يَتَيَّمَنُون بناصيتها وكانت مُظَفَّرة أعاذها الله من الخيبة؛ فرأت عورة أسير لها فأعجبتها؛ فمَكَّنَتْهُ من نفسها فأحبلها، فقال لها قومها: هلم الغزو فقالت: رويد الغزو ينمرق[4]؛ فقالوا في ذلك شعراً منه:

كَـانَـتْ رِقَـاشُ تَـقُـودُ جَـيْـشـاً جَـحْـفَـلاً ... فَـصَـبَـتْ وَأَحْـرَى بِـمَـنْ صَـبَـا أنْ يَـحْـبَـلا

وما تفعل المرأة الأميرة في أيام نفاسها وحياضها؟ وإنما هي صالحة للمشاورة في الأمور عند الاقتضاء، ومتى شاورها سيد البشر في مهمات الأمور؛ فبالأحرى أن لا يترفع عن مشاورتها من دونه حين اللزوم، وأي معنى للسكوت

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٢.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٣) الإمام شمس الدين الرملي (٩١٩ ـ ١٠٠٤هـ) قرين ومعاصر لابن حجر الهيتمي وكلاهما مصريان ومن أشهر كتبه نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج.

(٤) هذا مثلٌ يقال لمن شغله عارضٌ عن عمله وهدفه.

مع قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[١] سوى المشاورة؛ إذ كُلُّ إنسانٍ عرضة الخطوب والقطوب والهموم والغموم؛ فمتى بثَّ الرجل ما يُكِنَّهُ لزوجته؛ وسرَّته عنه برأيها الصائب الناشئ عن خالص الرحمة وصافي المودة، تَمَّ السكون؛ وحصل لكلٍّ منهما إلى الآخر الركون.

وقد ثبت أنه ﷺ قَلَّمَا دخل على خديجة مهموماً إلّا كشفت هَمَّه، ولا فاتراً إلّا نَشَّطَتْ عزمه؛ ولا مكروباً إلّا سهَّلت عليه أمره، ولا محزوناً إلّا عزَّته وهَوَّنَتْ عليه ما عراه. وهل يكون ذلك إلّا عن مشاورة وإفضاء بما يكنّه الضمير؟ ومتى ثبت اللازم وهو المَوَدَّة بنص القرآن فقد ثبت الملزوم وهو الاسترسال[٢]، إذ من المعلوم أن رأس المودَّة الاسترسال؛ ولهذا رغبت أمُّ أبان بنت عتبة بن ربيعة؛ عن ابن الخطاب لما خطبها بعد يزيد بن أبي سفيان وقالت: إنه لا يدخل إلّا عابساً ولا يخرج إلّا عابساً. إذ العبوس مانع من طيب المحادثة فضلاً عن الاسترسال وبث ما في الفؤاد.

وقد رأيت في كتاب البركة للحبيشي الوصابي[٣] أنه ﷺ كان لا يقطع أمراً حتى يستأمر عائشة ﵂؛ لأنها كانت جزلة الرأي؛ وكذلك شأنه مع خديجة بالأولى، وهو غاية المقصود؛ ومنه يتوضح بعض ما يأتي في الفائدة السابعة. وقد قضى ﷺ بين علي وفاطمة ﵉؛ بأن على فاطمة ما داخل البيت؛ وعلى عليٍّ ما خرج عنه، ويعجبني قول الأول:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَنْزِلِ المَرْءِ حُرَّةٌ تُدَبِّرُهُ ضَاعَتْ مُروءَةُ دَارِهِ

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) الاسترسال: الاتساع في الحديث والاستمرار فيه.

(٣) كتاب البركة في فضل السعي والحركة للعلامة اليمني محمد بن عبد الرحمن الوصابي الحبيشي (٧١٢ ـ ٧٨٠هـ).

والأدلة على أن ما داخل باب الدار معصوب بناصية المرأة؛ خارجةٌ عَنِ العَدِّ؛ ولها موضع نوفِّيها فيه حقها إن شاء الله.

وبعد هذا يتبين لك خطأ ابن المقفع في قوله: إيَّاك ومشاورة النساء؛ فإن رأيهنَّ إلى أفَنْ؛ وعزمهن إلى وهن. وخروجه عن صواب السنة المطهرة؛ وقد نسبه بعضهم إلى الإمام علي كرم الله وجهه وهو عنه بعيد. ومن الغلظة والجفاء قول الشنفرى[1] يفتخر:

ولا جَبَّاءٍ أكهى مُربّ بعرسِهِ يُطالعها في شأنه كيف يفعلُ

والجباء كسب الجبان؛ ونحوه الأكهي والمرب الملازم؛ ومن رأى ما نجده من الوقاحة والعنجهية في نفس القصيدة؛ تبيَّن له الصواب في عكسه؛ من أمثال قول النابغة الذبياني:

أيّام تخبِرُني نُعمٌ وأخبِرُها ما أكتُمُ الناسَ من حاجّي وأسراري

وهذا هو الاسترسال؛ وقال الأعمش في حديث: «**هلاك الرجال طاعتهم لنسائهم**» ولم يقل هلاك الرجل طاعته لامرأته، إذ قد يكون في النساء؛ مَنْ الرجل امرأتها؛ لكمالها؛ على أن الحديث إما معلل أو مؤول بالطاعة في الإثم، وإلّا فقد جاء في الزاد أنه ﷺ يوافق نساءه؛ ما لم يكن إثم؛ وخير الهدي هَدْيُهْ. ولشَدَّ ما كانت قريش انطلاق السنة؛ وانبساط غرر؛ ومبادلة حديث مع أزواجها؛ وخبر شيبة الحمد مع أم ولده الحارث معروف، غير أنهم لا ينتهون إلى نحو التأمير كما تفعل اليمن؛ لذا قال ابن الخطاب: إنهم تغلبهم نساؤهم؛ إلى ما في خلقه من الفظاظة التي لانَ بعدها جَمّاً؛ وأصحب كثيراً ولا سيما بعدما بنى بعاتكة.

وعلى الجملة فعلى صلاح المرأة يدور الشأن؛ إذ هي أول مدرسة للولد؛ وأحسن ناصح للرجال؛ وأفضل عون لهم على شريف الخصال؛ كما سنوضحه عندما تنتهي إليه النوبة إن شاء الله تعالى.

---

(١) شاعر جاهلي من قبيلة الأزد اليمنية له قصيدة لامية العرب المشهورة وهذا البيت منها..

■ المبحث الرابع: مظهر لتواضع الرسول ﷺ:

يعرف أيضاً من قوله: فانطلقت به خديجة مزيد تواضعه؛ ورقة نسيمه؛ وخفة ظله؛ وميله عن التكلف؛ وبعده عن التنطع؛ وجريه بسوق الطبيعة، خلاف ما عليه المتحذلقون والمتصنعون؛ وما أدري ما يقول هؤلاء في رجل تنطلق به امرأته إلى من يماثله في شيء من خصال الكمال من رجالها للاستفتاء؛ ثم يتبعها مصحباً وينزل على اقتراحها راضياً مختاراً فسيح الصدر رخو الحزام؛ ذلك الرجل هو سيِّد العلماء؛ وأكبر الحكماء؛ وأشرف من يشرب صوب الماء؛ وأفضل من يظله رواق السماء، هداية الوارد والمنقلب؛ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ؛ وزاده كرامة وشرفاً لديه؛ ومن تنتهي به الدماثة واللطف مع خديجة إلى هذا الحال؛ هل يعقل أن يكتم شيئاً يختلج بصدره وأن لا يأخذ رأيها فيه؟

■ المبحث الخامس: بين الانبساط والتجهم:

لا تتجدد لأحد نعمة؛ إلّا حدثت في صدره ولولة لا تزول عنه؛ أو يفضي بخبرها إلى أحبِّ الناس إليه؛ وألصقهم به؛ ومن هذه الجهة يقول أبو عبادة:

مَلأتُ يَدِي فَاشْتَقْتُ والشَّوقُ عَادَةٌ ... لِكُلِّ غَرِيبٍ زَالَ عَنْ يَدِهِ الفَقْرُ

فإن لم يجد من تسكن نفسه بحديثه إليه؛ لم تكن النعمة قيِّمة لديه؛ لهذا قال الطغرائي يتألم:

فلا صَديقٌ إليهِ مُشْتَكَى حَزَنِي ... وَلا أَنِيسٌ إليهِ مُنْتَهَى جَذَلِي

ومن هذا القبيل كانت مسارعته ﷺ إلى خديجة وإخباره إياها بقصته؛ وكلنا يجد ذلك من نفسه؛ فإنه لا يقر لأحدنا قراره إذا قضيت أوطاره؛ حتى ينقلب إلى أهله ويخبرهم بما اتَّفَقَ له، حتَّى لو نزل بقوم فأحسنوا قراه؛ فلا بدّ وأن يتحدث بحكم الطبيعة إلى خاصَّته بذلك، وأخصَّهم أهله، قال حاتم:

واعْلَمْ بِأنَّ الضَّيْفَ مُخْبِر أهْلِهِ ... بِمَبِيتِ لَيْلَتِهِ وَإنْ لَمْ يُسْأَلِ

ولا يخرج عنه مؤمن آل ياسين: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[1] وأشار إليه الشاعر في قوله:

وَشُرِفْت قَدْرِي بَيْنَ قَوْمِي فَلَمْ أَقُلْ ... ألا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ صَنِيعِي

فإنه لا يربو قدر النعم؛ إلّا بين أحباب يتفتحون أنساً إليها؛ وحُسَّادٍ تغلي مراجل قلوبهم غيظاً منها؛ ومتى ألقيت اليك نعمة ولم تعرف مقدارها ولم تتبين قيمتها؛ فارم بها كما قالوا في وجه الحاسد؛ فإن انقبض لها جبينه وتشازرت منها عينه؛ فاعلم أنها ثقيلة في الميزان تستوجب عليك مزيد الشكران. ولما اعتزم المنصور على إبادة البقية الباقية من بني أمية؛ قال له بعض رفاقه: فأين لذة النعم إذا لم يرمقها الحساد؟ وحسبهم موتاً ما يرونك تغدو وتروح فيه من أنواع الألطاف؛ فأعجبه كلامه.

ويحكى أن ابن اليمينين؛ طاهر بن الحسين[2]؛ حصلت له ببغداد إمارة عالية وسعادة مفرطة؛ ولما استُقْبِلَ فيها؛ مفروشة أرضها؛ مزخرفة قبابها؛ استقبالاً شائقاً؛ جاءه بعض عارفيه يهنئه بما تجدد له؛ ويُعظِّم عليه المنَّة في ما وقع له؛ فقال له: لا بَهَاء لشيءٍ من هذا في عيني إلّا لو كان بمرأى من عجائز بوشنج[3]. ولا يخرج قوله ﷺ: «**فإذا قضى أحدكم نهمته فليُعجِّل إلى أهله**» وسيأتي لنا نتكلم عليه في موضعه إن شاء الله.

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) طاهر بن الحسين أحد أشهر قواد الخليفة العباسي المأمون وكان يعرف بذي اليمينين كان شهماً شجاعاً كريماً وداهية وخطيباً بليغاً وقد سيره المأمون من خراسان لمحاربة أخيه الأمين فتقدم طاهر إلى بغداد وحاصرها ثم دخلها وقتل الأمين وعقد للمأمون الخلافة ثم ولاه المأمون على خراسان وأسس هناك الدولة الطاهرية وتوفي سنة ٢٠٧هـ.

(٣) وقيل لطاهر ببغداد لما بلغ: ليهنك ما أدركته من هذه المنزلة التي لم يدركها أحد من نظرائك بخراسان، فقال: ليس يهنيني ذلك، لأني لا أرى عجائز بوشنج يتطلعن إلي من أعالي سطوحهن إذا مررت بهن، وبوشنج مدينة بخراسان قريبة من هراة وقد ولد ونشأ بها طاهر، وكان جدّه مصعب والياً عليها وعلى هراة. قال النووي في شرح مسلم: وأمهات مدائن خراسان أربعة: نيسابور؛ ومرو؛ وبلخ؛ وهراة.

ثم إن قولنا: لا تتجدد لأحد نعمة إلى آخره، عام بحكم الطبع البشري في سائر الناس؛ إلّا أنه مخصوص بنقيضه من حال أهل الدهاء والنكراء؛ فإن الغالب عليهم التقبض والتجهم والعبوس حتى بين خاصتهم وأهليهم، لا يتفتحون لسرور ولا يظهر على وجوههم نور، بل تُرَى أبداً حامضة مقبوحة؛ كأنما هي بالخَلِّ منضوحة، وهؤلاء لا ينالهم بحثنا ولا يمسهم كلامنا، وإنَّا لنعوذ بالله من شرورهم؛ وندرأ به في نحورهم؛ ونسأله أن يصلح أحوالنا وأحوالهم؛ وأن يعين عليهم أهلهم وعيالهم.

وقد قرأت في ترجمة يحيى بن أكثم[1] أنه يمزح حتى مع عدوِّه، وفي ترجمة أحمد بن أبي دؤاد أنه يَجِدُّ[2] حتى مع امرأته. قلت: نحن من طريق الأول؛ بَرَاءٌ من سبيل الثاني، ثم رأيت ابن عبد ربه يروي عن بعض الكتب المترجمة: أن يوحنا وشمعون كانا من الحواريين؛ فكان يوحنا لا يجلس مجلساً إلّا ضحك وأضحك؛ وكان شمعون لا يجلس مجلساً إلّا بكى واستبكى؛ فقال شمعون ليوحنا: ما أكثر ضحكك كأنك قد فرغت من عملك! فقال له يوحنا: ما أكثر بكاءك كأنك قد يئست من ربك! فأوحى الله إلى عيسى ابن مريم أنَّ أَحَبَّ السيرتين إليَّ سيرة يوحنا.

وقالوا: قارف الزهري ذنباً فاستوحش من الناس وهام على وجهه؛ فقال له الإمام زيد بن علي: يا زهري: لقنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أشدُّ

---

(١) قاضي القضاة، الفقيه العلّامة أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي المروزي، وُلد في خلافة العباسي. وروى عنه وغيرهم وكان واسع العلم، كثير الأدب، حسن المناظرة، وعيّنه المأمون العباسي قاضي القضاة، واستطاع يحيى أن يصحح القرارات الخاطئة التي اتخذها المأمون مثل قرار إباحة بعض شعائر تعرض يحيى بن أكثم للرمي بالشناعات والأمور الباطلة والبدع الغليظة بسبب منزلته عند المأمون توفي سنة ٢٤٢هـ بعدما جاوز الثمانين.

(٢) أي يكون جاداً.

عليك من ذنبك، فقال الزهري: الله يعلم حيث يجعل رسالته، ورجع إلى أهله وماله وأصحابه.

وكان محمد بن واسع يتبسَّط لإخوانه وكان أصحابه يتسحَّبون على أذياله؛ وكان مالك بن دينار في غاية الانقباض؛ حتى لقد ضيَّف أصحابه على دقل التمر والماء؛ ثم قال لهم: قوموا نُصلِّي ركعتين شكراً لله! فقالوا له: قاتلك الله؛ أمَّا لو أطعمتنا حلوى لقلت لنا صلوا التراويح. والبسطة هي المحمودة في كل حال؛ والميزان هديه ﷺ؛ فلقد كان هشاً بشاً ضحوك السِّن؛ بسَّام الثنايا؛ مع كثرة بكائه وتواصل أحزانه، وعلى نحو ذلك مضى أمره، فقد كان كما قال أبو عبادة:

ضَحُوكاً إلى الأبْطال وَهوَ يَرُوعُهُمْ ... وَلِلسَّيْفِ حَدٌّ حِينَ يَسْطُو وَرَوْنَقُ

وكما قال أيضاً:

جَدِيرٌ بِأَنْ تَنْشَقَّ عَنْ ضَوْءِ وَجْهِهِ ... ضَبَابَةُ نَقْعٍ تَحْتَهَا المَوْتُ نَاقِعُ

وقد بلغ من تفتُّحِهِ للناس؛ وغلبة البشاشة على وجهه؛ أن نسبوه للدعابة؛ وهو الذي يتململ تملل السليم؛ ويبكي بكاء الحزين من خشية الله، ولكن تارةً وتارة، وما أحسن قول المعرِّي؛ لو أراد أهل البيت:

يَتَهَلَّلُونَ طَلاقَةً وَكُلُومُهُمْ ... يَنْهَلُّ مِنْهَنَّ النَّجِيعُ الأحْمَرُ

وعسى أن يفضي بنا البحث في مزاحه ﷺ إلى توفيته حقِّه، نسأل الله الهداية فإنه ولي التوفيق.

■ المبحث السادس: أكبر أغراض الزوجية:

يتضح من هذا الحديث؛ ومن عشرته ﷺ مع خديجة خصوصاً؛ ومع سائر أزواجه عموماً، ومن أحاديث سمره معهن؛ ومن الآية السابقة في المبحث الثالث؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟

﴿إِلَيْهَا﴾[١]؛ أنَّ أكبر أغراض الزوجية؛ التأسِّي في المُلِمَّات والتعاون على المهمَّات؛ فمن لم تكن له زوجة يفضي إليها بحزنه؛ ويتحدث لديها بما يهمه؛ فمن أين يعرف قلبه السكون؛ أو تطرق خاطره الراحة؟. فأمَّا إرضاء الشهوة المستعجلة؛ وابتغاء اللذة المحدودة؛ فأتفه مقاصد الزوجية؛ ولو لم تكن كذلك؛ لما كان أرقى الخلق حظّاً منها؛ أدناهم منزلة وأصغرهم قدراً؛ وهو الذباب؛ إذ يظل متزاوجاً مع منكوحته طيلة النهار[٢].

وأحرى بمن توفق لزوجة صالحة؛ تشاطره متاعب حياته؛ وتُفَرِّج عليه كرباته؛ أن تنبسط روحه؛ ويكثر فتوحه؛ ويصحَّ جسمه؛ ويزيد غنمه؛ ويطول عمره؛ ويدوم بهاؤه؛ ويشمل هناؤه؛ ويقل عناؤه؛ ويتلألأ ماءُ خَدِّه؛ وتنصع بضاضَةُ جلده، وقد كان ذلك موجوداً بِسَوْقِ الطبيعة في الأزمنة السابقة؛ وربما بقيت آثاره في القرى والبوادي إلى اليوم، أما في الحواضر؛ فلن يوجد إلّا بالتربية الصحيحة البعيدة عن المصائب العصرية؛ فكثير من سفهاء الأحلام؛ وصغار العقول؛ ومعدومي المروءة؛ يغبطون الإفرنج والمتفرنجين على تَعَلُّم نسائهم ومشاركتهن لهم في بعض الأعمال؛ ولو كشفوا عن سرائر قلوبهم؛ لألفوها تحترق بنار الغيرة من مفاسد السفور الفاحش التي اضطَرَّ كثير منهم إلى إيثار العزوبية[٣]؛ فرقوا لهم بدل من أن ينفسوهم، إذ هم ليس إلّا كما قال أبو الطيب:

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) هذا المفهوم الراقي للحياة الزوجية يكاد يكون انعدم في هذه الأيام حيث أصبحت الحياة الزوجية والتعدد في الزواج مطلوباً في كثير من الأحيان لأجل اللذة العاجلة كما أن كلام الإمام على وضع المرأة الإفرنحية المتبرجة وغيرة أزواجهم سيكون أكثر شدة على أزواج المسلمات المتبرجات لأن المسلمين أشد غيرة على حرماتهم من الغربيين.

(٣) وتصديقاً لكلام الإمام قال الفيلسوف الفرنسي الشهير جوستاف لوبون: قامت المرأة تطلب المساواة بالرجل في الحقوق وفي التربية وقد نسيت ما بين النوعين من الفروق العظيمة في القوة العاقلة، وهي إذ فازت بمطلبها جعلت الأوروبي رجلاً من الرُّحَّلْ لا يعرف له بيتاً يأويه ولا عائلة يسكن إليها (جوستاف لوبون: سر تقدم الأمم ترجمة أحمد زغلول مكتبة النافذة صفحة ٩).

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَعْجُبِهَا   إِنِّي بِمَا أنَا بَاكٍ مِنْهُ مَحْسُودُ

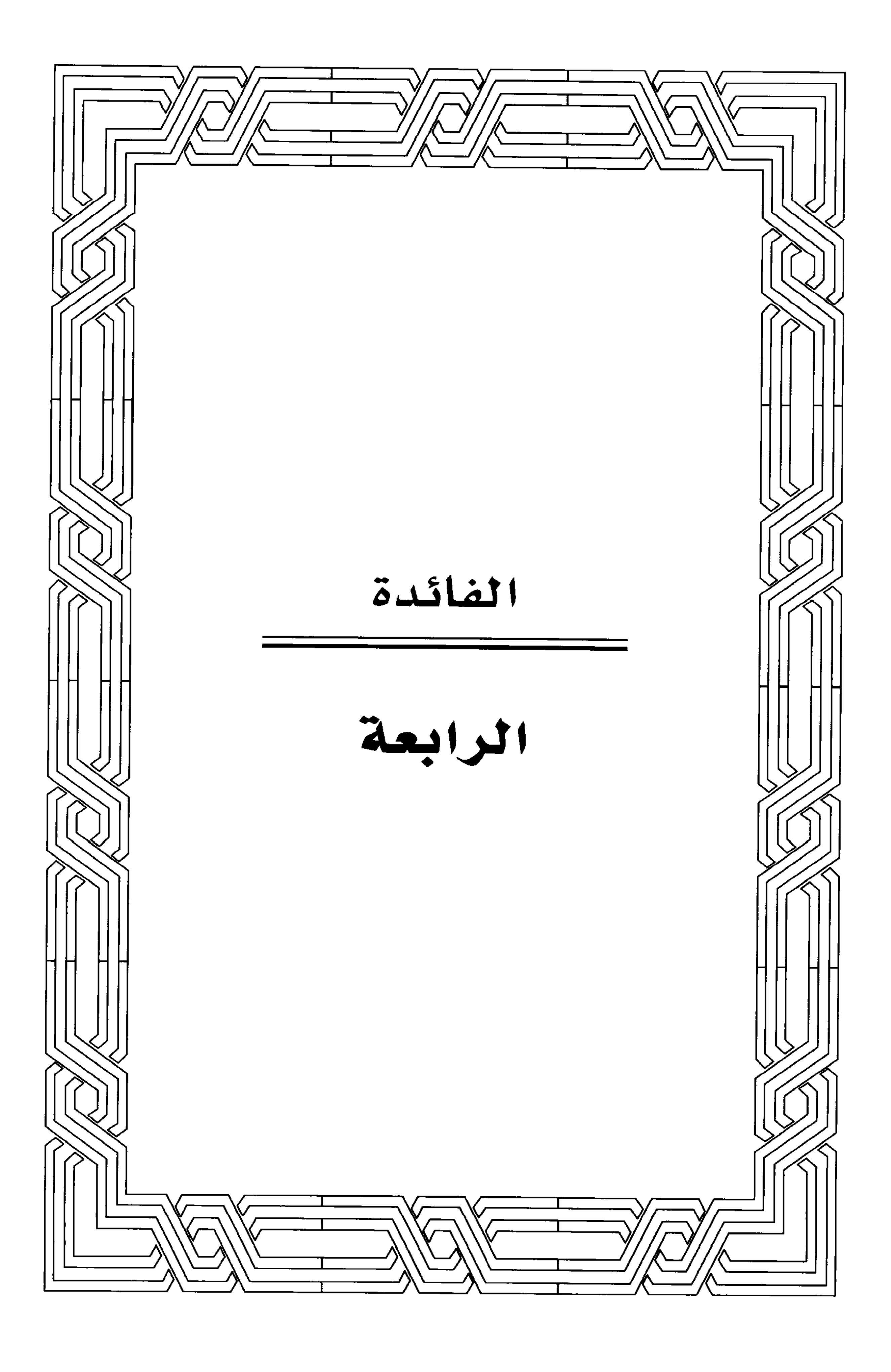
لأنه لا ينفذ إلى قلوبهم شيء من السكون الذي امتن الله به في الزوجية على عباده؛ إذ يستحيل[١] دون أن يكون قلب المرأة خالصاً للزوج، فأمَّا التي تمارس الشباب؛ وتراقص الأحباب؛ فلن يبق في قلبها إلّا أرذل المواضع لزوجها، وما بين العينين لا يوصف، فالاعتناء بشأن المرأة؛ حجر الأساس؛ وأول المهمات؛ وألزم الواجبات، والله أعلم[٢].



(١) أي السكون.

(٢) ينبغي أن يكون هذا الكلام الحكيم نصب عين المربين والواعظين؛ فهو من درر الكلام؛ وكأنما انتشل ابن خلدون صاحب المقدمة من قبره ليحلل ويفسر المشاكل الاجتماعية الحاصلة في هذا العصر.





الفائدة

الرابعة

الفائدة الرابعة

في حديث أبي سفيان: إنَّ ضعفاء الناس اتبعوه ﷺ، وإنَّ هرقل قال له: هم أتباع الرسل؛ وصدق هرقل؛ فإن سُنَّة الله في عباده؛ أنَّ الخاصة وأهل الثروة والجاه أعداء الحق بالأغلب حيثما كانوا، فإن قيل: إنَّ في أصحابه؛ ﷺ؛ المستجيبين له من أول الأمر؛ بعض أهل الشرف، كحمزة وأبي بكر وعمر! فالجواب: إنَّ الغالب على أتباعه الضعف والمسكنة، وقد هدى الله إلى اتِّبَاعِه من سبقت له السعادة من أهل النخوة والشرف، كمن سبق ذكرهم، لكن الحكم إنما هو على الأكثر، وكثيراً ما تكون الدعاية إلى الإصلاح والتشدُّق بالوطنية من الخاصة، والناس يصدقونهم فيما يقولون، ويغترون بهم فيما يزعمون؛ ولو تدبروا آيات القرآن؛ لعرفوا أنه مستحيل شرعاً؛ لأنَّ سُنَّة الله لا تتغير، ومن سُنَّتِهِ: أن يكون أهل النخوة والشرف أعداء الحق والإصلاح في كل زمان ومكان، وإنما يأتون إليه من ورائه إذا قهرتهم الظروف، واضطرتهم الأحوال. وفي الحديث الآتي آخر التفسير: «**إن أهل الجنة كل ضعيف مستضعف، وأهل النار كل عتل جواظ**» وفي الحديث الآخر: «**إنما تنصرون بضعفائكم**» وأخرج الحاكم وصححه؛ ووافقه الذهبي: «**إن أحب العباد إلى الله الأنبياء والمساكين**» في حديث طويل أورده في تفسير سورة يوسف.

غير أن من أحبَّ المساكين من أهل الشرف، وكان عنده مثل ما عندهم من انكسار القلب لله؛ فهو مرجو أن يكون منهم، كما ذكره الحاكم عندما عَدَّ أهل الصفة وذكر فضيلتهم في مستدركه، ومنه يحصل جواب أحسن من الأول من قولنا: فإن قيل إن في أصحابه المستجيبين له من أول الأمر إلخ.

وقد جاء ذَمُّ المترفين والرؤساء، وبيان أنهم أصل الشر ومنبع الفساد ومجلبة الدمار؛ في ما لا يحصى من الآيات، كقوله تعالى حاكياً عنهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[١] وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾[٢]؛ وقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣]؛ وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾[٤]؛ وقوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾[٥]؛ وقوله: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[٦]؛ وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[٧]؛ وقوله: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾[٨]؛ وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[٩]؛ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[١٠]؛ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[١١]؛ وقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾[١٢]؛ وقوله: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[١٣]؛ وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١١١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٦.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٦٤.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٧٥.
(٦) سورة هود، الآية: ٢٦.
(٧) سورة سبأ، سورة: ٣٤.
(٨) سورة الأنبياء، الآية: ١٣.
(٩) سورة هود، الآية: ١١٦.
(١٠) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.
(١١) سورة الواقعة، الآية: ٤٥.
(١٢) سورة المزمل، الآية: ١١.
(١٣) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.

﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[١]؛ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَاۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٢].

ويدخل فيه وصفه لفرعون؛ بأنه كان عالياً من المسرفين؛ وقوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾[٣]؛ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[٤] وقوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[٥]؛ وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[٦] وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٧] وقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾[٨] وحكايته جلّ ذكره عن مترفي الأمم أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٩]؛ فيما لا يحصى من النصوص الواضحة في ذلك، وحسبك أنني أخذت مذمتهم عن سورة النازعات؛ ليلة تفسيرها على قصرها؛ من أربعة مواضع[١٠]؛ وقال عمرو بن أحمر:

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦. (٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة الزخرف، الآيات: ٥١ ـ ٥٦.
(٤) سورة غافر، الآية: ٣٥.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.
(٦) سورة الشعراء، الآيتان: ١٥١ ـ ١٥٢.
(٧) سورة غافر، الآيتان: ٧٥ ـ ٧٦.
(٨) سورة نوح، الآية: ٢١.
(٩) سورة سبأ، الآية: ٣٥.
(١٠) كان الإمام يعقد دروساً بمسجد طه بسيئون في التفسير وفي الشمائل وفي الفقه وهو يتحدث هنا عن استنباطاته من سورة النازعات لكنه لم يتوسع في الشرح.

إنِّـي أعُـوذُ بِـمَـا عَـاذَ الـنَّـبِـيُّ بِـهِ وَبِـالـخَـلِـيـفَـةِ أنْ لا تَـقْـبَـلَ الـعُـذْرا
مِنْ مُـتْـرَفِـيـكُـمْ وأصْـحَـابٍ لَـنَـا مَـعَـهُـمْ أيَـعْـدِلُـونَ وَلا نَـأبَـى فَـنَـنْـتَـصِـرا

فالمُسَلِّم بأقوالهم والمُصَدِّقِ لمزاعمهم؛ كالمتشكك في كتاب الله؛ نعوذ بالله من الخذلان؛ وما دعواهم الإصلاح والخير للأوطان؛ إلّا تمويه وذر رماد على العيون، واستمالة لقلوب المخدوعين، ودندنة حول الأغراض، وتمهيد للرياسة، وحرص على الكبرياء في الأرض، وسعي إلى ما قصرت عنه أيديهم من الجور، وتوصل إلى إرضاء شهوات الانتقام من عباد الله، والتربع على الكراسي؛ والحصول على المرتبات الضخمة، والتحكم في رقاب الضعفاء وأموالهم، وقد قال فرعون لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[١]؛ هذه هي حالهم في كل وسط يكونون فيه، وأنَّى تقبل مزاعمهم بلا حُجَّةٍ تُزَكِّيهم من حسن السلوك، ولا بيِّنة تشهد لهم باستجماع العدالة؛ ومعاذ الله أن نصدق من لا عدالة له في دينه، إنا إذاً لظالمون.

إنما يصدقهم كل ذي قصد قبيح، ويقوم لهم أهل المَلَقِ بما يحبُّون من التوشيح، ثم يتبعهم الطغام الذين يميلون مع كل ريح؛ ولا عبرة بمن صلح من المترفين وخدم الحقيقة، لأنه لا يكون إلّا مسكين القلب، لاحِقٌ بأهل الصُّفَّة في الوصف، حسبما قرره الحاكم؛ ثم إن الصالحين منهم قليل، لا تنخرم بهم القضية، إذ لا يعَلَّق الحكم على الشاذ، وإنما هو على الأغلب حسبما أسلفنا.

فينبغي اتِّهام كل دعوة تنتشر عن رضاهم، ومعاكسة كل نهضة يديرون دفَّتها؛ ومزاحفة كل ثورة تنجم عن تدبيرهم؛ لأنه لا يراد منها إلّا إطفاء نور الحق؛ وبهذا قلت قصيدة في نحو هذا الموضوع:

والـمُـتْـرَفُـونَ عُـدَاةَ الـخَـيْـرِ إنْ بَـعـدُوا فَـهْـوَ الـهُـدَى وأسِـيءُ الـظَّـنَّ إنْ قَـرَبُـوا

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٩.

وإنما تكون الحركة صادقة إذا صدرت عن الطبقات المهضوم حقها؛ المنهوب فيئها؛ المضغوط على حُرِّيَّتِهَا. ثم إنك لا تجد أحداً أحثَّ سعياً لمحو مراسم الشريعة من أولئك المترفين، ولا أشدَّ منهم عداوة لرجالات الدين وحملة العلم؛ ولا سيما إذا أيِسُوا منهم وألفوهم أحراراً صادقين؛ وعرفوا قوة عزائمهم وشدَّة شكائمهم؛ إذ لا يخافون انتكاث الفتل إلّا من شَنِّهم غارة الانتقاد عليهم؛ فيبادرونهم بابتغاء الغوائل وإلصاق التهم بتطلُّب العثرات؛ ولكنهم قد يحبون المتملقين المتصاغرين منهم؛ ليستعينوا بهم في قضاء مآربهم وتنفيذ أغراضهم؛ ويتخذوا منهم مثالاً قبيحاً في تصغير العلم وتحقير أهله؛ بتسخيرهم في خدمتهم وامتهانهم في مجالسهم؛ وترددهم على أبوابهم. وتجدهم أيضاً ولا سيما في ابتداء أمورهم؛ يصانعون المرائين المتحرشين بالولاية ودعوى الصلاح؛ ويقاربونهم لأمنهم من جانبهم؛ واعتقادهم أنهم لا شيء؛ لا لمعرفتهم بأنهم أسرع الناس إلى الدِّهان، وبيع الذمم بالثمن المهان؛ ويتنفقون بهم عند العوام، ويَمَوِّهون بموالاتهم على الطغام، ويتخذون منهم المهازل إذا خلوا بمن يأمنونه الكلام؛ ومنتحلو الولاية يقتنعون منهم بأيسر بُلْغَة من الاحترام، ويتكثرون بهم عند سفهاء الأحلام، ولئن تباينت مذاهبهم واختلفت مشاربهم؛ فقد تشابهت قلوبهم واجتمعت على خصلتين؛ **إحداهما**: التماسة في الجامدين؛ فالمترفون يحاولون السيطرة على الأبدان والتحكم في الرقاب، والآخرون يبتغون الزلفى في القلوب والاستيلاء على النفوس. **والثانية**: اتفاقهم على أحرار العلماء؛ فإنهم يد واحدة عليهم؛ كما اجتمع الكميت وهو شيعي عدناني؛ والطرماح وهو ضده في كل شيء؛ على بغض العامة وفيهما يقول بعضهم:

فَنَحْنُ مِنْ وِدٍّ وَحُبٍّ كَمَا ... كَانَ الكُمَيْتُ وَالطِّرْمَاحُ

إذاً لا غرابة في اجتماع هؤلاء؛ وتبادلهم الثناء؛ وتقارضهم الخيانة؛ وتجاذبهم أطراف التمويه؛ وتسوُّقهم بالباطل. وأشد ما يغيظني من أولئك المتصنعين؛ كثرة دعايتهم إلى سيرة السلف؛ على ما بينهم وبينها من البون الشاسع، والفرق الواسع. والداهية الدهياء هي إيهامهم أنَّ السلف على مثل

حالهم؛ وأنَّ رأس مال الولاية السبحة الثقيلة، والسواك الطويل، وتشويه الهيئة، وتشعيث اللحية، واطّراح النظافة، وترك التَّجمُّل، وإطراق الرأس، وقصر الخطأ، والسكوت على المنكرات، وإنكار بعض الأوضاع والرسوم على غير المترفين؛ وما أشبه ذلك مما تبكي له عين الإسلام، ويتبرأ منه خير الأنام، ولا حول ولا قوة إلّا بالله؛ فقد زاد الكيل، وعمَّ الويل، وطفح السيل؛ وبلغ السكين العظم؛ وكم لي في نفي أحوالهم من النثر والنظم؛ منه قولي:

أصيحُ وَشَعْبِي غَارقٌ فِي مَنَامِهِ ... لأيْدِي الشَّقَا ألْقَى بِثَنْيِ زِمَامِهِ

ومنها:

وكَمْ ذَا تَرى مِنْ ذِي وَقَارٍ وَهَيْئَةٍ ... يَرُوعُكَ فِي هِنْدَامِهِ وَكَلامِهِ

تَظُنُّ بِهِ خَيْراً وَتَحْسَبُ أنَّهُ ... لإصلاحِ حَالِ النَّاسِ جُلُّ اهْتِمَامِهِ

يَرَى مَبْلَغَ التَّقْوَى الرُّسُومَ فَكُلُّ مَنْ ... يُقَصِّرُ فِيهَا وَاقِعٌ فِي مَلامِهِ

فَيشْتَدُّ غَيْظاً لِلْعِمَامَةِ وَالرِّدَاءْ ... إذَا لَمْ تَكُنْ فَي الحَجْمِ طِبْقَ مَرَامِهِ

ويَأتِي امْرؤٌ مَا لَيْسَ لِلشَّرْعِ مَعْتَبٌ ... عَلَيْهَ فَيَرْمِيه بِسوطِ انْتِقَامِهِ

وَيَدْعُو إلَى هَدْيِ الخِيَارِ بِعَكْسِ مَا ... عَلَيْهِ جَرَى خَيْرُ الوَرَى فِي نِظَامِهِ

وَتَعدُوا عَلَى الدِّينِ العَوَادَي فَلا نَرَى ... لَهُ غِيرَةً مِنْ سَعْيِهَا لاخْتِرَامِهِ

يَهِيجُ لِغِشْيَانِ المُبَاحِ وَعِنْدَمَا ... يَرَى الإثْمَ صِرْفاً يَنْثَنِي فِي انْهِزَامِهِ

وَمَا لِرَسُول اللّه زَيٌّ مُخَصَّصٌ ... يُكَلَّفُ طُلَّابُ النَّجَا بِالتِزَامِهِ

بِغَيْرِ انْتِصَارٍ لِلْتَّفَرْنُجِ إنَّهُ ... دَلِيلٌ عَلَى مَنْ رَقَّ حَبْلُ اعْتِصَامِهِ

ولَكِنَّ أصْحَابَ التَّصنُّعَ غَيَّرُوا ... مَنَارَ الهُدَى مِنْ خَلْفِهِ وَأمَامِهِ

وَزَادُوا كَمَا شَاءَ الرِّيَاءُ وَألصَقُوا ... بِهِ بِدَعاً كَانَتْ لَهُ شَرَّ ذَامِهِ

أرُونِي امْرَءاً مِنْهُمْ تَمَعَّر عِنْدَمَا ... تَمَطَّى البَلا فِي قُطْرِنَا بِظَلامِهِ

وَقَامَ احْتِسَاباً يَوْمَ حَلَّتْ بِعُقْرِنَا طَلائِعُ كُفْرٍ هَمُّهَا فِي التِهَامِهِ[١]

ومنها :

وَكَمْ مُنْغِصَاتٌ لا يَجُوزُ لِمُؤمِنٍ عَلَى مِثْلِهَا إلَّا امْتَشَاقَ حُسَامِهِ
وَكَمْ مُوجِعَاتٌ آتِيَاتٌ تَطَلَّعَتْ مَنَ الجُورِ تَبْدُو مِنْ وَرَاءِ آكَامِهِ
وَكَمْ وَاعِظٌ مِنْهُمْ يُقَارِبُ خَطْوَهُ وَيَعْرَجُ يَسْتَهْوِي عُقُولَ طِغَامِهِ
يَقُولُ بِلا عِلْمٍ وَيَبْكِي وَمَا لَهُ مِنَ العَيْشِ إلَّا غَرْفَةً مِنْ حَرَامِهِ
وَلا سَاكِتٍ وَالسَّيْلُ قَدْ بَلَغَ الزُّبَا يَدَا اللّهِ إلّا الشِّرْكَ تَحْتَ لِثَامِهِ
أيُغْضِي عَلَى هَذَا القَذَا جِفْنُ مُسْلِمٍ يُؤمِّلُ بالإسْلامِ مَحْوَ آثَامِهِ
وَيَرْضَى بِتَحْرِيفِ الشَّرِيعَةِ طَامِعٌ مِنَ اللّهِ أنْ يَحْظَى بِحُسْنِ خِتَامِهِ
وَيُدْهِنُ فِي ذَات الإلَهِ وَلَوْ عَدَوْا عَلَى شَاتِهِ لَمْ يَنْحَجِزْ عَنْ قِيَامِهِ
يُصَانِعُ قُطْبَ الوَقْتِ وَالحَالُ أنَّه تَشِبُّ لِفَوْتِ الفلْسِ نَارُ اضْطِرَامِهِ
وَيَغْضَبُ فِي شَرْوَى نَقيرٍ وَيُكثِرُ الضِّجَاجَ إذا مَا زَادَ مِلْحُ طَعَامِهِ
وَيَخْطُرُ مِثْل الفَحْلِ إنْ قَصَّرَ امْرؤٌ يلاقِيهِ فِي تَقْبِيلِهِ واحْتِرامِهِ
إذَا كَانَ لا يَرْجُو؛ وإلَّا فإنَّهُ يُلاقِيهِ مِنْ قَبْلِ رَدّ سَلامِهِ
فَهَيْهَاتَ مِمَّنْ كَانَ ذَا وَصْفُهُ التُّقَى وإنْ زَادَ فِي تَسْبِيحِهِ وَصِيَامِهِ
فَزَيُّ صَلاحِ القَوْمِ مَا رأيْتُ مِثْلُهُ مِنَ السُّحْبِ إلّا خَالِيَاتٍ جِهَامِهِ

ولئن خرجنا بها عن الموضوع وأسهبنا؛ فعذرنا اطِّراد نظامها؛ وتقاطر فصولها؛ واستباق مواضيعها وأغراضها؛ وقيامها بشرح الواقع بدون إفراط. وطالما كررنا على الأسماع ما ذكره بحرق؛ ونقله العلامة ابن حجر في فتاويه عن القاضي عياض مؤلف الشفاء؛ من أشنوعة التصنُّع ومذمة أهله؛ وأنهم أسوأ حالاً

(١) يشير هنا إلى وصول الإنجليز إلى حضرموت.

من أصحاب الفواحش؛ وأن ما يصلهم بالجاه من معتقديهم لداخل تحت قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ الآية. ثم رأيت الحاكم أخرج في مستدركه عن أُبيٍّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَشِّرْ أُمَّتِي بِالسَّنَاء والرِّفْعَة والتمكين في البلاد ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة؛ فمن طلب الدنيا بعمل الآخرة؛ لم يكن له في الآخرة نصيب**». وقال صحيح الإسناد؛ ولا يؤخذ منه منع الأرزاق على الوظائف والأجور على التعليم؛ لأنه لون آخر يندرج تحت قوله ﷺ: «**إنَّ أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتابُ الله**».

ولكن يتبين منه؛ أنَّ هولاء المتصنعين شَرٌّ من إخوانهم المترفين؛ ولا أجد لهم مثلاً في دعوتهم إلى سيرة السلف مع ما هم عليه؛ إلّا يزيد بن المهلِّب؛ فقد كان في سجن عمر بن عبد العزيز؛ ولما مات وأفضت بعده الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك؛ خرج يدعو إلى سيرة عمر بن عبد العزيز؛ فقال الحسن البصري: ألا وإنَّ من سيرةِ عمر أن توضع رجلاه في قيد.

ولو اطَّلع السلف على أحوال هؤلاء الدجالين؛ لقالوا: إنَّ من سيرتنا منابذتهم وخزايتهم ومقتهم وبغضهم في الله؛ لأنهم نصابون؛ ثُمَّ إن كلمة الحسن هذه؛ قد تدل لما يقال عنه؛ أنه اشتغل في الآخرة بالدعوة لبني مروان وتثبيت الأمر لهم؛ وما كان ليلقب بسيِّد التابعين؛ إلّا عن ممالأة الدولة ورضاها بذلك؛ وإلّا فقد كان زين العابدين؛ أحقَّ بهذا اللقب؛ فما له استأثر به دون غيره؛ ولن يكون إلّا لأمرٍ عظيم. وكان يباشر القتال في جيش المهلب بن أبي صفرة؛ وتولى القضاء في أيام عمر بن عبد العزيز؛ ثم اعتزل الأعمال وبقي يُحَذِّر في دروسه من الفتن؛ ويفتي بمنع الخروج على أمراء الجور؛ غير أنه كما في الأحياء؛ لا يكون عنه للغَضِّ من بني مروان؛ ويتناول الحجاج بأسوأ العتب؛ ويصعب عليه القول؛ فإمَّا أن يكون من إنصاف وشجاعة أدبية فائقة؛ وإما أن يكون سياسة ليكون ما يظهره من العيبة لهم؛ مبرراً لما يخدمهم به في ظهر الغيب؛ وكان يزنُ بالانحراف عن عليّ. قال المُبَرّد: كان إذا تمكن في مجلسه؛ ذكر عثمان فترحَّم عليه ثلاثاً؛

ولعن قتلته ثلاثاً؛ ويقول: لو لم نلعنهم لَلُعِنَّا، ثم يذكر علياً فيقول: لم يزل أمير المؤمنين علي عليه السلام يتعرضه النصر ويساعده الظفر؛ حتَّى حَكَّم، فِلَمَ تُحَكِّمْ والحَقُّ معك؛ ألا تمضي قدماً لا أبا لك وأنت على الحق؛ قال أبو العباس: وهذه كلمة فيها جفاء، اهـ إلّا أن شارح النهج وغيره نقلوا عنه ما يبرئه من ذلك. وهو رجل قويُّ العارضة؛ لا يجفُّ له ريق؛ ولا تعيى عليه الطريق؛ ومعاذ الله أن نقول فيه إلّا خيراً؛ وهو علم من أعلام الدين؛ تتفجر الحكمة من جوانبه؛ وكيف لا؛ وقد دَرَّت عليه أم سلمة[1]؛ وَرِبيَ في بيتها؛ إذ كان ابن مولاتها؛ بَرَكَة؛ فهو من الاتصال برسول الله ﷺ على ما تسمع؛ غير أنَّا ذكرنا كل ما يقال.

وهاهنا مسألة وهي: أنه ليس المراد بأنصار الحق من ضعفة الخلق؛ الهمج الرعاع الذين يميلون مع كل ريح؛ ويتَّبعون كل ناعق؛ كلا؛ ولكن الضَّعَفَة فيما يرى الناس؛ مع رسوخ دينهم؛ وقوة يقينهم؛ ونفوذ بصائرهم؛ وصحة عقود ضمائرهم؛ لا تُخْشَى هزائمهم ولا تنفسخ عزائمهم؛ ولا تتزلزل عقائدهم؛ ولا تتغير مبادئهم؛ على شَبَهٍ قويٍّ بمن قيل فيهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2] ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[3] ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[4]. أولـئـك أساطين الحركات المباركة؛ وأراكين الانقلابات الصالحة. ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[5].

وفي هذا الحديث؛ أنَّ أبا سفيان لما سأله هرقل عن كيفية قتالهم معه ﷺ؟ قال: الحرب بيننا وبينه سجال؛ ينالُ مِنَّا وننال منه، وزعم البلقيني أنَّ في هذه الكلمة دسّاً، وأخطأ في ذلك؛ فقد حصل قبل هذه القصة ثلاثة مواقف؛ أحدها

---

(١) أي أرضعته زوج الرسول ﷺ؛ أم سلمة رضي الله عنها.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.
(٥) سورة القصص، الآية: ٥.

بدر والنصر مع المسلمين؛ والثاني أُحِد والنيل من المسلمين؛ والثالث الخندق وقد أصيب فيه من الطرفين؛ فما قاله أبو سفيان صحيح، ولو شاء الله أن يُطْبِقَ على أعداء نبيِّه الأخشبين؛ أو يحملهم على خافية من خوافي جبريل؛ لفعل، ولكنها تَخِفُّ المحنة ويسقط الاختبار. وقد عُرِضَ بعضه عليه ﷺ؛ كما في الحديث؛ فما أراده؛ لأنَّ الله لا يحبه؛ وحاشا أن يكون له هوى مع الله وهو سيد العارفين؛ ولأنَّ ما صار؛ أرسخ لقواعد الإسلام؛ وأمكن لتثبيت دعائم الملَّة.

وفي الموضوع كلام يؤثر عن الإمام الغالب علي بن أبي طالب؛ نلخص ما بقي في الذهن منه؛ قال كرم الله وجهه: لو شاء الله أن يخلق آدم من نور؛ يخطف الأبصار ضياؤه ويبهر العقول رداؤه؛ وطِيب يأخذ الأنفاس عَرْفُه؛ لفعل؛ ولو فعل؛ لظَّلت الأعناق خاضعة، ولخفَّت البلوى على الملائكة؛ ولكن الله ابتلى خلقه ببعض ما يجهلون؛ تميُّزاً بالاختبار ونفياً للاستكبار، ولو رخصّ الله لأحدٍ في الكبر؛ لكان أولى الناس بذلك خاصة أنبيائه؛ ولكنه كره لهم التكابر وحبب لهم التواضع فألصقوا بالأرض خدودهم؛ وعفَّرُوا بالترب وجوههم؛ وخفضوا للمؤمنين أجنحتهم؛ وكانوا مستضعفين قد اختبرهم بالمخمصة؛ وابتلاهم بالمجهدة؛ وامتحنهم بالمخاوف؛ ومحصّهُم بالمكاره، ولو أراد الله أن يفتح لهم كنوز الذهبان؛ ومعادن العقيان؛ ومغارس الجنان؛ وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرض؛ لفعل؛ ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء؛ ولكنَّ الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم؛ وضَعَفَةً فيما ترى الأعين من حالاتهم؛ مع قناعة تملأ القلوب غنىً؛ وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذىً، ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام؛ وعزة لا تضام؛ ومُلْكٍ تمتد نحوه أعناق الرجال؛ وَتُشَدُّ إليه عقد الرحال؛ لكن ذلك أهون على الخلق في الاعتبار؛ وأبعد لهم عن الاستكبار؛ ولآمنوا عن رهبة قاهرة؛ أو رغبة مائلة؛ وكلما كانت البلوى أعظم؛ كانت المثوبة أجزل؛ أولا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين والآخرين بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع؛ فجعلها بيته الحرام؛ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً؛ وأقل نشائق الدنيا مدراً؛ وأضيق بطون الأودية قطراً؛ بين جبال

خشنة؛ وعيون وشكة؛ ولو شاء أن يضع بيته المحجوج؛ بين جنات وأنهار وأرياض محدقة؛ وعراض مغدقة؛ وطرق عامرة؛ وزروع ناضرة؛ لكان قد صغر الجزاء على حسب ضعف الابتلاء ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء؛ لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور؛ ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب؛ ولنفى معتلج الريب من الناس؛ ولكنَّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد؛ ويتعبَّدهم بأنواع المجاهدة؛ ويبتليهم بضروب المكاره؛ إخراجاً للتكبُّر من قلوبهم؛ وإسكاناً للتذلُّل في نفوسهم؛ وليجعل ذلك أبواباً إلى فضله؛ وأسباباً ذُلَلاً لعفوه (انتهى بمعناه وأكثر لفظه) وهو داخل في تفسير قوله تعالى: أم ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ وغيرها من الآيات الكثيرة. فلا يغض من شأنه ﷺ؛ ما نال منه الكافرون يوم أُحد وغيره؛ فقد نالوا منه ﷺ؛ أكثر منه وقتما كان بمكة. فمرةً؛ بصق أحدهم في وجهه الشريف؛ وأخرى؛ وطؤوا عنقه الشريف حتَّى كادت عيناه تخرجان؛ وثالثة: نتفوا الأكثر من شعر لحيته ورأسه؛ وأخرى: وضعوا سلي الناقة على ظهره؛ وما قدر أحد على تنحيته حتى جاءت فاطمة وهي صبية تدرج؛ في كثير من أمثال ذلك. ولكن الأمر كما قال البوصيري:

لا تَخَلْ جَانِبَ النَّبِيِّ مُضَاماً حِينَ مَسَّتْهُ مِنْهُمُ الأَسْوَاءُ

كُلُّ أمْرٍ نَابَ النَّبِيينَ فَالشِّـ ـدَّةُ فِيهِ مَحْمُودَةٌ وَالرَّخَاءُ

لَوْ يَمَسُّ النُّضَارَ هُونٌ مِنَ النَّارِ لَمَا اختِيرَ لِلنُّضارِ الفُضَلاءُ

ومن فوائد الشدَّة هنا؛ تأكيد الحُجَّة؛ وتثبيت الدعوة؛ فلو لم يكن الأمر من عند الله؛ لما صبر على تلك الأذايا؛ مع ما يعرضون عليه؛ لو رجع؛ من العِزِّ والجاه والمال. قال ابن أبي الحديد: حضرت بالنظامية وأنا غلام عند خازن الكتب؛ وعنده باتكمين الردي وكان مسلماً؛ وجعفر بن مكي الحاجب؛ وكان مغموصاً عليه؛ فجرى ذكر يوم أحد؛ وقول ابن الزيجري:

كَـمْ قَـتَـلْـنَـا مِـنْ كَـرِيـم سَـيِّـدٍ مَـاجِـد الـجـدَّيْـنِ مِـقْـداماً بَـطَـلْ
لَـيْـتَ أشْـيَـاخِـي بِـبَـدْرٍ شَـهِـدُوا جَـزَعَ الـخـزْرَجِ مِـنْ وَقْـعِ الأسَـلْ

وأنَّ المسلمين اعتصموا بالجبل وأصعدوا فيه؛ وأنَّ الليل حال بينهم وبين المشركين؛ فتمثل ابن مكي بقول أبي تمام:

لـولا الـظـلامُ وَقِـلَّـةٍ عَـلِـقُـوا بِـهَـا بَـاتَـتْ رِقَـابُـهُـم بِـغَـيـرِ قِـلالِ
فَـلْـيَـشْـكُـرُوا جُـنْـحَ الـظَّـلامِ وذردرَداً فَـهُـمُـو لَـهُ رُودٌ وَالـظَّـلامُ مُـوَالِـي

فقال باتكمين: لا تقل هذا؛ ولكن قل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] اهـ.

وقد نظر الطائي في بيتيه إلى قول أخي قضاعة:

بَـذلْـنَـا يَـارنَ الـخَـطِّـي فِـيـهـم وَكُـلَّ مـهَـنَّـدٍ ذَكَـرٍ حـسَـامِ
مـنـا إن ذر قَـرنَ الـشَّـمـسِ حَـتَّـى أغـاث شَـريـدَهُـم فَـنَـنَ الـظَّـلامِ

ويذكر أن سبرة بن عياض أنشد بحضرة عبد الملك بن مروان قصيدة لدريد بن الصمة؛ فلما انتهى منها إلى قوله:

وَلـولا جِـنَـانِ الـلـيـلِ أدْرَكَ خَـيـلَـنَـا بِذِي الرِّمثِ والأرْطِي عِيَاضُ بنُ نَاشِبِ

وجنان الليل: ما يستر من ظلامه؛ قال عبد الملك: ليت الليل أمهله ساعة؛ أو وددت أن لو بقي له فوات من النهار؛ وما أدري ما ذنب عياض إلى عبد الملك حتى تمنى الفرصة لهلاكه. وقال مالك بن زبرة؛ يذكر انتصار قومه بني يربوع على بني شيبان في يوم الغبيط:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

فَـأَقْـرَرْتُ عَـيـنِـي يَـومَ ظَـلُّـوا كَـأَنَّـهُـم ... بِـبَـطـنِ الـغَـيـطِ خُـشْـبُ أَثْـلٍ مُـسَـنَّـدُ

لَـدُنْ غَـدوَةٍ حَـتَّـى أَتَـى الـلـيـلُ دُونَـهُـمْ ... وَلا تَـنْـتَـهِـي عَـنِ مِـلـئَـهَـا مِـنـهُـمُـو يَـدُ

وقال زيد الفوارس يصف ما صنع بنهبته رعود يوم النقيعة:

وَلَّـوْا تَـكُـبُّـهُـمُ الـرِّمَـاحُ كـأَنَّـهُـمْ ... أَثَـلٍ جَـأَفَـتْ أُصُـولُـهُ أَوْ أَثَـأَبُ

لَـدُنْ غُـدْوَةٍ حَـتَّـى أَغَـاثَ شَـرِيـدَهُـمْ ... جَـوُّ الـغَـشَـاوَةِ فـالـعـيـونُ مِـنَ لـتـب

وجو العشاوة وما بعده مواضع

وقال قيس بن الخطم الأوسي:

فَـلـولا ذُرَى الآطَـامِ قَـدْ تَـعـلَـمُـونَـهُ ... وَتَرْكُ الفَضَا شُورِكْتُمُو فِي الكَوَاعِبِ

وقال خداش بن زهير يصف يوم نخلة؛ وهو أحد أيام الفجار:

يـا شَـدَّةً مَـا شَـدَدْنـا غَـيـرَ كَـاذِبَـةٍ ... عَـلـى سـخـيـنـة لـولا الـلـيـلُ والـحَـرَمُ

ثم أقول؛ مثل البلقيني[(١)]: كثير في الأمة الإسلامية؛ ينظرون إلى الأمر من ناحية واحدة؛ فيذهب بهم التعصب مذاهب تنحرف بهم عن جادَّة الصواب؛ فقل للبلقيني وأمثاله: هل أكرم الله محمداً بما ناله من أعدائه أم أهانه؟ فإن قال: أهانه؛ فقد فحش وأتى بالإفك العظيم؛ وإن قال: أكرمه؛ فقل له: لماذا تحاولون تصغير كرامة الله عليه؛ وبماذا فُضِّلَ أولو العزم على سائر المرسلين؛ وأنتم تساترون بعض ما لاقوا من المِحَنْ؛ وبها لهم رِفْعَةُ منازل؛ وعُلوّ درجات.

أخرج الحاكم وصححه؛ ووافقه الذهبي عن عبد الرحمن بن شيبة: أنَّ عائشة أخبرته أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الصالحين يشدد عليهم**». وصح عن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي ﷺ وهو محموم؛ فوضعت يدي من فوق القطيفة فوجدت حرارة الحمى؛ فقلت: ما أشد حُمَّاك يا رسول الله قال: «**إنا**

---

(١) هو الإمام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني القاهري؛ ولد سنة ٧٢٤هـ؛ وقرأ على تقي الدين السبكي وله (شرح المنهاج) و(المهمات) وتوفي سنة ٨٠٥هـ.

كذلك معشر الأنبياء يضاعف علينا الوجع ليضاعف لنا الأجر» قال: فقلت يا رسول الله أيُّ الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء**»، قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «**الصالحون**».

وأعجب من ذلك من يحرِّف الكلم عن مواضعه؛ ويأوِّل النصوص الظاهرة لتقديس الصحابة فمن دونهم؛ ويأتي بما لا يتفق إلّا على القول بعصمتهم؛ وفي ذلك ما لا يخفى من المفاسد؛ كما سنبيِّن كل ما يقع لنا منه في طريق البحث بحول الله وقوَّتِه.

وفي الحديث ما يدل على شيوع الصدق واستنكار الكذب إذ ذاك؛ وإلّا فلا مانع لأبي سفيان من الكلام على رسول الله ﷺ؛ إلّا خشية أن يؤثر عنه الكذب؛ ومع ذلك؛ فقد علم أن أصحابه لن يكَذِّبوه لو كذب؛ كما جاء التصريح بذلك في بعض طرق الحديث.

ويؤيد ذلك ما أخرجه الحاكم؛ على شرط الشيخين؛ وقال الذهبي: إنه صحيح من قول البراء: ليس كلنا يسمع حديث رسول الله ﷺ؛ كانت لنا ضيعة وأشغال؛ ولكن الناس كانوا لا يكذبون؛ فَيُحَدِّث الشاهد الغائب.

وأخرج الحاكم عن خريم بن أوس؛ قال: هاجرت إلى رسول الله ﷺ؛ منصرفه من تبوك؛ فأسلمت؛ فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك؛ فقال رسول الله ﷺ: «**قل لا يفضض الله فاك**» فقال العباس:

مِنْ قَبلِهَا طِبت فِي الظِّلالِ وَفِي ... مُستودَعٍ حيثُ يخصف الورق

ثمَّ هَبطتَ البلادَ لا بَشَرْ ... أنْتَ وَلا مُضْغَةٌ وَلا عَلَقْ

بَلْ نطفَةٌ تَركَبُ السَّفِينَ وَقَدْ ... أَلْجَمَ نَسْراً وأهْلَهُ الغَرَقْ

تُنْقَلُ مِنْ صُلبٍ إلى رَحِمْ ... إذا مَضَى عَالَمٌ بَدا طَبَقْ

حَتَّى احتَوَى بَيتَكَ المُهيمِنُ ... مِنْ عَلْيَاءَ خَندفٍ تَحتَهَا النُّطَقْ

وَأَنـــتَ لَـــمَّـــا وُلِـــدتَ أَشْـــرَقَـــت ... الأرضُ وَضَـــاءَتْ بِـــنُـــورِكَ الأُفُـــقْ

فَـنَـحـنُ فِـي ذلِـكَ الـضِّـيَـاءِ وَفِـي ... الـنُّـورِ وسُـبْـلِ الـرَّشَـادِ نَـخْـتَـرِقْ

قال الحاكم والذهبي: هذا حديث رواه الأعراب عن آبائهم؛ ومثلهم لا يَضَعُون؛ وهذا موضع الشاهد؛ وعلى ذكر أبي سفيان؛ نقول: أسلم يوم الفتح وشهد حنيناً مع المسلمين؛ وأعطاه النبي ﷺ؛ مائة بعير من غنائمها؛ وأربعين أوقية وزنها بلال؛ وأعطى ابنيه يزيد ومعاوية؛ وقد اخْتلَفَ فيه؛ فطائفةٌ ترى أنه كان كهفاً للمنافقين منذ أسلم؛ وكان يذهب إلى الزندقة في الجاهلية. وفي خبر ابن الزبير؛ أنه رآه يوم اليرموك إذ أظهرت الروم؛ يقول: إيه يا بني الأصفر؛ وإذا كشفهم المسلمون قال:

وَبَـنُـو الأَصْـفَـرِ الـمُـلُـوكُ مُـلُـوكُ الـــ ... ـــرُّومِ لَـمْ يَـبْـقَ مِـنْـهُـمُـو مَـذْكُـورُ

وروي عن الحسن؛ أنَّ أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه فقال: أدرها كالكرة؛ واجعل أوتادها بني أمية؛ إنما هو الملك لا ندري الجنة والنار! فصاح به عثمان وأخرجه. وقالت طائفة أخرى: حَسُن إسلامه؛ وذكروا عن سعيد بن المسيَّب قال: رأيت أبا سفيان يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد يقاتل ويقول: يا نصر الله اقترب؛ وفقئت عينه يوم الطائف؛ فلم يزل أعور حتى فقئت الأخرى يوم اليرموك؛ أصابها حجرٌ فشدخها؛ وهذا هو الأثبت؛ لأنه لو لم ير نصر المسلمين مِلَّة لرآه جِبِلَّة؛ إذ حامل الراية ولده؛ فلن يصحَّ خبر ابن الزبير. توفي سنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان وهو ابن ثمان وثمانين سنة؛ وقيل بضع وتسعين؛ وصلى عليه معاوية؛ وقيل عثمان؛ ودفن بالبقيع. وكان ربعة دحداحاً كبير الهامة؛ وذكر أكثر ما سقناه؛ ابن عبد البر في الاستيعاب(١).

وفي أخبار عمر؛ أنَّ معاوية بعث إليه بذهب وأدَاهِمْ مع رسول أودعه صلةً لأبيه؛ وأمره أن يبدأ به ففعل؛ فتسلم الصلة أبو سفيان وأخذ فوق ذهبه شيئاً من

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر.

الذهب المرسل إلى عمر؛ وقال للرسول: لئن سأل عنه عمر فقل: أخذه أبو سفيان إلى عطائه؛ فأدَّى ذلك فلم يكن من عمر إلّا أن استدعى أبا سفيان؛ وصكَّ رجله في قيد من تلك الأداهم حتى استرد الجميع؛ ولما عاد الرسول إلى معاوية سأله هل سُرَّ أمير المؤمنين بالأداهم؟ فقال: نعم وأول ما أوثق بها أباك؛ وبقر له الحديث؛ فقال: يرحم الله عمر؛ لو أنَّ الخطاب فعل مثل ما فعل أبو سفيان؛ لصَفَّدَهُ في الأداهم. ورفعه بعض القرشيين إلى عمر في حدٍّ تنازعاه بمكة؛ فقال عمر: أنسئوني إلى الموسم فإني أعرفه؛ ولما جاء قضى بعلمه على أبي سفيان وعلاه بالدُّرَّة؛ فقالت هند: أما لَرُبَّ يَوم لو كلمته لاقشعر بك بطن مكة يا عمر! ولكن أذَلَّهُ الله بالإسلام أو ما يشبه هذا؛ فالعهد بالقصة بعيد؛ والحفظ يخون؛ وكلمة هند تحتمل الوجهين.

ويتصل بما نحن فيه؛ ما أخرجه الخطيب وأبو نعيم وابن عساكر عن محمد بن مسلمة قال: كنت عند النبي ﷺ وعنده حسان فقال له: أنشدنا ما عفا الله لنا عنه من شعر الجاهلية؛ فأنشد قصيدة الأعشى؛ يمدح بها عامر بن الطفيل؛ ويهجو علقمة بن علاثة؛ فقال النبي ﷺ: «**لا تنشدنيها اليوم**»؛ فقال حسان: يا رسول الله تمنعني من رجل مشرك أن أذكر هجاءه؟ فقال: «**يا حسان إني ذكرت عند قيصر وعنده أبو سفيان بن حرب وعلقمة بن علاثة؛ فأما أبو سفيان فلم يترك في؛ وأما علقمة فحسَّنَ القول؛ وإنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس**». وفي رواية: «**فإنَّ أبا سفيان ذكرني عند هرقل فشعث مني فرد عليه علقمة**» وما فيه من تشعيث أبي سفيان قد يخالف ما في الصحيح؛ ولئن صحَّ وقيل إنه زيادة مقبولة؛ وسلمت عن الشذوذ؛ فالجواب عنه آتٍ عما قريب.

أما علقمة فقد أسلم بعد ذلك؛ وكان من المؤلفين؛ وأكل على مائدة النبي ﷺ؛ واستعمله عمر على حوران ومات فيها؛ وكان من خبر القصيدة؛ أنَّ علقمة تنازع الشرف؛ هو وابن عمه عامر بن الطفيل؛ على ما جرت به العادة في الجاهلية؛ فهاب حكام العرب أن يحكموا بينهما؛ فأتَوْا هرم بن سنان فقال لهما: أنتما كركبتي البعير الأدرم تقعان معاً وتنهضان معاً؛ قالا: فأين اليمين؟ قال:

كلاكما يمين؛ فتفرقا على ذلك. ثم إن الأعشى جاء مستجيراً بعلقمة فقال له: أجيرك من الأحمر والأسود؛ قال له: ومن الموت؟ قال: لا! فأتى عامر؛ فقال له مثله فقال: ومن الموت؟ قال: نعم! قال: وكيف؟ قال: إنْ مِتَّ في جِوَارِي وَدَيْتَك؛ فلما بلغ ذلك علقمة قال: لو علمت مراده لهان عليَّ؛ فقال الأعشى قصيدته التي منها:

إنَّ الـذي فِيـهِ تَمَارَيْتُمَا بَيِّنٌ لِلْسَّامِعِ وَالنَّاظِرِ

يهجو علقمة؛ ويفضِّل عامراً عليه؛ فهدر علقمة دمه؛ وأقام له الرَّصَدْ؛ والأعشى مِلْحٌ في هجائه؛ وكان علقمة لا يقول: جزِع الخزرج من وقع الأسل؛ ولكنه بكى من قول الأعشى:

تَبِيتُونَ فِي المشْتَى مِلاءً بُطُونُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ جَوْعَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا

ثم إنه ظفر به؛ وقال له: الحمد لله الذي أمكنني منك بلا عهد ولا عقد؛ فقال الأعشى:

أَعَلْقَمُ قَدْ صَيَّرتْنِي الأمُورُ إلَيْكَ وَمَا كَانَ لِي مَنْكِصُ

فَهَبْ لِي ذُنُوبِي فَدَتْكَ النُّفُوسُ وَلا زِلْتَ تُنْمِي وَلا تُنْقِصُ

فأراد قوم علقمة قتله والراحة من شرِّ لسانه؛ فأبى علقمة؛ وحلَّ وثاقه؛ وأحسن عطاءه؛ وأبلغه مأمنه؛ فقال بعد ذلك:

عَلْقَمُ يَا خَيْرَ بَنِي عَامِرٍ لِلضَّيْفِ وَالصَّاحِبِ والزَّائِرِ

وَالضَّاحِكِ السِّنِّ عَلَى هَمِّهِ وَالغَافِرِ العَثْرَةَ لِلعَاثِرِ

فكان هذا علاوة على ما أجاد به الحطيئة من أماديح علقمة؛ وغَبَّر به في وجه الأعشى وغيره، وفي القصة روايات كثيرة؛ يكفينا للتلميح ما ذكرناه.

فإن قيل إن ما رُوِيَ بالآخرة عن أبي سفيان؛ وما ذكر من تلوُّن الأعشى؛ مُنَافٍ لما دلَّلْتُمْ به على استهجان الكذب إذ ذاك؟ قلنا: لا تنافي؛ إذ يستحيل من أبي سفيان أن يتعرض للهوان والسقوط من عيون أصحابه بما يناقض كلامه الثابت

في الصحيح؛ وغاية ما يمكنه أن يشفي به ضغنه من رسول الله ﷺ؛ إن صحَّ شيءٌ من ذلك؛ أن يقوله فيه: إنه ساحر أو نحوها مما اقتصه الله عنهم في القرآن؛ أو يَذُمُّهُ بما تذمه الجاهلية ويمدحه الإسلام، وذلك الشيء الواسع؛ وقد قال قريط بن أنيف:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كانُوا ذَوِي عَدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّيءِ فِي شَيءٍ وَإِنْ هَانَا

يَرْجُونُ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسانَا

كَأَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِطَاعَتِهِ سِوَاهُم مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَانَا

ففي هذا عتاب قارص؛ وهجاء ممض على عرضهم؛ لكن السنَّة المطهرة تمدحه؛ على ما لنا من تفصيل فيه. ولما اشتكى بنو العجلان إلى عمر هجاء النجاشي لهم؛ قال لهم ما قال؛ فأنشده:

إذا الله عادَى أهلَ لُؤمٍ ورِقَّةٍ فَعَادَى بَنِي العَجلانْ رَهطَ ابنَ مُقْبِلا

فقال عمر: إنما دعا عليكم؛ ولعله لا يجاب! فقالوا: إنه قال:

قبيلة لا يَغدَرونَ بِذِمَّةٍ وَلا يَظلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

فقال: ليت آل الخطاب كانوا كذلك! فقالوا: إنه قال:

وَلا يَرِدُونَ المَاءَ إلّا عَشِيَةً إذَا صَدَرَ الرُّوَّادُ مِنْ كُلِّ مَنْهَلِ

فقال عمر: ذاك أبعد عن الزحام! قالوا: فإنه قال:

تَعَافُ الكِلابُ الضَّارِيَاتُ لُحومُهُمْ وَتأكلُ مِنْ كَعبِ بنِ عَوْفٍ وَمنَشَلِ

فقال عمر: كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه! فقالوا: إنه قال:

وَمَا سُمِّيَ العَجْلانُ إلّا لِقَولِهِمْ خُذِ القعبَ واحلِبْ أيُّها العبدُ واعْجِلِ

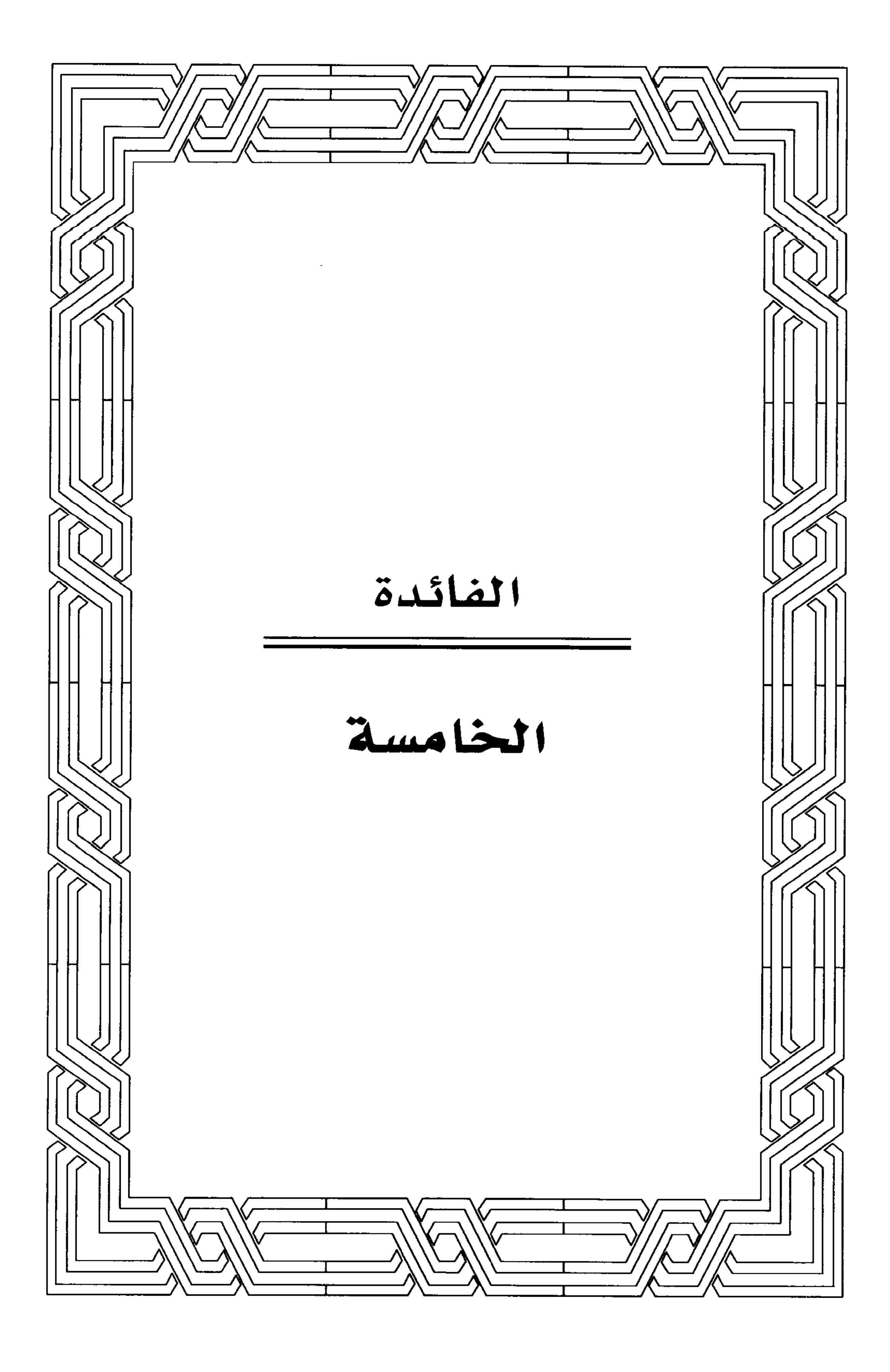
فقال عمر: ما أسمع من هذا هجاء! ولكنه فوَّض الأمر إلى حسَّان مع بصره بما في الشعر؛ ولكن أحبَّ درء الحدود؛ ولما قضى عليه حسان سجنه؛ وقيل حدَّه؛ وقيل إنه فعل به ذلك؛ لبيتٍ صريح في الهجاء بعقب هذه الأبيات؛ وهو

قوله:

أولـئِـكَ إِخْـوَانُ الـلـعِـيـنِ وَأسـرَةُ الـــ ـــهَـجِـيـنِ وَرَهـطُ الـوَاهِـلِ الـمُـتـعـطِّـلِ

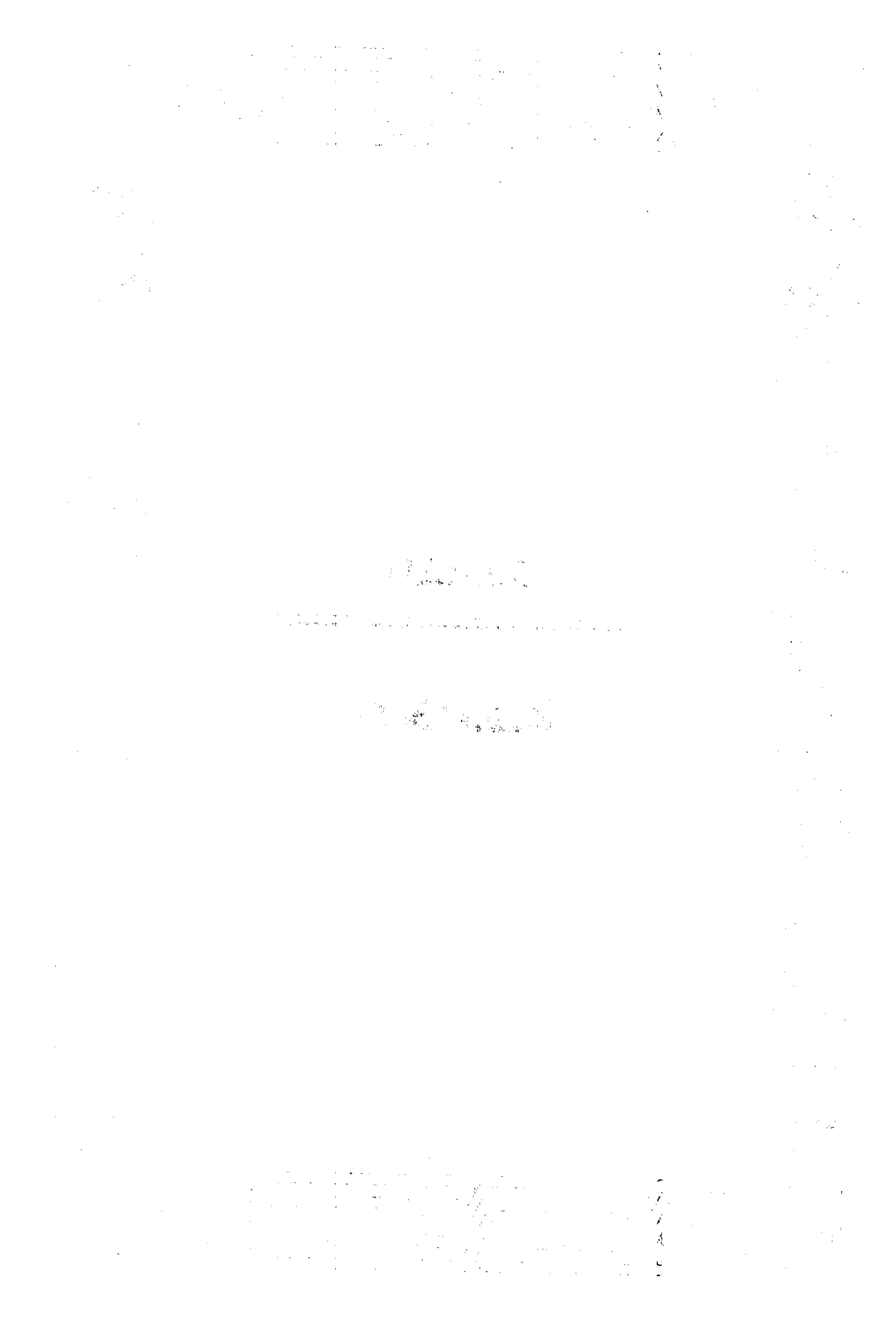
وأما تلون الأعشى؛ بين مدح علقمة وهجائه؛ فلعله إذا رَضِيَ ذكر أحسن ما يجد؛ وإذا غضب أتى بأقبح ما يعرف؛ كما فعل عمرو بن الأهتم بين يدي رسول الله ﷺ؛ في خبره مع الزبرقان؛ وما بين كلاميه شيء من التناقض الظاهر فيما أخال، والله أعلم.





الفائدة

الخامسة



الفائدة الخامسة

في حديث ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأُتِيَ بِجُمَّارٍ[١] فقال: «**إنَّ من الشَّجَرِ شَجَرَةٌ لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا؛ وإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**» فوقع الناس في شجر البوادي؛ قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة؛ فاستحييت أن أتكلم وفي القوم أبو بكر وعمر إلى آخر الحديث.

فأشد ما يشكل ذهول الصحابة عنها؛ مع ظهور القرينة المُذَكِّرَةِ بها؛ وهي وجود الجُمَّار فيما بينهم؛ ولقد أعرب من استدَلَّ بذلك؛ على قصور فهم الأشياخ عن نباهة ابن عمر. والجواب: أن لا إشكال ولا قصور بمدارك أجِلَّاء الصحابة رضوان الله عليهم؛ ولا كبير مزيَّة فيه لابن عمر؛ وما كان فهمه بأنفذ من إفهامهم؛ ولا إدراكه بأسرع من إدراكهم؛ ولكنهم لما استقبلهم رسول الله ﷺ بهذه المعاياة لما يأتي من النكات؛ ذهب هَمُّهُمْ إلى ثقل الجواب؛ وعُمُوا عنه فذهبوا يفتشون عنه في كل بعيد؛ وخَفِيَ أنَّه لا يقع على وجه الصواب فيه وَشَبَهِهِ بالمسلم؛ إلّا من خبر أحوال النبات؛ وعرف صنوف الأشجار؛ ولم يَخْفَ عليهم شبه النخلة؛ ولكنهم ظنوا المراد غيرها؛ إذ ليس في الامتحان والمعاياة بها صعوبة؛ تحمل ببادي الرأي على إيراد السؤال مورد الاختبار؛ مع كثرة مشاهدتها وحضور جُمَّارها؛ فغفلتهم عن الجواب إلّا لشدَّةِ ظهوره؛ لا من قصر إفهامهم وضعف إدراكهم؛ وكثيراً ما تغلط الأفاضل في الأجوبة من الأمور القريبة؛ لأنهم يسافرون في طلبها وهي تحت أقدامهم؛ فليس ما في الحديث

(١) الجُمَّار: قلب النخلة ويطلق على لب النبات الجمار.

بمستنكر ولا بمستغرب مع تعارف مثله وكثرة وقوع نظيره.

أما ابن عمر؛ لصغره وقصر نظره؛ لم يذهب به فكره تلك المذاهب العريضة الطويلة؛ بل ألفى الحقيقة على طرف الثمام منه؛ وَوَدَّ أن يقولها فاستحيى؛ وقد يكون مع استحيائه اتهم نفسه بإخطاء الإصابة؛ لاستبعاده أن يشط عنهم الصواب مع قربه.

وَتُلْقَى حينئذٍ أسئلة؛ **أحدها**: كيف يَوَدُّ عمر من ابنه لو قال ذلك؛ وقد بيَّنْتُم أن ليس له كبير قيمة؟ فنقول: إنَّ لإصابة وجه الصواب ولا سيّمَا في مجلس سيِّد البشر؛ ومِمَّنْ كان في سنِّ ابن عمر؛ لقيمة ومكانة لا يستهان بقدرها كيفما كانت؛ أفلا ترى من ضلَّت عليه ضالَّةٌ؛ فقال من رَدَّها فله كذا؛ فذهب أهل القوة إلى تسنُّمْ الجبال وسلوك الفجاج؛ وبقي أهل الضعف يفتشون فيما بين أيديهم؛ فلا غرو أن يفرح أحدهم بعثوره عليها ويفرح لفرحه محبوه وإن لم يكن للجعْلِ خطر.

ويتأكد ما نحن بسبيله بما ذكره بعضهم عن ضعيف البصر؛ وأنه قد يكون أشد من قويِّه في التحديق إلى الشيء القريب؛ ولم أر لشيءٍ من ذلك[١]؛ ولكنه الصواب إن شاء الله. وفي الحديث إرشاد المفتي بأن يتَوَقَّر عند السؤال؛ وأن يجمع نفسه ويحضر ذهنه؛ وأن يفتح صدره له؛ ويتلقاه بجأش رابط له بإبراء شعاعٍ[٢]، ولا يجهد فكره في تلمس جوابه؛ بل يطلبه من أقرب الطرق إليه؛ ثم يتدرج بعد ذلك في معارج الأفكار؛ وألا يَشُطَّ به الفهم؛ أو يحرورف به الوهم[٣].

---

(١) يعجبني في الإمام أنه لا يقبل الأمور إذا لم يتأكد منها بنفسه أو يقبلها ويعلق على ضعفها وأنا كطبيب عيون لم أتأكد مثل الإمام من صحة هذه المعلومة.

(٢) بعض العبائر والكلمات تكون شبه مطموسة في المخطوطة والنقل يكون أحياناً بالمعنى الذي تيسر لنا.

(٣) ومما يلاحظ الآن في أساليب الامتحانات الحديثة المعروفة باسم الاختيارات المتعددة أن الجواب الصحيح يكون لمن أجاب على البديهة ولم يتعمق في التفكير لأن التعمق في التفكير في الأسئلة يقود للجواب الخطأ.

ثانيها: ما هي الحاجة إذاً إلى إيراد السؤال بهذه الصفة؛ مع قرب جوابه؟ قلنا: لا تحصى وجوه الحاجة لذلك؛ منها تقريره المسألة في صدورهم؛ لأنَّ ما كان بتلك الصورة يشتد الإقبال على جوابه؛ وتنحفظ صورته وقصته؛ ولا ينسى خبره؛ فإن قيل: ما وجه أهميته حتى يكون بهذه المثابة؛ ويحتاج سيد البشر ﷺ لتقريره في النفوس؛ بتلك الكيفية؟ قلنا: عدة أمور؛ **منها**: التنويه بشأن النخلة المطعمة في الأزل؛ **ومنها**: تعظيم مِنَّةَ الله عليهم فيها؛ إذ أكرمهم بها؛ وهيَّأ تربتهم لغرسها؛ فلا يأجمون ثمرها إذا خُلُّوا عليه؛ بل يقنعون به ويحبونه؛ **ومنها**: حثهم على الاعتناء بشأنها؛ فقد بعث ﷺ لإصلاح الدنيا والدين؛ ويدخل في ذلك كل ما ورد في فضيلة الغرس؛ ومنه قوله ﷺ: «**ما من مؤمن يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلّا كان له صدقة**» رواه الشيخان. وفي رواية لمسلم: «**إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة**» وأخرج مسلم أيضاً أن النبيَّ ﷺ رأى نخلاً لأمٍّ بشر من الأنصار؛ فقال: «**من غرس هذا النخل أمسلم أم كافر؟**» فقالوا: مسلم؛ فقال بنحو حديثهم أي ما من مسلم إلخ. وظاهره استمرار الأجر؛ وإن مات الغارس أو انتقل عن ملكه إلى غيره. وقال الحافظ: قال الطيبي: إنَّ تنكير المسلم في الحديث؛ وإيقاعه في سياق النفي؛ وزيادة من الاستقرائية؛ وتعميم الحيوان؛ كُلُّه دليل على سبيل الكفاية على أن أيَّ مسلم كان حراً أو عبداً مطيعاً أو عاصياً يعمل أي عمل من المباح فينتفع به أي حيوان كان؛ إلّا يرجع نفعه إليه ويعود ثوابه له. اهـ بمعناه.

أقول: وفي قوله أي عمل من المباح؛ نوع من الغفلة؛ لأن الغراس ليس من جنس المباح؛ إلّا عند انتفاء النيَّة؛ وإلّا فهو معدود من جملة فروض الكفايات؛ غير أنه كان الغالب على الناس إهمالهما؛ لا جرم كان نظر الطيبي إليه؛ وحسبك من ممادح النخلة أنها الشجرة الطيّبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[1]؛ كما

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٤.

ذهب إليه الأكثرون؛ وروي عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والضحاك؛ وأخرج الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم؛ وصححه عن أنس؛ قال: أُتِيَ رسول الله ﷺ بقناع من بسر فقال: «**مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة؛ قال: هي النخلة**»؛ وقد أخرج البيهقي وغيره؛ عن ابن عباس؛ أنَّ المراد بالكلمة الطيبة: شهادة أن لا إله إلّا الله؛ وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: إنها المؤمن نفسه؛ فيكون إطلاقها عليه إذن نظير إطلاقها على عيسى عليه السلام؛ ومتى أطلقت على المؤمن؛ كان أقوى في الدلالة لما نحن بسبيله من وجوه التشابه. وجاء من عدة طرق: «**أكرموا عمتكم النخلة فإنها من فضلة طينة آدم أبيكم؛ وليس من الشجرة شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم ابن عمران؛ فأطعموا نساءكم الولد الرطب فإن لم يكن رطب فتمر**». ولئن قال الكرماني إنه لم يثبت؛ وكان بعض رجال سنده مُتَكَلماً فيه؛ فعدة طرقه قد تجبره على أنَّ ما في الصحيح الكفاية.

وقد أطال السيوطي الكلام على هذا الحديث في الدرر المنتشرة بما هو أعرف به؛ وقال: إن النخل مُقَدَّمٌ على العنب في جميع القرآن؛ ولكنهم استدركوا عليه بتقديم العنب في سورة الكهف على النخل؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾[1]؛ لقد أخذ بعضهم من هذه الآية تفضيل العنب؛ إذ جعل كأنه الأصل المقصود؛ ولم يكن النخل إلّا كالحائط لحفظه؛ ولو كان كذلك لقُضِيَ بأفضلية الزرع لتوسطه؛ وإنما فيها دليل لما يشهده الحس من ضعف الزرع والعنب وقوة النخل وكثرة منافعه؛ وإيثاره لأهميته بكثرة الشمس فجعل في الجوانب؛ ولا بأس أن يقال إنما أَخَّر ذلك النخل في المكان والذكر على خلاف العادة؛ لأنه بخصوصه من أرْدَإِ أنواعه. وبعد هذا كله قابلت بين الرطب والعنب ذات المرات؛ فإذا الرطب لا يساوي لذة العنب ولا يقرب منها أصلاً؛ وإنَّ المسار لبعيد والبون لشاسع لا

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٢.

يغرب عنه شك ولا يحوم عليه افتراء؛ ولا قلة بالعنب ساعات الموازنة؛ فيحال على عِزَّتِه؛ ولا كثرة بالرطب؛ فَتُدَّعى بذلته؛ كما طالت به التجربة بلا سآمة ولا ملل؛ خلاف ما كنت ذكرته من قبل في البعد عن الرطب؛ فسقطت المفاضلة من هذه الناحية سقوطاً بيِّناً؛ وأما من النواحي الأخرى؛ فكما فصَّلوا وكما استدركوا على السيوطي بآية الكهف؛ فأنا أستدرك بآية الرعد؛ وهي قوله عز وجل: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾[١] وآيات عبس وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾[٢].

فقد قدم العنب بالاسم الصريح؛ كما قدمه بالوصف في آية الأنعام؛ وهي قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ﴾[٣] ولا تخطر لي آية في ذكر النخل بالجنة؛ أما العنب؛ فنعم؛ ومنه قوله في سورة النبأ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾[٤].

والأدلة على فضل الغرس والنخل كثيرة؛ والحديث الذي نحن بطريقه يدل على اهتمامه ﷺ بشأن النخل؛ قريباً من اهتمامه بتحريم الأعراض والأموال والنفوس؛ إذ سلك في حجة الوداع قريباً من هذا المسلك؛ فقال: أي يوم هذا؟ أي شهر هذا؟ أي بلد هذا؟ إلى آخره. وهي طريقة الذكر الحكيم في مهمَّات الأمور كقوله تعالى: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[٥]؛ وقوله عز شأنه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾[٦] وأشباه ذلك؛ وعنه أخذ بعضهم؛ فأفرغ التعليم المدرسي في قوالب الأسئلة والأجوبة؛ إلّا أنهم أسرفوا فأَمَلُّوا[٧].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤.

(٢) سورة عبس، الآيات: ٢٦ ـ ٢٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٤) سورة النبأ، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١.

(٥) سورة عبس، الآية: ١٨.

(٦) سورة النبأ، الآية: ١.

(٧) يشير الإمام في كتبه إشارات متفرقة ومهمة إلى مسائل التعليم وملاحظاته عليها سواء =

ومما عرف من شدة اعتنائه ﷺ بشأن النخل؛ ألْفَى بنو النضير المنفذ للإنكار عليه؛ في قطع نخيلهم؛ لخروجه بذلك عن عادته؛ ولكنه الوحي الذي لا بدَّ من امتثاله لإغاظتهم؛ بشهادة قوله جل ذكره: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1]؛ ومن وجوه الحاجة إلى إيراد السؤال؛ حرصه ﷺ على تنشيط الخواطر؛ وترويح النفوس؛ وملاطفة الأصحاب؛ وما ثَمَّ شيء من الأعيبة والأحجية المنهيّ عنها؛ ولم يَخْفَ الجواب على الشيوخ إلّا كما قررنا من شدَّة ظهوره؛ ففي الحديث غاية اللطف ومنتهى الرفق؛ وهو أصل كبير لما يفعله جهابذة العلماء من التنكيت والإحماض؛ وإيراد الملح والفكاهات في دروسهم؛ لأنه يجم القلوب؛ ويفتح النفوس؛ ويصقلها من دون الملل؛ ويريحها من ثقل الاستكراه؛ بخلاف العلم المُجَرَّد والمسائل المسرودة؛ فإنها تميت الأذهان؛ وتضجر النفوس؛ وتشوش البصائر؛ كما يتوضح من الفائدة التالية[2].

وليس في هذا الحديث أكثر من قوله لأمِّ أيمن وقد استحملته؛ سأركبك على ولد الناقة؛ فذهبت بها بعيدة إلى القعود الصغير؛ كما ذهب بها الشيوخ هنا إلى شجر البوادي؛ أما وجه شبه النخلة بالمسلم: فكثرة خيرها؛ ودوام ظلها؛ وطيب ثمرها؛ ووجوده على الدوام؛ فإنه لا يزال يؤكل منه من حين طلوعه إلى أن يُدَّخَر للاقتيات؛ ومنها منافع كثيرة: فأخشابها وورقها وأغصانها تتخذ جذوعاً وحطباً وعصياً ومخامر وحُصَراً وحبالاً وغير ذلك مما ينتفع به من أجزائها؛ ثم ينتفع بنواها في علف الإبل والغنم؛ وتصلح عليه أحسن مما تصلح على غيره؛ وبه يكثر شحمها ويحلو لحمها، ولقد عزم بعض البخلاء على عياله أن يبلعوا

= ما ذكره في تاريخ إدام القوت أو في كتاب النجم المضيء وفي هذا الكتاب؛ إلّا أنه لم يفرد للموضوع فصلاً خاصاً كما فعل ابن خلدون في مقدمته.

(١) سورة الحشر، الآية: ٥.

(٢) وهذه ملاحظة أخرى تأتي في باب التعليم.

النوى مع التمر لما فيه من التسمين[١]، ثم جمال نباتها وحسن هيئتها وشدة رسوخها وثباتها على العواصف وبهاء مظهرها؛ ولا سيما إذا تخللت الزروع؛ وكثير ما تقرأ الأشعار الوصفية في جمال الطبيعة؛ فلا أتأثر بشيء منها؛ إلّا قليلاً مما خلا من التكلف. . . بالأغلب . . . . المطبوع[٢]؛ ولكنه يكثر خشوعي؛ وتنحدر دموعي؛ وينتدي خدي؛ ويبتهج وجدي؛ كلما قرأت آيات الوصف؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾[٣]؛ والإعجاز الخارق في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ ومنه يتبين ضعف ما أسلفناه من افتراض أن هذا النخل من أردإ أنواعه.

وذكر المؤرخون أن قيصر ملك الروم كتب إلى عمر بن الخطاب يقول: إنَّ رُسُلِي زعمت أنَّ عندكم شجرة تخرج مثل أذن الحُمُرْ؛ ثم تنشق عن مثل اللؤلؤ؛ ثم تخضَرُّ فتكون مثل الزمرد الأخضر؛ ثم تحمر فتكون مثل الياقوت؛ ثم تينع فتنضج فتكون كأطيب فالوذج؛ ثم تيبس فتكون لقمة المقيم وزاد المسافر؛ فإن صَدَقَتْ رُسُلِي فما أراها إلّا من أشجار الجنة! فكتب إليه عمر: أنْ قد صدقت رسلك؛ وهي الشجرة التي آوى الله إليها مريم إذ نفست بعيسى عليه السلام؛ فاتقِّ الله ولا تتخذه إلهاً من دون الله. وقال ابن المعتز:

ظَلَّتْ عَناقِيدُهَا يُخْرِجْنَ من وَرَقٍ ... كَمَا اجْتَنَى الزُّنجُ فِي خُضرٍ من الوَرَقِ

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**نعمت العمة لكم النخلة تغرس في أرض خوَّارة وتسقى من عين خرَّارة**» وقال ابن دريد: سألت أعرابياً ما أموالكم؟ قال: النخل؛ قلت: أين أنتم من غيره؟ فقال: إنَّ سعفها صلاء وجذعها غماء وليفها رشاء وفروها إناء ورطبها غذاء. وقال خالد بن صفوان في حديث طويل

---

(١) لعل هذا الشخص من أهل بلدة الإمام لكنه لم يوضح كعادته في مثل هذه الأمور.

(٢) كلمات مطموسة بالمخطوطة ولعلها: وهي بالأغلب للشاعر المطبوع.

(٣) سورة الكهف، الآيتان: ٣٢ ـ ٣٣.

دار بينه وبين مسلمة بن عبد الملك في المفاضلة ما بين البصرة والشام يصف النخل: هُنَّ الراسخات في الوحل؛ المطعمات في المُحْل؛ المُلَقَّحات بالفحل؛ تخرج أسفاطاً عظاماً وأوساطاً كأنها ملئت رياطاً؛ ثم تفتر عن قضبان اللجين؛ منظومة باللؤلؤ المزين؛ فيصير ذهباً منظوماً بالزمرد الأخضر؛ ثم يصير عسلاً في لحاء؛ مُعَلَقاً في هواء؛ فقال له مسلمة: أنَّى لكم هذه ولم تغلبوا عليها ولم تسبقوا إليها؟ فقال: ورثناه عَنِ الآباء ونَغْمُرُه للأبناء، ويدفعُ لنا عَنْهُ ربُّ السماء ومثلنا فيها قول معن بن أوس:

فَمَهمَا كَانَ مِنْ خَيرٍ فَإنَّا وَرِثْنَاهَا أوَائِلَ أوَّلِينَا

وَإنَّا مُورِثُونَ كَمَا وَرِثْنَا مِنَ الآبَاءِ إنْ مِتْنَا بَنِينَا

وقال أبو حاتم: ومن العجائب أن النخل لا يوجد إلّا في بلاد الإسلام؛ مع أن بلاد الهند والحبش والنوبة حارة خليقة بوجود النخل فيها اهـ. **وأقول**: أما الهند فقد رأيت النخل في حيدرآباد الدكن منها إذ دخلتها في سنة ١٣٤٩هـ وهي بلاد إسلامية؛ ولكنه بلغني أن في أميركا كثيراً منه؛ فعسى أن تصبح دار إسلام؛ كما أصبحت دار نخل[١].

وقال بعض العرب يصف النخلة: هي سريعة العلوق؛ سائحة العروق؛ صابرة على الجدوب؛ لا يخشى عليها عَدْوُ الذيب اهـ. واختلف اثنان عند محمد بن سليمان في التمر والبر فقال: طالما اختلفت الأمم في ذلك؛ ثم أمر بعض رفاقه أن يقضي بينهما؛ فقال لصاحب البر: خبِّرني أيهما أوجد في الجدب؟ قال: التمر؛ قال: فأيهما على الغرق؟ قال: النخل؛ قال: فأيهما أدنى إلى الحرق؟ قال: السنبل؛ قال: أي الأرضين أعز؟ قال: أرض النخل: قال قضيت وفضلت النخل؛ وقيل: خير أموال الناس أشبهها بهم[٢].

---

(١) هذه إشارة أخرى من الإمام يضاف لقوله السابق: إن الإسلام سينصر بدولة أجنبية عظيمة تدخل الإسلام ولعله استشراف لمستقبل لا ندري زمنه.

(٢) تشبه النخلة الإنسان في عدة نواحٍ: فهي منتصبة الجذع؛ ومنها الذكر والأنثى؛ ولا تثمر =

وذكر ياقوت الحموي في أسوان عن بعض العلماء أنه كشف ركابها فما وجد شيئاً بالعراق إلّا وبأسوان مثله؛ بل إنَّ فيها ما ليس بالعراق. قال: وأخبرني أبو رجاء أحمد بن محمد الفقيه الأسواني صاحب قصيدة البكرة: أنه يعرف بأسوان رطباً أشد خضرة من السّلق. وأمر الرشيد أن تحمل إليه أنواع التمور بأسوان؛ من كل صنف تمرة؛ فجمعت له ويبة وليس بالعراق ولا بالحجاز مثل هذا. أقول: وما تحت هذا كبير أمر؛ فإن كل نخلة تبذر نواة تكون لوناً؛ فلعل نخل أسوان هكذا؛ أما النخل الذي يغرس فسائل فعلى لون أصلها.

ونقل ياقوت عن ابن دريد أن رجلاً من مغارس النخل بِطَيْ تزوج امرأة من أهل الطلح[1]؛ واشترط لها أن لا يخرجها من مكانها إلّا برضاها؛ فمكث عندهم حتى أجدبوا؛ فهم بالرجوع إلى أهله فارتحل وسارت معه امرأته؛ فلما أشرف على أهله رأت امرأته السدر فسألته عنه فأخبرها؛ ثم رأت النخل وهي لا تعرفه فأخبرها بأمره فقالت:

ألا لا أحبُّ السِّدْرَ إلّا تَكلُّفاً وَلا لا أحِبُّ النَّخْلَ لمَا بَدا لِيَا

ولكنني أهوى أراضِيَ مُطْعَمٍ سَقَاهُنَّ رَبُّ العرْشِ مُزناً غَوَالِيَا

فيا صاعد النخل العشيَّةَ لو أتى بِضِغْثٍ إلاءٍ كان أشْفَى لِمَا بِيَا

فأطعمها زوجها الرُّطَبْ؛ فلما ذاقته قالت:

نزلنا إلى ميلِ الذُّرَى قطف الخطى سقاهُنَّ ربُّ العرش من سُبلِ القطْرِ

= إلّا إذا لقحت؛ ورائحة حبوب لقاحها تشبه رائحة المني عند الرجال؛ وإذا قطعت رأسها تموت؛ وإذا تعرض قلبها لصدمة قوية هلكت؛ وإذا قطع سعفها لا تستطيع تعويضه من محله كما لا يستطيع الإنسان تعويض مفاصله؛ والنخلة مغطاة بالليف الشبيه بشعر الجسم في الإنسان؛ وعدد الكروموسومات في النخلة والإنسان ٤٩.

(١) الطلح نبات صحراوي غير مثمر ترعى عليه الحيوانات وهو أنواع كثيرة وقد تصل الشجرة منه حجماً كبيراً ومنه السمر الذي يستخدم في الوقود وقيل إن طلح السمر هي الشجرة التي تمت تحتها بيعة الرضوان.

كِـرَامـاً فـلا يَـغْـشَـيْـنَ جَـاراً بِـرِيـبَـةٍ   يَـمِـدْنَ كـمـا مَـادَ الـشَّـرُوبُ مِـنَ الـخَـمْـرِ

ومطعم؛ اسم وادٍ باليمامة؛ كان أهل المرأة نزولاً فيه. ووصف أعرابي التمر فقال: تمرات جُرْدٍ فطس؛ يغيب فيهن الضرس؛ كأنَّ نواها ألْسُنْ الطير؛ تضع التمرة في فمك فتجد حلاوتها في كعبك؛ وقال النابغة:

صِـغَـارُ الـنَّـوَى مَـكْـنُـوزَةٌ لـيـسَ قِـشْـرهـا   إذا طَـارَ قِـشْـرُ الـتَّـمْـرِ عَـنْـهـا بِـطَـائِـرِ

وذكر بعض أهل الأدب أنَّ عبد الملك بن مروان صنع طعاماً فأكثر وأطيب؛ ودعا الناس فأكلوا فقال بعضهم: ما أكثر هذا الطعام وما أطيبه وما أظن أحداً رأى أكثر منه ولا أطيب؛ فقال: إعرابي من ناحية القوم: أما أكثر فما رأينا؛ وأما أطيب منه؛ فنعم؛ فطفقوا يضحكون! فأشار إليه عبد الملك فدنا منه فقال: ما أنت تقول بحقيق؛ قال: بلى يا أمير المؤمنين؛ بينما أنا بِهَجَرْ؛ في تراب أحمر؛ في أقصاها حجراً؛ إذ توفي أبي وترك كِلاً وعيالاً ونساءً ونخلاً؛ وفيه نخلة لم ير إنسانٌ مثلها؛ ولم ير التمر أغلظ لحماً ولا أصغر نوىً ولا أحلى طعماً منها؛ وقد ألفتها أتان وحشية تعبث برجليها وترفع يديها ويقطر بفيها؛ وكادت تستأصل ثمرها؛ فانطلقت بقوسي وكنانتي وزندي؛ وأنا أظنني أرجع من ساعتي؛ فمكثت أرصدها يوماً وليلة؛ حتى إذا كان السَّحَرْ أقبلت؛ فرميتها ثم عمدت إلى سرتها فأبرزتها؛ وعمدت إلى حطب جزل فجمعته؛ وإلى رصف فوضعته؛ وإلى زندي فأوريته؛ ثم ألقيت سرتها في ذلك الحطب؛ ثم أدركني النوم ولم يوقظني إلّا حرّ الشمس؛ فانطلقت فكشفتها وألقيت من رطب تلك النخلة ومجزعها ومنطقها؛ وما زلت أتناول الشحمة واللحمة والتمرة حتى أنفذتها؛ قال عبد الملك: لقد أكلت طيباً فمن أنت؟ قال: من أخوالك بني عذرة! قال عبد الملك: أولئك من أفصح العرب؛ فهل لك معرفة بالشعر؟ قال: نعم؛ قال: أي بيت أمْدَحْ؟ قال: قول جرير يمدحك:

ألـسـتـم خـيـرَ مَـنْ رِكَـبَ الـمَـطَـايَـا   وأنْـدَى الـعـالـمـيـنَ بُـطُـونَ رَاحِ

وكان جرير حاضراً؛ فتحرك واهتز ورفع رأسه؛ قال عبد الملك: فأي بيت أفخر؟ قال: قوله:

إذا غَضِبَتْ عليكَ بَنُو تَمِيمٍ ... وَجَدْتَ النَّاسَ كُلُّهُم غِضَابَا

فتطاول جرير وتشاوص؛ فقال عبد الملك: فأي بيت أهجى؟ قال قوله:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّك مِنْ نُمَيرٍ ... فلا كَعْباً بلغتَ ولا كلابَا

فاقشعر جلد جرير من الأريحية والسرور؛ فقال عبد الملك: فأي بيت أغزل؟ قال قوله:

إن العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فكان أن يخرج عن إيهابه جرير؛ فقال عبد الملك: فأي بيت أحسن تشبيهاً؟ قال قوله:

سَرَى نَحوَهُمْ ليلٌ كأنَّ نُجومَهُ ... قَنَادِيلُ فيهنَّ الذُّبَالُ المُفَتَّلُ

فقال جرير: أصلح الله شأن الأمير؛ جائزتي لأخي عذرة؛ قال عبد الملك: ومثلها معها؛ وكانت أربعة آلاف رزمة من الثياب. وذكر بعضهم أن هذا كان بمجلس عبد الملك؛ وكُلٌّ من الأخطل والفرزدق وجرير حاضر؛ فقال عبد الملك: هل تعرف جريراً قال: لا؛ وإنِّي لرؤيته لمشتاق؛ فقال له: هذا جرير؛ وهذا الأخطل؛ وهذا الفرزدق؛ فأنشأ العذري يقول:

فحَيَّا الإلهُ أبَا حَرْزَةٍ ... وأرْغَمَ أنفَكَ يا أخْطَلُ

وَجَدُّ الفرزدق اتعس به ... وَدَقَّ خياشمه الجَنْدَلُ

فقال الفرزدق:

يا أرغمَ الله أنفاً أنتَ حَامِلُهُ ... يَا ذَا الخَنا وَمَقَال الزُّورِ والخَطَلِ

ما أنتَ بِالحَكَمِ لترْضي حُكُومَتُهُ ... وَلا الأصيلِ ولا ذِي الرأيِّ والجَدَلِ

وقال الأخطل:

يا شَرَّ مَنْ حَمَلتْ سَاقٌ عَلى قَدَمٍ ... مَا مِثْلَ قَولِكَ فِي الأقوالِ مُحْتَمَلُ

إنَّ الحُكُومَةَ لَيْسَتْ فِي أبيكَ ولا ... فِي مَعْشَرٍ أنْتَ مِنْهم إنّهُمْ سُفَلُ

وقال جرير:

شَتَمْتُمَا قائلاً بِالحَقِّ مُهْتَدِياً عِنْدَ الخليفة والأقوالُ تُنْتَضَلُ
أَتَشْتُمَانَ سِفَاهاً خَيْرَكُمْ حَسَباً فَفِيكُمَا وَالهِي الزُّورُ وَالخَطَلُ
أَتَشْتُماه على رَفْعِي وَوَضْعِكُما لا زِلْتُمَا فِي سِفَالٍ أيُّها السُّفَلُ

وأكثر الناس يفضلون جرير على الفرزدق؛ لا عن استحقاق؛ ولكن لموافقة هوى السلطان؛ لأن جرير من حيث ما ذكرنا في الفائدة الرابعة؛ من المتصاغرين المتملقين؛ ولكنَّ الفرزدق مع محبته لآل البيت؛ قوي النفس حمي الأنف؛ فثقل ظله عند الملوك؛ فعمدوا إلى خصمه ففضلوه بدون حق؛ وقال الجُهَّال بالتقليد.

وما زلت في إشكال من تفضيل الفقهاء للرطب على العنب حتى وردت صنعاء في سنة ١٣٤٩هـ؛ فما هي إلّا أيام حتى أحسست بنوع ملل له؛ خلاف التمر؛ فإننا نأخذ منه طيلة السنة ولا نحس له بشيء من الملل؛ وقد قال ﷺ: «**بيت لا تمر فيه جياع أهله**» وجاء عنه كما في الجامع الصغير للسيوطي: «**إن الله يحب من يحب التمر**».

وقال أبو حثمة: ليس الصقر[١] في رؤوس الرقل[٢] الراسخات في الوحل؛ المطعمات في المحل؛ تَعِلَّة الصبي[٣] وقِرَى الضيف؛ وبه يحترش الضب[٤] في الأرض الصلعاء[٥]؛ كزبيب إن أكلته ضرست؛ وإن تركته غرثت. وقال أبو عمرة: إن الزبيب إن آكله أضرس وإن أتركه أغرث وليس كالصقر في رؤوس الرقل؛ الراسخات في الوحل؛ المطعمات في المحل؛ فرحة الصائم وتحفة الكبير؛

(١) الصقر: عسل الرطب.
(٢) والرقل: جمع رقلة وهي النخلة الطويلة.
(٣) يسكت به بكاء الصبي.
(٤) أي يصطاد.
(٥) الصحراء التي لا نبات فيها كرأس الأصلع.

وصمتة الصغير[١]؛ وخرسة مريم[٢]؛ والصقر عسل الرطب؛ والدقل جمع دقلة وهي النخلة الطويلة؛ وقال أبو العلاء:

شَـرِبْـنَـا مَـاءَ دَجْـلَـةَ خَـيْـرَ مَـاءٍ وَزُرْنَـا أشْـرَفَ الـشَّـجِـرِ الـنَّـخِـيـلا

وقال سفيان الثوري[٣]: لا يعاب من باع ثوبه بالرطب في أيام الخريف؛ ثم هو فاكهة وغذاء لا تحصى منافعه؛ ويؤكل على حاله من غير أن تعمل فيه يد؛ بخلاف غيره من الأطعمة؛ والعنب يشاركه في هذا؛ بل وسائر الأثمار؛ ولا دخل للمفاضلة بين الكرمة والنخلة عند تساوي الغلة؛ لأن الثانية: أقوى وأبقى وأصبر على الظمأ؛ وقد أفرد النخلة بالتأليف جماعة؛ منهم الجاحظ والأصمعي؛ وابن الأعرابي؛ وأبو حاتم السجستاني. وما العصي إلّا من بعض مرافقها وقد أكثروا في تعديد فوائدها؛ وتثبيت أمرها؛ وتعظيم شأنها؛ وقل كل شيء من ذلك في جنب قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[٤].

وأخرج ابن عدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء»؛ وكان النبيُّ ﷺ يتوكأ عليها؛ وروى الديلمي بسنده حديث: «**حمل العصا علامة المؤمن وسنة الأنبياء**»؛ وحيث كان الأنبياء يفتخرون بها تواضعاً لله عز وجل.

وذكر الجاحظ عن بعضهم قال: خرجت من الموصل أريد الرِّقَّة فصحبني

(١) ما يسكت به بكاء الطفل الصغير.

(٢) الخرسة: ما تطعمه النفساء؛ أراد قوله تعالى: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

(٣) سفيان الثوري (٩٧ ـ ١٦١هـ) إمام الحفاظ في زمانه وشيخ الإسلام الكوفي المجتهد مصنف كتاب الجامع لم يكن أحد في زمانه أعلم منه بالحديث وكان زاهداً عابداً.

(٤) سورة طه، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

تغلبي معه مزودة وركوة؛ وعصا لا يفارقها ولا يَمَلُّ ملازمتها حتى كدت أرمي بها في بعض الأودية من غيظي عليه؛ فكنَّا نمشي فإذا أصبنا دواباً ركبناها، وإن لم نُصب الدوابَّ مشَينا، فقلت له في شأن عصاه.

فقال لي: إن موسى لم يأت النار إلّا ومعه عصا؛ ولمَّا صار بالوادي قيل له: الق عصاك؛ واخلع نعليك؛ فجعل الله جماع أمره من أعاجيبه وبراهينه في عصاه، قال الراوي: إنه ليكثر من ذلك وأنا أضحك متهاوناً بما يقول؛ فلما برزنا على حمارينا تخلف المُكاري؛ فكان إذا تلكأ حماره أكرهه بالعصا؛ وكان حماري لا ينساق فسبقني الفتى إلى المنزل فاستراح وأراح؛ ولم أقدر على البَراح حتى وافاني المُكاري؛ فقلت: هذه واحدة؛ فلما خرجنا من الغد لم نجد مركوباً فكنا نمشي؛ فكان إذا أعيى توكأ على العصا؛ وربما أحفى ووضع طرف العصا على وجه الأرض فاعتمد عليها ومرَّ كأنه السهم؛ وألحَّ عليَّ التعب وانتهينا إلى المنزل وقد تفسَّخت من الكلال وإذا فيه فضل كثير[1] فقلت: هذه ثانية، فلما كان اليوم الثالث ونحن نمشي في أرض ذات أخاقيق وصدوع؛ إذ هجمنا على حيَّةٍ منكرة فساورتنا؛ ولم تكن عندي حيلة إلّا خذلانه وإسلامَه إليها والهرب منها؛ فما زال يضربها بعصاه حتى ثقلت؛ فلما بَهَشَت له ورفعت صدرَها؛ وقذها بضربة قاضية؛ قلت: هذه ثالثة وهي أعظمهنَّ. فلما خرجنا في اليوم الرابع وقد قَرِمْنا إلى اللحم؛ إذ أرنبٌ اعترضت فحذفه فما شعرت إلّا وهي معلقة وأدركنا ذكاتها؛ فقلت: هذه رابعة؛ وقلت له: لو أنَّ عندنا ناراً لما أخرنا أكلها إلى المنزل قال: النار حاضرة؛ وعلى أيِّ حال لم تَطِبْ نفسي أن أضع ثيابي على تلك الأرض؛ فنزع حديدة المسحاة عن العصا ووتدها في الحائط؛ وعلق ثيابنا؛ فقلت: هذه سابعة؛ ثم عدل بنا إلى منزله؛ وإذا أبوه شيطان مارد؛ وهو من أظرف الناس وأكثرهم أدباً؛ فخبَّرته بالذي أحصيت من خصال العصا؛ بعد أن كنت هممت أن أرمي بها؛ فقال: لو حدثتك عن منافع العصا إلى الصبح لما استنفدتها. كذا

---

(١) أي بقية نشاط وهمة.

أوردها أبو عثمان؛ وتبعه ابن قتيبة على كلها أو أكثرها؛ والافتعال ظاهرٌ عليها؛ إذ كيف يقصر الراوي في اقتناء عصا له مع سنوح الفرصة واتساع المهلة؛ بعد أن ذاق منافعها واستثبت مرافقها؛ ولو أنه غطّى هذا التزوير بأن يجعل تلك الحوادث كلها في يوم واحد ليقيس التأويل بالفقدان؛ أما مع فرصة الإمكان فلا ولا كرامة[١].

وذكر هو وغيره أنه كان لغنيَّة الأعرابية ابن شديد العرامة على ضعف أسره ودقة عظمه؛ وكلما واثب أحداً أخذ عليه جارحه؛ حتى أثرت أمه من ديات أعضائه؛ واجتمع عندها مال من ذلك؛ فسكنت بها الحال بعد الفقر المدقع والجهد الموجع؛ فقالت لولدها:

أحْلِفُ بِالمَرْوَةِ حَقّاً وَالصَّفَا أنَّك خَيْرٌ مِنْ تَفَارِيقِ العَصَا

ولا حاجة لشرح البيت لظهور معناه؛ وأكثر فائدة تفاريق عصا النخلة؛ أما غيرها فلا ينتفع بكل تفاريقها. أما تباري الشعراء وتنوعهم في صفات الكروم؛ فمنه قول أبي نواس:

لنا هَجْمَةٌ لا يدرك الذئبُ سخْلَهَا ولا رَاعَها رِزُّ الفَحَالَةِ والخِطْرُ[٢]
إذا امْتُحِنَتْ ألوانُها مَالَ صَفْوُهَا إلى الكُمْتِ إلّا أنَ أوبارها خضر[٣]

---

(١) لقي الحجاج أعرابياً فقال: من أين أقبلت يا أعرابي؟ قال: من البادية. قال: وما في يدك؟ قال: عصاي: أركزها لصلاتي. وأعدها لعداتي. وأسوق بها دابتي. وأقوى بها على سفري. وأعتمد بها في مشيتي لتتسع خطواتي. وأثب بها النهر. وتؤمنني من العثر. وألقي عليها كسائي فيقيني الحر، ويدفئني من القر. وتدني إلي ما بعد مني. وهي محمل سفرتي. وعلاقة إداوتي ـ أعصي بها عند الضراب ـ وأقرع بها الأبواب ـ وأتقي بها عقور الكلاب ـ وتنوب عن الرمح في الطعان ـ وعن السيف عند منازلة الأقران ـ ورثتها عن أبي، وأورثها بعدي ابني. وأهش بها على غنمي. ولي فيها مآرب أخرى، كثيرة لا تحصى. (المحقق).

(٢) رز الفحالة: أي صوت الفحالة وقد كنى عن الكرم بالإبل.

(٣) الكمت: لون العنب؛ والخضر: ورق الكرم.

تُرَاثُ أبي ساسان كِسرى وَلَمْ تَكُنْ   مواريثَ مَا أبْقَتْ تَمِيمٌ ولا بَكْرُ
قَصَرتُ بها ليلي وَلَيلُ ابنِ حُرَّةٍ   لَهُ حَسَبٌ زَاكٍ وَلَيْسَ لَهُ وَفْرُ

فما هو لفضلها على النخل؛ ولكن لحاجات في نفوسهم؛ وصداع في رؤوسهم؛ وصبابات في كؤوسهم؛ وقد وقع للعرب تشبيه العقائل بالنخل؛ فقال أبو ذؤيب[1]:

صَبَا قَلبُهُ بَلْ لَجَّ وَهوَ لَجُوجُ   وَلاحَتْ لَهْ بالأنْعُمَينِ حُدُوجُ
كَمَا زَالَ نَخلٌ بِالعِراقِ مُكمَم   أمَدَّ لَهُ مِنْ ذِي الفُرَاتِ خَلِيجُ

وقال وضَّاح اليمن[2]:

أَيَا نَخْلَتَيْ وادي بُوَانَةَ حَبَّذا   إذا نَامَ حُرَّاسُ النَّخِيلِ جَنَاكُمَا
وَحُسْنُكُمَا زَادَ عَلَى كُلِّ بَهْجَةٍ   وَزَادَ عَلَى طِيب الفِنَاءِ فِنَاكُمَا

وقال آخر:

أيَا نَخْلَتَيْ أوْدٍ إذا كَانَ فِيكُمَا   جَنًى فَانْظُرَا مَنْ تُطْعِمَانِ جَنَاكُمَا
ويَا نَخْلَتَيْ أوْدٍ إذا هَبَّتْ الصَّبَا   وَأمْسَيتُ مَقْرُوراً ذَكَرْتُ ذَرَاكُمَا

وقال نفطويه[3]: تزوجت امرأة من دارم؛ فأسكنها زوجها على مقربة من نخلتي ثوران بالبصرة؛ فاحترت ذلك المكان وحنَّت إلى وطنها فقالت:

أيَا نَخْلَتَيْ ثَوْرَان شَيَّب مِفْرَقِي   حَفِيفُكُمَا يَا لَيْتَنِي لا أرَاكُمَا

---

(١) أبو ذؤيب الهذلي: شاعر جاهلي مخضرم أسلم على عهد النبي ﷺ إلّا أنه لم يره.

(٢) اسمه عبد الرحمن بن إسماعيل الخولاني من شعراء الغزل في العصر الأموي؛ وسمي وضاحاً لوسامته. قيل إنه مات مقتولاً بأمر الوليد بن عبد الملك سنة ٨٩هـ.

(٣) هو الإمام الحافظ إبراهيم بن عرفة العتكي الأزدي (٢٤٤ ـ ٣٢٣هـ) من أئمة النحو وفقيه على المذهب الظاهري سكن بغداد ومات فيها ولقب نفطاً لدمامته وسواده وزيد في لقبه (ويه) لأنه يمشي على طريقة سيبويه في النحو.

أَيَـا نَـخْـلَـتَـيْ ثـورَان لا مَـرَّ رَاكِـبٌ كَـرِيـمٌ مِـنْ الأعْـرَابِ إلَّا رمـاكُـمَـا

وكثيراً ما أسمع شعراء العامة ببلادنا يشبهون الغيد الحسان بأحسن أنواع النخل؛ فأتعجب من وقوعه لهم؛ مع أنه تشبيه بليغ نبويّ؛ وقال الأحوص؛ وقيل غيره:

ألا يَـا نَـخْـلَـةً مِـنْ ذَاتِ عِـرْقٍ عَـلَـيْـكِ وَرَحْـمَـةُ الله الـسـلام

وقالوا: وهو من مليح الكناية عن المرأة؛ وقال أبو تمام:

زَالَـتْ بِـعَـيْـنِـكِ الـحُـمُـولُ كَـأَنَّـهَـا نَـخْـلٌ مَـوَاقِـرُ مِـنْ نَـخِـيـلِ جِـوَاثَـا[١]

ولكنني أتعجب من فرجة[٢] علي حميد بن ثور الهلالي[٣]؛ وهو أولى به؛ وكان رجلاً غزلاً معدوداً في الصحابة رضوان الله عليهم؛ ولما تقدم ابن الخطاب على الشعراء بمنعهم من ذكر النساء؛ وتوعدهم عليه بالجلد؛ هاجت بلابله واضطر إلى أن ينفث بشيء منه؛ وخاف من سوط عمر؛ فهام خياله في القفار؛ ولم يجد إلّا السرح[٤] من الأشجار فقال:

أَبَـى الـلّـهُ إلّا أنَّ سَـرْحَـةَ مَـالِـكٍ عَـلَـى كُـلِّ أَفْـنَـانِ الـعُـضَـاةِ تَـرُوقُ

فَلا الظِّلَّ مِن بَرِدِ الضُّحى تَستَطيعُهُ وَلا الـفَـيْءَ مِـنْ بَـرْدِ الـعَـشِـيِّ تَـذوقُ

لَقَدْ ذَهَبَتْ عَرْضاً وَمَا فَوْقَ طُولِهَا مِـنَ الـسَّـرْحِ إلَّا عُـشَّـةً وَسُـحُـوقُ

---

(١) جواثا: منطقة بأرض البحرين.

(٢) كلمة غير واضحة فرجة أو نومة أو أخرى.

(٣) عاش في عصر الجاهلية ما يقرُب من عقدَين من الزمان، وأسلمَ مع الوفود التي وفدت على النبي ﷺ بعد غزوة حُنَين، وتوفِّيَ على الأرجح في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان.

(٤) السرح (واحدته سرحة) من أكبر الأشجار، وهو يشبه شجر الطلح، وينبت في السهل، ولا ينبت في الرمل أو الجبل. له ثمر يأكله الناس وعلى أشجار السرح تبني كبار الطيور أعشاشها ويعتبر السرح من أفضل الأشجار ظلاً لكثرة أوراقه وكثافة فروعه وانعدام الشوك فيه.

فَهَلْ أَنَا إنْ عَلَّلْتُ نَفْسِي بِسَرْحَةٍ مِنَ السَّرْحِ مَوْجُودٌ عَلَيَّ طَرِيقُ

وعَلَّ له عذراً في ذلك؛ فقد قال أبو العلا:

وأبْغَضْتُ فِيكَ النَّخْلَ وَالنَّخْلُ يَافِعٌ وأعْجَبَنِي مِنْ حُبِّكَ الطَّلْحُ وَالضَّالُ

وأهْوَى لِجُرَّاكِ السَّمَاوَةِ والقَطَا وَلَوْ أنَّ صِنْفَيْهِ وُشَاةٌ وَعُذَّالُ

وكذلك يفعل عشاق البدويات الرعابيب؛ ويعجبني قول مروان بن أبي حفصة[1]؛ يصف نخل حديقته:

ترى الباسقاتِ العمَّ فيها كأنها ظَعائنُ مَضْرُوبٌ عليها قِبَابُها

ولما ضجر أبو نواس من تغنج المصريين بنبيذ عسلهم؛ أخذ يصف نبيذ النخل:

لَنا خَمرٌ وَلَيسَ بِخَمرِ نَخلٍ وَلَكِن مِن نِتاجِ الباسِقاتِ

كَرائِمُ في السَّماءِ زَهَينَ طولاً فَفاتَ ثِمارُها أَيدي الجُناةِ

بَدا بَينَ الذَّوائِبِ في ذُراها نَباتٌ كَالأَكُفِّ الطالِعاتِ

فَشُقَّقَتِ الأَكُفُّ فَخِلتُ فيها لَآلِئَ في السُّلوكِ مُنَظَّماتِ

فَعادَ زُمُرُّداً وَاخضَرَّ حَتّى تَخالُ بِهِ الكِباشَ الناطِحاتِ

فَلَمّا لاحَ لِلساري سَهيلٌ قُبَيلَ الصُّبحِ مِن وَقتِ الغَداةِ

بَدا الياقوتُ وَانتَسَبَت إِلَيهِ بِحُمرٍ أَو بِصُفرٍ فاقِعاتِ

وقال السري الرفَّا[2]:

(١) مروان بن أبي حفصة من أهل اليمامة، قدم بغداد، ومدح المهدي والرشيد. قيل إنَّ جدّه أبا حفصة مولى لمروان بن الحكم. أعتقه يوم الدار وقيل: كان أبو حفصة طبيباً يهودياً، فأسلم على يد عثمان، أو يد مروان، وقيل: إن أبا حفصة من سبي اصطخر؛ أجْود شعره: «اللامية» التي مدح بها معن بن زائدة فُضِّل بها على شعراء زمانه.

(٢) أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي الرفاء الموصلي شاعر مشهور؛ كان =

وَغَــوَانٍ كَــأَنَّــهُــنَّ مِــنَ الــحُــسْــنِ عَــذَارَى سَــفَــرْنَ لِــلْــعُــشَّــاقِ
تَــتَــلاقَــى رُؤوسُــهَــا لِــتَــدَانِــي وَتُــنَــادِي جُــسُــومَــهَــا لافْــتِــرَاقِ
حُــلِّــيَــتْ مِــنْ ثِــمَــارِهَــا فَــتَــرَاءَتْ كَــحَــالِــيَــاتِ الــنُّــحُــورِ والأعْــنَــاقِ
تَــخْــرِقُ الــمُــزْنَ وَالــتُّــرَابَ إلــى الــمـــــاءِ بِــتِــلْــكَ الــفُــرُوعِ والأعْــرَاقِ
فَــكَــأَنَّ الــطَّــالِــعَ الــنَّــضِــيــدَ جُــفُــونٌ يَــتَــصَــدَّعْــنَ عَــنْ سُــيُــوفٍ رِقَــاقِ
صَــنَــعَــتْ فَــوقَــهَــا الــتَّــمَــاثِــيــلُ أيْــدٍ عَــاجِــزَاتٍ عَــنْ صِــنْــعَــةِ الــخَــلَّاقِ

ولنختم الحديث بذكر نخلتي حلوان[١]؛ فإن لهما حديثاً يذكر؛ وخبر ينقل ويشهر، وفيها يقول مطيع بن إياس[٢]:

أَسْــعِــدَانِــي يَــا نَــخْــلَــتَــيْ حُــلْــوَانِ وَابْــكِــيَــا لِــي مِــنْ رِيْــبِ هَــذَا الــزَّمَــانِ
وَاعْــلَــمَــا أَنَّــه رِيــبَــةٌ لَــمْ يَــزَلْ يُــفَــرِّقُ بَــيــنَ الأَلّافِ وَالــجِــيــرَانِ
ولَــعَــمْــرِي لَــوْ ذُقْــتُــمَــا أَلَــمَ الــفُــرْ قَــةِ أبْــكَــاكُــمَــا الــذي أبْــكَــانِــي
أَسْــعِــدَانِــي وَأَيْــقِــنَــا أنَّ نَــحْــســاً سَــوْفَ يَــأْتِــيــكُــمَــا فَــتَــفْــتَــرِقَــانِ

فيروى أن المنصور اعتزم قطعهما؛ فكف لما ذكرت له هذه الأبيات؛ وقال: معاذ الله أن أكون ذلك النحس، وأن المهدي أراد ذلك فعذله المنصور؛ ثم مرَّ الرشيد في أواخر أيامه بحلوان وهو ذاهب إلى طوس؛ فهاج به الدم؛

= في صباه يعمل خياطاً في دكان بالموصل ولذا سُمي بالرفاء أي الخياط، وكان مولعاً بالأدب والشعر، حتى برع فيه، وقصد سيف الدولة الحمداني بحلب فمدحه وأقام عنده مدة، ثم انتقل بعد وفاته إلى بغداد ومدح الوزير المهلبي، توفي عام ٣٦٦هـ.

(١) نخلتي حلوان يضرب بهما المثل في طول الصحبة وهما في حلوان العراق وليس حلوان مصر وهي مدينة جليلة فتحت أيام عمر بن الخطاب.

(٢) شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وليس من فحول الشعراء، ولكنه كان ظريفاً خليعاً حلو العشرة، مليح النادرة، ماجناً متهماً في دينه بالزندقة، ومولده ومنشؤه الكوفة.

ووصف له الطبيب؛ الجُمَّار[١]؛ ولم يكن بحلوان سواهما فأمر بقطع واحدة منهما؛ فضويت الأخرى بدون طول في المدة؛ ومر عليها الرشيد وقرأ الأبيات؛ فندم؛ وقال: لو علمت أنها في هاتين ما تعرضت لهما؛ ولو قتلني الدم، ثم لم تطل بعدهما مدته.

وقال حمَّاد عجرد:

جَعَلَ اللّهُ سِدْرَتَيْ قَصْرَ شِيرِ يـنَ فِدَاءً لِنَخْلَتَيْ حُلْوَانِ
جِئتُ مُسْتَسْعِداً فَلَمْ تُسْعِدَانِي وَمُطِيعٌ بَكَتْ لَهُ النَّخْلَتَانِ

وقال أحمد بن إبراهيم الكاتب[٢] من قصيدة:

وَكَذَاكَ الزَّمَانُ لَيْسَ وَإِنْ أَلَّفَ يَبْقَى عَلَيْهِ مُؤتَلِفَانِ
سَلَبَتْ كَفُّهُ العَزِيزَ أخَاه ثَمَّ ثَنَّى بِنَخْلَتَيْ حُلْوَانِ
فَكَأَنَّ العَزِيزَ مُذْ كَانَ فَرْداً وَكَأَنَّ لَمْ تَجَاوِرَ النَّخْلَتَانِ

والأشعار في هاتين النخلتين أكثر من أن تُحصى وفيما ذكرناه كفاية.

وفي مروج الذهب للمسعودي: أن بين موضع الواقعة في القادسية وبين حصون العذيب نخلة متى حُمِلَ الجريح؛ وفيه تَميُّزْ وعقل؛ يقول لحامليه متى تظهر تلك النخلة: لقد قربت من السواد[٣] فأريحوني تحت ظل هذه النخلة؛ فيرتاح ساعة في ظلها، وقد سمع أحد الجرحى وهو يقول:

---

(١) الجمار هو لب النخلة ويؤخذ من وسطها بعد قطعها.

(٢) أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود بن حمدون الكاتب النديم، شيخ أهل اللغة ووجههم.

(٣) سواد العراق هو اسم أطلقه الفاتحون المسلمون على الأراضي الزراعية التي تقع على أطراف دجلة والفرات وما بينهما، سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار لأنه جاور جزيرة العرب العديمة الزرع والأشجار فإذا خرجوا من أرضهم الصحراوية وظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار فيسمونه سواداً وهم يسمون الأخضر سواداً.

ألا فاسْلَمِي يَا نَخْلةً بيْنَ فَارِسٍ   وَبَيْنَ العُذَيبِ لا يُجاوِرُكِ النَّخلُ

وكانت إذ ذاك وحدها؛ أما اليوم فحولها نخل كثير؛ وسمع آخر من بني تيم وقد أريح تحتها وحشوته خارجة من جوفه؛ وهو يقول:

أيَا نَخْلَةَ الجرْحَى وَيَا نَخْلَةَ الفِدَاء   سَقَتْكِ الغَوَادِي وَالغُيُوثُ الهَوَاطِلُ

وحمل الأعور بن قطنة[١]؛ وهو مثخن فلما أريح في ظلِّها أخذ يقول:

أيَا نَخْلَةً بَيْنَ العُذَيبِ فَتِلعة   سَقَتْكِ الغَوَادِي الدَّاجِنَاتِ مِنَ النَّخلِ

(انتهى النقل عن المسعودي).

وفي نفح الطيب[٢]: أنَّ عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بالداخل رأى نخلة في رصافته[٣] بالمغرب فقال:

تَبَدَّتْ لَنَا وَسْطَ الرَّصَافَةِ نَخْلَةٌ   تَنَاءَتْ بِأرضِ الغرْبِ عَنْ بَلَدِ النَّخْلِ

فَقُلْتُ شَبِيهِيَ فِي التَّغَرُّبِ وَالنوَى   وَطُولِ اكتئابي عَنْ بَنيَّ وَعَنْ أهْلِي

نَشَأتْ بِأرْضٍ أنْتِ فِيهَا غَرِيبَةٌ   فَمِثْلُكِ فِي الإقْصاءِ وَالمُنْتَأى مِثْلِي

سَقَتْكِ الغَوَادِي المُزْنُ فِي الغائِطِ الذي   يَسِحُّ وَيَسْتَمْرِي السِّمَاكَيْنِ بِالوَبْلِ

ونظر عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم الأموي إلى نخلة منفردة بإشبيلية؛ فقال:

يَا نَخلُ أنْتِ فَرِيدَةٌ مِثْلِي   فِي الأرْضِ نَائِيَةً عَنِ الأهْلِ

لَوْ أنَّهَا عَقَلَتْ إذاً لَبَكَتْ   مَاءَ الفُرَاتِ وَمَنْبَتَ النَّخلِ

---

(١) بارز الأعور بن قطنة شهريار سجستان في معركة القادسية فقتل كل واحد منهما صاحبه.

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب مصنف ألفه المقري التلمساني، يعد أحد أقدم الكتب الأندلسية ظهوراً للنور، وهو موسوعة تاريخية مهمة في دراسة التاريخ والأدب والجغرافيا.

(٣) الرصافة: كُلُّ مَنْبِتٍ بِالسَّوادِ في ما حَوْلَ الْمَدينَةِ مِنَ القُرَى وَغَلَبَ على مَحَلَّةٍ بِبَغْداَدَ.

لـكـنـهـا خـرجـت وأخـرجـنـي   بـغـضـي بـنـي الـعـبـاس فـي أهـلـي

وفي المشرع الروي[١] جملة صالحة تتعلق بالنخل عامة وبنخل حضرموت خاصة فلا نطيل بشيء منها مع انتشاره وكثرة نسخه[٢].

وأخرج الحاكم في مستدركه بسنده إلى ابن سيرين قال: بلغت النخلة في عهد عثمان بن عفان ﷺ ألف درهم؛ فعمد أسامة بن زيد إلى نخلة؛ فنقرها وأخرج جمارها[٣] فأطعمه أمه؛ فقيل له: ما حملك على هذا وأنت ترى النخلة قد بلغت ألفاً؟ قال: إنَّ أمِّي سألتنيه؛ ولا تسألني شيئاً أقدر عليه إلّا أعطيتها. وأقول: لو أنَّ أسامة زَوَّجَ أمَّه لكان ألذَّ لها وأيسر عليه من نخلة بألف.

وفي الغرب بلاد مشهورة بكثرة النخل حتى أنها لا تعرف إلّا بسكرة النخيل[٤] ذكرها ياقوت في معجمه وغيره؛ وفيها يقول أحمد بن محمد المروذي[٥]:

ثُـمَّ أتَـى بِـسَـكْـرَةِ الـنَّـخِـيـلِ   وَقَـدْ اغْـتَـدَى فِـي زِيِّـه الـجَـمِـيـلِ

وذكر فيه: أنَّ مسلم بن الوليد الشاعر أقام بجرجان لولاية حصلت له من جهة الفضل بن سهل ولما أدركته الوفاة في مرضه رأى نخلة ليس في جرجان غيرها فقال:

ألا يَا نَخْلَةً بِالسَّفْحِ مِنْ أكْنَاف جُرْجَانْ   ألا إنِّـي وَإيَّـاكِ بِـجُـرْجَـانَ غَـرِيـبَـانْ

---

(١) المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل باعلوي تأليف محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي المتوفى سنة ١٠٩٣هـ.

(٢) يقصد انتشار واشتهار كتاب المشرع الروي الحاوي لجملة من أخبار وأشعار النخيل لكن هذا الكتاب لم يعد معروفاً ولا مشهوراً في الوقت الحالي.

(٣) الجُمَّار: قلب النخلة ويسمى في علم النبات اللب.

(٤) أظنها الآن واقعة في تونس.

(٥) الإمام الفقيه نزيل بغداد ولد حوالي سنة ٢٠٠هـ وكان من أجلّ أصحاب الإمام أحمد بن حنبل.

وقال أحيتم بن الحلاج لما عاتبه قومه في الإكثار من شراء النخل:

يَلُومونَنِي فِي اشْتِرَاءِ النَّخِـ ـيلِ وَلا سَمْعَ عِنْدِي لِمَنْ يَعْذُلُ
هِيَ المَالُ وَالظِّلُّ حَقُّ الظَّلِـ ـيلِ وَالمَنْظَرُ الأحْسَنُ الأجْمَلُ

وقال آخر يتغزل:

ألا يَا نَخْلَةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللّهِ السَّلامُ

وما أرى المسيب بن علس[1] إلّا صاحب نخل؛ فقد أكثر من ذكره في منتقاته فقال:

وَلَقَدَ أرَى ظِعْناً أتَخَيّلَهَا تُخْدِي كَأنَ زَهَاءَهَا نَخْلُ

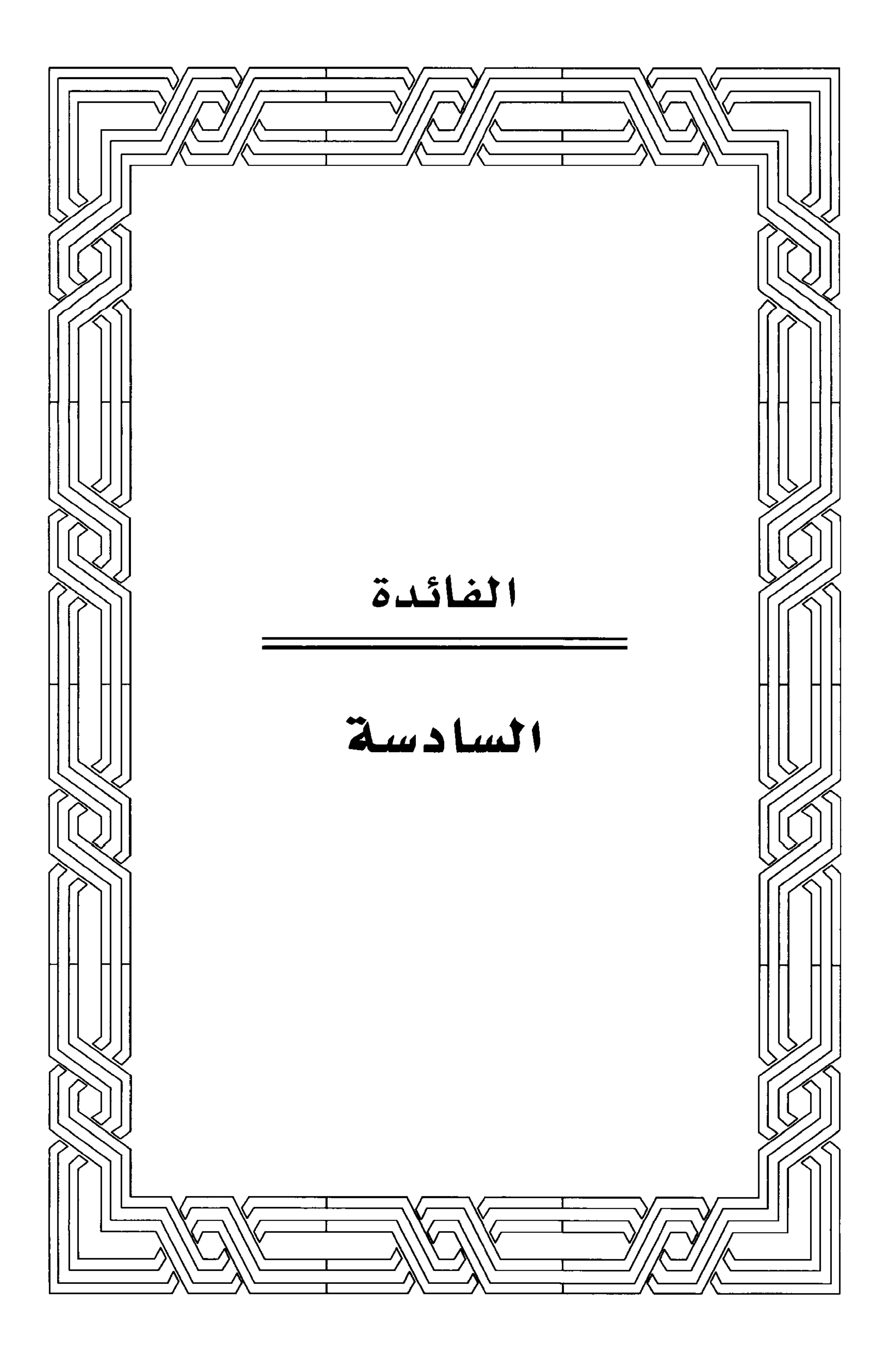
وقال:

يَهَبُ الجِيَادَ كأنَّها عَسَبُ جُرْدٍ أطَارَ نَسِيلَهَا التَّفَلُ
وَالدهُمُ العِبْدَانِ آزَرَهَا وَسْطَ الأشَاءِ مُكَمّمٌ جُعَلُ

والأشاء: صغار النخل؛ والجعل: قصاره؛ والمكمم: طلع النخل. وكان لنخل حضرموت شأن عظيم؛ أما الآن فعلى تكاثره قلَّت بركته حتى لقد كادت تكون وضيعة[2] نخلنا بسيئون خاصة؛ أكثر من غلته؛ والله أعلم[3].



(١) من شعراء الجاهلية المفضلين المقلين.
(٢) الوضيعة: الخسارة وسيئون مدينة بداخل حضرموت.
(٣) ومن المؤسف أن الكثير من نخل سيئون قطع لتحل محله المباني السكنية.



الفائدة

السادسة

الفائدة السادسة

عن ابن مسعود ﷺ قال: «**كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا**». وأقول: ما هذا اللطف الشامل؛ وما هذا الرفق الكامل؛ وما هذه الشيم الكريمة؛ وما هذه الرحمة العظيمة؟ ومَنْ ذا الذي يُمَلُّ كلامه الأعذب من ماء الغمام؛ الأزكى من المسك الختام؛ وقد قيل فيمن لا يزن تُرْبَ نعاله؛ ولا يصل ذرَّةً من جماله:

وَكُنْتُ إذا مَا جِئْتُ لَيْلَى أزُورهَا ... أرَى الأرْضَ تُطْوَى لِي وَيَدْنُو بَعِيدُهَا

مِنَ الخَفَرَاتِ البِيضِ وَدَّ جَلِيسُهَا ... إذَا مَا انْقَضَتْ أُحْدوثَةٌ لَوْ تُعِيدُهَا

.. والبيت الثاني هو الذي أريد.

وقال ابن الرومي:

وَحَديثُهَا السِّحْرَ الحَلالَ لَوْ أنَّهُ ... لَمْ يَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ

إنْ طَالَ لَمْ يُمْلَلْ وَإنْ هِيَ أوْجَزَتْ ... وَدَّ المُحَدَّثَ أنَّها لَمْ تُوجِزِ

شِرْكُ العُقُولِ وَنُزْهَةٌ مَا شَأنُهَا ... لِلْمُطْمَئِن وَعُقْلَةُ المُسْتَوْفِزِ

وقال كثير:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلامَهَا ... خَرُّوا لِعَزة رُكَّعاً وَسُجُودَا

وقال كشاجم:

يُعَادُ حَديثُهُ فَيِزِيدُ حُسْناً ... وَقَدْ يُسْتَقْبَحُ الشَّيءُ المُعَادُ

وقال ابن نباته السروري:

خُذْهَا إذَا أنْشَدَتْ فِي الحَيِّ مِنْ طَرَبٍ صُـدُورُهَـا عُـرِفَـتْ مِـنـهَـا قَـوَافِـيـهَـا
يَنْسَى لَهَا الرَّاكِبُ العَجْلانُ حَاجَتَهُ وَيُـصْـبِـحُ الـحَـاسِـدُ الـظَّـمْآنُ يُـرْوِيـهَـا

وأنشد ابن الأعرابي:

وَحَـديـثـهَـا كَـالـغَـيْـثِ يَـسْـمَـعُـهُ رَاعِـي سِـنـيـنِ تَـتَـابَـعَـتْ جَـدْبَـا
فَـأصَـاخَ مُـسْـتَـمِـعـاً لِـدُرْبَـتِـهِ وَيَـقُـولُ مِـنْ فَـرَحٍ هَـيَـا رَبَّـا

وقال القطامي:

فَـهُـنَّ يَـنْـبُـذْنَ مِـنْ قَـوْلٍ يُـصِـبْـنَ بِـهِ مَـوَاقِـعَ الـمَـاءِ مِـنْ ذِي الـغـلَّـةِ الـصَّـادِي

وقال بعض الأعراب:

بِـوَحْـيٍ لَـوْ أنَّ الـعـصْـمَ تَـسْـمَـعُ رَجْـعَـهُ تَـقَـضَّـضَ مِـنْ أعْـلَـى أَبَـانٍ عَـوَاقِـلُـه

أبان: اسم جبل؛ والعواقل: جمع عاقل وهو الوعل.

وقال ذو الرمَّة:

وَلَـمَّـا تَـلاقَـيْـنَـا جَـرَتْ مِـنْ عُـيُـونِـنِـا دُمُـوعٌ كَـفَـفْـنَـا مَـاءَهَـا بِـالأصَـابِـعِ
وَنِـلْـنَـا سِـقَـاطـاً مِـنْ حَـدِيـثٍ كَـأنَّـهُ جَـنَـى النَّـحْـلِ مَـمْـزُوجـاً بِـمَـاءِ الـوَقَـائِـعِ

وَكَأنِّي بِمَنْ يُنْكِر إيرادي لهذه الأبيات الغزلية بمناسبة الكلام عن أحاديث سيِّد الوجود؛ وأشرف مولود؛ فيتناولني من العتب بنحو ما تناولوا به المتنبي في قوله:

أغَـارُ مِـنْ الـزُّجَـاجَـةِ وَهْـيَ تَـجْـرِي عَـلَـى شَـفَـةِ الأمـيـرِ أبِـي الـحُـسَـيـنِ

ولكن ليس الأمر كذلك ولا قريباً من ذلك؛ إذ المقصود ليس الاستدلال على أنه يوجد من لا يُمَلُّ كلامه من البشر؛ وإذا كان المُشَبَّه لا يكون مثل المُشَبَّه بِهِ من سائر النواحي؛ فأولى هنا؛ إذ لا تشبيه أصلاً؛ وإنما هو ذكر وجود شيء للاحتجاج به على وجود شيء من جنسه؛ فيما هو أعلى وأشرف؛ فإنَّ رسول

الله ﷺ المثال الأعلى؛ والمقام الأسمى؛ ينحدر عنه السيل؛ ولا يرقى إليه الطير؛ وما زالت السادة الصوفية تقرن محبة الله عز وجل ومحبة رسول الله ﷺ إلى محبة المخلوق؛ وتحشر الأقاويل؛ وتضرب الأماثيل؛ ولا نعتب في شيءٍ من ذلك؛ وقد قال الطائي:

لا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ   مَثَلاً شَروداً فِي النَّدَى وَالباسِ
فَاللّهُ قَدْ ضَرَبَ الأقَلَّ لِنُورِهِ   مَثَلاً مِنَ المِشْكَاةِ وَالمِقْبَاسِ

وكان الحسن البصري ينصت لمواعظ الحجاج، وكان مالك بن دينار يعجب بها ويتأثر منها؛ وقال الشُّعَبِي[١]: ادنوني من منبر زياد لأسمع كلامه؛ فلم أر أحداً يتكلم فيحسن؛ إلّا تمنيت أن يسكت مخافة أن يسيء؛ إلّا زياداً؛ فإنه كان لا يزداد إكثاراً إلّا ازداد حسناً؛ فكنت أتمنى أن لا يسكت.

فكيف يُمَلُّ كلامه[٢]، وقد اجتمعت له المحاسن؛ لسانٌ عذب؛ وكلامٌ كأنه اللؤلؤ الرطب؛ يخرق القلوب ويقرع الأسماع؛ وتتلاقى فيه الحلاوة والطلاوة والإبداع؛ ويستهوي بفضله العقول وتنقطع عن وصفه الأطماع؛ لأنه فوق ما نقول؛ وحسبك أن أعداءه يتحينون الفرصة لسماعه من حيث لا يشعر؛ ويتكمنون في سواد الليل للتمتع بفوائده من حيث لا ينظر، وأحرَّ به وقد أوتي من الفصاحة الروائع؛ ومن الكلم الجوامع؛ كأنما هي الشهد ممزوجاً بماء الوقائع؛ مع ذلك الوجه الذي تتكسر الأشعة عن صفاته؛ وتَتَحَيَّر الحُدُقُ من بهائه،

مُحَيًّا لَوْ أنَّ المُدْلِجِينَ اهْتَدَوْا بِهِ   لَشَقَّ الدُّجَا حَتَّى تَرَى اللَّيْلَ يَنْجَلِي

قد تكاملت سماته؛ وتناسبت قسماته؛ لو لم تكن فيه آيات مبيَّنة لكان منظره

---

(١) هو عامر بن شراحيل الهمداني المشهور بالإمام الشعبي ولد والحسن البصري في سنة واحدة في خلافة عمر بن الخطاب وكانت ولادته ومعيشته بالكوفة وقد سكن المدينة عدة أشهر هرباً من المختار الثقفي؛ أرسله عبد الملك بن مروان إلى بيزنطية في سفارة خاصة وعيّنه عمر بن عبد العزيز على القضاء وغلب عليه الفقه والتفسير.

(٢) صلى الله عليه وسلم.

ينبيك بالخير؛ وينتعش بذكره الميت؛ ويكاد يضيء من غير زيت. قال الحافظ في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾(١) إلى آخر الآية: هو مَثَلٌ ضربه الله تعالى لنبيِّه ﷺ؛ فإن جماله الباهر ووجهه الواضح شهودٌ بصدقه وصحة نبوَّتِه بقطع النظر عن سائر الآيات والمعجزات أو ما يشبه معناه؛ ولقد صدق فيما قال؛ ألا ترى إلى تلك الأعرابية التي ضمنت لقومها وكانوا لا ينسؤون ثمن القعود الذي اشتراه؛ وقالت إنَّه ليس بوجه كذاب؛ من رآه بديهةً هابه؛ ومن خالطه عشرةً أحبَّه. فلهو الأحق بقول العباس بن الأحنف(٢):

لو قَسَّمَ اللّهُ جُزْءاً مِنْ مَحَاسِنِهِ ... فِي النَّاسِ طُرّاً لَتَمَّ الحُسْنُ فِي النَّاسِ

وقول النميري(٣):

لَوْ أنَّ مَا فِيهِ مِنْ جُودٍ تَقَسَّمَهُ ... أوْلادُ آدَمَ عَادُوا كُلُّهُمْ سُمْحَا

وقول حبيب(٤):

لَوْ اقْتَسَمَتْ أخْلاقَهُ الغُرُّ لَمْ تَجِدْ ... مَعيباً وَلا خَلْقاً مِنَ النَّاسِ عَائِبَا

وقول أبي الطيِّب المتنبي:

لَوْ فَرّقَ الكَرَمُ المُفَرِّقُ مَالَهُ ... فِي النَّاسِ لَمْ يَكُ فِي الزَّمَانِ شَحِيح

وروى بعضهم عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ عِشَاءً فأشرق

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٢) أبو الفضل العبّاس بن الأحنف شاعر غَزِل رقيق، أصله من اليمامة بنجد، نشأ ببغداد وتوفي بها، خالف الشعراء فلم يمدح ولم يَهجُ بل كان شعره كله غزلاً وتشبيباً وتوفي سنة ١٩٢هـ.

(٣) الراعي النميري هو عُبَيد بن حُصين بن جندل النميري، من فحول الشعراء ولقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل. عاصر جرير والفرزدق وتوفي سنة ٩٠هـ.

(٤) لقبه أبو تمام واسمه حبيب بن أوس الطائي، ولد بالشام ورحل إلى مصر ثم استقدمه المعتصم إلى بغداد فأجازه وقدمه على شعراء وقته.في شعره قوة وجزالة، واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري، له تصانيف، منها فحول الشعراء، وديوان الحماسة.

ببهائه المنزل؛ وزاد بعضهم حتى أدخلت الخيط في الإبرة على ضوء وجهه؛ وقلت له: لأنت أحق بقول أبي كبير الهذلي:

إذَا نَظَرْتَ إلَى أسِّرَة وَجْهِهِ   لَمَعَتْ كَبرْقِ العَارِضِ المُتَهَلِّلِ

والله در أبي الطمحان القيني[١]؛ أو أخيط بن زرارة؛ على اختلاف الرواية؛ في قوله:

أضَاءَتْ لَهُم أحْسَابُهُمُ وَوجُوهُهُمْ   دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الجزْع ثَاقِبُه

وابن عنقاء الفزاري في قوله:

كَأنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي جَبِينِهِ   وَفِي أنْفِهِ الشِّعْرَى وَفِي جِيدِهِ القَمَرْ

وإنه لقليل فيه قول حسان:

وأحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي   وَأجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدَ النِّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ   كَأنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

كلا والله؛ إن كلامه لا يمل؛ وهو الذي متى سفر؛ حوّمت عليه المُقَلْ.

أرى وَجْهٌ تَشْرَعَ الأبْصَارُ فِيهِ   كَأنَّ عَلَيْهِ مِنْ حِدَقٍ نِقَابَا

وقال أبو فراس:

فَإذَا بَدا اقْتَادَتْ مَحَاسِنُهُ   قَسْراً إلَيْهِ أعِنَّةِ الحَدَقِ

ولكنه كله فضل ونور ولطف ورحمة ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]؛ لهذا لم يَدَعْ أسلوباً من أساليب الحكمة؛ في دعاية الأمة إلى الحق؛ إلّا أخذ به؛ ولا طريقاً من طرق اللطف في الإرشاد؛ إلّا سلك فيه.

---

(١) شاعر جاهلي مخضرم أدرك الإسلام وأسلم لكنه لم ير النبي ﷺ واسمه حنظلة بن شرقي.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

■ وفي الحديث لطائف:

الأولى: أنه يجري بالناس على المتعارف بينهم؛ لأنه بعث معلماً؛ ومن عادة الإكثار الإملال؛ وإن تخلف لعارض كما في حقه؛ فتَجَنَّب مواضعه حسماً للمادة؛ ولهذا قال لصاحبيه: إنها صفية؛ فحسم مواد التهم؛ وقطع مناط الرِّيَبْ؛ كيلا يدَّعِي المُدَّعُون ولا يتمنَّى المُتَمَنُون.

الثانية: في صنيعه ذلك إرشاد المعلمين إلى تجنب مداحض الإملال؛ وسياسة النفوس براحتها من الكلال؛ وقد قالوا: إن اصطكاك العلم وازدحامه في الوهم مضلة للفهم[1]؛ ومثله مرويٌ عن الإمام الغالب؛ ولهذا أمر الخليفة الثاني بإعفاء الأولاد من التعلم عشيَّة يوم الخميس وسحابة يوم الجمعة؛ ودعى على من خالف ذلك؛ كما ذكر أهل الحواشي وغيرهم. وطالما نهى عليه الصلاة والسلام أحوال المتعمقين؛ وقال: «**عليكم من العمل ما تطيقون فإنَّ اللّهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا**» وكيف لا يكون أسوة للناس في ذلك التخفيف؟

الثالثة: سبيل العلم أن يكون مطلوباً مرغوباً فيه؛ وفي إكثاره إذلال له؛ فحقُّ الواعظ ومن في معناه؛ أن يحتفظ بكرامته ويصونه عن الامتهان؛ وأن يسكت والناس يتمنون كلامه؛ وإلّا كان جانياً على العلم والدين. ومن هنا تأكدت بلاغة الخطبة؛ ومنها الموافقة لمقتضى الحال وعدم النقص؛ والزيادة عن الحاجة. ولهذا كان يقصر الخطب الجمعية؛ وكانت خطبته العارضة أطول من المعتادة ﷺ.

فلو أنَّ خطيباً أطال وأتى بما لا يلائم الحال؛ لم يكن ملوماً من تضجر منه وأنكر عليه، ومنه تعرف أنَّ الخطابة مَرْكَب ليس بالذلول؛ فيجب على من يُرَشِّح نفسه لها أن يستكمل الآلات؛ وأن يستجمع الأدوات؛ ليملك الخواطر ويستهوي القلوب ويخلب العقول ويستميل النفوس؛ حتى يتمكن من إزعاجها عن الحضيض

---

(١) هذه إشارة أخرى من إشارات الإمام الحكيم إلى مسائل التعليم.

ويحلق بها إلى القلل، ومن لم يُخْرِجْ الناس بلونٍ غير الذي دخلوا به فليس بخطيب.

ورأيت في بعض الكتب؛ أنهم كانوا لا يمكِّنون أحداً من الكلام على الناس؛ إلّا من تُرْمَى إليه حال الخطابة الرقاع في الأسئلة من كل صوب على اختلاف الفنون؛ حتى إذا انتهى؛ شرع في الجواب عنها واحدة واحدة على البديهة؛ من غير رجوع إلى كتاب ولا تأمُّل في صحيفة. وسمعت مرة واعظاً يتكلم بكلام بارد وحديث معاد؛ قد حفظته الجدران وعرفته الجمادات؛ إلى حكايات موضوعة؛ وكرامات مكذوبة؛ وأصحابه مطرقون وهو يلوك أساطيره كما تلوك العذارى العلك؛ وتمضغ العجائز اللبن؛ ويطيل في مدِّ الحروف عن اللائق ليشغل الوقت؛ وهم يعدونه من جوامع الكلم؛ ولمَّا أعرضت عنه؛ قالوا: محجوب واتهموني بالفسوق والمروق:

فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا حِجَابٌ عَنِ الرِّيَاء وَذَنْبِيَّ أنِّي لَيْسَ عِنْدِي تَصَنُّعُ

كَلامٌ سَخِيفٌ وَالمُرَاؤونَ دَمْعُهُمْ يَسِيلُ وَبَعْضُهُمْ كَاليَهُودِ مُقَنَّعُ

دَعُونَا فَفِي القُرآنِ وَالسُّنَةِ التِي أتَانَا بِهَا خَيْرُ النَّبِيينَ مُقَنَّعُ

الرابعة: ربما يقال إن النبيَّ ﷺ يخشى على أصحابه من السآمة ما لا يخشى من غيره؛ إذ الإعراض عن حديثه ليس كالإعراض عما سواه؛ لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحيٌ يوحى؛ والله جل شأنه يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾[1]؛ ويقول: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[2].

فنقول: لا يبعد ذلك؛ لا سيّما وأن ابن مسعود من خواص الصحابة؛ وقد

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٠ ـ ١٠١.

أشرك نفسه فيمن تخشى سآمته؛ فقال: كراهية السآمة علينا؛ وهذا لا ينافي ما تقرر أن كلامه ﷺ غير مملول عند أعدائه فضلاً عن أوليائه؛ إلّا من كان جامد الطبيعة؛ بليد الفهم؛ ثقيل الظِّل؛ وقليل ما هم في تلك العصور؛ التي بلغ برجالاتها الحال إلى أن يكادوا يقتتلوا من تضامهم لسماع الخطيب في أسواق العرب. لأن مبلغ السآمة التي يخشاها النبي ﷺ على عامة أصحابه وبعض الخاصَّة منهم؛ هي الفترة[1] عن الإقبال الحاصل من أول الكلام؛ لا سيّما وفيهم البليد والجافي والضعيف والمنافق وذو الحاجة. والعلم شريف؛ قلَّما يفيد إلّا عندما يقبل عليه طلابه؛ إقبال الإبل الهيم على الماء البارد.

وأشرف المعلمين ﷺ؛ يربِّي فيهم هذه الداعية للإقبال عليه؛ ويحوطهم حياطة الناصح الشفيق؛ ومن هنا حفظوا السنة؛ وانتقشت في جواهر نفوسهم حقائق المعارف؛ فانتهت إلينا بيضاء نقيَّة واضحة طريَّة؛ ولولا ذلك الإقبال؛ لم يتحصل ما ذكرناه؛ فالإنسان وإن كان من الذكاء في غايته؛ ومن النباهة في أقصاها؛ لا يعي ما يلقى عليه إلّا حيث كان مقبلاً عليه، ولن ترى أي بليد يأتيه كتاب حبيبه أو وكيله؛ إلّا انحفظ له ما فيه من مرة واحدة؛ وكذلك العرب في إقبالها على ناصع القول؛ ورغبتها في فصيح الكلام؛ فاستقر لها من غير تَعَمُّل[2] ولا تكلف ولا حاجة إلى الاستذكار ولا ضرورة إلى التدارس؛ ولولا ذلك لما انتهى إلينا شيء من أخبارهم؛ ولما ازدحمت الطروس بآثارهم وأشعارهم؛ فقد كانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون.

وإذا شئت أن تعرف فرق ما بين عصرنا والذي قبله بنحو ستين عاماً؛ فانظر حال عامة أولئك في إقبالهم على شعرائهم؛ وتحرزهم من ملامهم؛ وتفاديهم من هجائهم؛ حتى إن وخز الألسنة أيسر من قرص كلامهم؛ لما له عند الناس إذ ذاك من الانتشار والقبول؛ وما من حادثة إلّا تجدها مقررة مستوفاة بعللها وأسبابها في

---

(١) الفترة: هي الضعف والانكسار.

(٢) تعمل: أي تكلف العمل.

تلك الأشعار على عاميتها؛ ثم أخذت ممارسة الملاوم ومقاربة المعاتب تُهَوِّن من صعوبتها؛ وتحلي من مرارتها؛ وتخفف من ثقلها؛ حتى تم الانعكاس؛ وتَبَيَّخ الانتكاس؛ فلم يعد لذلك أثر يذكر؛ فلا يُمْدَحْ كريم؛ ولا يُخْزَى لئيم؛ ولا يُعَيَّر جبان؛ ولا يُهَابُ ملام؛ ولا ينتشر كلام.

الخامسة: مع ما قد أشرنا إليه؛ من أنه لا يخلو زمانه ﷺ؛ عن الغبي الجامد؛ والثقيل البارد؛ وأنه يتألفهم ويراعيهم؛ فهنالك أخرى؛ وهي أنه قد يخشى على من صفت سرائرهم؛ وتجوهرت بصائرهم؛ أن تنفطر مرائرهم من كثرة الأنوار؛ وترادف أشعة الحكمة عليها. وفي الباب حديث حنظلة؛ وحاصل معناه: أنه قال: نافق حنظلة يعني نفسه؛ ولما سأله النبي ﷺ عن سبب ذلك؛ قال: إنا نكون عندك تُذكِّرْنَا بالله وبالجنة والنار حتَّى كأنها رأي عين؛ ولكنا إذا خرجنا من عندك وعافسنا الأزواج؛ ومارسنا الصنيعات؛ نسينا كثيراً مما تقول؛ فقال له النبي ﷺ: لو بقيتم على ما أنتم عليه عندي؛ لصافحتكم الملائكة على الطرق؛ ولكن ساعة وساعة؛ أو ما يقرب من هذا؛ وليس المراد حقيقة النسيان؛ ولكن زوال بعض الانفعال الواقع من تذكير النبي ﷺ كما لا يخفى.

إذن فالعلم غذاء الأرواح كما أنَّ الطعام غذاء الأبدان؛ وكما يمتنع الإكثار من الثاني خشية التخمة؛ كذلك ينبغي الاقتصاد في الأول؛ لا سيّما عند خشية الضرر؛ أو التقصير في شيء سواه من الحقوق؛ وقد قال ﷺ: «**إنَّ لربك عليك حقاً وإن لنفسك عليك حقاً وإن لزوجك عليك عليك حقاً وإن لزورك عليك حقاً**» أو ما هذا معناه أو قريب منه على تفصيل جميل في الموضوع جوَّدته في كتابي: أنفس الأعلاق في علم الأخلاق[١].

---

(١) كثيراً ما يشير الإمام إلى مصنفات له لم نسمع عنها وعسى أن توجد وتطبع وتنشر فتعم بها الفائدة خصوصاً مثل هذا الكتاب الذي ذكره (أنفس الأعلاق في علم الأخلاق) وأخاله على غرار كتاب التنبيه للغزالي. هذا ولا زالت بعض كتب الإمام مفقودة مثل الجزء الثاني والثالث من هذا الكتاب بلابل التغريد والسبب أن الإمام يبعث كتبه لبعض أهل الهيئات =

وبلغني في حديث يتلقاه السادة الصوفية بالقبول ولا أعرف مكانه من الصحة «**أنه ﷺ كان إذا تزاحمت عليه الأنوار يقول كلميني يا عائشة**»[(١)] فهو من هذا الباب؛ على ما فيه من البحوث التي لا يتسع لها النطاق؛ وهاهنا إشكالات: منها: أن هذا من الأحاديث الناهية عن التعمق والتكلف؛ حجَّة ضد ما يتعاطاه الصوفية؛ من صنوف المجاهدات وأنواع الرياضات والمكابدات؛ ونلتزم ذلك؛ لأن خير الهدي هدي محمد ﷺ، غير أن الصوفية معذورون في كثير مما يفعلون؛ لأنه لما جمح الزمان وتنكرت الأيام وساءت الأحوال وفسدت الطباع؛ لم يعد أحد يقدر على التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل؛ إلّا بتلك الأوضاع التي استحدثوها. والوسائل لها حكم المقاصد؛ فلا بعد فيها إذن عن السنة؛ وإن لم تُعْرَفْ في الصدر الأول؛ إذ النفوس زكيَّة والأفكار نقيَّة والأرواح صحيحة؛ والعلاج في ما يطرأ متيسر عندهم بما دونها؛ كما كانت الألسنة مستقيمة لا تحتاج إلى الإصلاح بقواعد العربية المخترعة؛ فأما وقد أعيت الأمراض؛ واستحكمت الأعراض؛ فلا غرو أن لا يجدوا وسيلة أنجع منها لأدواء القلوب وتهذيب النفوس وسياسة الخواطر ومراقبة الأحوال.

وأنكر بعضهم على الغزالي؛ في ثنائه على الزاهد الذي هرب بالثياب من الحمام؛ فراراً من الشهرة التي خاف أن تفتنه؛ وقالوا: كيف ساغ لأبي حامد أن ينسلخ عن الفقه ويستحسن المعصية، وأجابوا عنه: بحرية تناول النجس مع حل التداوي به؛ لا سيما عند التعيين. وقد تعيَّنت هذه الصغيرة لعلاج نفس الزاهد وخلاصه من الشهرة التي يخشى منها على دينه مع عزمه على ردِّ الثياب، فكيف يجوز استعمال البول في جرح صغير[(٢)]؛ ولا يحل التداوي بهذا الأمر الخطير؟؛

= لطبعها فيضنون عليها بالطبع وتبقى في مكتباتهم أو مقتنياتهم فلا يعرف عنها أحد ولا يستفيد منها أحد.

(١) الحديث أورده الإمام الغزالي في الإحياء بلفظ مقارب.

(٢) يستعمل بول الإبل في كثير من المعالجات.

إنه لشيء عجاب، وإذ قد أجابوا بهذا عما ظاهره التحريم؛ فغيره من أوضاع الصوفية من باب أولى؛ فخلاهم الذام عند صحة القصد وإخلاص النية.

أما استدلالهم بما كان من اجتهاده ﷺ في العبادة حتى تورَّمت قدماه؛ فنعم؛ وأما بما كان من تقلله ﷺ من الدنيا وجوعه فيها؛ فإنه مخدوش؛ لأنه المعروف عن حاله ﷺ: أنه يأخذ ما وجد ولا يتكلف ما فقد؛ فليس من لون فعلهم؛ وإنما هو لون آخر يصح لهم به الاستئناس لا الاستشهاد.

وكذلك مما كان من ابن الخطاب؛ خلف نفسه عن الشهوات؛ ومنع نفسه السمن والدسم حتى صار مثل الغراب الأسود في عام الرمادة؛ من جشوبة العيش[١]؛ وما كان من عليٍّ؛ وقوله: إنما هي نفسي أروِّضُها بالتقوى حتى تأتي آمنة يوم الفزع الأكبر؛ وتثبت في جوانب المزلق؛ وايم الله يميناً أستثني فيها بمشيئة الله؛ لأرَوِّضَها رياضة تهشُّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً؛ وتقنع بالملح مأدوماً. في كثير من أمثاله الجمَّة عن السلف؛ فإنه لا ينهض لهم به الاستدلال على رياضتهم؛ لأنَّ المعروف عن الخليفتين وأمثالهم الاتِّباع؛ وفوق ذلك فالخلفاء ومن في معناهم؛ مأمورون أن يسيروا بسير ضعفائهم؛ وأن يكونوا أسوة للناس في تحمل المكاره؛ بخلاف غيرهم؛ فلكل من الناس أحوال تخصه؛ ولهذا قال علي كرَّم الله وجهه: أأرضى من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين؛ ولا أماثلكم في مكاره الدهر؛ أو أكون أسوة لكم في جشوبة العيش.. إلى آخر كلامه.

والقرآن من فاتحته إلى خاتمته حثَّ على الزهد والتنويه بشأنه؛ وهو مما لا نزاع فيه عند انتفاء المبالغة؛ وحقيقته ما ذكرنا من سيرته ﷺ؛ وقد أخطأ من فسره باطِّراح الدنيا جملة؛ والإعراض عنها بالكلية؛ فقد أخبر الله بأن إخوان يوسف كانوا فيه من الزاهدين مع أنهم أخذوا فيه الثمن؛ فأَخْذُ البَلاغْ من الدنيا وما يشبهه؛ لا يغاير الزهد؛ كما لا يغايره ما يحتاجه الأئمة والعلماء والقضاة؛

(١) الجشوبة: الغليظ الخشن.

للإرهاب وإظهار شرف العلم؛ على حسب تفاوت أقدارهم؛ وليس الكلام في مجرد الزهد؛ وإنما هو في الأوضاع المستحدثة والقوانين المستجدة؛ والأعمال بالنيات؛ والله يعلم المفسد من المصلح.

وإذا انتهى البحث إلى هنا؛ فلا بدّ من التعرض لمسألة هي من أمهات المسائل في الدين؛ سبق ذكرها في كتابنا العود الهندي؛ وقد يأتي لها موضع أنسب من هذا؛ ولكن خير البر الإعجال؛ إذ لا أمان أن ننساها؛ وهي: ما من نبيٍّ ولا حكيم ولا شاعر ولا خطيب؛ إلّا ذمَّ الدنيا واشتكى من توالي آفاقها؛ وترادف حسراتها؛ وتتابع موجعاتها؛ إذ لا لذة فيها إلّا مصحوبة بألم؛ ولا راحة إلّا ممزوجة بكدر؛ لم تصف لشقيٍّ ولا تقي؛ ولا مأمور ولا أمير؛ ولا غنيٍّ ولا فقير؛ ومع هذا فدهماء الناس مصفقون على حبِّها والتكالب عليها؛ ومن ذلك نشأ التخاصم والتقاطع؛ فزاد النكد وكثر التعب؛ وتشوشت الحياة وتكدر العيش؛ وتضاعفت الآلام وترادفت الشرور؛ والقليل من الناس؛ كالصوفية والفلاسفة؛ اطرحوها جملة وأعرضوا عنها رأساً.

وليس هذا من الصواب؛ إذ لو تأثَّر بهم الناس وتقبلوا طريقهم؛ لأفضى إلى الخراب وانتهى إلى الانقراض؛ ولكن الذِّكْر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ قال بالتوسط في هذه القضية؛ فَبَيَّن في أكثر الآيات؛ مذام الدنيا وحقارتها وقلة خطرها؛ كبحاً لجماح الشهوة الظلوم وكفّاً من عنان الحرص الممقوت؛ وبيَّن على أن لا بدَّ منها؛ بل ألزم القيام بعمارتها؛ وأوجب مراعاة أسبابها في قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[1] وقوله تقدست أسماؤه: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾[2] وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾[3] وقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٢.

ﭐلۡأَنفُسِۚ﴾ وقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾[١] وقوله سبحانه: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[٢] وقوله عليه الصلاة والسلام: «**اعمل لدنياك كأنك لا تموت**»[٣] وأخرج ابن عساكر والديلمي والخطيب وأبو نعيم مرفوعاً: «**ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعاً؛ فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة؛ ولا تكونوا كلاً على الناس**».

وفي مادة شرح من التاج أن عطاء قال للحسن: أكان الأنبياء ينشرحون إلى الدنيا مع علمهم بربهم؟ فقال له: نعم إن الله تراءك في خلقه؛ أراد: كانوا ينبسطون إليها ويشرحون صدورهم ويرغبون في اقتنائها رغبة واسعة؛ هذا لفظه. والمراد من ترائك: أنَّ الله أبقى في عباده أموراً من الأمل حتى ينبسطوا بها إلى الدنيا؛ وإنما أطنب الباري جلَّ جلاله في الأوَّل واكتفى بالإيجاز في الثاني؛ وكولاً إلى الطبع؛ وإحالة على الداعية؛ كما رتب الحد على الخمر ولم يرتبه على شرب البول، وكما بالغ في الوصيَّة بالوالدين ولم يبالغ في الإيصاء بالأولاد مع الاشتراك في أصل الحق. وكله من بدائع القرآن الذي لا تَفْنَى عجائبه؛ ولا تُطْفَى مصابيحه؛ ولا يخبو برهانه؛ ولا تهدم أركانه؛ ولله در جرير في قوله:

فَلا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضِيعٌ نَصِيبَهُ ... وَلا عَرَضُ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاغِلُهْ

الإشكال الثاني: في قوله ﷺ: «**لصافحتكم الملائكة على الطرق**» وهو من جهتين:

الأولى: إنه أمر مطلوب؛ فكيف تدللون به على الاقتصاد في الحكمة؟

(١) سورة الجمعة، الآية: ١٠.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٧.
(٣)

وجوابه أنهم إذا كانوا كذلك؛ فقد صاروا روحانيين لا يتمكنون من الجهاد ولا تأدية ما عليهم من سائر الحقوق السابقة إليها الإشارة؛ فانتهض به الاستدلال؛ ولا سيّما مع ضمه إلى غيره من النصوص الواردة في منع التَّبَتّل؛ ولا يُغَبِّر على هذا ما سيأتي في غير هذا المكان من قدرة الملائكة على جلائل الأعمال؛ لأن المراد هنا من قوة روحانية البشر؛ ضعف أجسادهم التي يتعلق بها الكثير من الوظائف الصالحة؛ ومتى وقدوا أنفسهم بالعبادة والإفراط فيها؛ عجزوا عن إكمال تلك الوظائف؛ أمَّا قوة الملائكة فإنَّها إما طبيعية؛ وإما بإيجاد الله لها لمزاولة تلك الأعمال العظيمة على سبيل الخوارق والله أعلم. والأخرى؛ ظاهرة إمكان المصافحة بكل سهولة؛ وقد سبق في الفائدة الثانية عِظَمَ ما يلقاه ﷺ من ملاقاة جبريل؛ وفي حديث آخر: «**فإذا الملك الذي جاء في حراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فخفت منه**». والجواب عنه من وجوه؛ **أحدها**: أنه لو صافحتهم الملائكة لتمثلت لهم رجالاً لا يوحشهم شيء من أمرها؛ ولا يغايرها حال من أحوالها؛ بخلافه ﷺ؛ فقد رآه بهيئة لا تستقر لها العقول ولا تعتدل لها القلوب. **ثانيها**: أنَّه يأتيه بالأمر العظيم والوحي الثقيل. **ثالثها**: إن الملائكة ليسوا سواء في الهيبة ولا في غيرها. **رابعها**: إن الكمال لم يتفق إلّا له ﷺ؛ ثُمَّ لمن داناه من المرسلين؛ ثُمَّ مَنْ غيرهم على اختلاف الطبقات وتفاوت الدرجات. أمَّا من دونهم؛ فإما روحانية لا سلطان معها للجسد؛ وإما جسد لا أثر يذكر معه للروح، وقد كان ﷺ كاملاً في الطرفين؛ وبذلك رجحت كفته على الطرفين.

ولنختم الفصل بشيء مما يتعلق بالرياضة؛ إذ قد انتهينا إليها؛ فنقول: أما الغرض منها فتأديب النفس عن الامتهان؛ وتنقيتها عن الأدران؛ وتحليتها بآداب القرآن. وأما أصولها فأربعة؛ أشار إليها القطب الحداد بقوله:

والنَّفْسُ رُضْهَا بِاعْتَزَالٍ دَائِمٍ   وَالصَّمْتُ مَعَ سَهرِ الدُّجَى وَتَجَوّعِ

وقد يستأنس للأخير في الجملة بما روي أنَّ فاطمة عليها السلام جاءت إلى الرسول ﷺ

بكسرة خبز فقال: ما هذا؟ قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة منه؛ فأكلها وقال: «**أما إنها لأول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث**».

وفي الاستيعاب[١] عن عمران بن حصين أن النبيَّ ﷺ عاد فاطمة وهي مريضة فقال: «**كيف تجدينك يا بنيَّة؟**» قالت: إنِّي لوجعة وإني ليزيدني أني ما لي طعام آكله؛ قال: «**يا بنيَّة: أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين؟**»؛ قالت: يا أبت فأين مريم ابنة عمران؟ قال: «**تلك سيدة نساء عالمها؛ وأنت سيدة نساء عالمك؛ أما والله لقد زوجتك سيِّداً في الدنيا والآخرة**». وقد أشرنا غير مرة؛ إلى أنه لا عن فقر؛ ولكنه الجود يطلق ما بأيديهم.

وقال إبراهيم بن أدهم[٢]: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يغلق عن نفسه باب النعمة ويفتح عليها باب الشدَّة. وقال أبو علي الروذباري[٣]: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام: أنا جائع؛ فالزموه السوق وكلفوه الكسب. وقال يحيى بن معاذ[٤]: لو أنَّ الجوع يباع في السوق لما كان لطلاب الآخرة أن يشتروا غيره. وقال أيضاً: الجوع للمريدين رياضة؛ وللتائبين تجربة؛ وللزُّهاد سياسة؛ وللعارفين تكرمة. وقال بعضهم: أدب الجوع أن لا تنقص من عادتك إلّا مثل أذن السنور وهكذا على التدرُّج حتى تصل إلى ما تريد.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر.

(٢) إبراهيم بن أدهم أحد علماء السُّنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثاني الهجري كان من أبناء الملوك فزهد في الدنيا وعن ثروة أبيه وذهب إلى مكة وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض ثم دخل الشام فكان يعمل بها ويأكل من كسب يده كان كثير التفكر والصمت حريصاً على الجهاد في سبيل الله ومات سنة ١٦٢هـ وهو في جهاد البيزنطيين.

(٣) أبو علي محمد بن أحمد الروذباري ترجع أصوله إلى أمراء فارس انتقل من فارس إلى بغداد ودرس الفقه والأدب والحديث ثم تصوف على يد الجنيد ثم ساح في البلدان حتى استقر به المقام في مصر وصنفَ بها وصار من أئمة الصوفية وتوفي بها سنة ٣٢٢هـ.

(٤) يحيى بن معاذ الرازي أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري مات في نيسابور سنة ٢٥٨هـ.

ويحكى أن أبا تراب النخشبي[١] خرج من البصرة فوصل إلى مكة على أكلتين، وكان منهم من يأكل كل أربعين يوماً أكلة واحدة؛ ومنهم من يجعلها واحدة في كل ثمانين يوماً. واشتهى أبو الخير السمك؛ ثم تهيأ له من وجهٍ حلال؛ فلما مد يده ليأكل أصابت إصبعه شوكة من السمك؛ فقام وترك الأكل وقال: يا رب هذا لمن مدَّ يده بشهوة إلى حلال؛ فكيف بمن مدَّها إلى حرام؟ وأقوالهم وأخبارهم في ذلك كثيرة. وقد علمت حال بعضهم مما سلف؛ وفَرْقٌ ما بين حالهم؛ فإنه صِنْعَة؛ وحاله ﷺ وآل بيته؛ فإنه اتِّفَاق.

وربما احتجوا لخلواتهم بتحنُّثه[٢] ﷺ في حراء؛ ولكنه كان قبل النبوة؛ ولم يثبت أنه تردد إليه بعدها. ويذكرون أربعينة موسى عليه السلام؛ وما رُوِيَ أنه صامها؛ وأنَّ عيسى صام أربعين يوماً ثم خوطب بعدها، ففيه لهم إنْ ثَبَتَ مُتَمَسَّكٌ؛ وأما الجواب بأنه شرع منسوخ؛ فمخالف لقوله ﷺ في كسر رباعية الربيع بن معوّذ: «**كتاب الله القصاص**»؛ مع أنه لم يرد بالسنِّ إلّا في خطاب غير هذه الأمَّة حيث يقول: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[٣] وقال الغزالي: نظرت إلى نفسي فرأيت كثرة حجبها؛ فدخلت الخلوة؛ واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوماً؛ فانقدح لي من العلم ما لم يكن عندي أصفى منه؛ وفيه قوة فقهية؛ فعدت إلى الخلوة والمجاهدة والرياضة أربعين يوماً أخرى؛ فانقدح لي علمٌ آخر أرقُّ وأصفى مما حصل أولاً؛ ففرحت به؛ وإذا فيه قوة نظرية؛ فرجعت إلى الخلوة ثالثاً أربعين يوماً؛ فانقدح لي علمٌ آخر هو أرقُّ وأصفى وفيه قوة ممزوجة بعلم؛ ولم ألحق بأهل العلوم اللدُنِيَّة؛ فقلت: إنَّ الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصفاء الأول والطهارة الأولى (اهـ). ومعلوم أنه لا دخل للتشريع فيما استفاده من تلك

---

(١) أبو تراب عسكر بن حصين النخشبي من علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري توفي بطريق الحج سنة ٢٤٥هـ.

(٢) التحنث هو التعبد في ليال معينة.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

العلوم؛ لأنَّ علوم الشرع لا يمكن تلقيها إلّا بالتعلُّمْ؛ كما سيأتي تحقيقه في المسألة الواقعة؛ أثناء الفائدة التاسعة.

واعلم أن سير المريدين في طريق السلوك إلى ملك الملوك؛ وتدرجهم على أيدي الشيوخ في مراحل المقامات؛ لم يكن على غرار سير الأبدان؛ كلما قطعوا منزلاً تركوه وراء ظهورهم؛ واستقبلوا المنزل الثاني؛ معرضين عن الأول؛ كلا؛ وإنما يندرج الأول عندهم في الثاني؛ ثم يندرج الثاني؛ مع انطواء الأول فيه؛ في الثالث؛ وهلم جرا. فأول منازل السير الصبر؛ وهو لا ينعدم بما فوقه من الرضا؛ لأنَّ الرضا إنما هو صبر وزيادة؛ فإن المقام الأول لا ينعدم بالصعود إلى الثاني؛ ولو انعدم لخلفه عنده؛ وإنما يندرج الأدنى فيما فوقه؛ كالتاجر كلما ربح شيئاً أضافه إلى رأس المال؛ فتضاعفت الأرباح، نبَّه عليه ابن القيِّم في كتابه طريق الهجرتين.

قالوا: والنفوس البشرية مختلفة بتفاوت عظيم في استعدادها لقبول أنوار الحقائق؛ **والناس أربعة**: إما جاهل فاقد القابلية أو واجدها، وإما عالم فاقدها أيضاً أو واجدها؛ وكُلُّ صنفٍ من الأربعة؛ تتفاوت درجاته وتختلف طبقاته؛ فلا بدّ في رياضة الأوّل؛ من الشدَّةِ والقسوةِ؛ والأخذِ بالأثقل بما ذكره علماء النفس في تهذيبها؛ حتى يحصل له نوع من الذوق يُفْضِي به إلى نزر من الشوق؛ فيأخذ حينئذٍ في التعلم مع التدرج في الطريق؛ وأنَّى لهؤلاء النجاح ولا سيّما من انحط منهم إلى الدرك الأسفل؛ ولكن كل من سار على الدرب وصل؛ وصدق العزيمة رسول التوفيق؛ ولله درُّ ابن بنت الميلق[1] في قوله:

مَـنْ ذَاقَ طَـعْـمَ شَـرَابِ الـقَـوْمِ يـدْرِيـهِ وَمَـنْ دَرَاهُ غَـداً بِـالـرُّوحِ يَـشْـرِيـهِ

وأما الثاني: فقد جاوز العقبة الكأداء؛ وكثيراً ما تجد في العامة من يهزه

(١) محمد بن عبد الدائم بن محمد، أبو المعالي، ناصر الدين المعروف بابن بنت الميلق، قاض مصري. كان شافعياً شاذلياً، واعظاً بليغاً. عاش في عصر المماليك وولّاه الظاهر برقوق القضاء فباشره.

الجمال؛ وتحركه الأقوال؛ فيكثر حنينه ويتواصل أنينه؛ ويهتاج وجداً ويترنح شوقاً؛ وتلك علامة صالحة لعنوانها على الاستعداد وتبشيرها بإمكان صفاء الفؤاد؛ فعليه أن يدخل في الطريق على يد شيخ تغذى بلبان العلم وتمكن من الخبرة بثنيات الطريق.

وأما الثالث: ولا أعني به اللغوي الصرف؛ ولا الفقيه البحت؛ ولا الأصولي القُحْ؛ ولكن الذي مارس العلوم الإلهية؛ ولم يحصل له بالفطرة ميل إلى ما وراء المادة من الكمال؛ فسبيله في تطلبه أنه يتصل ببعض مشايخ الطريق؛ كما أخذ الشافعي وغيره من الفقهاء عن شيبان الراعي(١)؛ وكما أخذ ابن عبد السلام عن أبي الحسن الشاذلي؛ وقال ابن تيمية: ما اشتهر من اجتماع الشافعي وأحمد بشيبان الراعي؛ باطل لأنهما لم يدركاه؛ والله أعلم. فإن لم يجد من يثق به من المشايخ؛ فليلجأ إلى الانفراد والخلوة والانقطاع عن الخلق؛ والاشتغال بالأذكار والأوراد وتلاوة القرآن؛ والتفكر في آلاء الله؛ كما هو حال الغزالي في أواخر أيامه؛ ثم ما زال في طلب الشيخ حتى عثر بالصوفي الباذغاني، وفي سياق له: كنت في مبدأ أمري منكراً لأحوال الصالحين ومقامات العارفين؛ حتَّى صحبت شيخي يوسف النسَّاج.

وأما الرابع: فهو صاحب النفس الفاضلة؛ والطبيعة القابلة؛ والأرواح الممغطسة؛ الحَرِيَّة بانجذاب النفحات إليها عند مجرد التعرض؛ إذ لا مانع عن المقابلة المجردَّة غير أنه لا يستغني الجواد عن السوط؛ والراكب المجد عن الدليل.

---

(١) من كبار الأولياء قال عنه ابن الجوزي: «حج مع سفيان الثوري، فلقيا سَبُعاً، فعرك شيبان أذنه وقال: لولا مكان الشهرة ما وضعت زادي إلّا على ظهره». وعن محمد بن حمزة الربضي قال: كان شيبان الراعي إذا أجنب ـ أصابته جنابة ـ وليس عنده ماء دعا ربه، فجاءت سحابة فأظلته فاغتسل منها، وكان يذهب إلى الجمعة فيخط على غنمه فيجيء فيجدها لم تتحرك.

وما بعد الأول من الأقسام؛ يجب أن تكون رياضته القلبية؛ أكثر من رياضته بأنواع العبادات البدنية؛ ولا سيما الرابع؛ لأنَّ الغرض إنما هو كمال النفس واتصالهم بحالة القدس؛ ولهذا حُكِيَ عن كثير من كبراء القوم؛ الاقتصار على الفرائض. وأقول: وهذا مما يُنَاقَشُون فيه؛ فقد كان سيِّدُ الكاملين؛ يقوم من رمضان حتى تتفطر قدماه؛ ويختص العشر الأواخر منه بمواصلة الليل بالنهار في العبادة؛ وما يخالف هديه فهو: لا؛ ممن كان.

وفي شأن السالك يقول أبو علي ابن سينا[١] في كتابه الإشارات: ثم إنه إذا بلغت به الإرادة والرياضة حدًّا ما؛ عنَّت له خلسات من اطلاع نور الحق؛ عالية لذيذة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد؛ وهي التي تسمَّى عندهم أوقاتاً؛ وكل وقت يكتنفه وجد إليه ووجد عليه؛ ثم إنه لتكثر عليه هذه الغواشي إذا أمعن في الارتياض؛ ثم إنه يتوغل حتى يغشاه في غير الارتياض؛ فكلما لمح شيئاً عاج منه[٢] إلى الجانب القدسي؛ فيكاد يرى الحقَّ في كلِّ شيء؛ ولعله في هذا الحد تستولي عليه غواشيه؛ ويزول عن سكينته؛ وينتبه جليسه لاستنفاره عن قراره؛ حتى إذا طالت عليه الرياضة؛ لم تستفزه الغواشي؛ بل يأنس بها؛ ثم إنه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة؛ فيصير المحضور مألوفاً؛ والوميض شهاباً؛ وتحصل له معارف مستقرة كأنها صحبة مستمرة؛ ويستمتع فيها ببهجته؛ فإذا انقلب عنها انقلب حيران أسفاً اهـ. وهذا كلام الصوفية بعينه؛ ولو شئنا أن ندلل على كل جملة منه بيت من أشعار ابن الفارض العالية لفعلنا؛ ولو فعلنا لطال الليل وطفح الكيل.

ولا بدّ في جميع هذا من عناية السايس؛ وتلقين القيِّم؛ وتربية الحاضن؛ ومراقبة الناقد؛ ومناقشة الحاسب؛ وإلّا كان الشرُّ أولى؛ والزيغ أدنى؛ والضلال

---

(١) أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٧هـ)؛ عالم وطبيب مسلم من بخارى اشتهر بالطب والفلسفة وعرف باسم الشيخ الرئيس ألف ٢٠٠ كتاب في مواضيع مختلفة وأشهر كتبه القانون في الطب الذي بقي المرجع في الطب بجامعات أوروبا لسبعة قرون.

(٢) عاج منه: انصرف منه.

أحرى؛ والهلاك أقرب؛ إذ لا أمان للسالك من نفسه؛ إذا تمزقت وخرجت من سلطان الطبيعة؛ أن تلتحق بأفق الشياطين؛ والأمر صِنْعَة؛ والعلاج دُرْبَة؛ والتمرين عادة؛ والتدبير فيه مهيع قوي للشقي والتقي والغوي والولي؛ وفي ذلك حكايات مشهورة؛ وأخبار مأثورة؛ وشتَّان بين ما يقع للفلاسفة والعارفين؛ والكهان والصالحين؛ والسحرة والمتقين. وإذ قد تسلسل الكلام إلى هذا المقام؛ ارتأينا أن نأتي بمثال في السلوك على طريق السادة الخلوتية[١] ليُعْرَفْ بُعْدُ الشأو؛ وعِزَّةِ الأمر؛ وأنَّ الحال كما قيل:

مَـرَامٌ شَـطَّ مَـدْيُ الـوَصْـفِ فِـيـهِ ... فَـذَاكَ مَـدَاهُ بَـيْـدَا لا تَـبِـيـدُ

وحسبنا منه الشوق؛ إذ دَرْكُهُ خارج عن الطوق[٢]:

كَـيْـفَ الـوُصُـولُ إلـى سَـمَـاءٍ دُونَـهَـا ... قُـلَـلُ الـجِـبَـالِ وَدُونَـهُـنَّ حُـتُـوفُ

والـرِّجْـلُ حَـافِـيَـةٌ وَمَـا لِـي مَـرْكَـبٌ ... والـكَـفُ صِـفْـرٌ وَالـطَّـرِيـقُ مَـخُـوفُ

فالمقامات عندهم سبعة والنفوس مثلها والأذكار كذلك:

الأول: مقام ظلمات الأغوار؛ والنفس فيه أمارة؛ وهي ذات الجهل والبخل والحرص والكِبَرْ والغضب والشره والشهوة وغير ذلك من القبائح؛ والتخلص منها بتقليل وتخفيف المنام؛ وعدم الإكثار من خلطة الأنام؛ وذكر: لا إله إلّا الله.

---

(١) الطريقة الخلوتية طريقة صوفية سنية تنتشر في مصر وتركيا والجزائر وفلسطين تنسب إلى محمد بن أحمد الخلوتي المتوفى بمصر سنة ٩٨٦هـ وكان من أتباع الطريقة السهروردية ثم انفرد بطريقته.

(٢) يدل هذا الكلام على أن الإمام رغم عيشه في بيئة صوفية إلّا أنه لم يسلك مسالك الصوفية وعلى كل حال فالطريقة الصوفية العلوية ليس فيها طقوس ولا رياضة شاقة ولا دروشة ولا انعزال عن الناس وإنما هي أعمال صالحة وزهد في متع الدنيا وعبادات متواصلة وإصلاح بين الناس وقيام بأمر الدنيا للاستغناء عن الناس وهي أقرب ما تكون إلى طريقة الصحابة رضوان الله عليهم.

الثاني: مقام الأنوار؛ والنفس فيه لوامة؛ تترسم الشريعة وترغب في المجاهدة ولا تستثقل العبادة؛ ولها أعمال صالحة؛ لكن يدخل فيها العجب والرياء؛ والعلاج فيها بستة أشياء؛ تقليل الطعام والمنام والكلام والانقطاع عن الأنام والفكر التام والذكر المدام؛ ونوعه: **الله**.

الثالث: مقام الأسرار؛ والنفس فيه مُلْهَمَة؛ وهي التي قويت على المجاهدة والتجربة؛ ولاحت لها بشائر من التوحيد؛ لكنها لم تخلص من قيود الشهوات؛ ولم تنفك من أنشوطة المخالفات؛ والذكر فيه: **هو**، والاعتراض بأنه ليس بذكر عام؛ لعدم دخوله في حَدِّ الكلام؛ يسهل رَدُّهُ بأنه مبتدأ محذوف الخبر؛ كسابقه ولاحقاته؛ وقد يكون إشارة إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(١)]؛ بمناسبة أن المطلوب اتهام النفس ومراقبة الباري عزّ وجلّ؛ ولعله يشرع من هذا باب الإحسان. وقد نقل الفخر الرازي عن بعضهم؛ أنه الاسم الأعظم. فقول شارح أبيات التحفة الوردية[(٢)]: العرب لا تنادي ضمير المتكلم؛ فلا تقول يا إيَّاه ولا يا هو؛ فكلام جهلة الصوفية في نداء الله تعالى؛ بيا هو؛ ليس جارياً في كلام العرب؛ مردودٌ بما تقدم عن الفخر من خروجه عن الضمير إلى العلميَّة.

الرابع: مقام الكمال؛ والنفس فيه مطمئنة لا تفارق الأمر التكليفي قيد شعرة؛ ولا تلتذ إلّا بأخلاق النبيِّ ﷺ؛ ولا تطمئن إلّا باتباع أقواله؛ وصاحبها تحوم عليه العيون؛ وتلتذ برؤيته؛ وتصغي إليه الأسماع؛ وترتاح بكلامه؛ لأنه وضع أول قدم على بساط الولاية؛ والذكر فيه: **حق**.

الخامس: مقام الوصال؛ والنفس فيه راضية؛ وهي ذات الفناء الثاني؛ وهو محو الصفات البشرية؛ من غير أن يعقبه بقاء على وجه السرعة؛ ومن علاماته عدم

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٢.

(٢) التحفة الوردية منظومة في علم النحو للعلامة عمر ابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩هـ.

الالتفات إلى الخلق؛ فمن التفت إليهم ولا سيّما الظالمون؛ مسَّته نار طباعهم؛ والذكر فيه: **حي**.

السادس: مقام تجلّي الأفعال؛ والنفس فيه مرضية؛ وهي الجامعة بين حب الخلق والخالق؛ وليس في شهودها شيء من الأغيار؛ من حيث إنها أغيار؛ لأنها قد رجعت إلى الشهادة من عالم الغيب؛ لتقوم فيها بأمر؛ وتضع كل شيء في موضعه؛ **والذكر فيه: قيوم**.

السابع: مقام تجلي الصفات؛ والنفس فيه كاملة لا تفتَرُّ عن العبادة؛ إما بجميع البدن؛ أو باللسان؛ أو بالقلب؛ أو بغيرها؛ وصاحبها كثير الاستغفار؛ جم التواضع؛ سروره ورضاه في توجه الخلق إلى الحق؛ وسخطه وحزنه في أعراضهم عنه؛ والذكر فيه: **قَهَّار**.

ثم إنه لا يكون التدرج في هذه المراقي؛ إلّا على يد سالك عارف؛ سواء توسع في العلوم الظاهرة؛ أم اكتفى بما لا بدَّ منه فيها؛ بشرط أن يكون قد تلقى بالفعل عن شيخ متمكِّن في الطريق؛ متصل الإسناد بمن قبله وهكذا.

ومبدأ التلقي في تلقين الذكر وكيفيته عندهم: أن يضع الشيخ يده في يَدَيْ المريد ويأمره بسماع الذكر؛ مع تغميض عينيه؛ ثم يقول الشيخ بعد الاستغفار والدعاء: لا إله إلّا الله ثلاثاً؛ ثم يقولها المريد ثلاثاً وهما على تلك الحال؛ ثم الفاتحة؛ وذلك كله بعد صدق الأوبة؛ ثم يأخذه بتحقيق التوبة والإنابة والمحاسبة واليقظة والتفكر والتذكر والاعتصام والفرار من الآثام؛ ويكلفه الرياضة السابقة في المقام الأول؛ مع المبالغة في الحضور حين الذكر؛ ثُمَّ إنْ كفته المدة التي يحددها أولاً للرياضة؛ وإلّا عيَّن له أخرى حتى تظهر له علامة الرسوخ في ذلك المقام؛ من بغضه للمعاصي؛ وإعراضه عن الجاه والمال والرئاسة؛ فيلقنه الذكر الثاني بتلك الكيفية؛ ويصعد بها إلى المقام الثاني؛ ويأخذه بالحزن والخوف والإشفاق والخشوع والإخبات والزهد والورع والرجاء والتبتل والرغبة؛ وإذا أتقن سر الله في ذلك؛ اندرج مع أهل ذلك المقام؛ وهم العابدون المخلصون؛ حتى

إذا ظهرت العلامة؛ نقله إلى الثالث؛ وهكذا يتدرج به في المعارك؛ وينتقل في المنازل؛ ولكل مقام رياضة مخصوصة؛ ومجاهدات معروفة؛ وتكليفات مقرَّة؛ حتى يصل به إلى السادس؛ ثم لا ينتقل منه إلّا بجذبة إلهية؛ فإذا انتهى عرف من حقائق التوحيد وأسرار الأسماء والصفات ما يخرج عن الطور ولا يُدْرَكْ له غور ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[1]؛ هنالك ينطوي البين[2]؛ ويذهب الأين[3]؛ وينقضي الدَّيْن:

وَكُنَّا نَظُنُّ أنَّ لَيْلَى تَبَرْقَعَتْ وأنَّ حِجَاباً دُونَهَا يَمْنَعُ اللَّثْمَا
فَلاحَتْ فَلا وَاللّهِ مَا ثَمَّ حَاجِبٌ وَلَكِنَّ طَرْفاً لا أرَاهَا بِهِ أعْمَى

هذا خلاصة ما أخذته من مجموعة لسيدي الأبر عيدروس بن عمر[4]؛ عن شيخ مشايخه العلامة الجليل السيد علي بن عبد البر الونائي. وكان الونائي المذكور أخذ هذه الطريقة فعلاً؛ وتلقن الذكر مباشرة بجميع شروطه وآدابه ورياضاته وسائر كلفه؛ حتى أشرقت له بوح وعاجله الفتوح؛ عن شيخه الفاضل الجليل أحمد بن محمد بن أحمد الدردير؛ وعنه أخذ سيدي عمر بن عيدروس الحبشي؛ وعنه أخذ ولده سيدي الأستاذ الأبر عيدروس بن عمر؛ وعنه أخذ سيدي الوالد عبيد الله بن محسن؛ فكان العلم لهم عيناً؛ والوصف لهم شهوداً؛ والخبر لديهم معاينة؛ إذْ مَشَوْا عليه بعلمهم وبحالهم، رضوان الله عليهم.

ولقد شاهدت والدي؛ وما له أنس في شيء من أحيانه؛ إلّا بإقبال الخلق على الله؛ ولا حزن إلّا في إعراضهم عنه؛ صِدْقَ ما ذُكِرَ في المقام السابع. أما

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.
(٢) البين: الفراق.
(٣) الأين: التعب.
(٤) الإمام عيدروس بن عمر الحبشي (١٢٣٧ ـ ١٣١٤هـ) من كبار العلماء بحضرموت كان مولده ووفاته ببلدة الغرفة بحضرموت وهو من شيوخ الإمام ابن عبيد الله ووالده وقال عنه الإمام ابن عبيد الله: أحسب أنه مجدد القرن له مؤلفات أشهرها عقد اليواقيت.

أخذي عنه؛ وعن الأستاذ الأبر؛ فلم يكن إلّا مقال لا أعمال[(١)]؛ ولكن قال الجنيد: الإيمان بعلمنا هذا ولاية صغرى، وكيف لا أؤمن بها وقد جاء العيان فألوى بالأسانيد[(٢)]؛ فنحن نعترف بفضل الصوفية الصادقين؛ ونتبرك بمواطئ أقدامهم؛ ونرى أن طريق الشيخ الجنيد وأصحابه طريق مقوم. قال الجلال المحلِّي[(٣)]: ولا أثر لمن رماهم في جملة الصوفية بالزندقة عند خليفة السلطان؛ حتى لقد أمر بضرب أعناقهم فأمسكوا إلّا الجنيد فإنه تستَّر بالفقه؛ وكان يفتي على مذهب شيخه أبي ثور؛ ولما بُسِطَ لهم النطع تقدم أبو الحسن النووي من آخرهم إلى السياف؛ فقال: أوثر أصحابي بحياة ساعة؛ فَبُهِتَ وأنهى الخبر إلى الخليفة؛ فردَّهم إلى القاضي؛ فسأل النووي عن مسائل فقهية؛ فأجابه عنها؛ ثم قال: وبعد؛ فإن لله عباداً إذا قاموا قاموا بالله؛ وإذا نطقوا نطقوا بالله؛ إلى آخر كلامه؛ فبكى القاضي وأرسل يقول للخليفة: إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم؛ ثم خلَّى سبيلهم؛ رحمهم الله ونفعنا بهم اهـ.

قال البناني: وهذا القاضي هو إسماعيل بن إسحاق المالكي؛ مكث العلم في بيتهم ثلاثمائة سنة؛ واجتمع لهم من الجاه والمال ما لم يجتمع لأهل بيتٍ غيرهم؛ حتى قيل: إنه كان لهم بموضع واحد نحو خمسمائة بستان؛ ومر القاضي إسماعيل هذا يوماً بالمبَرَّد[(٤)] فلما رآه قام إليه وقبَّل يده ثم أنشد:

---

(١) يدل هذا الكلام على حب الإمام ابن عبيد الله للطريقة العلوية لكنه لم يتدرج في مسالك الصوفية.

(٢) جاء العيان فألوى بالأسانيد: مثل يضرب في الحجة القوية الواضحة التي تبطل سائر الحجج والدعاوى.

(٣) الإمام جلال الدين المحلي الفقيه القاهري الشافعي (٧٩١ ـ ٨٦٤هـ) كان محققاً مفرطاً في الذكاء وكان معظماً مهاباً ورعاً آمراً بالمعروف شديداً في الحق يمشي على طريقة السلف.

(٤) أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد (٢١٠ ـ ٢٨٦هـ) قيل لحسن وجهه وقيل لدقته وحسن جوابه وهو أحد العلماء الجهابذة في البلاغة والنحو والنقد عاش في العصر العباسي وولد في البصرة.

كَــريـــمٌ إذَا مَـــا أتَـــى مُـــقْـــبِـــلاً حَـلَلْنَـا الـحُبَـى وَابْـتَـدَرْنَـا الـقِـيَـامَـا
فَـــلا تُـــنْـــكِـــرنَّ قِـــيَـــامِـــي لَـــهُ فَـــإنَّ الـكَـرِيـم يُـجِـلُّ الـكِـرَامَـا

ومثل هذا مروي عن أبي عباس المبرد؛ بدون تقبيل اليد؛ مع البحتري الشاعر؛ وأنه أنشد لما قام له:

أَتُـــنْـــكِـــرُ أَنْ أَقُـــومَ وَقَـــدْ بَـــدَا لِـــي لأكْـــرَمِـــهِ وأَعْـــظَـــمِـــهِ هِـــشَـــامُ
فـــلا تَـــسْـــتَـــكْـــثِـــرَنَّ لَـــهُ قِـــيَـــامِـــي فَـــإنَّ لِـــمِـــثْـــلِـــهِ خُـــلِـــقَ الـــقِـــيَـــامُ

وهذا الشعر بالقاضي إسماعيل أنسب منه للبحتري؛ فلعل الفكر انتقل بي؛ وكان أبو العباس المبرّد لا يقوم لأحد؛ ولكن إذا دخل عليه الداخل يتحرك للنهوض؛ ثم ينثني ويقول: ثهلان ذو الهضبات هل يتحلحل أو هل يتململ؛ كل ذلك يقال ويروى؛ وإنّما يَخُصُّ بقيامه البحتري والقاضي إسماعيل[١].

وقول المَحَلِّي إنَّ الجنيد كان يفتي على مذهب أبي ثور[٢] قد يخالف ما ذكره ابن السبكي في طبقاته؛ من عَدِّهِ في أصحاب الشافعي؟؛ وقال بعضهم: إنه كان يفتي على مذهب سفيان الثوري[٣] لا على مذهب أبي ثور؛ وربما كان ينقل أقوال الجميع والله أعلم.

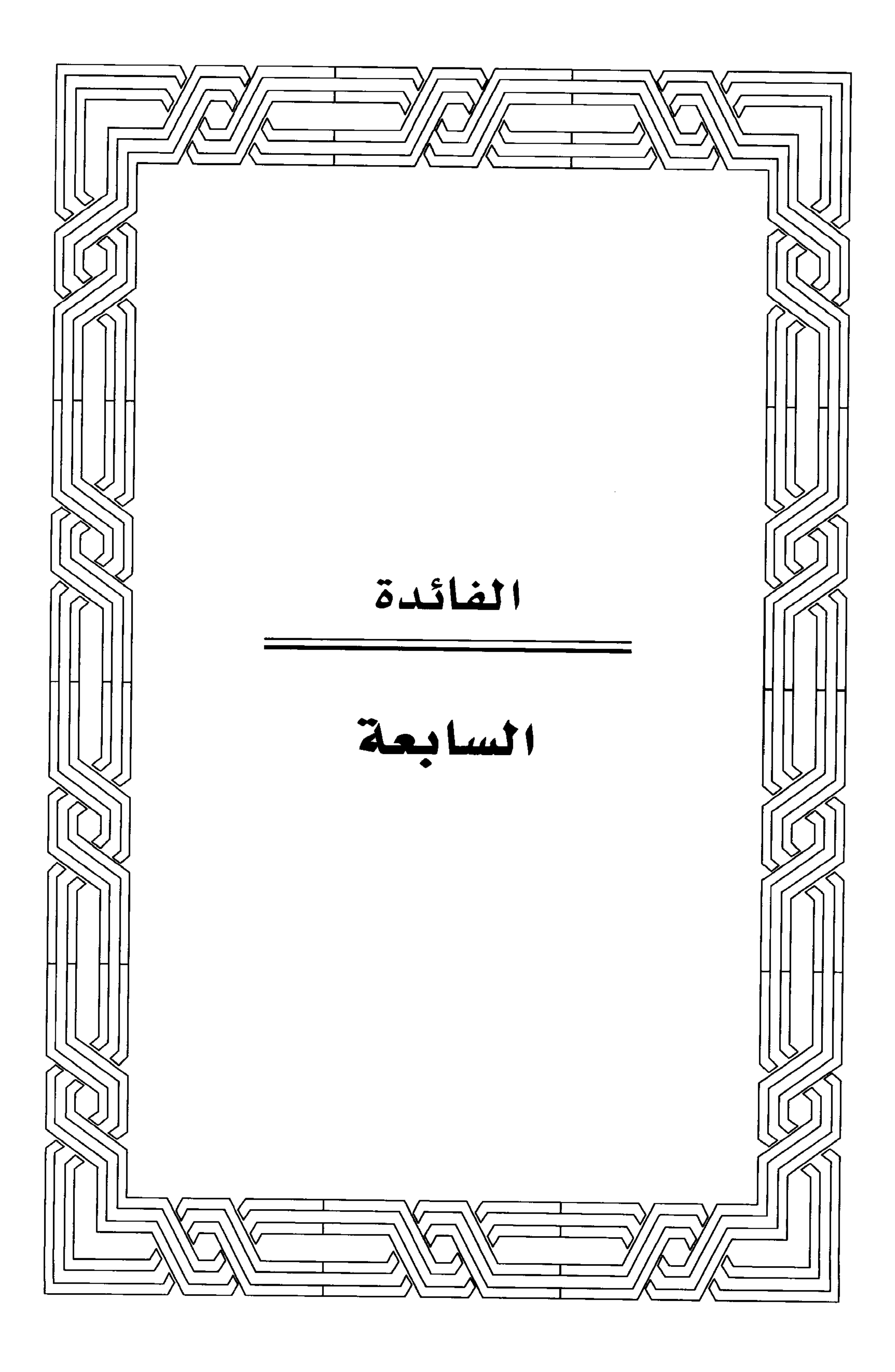
❊ ❊ ❊

---

(١) ذكر عن الإمام يحيى إمام اليمن أنه كان يكره القيام للوافدين مع رغبته في نفي الكبر عن نفسه فهداه تفكيره إلى إجلاس القادمين في غرفة مجاورة لمجلسه فإذا اكتمل حضورهم دخل عليهم فقاموا له إلّا أنه كان يجل العلماء وينهض قائماً عند حضورهم.

(٢) أبو ثور هو إبراهيم بن خالد الكلبي أحد كبار الفقهاء وهو من أصحاب الإمام الشافعي أخذ عنه ببغداد ونقل مذهبه القديم وتوفي ببغداد سنة ٢٤٦هـ.

(٣) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري سيد العلماء في زمنه وأمير المؤمنين في الحديث ولد بالكوفة سنة ٩٧هـ مصنف كتاب الجامع كان ورعاً زاهداً وتوفي سنة ١٦١هـ.



الفائدة

السابعة

الفائدة السابعة

حديث ابن عباس أنه ﷺ؛ قال: «**أُرِيتُ النَّارَ فإذا أكثر أهلها النساء؛ يكفرن**» قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «**يَكْفُرْنَ العَشير؛ وَيَكْفُرْنَ الإحسان. . .**» إلى آخر الحديث؛ وقد تكرر في الصحيح بألفاظ متقاربة؛ وفيه مباحث:

الأول: أنه لما صرَّح بالعِلَّة التي انبنى عليها الحكم بأكثرية النساء في النار؛ وهي كفران العشير والإحسان؛ اقتضى اطِّراد القياس وانسحاب الحكم؛ كلما وجد ذلك الوصف المناسب الملائم له؛ فيلزم عليه أن يكون أكثر أهل النار كافرو الإحسان؛ وجاحدو الجميل؛ رجالاً كانوا أو نساء؛ ومنه قول أبي الطيب على أحد معانيه الثلاثة:

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يِتَقَلَّبُ

الثاني: يلزم على صحة هذا القياس؛ الذي لا بدَّ من القول به؛ حتى عند كثير من نفاة القياس بالكلية؛ لما فيه من التصريح بالعلَّة؛ إذ قوله ﷺ: «**تحرم الخمر لإسكارها**»؛ يوازي قوله ﷺ: «**كل مسكر حرام**» إشكال؛ لأن المشاهد المحسوس اليوم؛ أكثرية الرجال في الغدر وقلة الوفاء؛ بل ومن قبل اليوم؛ ولهذا تألموا من فقدان الصديق؛ حتَّى قال بعضهم:

فَعلِمْتُ أنَّ المُسْتَحِيلَ ثَلاثَةٌ الغُولُ وَالعَنْقَاءُ وَالخِلُّ الوَفِي

وقال أبو الطيب:

غَاضَ الوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ فِي عِدَةٍ وَأعْوَزَ الصِّدْقُ فِي الإخْبَارِ وَالقَسَمِ

وقال الطغرائي:

غَاضَ الوَفَاءُ وَفَاضَ الغَدْرَ وَانْفَرَجَتْ مَسَافَةُ الخُلْفِ بَيْنَ القَوْلِ وَالعَمَلِ

وقال أبو إسحاق الشيرازي[١]:

سَأَلْتُ النَّاسَ عَنْ خِلٍّ وَفِيٍّ فَقَالُوا مَا إلَى هَذَا سَبِيلُ
تَمَسَّك إنْ ظَفِرْتَ بِوِدِّ حُرٍّ فَإنَّ الحُرَّ فِي الدُّنْيَا قَلِيلُ

وكان بعضهم يقول: لو صَحَّتْ الصلاة بدون قرآن؛ لصَحَّت بهذا البيت:

أتَمَنَّى عَلَى الزَّمَانِ مُحَالاً أنْ تَرَى مُقْلَتَايَ طَلْعَةَ حُرٍّ

وهو لأبي الحسن علي بن محمد البديهي؛ من شعراء الصاحب ابن عباد؛ له أشعار كثيرة؛ قال الصاحب: ولكن لم يستملح له إلّا هذا البيت وقبله:

رُبَّ لَيْلٍ قَطَعْتُهُ بِاجْتِمَاعٍ مَعَ بِيضٍ مِنَ الأخِلاءِ غُرِّ
وَكَأنَّ الكُؤوس زهر نُجُومٍ وَالثُّرَيَّا كَأنَّهَا عِقْدُ دُرِّ
مَرَّ مَنْ كُنْتُ أصْطَفِيه وَلِلْـ ـدَّهْرِ صُرُوفٌ تَشُوبُ حُلواً بِمُرِّ

ولو لم يكن له إلّا هذه؛ لكفت لرَدِّ قول الصاحب.

وقال بعض أهل الأندلس:

اشْدُدْ يَدَيْكَ بِكَلْبٍ لَوْ ظَفِرْتَ بِهِ فَأكْثَرُ النَّاسِ قَدْ صَارُوا خَنَازِيرَا

فيلزم على هذا أكثرية الرجال؛ وهو عكس إخباره ﷺ بأكثرية النساء لها؛ والنسخ لا يدخل في الأخبار.

ونقول في الجواب: إننا نلتزم أكثرية الرجال للنار؛ وإنه ﷺ إنما أخبر عن

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (٣٩٣ ـ ٤٧٦هـ) ولد بفارس وتوفي ببغداد انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي في زمانه وكان مضرب المثل في الزهد والقناعة من مؤلفاته كتاب المهذب في الفقه الشافعي.

أهل زمانه؛ وقد كان نساؤه؛ أكثر من رجاله حظاً في اللؤم والخيانة؛ وكفران الإحسان؛ فأمَّا اليوم؛ فقد انعكس الأمر؛ واستحالت الخمر. ولهذه المسألة نظائر؛ منها قوله ﷺ: «**اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً**» حتَّى لقد أغرب بعضهم بتطرق الاحتمال؛ ونفوذ التهمة؛ ولصوق الريبة؛ بنسب كل من يثري من أهل البيت؛ من أجل هذا الدعاء المقبول. وهو كلام لا يليق؛ ولكنه نظر إلى الأمر من ناحية؛ ولو تَدَبَّر لعرف إخراج الفقراء أيضاً على بكرة أبيهم من تلك الدائرة الشريفة؛ وانتفائهم عن النسب؛ أشد عليهم من أهل الثروة؛ إذ لا متعلّل لهم؛ بخلاف الأغنياء؛ إذا فاتهم النسب فإنهم سيتعللون بالنشب. وأهل البيت فيما ترى العين كسائر الناس؛ فيهم الغني والفقير والمكفي والمسكين، بل إن الفقر هو الأغلب عليهم؛ ولهذا قال الشريف الرضي:

عَتَبْتُ عَلى الدُّنْيَا وَقُلْتُ إلَى مَتَى أُكَابِدُ هَمّاً لَيْلُهُ غَيْرُ يَنْجَلِي
أَكُلُّ شَرِيفٍ مِنْ عَلِيٍّ أُصُولُهُ حَرَامٌ عَلَيْهِ الرِّزْقَ غَيْرَ مُحَلَّلِ
فَقَالَتْ نَعَمْ يَابْنَ الأَكَارِمَ إنَّنِي حَقَدْتُ عَلَيْكُمْ مُذ طَلَّقَنِي عَلِي

نقله عنه الثعالبي؛ والمشهور أن هذه الأبيات للمرتضى لا للرضي[١].

لكن الجواب المرضي إن شاء الله تعالى: أنه ﷺ؛ إنما اختص بالدعاء أهل بيته الموجودين إذ ذاك؛ وقد مضت حالهم على ما استجيب له فيهم، وإلّا صرنا بين أمرين؛ إما عدم الإجابة؛ وإما انتفاء السواد الأعظم عن القرابة؛ وهذا ما أظن الشريف المرتضى اختاره من أجوبة كثيرة؛ وبه ينشرح الصدر.

ويشبه ذلك قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ...﴾[٢]؛ فلا بدّ من حمله على الأبناء حقيقة؛ أو مع من قَرُبَ

(١) وكلاهما أخوان وقد تعرّض الإمام ابن عبيد الله لهما بتفصيل في كتابه المطبوع النجم المضيْ بنقد عبقرية الرضي.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

منهم؛ وإلّا فقد كانت قريش تعبد الأصنام وهي من ذرية إبراهيم، ونحوه ما يذكره ابن خلكان في ترجمة الجواد محمد بن علي الرضا[١] عن جعفر بن محمد بن مزيد قال: كنت ببغداد؛ فقال لي محمد بن منده: هل لك أن أدخلك على محمد بن علي الرضا؟ فقلت: نعم؛ فأدخلني عليه فسلمنا وجلسنا فقال: حديث رسول الله ﷺ: «**إنَّ فَاطِمَةَ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَحَرَّم اللّهُ على ذُرِيَّتِهَا النار**» قال: ذلك خاص بالحسن والحسين؛ وبمثله نقول في الجواب عن هذا الحديث. على أنه كثيراً ما يخرج هذا الحرف عن بابه؛ وخصوصاً في معرض الزجر والتحذير والخطابة؛ فيكون القصد مجرد الكثرة لا الأكثرية؛ وحينئذ يندفع من أصله الإشكال؛ ويبقى الحكم منوطاً بالعلة حيث وجدت.

الثالث: من أين لكم أرجحية الرجال على النساء في الغدر وقلة الوفاء؛ مع ما ورد في ذَمِّهِنَّ من الأخبار؟ وما جاء في تفضيل الرجال عليهن من النص؟ فنقول: أما كونهن أمثل وفاء من الرجال؛ فبالاستقراء الذي حصل لنا من برد اليقين الذي لا يصادمه شيء؛ وقد قال المتنبي:

والعَيَانُ الجَلِيُّ يُحْدِثُ لِلظَّنِّ زَوَالاً وَلِلْمُرَادِ انْتِقَالا

فها أنا ذا؛ في أول درجات العقد السادس من عمري؛ ما عاملت أحداً من الرجال إلّا كافأ بالقبيح؛ ولا سيّما أولو القربى منهم؛ كما قلت من قصيدة نبوية:

وَجُلُّ العِدَاء مِمَنْ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنِي لَوْ صَحَّتْ مَنَاسِبَهُمُ جَدُّ

فكم تحملنا عن بعضهم من الأثقال؛ وواسيناهم بما نستطيع من المال؛ وضحينا في الدفاع عنهم بالجاه؛ وسعينا في صالحهم جهدنا؛ وخاطرنا بأنفسنا؛ ثم صاروا إلباً علينا؛ مع أعدائنا الذين خاصمناهم فيهم؛ على حدّ قوله:

كَمْ صَاحِبٍ عَادَيْتُهُ فِي صَاحِبٍ فَتَصَادَقَا وَبَقِيتُ فِي الأَعْدَاءِ

---

(١) أبو جعفر محمد بن علي الجواد من أئمة الشيعة الاثني عشرية؛ عاصر المأمون والمعتصم وتوفي سنة ٢٢٠هـ.

وبالجملة؛ فقد كادوا لنا بكل ما في وسعهم؛ إلّا أنهم لم يضرونا إلّا أذى؛ وخار الله لنا في عداوتهم؛ وانطبق علينا ولله الحمد قول الشاعر:

ما من مصيبة نكبة أرمى بها إلا تشرفني وترفع شأني

وقد أطلعناهم على ظاهر أمرنا وخافيه؛ ولو علموا أي شيء من عيبنا لأذاعوه وباعوه؛ كما فعل ذلك الضائع المذكور في كتاب كلية ودمنة مع منقذه من الهلاك؛ فإنهم شرّ منه؛ ولكن الساحة برية؛ والجيب نقي؛ والعرض أبيض؛ وإني لكما قال الأوَّل:

فَسِرِّي كَإِعْلانِي وَتِلْكَ حَقِيقَتِي فَظُلْمَةُ لَيْلِي مِثْلَ ضَوْءِ نَهَارِيَا

وكما قلت ولله الحمد في مناقضة أبي نواس من قصيدة نبوية:

ثَمِلْنَا وَمَا قُلْنَا لِنَشْوَتِنَا قِفِي فَلا عَيْبَ فِي الأَسْرَارَ نَحْذَرُ أن يُفْشى

لَنَا الصَّوْنُ فِي الدُّنْيَا أَمَانٌ وَفِي غَدٍ نَلُوذُ بِخَيْرِ المُرْسَلِينَ فَلا نَخْشَى

ومن أخرى نصحت بها ولدي حسن[1] بارك الله فيه وفي أشقائه:

وَقَدْ تَأَمَّلْتُ تَارِيخِي فَمَا اسْتَطَرَتْ آثَارُ ذَامٍ بِهِ تَسْوَدُّ أَوْرَاقِي

وَمَا سِوَى العِلْم غَذَّاني المُفَادَ بِهِ بَعْدَ الفِطَامِ وَفِي نيتي أطواقي

نسأل الله أن يكفينا شرّ من أحسنا إليه فإنهم كما قيل:

أُنَاسٌ أَمِنَّاهُمْ فَلَمَّا تَبَيَّنُوا بَرَاءَتَنَا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ تَقَوَّلُوا

---

(١) حسن بن عبد الرحمن أكبر أبناء الإمام وهو أديب وشاعر وفقيه وخطيب ولد سنة ١٣٣٣هـ بحضرموت، وتلقى تعليمه على يد والده وعدد من الشيوخ بمدينة سيئون. ولع منذ مقتبل حياته بالشعر وأسس مع زملائه من شعراء مدينة سيئون (نادي القلم العلمي). عاش فترة من حياته باليمن وفترة أخرى بالسعودية. صدر ديوانه الأول في سنة ١٩٤٣م وتضمن قصيدة درب السيف التي اعتبرها النقاد رائدة في الشعر العربي الحديث عمل بالتدريس في حضرموت حتى وفاته في سنة ١٤٠٦هـ.

ولا جرم فقد قال سفيان: ما وجدنا أصل عداوة سوى اصطناع المعروف إلى اللئام. وهل من ذنب غيره لأهل البيت إلى أعدائهم؛ حتى كادوا يفنونهم قتلاً؛ ويمزقونهم أشلاء؛ وما أحسن ما قالت بنت عقيل بن أبي طالب:

مَاذَا تَقُولُونَ إنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ ... مَاذَا فَعَلْتُم وَأنْتُمْ أفْضَلُ الأمَمِ

بِعِتْرَتِي وَبِأهْلِي بَعْدَ مُنْطَلَقِي ... مِنْهُمْ أُسَارَى وَمِنْهُمْ ضُرِّجُوا بِدَمِ

مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي إذْ نَصَحْتُ لَكُمْ ... أنْ تَخْلِفُونِي بِقَتْلٍ فِي ذَوِي رَحِمِي

وما اقشعر بطن مصر بموسى عليه السلام؛ إلّا من فعل المعروف مع من لا يستحقه؛ إذ لم يَنِمَّ عليه إلّا غَذيُّ نعمته؛ وأسير نصرته؛ كما اقتص الباري تعالى حاله في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[١].

وقد جاء في نفح الطيب؛ أنَّ عبد الرحمن الداخل أهان مولاه بدراً؛ مع أنه الذي أقام دولته؛ وَتَنَكَّر لأبي عثمان وقتل ابنه؛ وهو أبو مسلم تلك الدولة؛ وجفا عبد الله بن خالد وكان له الضلع الأقوى في مناصرته؛ وقتل ابن علقمة وكان ثالث الجماعة في توطيد تلك الدولة؛ حتى قال ابن حيَّان: لقد ذاقا من ثكل ولديهما بيدِ أعزِّ الناس عليهما ما أراهما أن أحداً لا يقدر أن ينظر في تحسين عاقبته؛ ومن تتبع الأمر في الذين يقومون بالدول؛ رأى أنه لا يكون مآلهم مع أمثالهم إلّا هذا المآل أو أصعب منه؛ وفي حالة الدولة العباسية مع أبي مسلمة الخلال[٢]؛ وأبي مسلم[٣] ما يكفي، وقد ورد: «لا تَمَنُّوا الدول فتحرموها»؛ وفي كثير ذلك تصديق لما صح من قوله ﷺ: «**من أعان ظالماً سلطه الله عليه**»، إذ لا

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٩.

(٢) وزير السفاح.

(٣) أبو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية.

شك أن مؤسسي تلك الدول يستعينون في إنشائها بالظلم؛ فينقلب عليهم من ظلموا لأجله. **ولنعد لما كنا فيه** من أكثرية الرجال خبثاً وغدراً على النساء، فقد عرفنا جملة من نساء؛ حتَّى من ذوي المصارحين بالعداوة؛ فما علمنا عليهن إلّا خيراً؛ من حفظ المودة؛ والاعتراف بالجميل؛ والإشادة بالذكر الطيِّب لما أسلفناه من الصنيع؛ وحنينهنَّ إلى الماضي الذي كان فيه رجالهم يتظاهرون لنا بالولاء.

وأيضاً فغالب الناس؛ لو أصابته آفة؛ أو أَلَمَّ به مرض مزمن لا تعافه امرأته في الغالب؛ ولا تملُّه؛ ولا سيّما إذا كان أباً لأولادها؛ بل تبذل كل مجهودها في علاجه ومواساته والاعتناء بشأنه؛ ولا تحدِّثها نفسها بفراقه؛ وربما يقول القائل: إنما لم تحدثها نفسها بزوج بديله؛ ولا بفراقه؛ لخروجه عن متناولها وعدم اقتدارها عليه؛ فهي الحاجة المُلْجِئَة؛ والأنشوطة المؤدِّبَة؛ والأخِيَّة الثابتة. **قلنا**: هذا جواب بارد؛ إذ لا يتغلب على الطلاق كريم بعد ما يطلب منه؛ وهي لن تعزو السبيل بالمشادة والمعاندة وسوء العشيرة حتى من غيره ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[1]. ثم أنَّى يكون ذلك؛ وهي تخدمه عن طبع سهل؛ وخناق رخو؛ ولو كان كما ذكرتم؛ لرنقها النغص؛ وشوَّشها النكد؛ وأبطلتها الكلفة؛ وغيَّرتها المِنَّة؛ ولنفث لسانها بما تنطوي عليه ضلوعها من الكراهة؛ كما فعلت زوج صخر بن الشريد؛ والحارث بن سليل الأزدي في قصتيهما المشهورتين؛ على أن من العِلَل ما يُسَوِّغ للمرأة الفسخ، فلا تفعل.

وأما تفضيل الرجال عليهن بالنص فممّا لا نزاع فيه ولكننا نقلب القضية فنقول: فضَّل الله الرجال بقوة القابلية وكمال الاستعداد وتهيؤ الأدوات؛ وصلاحية الآلات؛ فتفوقهم على النساء في الفضل؛ موقوفٌ على صرف تلك فيما خلقت لأجله من الخير؛ كما أن حظَّهم من الشرِّ يكون أوفى؛ ومكانهم من السقوط يكون أردى؛ إذا هم صرفوا تلك النعم في غير ما خلقت له؛ والغالب في هذه العصور؛ هو الثاني: ولو شاءت النساء مجاراة الرجال في التَّسَفُّل؛ لما قدرن

---

(1) سورة النساء، الآية: 35.

على الانحطاط إلى دركاتهم بنفس القابلية التي حصل بها للرجال عليهن التفضيل، فمن لا يقدر أن يستَنَّ في الفساد إلّا شوطاً لا يبلغ فيه مدى من يقدر على شوطين؛ ومن العصمة أن لا تقدر؛ ويأتي في الفائدة الثلاثين ما يتصل بهذا الكلام.

ومن المقرر أن الفضيلة أخت الفطرة؛ وهي لا تكون إلّا وسطاً بين رذيلتين؛ والمرأة عاجزة عن الوصول إلى الغايات؛ فإما أن تبقى في حدِّ الفضيلة؛ أو تبتعد إلى إحدى الجهات؛ بدون أن تصل إلى النهاية؛ ولا كذلك الرجال. ولئن توهم متوهم أن هذا مُنْتَقَصٌ بما عظَّم الله من كيدهنَّ في قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[1] كشفنا ذلك من وجوه:

أحدها: إنَّ عظمته بالنسبة لضعف عقولهن وصغر أدمغتهن بشهادة التشريح؛ والشيء يعظم من الصغير مع حقارته؛ كما أن العظيم يصغر من الكبير وإن جَلَّ، ولهذا قال أبو الطيب:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأتِي العَزَائِمُ وَتَأتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ العَظِيمِ العَظَائِمُ

وهو من قول منصور النمري:

أَبُوكُ أَبُو الأَمْلاكِ يَحَيى بنُ خَالِدٍ أَخُو الجُودِ وَالنَّعْمَا الكِبَارِ صِغَارُهَا

وقول البحتري:

وَعُلُوُّ هِمَّتِكَ التِي دَلَّتْ عَلَى صِغْرَ الكَبِيرِ وَقِلَّة المُسْتَكْثِرِ

ثانيها: مجيء الخير خالياً عن لام التوكيد؛ ولو كانت عظمة كيدهن مطلقة؛ لقال: إنَّ كيدكن لعظيم.

ثالثها: إن العظمة متلاشية في جنب قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٨.

﴿لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾[١]؛ وهذا في الرجال؛ وهو من عند الله عز وجل؛ وذلك إنما هو محكي عن العزيز يمهد به من العذر؛ ويدرأ من اللوم؛ ويغطي من سوأة امرأته؛ بدعوى انطباع الجنس على عظم الكيد؛ حتى يخف عنها بعض العار؛ فهو رابع وجوه الجواب. وما قيل من إشارة هذه الآية إلى امرأة جاء خَدَنُها بمواطأتها في هيئة مَكَّار؛ ولما حملها تكشفت؛ وحلفت لزوجها بأنه لم ير منها غيره؛ وغير ذلك الرجل المَكَّارِي[٢] فتزلزل الجبل؛ لا يُعَوَّل عليه ولا يلتفت إليه.

وقال الذهبي[٣]: نقدت رواة الحديث؛ فوجدت أربعة آلاف رجل منهم متهمين في الرواية؛ ولما جئت إلى نقد نساء الحديث؛ لم أعلم منهن متهمة ولا متروكة الرواية؛ كذا أخبرني من أثق به عنه؛ وتصديقه ظاهر من لسان الميزان. فأصل ذم النساء كان في العصور الصالحة؛ حين كانت مذام الرجال قليلة؛ وحفَّاظ الأيادي كثيرة؛ وعدد الأحرار متوفر.

جاء رجل من الأنصار إلى عبيد الله بن عباس فقال: يا بن عم رسول الله؛ لي عندك يد وقد احتجت إليها؛ فلم يعرفه وقال له: ما هي؟ قال: رأيتك قائماً عند زمزم؛ وغلامك يمتح لك؛ والشمس قد صهرتك؛ فظللتك بردائي حتى شربت! قال: إنِّي لا أذكر ذلك؛ وإنه ليتردد بين فكري وخاطري؛ ثم قال لِقَيِّمِهِ: ما عندك؟ قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم؛ قال: ادفعها له وما أراها تفي بحقِّه.

وَوُجِدَ صَكٌّ على سعيد بن العاص[٤] في عشرين ألف درهم لشاب لا يؤبه له من

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٦.

(٢) المكاري: من يكري الدواب والأغلب البغال والحمير.

(٣) الإمام شمس الدين الذهبي كان محدثاً وإماماً حافظاً للحديث وعالماً بالتاريخ ولد بدمشق سنة ٦٧٣هـ وكان أعلم الناس بقواعد الجرح والتعديل لرجال الحديث وبلغت مؤلفاته التاريخية وحدها مائتي مؤلف.

(٤) سعيد بن العاص من أشراف قريش ولي الكوفة في عهد عثمان واعتزل الفتنة وأقام بمكة ثم ولاه معاوية المدينة مرات؛ مات في قصره بالعرصة على ثلاثة أميال من المدينة ودفن بالبقيع وذلك سنة ٥٩هـ.

قريش؛ فلما أحفوه المسألة عن سببها؛ صدقهم بأنه مشى معه يوماً وقد رآه وحده؛ حتى انتهى به إلى داره؛ فقال: ما حاجتك؟ قال: لا شيء غير أني رأيتك تمشي وحدك فأحببت أن أصل جناحك! فكتب له هذه الصحيفة؛ وقال: إنك لم تصادف شيئاً عندنا فخذها؛ فقال عمرو بن سعيد: لا جرم لا تأخذها إلّا بالوافيه: وما كان دين سعيد بن العاص الذي بيع فيه داره بالوصية؛ إلّا أكثره أعطيات وهبات.

وكان أبو العاص بن الربيع بن عبد العزيز؛ ختن رسول الله ﷺ على ابنته زينب؛ تاجراً تضاربه قريش بأموالهم؛ فعرض له المسلمون؛ مقدمه من الشام؛ وأسروه؛ فأجارته زينب وأجازها رسول ﷺ؛ وعرض عليه الإسلام؛ فأبى؛ وقدم مكة وأطعم قريشاً ودفع إليهم أموالهم؛ ثم قال: هل وَفَّيْتُ؟ قالوا: نعم؛ قال: فإنِّي أشهد أن لا إله إلّا الله وأنَّ محمداً رسول الله؛ ثم هاجر؛ وأقرَّهُ النَّبِيُّ ﷺ على نكاح زينب؛ ومات سنة اثنتي عشرة.

وفي حديث ثمامة بن أثال[١] وإسلامه ما يقرب منه ما جاء في إسلام الهرمزان وغيره. ولما خاف النعمان من كسرى وعلم أن لا ملجأ منه ألقى بنفسه في يده؛ وترك أهله وماله عند هاني بن مسعود الشيباني؛ فلم يكن من كسرى إلّا أن قتل النعمان؛ وأرسل يطلب هانئاً بما عنده فأبى أن يخفر في ذمته فبعث إليه كسرى بجنود لا تحصى من الفرس والعرب؛ فصبر لها بنو شيبان ومن معهم حتى انهزمت الفرس؛ وكان ذلك يوم ذي قار[٢]؛ فحدِّث عن ذلك الوقت ولا حرج. أما الآن فقد انعكس الحال؛ والمتكلمون بالأغلب من الرجال؛ فترسموا تلك الخطة؛ ومشوا مع الاستصحاب؛ ولم ينتبهوا لما حدث من الحِطَّة[٣].

---

(١) ثمامة بن أثال أمير اليمامة أسرته سرية من المسلمين وهم لا يعرفونه وربطوه بسارية المسجد النبوي فعرفه الرسول ﷺ وأكرمه وأحسن إليه ثم أطلقه فخرج وعاد مسلماً ثم ذهب إلى مكة معتمراً وقطع الميرة عن مشركي مكة حتى يسلموا فأشرفت قريش أن تهلك.

(٢) هي أول معركة انتصر فيها العرب على الفرس وحدثت في الجاهلية.

(٣) أي الانحطاط.

ورأيت في معاهد التنصيص[1] من قديم: أنَّ الباقر خرج في جنازة كثير الشاعر؛ وازدحم الناس واختلط النساء والرجال؛ فقرع أحدَهُنَّ الإمامُ بمخصرته؛ وقال: إليكن عنَّا يا صويحبات يوسف! فقالت: والله لقد كنا خيراً له منكم؛ فقال لأحد مواليه: احتفظ بها وسقها إليَّ متى فرغنا؛ فلما جاءت سألها عن الأمر؛ قالت: وتؤمنني غضبك يا بن بنت رسول الله ﷺ؟ قال: نعم؛ قالت: دعوناه إلى اللذَّة؛ ورميتم به في السجن؛ وبعتموه بالثمن البخس؛ أو ما يشبه هذا.

وفي نساء تلك العصور وفاء إلّا أنه مغمور بكثرة وفاء الرجال؛ فمنه أن معاوية خطب نائلة بنت الفرافصة فردته؛ وقالت: ما يعجبه مني؟ قالوا: ثناياك؛ فانتزعتها وبعثت بها إليه. وخطب الحجاج أم هاشم بن عبد الله بن الزبير[2] فردَّته وقلعت ثنيتها وقالت: ماذا يريد إلى ذلفاء ثكلى حَرَّى وأنشأت:

أَبَـعْـدَ عَـائِـذِ بَـيْـتِ اللهِ تَـخْـطُـبُـنِـي   جَـهْـلاً جَـهِـلْـتَ وَغِـبُّ الـجَـهْـلِ مَـذْمُـومُ
فَـأَذْهَـبْ إِلَـيْـكَ فَـإِنِّـي غَـيْـرَ نَـاكِـحَـةٍ   بَـعْـدَ ابْـنِ أَسْـمَـاءَ مَـا اسْـتَـنَّ الـدَّيَـامِـيـمُ

وقطعت امرأة هدبة بن الخشرم[3] أنفها لما رأته تكعكع[4] من أجلها عن القتل؛ فقال: الآن طاب الموت؛ وتقدم إليه بصدر رحب؛ ولئن كان فعلهن هذا محظوراً في فتوانا[5]؛ فإنه زمان اجتهاد؛ والشيء قد يعجب من ناحية؛ وإن ساء من الأخرى. وينخرط في هذا السلك ما ذكروا عن أمِّ عقبة اليشكرية مع زوجها غسان بن جهضم؛ فقد أخذ عليها المواثيق أن لا تنكح بعده؛ ثم انهال عليها

---

(١) كتاب معاهد التنصيص على شواهد التلخيص تأليف الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي المتوفى سنة ٩٦٣هـ؛ وهو كتاب أدبي مع تراجم للشعراء.

(٢) واسمها زجلة بنت منظور بن زبان الفزارية، وهي زوج عبد الله بن الزبير وأم هاشم بن عبد الله بن الزبير، خطبها بعد أن قتل زوجها.

(٣) شاعر جاهلي من بني عذرة.

(٤) تكعكع: هاب وتراجع بعدما أقدم.

(٥) يقصد الإمام من الناحية الشرعية لأنه مفتٍ وفقيه.

الخطاب من كل وجه لكمالها وجمالها؛ وهي معتصمة بالإباء؛ حتى مرت الأيام؛ فأجابت بعض خطابها؛ فتراءى لها غسان ليلة البناء وعاتبها؛ فانتبهت في روعة ذعرت لها المواشط؛ فأخبرتهن؛ فأخذن في تسليتها فلم يصنعن شيئاً؛ ولم تجد مُخَلِّصاً لها سوى الانتحار؛ فما زالت تتغافلهن حتى سنحت لها الفرصة؛ فَمَكَّنَتْ مَدِيَّة من ثغرها ثم التحقت بغسان.

ومرَّ سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب بامرأة تبكي؛ فلما رأى يزيد أنها أصابت موضعاً من قلب سليمان؛ قال لها: هل لك في أمير المؤمنين؟ فقالت:

فَإِنْ تَسْأَلانِي عَنْ هَوَايَ فَإِنَّهُ ... بِمَلْحُودِ هَذَا القَبْرِ يَافتَيَانِ
وَإِنِّي لأَسْتَحْيِيهِ وَالتُّرْبُ بَيْنَنَا ... كَمَا كُنْتُ أَسْتَحْيِيهِ وَهوَ يَرَانِي

ويتصل بهذا أن علياً كرم الله وجهه لما حضرته الوفاة؛ قال لأمامة ابنة أبي العاص وكان تزوجها بعد فاطمة: إني لا آمن أن يخطبك هذا الطاغية بعد موتي؛ يعني معاوية؛ فإن كان لك بالرجال حاجة؛ فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل عشيراً؛ فبذل لها معاوية مائة ألف دينار؛ فأبت وتزوجت بالمغيرة على شيء يسير ذكره صاحب الاستيعاب وغيره.

وعن رجل من بني أسد قال: أضللت إبلاً لي فخرجت في طلبهن؛ فهبطت وادياً وإذا أنا بفتاة أعشى وجهها بصري؛ ولما علمت طلبي؛ قالت: أفَأَدُلَّكَ على من هي عنده؟ قلت: نعم ولك أفضلهن؛ قالت: إنَّ الذي أعطاكهن أخذهن؛ وإن شاء ردَّهن؛ فسله من طريق اليقين لا من طريق الاختبار. فأعجبني ما رأيت من جمالها وكلامها؛ فقلت: ألك بعل؟ قالت: قد كان؛ وَدُعِيَ فأجاب؛ فأعيد إلى ما خلق منه! قلت: فما ترين في بعل تؤمن بوائقه ولا تذم خلائقه؛ فرفعت رأسها وتنفست؛ ثم قالت:

كنَّا كَغُصْنَيْن فِي أَصْلٍ غِذَاؤُهُمَا ... مَاءُ الجَدَاوِلِ فِي رَوضَاتِ جَنَّاتِ
فَاجْتَثَّ خَيْرَهُمَا مِنْ جَنْبِ صاحِبِهِ ... دَهْرٌ يَكِرُّ بِتَرْحَاتٍ وَفَرْحَاتِ

وَكَـانَ عَـاهَـدَنِـي إنْ خَـانَـنِـي زَمَـنٌ ... أَلَّا يُـضَـاجِـعَ أُنْـثَـى بَـعْـدَ مَـثْـوَاتِـي
وَكُـنْـتُ عَـاهَـدْتُـهُ إنْ خَـانَـهُ زَمَـنٌ ... أَلَّا أَبُـوءَ بِـبَـعْـلٍ طُـولَ مَـحْـيَـاتِـي
فَـلَـمْ نَـزَلْ هَـكَـذَا وَالـوَصْـلُ شِـيـمَـتُـنَـا ... حَـتَّـى تَـوَفَّـى قَـرِيـبـاً مُـذْ سُـنَـيَّـاتِ
فَـاقْـبَـضْ عِـنَـانَـكَ عَـمَّـنْ لَـيْـسَ يَـرْدَعُـهُ ... عَـنِ الـوَفَـاءِ خِـلافٌ بِـالـتَّـحِـيَّـاتِ

أمَّا خيانة النساء لذلك العهد؛ فأكثر من الرجال؛ قال المدائني[1]: احتضر رجل من العرب؛ وله ابن يدب بين يديه؛ وأم الصبي جالسة عند رأسه؛ واسم الصبي معمر؛ فقال:

وإنِّـي لأخْـشَـى أَنْ أَمُـوتَ فَـتُـنْـكَـحِـي ... وَيُـقْـذَفُ فِـي أَيْـدِي الـمَـرَاضِـع مَـعْـمَـرُ
وتُـرْخِـي سُـتُـور دُونَـهُ وَنَـضَـائِـدُ ... وَيَـشْـغَـلُـكُـمْ عَـنْـهُ خَـلُـوقٌ وَمَـجْـمَـرُ

فما لبث أن مات؛ ثم تزوجت؛ وصار معمر إلى ما ذكر.

وقال بعضهم: دَخَلْتُ على عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي[2] فقلت: كيف تجدك؟ قال: أجدني والله بالموت؛ وما موتي بأشد عليَّ من خشية أن تتزوج أم هشام بعدي؛ فحلفت له ألا تتزوج بعده؛ فأشرق وجهه؛ ثم مات فتزوجت بعمر بن عبد العزيز؛ فقلت[3]:

فَـإِنْ لَـقِـيَـتْ خَـيْـراً فَـلا يَـهْـنَـأنَـهَـا ... وَإِلَّا فَـتُـعْـسـاً لِـلْـيَـدَيْـنِ وِلِـلْـفَـمِ

فبلغها؛ فكتبت إليَّ تقول: بلغني بيتك؛ وما مثلي ومثل أخيك إلّا كما قال الشاعر:

---

(١) علي بن محمد المدائني أديب ومؤرخ ومن أهل الكلام له عدة مؤلفات بلغت ٢٣٩ في السيرة والأدب والتاريخ وخصوصاً أخبار الهند وفارس عاش في البصرة وولد في المدائن فنسب لها وكانت ولادته في بداية الدولة العباسية سنة ١٣٥هـ وعاش تسعين سنة.

(٢) من أشراف بني مخزوم رأى الرسول ﷺ وأبوه من الطلقاء ولكن حسن إسلامه وابنه أبو بكر أحد الفقهاء السبعة.

(٣) أي أنه يذكرها غدر النساء.

وَهَلْ كُنْتُ إِلَّا وَالِهاً ذَاتَ تَرْحَةٍ قَضَتْ نَحْبَهَا بَعْدَ الحَنِينِ المُرَجَّعِ
مَتَى تَسْلَ عَنْهُ تَدَّكِرْ بَعْدَ طَيَّةٍ مِنَ الأَرْضِ أَوْ تَقْنَعْ بِإِلْفٍ فَتَرْبَعِ
فَدَعْ عَنْكَ مَنْ قَدْ وَارَتِ الأَرْضُ شَخْصَهُ وَفِي غَيْرِ مَنْ قَدْ وَارَتِ الأَرْضُ فَاطْمَعِ

قال: فبلغ مني ذلك كل غيظ؛ ثم فكرت في حساب عدَّتها؛ فإذا بها تزوجت وقد بقي عليها أربعة أيام؛ فدخلت على عمر فأخبرته فتركها[١].

وزبدة القول في هذا المبحث؛ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ؛ علَّل كثرة النساء لعهده في النار؛ بالغدر؛ لكن الرجال اليوم؛ ولا سيّما بحضرموت؛ أوفر من النساء غدراً وأكثر؛ فهم أكثر أهل النار؛ ولقلة غدر الرجال في السابق انْحَفَظَ وأُثِرْ. وأعرق الناس في الغدر الأشعث بن قيس؛ فقد غدر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس بن معد يكرب بالحجَّاج لما ولاه خراسان؛ وغدر أبوه؛ محمد؛ بمسلم بن عقيل بن أبي طالب؛ وغدر أيضاً بأهل طبرستان؛ وكان عبيد الله بن زياد ولاه؛ فصالح أهلها على أن لا يدخلها ورحل عنهم؛ ثم عاد غادراً فأخذوا عليه الشعاب وقتلوا ابنه أبا بكر؛ وارتَدَّ الأشعث عن الإسلام وغدر بقومه[٢]؛ وساقه المسلمون من النجير حصن حضرموت على مقربة من تريم[٣] مشتوماً من الطرفين؛ وسموه: عُرْفَ النار؛ وهو لقب الغادر عندهم؛ حتى أوصلوه إلى أبي بكر؛ فأطلقه وزوّجه بأخته أم فروة؛ وكنا نستنكرها له؛ لا سيّما وأنه أعور حتى

---

(١) وفي رواية أخرى أن عمر بن عبد العزيز وكان أميراً على المدينة المنورة أبطل نكاحها وعزل نفسه عن الإمارة.

(٢) الأشعث بن قيس بن معديكرب الكندي: من ملوك كندة الحضرمية في الجاهلية والإسلام. وفد على النبي ﷺ بعد ظهور الإسلام، فأسلم مع وفد قومه، وشهد اليرموك فأصيبت عينه. وامتنع الأشعث بعد وفاة النبي ﷺ عن أداء الزكاة فأرسل إليه أبو بكر بجيش أسره وأتي به إلى المدينة فأطلقه أبو بكر وزوّجه أخته أم فروة، واشترك مع سعد بن أبي وقاص في حروب العراق. وكان مع علي يوم صفين، والنهروان.

(٣) تريم مدينة مشهورة بحضرموت وبها المساجد الكثيرة وأكثر أهلها من الصلحاء والعباد والزهاد.

عرفنا أنها كانت عمياء، وغدر أيضاً ببني الحارث بن كعب؛ وكان غزاهم فأسروه ففدى نفسه منهم بمئتي بعير أعطاهم مائة وخان الأخرى؛ حتى جاء الإسلام فهدم ما كان في الجاهلية؛ وقيل: فداه أبوه بثلاثة آلاف بعير دفع بعضاً ولوى بالباقي؛ وغدر قيس[١] بمراد؛ وكان بينهم عهد أن لا يغزوهم إلى انقضاء رجب؛ فوافاهم بكندة قبل انتهاء المدة، وغدر معد يكرب بالمهرة؛ فقد كان بينهم عهد إلى أجل؛ فغزاهم فيه ناقضاً للعهد؛ فقتلوه وشقوا جوفه وملؤوه بالحصى.

وغدرت قتيلة بنت قيس؛ أخت الأشعث؛ برسول الله ﷺ؛ وذلك أنه تزوجها من أخيها مرجعه من حجة الوداع؛ وتُوفِيَ قبل أن تخرج من حضرموت؛ وأوصى عليه السلام أن تُخَيَّر؛ فإن شاءت ضربت الحجاب؛ وكانت أمّاً للمؤمنين؛ وإن اختارت النكاح فلها؛ فارتَّدَتْ مع أخيها؛ ونكحت عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك؛ فَهَمَّ أبو بكر أن يحرق عليهما البيت؛ فمنعه عمر وقال: إنَّها ليست من أزواج النبي ﷺ؛ للرِدَّة والوَصِيَّة؛ وأنكر الوصيَّةَ قومٌ؛ وفيها اختلاف كثير.

وغدرت جعدة بنت الأشعث بن قيس؛ بالحسن بن علي؛ فهي التي سقته السُم. وكان الأشعث من أصحاب عليّ؛ على دخَنٍ بينهما؛ وما بقي معه إلّا لأنه كان يرفع نفسه عن معاوية؛ وله في صفين مشاهد كريمة، وطالما استماله معاوية فلم يرض؛ ولكنه اجتمع به بعد ذلك؛ وكان له الضلع الأقوى في خذلان أمير المؤمنين؛ وهو أكبر من اشْتَطَّ في دفع ابن عباس عن الحكومة[٢].

وذكر أبو فرج الأصفهاني أنه كان داخلاً في المؤامرة على قتل عليّ كرم الله وجهه؛ وأنه خلا بابن ملجم في الليلة التي عدا من صبيحتها؛ بل قيل إنه تعشَّى وبات عنده؛ وأنَّ حجر بن عدي سمعه يقول لابن ملجم: النجاء النجاء بحاجتك

---

(١) والد الأشعث.

(٢) كان الأشعث ممن رفض اختيار عبد الله بن عباس للتحكيم بعد وقعة صفين بين علي ومعاوية وكان ابن عباس يقاتل في جيش علي وكان الأشعث ممن أصروا على اختيار أبي موسى الأشعري للتحكيم.

فقد فضحك الصبح. وحصلت بينه وبين عليّ مشاحنة قبل ذلك؛ وكان هو آخر شهود الكتاب في التحكيم؛ واختَطَّ داراً بالكوفة؛ ومات سنة أربعين بعد مقتل عليّ كرم الله وجهه بأربعين يوماً؛ وصَلَّى عليه الحسن؛ وكان ممن شهد القادسية وجلولاء والمدائن ونهاوند[1]؛ وقد نبزه الإمام وهو يخطب مرة بالحياكة؛ لمَّا اعترض كلامه؛ وما زال أهل اليمن يُعَيَّرُونَ بذلك؛ ومنه قول خالد بن صفوان: ما أقول في قوم ليس منهم إلّا حائك برد؛ أو دابغ جلد؛ أو سائس قرد؛ ملكتهم امرأة؛ ودَلَّ عليهم هدهد؛ وأغرقتهم فأرة؛ وقال حائك لبعض العلماء: دُلَّنِي على عمل أتواضع به؛ فقال: لا أوضع منه فألزمه؛ وقالوا بقبول شهادة الحائك لكن مع عدلين؛ وكان يقال تسعة أعشار الحماقة في الحاكة؛ ومن ذلك أنَّ بعضهم وصل من الكوفة إلى البصرة في طلب العلم؛ وترك عليّاً وهو ممن لا يجهل مكانه فيه. وما روي أنَّ حواء ومريم عليهما السلام كانتا تغزلان الشعر وتحوكان؛ موقوف على وهب بن منبِّه؛ وفي سنده ساقط. على أن الحياكة لون؛ والغزل لون آخر؛ فلا يلزم من الثناء عليه مدحها؛ فقد أخرج ابن عساكر بسند فيه متروك حديث: «**عمل الأبرار من الرجال الخياطة وعمل الأبرار من النساء الغزل**». وكانت أم سلمة تغزل؛ وكذلك كانت هند بنت المهلب؛ وهي تحت الحجاج؛ وتروي فيه حديثاً عن أبيها.

وما أرى معابة الحياكة؛ وهي من أمهات الصنائع؛ ومن أفضل فروض الكفايات؛ إلّا حسداً لأهل اليمن بأخذهم فيها أطراف المحاسن؛ فذمها إذن شبيه بقول معاوية: إذا لم يكن الهاشمي كريماً فليس بهاشمي؛ وإذا لم يكن الزبيري شجاعاً؛ فليس بزبيري؛ وإذا لم يكن المخزومي تياهاً فليس بمخزومي؛ وإذا لم يكن الأموي حليماً فليس بأموي؛ فقال عليٌّ لما انتهت إليه: أراد أن يطلق الهاشميون ما بأيديهم فيكونوا فقراء؛ وأن ينغمس الزبيريون في المعامع فيأخذهم الحديد؛ ويتيه المخزوميون فيمقتهم الناس؛ ويحلم بنو أمية فتهواهم القلوب؛ أو ما يشبه هذا أو ما يقرب منه.

---

(١) هذه المعركة كانت بين الفرس والعرب وجلولاء حصن من حصون الفرس.

أما حديث الأشعث وأسره ورَدِّه إلى حضرموت؛ فقد تكلفت به التواريخ؛ وممن شهد فتح النجير مع المسلمين امرؤ القيس بن عانس الكندي؛ بنون قبل السين كما في شرح مسلم؛ ولمَّا خرج المرتدون من حصن النجير؛ وثب امرؤ القيس هذا على عمه فقال له: ويحك تقتل عمك؟ قال له: أنت عمِّي والله ربِّي. وهو الذي خاصم ربيعة بن عمران إلى رسول الله ﷺ في أرض؛ فقضى عليه بالبيِّنة فعجز؛ فحلف الآخر؛ على اختلاف كثير في القضيَّة.

وفي وصف البُرُد[1] الحضرمية أشعار كثيرة؛ لا تحضرني منها الساعة؛ سوى قول جرير:

وَطَوَى الطِّرَادُ مَعَ القِيَادِ بُطُونَها ... طَيَّ التِّجَارِ بِحَضْرَمُوتَ بُرُودَا

وكان امرؤ القيس بن عانس هذا شاعراً؛ وله وفادة على رسول الله ﷺ؛ وأهدى له حلّةً من نسيج؛ ومن شعره قوله:

قِفْ بِالدِّيَارِ دِيَارَ حَابِسْ ... وَتَأَنَّ إِنَّكَ غَيْرَ آيِسْ

لَعِبَتْ بِهِنَّ العَاصِفَاتُ ... الرَّائِحَاتُ مِنَ الرَّوَامِسْ

مَاذَا عَلَيْكَ مِنَ الوُقُوفِ ... بِهَالِكِ الطَّلَلَيْنِ دَارِسْ

يَا رُبَّ بَاكِيَةٍ عَلَيَّ ... وَمُنْشِداً لِي فِي المَجَالِسْ

أَوْ قَائِلٍ يَا فَارِساً ... مَاذَا رُزِئْتَ مِنَ الفَوَارِسْ

لا تَعْجَبُوا أَنْ تَسْمَعُوا ... هَلَكَ امْرُؤ القَيْسِ بْنِ عَانِسْ

ومن شعره:

أَيَا هِنْدُ لاتَنْكِحِي بُوهَةً[2] ... عَلَيْهِ عَقِيقَتُهُ أَحْسَبَا

مَرسَعَةٌ بَيْنَ أَرْسَاغِهِ ... بِهِ عَسَمٌ يَنْبَغِي أَرْنَبَا

---

(١) البرد: كساء مخطط يلتحف به وجمعه أبراد وبرود.

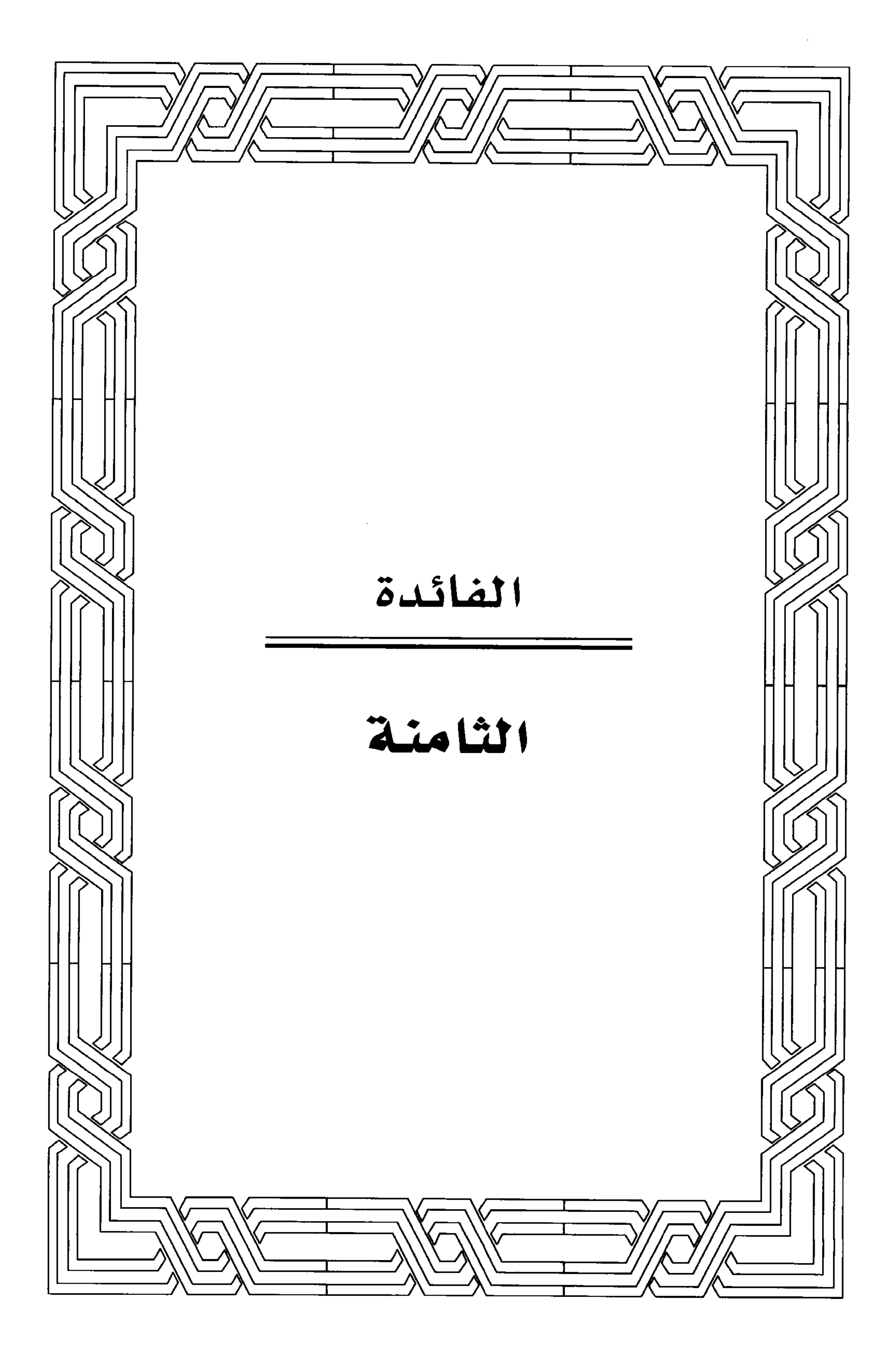
(٢) البوهة: الرجل الأحمق الطائش والعقيقة: الشعر الذي يولد به الطفل.

لِـيـجْـعَـلَ فِـي رِجْـلِـهِ كَـعْـبَـهَـا   حِـذَارَ الـمَـنِـيّـةِ أنْ يَـعْـطَـبَـا

وبعضهم ينسبها لامرئ القيس بن حجر الشاعر المشهور؛ وهو خطأ، وفي اللفظة الأخيرة؛ دلالة على وجود عِلْم السحنة[1] بحضرموت؛ وكثرة الخرافات فيها؛ ووجود من ينكرها منهم.



(١) لم أعرف ما هو علم السحنة وقد يكون هناك خطأ في كتابة المخطوطة.



الفائدة

الثامنة

الفائدة الثامنة

عن أمِّ سلمة زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فقال: «**سُبْحَانَ اللهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الفِتَنْ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الخَزَائِنِ أَيْقِظوا صَوَاحِبَاتِ الحُجَرِ فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ**». والحُجَرْ جمع حُجْرَة؛ وهي منازل أزواج النبي ﷺ.

■ وفيه لطائف:

الأولى: وجه التناسب بين فصوله؛ والتلاحم بين جمله؛ والالتئام بين فقراته؛ أنه إذا فاضت الأموال؛ وظهرت الزينات؛ وتفتحت الزهرات.. افتتنت العقول؛ واندهشت النفوس؛ واختلفت القلوب؛ واصطكت الركب؛ وتخاذلت الأيدي؛ وتضاغنت الأفئدة؛ وأدنى من يكون إلى الافتتان بزهرة الدنيا لذلك العهد؛ النساء؛ لأنهنَّ أصغرُ عقولاً؛ وأشدُّ ميولاً؛ وأرَقُّ عواطف؛ فلا جرم أشفق ﷺ على نسائه؛ واعتمدهن بالنصيحة في إمكان المهلة واسترخاء المدة؛ ليسلمن من شرِّ تلك الفتنة؛ وليَكُنَّ مثالاً صالحاً لنساء المؤمنين في التجافي عنها؛ وعدم الاطمئنان إليها؛ والتحذر من أحابيل زورها؛ وأناشيط غرورها؛ فإنها سم في رحيق؛ وعدوّ في ثياب صديق؛ قال أبو نواس:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ ... لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ

إذن فالكلام في الذروة؛ من حسن اتساقه؛ وجمال إشارته؛ وإشراق رونقه؛ وقد وقع مصداق ذلك؛ ففتحت الفتوح وفاضت الأموال؛ حتَّى صار أبو هريرة

يتمخَّط في الكتان، وحتى قالت عائشة: كان لي ثوب؛ قلَّما تُقَيَّنْ امرأة في المدينة؛ إلّا أرسلت إليَّ تستعيره؛ وتزهد اليوم جاريتي أن تلبسه في بيتها، وقد شيَّد الصحابة القصور وجصَّصُوها من الداخل والخارج؛ كما فعل المقداد وعثمان وطلحة وغيرهم؛ ولبسوا الحرير مع أنهم رواة النهي؛ ولعلهم حملوه على التنزيه؛ وعند ذلك حصل الانقسام وذهب الالتئام؛ وصح قوله ﷺ: «**ما الفقر أخشى عليكم؛ ولكن أخشى أن تبسط لكم الدنيا فتتنافسوها كما تنافسوها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم**».

وما جاء في الحديث الآخر: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَفِيضَ الْمَالُ، وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَتَفْشُوَ التِّجَارَةُ**». وصحَّ أيضاً: «**إنَّ لكُلِّ أمة فتنة وإنَّ فتنة أمتي المال**» وفي مستدرك الحاكم عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري؛ قال: قال لي أبو الدرداء: كيف ترى الناس؟ قلت: بخير؛ دعوتهم واحدة؛ وإمامهم واحد؛ وعدوهم منفي؛ وأرزاقهم دارَّة. قال: فكيف إذا تباغضت قلوبهم؛ وتلاعنت ألسنتهم؛ وظهرت عداوتهم؛ وفسدت ذات بينهم؛ وضرب بعضهم رقاب بعض! وفيه أيضاً عن داود بن أبي هذل عن أبي حرب بن أبي الأسود قال: حَدَّثَنِي طَلْحَةُ الْبَصْرِيُّ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَكَانَ لَهُ بِهَا عَرِيفٌ نَزَلَ عَلَى عَرِيفِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِهَا عَرِيفُ نَزَلَ الصُّفَّةَ، فَقَدِمْتُ فَنَزَلَتِ الصُّفَّةَ، فَكَانَ يَجْرِي عَلَيْنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلَّ يَوْمٍ مُدٌّ مِنْ تَمْرٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَيَكْسُونَا الْخُنُفَ، فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ صَلَاةِ النَّهَارِ، فَلَمَّا سَلَّمَ نَادَاهُ أَهْلُ الصُّفَّةِ يَمِيناً وَشِمَالاً: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْرَقَ بُطُونَنَا التَّمْرُ، وَتَخَرَّقَتْ عَنَّا الْخُنُفُ، فَمَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مِنْبَرِهِ فَصَعِدَهُ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ ذَكَرَ الشِّدَّةَ مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ حَتَّى قَالَ: «**وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ وَعَلَى صَاحِبِي بِضْعَ عَشْرَةَ وَمَا لِي وَلَهُ طَعَامٌ إِلَّا الْبَرِيرَ**» قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي حَرْبٍ: وَأَيُّ شَيْءٍ الْبَرِيرُ؟ قَالَ: طَعَامُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَمَرُ الْأَرَاكِ «**فَقَدِمْنَا عَلَى إِخْوَانِنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ وَعِظَمُ طَعَامِهِمُ التَّمْرُ فَوَاسَوْنَا فِيهِ، وَاللَّهِ لَوْ أَجِدُ لَكُمُ الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ لَأَشْبَعْتُكُمْ مِنْهُ، وَلَكِنْ عَسَى أَنْ تُدْرِكُوا زَمَاناً حَتَّى يُغْدَى عَلَى أَحَدِكُمْ بِجَفْنَةٍ وَيُرَاحُ عَلَيْهِ بِأُخْرَى**» قَالَ: فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَحْنُ

الْيَوْمَ خَيْرٌ أَمْ ذَاكَ الْيَوْمَ؟ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ، أَنْتُمُ الْيَوْمَ مُتَحَابُّونَ، وَأَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**» أُرَاهُ قَالَ: «**مُتَبَاغِضُونَ**»؛ هذا لفظ حديث أبي سهل القطان؛ وحديث يحيى بن يحيى على الاختصار؛ وهو حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ انتهى كلام الحاكم. قال الذهبي: صحيحٌ؛ سمعه جماعة من داود وهو في مسند أحمد.

الثانية: يتوضح مما ذكر؛ أنَّ في الحديث إشارة إلى سُنَّة من سُنَنِ الكون؛ وناموس من نواميس الطبيعة؛ فإنه لا يتحد أهل مدينة في المسكنة؛ أو يتقاربون في الكفاف؛ إلّا كان الغالب عليهم الوداد والصفاء والوئام والإخاء؛ ثم لا يبرحون؛ متى ظهر المال؛ وجاءت الثروة لبعضهم؛ أن تنشقَّ عصاهم؛ ويندق بينهم عطر منشم؛ ومن ذلك تنكسف النفوس؛ وتبدل البشاشة بالعبوس. وقد مرَّ أكثم بن صيفي بديار أخواله؛ فبكى لما سمع صهيل الخيل؛ وغثاء الغنم؛ ورغاء الإبل؛ فقال بعض بنيه: كرهت الخير لأخوالك؟ قال: كلا؛ ولكن قلما دخل هذا دار قوم؛ إلّا انشقت عصاهم؛ أو ما يقرب من هذا المعنى.

ويمكن أن يدخل فيه؛ كما يمكن أن يكون من بابٍ آخر؛ ما روي عن الأصمعي: أنَّ هاني بن قبيصة أتى الحرقة بنت النعمان وهي باكية؛ فقال لها: ما يبكيك؟ لعَلَّ أحداً آذاك؟ قالت: لا؛ ولكن غضارة في أهلكم؛ وقَلَّ ما امتلأت دارٌ سروراً إلّا امتلأت حُزْناً وَبَلاء. وعنه مرويٌّ عن إحدى فضليات الصحابة؛ وفي أشعارهم الكثير المعروف منه:

قَوْمٌ إِذَا اخْضَرَّتْ نِعَالُهُم ... يَتَنَاهَقُونَ تَنَاهُقَ الحُمُرِ

وقول آخر:

قَوْمٌ إِذَا نَبَتَ الرَّبِيعُ لَهُمْ ... نَبَتَتْ عَدَاوَتُهُمْ مَعَ البَقْلِ

وقول ثالث:

وَفِي البَقْلِ إِنْ لَمْ يَدْفَعِ اللّهُ شَرَّهُ ... شَيَاطِينُ يَنْزُو بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضِ

وقال رجل من بني تميم:

حِلُّوا عَنِ النَّاقَةِ الحَمْرَاءِ وَاقْتَعِدُوا   العُودَ الذِي فِي جَنَابَيْ ظَهْرِهِ وَقَعُ
إنَّ الذِئَابَ قَدْ اخْضَرَّتْ بَرَاثِنُهَا   وَالنَّاسُ كُلُّهُمُوا بَكْرٌ إذَا شَبِعُوا

والشاهد في الحرف الأخير؛ وكان قالها وهو في أسْرِ قوم عزموا على غزو أصحابه؛ فَأَلْغَزَ فيها؛ وأراد بالناقة الحمراء: الدهناء؛ وهي أرض لبني تميم شبهها بذلك لسهولتها؛ وأراد بالعود؛ الصمَّان؛ وهو جبل أو بلد لهم صلب الموطىء؛ والوقع: آثار الابر في ظهر البعير؛ أخذها للصمَّان لما فيه من الطرق وآثار الأقدام؛ وقوله: كلهموا بكر إذا شبعوا؛ هو المناسب لما نحن فيه؛ يريد أنهم حينئذ تهيج أحقادهم؛ ويطلبون تراثهم من أعدائهم؛ حتى أنهم ليكونوا في أقدام بكر بن وائل؛ وهي مضرب المثل في ذلك؛ وفيها قول النابغة الجعدي؛ أو زفر بن الحارث:

حَسِبْنَا زَمَاناً كُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً   لَيَالِيَ إذْ نَغْزُو جِذَاماً وَحِمْيَرَا
إلَى أنْ لَقِيْنَا الحَيَّ بَكْرِ بِنْ وَائِلٍ   ثَمَانِينَ ألفاً دَارِعِينَ وَحُسَّرَا
فَلَمَّا قَرَعْنَا النَّبْعَ بِالنَّبْعِ بَعْضَهُ   بِبَعْضٍ أَبَتْ عِيدَانُهُ أنْ تَكَسَّرَا

وأنشد ابن الأعرابي:

مُدَارِينَ إنْ جَاعُوا وَأذْعَرَ مَنْ مَشَى   إذَا الرَّوْضَةُ الغَنَّا دَبَّ غَوَيرُهَا

وقال الجاحظ: يقال في الخصب نفشت العنز لأختها؛ وخلَّفت أرضاً تظالم معزاها؛ ومعنى الأول: تنفش شعرها وتنصب روقيها في أحد شقيها لتنطح أختها من الأشر.

وقال ابن الرومي:

تَجِدُ الوُحُوشَ بِهِ كِفَايَتَهَا   وَالطَّيْرُ فِيهِ عَتِيدَةَ الطُّعْمِ
فَظِبَاؤه تَضْحَى بِمُنْتَطِحٍ   وَحَمَامُهُ يَضْحَى بِمُخْتَصِمِ

ولو أنه أبدل الحمام بالكباش والتيوس لكان أنسب.

ولِقَائِلٍ أن يقول: إنَّ الصدر الأول؛ مثال الفضيلة؛ ومغرس الكرم؛ رعد المروءة؛ وسياج المحاسن؛ فكيف تُجَوِّز تمردهم وأشرهم وخروجهم عن الحدود وبطرهم؛ لفتوح الخزائن؛ وانتشال الكنائن؛ وظهور الدفائن؛ وتورد ما سبق من الأبيات في سياقٍ يتعلق بأحوالهم؛ ويلتاط بأعمالهم؟ فنقول: إنهم لكما ذكرت وأفضل منه؛ وحاشا الله أن نرميهم بغميزة؛ أو ننبزهم بغميصة؛ أو نتهمهم بنقيصة؛ وإنَّهم لأحق بما يأتي ذكره في صفة الكرام من الفائدة السابعة والعشرين. وإنما هنالك الأعراب الطغاة؛ والأرشاب القساة؛ والأجلاف الجفاة؛ والأخلاط الحفاة؛ وقد فجأتهم الدنيا بسبيلها؛ وغطَّتهم الأموال بذيلها؛ والكثرة غامرة؛ والظروف قاهرة؛ والأزمنة غالبة؛ والشهوات حاكمة؛ والعادات نافذة؛ والفتنة هائلة؛ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾[1]؛ وسُنَّةُ الله لا تتغير؛ وحكمه في الأولين والآخرين واحد.

واعتبر بأيام الخليفة الرابع؛ وهو الفحل لا يقرع أنفه؛ والسابق لا يدرك شأوه؛ بمن معه من المهاجرين والأنصار؛ وكيف عضَّه الزمان وتنكرت له الأيام؛ ونشر له الشر أذنيه وخرج الأمر من يديه؛ وغالب عليه الهجاج والعجاج؛ حتى قال في مَعْتَبَةٍ لقومه: لقد شحنتم صدري غيظاً؛ وملأتم قلبي قيحاً؛ وسقيتموني نخب التهمام أنفاساً. وأشتكي من ظلم الرعايا كما تشتكي الرعايا من ظلم الملوك؛ وما ذلك إلّا لافتنان الناس بالمال. وقد حاول أن يسوسهم بالورع والعدل والدين فلم يتمكن؛ ومنافسه يفيض فيهم الأموال فيضاً.

وأستغفر الله مع هذا كله؛ وإن كلام الله تعالى وسنة نبيه ﷺ؛ وترخيصه في ذلك؛ فقد جاء أنَّ أبا بكرٍ قال له: أقرآن وشعر في مجلس واحد؟ فقال له: «**من هذا مرة ومن هذا مرة**»؛ أو ما يقرب من هذا المعنى؛ فإن قيل: أخرج البخاري أنَّ

---

(١) سورة العلق، الآية: ٦.

عمران بن حصين قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلّا بخير**» فقال بشير بن كعب: مكتوب في الحكمة إنَّ من الحياء وقاراً؛ وإن من الحياء سكينة؛ فقال له عمران ﷺ: أُحَدِّثُكَ عن رسول الله ﷺ؛ وتُحَدِّثْني عن صحيفتك! وفي رواية أبي قتادة أنَّ عمران غضب حتى احمرَّت عيناه. قلنا في الجواب: قد اختلف في سبب غضب عمران؛ فقيل: من قول بشير منه لأن التبعيض يشعر بأن من الحياء ما يضاد ذلك؛ وقيل: لأن في كلامه زيادة (وفيه ضعف) وأن سياقه هكذا: إنَّ منه سكينة ووقار لله؛ وفيه ضعف. قال الحافظ فيما نقله عن ابن بطَّال: وهذه الزيادة متعيِّنة؛ ومن أجلها غضب عمران اهـ. وقد كان ابن عباس يتهم بشيراً هذا ولا يلتفت لحديثه؛ كما ذكره مسلم في مقدمة صحيحه؛ ومن هذا نعرف اندفاع الإيراد من أصله. وما حملني على الاعتذار السابق إلّا ما تورَّك به ابن قتيبة في كتابه؛ تأويل مختلف الحديث؛ على الجاحظ؛ إذ يورد الأحاديث؛ ثم يتلوها بقوله: قال الجماز؛ وقال إسماعيل بن غزوان؛ فهالني الأمر؛ وخشيت أن أقع في التبعة؛ ثم تبيَّن لي أن ابن قتيبة لم يكن إلّا متعصِّباً في إنكاره ذلك؛ مع وقوعه في أمثاله؛ وكتابه عيون الأخبار شاهدٌ بذلك؛ وهو كثيراً ما ينقل فيه كلام الجاحظ؛ ويحتج به تارة بِعَزْوٍ وتارة بدون عزو.

ثم إن الناس عند الثرثرة ثلاثة: من يزداد تواضعاً ويقف عند حدّه ويتأثر بسنّة الله فيما أعطاه؛ وهو الكريم؛ ومن يتمرد كما في الأبيات السابقة؛ والفائدة الرابعة: وهو الخبيث؛ ومن تذل نفسه شحاً؛ ويهون قلبه وتذهب نخوته بخلاً؛ وهو الذميم اللئيم. وفي لون آخر من هذا البز يقول أكثم بن صيفي: من أصاب حظّاً من دنياه فأصاره إلى كبر وترفع؛ فقد علم أنه نال فوق ما يستحق؛ ومن أقام على حاله فقد علم أنه نال ما يستحق؛ ومن تواضع علم أنه نال دون ما يستحق. ومع هذا كله فأحوال الأمم غير أحوال الأفراد؛ إذ لكلٍّ حكم حسبما نفصل ذلك في موضعه.

الثالثة: في الحديث إشارة إلى مفاسد الحضارة؛ إذ النعمة تستدعي التفنن في أنواع الترف؛ والتنوع في آلاته وأدواته من مبانٍ وأوانٍ ومفارش ومطابخ

وملابس ومراكب وما أشبه ذلك؛ فتتكاثر الحاجات وتتوسع النفقات ويتسلسل الأمر؛ ولله درُّ التهامي في قوله:

نَـزْدَادُ فَـقْـراً كُـلَّـمَـا ازدَدْنَـا غِـنـاً فَـالـفـقْـرُ كُـلَّ الـفَـقْـرِ فِـي الإكْـثَـارِ

والمَعَرِّي في قوله:

وَأفْـقَـرُ الـنَّـاسِ فِـي دُنْـيَـاهُـمُـو مَـلِـكٌ يضحى إلى اللجب الجرار محتاجا

وأُعْطِي بعضهم مائة دينار؛ فكتب إلى صاحب له يخبره بالنعمة؛ فأجابه بأنك لم تفد غِناً وإنما أفدت فقراً؛ لأنك لا بدَّ وأن تتوسع من بعدها في خروجك[١]؛ وتتفتح عليك أبواب نفقتك؛ ولعلك لا تقدر على ذلك فيما بعد؛ وقد كنت قانعاً بعيشك؛ مغتبطاً برزقك؛ وربما كانت هذه القصة بقريب منها في الإحياء[٢]؛ ومتى حصل التلون في الترف تبعه التلون في الشهوات؛ وظهرت كلَّ حينٍ شهوة؛ وحصلت كل وقتٍ نزوة؛ وهكذا؛ ومن تلوُّن الشهوات يكون الداء الدوي؛ وهو تغير النفوس؛ والإخلاد إلى الدعة؛ والسكون إلى العجز؛ والاطمئنان إلى الراحة؛ ولله در المعرِّي:

وَفِـي الـعَـجْـزِ مِـنْ وَجْـهِ الـتَّـرَفـهِ نِـعْـمَـةٌ وَلَـكِـنَّـهَـا مَـعْـدُودَةٌ فِـي الـمَـصَـائِـبِ

وأكبر من ذلك تولد الشره إلى الكبرياء؛ والتسامي إلى الرئاسة؛ ثم الشغل مذهبةً للهموم؛ ومجلأةٌ للغموم؛ فلا بدّ وأن تترادف لاطراحه؛ وقد يحتاجه فلا يقدر عليه؛ إمَّا للترفع؛ وإمَّا لترك الاعتياد؛ وفي ذلك تعطيل للآلات وخروج على الطبيعة وجناية على الصحة؛ وأكبر من ذلك تسلسل النفس في اتباع الشهوات والانقياد بداعيتها إلي المخالفات؛ حتى تهون عليها وتألفها وتتخذها سجيَّة؛ والعادة كما قيل توأم الطبيعة؛ وعلى ذلك يهرم الكبير وينشأ الصغير؛ ومن أين التلافي وقد خرج الأمر عن ضابط العقل وسياسة الدين ومحاسبة القِيَمْ؛ وقد

---

(١) أي مصاريفك.

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي.

قالوا: أول مِرَانِ الفرس حيدة توافق عليها؛ ومن هنا أثنوا على البادية بالكرم والوفاء؛ والحسن والرواء؛ والصحة في القوى؛ ومنه قول ابن الرومي:

هَـذَا أَبُـو الـصَّـقْـرِ فَـرْداً فِـي مَـحَـاسِـنِـهِ   مِنْ نَسْلِ شَيْبَان بَيْنَ الضَّالِ وَالسَّلَمِ

يشير إلى أنه بدوي عزيز النفس شريف الهمة فصيح اللسان؛ وللنحاة كلام في هذا البيت ليس من غرضنا؛ وقال القطامي:

فَـمَـنْ تَـكُـنِ الـحَـضَـارَةُ أعْـجَـبَـتْـهُ   فـأيُّ رِجَـالِ بَـادِيَـةٍ تَـرَانَـا

وقال أبو الطيب:

إنَّ الـذيـنَ أَقَـمْـتَ وَارْتَـحَـلُـوا   أيَّـامُـهُـمْ لِـدِيَـارِهِـمْ دُوَلُ

الـحُـسْـنُ يَـرْحَـلُ كُـلَّـمَـا رَحَـلُـوا   مَـعَـهُـمْ وَيَـنْـزِلُ حَـيْـثُـمَـا نَـزَلُـوا

فِـي مُـقْـلَـتَـيَّ رِشَـأ تُـدِيـرُهُـمَـا   بَـدَوِيَـةٌ فُـتِـنَـتْ بِـهَـا الـحِـلَـلُ

وقال:

عَـدَوِيَـةٌ بَـدَوِيَـةٌ مِـنْ دُونِـهَـا   سَـلْـبُ الـنُّـفُـوسِ وَنَـارُ حَـرْبٍ تُـوقَـدِ

وقال:

هَـامَ الـفُـؤادُ بِـأعْـرَابِـيَـةٍ سَـكَـنَـتْ   بَيْتاً مِنَ القَلْبِ لَمْ تَمْدُدْ لَهُ طَنَبَا

وقال:

بِـكُـلِّ فَـلاةٍ تُـنْـكِـرُ الأنْـسَ أرْضَـهَـا   ظَـمَـائِنُ حُمْرُ الحِلْيِ حُمْرُ الأيَانِقِ

وهو من قول حبيب:

وَفِـي الـكِـلْـيَـةِ الـوَرْدِيـة الـلَّـوْنِ جَـوْذَرٌ   مِنَ العَيْنِ وَرْدُ اللَّونِ وَرْدُ المَجَاسِدِ

والحسن في الباب قول المتنبي:

قَدْ وَافَقُوا الوَحْشَ فِي سُكْنَى مَرَاتِعِهَا   وَخَـالَـفُـوهَـا بِـتَـقْـوِيـضٍ وَتَـطْـنِـيـبِ

فُـؤَادُ كُـلِّ مُـحِـبٍ فَـي بِـيُـوتِـهُـم   وَمَـالُ كُـلِّ أَخِـيـذِ الـمَـالِ مَـحْـرُوبِ

مَا أوْجَهَ الحَضَرِالمُسْتَحْسَنَاتِ بِهِ ... كَأوْجُهِ البَدَوِيَاتِ الرَّعَابِيبِ
حُسْنُ الحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ ... وَفِي البَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرَ مَجْلُوبِ
أفْدِي ظِبَاءِ فَلاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا ... مَضْغَ الكَلامِ وَلا صَبْغَ الحَواجِيبِ
وَلابَرَزْنَ مِنَ الحَمَامِ مَائِلَةً ... أوْرَاقُهُنَّ صَقِيلاتِ العَرَاقِيبِ

وقال المعرِّي:

المُوقَدُونَ بِنَجْدٍ نَارَ بَادِيَةٍ ... لا يَحْضَرُونَ وَفَقْدُ العِزِّ فِي الحَضَرِ
وَالحُسْنُ يَظْهَرُ فِي شَيْئَيْنِ رَوْنَقُهُ ... بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ أوْ بَيْتاً مِنَ الشَّعَرِ

وقال إبراهيم بن يحيى المغربي:

سَجِيَّةٌ فِي البَوَادِي لا أُخِلُّ بِهَا ... وَالبَدْوُ أحْسَنُ أخْلاقاً مِنَ الحَضَرِ

وقال:

وَكَفَاكَ مِنْ حُسْنِ البَدَاوَةِ أنَّه ... مَا كَانَ مُفْتَقِراً إلى تَحْسَينِ

والكلام فيه منتشر؛ والأشعار كثيرة؛ ومنها أبيات ميسون ابنة بجدل؛ زوج معاوية؛ ولا نطيل بها. وقدم سعيد بن ضمضم على الحسن بن سهل فأنشده قصيدة لم يعجبني رَوِيُّها؛ يرجع فيها حنينه إلى سوء حاله بالبادية؛ فقال له الحسن: سَلْ ما شئت وَتَمَنْ ما أحببت؛ فلو خرجت إليك من مالي كله ما كافأتك؛ فقال: تشتري لي غنيمات وتردني إلى باديتي؛ فاشترى له ألف شاة وأعطاه عشرين ألف درهم وردَّهُ.

وقيل لأعرابي: ما تصنع في البادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله؟ فقال: وهل العيش إلّا ذاك؛ يمشي أحدنا ميلاً؛ فَيَرْفَضُّ عرقاً كأنه الجمان؛ ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه؛ فتهب عليه الرياح من كل جانب فكأنَّه في إيوان كسرى.

وأقبل أعرابي من البادية فسئل عن عيشة أهلها؛ فقال: بَخٍ بخ؛ أهنأ عيش؛

وأطيبُ طعامٍ وأمرؤه؛ فأكل القت والهبيد والهلعز والضباب والحلتيت؛ فما نعلم أحداً أخصبَ عيشاً منا؛ ولا أعمر حالاً؛ أو ما سمعت قول الشاعر: برقيق العيش؟ فقيل له: ماذا يقول؟ قال:

إِذَا مَا أَصَبْنَا كُلَّ يَوْمٍ مذيقَةً ... وَخَمْسَ تُمَيْرَاتٍ صِغَارٍ كَوَانِزِ

فَنَحْنُ مُلوكُ النَّاسِ خِصْباً وَنِعْمَةٍ ... وَنَحْنُ أُسُودُ البَأْسِ عِنْدَ الهَزَائِزِ

وَكَمْ مُتَمَنٍّ عَيْشَنَا لا يَنَالُهُ ... وَلَوْ نَالَهُ أَضْحَى بِهِ غَيْرَ فَائِزِ

ولما قَلَّلَ أمير المؤمنين علي من طعامه؛ قال: وكأنِّي بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب؛ فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان؛ ألا وإنَّ الشجرة البرِّية أصلب عوداً وأكثر وقوداً وأبطأ خموداً؛ وإن الروائع الخضرة أرقُّ جلوة؛ وأنا من رسول الله ﷺ كالصنو من الصنو والذراع من العضد.

وجاء في مدح البادية نصوص؛ كما جاء في ذمها أخرى؛ والجمع ظاهر؛ فالثاني عند صلاح الأحوال واستقامة الأمور؛ قال يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾[1] ومنه ما يذكره الفقهاء في باب اللقيط؛ من تفضيل الحواضر على البوادي؛ والأول عند ظهور الشر والاستعلان بالفساد؛ ومنه قوله ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ**»؛ فليس مخصوصاً بالتي تموج كموج البحر؛ ولكنها لها؛ ولهذه التي نتكلم فيها في سياق الحديث.

وقال شبيب بن منبِّه: بعثني المنصور لإصلاح فساد وقع في طريق الحجاز؛ فكلما وردت ماءه خطبت فيهم؛ فلما خطبت في قوم بما حضرني من محاسن الحاضرة ومساوي البادية؛ انبرى لي واحد منهم؛ فحمد الله وصلَّى على نبيِّه؛ وقال: أما بعد؛ فقد سمعنا ما ذكرت من ذمِّ البادية وتفضيل الحاضرة عليها؛

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

ومهما يكن فينا من سوءة؛ فليس فينا نقب الدور؛ ولا شهادة الزور؛ ولا نيك الذكور. فأفحمني حتى تمنيت أن لم أكن خرجت في ذلك الوجه. فللبادية فوائد لا يأتي على أطرافها حدّ ولا عد؛ وما ذكرناه ليس إلّا طشَّة من غدير؛ وفي ما ذكره ابن خلدون عنها وغيره الكفاية؛ وقد استعنَّا ببعض كلامه هنا في الاقتصاد؛ وإلى جملة من مزايا البادية كانت الإشارة بقصيدتي المستهَلَّة بقولي:

رِيمٌ تَحَرَّشَ بِالنُّفُوسِ فَقَادَهَا وَرَمَى القُلوبَ بِسَهْمِهِ فَاصْطَادَهَا

وهي بموضعهما من الديوان.

الرابعة: في الحديث مزيد لطفه ﷺ؛ إذ لم يجزم الأمر في طلب الإيقاظ؛ وإنما قال: من يوقظ؛ ولم يقل أيقظوا؛ وقد جاء في رواية سفيان بصيغة الأمر؛ واللطف عليه فيه؛ من حيث عدم يقين المأمور؛ وكذلك كان ﷺ في سائر شؤونه؛ لطيفاً متواضعاً؛ إلّا عند شدة الحاجة؛ كقوله يوم بدر: «**قم يا حمزة؛ قم يا عبيدة؛ قم يا علي**»؛ لما رأى القوم أرموا؛ وإلّا فقد ذكر ابن هشام؛ أنَّ رجلاً من أهل الكوفة قال لحذيفة بن اليمان: أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا بن أخي! قال: كيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد؛ فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض؛ ولحملناه على أعناقنا؛ فقال حذيفة: يا بن أخي؛ والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق؛ وصلى هوياً من الليل ثم التفت إلينا وقال: «**ما من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة؛ أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؛ فما قام رجل من القوم؛ من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد؛ فلما لم يقم أحد دعاني؛ فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني؛ فقال يا حذيفة: اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون؛ ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا**»؛ فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل؛ لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولابناء فقال أبو سفيان: يا معشر قريش لينظر امرؤ مَنْ جليسه! قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي بجانبي فقلت: من أنت؟ فقال: فلان ابن فلان؛ ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش؛

إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام؛ لقد هلك الخف والكراع؛ وأخلفتنا بنو قريظة؛ وبلغنا عنهم الذي نكره؛ ولقينا من شدة الريح ما ترون؛ فارتحلوا فإني مرتحل؛ ثم قام إلى جمله وهو معقول؛ فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث؛ فوالله ما أطلق عقاله إلّا وهو قائم؛ ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي؛ أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني؛ لقتلته بسهم؛ قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي؛ فلما سلَّم أخبرته.

الخامسة: يؤخذ من قوله لكي يصلين؛ ومن إكثاره الصلاة ليلة الخندق؛ ومن كونه ﷺ كلما حز به أمر فزع إلى الصلاة؛ صدق الامتثال لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[١]؛ وعظم خطر الصلاة؛ وجليل نفعها؛ وعميم فائدتها؛ وسرعة نتيجتها؛ وحسن موقعها؛ لدى انقطاع الحيل وعثرات الأمل؛ وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ وأنه لا يمكن رياضة النفس بسواها عند اعتلاج الخواطر؛ وتجاذب الدواعي؛ واختلاج الظنون؛ وتزاحم الشهوات؛ وتراكم الظلمات؛ لأنَّ فيها من الأخذ بالنفس إلى جانب القدس ما لا يوجد في غيرها من العبادات؛ بشهادة قوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[٢]؛ وهذا فضاء واسع؛ وجو شاسع؛ نقتصر منه هنا على هذا؛ ثم لنا عودة بالمناسبة إلى تحقيقه بما يفتح به الله؛ إنه هو الفتاح العليم.

السادسة: في الحديث إشارة لما جرى لأزواجه من الاختلاف والتداخل مباشرة في أمر الفتنة؛ فقد كانت أمُّ سلمة في جانب علي بلسانها ونابها؛ وما قصَّرت عائشة في التشغيب على عثمان؛ ثم قامت تطلب بدمه؛ وكانت بينها وبين فاطمة ما كان حتى اعتلَّت من التعزية فيها؛ ولا يخفى ما جرى بينها وبين أمِّ حبيبة

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**» أخرجه مسلم.

كما يأتي ذَرْوٌ منه في الفائدة العاشرة. ولولا ما عصمهن به من التقوى بالمحافظة على الصلوات التي عوَّدهُنَّ إياها رسول الله ﷺ؛ لنفلت الجروح؛ وانتشرت القروح؛ وتفاقمت الخطوب؛ بأضعاف مما جرى.

السابعة: إنما قيَّدنا في اللطيفة الأولى النساء بذلك العهد؛ تفادياً من مصادمة الحس ومخالفة الواقع؛ فإن الرجال أكثر افتتاناً؛ لعهدنا؛ بالدنيا من النساء؛ أو ما تراهم صاروا عليها فراش نار وذبان طمع[١]؛ ففيها سعَّروا الحروب واقتحموا الخطوب؛ وركبوا الأضاليل وأكثروا الأحكام؛ وأكلوا الأيتام؛ وكثير من الزعماء والأعيان خانوا البلاد وباعوا الأوطان؛ وَوَطَّؤوا المناكب؛ وكانوا من أخص الأعوان للأجانب؛ وأيُّ شَرٍّ كان من النساء من هذا القبيل؛ وإنِّي لأعتقد أن لو كان موضع كل زعيم امرأته؛ لكان الفساد أنزر؛ والإصلاح أغزر؛ وما أحسن قول بعضهم يهجو قاضياً:

وَقَاضٍ لَنَا لَمْ يَكُنْ وَافِياً ... وَلَكِنَّ زَوْجَتَهُ وَافِيَهْ
فَيَا لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ قَاضِياً ... وَيَا لَيْتَهَا كَانَت القَاضِيَه

ولا أنكر أنه كان لرجالات العرب عامة؛ ولقريش؛ كما قال عمرو بن عتبة[٢]؛ خاصة؛ دُرَجٌ في المكارم؛ تزلق عنها الأقدام؛ وأفعال تخشع لها رقاب المال؛ وغايات تقصر عنها الآمال؛ وكانت تتزين بهم الأيام؛ وتضيق بما لهم من الأحلام. لكن قد انعكس الحال؛ فعادوا من الحرص يقاسمون الطير أرزاقها؛ ويشاركون الخنازير أخلاقها، لو أؤتمن أحدهم على قعب لاختلس علاقته إن لم يجحده، فأي قيمة بينهم للأمانة؛ وأية ديمة لم تمطرهم من الخيانة؛ بينما النساء في جميع الأحوال؛ على سلامة جانب؛ وبراءة جيب؛ وطهارة ذيل؛ ولو شئت

---

(١) فراش نار وذبان طمع مثال للجهل لأن الفراش يتجه إلى النار فيحترق والذبان يطمع فيقع على الدبس والعسل فيموت فيه.

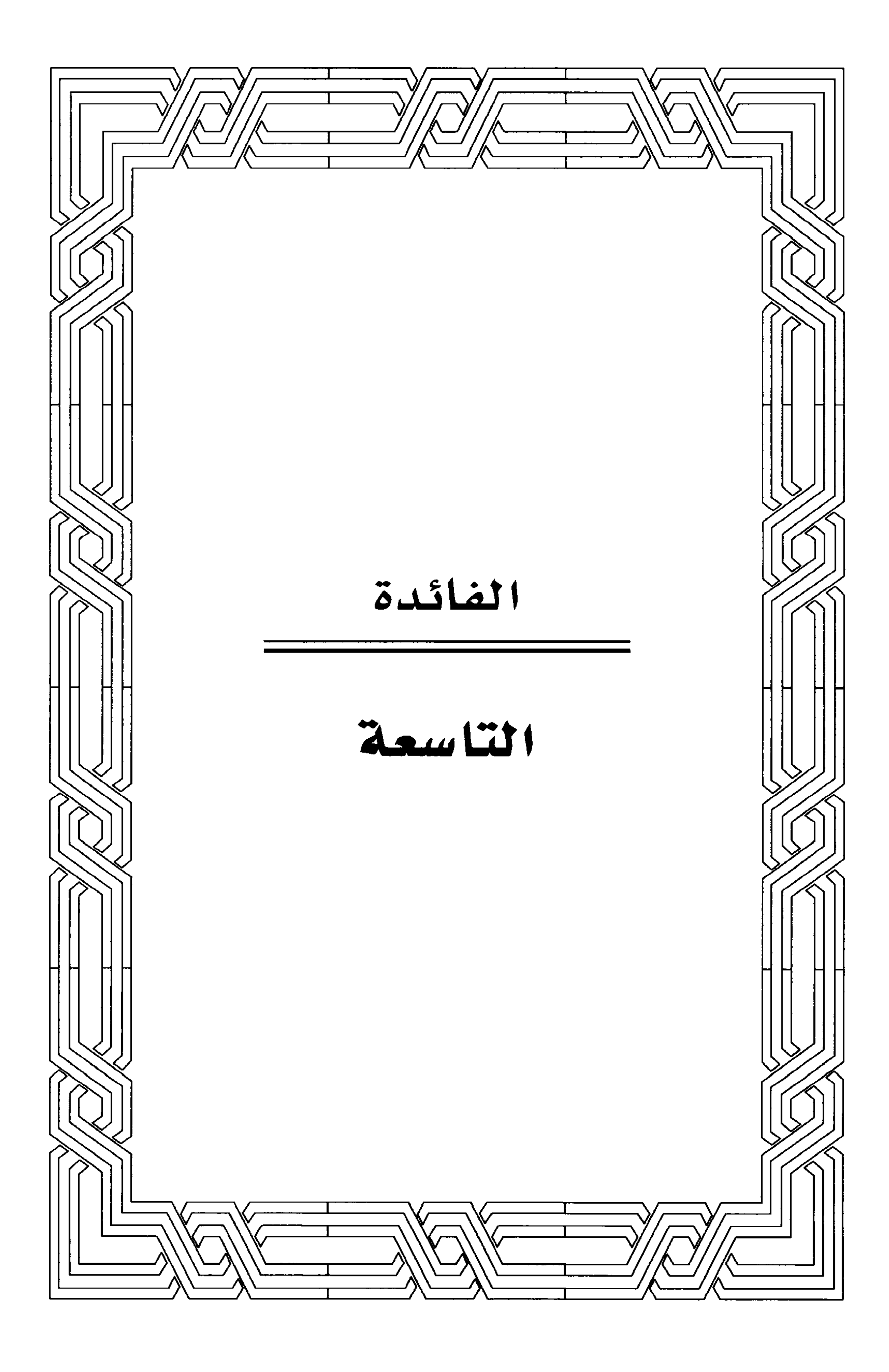
(٢) عمرو بن عُتْبة بن فَرْقَد السُّلَمي: كانت لأبيه صُحْبة، وكان عَمرو من المجتهدين في العبادة؛ كان قليل الرواية للحديث ومات شهيداً.

أن أعِدَّ من خان في أيامنا من الرجال في اليسير؛ ومن وَفَتْ من النساء في الخطير؛ لذكرت من ذلك الشيء الكثير.

ولقد رأيت من العظماء من لا تُقْضَى حاجته مع غِنَاهْ؛ إلّا بضمان امرأته مع فقرها؛ وأكبر من هذا أن النساء ألطف عواطف؛ وأرَقّ قلوباً؛ وأكثر قبولاً للنصح وتأثُّراً بالإرشاد والوعظ؛ فلو قُيِّضَ لهُنَّ من يرشدهن الطريق؛ لاستولين على الأمر وهُنَّ وادعات، ومعشار هذه الخلال يكفي لتفضيل نساء العصر على رجاله في الجملة؛ فليُضَمْ إلى ما سبق في الفائدة السابعة والله أعلم[١].



(١) يعكس هذا الكلام ما تعرض له الإمام من رجال عصره من أذية ومعارضة وغدر بينما هو لم يلق من نساء عصره إلّا كل خير ولذا فإنني أعتبر هذا الكلام من قبيل المبالغة والمجاز لأن الإمام وهو الفقيه المتفنن والعالم الرباني لا يمكن أن يرضى أن تتولى النساء مقاليد الأمور.



الفائدة

التاسعة

الفائدة التاسعة

في حديث الخضر وموسى إشكالات عرفوا بعضها وأعرضوا عن بعض؛ فَمِمَّا أعرضوا عنه فيما أعرف:

■ الإشكال الأول:

ما جاء في رواية سفيان من قوله: فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة؛ فنقر نقرة أو نقرتين من البحر؛ وكيف يتمكن العصفور وهو على حرف السفينة من النقر في البحر؟ وارتفاع الحرف عن البحر لا يقل عن ذراع فأكثر! فأين يصل منقاره؟ فلعل في الكلام إيجازاً وحذفاً تقديره: فطار ونقر؛ بدليل ما جاء عن عبد بن حميد(١) من قوله في هذه القصة: فأرسل ربك الخطاف فجعل يأخذ بمنقاره من الماء. قال ابن سيده: وهو العصفور الذي يدعونه الجَنَّة(٢) هذا هو المُتَيَقَّنْ في الجواب وإلّا كان الإشكال فيه؛ مثل قولهم: إن العقدة التي في لسان موسى عليه السلام من أثر جمرة؛ كان من حديثها أنه أخذ خصلة من لحية فرعون؛ فأمر بقتله؛ فقالت آسية: إنما هو صبي لا يفرق بين الجمرة والتمرة؛ فأحْضِرْن؛ فَمَدَّ يده إلى الجمرة وأخذها إلى فيه فاحترق لسانه؛ فإنه إن انخرقت العادة وتخلف

(١) عبد بن حميد بن نصر الكشي، أبو محمد: من حفاظ الحديث ومن تلاميذه الإمام مسلم والإمام الترمذي وتوفي سنة ٢٤٩هـ.

(٢) يطلق مسمى عصفور الجنة على سلالة نادرة جداً من الطيور تتميز بألوان وتصرفات ونظام حياة يختلف عن سائر الطيور.

الإحراق في اليد كان ذلك أبعث لفرعون على قتله؛ وإلّا كان إمساكها محالاً؛ فإن قالوا لم يدر كيف يلقيها في الأرض حتى التقمها؛ قلنا: لا يتمعنى وضعها في الفم على أيِّ فرض كان؛ واعتبر بحال أي طفل تريد؛ ومعاذ الله أن تكون نقرة العصفور مثلها؛ فإنها ثابتة في الصحيح؛ وما ذكرناه من التأويل معقول المعنى فلا بدّ منه؛ بخلاف قصة الجمرة فإنها واهية كما قاله الذهبي.

■ الإشكال الثاني:

كيف ينقر العصفور مرة ثانية؛ وقد عرف أن الماء ملح أُجاج؟ إلّا أن يقال إنَّ (أو) الشك من الراوي؛ أو أنه كان يلعب بنقره في الماء؛ أو أن إدراكه ليس مثل عقول البشر؛ ومع ذلك فإن الإنسان قد لا يكتفي بالمرة الواحدة في التَطَعُّمْ؛ والعصفور لم يذكروا إلّا الصرد والخطاف[1]؛ وكلاهما لا يشرب ملح الماء؛ ولقد ألطف الفرزدق في قوله:

فَتًى مَا لَهُ كَالبَحْرِ يَمْنَعُ صَادياً عَنِ الرِّيِّ مِنْهُ مِلْحُهُ وَأجاجُهُ

وتلاعب به البحتري فقال:

جِدَّةٌ يَذودُ البُخْلُ عَنْ أطْرَافِهَا كَالبَحْرِ يَمْنَعُ مِلْحَهُ عَنْ مَائِهِ

وقال:

وَالبَحْرُ تَمْنَعُهُ مَرَارَتُهُ مِنْ أنْ تَسُوغَ لِشَارِبٍ جُرَعَهْ

■ الإشكال الثالث:

في قوله: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلّا كنقر العصفور في البحر؛

---

(١) الصرد: طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم نصفه أبيض ونصفه أسود وطيور الخطاف طيور رشيقة تقضي أغلب أوقاتها في الجو وتطير لمسافات بعيدة وتلتقط فريستها بمنقارها وهي في الجو.

والحال أن علم الله لا ينقص منه شيء؛ ولا بدّ أن يعلق شيء ما بمنقار العصفور من ماء البحر وإن لم يسغه؛ فالنقص واقع لا محالة في نقره وهذا مما ذكروه؛ وقالوا في الجواب: معنى النقص الأخذ؛ والمعنى: لم يأخذ من علم الله إلّا مثل ما أخذ هذا العصفور بمنقاره؛ فالتشبيه واقع على الآخذ لا على المأخوذ منه؛ وهو وجيه.

وقد وقع في رواية ابن جرير: ما علمي وعلمك في جنب الله إلّا كما أخذ هذا العصفور بمنقاره من البحر. وخير منه أن يقال: لمَّا كان عدم انتقاص العلم الحادث بالأخذ منه معلوماً بالضرورة؛ كان العلم القديم أولى؛ فلا حاجة إلى الاحتراس بشيء عن هذا الإيراد المدفوع بالعقل؛ وإنما يحتاج للجواب عند احتمال الانتقاص؛ وقد عُلِمَ انتفاؤه. ومن المقرر في الأصول؛ أنَّ العقل والحس من موجبات التخصيص. وقد قال ابن أبي طالب كرم الله وجهه: المال تنقصه النفقة؛ والعلم يزكو على الإنفاق. وفي النار مثال من ذلك؛ فإنه لا ينقصها المقتبسين منها؛ وإطلاق النقص على مجرد الأخذ سائغ بطريق المجاز.

■ الإشكال الرابع:

في قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾[1] الآية، وكيف يجوز على الخضر وموسى وهما بشرف الولاية والنبوة أن يتسولا؛ ولو كانا بغاية الحاجة؛ فقد تموت الحرة ولا تأكل بثدييها[2]؛ ولقد أساء الأدب من التزمه ودلَّل به على المسألة عند الحاجة[3]؛ ومنه ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أيوب بن موسى قال: بلغني أن المسألة حسنة للمحتاج؛ ألا تسمع أنَّ موسى وصاحبه استطعما أهلها؛ فمطلق السؤال مشكل في حقهما؛ ويزيد

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٧.

(٢) مثل معناه أن الحرة تموت من الجوع ولا ترتكب الفاحشة.

(٣) أي على جواز التسول عند الحاجة.

إشكالاً بما زعم بعضهم من تعرضهم لسفلة اللئام وأوباشهم؛ وقد قال قيس بن عاصم:

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُلاحِظُ أطْرَافَ الأكِيلِ عَلَى عَمْدِ

وقال أبو الطيب:

وَلا أُمْسِي لأهْلِ البُخْلِ ضَيْفاً وَلَيسَ قِرًى سوَى مُخّ النّعامِ

فإن قيل إنهم لم يعرفوا شيئاً من أحوال أهل القرية؛ فلا معتبة من هذه الجهة؛ قلنا: وجوه البشر صحائف تتكلم؛ وبعيد أن يخفى ذلك عليهما مع ما أوتيا من الفهم وبعد النظر وقوة الإدراك؛ وما أنكر موسى على الخضر فعل المعروف فيهم بإقامة الجدار؛ إلَّا لمَّا عرف من لؤمهم؛ وإلّا فكيف ينكر أمراً سبق له نظيره؛ فقد ورد مَدْيَنْ بنفس الحاجة؛ ولما تفرَّس الكرم سقى؛ ولم يستطعم ولم يطلب الأجر؛ وإنَّما تولَّى إلى الظل وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1]، بل أخرج ابن عساكر عن ابن أبي حازم؛ أنه لما دخل موسى على شعيب عليه السلام إذا هو بالعشاء؛ فقال له شعيب: كُلْ؛ فقال موسى: أعوذ بالله! قال: ألست بجائع؟ قال: بلى ولكن أخاف أن يكون أجراً على ما سقيت؛ فإنا لا نبتغي الدنيا بعمل الآخرة؛ قال: لا والله؛ ولكنها عادتي وعادة آبائي؛ نقري الضيف ونطعم الطعام؛ فأكل أو ما هذا معناه، ولكنه لا ينبغي أن يلتفت إليه؛ لمنافاته لقول المرأة: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾[2]؛ والتأويل: بأنه أجاب: لا لذلك؛ ولهذا تقبض عن العشاء مخافة أن يكون مصداق ما قالت؛ بعيداً، ومهما يكن من الأمر؛ فالمسألة بعيدة عن أحوال الخضر وموسى. وأحسن الأجوبة: أنْ لا سؤال ولا تعريض؛ غير أن وجود الغريب بالبلد النائية؛ يوجب على أهلها إكرام مثواه وإسباغ قراه؛ ولا سيّما من

(١) سورة القصص، الآية: ٢٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٥.

دلت هيئته على السفر؛ وشارته على الفضل؛ وديباجته على الكمال. ولله درُّ القائل:

وإذَا تَـأمَّـلَ شَـخْـصَ ضَـيْـفٍ مُـقْـبِـلٍ ... مُـتَـسَـرْبِـلٍ سِـرْبَـالَ ثَـوْبٍ أغْـبَـرِ
أَوْمَـى إِلَـى الْـكَـوْمَـاءِ هَـذَا طَـارِقٌ ... نَـحَـرَتْـنِـي الْأَعْـدَاءُ إن لَـم تُـنْـحَـرِي

وقال أبو العلاء الأسدي في عكسه يهجو الصاحب ابن عبَّاد[1]:

وَإذَا رَأيْـتَ غَـرِيـبـاً فِـي مُـرَقَّـعَـةٍ ... يَـأوِي الـمَـسَـاجِـدَ حَـاضِـراً أَوْ بَـادِي
فَـاعْـلَـمْ بَـأنَّ الـفَـتَـى الـمِـسْـكِـيـن قَـدْ ... قَـذَفَـتْ بِـهِ الخُطُوبُ إلَى لُؤمِ ابْـن عَـبَّـادِ

فالأحوال غير خافية؛ والأمارات عن صريح الطلب كافية.

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري: أنَّ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر فمروا بحي من أحياء العرب فاستضافوهم فلم يضيِّفوهم؛ فقالوا لهم: هل فيكم من رَاقٍ إلخ؟ . . . . إذ المتبادر أنهم لم يستضيفوهم بلسان المقال؛ بشهادة العادة المطَّردة المألوفة؛ ولكن بلسان الحال. وقد سمَّى الله الحمد دعاء في قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[2] وما فيه تعريض بطلب؛ ولكنه مخبوء في طيَّاتِه وقال أميَّة:

إذا أثـنـى عـلـيـك الـمـرءُ يـومـاً ... كـفـاه مِـن تـعـرُّضِـه الـثَّـنـاءُ

وقال ابن الرومي:

وَإِذا طَـلَـبْـتَ إِلَـى كَـرِيـمٍ حـاجَـةً ... فَـلِـقَـاؤُهُ يَـكْـفِـيـكَ وَالـتَّـسْـلِـيـمُ

فوجودهم مع علم القوم؛ هو الاستطعام ليس غير؛ إن شاء الله تعالى؛ على أنه لا حرج على الغريب في التعرض لضيافة العليَّة من الناس؛ مع مراعاة

(١) الصاحب بن عباد أديب وكاتب ووزير كان جباراً وعالماً فتحت على يديه خمسون قلعة وله عدة تصانيف وتوفي سنة ٣٨٥هـ.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٠.

الحشمة؛ والاحتفاظ بالكرامة؛ والعزوف عن مواقع الذل؛ والبعد عن مساقط الهوان؛ ولئن كان منها شيء من ذلك فلن يكون إلّا مع أمراء القرية كما صنع أخوا يوسف إذ قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾[1] أما مع عامتها وسوقتها كما زعم البعض فمعاذ الله؛ والعرب لا ترى بأساً بانتجاع الملوك والتعرض للأمراء؛ كما قالته بنت لبيد؛ لأنَّ حق الله في أيديهم؛ فهم فيه شركاء؛ بل رأينا قروم العرب؛ وصناديد القبائل؛ تفتخر بذلك؛ فهذا حصن بن حذيفة الفزاري يقول:

وَلَّى حُذَيْفَةَ إذْ وَلَّى وَخَلَّفَنِي ... يَوْمَ الهُبَاةِ يَتِيماً بَيْنَ أيْتَامِ

حَتَّى اعْتَقَدْتَ لِوَا قَوْمِي فَقُمْتُ بِهِ ... ثُمَّ ارْتَحَلْتُ إلَى الجَفْنِيِّ بِالشَّامِ

لَمَّا قَضَى مَا قَضَى مِنْ حَقِّ زَائِرِهِ ... عُجْتُ المَطِيَّ إلَى النُّعْمَانِ مِنْ عَامِي

أَسْمُوا لِمَا كَانَتْ الآبَاءُ تَطْلُبُهُ ... عِنْدَ المُلُوكِ فَطَرْفِي عِنْدَهُمْ سَامِي

وقال ربيعة بن مقدوم الضَّبِّي:

وَلَقَدْ جَمَعْتُ المَالَ مِنْ جَمْعِ امْرِئٍ ... وَرَفَعْتُ نَفْسِي عَنْ لِئيمِ المَأكَلِ

وَدَخَلْتُ أبْنِيَةَ المُلُوكِ عَلَيْهُمُو ... وَلَشَرَّ قَوْلُ المَرْءِ مَا لَمْ يَفْعَلِ

وقال أميَّة بن أبي الصلت في ابن جدعان[2]:

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لامْرِئٍ إنْ حَبَوْتَهُ ... بِبَذْلٍ وَمَا كُلُّ العَطَاءِ يَزِينُ

وقال أبو تمام:

تُدْعَى عَطَايَاهُ وَفْراً وَهْيَ إنْ شَهُرَتْ ... كَانَتْ فِخَاراً لِمَنْ يَعْفُوه مُؤتَنِفَا

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٨.

(٢) عبد الله بن جدعان التيمي القرشي الكناني هو أحد سادات قريش وسيد كنانة في حرب الفجار وكان معروفاً عنه الكرم والجود.

مَا زِلْتُ مُنْتَظِراً أعْجُوبَةً زَمَناً حَتَّى رَأَيْتُ سُؤالاً يَجْتَنِي شَرَفَا[١]

وقال أبو عبادة:

عَلَّمْتَنِي الطَّلَبَ الشَّرِيفِ وَرُبَّمَا كُنْتَ الوَضِيعَ مِنَ اتِّضاعِ مَطَالِبِي

وَأَرَيْتَنِي أنَّ السُّؤَالَ مَحِلَّةٌ فِيهَا اخْتِلافُ مَنَازِلٍ وَمَرَاتِبِ

وقال:

وَيُعْجِبُنِي فَقْرِي إليكَ وَلَمْ يَكُنْ لِيُعْجِبُنِي لَوْلا مَحَبَّتَكَ الفقْرُ

وقال أبو الطيب:

وَأخْذُ نَوَالِهِ شَرَفٌ وَعِزٌّ وَأَخْذُ نَوَالِ بَعْضِ القَوْمِ ذَامُّ

فالمراد بالأهل الأول سكان القرية؛ لأنهم أول من يقع عليهم النظر؛ والثاني أمراؤها؛ لأنهم الذين يقصدهم أهل السفر؛ ولا يُغَبِّر على شيء منه ما جاء في حديث مسلم من قوله: «فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً فطافا في المجلس فـ ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾» إذ الأمر يخرج فيه عما قررنا؛ من وقوع نظرهما في البدء كالمعتاد على السفلة والسوقة؛ ثم طافا على مجالس الأمراء متعرضين لضيافتهم؛ بما لهم من شارة الكرامة وعليهم من هيئة السفر؛ ولو كان الاستطعام بهيئة السؤال؛ لكان الجواب: فلم يعطوهما أو نحوه؛ ولا يُشْكِلْ تعدد مجالس الأمراء لأنهم كثير؛ وكذلك يكونون؛ كل أمير في نادٍ مع حاشيته.

وقولهم: إذا أعيد المذكور أولاً مَعْرِفَةً؛ كان عينُ الأوَّلِ غيرَ مُطَّرَح؛ ألا ترى إلى الإحسان الثاني من قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[٢] فإنه غير الأول قطعاً؛ وبهذا يندفع الاستشكال ومنع الظاهر؛ وهو الأهل ثانياً موضع

(١) المعنى: إنما يجود الجواد ليحصل له العلو والشرف بالجود، وأنت تشرف من تعطيه بعطائك فالآخذ منك يكسب الآخذ شرفاً.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

الضمير؛ لأنَّ الأهل الثاني غير الأهل الأول على ما قررناه. ولئن كان الاستخدام جائزاً هنا؛ فإنه لا موضع له ولا رونق؛ لأنَّ الأنواع البديعية لا تُرَاعَى إلّا بعد نصوع المعنى؛ ولا حاجة إليه مع خشية الإبهام.

وقد تخبط الإمام السبكي في هذا الموضوع؛ وسُرَّ من نفسه مع ذلك؛ وتكلم فيه غيره وأخطأ التوفيق، والصواب إن شاء الله ما قلناه؛ فبه تنحل العقد لفظاً ومعنى، ويتأكد ذلك بأن المِنَّةَ في إقامة الجدار لا تعم أهل القرية؛ وإنما تختص بالغلامين ومن يتولاهم؛ فهي إذاً كالنَّصِ في تعيين الأمراء ومن في معناهم لأنهم أولياء اليتيمين.

وفي رواية: إن الخضر قال لموسى: نسيت نفسك إذ سقيت لبنات شعيب احتساباً؛ ونقول لا سواء؛ فما فعل موسى بآل شعيب كان في موضعه؛ لأنهم كرام؛ وما صار من الخضر لم يصادف مكانه؛ لولا النكتة لأنهم لئام[١]. وما أظن أحداً يتوقف عن قبول هذا الجواب بعد إزالة الشبهة وإنارة الحجة؛ ووضوح أنه الطريق المَهْيَعْ[٢]؛ فلقد كان أجِّلاء الصحابة وفي مقدمتهم سيدا شباب أهل الجنة ينتجعون معاوية لما لهم من الحق في يديه؛ ثم كان كثير من المهاجرين والأنصار؛ وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب؛ يضربون آباط الإبل إلى سدة يزيد بن معاوية يطلبون ما لهم من الأرزاق في بيت المال. وقال ذو الرِّمَّة:

وَمَا كَانَ مَالِي مِنْ تُرَاثٍ وَرِثْتُهُ ... وَلا دِيَةٌ كَانَتْ وَلا كَسْبَ مَأْثَمِ

وَلَكِنْ عَطَاءَ اللّهِ مِنْ كُلِّ رِحْلَةٍ ... إِلَى كُلِّ مَحْجُوبِ السَّرادِقِ خَضْرَمِ

وقال بشار:

وإنِّي لَنَهَّاضُ اليَدَيْنِ إلَى العُلى ... قَرُوعٌ لأبْوَابِ الهُمَامِ المُتَوَّجِ

(١) أهل القرية لئآم لأنهم لم يستضيفوهما رغم إقامتهم الجدار.

(٢) المهيع من الطرق: البيِّن.

■ لطيفة:

ذكروا أنه لم ينل موسى تعب ولا حاجة إلى الطعام عندما توجه لميقات ربه؛ وأحس بالجوع في سيره إلى مدين؛ وهنا كذلك لم يَمَسُّه الجوع والنصب حتى جاوز المكان الذي أُمِرَ به؛ فلم يمسه ألم في جهة القصد إلى الحق؛ وإنما مَسَّهُ في غير جهته؛ فتألم من غير تسخيط للمقدور؛ وقال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[1]؛ وأقول: إنَّ ذلك معقول المعنى؛ ظاهر العلة؛ فالساعي بفرح في طريق الظفر وسبيل النجاح لا يحس بالألم؛ ولا يتأثر بالفاقة؛ ولا يجد مَسّاً للتعب؛ ولا جهداً من السعي.

وَتَحَمُّلُ المَكْرُوه لَيْسَ بِضَائِرٍ مَا خِلْتُهُ سَبَباً إِلَى مَحْمُودِ

وذلك أن الروح تشترك مع الجسم في رفع الأثقال وتحمل الأتعاب؛ فهو معروف من أحوال الناس؛ ويشاهد في جاري عاداتهم؛ بل ربما يتجاوزهم إلى البهائم؛ لما عندها من الشعور؛ فهذه الإبل على غلظ أكبادها؛ تقطع المسافات الشاسعة بالأحمال الثقيلة في الأوقات القصيرة؛ إذا استهواها الغناء وأطربها الحداء. ولقد مرَّ بي وأظنه في الأحياء؛ أنَّ بعضهم كان له عبدٌ حسن الصوت؛ حدا بإبله فطوت مسافة ثلاثة أيام في ليلة؛ فحبسه ثم أطلقه بشفاعة ضيف نزل به.

■ وهاهنا مسألة:

فقد رُوِيَ عن بعض من نُجِلّهُمْ أنَّه قال: أوتيت علم الخضر؛ أخرق السفينة؛ وأقيم الجدار؛ وأقطع رأس الغلام! فقلنا: أما السفينة والجدار فنعم؛ إذ لا محظور فيهما ولا افتيات على الشريعة بهما؛ وغاية الثاني بظاهره؛ إحسان في غير محلِّه يدرك بالفراسة أو بالكياسة؛ وأما الأول فقد صرح الفقهاء بمثله؛ وأما

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٢.

قطع رأس الغلام؛ فمن دونه خرط القتاد[١]؛ وشيب الغراب؛ وعود اللبن في الضرع؛ إذ لا يتأتّى غير الإلهام وليس بحجة في الشرع؛ فقد نقل العلامة ابن حجر الهيتمي إجماع الأمة على عدم العمل به في الأحكام الشرعية؛ قال: وصرَّح به حتّى شُرَّاح المنهاج[٢] في أوائل الطهارة اهـ.

وما خضع له اليافعي[٣] من القول فيه؛ بالغ العلماء في ردِّه وإنكاره؛ ومنهم العلامة ابن حجر في باب الردَّة من شرحه على المنهاج؛ فإن أشكل قوله تعالى: ﴿. . . تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٤] قلنا في الجواب: إنَّه مخصوص بما عند الموت كما قاله السدِّي ومجاهد ويشهد له السياق؛ أو مُفَسَّرْ بالإلهام كما قيل؛ فهم كالقسيم[٥] لقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ فيكون من بيان لمَّة الملك ولمَّة الشيطان؛ ثم إن ما في الآية مخصوص بالتامين وهو مما لا مدخل فيه للتشريع وإنما يمتنع فيما كان من بابه إذ لا ثقة بخواطر غير المعصوم كما تكرر.

---

(١) القَتادُ: نبات صلب له شوك كالإبَر من الفصيلة القرنية، ومنه يستخرج أجود الصمغ. وخرَّط ورقَ الشَّجر: حتّه عن أغصانه.
وفي المثل: «مِن دونه خَرْطُ القتَاد»: يُضرب للشيءِ لا يُنال إلّا بمشقة عظيمة.

(٢) كتاب الإمام النووي الفقهي منهاج الطالبين.

(٣) عبد الله بن أسعد اليافعي عالم ومؤرخ وفقيه وشاعر وعابد وزاهد ولد بعدن سنة ٦٩٨هـ ونشأ وتعلم بها ثم حج وزار فلسطين وأقام بها فترة ثم زار مصر واتصل بعلمائها ثم رجع وأقام بمكة وجاور بالمدينة وزار حضرموت واتصل بعلمائها وساداتها وله مصنفات مشهورة منها روض الرياحين في مناقب الصالحين و«نشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية» و«مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان» وكانت وفاته بمكة المكرمة سنة ٧٦٨هـ، ودفن بمقبرة المعلاة، بجوار قبر الفضيل بن عياض.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٥) القسيم: من يقاسم غيره شيئاً.

وقال الشعراني[١]: زلّ في هذا الباب خلق كثير فضلُّوا وأضَلُّوا؛ ولنا في ذلك مؤلف سميته حدّ الحسام في عنق من أطلق إيجاب العمل بالإلهام؛ وهو مجلد لطيف (انتهى). وفي التسمية ما فيها من الإيهام؛ وخير من ذلك ما نقله عن ابن عربي من قوله: اعلم أننا لا نعني بملك الإلهام حيث أطلقناه إلّا الدقائق الممتدة من الأرواح الملكية؛ لا نفس الملائكة؛ فإن المَلَكَ لا ينزل بوحي على غير قلب نبي أصلاً؛ ولا يأمر بأمر إلهي جملة واحدة؛ فإن الشريعة قد استقرَّت وتبين الفرض والواجب وغيرهما؛ فانقطع الأمر الإلهي بانقطاع النبوة والرسالة؛ وما بقي أحد يأمره الله تعالى بأمر يكون شرعاً مستقلاً يتعبد به أبداً؛ لأنه إن أمره بأمر مفروض كان الشارع قد أمر به؛ وإن أمره بمباح فلا يخلو أن يكون ذلك المباح المأمور به صار واجباً أو مندوباً في حقِّه؛ فهذا عين نسخ الشرع الذي هو عليه؛ وإن أبقاه مباحاً كما كان؛ فأيُّ فائدة للأمر الذي جاء به مَلَكُ الإلهام لهذا المُدَّعِي؛ فإن قال: أمرني الله بلا واسطة؛ قلنا: تلبيس من النفس اهـ.

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني[٢] قدَّس الله سره: لا يستمد جميع الأولياء إلّا من كلام الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؛ ولا يعملون إلّا بظاهرهما. وقال الجنيد[٣] قدس سره: الطرق كلها مسدودة إلّا على من اقتفى أثر الرسول عليه

(١) أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (٨٩٨ ـ ٩٧٣هـ) العالم الزاهد الفقيه المحدث الشافعي الصوفي ويسميه الصوفية بالقطب الرباني له العديد من المؤلفات من أشهرها كتاب لطائف المنن.

(٢) عالم وصوفي وفقيه برع في عدة علوم أقام وتعلم في بغداد وعاش في فترة اضطراب الخلافة العباسية ومهاجمة الصليبيين لثغور المسلمين وكان له تأثير عظيم على السامعين واهتدى به كثير من الخلائق؛ التقى بالإمام الغزالي وتأثر به وله عدة مؤلفات وكان شيخ الشافعية والحنابلة ببغداد وتوفي ببغداد سنة ٥٦١هـ.

(٣) أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري من أعلام التصوف السني ومن علماء أهل السنة والجماعة ولد ونشأ في بغداد وأصله من نهاوند درس الفقه على أبي ثور وكان يفتي في حلقته وهو ابن عشرين سنة واشتهر بصحبة خاله السري السقطي وتوفي سنة ٢٩٧هـ.

الصلاة والسلام، وقال أيضاً: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا العلم؛ لأنَّ علمنا مقيَّد بالكتاب والسنة.

وقال السري السقطي[1]: من ادَّعَى باطن علم ينقضه ظاهر فهو باطل. وقال الغزالي[2]: من زعم أن له مع الله حالاً أسقط عنه نحو الصلاة أو تحريم الخمر وجب قتله؛ وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر؛ وقتل مثله أفضل من قتل مائة كافر لأن ضرره أكثر اهـ. وكتب عليه ابن حجر[3]: لا نظر في خلوده في النار؛ لأنه مرتد لاستحلاله ما عُلِمَتْ حرمته؛ أو نفيه وجوب ما علم وجوبه بالضرورة؛ ومن ثم جزم في الأنوار[4] بخلوده اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر[5]: ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة؛ فقالوا: إنه يستفاد من قصة الخضر وموسى أنَّ الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأنبياء، وأما الأولياء والخواص فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص؛ إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم؛ ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار؛ فتتجلى لهم

(١) أبو الحسن سري السقطي أحد علماء السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني إمام البغداديين وشيخهم في وقته تتلمذ على معروف الكرخي وهو خال الجنيد وأستاذه؛ توفي ببغداد سنة ٢٥١هـ.

(٢) الإمام أبو حامد الغزالي مجدّد علوم الإسلام (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ) كان فقيهاً وأصولياً وفيلسوفاً صوفي الطريقة شافعي المذهب أشعري الطريقة وهو من مؤسسي الطريقة الأشعرية في علم الكلام ويلقب بحجة الإسلام وله عدة مؤلفات من أشهرها إحياء علوم الدين.

(٣) شهاب الدين أحمد بن محمد الهيتمي (٩٠٩ ـ ٩٧٣هـ) إمام في الفقه الشافعي ومتصوف ولد في مصر ثم أقام بمكة يفتي ويعلم وتوفي بمكة له عدة مؤلفات أشهرها تحفة المحتاج بشرح المنهاج.

(٤) كتاب الأنوار لأعمال الأبرار؛ في الفقه الشافعي للعلامة يوسف الأردبيلي.

(٥) ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ) المصري المولد الشافعي المذهب والملقب أمير المؤمنين في الحديث له رحلات إلى الشام والحجاز واليمن ومن أشهر مؤلفاته فتح الباري في شرح صحيح البخاري والإصابة في معرفة الصحابة.

العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكائنات؛ ويعلمون الأحكام الجزئيات؛ فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات كما اتفق للخضر؛ فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى؛ ويؤيده الحديث المشهور: «**استفت قلبك وإن أفتوك**». قال القرطبي[1]: وهذا قول زندقة وكفر لأنه إنكار لما علم من الشرائع؛ فإنَّ الله قد أجرى سننه وأنفذ كلمته بأن أحكامه لا تعلم إلّا بواسطة رسله؛ السفراء بينه وبين خلقه؛ المثبتين لشرائعه وأحكامه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ...﴾[2] وقال تعالى: ﴿...ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ...﴾[3] وأمر بطاعتهم والتمسك بما جاؤوا به فإن فيه الهدى؛ وقد حصل العلم اليقين وإجماع السلف على ذلك؛ فمن ادّعَى أنَّ هناك طريقاً أخرى يعرف بها أمر الله ونهيه غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغنى بها عن الرسول؛ فهو كافر يقتل ولا يستتاب.

قال: وهي دعوة تستلزم النبوَّة؛ لأنَّ من قال إنه يأخذ عن قلبه من غير حاجة إلى كتاب ولا سنة فقد ادّعَى لنفسه خاصة النبوَّة كما قال نبينا ﷺ: «**إنَّ روح القدس نفث في روعي**». قال: وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى؛ وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت، وكذا قال آخر: أنا آخذ عن قلبي عن ربي؛ وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع؛ ونسأل الله الهداية والتوفيق. (انتهى بحذف يسير). ولا مناقشة؛ إلّا في قوله: يستغنى بها عن الرسول؛ فإنه لا حاجة لعموم هذا القيد؛ بل متى افتات على الشريعة؛ ولو في حكم واحدٍ؛ قُضِيَ بِرِدَّتِهِ كما يعلم مما سبق؛ وإلّا في قوله: لا يستتاب؛ فإنه مبنيٌّ على عدم قبول توبة الزنديق؛ لأنه لا يوثق بها؛ ولكن الأصح خلافه.

---

(١) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح كنيته أبو عبد الله ولد بقرطبة وتعلم فيها ثم انتقل إلى مصر واستقر بها وتوفي سنة ٦٧١هـ ويعتبر من كبار المفسرين وكان فقيهاً ومحدثاً ورعاً وزاهداً متعبداً.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

وفي البخاري؛ قال النبي ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يُفَقِّهُ في الدين**»[١] «**وإنما العلم بالتعلم**» ونحن لا ننكر علوم المكاشفة؛ وقد قررنا في الفائدة السادسة ما يعرف منه؛ أنَّ المجاهدة يتبعها انكشاف الحجاب والارتفاع عن عالم الحس؛ وكلما زاد الارتياض تزيدت النفس في الإشراف على ما وراء المادة من أمر الله؛ إلى أن يتم لها القيام بذاتها؛ وتقرب حقيقتها من الملأ الأعلى؛ فتتعرض للمواهب الربانية والفتوحات الإلهية والعلوم الدينية؛ وتدرك من حقائق الوجود وكنوز التوحيد ونخبات الإيمان وأسرار الشريعة؛ ما يثمر لها المحبة والرضاء والشوق والتوكل وما أشبه ذلك؛ من دون أن تزيد في التشريع؛ أو تعارض حكماً مقرراً؛ أو تُقيِّد مطلقاً؛ أو تَخُصَّ عامّاً؛ فإنَّ ذلك ما لا سبيل إليه إلّا بعلوم الشريعة المكتسبة بالتعلُّم. وقد تُلِمّ في طريقها ببعض الحوادث قبل وقوعها؛ وقد تُعْطَى قوة بالتصرف في الموجودات السفلية؛ ولكن أهل الرسوخ يعدُّونه من القصور والانحطاط والفتنة والامتحان؛ ويهربون عنه؛ ويعوذون بالله منه؛ إذ لا كرامة إلّا في الاستقامة[٢]؛ وقَلَّمَا وقف سالك مع شيء مما ذكر واعتنى به؛ إلّا ركب ردعه[٣] ورجع أدراجه؛ وانقطع حبله؛ وانتكث فتله؛ وخَرَّ صريعاً لليدين وللفم[٤].

---

(١) جزء من حديث البخاري رقم ٧١ وأخرج الطبراني في المعجم الكبير، وفي مسند الشاميين والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه من طريق عُتْبَة بن أَبِي حَكِيم، [عن مكحول] عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عَنْ مُعَاوِيَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْفِقْهُ بِالتَّفَقُّهِ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**».

(٢) يتفق كلام الإمام هنا مع ما ذكره ابن خلدون في مقدمته في مبحث علم التصوف حيث قال: ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها إلى آخره....

(٣) ركب ردعه: أي خرّ لوجهه على الأرض.

(٤) المعنى خرّ صريعاً على وجهه ويديه قال الشاعر:

هتكت له بالرمح جيب قميصه   فخرّ صريعاً لليدين وللفم

وقد أجابوا عن صنيع الخضر بأجوبة **منها**: أنه نبي؛ **ومنها**: احتمالات أن يكون الإلهام حجة إذ ذاك؛ **ومنها**: كثرة الأنبياء في زمانه؛ واحتمال إخبار أحدهم له؛ **ومنها**: أنَّ كثرة القرائن قد تفضي إلى اليقين؛ بل الظن المؤكد؛ وهو من طرائق الأحكام؛ وهذا غير مرضي هنا؛ لأنَّ قتل النفس لا يكون بمثل ذلك؛ وأولاها بالقبول أنه وحي؛ لأنَّ الله يقول: ﴿. . ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[1] فهو لم يقتل الصبي إلّا عن علم الله؛ والعلم هو حكم الذهن الجازم الذي لا يقبل التغير؛ ولن يكون إلّا عن حقيقة الوحي؛ فالأمر ظاهر لا يحتاج إلى شيء من التأويل؛ وإنما أطلت في هذا؛ لتطلع ضباب القرمطة عندنا من أحجارها؛ وبدء بعض من يريد أن يتفضَّل على أهل العلم بانتحال الكشف والولاية؛ وادِّعاء تلك الحال الممقوتة؛ ولولا تضحيتي بالجاه والنفيس؛ لاستفحل أمرهم وجرى منهم مثل ما جرى من الضالعي في يافع؛ بدليل أنهم يحبذونه ويكاتبونه؛ ولكني وقفت لهم مصعد النفس؛ وأخذت من ضلالتهم بالمخنق؛ وأنا وحدي؛ واستعنت عليهم بالتدريس في الشمائل النبوية؛ مع الإنكار لما لا بأس به؛ حسبما رأيت من كلام الصوفية والفلاسفة؛ فانقمع بعض الشر؛ وانحسم كثير من الداء؛ ووقف عند حده الغرور؛ ولله الحمد والمنَّة.

■ وفي الحديث:

وجوب التواضع؛ فقد عاتب الله موسى؛ إذ لم يرد العلم إليه؛ وقال الماوردي: أَلَّفْتُ كتاباً حافلاً في البيوع؛ ولمَّا أعجبت به؛ وردني أعرابي بأربعة أسئلة في البيع حِرْتُ في جوابها؛ حتَّى كشفه له أحد تلاميذ تلاميذي؛ فعلمت أنه تنبيهٌ من الله تعالى. وادَّعَى بعضهم الحفظ ولما خرج قال لغلامه: أين نعالي؟ قال: في رجليك؛ فكيف نسيتهما وقد زعمت أنك لا تنسى؟ **وفيه**: التماري لإظهار الحق؛ لأنه لا يظهر إلّا بالبحث؛ **وفيه**: الرغبة من التزيُّد في العلم كما

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٥.

فعل موسى وكما قال نبينا؛ صلى الله وسلم عليهم أجمعين: «**وددت أن لو صبر موسى حتَّى يَقُصَّ علينا من أمرهما**»، وفيه حمل الزاد في السفر؛ خلافاً لما عليه المتصوِّفة؛ أما قول المعرِّي:

وَهَلْ يَدَّخِرُ الضِّرْغَامُ قُوتاً لِيَوْمِهِ إِذَا ادَّخَرَ النَّمْلُ الطَّعَامَ لِعَامِهِ

فإنه نظر إلى الأمر من ناحية. وخير الهدي هدي محمد ﷺ؛ وقد كان يدَّخِرُ لأهله قوت سنتهم؛ ومع ذلك فلم يرفع لقمة إلّا وظنَّ أنه لا يسيغها؛ ولا قدماً إلّا ظنَّ أنه لا يتبعه بالآخر؛ وكذلك كان شُعَيْب في قِصْرِ أمله؛ ولم يمنعه ذلك أن يستأجر موسى ثمان حجج؛ وقال له: إن أتممت عشراً فمن عندك؛ لأنهم صلوات الله عليهم يعطون كل مقام حَدَّهُ، وقد أَلَمَّ المعرِّي في بيته بقول النابغة يتزهَّد:

وَلَسْتُ بِخَابِىءٍ لِغَدٍ طَعَاماً حِذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

وقول جميل بن معمر:

كُلُوا اليَوْمَ مِنْ رِزْقِ الإلهِ وابْشِرُوا فَإنَّ عَلَى مَوْلاكُمُو رِزْقُكُمْ غَدَا

وبيت النابغة موجود أيضاً في شعر أوس بن حجر؛ والله أعلم بالأصح من الروايتين.

وفيه: استحباب الرحلة في طلب العلم؛ وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد؛ واحمد وأبو يعلى في مسنديهما؛ من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل: أنه سمع جابر بن عبد الله[1] يقول: بلغني عن رجل حديثاً سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيراً ثم شددت رحلي فسرت إليه شهراً حتى قدمت من الشام؛ فإذا

---

(١) جابر بن عبد الله بن حزام من بني سلمة الأنصاريين شهد بيعة العقبة وهو صغير وحضر مع الرسول ﷺ سبع عشرة غزوة وكان مفتي المدينة في زمانه وروى الكثير من الأحاديث وشهد صفين مع علي ومات عن أربع وتسعين سنة.

عبد الله بن أنيس[1]؛ فقلت للبواب: قل له جابر على الباب؛ فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم؛ فخرج فاعتنقني؛ فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ فخشيت أن أموت قبل أن أسمعه؛ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الله الناس يوم القيامة عُرَاةً غُرْلاً بُهْماً فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدْ كما يسمعه مَنْ قَرُبْ: أنا الملك أنا الديَّان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمةٍ حتى يقتصَّ منه؛ حتى اللطمة**»؛ قال: وكيف وإنما نأتي عراة غرلاً؟ قال: «**بالحسنات والسيئات**»[2].

وأخرج الحاكم أن أبا أيوب الأنصاري[3] رحل إلى مصر؛ فنزل على أميرها سلمة بن مخلد الأنصاري وقال له: أرسل معي إلى عقبة بن عمر فذهب إليه؛ فلما سمع به عقبة: خرج وعانقه ثم قال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ قال: حديث سمعته أنا وأنت من رسول الله ﷺ ليس معنا أحد؛ هل تذكره؟ قال عقبة: نعم؛ سمعته يقول: «**من اطَّلَع من أخيه على عورة ثم سترها جعلها الله له يوم القيامة حجاباً من النار**»؛ فكبّر أبو أيوب وقال: لهذا ارتحلت من المدينة؛ ثم انصرف إلى راحلته فركبها إلى المدينة اهـ، وفيها ألفاظ وروايات متداخلة؛ وحاصلها هذا المعنى.

---

(١) صحابي جليل كان ممن بايع النبي ﷺ في العقبة وهو الذي قتل خالد بن سفيان زعيم هذيل عندما جمع اليهود لمهاجمة المدينة فطلب منه الرسول ﷺ قتله لتفريق جموعه كما قتل زعيم اليهود بخيبر أبا رافع بطلب من الرسول ﷺ وأبدى عبد الله بن أنيس ﷺ بطولات خارقة.

(٢) بهماً: أي ليس معهم شيء وغرلاً أي غير مختونين وذلك كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي كما كانوا في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلاً كذا نعيدهم يوم القيامة لخلقهم الأول.

(٣) أبو أيوب الأنصاري صحابي جليل من الخزرج وكان ممن بايع الرسول ﷺ في العقبة وشهد بدراً وأُحداً وكافة المشاهد مع النبي ﷺ ولم يترك الجهاد إلّا عاماً واحداً حين لم يقتنع بأمير الجيش ثم ندم ولم يترك الجهاد ومات في القسطنطينية مجاهداً وعمره يناهز التسعين وقبره هناك معروف وكان مع الإمام علي في الجمل وصفين وقد نزل النبي ﷺ ببيته لما قدم المدينة مهاجراً.

وروى الخطيب عن عبيد الله بن عدي[١] قال: بلغني حديث عند علي؛ فخفت إن مات أن لا أجده عند غيره؛ فرحلت حتى قدمت عليه العراق. وقال عبدان الأهوازي[٢] المتوفى سنة ٣٠٦ عن أربعة وتسعين عاماً: قدمت البصرة ثمان عشرة مرة من أجل حديث أيوب السختياني؛ كلما ذُكِرَ لي حديثٌ عنه رحلت إليه بسببه.

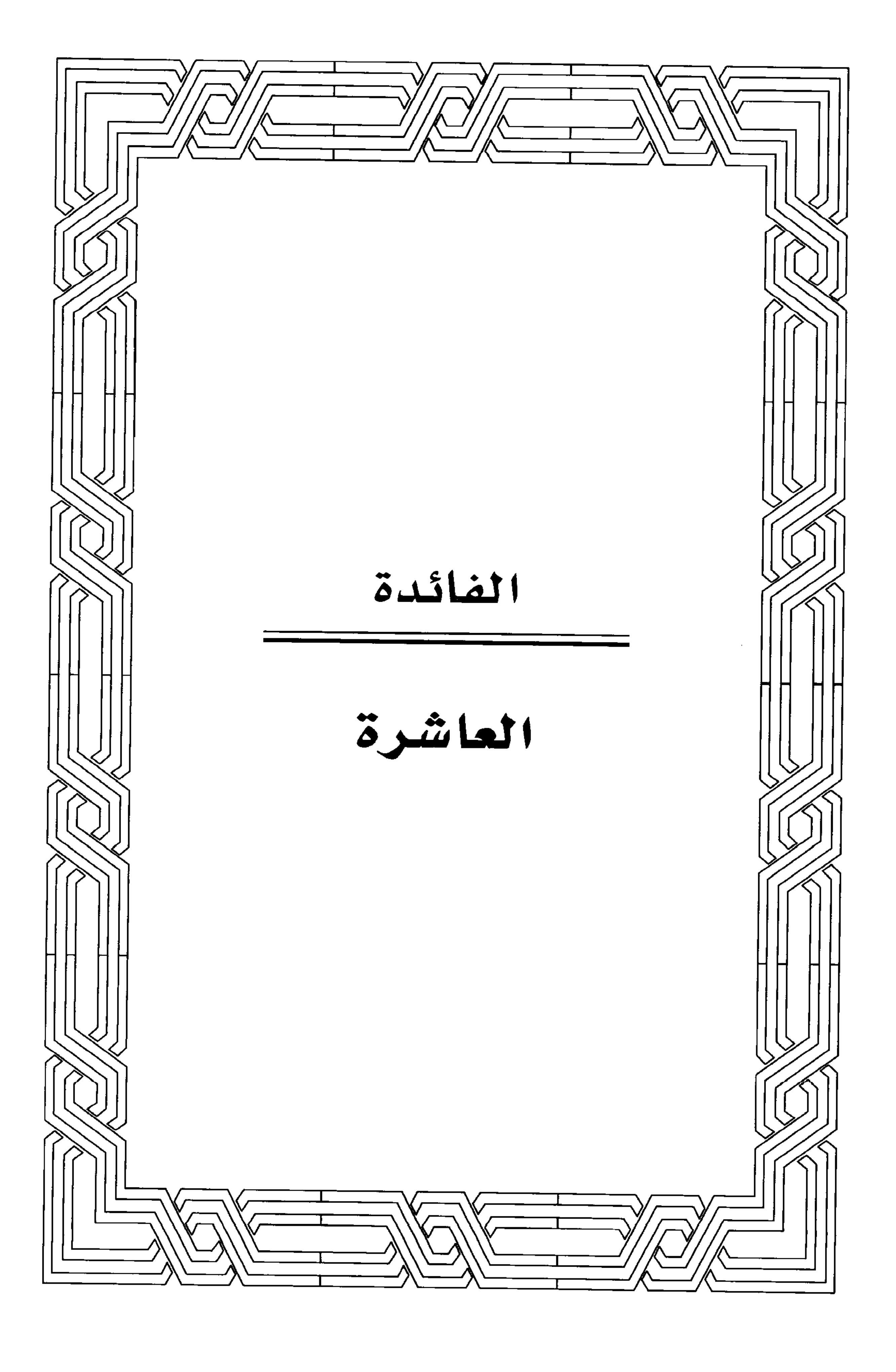
ومنه؛ ومما لا يحصى كثرة من أمثاله؛ يُعْرَفُ قدر العلم بين الناس إذ ذاك؛ أما اليوم فقد سكنت الريح وانطفأت المصابيح.

كَأنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحُجُونِ إلَى الصَّفَا أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ



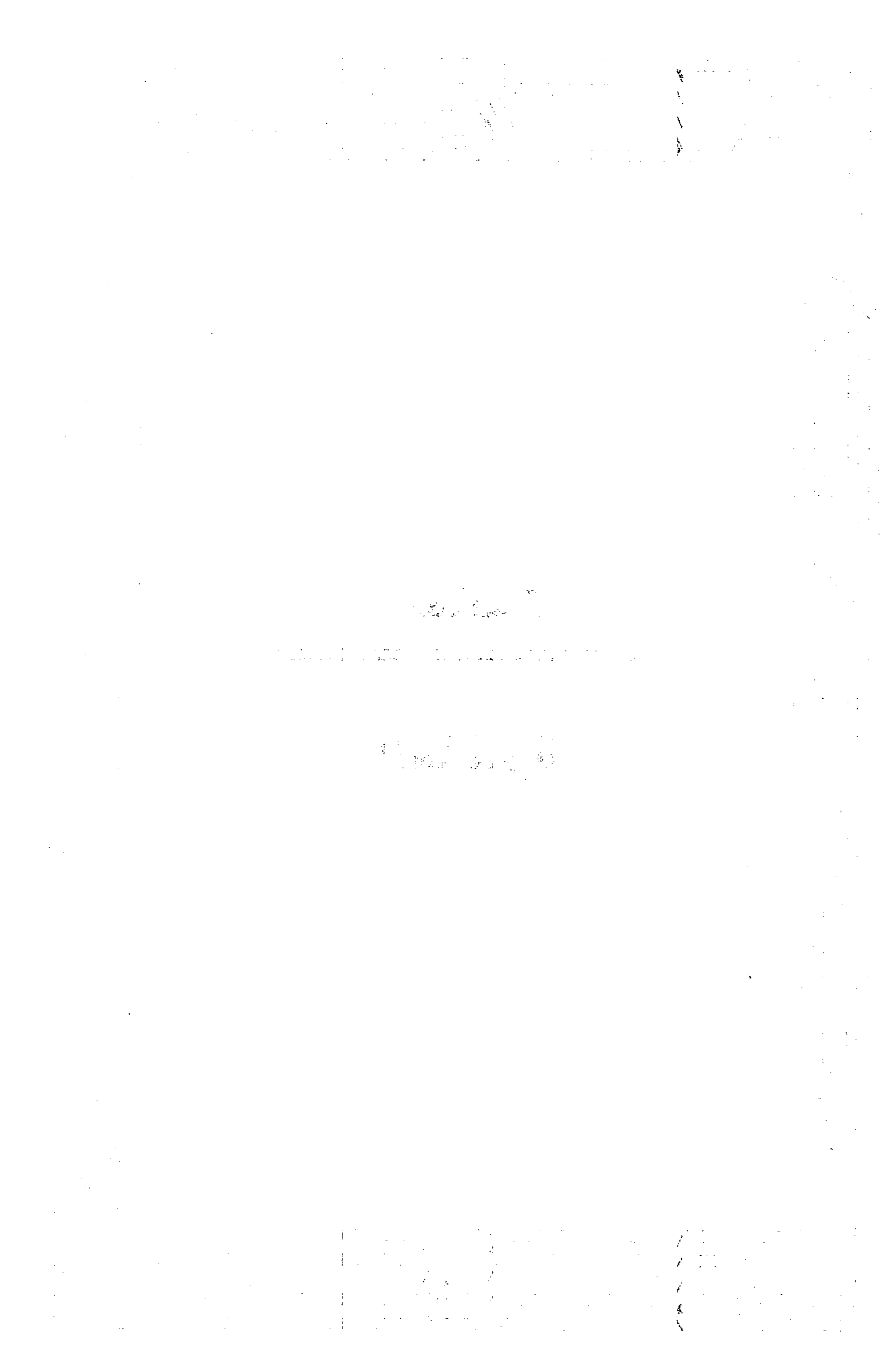
(١) ولد في حياة النبي ﷺ ومات في خلافة الوليد بن عبد الملك.

(٢) من أئمة الحديث كان يحفظ مائة ألف حديث وله مصنفات وعاش بالأهواز.



الفائدة

العاشرة



الفائدة العاشرة

جاء في حديث عائشة أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما ثقل واشتد به وجعه؛ استأذن أزواجه أن يُمَرَّضَ في بيتي فأذِنَّ له؛ فخرج النبي ﷺ بين رجلين؛ تخط رجلاه في الأرض؛ بين العباس ورجل آخر. وقد صحَّ أن الرجل الذي لم تسمِّهِ عائشة هو علي بن أبي طالب؛ فلماذا لم تسمِّه؟ أطال بعضهم في الجواب بما لا يشفي ولا توضع عليه اليد؛ والصحيح أن السبب؛ هو ما زاده الإسماعيلي من رواية عبد الرازق عن معمر؛ أنه قال: ولكن عائشة لا تطيب نفساً له بخير؛ وقال ابن إسحاق في المغازي عن الزهري: ولكن عائشة لا تقدر أن تذكره بخير؛ ذكره الحافظ وغيره.

وفيه ما لا نزال نكرره من حين إلى آخر؛ أنَّ الصحابة رضوان الله عليهم بشرٌ مثل الناس؛ إلّا أنهم فضلوهم بإيمان جرى في عروقهم مجرى الدم؛ حتى باعوا لله أنفسهم وأموالهم؛ ولا يضر ما شجر بينهم من التخاصم والتنازع؛ لأنهم لو لم يكونوا كذلك لصاروا ملائكة. وأخرج ابن قتيبة عن هشام بن الحكم قال: أراد بعضهم أنْ يُقرِّرَنِي بأنَّ عَلِيّاً ظالم؛ فقال لي؛ عند بعض الولاة العباسيين: إنَّ عَليّاً نازع العباس إلى أبي بكر؛ فمن منهما الظالم؟ فتوقفت؛ ثم قلت: ليس منهما ظالم؛ قال: فيختصم اثنان في أمرٍ وهما مُحِقَّانِ معاً؟ قلت: قد اختصم المَلَكَان إلى داود وليس فيهما ظالم؛ وإنما جاءا لينبِّهاه[1].

---

(١) يشير إلى الآية: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ =

ومن أعجب ما نحن بطريقه؛ ما ذكره غير واحد؛ أنَّ أبا بكر لما فرغ من عهده لعمر؛ دخل عليه قوم من الصحابة فيهم طلحة؛ فقال له: ما أنت قائل لربِّك غداً؛ وقد وَلَّيْتَ علينا فظّاً غليظاً تَفْرَقُ منه النفوس؛ وتنفضُّ عنه القلوب؛ وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه؛ فكيف به إذا خلا بهم؟؛ فقال أبو بكر: أجلسوني؛ ثم قال: أبالله تخوِّفني؟ إذا سألني ربِّي قلت: ولَّيت عليهم خيرهم؛ فقال طلحة: أعمر خير الناس؟ فاشتدَّ غضبه؛ وقال: إي والله؛ هو خيرهم وأنت شرُّهم؛ أما والله لو وليتك لجعلت أنفك في قفاك؛ ولرفعت نفسك فوق قدرها؛ حتَّى يكون الله هو الذي يضعها؛ أتيتني وقد دلكت عينيك تريد أن تفتنني عن ديني؛ وتزيلني عن رأيي؛ قم لا أقام الله رجليك.

وما أخرجه ابن عبد البر بسنده إلى ابن عباس قال: بينما أنا أمشي مع عمر يوماً؛ إذ تنفس نفساً ظننت أنه قد قبضت أضلاعه؛ فقلت: سبحان الله؛ ما أخرج هذا منك يا أمير المؤمنين إلّا أمرٌ عظيم؟ فقال: ويحك يا بن عباس؛ ما أدري ما أصنع بأمة محمد ﷺ! قلت: وَلِمَ وأنت بحمد الله قادر على أن تضع ذلك مكان الثقة؛ قال: إنِّي أراك تقول: إن صاحبك أولى الناس بها؛ يعني عليّاً رضي الله عنه؛ قلت: أجل؛ والله إني لأقول ذلك في سابقته وعلمه وقرابته وصهره؛ قال: إنه لكما ذكرت؛ لكنه كثير الدعابة، فقلت: فعثمان؛ قال: والله لو فعلت لجعل بني أبي معيط على رقاب الناس يعملون فيهم بمعصية الله؛ والله لو فعلت لفعل؛ ولو فعل لفعلوه ووثبوا عليه فقتلوه، فقلت: طلحة بن عبيد الله؛ قال: الأكيسع؛ هو أزهى من ذلك؛ ما كان الله ليراني أوليه أمر أمة محمد ﷺ وهو على ما هو عليه من الزهو، قلت: الزبير بن العوام؛ قال: إذاً يلاطم الناس في الصاع والمد؛ قلت: سعد بن أبي وقاص؛ قال: ليس بصاحب ذاك؛ ذاك صاحب منقب يقاتل به؛ قلت: فعبد الرحمن بن عوف؛ قال: نِعْمَ الرجل كما ذكرت ولكنه ضعيف عن

= بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٢ ـ ٢٣].

ذلك؛ والله يا بن عباس ما يصلح لهذا الأمر إلّا القويُّ في غير عنف؛ اللّيِّن في غير ضعف؛ الجواد في غير سرف؛ الممسك في غير بخل؛ قال ابن عباس: كان والله عمر كذلك.

والشاهد أن عمر لم يترك واحداً من الستة الذين قالوا: إنَّ النبي ﷺ توفي وهو عنهم راض إلّا رماه بداهية؛ أدناها ضعف الإرادة ووهاء العقدة؛ وربما كان اقتصاره على الدعابة في حق علي كرم الله وجهه لمكان ابن عباس منه؛ وإلّا لزاد الزهو عليه؛ فقد طعن به بعض أعدائه عليه؛ والذي ينقدح ببالي في سرِّ الشورى؛ هو أنَّ ابن الخطاب رضوان الله عليه لا يريد أن يتحمل التبعة في صرفها عن علي؛ فحاول التخلص بالشورى، وما ذاك إلّا لنوع انحراف عنه؛ مع اعتقاد بالاستحقاق؛ والله أعلم، وإذا كان هؤلاء بمدرجة الأهوية؛ ومعترك الأغراض البشرية؛ فما بالك بغيرهم[1].

وجاء في الصحيح عن أبي المنهال قال: لما كان ابن زياد ومروان بالشام؛ ووثب ابن الزبير بمكة؛ ووثب القراء بالبصرة؛ انطلقت مع أبي إلى أبي بَرْزَة الأسلمي[2] حتى دخلنا عليه في داره؛ وهو جالس في ظل عليّةٍ له من قصب؛ فجلسنا إليه وأنشأ أبي يستطعمه الحديث؛ وقال: يا أبا برزة ألا ترى إلى ما وقع فيه الناس؟ فأول شيء سمعته يقول: إنِّي احتسبت عند الله أني أصبحت ساخطاً على أحياء قريش؛ إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذِّلّةِ

---

(١) يعتقد المحقق أن من لطف الله بالمسلمين وحفظه لدين الإسلام أن آلت الخلافة إلى سيدنا عثمان فاستقرت الدولة الإسلامية اثنتي عشرة سنة توطدت فيها دولة الإسلام وانتشرت في بقاع الأرض ولربما لو تسلم الخلافة سيدنا علي وهو أيضاً يستحقها لكن أعداءه ومبغضيه كُثُر ولن يتركوا خلافته تستقر ولبدأت الفتنة مبكراً والإسلام لا زال غضاً والعرب قريبو عهد بكفر ولا يعرف مدى الضرر بحصول الفتنة في مثل ذلك الوقت إلّا الله تعالى.

(٢) صحابي جليل أسلم قديماً وحضر فتح مكة وهو الذي قتل عبد العزى بن خطل تحت أستار الكعبة بإذن النبي ﷺ سكن البصرة ويقال إنه شهد صفين مع علي وتوفي سنة أربع وستين واختلف في مكان وفاته.

والقِّلَةِ والضلالة؛ وإنَّ الله أنقذكم بالإسلام وبمحمد ﷺ؛ حتى بلغ ما ترون؛ وهذه الدنيا التي أفسدت بينكم؛ إنَّ ذاك الذي بالشام إن يقاتل إلّا على الدنيا؛ وإن ذاك الذي بمكة والله إن يقاتل إلّا على الدنيا؛ وإن هؤلاء الذين بين أظهركم؛ والله إن يقاتلون إلّا على الدنيا؛ والذي بالشام هو مروان؛ والذي بمكة هو ابن الزبير؛ والذين بالبصرة هم طائفة يسمون أنفسهم التَّوابين لتوبتهم عن خذلان الحسين والتخلف عنه؛ وكان أميرهم سليمان بن صرد[١] فاضلاً قارئاً عابداً.

والشاهد في يمين أبي برزة على نيّةِ ابن الزبير وهو من لا ينكر فضله؛ وذكر غير واحد أنَّ ابن الزبير توسل بأخت المختار بن أبي عبيد؛ إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب وكانت تحته؛ في أن يبايعه؛ فكلمته وذكرت من صلاته وصيامه ما شاء الله أن تذكر؛ فقال لها: أما رأيت البغلات الشهب التي كنا نراها بالحجر تحت معاوية إذ قدم مكة؟ قالت: بلى؛ قال: فإيَّاها يريد ابن الزبير بصومه وصلاته اهـ.

فلا يعظم عليك شيء من أمثال ذلك؛ فإنهم غير معصومين؛ ولكن تسرع نيتهم إلى الصواب؛ ألا ترى ما جاء في حديث مسلم عن عائشة: أنَّ أزواج النبي ﷺ ورضي عنهن؛ أرسلن إليه بالآخرة زينب ابنة جحش؛ قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني في المنزلة عند النبي ﷺ؛ ولم أرَ قط امرأةً خيراً في الدين من زينب؛ وأتقى له وأصدق حديثاً؛ وأوصل للرحم؛ وأعظم صدقة؛ وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتتقرب به إلى الله؛ ما عدا سَوْرَةَ حِدَّةٍ فيها؛ كانت تسرع منها الفيئة إلى آخره. . . ففي الخبر طول وهذا موضع الشاهد.

وإلى ما أخرجه ابن عبد البر بسنده إلى جميع بن عمير قال: دخلت على عائشة فسألتها أيُّ الناس كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمة؛ قلت:

---

(١) صحابي ولد باليمن سالم واشترك في غزوة الخندق وغيرها وناصر الإمام علي وشاركه في كل حروبه استوطن الكوفة ودعا الحسين للعراق ولكن عبيد الله بن زياد حبسه حتى قتل الحسين فأطلقه؛ وأسس الحركة المساندة للحسين.

فمن الرجال؟ قالت: زوجها؛ إن كان ما علمته صَوَّاماً قَوَّاماً. وأخرج النسائي وأحمد وأبو داود بسند صحيح عن النعمان بن بشير قال: استأذن أبو بكر على النبي ﷺ؛ فسمع صوت عائشة عالياً وهي تقول: والله لقد علمت أنَّ علياً أحبُّ إليك من أبي. وأخرج الحاكم عن عائشة؛ قالت: دعتني أمُّ حبيبة عند موتها؛ فقالت: قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر؛ فغفر الله ذلك كلّه وتجاوز؛ وحللتك من ذلك كُلِّه؛ فقالت عائشة: سررتني سرَّك الله. وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك؛ وتوفيت سنة أربع وأربعين في إمارة معاوية.

وذكر غير واحد: أنَّ عائشة أرادت أن تدخل على فاطمة بعدما فاضت؛ فمنعتها أسماء بنت عميس[1]؛ فاشتكت إلى أبي بكر؛ فوقف على الباب وقال: يا أسماء ما حملك على أن منعت أزواج النبي ﷺ أن يدخلن على بنته؛ وجعلت لها مثل هودج العروس يعني النعش؟ قالت: هي أمرتني أن لا يدخل عليها أحد؛ وأريتها هذا النعش وهي حيَّة؛ فسرّت به وأمرت بحملها فيه؛ قال أبو بكر: فاصنعي ما أمَرَتْكِ ثم انصرف.

ولهم في جانب الهفوات القليلة؛ محاسن كثيرة؛ وفي جانب السيئات الصغيرة؛ حسنات كبيرة؛ ولله درَّ القائل:

وإذَا الحَبِيبُ أتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ... جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِألفِ شَفِيع

وقال أبو الطيِّب:

فَإنْ يَكُنِ الفِعْلَ الذِي سَاءَ وَاحِداً ... فَأفْعَالُهُ اللاتِي سَرَرْنَ أُلُوفُ

ويروى أن عبد الله بن جعفر[2] كان إذا قدم على معاوية؛ أنزله داره وأظهر

---

(١) صحابية كانت زوجة لجعفر بن أبي طالب هاجرت معه إلى الحبشة وهي عروس وأنجبت بها ابنه جعفر وعون ومحمد ثم رجعت إلى المدينة ثم لما استشهد جعفر تزوجها سيدنا أبو بكر وأنجبت لهم محمداً وأوصى أن تغسله بعد وفاته ثم تزوجها بعد وفاته سيدنا علي وأنجبت له يحيى وعون.

(٢) هو عبد الله بن جعفر الطيار بن أبي طالب ولد بالحبشة وأمه أسماء بنت عميس وبايع =

ما يستحقه من بِرِّه وإكرامه؛ فكان ذلك يغيظ؛ فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف؛ زوج معاوية؛ فسمعت ليلة غناء عند عبد الله بن جعفر؛ فجاءت إلى معاوية وقالت: هلمَّ فاسمع في منزل هذا الرجل الذي جعلته بين لحمك ودمك؛ قال فجاء معاوية فسمع وانصرف؛ فلما كان من آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر؛ فجاء إلى فاختة فأنَّبها وقال لها: اسمعي مكان ما أسمعتني. فالخير غالب؛ والفضل قاهر.

فالغيرة معذورة، فلا تلام عائشة فيما سبق؛ فقد بلغت من المنزلة والحظوة لديه ما انقطعت دون أطماع ضرائرها؛ حتَّى إنها لتكتب في إمضائها: من حبيبة رسول الله؛ المبرأة في كتاب الله؛ عائشة بنت أبي بكر؛ وهي في ذلك صادقة غير كاذبة؛ وصائبة غير خاطئة؛ فهي بالطبع تكره أن تزاحم في تلك الرتبة؛ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ولكنه ﷺ ما زال مشغوفاً بآل علي؛ فإذا خرج إلى الصلاة عاج[١] بيت فاطمة وقال: الصلاة أهل البيت؛ وإذا قدم من سفر لم يدخل بيتاً قبل بيت آل علي؛ وإذا سافر كان آخر الناس به عهداً فاطمة. ودعا فاطمة يوم المباهلة؛ وآل علي؛ ولم يدع عائشة؛ وكانت عقيماً؛ وكانت فاطمة ولوداً؛ وقد اتخذ رسول الله ﷺ أولادها أولاداً له، وكل ذلك مما يثير العواطف؛ ويحرك الكوامن؛ ويوحش الخواطر؛ ولا بدّ أن تنفث كل واحدة بما يحوك في صدرها؛ والدواعي متوفرة لنقل الكلام وتوسيع الفتوق.

وقد كان أشعب[٢] يفتخر بأن أمَّه كانت تُحَرِّش بين أزواج النبي ﷺ؛ فقيل له: ويلك وهل في ذلك فخر! قال: وأي افتخار أعظم من هذا! لو لم تكن أمِّي

= النبي ﷺ وهو صبي وشارك عمه أبا طالب في صفين وقتل ولداه مع الحسين في كربلاء وهو زوج السيدة زينب بنت علي وكان كثير الشبه برسول الله ﷺ وكان سريع الجواب حاضر البديهة كريماً جواد سخياً كثير العبادة وقراءة القرآن محبوباً من كل أهل المدينة وكان معاوية يكرمه ويحبه وتوفي بالمدينة سنة ثمانين للهجرة وعمره ثمانون سنة ودفن بالبقيع.

(١) عاج المكان: مال وعطف عليه.

(٢) أشعب ابن أم حميدة ولد سنة تسعٍ للهجرة وكانت أمه تدخل على أزواج النبي ﷺ.

ثقة عندهن لم يقبلن بروايتها في بعضهنَّ بعضاً؛ وزعم بعضهم أنها ماتت في حياته ﷺ بدعائه عليها. ولكن قال الذهبي: لا يصح ووافقه الحافظ. وقد بلغك أنَّ أمَّ حبيبة سمطت[١] كبشاً وبعثت به إلى عائشة إبَّان مقتل محمد بن أبي بكر[٢] وقالت لها: هكذا شُوِيَ أخوك؛ فحلفت أن لا تأكل سميطاً ما عاشت. وذكر ابن قتيبة أنَّ أمَّ أوفى العبدية دخلت على عائشة فقالت: يا أمَّ المؤمنين ما ترين في امرأة قتلت لها ابناً صغيراً؟ قالت: وجبت لها النار. قالت أمُّ أوفى: فما بالك بامرأة قتلت من كبار أولادها عشرين ألفاً! فقالت عائشة: خذوا بيد عَدوَّة الله[٣]. وما كانت أمُّ أوفى لتتعرض لغضبة عائشة؛ إلّا على جُعْلٍ جعل لها من بعض ضرائرها؛ وغالب ظَنِّي أن تكون أمُّ سلمة هي التي حملتها على ذلك. وإذا انتهى بهنَّ الحال إلى ما ذكر؛ فلا بدع في تسقُّط الكلام؛ وتنمية الحديث؛ وإذكاء الشر؛ وبعض ذلك؛ فضلاً عن كله؛ يجعل القطر سيلاً؛ والريح ويلاً؛ ولا سيّما بعد وفاته ﷺ؛ وقد قلَّ التزاور؛ وذهب الاختلاط؛ وفرغ الشغل؛ وجاءت الغنائم؛ وفاضت الأموال؛ وأُكِلَ الطيِّب؛ وَلُبِسَ الناعم؛ ونجمت مضار الترف.

أضف جميع ذلك إلى ما كان ﷺ يُنَوِّهُ به من فضل خديجة؛ ويذكره من مِنَّتِها عليه؛ فقد قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة؛ فيحسن الثناء عليها؛ فذكرها يوماً من الأيام؛ فأدركتني الغيرة؛ فقلت: هل كانت إلّا عجوزاً وقد أبدلك الله خيراً منها؛ فغضب حتَّى اهتز مقدم شعره من الغضب؛ ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها؛ آمنت بي إذ كفر الناس؛ وصدَّقتني إذْ كَذَّبَنِي الناس؛ وواستني في مالها إذ حرمني الناس؛ ورزقني

(١) سمط الذبيحة: أي غمسها في ماء حار أو غيره لإزالة الشعر أو الريش قبل شيّها أو طبخها.

(٢) محمد بن أبي بكر الصديق تربّى في بيت الإمام علي واتهمه بعضهم في المشاركة في دم عثمان وبرأه أكثرهم، شارك مع علي في الجمل وصفين وولي مصر لعلي وقتل فيها وأحرق.

(٣) تشير بذلك إلى موقعة الجمل وذكر هذه القصة الثعالبي في ثمار القلوب صفحة ٢٠٦ طبعة مصر سنة ١٣٢٦هـ.

الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء؛ قالت عائشة: فقلت في نفسي لا أذكرها بسيِّئةٍ أبداً.

وما يقع بين البنت وزوج أبيها من التزاحم لا يخلو منه أحد؛ فالعادة فيه مُطَّرِّدة؛ والسنة ماضية والطبيعة حاكمة؛ والنفرة مألوفة. ومن قريب من ذلك نشأ الخلاف بين علي وعثمان وتحركت عقاربهم؛ وانحلت أواصرهم؛ حتى لقد روي عنه ﷺ أنه قال: «**أعياني أزواج الأخوات أنْ يتحابوا**»[١]. وكذلك جاءت أم كلثوم منصرفهم من أحد تسأل عما فعل عثمان فقال علي: لقد فضح زوجك المسلمين اليوم وذهب بها عريضة[٢]، كذا ذكره أهل السير رضي الله عنهم وأرضاهم[٣]؛ وأسبغ في فراديس الجنة قراهم؛ سائلين من مولانا أن يجمعنا وإياهم وأحبابنا في مستقرِّ الرحمة؛ ومنتهى الكرامة؛ وقرار النعمة؛ ورغد العيش؛ وغاية الحبور.

يَـا رَبِّ وَاجْـمَـعْـنَـا وَأحْـبَـابـاً لَـنَـا ... فِـي دَارِكَ الـفِـرْدَوْسِ أَطْـيَـبَ مَـوْضِـعِ

ثم لا نقول في الصدِّيقة عائشة إلّا ما قال عَمَّار على نُفْرَةٍ منها: إنها زوجته في الآخرة كما هي زوجته في الدنيا[٤]. ولقد أنشدها حسان شعراً؛ فقالت له: لكنك لست كذلك[٥]؛ ومنه:

---

(١) قال الرازي فيما قال عند تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ وقالت فاطمة لعلي: ما فعل عثمان؟ فنقَّصَهُ، فقال النبي ﷺ: «**يا علي أعياني أزواج الأخوات أن يتحابوا**».

(٢) العريضة: صحيفة تعرض فيها الحاجات والمعنى حسب فهمي أنها صارت ثابتة عليه مسجلة كأنها في عريضة.

(٣) يقصد من ذكرهم من الصحابة وأزواج النبي رضوان الله عليهم.

(٤) وفي سنن الترمذي في مناقب السيدة عائشة عن عبد الله بن زياد الأسدي قال سمعت عمار بن ياسر يقول: هي زوجته في الدنيا والآخرة يعني عائشة رضي الله عنها قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح وفي الباب عن علي.

(٥) لأن حساناً كان ممن تكلم عليها بالإفك.

عَقِيلَةُ أَصْلٍ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ الله خِيمَهَا وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ بَغْيٍ وَبَاطِلِ
حِصَانٌ رَزَانٌ مَا تَزِنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ

وقولها: لكنك لست كذلك؛ شبيهٌ بما وقع من أمير المؤمنين؛ فلقد أطراه رجلٌ منهم بِضِغْنٍ فقال له: أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك.

وبنوع من المناسبة؛ رأيت أن أذكر المقام الذي اتفق لي عما قريب؛ لاندماجه على الفائدة واشتماله على اللطيفة؛ بحيث يغلب على الظن أنها رؤيا حق؛ وذلك أنني رأيت كأنَّ بعض أبناء السادة يقرأ عليَّ مع جماعة في صحيح البخاري؛ حتى انتهى إلى ذكر أبي هريرة فتنقَّصَهُ؛ وقال لي: لِمَ لا تقول باطِّراحه وقد تعلم انحرافه عن أمير المؤمنين علي؟؛ فقلت: إنه معذور ومثله مُطَرِّد في أحوال الناس وجربته في نفسي؛ فقد كان الشيخ محمد بن علي الدثني عند والدي؛ علمه ورباه وثقفه وكفله نحواً من أربعين عاماً؛ وأحصن به أكثر من إحدى عشرة امرأة؛ ثم كفلته أنا اثني عشر عاماً؛ قمت فيها بجميع كلفه؛ كما كان أبي أو أكثر؛ وطيلة هذه المدة وهو يتجنى عليَّ تارة؛ وأجِدُ عليه في نفسي أخرى؛ هو يُدِلُّ بخدمته لوالدي؛ وأنا أريد منه أن يكون لي كما كان لوالدي.

وكذلك الشيخ عمر بن عوض شيبان؛ فإنه اختصَّ بالأستاذ الأبر عيدروس ابن عمر؛ وخدمه طوال السنين؛ وكان الأستاذ يسميه ولد الروح؛ ولكن لم يُحْمَد الحال بينه وبين أحفاده؛ لأنهم يطالبونه بأن يخدمهم كما خدم جدَّهم؛ وهو يرى لنفسه الحق؛ بخدمته لجدِّهم وحسن صحبته له؛ وتلك نفسها هي حال أبي هريرة وأنس بن مالك مع علي. وأكبر من ذلك؛ إدلال أم أيمن على سيد المرسلين ﷺ ورضي عنها.

هذا حاصل ذلك بمعناه وأكثر لفظه؛ والله أعلم بمراده من عباده. وما أصدق أنس بن مالك في قوله للحَجَّاج: والله لو أنَّ اليهود أو النصارى رأت من

خدم موسى بن عمران؛ أو عيسى ابن مريم؛ يوماً واحداً؛ لرأت له ما لم تُرَ لِيَ في خدمة رسول الله ﷺ عشر سنين.

وبعد فاطّراح المواربة عن الصِّدِّيقة عما تضمره لأمير المؤمنين؛ إنما هو شاهد النصاعة والطراحة؛ وآية الشهامة والكرامة؛ وبرهان على البراءة من التنطُّع والنفاق؛ فلا شك أنه من أحاسن الأخلاق.





الفائدة

الحادية عشرة

الفائدة الحادية عشرة

عن البراء بن عازب أن النَّبِيَّ ﷺ أوصى رجلاً فقال: «**إذا أخذت مضجعك من الليل فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك؛ ووجهت وجهي اليك؛ وفوَّضت أمري إليك؛ وألجأت ظهري إليك؛ رغبة ورهبة إليك؛ لا ملجأ ولا منجا منك إلّا إليك؛ آمنت بكتابك الذي أنزلت؛ ونَبِيِّك الذي أرسلت؛ فإن مِتَّ مِتَّ على الفطرة؛ واجعلهن آخر ما تقول**» فجعل الرجل يستذكرهن فقال: وبرسولك الذي أرسلت؛ قال: «**ونَبيِّك الذي أرسلت**»[١].

قال القرطبي تبعاً لغيره: وهذا حُجَّة لمن منع نقل الحديث بالمعنى، وهو الصحيح من مذهب مالك؛ فإن لفظ النبوة والرسالة مختلفان في أصل الوضع؛ فأراد ﷺ أن يجمع بين اللفظين حتى يفهم من كل واحد ما وضع له؛ وليخرج عما يكون شبه التكرار في اللفظ من غير فائدة؛ فإنه إذا قال: ورسولك لم يحتج لقوله: أرسلت؛ فصار كالحشو الذي لا فائدة فيه؛ بخلاف قوله: ونبيِّك الذي أرسلت؛ فلا تكرار فيه؛ لا مُتَحقَقاً ولا مُتَوَهَماً (انتهى بتلخيص واختصار)[٢].

---

(١) نص الحديث في سنن الترمذي: عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال له: «**ألا أعلِّمُكَ كلِماتٍ تقولُها إذا أويتَ إلى فراشِكَ فإن مِتَّ من ليلتِكَ متَّ على الفطرةِ وإن أصبحتَ أصبحتَ وقد أصَبتَ خيراً تقولُ: اللَّهمَّ أسلَمتُ نَفسي إليْكَ ووجَّهتُ وجْهي إليْكَ وفوَّضتُ أمري إليْكَ رغبةً ورَهبةً إليْكَ وألجأتُ ظَهري إليْكَ لا ملجأ ولا مَنجَى منْكَ إلَّا إليْكَ آمنتُ بِكتابِكَ الَّذي أنزلتَ ونبيِّكَ الَّذي أرسلتَ**» قالَ البراءُ: فقلتُ: ورسولِكَ الَّذي أرسلتَ قالَ: فطعنَ بيدِهِ في صَدري ثمَّ قالَ: «**ونبيِّكَ الَّذي أرسلتَ**» رقم الحديث ٣٣٩٤.

(٢) للعلماء في التفريق بين النبيّ والرسول أقوال أشهرها اثنان: أوّلهما: أنّ النبيّ هو من =

قال الحافظ: وقوله: صار كالحشو مُتَعَقّب لثبوته في أفصح الكلام كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ...﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ...﴾[٣] **ونقول**: لا سواء؛ لأنه لو جاء شبه التكرار في الدعاء لكان لغير نكتة ولا فائدة؛ كما قال القرطبي؛ بخلاف الآيات؛ فإنَّ ﴿مِّن﴾ في الآية الأولى لتنصيص العموم أو توكيده ولن يتحصل إلّا بإعادة لفظ الرسول؛ وإلّا احتمل خصوص التوافق في اللسان بمن أرسل بعد سبق نبوته؛ وهو غير مشروط ولا مُطَرِّد في جميع المرسلين، ولو قال في الآية الثانية: أرسلنا إليكم نبيّاً لنقصت الفائدة وانفتحت المنافذ لتوهم خصوص الرسالة؛ ولو عكس وقال: نبّأنا إليكم رسولاً لاستحال المعنى بالكلية؛ ولا يصح نَبأ رسوله بالهدى في الآية الثالثة؛ لأنَّ عموم الهدى لا يكون إلّا بإرسال؛ ولئن تُوُهِّمَ فيها صلاحية؛ أرسل نبيَّه بالهدى؛ فالأنسب بالاحتجاج وإظهاره على الأديان، إنما هو ذكر الرسالة لعمومها وقوَّتِها؛ وهذا كله مما يُعْرَف ببادي النظر؛ فذهول الحافظ وتوهمه مساواة الآيات لما في الحديث من أعجب العجب.

قال الحافظ: وأما الاستدلال به على منع الرواية بالمعنى؛ ففيه نظر؛ لأنَّ شرطها الاتفاق في المعنى، وقد تقرر التغاير بين لفظي النبي والرسول فلا يتم الاحتجاج بذلك اهـ.

وأقول: لقد أخذ الحافظ بطريق الأدب مع القرطبي ومن تبعه؛ فألان لهما

= أوحيَ إليه بشرعٍ ولم يُؤمَر بتبليغه، أمّا الرسول فهو من أوحيَ إليه بشرعٍ وأُمِرَ بتبليغه وثانيهما: أنّ الرسولَ هو من بُعِثَ بشريعة خاصّةٍ به وبأمّته، أمّا النبيُّ فيُبلّغ شريعة رسولٍ قَبلَه. وهذا أرجح الأقوال. وعلى كلا القولين فإنّ الرسول أخصّ من النبي، إذ إنّ كلّ رسولٍ نبيّ، وليس كلّ نبيٍّ رسولاً، والله أعلم. (انتهى النقل).

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٢) سورة المزمل، الآية: ١٥.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٣٣.

القول باقتصاره على النظر؛ وإلّا فاستدلالهم به على منع الرواية بالمعني واضح الفساد. قال الحافظ: وأولى ما قيل في حكمة رَدِّه ﷺ على من قال الرسول بدل النبي؛ أن ألفاظ الأذكار توقيفية ولها خصائص وأسرار لا يدخلها القياس؛ فتجب المحافظة على اللفظ الذي وردت به؛ وهذا اختيار الماوردي؛ قال: فيقتصر فيه على اللفظ الوارد بحروفه (انتهى).

وأقول: أما أولاً؛ فإنه يتأكد به قول القرافي بكراهية الزيادة على الوارد لأنه سوء أدب؛ ولأنه دواء؛ ومتى زيد فيه على قانونه انقلب داء؛ ولأنه مفتاح؛ وهو متى زيد في أسنانه لا يفتح. ولئن غَبَّر العلامة ابن حجر عليه بما ذكره من خلافه عن ابن العماد والزين العراقي وغيرهم؛ فقد رجع إليه بما استوجهه في أثناء تلك المسوَدَّة من التحفة[١]؛ من أنه زاد لِشَكٍّ عُذْرٍ أو لتَعَبُّدٍ فلا لأنه حينئذ مستدرك على الشارع؛ وهو ممتنع؛ وهذا هو كلام القرافي بنفسه؛ إذ لا يمكن أن يقول القرافي وغيره بكراهة الزيادة مع الشك؛ للقاعدة المقررة من الأخذ معه بالأقل وجوباً في الواجب وندباً في المندوب، نعم؛ نصَّ إمام الحرمين[٢] في النهاية على أن المتوضئ إذا شك فلم يدر أغسل وجهه مرتين أو ثلاثاً يقتصر على ما وقع منه؛ وحكاه عن والده أبي محمد الجويني؛ وعلله بأنه إذا غسل مرة أخرى كانت مترددة بين الرابعة وهي بدعة؛ وبين الثالثة وهي سنة؛ وترك السنّة أهون من اقتحام البدعة. (انتهى).

وأما ثانياً: فإن فيه إشارة إلى أسرار الأسماء والحروف وخواصها؛ وهو علم مستقل متفرع المواضيع متعدد المسائل؛ وقد وُضِعَتْ له التآليف المخصوصة؛ وقسم أهله الحروف بحسب العناصر القديمة إلى أربعة أقسام؛ فجعلوا سبعة للنار وهي: الألف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال،

---

(١) تحفة المحتاج بشرح المنهاج.

(٢) أبو المعالي عبد الملك الجويني (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ) ومن مؤلفاته الفقهية نهاية المطلب في دراية المطلب في عشرين مجلداً.

وسبعة لعنصر الماء وهي: الجيم والزاي والكاف والصاد والقاف والثاء والغين، وسبعة لعنصر الهواء وهي: الباء والواو والياء والنون والضاد والتاء والظاء، وسبعة لعنصر التراب وهي: الدال والحاء واللازم والعين والراء والخاء والشين. فالنارية لدفع الأمراض الباردة؛ ولمضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب؛ وقد جرب؛ كما قالوا إنَّ من كررها في شدة البرد لا يحس به. والمائية لدفع الأمراض الحارة؛ كالحميات؛ ولتضعيف القوى البادرة حيث تطلب مضاعفاتها حساً أو معنى. وخالف الغزالي في ترتيب بعض ما سبق من طبائع الحروف ولا أحفظ كلامه.

وتحقيق الفرق بين أهل الأسماء والطلاسم؛ أن عمل الآخرين؛ وهم أهل الطلاسم؛ استنزال أرواح الأفلاك وربطها بالصور أو بالنسب العددية؛ بقواعد محدودة وقوانين مخصوصة؛ حتَّى إذا تم الامتزاج بين روحانية الأفلاك وما عملوا لها من الصور والنسب العددية الملائمة لها؛ حصلت القوة على التأثير فيما يحاولون؛ ولا بدّ لهم من رياضة تُقَوِّي نفوسهم على استنزال أرواح الأفلاك. وعمل الأولين؛ وهم أصحاب الأسماء؛ على التعرض بالمجاهدة والرياضة لاستنزال النور الإلهي والمدد الرباني؛ مع معرفة طبائع الحروف وخواص الأسماء؛ ثم لا يكون غرضهم التعرف في السفليات؛ لأنه حجاب مانع؛ وإن عرض منه شيء بطريق الكرامة فَرُّوا منه وتجاوزوه؛ فإن أخلد أحدهم إليه؛ أو اقتصر على معرفة المناسبات والطبائع؛ أو مزج قوى الأسماء وأسرار الحروف بالفلكيات؛ كان حاله أرذل وأسفل من أصحاب الطلاسم؛ لأنَّ قوانين هؤلاء أقوى ترتيباً؛ وأصول علمهم طبيعية؛ غير أنَّ لهم مع الجنِّ والكواكب مخاطبات كفرية ودعوات شيطانية؛ وعلمهم داخل في أقسام السحر الممنوع.

قال في الأسنى[١]: وتحرم الكهانة؛ أي: تعلمها وتعليمها؛ والتنجيم؛ والضرب بالحصى والرمل؛ إلى آخر ما ذكر. وعقد ابن حجر تنبيهاً في تحفته

(١) أسنى المطالب شرح روض الطالب لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري.

لتحريم السحر وما يتعلق به؛ وقررناه في رسالتنا الموسومة بالكوكب الدُّرِّي[١]. وجاء في مبحث نكاح الكوافر من الأنوار[٢] وحاشيتها؛ والأسنى؛ والمغني؛ والتحفة والنهاية[٣] يزيد بعضهم على بعض: أنَّ الصابئة تقول: إنَّ الفَلَكْ حَيٌ ناطق وتعبد الكواكب السبعة؛ وتضيف إليها الآثار؛ وتنفي الصانع المختار؛ وهم الذين أفتى الاصطخري[٤] بقتلهم في زمن القاهر؛ فبذلوا له أموالاً كثيرة فتركهم؛ وذكروا أنَّ الإمام الرازي وضع كتاباً في أسرار النجوم وسمَّاه السر المكتوم؛ وفيه أمور شنيعة؛ وأحوال منكرة لا تليق بجلالته؛ بل بإسلامه؛ ولهذا شنَّع به عليه كثير من العلماء؛ وأنكر بعضهم نسبته إليه؛ ولابن السبكي كلام عنه في طبقاته لا يحضرني الآن شيء منه[٥].

وذكر الساعي في كتابه مختصر تاريخ الخلفاء؛ أنَّ من الحوادث الواقعة في

---

(١) كثير من المؤلفات التي يذكرها الإمام لنفسه في سياق الكلام مثل الكوكب الدري لا زالت مجهولة وقد تكون موجودة عند أحفاده وقد تكون أرسلها للطباعة لمن أهملها وتركها أو ربما ضيعها أو قد تكون ذهبت طعاماً لدابة الأرض.

(٢) الأنوار لأعمال الأبرار للعلامة يوسف الأردبيلي وهو كتاب في الفقه على المذهب الشافعي.

(٣) مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج للشيخ محمد الخطيب الشربيني وتحفة المحتاج لابن حجر الهيتمي ونهاية المحتاج لشمس الدين الرملي وكلها شروح لكتاب منهاج الطالبين في الفقه للإمام النووي.

(٤) هو الحسن بن أحمد الأصطخري من أئمة الشافعية كان من نظراء ابن سريج وابن أبي هريرة وينسب إلى اصطخر من بلاد فارس له مصنفات منها أدب القضاء وليس لأحد مثله وكتاب الأقضية ولما تولى حسبة بغداد أحرق مكان الملاهي وتوفي سنة ٣٢٨هـ.

(٥) ويروى أن الإمام الرازي رجع قبل موته عن بعض ما بحثه من العلوم وندم عليها وذكر ابن كثير في طبقات الفقهاء الشافعيين أن الفخر الرازي صاحب المؤلفات الشهيرة في علم الكلام والمتوفى سنة ٦٠٦هـ؛ أنه ندم على دخوله علم الكلام وسمعوه يقول: ليتني لم أشتغل بعلم الكلام وبكى وقال الرازي: لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فلم أجدها تروي غليلاً ولا تشفي عليلاً؛ ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن (ج٢ ص٢٥٨ ـ ٢٥٩ طبعة دار الوفاء).

زمن الناصر أو الوزير ابن يونس؛ كبس دار عبد السلام بن عبد الوهاب بن مولانا الإمام عبد القادر الجيلاني في سنة ٥٨٨هـ؛ واستخرج منها كتباً بخطه في فنون منها: الشفاء لابن سينا؛ ورسائل إخوان الصفا؛ وكتب الفلاسفة والمنطق؛ وتسخير الكواكب؛ والنارنجيات[١] في السحر؛ فاستدعى العلماء والفقهاء والأعيان والقضاة؛ وكان من بين أولئك أبو الفرج بن الجوزي؛ وقرئ في بعضها مخاطبة زحل بقوله: أيها الكوكب المضيء؛ أنت تدبر الأفلاك؛ وتحيي وتميت؛ وأنت إلهنا، ومن هذا الجنس في حقِّ المريخ أيضاً، وصادر هذا؛ وعبد السلام حاضر؛ فقال له الوزير ابن يونس: هذا خطك؟ قال: نعم؟ قال: ولم كتبته؟ قال: لأرُدَّ على قائله. فلما كان يوم الجمعة؛ جلس قاضي القضاة والعلماء وفيهم ابن الجوزي على سطح المسجد المجاور لجامع الخليفة؛ وأضرموا ناراً عظيمة تحت المسجد؛ وأحرقوا تلك الكتب؛ وحكم القاضي بفسق عبد السلام؛ ورمى طيلسانه وأهانه والناس ينظرون اهـ. وذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٦١١هـ وفاة عبد السلام؛ وأشار إلى تلك الحادثة؛ وأنه أفرج عنه بشفاعة أبيه؛ واستعمل بعد ذلك، وفي أوائل شمس المعارف للبوني من دعاء زحل والإقسام عليه وما ينخرط في هذا السلك[٢].

وعلى الجملة فإنكار السحر وأسرار الحروف مكابرة في المحسوس؛ ولعل من الثاني ما يُرْوَى عن الإمام علي كرم الله وجهه من قوله: لو طويت لي الوسادة؛ لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير الباء؛ أو نقطتها؛ أو ما يقارب منه؛ وإن كانت آثار الوضع لائحة عليه؛ وأرى كثيراً ما يتساءلون عن الوسادة في هذا الكلام؛ وما أراها إلّا وسادة الخلافة؛ لم أقله من تلقاء نفسي؛ ولكن مما ذكره

---

(١) النارنجيات: من أعمال السحر.

(٢) ومن مؤلفات الشيخ البوني كتاب: غاية الغايات في ذكر الأقسام والدعاوات في ٨٢ صفحة ومن محتواه قسم خلخلة الهوى ـ قسم الأملاك الفلكية ـ قسم الطاعة ـ دعوة شلشة القعقان الكبرى ـ قسم الشطب والخفض ـ قسم السليماني ـ دعوة الملوك السبعة ـ قسم العوالم الأرضية إلخ..(معلومة من الشبكة العنكبوتية).

ابن خلكان؛ عن عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمي قاضي مصر؛ أنه قال: كنت إذا أتيت يزيد بن أبي حبيب يقول: كأنِّي بك وقد قعدت على الوسادة؛ يعني وسادة القضاء؛ أي من ص ٢٥ من المجلد الأول من تاريخه؛ وجاء في ص ٢٥٣ من المجلد الثاني؛ ما نصه[١]: فقال النواب لابن رئيس الرؤساء: أنت صاحب الوسادتين اهـ. ثم رأيت شارح القاموس يقول في حديث: إذا وُسِدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة؛ أي: أسند وجعل في غير أهله؛ وقيل: إذا وضعت وسادة الملك؛ والأمر والنهي؛ لغير مستحقها، وفي حفظي عن دائرة المعارف لفريد وجدي المصري: أن بعض الأجانب في الوقت الأخير قدم نفسه للاختبار بالعرض على السلاح فلم يؤثر فيه[٢]، وسألوه عن السبب قال: تحققت أنَّ الإنسان سر الكون المُتَخيّر من بين سائر المخلوقات؛ وفكرت في الخاصَّة التي رفعته لهذا المستوى؛ فلم أجدها إلّا النطق؛ وتفكرت في مادته فلم أجدها غير الحروف؛ فعرفت أن فيها سر الأسرار؛ وعملت من مناسباتها تركيبات المدفع؛ ومنها ما رأيتم؛ وأخرى للجلب؛ أو ما يقرب من هذا؛ فالعهد بعيد والحفظ يخون؛ وأنا لا أصدِّق استقلاله باختراع ذلك؛ ولعَلَّه أضافه إلى معلومات تلقاها بالتعلم الطويل. وكان الإمام الغزالي من الراسخين في علم الحرف؛ وكان يعتني به كثيراً وجرت له فيه خوارق؛ وإليه ينسب الوفق الثلاثي؛ وكذلك كان سيِّدنا المحضار وجده الإمام محمد مولى الدويلة؛ حسبما كان يرويه عنهم الفاضل الشيخ عمر بن عوض شيبان؛ عن سيدي الأستاذ الأبر عيدروس بن عمر رضوان الله عليهم.

وقد يؤخذ من الحديث ما رأيته من قديم في سياق لمن لا أذكره الآن؛ من ترتيب أمره[٣] حتى في الابتعاث؛ من الرؤيا الصالحة إلى النبوة إلى الرسالة

---

(١) هذه الأرقام من النسخة التي كانت لدى الإمام قبل ٨٢ سنة ولا أدري هل كانت مخطوطة أم مطبوعة؟ ولم أحققها.

(٢) أي أطلقوا النار عليه فلم تؤثر فيه.

(٣) صلى الله عليه وسلم.

الخاصة ثم الرسالة العامة؛ فَأُمِرَ أولاً بالإخبار ولم يؤمر بالإنذار؛ وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١] ثم أمِرَ بإنذار عشيرته وأنزل عليه في ذلك ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٢] فصعد الصفا وقال: يا بني عبد المطلب؛ يا بني عبد مناف؛ وما برح يذكر الأقرب فالأقرب حتى اجتمعوا إليه وقالوا: ما لك؟ قال: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج عليكم من سطح الجبل أما كنتم مصدقي؟**» قالوا: بلى ما جربنا عليك كذباً؛ قال: «**فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» فقال أبو لهب: تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله سورة تبَّت؛ وكان أبو لهب قبل ذلك تعرض لأبي طالب؛ فجاء رسول الله ﷺ وجلد به الأرض؛ مساعدةً لأبي طالب؛ فما زال مضطغناً عليه من يومئذ؛ ثم أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بإنذار أمِّ القرى ومن حولها؛ ثم أرْسِلَ إلى الأحمر والأسود وسائر العالمين؛ وفيه قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣]. وفي عداد الخصائص الستّ عند مسلم: «**وأرسلتُ إلى الخلق كافة**». وقال جل شأنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤]. والنصوص في عموم رسالته كثيرة؛ والخلق أعم مما في الآيات؛ ولهذا قال البارزي: أنه أرسل حتَّى للجمادات بعد جعلها مدركة؛ وصرح بعضهم بأن الإرسال كان دفعة؛ وأنَّ التدريج مخصوص بكيفية الدعوة فقط؛ والصواب؛ كما في الصحيحين وغيرهما؛ عن عائشة؛ وذهب إليه أكثر الأمة؛ أنَّ أول ما أُنْزِلَ عليه ﷺ؛ هو سورة اقرأ؛ وبها صار نبيّاً؛ وفتر بعدها الوحي؛ ثم أنزلت عليه سورة المدثر؛ وبها صار رسولاً؛ واختلفوا في تقدير مفعول الإنذار؛ فمنهم من قدَّره عاماً؛ وأيَّد به القول الثاني؛ ومنهم من قدَّره خاصّاً؛ وفسره بالعشرين الأقربين؛ وَأَكَّدَ به القول الأول.

---

(١) سورة الضحى، الآية: ١١.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٤) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

وأما ما ثبت في الصحيحين عن جابر؛ من أوليَّة نزول المدثر؛ ففي الإتقان للسيوطي أجوبة خمسة عنه؛ وقريب منه في زاد المعاد لابن القيِّم؛ وعبارته في النبُوَّةِ هكذا: فصلٌ في ترتيب الدعوة؛ ولها مراتب: **الأولى**: النبوة؛ **الثانية**: إنذار عشيرته الأقربين؛ **الثالثة**: إنذار قومه؛ **الرابعة**: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله؛ وهم العرب قاطبة؛ **الخامسة**: إنذار جميع من بلغته دعوته؛ من الجن والإنس إلى آخر الدهر (اهـ). وعنوانه قد يؤكد القول الثاني؛ ولكن التفصيل من شواهد القول الأوَّل.

ونقل الحافظ عن أحمد بن حنبل عن الشُّعَبِي قال: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة؛ فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين؛ ثم وُكِّلَ به جبريل؛ فابتدأ نُبُوَّتَهُ ﷺ على رأس الأربعين؛ في ربيع الأول بالرؤيا؛ ثم بالوحي في رمضان؛ وأول ما أنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1]؛ ثم أنزل عليه يا أيها المدثر؛ ثم حَمِيَ الوحي وتتابع؛ وكانت إقامته بمكة بعد النبوة ثلاثة عشر عاماً كاملاً اهـ. وهذا يناسب القول الأول؛ ويشهد للمدَّة قول حرمة بن قيس:

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حجَّةً	يُذَكِّرُ لوْ يَلْقَى صَديقاً مُوَاتِيَا
وَيَعْرِضُ فِي أهْلِ المَوَاسِمِ نَفْسَهُ	فَلَمْ يَلْقَ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرَ دَاعِيَا
فَلَمَا أتَانَا وَاطْمَأَنَّتْ بِهِ النّوى	وَأصْبَحَ مَسْرُوراً بِطَيْبَةَ رَاضِيَا
وَأصْبَحَ لا يَخْشَى مَلامَةَ ظَالِمٍ	بَعَيدٍ وَلا يَخْشَى مِنَ النَّاسَ بَاغِيَا
بَذَلْنَا لَهُ الأمْوَالَ مِنْ حِلِّ مَالِنَا	وَأنْفسنَا عِنْدَ الوَغَى وَالتَّآسِيَا
نُعَادِي الذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ	جَمِيعاً وَإنْ كَانَ الحَبِيبَ المُوَافِيَا
وَنعْلَمُ أنَّ الله لا شَيْءَ غَيْرَهُ	وَأنَّ كِتَابَ الله أصْبَحَ هَادِيَا

❋ ❋ ❋

---

(١) سورة العلق، الآية: ١.



الفائدة

الثانية عشرة

الفائدة الثانية عشرة

جاء في باب الغسل أن عائشة سُئلت عن غسل النبي ﷺ؛ فدعت بإناء نحو من صاع؛ فاغتسلت وأفاضت على رأسها وبينها وبين السائل حجاب.

وفي الحديث إشكالات؛ أحدها: أنْ لا انتفاع في تعليم الكيفية بغسلها من وراء حجاب؛ فإن قالوا رأى السائل صنيعها في رأسها وأعالي جسدها! قلنا: هو على ما فيه نفع تافه؛ والتعليم بالكلام أفيد منه؛ ومعاذ الله أن يكون السائل أقلَّ فهماً من الأنصارية؛ التي قال لها النبي ﷺ بحضرة عائشة: «**خذي فرصة مُمَسَّكَة فتطهري بها**»؛ قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: «**سبحان الله تطهري**»؛ قالت عائشة: فاجتذبتها إليَّ وقلت: تتبعي أثر الدم. **والآخر**: لا يخلو أن يكون السائل مَحْرَماً أو غير محرم؛ وقد ذكروا أنه أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وأنَّ أختها أم كلثوم أرضعته؛ فهي خالته من الرضاعة؛ ومعه أخٌ لها من الرضاعة أيضاً؛ وقال بعضهم: إنما سترت بالحجاب أسافل بدنها مما لا يحل للمحرم النظر إليه، وإلّا لم يكن لاغتسالها معنى بحضرتهما.

وأقول: إنه صريح في قصر الحجاب؛ وبذلك تكون متعرضة لانكشاف ما لا يحل؛ إذ الوقوف عند الحد بهذه الصفة مما يستحيل؛ ثم إنه لا يخلو أن يكون عليها ثوبها من وراء الحجاب؛ وأنْ لا؛ فإنْ كان الأول؛ فالثوب إذا ابتل لصق بالبدن وحكى الحجم؛ وإن كان الثاني فأعظم؛ وكيفما كان الأمر فعائشة أحمى أنفاً؛ وأغْيَرُ نفساً؛ وأرجحُ عقلاً؛ وأكثرُ مروءة؛ وأشدُّ صوناً؛ من أن تتعرض لما به بأس؛ وأن تتبذل بشيء من ذلك؛ عند أدنى رجالها من لحمة النسب؛ فضلاً

عن الرضاعة؛ وليس هذا بقريب مما رُوِيَ عن أمِّ هاني من ذهابها يوم الفتح إلى رسول الله ﷺ وهو يغتسل وفاطمة تستره؛ لوضوح الفوارق. ومنها أن القصد من اغتسال عائشة النظر؛ بخلافه من رسول ﷺ.

والإشكال الثالث: من أين تُعْرَفْ مطابقة الجواب الفعلي للسؤال الذي هو بغاية الإجمال؛ لأنه إن كان عن كيفية الغسل الذي هو تعميم سائر البدن بالماء؛ فالجواب لم يطابقه كما في الإشكال الأول؛ مع استتار أكثر بدنها عن السائلين؛ ومع غلبة التقاذف على كثير من الأعضاء؛ وقد جاء أن عائشة غشيها اللحم بآخره؛ وفي أخبار الثريا ابنة عبد الله بن الحارث أنها كانت تصب الجرة من الماء على بدنها فلا يصيب ظاهر فخذيها شيء لتقاذفه عن روادفها؛ **ولعلَّ الجواب عن هذه الإشكالات:** أنَّ السؤال كان عن كميَّة الغسل لا كيفيته؛ بدليل قوله: فدعت بإناء نحو الصاع وبشهادة ترجمة البخاري عليه بباب الغسل بالصاع ونحوه؛ والبخاري أعرف بمغازي الحديث ومراميه وإشاراته؛ فكان الجواب: أنها أرتهم الإناء ووافق ذلك عزمها على الاغتسال لبعض شأنها تبرداً أو نحوه؛ فأفاضت على بدنها من حيث يسمعون صب الماء على رأسها؛ ولا يرون شيئاً من بدنها لا عالياً ولا سافلاً؛ وهو ظاهر من قولهم: وبيننا وبينها حجاب. ألا ترى أنَّ عروة بن الزبير؛ كان أمسَّ رحماً بها من هؤلاء؛ فإنه ابن اختها؛ ولما سألها عن غسل النبي ﷺ؛ علمته بالقول؛ فقالت كما في الصحيح: «كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه؛ ثم توضأ كما يتوضأ للصلاة؛ ثم يدخل أصابعه في الماء فيخلل بها أصول الشعر؛ ثم يصب على رأسه ثلاث غرف بيديه؛ ثم يفيض الماء على جلده كله». وكذلك فعلت ميمونة مع ابن أختها عبد الله بن العباس؛ وفي الصحيح عن عروة عن عائشة قالت: «كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ من إناء واحد من قدح يقال له الفرق» ولا هجنة فيه ولا غبار عليه؛ وإنما يتوقف في الاستدلال على حل نظر الرجل إلى عورة امرأته؛ وعكسه؛ اعتباراً بالمظنة؛ لأنه لا يتم إلّا مع التعرِّي؛ ولا ذكر له في الحديث.

وقد علم من حاله ﷺ؛ غض النظر عن الفرج؛ حتى لقد قالت عائشة: ما

رأى منّي ولا رأيت منه؛ ولكن الإشكال فيما روي عن عطاء من قوله: سألت عائشة عن الرجل ينظر إلى فرج امرأته؛ فقالت: كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ إلى آخر الحديث؛ فإنه فُحْشَةٌ ظاهرةٌ؛ وجراءةٌ قبيحةٌ من عطاء؛ إنْ صحت، وهلا بعث بامرأة تنوب عنه في هذه المسألة كما فعل عبد الرحمن بن سابط[1] إذ أراد أن يسأل حفصة بنت عبد الرحمن[2] عن إتيان النساء في أدبارهن فاستحى؛ فسأل ابن أخيها. أما عائشة فلم يسعها؛ وقد سألها عطاء غير الجواب؛ خوفاً من كتم العلم؛ ولكنها أجابت بما يتفق مع حشمتها وفقهها وقوة نفسها؛ من ذلك الجواب النزيه المُجْمَل. وفي البخاري أنَّ ميمونة قالت: وضعت لرسول الله ﷺ غسلاً وسترته؛ فصب على يده فغسلها مرة أو مرتين؛ ثم أفرغ بيمينه على شماله فغسل فرجه؛ ثم دلك يده بالأرض إلى آخر الحديث؛ والضمير يعود للنبيِّ ﷺ في قولها وسترته؛ لا للغسل؛ فإذا بلغ التستر به إلى هذا الحد؛ فما ظنك بزوجه؛ وهي امرأة حازمة لبيبة عاشرت أشد الناس حياء؛ فإن قيل: كيف رأت ميمونة فعله مع سترها له؟ قيل: لا مانع من ذلك مع تلاصق الجوار؛ وهذا مما يزيد الإشكال قوة في اغتسال عائشة مع قصر الحجاب بمرأى من رضيعيها؛ لأن مثل ذلك عرضة للتكشف مهما كان التحفظ.

وأخرج ابن سعد في طبقاته أنه ﷺ كان إذا طلى بالنورة وَلِيَ فرجه وعانته؛ أي: فلا يمكِّن أحداً من أهله يباشر ذلك.

وأخرج النسائي وأبو داود عن يعلى بن أمية أنَّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبراري؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إن الله حيي ستِّير يحب الحياء فإذا اغتسل أحدكم فليستتر**».

وقد نص الإمام أحمد على كراهة دخول الماء بغير مئزر؛ ولعله أراد كراهة

---

(١) عبد الرحمن بن سابط تابعي وراوي حديث توفي سنة ١١٨هـ.

(٢) حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وزوجها المنذر بن الزبير روى عنها عبد الرحمن بن سابط.

التحريم؛ أما كراهة التنزيه فقد نص عليها جماعة سواه. وفي الصحيح: «**أنَّ الحياء من الإيمان**»، ولما احتاج عليٌّ السؤال عن حكم المذي؛ استناب المقداد بن الأسود في ذلك؛ حياءً من رسول الله ﷺ. وما أشد عجبي من قول الراغب: إن الشجاع قلَّمَا يكون حَيِيّاً؛ وكيف أقرَّه الحافظ ابن حجر على ذلك؛ مع علمه بحال سيد البشر وأخيه[1]؛ وأنهما من الشجاعة الخارقة بحيث يقضي لهما الجميع؛ ومع ذلك فقد كان ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها؛ وقد بَصُرَ به أحد أقيال العرب صغيراً في دار الندوة فقال: أرى هذا الغلام ينظر إليكم تارةً بعين أبُوَّة؛ لو انتظمت سهاماً لاخترقت أفئدتكم؛ وينظر إليكم أخرى بعيني عذراء خفرة؛ تكاد تحيي أمواتكم. وقالت أمامة بنت الجلاح الكلبية تمدح:

فَتَىً كَالفَتَاةِ البِكْرِ يُسْفِرُ وَجْهُهُ ... كَأَنَّ تَلالِي وَجْهِهِ القَمَرَانِ

أَغَرَّ وَأوْفَى ابن نِزَارِ بْنِ يَعْرِبِ ... وَأَوْثَقَهُمْ عَقْداً بِقَوْلِ لِسَانِ

وَأَضْرَبَهُمْ بِالسَّيفِ مِنْ دُونِ جَارِهِ ... وَأطْعَنَهُمْ مِنْ دُونِهِ بِسِنَانِ

كَأنَّ العَطَايَا وَالمَنَايا بِكَفِّهِ ... سَحَابَانِ مَقْرُونَانِ مُؤتَلِفَانِ

وقال الصيت بن علس:

وَلأنْتَ أشْجَعُ مِنْ أُسَامَهْ إِذْ ... دُعِيَتْ نزال وَلَجَّ فِي الذعْرِ

وَلأنْتَ أحْيَا مِنْ مُخَبَّأةٍ ... عَذْرَاءَ تَقْطُنُ جَانِبَ الخَدَرِ

وقال الفرزدق:

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمِ

وقال كثير يمدح عبد العزيز بن مروان:

أَشَدُّ حَيَاءً مِنْ فَتَاةٍ حَيِيَّةٍ ... وَأَمْضَى مَضَاءً مِنْ سِنَانٍ مُوَلِّلِ

---

(١) يقصد أخوه من الرضاعة حمزة بن عبد المطلب الذي أرضعته ثويبة وأرضعت رسول الله ﷺ أياماً قليلة قبل حليمة.

وأخْوَفُ فِي الأعْدَاءِ مِنْ ذِي مَهَابَةٍ ... بِخُفَّانِ وَرْدٍ وَاسَعَ العَيْنِ مُطْفَلِ

وقال بكر بن النطاح:

يَتَلَقَّى النِّدَاءَ بِوَجْهٍ حَيِيٍّ ... وَصُدورَ القَنَا بِوَجْهٍ وِقَاحِ

وقال أبو العتاهية:

تَقَلُّبُ ألْحَاظِ المَهَابَةِ بَيْنَهُمْ ... عُيُونُ ظِبَاءٍ فِي قُلُوبِ أُسُودِ

وقال متمم:

فَتَىً كَانَ أَحْيَا مِنْ فَتَاةٍ حَيِيَّةٍ ... وَأشْجَعَ مِنْ لَيْثٍ إذَا مَا تَمَنَّعَا

وقال آخر:

يَجْرِي الحَيَاءُ الغَضُّ مِنْ قَسَمَاتِهِمْ ... فِي حِينِ يَجْرِي مِنْ أَكَفُهِمُو الدَّمُ

وقال غيره:

كَرِيمٌ يَغُضُّ الطَّرفَ فَضْلَ حَياتِهِ ... وَيَدنُو وأطرَافُ الرِّمَاحِ دَوَانِي

وقال أبو تمام:

خَلَطَ الشَّجَاعَةَ بِالحَيَاءِ فأصْبَحَا ... كَالحُسْنِ شِيبَ لِغُرمِهِ بِدَلالِ

وقال أبو الطيب:

نُصَرِّعُهُمْ بِأعْيُنِنا حَيَاءً ... وَتَنْبُو عَنْ وُجُوهِهِمُ السِّهَامُ

وقال:

حَيِيُونَ إلّا أنَّهُم فِي نِزَالِهِمْ ... أقَلُّ حَيَاءً مِنْ شِفَارِ الصَّوارِمِ

وقال:

وَلَيسَ حَيَاءَ الوجهِ لِلذئبِ شيمةٌ ... وَلكِنَّهُ مِن شِيمَةِ الأسدِ الوَرْدِ

أما ما ذكره المؤرخون من أن ملك الروم وجه إلى معاوية يغالبه برجلين؛ أحدهما ذو قوة؛ فاختار له محمد ابن الحنفية؛ فغلبه؛ والثاني طويل جسيم؛

فاستدعى له قيس بن سعد بن عبادة؛ فلما مثل بين يدي معاوية نزع سراويله فرمى بها إلى العلج؛ فلبسها فبلغت ثدييه؛ فأطرق مغلوباً؛ وانثنى الناس بالمعتبة على قيس؛ لتبذُّلِهِ بحضرة معاوية؛ فقال: أردت لكيما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود؛ وأن لا يقولوا غاب قيس؛ وهذه سراويل عاديٍّ نمته ثمود[1]؛ فقد قال ابن عبد البر في الاستيعاب: إنَّ خبر قيس في السراويل عند معاوية؛ كذب وزور مختلق؛ ليس له إسناد؛ ولا يشبه أخلاق قيس ولا مذهبه في معاوية؛ ولا سيرته في نفسه؛ وهي حكاية مفتعلة وشعر مزوَّر اهـ.

أقول: ومصداقه؛ مع إمكان المطاولة بغير ذلك؛ ما أخرجه أبو الفرج وغيره: أنَّ الحسن لما صالح معاوية؛ اعتزل قيس في أربعة آلاف فارس؛ وأبى أن يبايع معاوية؛ حتى استدعاه الحسن وأمره بأن يبايع؛ فأقبل عليه وقال له: أنا في حلٍّ من بيعتك؟ قال: نعم؛ وكان رجلاً طوالاً يركب الفرس المشرف وتخط رجلاه في الأرض؛ وكان حلف أن لا يلقى معاوية إلّا بينهما الرمح أو السيف؛ فألقى له كرسي؛ وأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينهما لتبر يمينه؛ وجاء معاوية من سريره وأكب على قيس؛ حتى مسح يده على يده؛ وما رفع إليه قيس يده. ومتى استنكر ابن عبد البر ما رووه من فعل قيس؛ فلنا الحق في استنكار ما قالوه لعائشة من كلام ليس بِنَصٍّ ولا ظَاهِرٍ فيه.

وحاصل ما نقول: إن ما ظنَّه القاضي عياض وغيره؛ من اطلاع السائل في هذا الحديث على شيء من أعالي بدن عائشة مع اغتسالها؛ ظَنٌّ مردود لا يلائم نخوتها؛ ولا يوافق شهامتها؛ وإنما كان السؤال عن الكمية لا عن الكيفية؛

---

(١) أي من قوم عادٍ الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿.... إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وورد ذكرهم أيضاً في القرآن مقروناً بثمود هذا وقد اكتشفت آثار مدينة إرم التي بنوها وجاء ذكرها في القرآن الكريم في المنطقة بين اليمن وعمان وبها ما يدل على ضخامتها وأنه كانت تحيط بها الأنهار والزروع.

فأرتهم الإناء ثم اغتسلت لبعض شأنها من حيث لا يرون لها شخصاً؛ ولا يبعد أن تكون علمتهم الكيفية بالقول كما فعلت مع عروة؛ لا بالفعل؛ وما عسى أن يكون من أهل البيت بلغ من حشمتهم ما أخرجه أبو داود عن أنس أنَّ النبي ﷺ أتى فاطمة بعبدٍ قد وهبه لها؛ قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قنَّعت به رأسها لم يبلغ رجلها؛ وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها؛ فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «**إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك**»؛ فإذاً استحيت فاطمة من انكشاف رجليها بحضرة أبيها وعبدها مع أنه لم يكن. قال ابن حجر كما قاله النووي وكثير من المتقدمين والمتأخرين إلّا صبيّاً؛ فأولى أن تستنكف عائشة عما زعمه القاضي منها بمرأى من رضعائها؛ لأن تأديب الله تعالى لهم واحد؛ وأنها وصاحباتها لأحق بقول النميري:

يُغطِينَ أطْرَافَ البَنَانِ مِنَ التُّقَى وَيَخْرُجْنَ جُنْحَ اللَّيلِ مُعْتَجِرَاتِ

وقد ذكر ابن قتيبة في عيون الأخبار؛ أنه كان عند بعض القرشيين امرأة عربية؛ دخل عليها خصيٌّ لزوجها وهي واضعة خمارها؛ فحلقت رأسها؛ وقالت: ما كان ليصحبني شعر نظر إليه غير ذي محرم اهـ. مع أنه لا بأس بنظر الخصي[1]؛ وقد غضبت؛ سيون ابنة بجدل؛ من دخول أحد خصيان معاوية عليها؛ ولما قال لها إنه خصي؛ قالت: أوظننت مثلتك به[2] تُحلُّ له مني ما حرَّم الله، والله أعلم.



(١) الخصي: هو الذي سلت خصيتاه أو نزعتا فلا يشتهي النساء.

(٢) أي قطعك خصيِّه.



الفائدة

الثالثة عشرة

الفائدة الثالثة عشرة

عن أنس بن مالك قال: «كان النبي ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهنّ إحدى عشرة، قال قتادة: قلت لأنس أوكان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين». ووقع في رواية الإسماعيلي من طريق أبي موسى عن معاذ بن هشام أربعين بدل ثلاثين، قال الحافظ: وهي شاذة من هذا الوجه لكن في مراسيل طاوس مثل ذلك؛ وزاد في الجماع وفي صفة الجنة لأبي نعيم من طريق مجاهد؛ وزاد من رجال أهل الجنة، ومن حديث عبد الله بن عمر ورفعه: «**أعطيت قوة أربعين في البطش والجماع**»، وعند أحمد والنسائي وصححه الحاكم من حديث زيد بن أرقم رفعه: «**أنَّ الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة في الأكل والشرب والجماع والشهوة**»؛ فعلى هذا يكون حساب قوة نبينا أربعة آلاف. انتهى.

وفيه أسئلة؛ أحدها: من أين لكم أنَّ أنساً كان معه حينئذٍ؟ وإنما هو خادمه على حوائجه؛ وما يخدمه على طهرته وحاجته؛ إلّا إن سلَّمنا أنه معه؛ فمن أين عرف أنس؛ أنه عليه السلام واقع كل امرأة منهنَّ في حال طوافه عليهن؟ وهو مما يخفى؛ ولا يمكن أن يتحدث به النبي ﷺ؛ مع مزيد حيائه كما سبق في الفائدة قبل هذي؛ وغاية ما فيه أن يظن ظناً عن دخوله إلى المتوضأ ليس إلا؛ وكيفما كان؛ فإنه لا يكفي في الجواب.

وفي حديث عائشة: «كنت أطَيِّب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه ثم يصبح محرماً ينضح طيباً»؛ ولكنه لا ذكر فيه للمسيس؛ وهنا حملناه عليه للإشكال فيه

لخصوصه بحالة الإحرام؛ ولأنه مما لا يخفى عائشة؛ ولأنها لم تخبر به إلّا بعد زمان؛ عند ظهور الحاجة إليه؛ والتكلم بما يقع بين الزوجين إنما يمنع الحياء منه مع قرب الوقت؛ أما بعد ذلك؛ فلا مانع من إظهار ما تتعلق به المصلحة منه.

فإن قيل: قد أخرج أبو داود في سننه عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ: «أنَّ رسول الله ﷺ طاف على نسائه في ليلة فاغتسل عند كل امرأة منهن غسلاً. قال: فقلت: لو اغتسلت غسلاً واحداً؛ فقال: هذا أطهر وأطيب»[1].

قلنا: الآن بينه وبين حديث أنس موجبات ثلاثة: انتفاء (كان) المشعرة بالاستمرار واللزوم؛ وظهور قرينة الغسل؛ وجعل الليلة كلها ظرفاً؛ بخلاف حديث أنس كما يتوضح مما يلي:

منها: ما جاء في الحديث عن أنس من التقييد بالسعة ويبعد حملها على الليلة مع تأكيدها بقوله الواحدة ومع قوله من الليل والنهار ولا سيما وقد انضم إليه قول بعض الشُرَّاح: لا يحتاج إلى تقييد الغسل بالمرة الواحدة؛ لأنه يتعذر أو يتعسر تكرار الغسل فيها مع المباشرة لقصرها؛ قالوا: ولهذا بوَّب عليه البخاري بمن دار على نسائه في غسل واحد؛ مع أنه لا إشارة في الحديث إلى توحيد الغسل؛ وإنما قصر المدة من أوضح الأدلة عليه؛ وحينئذٍ يأتي إشكال عظيم؛ إذ لا يخلو أن يكون بإنزال في كُلِّهِنْ أو بعضهن أو بدونه؛ فإن كان الثاني؛ فلا مزية فيه البتة؛ وقلَّ من لا يقدر عليه؛ وأنا في شك مريب[2] مما روي عنه ﷺ: «أنه

---

(١) أخرج أبو داود والنسائي عن أبي رافع: أنه ﷺ طاف ذات يوم على نسائه يغتسل عند هذه وعند هذه قال فقلت: يا رسول الله ألا تجعله غسلاً واحداً؟ قال: هذا أزكى وأطيب وأطهر.

(٢) وقد تابع هذا الحديث أحد طلبة العلم لما فيه مما يتعارض مع أخلاقه ﷺ فكتب ما يلي: أخرج مسلم من طريق ابن وهب، قال: أخبرني عياض بن عبد الله عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله عن أم كلثوم عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الرجل يجامع أهله ثم يكسل، هل عليهما الغسل؟ وعائشة جالسة، فقال رسول الله ﷺ: «**إني لأفعل ذلك أنا وهذه، ثم نغتسل**». قلت: هذا الحديث أخرجه مسلم في الشواهد في آخر الباب، فلا يقال إن مسلماً قد صححه. بل هو منكَر المتن، مُعَلّل الإسناد. وهو =

سئل عن الجماع بلا إمناء ولا غسل؛ فقال: كنت أفعله أنا وهذه يعني عائشة وكانت حاضرة»؛ لأنه بعيد عن أخلاقه وشيمه. وإن كان الأول؛ فلا يخلو أن يخلو أن يكون فيهنَّ كلهن أو بعضهن؛ والثاني لا يتفق مع العدل؛ وربما يلتحق في ضعف المزية بعدم الإنزال رأساً؛ ولا سيما إذا كان في الأقل كالواحدة والاثنتين؛ والأول؛ وهو الإنزال في الجميع لا يكون عن قوة؛ إذ من المعلوم أن سرعة الإنزال من المصائب التي يتنزه عنها سيد البشر ﷺ، وقد كان امرؤ القيس مفروكاً[١] عند النساء بسبب سرعة إراقته.

ثالثها: قضية كلام الحافظ؛ السالف: أنَّ ذلك ناشئ عن القوة المعجزة التي أوتيها ﷺ؛ وفيه مناقشة؛ **أمَّا أولاً**: فلوقوعه بكثرة في دهماء الناس؛ ألا ترى إلى ما أخرجه أبو الفرج الأصفهاني؛ أنَّ عمر بن عبد الله بن معمر التيمي؛ أصبح ليلة بنى بعائشة بنت طلحة بن عبيد الله[٢]؛ عن تسع؛ فلقيته مولاة لها؛ فقالت: أبا حفص فديتك قد كَمُلْتَ في كل شيء حتى هذا، وفي رواية؛ أنَّ

= معارضٌ صريحٌ حديث آخر في صحيح مسلم: «**إن من أشرّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة: الرّجُل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر سرها**». وأما إسناده ففيه عدة علل منها: أن فيه أبي جابر المدلّس المشهور، قد رواه عن جابر دون أن يصرح بالتحديث في أيٍّ من طرق الحديث؛ وفيه عياض بن عبد الله بن عبد الرحمن القرشي الفهري، وهو متروك. قال ابن حجر في التقريب: «فيه لين». وقال أبو حاتم: «ليس بالقوي». وقال الساجي: «روى عنه ابن وهب أحاديث فيها نظر». ولعله يقصد هذا الحديث الباطل. وذكره العقيلي في ضعفائه. وقال يحيى بن معين: «ضعيف الحديث». وهذا معناه متروك باصطلاح ابن معين. وقال أبو صالح: «ثبت (!) له بالمدينة شأن كبير، في حديثه شيء». وقال البخاري: «منكر الحديث». وهذا معناه متروك باصطلاح البخاري. وهذا كله يوجب أن هذا أقل ما فيه أنه ضعيف لا يحتج به.

(١) رجل مفروك عند النساء أي مكروهاً عندهن.

(٢) عائشة بنت طلحة بن عبيد الله كانت فائقة الجمال تزوجها ابن خالها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ثم تزوجها مصعب بن الزبير ولما قتل مصعب تزوجها عمر بن عبد الله التيمي وقضى معها ثمان سنوات ثم توفي عنها.

مولاتها قالت: أسلبت الستر عليهما فعددت في بقية الليلة سبع عشرة مرة دخل فيها المتوضأ. **أمَّا ثانياً**: فقد عاش النبي ﷺ دهراً ما عنده إلّا امرأة واحدة؛ فقد بقيت معه خديجة وحدها إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنين؛ ثم ما بنى بسودة إلّا في سنة عشر من النبوة؛ وما بنى بعائشة إلّا عام هاجر أو عام اثنتين من الهجرة؛ والمرأة الواحدة تحيض وتنفس وتمرض؛ وكونه ﷺ يملك إربه لا يمنع قوة الميل وشدة التوقان والحاجة إلى الاستفراغ؛ لأنَّ احتقانه[1] يؤدِّي إلى أمراض كثيرة يفضي بعضها إلى تسمم الدم؛ فماذا كان يفعل إذن مع تلك القوة التي كثَّرها الحافظ إلى قوة أربعة آلاف؟

أما نحن فنقول في الجواب: إنَّ هديه ﷺ أحسن الهدي في الباءة؛ وإنه كان من أقدر الناس عليه لاعتدال صحته؛ ولكننا نتشكك بحق؛ **أولاً**: في التقييد بالساعة الواحدة؛ ويمكن أن نُأَوِّلها بالليلة؛ وإنما استبعدنا تأويلها بها آنفاً؛ لمَّا جعل الشُّرَّاح حسبما قدمناه؛ في طريق هذا التأويل؛ من أحجار العثار؛ فأمَّا إذا طرحنا كلامهم؛ سَهُلَ ما توَعَّر من التأويل؛ لا سيما وقد أخرج البخاري في كتاب النكاح عن أنس نفسه: «أنَّ نبي الله ﷺ كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة وله يومئذ تسع نسوة» وبوَّب عليه البخاري هناك بمثل ما بوَّب عليه هنا؛ ومنه يعرف انقطاع حبلهم وسقوط كلامهم؛ وبهذا تندفع الترديدات السابقة في الإنزال وعدمه.

وثانياً: لا نعترف بما أشار إليه الحافظ من اقتداره على كثرة الجماع ناشئ عن القوة التي بالغ في تكثيرها إلى ما علمت؛ ولكنه من نشأته كان صحيح البنية؛ كاملة المنَّة؛ متماسك القوة؛ وأما القوة التي أوتيها بطريق الإعجاز فيما بعد ذلك؛ فهيهات أن يكثر تأثيرها في شهوة النساء؛ ولئن سلمنا ذلك؛ فلن ينتج إلّا خيراً؛ لأنه كان مع قوتها يزِمَّها بالتوقِّي؛ فما كان ﷺ شهوانياً قط؛ ولكنه لما كانت روحه عالية كبيرة قوية؛ تكاد تلتهم الهيكل الجسماني وتخترق الطبائع

---

(١) أي الجماع.

البشرية؛ وتطير به إلى الأفق الأعلى؛ وتزجُّ به في حضائر القدس والملائكة المقربين؛ احتاج في كماله إلى تضاعف القوى البشرية بنفس الخلقة؛ لينحفظ التوازن؛ ويرتقي من الكمال ذروة لم يبلغها أحد قبله؛ لا من الملائكة ولا من النبيين.

ولأنَّ مصالح التبليغ؛ وأداء الأمانة؛ ومقاساة الأهوال؛ ومخاطبة الأجلاف؛ وإرشاد الأمة؛ وتبيين الأحكام؛ ومعاناة الأثقال؛ كل ذلك متوقف على كمال القوة؛ وشدة الأسر. وإلّا فأيُّ عقلٍ يتصور أن رجلاً سليم الذوق؛ صافي الطبع؛ حميَّ الأنف؛ شديد الغيرة؛ يرغب عن امرأة؛ مقابلة الشرف؛ بارعة الجمال؛ تحت قدرته وفي متناول يده؛ حتى إذا زوَّجها بأحد عبيده؛ وافتض عذرتها؛ وأخذ بكارتها؛ ومضت له برهة من الدهر يتفخذها؛ ويقضي سائر أوطاره منها. أيجوز في العقل بعد هذا كله؛ من ذلك الرجل الذي اتفق أعداؤه؛ فضلاً عن أوليائه؛ على رجاحة عقله؛ أن يتيِّمه هواها؛ أو يشغفه حبها؛ أو يتخذها عقيدة داره ولصيقة جواره؟ وكيف يجدع أنف الغيرة بدءاً وعوداً؛ لولا امتثاله في الحالين لأمر ربه؛ واستسلامه لتنفيذ قضائه في تبليغ أحكام رسالته؛ واطلاعه على سريرة الأمر من بدايته؛ لكي يتولى بنفسه هدم ما تأصل من عوائد الجاهلية في نفوس أمته؛ وإن كلَّفه ذلك ما كلفه؛ ذلك الرجل هو وسيلة الصادر والمنقلب محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؛ وتلك المرأة هي زينب ابنة جحش ﷺ ورضي عنها[1]. ولقد كفر ابن حجاج في قوله:

أَمَا رَأَيْتَ الهَوَى اسْتَولَى بِفِتْنَتِهِ   عَلَى النَّبِيينَ واسْتَغْوَى بِهِ الرُّسُلا

---

(١) عن الشعبي عن عائشة ﵂ قالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

فَـإِنْ شَـكَـكْـتَ فَـسَـلْ زَيْـداً بِـقِـصَّـتِـهِ وَأَوْرِيَـاءَ يـقـولا الـحَـقَّ إنْ سُـئِـلا
لِـم بَـتَّ هَـذَا طَـلاقـاً حَـبْـلَ زَوْجَـتِـهِ وَذَاكَ فِـي وَقْـعَـةِ الـتَّـابُـوتِ لِـم قُـتِـلا

ولم يَعْرِفْ سرَّ القضية؛ فقال عن جهل ما هو له أهل؛ فعليه من الله ما يستحقُّه. ثم النفي من الشهوة في كلامنا؛ هو الانقياد لهواها؛ والأخذ في رضاها؛ وبمثله قالوا في محبته ﷺ للحلواء والعسل؛ فليس المراد منها البحث عنهما؛ أو الاعتناء في تحصيلهما؛ كلا؛ ولكنه إذا حضر أحدهما تناول منه نيلاً صالحاً أكثر مما يتناوله من غيرهما؛ ومع شدِّة ميله إلى النساء كما سبق؛ وإفراط قوَّته كما قرره الحافظ؛ فقد عُلِمَ من حالة العزوبة تارة؛ والاقتناع بالمرأة الواحدة في ميعة القوى وعنفوان الشباب.

ونحتاج حينئذ في الجواب عما أوردناه آنفاً من الحاجة إلى الاستفراغ؛ إلى ما نقل عن إياس بن معاوية في جواب مُلْحِدٍ قال: ما أحمق المسلمين؛ يزعمون أن أهل الجنة يأكلون ولا يحدثون؛ فقد قال له إياس: أفكلما تأكله تحدثه؟ قال: لا؛ لأن بعضه يصير غذاءً؛ قال له: فَلِمَ تنكر أن يجعل الله ما يأكله أهل الجنة كلّه غذاء؛ فانقطع. فإن قال: يَلْزَمْ من استحالة الطعام غذاء كله؛ تَعَاظُمْ الأجسام إلى ما لا نهاية له؟ قلنا: قد عُرِفَ أنَّ كثيراً من الأجسام تتبخر في هذه الحياة؛ حتى أنَّ الإنسان ليكون بعد سبع من السنين غيره فيما قبلها؛ فلا مانع من نظيره في الآخرة؛ على أن ما جاء من رشح أهل الجنة يغني عن كل شيء؛ فالإشكال معدوم من أصله؛ وإنما آثر سواه إياس؛ لأنَّ من شرط الدليل أن يكون موضع وفاق بين الخصمين؛ وربما ينكره الملحد فلا تلزمه الحجة فأحتج بالمحسوس.

رابعها: أنه لم يجتمع عنده ﷺ تسع نسوة يجامعهن كلهن؛ ولم يكتملن تسعاً إلّا وقد ترك سودة؛ فلم يمَسَّها؛ وكانت وهبت يومها لعائشة؛ والجواب بأنهم ضموا جاريتيه مارية وريحانة إلى العدد؛ مخدوش؛ لأنه يجعلهن عشراً لا تسعاً ولا إحدى عشرة؛ فلا بدّ لهذا الإشكال من جواب آخر تطمئن إليه النفس ويسكن عليه القلب؛ وذكر الواقدي؛ أنَّ ريحانة من أزواج النبي ﷺ؛ ووافقه عليه

الدمياطي؛ ولو صحَّ هذا لكان شافياً في الجواب؛ ولكنَّ أكثر أهل العلم على أنها من إمائه.

وبعد: فإننا وإن ناقشنا في هذه الفائدة؛ والتي قبلها؛ بعض من خرج عن حدّ الأدب مع السلف الطيب من غير دليل؛ لا نخالف ما نقرره؛ في مجلس إلى آخر؛ من بُعْدِهِمْ عن التنطُّع؛ وتجافيهم عن التكلف؛ وسيرهم بسوق الطبيعة؛ لوضوح الفرق بين ما ينافي المروءة وغيره؛ ففي الصحيح عن حذيفة «أنه ﷺ أتى سباطة قوم فبال قائماً؛ قال: فانتبذت منه؛ فأشار إلي فجئته؛ فقمت عند عقبه حتى فرغ»، وعند مسلم أن الصحابة يتحادثون في المسجد بعد صلاة الصبح في أمر الجاهلية؛ والنبي ﷺ يتبسم من ذلك؛ وفي الصحيح أيضاً أنه يُمَكِّنْ الحبشة من اللعب بالحراب في مسجده؛ ويرفع عائشة لتنظر إلى لعبهم؛ ونهى عمر إذ تعرض لمنعهم؛ وقال: «**أَمْنا يا بَنِي أَرْفِدَةَ**» وكان ذلك في يوم عيد؛ وكان يسرب البنات إلى عائشة ليلعبن معها[١]؛ ويمر بأصحابه يلعبون عند باب المسجد ولا ينكر شيئاً من أمرهم، وسابق عائشة في السفر مرتين؛ سبقته في الأولى وسبقها في الثاني؛ فقال لها: «**هذه بتلك**»؛ وكان يدافعها إذا خرج من المنزل.

ومن هديه ﷺ؛ أنه ربما مدَّ يده إلى بعض نسائه بحضرة بعضهن؛ وسابق غير عائشة على الأقدام؛ وصارع وخصف نعله بيده؛ ورقع ثوبه؛ وخدم أهله؛ وحمل اللِّبْنَ في بناء المسجد؛ ويكون في مهنة أهله حتَّى لقد يعاون الخادم في الطحن؛ وكان أحبَّ الناس إلى الصحابة؛ وإذا دخل لم يقوموا له لما يرون من كراهيته لذلك؛ وكان يمشي وحده بين أعدائه؛ وإذا مشى مع أصحابه قدَّمهم وقال: «**خلوا ظهري للملائكة**»؛ وكان لا يتميز عن أصحابه، ولما عاد سعداً

---

(١) عن عائشة أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تغنيان وتدففان وتضربان والنبي ﷺ متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف النبي ﷺ عن وجهه فقال: دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد وتلك الأيام أيام منى وقالت عائشة: رأيت النبي ﷺ يسترني وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم فقال النبي ﷺ: دعهم أمنا بني أرفدة يعني من الأمن (صحيح البخاري ـ كتاب المناقب).

وأراد أن ينصرف أمر ابنه قيساً أن يتبعه بالحمار؛ فركبه ﷺ؛ ثم قال لقيس: اركب فأبى؛ فقال: «**إما تركب وإما أن أنزل**» فلما عرف الجد من رسول الله ﷺ؛ اعتزم على الركوب خلفه؛ فقال له النبي ﷺ: «**بل قدامي فصاحب الدابة أحق بمقدم دابته**» أو ما يقرب من هذا.

وخرج مرّة إلى قباء على حمار؛ وكان أبو هريرة يمشي؛ فقال له: «**اركب**»: فاستمسك برسول الله ﷺ ليركب؛ فأسقط النبي؛ ثم ركب رسول الله ﷺ وقال: «**اركب**»؛ فاستمسك به وأسقطه ثانياً؛ ثم ركب النبي ﷺ وقال له: «**اركب**» فقال: والله لا أسقطك ثلاث مرات يا رسول الله. وكان يحمل أمامة ابنة العاص وهو يصلي؛ إذا قام رفعها وإذا سجد وضعها، ومرَّ بعضهم به ﷺ وهو يصلي؛ والحسنان راكبان على ظهره؛ فقال: «**نِعْمَ الجمل جملهما**»؛ فلما سلَّم قال: «**ونعم الراكبان هما**».

وكان يقطع الخطبة لشغل يعرض له فيها ثم يرجع إلى حيث أراد منها، وعن أنس قال: «كان النبي ﷺ يصلي قبل أن يبني مسجده في مرابط الغنم»، وقالت عائشة: «كنت أغسل الجنابة من ثوب النبي ﷺ فيخرج إلى الصلاة وإنَّ البقع في ثوبه» تعني أنه لا يتكلف بانتظار الجفاف وليس هناك ما يدل على أن تلك المواضع هي مواضع جنابة؛ وعن عبد الله بن عمر: قال: «كانت الكلاب تقبل وتدبر في المسجد على عهد رسول الله ﷺ»[1].

وسئل النخعي: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يمزحون؟ قال: نعم والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي؛ وكانوا يتمازحون؛ فإذا خاضوا في الدين انقلبت حماليقهم.

وما أحسن ما نقله ابن قتيبة عن بعض السلف من قوله: ونحن نحمد الله

---

(١) عن عبد الله بن عمر قال: «كُنْتُ أَبِيتُ فِي الْمَسْجِدِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكُنْتُ فَتًى شَابّاً عَزَباً، وَكَانَتِ الْكِلَابُ تَبُولُ وَتُقْبِلُ وَتُدْبِرُ فِي الْمَسْجِدِ، فَلَمْ يَكُونُوا يَرُشُّونَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ». أخرجه أبو داود وابن حبان (١٦٥٦)، ق. وأخرجه ابن خزيمة وعلقه البخاري.

إليك فإن عقيدة الإسلام في قلوبنا صحيحة؛ وأواخيه ثابتة؛ ولقد اجتهد قوم أن يدخلوا قلوبنا من مرض قلوبهم؛ وأن يلبسوا يقيننا بشكِّهم؛ فمنعتنا عصمة الله منهم؛ وحال توفيقه دونهم؛ ولنا بعد في الدعابة مذهب جميل لا يشوبه أذى ولا قذى؛ يخرج بنا من الأنس إلى العبوس؛ ومن القطوب إلى الاسترسال؛ ويلحقنا بأحرار الناس وأشرافهم الذين ارتفعوا من لبسة الرياء؛ وأنَفِوا من التشوف بالتصنع؛ وأنَّ أحدهم لكما قال أبو الطيب:

تَـفَـكُّـرُهُ عِـلْـمٌ وَسِـيـرَتُـهُ هُـدَى   وَبَـاطِـنُـهُ دِيـنٌ وَظَـاهِـرُهُ ظُـرْفُ

وقال:

يَـرُوعُ رَكَـانَـةً وَيَـذُوبُ ظُـرْفـاً   فَـمَـا نَـدْرِي أَشَـيْـخٌ أَمْ غُـلامُ

وقال أبو تمام:

الـجِـدُّ شِـيـمَـتُـهُ وَفِـيـهِ فُـكَـاهَـةٌ   طَـوْراً وَلا جِـدٌّ لِـمَـنْ لا يَـلْـعَـبُ

وقال الأبيرد:

إذا جَـدَّ عِـنْـدَ الـجِـدّ أَرْضَـاكَ جِـدُّهُ   وَذُو بَـاطِـلٍ إنْ شِـئْـتَ أَلْـهَـاكَ بِـاطِـلُـهْ

وقال القطب الجيلاني قدس سره:

أَنَـا بُـلْـبُـلُ الأَفْـرَاح أَمْـلأُ دُوحَـهَـا   طَـرَبـاً وَفِـي الـعَـلْـيَـاءِ بَـازٌ أَشْـهَـبُ

وقال الطغرائي:

حُـلْـوُ الـفُـكَـاهَـةِ مُـرَّ الـجِـدِّ قَـدْ مُـزِجَـتْ   بِـشِـدَّةِ الـبَـأْسِ فِـيـهِ رِقَّـةُ الـغَـزَلِ

وخير من ذلك؛ قوله جل جلاله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ. . .﴾[1]، ولله در المتنبي في قوله:

أَبْـلَـغُ مَـا يُـطْـلَـبُ الـنَّـجَـاحُ بِـهِ الـطَّـ   ـبْـعُ وَعِـنْـدَ الـتَّـعَـمُّـقِ الـزَّلَـلُ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

وهذا المعنى قد يقرب من قول محمد بن كناسة:

فِيَّ انْقِبَاضٌ وَحِشْمَةٌ فَإذَا لَقِيتُ أَهْلَ الوَفَاءِ والكَرَمِ
أَرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُحْتَشِمِ

وقد اتفقت أن جلست مع قوم؛ فتفتحت كما هي عادتي في اطِّراح التكلف؛ فإذا هم يتطلبون العورات؛ ويتصيدون العثرات؛ ويتمنون أن لو ظفروا مني بعوراء يطيرون فرحاً بتناقلها؛ والإيحاء بها إلى شياطينهم؛ ولما أعياهم ذلك عمدوا إلى التقوُّل وتحريف الكلم؛ وذمُّوا بما يجب أن يمتدح به؛ من نوع ما ذكرت عن السلف؛ حتى جمعنا وإياهم النديُّ أخرى؛ فقلت في أثناء الكلام: إنني أجلس إلى القوم أحسن بهم الظن؛ فأرسل نفسي على سجيَّتِها؛ فإذا أخلفوا الظن وكانوا مثل الذبان يراعون مواضع العلل؛ كان الذنب عليهم لا عليَّ؛ إلّا في حسن ظني بمن ليس أهلاً. وتمثلت ببيتي ابن كناسة؛ والحمد لله الذي خيَّب آمالهم فلم يحصوا هفوة.

وقد أخرج أبو نعيم في الحلية بسنده إلى الشعبي أنه قال: لو أصبت تسعة وتسعين وأخطأت واحدة لأخذوا الواحدة وتركوا التسعة والتسعين؛ وما أشبه هذه بتلك. وقال هشام بن عبد الملك: قد أكلت الحلو والحامض حتى ما أجد لواحد منهما طعماً، وشممت الطيب حتى ما أجد له رائحة؛ وأتيت النساء حتى ما أبالي امرأة كانت عندي أو حائط؛ فما وجدت شيئاً ألذَّ من جليس تسقط بيني وبينه مروءة التحفُّظ.

وكان للوزير المهلبي[1] جماعة ينادمهم من القضاة؛ وهم التنوفي وابن معروف وابن قريعة؛ وما منهم إلّا أبيض اللحية طويلها؛ وكذلك كان الوزير؛ فإذا تكامل الانس؛ وهبوا الوقار للعقار؛ وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة

(١) من سلالة المهلب بن أبي صفرة كان عالماً وشاعراً وأديباً وكريماً ومحاسنه لا تعد من كثرتها تولى الوزارة لمعز الدولة البويهي وتوفي سنة ٣٥٢هـ ودفن ببغداد.

والطيش؛ ورقصوا بأجمعهم؛ وغمسوا لحاهم في الشراب؛ ورشَّ بعضهم بعضاً؛ فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم من التوقُّر والتحفظ بأبهة العلم ورئاسة الوظائف. ولعلَّ ما يتناولونه يكون من النبيذ الذي لم يصل إلى حدّ الإسكار؛ من القدر اليسير المرخص فيه عند أهل العراق؛ وإلّا فهي خارجة عن سنّة السلف وطريقة الصالحين. وحريّةٌ أن لا تقرن بالكلام في سيرتهم السالمة عن التخليط؛ الذاهبة طريقاً بين الإفراط والتفريط؛ وإنما هي لبن خالص من بين فرث ودم.

وكان ابن سريج[١] كثيراً ما يتناظر مع أبي بكر محمد بن داود[٢] فاجتمعا في مجلس الوزير ابن الجراح[٣] وتناظرا في الإيلاء[٤]، فقال ابن سريج: أنت

---

(١) أبو العباس أحمد بن عمر بن سُريج الفقيه الشافعي كان من عظماء الشافعيين وأئمة المسلمين كان يفضل على جميع أصحاب الإمام الشافعي حتى على المزني ومنه انتشر مذهب الشافعي في أكثر الآفاق وكان يناظر أبا بكر محمد بن داود الظاهري وحكي أنه قال له أبو بكر يوماً: أنت تقول بالظاهر: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾؛ فمن يعمل نصف مثقال؟ فسكت محمد طويلاً؛ فقال له أبو العباس: لِمَ لا تجيب؟ فقال: أبلعني ريقي؛ فقال له أبو العباس: أبلعتك دجلة؛ وقال له يوماً: أمهلني ساعة؛ فقال: أمهلتك من الساعة إلى أن تقوم الساعة؛ وقال له يوماً: أكلمك من الرِّجْل فتجيبني من الرأس! فقال له: هكذا البقر إذا فيت أظلافها دهنت قرونها؛ وكان يقال له في عصره: إن الله بعث عمر بن عبد العزيز على رأس المائة من الهجرة فأظهر كل سنة وأمات كل بدْعة؛ ومنَّ الله على رأس المائتين بالإمام الشافعي حتى أظهر السنة وأخفى البدعة؛ وَمَنَّ الله بك على رأس الثلثمائة حتى قويت كل سنة وضعفت كل بدعة؛ توفي سنة ٣٠٦هـ.

(٢) أبو بكر محمد بن داود بن علي الفقيه الظاهري؛ ابن الإمام داود بن علي الظاهري كان عالماً بارعاً، إماماً في الحديث، أديباً، شاعراً فقيهاً، له كتاب الزهرة؛ اشتغل على أبيه وتبعه في مذهبه ومسلكه وكان أبوه يحبه ويقربه ويدنيه، توفي سنة ٢٩٧هـ.

(٣) الوزير العادل أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح البغدادي الكاتب. ولد سنة ٢٤٤هـ وكان عالماً كثير الصدقات والصلوات متواضعاً إماماً محدثاً ولم يكن له في زمانه نظير في علمه الإداري المالي الذي اشتهر به، وتولى وزارة المال لبني العباس مرتين؛ جاور مكة في آخر حياته، توفي في آخر سنة٣٣٤هـ وله تسعون سنة.

(٤) الإيلاء: وهو حلف الزوج بالله تعالى على ترك وطء زوجته في قبلها أكثر من أربعة أشهر.

بقولك: من كثرت لحظاته دامت حسراته؛ أبصر منك بالكلام في الإيلاء! فقال ابن داود: لئن قلت ذلك فإني أقول:

أُنَزِّهُ فِي رَوْضِ الـمَحَاسِنِ مُقْلَتِي ... وَأمْنَعُ نَفْسِي أَنْ تَنَالَ الـمُحَرَّمَا
وَأحْمِلُ مِنْ ثُقْلِ الـهَوَى مَا لَوْ أنَّهُ ... يَكُونُ عَلَى الصَّخْرِ الأصَمِّ تَهَدَّمَا
وَيَنْطِقُ طَرْفِي عَنْ مُتَرْجَمِ خَاطِرِي ... وَلَوْلا اخْتِلاسِي رَدَّهُ لَتَكَلَّمَا
رَأيْتُ الهَوَى دَعْوَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ... فَمَا أنْ أرَى حُبّاً صَحِيحاً مُسَلَّمَا

فقال ابن سريج: وبم تفتخر عليَّ ولو شئت لقلت:

وَمُسَامِرٍ بِالغَنْجِ فِي لَحَظَاتِهِ ... قَدْ بِتُّ أمْنَعُهُ لَذِيذَ سُبَاتِهِ
ضَنّاً بِحُسْنِ حَدِيثِهِ وَعِتَابِهِ ... وَأُكَرِّرُ اللَحَظَاتِ فِي وَجَنَاتِهِ
حَتَّى إذا مَا الصُّبْحُ لاحَ عَمُودُهُ ... وَلَّى بِخَاتَمِ رَبِّهِ وَبرَاتِهِ

فقال ابن داود: يحفظ الوزير عليه ذلك؛ حتى يقيم شاهدي عدل؛ على أنه ولى بخاتم ربه؛ فقال ابن سريج: يلزمني من ذلك ما لزمك في قولك:

أُنَزِّهُ فِي رَوْضِ الـمَحَاسِنِ مُقْلَتِي ... وَأمْنَعُ نَفْسِي أَنْ تَنَالَ الـمُحَرَّمَا

فضحك الوزير؛ فقال: لقد جمعتما ظرفاً؛ ولطفاً؛ وفهماً؛ وعلماً.

والكلام فيه منتشر؛ وسيمر بك في هذه المجموعة منه اللطيف الممتع؛ والكثير الطيب إن شاء الله تعالي. وعلى قول محمد بن داود: من كثرت لحظاته إلخ..؛ ذكرت ما رواه غير واحد عن أبي الفضل الأعرابي[(١)]؛ قال: خرجت حاجّاً؛ فلما مررت بِقِبَاء تداعى أهله ينظرون إلى امرأة كأنَّ وجهها سيف صقيل؛ فلما رميناها بالحدق؛ ألقت البرقع على وجهها؛ فقلنا: إنَّا سفر وفينا أجر فأمتعينا؛ فانصاعت وأنا أعرف الضحك في وجهها؛ وهي تقول:

---

(١) محمد بن أبي الفضل المعروف بابن الأعرابي؛ من علماء اللغة توفي بسامراء سنة ٢٨١هـ.

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً   لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الذي لا كلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ   وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

وقد أوردت هذه القضية في العود الهندي بنوع مخالفة؛ لأنَّ الرواة كابن قتيبة وأبي الفرج وغيرهم يزيد بعضهم على بعض فيها؛ وذكرت أيضاً قول بعض الأعراب:

إذَا هُنَّ أَبْدَيْنَ الْخُدُودَ وَحَسَّرَتْ   تَغُورُ عَنِ الأَفْوَاهِ كَيْ تَتَبَسَّمَا
أَجَادَ الْقُضَاةُ الْعَادِلُونَ قَضَاءهم   لهن بلا وهم وإن كن أظلما

وأما الاقتناع بالنظر عن المحرم؛ فبابٌ واسع؛ جاء منه في العود الهندي ما يكفي؛ ومثله قوله: وينطق طرفي الخ، ومنه قول الأول:

وَمُرَاقَبَيْنِ يُكَاتِمَانِ هَوَاهُمَا   جَعَلا الصُّدُورَ لِمَا تَجِنُّ قُبُورَا
يتلاحظان تلاحظاً وكأنما   يتناسخان من الجفون سطورا

وقال الراعي:

يُنَاجِينَنَا بِالطَّرْفِ دُونَ حَدِيثِنَا   وَيَقْضِينَ حَاجَاتٍ وَهُنَّ مَوَازِحُ

وقال الآخر:

وما خَاطَبَتْهَا مُقْلَتَايَ بِنَظْرَةٍ   فَتعلَمَ نَجْوانَا الْعُيونُ النَّواظِرُ
وَلَكِنْ جَعَلْتُ اللَّحْظَ بَينِي وَبَينَهَا   رَسولاً فَأَدَّى مَا تَجُنُّ الضَّمَائرُ

ونظر أشعب إلى ابنه وهو يحدق النظر إلى امرأة فقال: يا بني إن نظرك هذا لَيُحْبِلُ؛ وقال بعضهم في المعنى:

وِلِيَ نَظْرَةٌ لَوْ كَانَ يُحْبِلُ نَاظِرٌ   بِنَظْرَاتِهِ أُنْثَى لَقَدْ حَبِلَتْ مِنِّي

وقال الفرزدق:

فَلا تَدْخُلْ بُيُوتَ بَنِي كُلَيْبٍ   وَلا تَقْرَبْ لَهُمْ أَبَداً رِحَالا

فَـإِنَّ لَـهُـمْ لَـوَامِـعُ مُـبْـرِقَـات يَـكَـدْنَ يَـنِـكْـنَ بِـالـحَـدَقِ الـرِّجَـالا

ومن محاسن ابن داود هذا؛ أنه ترافع هو وخصم له إلى القاضي إسماعيل بن إسحاق؛ ولما توجهت عليه اليمين تهيأ لها؛ فقال القاضي له: أيحلف مثلك يا أبا بكر؟ قال: وما يمنعني من الحلف؛ وقد أمر الله نبيَّه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه، قال القاضي: أين ذلك؟ قال: في قوله: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ...﴾[1] وفي قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ...﴾[2] وفي قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3] فاستحسن ذلك منه؛ ولم يَدْعُهُ من بعدها إلّا بالفقيه. وقوله: أُنَزِّه بمعنى التمتع وهو غلط؛ لأنَّ التَّنَزُّهْ إنما هو التباعد، قال الجوهري وابن سيده: واستعمال التَّنَزُّه في الخروج إلى البساتين والخضر والرياض؛ غلط قبيح؛ ونقله صاحب القاموس؛ وأجاب عنه شارحه ثم رد الجواب؛ ولكن العرف قد انتشر في ذلك؛ وجاء في كلام أئمة اللغة وأراكين العلم؛ فلا معابة عندي فيه والله أعلم.



(١) سورة يونس، الآية: ٥٦.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣.
(٣) سورة التغابن، الآية: ٧.



الفائدة

الرابعة عشرة

الفائدة الرابعة عشرة

جاء في حديث أنس ﷺ قال: «كنت رديف أبي طلحة فأجرى نبي الله ﷺ في زقاق خيبر؛ وإنَّ ركبتي لتمس فخذ نبي الله ﷺ؛ ثم حسر الإزار عن فخذه؛ حتَّى أني أنظر إلى بياض فخذه».

وفيه دليل على أن الفخذ ليس بعورة؛ لأنه صريح في أنه ﷺ حسر الإزار اختياراً؛ وما كان ﷺ ليفعل وهو عورة؛ وقد جاء في وصفه شدة الحياء؛ ولئن قيل بما لا يحتمله ظاهر اللفظ؛ من أن الإزار إنما انحسر بغير إرادته؛ ولكن لضرورة الركض؛ بدليل ما جاء في مسلم: فانحسر؛ فإنه بعيد مخالف لصريح رواية البخاري؛ فَحَمْلُ رواية مسلم على ما يوافق رواية البخاري أيسر مؤونة من العكس؛ ما لم يدَّعِ مُدَّعٍ أنَّ الإزار مرفوع في رواية البخاري على الفاعليَّة؛ وأنَّى بقبول ذلك دون شاهد صحيح من الرواية؛ على أنه لا يخلص من المدَّعى؛ لأنَّ استمراره على ذلك يدل على ما سبق؛ من أنَّ الفخذ ليس بعورة؛ لا سيَّما وأنَّ الاستمرار عليه بمثابة التجدد؛ كما يعرف من قواعد الأصحاب المقررة في كتاب الإيمان.

فإن زعموا أن انكشافه واستمراره عليه كان من غير اختيار منه؛ جاء إشكال آخر؛ إذ يدل حينئذٍ على عدم الفروسية؛ وقد جاء في التاريخ عن جساس بن مرة[1]؛ أن إزاره لم ينحسر عن ركبتيه في ركض قط؛ إلّا يوم عاد من قتله كليباً

(١) جساس بن مرة أمير فارس شجاع من فرسان الجاهلية من قبيلة بكر قتل كليب بن ربيعة فنشبت حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب واستمرت أربعين سنة.

لفرط دهشته وذعره؛ ولهذا فطن أبوه قبل أن يستيقن الخبر؛ وقال لمن حوله: لقد جاءكم جساس بداهية ما رأيت ركبتيه بارزتين غير اليوم! فكيف يقال: إنه ﷺ لا يحسن الركوب؛ وهو السابق على الفرس العَرِيِّ لأبي طلحة[١] ليلة الفزع كما في الصحيح. وأبعد من ذلك أن: يقال أخذه الدهش فاستمر؛ وهو الثابت[٢]؛ إذا قَلصَتْ الخِصِيُّ؛ وحارت النُّهَى؛ وَظُنَّتْ الظنون؛ وأحولت العيون[٣]، وكذا تجَسَّم لي الإشكال بَدِيّاً ثم خَفَّ بالنسبة لمجرد الانكشاف؛ لا بالنسبة لاستمراره؛ بأنه لا يلزم من الفروسية عدم انكشاف الفخذ بالكلية؛ وما يؤثر عن جساس وعن مثل ربيعة بن مكدم[٤]؛ خروج عن حدّ الاعتدال؛ فلا يعاب به الفارس؛ كما لا يعاب بالسقوط إذا عرض لسبب من الأسباب؛ وهو أكبر من انكشاف الفخذ؛ وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ سقط؛ ففي البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ركب فرساً فصرع عنه[٥] فجحش شقه الأيمن؛ الحديث. وعند أبي داود عن جابر قال: ركب رسول الله ﷺ فرساً بالمدينة؛ فصرعه على جذع نخلة؛ فانفَكَّت قدماه؛ الحديث، وقد يُتَأَوَّل له بأنه إنما سقط مع الفرس لا وحده؛ ولكنَّ ظاهر اللفظ يتجافى عنه؛ وإنما يصح لو ساعد عليه دليل من النقل فليراجع.

---

(١) يطلق العرب أسماء على خيولهم وفرس أبي طلحة الذي ركبه رسول الله ﷺ يقال له مندوب وقال عنه ﷺ: وجدناه بحراً (أي: واسع الجري) وفي الحديث عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عري في عنقه السيف وهو يقول: لم تراعوا لم تراعوا قال وجدناه بحراً أو أنه لبحر قال وكان فرساً يبطئ (صحيح مسلم كتاب الفضائل).

(٢) أي الرسول ﷺ.

(٣) أي من الخوف كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١١].

(٤) ربيعة بن مكدم هو أحد فرسان العرب المعدودين في الجاهلية كان يضرب به المثل في الشهامة والنجدة وفرسه يقال لها اللطيم.

(٥) الصرع: الطرح على الأرض؛ والجحش الخدش أو أشد منه قليلاً والخدش جرح الجلد.

أما دعوى استمراره على انكشاف فخذه من غير اختيار؛ فغير مناسب لفروسيته وثباته أصلاً؛ وكثيراً ما يشاهد اليوم من الفوارس من لا ينحرف قدمه عن الركاب ولا إزاره عن الفخذ. وشبيه بما تفرس مُرَّة من ظهور ركبة جساس؛ ما أخرجه البخاري عن أبي الدرداء قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخِذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته؛ فقال النبي ﷺ: «**أما صاحبكم فقد غامر**»؛ فَسَلَّم وقال يا رسول الله: إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء؛ فأسرعت إليه ثم ندمت؛ فسألته أن يغفر لي فأبى عليَّ؛ فأقبلت إليك إلى آخر الحديث[١].

وقد اختلف العلماء في الفخذ؛ قال النووي: ذهب أكثرهم إلى أنه عورة؛ وأقول دليلهم في ذلك ما أخرجه أبو داود عن علي؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تبرز فخذك ولا تنظر إلى فخذ حي ولا ميت**» وهو حديث معلل[٢]، وما أخرجه البخاري في التاريخ؛ قال: مَرَّ النبي ﷺ على معمر وفخذاه مكشوفان؛ فقال: «**غَطِّ فخذيك فإن الفخذين عورة**»، وفي سنده من لا يحتجُّ به؛ وفي معناه أيضاً أحاديث لا يسلم سند واحد منها عن الضعف. والحديث الذي نحن بصدده حُجَّة لمن ذهب إلى أن الفخذ ليس بعورة. وفي مسلم عن عائشة قالت: «كان النبي ﷺ مضطجعاً في بيتي كاشفاً عن فخذيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على حاله؛ ثم استأذن عمر فأذن له وهو على حاله؛ فلما استأذن عثمان جلس وأرخى عليه ثيابه» الحديث بمعناه. وفي البخاري ما يقاربه؛ ودعوى أنَّ ذلك خاص بالنبي ﷺ مردود؛ لأنه أشدُّ حياءً من غيره؛ وتخصيص العورة بالسوأتين؛ كما في رواية عن مالك وأحمد؛ إسراف تشمئز منه النفوس؛ والأولى أن يقال: إنَّ ما قرُبَ إلى الركبة من الفخذ ليس بعورة؛ ولكن الأولى ستره؛ إلّا عند من لا

---

(١) قوله: فقد غامر: أي خاصم، والمعنى دخل في غمرة الخصومة، والغامر الذي يرمي بنفسه في الأمر العظيم كالحرب وغيره. وقيل هو من الغمر وهو الحقد، أي صنع أمراً اقتضى له أن يحقد على من صنعه معه ويحقد الآخر عليه.

(٢) الحديث المعلل ويسميه أهل الحديث المعلول هو الحديث الذي فيه علة تقدح في صحته، مع أن ظاهره السلامة منها.

يُسْتَحَى منه؛ ممن زاد به الاختصاص؛ وارتفعت كلفة التحفظ. ويستأنس به حينئذٍ لما سبق في الفائدة قبل هذي.

وأما الطرف الثاني: فإنه عورة؛ والمرجع في التحديد إلى العرف، ولا شك أن البارز من فخذه ﷺ في الحالين؛ إنما هو الذي يلي الركبة؛ بدليل ما أورده البخاري أنه ﷺ كان قاعداً في مكان فيه ماء؛ فكشف عن ركبتيه؛ فلما دخل عثمان غطاهما، ويتبادر أنَّ الذي أمر بستره وغض النظر عنه؛ هو الطرف الآخر، ولقد أساء الأدب من ظن البارز من فخذ النبي ﷺ كان أعلاه.

وفي حديث عمرو بن سلمة: «فقدمني قومي وأنا ابن ست أو سبع سنين؛ وكانت علي بردة؛ كنت إذا سجدت تقلصت عني؛ فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون إست قارئكم؛ فقطعوا لي قميصاً، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص»، وقد استدلوا به على صحة إمامة الصبي. وردوا زعم من وَهنَ الاستدلال بأنه ليس فيه اطِّلاع النبي ﷺ؛ بامتناع تقرير الصحابة في زمان الوحي على ما لا يجوز؛ ولهذا استدل جابر وأبو سعيد على جواز العزل؛ بأنهم كانوا يفعلونه والقرآن ينزل؛ ولا دليل فيه على صحة الصلاة مع انكشاف العورة؛ ولا يصح القول بأنها واقعة حال يتطرق إليها الاحتمال فيسقط بها الاستدلال؛ لأنها تكررت؛ فيأتي فيها ما سبق من امتناع التقرير على ما لا يجوز في زمان الوحي؛ ثم إنه لا يمكن أن يكون المراد من قول المرأة: الإست؛ حلقة الدبر؛ **أمَّا أولاً**: فلإطلاق الإست في اللغة على سائر العجز، **وأما ثانياً**: فلأنه لا مانع من الصرف عن حقيقة العجز إلى ما نزل عن الفخذ؛ لتوفر القرائن الصارفة إليه؛ ومنها قول عمرو: إذا سجدت تقلصت، وأول ما يظهر من العجز حلقة الدبر؛ إذ هي من الساجد أسفل من المآكم؛ فلا محيص مع ما سبق عن أحدِ ثلاثة أمور: أما حمل الإست على الحقيقة؛ فيستدل به على صحة الصلاة مع انكشاف حلقة الدبر؛ ولا قائل به، وأما حملها على ما يقاربها من أعالي الفخذ؛ وفيه: إما صحة الصلاة مع انكشافه فيكون حجة على الأكثرين؛ ودليلاً لما رُوِي حسبما مر عن مالك وأحمد؛ وروي أيضاً عن ابن جرير وأهل الظاهر والاصطخري؛ وفي ذلك بُعْد؛

وأمَّا بطلان الاستدلال بالحديث رأساً؛ وهو محال بعد إصفاقهم على صحته؛ **والثالث**: حملها بالمجاز على النازل من الفخذ المفضي انكشافه إلى ظهور ما فوقه وهو المطلوب، وبه تنفك العقد بأجملها من هذا الحديث ويحصل المراد؛ ومتى تعين الصرف إلى المجاز كان اللائق حمله على ما ينحل به الإشكال لا على ما لا يفيد. **فَتَحَصَّل**: أن البردة تقلص إذا سجد عن بعض فخذه؛ فخشيت المرأة من زيادة التقلص ظهوراً على الفخذ المقارب للسوأة مع صغر أعضائه؛ ومن المعلوم وجوب ستر ما لا يتحقق ستر الواجب إلّا بستره؛ وإطلاق المرأة الإست على ذلك المكان في مقام الحث والتوبيخ؛ ظاهر العلامة.

فإن قلت: جاء في رواية أبي داود: فكنت أؤمهم في بردة موصلة فيها فتق فكنت إذا سجدت خرجت إستي! **قلت**: **أما أولاً**: فإنه مغاير لما في الصحيح مع تعذر الجمع؛ لبعد ما بين الفتق والتقلص؛ وما في الصحيح أحرى بالقبول، **وأما ثانياً**: فإنا وإن لم نقل بعموم الإست للعجز؛ فإنه لا يمكن أن يكون الفتق هنا بإزاء السوأة؛ ولا سيما مع (كان) الدالة على الاستمرار؛ وأنهم لأرجح عقلاً من استدامة ذلك بدون أن يتفضلوا عليه بخيط يرتقونه به؛ قبل أن تنبههم المرأة إليه؛ **وأما ثالثاً**: فإن للعلماء كلاماً في الصلاة بالسترة المفتوقة؛ حتى قال النووي في المنهاج: وله ستر بعضها أي العورة بيده في الأصح، وكتب عليه ابن قاسم[(١)]: أي: مع القدرة على الساتر وإلّا فلا معنى لمنع المقابل مع العجز اهـ[(٢)].

ولقد كانت الرقاع كثيرة في ثياب أصحاب رسول الله ﷺ، وأحرى بالثوب المرقوع من القدم أن تكون فيه فتوق صغيرة لا يرى صاحبها بأساً بتركها على

---

(١) ابن قاسم العبادي له حاشية على تحفة المنهاج لابن حجر الهيتمي.

(٢) لاحظ المحقق أنه قد يرتخي الإزار غير المربوط أحياناً أثناء الصلاة مع احتمال انكشاف العورة كما قد يكتشف المصلي في إزاره أثناء الصلاة فتحة تسمح بانكشاف العورة الأمامية؛ فقول الإمام النووي بجواز سترها باليد دون الإخلال بالصلاة فيها تخفيف على المصلي وعدم الحاجة لإعادة الصلاة أو إبطالها لتغيير الإزار.

حالها؛ مع ما هم عليه من البساطة؛ فتكون المسألة حينئذ بكونه عورة؛ ضعيفة الإسناد؛ كثيرة العلل؛ لا تقاوم نقيضها؛ ولئن قالوا: إنها قول؛ والنقيض فعل؛ وقد تقرر في الأصول أن القول مُقَدَّمٌ على الفعل؛ قلنا: **أولاً**: إنه ليس على إطلاقه؛ **وثانياً**: من المقرر في الأصول أيضاً: أنه لا يصار إلى الترجيح مع إمكان الجمع؛ فما قررناه في الفخذ من التفصيل؛ وأنَّ أعلاه عورة؛ وأسفله لا؛ وجمعنا بين الأحاديث بوجه جلي لا غبار عليه؛ وهو الجاري على قواعدهم؛ فهو الصواب إن شاء الله تعالى.





الفائدة

الخامسة عشرة

الفائدة الخامسة عشرة

قوله في حديث مالك بن بحينة ﵁: إن النبيَّ ﷺ كان إذا صلى فرج بين يديه حتى يبدو بياض إبطيه. يؤخذ من (كان) فيه الدالة على الاستمرار؛ أنه ﷺ كثيراً ما يتجرد عن القميص ويقتصر على إزار ورداء كهيئة العرب؛ وإن كان لا يمكن لأحدنا اليوم الاقتصار؛ ولا سيما في الجُمَعْ والجماعات؛ عليه؛ لأنه يحدث للناس من الأحكام بقدر ما أحدثوا من العادات، ومنه تعرف أن الذين يحثون على أزياء السلف؛ مع إجمال الكلام وإلقائه على عواهنه؛ إنما يقولون ما ليس لهم به علم؛ ويهرفون بما لا يعرفون، ويقولون أقوالاً ولا يفهمونها، ولو قيل: هاتوا حقِّقُوا؛ لم يحققوا. ففي منهاج النووي: أنَّ لبس فقيه قباء وقلنسوة حيث لا يعتاد؛ يسقط المروءة؛ وكان ﷺ يلبس العمامة ويلبس القلنسوة تحتها؛ وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة؛ ويلبس العمامة بغير قلنسوة، ولبس الجُبَّة والقباء والقميص.

وفي حديث أبي داود والترمذي عن أم سلمة قالت: «كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص» ولعلَّه إنما كان أحبّ إليه؛ لأنه أمكن في الستر من الرداء والإزار اللذين يحتاجان إلى الربط والإمساك بخلافه.

وفي حديث ابن عباس عند ابن ماجه وغيره؛ أنه ﷺ كان يلبس قميصاً قصير اليدين والطول، وفي رواية: كانت كُمُّهُ إلى الرسغ؛ وأخرج ابن عساكر أنه ﷺ كان يلبس قميصاً فوق الكعبين؛ مُسْتَوِي الكُمَّيْنِ بأطراف أصابعه.

وأخرج الطبري عن أبي الدرداء: أنه لم يكن لرسول الله ﷺ إلّا قميص

واحد؛ وهذا قد يعارض ما قبله؛ إلّا أن يجمع باحتمال استواء كميه بأطراف الأصابع حين الخياطة؛ ثم قطعه بَعْدُ؛ فصار إلى الرسغ.

وفي الصحيحين: قلنا لأنس: أي اللباس كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ أن يلبسها؟ قال: الحبرة بوزن عنبة؛ بُرودٌ مخططة تصنع باليمن؛ وكانت أشرف الثياب عندهم. وأخرج أحمد والترمذي وغيرهم: «**عليكم بالثياب البيض فالبسوها وكفنوا فيها موتاكم فإنها من خير ثيابكم**». وَرُوِيَ أنَّ أحبَّ الألوان إليه البياض؛ ولا تَخَالُفْ؛ لأن الأحَبِيَّة لا تستلزم الأكثرية؛ لا سيّما والمعروف من هديه ﷺ؛ أنه يلبس ما وجد؛ وقد يكون القميص أحبَّ إليه لبساً؛ والحبرة رداء؛ ومع حبه للحبرة فلا مانع أن يكون الأغلب من أحواله استعمال البياض؛ لأنها مخططة؛ وهو لم يكثر من لبس المخطط؛ كذا قال بعضهم.

ثم إنه ﷺ؛ قد يحب الشيء ويندب إليه ولا يفعله؛ لحكمةٍ ظاهرة أو خفيَّة؛ فقد قال: «**أفضل الصيام عند الله صيام داود؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً**» ولم يَرِدْ أنَّه أخذ بذلك؛ بل قالت عائشة: «كان يصوم حتى نقول لا يفطر؛ ويفطر حتى نقول لا يصوم»، وأخذ المناوي من حُبِّه ﷺ للقميص؛ أنَّ الأغلب عليه لبسه؛ وأخطأ في ذلك، والحديث الذي جعلناه أساس هذه الفائدة؛ حُجَّة عليه. وقال العراقي في الكلام على دفعه ﷺ قميصه لابن أُبَيْ[(١)] ليُكَفَّن فيه؛ ما نصه: وفيه لِبْسُهُ عليه الصلاة والسلام للقميص؛ وإن كان الأغلب من عادته وعادة سائر العرب لبس الإزار والرداء؛ انتهى.

---

(١) لما توفي زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام الرسول ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله: إنما خيرني الله فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. وسأزيده على السبعين، قال: إنه منافق. يقول: فصلى عليه رسول الله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

وقوله: لبس الإزار والرداء كالصريح في اقتصارهم على ذلك؛ وهو المطلوب؛ وينصره ما جاء في فتاوى ابن تيمية: أنَّ الغالب عليه ﷺ وعلى أصحابه أنهم كانوا يأتزرون اهـ.

وذكر الحافظ أنَّ ابن العربي قال: لم أر للقميص ذكراً صحيحاً إلّا في آية يوسف؛ وقصة ابن أُبَيْ؛ ولم أر لهما ثالثاً فيما يتعلق بالنبي ﷺ؛ ثم قال الحافظ: وكأنه قال ذلك قبل أن يشرح الترمذي؛ فلم يستحضر حديث أم سلمة؛ يعني السابق؛ ولا حديث أبي هريرة: «كان ﷺ إذا لبس قميصاً بدأ بميامنه»؛ ولا حديث أسماء بنت يزيد: «كانت يَدُ كُمِّ النبي ﷺ إلى الرسغ»؛ وكلها في السنن. اهـ باختصار. وقوله في الأخير: «يَدُ كُمِّ النبي ﷺ إلى الرسغ»؛ لعله سقط منها لفظ القميص عند الطبع؛ بدليل وجوده عند النسائي؛ وقد لبس النبيُّ ﷺ الصوف؛ قال ابن القيِّم: ومقصود ابن سيرين في إنكاره على من دخل عليه لابساً جُبَّة وإزاراً وعمامة كلها من صوف؛ أنهم يتحرونه ويمنعون أنفسهم من غيره؛ وكذلك يتحرّون زيّاً واحداً من الملابس؛ ويلتزمون برسوم وأوضاع وهيئات يرون الخروج عنها منكراً؛ وليس المنكر إلّا التقيُّد بها والمحافظة عليها؛ **والصواب**: أنَّ أفضل الطرق؛ طريق رسول الله ﷺ التي سنَّها؛ وأمر بها؛ ورغَّب فيها؛ وداوم عليها؛ وهديه في اللباس أن يأخذ ما تيسر منه؛ تارة من الصوف؛ وأخرى من الكتان؛ ومرة من القطن؛ ولبس البرود اليمانية؛ والبرد الأخضر؛ والجُبَّة الرومية؛ والقِبَاءَ والقميص والسراويل والرداء؛ إلى آخر كلامه؛ وما أخطأ إلّا في السراويل؛ فإنه لم يثبت أنه لبسه وإنما ثبت شراؤه له.

وصحَّ أن عمر بن الخطاب يستحيك لرسول الله ﷺ ولأصحابه الحلل؛ بألف درهم؛ وبألف ومئتي درهم للحلة الواحدة[1]. وصحَّ أيضاً عن أنس بن

---

(١) حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب أنبأ محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنبأ ابن وهب أخبرني يونس بن يزيد عن نافع عن عبد الله بن عمر عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يستحيك لرسول الله ﷺ ولأصحابه الحلل بألف درهم وبألف ومائتي درهم. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (المستدرك للحاكم النيسابوري).

مالك: أنَّ بعضهم أهدى للنبي ﷺ حلَّة اشتريت بثلاثة وثلاثين بعيراً وناقة؛ فلبسها النبي ﷺ مرة. وقال الواقدي: حدثني عبد الحكم بن عبد الله عن عكرمة؛ قال: رأيت ابن عباس يلبس المُطَرَّزْ من الخزِّ يأخذه بألف.

وصحَّ أنَّ ابن عباس خرج لمناظرة الحرورية[١]؛ قال: لبست أحسن ما يكون من حلل اليمن؛ فأتيتهم وهم مجتمعون في دارهم؛ فسلمت عليهم؛ فقالوا: مرحباً بك يا بن عباس فما هذه الحلة؟ قال: قلت: ما تعيبون عليَّ؛ لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل؛ ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ...﴾[٢]؛ إلى آخر الحديث المشتمل على المناظرة المفحمة.

وصحَّ لبسه ﷺ للأحمر؛ كما في الحديث المتفق عليه؛ عن البراء بن عازب قال: «رأيته في حلّة حمراء لم أر أحسن منه» وما ورد عن الأحمر مؤوَّلٌ أو غير صحيح، قال الحافظ: قال ابن القيِّم: كان بعض العلماء يلبس ثوباً مشبعاً بالحمرة؛ يزعم أنه يتبع السُّنَّة؛ وهو غلط؛ فإن الحلة الحمراء من برود اليمن؛ والبرود لا تصنع حمراً صرفاً؛ كذا قال؛ انتهى كلام الحافظ.

وظاهره عدم الرضا عن كلام ابن القيِّم؛ وصرح غيره بردِّه، وقال المناوي[٣]: وَزَعْمُ أنَّ المراد بالأحمر هنا؛ ما هو ذو خطوط؛ تَحَكُّم بلا دليل فيه؛ قال في المطامح[٤]: ومن أنكر لباس الأحمر فهو متهق جاهل؛ وإسناده إلى

(١) الحرورية فرقة من الخوارج اشتد أمرهم في عهد الإمام علي وخرجوا عليه في بلدة حروراء بالكوفة فقاتلهم وهزمهم في موقعة النهروان ومن عقائدهم تكفير مرتكب الكبيرة بلا توبة وردوا السنة لما قاسوه بعقولهم وكفروا علياً بعقولهم ناظرهم ابن عباس فعاد الكثير منهم إلى جيش علي.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٣) محمد عبد الرؤوف المناوي القاهري (٩٥٢ ـ ١٠٣١هـ) من كبار العلماء وله مؤلفات كثيرة منها حاشية على شرح المنهاج للجلال المحلي وتراجم السادة الصوفية وفي مناقب أهل البيت وأشهر كتبه شرح الجامع الصغير للسيوطي.

(٤) كثيراً ما ينقل المناوي عن كتاب المطامح واسم الكتاب مطالع التمام ونصائح الأنام؛ =

مالك باطل، ولكن جازف ابن العربي[1] فأفتى بقتل رجل عاب لبس الأحمر؛ قال: لأنه عاب لبسة لبسها رسول الله ﷺ؛ وقتل بفتياه كما ذكره هو، وهذا تهور غريب وإقدام على سفك دماء المسلمين؛ وسيخاصمه هذا القتيل غداً ليبوء بالخزي من اعتدى، وليست هذه بأول عجرفة لهذا المفتي؛ وجراءته وإقدامه؛ فقد ألَّف كتاباً في شأن مولانا الحسين؛ ﷺ وأخزى شانئيه؛ زعم فيه أن يزيد قتله بسيف جدِّه؛ نعوذ بالله من الخذلان. انتهى كلام المناوي.

وهذه العجرفة أكبر مما روي: أن رجلاً كان يأكل مع ولده من صحفة فيها دُبَّاء طفق يتتبعه؛ فعذله ولده؛ فقال له: كان رسول الله ﷺ يتتبع الدُبَّاء من جوانب الصحفة؛ فقال الولد: دعني من القاذورات؛ فلم يكن من الأب إلّا أن عمد لسيف كان قريباً منه فضرب به ولده حتى برد. وهذا كله بحكم الاستطراد؛ وتقاطر الفصول؛ وتداعي الأفكار؛ وتلاحق الأقوال؛ وإلّا فما غرضنا أن نفيض في لباسه ﷺ من سائر جهاته؛ لأن له موضعه إن شاء الله تعالي، وما عمدنا هنا إلّا لبعض كيفياته؛ لأن الفهم قد يذهب إلى أن الأغلب من أحواله استعمال القميص كما سبق عن المناوي.

والحق أن الأغلب عليه الاقتصار على عادة العرب من الإزار والرداء؛ أي مع العمامة؛ إذ لم يأت بقاؤه مكشوف الرأس إلّا ما قد يتوهم مما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس؛ أنه قال: كان ﷺ يلبس القلانس تحت العمائم وبغير العمائم؛ ويلبس العمائم بغير قلانس، وكان يلبس القلانس اليمانية؛ وهنَّ البيض المضرية؛ ويلبس القلانس ذوات الآذان في الحرب؛ وكان ربما نزع قلنسوته

= للقاضي أبي العباس أحمد الشماع الهنتاتي (ت٨٣٣هـ) وهو تلميذ الشيخ عبد الكريم البرجيني نسبة إلى بَرْجِين.

(١) هو محمد بن عبد الله المعافري المشهور بالقاضي أبي بكر بن العربي عالم أهل الأندلس ومسندهم ولد في إشبيلية سنة ٤٦٨هـ ورحل مع والده إلى الشام ومصر؛ أتقن الفقه والأصول والتفسير وعلم الكلام وبرع في الشعر والأدب؛ ولي قضاء إشبيلية وتوفي بفاس سنة ٥٤٣هـ.

فجعلها سترة بين يديه وهو يصلي؛ فقوله: وربما نزع إلى آخره؛ يحتمل أن يكون نزعها وبقيت العمامة؛ ويحتمل أن يكون نزعها ولا عمامة؛ فبقي مكشوف الرأس.

ويدل لاقتصاره على الإزار والرداء؛ أي مع العمامة؛ فوق ما سبق؛ عدة أخبار منها: حديث سلمان؛ قال: «ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه؛ على شملتان لي وهو جالس في أصحابه؛ فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره؛ هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؛ فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته؛ عرف أنِّي استثبتُ في شيءٍ وُصِفَ لي؛ فألقى رداءه عن ظهره؛ فنظرت إلى الخاتم فعرفته؛ فأكببت عليه أقبّله وأبكي» إلى آخر الحديث. وقريب من هذا مذكور في مسند أحمد؛ عن رسول قيصر إليه ﷺ؛ ومنها حديث السائب بن يزيد؛ قال: «ذهبت بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إنَّ ابن أختي وقع؛ فمسح رأسي ودعا لي بالبركة؛ وتوضأ فشربت من وضوئه؛ ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه». وفي غزوة أوطاس[1] عن أبي موسى: «أنه رأى بياض إبطيه حين رفع يديه يستغفر لأبي عامر». وفي الحديث المتفق عليه عن جابر: «أنه ﷺ صلَّى في ثوب واحد متوشحاً به»؛ وعن معمر بن أبي سلمة؛ قال: «رأيت النبي ﷺ يصلي في ثوبٍ واحد متوشحاً به في بيت أمِّ سلمة قد ألقى طرفيه على عاتقيه»؛ رواه الجماعة.

ولئن قيل: حاله في بيته؛ غيرها خارجه؛ قلنا: لا إيراد مع تعدد الوقائع؛ وكثرة الأحاديث في البيت وفي خارجه؛ وبين الناس وعلى المنبر؛ ومع (كان) الدالة على الاستمرار كما في الحديث الأول. وفي كتاب الحجة[2] عن ابن عباس قال: «صعد النبي ﷺ المنبر متعطفاً بملحفة على منكبيه»؛ والظاهر؛ أنه ما على منكبيه سواها وإلّا لذكره.

---

(١) غزوة حنين تسمى أيضاً غزوة أوطاس.

(٢) كتاب الحجة على أهل المدينة للإمام محمد بن حسن الشيباني صاحب الإمام أبي حنيفة.

وفي حديث طارق بن عبد الله المحاربي؛ الذي استدركه الحاكم وصححه؛ ووافقه الذهبي على تصحيحه: «فرفع رسول الله ﷺ يديه حتى رأيت بياض إبطيه»؛ وكان ذلك وهو يخطب على المنبر؛ وفي الحديث طول.

وأخرج ابن منده والحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أم الحصين الأحمسيَّة قالت: «رأيت رسول الله ﷺ عليه بُرْد قد التفع به تحت إبطه كأنِّي أنظر إلى عضلة عضده ترتج؛ يقول: أيها الناس اتقوا الله وإن أُمِّرَ عليكم عبدٌ حبشي فاسمعوا له وأطيعوا ما أقام لكم كتاب الله». وأخرج أحمد عن ابن عباس قال: «تدبرت صلاة رسول الله ﷺ فرأيته ساجداً مُخَوِّياً ورأيت بياض إبطيه». وأخرج أيضاً عن أبي سعيد قال: «رأيت بياض كشح رسول الله ﷺ وهو ساجد»[1]، وأخرج أيضاً عن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سجد رئي أو رأيت بياض إبطيه».

فتحصل: أنَّ أغلب أحواله الاقتصار على الإزار والرداء[2] والعمامة كما هي عادة العرب، إلّا أنه لا يدع رداءه على كتفه الشريف وجسمه مكشوف؛ بل يشتمل به حتى يغطِّي الأكثر من بدنه المعظم؛ ومما قد يدل لاقتصار العرب على ذلك قول ابن المُلَوَّح:

إِذَا رَاحَ يَمْشِي فِي الرِّدَاءَيْنِ أَسْرَعَتْ ... إِلَيهِ العُيُونُ النَّاظِرَاتُ التَّطَلُّعَا

وقال الجاحظ: العِمَّة والمُخَصَّرة عند العرب من السيما؛ وقد لا يلبس الخطيب الملحفة ولا الجُبَّة ولا القميص ولا الرداء؛ والذي لا بدَّ منه العمة والمخصرة؛ وربما قام عنهم وعليه عمامته وفي يده مخصَّرته اهـ.

والأخبار في اقتصارهم على الحلة أكثر من أن يضبطها الحصر؛ وإنما هي إزار ورداء؛ كما في القاموس وغيره؛ فقط. وقد جاء تفسيرها بذلك في حديث

---

(١) كَشْحُ الإِنْسَانِ: الجُزْءُ الجَانِبِيُّ مِنْ جِسْمِهِ مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ وَالخَاصِرَةِ.

(٢) الإِزَارُ: ثوبٌ يُحيط بالنِّصف الأسفل من البدن يذكر ويؤنث والرِّدَاءُ: ما يُلْبَسُ فوق الثيابِ كالجُبَّة والعَبَاءة.

الطبراني عن أبي أمامة؛ قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ؛ إذ لحقنا عمرو بن زرارة الأنصاري في حلّة؛ إزارٍ ورداء»؛ إلى آخر الحديث.

وأخرج الحاكم عن طارق بن شهاب؛ قال: لما قدم عمر الشام؛ لقيه الجنود عليه إزار وخفان وعمامة؛ وهو آخذٌ برأس بعيره يخوض الماء؛ فقال له قائل: يا أمير المؤمنين تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هذه! فقال عمر: إنَّا قوم أعزنا الله بالإسلام؛ فلن نبتغي بغيره؛ وهو من أظهر الأدلة لما نقصد إليه.

وأخرج أحمد أنَّ علياً كان يطوف الأسواق مؤتزراً بإزار مرتدياً برداء؛ ومعه الدُّرَّة كأنه أعرابي بدوي؛ فطاف مرة حتى بلغ سوق الكرابيس؛ فقال لواحد: يا شيخ؛ بعني قميصاً تكون قميته ثلاثة دراهم؛ فلما عرفه الشيخ؛ لم يشتر منه شيئاً؛ ثم أتى آخر؛ فلما عرفه لم يشتر منه شيئاً؛ فأتى غلاماً حدثاً؛ فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم؛ فلما جاء أبو الغلام أخبره؛ فأخذ درهماً ثم جاء إلى عليٍّ ليدفعه إليه؛ فقال له: ما هذا؟ فقال: يا مولاي إنَّ القميص الذي باعكه؛ كان يساوي درهمين؛ فلم يقبل الدرهم؛ وقال: باعني رضاي وأخذ رضاه. وإنما كانت تلك الألبسة خاصة بالأعراب في أيام علي؛ لما قد حدث قبله بأزمنة من الرفاهية في المعيشة؛ وصاروا يتمخطون في الكتان. وقال أبو داود: إنه لبس الحرير عشرون نفراً من الصحابة أو أكثر؛ منهم أنس والبراء بن عازب؛ وكأنهم حملوا النهي منه على التنزيه لا على التحريم؛ وقد سبق قريب من هذا أول الفائدة الثامنة.

وفي أخبار علي كرم الله وجهه؛ أنه ظهر عشيَّة بصفين في إزار ورداء؛ فقيل له: تقاتل أهل الشام بالغداة؛ وتبرز للناس في هذين! فقال: أبالموت تخوفوني؛ والله ما أبالي سقطت على الموت أو سقط الموت عليّ. وكان كرَّم الله وجهه؛ ربما اقتصر على العباءة وعصب وسطه بعقال؛ فقد أخرج أحمد أنه لما أرسل عثمان إلى عليٍّ؛ وجدوه مؤتزراً بعباءة محتجزاً بعقال وهو يهنأ[1] بعيراً له.

(١) أهنأه: أعطاه طعاماً أو نحوه.

وأخرج الحاكم عن عقبة بن عمرو قال: «أتينا عبد الله بن عمرو بن العاص[١] وعليه بردان قطريان وعمامة؛ وليس عليه سربال يعني القميص؛ وذكر حديثاً في الملاحم. وأخرج أيضاً على شرط مسلم عن سلمان بن ربيعة؛ قال: انطلقت في نفر من أصحابي حتى قدمنا مكة؛ فطلبنا عبد الله بن عمرو فوجدناه في المسجد؛ فإذا شيخ عليه بردان قطريان وعمامة ليس عليه قميص» (اختصرته وهو طويل في الملاحم)؛ وفي سياقة أخرى بلفظ: «فانطلقنا نطلبه حتى وجدناه في دبر الكعبة جالساً؛ فإذا هو شيخ قصير أرمص[٢]؛ أصلع؛ بين بردين وعمامة ليس عليه قميص».

وهاهنا لطيفة: قال ابن القيِّم: أما الأكمام الواسعة الطول التي هي كالأخراج؛ فلم يلبسها النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه البتَّة؛ وهي مخالفة لسنَّته؛ وفي جوازها نظر.

قال الشوكاني: وقد صار أشهر الناس بمخالفة هذه السنة في زماننا هذا العلماء؛ فترى أحدهم وقد جعل لقميصه كُمَّين؛ يصلح كل منهما أن يكون جبة أو قميصاً لصغير من أولاده أو يتيم؛ وليس في ذلك شيء من الفوائد الدنيوية؛ إلّا العبث؛ وتثقيل المؤونة على النفس؛ ومنع الانتفاع باليد؛ وتشويه الهيئة؛ ومخالفة السّنة؛ والإسبال والخيلاء اهـ.

ورأيت في ترجمة القاضي أبي يوسف المتوفى في سنة ١٩٢هـ؛ أنه أولَّ من غيَّر لباس العلماء إلى هذه الهيئة التي هم عليها في هذا الزمان؛ وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً؛ لا يتميز أحدٌ عن أحدٍ بلباسه اهـ.

---

(١) الإمام الحبر عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أسلم قبل أبيه وأخذ عن النبي ﷺ علماً كثيراً وبلغ ما أسند من الحديث ٧٠٠ وقد أذن له النبي ﷺ بكتابة السنة؛ قاتل في صفين في صف معاوية بأمر من أبيه ومات سنة ٦٣هـ.

(٢) أرمص من رمص العين وهو وسخ أبيض يجتمع في مؤق العين وقيل: إنه رمص من كثرة البكاء.

وفي طبقات ابن السبكي: أنَّ أحمد بن عيسى من فقهاء الشافعية استنبط من قوله تعالى: ﴿. . . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ. . .﴾[(١)] أنَّ ما يفعله العلماء والسادات من تغيير لباسهم وعمائمهم أمرٌ حسن؛ وإن لم يفعله السلف؛ لأن فيه تمييزاً لهم حتى يعرفوا؛ فيعمل بأقوالهم؛ وهو أخذ لطيف.

ويروى عن ابن عبد السلام[(٢)] أنه رأى منكراً بالمطاف فأنكره؛ فلم يقبل منه حتى لبس زي العلماء المخصوص؛ فَتُلقيَ كلامه بالقبول. وفي تحفة ابن حجر[(٣)]: أن زيادة الكم على الرسغ؛ حرام بقصد الخيلاء؛ ومكروه لغيره إلّا لعذر؛ كأن تميز العلماء بذلك. وعلى ذكر المنكر في المطاف تمثَّل لي قول عمر بن أبي ربيعة:

يَقْصِدُ النَّاسُ لِلْطَوَافِ احْتَسَاباً ... وَذُنُوبِي مَجْمُوعَةٌ فِي الطَّوَافِ

وقول العربي:

أَمَاطَتْ رِدَاءَ الخَزِّ عَنْ حُرِّ وَجْهِهَا ... وَأَلْقَتْ عَلى المَتْنَينِ بُرْداً مُهَلْهَلا

مِنَ اللاءِ لَمْ يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ قُرْبَةً ... وَلَكِنْ لِيَقْتُلْنَ البَرِيءَ المُغَفَّلا

وقول الحسن بن هاني:

وَعَاشِقَيْنِ التَفَّ خَدَّاهُمَا ... عِنْدَ استِلامِ الحَجَرِ الأسْوَدِ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٢) سلطان العلماء العز بن عبد السلام من مواليد دمشق وأصله من المغرب أخذ العلم عن كبر وبرع في كثير من العلوم وكان مهاباً عارض قيام المماليك بالبيع والشراء وزواج الحرائر وهم عبيد رغم أنهم أمراء البلاد فلما رفضوا حمل متاعه على حمار وقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ ثم استرضاه الملك الصالح وأمضى فتواه كما عارض تولي شجرة الدر الحكم ووقف مع قطز يحرض الأمراء والناس على مقاتلة التتار ومنع أخذ مال الناس للحرب إلّا بعد نفاد بيت المال وإخراج الأمراء والأغنياء أموالهم حتى يتساوى الناس في نفقة الحرب وتوفي بمصر سنة ٦٦٠هـ وله عدة تصانيف ومن تلاميذه الفقيه ابن دقيق العيد.

(٣) تحفة المحتاج بشرح المنهاج لابن حجر الهيتمي.

فَاسْتَشْفَيَا مِنْ غَيْرِ أنْ يَكْشِفَا ... كَأنَّمَا كَانَا عَلَى مَوْعِدِ
لَوَلا دِفَاعُ النَّاسِ إيَّاهُمَا ... لَمَا اسْتَفَاقَا آخرَ المَسْنَدِ

وقول بعض الأعراب:

ألا حَيِّ أطْلالاً لِوَاسِعَةَ الحَبْلِ ... ألُوفٌ تُسَوِّي صَالِحَ القَوْمِ بِالرُّذْلِ
يَبِيتُ بِهَا الحُدَّاثُ حَتَّى كَأنَّمَا ... يَبِيتُونَ مِنْهَا فِي مَرَاتِعَ لِلْنَّحْلِ
وَلَوْ شَهِدَتْ حُجَّاجَ مَكَّةَ كُلَّهُمْ ... لَرَاحُوا وَكُلُّ القَوْمِ مِنْهَا عَلى وَصْلِ

ورأيت في كتاب قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون؛ للشيخ المحدث عبد الرحمن بن علي بن محمد بن محمد الشيباني؛ مؤلف تيسير الأصول؛ أنَّ المُعِّز إسماعيل بن طغتكين؛ مَلكَ اليمن بعد والده؛ ثم أظهر التشيّع؛ وتولَّع بذبح بني آدم وأكلهم؛ حتى لقد حُكِيَ أنَّ الأتابك[١] دخل عليه يوماً فقال: ما أحسن أضلاعك هذه؛ شواء؛ فلم يشك أنه يريد ذبحه؛ فهرب منه؛ وكان ظالماً للرعايا وللجند؛ وكان معظم جنده من الأكراد؛ فاتفقوا على قتله؛ وكان يلبس لباس الخلفاء؛ القمصان ذوات الأكمام الطوال التي تُسَمَّى الثمانية والعشارية؛ يكون الكم ثمانية أو عشرة أذرع؛ بحيث إن الملك قد يرسل كمه من الروشن إلى الأرض؛ فيقبِّله الغلمان نيابةً عن يده، فخرج المعز يوماً من زبيد يريد القوز؛ على بغلة وعليه جبة مسبلة على يديه؛ فهجم عليه الأكراد قبال مدينة زبيد؛ فقاتلهم بمقرعه في يده؛ ساعةً؛ ثم استوحشته الخيل؛ فاستلَّ سيفه؛ وكان كلما أراد الضرب به؛ انسدل عليه الكم حتى قتل في رجب من سنة ٥٦٨ هـ، وكانت مدة حكمه خمس سنين لا برَّد الله مضجعه؛ ولا طيَّب ثراه؛ ولا أقال عثرته؛ فيا لها من قسوة شديدة؛ ووحشية هائلة؛ ما كنا لنصدق بها لولا الثقة بناقلها وخبرته بأحوال بلاده.

---

(١) الأتابك لقب تركي أطلقه السلاجقة على بعض رجال البلاط وهي مركبة من كلمتين (أتا) أي أب أو مربي و(بك) ومعناها مربٍ ثم أطلقت لمعان أخرى.

ومن العجب ما ذكره ابن خلكان؛ أن أبا الغنائم مسلم بن محمود بن نعمة ابن ارسلان الشيرازي؛ صنف للمُعِّز المذكور؛ على خبث طعمته؛ وقبح سريته؛ وسوء مذهبه؛ كتابه الذي وسمه بعجائب الأسفار وغرائب الأخبار؛ فقبَّح الله النفاق وأهله؛ إذ لا شك أن هذا الشيرازي داخل في قسم المصانعين السابق وصفهم في الفائدة الرابعة.

لطيفة أخرى: يتحصل من استقراء الأخبار والأشعار؛ تخصص الحضارمة في النسيج؛ أما الأشعار؛ فقد مرت بي عدة أبيات في تاج العروس؛ لا أدري محلها الآن[١]؛ ومنها قول الجعدي:

يُدِيرُ عَلَيْنَا كَأسَهُ وَشَوَاءَهُ مُنَاصَفَةً وَالحَضْرَمِيُّ المُحَبَّرُ

وأما الأخبار؛ فلم يكن إلّا قوله ﷺ في حديث الهجرة لعلي: «**نم على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر**». وذكر ابن القيِّم أنَّ غالب لباسهم كان من نسيج اليمن، وحضرموت يمانية.

وفي أخبار علي كرَّم الله وجهه: أنَّ الأشعث بن قيس اعترضه مرة بكلام وهو يخطب: فرَدَّ عليه وقال له: حائك ابن حائك. وروى أهل السِيَرْ أنه خطب إلى عليّ ابنته فقال له: أَغَرَّكَ ابن أبي قحافة يا بن الحائك[٢]. وما زال الإمام كرم الله وجهه شديد الوطأة على الحاكة؛ جَمُّ الذكر لمعايرهم؛ حتى لقد رُوِيَ عنه أنَّه قال: من كلَّم حائكاً لحقه شؤمه؛ فقيل له: لِمَ؛ وهم إخواننا! فقال: إنَّهم سرقوا نعل النبي ﷺ؛ وبالوا في فناء الكعبة؛ وهم تبع الشيطان؛ وشيعة الدجال؛ وسُرَّاق عمامة يحيى بن زكريا؛ وجراب الخضر؛ وعصا موسى؛ وغزل سارة؛ وسمكة عائشة من التنور؛ واستدلتهم مريم عليها السلام؛ فخالفوا بها إلى غير الطريق؛ فدعت عليهم؛ أنَّ يجعلهم الله سخرية وأن لا يبارك في كسبهم. والله أعلم بصحة

(١) الإمام يروي كل الأشعار والأخبار والأحاديث والآيات من ذاكرته العجيبة.

(٢) ابن أبي قحافة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد زوّج الأشعث أخته.

ذلك؛ فعلامة الانتحال ظاهره؛ والعهدة على الراوي.

وقال عثمان بن السماك: وجدت في كتاب أحمد بن محمد الصوفي بسنده عن عليّ يرفعه: من أدرك منكم زماناً يطلب فيه الحاكة العلم؛ فليهرب؛ قيل: أليسوا من إخواننا؟؛ قال: هم الذين بالوا في الكعبة؛ وسرقوا غزل مريم؛ وعمامة يحيى؛ وسمكة عائشة من التنور. قال في الميزان: هذا الإسناد ظلمات؛ ينبغي أن يغمز ابن السماك بروايته؛ وإن كان صادقاً فهو من أسمج الكذب متناً. ومهما يكن من الأمر؛ فالحياكة من الحرف الدنيئة[1]. قال بديع الزمان يخاطب الشريف أبا جعفر العلوي:

يَا بْنَ الفَوَاطِمِ والعَوَاتِكْ ... وَابْنَ التَّرَائِكِ وَالأرَائِكْ

أَنَا حَائِكٌ إنْ لَمْ أكُنْ ... عَبْداً لِعَبْدِكَ وَابْنُ حَائِكْ

فإن قيل: إنَّ الحياكة ضرورية؛ وقد قيل:

لَوْلا الحِيَاكَةِ وَالذِينَ يَلُونَهَا ... بَدَت الفُرُوجُ وَلاحَتْ الأدْبَارُ

أجيب: بأن الحجامة كذلك ضرورية؛ وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجامة؛ وقال إنه خبيث. وقد قيل في مدح حجَّام:

كَمْ مِنْ رِقَابٍ جَرَحْتَ طَائِعَة ... مِنْ غَيْرِ كَفَّيْكَ لا تُرَامُ حِمَى

ولكن فرق بين الحجامة والحياكة؛ إذ لا ملامسة للنجاسة في الحياكة؛ بخلاف تلك.

وأخرج الأصفهاني في كتابه الأغاني عن الجاحظ؛ قال: كان المغيرة بن شعبة؛ والأشعث بن قيس؛ وجرير بن عبد الله البجلي؛ متوافقين بالكناسة[2]؛ في

---

(١) الحياكة هي شبك الخيوط لتحويلها إلى قماش وكانت في الماضي تعمل باليد أما الآن فتقوم بها الآلات وتسمى بالفرنسية التريكو ويطلق المصريون على الخياطة حياكة وهو خطأ.

(٢) الكناسة: موضع إلقاء القمامة ولكن يبدو أنه اسم مكان بالعراق.

نفر؛ وطلع عليهم أعرابي؛ فقال لهم المغيرة: دعوني أحَرِّكه؛ قالوا: لا تفعل؛ فإن للأعراب جواباً يؤثِّر؛ قال: لا بدّ؛ قالوا: فأنت أعلم؛ فسأله عن أنفسهم؛ فرماهم بالدواهي حتَّى قالوا: أتعرف الأشعث بن قيس؟؛ قال: نعم؛ ذلك لا يعزى إلى قومه! قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأنهم حاكة اهـ.

وفيه إشارة إلى ما رُوِيَ عن الإمام من فساد أخلاق الحاكة وقلة غيرتهم. ومن كلام خالد بن صفوان في أهل اليمن وحضرموت؛ منها: ما أقول في قوم ليس فيهم إلّا حائك برد؛ أو دابغ جلد؛ أو سائس قرد؛ ملكتهم امرأة؛ وأغرقتهم فأرة؛ ودَلَّ عليهم هدهد. وقد سبق هذا في الفائدة السابعة؛ مع بيت رويناه لجرير يذكر فيه البرود الحضرمية؛ وفي آخرها؛ أجبنا عن بعض ما يُزَنُّ به الحاكة من المذام.

ويروى عن ابن عباس ﵄؛ أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ؛ فقال: يا رسول الله؛ ما تقول في حرفتي؟ فقال له: «وما حرفتك؟»؛ قال: أنا حائك؛ فقال ﷺ: «**حرفتك حرفة أبينا آدم. وكان آدم أول من نسج؛ وكان جبريل ﵇ يعلمه؛ وآدم تلميذه ثلاثة أيام؛ وإن الله سبحانه وتعالى يحب حرفتك؛ وإن حرفتك يحتاج إليها الأحياء والأموات؛ فمن قال فيكم قبيحاً فآدم خصمه؛ ومن أنِفّ منكم فقد أنف من آدم؛ ومن لعنكم فقد لعن آدم؛ ومن آذاكم فقد آذى آدم؛ ولا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا؛ فإن حرفتكم مباركة؛ ويكون آدم قائدكم إلى الجنة**». ولئن ظهرت عليه أمارات الوهن والافتعال؛ فما جيء به إلّا في مصادمة نظيره.

وأخرج الحاكم وصححه حديثاً طويلاً ذكر فيه ما يحترف به الأنبياء وفيه: أنَّ آدم كان حراثاً؛ وأن حواء كانت تغزل الشَّعَرْ فتحوكه بيديها وتكسو نفسها وولدها، وأنَّ مريم ابنة عمران كانت تفعل ذلك؛ لكن بسند فيه عبد المنعم بن إدريس؛ قال الذهبي: وهو ساقط.

وفي حديث وفد كندة؛ أنهم كانوا ثمانين أو ستين راكباً عليهم الحبرات؛ وبعيد أن يتجاوزوا نسج بلادهم؛ على ما فيه من القيمة؛ إلى غيره؛ فينتج منه: أن

الحبرات التي هي أفخر الثياب عندهم؛ كانت من نسيج حضرموت؛ لأنهم من تريم ونواحيها؛ بل الاستصحاب المقلوب[1] مع ذلك؛ ومع ما سبق؛ قاضٍ بأنها هي الشياذر التريمية؛ إذ هي أعز المنسوجات ببلادنا؛ وكانت الأمراء كآل لحج يستحيكونها؛ وما رأينا لحسنها وقوتها واحتمالها للأوساخ شبيهاً في منسوجات البلاد الأخرى، ولهذا قال أبو الأسود الدؤلي يشبِّبْ بامرأته؛ أم عمرو أو أم عوف:

أَبَى الـقَـلْـبُ إلّا أمَّ عـمـرٍو وَحُـبَّـهَـا ... عَـجُـوزاً وَمَـنْ يَـحْـبِـبْ عَـجُـوزاً يُـفَـنَّـدِ

كَـسَـحْـقِ الـيَـمَـانِـي قَـدْ تَـقَـادَمَ عَـهْـدُهُ ... وَرَقْـعَـتُـهُ مَـا شِـئْـتَ فِـي الـعَـيْـنِ وَالـيَـدِ

وَمَا زَالَتْ الشياذر لباس الأعيان والعظماء من العلويين وغيرهم؛ إلى ما قبل اليوم بنحو من خمسين عاماً؛ حتى استبدلوها بالألبسة المؤنَّقَة المجلوبة من الهند الشرقية.

وبما هنا وما سبق؛ من تلون الأشعث بن قيس؛ ذكرت ما جرى لوائل بن حجر بن ربيعة بن وائل بن يعمر المضري؛ فقد كان قيلاً من أقيال حضرموت؛ وكان أبوه من ملوكها؛ وقدم هو على رسول الله ﷺ؛ فأكرم وفادته؛ كعادته في إنزال الناس منازلهم؛ وأدنى مجلسه؛ وأمر معاوية بن أبي سفيان أن يذهب معه إلى منزل ضيافته؛ فقال له: احملني يا عم؛ فقال: اسكت لستَ من أرادف الملوك؛ فقال: اعطني نعلك فقد اشتدت عليَّ الرمضاء؛ فاستنكف؛ وقال: ما بُخْلٌ يمنعني يا بن أبي سفيان؛ ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن أنك لبست نعلي؛ ولكن انتعل إلى ظل ناقتي وحسبك شرفاً بذلك؛ قال معاوية: وعاش وائل حتى أدرك سلطاني؛ وقدم وافداً عليّ؛ فتنحيت له عن بعض مكاني وأجلسته معي؛

---

(١) الاستصحاب المقلوب هو الاستدلال بثبوت الشيء الآن على أنه كان ثابتاً فيما مضى، أو بعبارة أخرى: استصحاب الثبوت الموجود في الحاضر على افتراض الثبوت في الماضي. ويسمى أيضاً (استصحاب العكس) أو (استصحاب الحال في الماضي) أو (تحكيم الحال) أو غير ذلك.

وقضيت حوائجه؛ وذكرته بما سلف ولم أثرِّبْ؛ وزعم بعضهم أنه لم يقبل جائزة معاوية؛ وما كان ليتنزه عن قبولها؛ وقد فعل هذا وتنزل عن سماء تلك العظمة. وكان من أصحاب عليّ ففارقه؛ ورضي أن يكون شرطياً بعد لزياد؛ فقد بعثه بحجر بن عدي ورفاقه إلى معاوية معه في إحدى عشر راكباً حيث قتلوا ظلماً بمرج عذراء. وصدق الجاحظ في قوله: ما رأيت ذا كبر قط على من دونه؛ إلّا وهو يذل لمن فوقه؛ بمقدار ذلك ووزنه؛ وأين وائل؛ ومن في مثل عنجهيته؛ كالحارث بن وعلة الجزي؛ القائل:

يَقُولُ لِيَ النَّهْدِيُّ: هَلْ أَنْتَ مُرْدِفِي؟ وَكَيْفَ رَدَافِ الغَرِّ أُمُّكَ عَابِرُ

ومن سماحة الأعرابي في قوله:

إِذَا مَا خَلِيلِي ظَلَّ يَنْسِلُ خَلْفَهَا وَفِي نَاقَتِي فَضْلٌ فَلا حَمَلَتْ رِجْلِي

وقال حاتم:

إِذَا كُنْتَ رَبّاً لِلْقَلُوصِ فَلا تَدَعْ رَفِيقَكَ يَمْشِي خَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبِ
أَنِخْهَا وَأَرْدِفْهُ فَإِنْ حَمَلَتْكُمَا فَذَاكَ وَإِنْ كَانَ العِقَابُ فَعَاقِبِ

وأخرج الحاكم على شرط مسلم؛ أنه ﷺ؛ كان يتعقب في غزوة بدر هو وعليّ وأبو لبابة؛ فإذا دارت عقبتهما؛ قالا: يا رسول الله اركب؛ فيقول: «**ما أنتما بأقوى مني؛ ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر**». ويروى أن ابن الخطاب كان يعتقب مع خادمه في شخوصه إلى بيت المقدس لإمضاء الصلح؛ ولما شارفوا البلاد؛ كان الدور للجَمَّال وأمير المؤمنين آخذٌ بمقود البعير؛ كما تقدم.

وعن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه أراد أن يغزو فقال: «**يا معشر المهاجرين والأنصار؛ إنَّ من إخوانكم قوماً ليس لهم مال ولا عشيرة؛ فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة**»؛ وما لأحدنا من ظهر جمله؛ إلّا عقبة؛ كعقبة أحدهم؛ قال: فضممت إليَّ اثنين أو ثلاثة؛ ما لي إلّا عقبة كعقبة أحدهم؛ أخرجه الحاكم. وقال هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبيّ على تصحيحه.

وبتعرض وائل لمعاوية؛ مع ما سلف منه إليه؛ ذكرت أنَّ خالد بن عبد الله

القسري[١] خرج يوماً للصيد؛ وهو أمير العراق؛ فانفرد عن أصحابه؛ فإذا هو بأعرابي على أتان له هزيل ومعه عجوز؛ فقال خالد: مِمَّن الرجل؟ قال: من عامر؛ قال: فما أقدمك؟ قال: تتابع السنين؛ وقلة رفد الرافدين؛ قال: فمن أردت؟ قال: أميركم هذا الذي رَفَعَتْهُ إمرَتُهُ وحطَّته أسرَتُهُ! قال: فما أردت منه؟ قال: كثرة ماله لا كرم آبائه! قال: لا بدَّ وأن تكون قلت فيه شعراً؛ فقال لامرأته: انشدي الرجل ما قلنا؛ فقالت: كم تجشَّمنا الذل بمدح اللئيم؛ فألحَّ عليها فأنشدته:

إِلَيْكَ ابْنَ عَبْدِ اللَّه بِالجدِّ أَرْقَلَتْ ... بِنَا البِيدُ عِيْسٌ كَالقِسِيِّ سَوَاهِمُ

عَلَيْهَا كِرَامٌ مِنْ ذُؤابَةِ عَامِرٍ ... أَضَرَّتْ بِهِمْ هَذِي السِّنَينَ الصَّوَارِمُ

يُرِدْنَ امْرَأً يُعْطِي عَلَى الحَمْدِ مَالَهُ ... وَهَانَتْ عَلَيْهِ فِي الثَّنَاءِ الدرَاهِمُ

فَإِنْ تُعْطِ مَا نَهْوَى فَهَذَا ثَنَاؤُنا ... وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى فَمَا ثَمَّ لائِمُ

فقال له: تزعم أنك جئت على عيس[٢]؛ وما عندك إلّا أتان هزيل[٣]؛ قال: ما تجشمناه من مدح اللئيم؛ كان أشدَّ علينا من الكذب في شعرنا؛ فقال له خالد: أو تعرف خالداً؟ قال: لا؛ قال: فأنا هو خالد؛ قال: أسألك بالله أنت هو؟ قال: إي والذي سألتني به؛ وأنا معطيك ومرضيك وغير مكافئك؛ فقال: يا أمَّ جحش اصرفي وجه أتانك؛ فقال لها خالد: لا تفعلي؛ فقال الرجل: والله لا رَزَأتُ امرأً درهماً بعد أن أسمعته ما يكره؛ ومضى؛ فقال خالد: بمثل هذا نال هو وآباؤه ما نالوا.

ونظيرها ما ذكره ابن خلكان: أن محمد بن حازم هجا سعيد بن حميد

---

(١) أمير العراقين لهشام بن عبد الملك الأموي ثم عزله سنة ١٢٠هـ وولى مكانه الحجاج بن يوسف كما تولى إمارة مكة وقبض على التابعي سعيد بن جبير سنة ٩٤هـ وأرسله للحجاج بالعراق فقتله وكان بليغاً في خطابته كثير البطش وأمه رومية من النصارى.

(٢) عيس: جمع أعيس وهي الإبل البيضاء يخالط بياضها شقرة وهي كرائم الإبل.

(٣) الأتان: أنثى الحمار.

الكاتب؛ وكان جاره؛ فأغضى عنه مع القدرة؛ ثم اختلَّت حال ابن حازم وتحوَّل عن جوار ابن حميد؛ فلم يكن منه إلّا أن بعث إليه بعشرة آلاف درهم؛ ورزمة ثياب وفرساً ومملوكاً وجارية وكتب إليه: ذو الأدب يحمله ظرفه على وصف الشيء بغير هيئته؛ وتبعثه قدرته على نعته بغير حليته؛ ولم يكن ما شاع من هجائك فِيَّ إلّا جارياً هذا المجرى؛ وقد بلغني من سوء حالك وشدة خلتك ما لا غضاضة به عليك؛ مع كبر همتك وعظم نفسك؛ ونحن شركاء فيما ملكنا؛ ومتساوون فيما تحت أيدينا؛ وقد بعثت إليك بما جعلته؛ وإن قَلَّ؛ استفتاحاً لما بعده وإن جَلَّ؛ فرده ابن حازم ولم يقبل منه شيئاً؛ وكتب إليه:

وَفَعَلْتَ بِي فِعْلَ المُهَلِّبِ إذْ ... غَمَرَ الفرَزْدَقَ بِالنَّدى الدَّثْرِ
فَبَعثتَ بِالأمْوَالِ تُرْغِبُنِي ... كَلَّا وَرَبُّ الشَّفْعِ وَالوِتْرِ
لا أَلْبَسُ النَّعْمَاءَ مِنْ رَجُلٍ ... أَلْبَسْتَهُ عَاراً عَلى الدَّهْرِ

وفيه إشارة إلى قصة جرت للفرزدق من نوعها؛ والشيء من معدنه لا يستكثر؛ فإن الفرزدق عرضه ذلك؛ في شرفه وقوة نفسه؛ وقال جرير يهجو الأخطل:

الشَّاتِمُونَ بَنِي بَكْرٍ إذَا نَطَقُوا ... وَالجَانِحُونَ إلى بَكْرٍ إذا افْتَقَرُوا

وأخرج الترمذي وأبو داود والبيهقي؛ عن وائل بن حجر؛ أنَّ النبي ﷺ أقطعه أرضاً بحضرموت؛ وبعث معاوية ليقطعها إياه؛ وقد وقع بسببه ابن خلدون في المتاهة؛ فإنَّ معاوية لم يذهب إلى حضرموت؛ وإنما ذهب معه ليكتب له بها؛ ويريه منزل ضيافته كما مر؛ وصرَّح به ابن قتيبة في عيون الأخبار؛ والبيهقي في المحاسن والمساوي؛ وغيرهما. وإنما كتب رسول الله ﷺ مع وائل إلى المهاجر ابن أبي أمية؛ وإلى الأقيال والعباهلة؛ ولعلَّه ﷺ؛ أمر معاوية أن يكتب له بالإقطاع ونحوه في دار مضيفه؛ وليس في أحاديث الجماعة ما يصرح بأن معاوية ذهب إلى حضرموت؛ وإنما فيه؛ أنه ﷺ بعثه ليقطعه؛ أي أرسله إلى دار مضيفه ليكتب له فيه بالإقطاع؛ وبه يندفع التوهُّم؛ والله أعلم.



الفائدة

السادسة عشرة

الفائدة السادسة عشرة

أشكل على بعضهم قوله ﷺ: «**إني لأراكم من وراء ظهري**»؛ وتأولوا له؛ وقال بعضهم: إن له عيناً من خلفه؛ وقال الحافظ ابن حجر: ثم هذا الإدراك يجوز أن يكون برؤية عينه؛ انخرقت له فيها العادة؛ فكان يرى بها من غير مقابلة؛ لأن الحقَّ عند أهل السنة أنَّ الرؤية لا يشترط عقلاً لها؛ عضو مخصوص؛ ولا مقابلة؛ ولا قرب؛ وإنما تلك أمور عادية يجوز حصول الإدراك مع عدمها. (انتهى)؛ وأقول: إن له شاهداً قوياً من قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]؛ وإذ أقرَّ الله قول المنافقين؛ أنَّه ﷺ كله أذن؛ إلّا أن صرفه إلى ما يليق به من الثناء خلاف ما يريدون من الذم؛ فأولى أن يكون كله عيوناً حقيقة أو مجازاً. وقد أشار ابن الفارض[2] إلى قريب منه في قوله:

تَـرَاهُ إنْ غَـابَ عَـنِّـي كُـلُّ جَـارِحَـةٍ ... فِـي كُـلِّ مَـعْـنًـى لَـطِـيـفٍ رَائِـقٍ بَـهِـجِ

وقوله:

فَـإنْ حَـدَّثُـوا عَـنْـهَـا فَـكُـلِّـي مَـسَـامِـعٌ ... وَكُـلِّـي إنْ حَـدَّثْـتُـهُـمْ أَلْـسُـنٌ تَـتْـلُـو

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢١.

(٢) ابن الفارض هو شرف الدين عمر بن علي الحموي من أشهر شعراء الصوفية ولد بمصر سنة ٥٧٦هـ وأبوه من أهل الشام اشتغل في بدايته بالفقه الشافعي وأخذ الحديث عن ابن عساكر ثم تصوف ورحل إلى مكة واعتزل في واد بعيد عنها حيث نظم أشعاره في العشق الإلهي حتى لقب بسلطان العاشقين ثم عاد إلى مصر بعد ١٥ سنة وتوفي بها سنة ٦٣٢هـ.

وقوله:

وَلَوْ بَسَطَتْ جِسْمِي رَأَتْ كُلَّ جَوْهَرٍ بِهِ كُل قَلْبٍ فِيهِ كلُّ غَرَامِ

وقوله:

وَصِرْتُ مُوسَى زَمَانِي مُذْ صَارَ بَعْضِيَ كُلِّي

وقال السهروردي في العوارف:

إنْ تَأَمَّلْتُكُمْ فَكُلِّي عُيُونٌ أَوْ تَذَكَّرْتُكُمْ فَكُلِّي قُلُوبُ

وأشار إليه ابن عربي في غير موضع من فتوحاته؛ وسبقهم إلى ذلك بعض من لا يحضرني اسمه الآن من أهل الأدب؛ وحام عليه الأخطل؛ ولكنه لم يقع عليه؛ وذلك حيث يقول:

غَنَّتْ فَلَمْ تَبْقَ فِيَّ جَارِحَةٌ إلَّا تَمَنَّيْتُ لَوْ أَنَّهَا أُذُنْ

وأبو تمام في قوله:

يَوَدُّ وِدَاداً أنَّ أعْضَاءَ جِسْمِهِ إذَا أنْشَدَتْ شَوْقاً إلِيْهَا مَسَامِعُ

والبحتري في قوله:

وَبِوِدِّ القُلُوبِ يَوْمَ اسْتَقَلَّتْ ظِعَنُ الحَيِّ أنْ تَكُونُ عُيُونَا

وأبو الطيِّب في قوله:

وَيَهِمُّ فِيكَ إذَا نَطَقْتَ فَصَاحَةً مِنْ كُلِّ عُضْوٍ مِنْكَ أنْ يَتَكَلَّمَا

والآخر في قوله:

لَيْتَنِي إذْ أرَاهُ كُلِّي عُيُونٌ فَبِعَيْنَيْنِ لَسْتُ أشْبَعُ مِنْهُ

وقد قام عليه شاهد محسوس من التنويم المغنطيسي؛ فإن المُنَوَّم بفتح الواو

يرى حتى بأخمصيه[١]؛ ففي الحديث نوع من الإشارة إلى الحكمة؛ والإيماء إلى هذه المكتشفات الجديدة؛ والإشكال مدفوع من أصله؛ إذ الإدراك لحقائق الأشياء ليس إلّا بالروح؛ وهذه الحواس إنما هي منافذ لها من الجسم ليس غير، ولذا قال الإمام الرازي في سياقٍ له: إن الصور الخيالية منطبقة في النفس، وأما إذا كان المُبْصَرْ موجوداً في الخارج؛ فهل إبصاره لأجل انطباع صورة متساوية له في النفس قياساً على النوع الأول من الإحساس؛ أو مجرد شعور النفس بتلك الأمور الخارجية؛ فذلك مما لم يقم عليه دليل بأحد الطرفين؛ وأنا متوقف فيه. انتهى كلامه بمعناه.

والحق ما قررناه من الإدراك بالروح؛ بدليل أنَّ البصر يخطي ويصيب؛ وفي إدراكه ألا ترى أنه يبصر الخذروف[٢] دائرة؛ والأرض ماشية؛ إذا كان على ظهر جواد يعدو به؛ وإنما الروح هي المميزة في أمثال ذلك.

ولما كانت روحانيته ﷺ في الصلاة غالبة على جسمانيته؛ مع قوة بشريته؛ كانت سائر أعضائه منافذ لها إلى المبصرات؛ فلا بعد في نظرها إلى ما قسم لها وتأهلت لاستطلاعه من الملك والملكوت في القرب والبعد؛ حتى من وراء الحجب؛ إلّا ما أخفاه الله عنها لحكمة أو مصلحة؛ ثم هذه الخاصة الشريفة لا يلزم وجودها في سائر أحواله؛ وإنما أولاها بها الأحيان التي لروحه فيها الغالبية التامة على جسمانيته؛ والصلاة أسنى معراج يتسنم به إلى حضائر القدس؛ ويتصل منه بالأفق الأعلى؛ ولا مانع من الاستدلال على ما نحن فيه بقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[٣] وكأنَّ وجه ذلك أنَّ أولَّ

---

(١) الأخمصين (تثنية أخمص)، وأخمص القدم هو الموضع الذي لا يمس الأرض عند وطئها من وسط القدم.

(٢) الخذْرُوفُ: عُوَيدٌ مشقوق في وسطه، يشدُّ بخيط ويُدَوَّر فيُسمع له حنين، ويشبهه به كل سريع في جريه.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٦.

عضو يتخلق في الإنسان هو القلب؛ فلا بدّ أن يكون تعلق النفس به أول ما يكون؛ فهو مجمع الروح؛ ثم بواسطته يكون التعلق بالدماغ؛ ولئن قيل إنما المراد من العمى في الآية؛ الضلال عن الرشد؛ والعمى عن الحق؛ قلنا: نعم؛ ولكن القرآن واسع ذو وجوه لن تضيق مع صراحة اللفظ عن الإشارة إلى شيء مما زيد؛ ولا سيَّما مع ما تقرر في الأصول من جواز استعمال المجاز والحقيقة باللفظ الواحد؛ ومتى تقرر العمى من القلب حصل عكسه لا محالة؛ والعيان أعدل شاهد على ذلك؛ فالسابح في بحار الأفكار لا يعرف من يمر بجانبه.

ومن أخلاق السلف أنهم لا يعرفون من يليهم في الصلاة؛ لتوفر الخشوع إذ ذاك. ويروى أنه بينما الخليل بن أحمد[1] مستغرق في تقرير قاعدة حسابية غطت على مشاعره؛ إذ صدمته أسطوانة في المسجد؛ فكان فيها هلاكه.

ورأيت الإمام الغزالي يقول في حديث: «إن الله خلق آدم على صورته»؛ من كتابه المضنون الصغير؛ المراد بالصورة المعنوية؛ كما يقال صورة المسألة كذا؛ أراد بهذا الاعتبار على صورة ربِّه في الذات والصفات والأفعال؛ أما في الذات فلأنَّ الروح ليست بجسم ولا عرض ولا جوهر متحيِّز؛ ولا تحل المكان والجهة؛ ولا هي متصلة بالبدن والعالم؛ ولا منفصلة عنهما، وكذلك ذات البارئ عز وجل. ولما أُورِدَ عليه أنه تشبيه؛ قال: هيهات؛ فإن قولنا: الإنسان حي عالم قادر سميع بصير متكلم؛ وإنه تعالى كذلك؛ ليس فيه تشبيه؛ لأنَّ ذلك ليس هو أخص أوصاف الله تعالى؛ بل أخصُّ وصفه: إنه قيوم؛ أي قائم بذاته؛ وكل ما سواه قائم به، فالقيمومة ليست إلّا لله. وأما براءة الروح عن المكان والجهة؛ فلا يلزم منها التشبيه؛ لأنَّ براءة الإله منها ليس أخص وصفه؛ انتهى بمعناه. على أن التوافق في الصفات ليس إلّا في اللفظ؛ أمَّا المعنى؛ فمعاذ الله أن يشبهه خلقٌ فيه؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

---

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ ـ ١٧٠هـ) واضع علم العروض ولد ومات في البصرة وعاش فقيراً مغموراً ومن تلامذته سيبويه والأصمعي والكسائي وغيرهم من مشاهير العلماء.

وما غرضي من إيراده إلّا تعظيم شأن الروح؛ وأنها من أمر الله؛ لا من خلقه؛ وهي مُحْدَثَة؛ والباري قديم، فهو زيادة في انتفاء التشبيه؛ وما ذكره الغزالي هو رأي أبي علي ابن سينا وأضرابه؛ واختاره البوشنجي؛ والمفيد؛ ومعمر بن عباد؛ وأنكره ابن القيِّم وغيره؛ ومثلي لا يقف تجاهه إلّا موقف الهيبة والحذر والانكسار؛ ومجرد الحكاية؛ غير أنه إذا انتفى التحيُّز عن الروح؛ كانت نسبة الإبعاد إليها على السواء؛ فلا قرب ولا بعد ولا فوق ولا تحت؛ ولم يكن بينها وبين ما تريد الاطلاع عليه سوى مجرد التوجه إليه؛ غير أنها لما أحاطت بها ظلمات الطبع؛ وغشاوات الجسم؛ انحصرت إدراكاتها في تلك المنافذ الخمس؛ إلّا عند من بقي على الطهارة الأصلية؛ أو اخترقت روحه؛ لقُوَّتِها؛ الحُجُبَ البشرية. وقد أخرج البيهقي في الدلائل؛ أنه ﷺ كان يرى في الظلمة كما يرى في ضوء النهار.

فإن قيل: إنَّ المُنَوَّمْ يرى ما يسأل عنه مع البعد والحجاب؛ وقد ثبت أنه ﷺ لم يدر أين مكان ناقته الضالة؛ منصرفه من خيبر؛ إلّا بعد ما أخبره جبريل؛ قلنا في الجواب: إنَّ مسألة التنويم قضية تافهة اصطناعية؛ ينحصر بها نظر المُنَوَّمْ بفتح الواو في أشياء جزئية طفيفة؛ على رأي الذي ينوِّمه؛ ويصير أشبه شيء بالميت؛ وفي وسع كل إنسان أن يهذِّب نفسه بأنواع الرياضات؛ حتى تتغلب على الطباع البشرية؛ وتتصل بشيء من الآفاق المناسبة لها؛ إما من الملائكة؛ وإما من الشياطين؛ على ما فصلناه في غير هذا الموضوع؛ ويكون لها حينئذٍ نوع مما للأرواح المجردة من الإلمام بما وراء المادة؛ على قدر ما قُسِمَ لها؛ وهُيِّئَتْ له؛ لا غرابة في استيلاء الأرواح على الأجسام المتلاشية؛ أو الشبيهة بالمتلاشية؛ بخلافه ﷺ؛ فقد كانت روحانيته أقوى ما يكون؛ في حين أن بشريته كذلك؛ وما فُضِّلَ خاصة البشر والملائكة؛ إلّا بما جمع الله له من الفضائل التي ربق فيها الأضداد، أما كونه ﷺ لم يدر أين مكان ناقته؛ فقد عرف مما سلف أن لا ديمومة لتلك الخاصة؛ وإنما هي متقطعة بحسب الأحوال والظروف؛ والغلبة يوم ضلَّت الناقة كانت للبشرية؛ لأنها الأصلح للتبليغ والأداء؛ إذ لا يصلح لذلك غير البشر

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[(١)]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[(٢)]، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾[(٣)] كما أن الأصلح للتحمل هو أغلبية الروح. وشبيه بقضية الناقة؛ أنَّه ﷺ؛ كَرُبَ كَرْباً شديداً حينما سألته قريش عن صفة بيت المقدس صبيحة الإسراء؛ وكان لا يراه إذ ذاك؛ لتغلب جسمانيته عليه بمخاطبتهم؛ ثم حصلت له تلك الخاصة عند الاقتضاء؛ وأجابهم فيما سألوه عن رأي عين.

ويبقى سؤال عن هذه الخاصَّة؛ هل هي تحت اختياره؛ وفي متناول يده؛ في أي وقت أراده؛ أم لا؟ والظاهر: الثاني؛ غير أنها لا تغِبُّه عند الحاجة؛ أما الأولياء ففيهم من يدَّعِي لنفسه الأول؛ ولئن صحَّ؛ فالفرق بين حقيقة الحالين كما بين الثريا والثرى، ومعاذ الله أن أقول ما ليس لي به علم؛ أو أتهجم على سور النبوَّة التي تحرق سبحات الأنوار من دونه؛ وتزأر أسود المهابة من حوله؛ وتنقطع قوادم نسور الأفكار قبل أن تصل إلى شيء من فضائله، سبحانك لا علم لنا إلّا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، إليه تنتهي حقيقة العلم وحده؛ جل شأنه وعظم سلطانه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٤)] ولا يظهر على غيبه؛ أي في هذه الدار؛ أحداً؛ إلّا من ارتضى من رسول؛ وأما في الأخرى فيطلع كل نفس من ملكوته على ما هيئها له.

ومن هذه الحيثيات نرى أبصار الأنبياء؛ صلوات الله وسلامه عليهم؛ تخترق الطباق تارة ثم لا يبصرون ما تحت أقدامهم أخرى. وقد كان ﷺ لا يعرف حال جملة من أهل النفاق؛ كانوا يجالسونه ويؤاكلونه؛ حتى قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[١] ولو انكشفت له البواطن بأسرها؛ لاختلَّ التشريع؛ ولما كانت البيِّنة على المُدَّعِي واليمين على من أنكر، وقد قال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلّا كما أخذ هذا العصفور من البحر، وقال عيسى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[٢]؛ وفي الصحيح أنه ﷺ قال: «**يؤتى بناس من أصحابه وهو على حوضه فيختلجون دونه؛ فيقول: يا رب أصيحابي؛ فيقال له: إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك**»، إلّا أنَّ في هذا الحديث إشكالاً من حيث أن أموات المؤمنين يعرفون ما يجري على أهاليهم في الدنيا؛ وأنَّ أعمالهم تعرض عليهم؛ مصداق قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣]. قال ابن العميد: وصحَّ عن حماد بن سلمة؛ عن ثابت عن شهر بن حوشب: أنَّ الصعب بن جثامة وعوف بن مالك كانا متآخيين؛ فقال صعب لعوف: أي أخي أيّنا مات قبل صاحبه فليترايا له؛ قال: أو يكون ذلك؟ قال: نعم؛ فمات صعب فرآه عوف فيما يرى النائم؛ كأنَّه قد أتاه؛ قال: قلت أي أخي؛ قال: نعم؛ قلت: ما فُعِلَ بكم؟ قال: غفر لنا بعد المشائب، قال: ورأيت لمعة سوداء في عنقه؛ فقلت: أي أخي؛ ما هذا؟ قال: عشرة دنانير استلفتها من فلان اليهودي؛ فهنَّ في قرني؛ فأعطوه إياها؛ واعلم أي أخي أنه لم يحدث في أهلي حدَثٌ بعد موتي إلّا قد لحق بي خبره؛ حتى هرّة ماتت لنا منذ أيام؛ واعلم أن ابنتي تموت إلى ستة أيام؛ فاستوصوا بها معروفاً؛ فلما أصبحت قلت: إنَّ هذا لمعلماً؛ فأتيت أهله فقالوا: مرحباً بعوف؛ أهكذا تصنعون بتركة إخوانكم؟ لم تقربنا منذ مات صعب! قال: فاعتللت بما يعتل به الناس؛ فنظرت إلى القرن فأنزلته؛ فانتشلت ما فيه؛ فوجدت الدنانير العشرة

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

فبعثت بها إلى اليهودي؛ فقلت: هل كان لك على صعب شيء؟ قال: رحم الله صعباً؛ كان من خيار أصحاب محمد ﷺ؛ هي له؛ قلت: لتخبرني؛ قال: نعم؛ أسلفته عشرة دنانير؛ فنبذتها إليه؛ قال: هي والله بأعيانها؛ قال: قلت: هذه واحدة؛ قال: فقلت: هل حدث فيكم حدث بعد موت صعب؟ قالوا: نعم؛ حدث فينا كذا وكذا؛ قال: قلت: اذكروا؛ قالوا: نعم؛ هرة ماتت منذ أيام؛ فقلت: هاتان اثنتان؛ قلت: أين ابنة أخي؟ قالوا: تلعب؛ فأتيت بها فمسستها فإذا هي محمومة؛ فقلت: استوصوا بها؛ فماتت لستة أيام.

وأقول: إنها مع الاستدلال بها لما يزيد؛ لا تخلو من الكدورات؛ وحال شهر بن حوشب معروف، إذ كيف يستلف الدنانير صعب ويتركها بحالها؟ وكيف يراها أهله برهة من الزمان ثم لا يتعرضون لها؟ وكيف يمكنون عوفاً من أخذها بدون مراجعة؟ وكيف يدفعها عوف لليهودي؛ بدون بحث؛ ولا تَرَوٍّ؛ ولا تَثَبُّت في الامارات؟ وكيف يسوغ له أن يردها لليهودي بعد ما قال: هي له؛ وصارت حقّاً لورثة؛ وفيهم الأيتام؟

وأخرج ابن عبد البر وغيره؛ أنَّ ثابت بن قيس لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾[1] دخل بيته وأغلق بابه؛ ففقده رسول الله ﷺ؛ وأرسل إليه يسأله ما خبره؛ قال: أنا رجل شديد الصوت أخاف أن يكون قد حبط عملي؟ قال: لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير؛ قال: ثم أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾[2]؛ فأغلق عليه بابه وطفق يبكي؛ ففقده رسول الله ﷺ؛ فأرسل إليه فقال: يا رسول الله؛ إني أحب الجمال؛ وأحب أن أسود قومي فقال: لست منهم؛ بل تعيش حميداً؛ وتقتل شهيداً؛ وتدخل الجنة؛ قالت ابنته: فلما كان يوم اليمامة؛ خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة؛ فلما التقوا وانكشفوا؛ قال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول

(١) سورة الحجرات، الآية: ٢.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٨.

الله ﷺ؛ ثم حفر كل واحد حفرة؛ فثبتا وقاتلا حتى قتلا؛ وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة؛ فمَرَّ به رجل من المسلمين فأخذها؛ فبينما رجل من المسلمين نائم؛ إذ أتاه ثابت في منامه؛ فقال: أوصيك فإياك أن تقول هذا حلم فتضيِّعه؛ إنِّي لما قتلت أمس؛ مرَّ بي رجل من المسلمين فأخذ درعي؛ ومنزله في أقصى الناس؛ وعند خبائه فرس يستن في طوله؛ وقد كَفَأَ على الدرع بُرْمَة؛ وفوق البرمة رحل؛ فأت خالد فمره أن يبعث إلى درعي فيأخذها؛ وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ؛ فقل له: إنَّ عليَّ من الدين كذا وكذا؛ وفلان من رقيقي عتيق؛ وفلان، فأتى الرجل خالداً فأخبره؛ فبعث إلى الدرع فأُتِيَ بها؛ وحدَّث أبا بكر برؤياه فأجاز الوصيَّة.

فمع هذا وما أخرجه الحارث في مسنده؛ وابن سعد والقاضي إسماعيل عن بكر بن عبد الله المزني؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**حياتي خير لكم وموتي خير لكم تعرض عليَّ أعمالكم فما كان من حسن حمدت الله عليه؛ وما كان من سيِّئ استغفرت الله لكم**»[(١)] ومثله عند البزار بسند صحيح من حديث أبي مسعود؛ وأمثاله كثير؛ ومنها ما هو أقوى في الاستدلال كما قرره العلامة ابن القيِّم وغيره.

فكيف يخفى على سيِّد المرسلين حال أصحابه بعده؛ وهو سيد الأحياء في قبورهم، فنقول: قد عُلِمَ بعض الجواب مما سلف؛ ومتى قبلنا ما دلَّلَ به ابن القيم؛ ومنه ما أسلفناه؛ بعلم موتى المؤمنين بأحوال أهاليهم؛ فلا يمكن اطراده في جميعها؛ لأنَّ من الأحاديث ما ينفي ذلك؛ ومنها أنه متى فرغ الميت من السؤال؛ جاءه الموتى يسألونه عن أخبار أصحابهم؛ كما يأتون القادم من السفر في الحياة الدنيا؛ وبعيد أن يكون سؤالهم من نوع ما قال أبو الطيب:

---

(١) حديث مرفوع (حديث موقوف) وَبِهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ، أَمَّا حَيَاتِي فَأُحَدِّثُ لَكُمْ، وَأَمَّا مَوْتِي فَتُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ عَشِيَّةَ الاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، فَمَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ حَمِدْتُ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ عَلَيْهِ، وَمَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ سُوءٍ اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ لَكُمْ**».

نَـحْـنُ أدْرَى وَقَـدْ سَـأَلْـنَـا بِـنَـجْـدٍ أَقَـصِـيـرٌ طَـرَيـقُـنَـا أَمْ طَـوِيـلُ

وخير طريقٍ للجمع؛ القول باطلاعهم على البعض واحتياجهم إلى السؤال عن الآخر، ولكنه ﷺ ليس كأحدهم؛ فلعل في ستر أحوال أصحابه؛ التي لا تغني فيها الشفاعة عنه في برزخه؛ رحمةً به؛ وسلامةً لخاطره من الكدر؛ فإنها لو بلغته لنغَّصت عليه سروره بربِّه؛ ولذته بقربه؛ وأنسه بمناجاته؛ بل لا غرابة أن ينسيه لهذا السبب؛ ما كان اطَّلَعَ عليه مما يسوؤوه في الدنيا.

فإن قيل: متى لم يكن بد من اطلاعه على أحوالهم في الدار الآخرة؛ فهلا كان آخر الأمر؛ أو؛ لا؛ ليسلم من فجاءة الشر التي طالما استعاذ منها؟ **قلنا**: لا سواء؛ فإن أحوال البرزخ قريب من أحوال الدنيا؛ ولهذا ذهب بعضهم كالعلامة ابن القيِّم؛ إلى التكليف فيه؛ وقال بعضٌ: لولا التكليف لم يكن للسؤال في القبر حاجة؛ بخلاف الدار الآخرة؛ فإنها لا تقايس بأحوال الدنيا؛ إذ هي إما بلاء لا يصحبه سرور؛ أو نعمة خالصة لا يشوبها كدر؛ ولا يخالطها نكد، فتأخَّر اطلاعه على ما يسوء من أحوالهم؛ إلى وقت لا يلحقه من شقائهم أسف؛ ولا يناله من هلاكهم حزن؛ ولهذا يقول: سحقاً سحقاً[1].

فإن قيل: كيف يألم لانقلاب أصحابه؛ لو بلغه في برزخه؟ وهو سيد العارفين؛ ولا إرادة لعارف مع مولاه؛ بل لا رغبة ولا شهوة له إلّا فيما يحبه كائناً ما كان؛ لأن مقام المعرفة يقتضي كمال الرضا. **قلنا**: نعم؛ ولكن كما أنه سيد العارفين؛ فكذلك هو سيد أهل الكمال، والكمال لا ينظر إلى الأمر من جهةٍ واحدة؛ بل من سائر جهاته؛ ويوفي كل مقام نصيبه؛ فلا بدّ أن يُعْطِي الرضا واجِبَهُ؛ وأن لا يُبْخِس الرحمة حقها؛ ولا جرم؛ فما أرسله الله إلّا رحمة للعالمين.

---

(١) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقاً، سُحْقاً، لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي»**. رواه البخاري.

رَحْمَةٌ كُلُّهُ وَحَزْمٌ وَعَزْمٌ ... وَوَقَارٌ وَعِصْمَةٌ وَحَيَاءُ

ثم إن من أكبر معجزاته ﷺ؛ ما اختص به من الفضائل؛ واجتمع له من محاسن الشمائل؛ لا ما ولع به عشاق الاغراب؛ ومتصيدو الاختراع؛ مما لا تثبت به حُجَّة؛ ولا ينهض عليه دليل؛ ومن ذلك ادّعَاءُ بعضهم له؛ الإحاطة بجميع المعلومات؛ مع قوله تعالى: ﴿. . . . وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ . . .﴾[١]؛ وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ . . . .﴾[٢] ومع قول عائشة: «من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب» وهو يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[٣]؛ ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٤]. ولما دفعت هذه النصوص وأمثالها في صدورهم؛ قالوا: كان هذا في أول الأمر؛ ثم لم يمت حتَّى أطلعه الله على جميع علوم الأولين والآخرين.

ورأيت سياقاً لبعض أفاضل المتأخرين من أهل المغرب؛ في تأليفٍ له؛ ذهب اسمه عني وبقي بذهني؛ من معناه: أنه وقع نزاع بين متأخري المغاربة في علمه ﷺ؛ هل أحاط بكل شيء؛ أم لا؟ فأفتى بالأول والدي أبو مروان السجلماشي في مسألة محمد الحلبي؛ وكتب رسالة سماها: ملاك الطلب في جواب أستاذ حلب؛ واحتج بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿. . . . إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[٥] وبحديث الطبراني: «**وأوتيت مفاتيح كل شيء إلى الخمس**»[٦]، قال

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.
(٤) سورة النمل، الآية: ٦٥.
(٥) سورة الجن، الآية: ٢٦.
(٦) عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «**أوتيت مفاتيح كلّ شيء إلّا الخمس** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ =

السيوطي[١]: وقيل: إنه أوتيها وغير ذلك؛ وَرَدَّ عليه بعض المعاصرين من الفاسيين؛ وسمي ردُّه: المنهج القويم في قصر الإحاطة على العلم القديم؛ واستدل بآيٍ ونصوصٍ؛ منها قول الاجهوري في شرح المختصر في باب مصرف الزكاة: إنَّ القائل بأنَّ الأنبياء يعلمون ما كان وما يكون؛ مبتدعٌ يكفر ببدعته اتفاقاً اهـ. وقد وقفت على الكتابين؛ ووجدت ما استدل به الثاني أصرح؛ والله أعلم، هذا آخر ما بقي بحفظي؛ من كلام ذلك الفاضل المغربي بمعناه وبعض لفظه.

ولله در هذا الولد المنصف؛ فلقد جعل الحق رائده؛ ولم تأخذه فيه عاطفة؛ ولم تثنه عنه عصبية؛ فبمثله تقرّ عين الإسلام؛ وعلى مثل هذا درج السلف الكرام؛ فإن الحقَّ عندهم فوق كل شيء؛ كما سنذكر جملة من أخبارهم في ذلك عند المناسبات؛ إن شاء الله تعالى.

وقال السخاوي[٢] في المقاصد الحسنة؛ تبعاً لشيخه الحافظ ابن حجر: ليس له إسناد يعرف؛ ومعناه: وسع قلبه الإيمان بي ومحبتي ومعرفتي؛ وإلّا فمن قال إنَّ الله يحل في قلوب الناس فهو أكفر من النصارى الذين خصّوا ذلك بالمسيح وحده؛ انتهى. وهذا من جملة ما أشرت إليه قبيل الفائدة العاشرة؛ من تطلع ضباب القرمطة عند بعض منتحلي الولاية؛ ولا حول ولا قوة بالله.

= بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»، قلت لابن عمر في الصحيح: «مفاتيح الغيب خمس»، رواه أحمد، ورجال أحمد رجال الصحيح. (مجمع الزوائد).

(١) جلال الدين السيوطي من كبار علماء مصر (٨٤٩ ـ ٩١١هـ) برع في عدة علوم وحفظ القرآن الكريم وهو ابن ثمان سنين ورحل لطلب العلم إلى الحجاز واليمن والهند وتشاد وكان شيخه في الفقه الإمام البلقيني وله العديد من المصنفات الشهيرة وحدثت بينه وبعض العلماء مخاصمات أشهرها مع الإمام السخاوي وقد اعتزل السخاوي الحياة العامة وتفرغ للعلم والعبادة حتى وفاته وكان مبتعداً عن السلاطين والملوك.

(٢) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي؛ المصري الشافعي (٨٣١ ـ ٩٠٢هـ) مؤرخ كبير وعالم في الحديث والتفسير والأدب؛ ولد وعاش بالقاهرة وتوفي بالمدينة المنورة سافر في البلدان سفراً طويلاً وصنف أكثر من مائتي كتاب.

وأخذ الزمخشري من قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[1] إبطال سائر الكرامات؛ قال: لأن الذين تضاف إليهم؛ وإن كانوا أولياء مرتضين؛ فليسوا برسل؛ وقد خصَّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب (انتهى). وقوله: بالاطلاع على الغيب؛ صوابه: على بعض الغيب؛ وقال ابن المنير: الدعوى عامة؛ والدليل خاص؛ فالدعوى: امتناع الكرامات كلها؛ وما في الدليل سوى امتناع الاطلاع على الغيب؛ وما هو إلّا نوع واحد من أنواع الكرامة؛ (انتهى بمعناه). وفرق بين الاطلاع على الغيب؛ الذي هو الاستظهار التام والعلم اليقيني؛ وبين ما يقع للأولياء من الإلهام والكشف؛ لأنها تلويحات وتليمحات وإشارات وبشارات ليس إلّا؛ فلا تضاهي ما يقع للأنبياء؛ ولا يقرب منه؛ ولهذا أطبق الفقهاء على أنه ليس بحجة في الشرع؛ كما سبق تقرير ذلك في غير موضع.



(١) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.





الفائدة

السابعة عشرة

الفائدة السابعة عشرة

جاء في الصحيح تتبع ابن عمر للآثار؛ واعتمادها للصلاة فيها؛ حتى إنه ليترك لها بعض المساجد ويتجاوزها إليها؛ من شدة حرصه عليها؛ وأخرج الحاكم وصححه أنَّ نافعاً قال لموسى بن عقبة: لو رأيت ابن عمر يتتبع آثار رسول الله ﷺ لقلت هذا مجنون. وهو يخالف ما صحَّ عن أبيه؛ من أنه رأى الناس في سفر يستبقون إلى محل زعموا أن النبيَّ ﷺ صلى فيه؛ فنهاهم عن ذلك؛ وقال: ليُصَلِّ أحدكم حيثما أدركته الصلاة؛ فإنما أهلك من كان قبلكم تتبعهم آثار أنبيائهم؛ وما رواه المغيرة بن سويد؛ قال: خرجنا مع عمر في حَجَّةٍ حجَّها؛ فقرأ بنا في الفجر: ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؛ ولإيلاف قريش؛ فلما فرغ؛ رأى الناس يبادرون إلى مسجد هنالك؛ فقال: ما بالهم؟ قالوا: مسجد صلّى فيه النبيّ ﷺ! فناداهم: هكذا هلك أهل الكتاب قبلهم؛ اتخذوا آثار أنبيائهم بِيَعاً، من عرضت له صلاة في هذا المسجد فليُصَلِّ ومن لم تعرض له فليمض.

وجاء أنه أمر بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ بيعة الرضوان؛ لأنَّ المسلمين بعد وفاته ﷺ؛ كانوا يأتونها فيقيلون تحتها ويصلون عندها؛ فلما تكرر ذلك؛ أوعدهم عمر فيها؛ ثم أمر بها فقطعت؛ وقال بعضهم: لا يصح هذا لأنها عُمِّيَتْ على الناس فلم يعرف أحد مكانها بعد عمرة الحديبية؛ فقد أخرج البخاري عن سعيد بن المُسَيَّب[1] عن أبيه؛ «أنه كان فيمن بايع تحت الشجرة؛ قال:

(١) من كبار التابعين وعالم أهل المدينة في زمانه وكان رجلاً وقوراً ذا هيبة لا يخضع للملوك ولا يقبل هداياهم حريصاً على صلاة الجماعة لم يضيعها أربعين سنة كثير الصوم واشتهر =

فرجعنا إليها العام المقبل؛ فَعُمِّيت علينا؛ وكان قوم يصلون في مكانها؛ وقالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ؛ فضحك عليهم سعيد بن المُسَيب؛ محتجّاً بما قال أبوه». لكن جاء في البخاري عن جابر: «لو كنت أبصر لأريتكم مكان الشجرة»؛ وهذا يدل على أنه كان يضبط مكانها؛ قال الحافظ: ثم وجدت عند ابن سعيد بإسناد صحيح عن نافع: أنَّ عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة فيصلون عندها؛ فتوعدهم ثم أمر بقطعها اهـ. فما قاله المُسَيِّبْ لا يكون حُجَّةً على سائر الناس؛ والمثبت يُقَدَّم على النافي؛ ومن حَفِظَ؛ حُجَّة على من لم يحفظ؛ وغير بعيد أن يُضِلَّهَا قوم ويعرفها آخرون. وقد تأوَّل الحافظ لعمر؛ بخشيته على من لا يعرف حقيقة الأمر لقرب العهد بالوثنية.

أقول: وقد يشبه تبويب البخاري على قول النبي ﷺ: «**لولا قومك حديث عهد بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين؛ باب يدخل الناس وباب يخرجون**»؛ بباب ترك الاختيار؛ مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه؛ فيقعوا في أشد منه؛ فإن أراد عمر هذا التأويل أو تأويلاً آخر يشبهه؛ وإلّا فهو محجوج؛ على عظم قدره؛ بأمثال قصة عتبان بن مالك؛ حيث طلب من رسول الله ﷺ أن يصلي في بيته؛ ليتخذ مكان صلاته مصلّى؛ وهي في الصحيحين، وبتحرِّي سلمة بن الأكوع الاسطوانة التي كان ﷺ يتحرَّاها؛ وهي عند الشيخين أيضاً، وفي الصحيح[1]: «إنَّ موسى ﷺ سأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر». وفيه أيضاً: «إنَّ رجلاً من بني إسرائيل قتل تسعة وتسعين إنساناً؛ ثم خرج يسأل؛ فأتى راهباً فسأله: هل له توبة؟ قال: لا؛ فقتله؛ فجعل يسأل؛ فقال رجل: ائت قرية كذا وكذا؛ فأدركه الموت؛ فناء بصدره نحوها؛ فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب؛ فأوحى إلى هذه أن تَقَرَّبِي؛ وأوحى إلى هذه أن تباعدي؛ وقال: فقيسوا ما بينهما؛ فَوُجِدَ أقرب إلى هذه بشبر؛ فغفر له».

= بتعبير الرؤيا وتوفي بالمدينة سنة ٩٤هـ التي تسمى سنة الفقهاء لكثرة من مات فيها من الفقهاء.

(١) أي صحيح البخاري.

وقد عقد القاضي عياض فصلاً في ذلك؛ وما المناسك بأسرها؛ إلّا تعلل بالديار؛ وتتبع للآثار؛ إلّا أن يُفَرَّقَ بين الأماكن التي اعتمد النبي ﷺ تخصيصها بالعبادة؛ وبين الأماكن التي اتفقت له فيها اتفاقاً؛ فإنه لا يبعد؛ وفيه نوع من التوسط.

وأغرب البيضاوي[1] فقال: من اتخذ مسجداً في جوار صالح؛ وقصد التبرك بالقرب منه؛ لا لتعظيم له؛ ولا لتوجُّهٍ نحوه؛ فلا يدخل في الوعيد؛ أي الوارد في النهي عن اتخاذ القبور مساجد؛ ووافقه القسطلاني؛ وردَّه الحافظ الشوكاني وقال: إنه مصادم لنص الحديث. وبعضهم حمل النهي المذكور من أصله؛ على الزمان القريب العهد بعبادة الأوثان؛ وأما بعده؛ فلا؛ وبالغ ابن دقيق العيد في رَدِّه. وفي التحفة ما حاصله: إنَّ محاذاة قبور غير الأنبياء مكروهة في الصلاة للنجاسة؛ واستقبالها لنحو التبرك يقتضي التحريم، وأما الأنبياء؛ فلا تكره محاذاة قبورهم؛ لأنهم فيها أحياء؛ ولكنَّ استقبالها لنحو التبرك حرام. ونقل العلامة ابن القاسم عن شرح العباب: أنه لا يقاس الشهداء بالأنبياء؛ لأن حياة الأنبياء أتمُّ وأكمل؛ ثم نظَّر فيه ونقل عن الرملي القياس.

أقول: وفي إمكان القبوريين أن يستأنسوا لبعض شأنهم بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[2] لكن يقال لهم: إنه شرع قديم ورد في شرعنا منعه؛ فقد أخرج أحمد وابن داود والترمذي والنسائي عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد**» وأخرج مسلم: «**ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإني أنهاكم عن ذلك**».

---

(١) عبد الله بن عمر البيضاوي صاحب التفسير المشهور ولد بالبيضاء بفارس وبرع في عدة علوم وتولى القضاء وله مصنفات عدة غير التفسير منها شرح التنبيه للشيرازي؛ والإيضاح في أصول الدين؛ ولب اللباب في علم الإعراب؛ وتوفي بتبريز سنة ٦٨٥هـ.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢١.

والظاهر أن المنع عنه متقدم على اليهود؛ بـ: أمارة أنه لعنهم على ذلك؛ ولن يلعنهم إلّا لارتكاب المُحَرَّم؛ ففي الصحيح: **«لعن الله اليهود والنصاري اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** والصحيح نسخ الكتاب بالسُّنَّة؛ وقد تأولوا ما جاء من خلافه عن الشافعي؛ لما يترتب عليه من الفساد. والأحاديث في معناه كثيرة؛ أورد بعضها ابن حجر الهيتمي[1] في الزواجر؛ وَعَدَّ من الكبائر اتخاذ القبور مساجد؛ وإيقاد السرج عليها؛ والطواف بها؛ واستلامها؛ والصلاة إليها، ثم قال: عَدُّ هذه من الكبائر؛ وقع في كلام بعض الشافعية؛ وكأنه أخذ ذلك مما ذكرته من الأحاديث، ووجه اتخاذ القبر مسجداً منها واضح؛ لأنه لعن من فعل ذلك بقبور أنبيائه؛ وجعل من فعل ذلك بقبور صلحائه؛ شر الخلق عند الله يوم القيامة؛ ففيه تحذير لنا؛ كما في رواية: «يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا». نعم؛ إنما يتجه هذا الأخذ إن كان القبر قبر معظم من نبي أو ولي؛ ومن ثَمَّ قال أصحابنا: تحرم الصلاة إلى قبور الأنبياء والأولياء تبركاً وإعظاماً؛ فاشترطوا شيئين: أن يكون قبراً مُعَظَّماً؛ وأن يُقْصَدْ بالصلاة إليه أو عليه؛ التبرُّك أو الإعظام، وكون هذا الفعل كبيرة؛ ظاهرٌ من الأحاديث؛ وكأنه قاس على ذلك كُلَّ تعظيم للقبر؛ كإيقاد السرج عليه تعظيماً له؛ وتبركاً به؛ والطواف به كذلك؛ وهو أخذٌ غير بعيد؛ سيّما وقد صرَّح في الحديث: بلعن من اتخذ على القبر سُرَجاً؛ فيُحْمَلْ قول أصحابنا بكراهة ذلك؛ على ما إذا لم يقصد به تعظيماً وتبرُّكاً بذي القبر. وقال بعض الحنابلة: قصد الرجل الصلاة عند القبر تبركاً بها؛ عين المحادَّة لله ورسوله؛ وإبداع دين لم يأذن به الله؛ للنهي عنها إجماعاً؛ فإن أعظم المحرَّمات وأسباب الشرك؛ الصلاة عندها؛ واتخاذها مساجد؛ أو بناؤها عليها؛ والقول بالكراهة محمول على غير ذلك؛ إذ لا يُظَنُّ بالعلماء؛ تجويز فعل؛ تواتر عن النبي ﷺ؛ لَعْنُ فاعله، وتجب

---

(١) أحمد بن محمد بن علي بن حجر، شهاب الدين الهيتمي، عمدة المتأخرين، (ت ٩٧٤هـ)، طبع له العديد من المؤلفات، منها في علم الفقه: تحفة المحتاج شرح المنهاج، وحاشية على الإيضاح في المناسك للإمام النووي، وشرح على المقدمة الحضرمية، وفتح الجواد شرح الإرشاد، وغيرها.

المبادرة لهدمها؛ وهدم القباب التي على القبور؛ إذ هي أضر من مسجد الضرار؛ لأنها أُسِّسَتْ على معصية رسول الله ﷺ؛ لأنه نهى عن ذلك؛ وأمر بهدم القبور المشرفة؛ وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر؛ ولا يصح وقفه ونذره. (انتهى؛ وهو آخر ما أردنا نقله عن الزواجر بتلخيص).

ومثل هذا الكلام موجود بكثرة في كلام ابن تيمية وابن القيِّم؛ وهما من الحنابلة؛ فلعله إياهما يعني؛ وإليهما يشير؛ ولكنه لم يفصح بأسمائهما؛ لأنه كثيراً ما يتورَّك عليهما؛ ويرجمهما بجلاميد الأحجار؛ إلّا أنَّه عندما يحتاج للاستفادة من كلامهما؛ ينسى كل شيء؛ وسكوته على هذا الكلام هنا؛ أمارة اعتماده؛ بل إنه لم يسقه إلّا في مقام الاستدلال؛ فهو مقرر له؛ والذي لوحظ عليه؛ اعتماده في تحفته؛ حرمة بناء نفس القبر مطلقاً لعالمٍ وغيره؛ في مملوكٍ أو غيره، ولكنه يقول فيها: بِحِلِّ تسوية قبر نحو العالم؛ مطلقاً قبل البلى وبعده؛ في المسبلة وغيرها؛ لحرمة نبشه؛ ويقول فيها: بِحِلِّ بناء نحو القبور؛ فالمفهوم من كلام التحفة؛ كما ذكره العلامة ابن قاسم؛ منعها؛ لأنها من جنس البناء الممنوع.

وقد أمر ﷺ بهدم القبور المشرفة؛ ففي مسلم عن أبي الهياج الأسدي؛ قال: «قال لي عليّ كرم الله وجهه: أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؛ أن لا تدع تمثالاً إلّا طمسته؛ ولا قبراً مشرفاً إلّا سوَّيته».

وقال في التحفة[1]: واستلام القبر؛ أو ما عليه من تابوت؛ ولو قبره ﷺ؛ بنحو يده؛ بدعة مكروهة قبيحة. (انتهى).

وعبارة المغني[2] أشدُّ وطأة؛ وإن قنعت بهذا؛ وإلّا فَوَلِّ وجهك شطره، ومن العجب قول الشمس الرملي[3]؛ في مبحث كراهة تقبيل القبور: نعم؛ إن

---

(١) تحفة المحتاج لابن حجر الهيتمي.

(٢) مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج للشيخ محمد الخطيب الشربيني.

(٣) محمد بن أحمد بن حمزة، شمس الدين بن شهاب الدين الرملي، (ت١٠٠٤هـ)، فقيه =

قصد بتقبيله التبرك لا يكره؛ كما أفتى به الوالد رَحِمَهُ اللهُ؛ فقد صَرَّحوا بأنه إذا عجز عن استلام الحجر؛ سن له أن يشير بعصا؛ وأن يُقَبِّلها (انتهى).

وفيه أنَّ هذا مما لا مجال فيه للقياس؛ ولا سيّما مع ظهور الفوارق؛ ويكفي ما ثبت من قول عمر: أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع؛ ولولا أنّي رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

وبعد فقد تقاطر الكلام بأذنابه حتى خرج بنا عن الآثار إلى ما ترى؛ فلنعد إلى ما نحن بصدده؛ **ونقول**: ينبغي أن لا يكون التبرك بالآثار موضع خلاف؛ ما لم يؤدِّ إلى محظور؛ بعد ما صحَّ أنَّ الصحابة لاموا عبد الرحمن بن عوف في طلبه البردة من النبي ﷺ مع حاجته إليها؛ ولما قال: إنما أردت أن تكون كفني عذروه، فَعُذْرُهُمْ له؛ إما إجماع على مشروعية التبرك بالآثار؛ وإما آخر الإجماع إن لم يكنه. وفيم يطلب الدليل؛ وقد سبق أنَّ المناسك بأسرها من هذا القبيل ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(١)].

وفي صحيح مسلم؛ عن أسماء بنت أبي بكر؛ قالت: «هذه جبة رسول الله ﷺ؛ كانت عند عائشة حتى قبضت؛ فأخذتها؛ وكان النبي ﷺ يلبسها؛ فنحن نغسلها للمرض نستشفي بها». وما تغالى الملوك في بردة كعب بن زهير إلّا من أجل ذلك. وأخرج الشيخان عن عبد الله بن موهب؛ قال: «أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدحٍ من ماء؛ فجاءت بجلجلان من فضة فيه شعر من شعر النبي ﷺ؛ فكان إذا أصاب الإنسان عي أو شيء؛ بعث إليها فخضخضت له فشرب منه؛ فأطلعت في الجلجل فرأيت شعراً أحمر». وأخرج الشيخان أيضاً عن أبي حازم؛ قال:

= مصر ومفتيها، لقب بالشافعي الصغير، له عدة مصنفات، طبع منها نهاية المحتاج شرح المنهاج، وغاية البيان شرح زبد بن رسلان، وغيرها.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

«أخرج لنا سهل القدح الذي كان يشرب منه رسول الله ﷺ؛ فشربنا فيه؛ ثم استوهبه بعد ذلك عمر بن عبد العزيز؛ فوهبه له».

وفي الصحيحين؛ «أنَّ أمَّ سليم تُنَشِّف عرقه ﷺ فتعصره في قواريرها؛ فقال لها ﷺ: ما تصنعين؟ قالت: نرجو بركته؛ قال: أصبت»، هذا لفظ مسلم. وعنده عن أنس: «لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه؛ وطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلّا في يد رجل منهم». وفي باب الحلق منه: «أنه ﷺ قال للحلاق: احلق؛ فحلقه؛ فأعطاه أبا طلحة؛ فقال: اقسم بين الناس».

وفي مسند أحمد عن عبد الله بن زيد صاحب الأذان: «أنَّ رسول الله ﷺ حلق رأسه في ثوبه فأعطاه؛ فقسم منه على رجال؛ وقَلَّم أظافره فأعطاه صاحبه؛ قال: فإنه عندنا لمخضوب بالحناء والكتم». وفيه من حديث عون بن أبي جحيفة عن أبيه؛ قال: «أتيت النبي ﷺ بالأبطح؛ وهو في قبة حمراء؛ فخرج بلال بفاضل وضوئه؛ فمن ناضحٍ ونائل». وفي حديث الحديبية عند الشيخين أنصع دليل في ذلك.

وفي مسند أحمد أيضاً عن أمِّ سليم: «أنَّ النبيَّ ﷺ شرب من قربة عندها؛ فقطعت فم القربة؛ أي: رجاء بركة ذلك الموضع الذي وضع عليه فمه». وفيه أيضاً: «إنَّ الماء كان يستنقع في جفون النبي ﷺ حين غسلوه بعد موته؛ وإنَّ عليّاً كرم الله وجهه كان يحسوه».

وأخرج الحاكم؛ أن خالد بن الوليد فقد قلنسوة له يوم اليرموك؛ فقال: اطلبوها؛ فطلبوها فلم يجدوها؛ فقال: اطلبوها؛ فطلبوها فوجدوها؛ وإذا هي قلنسوة خَلِقَة؛ فقال خالد: اعتمر النبي ﷺ فحلق رأسه وابتدر الناس جوانب شعره؛ فسبقتهم إلى ناصيته؛ فجعلتها في هذه القلنسوة؛ فلم أشهد قتالاً وهي معي إلّا رزقت النصر، قال الذهبي: في سنده انقطاع.

وأخرج ابن عبد البر: أنَّ معاوية قال وهو يجود بنفسه؛ ليزيد: لقد كساني رسول الله ﷺ أحد ثوبيه الذي يلي جلده فخبأته لهذا اليوم. وأخذ رسول الله ﷺ

من أظفاره وشعره ذات يوم؛ فأخذته وخبأته لهذا اليوم؛ فإذا أنا مت فاجعل ذلك مما يلي جلدي دون الكفن؛ واجعل الشعر والأظفار في فمي؛ وعلى عيني ومواضع السجود مني؛ فإنَّ نفعني شيء فذلك؛ وإلّا فإنَّ الله غفور رحيم، والرواية مختلفة في شهود يزيد مهلك أبيه؛ والأخبار والآثار فيه لا تُحصى كثرة.

وذكر الحلبي في حاشيته على سيرة ابن سيد الناس؛ أنَّ في آخر مصر مكاناً على النيل؛ محكم البنيان؛ فيه خزانة من خشب عليها عدة ستور؛ وفي داخلها علبة تحتوي من الآثار النبوية على قطعة من قصعة؛ وقطعة من العنزة؛ وميل من النحاس الأصفر؛ ومخصف صغير؛ وملقط لإخراج الشوك؛ قال: وقد رآني الإمام جلال الدين ابن الخطيب دارَيًّا الدمشقي؛ بسوق كتب القاهرة؛ مرجعي من زيارة ذلك الموضع المليح؛ فقال لي: أين كنتم؟ قلت: زرنا الآثار؛ فقال: هل قال أحد منكم شيئاً في ذلك؟ قلت: لا؛ قال: ولكنني زرتها من أيام فقلت:

يَا عَيْنُ إنْ بَعُدَ الحَبِيبُ وَدَارُهُ ... وَنَأَتْ مَنَازِلُهُ وَشَطَّ مَزَارُهُ

فَلَقَد ظفرت من الحبيب بطائل ... إن لم تريه فهذه آثاره

وقال المعرِّي:

أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارَ لَيْلَى ... أُقَبِّلُ ذَا الجِدَارَ وَذَا الجِدَارَ

وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفْنَ قَلْبِي ... وَلَكِنْ حُبَّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَ

ومما يستجاد لأبي حيَّة النميري:

أَلا حَيِّ مِنْ أجْلِ الحَبِيبَ المَغَانِيَا ... لبَسْنَ البِلَى مِمَا لِبِسْنَ اللَّيَالِيَا

إذَا مَا تَقَاضَى المَرْءَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ... تَقَاضَاهُ شَيءٌ لا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

وقال المعرِّي:

أَرَى كُلَّ أَرْضٍ أوْطَنْتَهَا وإنْ خَلَتْ ... لَهَا حجَجٌ يَندى بِمِسْكٍ عَبِيرِهَا

وقال نبهان العبشمي:

يَـقَـرُّ لِـعَـيْـنِـي أَنْ أَرَى مِـنْ مَـكَـانِـهَـا ذُرَى عَـقَـدَاتِ الأَبْـرُقِ الـمُـتَـقَـاوِدِ[١]
وَإِنْ أَرِدْ الـمَـاءَ الـذِي شَـرِبَـتْ سُـلَـيْـمَـى وَقَـدْ مَـلَّ الـسَّـرَى كُـلُّ وَاجِـدِ
وَأُلْـصِـقُ أَحْـشَـائِـي بِـبُـرْدِ تُـرَابِـهِ وَإِنْ كَـانَ مَـمْـزُوجـاً بِـسَـمٍّ الأَسَـاوِدِ

وقال نصيب:

أَمَـا وَالَّـذِي حَـجَّ الـمُـلَـبُّـونَ بَـيْـتَـهُ وَشَـرَّفَ أَيَّـامَ الـذَّبِـيـحَـةِ وَالـنَّـحْـرِ
لَـقَـدْ زَادَنِـي لِـلْـغَـمْـرِ حُـبّـاً وَأَهْـلِـهِ لَـيَـالٍ أَقَـامَـتْـهُـنَّ لَـيْـلَـى عَـلـى الـغَـمْـرِ

وقصب السبق في الموضوع لكثير عزة حيث يقول:

خَـلِـيـلَـيَّ هَـذَا رَبْـعُ عَـزَّةَ فَـاعْـقِـلا قُـلُـوصَـيْـكُـمَـا ثُـمَ احْـلِـلا حَـيْـثُ حَـلَّـتِ
وَمُـسَّـا تُـرَابـاً طَـالَـمَـا مَـسَّ جِـلْـدَهَـا وَبَـيْـتـاً وَظِـلاً حَـيْـثُ بَـاتَـتْ وَظَـلَّـتِ
وَلا تَـيْـأَسَـا أَنْ يَـقْـبَـلَ الـلّـهُ مِـنْـكُـمَـا إِذَا أَنْـتُـمَـا صَـلَّـيْـتُـمَـا حَـيْـثُ صَـلَّـتِ

وقال أبو هفان:

وَلَـوْ لَـمْ تُـصَـافِـحْ رِجْـلَـهَـا صَـفْـحَـةَ الـثَّـرى لَـمَـا كُـنْـتُ أَدْرِي عِـلَّـةً لِـلْـتَـيَـمُّـمِ

وقال النميري:

تَـضُـوعُ مِـسْـكـاً بَـطْـنُ نُـعْـمَـانَ إِنْ مَـشَـتْ بِـهِ زَيْـنَـبٌ فِـي نِـسْـوَةٍ خَـفِـرَاتِ

وقال إسحاق الموصلي:

يَـا ذَا الـذِي جَـازَ الـدِّيَـارَ وَلَـمْ يَـقِـفْ قِـفْ لا وَقَـفْـتَ أَمَـا تَـرَى أَطْـلالَـهَـا
لَـوْ كُـنْـتَ ذَا وَجْـدٍ بِـسَـاكِـنِـهَـا لَـمَـا جَـاوَزْتَـهَـا حَـتَّـى أَطَـلْـتَ سُـؤالَـهَـا

---

(١) العقدات واحد العقدة ـ بكسر القاف وفتحها وهو ما تراكم من الرمل وانعقد؛ والأبرق حجارة يخالطها رمل أو طين؛ والمتقاود: المتقاد المستقيم؛ الأساود جمع أسود، وهو الأسود السالخ.

وقال أبو تمام:

دَاراً جَلَّ الهَوَى إنْ أَلَمَّ بِهَا ... فِي الرَّكْبِ إلّا وَعَينِي مِنْ مَنَائِمِهَا

وقال:

أَظُنُّ الدَّمْعَ فِي عَيْنِي سَيَبْقَى ... رُسُوماً مِنْ بُكَائِي فِي الرُّسُومِ

وقال:

وَقَفْتُ وَأَحْشَائِي مَنَازِلُ لِلأَسَى ... بِهِ وَهْوَ قَفْرٌ تَعَقَّتْ مَنَازِلُهْ

وقال:

قَدْ مَرَرْنَا بِالدَّارِ وَهْيَ خَلاءٌ ... فَبَكَيْنَا طُولَهَا وَالرُّسُومَا

وَسَأَلْنَا رُبُوعَهَا فَانْصَرَفْنَا ... بِسِقَامٍ وَمَا سَأَلْنَا حَكِيمَا

كُنْتُ أَرْعَى البُدُورَ حَتَّى إذَا مَا ... فَارَقُونِي أَمْسَيْتُ أَرْعَى النُّجُومَا

وقال الشبلي:

قُلْتُ لِلْقَلْبِ مُذْ تَرَاءَى لِعَيْنِي ... رَسْمُ آثَارِهِمْ فَهَاجَ اشْتِيَاقِي

هَذِهِ دَارُهُمْ وَأَنْتَ مُحِبٌّ ... مَا بَقَاءُ الدُّمُوعِ فِي الآمَاقِ

وَالمَغَانِي لِلصَّبِّ فِيهَا مَعَانِي ... فَهْيَ تُدْعَى مَصَارِعَ العُشَّاقِ

حُلَّ عِقْدَ الدُّمُوعِ وِاحْلِلْ رُبَاهَا ... وَاتْرُكَ الصَّبْرَ وَاقْضِ حَقَّ الفُرَاقِ

وقال السري الرفا:

حُيِّيْتَ مِنْ طَلَلٍ أَجَابَ دُثُورُهُ ... يَوْمَ العَقِيقِ سُؤالَ دَمْعٍ سَائِلِ

نَحْفَى وَنَنْزِلُ وَهْوَ أَعْظَمُ حُرْمَةً ... مِنْ أَنْ يُذَالَ بِرَاكِبٍ أَوْ نَاعِلِ

وقال المتنبي:

وَدُسْنَا بِأَخْفَافِ المَطِيِّ تُرَابَهَا ... فَمَا زِلْتُ أَسْتَشْفِي بِلَثْمِ المَنَاسِمِ

وقال:

وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنَا   فُؤَاداً لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلا لُبَّا
نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِي كَرَامَةً   لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبَا
نَذُمُّ السَّحَابَ الغُرَّ فِي فِعْلِهَا بِهِ   وَنُعْرِضُ عَنْهَا كُلَّمَا طَلَعَتْ عَتْبَا

وقال:

بُلِيتُ بِلَى الأَطْلالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا   وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهْ

وقال شيخنا العلامة ابن شهاب[1] عن مدينة تريم:

إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهَا وَجَدْنَا تُرَابَهَا   يَفُوحُ لَنَا عَنْ عَنْبَرٍ مُتَنَفِّسِ
وَنَمْشِي حُفَاةً فِي ثَرَاهَا تَأَدُّباً   نَرَى أَنَّنَا نَمْشِي بِوَادٍ مُقَدَّسِ

والآثار كثيرة؛ والأشعار شهيرة؛ وفي كتابنا العود الهندي؛ بحسب المناسبات؛ جُلٌّ منها وغيره. وما زالت تلك سنة العرب؛ حتى جاء أبو نواس ومن على شاكلته؛ فهو القائل:

صِفَةُ الطُّلُولِ بَلاغَةُ القِدَمِ   فَاجْعَلْ صِفَاتَك لابْنَةِ الكَرَمِ

---

(١) ولد الشاعر الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب سنة ١٢٦٢هـ بقرية حصن آل فلوقة أحد مصايف تريم من بلاد حضرموت وتوفي سنة ١٣٤١هـ بحيدر آباد الدكن من بلاد الهند. وكانت هجرته الأولى من بلاده إلى الحجاز سنة ١٢٨٦هـ وهذه الهجرة كانت لطلب العلم حيث أخذ عن علماء الحجاز لا سيما السيد أحمد بن زيني دحلان، ثم عاد إلى تريم وأقام بها حتى سنة ١٢٨٨هـ حيث هاجر إلى الشرق الأقصى هجرة امتدت أربع سنين كانت جل إقامته فيها بأندونيسيا في مدينة سورابايا من مدن جزيرة جاوا مشتغلاً بالتجارة، ثم عاد إلى وطنه ولكن لم يستقر فيه بل عاود الهجرة سنة ١٣٠٢هـ مفتتحاً هجرته بسياحة في عدن والحج والحجاز ومصر وسورية وفلسطين ثم في الآستانة، واختتم سياحته بالحلول في مهجر جديد هو مدينة حيدر آباد الدكن في الهند، ولكنه ظل دائم التردد إلى أندونيسيا. وفي العالم ١٣٣١هـ عاد إلى وطنه مصطحباً عائلته بعد هجرة استمرت نحو ثلاثين سنة، وترك أسرته في الوطن وعاد إلى المهجر سنة ١٣٣٤هـ ليقطع ما تبقى من علائقه ثم يعود إلى الوطن، ولكن لم تُكتَب له العودة حيث قضى نحبه في ديار الغربة.

وقال:

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ دَرَسْ ... واقفاً؛ مَا ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسْ؟
اتْرُكِ الرَّبْعَ وَسَلْمَى جَانِباً ... وَاصْطَبِحْ كِرْخَيَّةً مِثْلَ القَبَسْ

وقال:

عَاجَ الشَّقِيُّ عَلَى رَسْمٍ يُسَائِلُهُ ... وَعِجْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَّارَةَ البَلَدِ
يَبْكِي عَلَى طَلَلِ المَاضِينَ مِنْ أَسَدٍ ... لا دَرَّ دَرُّكَ؛ قُلْ لِي مَنْ بَنُو أَسَدِ
وَمَنْ تَمِيمٌ وَمَنْ قَيْسٌ وإخْوَتُهُمْ ... لَيْسَ الأعَارِيبُ عِنْدَ الله مِنْ أَحَدِ
لا جَفَّ دَمْعُ الذِي يَبْكِي عَلى حَجَرٍ ... وَلا صَفَا قَلْبُ مَنْ يَصْبُو إلَى وَتَدِ
كَمْ بَيْنَ نَاعِتِ خَمْرٍ فِي دَسَاكِرِهَا ... صَفْرَاءَ تَفْرُقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ

وقال:

اتْرُكِ الأطْلالِ لا تَعْبَا بِهَا ... إنَّهَا مِنْ كُلِّ بُؤسٍ دَانِيَةْ
وَانْعَتِ الرَّاحَ عَلَى تَحْرِيمِهَا ... إنَّمَا دُنْيَاكَ دَارٌ فَانِيَةْ
مِنْ عَقَارٍ مَنْ رَآهَا قَالَ لِي ... صِيدَتْ الشَّمْسُ لَنَا فِي آنِيَةْ

هكذا السخف يمدُّه؛ لكن الفطرة ضدُّه؛ والطبعُ يردُّه؛ والمرء مفتونٌ بما يودُّه؛ وذكر ابن السبكي[1] في طبقاته؛ قال: خرج مرّة عشرة من فتيان الفسَّاق إلى منتزه؛ مع كل واحد منهم غلام وَبَغِي؛ فأرسلوا من يأخذ لهم فاكهة؛ فأقبل بعد لأيٍ ما ومعه بطيخة يقبِّلها ويقول: لكم البشرى قالوا: بماذا؟ قال: بطيخة

(١) أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (٧٢٧هـ ـ ٧٧١هـ) فقيه شافعي، ومؤرخ عربي وقاضي قضاة في دمشق، انتقل إلى دمشق مع والده الفقيه تقي الدين السبكي وهو صغير فسكنها وعاش حياته وأصبح من أشهر القضاة في دمشق وتوفي بها. كان طلق اللسان، قوي الحجة، انتهت إليه قضاء القضاة في ثم عاد إلى دمشق وأكمل مسيرته في الفقه والقضاء توفي ودفن في دمشق.

وقعت عليها يد بشر بن الحارث[١]؛ فأخذتها لكم بعشرين درهماً! فقال أحدهم: وما بشر بن الحارث حتى تفعلون به هذا؟ وقد كان كأحدنا من الناس؛ فقال آخر: عِزُّ التقوى هو الذي بلغ به إلى هذا الحال؛ فقال آخر: أشهدكم أنِّي تبت عما أنتم عليه؛ رغبة في تحصيل هذا العز؛ فاقتفاه الثاني؛ وهكذا حتى تابوا أجمعون؛ ثم مرَّت بهم قافلة الغزاة في سبيل الله؛ فخرجوا معهم؛ فاستشهدوا عن بكرة أبيهم؛ أو ما هذا معناه؛ أو قريب منه.

وكان السبكي يتحرى بصلاته في المدرسة؛ موضع النووي؛ ويقول:

وَفِي دَارِ الحَدِيثِ لَطِيفُ مَعْنَى أُصَلِّي فِي جَوَانِبِهِ وَآوِي
لَعَلِّي أَنْ أَنَالَ بِحُرٍّ وَجْهِي مَكَاناً مَسَّهُ قَدَمُ النَّوَاوِي

غير أني لا أبرئ هذا؛ عن شيء مما سبق؛ في قصد التبرك بالصلاة حول القبر. ولما ورد الربيع على الإمام أحمد بن حنبل بكتاب الشافعي؛ دفع إليه قميصه الذي يلي جلده؛ فقال له الشافعي: أما القميص فإنَّا لا نفجعك فيه؛ ولكن بُلَّهُ؛ وادفع إليَّ الماء؛ حتَّى أشارك في بركته وقال المتنبي:

فَخُذَا مَاءَ رِجْلِهِ وَانْضَحَا فِي المُـ ـدْنِ تَأْمَنْ مِنْ بَوائِقَ الزِّلْزَالِ

غير أن الجهلة يركبون الغلط؛ ويذهبون الشطط؛ وينحرفون عن الصراط؛ ويميلون إلى جانب الإفراط؛ وعلى كلّ حال فالاعتدال زين؛ والتعصب شين؛ والجهل مهواه[٢]؛ والكلام لا ينفع مَن الشيطانُ أغواه؛ واتباع الطريق أحزم؛ والتحرِّي لدى الاشتباه ألزم.

---

(١) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء (١٥٢ ـ ٢٢٧هـ)، الإمام العالم المحدث الزاهد الرباني القدوة، شيخ الإسلام أبو نصر المروزي، ثم البغدادي، المشهور بالحافي، قيل: لو قُسِّم عقل بشر على أهل بغداد، صاروا عقلاء.

(٢) من كلام أكثم بن صيفي: الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء.

ثم لا غرابة في تتبع الآثار؛ والظبية ترأم محل خشفها[١]، والناقة تلزم مكان شعيها؛ والطيور تهوي إلى أوكارها، والإبل تحن إلى أعطانها[٢]. وقديماً كان يقال: أكرم الصفايا[٣] أشدها وَلَهاً إلى أولادها، وأكرم الإبل أحنَّها إلى أوطانها، وأكرم الأفلاذ أشدها ملازمة لأمهاتها، وخير الناس آلفُ الناس للناس.

وقال أبو الطيب:

خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رُدِدْتُ إلى الصِّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجَعَ القَلْبِ بَاكِيَا

وكَمْ انحلَّ بالرائحة من الوجد عويص؛ وهذا يعقوب ﷺ؛ قد ارتدَّ بصيراً بالقميص؛ ففيها من الوصل لون، وفي التعلل بها على البعد عون، ومنها يجد المشتاق للتباريح بعض الهون؛ ولله درُّ النابغة الجعدي؛ أو ابن الحارث في قوله:

تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيجُ عَلَى الفَتَى وَمِنْ عَادَةِ المَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا

وَإِنِّي لأَسْتَشْفِي بِرُؤْيَةِ جَارِهَا إِذَا مَا تَلَاقِيهَا عَلَيَّ تَعَذَّرَا

وما أحسن قول مسكين الدارمي أو غيره:

أُقَلِّبُ طَرْفِي فِي السَّمَاءِ لَعَلَّهُ يُوَافِقُ طَرْفِي طَرْفَهَا حِينَ تَنْظُرُ

وَأَسْتَعْرِض الرُّكْبَانَ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ لَعَلِّي بِمَنِ قَدْ شَمَّ عُرْفَكِ أَظْفَرُ

وَأَسْتَقْبِلُ الأَرْوَاحَ عِنْدَ هُبُوبِهَا لَعَلَّ نَسِيمَ الرِّيحِ عَنْكِ يُخَبِّرُ

وما أحسن قول الآخر:

وَإِنِّي لأَسْتَشْفِي بِكُلِّ غَمَامَةٍ يَهُبُّ بِهَا مِنْ نَحْوِ أَرْضِكِ رِيحُ

وقال آخر:

---

(١) معنى ترأم أي تتعطف وتترحم عليه؛ وأول ما يولد الظبي يسمى الطلا، ثم الخشف، ثم الغزال، ثم الشادن.

(٢) العَطَنُ: مَبْرَكُ الإبل ومَرِبضُ الغنم عند الماء.

(٣) جمع صفيَّة: وهي الناقة غزيرة اللبن كثيرة الحمل.

أَلا يَا نَسِيمَ الصُّبْحِ مَا لَكَ كُلَّمَا ... تَقَرَّبْتَ مِنَّا فَاحَ نَشْرُكَ طَيِّبَا

كَأَنَّ سُلَيْمَى نُبِّئَتْ بِسِقَامِنَا ... فَأَعْطَتْكَ رَيَّاهَا فَجِئْتَ طَبِيبَا

ويروى أن عائشة بنت عبد الله أخذها أمر عظيم من قتل ولديها؛ فكانت تتعلل بشمِّ ثيابهما؛ ويعجبني قول الرصافي شاعر العراق لهذا العصر:

وَمَا أَدْمَاءُ تَرْتَعُ حَوْلَ رَوْضٍ ... وَيَرْتَعُ خَلْفَهَا رَشَأٌ رَبِيبُ

فَمَا لَفَتَتْ إِلَيهِ الجِيدَ حَتَّى ... تَخَطَّفَهُ بِآزِنَتَيْهِ ذِيبُ

فَرَاحَتْ مِنْ تُحَرِّقِهَا عَلَيْهِ ... بِدَاءٍ مَا لَهَا فِيهِ طَبِيبُ

تَشَمُّ الأَرْضَ تَطْلُبُ مِنْهُ رِيحاً ... وَتَنْحَبُ وَالبُغَامُ هُوَ النَحِيبُ

وَتَمْزَعُ فِي الفَلاةِ لِغَيْرِ وَجْهٍ ... وَآوِنَةً لِمَصْرَعِهِ تَؤُوبُ

بِأَجْزَعَ مِنْ فُؤَادِي يَوْمَ قَالُوا ... بِرُغْمٍ مِنْكَ فَارَقَكِ الحَبِيبُ

وقال كثير:

وَأَنْتِ التي حَبَّبْت شغباً إلَى بَدَا ... إلَيَّ وَأَوْطَانِي بِلادٌ سِوَاهُمَا

إِذَا ذَرَفَتْ عَيْنَايَ اعْتَلَّ بِالقَذَا ... وَعزة لَوْ يَدْرِي الجَلِيسُ قَذَاهُمَا

وَحَلَّت بَهَذَا عِلَّةٌ ثُمَّ عِلَّةٌ ... بِهَذَا خِطَابُ الوَادِيَانِ كِلاهُمَا

وعلى ذكر التعلل بالقذى؛ أقول: إنه اتَّفق لي مثله؛ في قصيدة قافية؛ فامتلأت سروراً من نفسي؛ وأحسنت الظن بفكرتي؛ وظننتني السابق إلى هذا المعنى؛ ثم ألفيته موجوداً في أشعار القدماء؛ ثم تعاوره المُحْدِثُون.

قال الحطيئة:

إِذَا مَا العَيْنُ فَاضَ الدَّمْعُ مِنْهَا ... أَقُولُ بِهَا قَذًى وَهْوَ البُكَاءُ

وقال بشَّار:

وَقَالُوا قَدْ بَكَيْتَ فَقُلْتُ كَلَّا ... وَهَلْ يَبْكِي مِنَ الجَزَعِ الجَلِيدُ

وَلَكِنْ قَدْ أَصَابَ سَوَادَ عَيْنِي عُوَيْدُ قَذًى لَهُ طَرَفٌ حَدِيدُ
فَقَالُوا مَا لِدَمْعِهِمَا سَوَاء أَكِلْتَا مُقْلَتَيْكَا أَصَابَ عُودُ

وقال أبو العتاهية:

كَمْ مِنْ صَدِيقٍ لِي أُسَا رِقُهُ البُكَاءَ مِنَ الحَيَاء
فَإِذَا تَفَطَّنَ لامَنِي فَأَقُولُ مَا بِي مِنْ بُكَاء
لَكِنْ ذَهَبْتُ لأَرْتَدِي فَطَرَفْتُ عَيْنِيَ بِالرِّدَاء

وعلى كليهما مؤاخذة في المراجعة الدالَّة على التكلُّف؛ فإن الصادق في البكاء لا يقدر على الكلام؛ بل يخنقه النشيج دونه، ويزيد الأول بالغثاثة في قوله: عويدُ قَذَى له طرفٌ حديدُ؛ فإنه لو كان كذلك؛ لسالت عينه واعوَرَّت؛ ولكنه معذورٌ؛ إن كان بشاراً كما في حفظي؛ بعماه. ولقد أجمل الثاني وأحسن بقوله: فطرفت عيني بالرداء.

أما أبياتي التي كنت مغروراً بها؛ ثم انحطَّت في عيني؛ وتلاشى رضاي عنها؛ فهي:

وَدَّعْتُهُمْ وَكَتَمْتَهُمْ خَبَرَ النَّوَى والحَالُ أَنِّي بِالتَّكَتُّمِ وَاثِقُ
لَكِنْ ضَعُفْتُ عَنِ الجَوَى وَتَبَادَرَتْ مِنْ مِحْجَرَيَّ عَلَى الخُدُودِ سَوَابِقُ
قَالُوا تُفَارِقُنَا وَأَنْتَ حَيَاتُنَا مَاذَا يَكُونُ الحَالُ حِيْنَ تُفَارِقُ
فَعَيِيتُ فِي رَدِّ الجَوَابِ لأَنَّهُ قَدْ كَادَ يَفْضَحُنِي نَشِيجٌ خَانِقُ
وَأَرَابَهُمْ وَجَلِي وَلَكِنِّي وَإِنْ ضَعُـ ـفَتْ قِوَى جِلْدِي بَقِيتُ أُسَارِقُ
وَعَصَرْتُ عَيْنَيَّ مُوهِماً فِيهَا قَذَى وَأَرَيْتُهُمْ أَنِّي بِرِيقِي شَارِقُ

وعلى كل حال ففيها من الاحتراس ما لا يوجد مثله عند الفحلين؛ مع التوارد في أصل المعنى؛ الذي يشهد الله والرقيب الأدنى؛ أنِّي لم أطلع عليه إلّا بعد نظمي لهذه؛ فهو ليس بقليل من مثلي حينئذٍ؛ وكم لي فيما يشبهه من القصائد

التي لا تنحدر عن الإجادة؛ ولولا خشية الإملال والإثقال؛ لذكرت بعضها؛ ولكنا قد أطلنا[١].

ثم رأيت أنَّ الشريف الرضي؛ كان يعشق قَيْنَة يقال لها بدور؛ فاجتمع بأبي تراب هبة الله ابن السريجي، وكان شاعراً؛ فقال للشريف:

أَسَلَوْتَ حُبَّ بُدُورٍ أَمْ تَتَجَلَّدِ ... وَسَهَرْتَ لَيْلَكَ أَمْ جفُونَكَ تَرْقُدُ

فقال الشريف:

لا؛ بَلْ هُمُوا أَلِفُوا القَطِيعَةَ مِثْلَمَا ... أَلِفُوا نُزُولُهُمُ بِهَا فَتَبَّعَدُوا

فقال أبو تراب:

فَإلامَ تَصْبِرُ وَالفُؤادُ مُتَيَّمٌ ... وَلَظَى اشْتَيَاقَكَ فِي الحَشَى يَتَوَقَّدُ

فقال الشريف:

مَا دَامَ لِي جَلَدٌ فَلَسْتُ بِجَازِعٍ ... إِذْ كَانْ صَبْرِي فِي الحَوَادِثِ يُحْمَدُ

فقال أبو تراب:

أَحْسَنْتَ كِتْمَانَ الهَوَى؛ مُسْتَحْسَنٌ ... لَوْ كَانَ مَاءَ العَيْنِ مِمَا يَجْمُدُ

فقال الشريف:

إِنْ كَانَ جِفْنِي فَاضِحِي بِدُمُوعِهِ ... أَظْهَرْتُ لِلْجُلَسَاءِ أَنِّي أَرْمَدُ

فقال أبو تراب:

---

(١) تصور أبيات الإمام تصويراً بليغاً؛ اللحظات الصعبة التي يتعرض لها الحضارمة عند مفارقة بيوتهم وأهاليهم ناجعين إلى الأصقاع البعيدة. ومع أن الإمام كان قليل السفر خارج حضرموت وإذا سافر فلا يطول سفره؛ ومع ذلك فقد صور ما تعرض له من شدة عند المفارقة فكيف بالحضارمة المسافرين في ذلك الزمن؛ إلى الأصقاع البعيدة بالجمال ثم بالسفن الشراعية؛ والذين قد تطول غيبة الواحد منهم أربعين سنة أو أكثر؛ وأغلبهم لا يعودون؛ ولهذا فإن الحضارمة يعتبرون مغادرة الديار والوطن أشد من القتل والموت.

فَهَبْ الدُّمُوع إِذَا جَرَتْ مَوَّهْتَهَا فَيُقَالُ لِمَ أَنْفَاسَه تَتَصَعَّدُ

فقال الشريف:

أَمْشِي وَأُسْرِعُ كَيْ يَظُنُّوا أَنَّهَا مِنْ ذَلِكَ المَشْيِ السَّرِيعِ تُولَّدُ

فقال أبو تراب:

هَذَا يَجُوزُ وَمِثْلُهُ مُسْتَعْمَلٌ لَكِنَّ وَجْهَكَ بِالمَحَبَّةِ يَشْهَدُ

والمساجلة أطول من هذا؛ ولكنها كلما طالت انحطَّت؛ كما يعرف مما أوردناه منها؛ ولهذا أضربت عن الباقي؛ وحسبنا موضع الشاهد؛ ولا شك أن ما خرجت به من إيهام الشرق بالريق؛ أدنى للقبول؛ وأخفى للأمر؛ وخيرٌ منه قولي من أخرى:

وَأَذْكُرُهُمْ بِالدَّرْسِ يَوْماً فَتَنْثَنِي لِسَانِي وَيَعْتَاقُ النَّشِيجُ مَقَالِي

فَآخُذُ فِي وَعْظٍ بِهِ رَبُّه البُكَاء لأَقْطَعَ بِالإِيهَامِ كُلَّ مَجَالِ[1]

ولنختم حديث الآثار بما ذكره السهيلي: إنَّ هرقل وضع كتاب رسول الله ﷺ في مقلمة من ذهب؛ ولم يزالوا يتوارثونه كابراً عن كابر؛ حتى كان عند أذفونش الذي أخذ الأندلس (انتهى).

وقد ذكر الحافظ هذه الحكاية بسنده إلى فليح المنصوري؛ أن الملك الناصر قلاوون الألفي الصالح؛ أرسله إلى ملك المغرب بهدية؛ فأرسله ملك المغرب إلى ملك الإفرنج في شفاعة؛ فقبلها وعرض على فليح الإقامة عنده فامتنع؛ وأطلعه على كتاب رسول الله ﷺ في مقلمة من ذهب؛ في صندوق من ذهب؛ وقال: هذا كتاب نبيِّكم لجدِّي قيصر؛ نتوارثه؛ وأوصانا آباؤنا بحفظه؛

(١) يبدو أن الإمام يلقي هذا الدرس وهو مسافر خارج حضرموت فيتذكر أثناءها أهله وأولاده بوطنه فيشتاق لهم فيبكي فيغطي بكاءه الحاضرين معه بوعظ يستدر دموع الحاضرين وبكاءهم ليخفي حقيقة أمره؛ وفيه دليل على رقة عاطفة الإمام؛ وصعوبة مفارقته أهله ووطنه.

وقالوا: إنَّه لا يزال الملك فينا ما دام هذا الكتاب محفوظاً لدينا؛ قال الحافظ: ويؤيده ما وقع في حديث سعيد بن أبي راشد؛ أنه ﷺ؛ عرض على التَّنُوخي رسول هرقل الإسلام؛ فامتنع؛ فقال: «**يا أخا تنوخ؛ إنِّي كتبت إلى ملككم بصحيفة فامسكها؛ فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير**». وأخرج أبو عبيد؛ أنه ﷺ قال: «**أما هؤلاء فيمزقون؛ يعني الأكاسرة؛ وأما هؤلاء فتكون لهم بقية؛ يعني القياصرة**»؛ ويؤيده ما روي أنه ﷺ؛ لمَّا جاء جواب كسرى قال: «**مزَّق الله ملكه**»؛ ولما جاءه جواب هرقل؛ قال: «**ثَبَّت الله ملكه**»، والله أعلم؛ (انتهى كلام الحافظ بتلخيص).

وقد أغار العيني[١] على قصة فليح المنصوري؛ الذي أخرجها الحافظ بسنده؛ ولم يعزها للحافظ؛ وهو غير مناسب لأمانة العلم. وفي القصة من بركة الآثار ما لا يدرك حده؛ ولا يتناهى مَدُّه؛ وقد يتقوَّى بما أخرجه الحاكم عن كعب: لا تكون الملاحم إلّا على يدي رجل من آل هرقل الرابع أو الخامس يقال له طيَّاره فإن غمامة الشر الآن لا تتألق إلّا من مظانهم مع احتمال أنَّ اللام في (له طيَّاره) للملك؛ فتكون فيه إشارة إلى هذه الطيارات؛ وقد رأيت في تاريخ التبابعة ما يدل على وجود الطائرات في أيَّامهم؛ إلّا أن المؤرخين يحيلون أفعالها على صنيع الجن[٢].

وفي بلوغ الأرب ما نصه: ونقل عن بعض المجاميع؛ أنَّ جمشاداً[٣]؛ ملك

---

(١) الحافظ المحدث بدر الدين العيني له كتاب عمدة القارىء في شرح صحيح البخاري وعدة مؤلفات أخرى وهو من مواليد حلب (٧٦٢ ـ ٨٥٥هـ) سافر إلى مصر وحظي باحترام الأمراء المماليك وأقام مدرسة تقع خلف الأزهر درس بها إلى حين وفاته.

(٢) جاء في سورة النمل قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧] فربما كانت بعض الطيور الكبيرة في ذلك الزمن القديم تقوم مقام الطائرات في عصرنا الحديث. (المحقق).

(٣) جمشاد هو أحد ملوك الطبقة الأولى من الفرس وهو الذي بدأ عيد النيروز وهو أعظم أعيادهم،وسبب اتخاذهم هذا اليوم عيداً أن طمهورة لما هلك ملك بعده جمشاد فسمي =

الأقاليم السبعة والجن والإنس؛ وأنه لما مضى من ملكه ثلاثمائة سنة وست عشرة سنة؛ أقبل على عجلة من زجاج؛ عملتها له الشياطين؛ سار بها من نهاوند إلى بابل في يوم واحد؛ وجعل يسير بها في الهواء حيث شاء؛ وأن اليوم الذي ركبها فيه أول يوم من شهر أفرود ريزماه؛ (انتهى).

وروى الهمداني[1] في الجزء الثامن من الإكليل: أن جماعة من ملوك اليمن خدمتهم الجن في المتصرفات دون البناء؛ وأنهم كانوا يأتونهم بفواكه بلاد الهند طريَّة؛ وفي الجزء التاسع منه؛ أنه وجد مسنداً بمثل قتاب في قبر ما؛ حاصله: أنا شمعة بنت ذي مراثة؛ كنت إذا حممت أتيت بالفواكه طريَّة من بلاد الهند[2]. والشواهد على وجود الطائرات وأمثالها من مدهشات المخترعات لتلك العصور القديمة؛ كثيرة؛ وربما يأتي منها شيء في هذه المجموعة عند حصول المناسبة.



= اليوم الذي ملك فيه نوروزاً؛ أي: (اليوم الجديد) ومن الفرس من يزعم أن النيروز هو اليوم الذي خلق الله تعالى فيه النور، وأنه كان معظماً قبل جمشاد. وبعضهم يزعم أنه أول الزمان الذي ابتدأ الفلك فيه بالدوران ومدته عندهم ستة أيام، أولها اليوم الأول من شهر أفرود ريزماه الذي هو أول شهور سنتهم، ويسمون اليوم السادس النيروز الكبير.

(١) أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني من أعظم الجغرافيين في عصره وكان شاعراً وعلى معرفة بالفلك والحكمة والكيمياء ولد وعاش باليمن وله رحلات خارجية ومعرفة بكتب الرومان واليونان وله عدة مؤلفات من أشهرها صفة جزيرة العرب؛ والإكليل يروي فيه أخبار العرب والأمم السابقة وتوفي في حدود سنة ٣٣٦هـ.

(٢) روى لي عدد من الثقاة أن بإمكان أحد الأشخاص المعاصرين إحضار أطعمة من بلاد أخرى بعيدة في لحظات (المحقق).



الفائدة

الثامنة عشرة

الفائدة الثامنة عشرة

في حديث عتبان بن مالك المشار إليه في الفائدة التي قبل هذه؛ أنه لما جاء رسول الله ﷺ اليه؛ ثاب في البيت رجال من أهل الدار ذوو عدد؛ فاجتمعوا فقال قائل منهم: أين مالك بن الدُّخيشن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق لا يحب الله ورسوله؛ فقال رسول الله ﷺ: «**لا تقل ذلك؛ ألا تراه قد قال: لا إله إلّا الله؛ يريد بذلك وجه الله**»؛ قال: الله ورسوله أعلم؛ فقال: فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين. فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله حرم على النار من قال: لا إله إلّا الله يبتغي بذلك وجه الله**».

والحاصل: أنهم رجموا مالكاً بالنفاق؛ فاحتج عليهم النبيُّ ﷺ؛ بأنه يريد بشهادته وجه الله على وجه جليّ؛ ينبغي من ظهوره أن لا يخفى عليهم؛ ولهذا قررهم في الاستفهام؛ مع أن تلك الإرادة من أعمال القلوب؛ ولكن لما توفرت عليها القرائن؛ وتأكَّدت الأدلة كانت في حكم الظاهر الجلي؛ ومع ذلك فقد غلبهم ما يجدون عليه في أنفسهم؛ لتودُّدِه إلى المنافقين؛ وعند ما رآهم مستندين في إساءة الظن به إلى قرائن؛ قد تكافئ تلك؛ عذرهم؛ وبيَّن لهم بإثر ذلك ما خفي عليهم من صدق نية الرجل في الإيمان؛ فقال: إن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلّا الله يبتغي بذلك وجه الله.

فإن قلت: من أين تظهر صحة عزيمة إيمان مالك؟ **قلت**: لا من هذا الحديث؛ ولكن من قول ابن عبد البر: لم يختلفوا أنَّه؛ يعني مالكاً؛ شهد بدراً وما بعدها من المشاهد؛ وهو الذي أسر سهيل بن عمرو في ذلك اليوم؛ وكان

ثاني اثنين اختارهما رسول الله ﷺ لتحريق الضرار[١]. وذكر ابن عبد البر وغيره أن الذي تكلم في حقِّه هو عتبان بن مالك صاحب البيت؛ وهو بدريّ أيضاً؛ وما كان يرتاب في إيمانه؛ وقد قاتل معه جنباً لجنب في المشهد الذي اطَّلَعَ الله على أهله فغفر لهم. وهذه الواقعة متأخرة عن بدر؛ إذ لم تكن إلّا بعدما أضَرَّ[٢] عتبان، كما أشار إليه البخاري وصرح به مسلم.

فأما تردد مالك إلى المنافقين؛ مع صحة عزيمة قلبه على الإيمان؛ فإنه شبيه بِجَسِّ حاطب بن بلتعة على رسول الله ﷺ في غزوة الفتح[٣].

وقد سأل عمر قتله إذ ذاك؛ وقال: إنه منافق خان الله ورسوله؛ فلم يُثَرِّبْ عليه فيما وسم به من النفاق لظهور عذره؛ ولكن قال له: «**إنه شهد بدراً؛ وما يدريك يا عمر؛ لعلَّ الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»؛ فذرفت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم.

---

(١) أسس أصحاب مسجد الضرار مسجدهم بجوار مسجد قبا للتفريق بين المسلمين ثم أتوا رسول الله ﷺ؛ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه فقال ﷺ: «**إني على جناح سفر وحال شغل**» أو كما قال رسول الله ﷺ: «**ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه**» ثم أتاه جبريل بخبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخيشن ومعن بن عدي أو أخاه عامر فقال: «**انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه**» وقد جاء خبر هذا المسجد بسورة التوبة.

(٢) أي بعد أن عمي.

(٣) أخرج البخاري عن علي يقول: إن حاطب بعث برسالة إلى نفر من مشركي مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فلما كشفت قال له رسول الله ﷺ: «**يا حاطب، ما هذا؟**» فقال: يا رسول الله، لا تعجل علي إني كنت امرأً ملصقاً في قريش يقول: كنت حليفاً ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**أما أنه قد صدقكم**»، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «**إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

وفي رواية أنه ﷺ قال للزاري على مالك الدخيشن: «**أليس قد شهد بدراً**» وما كان ينبغي له بعد قول النبي هذا أن ينبس ببنت شفة؛ فإما أن يكون النبي ﷺ؛ إنما قال ذلك في آخر الكلام؛ وخلا عتبان الملام، وإما يكون عمر أفقه منه؛ فإنه لما ظهر منه له صريح الحق؛ برد قلبه عليه؛ وفاضت عيناه؛ وقد أخذ بعضهم من استئذان عمر في قتل حاطب؛ تَحَتُّم قتل الجاسوس؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لم ينكره؛ وإنما ذكر مانعاً منه؛ والمانع متقدم كما في الأصول على المقتضى.

■ وفي الحديثين مسائل:

الأولى: جواز إساءة الظن بالمسلم عند توفر القرائن بجهله؛ وعلوق الرِّيَبْ بذيله. وقد ترجم في البخاري لما يجوز من الظن؛ وأخرج فيه قول النبي ﷺ لعائشة: «**ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان شيئاً من ديننا**». وفي الصحيح أيضاً: «**كنا إذا فقدنا الرجل في العشاء الآخرة أسأنا به الظن**». وفي الصحيح أيضاً عنه ﷺ أنه قال: «**فإن جاءت به أسحم؛ أدعج العينين؛ عظيم الأليتين؛ خدلج الساقين؛ فلا أحسب عويمراً إلّا قد صدق عليها**». وقال بنحوه عن امرأة هلال بن أمية الواقفي؛ وأخرج ابن ماجه بسند صحيح: «**لو كنت راجماً أحداً بغير بيِّنة لرجمت فلانة فقد ظهر منها الريبة في منطقها وهيئتها ومن يدخل عليها**». قال الحافظ: ولم أقف على اسم المرأة المذكورة؛ وكأنهم تعمدوا إبهامها ستراً عليها. (انتهى).

وأظهر من هذا كله؛ سكوته شهراً على شأن أهل الإفك؛ حتى استشار أسامة وعليّاً؛ فأشار الأوَّل إلى البراءة؛ وأحال الثاني على الجارية؛ فشهدت بالنزاهة؛ عند ذلك تأكدت له ﷺ العفَّة؛ وهانت الظنَّة؛ وضعفت التهمة؛ فقام يستعذر من ابن أبي[1]؛ وما جزم بأمر؛ ولا قطع بظن؛ وما زاد على أن قال: «**لا أعلم إلّا خيراً**».

---

(١) زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي ابن سلول هو من تولى الإفك وقد كان قبل الإسلام زعيم الخزرج فلما جاء الإسلام حقد عليه وعلى رسوله ﷺ.

ثم جاء في الصحيح مرفوعاً: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا**». وقال النووي في شرحه على مسلم: قال إمام الحرمين[١]: وليس الأمر بالمعروف: البحث والتنقير والتجَسُّسْ؛ واقتحام الدور بالظنون؛ بل إن عثر على منكر غَيَّره جهده؛ وقال الماوردي: وليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهر من المنكرات؛ فإن غلب على الظنِّ استسرار قومٍ بها؛ لأمَارةٍ وآثارٍ ظهرت؛ فذلك ضربان؛ **أحدهما**: أن يكون في انتهاك حرمةٍ يفوت استدراكها؛ مثل أن يخبره من يثق بصدقه؛ أنَّ رجلاً خلا برجل ليقتله؛ أو بامرأة ليزني بها؛ فيجوز له في مثل هذا الحال أن يتجسَّس؛ وأن يقدم على البحث والكشف حذراً من فوات ما لا يستدرك؛ **وكذا** لو عرف غير المحتسب من المتطوِّعة؛ جاز له الإقدام على الكشف والإنكار. اهـ.

وتعبيره بيجوز في الضرب الأول؛ تساهل أو تِّكال على قاعدة: ما جاز باليد امتناعه وجب؛ وإلّا فالوجوب مُتَحَتِّم؛ وبه صرح ابن حجر في تحفته؛ وعرفنا من هذا جواز الاقتحام عند غلبة الظَّن؛ ولا شك أنَّ الاقتحام أعظم من مجرد إساءة الظن؛ الذي ندلل على حِلِّه عند القرينة؛ وهذا مجرد غلبة الظن؛ أما إذا اشتدَّ تأكده؛ فإنه يصير في منزلة اليقين؛ ولهذا صرَّح الفقهاء للحاكم بالعلم؛ وفسروه بالظن المؤكَّد؛ قال ابن حجر في تحفته: واشتراط القطع؛ ومنع الاكتفاء بالظن مطلقاً؛ ضعيف. (انتهى). وقريبٌ منه في جواز حلِّ ملاعنة الرجل امرأته؛ ولما حصل للعلم عند علي كرم الله وجهه؛ قال للضغينة: وقد تلوَّمت بكتاب حاطب: لتخرجنَّ الكتاب أو لنجردَنَّكِ من الثياب[٢]؛ ومر في

---

(١) إمام الحرمين هو أبو المعالي عبد الملك الجويني (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ) من كبار علماء الشافعية ولد بنيسابور ثم ارتحل إلى مكة وأقام بها أربع سنوات يدرس ويفتي فاكتسب هذا اللقب. ثم عاد إلى نيسابور وأنشأ له السلطان الظاهر المدرسة الظاهرية ليدرس بها المذهب السني وكان متصوفاً.

(٢) أخرج البخاري عن علي يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «**انطلقوا** =

الفائدة العاشرة كلام يتعلق به عن أبي برزة الأسلمي.

المسألة الثانية: قد يؤخذ من الحديثين: حلُّ الاغتياب من حيث الدين؛ بما يكون واقعاً؛ وبه قال قليل من العلماء؛ كما نقله ابن أبي الحديد في شرح النهج[1]؛ ولعله مذهب ابن الخطاب؛ بدليل ما سبق عنه في الفائدة العاشرة؛ من الكلام على الستة الذين توفي النبي ﷺ وهو عنهم راض؛ وأخباره في ذلك كثيرة منتشرة؛ وقد يدل له ما أخرجه البخاري من حديث أبي ذر؛ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلّا ارتدَّت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك**»؛ فإنه كالصريح في أنه: لا يرتدُّ عليه شيء إذا كان صاحبه كذلك؛ وفي الصحيح أيضاً: «**إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**»؛ ولكن يرد على هؤلاء ما أخرجه مسلم وغيره بألفاظ متقاربة؛ أنه ﷺ قال: «**هل تدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»؛ قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؛ قال: «**إن كان فيه ما تقول؛ فقد اغتبته؛ وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه**» فهذا حديث صحيح؛ إلّا أنه عام شامل لما يكرهه المغتاب؛ من حيث الدين وغيره؛ والحال أن فيه تفصيلاً.

قال ابن حجر: والذي آل إليه جواب محققي مشايخ مشايخنا: أنه لا يجوز للمؤرِّخ أن يذكر من المساوي إلّا ما يقدح في العدالة؛ لبيان الجرح؛ وأما ما عدا ذلك من المساوي التي لا تعلق لها بالجرح؛ ولا يترتب عليها فائدة دينية؛ فذكرها غيبة؛ (انتهى من جواب له بشأن كتاب سماه صاحبه: النكت الظراف فيمن ابتلي بالعاهات من الأشراف).

= **حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها**» فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب؟ قال: فأخرجته من عقاصها. (الظعينة: المرأة).

(١) عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد هو أحد أبرز علماء وكتاب المعتزلة في عصره. من كتبه كتاب شرح نهج البلاغة. توفي في ٦٥٦ هجرية.

وقال الغزالي في الإحياء: قال قوم: لا غيبة في الدين؛ لأنه ذَمٌّ بما ذمّه الله تعالى؛ فذكره بالمعاصي وذمُّه بها يجوز؛ بدليل ما رُوِيَ أنَّ رسول الله ﷺ؛ ذُكِرَتْ له امرأة وكثرة صلاتها وصومها؛ لكنها تؤذي جيرانها بلسانها؛ فقال: «**هي في النار**». وذكرت عنده امرأة بأنها بخيلة؛ فقال: «**فما خيرها إذن**». وهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرُّف الأحكام بالسؤال؛ ولم يكن غرضهم التنقيص؛ ولا يحتاج إليه في غير مجلس النبي ﷺ اهـ.

قال الشارح: وفيه بحث؛ لأنَّ الصحابة كانوا عارفين بأنَّ أذى الجار والبخل من الصفات المذمومة؛ (ا.هـ)؛ أي فهم لا يحتاجون للسؤال عن ذلك.
وأقول: يالله العجب! كيف خفي على مثله؛ أنَّ السؤال في الحديث الأول إنما هو عن توازن خير المرأة وشرِّها؛ وأيهما الراجح؛ وربما يكون الحديث الثاني من نوعه؛ غير أن الرواية مقتضبة؛ فوجه السؤال عن الحسنات هل يذهبن السيئات أم لا؟ وفي ذلك تفصيل وكلام طويل؛ ربما تفضي النوبة إليه في غير هذا المكان؛ فنوفيه حقَّه إن شاء الله تعالى.

غير أن السؤال عن ذلك ممكن بغير تصريح باسم المرأة؛ فالتصريح به ما لم يكن لنحو الجرح[1]؛ يكون من الغيبة التي هي موضع النزاع، وهي غير جائزة

---

(١) يستعمل الجرح في علم الحديث في نقد الرواة والمقصود به: وصف الراوي بما يقتضي تليين روايته أو تضعيفها أو ردها، مثل قولهم: لين الحديث، سيىء الحفظ، مجهول، متروك، متهم بالكذب، كذاب، وضاع.
والتعديل في اللغة: التسوية، وتقويم الشيء؛ والتعديل في علم الحديث: وصف الراوي بما يقتضي قبول روايته، مثل قولهم: ثقة متقن، ثقة ثبت، ثقة، حجة، صدوق، لا بأس به، وذلك إذا تحقق فيه شرطان هما: عدالة الراوي وضبطه، كما أن جرح الراوي يكون بسبب اختلال هذين الشرطين أو أحدهما... والمراد بالعدالة: ملكة تحمل المرء على ملازمة التقوى والمروءة، والمراد بالتقوى: اجتناب الأعمال السيئة، وأما المروءة فآداب تحمل الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات، ويرجع في معرفتها إلى العُرْف، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص والبلدان. والمراد بالضبط: الضبط نوعان هما: ضبط الصدر وضبط الكتاب، فضبط الصدر: أن يكون الراوي يقظاً غير مُغَفَّل بل يحفظ =

على رأي الغزالي وأصحابه؛ مع الاستغناء عنها؛ والتصريح باسم المرأة هنا؛ مستغنىً عنه؛ ومنه تعرف أن الغزالي لم يعتمد في جوابه ذلك على حُجَّة ظاهرة؛ ولا على دليل واضح؛ وإنما عمد إلى تعميم الخاص؛ وإطلاق المقيَّد؛ وتفخيم القول؛ وإبعاد الرمي. والخطب في المسألة ليس باليسير؛ لأننا إذا رأينا ما في كتب الرقاق والأخلاق؛ من مذام الغيبة والتشديد فيها من سائر نواحيها؛ ورأينا كتب السِّيَرْ طافحة بالمثالب لغير جرح ولا تعديل ولا مصلحة؛ وقعنا في أشدِّ الحيرة؛ وكاد أن يستولي على أنفسنا الشك؛ وماذا نقول في أحوال الصحابة؛ وكلام بعضهم في بعض؛ ومهاجاة كثير منهم؛ واستمرارهم على رواية أهاجي من أسلم من المشركين؛ والحاكي أحد المغتابين.

ولقد كانت عائشة تلعن كثيراً من المسلمين؛ أدَّاها اجتهادها إلى حلِّ لعنهم؛ وكذلك كان غيرها؛ واللعن أشد من الغيبة. وفي كتاب الجَمَلْ لأبي مخنف لوط بن يحيى[1]؛ ما يدل على أن عائشة رضوان الله عليها؛ كانت تتناول من علي عليه السلام؛ ومن ذلك قول ذي الشهادتين[2]؛ خزيمة بن ثابت الأنصاري في يوم الجمل:

عَائِشُ خَلِّي عَنْ عَلِيٍّ وَعَيْبِهِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ إِنَّمَا أَنْت وَالِدَةْ

= ما سمعه ويُثْبِتُه، بحيث يتمكن من استحضاره متى شاء، مع علمه بما يحيل المعاني إن روى بالمعنى. وضبط الكتاب: صيانته لديه منذ سمع فيه وصححه إلى أن يؤدي منه.

(١) لوط بن يحيى الأزدي يكنى أبا مخنف كان جدّه من أصحاب الإمام علي وقتل إلى جانبه بصفين وألف لوط عدة كتب منها كتاب صفين وكتاب الجمل وكتاب مقتل الحسين وكتاب فتوح العراق وغيرها وقد نقل عنه المؤرخون مثل الطبري وابن كثير مع أنه شيعي.

(٢) لقب بذي الشهادتين لأن النبي ﷺ جعل شهادته كشهادة رجلين، وذلك لحادثة، وهي: أنّ النبي ﷺ اشترى فرساً من أعرابي فأنكر البيع، فشهد له خُزيمة ولم يكن حاضراً عند الشراء، فقال له رسول الله ﷺ: **«أشهدتنا؟»** فقال له: لا يا رسول الله، ولكنّي علمت أنّك قد اشتريت، أفأصدّقك بما جئت به من عند الله، ولا أصدّقك على هذا الأعرابي الخبيث. قال: فعجب له رسول الله ﷺ وقال: **«يا خُزيمة شهادتك شهادة رجلين»**.

وَصِـــيُّ رَسُـــولِ اللهِ مِـــنْ دُونِ أَهْـــلِـــهِ وَأَنْـتَ عَـلَـى مَـا كَـانَ مِـنْ ذَاكَ شَـاهِـدَهْ

ثم إنه لم يلمها إلّا على عيبها علياً بما ليس فيه ظاهر؛ في أنها لو عابته بما هو فيه؛ لم تكن ملومة. وقد روي عن عليّ كرم الله وجهه؛ أنه يقول: فوالله لا ننتهي عن قول الحق؛ ومدح أهل العدل والفضل؛ وذمّ الأخسرين أعمالاً؛ الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. وفي الصحيح أنَّ النبي ﷺ؛ سأل وهو جالس بتبوك عن كعب بن مالك؛ فقال رجل من بني سلمة: حسبه برداه والنظر في عطفيه! فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت؛ والله ما علمنا عليه إلّا خيراً؛ فسكت رسول الله ﷺ؛ والجواب بأنه اكتفى بردِّ معاذ لا يشفي؛ وفي حديث رواه أهل السنن عن جابر: أنه ﷺ؛ قال لبني سلمة: «**من سيِّدكم؟**» قالوا: جدُّ بن قيس على أننا نَبَخِّلُهُ؛ قال: «**وأيُّ داء أدوى من البخل؛ بل سيدكم الأبيض عمرو بن الجموح**». ولئن قيل إن هذا للاستفتاء الخاص عن الرئاسة؛ فلا بدّ فيه من التصريح بالاسم؛ بخلاف ما ذكر. ثم في رد كلام الغزالي **قلنا**: قد يكون؛ فلا ينهض الاستدلال بمجرد الحديث للمُدَّعِي؛ ولكن يبقى تداول القصة؛ وتناقل العلماء أشعارها القاضية بالبخل على جد؛ سجيس الليالي[1]؛ إذ هو ضامن بالمقصود؛ ففيها يقول شاعرهم:

وَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ وَالْـحَـقُّ قَـوْلُـهُ لِـمَـنْ قَـالَ مِـنَّـا مَـنْ تُـسَـمُّـونَ سَـيِّـدَا

فَـقَـالُـوا لَـهُ جَـدُّ بـنِ قَـيْـسٍ عَـلَـى الـتـي نُـبَـخِّـلُـهُ فِـيـنَـا وَإِنْ كَـانَ أَسْـوَدَا

فَـتَـىً مـا تَـخَـطَّـى خَـطْـوَةً لِـدَنِـيَّـةٍ وَلا مَـدَّ فِـي يَـوْمٍ إِلَـى سَـوءَةٍ يَـدَا

فَـسَـوَّدَ عَـمَـرو بِـنِ الـجَـمُـوحِ لِـجُـودِهِ وَحَـقَّ لِـعَـمْـرٍو بِـالـنَّـدَى أَنْ يُـسَـوَّدَا

إِذَا جَـاءَهَ الـسُّـؤَالُ أَذْهَـبَ مَـالَـهُ وَقَـالَ خُـذُوهُ إِنَّـهُ عَـائِـدٌ غَـدَا

فَـلَـوْ كُـنْـتَ يَـاجَـدُّ بِـن قَـيْـسٍ عَـلَـى الـتـي عَـلَـى مِـثْـلِـهَـا عَـمـرو لـكـنـت مـسـودا

---

(١) معنى لا أَفعلُه سَجِيسَ اللَّيالي: أي لا أَفعلُه أبداً.

على أنه قد يندفع الإشكال على ما نقرره؛ بأن الجدَّ بن قيس[١] مغموصٌ عليه؛ وهو الذي اختبأ تحت بطن ناقته فراراً من بيعة الرضوان.

ولما قيل لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل؛ قال: كذب عدوُّ الله؛ وفي تشاتمه مع ابن الزبير؛ وما جرى بين علي والعباس؛ ولا سيّما على ما جاء في صحيح مسلم وغيره؛ مما لا يمكن تأويله ولا حمله على المصلحة.

وفي صحيح البخاري عن أبي الدرداء: «إنا لنكشر في وجوه أقوام؛ وإنَّ قلوبنا لتلعنهم»[٢]. وقد صرَّح الغزالي بأن الغيبة بالقلب مثلها باللسان؛ والذي يزيد الإشكال عقدة؛ هو قول فقهائنا: لا يجوز ذكر الفاسق المتجاهر إلّا بما استعلن به من معاصيه فقط؛ وقالوا في جرح الشاهد: ولو علم مُجَرِّحات؛ اقتصر منها على واحد؛ لعدم الحاجة أزيد منه؛ بل قال ابن عبد السلام: لا يجوز جرحه بالأكبر لاستغنائه عنه بالأصغر؛ مع أنه قد جاء من عدة طرق مرفوعاً: «**إنَّ من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له**»[٣].

ويروى عن عمر؛ أنه قال: ليس لفاجر حرمة. وكان الحسن البصري يقول: ثلاثة لا غيبة لهم: صاحب الهوى؛ والفاسق المعلن بفسقه؛ والإمام الجائر. وصحَّ أنه يهرت[٤] رجلاً كلما ذكره؛ وكان ذلك الرجل خرج مع يزيد بن المهلب؛ ولهذا تعلق بما سبق عن الحسن في الفائدة الرابعة؛ ولله در القائل:

---

(١) هو جد بن قيس بن صخر بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي كان أحد المنافقين. تخلف عن غزوة تبوك مع قوته وماله ولم يبايع بيعة الرضوان واستتر عن الناس يومها بناقته وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

(٢) معنى نكشر: أي نبتسم.

(٣) عَنْ أبان، عَنْ أنس بن مالك، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ عَنْ وَجْهِهِ فَلا غَيْبَةَ لَهُ**». «الرسالة القشيرية باب الصمت ـ عن موسوعة الحديث».

(٤) هكذا في الأصل وربما كانت يهتر.

مِنَ الدِّين كَشْفُ السِّتْرِ عَنْ كُلِّ كَاذِبٍ وَعَنْ كُلِّ بِدعِيٍّ أَتَى بِالعَجَائِبِ
فَلَولا رِجَالٌ مُؤمِنونَ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ دِينِ الله مِنْ كُلِّ جَانِبِ

ولم أزل في إشكال من قول الأنوار(١): إنَّ من ينتحل الصلاح يترك وحاله؛ وإنَّ من ينتحل العلم يهتك ستره؛ حتى رأيت قول الروض(٢): وينكر على من يتصدَّى للتدريس والفتوى والوعظ وليس من أهله؛ اهـ. فعرفت أنَّ محل الأول عند أمن التدليس والتلبيس؛ وإلّا فهما سواء في تحتُّم كشف خيم كل منهما؛ وبه صرح في الأسنى وغيره.

وبعد: فالذي تشهد له الآيات والأحاديث والسِّيَرْ والأخبار؛ أنْ لا غيبة لفاجر مطلقاً؛ أما الآيات فمنها تقييد وعيد القذف بالمحصنات؛ وقد أخذ ببعضه الفقهاء؛ حيث قالوا: لا يُحَدُّ قاذفُ غيرِ المحصن؛ وقالوا: للقاذف طلب يمين المقذوف أنه لم يزن. ويستأنس له؛ وإن لم يكن شَرْعُ من قبلنا شرعاً لنا؛ بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ... ﴾(٣) ومنها قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾(٤)؛ إذ لا بهتان بالواقع المكتسب؛ وأمثال هذه كثير.

وأما الأحاديث فكثيرة؛ منها فوق ما سبق؛ ما جاء في البخاري عن عائشة: أنَّ رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: «**بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة**»؛ فلما جلس تطلق النبيُّ ﷺ في وجهه وانبسط إليه؛ فلما انطلق الرجل؛ قالت له عائشة: يا رسول الله؛ حين رأيت الرجل قلت كذا وكذا؛ ثم تطلَّقت إليه؛ فقال

---

(١) الأنوار لأعمال الأبرار للعلامة يوسف الأردبيلي وهو في الفقه الشافعي.

(٢) روض الطالب ونهاية مطلب الراغب تأليف العلامة اليمني شرف الدين ابن المقري المتوفى سنة ٨٣٧هـ ويختصر الفقهاء اسمه بالروض وهو عبارة عن اختصار لروضة الطالبين للإمام النووي وقد شرح الروض جماعة من العلماء منهم شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (ت٩٢٦) في كتابه أسنى المطالب شرح روض الطالب.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٣٠.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.

رسول الله ﷺ: **«يا عائشة؛ متى عهدتني فاحشاً؛ إن شرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»**. والرجل المبهم في هذا الحديث؛ قال القسطلاني: إنه مخرمة بن نوفل من زعماء قريش. وفي مسلم مثله عن عيينة بن حصن الفزاري(١)؛ وهو من مسلمة الفتح؛ فهما واقعتان. وأحسن الأجوبة عن قوله ﷺ فيه: بئس أخو العشيرة إلى آخره؛ أنَّ الأكثر من أحوال هذين الرجلين الشرُّ فجاز اغتيابهما؛ وهو مذهب البخاري؛ ولهذا ترجم عليه بباب: ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب؛ وكفى بهذا حجة فيما نريد. وفي حديث أنس أنه مرَّ بجنازة فأثنوا عليها شراً؛ فقال: **«وجبت أنتم شهداء الله في الأرض»**. فأقرَّهم على ذكر الميت بالسوء؛ وأنفذ شهادتهم؛ مع ما صحَّ عنه ﷺ من قوله: **«لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفْضَوْا إلى ما قَدَّمُوا»**؛ وفرق بين السب وبين ذكر الإنسان بما فيه؛ فلا إشكال.

---

(١) من العرب الجفاة المطاع في قومه وهو من المؤلفة قلوبهم؛ ارتد عن الإسلام ثم أسلم وشهد بعض الغزوات في صف المسلمين وتزوج عثمان بن عفان ابنته وتحدث بجفاء مع رسول الله ﷺ ومع عمر ثم عثمان.
دخل على رسول الله ﷺ بغير إذْن، قبل الحجاب؛ فقال له رسول الله ﷺ: **«وَأَيْنَ الإِذْنُ؟»** فقال: ما استأذَنْتُ على أحدٍ من مضَر، وكانت عائشة مع النّبيّ ﷺ جالسة ـ فقال: مَنْ هذه الحُمَيراء؟ فقال: **«أمّ المؤمنين»** قال: أفلا أنزل لك عن أجمل منها! فقالت عائشة: مَنْ هذا يا رسول الله؟ قال: **«هَذَا أَحْمَقٌ مُطَاعٌ، وَهُوَ عَلَى مَا تَرين سيِّد قَوْمِهِ»**. ودخل على عمر، فقال: يابن الخطّاب، والله ما تَقْسِم بالعدل، ولا تُعْطي الجَزْلَ، فغضب عمر غضباً شديداً حتى هَمَّ أن يُوقع به، فقال له ابنُ أخيه: يا أميرَ المؤمنين؛ إن الله عز وجل يقول في محكم كتابه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين، فخلّى عنه عمر. وكان عثمان متزوجاً بنته فدخل عيينة على عثمان بغير إذن، فقال له عثمان: تدخل عَلَيَّ بغير إذن! فقال: ما كنت أرى أني أحجب عن رجل من مضر أو أستأذن عليه! فقال عثمان: إذاً فَأَصِب مِن العَشَاء، قال: أنا صائم، قال: تصوم الليل! قال: إنِّي مَيَّلْتُ بين صوم الليل والنهار، فوجدت صوم الليلِ أيسر عليّ. وأسلم بعد الفتح، وكان عُيَيْنة قد ارتد حين ارتدت العرب، فأسره خالد بن الوليد وبعث به إلى أبي بكر الصديق فكلّمه أبو بكر فرجع إلى الإسلام.

قال الحافظ: أخرج عمر بن شبة[1] في كتاب أخبار البصرة بسنده إلى عائشة؛ أنها قالت: ما فعل يزيد الأرحبي لعنه الله؟ قالوا: مات؛ قالت: استغفر الله؛ قالوا: ما هذا؟ فذكرت حديث النهي عن سب الأموات. وأخرج من طريق مسروق؛ أنَّ علياً بعث يزيد بن قيس الأرحبي؛ يعني هذا أيام الجمل؛ برسالة إليها؛ فلم ترد عليه جواباً؛ فبلغها أنه عاب عليها ذلك؛ فكانت تلعنه؛ ثم لما بلغها موته؛ نهت عن لعنه؛ وقالت: إنَّ رسول الله ﷺ نهانا عن سب الأموات؛ وصححه ابن حبان من وجه آخر؛ عن الأعشى عن مجاهد بالقصة. (انتهى كلام الحافظ).

وأخرج الحاكم على شرط الشيخين؛ وصححه وأقره الذهبي؛ عن مسروق قال: قالت لي عائشة: رأيتني على تلٍّ وحولي بقر تنحر؛ فقلت لها: لئن صدقت رؤياكِ لتكونن حولك ملحمة؛ قالت: أعوذ بالله من شرِّك؛ بئسما قلت؛ فقلت لها: فلعله إن كان أمْراً سيسوءُكِ؛ فقالت والله لئن أَخِرَّ من السماء أحبَّ إليَّ من أن أفعل ذلك؛ فلما كان بعدُ؛ ذكر عندها أن عليّاً قتل ذا الثديَّةِ فقالت: إذا أنت قدمت الكوفة فاكتب لي ناساً ممن شهد ذلك؛ ممن تعرف من أهل البلد؛ فلما قدمت؛ وجدت الناس أشياعاً؛ فكتبت لها من كل شِيَعٍ عشرة ممن شهد ذلك؛ فأتيتها بشهادتهم؛ فقالت: لعن الله عمرو بن العاص فإنه زعم لي أنَّه قتله بمصر.

وقال الحافظ: قال ابن بطال[2]: سب الأموات يجري مجرى الغيبة؛ فإن كان أغلب أحوال المرء الخير؛ وقد تكون منه الفلتة؛ فالاغتياب له ممنوع. وإن

---

(١) هو المحدث الثقة المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (١٧٣ ـ ٢٦٢هـ) كان صادق اللهجة، غير مدخول الرواية، عالم بالآثار، راوية للأخبار، أديب فقيه، صاحب نوادر واطلاع، عالم بالقراءات، صاحب تصانيف، بصير بالسير والمغازي وأيام الناس.

(٢) العلامة أبو الحسن؛ علي بن خلف بن بطال البكري، القرطبي، ثم البلنسي؛ شارح صحيح البخاري؛ كان من كبار المالكية وتوفي سنة ٤٤٩هـ.

كان فاسقاً معلناً؛ فلا غيبة له؛ فكذلك الميّت. ويحتمل أن يكون النهي على عمومه فيما بعد الدفن؛ والمباح ذكر الرجل بما هو فيه قبل الدفن؛ ليتعظ بذلك فسَّاق الأحياء؛ فإذا صار إلى قبره أُمْسِكَ عنه؛ لإفضائه إلى ما قدَّم وقد عملت به عائشة. اهـ.

وفيه أمور؛ أحدها: التسوية بين السبِّ والغيبة وجعلهما كالشيء الواحد؛ والفرق أظهر من وضح النهار؛ كما ذكرنا قبل، **ثانيهما**: أن التقسيم غير مستوفى؛ فقد ذكر من غلب خيره؛ ومن استعلن بفسقه؛ ولم يذكر من غلب شرُّه من دون استعلان؛ وكأنه داخل في مفهوم القسم الأول؛ وفي قوله: والمباح ذكر الرجل بما فيه إلى آخره.

ولئن تكلموا في أسانيد حديث: «**أترعوون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس**». فقد شهدت الأدلة بصحة متنه؛ ثم رأيت السيوطي عن الهروي: أنه ساق حديث: «**ليس لفاسقٍ غيبة**»؛ من عدة طرق؛ وحسنه؛ وقد كان بشر بن الحارث يقول: لا غيبة مع القدرة. فإن جاء في الصحيح عن عمر بن الخطاب: أن رجلاً على عهد النبي ﷺ؛ كانه اسمه عبد الله؛ وكان يلقب حماراً؛ وكان يُضْحِك رسول الله ﷺ؛ وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب؛ فَأُتِيَ به يوماً فأمر به فجلد؛ قال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به؛ فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنوه فوالله ما علمت إلّا أنه يحب الله ورسوله**».

فنقول: الجواب عنه من وجوه؛ أحدها: أن اللعن أشد من الغيبة؛ ولهذا نهى عن لعنه؛ ولم ينه عن قولهم: ما أكثر ما يؤتى به؛ بل أمرهم بتبكيته من غير لعن؛ كما ذكره بعضهم؛ ومنه يتأكد ما سبق في مناقشة ابن بطَّال؛ في التسوية بين الغيبة والسبّ. وقد اعتمد البلقيني جواز لعن الفاسق المعيَّن؛ وقواه الحافظ ابن حجر؛ وهو مذهب عائشة في الحيِّ كما علمت؛ وهوالأسعد بالدليل؛ وإن كان الأكثر على عدم جوازه مطلقاً.

ثانيها: أن البخاري ترجم لحديث حمار؛ بباب ما يكره من لعن شارب

الخمر؛ وأنه ليس بخارج من المِلَّة؛ فجعل النهي للكراهة لا للتحريم، وأما قوله: ليس بخارج من الملّة؛ فإنما هو ليجمع بينه وبين ما أخرجه قبيل ذلك من قوله ﷺ: «**ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**» فتحصَّل أنَّ مذهب البخاري حِلُّ اغتياب الفاسق؛ وكراهة لعنه. قال الحافظ: ولعلَّه كراهة التنزيه؛ فيما إذا قصد اللاعن مجرد السب؛ لا الطرد من رحمة الله؛ فيحرم؛ ولا سيما في حق من لا يستحق اللعن؛ كهذا الذي يحبُّ الله ورسوله؛ مع إقامة الحدِّ عليه. (انتهى). وأقول: إنَّه كلام ظاهر الكسل والرخاوة؛ إذ لا يمكن التوقف في امتناع لعن من لا يستحق اللعن بأيِّ وجهٍ كان.

ثالثها: أن صاحب القصة؛ هو النعيمان؛ كما قواه الحافظ ابن حجر وغيره؛ وهو ممن شهد بدراً؛ فينتفي إشكال النهي عن لعنه من أصله؛ ويأتي فيه ما سبق في حاطب ومالك بن الدخيشن؛ وإذ لم ينه عن اغتيابه مع شهوده بدراً وإقامة الحد عليه؛ فهو من أقوى ما ندلل به؛ لإطلاق حل اغتياب الفاسق؛ وللفرق بين الغيبة واللعن.

وبعد تقرير هذا الذي نرجو أن يكون فيه الصواب؛ نبيِّن ما يلزم من الفساد الظاهر على حصر الفقهاء؛ حل اغتياب الفاسق بما تجاهر به من معاصيه فقط. وذلك أنَّ الاستعلان بالمعصية؛ لا يكون إلّا من نفسٍ ذهب شعورُها؛ وانطمس نورُها؛ وغلب شرُّها؛ وانعكس أمرها؛ وانطفأ ضياؤها؛ وفُقِدَ حياؤها؛ فاستخفَّت الفضائح؛ بل استحسنت القبائح؛ وكثيراً ما تجد هذا النوع؛ يتفاخرون بالمنكرات؛ ويتقوَّلون على المُحْصَنَات؛ ويتشبعون بما لم يصلوا إليه من الموبقات؛ ففي ذكرهم بما يتحدثون به؛ ولو في معرض الملام؛ إيناسٌ لقلوبهم؛ ومسرّةٌ لخواطرهم؛ وهو عين الفساد. وهل يحل ذكر الفاسق بما يسرُّه؟ أو إلى الاستزادة بِمُرِّه؟ وقد قال أبو نواس:

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إغْرَاءُ   وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

وشنوا الغارة على المعرِّي؛ حتى أكفره بعضهم؛ بقوله لممدوحه:

جَـهُـولٌ بَـالـمَـنَـاسِـكِ لَـيْـسَ يَـدْرِي ... أَغَـيّـاً بَـاتَ يَـفْـعَـلُ أَمْ رَشَـادَا
طَـمُـوحُ الـسَّـيْـفِ لا يَـخْـشَـى إِلَـهـاً ... وَلا يَـرْجُـو الـقِـيَـامَـةَ وَالـمَـعَـادَا

مع أنَّه؛ مِنْ ذِكْرِ الفاسق بما يستعان به. **فإن قيل**: شرط الحل فيه؛ عدم قصد نحو التعظيم؛ **قلنا**: هو ظاهرٌ في الحرمة لا يحتمل التأويل بحال، ولئن ظهرت قرينة التعظيم؛ من سياق القصيدة للمدح؛ فقد تجشَّم الشاعر مدح اللئيم بدواعي الضرورة؛ ثم درج في طيَّات قصيدته؛ ما يتنفس به من صميم ضميره؛ من حيث يكون مُغَطًّى؛ فيخفى على كثير من الناس[١]؛ ولهذا قال أبو الطيِّب:

وَلَـوْلا فَـضُـول الـنَّـاسِ جِـئْـتُـكَ مَـادِحـاً ... بِـمَـا كُـنْـتُ فِـي سِـرِّي بِـهِ لَـكَ هَـاجِـيَـا

وأخرج ابن عبد البر وغيره؛ أنَّ معاوية غضب على عبد الرحمن بن الحكم؛ لمَّا أكثر في هجاء زياد[٢]؛ وحلف أن لا يرضَى عنه حتى يُرْضِي زياد؛ فتقدم إلى زياد بأبيات؛ يقول فيها:

إِلَـيْـكَ أَبَـا الـمُـغِـيـرَةِ تُـبْـتُ مِـمَّـا ... جَـرَى بَـالـشَّـامِ مِـنْ خَـطَـلِ الـلِّـسَـانِ

---

(١) هذا التحليل لا يقدر عليه إلّا شاعر جمع دقة الفهم لمقاصد الشعراء؛ مع معرفة واسعة بالفقه؛ وأساس متين من الدين وهذا لا يتوفر إلّا للنوادر من الناس مثل الإمام ابن عبيد الله السقاف وقد ورد أن بعض الأكابر قد تفوتهم مقاصد الشعراء لكنهم يستعينون بأصحاب صنعة الشعر لإبداء الرأي ويذكرني ذلك بقصة الزبرقان بن بدر وهو سيد قومه الذي هجاه الحطيئة بقوله: دع المكارم لا ترحل لبغيتها.. واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي؛ فقال عمر: ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة. فقال الزبرقان: أو لا تبلغ مروءتي إلّا أن آكل وألبس! والله يا أمير المؤمنين ما هُجيت ببيت قط أشد عليَّ منه. فدعا عمر حسان بن ثابت وسأله: أتراه هجاه؟ قال حسان: نعم وسلح عليه! فحبس عمر الحطيئة.

(٢) زياد ابن أبيه واحد من دهاة العرب الأربعة ولد بالطائف وعمل مع المغيرة بن شعبة في عهد عمر ثم ولى فارس لعلي بن أبي طالب ولكن استماله معاوية إلى صفه بأن نسبه إلى أبيه أبي سفيان بن حرب وولاه البصرة وفارس وكان داهية وخطيباً مفوهاً وساهم في تثبيت الدولة الأموية.

عَــرَفْــتَ الــحَــقَّ بَــعْــدَ ضَــلالِ رَأيٍ وَبَــعْــدَ الــغَــيِّ مِــنْ زَيْــغِ الــجَــنَــانِ
زِيَــادٌ مِــنْ أبِــي سُــفْــيَــانَ غُــصْــنٌ تَــهَــادَى نَــاضِــراً بَــيْــنَ الــجِــنَــانِ
وَإنَّ زِيَــادَةً فِــي الــحَــرْبَ حَــقّــاً أَحَــبُّ إلــيَّ مِــنَ وَسَــطَــي بَــنَــانِــي

فرضي عنه؛ وقبل عذره؛ وقضى حاجته؛ وكتب إلى معاوية برضاه عنه؛ فقال معاوية: لحا الله زياداً؛ لم ينتبه لقوله: وإنَّ زيادة في الحرب؛ ولكنه لم يثرِّب عليه؛ بل طواه على غُرِّه.

فلو أنَّ الفقهاء قالوا: تحلُّ غيبة الفاسق إلّا فيما استعلن به؛ فإنها حرام لأنها تؤنسه؛ لكان أقرب إلى الصواب؛ أو الصواب بعينه؛ إن شاء الله تعالى.
فإن قيل: أين المَخْلَصْ مع هذا كله من عموم حديث مسلم السابق؛ في تعريف الغيبة؛ وأنها ذكرك أخاك بما يكره إلى آخره؟ **قلت**: هو قريب سهل المآخذ؛ لأن ذكر الأخوة في ذلك الحديث؛ مشعرٌ بالاختصاص وشدَّة اللصوق؛ ولئن فسرها قوم بأخوة الإسلام؛ فإنما المسلم كما في حديث البخاري: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»؛ ومع ذلك فسرها آخرون؛ منهم العلامة ابن تيمية؛ بأخوَّة الإيمان؛ فجاء من ذلك التوسع والرجوع إلى المعهود المتعارف؛ وفي طبيعة الإنسان؛ أن ينتمي بالقربى إلى من غلب شرُّه على خيره؛ وقد قال تعالى: ﴿... إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ...﴾[1].

وكتب بديع الزمان لبعض من ينتسب إليه: أنت ولدي ما دمت والدفتر نديمك؛ والمحبرة لزيمك؛ فإن تغيرت؛ وما أخالك؛ فغيري خالك؛ والسلام.
بل لا يخرج عن قوله ﷺ لعائشة: «**لولا حدثان قومك بكفر**» إلى آخر الحديث. فقد تنزَّه أن ينتسب إليهم بالقومية؛ لما هم عليه من الخلاف؛ وإلّا فإنهم قومه؛ كما أنهم قومها؛ وإنما أضافهم إلى نفسه في قوله: إنَّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً؛ لأنه أبلغ في الشكوى من فرط حسدهم؛ الذي أداهم إلى قطيعة الرحم؛

(١) سورة نوح، الآية: ٤٦.

وهجران ما فيه شرفهم؛ لو استجابوا؛ وما هجروه إلّا لمجيئه على لسانه.

إذن ففي حديث مسلم؛ من مسالك العلَّة: الإيماء إلى أنَّ المحظور؛ اغتياب الإخوان الذين لا يشمئز الإنسان من الانتساب إليهم بأواصر القربى؛ لا إخوان الشيطان. وبمثله يقال في تفسير قوله جل جلاله: ﴿. . .وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ. . .﴾[1] ثم رأيت الحافظ ابن حجر يقول: قال ابن المنذر: في الحديث دليل على أن من ليس أخاك من اليهود والنصاري لا غيبة له. قال في الخادم[2]: وهذا قد ينازع فيه ما قالوه في السوم على سوم أخيه (انتهى). والمنازعة واضحة؛ فالوجه تحريم غيبة الذمِّي؛ هذا آخر كلام الحافظ؛ وقد كان نقله باختصار.

وأقول: أما أوله: فقد توهَّم بعضهم أن وجه المنازعة حرمة السوم على سوم الأجنبي؛ مع أنه ليس بأخ؛ فكذلك تحرم غيبته؛ وإنْ لم يُسَمَّ أخاً، والذي يظهر في وجهها: أن الأخوة فيه طينية؛ لأن عدالة الإسلام تقتضي المساواة في الحقوق المالية؛ والتي في الآية؛ وحديث مسلم دينيَّة؛ وحديث السوم في الصحيحين هكذا: «**لا يسوم الرجل على سوم أخيه**»؛ وقد صرحوا بحرمة السوم على سوم المعاهد؛ فأنسحب عليه حكم الأخوة؛ فحرمت غيبته. وفي ترجمة محمد بن السائب الكلبي من تاريخ ابن خلكان: أنَّ رسول الله ﷺ؛ أهدى لجعفر ابن أبي طالب جُبَّة رومية؛ وقال له: ابعث بها إلى أخيك النجاشي؛ وكان ذلك قبل إسلامه؛ أما بعد ذلك؛ فقد ثبت في الصحيحين أنه ﷺ؛ صلَّى عليه في اليوم الذي مات فيه؛ وفي سيرة ابن هشام: أنه كان يكتم إسلامه. وفي النوبة من معجم

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) كتاب الخادم للبدر الزركشي وهو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، بدر الدين (٧٤٥ ـ ٧٩٤هـ): عالم بفقه الشافعية والأصول. تركي الأصل، مصري المولد والوفاة. ومن تصانيفه: تخريج أحاديث الرافعي في خمسة مجلدات وخادم الرافعي في عشرين مجلداً، وتنقيحه للبخاري في مجلدة، وشرح جمع الجوامع في مجلدين وشرح المنهاج في عشرة، والبحر في أصول الفقه في ثلاثة مجلدات، والبرهان في علوم القرآن.

ياقوت؛ أنه ﷺ قال: «**من لم يكن له أخ؛ فليتخذ أخاً من النوبة**». وقال: «**خير سبيلكم النوبة**»؛ وهم نصارى يعاقبة؛ يختتنون ويغتسلون ولا يطأون النساء في الحيض اهـ.

وفي الحديث: «**إنَّ العظم طعام إخوانكم من الجن**»[١]. وهو شامل لكفارهم؛ فانسحب عليهم حكم الأخوة؛ قرره ابن حجر في فتاويه الحديثية؛ وإني لأعجب منه: كيف أغفل ما جاء في الكتاب العزيز؛ من ذكر أُخُوَّة عاد لهود؛ وصالح لثمود؛ مع أنه الحجَّة التي تطبق المفصل؛ وتقرِّب المحز؛ فسبحان من لا يسهو.

وأما ثانياً: فقد سرني من نفسي تواردي مع ابن المنذر[٢] في أصل الأخذ؛ وإن لم نتفق في التفريغ؛ ونحن لا ننازع في امتناع غيبة الذمي؛ فإنه محترم؛ وفاء بالعهد الذي عظَّم الله من شأنه في بضع وعشرين آية، ولكن الفرق بينه وبين الفاسق في الغيبة من جهات؛ منها: أنَّ بعض أنواع الفسق لا حرمة له؛ كما صرحوا به في التيمم؛ بخلاف الذمي والمعاهد؛ فإنهم محترمون. ومنها: أن في ذكر الفاسق بما فيه اتعاظ للناس؛ وتحذيراً من الشر؛ ومقايسة للأعمال؛ وفرقاناً بين الفضيلة والرذيلة؛ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[٣]؛ بخلاف ذكر الأجنبي بكفره؛ فلا شيء فيه من تلك الفوائد. وما علمت أحداً افتخر بنسبته إلى الغُواة إلّا دريد بن الصمة في قوله:

---

(١) في سنن الترمذي مرفوعاً: «**لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام فإنه زاد إخوانكم من الجن**».

(٢) ابن المنذر النيسابوري (٢٤١هـ ـ ٣١٨هـ) هو الحافظ أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر بن الجارود النيسابوري، رحل ابن المنذر إلى مصر طلباً للحديث والفقه، والتقى بالربيع بن سليمان ت ٢٧٠هـ صاحب الشافعي وتلميذه، فوقف على الكتب التي صنفها في مصر، وتتلمذ على فقهاء مصر ثم رحل إلى مكة وأخذ عن علمائها وطاب له المقام في مكة، فصنف ودرس وأفتى وعلا أمره حتى صار شيخ الحرم المكي وتوفي بمكة وله عدة مصنفات.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٨.

وَمَـا أَنَـا إِلَّا مِـنْ غُـزَيَّـةَ إِنْ غَـوَتْ غَـوَيْـتُ وَإِنْ تَـرْشُـدْ غُـزَيَّـةَ أَرْشُـدِ

ولهذا نقضته في قولي من قصيدة؛ سيرتها لبحر الجود البارد العذب؛ سيف الإسلام محمد ابن أمير المؤمنين[1]؛ جواباً عن كتاب وردني منه:

وَأَسَّسْتُ لِلإِصْلاحِ بَعْضَ قَوَاعِدٍ أَبَاهَا بَنُو جِلْدِي لِكَيْ يُنْكِرُوا يَدِي

بَذَلْتُ لَهُمْ نُصْحِي بِمُنْعَرَجِ اللوَى وَلَمْ يَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضُحَى الغَد

وَإِنِّي لَمِنْهُمْ غَيْرَ أَنِّي إِذَا غَوَوْا أَبَيْتُ وَإِنْ مَالُوا إِلَى الرُّشْدِ أَرْشُدِ

وشبيهٌ بقولِ دريد؛ ما أُثِرَ عن عروة في قوله:

وَخِلٍّ كُنْتُ عَيْنَ الرُّشْدِ مِنْهُ إِذَا نَظَرَتْ وَمُسْتَمِعاً سَمِيعَا

أَطَافَ بِغَيِّهِ فَنَهَيْتُ عَنْهَا وَقُلْتُ لَهُ: أَرَى أَمْراً فَظِيعَا

أَرَدْتُ رَشَادَهُ جُهْدِي فَلَمَّا أَبَى وَعَصَى عَصَيْنَاهُ جَمِيعَا

وقال بشار:

وَمَا أَنَا إِلَا كَالزَّمَانِ فَإِنْ صَحَا صَحَوْتُ وَإِنْ مَاتَ الزَّمَانُ أَمُوتُ

ولكنه لا عبرة بأمثال هؤلاء المارقين؛ وما أحسن قول عُمارة:

إِنْ تَسْتَقِمْ أَسَدٌ تَرْشُدْ وَإِنْ شَغَبَتْ فَلا يُلُمْ لائِمٌ إِلَّا بَنِي أَسَدِ

وفي حديث لا أعرف ما حاله: «لا يكن أحدكم إمَّعة يقول أنا مع الناس؛

---

(١) سيف الإسلام محمد البدر ابن الإمام يحيى ابن الإمام محمد حميد الدين كانت بينه وبين الإمام ابن عبيد الله صداقة وطيدة ومراسلات متكررة ومشاورات سياسية وقد ولد سيف الإسلام سنة ١٣١٦هـ. وأخذ عن والده وعن علماء عصره. وبرع في عدة فنون، وخاصة في الأدب. مثَّل اليمن في إيطاليا، وتولى بلاد الشرفين، ثم لواء تهامة. سعى لنشر ما أمكن نشره من المخطوطات اليمنية. توفي غريقاً في الحديدة، وهو يحاول إنقاذ رجل من دوامة بحرية، سنة ١٣٥٠هـ. ورثاه والده وكثير من الشعراء والعلماء والأدباء، منهم أمير الشعراء أحمد شوقي.

إن أحسنوا أحسنت؛ وإن أساؤوا أسأت؛ ولكن وطِّنوا أنفسكم على الإحسان؛ أحسن الناس أم أساؤوا»[١].

ولا بأس أن نستروح هنا بنوادر في طريق الموضوع. سمع أعرابي قارئاً يقرأ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٢] فازبأر وتغيَّظ وتنكَّر؛ حتى انتهى القارئ إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] هدأت ثورته وسكنت فورته؛ وقال: هجانا ربنا ثم امتدحنا؛ هو كما قال الشاعر:

هَجَوْتُ زُهَيْراً ثُمَّ إنِّي مَدَحْتُهُ وَمَا زَالَتْ الأشْرَافُ تُهْجَى وَتُمْدَحُ

وقيل لبعضهم: ما تقرأ في صلاتك؟ قال: أم القرآن؛ ونسب الرب؛ وهجاء أبي لهب! يعني الفاتحة والإخلاص وتبَّت. وقال المتوكل لأبي العيناء[٤]: بلغني عنك بذاء في لسانك؟ فقال: يا أمير المؤمنين؛ قد مدح الله تعالى فقال: ﴿نِعْمَ

(١) حديث: لا تكونوا إمَّعةً، تقولونَ: إن أحسنَ النَّاسُ أحسنا، وإن ظلموا ظلَمنا، ولكن وطِّنوا أنفسَكم، إن أحسنَ النَّاسُ أن تُحسِنوا، وإن أساؤوا فلا تظلِموا. (الراوي: حذيفة بن اليمان المحدث: ـ المصدر: ـ خلاصة حكم المحدث: حسن غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه) عن الدرر السنية.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٩٧.

(٣) سورة التوبة، الآيتان: ٩٨ ـ ٩٩.

(٤) أبو العيناء هو العلامة، الأخباري، محمد بن القاسم بن خلاد البصري، الضرير النديم. ولد بالأهواز، ونشأ بالبصرة كان ذا ملح ونوادر وقوة ذكاء؛ أضر أبو العيناء وله أربعون سنة، ومات سنة ٢٨٣هـ وقد جاوز التسعين. قال له الوزير أبو الصقر: ما أخرك عنا؟ قال: سرق حماري. قال: وكيف سرق؟ قال: لم أكُ مع اللص فأخبرك. قال: فهلا جئت على غيره؟ قال: أخرني عن السرى قلة يساري، وكرهت ذلة العواري، ونزق المكاري.

ﭐلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾[١] وذمَّ فقال: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾[٢]

وقال الشاعر:

إِذَا أَنَا بِالمَعْرُوفِ لَمْ أُثْنِ صَادِقاً ... وَلَمْ أَشْتُمِ النَّكْسَ اللئِيمَ المُذَمَّمَا

فَفِيمَ عَرَفْتُ الخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ ... وَشَقَّ لِيَ اللهُ المَسَامِعَ وَالفَمَا

وكتب الكسائي إلى الرقاشي:

تَرَكْتَ المَسْجِدَ الجَا ... مِعَ؛ وَالتَّرْكُ لَهُ رِيبَةْ

وَأَخْبَارُكَ تَأْتِينَا ... عَلَى الأَعْلامِ مَنْصُوبَةْ

فَإِنْ زِدْتَ مِنَ الغَيْـ ... ـبَةِ زِدْنَاكَ مِنَ الغِيبَةْ

وما أخذه إلّا من الحديث السابق: «كنا إذا فقدنا الرجل في العشاء الآخرة أسأنا به الظن». وقال بشار من أبيات يهجو بها أهل واسط:

وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَنَالَ بِشَتْمِهِمْ ... مِنَ اللهِ أَجْراً مِثْلَ أَجْرِ المُرَابِطِ

وقال ابن الرومي:

خَيْرَ مَا فِيهُم وَلا خَيْرَ فِيهُمْ ... إِنَّهُمْ غَيْرُ آثِمِي المُغْتَابِ

وقال عبدان:

وَقَالُوا فِي الهِجَاءِ عَلَيْكَ إِثْمٌ ... وَلَيْسَ الإِثْمُ إِلَّا فِي المَدِيحِ

لأَنِّي إِنْ مَدَحْتُ مَدَحْتُ زُوراً ... وَأَهْجُو حِينَ أَهْجُو بِالصَّحِيحِ

وقال جرير: والله لقد قلت بيتاً في بني تغلب؛ لو طعنوا بعده بالرماح في استهم؛ لما حَكُّوها وهو قوله:

والتَّغْلِبِيُّ إِذَا تَنَحْنَحَ لِلْقِرَى ... حَكَّ اسْتَهُ وَتَمَثَّلَ الأَمْثَالا

---

(١) سورة ص، الآية: ٤٤.

(٢) سورة القلم، الآيتان: ١١ ـ ١٢.

ولقد أَمَضَّ في قوله:

لَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أَحْسَابَهَا يَوْمَ التَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالا

وقوله:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلا كَعْباً بَلَغْتَ وَلا كِلابَا

وقال أسماء بن خارجة: أما إنِّي لألبس العمامة الصفيقة فيخيَّل لي أنْ قد بدا شعر قفاي؛ لقول الحرث بن ظالم:

وَمَا قَوْمِي بِثَعْلَبَةَ بنَ زَيْدٍ ولا بِغَزَارةِ الشَّعَرِ الرَّقَابَا

وكان القاضي عبد الملك بن عمير يقول: والله إنه ليأخذني التنحنح والسعال وأنا في المتوضأ؛ فأرده حياء من قول القائل:

إِذَا ذَاتُ دَلٍّ كَلَّمَتْهُ بِحَاجَةٍ فَهَمَّ بِأَنْ يَقْضِي تَنَحْنَحَ أَوْ سَعَلْ

وقد اختصم رجل وامرأته إلى الشُّعَبِي[1]؛ فلما قضى لها؛ قال الرجل:

فُتِنَ الشُّعَبِيُّ لَمَّا رَفَعَ الطَّرْفَ إِلَيْهَا
فَتَنَتْهُ بِثَنَايَاهَا وَقَوْسَيْ حَاجِبَيْهَا
فَقَضَى جُوراً عَلَى الخَصْمِ وَلَمْ يَقْضِ عَلَيْهَا

وفي هذه؛ والذي قبلها؛ شبه ببيتين أوردناهما قبيل الفائدة الرابعة لبعض الأعراب؛ وكان أثر الخجل يتبين في وجه عبد الله بن معن بن زائدة؛ كلما تقلَّد السيف ورأى من يحدَّ النظر إليه؛ لقول أبي العتاهية فيه:

فَصُغْ مَا كُنْتَ حَلَّيْتَ بِهِ سَيْفَكَ خَلْخَالا

---

(١) الإمام عامر بن شراحيل الشعبي ولد في خلافة عمر بن الخطاب وقيل: هو والحسن البصري في سنة ٢١هـ ولد في وعاش فيها، وقد سكن المدينة المنورة عدة أشهر هرباً من المختار، أوفده الخليفة الأموي في سفرة خاصة إلى بيزنطة، كما عينه قاضياً، إذا غلب عنه الفقه والتفسير.

وَمَا تَصْنَعُ بِالسَّيْفِ إذَا لَمْ تَكُ قَتَّالا

ولهما حديث طويل يتنزه عن ذكره موضوع الكتاب.

وقال علي بن هشام لأخيه الخليل: الله يعلم إني لأدخل على الخليفة وعليَّ السيف؛ وأنا مستحيي منه؛ أذكر قول محمد بن وهيب فيّ:

لَمْ تَنْدَ كَفَّاكَ مِنْ بَذْلِ النَّوَالَ كَمَا لَمْ يَنْدَ سَيْفُكَ مُذْ قُلِّدْتَهُ بِدَمِ

وقال أسماء بن خارجة[1] السابق ذكره عما قليل لبنيه: والله ما رأيت جصّاً قَطُّ في بناء؛ إلّا ذكرت بَظَرَ أُمِّكُمْ هند؛ فخجلت؛ لقول عبد الله بن الزبير الأسدي:

بَنَتْ لَكُمُو هِنْدٌ بِتَلْذِيعِ بِظْرِهَا دَكَاكِينَ مِنْ جَصٍّ عَلَيْهَا المَجَالِسُ

فَوَاللَّه لَوْلا رَهْزُ هِنْدٍ بِبَظْرِهَا لَعُدَّ أَبُوهَا فِي اللّئَامِ العَوَابِسُ

ولما أنشد مسلم بن الوليد؛ ليزيد بن مزيد؛ قصيدته التي يقول فيها:

لا يُعْبِقُ الطِّيبُ خَدَّيْهِ وَمَفْرِقَهِ وَلا يُمَسِّحُ عَيْنَيْهِ مِنَ الكُحْلِ

وضع المرآة في غلافها؛ وكان بيده مشط يسرِّح لحيته؛ وقال للجارية: انصرفي؛ فقد حرَّم الطيب علينا مسلم. وقبل ذلك هجا حسان بني عبدالمدان بقوله:

لا بَأسَ بِالقَوْمِ مِنْ طُولٍ وَمِنْ غِلَظٍ جِسْمُ البِغَالِ وَأَحْلامُ العَصَافِيرِ

فقالوا له: لقد تركتنا يا أبا الوليد ونحن نستحيي من ذكر أجسامنا؛ بعد أن كنا نفخر بها؛ فقال لهم: سأصلح منكم ما أفسدت؛ وقال[2]:

---

(١) أسماء بن خارجة الفزاري من كرام العرب له صحبة يسيرة بالنبي ﷺ وعمه عيينة بن حصن وكان شاعراً وتوفي سنة ٦٢هـ.

(٢) يخلد الشعر المحامد ويثبِّت المثالب لدهور وأزمان وهنا يبدو خطر الشعراء؛ ولهذا حلف هرم بن سنان أن لا يمدحه الشاعر زهير بن أبي سلمى إلّا أعطاه، ولا يسأله إلّا أعطاه: =

وَقَدْ كُنَّا نَقُولُ إذَا رَأَيْنَا أَخَا جِسْمٍ يُعَدُّ وَذَا بَيَانِ
كَأَنَّكَ أَيُّهَا المُعْطَى لِسَاناً وَجِسْماً مِنْ بَنِي عَبْدَ المَدَانِ

وكان النابغة الجعدي يهاجي أوس بن مغراء؛ فقال: إنِّي وإيَّاه لنبتدر بيتاً؛ أيُّنا قاله غلب صاحبه؛ فلما قال أوس:

لَعَمْرُكَ مَا تَبْلَى سَرَابِيلُ عَامِرٍ مِنَ اللُّؤمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُ

قال النابغة: هذا البيت الذي نطلبه؛ فسبقني إليه. وقيل: إنَّ أهجى بيت؛ قول الأخطل في بني يربوع؛ رهط جرير:

قَوْمٌ إذَا اسْتَنْبَحَ الأضيَافُ كَلبَهُم قَالُوا لأمِّهُمُ بُولِي عَلَى النَّارِ

وقال الطرماح:

تَمِيمٌ بِطُرْقِ اللُّؤمِ أَهْدَى مِنَ القَطَا وَلَوْ سَلَكَتْ سُبلَ المَكَارِمِ ضَلَّتِ

وقال أعرابي يهجو عبد الله بن عامر بن كريز[1]:

وقال الآخر:

كَأنِّي وَنَضْوِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ عَامِرٍ مِنَ الجُوعِ ذِئْباً قَفْرَةٍ هَلِعَانِ
وَقَفْتُ وَصَنْبُورُ الشِّتَاءِ يَلُفُّنِي وَقَدْ مَسَّ بَرْدٌ سَاعِدِي وَبَنَانِي

= عبداً أو وليدةً أو فرساً. وقال عمر بن الخطاب لبعض ولد هرم بعد وفاته: أنشدني بعض مدح زهيرٍ أباك، فأنشده. فقال عمر: إنه كان ليحسن فيكم القول. قال: ونحن والله كنا نحسن له العطاء! فقال عمر: قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم. وقال عمر لابن زهير: ما فعلت الحلل التي كساها هرمٌ أباك؟ قال: أبلاها الدهر. قال عمر: لكن الحلل التي كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر.

(١) عبد الله بن عامر بن كريز العبشمي القرشي صحابي من أجود رجال قريش والعرب. توفي سنة ٥٧هـ؛ وسبب هذا الهجاء أن أعرابياً قدم عليه ليلاً بالبصرة فانشغل عنه الحجاب والعبيد فبات طاوياً فلما أصبح قال هذه الأبيات وذهب فلما سمعها ابن كريز عاقب الحاجب وأمر أن لايغلق باب بيته ليلاً ولا نهاراً.

فَمَا أَوْقَدُوا نَاراً وَلا عَرضُوا قِرىً وَلا اعْتَذَرُوا مِنْ عُسْرَةٍ بِلَسَانِ

وقال النجاشي أو الفرزدق:

قَوْمٌ تَوَارَثَ بَيْتُ اللُّؤمِ أَوَّلُهُمْ كَمَا تَوَارَثَ رَقْمُ الأَذْرعِ الحُمُرُ

تَجَنَّبَ المَجْدَ وَالمَعْرَوفَ أَوَّلُهُمْ كَمَا تَجَنَّبَ بَطْنَ الرَّاحَةِ الشَّعَرُ

ومن شعر الحماسة:

وَكَاثِرْ بِسَعْدٍ إِنَّ سَعْداً كَثِيرَةٌ وَلا تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءً وَلا نَصْرَا

يَرُوعَكَ مِنْ سَعْدِ بنِ زَيْدٍ جُسُومُهَا وَتَزْهَدُ فِيهَا حِينَ تَقْتُلَهَا خُبْرَا

ولا تزال كتب السِّيَرْ والتاريخ؛ ملأى بهجاء معن بن أوس[1] وغيره؛ وفي عبد الله بن الزبير لم يخرموا حرفاً منه، ومنها قوله:

نَزَلْنَا بَسَاتِينَ الرِّيَاحِ عَشِيَّةً إِلَى أَنْ تَعَالَى اليَومْ فِي شَرِّ مَحْضَرِ

لَدَى ابْنَ الزُّبَيرْ جَالِسِينَ بِمَنْزِلٍ مِنَ الخَيْرِ وَالإِحْسَانِ وَالبِرِّ مُقْفِرُ

رَمَانَا أَبُو بَكْرٍ وَقَدْ طَالَ مُكْثَنَا بِتَيْسٍ من الشَّاءِ الحِجَازِيِّ أَعْفَرِ

وَقَالَ أَطْعَمُوا مِنْهُ وَنَحْنُ ثَلاثَةٌ وَسَبْعُونَ إِنْسَاناً فَيَا لُؤمَ مَخْبَرِ

فَقُلْنَا ابْتَعِدِ عَنَّا فَإِنَّ أَمَامَنَا جِفَانِ ابْن عَبَّاسِ العَلِيّ وَابْنُ جَعْفَرِ

وَكُنْ آمِناً وَارْفِقْ بِتَيْسَكَ إِنَّهُ لَهُ أَعْنُزٌ يَنْزُو عَلَيْهَا وَأَبْشِرِ

وقول أبي وجرة مولاهم فيه:

لَوْ كَانَ بَطْنُكَ شِبْراً قَدْ شَبِعْتَ وَقَدْ أَفْضَلْتَ فَضْلاً كَثِيراً لِلمَسَاكِينِ

---

(١) معن بن أوس المزني. شاعر فحل مجيد، من مخضرمي الجاهلية والإسلام ويعتبر من أشعر أهل الإسلام كما كان زهير بن أبي سلمى المزني من أشعر أهل الجاهلية. له مدائح في جماعة من الصحابة، رحل إلى الشام والبصرة، وكف بصره في أواخر أيامه، وكان يتردد إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب فيبالغان في إكرامه. له أخبار مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فَإِنْ تُصِبْكَ مِنَ الأَيَّامِ جَائِحَةٌ ... لَمْ نَبْكِ مِنْكَ عَلَى دُنْيَا وَلا دِينِ

وبهجاء حسان لهند[١]؛ ومنه:

أَشَرَتْ لُكَاعٌ وَكَانَ عَادَتَهَا ... لُؤماً إِذَا أَشَرَتْ مَعَ الكُفْرِ

أَخْرَجْتِ مَرْقَصَةً إِلَى أُحُدٍ ... فِي القَومِ مُقْتِبَةً عَلَى بَكْرِ

وَنَسِيتِ فَاحِشَةً أَتَيْتِ بِهَا ... يَا هِنْدُ وَيْحَكِ سُبَّةِ الدَّهْرِ

زَعَمَ الوَلائِدُ أَنَّهَا وَلَدَتْ ... وَلَداً صَغِيراً كَانَ مِنْ عُهْرِ

وقوله:

لِمَنْ سَوَاقِطُ صِبْيَانٍ مُنَبَّذَةٍ ... بَاتَتْ تفَحَّصُ في بَطْحَاءِ أَجْيَادِ

فِيهِمْ صَبِيٌّ لَهُ أُمٌّ لَهَا نَسَبٌ ... وَعَمُّهَا وَأَبُوهَا سَادَةُ الوَادِي

وقال بعض المتأخرين:

حِجَابٌ وَإِعْجَابٌ وَفَرْطُ تَصَلُّفٍ ... وَمَدُّ يَدٍ نَحْوَ العُلَى بِتَكَلُّفِ

وَلَوْ كَانَ هَذَا مِنْ وَرَاءِ كِفَايَةٍ ... عَذَرْنَا وَلَكِنْ مِنْ وَرَاءِ تَخَلُّفِ

وقلت:

كَمْ ذَا تُنَبِّهُهُمْ مِنَ الغَفَلاتِ ... فَيَضِيعُ وَعْظُكَ صَيْحَةً بِفَلاةِ

خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ وَإِنْ لَبِسُوا الفِرَا ... وَتَجَمَّلُوا لِلنَّاسِ في الحَفَلاتِ

وذكر ابن السبكي في أوائل طبقاته؛ قصة تشتمل على هجاء أكثر قبائل العرب؛ لا حاجة بنا إليها. وحاصلها: أنَّ طلحة بن عبيد الله خطب عمرة بنت العباس بن مرداس[٢]؛ فردته فحركها ببيت فيه هجاء قومها؛ فاندفعت عليه اندفاع

---

(١) هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وأم معاوية شهدت أُحداً مع المشركين ومثلت بحمزة بعد قتله وكانت من النسوة الأربع اللاتي أهدر النبي ﷺ دمهن يوم فتح مكة لكنها أتته تائبة مسلمة فعفا عنها.

(٢) عمرة بنت مرداس بن أبي عامر السلمية. أمها الخنساء وهي شاعرة مثلها. قتل أخوها يزيد =

السيل؛ تنشد هجاء كل قبيلة ينتسب إليها؛ وكان أخذ يتنقل في القبائل؛ وقد صرحوا بأن الراوي أحد الشاتمين. وحدَّث البكري في سيرته وغيره؛ وعندي في بعضها شك؛ لِمَا جاء فيها من أشعار المتأخرين عن ذلك الزمان كالطرماح. بل إنَّ في قصيدة كعب بن زهير المشهورة؛ ذمُّ الأنصار بأنهم السود التنابل؛ ولم يرفع منها ذلك البيت؛ وقال عبد الملك بن مروان لبني أمية: لا تَعَرَّضُوا للفصحاء؛ فإن للشعر مواسم؛ لا يزيدها الليل والنهار إلّا جِدَّة؛ والله ما يسرني ملك الدنيا بحذافيرها؛ وأنني هُجيت بقول الأعشى:

تَبِيتُونَ فِي المَشْتَى مِلاءٌ بُطُونُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا

وقيل: إن أهجى بيت قول الفرزدق في رهط جرير:

أَنْتُمْ قَرَارَةُ كُلِّ مَعْدِنِ سَوءَةٍ وَلِكُلِّ سَائِلَةٍ تَسِيلُ قَرَارُ

وعليه بنى أبو تمام قوله:

فَكَانَتْ لَوْعَةٌ ثُمَّ اطْمَأَنَّتْ كَذَاكَ لِكُلِّ سَائِلَةٍ قَرَارُ

وقيل: بل أهجى بيت قول بعض العرب:

اللؤمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ واللؤمُ أكرمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَلَدَا

قَوْمٌ إذَا مَا جَنَى جَانِيهُم أَمِنُوا مِنْ لُؤمِ أَحْسَابِهِمْ أنْ يُقْتَلُوا قَوْدَا

وقال أبو نواس: ما رأيت أكرم من جعفر بن يحيى[1]؛ هجوته بقولي:

وَلَسْتُ وَإِنْ أَطْنَبْتُ فِي مَدْحِ جَعْفَرٍ بِأَوَّلِ إنْسَانٍ خَرَى فِي ثِيَابِهِ

= في ثأر، ومات أخوها العباس في الشام سنة ١٦هـ فأخذت ترثيهما، وخبرها أشبه بخبر أمها في رثاء إخوتها.

(١) جعفر بن يحيى البرمكي كان وزير هارون الرشيد وكان وسيماً فقيهاً بليغاً عظيم الكرم ثم قتله الرشيد فيما بعد.

فبعث إليَّ بعشرة آلاف درهم؛ وقال: اغسل بها ثيابك. ورأيت في أعلام الناس؛ قضية لمعن بن زائدة الشيباني[١]؛ تزيد عليها بِأنَّ هجاءها أقذعُ منها:

أَتَـذْكُـر إذْ قَـمِـيـصَـكَ جِـلْـدُ شَـاةٍ وَإذْ نَـعْـلاكَ مِـنْ جِـلْـدِ الـبَـعِـيـرِ

فَـعَـجِّـل يَـا بْـنَ نَـاقِـصَـةٍ بِـمَـالٍ فَـإنِّـي قَـدْ عَـزَمْـتُ عَـلَـى الـمَـسِـيـرِ

فما كان منه إلّا أن أجازه؛ وزوَّده؛ وجبر بخاطره، ثم رأيت الأبيات في بيان الجاحظ؛ بصورة فيها مخالفة؛ ولم يذكر أنها قيلت في معن.

وهذا الميدان واسع الشوط؛ بطين؛ وحسبنا من أهاجي الصحابة؛ الإشارة لغرض التدليل؛ وإلّا فالسِّيَرْ منها ملأى البطون كما تقدم؛ وإن ذكرنا شيئاً منها؛ فالعذر قول أبي الطيب:

مَنْ كَانَ فَوقَ مَحل الشَّمْسِ مَوضِعُهُ فَـلَـيْـسَ يَـرْفَـعُـهُ شَـيءٌ وَلا يَـضَـعُ

وإنما أضربنا عن الكثير؛ لأنا نُجِلُّ مقامهم؛ ونتقلد احترامهم؛ ومن ينجو من أَلْسِنةِ العرب؟ وإنها لمثال الذرب[٢]؛ أو يسلم من كلامهم؟ وأنه لا مغنى من سهامهم.

وقد أخرج ابن عساكر عن شيخ من أهل المدينة؛ قال: سمعت حسان بن ثابت ينوِّه بأسمائه من الليل؛ ويقول: أنا حسان بن ثابت؛ أنا ابن الفريعة؛ أنا الحسام؛ فلما أصبحت غدوت عليه فسألته عن ذلك؛ فقال: عالجت بيتاً من الشعر؛ فلما أحكمته فوَّهت بأسمائي؛ فقلت له: وما البيت؟ قال هذا:

وَإنْ امْـرُؤٌ يُـمْـسِـي وَيـصْـبِـحُ سـالِـمـاً مِـنَ الـنَّـاسِ؛ إلّا مَـا جَـنَـى؛ لَـسَـعِـيـدُ

ومرَّ بي في بعض الكتب: أنَّ موسى سأل ربه؛ أن يعقد ألسنة الناس؛ عن

---

(١) معن بن زائدة من أمراء العرب وكان من أكرم الناس وأشجعهم كان أميراً للأمويين على العراقين ثم غضب عليه أبو جعفر المنصور وطلبه ثم حارب متنكراً وأنقذ أبو جعفر فرضي عنه وولاه اليمن وغيرها وله أخبار كثيرة في الشجاعة والكرم.

(٢) ذرب اللسان: حدته وسلاطته.

التقوُّلِ عليه؛ ونبزه بما ليس فيه؛ فقال ربُّه: لم أجعل هذا لنفسي فكيف أجعله لك؟ ولله در حبيب في قوله:

وَإذَا أَرَادَ الله نَشْرَ فَضِيلَةٍ خَفِيَتْ؛ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلا اشْتِعَالِ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرُفُ طِيبُ عرْفِ العُودِ

ولنختم الكلام بدفع إيراد ربما يتجسم في عين من لا يفهم؛ وذلك أنه ﷺ عَظَّم شأن الأعْرَاض في خطبته بحجة الوداع؛ فنقول لمن توَهَّم منها منع اغتياب الفاجر: إنه لا عرض له بالكليّة. وفي التشبيه بحرمة البلد الحرام؛ إشارة عجيبة؛ فإنَّ الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فارّاً بِخَرَبَةٍ[1]؛ ولا مطلوباً بدم؛ فكذلك العرض؛ لا يكون حمىً؛ ما لم تصنه الحرمة؛ وتحرزه السلامة؛ وتحوطه النزاهة؛ وهل أعظم حرمة من الدم؛ ولكنها تسقط للاجتياز بين يدي المصلي بشرطه؛ وللصيال ولو على درهم. ولله در عبدالوهاب المالكي[2] في قوله:

عِزُّ الأَمَانَةِ أَغْلاهَا؛ وَأَرْخَصَهَا ذِلُّ الخِيَانَةِ؛ فافْهَمْ حِكْمَةَ البَارِي

جواب عن سؤال صديقه المعرِّي له بقوله:

يَدٌ بِخَمسِ مئِينِ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ مَا بَالَها قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ

ولقد أبعد النجعة؛ من زعم اختصاص النبي ﷺ؛ بأنه يحل له لعن من شاء بلا سبب؛ مستدلاً بما أخرجه الشيخان من قوله ﷺ: «**إنما أنا بشر؛ فأيُّ المؤمنين آذيته أو سببته أو لعنته أو جلدته؛ فاجعلها له زكاة وقربة**» ولا دلالة فيه ومعه؛ فهذا الزعم مرويّ عن ابن القاضي؛ وإمام الحرمين؛ وأنّى يصح ذلك الزعم؛ وقد أقاد النبي ﷺ سواد بن غزية من نفسه يوم بدر[3]؛ وعكاشة بن

---

(١) الخَرَبَةُ: الجِنايةُ وفي الحديث: إنَّ الْحَرَمَ لا يُعِيذُ عَاصِياً، وَلا فَارّاً بِدَم، وَلا فَارّاً بِخَرْبَةٍ.

(٢) القاضي عبد الوهاب المالكي، ولد ونشأ ببغداد وهو أحد أعلام المذهب المالكي، له مؤلفات مشهورة ويلقب بالقاضي عند المالكية وتوفي سنة ٤٢٢ بمصر.

(٣) روى ابن إسحاق عن حسان بن واسع عن أشياخ من قومه أن رسول الله ﷺ عدل =

محصن؛ قبيل موته. وأخرج الحاكم أنه ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه؛ في خدشةٍ خدشها أعرابياً لم يتعمده؛ وقد أتاه جبريل فقال: يا محمد إن الله لم يبعثك جَبَّاراً ولا متكبراً؛ فدعى النبي ﷺ الأعرابي وقال: اقتص منِّي؛ فقال الأعرابي: قد أحللتك؛ بأبي أنت وأمي ما كنت لأفعل ذلك أبداً؛ ولو أتيت على نفسي؛ وكذلك فعل كلٌّ من سوَّاد وعكاشة؛ وقد بسط قصة الأخير أبو نسيم والهيتمي صاحب الزوائد؛ بما أَثَرُ الانتحال عليه ظاهر؛ وأما أصل القصة فصحيح.

ثم الكلام في الغيبة لغير مصلحة؛ أمَّا لها؛ كتظلم أو استفتاء؛ أو جرح لرواية أو شهادة؛ أو استعانة على تغيير منكر؛ أو لتجاهر بفسق؛ أو لاشتهار بلقب؛ فلا خلاف في حِلَّهَا؛ كما فعلوه؛ ولكنه يستحيل أن يرجع كل ما أثر عن السلف إلى شيء من هذه الأنواع؛ ولهذا استخرنا الله وتقدمنا بما استنبطناه من الأدلة؛ وخرجنا من المماراة؛ وأستغفر الله أن أقول ما ليس لي به علم؛ ولكن على سبيل المذاكرة والبحث؛ سائلين من الله أن يوقظنا من السِّنَةْ؛ وأن يعيذنا من شرّ حصائد الألسنة.

أما منتحلو الولاية؛ ومكلفو الناس المبالغة في الاعتقاد بهم؛ وتحسين الظَّنِّ فيهم؛ فإن كشف عوارهم من أهم الواجبات؛ ولذا اعتنى القرآن بكشف دسائس الأحبار والرهبان؛ وهؤلاء على شاكلتهم؛ والسكوت على دعاية أصحابهم؛ يؤدي إلى مفاسد عظيمة؛ ولهذا ضحَّيتُ بجميع مصالحي في هذا السبيل؛ بلا معين ولا نصير؛ وبالله التوفيق.

ونقل ابن قتيبة عن حمَّاد بن سلمة أنه قال: ما كنت تقوله للرجل وهو حاضر فليس بغيبة إذا قلته من خلفه. ومن الغرائب في قول ابن السبكي: آذاني يوماً كلب فطردته؛ وقلت يا كلب بن الكلب؛ فسمعني والدي ولامني؛ فقلت له: ألم يكن كذلك! فقال: شرط الحل عدم قصد التحقير؛ فقلت: هذه فائدة؛ انتهى

= الصفوف يوم بدر، وفي يده قدح، فمر بسواد بن غزية فطعن في بطنه، فقال: أوجعتني فأقدني، فكشف عن بطنه، فاعتنقه وقبل بطنه، فدعا له بخير.

كلامه بمعناه. والكلب أحسن حالة من الفاسق؛ باعتبار ألا ترى أن تارك الصلاة؛ والزاني المحصن لا ذمَّة لهما؛ وإنما هما بمنزلة الكلب العقور كما في المختصرات. وقد قال بديع الزمان:

الـكـلـبُ أحـسـنُ حَـالـةً وَهْـوَ الـنِّـهَـايَـةُ فِـي الـخَـسَـاسَـةْ
مِـمَّـنْ تَـصَـدَّى لـلـرِئـاَسِـة قَـبْـلَ إِبَّـانِ الـرِّئـاَسَـةْ

ويروى عن أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه؛ أنه قال: الغيبة جهد العاجز؛ فأخذه المتنبي في قوله:

وَأُكْـبِـرُ نَـفْـسِـي عَـنْ جَـزَاءٍ بِـغِـيـبَـةٍ وَكُـلُّ اغْـتَـيَـابٍ جَـهْـدَ مَـنْ لا لَـهُ جَـهْـدُ





الفائدة

التاسعة عشرة

الفائدة التاسعة عشرة

قوله ﷺ: «**إنَّما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراة التوراة؛ فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا؛ فأعطوا قيراطاً قيراطاً؛ ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل؛ فعملوا إلى صلاة العصر؛ ثم عجزوا؛ فأعطوا قيراطاً قيراطاً؛ وأوتينا القرآن؛ فعملنا إلى غروب الشمس؛ فأعطينا قيراطين قيراطين؛ فقال أهل الكتاب: أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً؛ ونحن أكثر عملاً؟؛ قال الله: هل ظلمتكم من شيء؟ قالوا: لا؛ قال: فهو فضلي أوتيه من أشاء**» هذه رواية سالم بن عبد الله عن أبيه؛ أخرجها البخاري في المواقيت. وفيها أيضاً عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «**مثل المسلمين واليهود والنصارى؛ كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً إلى الليل؛ فعملوا إلى نصف النهار؛ فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك؛ فاستأجر آخرين؛ فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت؛ فعملوا حتى كان صلاة العصر؛ قالوا: لك ما عملنا فاستأجر قوماً؛ فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس؛ واستكملوا أجر الفريقين**». وأخرج نحوها في الإجارة بزيادة: «**واستكملوا أجر الفريقين كليهما؛ فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور**»؛ وأخرجه أيضاً في الإجارة عن نافع بن عمر وعن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر؛ بألفاظ متقاربة؛ ونص رواية الثاني: «إنما مثلكم واليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً؛ فقال: من يعمل لي نصف النهار على قيراط قيراط؛ فعملت اليهود على قيراط قيراط؛ ثم عملت النصارى على قيراط قيراط إلى صلاة العصر: ثم أنتم تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس؛ على

قيراطين قيراطين؛ فغضبت اليهود والنصارى؛ وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء: قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا؛ قال: فذلك فضلي أؤتيه من أشاء».

وأقول: طالما اختلجتني الشُّبَهْ؛ وقامت بنفسي الإشكالات؛ كلما مر عليَّ هذا الحديث؛ خصوصاً بلفظ سالم بن عبد الله وما يشبهه؛ ثم لا أذكر شيئاً ينفسح له الصدر؛ ويسترخي له الحزام؛ وقد يكون سبب ذلك: أننا نذهب المذاهب البعيدة في التأويل؛ ولو أننا فتَّشنا فيما على حبل الذراع؛ كابن عمر في مسألة النخلة؛ لأوشك إدراك الصواب؛ وَمَنْ لنا وقد شطَّ الفهم بما يرد. وقال الحافظ في قوله: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم؛ كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس» معناه: إنما بقاؤكم بالنسبة إلى من سلف قبلكم؛ فنسبة مدة هذه الأمة إلى مدة من تقدم من الأمم؛ كنسبة ما بين صلاة العصر وغروب الشمس؛ إلى بقية النهار. (انتهى بمعناه).

وهذا هو الذي يُعقِّد الإشكال؛ لأنه: إنْ كان المراد سائر الأمم من عهد آدم؛ فقد ناقض ما جاء من الأحاديث الكثيرة؛ من كونه ﷺ؛ عَلَماً للساعة؛ وقوله جل جلاله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ...﴾[1] وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ...﴾[2]، وقد مضى على الأرجح المقرر من ابتداء الخلق ألوف آلاف السنين؛ فلا بدّ عليه؛ من امتداد أجل الأمة المحمدية إلى نحو الربع؛ وهو أكثر من ألف ألف سنة؛ وهو مع تلك الآيات من البعد بمكان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾[3]، ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾[4]، وإلّا يكن المراد بهم إلّا أهل الكتابين؛ فمع خروجه عن الظاهر يلزمه فساد؛ لأن الفترة التي بين موسى وعيسى عليهما السلام نحو ألف وأربعمائة سنة؛ على ما في الفتح؛ وألف وثمانمائة على ما في غيره. والفترة التي ما بين

---

(١) سورة القمر، الآية: ١.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٤) سورة النازعات، الآية: ٤٣.

عيسى ونبيِّنا صلوات الله عليهم نحو ستمائة سنة؛ وعليه فلن يزيد أمد هذه الأمة عن سبعمائة سنة أو ثمانمائة سنة. والحِسُّ يرَدُّهُ؛ وينقضه أيضاً قول الله جلَّ جلاله لموسى: «يضع يده على متن ثور فله بما عضَّت يده بكل شعرة سنة» فإنه كالصريح في امتداد عمر الدنيا؛ إلى أكثر مما يمكن أن تغطيه يد موسى عليه السلام؛ ولا شك أنَّ ما تغطيه يده من الشعر؛ يُعَدُّ بالألوف؛ فلا بدّ من امتداد أمد الدنيا إلى أكثر من ذلك؛ ولا يجلِّيها لوقتها إلّا هو.

فإن قيل: ليس المراد بتوازي الأمتين وتناسبها؛ في الزمان؛ وإنما الغرض تناسبها في العمل؛ فقد تكون أعمال الأمتين مع قصر مددها؛ ثقيلة؛ تضاعف على ثقل أعمال هذه الأمة؛ على طول مدتها؛ بشهادة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾[1] وقوله: ﴿... وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾[2] وقوله ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي**» إلى آخر الحديث وهذا هو الذي ذكره الحافظ ابن حجر؛ وأقول: إنه مخدوش بتوازن المدة تقريباً؛ في المثال بين المسلمين والنصارى؛ فكيف يدَّعُون أنهم أكثر عملاً؛ ولئن تأولنا بثقل تكليفهم؛ وسهولة شرائع الإسلام؛ انتقض ذلك بزيادة مدة اليهود؛ على ضعفي مدة النصارى؛ ومن البعيد اتحاد دعوى الأمتين؛ مع تفاوت ما بينهم في الأجور؛ ومع أنَّ النصارى أقرب إلى المسلمين منهم إلى اليهود؛ والحاصل أنني كثيراً ما أذكر هذه الإشكالات؛ وأُقَلِّبُهَا ظهراً لبطن؛ فيعزُّ عليَّ الانفصال عنها بوجه جليّ؛ ولا سيما على رواية سالم بن عبد الله؛ أما على رواية نافع؛ وعبد الله بن دينار؛ فإنه يسهل قبول ما ذكره الحافظ؛ إذ لم نجد سواه؛ من حمل المقايسة على ما بين ثقل العمل باعتبار الثواب.

ولكن لا بدَّ من توضيحه فنقول: ما ينال الأجير من تعب الخدمة طيلة نهاره؛ أمر معروف بالحس؛ معقول في العادة؛ مقدر في الزمن؛ وقد انتزع

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

النبي ﷺ صورة تلك المعلومات الذهنية؛ وشَبَّه أتعاب هذه الأمة؛ المرحومة في تيسير شريعتها وسهولة تكليفها؛ بنحو من ربع أتعاب الأمتين المشار إليهما؛ وقال: ما بقاؤكم في تعب الخدمة بالنسبة إلى من قبلكم من أهل الكتابين؛ إلّا كنسبة الربع مما يحس به أجير العمل؛ فالمؤمن بموسى عليه السلام؛ إذا مات قبل التغيير والتبديل؛ شقي بعمله؛ كما يألم الواحد منَّا مرتين أو أكثر؛ والمؤمن بعيسى إذا مات قبل النسخ؛ يَنْصَبُ أكثر مما ينصب أحدنا؛ وإن تقاربت المدة المضروبة في المثل؛ ولكن ليس النظر إليها؛ وإنما هو إلى مشقة العمل؛ الذي لو لم يكن منه في شريعة عيسى؛ إلّا تحتم الزهادة المتعبة؛ وبهذا يندفع استشكال قول النصارى: نحن أكثر عملاً؛ مع تقارب ما بين الظهر والعصر وغروب الشمس؛ ومما يتأكد به اعتبار العمل خِفَّة وثقلاً؛ بقطع النظر عن طول أزمنة الأمم وقصرها؛ أنَّ المثل كان ضربه لتقدير أجور آحاد الأمم فرداً فرداً؛ لا لتقدير أجور مجموعها؛ كما سبقت الإشارة إليه؛ فما على خفيف العمل بأس من امتداد أجل أمته؛ كما ليس لثقيله راحة بقصر أمدها؛ ما دامت الأعمال متفاوتة في مشَقَّتِها.

فغاية ما في الحديث؛ تشبيه الكيف بالمَتَى؛ وإنما آثر ذلك ﷺ؛ لأنَّ المقايسة والتقدير بالزمان؛ أظهر وأخصر منهما بالكيفيَّة؛ ومن هنا تظهر بلاغة التشبيه وقوَّته، وينحل الإشكال وعقدته؛ ويصير الوعر إلى السهولة؛ والعسر إلى المياسرة؛ ولله الحمد والمنَّة.

وقد قال فقهاؤنا: بأنه لا يجوز الاستيجار بما لا ينضبط بالعمل إلّا بالزمان؛ ويبقى إشكال آخر فيما رواه سالم بن عبد الله من قوله: فعجزوا؛ فقد قال الحافظ ابن حجر: قال الداوودي: هذا مشكل؛ لأنه إن كان المراد منهم من مات بعد التغيير والتبديل؛ فكيف يعطى القيراط من حبط عمله بكفره؟ وأورده ابن القيم قائلاً: قال بعضهم: ولم ينفصل عنه؛ وأجيب بأن المراد: من مات منهم مسلماً قبل التغيير والتبديل؛ وعبَّر بالعجز؛ لكونهم لم يستوفوا عمل النهار كُلِّه؛ وإن كانوا استوفوا عمل ما قُدِّر لهم؛ فقوله: عجزوا؛ أي عن إحراز الأجر الثاني دون الأول اهـ. **فإن قيل**: هذا غير شاف إلّا فيما لو كانت الإجارة لأجلين؛

أيهما قضاه استوفى أجره؛ والإجارة من أصلها؛ في حديث ابن عمر؛ كانت إلى نصف النهار؛ كما تصرِّح به رواية نافع وابن دينار؛ فلو جاوز الأجير الغاية المحدودة فيها؛ لضاع عمله لخروجه عن عقد الإجارة.

قلت: من المقرر في اصطلاحهم اطِّراح القيود وإهمال التفاصيل؛ اعتماداً على المعروف المشهور؛ أو على ما صرَّحوا به في مكان آخر؛ ولما كان معلوماً بالضرورة؛ وجوب الإيمان بمحمد ﷺ على من أدركه من أهل الكتابين؛ كانوا في حكم المستأجرين؛ لذلك؛ فالأجل الثاني في قوة المصرح به؛ فمن عجز؛ أي مات قبل أن يدرك الثاني؛ استوفى قيراطاً فقط؛ وأما من أدرك الأجل الثاني؛ فقد علم بالضرورة انسحاب حكم الإجارة عليه؛ واستحقاقه أجرة أمثاله؛ بل قد صرح رسول الله ﷺ غير ما مرَّة؛ بأنه يؤتى أجره مرتين.

ثم إنَّ الاختلاف بين رواية ابن عمر ورواية أبي موسى؛ ظاهر لا يقبل التأويل؛ لأنَّ اليهود والنصارى في رواية ابن عمر؛ أعطوا قيراطاً قيراطاً؛ فكانت مثلاً لمن مات منهم مسلماً قبل تغيير دينه. وفي رواية أبي موسى؛ تركوا العمل عناداً فلم يعطوا شيئاً؛ فكانت مثالاً لمن بقي من اليهود إلى بعثة عيسى فكفر به؛ ومن بقي من النصارى إلى مبعث محمد ﷺ ولم يؤمن به؛ فهما قصتان في أحدهما ضرب مثل لمَيِّتِي أهل الكتاب قبل النسخ؛ وفي الأخرى ضرب مثل لكافريهم؛ قال الحافظ ابن حجر: وقد حاول بعضهم الجمع بينهما؛ فتعسَّف (اهـ. من سياق له في مواقيت الصلاة) ورجَّح في الإجارة: أنهما قصتان؛ وقال: نعم وقع في رواية سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه؛ الماضية في المواقيت؛ الآتية في التوحيد؛ ما يوافق رواية موسى؛ فرجَّحها الخطَّابي[١] على رواية نافع

---

(١) الإمام العلامة، الحافظ اللُّغوي، أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي، صاحب التصانيف. الشارح لكتاب أبي داود ولد سنة ٣٠٠ وبضع عشرة وتوفي ببست ٣٨٨هـ قال سعيد بن الأعرابي: لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم إلّا المصحف الذي فيه كتاب الله، ثم هذا الكتاب (سنن أبي داود)، لم يحتج معهما إلى شيء من العلم البتة. وتوفي ببست.

وعبد الله بن دينار؛ لكن يحتمل أن تكون القصتان جميعاً كانتا عند ابن عمر؛ فحدَّث بهما في وقتين. (اهـ). وظاهر ما عن الخطابي إمكان رد رواية سالم بن عبد الله؛ على ما فيها من التصريح بإعطاء القيراط؛ إلى رواية أبي موسى؛ وجعلهما مثلاً واحداً لمن كفر بعيسى من اليهود؛ ولمن كفر بمحمد من النصارى؛ وهو تأويل بعيد؛ وتكلُّف ليس برشيد، وقد علمت ما في رواية سالم من الغصص؛ التي لا تساغ إلّا بماء مكرر من البحث والتدقيق.

وبعد: **ففي الحديث مسائل؛ إحداها**: أنه لا ينافي العدل؛ التفضيل بين الأزواج والأولاد في العطاء؛ قال في التحفة[١]: كان ﷺ على غاية من العدل في القسم؛ وقول الاصطخري[٢]: إنه كان تبرعاً منه؛ لعدم وجوبه عليه لقوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ . . .﴾[٣] خلاف المشهور؛ لكن اختاره السبكي؛ والأولى أن يسوِّي بينهن في سائر الاستمتاعات؛ ولا يجب؛ لتعلقها بالميل القهري؛ وكذا في التبرعات المالية؛ خروجاً من خلاف من أَوْجَبَ التسوية فيها أيضاً. (اهـ) ولنا ملاحظة على إيراده اختيار السبكي؛ في حيِّز (لكن) الدالَّة على الاعتماد؛ مع الحكم بنسخ الآية التي ذكرها بالآية بعدها؛ وهي قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾[٤] ويكفينا من كلامه؛ الإشارة إلى أن معتمد المذهب عدم وجوب التسوية في التبرعات؛ وهو المطلوب الموافق لما في الحديث الذي نحن بسبيله؛ وقال الحافظ ابن حجر: أشار البخاري إلى أن المراد بالعدل؛ التسوية بينهن بما يليق بكُلٍّ منهنَّ؛ فإذا وفّى لكل واحدة منهن؛

---

(١) تحفة المحتاج في شرح المنهاج لابن حجر الهيتمي.

(٢) أبو سعيد، الحسن بن أحمد بن يزيد، الإصطخري الشافعي، من أئمة الشافعية، كان من نظراء ابن سريج وأقران ابن أبي هريرة ولي حسبة بغداد فأحرق مكان الملاهي؛ له تصانيف مفيدة منها: أدب القضاء وهو كتاب عجيب وكتاب الأقضية مات سنة ٣٢٨هـ.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥١.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٢.

كسوتها ونفقتها والإيواء إليها؛ لم يضرُّه ما زاد على ذلك؛ من مَيْلِ قلبٍ أو تبرُّعٍ بتحفة.

وقد روى الأربعة؛ وصحَّحه ابن حبان[1] والحاكم[2]؛ عن عائشة: أنَّ النبيَّ ﷺ؛ كان يقسم بين نسائه فيعدل؛ ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك**» قال الترمذي: يعني به الحب والمودة؛ كذلك فسَّره أهل العلم اهـ؛ وقال ابن حجر في تحفته: ويصح نذره لأحد أبويه أو أولاده فقط؛ وقول جمع: لا يصح؛ لأن الإيثار بغيرغرض صحيح مكروه؛ مردُودٌ بأنه لأمرٍ عارض؛ وهو خشية العقوق من الباقين؛ وإنما يوجد بعد؛ بترك إعطاء الباقين مثل الأول؛ ومن ثم لو أعطاهم مثله فلا كراهية؛ وإن كان قد نوى عدم إعطائهم حال إعطاء الأول؛ فنتج أنَّ الكراهة ليست مقارنة للنذر؛ وإنما توجد بعده؛ فلم يكن لتأثيرها فيه وجه؛ وبهذا اندفع ما أطال به بعضهم للبطلان؛ ومحل الخلاف؛ حيث لم يسن إيثار بعضهم؛ أما إذا نذر للفقير أو الصالح أو البار منهم؛ فيصح اتفاقاً (اهـ). وقوله: على أنَّ المكروه؛ وهو عدم العدل؛ لا وجود له إلى آخره؛ موضع نظر؛ وأما قوله: حيث لم يسن منه إيثار بعضهم؛ فإنه وجيه. ولعل منه سكوته ﷺ؛ على تحرِّي الناس بهداياهم يوم عائشة؛ وعما أشبه ذلك؛ على أن التقدم إلى الناس بالإهداء متى اتفق؛ والنهي عن التحري؛ لا يمكن إلّا بنوع من التعرض للهدية؛ وهو ما لا يتفق مع شدة نزاهته ﷺ.

---

(١) ابن حبان الإمام العلامة، الحافظ المجود، شيخ خراسان، أبو حاتم، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان صاحب الكتب المشهورة. وصاحب مسند ابن حبان وصحيح ابن حبان؛ ولد سنة ٢٧٠هـ كان على قضاء سمرقند زماناً، وكان من فقهاء الدين، وحفاظ الآثار، عالماً بالطب، وبالنجوم، وفنون العلم. توفي ابن حبان بسجستان بمدينة بست سنة ٣٥٤هـ.

(٢) أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. من كبار المحدّثين ومن أصحاب الصحاح. اشتهر بكتابه المستدرك على الصحيحين ولد سنة ٣٢١هـ في نيسابور؛ ولُقّبَ بالحاكم لتوليه القضاء مرة بعد مرة، ثم اعتزل القضاء وتفرغ للعلم والتصنيف، وتوفي بنيسابور سنة ٤٠٥هـ.

وقال العلامة ابن زياد[1]؛ ووافقه ابن حجر في بعض كتبه: النذر لبعض الأولاد باطل على الراجح المعتمد؛ لانتفاء القربة؛ إذ هو شديد الكراهة؛ بل قال ابن حبَّان بتحريم تفضيل بعض الأولاد؛ لما في الصحيحين في قصة الذي نحل بعض بنيه؛ أن النبيَّ ﷺ قال: «**لا تشهدني إذن فإني لا أشهد على جور**». وممن أفتى بالبطلان أيضاً؛ الفتى والردَّاد والقمَّاط والطنبداوي؛ هذا إذاً لم يكن في المنذور له ما يبيح تفضيله؛ كحاجة؛ ولأمانة؛ وكثرة عائلة؛ أو اشتغال بعلم. (انتهى). وكيفما كان الأمر؛ ففرق بين مجرد العطية والنحلة والهبة؛ وبين النذر؛ لاشتراط القربة له؛ بخلافها؛ غير أنَّ الحديث الذي نتكلم فيه؛ مُعَارَضٌ بما سبق من قوله ﷺ: «**لا تشهدني إذن فإني لا أشهد على جور**»؛ فيضعف الاستدلال به بالنسبة للأولاد فقط؛ خشية العقوق؛ بخلاف غيرهم؛ لكن الفرق بينهم وبين الآباء والإخوان ليس بالكبير؛ وقد قال محمد بن الجهم[2]: منع الجميع أرضى للجميع؛ ذكره ابن قتيبة.

ويبقى هنا إشكال؛ في عدِّ ابن حجر الهيتمي الإضرار في الوصية من الكبائر؛ قال نقلاً عن ابن عادل: وهو على وجوه؛ منها أن يوصي بأكثر من الثلث؛ أو يقر بكل ماله؛ أو بعضه لأجنبي؛ أو يقر على نفسه بدين لا حقيقة له؛ دفعاً للميراث عن الورثة؛ أو يقر بأن الدين الذي كان له على فلان استوفاه؛ إلى آخر ما ذكره وأطال فيه.

ونقول: أما الوصيَّة بأكثر من الثلث؛ فلا بأس بها؛ لأن نفوذها موقوف على إجازة الورثة؛ وعبارة المنهاج: ينبغي أن لا يوصي بأكثر من ثلث ماله. قال في التحفة: ومن ثم صرَّحَ جمعٌ بكراهة الزيادة عليه؛ وأما تصريح آخرين بحرمتها

---

(١) هو العلامة وجيه الدين أبو الضياء عبد الرحمن بن عبد الكريم بن زياد الزبيدي الشافعي ولد سنة ٩٠٠هـ له مؤلفات وفتاوى فقهية.

(٢) الإمام العلامة الأديب أبو عبد الله السمري كان من أئمة العربية العارفين بها وتوفي سنة ٢٧٧هـ.

فضعيف؛ وإن قصد بذلك حرمان ورثته؛ كما علم مما قدمته؛ في شرح قوله في الوقف: كعمارة الكنائس إلى آخر ما ذكره؛ مما يؤيد ما ذكرناه. ثم رأيته في الزواجر[١]؛ استدرك ما نقله عن ابن عادل بقريب من هذا؛ فاندفع الإشكال؛ وأما الإقرار عن غير حقيقة؛ فلو لم يكن إلّا ما فيه من الكذب؛ لكفى في التحريم؛ وهو في سعة من التبرع بماله كله في الصحة؛ أو بثلثه في المرض.

ثانية المسائل: إن فيه تخصيصاً؛ لقوله ﷺ: «**أجرك على قدر نصبك**» قال في البخاري: باب أجر العمرة على قدر النصب؛ وأخرج بسنده إلى عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ: يصدر الناس بنسكين وأصدر بنسك واحد فقال لها: «**انتظري؛ فإذا طهرت فاخرجي إلى التنعيم فأهلّي منه ثم القينا عند كذا وكذا؛ ولكنها على قدر نصبك؛ أو قال: نفقتك**». قال الحافظ نقلاً عن الكرماني: (أو إما): للتنويع؛ أو للشك من الراوي، ونقل عن الحاكم والدارقطني؛ واو العطف؛ وقال: قال النووي: ظاهر الحديث أنَّ الثواب والفضل في العبادة يكثر بكثرة النصب والنفقة؛ وهو كما قال؛ لكن ليس ذلك بمطرِّد؛ فقد يكون بعض العبادة أخف من بعض؛ وهو أكثر فضلاً وثواباً بالنسبة إلى الزمان؛ كقيام القدر؛ بالنسبة لقيام ليالٍ من رمضان وغيرها، وبالنسبة للمكان؛ كصلاة ركعتين في المسجد الحرام؛ بالنسبة لصلاة ركعات في غيره؛ وبالنسبة إلى شرف العبادة المالية والبدنية؛ كصلاة الفريضة؛ بالنسبة إلى أكثر من عدد ركعاتها؛ أو أطول من قراءتها؛ ونحو ذلك؛ من صلاة النافلة؛ وكدرهم من الزكاة؛ بالنسبة إلى أكثر منه من التطوع؛ أشار إلى ذلك ابن عبد السلام في القواعد؛ قال: وقد كانت الصلاة قُرَّةُ عين النبي ﷺ؛ وهي شاقة على غيره؛ وليست صلاة غيره؛ مع مشقَّتِها عليه؛ مساوية لصلاته مطلقاً؛ والله أعلم، وبهذا انتهى ما ننقله عن الحافظ.

(١) كتاب الزواجر عن ارتكاب الكبائر للإمام ابن حجر الهيتمي صاحب تحفة المحتاج في شرح المنهاج.

وجاء في باب الدعوات من الصحيح؛ ما يزيد فضله على كثير مما يشق عمله؛ منه ما رواه أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال لا إله إلّا الله وحده لا شريك له؛ له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة؛ كانت له عدل عشر رقاب؛ وكتبت له مائة حسنة؛ ومحيت عنه مائة سيئة؛ وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلّا رجل عمل أكثر منه**». وأخرج مسلم وغيره؛ عن جويرية أم المؤمنين؛ أنه ﷺ خرج من عندها وهي تذكر الله؛ ثم رجع وقد أضحى؛ وهي على حالها؛ فقال: «**لقد قلت بعدك أربع كلمات؛ ثلاث مرات؛ لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن؛ سبحان الله وبحمده؛ عدد خلقه؛ ورضاء نفسه؛ وزنة عرشه؛ ومداد كلماته**»؛ أما قول السيوطي في حواشي سنن أبي داود ما معناه: أن[١] ....

....

....

....

وينخرط في هذا السلك من عمل قليلاً وأَجَرَ كثيراً؛ كذلك الأعرابي؛ الذي أخرج الشيخان أنه جاء إلى النبي ﷺ؛ فقال: يا رسول الله: دلَّنِي على عمل إذا عملته دخلت الجنة؟ قال: «**تعبد الله لا تشرك به شيئاً؛ وتقيم الصلاة المكتوبة؛ وتؤدي الزكاة المفروضة؛ وتصوم رمضان**». قال: والذي نفس محمد بيده لا أزيد على هذا شيئاً ولا أنقص منه؛ فلما ولَّى؛ قال النبي ﷺ: «**من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة؛ فلينظر إلى هذا**» قال النووي: الظاهر أنه علم وفاءه بما التزم به؛ وأنه يدوم عليه ويدخل الجنة؛ ولا إشكال في عدم ذكر الحج؛ لأنه إما لم يجب بعد؛ وإما لأنه غير مستطيع، غير أنه جاء في رواية: أخبره بشرائع الإسلام؛ فيدخل الحج ويندفع الإيراد. ومنه ما أخرجه الترمذي والخطيب وأحمد عن جرير بن عبد الله: أنَّ رجلاً جاء فدخل في الإسلام؛ فكان رسول الله ﷺ

---

(١) العبارات التالية مطموسة في المخطوطة.

يعلِّمه الإسلام وهو في مسيرة؛ فدخل خف بعيره في حجر يربوع[١]؛ فوقصه[٢] فمات؛ فأتى عليه رسول الله ﷺ؛ فقال: «**عمل قليلاً وأُجِرَ كثيراً**». وحديث الأعرابي السابق عما قريب؛ شبيه بحديث ضمامة بن ثعلبة؛ فقد علمه النبي ﷺ الشرائع المكتوبة؛ فقال: كما في رواية: والله لا أتطوع شيئاً ولا أنقص مما فرض الله علي شيئاً؛ فقال النبي ﷺ: «**أفلح إن صدق**». قال القرطبي: وفي الحديثين دلالة على جواز ترك التطوعات؛ لكنَّ من داوم على ترك السنن؛ كان نقصاً في دينه؛ فإن تركها تهاوناً بها؛ ورغبة عنها؛ كان ذلك فسقاً؛ يعني لورود الوعيد عليه؛ حيث قال ﷺ: «**من رغب عن سنتي فليس مني**»، وقد كان صدر الصحابة؛ ومن تبعهم؛ يواظبون على السنن؛ مواظبتهم على الفرائض؛ ولا يفرِّقون بينهما في اغتنام ثوابهما؛ وإنما احتاج الفقهاء إلى التفرقة؛ لما يترتب عليه من وجوب الإعادة وتركها؛ ووجوب العقاب على الترك ونفيه. ولعل أصحاب هذه القصص؛ كانوا حديثي عهد بالإسلام؛ فاكتفى منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحال؛ لئلا يثقل عليهم فيملُّوا؛ حتى إذا انشرحت صدورهم للفهم عنه؛ والحرص على تحصيل ثواب المندوبات؛ سهلت عليهم (انتهى).

أقول: وهو كلام ظاهر الرخاوة؛ وقوله: «**من رغب عن سنتي فليس مني**» طرف حديث أخرجاه في النكاح؛ عن أنس: أنَّ نفراً من أصحاب النبي ﷺ قال بعضهم: لا أتزوج؛ وقال بعضهم: أصلِّي ولا أنام؛ وقال بعضهم: أصوم ولا أفطر؛ فبلغ ذلك النبي ﷺ؛ فقال: «**ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؛ لكنِّي أصلي وأنام؛ وأصوم وأفطر؛ وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني**» وأخرج ابن ماجه عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «**النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني**» وقد احتجَّ به من يقول بوجوب النكاح؛ قال الحافظ: وقد قسم

(١) اليَرْبُوع: حيوانٌ من الفصيلة اليربوعية، يشبه الفار صغير على هيئة الجُرذ الصغير وله ذنبٌ طويل ينتهي بخصلة من الشعر، وهو قصير اليدين، طويل الرجلين.

(٢) وَقَصَ البعير براكبه: رَمَى به فَكُسِرَتْ عُنُقه.

العلماء الرجل في التزويج إلى أقسام: التائق إليه؛ القادر على مؤنه؛ الخائف على نفسه؛ فهذا يندب له النكاح عند الجميع؛ وفي رواية عن الحنابلة: وجوبه؛ وبه قال أبو عوانة الأسفراييني[1] من الشافعية؛ وصرح به في صحيحه؛ ونقله المصعبي في شرح مختصر الجويني؛ وهو قول داود وأتباعه. (انتهى). وقال الهيتمي في تحفته: الذي حكوه قول: إنه فرض كفاية لبقاء النسل؛ ووجه أنه واجب على من خاف زناً؛ قيل مطلقاً؛ لأنَّ الإحصان لا يوجد إلّا به؛ وقيل: إن لم يُرِد التسرِّي اهـ. ومنه تعرف أنه لا يصح استدلال القرطبي به؛ لما ذكره؛ وفرق بين الرغبة عن السنة؛ وبين الكسل عنها؛ والسنة عامة تشمل المفروض وغيره؛ وحديث ضمام والذي على شاكلته؛ هما اللذان يمكن أن يخصَّص بها ذلك؛ ولا سبيل إلى العكس والله أعلم.



(١) أبو عوانة الأسفراييني أحد رواة الحديث؛ صاحب المسند الصحيح الذي خرجه على صحيح مسلم وزاد أحاديث قليلة في أواخر الأبواب، طاف كثيراً من البلاد لسماع كبار العلماء والمحدثين ولد بنيسابور سنة ٢٣٠هـ ومن شيوخه مسلم وعبد الله بن أحمد بن حنبل؛ أخذ كتب الشافعيين عن الربيع والمزني وهو أول من أدخل مذهب الشافعي إلى أسفرايين وتوفي سنة ٣١٦هـ.



الفائدة

العشرون

الفائدة العشرون

قوله ﷺ: «**أرأيتم لو أنَّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كُلَّ يومٍ خَمْساً ما تقول ذلك يُبْقِي من دَرَنِهِ شيئاً؟ قالوا: لا يبقي من درنه شيئاً؛ قال: فذلك مِثْلُ الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا**».

فيه مسائل؛ الأولى: اختلفوا فيما تكفِّره الطاعات؛ هل يختص بالصغائر أو يشمل الكبائر؟ فقد أخرج البخاري وغيره؛ عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما؛ والحج المبرور ليس له جزاء إلّا الجنة**»؛ قال الحافظ: أشار ابن عبد البر إلى أن المراد تكفير الصغائر دون الكبائر؛ قال: وذهب بعض العلماء من أهل عصرنا؛ إلى تعميم ذلك؛ ثم بالغ في الإنكار عليه؛ واستشكل بعضهم كون العمرة كفارة؛ من أن اجتناب الكبائر يُكَفِّر؛ فماذا تُكَفِّر العمرة؟ والجواب: إنَّ تكفير العمرة مُقَيَّد بزمنها؛ وتكفير الاجتناب؛ عام لجميع عمر العبد؛ فتغايرا من هذه الحيثية (انتهى).

وأخرج البخاري وغيره؛ عن حذيفة بن اليمان أنه قال[1]: «**فتنة الرجل في**

---

(١) حدثنا مسند قال حدثنا يحيى عن الأعمش قال حدثني شقيق قال سمعت حذيفة قال: «كنا جلوساً عند عمر رضي الله عنه فقال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟ قلت: أنا كما قاله قال: إنك عليه أو عليها لجريء قلت: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي قال: ليس هذا أريد ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها باباً مغلقاً قال: أيكسر أم يفتح؟ قال: يكسر قال: إذاً لا يغلق أبداً قلنا: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم كما أن دون الغد الليلة إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط فهبنا أن نسأل حذيفة فأمرنا مسروقاً فسأله فقال: الباب عمر» صحيح البخاري.

أهله وماله وولده وجاره؛ يكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي». قال الحافظ واحتجَّ المُرجئة[١] بظاهره على أن أفعال الخير؛ مكفرة للكبائر والصغائر؛ وحمله جمهور أهل السنة على الصغائر عملاً بحمل المطلق على المقيَّد (انتهى). وقال في حديث: «**ما من مسلم يصيبه أذى إلّا حَطَّ الله عنه خطاياه**»[٢] ظاهره تعميم جميع الذنوب؛ لكن الجمهور خصُّوا ذلك بالصغائر؛ للحديث الذي تقدم التنبيه عليه؛ في أوائل الصلاة: «**الصلوات الخمس؛ والجمعة إلى الجمعة؛ ورمضان إلى رمضان؛ مُكَفِّرَاتٌ لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**». فحملوا المطلقات الواردة في التكفير على هذا القيد (انتهى). نعم؛ قال في كتاب الجمعة: وإذا لم يكن للمرء صغائر تُكَفَّرْ؛ رُجِيَ أن يكَفَّرْ عنه بمقدار ذلك من الكبائر؛ وإلّا أُعْطِي من الثواب بمقدار ذلك؛ وهو جارٍ في جميع ما ورد في نظائر ذلك؛ والله أعلم (اهـ). وأخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود: أنَّ رجلاً أصاب من امرأة قُبْلَةً؛ فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك؛ فأنزل عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[٣] قال الحافظ: تَمَسَّكَ بظاهره المُرْجِئَة؛ وقالوا: إنَّ الحسنات تُكَفِّر كلَّ سيئةٍ؛ كبيرة كانت أو صغيرة. وحمل الجمهور هذا المطلق على المقيَّد في الحديث الصحيح: «**إن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر**»؛ فقالت طائفة: إنْ اجتنبت الكبائر؛ كانت الحسنات كفَّارة لما عدا الكبائر من الذنوب؛ وإن لم تجتنب الكبائر؛ لم تحطَّ

---

(١) المرجئة فرقة إسلامية، خالفوا في مرتكب الكبيرة وغيرها من الأمور العقدية، وقالوا بأن كل من آمن بوحدانية الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر، لأن الحكم عليه موكول إلى الله تعالى وحده، مهما كانت الذنوب التي اقترفها. وهم يستندون في اعتقادهم إلى قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾. والعقيدة الأساسية عندهم عدم كفر أي إنسان، أيًّا كان، ما دام قد اعتنق الإسلام ونطق بالشهادتين، مهما ارتكب من المعاصي، تاركين الفصل في أمره إلى الله تعالى وحده.

(٢) وفي صحيح مسلم من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يُصيبُ المؤمِن مِن شَوكَةٍ فما فَوقَها إلّا رَفَعَهُ اللهُ بِها دَرجةً، وحَطَّ عنه بِها خَطيئةً**».

(٣) سورة هود، الآية: ١١٤.

الحسنات شيئاً وتحط الصغائر؛ وقيل: إنَّ المراد أن الحسنات تكون سبباً في ترك السيئات؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ...﴾[1] لا أنها تكفر شيئاً حقيقة؛ وهذا قول بعض المعتزلة؛ وقال ابن عبد البر: ذهب بعض أهل العصر إلى أن الحسنات تُكَفِّر الذنوب؛ واستدل بهذه الآية؛ وغيرها من الآيات والأحاديث الظاهرة في ذلك؛ قال: ويَردُّه الحث على التوبة في أيِّ كبيرة؛ فلو كانت الحسنات تكفر جميع السيئات؛ لما احتاج إلى التوبة (انتهى ما أردناه من كلام الحافظ)؛ وقد مرَّ عنه نحوه؛ إلّا أن في هذا ما ليس في ذلك؛ وما ذكره ابن عبد البر من الاحتجاج بالحثِّ على التوبة واضح؛ ويتأكد بما سبق؛ من حمل المطلق على المقيَّد؛ ففيه الدليل الواضح والحجَّة الناصعة.

وقال الحافظ في شرح الحديث الذي نحن بصدده: إنَّ المراد بالخطايا في الحديث؛ ما هو أعم من الصغيرة والكبيرة؛ لكن قال ابن بطَّال: يؤخذ من الحديث أنَّ المراد الصغائر خاصة؛ لأنَّه شَبَّهَ الخطايا بالدرن؛ والدرن صغير بالنسبة إلى ما هو أكبر منه من القروح والخُرَّاجات (انتهى) وهو مبني على أن المراد في الحديث الحب؛ والظاهر أن المراد به الوسخ؛ لأنه هو الذي يناسبه الاغتسال والتنظيف؛ وقد جاء التصريح به في حديث أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**أرأيت لو أن رجلاً كان له مُعْتَمَلٌ؛ وبين منزله ومعتمله خمسة أنهار؛ فإذا انطلق إلى معتمله عمل ما شاء الله؛ فأصابه وسخ أو عرق؛ فكلما مر بنهر اغتسل فيه...**» الحديث[2].

ولهذا قال القرطبي: ظاهر الحديث أنَّ الصلوات الخمس تستقل بتكفير

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.

(٢) رقم الحديث: ٥٣٠٢ المعجم الكبير للطبراني.
(حديث مرفوع) (حديث موقوف) وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً كَانَ لَهُ مُعْتَمَلٌ، بَيْنَ مَنْزِلِهِ وَمُعْتَمَلِهِ خَمْسَةُ أَنْهَارٍ، فَإِذَا انْطَلَقَ إِلَى مُعْتَمَلِهِ عَمِلَ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَأَصَابَهُ الْوَسَخُ أَوِ الْعَرَقُ، فَكُلَّمَا مَرَّ بِنَهَرٍ اغْتَسَلَ، مَا كَانَ ذَلِكَ مُنَقِّياً مِنْ دَرَنِهِ، فَكَذَلِكَ الصَّلَوَاتُ، كُلَّمَا عَمِلَ خَطِيئَةً أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ صَلَّى صَلاةً اسْتَغْفَرَ، غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ قَبْلَهَا**».

جميع الذنوب؛ وهو مشكل؛ لكن روى مسلم قبله حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً: «**الصلوات الخمس كفارة لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر**» فعلى هذا المقيَّد يحمل ما أطلق في غيره (انتهى كلام الحافظ). ثم ذكر الإشكال السابق في كفارة العمرة مع جوابه؛ ثم قال: وعلى تقدير ورود السؤال؛ فالتخلص منه بحمد الله سهل؛ وذلك أنه لا يتم اجتناب الكبائر إلا بفعل الصلوات الخمس؛ فمن لم يفعلها؛ لم يعد مجتنباً للكبائر. ثم نقل عن البلقيني: **أنَّ الأحوال خمس؛ أحدها**: أن لا يقع شيء من المعاصي؛ فتكون المجازاة برفع الدرجات؛ **ثانيها**: أن تقع صغائر بلا إصرار؛ فإنها تُكَفَّر جَزْماً؛ **ثالثها**: وقوعها مع الإصرار؛ فلا تُكَفِّرْ. قلنا: إنَّ الإصرار على الصغائر كبيرة؛ **رابعها**: صدور كبيرة واحدة مع صغائر؛ **خامسها**: وقوع الكبائر والصغائر؛ وهذا فيه نظر؛ فيحتمل فيه أن تُكَفَّر الصغائر وحدها؛ ويحتمل أن لا يكفَّر شيء حينئذ أصلاً؛ وهو الأرجح؛ لأن مفهوم المخالفة إذا لم تتعين جهته؛ لا يعمل به؛ وقد دار هنا بين الفصلين فألغي. (انتهى بمعناه).

وقال النووي[١] في شرح مسلم: معناه أن الذنوب كلها تُغْفَرْ إلّا الكبائر فإنها لا تغفر، وليس المراد أن الذنوب تغفر ما لم تكن كبيرة؛ فإن كان لا يغفر شيء من الصغائر؛ فإنَّ هذا وإن كان محتملاً؛ فسياق الحديث يأباه. قال القاضي عياض: هذا المذكور في الحديث من غفران الذنوب ما لم تؤت كبيرة؛ هو مذهب أهل السنة؛ وإنَّ الكبائر إنما تكفِّرها التوبة؛ أو رحمة الله وفضله (انتهى). وما رجَّحَهُ النووي أحرى بالقبول مما رجَّحَهُ البلقيني[٢].

---

(١) هو الإمام يحيى بن شرف الدين الحوراني النووي الشافعي؛ محيي الدين ولد سنة ٦٣١هـ في نوا من قرى حوران بسوريا وإليها نسبته، تعلم بدمشق وأقام بها زمناً طويلاً؛ له مصنفات كثيرة شهيرة؛ منها منهاج الطالبين في الفقه وتهذيب الأسماء واللغات وشرح صحيح مسلم وروضة الطالبين وتوفي سنة ٦٧٦هـ.

(٢) هو الإمام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير القاهري ولد سنة ٧٢٤هـ ببلقينية وقرأ =

المسألة الثانية: ظهر لي من الحديث إشارة جليَّة إلى ما يندفع به أصل الإشكال؛ وقد حام ابن بطّال[1] قليلاً حول تلك الإشارة؛ ثم صرفه الله عنها؛ لما خبأه لنا بِمَنِّه وفضله؛ في طيات الأيام؛ من حسن التوفيق لحلِّه[2]؛ وذلك أنه ﷺ؛ إنَّمَا شَبَّه الصلاة بالماء؛ وهو لا يزيل إلّا ما خَفَّ من الأوساخ؛ أما الغليظ الذي يشتد لصوقه بالبدن؛ فإنه لا يزول إلّا بالصابون؛ أو السدر؛ أو الاثنان؛ أو ما أشبه ذلك؛ وهذا شيء مجرَّبٌ معتاد؛ فكذلك الصلاة لا تُكَفِّرْ من الذنوب إلّا الصغائر؛ فأمَّا الكبائر فإنها لا تنمحي إلّا بالتوبة الصادقة الخالصة؛ وهو معنى جليّ لا غبار عليه ولا شبهة فيه، وما هدايتي إليه مع غفلة العلماء عنه؛ وهو على طرف الثمام منهم؛ إلّا من قبيل ما قررناه في قضية ابن عمر؛ وإدراكه علاقة الشبه بين المسلم والنخلة؛ مع ذهول الأشياخ عنه؛ وكم يكون في يديَّ من الحبر؛ لا سيّما الأمر بعد الفراغ من الكتابة؛ فأغسله عشرات المرات بالماء؛ فلا يذهب؛ إلّا بالشنان[3] والدلك المكرر؛ فأين يذهب بالناس عنه؟

وقد سبق عن بعضهم: أنَّ الحسنات تكون سبباً في ترك السيئات؛ وهو ظاهر؛ والآيات تؤيده؛ فقيام الإنسان بالصلاة والمحافظة على آدابها ومكملاتها؛ تكون له ملكة تحجزه من الكبائر؛ وتمنعه من الفواحش؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا

= على تقي الدين السبكي وله شرح المنهاج والمهمات قال الحافظ ابن حجر: كانت آلات الاجتهاد فيه كاملة. توفي سنة ٨٠٥هـ.

(١) ابن بطال هو العلامة أبو الحسن؛ علي بن خلف بن بطال البكري، القرطبي، ثم البلنسي، عني بالحديث العناية التامة وشرح صحيح البخاري في عدة أسفار وتوفي سنة ٤٤٩هـ.

(٢) أعجبتني هذه العبارة لأنها تبيّن أن الفهم والاستنباط ليس مقصوراً على المتقدمين رغم سعة علمهم وقوة مداركهم بل قد يوفق الله أحد المتأخرين للوصول إلى المعنى المقصود كما في قصة ابن عمر التي ذكرها الإمام في هذا السياق.

(٣) نبات جاف يسحق ويستعمل للتنظيف كالصابون.

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1]؛ ففي وصفهم بالخشوع في الصلاة أصلاً؛ وبالمحافظة عليها في الطرف الآخر؛ ما يومئ إلى شيء مما جاء في آية: ﴿. . . إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ . . .﴾ ويتوضح من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[2] وقوله جل شأنه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[3].

فالصلاة بمعناها الأخص؛ حائل صفيق؛ وسد منيع؛ بين الإنسان وبين كبائر المعاصي؛ بل قد أخرج أحمد بسند جيد عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ: فقال: إنَّ فلاناً يصلي بالليل؛ فإذا أصبح سرق؟ قال: «**سينهاه ما تقوله**». وأخرج مسلم والترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الشيطان قد أَيِسَ أن يعبده المصلون في جزيرة العرب؛ ولكن في التحريش بينهم**» فمن أقام صلاته؛ ولم يدعها تُلَفْ كما يُلَفْ الثوب الخَلِقْ؛ فَتُرَدُّ في وجهه؛ يكون غنياً من تكفير الكبائر؛ لأنه لا يقع فيها؛ لأنَّ المصلي بخشوع وخضوع؛ لا يخرج من الصلاة إلّا على تمام المراقبة للباري عز وجل؛ مستشعراً

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١ ـ ٩.
(٢) سورة المعارج، الآيات: ١٩ ـ ٣٤.
(٣) سورة الماعون، الآيات: ١ ـ ٧.

لاطّلاع الله عليه في جميع أحواله؛ وقد ورد أنَّ الصلاة تدعو لمن حفظها بأن **يحفظه الله**؛ راجٍ **بدعائها أن يجاب**؛ **فإن قيل**: كيف تنهاه عن الكبائر كما ذكرتم؛ ثم لاتنهاه عن الصغائر؛ وهي أدنى من ذلك؟ **أجيب**: بأنَّ الصلاة تعطيه مَلَكَة راسخة في التدين؛ تمنعه عن كل ما يؤذن بانتهاك حرمته؛ وارتكاب الكبائر يؤذن بقلة المبالاة بالدين؛ فكانت الصلاة حائلاً بينه وبينه؛ بخلاف الصغائر؛ فإنَّ الوقوع فيها لا يفضي لانتهاك حرمة الدين؛ فلم تكن الصلاة مانعة منها؛ ولم يكن الوقوع فيها منافياً؛ وحسبك أن عصمة الأنبياء ليست موضع اتفاق بين العلماء في الصغائر؛ بل الأكثرون من المتكلمين على عدم عصمتهم إلّا من الكبائر.

أما الكلام على الصلاة وأسرارها وعلى مكانها؛ فله موضع غير هذا. ولكنَّا هنا نقول: أخرج البخاري وغيره: أنَّ أنس بن مالك قال: «ما أعرف شيئاً مما كان عليه عهد النبي ﷺ؛ قيل: الصلاة؛ قال: أليس ضيَّعْتُمْ ما ضَيَّعْتُمْ فيها؟» وأخرج بسنده إلى الزهري قال: «دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت له: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئاً مما أدركت إلّا هذه الصلاة؛ وهذه الصلاة قد ضُيِّعَتْ». «وأخرج أيضاً عن أنس؛ أنه قدم المدينة فقيل له: ما أنكرت منذ يوم عهدت رسول الله ﷺ؟ قال: ما أنكرت شيئاً إلّا أنكم لا تقيمون الصفوف». قال الحافظ: وكان الأول بالشام؛ والثاني بالمدينة؛ فدَلَّ أنَّ أهل المدينة أمثل من غيرهم في التمسك بالسنن، كانوا في ذلك الزمان.

وأخرج الحاكم وصححه؛ وأقرَّه الذهبي[(١)]؛ عن حذيفة بن اليمان قال: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع؛ وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة؛ ولتنتقضن عرى الإسلام عروة عروة . .» وذكر حديثاً فيه طول[(٢)]. وقال الهيتمي

---

(١) هو الحافظ محمد بن أحمد الذهبي ولد سنة ٦٧٣هـ مولده ووفاته في دمشق؛ رحل إلى القاهرة وكف بصره سنة ٧٤١ وتوفي سنة ٧٤٨هـ ومن تصانيفه ميزان الاعتدال؛ الرواة الثقاة؛ والمشتبه في الأسماء والأنساب والكنى والألقاب.

(٢) عن حذيفة رضي الله عنه، قال: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم =

عن أبي أمامة الباهلي؛ عن رسول الله ﷺ: «**لتنتقضن عرى الإسلام عروة عروة؛ فكلما نقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها وأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة**» رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح. وعن ربيعة عن يزيد؛ قال: سمعت أبا إدريس الخولاني يقول: «إن للإسلام عرى يتعلق الناس بها؛ وإنها تمتلخ عروة عروة؛ فأول ما يمتلخ منها الحكم؛ وآخر ما يمتلخ منها الصلاة».

وأخرج الحاكم على شرط الشيخين وصححه؛ عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ قال: «يأتي على الناس زمان يجتمعون في المساجد ليس فيهم مؤمن»؛ وإن لم يكن زماننا المشار إليه بذلك؛ فإنه مثله؛ ومتى وجد في الجماعة؛ ولو مؤمن واحد؛ فأحرَّ بأن يقبلهم الله تعالى من أجله؛ فإنه لا يفرق لهذه الأمة الصفقة؛ وقد نهاهم عن تفريقها؛ والرحمة أليق بقبول المسيئين لأجل المحسن؛ من رد المحسن لأجل المسيئين. وقال ابن قتيبة[1]: قالت أعرابية[2]: إنْ تقبَّلَ الله منِّي صلاة؛ لم يعذبني؛ فقيل لها: كيف ذلك؟ قالت: لأنَّ الله عز وجل لا يستثني في رحمته. قال عبد الرحمن العبدي أو الربيع بن صبيح: كنت سمعت حديث معاذ: «من كتبت له حسنة دخل الجنة»؛ ولم أدر ما تفسيره؛ حتى سمعت أم غسان تقول هذا؛ فعرفت تأويله. ويروى أنَّ سائلاً قرع باب عبد الله بن عمر بن

= الصلاة، ولتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، وليصلين النساء وهن حيض، ولتسلكن طريق من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، وحذو النعل بالنعل، لا تخطئون طريقهم، ولا يخطأنكم حتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة فتقول إحداهما: ما بال الصلوات الخمس، لقد ضل من كان قبلنا إنما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ لا تصلوا إلّا ثلاثاً، وتقول الأخرى: إيمان المؤمنين بالله كإيمان الملائكة ما فينا كافر ولا منافق، حق على الله أن يحشرهما مع الدجال» هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (الكتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم).

(١) أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣ ـ ٢٧٦هـ) أديب فقيه محدث مؤرخ له العديد من المصنفات أشهرها عيون الأخبار، وأدب الكاتب وغيرها.

(٢) هي أم غسان الأعرابية المكفوفة.

الخطاب؛ فقال لهم: أعطوه؛ فقال له أحد بنيه: تقبل الله منك؛ يعني أنهم أعطوه؛ فقال: إنما يتقبل الله من المتقين. ويروى عن عمر المحضار بن عبد الرحمن السقاف[1] أنه يقول: لو علمت أن الله قبل لي تسبيحة؛ لأضفت أهل تريم كلهم على البر واللحم. وما هو إلّا من حيث ما قالت أم غسان.

وبهذه المناسبات؛ ذكرت أن والدي رضوان الله عليه؛ تحدث مرَّةً بأنَّ رجلاً راود امرأة بعض الأكابر عن نفسها؛ فأخبرت زوجها؛ فقال لها: متى عاد لك فاشترطي عليه أن يحافظ على الجماعة معي أربعين يوماً؛ فعاد ففعلت؛ فتلزَّم بذلك؛ ثم لم تمض له عشرون يوماً؛ حتَّى استحالت الصهباء عنده[2]؛ وأقلع عمَّا كان عليه.

وصدق سفيان الثوري[3] أو غيره؛ في قوله: طلبنا العلم لغير الله؛ فأبى أن يكون إلّا الله. وحكى بعضهم: أنه خرج حاجّاً؛ فاعترضهم الشطار[4]؛ وقطعوا عليهم الطريق؛ وانتهبوا القافلة؛ وأخذوا يأكلون من أزاود الحجيج؛ وكبيرهم معتزلٌ ناحية؛ قال: فقصدته؛ وقلت: ما شأنك لا تأكل مع أصحابك؟ قال: إنِّي صائم! قال: تصوم وتقطع الطريق؟ قال: أَدَعْ باباً مفتوحاً بيني وبين ربي! قال: فرأيته بعد أمة من الزمان يطوف بالبيت؛ وقد أقلع عما كان عليه؛ فسألته؛ فقال: من ذلك الباب اهتديت إلى الطريق.

---

(١) عمر المحضار بن عبد الرحمن السقاف ـ أول نقيب للسادة العلويين بحضرموت والمتوفى سنة ٨٣٣هـ وإليه ينسب مسجد المحضار بتريم المشهور بمنارته الطينية الحالية والتي ترتفع عن الأرض بمقدار ١٧٥ قدماً.

(٢) يؤخذ المعنى من قول الشاعر: راجياً أن تعود سيئاته حسنات.... فيقال استحالت الصهباء.

(٣) هو الإمام سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور؛ أمير المؤمنين في الحديث؛ كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ولد سنة ٩٧هـ؛ كان آية في الحفظ له: (الجامع الكبير) والجامع الصغير وتوفي سنة ١٦١هـ.

(٤) جمع شاطر وهو الداهية الماكر الخبيث.

وقال النجاشي؛ من كلمة أقذع فيها لأهل الكوفة:

وَالسَّارِقِينَ إذَا مَا جَنَّ لَيْلُهُمُوا وَالدَّارِسِينَ إذَا مَا أَصْبَحُوا السُّوَرَا

وفي حديث أنَّ امرأة تتصدق من كسب فرجها؛ فقال الشاعر:

وَمُهْدِيَةَ الرُّمَّان مِنْ كَدِّ فَرْجِهَا لَكِ الخَيْرَ لا تَزْنِي وَلا تَتَصَدَّقِي

وقال أبو عبد الله بن محمد النامي الخوارزمي؛ وكان إليه المفزع مع أبي حامد الأسفراييني[1] في فقه الشافعي:

أَيَا زَائِرَ البَيْتَ العَتِيقَ وَتَارِكِي قَتِيلَ الهَوَى لَوْ زُرْتَنِي كَانَ أَجْدَرَا

تَحَجُّ احْتِسَاباً ثُمَّ تَقْتُلُ عَاشِقاً فَدَيْتُك لا تَحْجُجْ وَلا تَقْتَل الوَرَى

والأصل في ذلك؛ المثل الفارسي؛ بشهادة ما جاء في ما نظم؛ أبوعبد الله الضرير الأبيوردي منها؛ من قوله:

وَتَزْكِيَتِي مَالاً جَمَعْتُ مِنَ الرِّبَا رِيَاءً وَبَعْضُ الجُودِ أَخْزَى مِنَ البُخْلِ

كَسَارِقَةَ الرُّمَانِ مِنْ كَرْمِ جَارِهَا تَعُودُ بِهِ المَرْضَى وَتَطْمَعُ فِي الفَضْلِ

* * *

(١) هو الشيخ أبو حامد بن محمد بن أحمد الأسفراييني الفقيه العلامة المتكلم ولد سنة ٣٤٤هـ وهو من أصحاب الوجوه عند الشافعية وتوفي سنة ٤٠٦هـ.



الفائدة

الحادية والعشرون

الفائدة الحادية والعشرون

في حديث ابن عباس قال: يوم الخميس اشتد برسول الله ﷺ وجعه؛ فقال: «**آتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً**»؛ فتنازعوا؛ ولا ينبغي عند نبيٍّ تنازع؛ فقالوا: ما شأنه أَهَجَرْ؟ استفهموه؛ فذهبوا يردون عليه؛ فقال: «**دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه**» وفي رواية أخرى؛ قال: لما حضر رسول الله ﷺ؛ وفي البيت رجال؛ فقال: «**هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده**»؛ فقال بعضهم: إنَّ رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع؛ وعندكم القرآن؛ حسبنا كتاب الله؛ فاختلف أهل البيت واختصموا؛ فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده؛ ومنهم من يقول غير ذلك؛ فلما أكثروا اللغو والاختلاف؛ قال رسول الله ﷺ: «**قوموا**». فكان ابن عباس يقول: إنَّ الرزيَّة كُلُّ الرزيَّة؛ ما حال بين رسول الله ﷺ؛ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب؛ لاختلافهم ولغطهم. وفي كتاب الجهاد من البخاري: أنَّ ابن عباس بكى حتى خضَّب دمعه الحصى؛ ولمسلم: ثم جعل تسيل دموعه حتى رأيتها على خدِّه كأنها نظام اللؤلؤ.

■ وفيه مسائل:

الأولى في قولهم: ما شأنه أَهَجَرْ؟ قال الحافظ: بهمزة لجميع رواة البخاري؛ وفي الرواية التي في الجهاد؛ فقالوا: هجر بغير همزة؛ ووقع للكشمهيني: هنالك فقالوا: هجر رسول الله ﷺ؛ أعاد هجر مرتين. قال القاضي عياض: معنى: أَهَجَرْ: أفحش؛ يقال هَجَرَ الرجل؛ إذا هذى؛ وأَهْجَرْ إذا أفحش؛ وتعقَّب: بأنه يستلزم أن يكون بسكون الهاء؛ والروايات كلها؛ إنما هي

بفتحها؛ وقد تكلم عياض وغيره على هذا الموضع؛ فأطالوا؛ ولخصه القرطبي تلخيصاً حسناً؛ ثم لخصته من كلامه؛ **وحاصله**: أنَّ قولهم هَجَرَ؛ الراجح فيه إثبات الهمزة للاستفهام؛ وبفتحات على أنه فعل ماضي؛ قال: ولبعضهم أهُجْراً؛ بضم الهاء وسكون الجيم والتنوين؛ على أنه مفعول بفعل مضمر؛ أي قال هجراً؛ والهُجْرُ بالضم ثم السكون: الهذيان؛ والمراد به هنا ما يقع من كلام المريض؛ الذي لا ينتظم؛ ولا يعتد به لعدم فائدته؛ ووقوع ذلك من النبيِّ ﷺ؛ مستحيل؛ لأنه معصوم في صحته ومرضه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[1]؛ ولقوله ﷺ: «**إني لا أقول في الغضب والرضا إلّا حقّاً**» وإذا عرف ذلك؛ فإنما قاله من قاله منكراً على من توقف في امتثال أمره؛ بإحضاره الكتف والدواة؛ فكأنَّه قال: كيف تتوقف؟ أتظن أنه كغيره يقول الهذيان في مرضه! امتثل أمره وأحضره ما طلب؛ فإنه لا يقول إلّا الحق. قال: هذا أحسن الأجوبة؛ قال: ويحتمل أنَّ بعضهم قال ذلك عن شكٍّ عرض له؛ ولكن يبعده؛ أن لا ينكره الباقون عليه؛ مع كونهم من كبار الصحابة؛ ولو أنكروه لنُقِلَ؛ ويحتمل أن يكون الذي قال ذلك؛ صدر عن دهشة وحيرة؛ كما أصاب كثيراً منهم عند موته؛ قلت: ويظهر لي ترجيح ثالث الاحتمالات؛ ويكون قائل ذلك: بعض من قرب دخوله في الإسلام؛ وكان يُعْهَدْ أن من اشتدَّ عليه الوجع؛ قد يشتغل به عن تحرير ما يريد أن يقوله؛ لجواز وقوع ذلك.

وقوله في الرواية الثانية: فاختصموا؛ فمنهم من يقول: قرِّبوا يكتب؛ ما يُشْعِرْ بأنَّ بعضهم كان مصمماً على الامتثال والرد على من امتنع منهم، ولما وقع منهم الاختلاف ارتفعت البركة؛ كما جرت بذلك العادة عند وقوع التنازع والتشاجر. وقد مضى في الصيام؛ أنه ﷺ؛ خرج يخبرهم بليلة القدر؛ فرأى رجلين يختصمان فرفعت (انتهى ما أردنا نقله عن الحافظ بتلخيص).

وأكثره كلام ملزق؛ تنادي الحقائق الواقعية بفساده؛ فقد ذكر واحد من أهل

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣.

السِّيَرْ والتاريخ؛ إن لم يكن أصفق كلهم؛ على أن قائل تلك الكلمة؛ هو عمر بن الخطاب؛ كما يفهم مما يأتي في المسألة الثالثة عن الحافظ نفسه؛ فلا يكون الاعتذار عنه حينئذ؛ إلّا بما عرف من شدته وخشونته؛ فكثيراً ما كان ﷺ يرسل الكلام بعجرفة وعنجهيَّة؛ حتى يلتبس على سامعه المراد منه؛ ألا ترى إلى قوله: «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ؛ وأنا أحرمهما وأعاقب عليهما؛ متعة النساء ومتعة الحج». وفي هذا من النكارة ما تقشعر له الجلود؛ لولا التأويل بقوله: بالمصالح وتغير بعض الأحكام بحسب ما يليق بالزمان؛ وما عرفه الناس إلّا رجَّاعاً للحق؛ وقَّافاً عند الذكر؛ فلا بأس بالهفوة من آثار الغلظة العربية؛ والفلتة من أغبار الأحوال الجاهلية. وفي يوم الحديبية؛ وقد رَدُّوا أبا جندل إلى المشركين؛ وهو مسلم؛ قال: أتيت نبيَّ الله ﷺ؛ فقلت له: ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى؛ ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى؛ قلت: فلِمَ نعطي الدنيَّة في ديننا إذاً؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه؛ وهو ناصري؛ قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى؛ فأخبرتك أنا نأتيه العام؛ قلت: لا؛ قال: فإنك آتيه ومطوّف به؟ قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر؛ أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى؛ قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى؛ فقلت: فلِمَ نعطي الدنيَّة في ديننا؛ إذاً؟ قال: أيها الرجل؛ إنه رسول الله وليس يعصي ربه؛ وهو ناصره فاستمسك بغرزه؛ فوالله إنه على الحق؛ قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى؛ أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا؛ قال: فَإِنَّك آتيه ومطوف به؛ قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. وفي رواية أنه قال: ما شككت منذ أسلمت إلّا يومئذٍ. وأكبر من مراجعته للنبي ﷺ؛ عدم اقتناعه حتَّى أتى أبا بكر؛ ولهذا يتعذَّر الجواب مع قوله: فعملت لذلك أعمالاً إلخ، بأنه: من سوق المعلوم مساق غيره؛ لنكتة؛ فما بقي إلّا الاعتذار بجفوته المنسيّة في جنب حسناته الكثيرة؛ وأعماله الصالحة؛ لا سيما وأنه قد تاب عنها وكَفَّرْ.

ومعاذ الله أن يقصد بقوله: هجر؛ ظاهر اللفظ المعهود؛ ومن معاني

الهجر: الترك والصوم؛ وكثيراً ما تتكلم العرب بالكلام الجافي؛ لغير المعنى المتبادر؛ أما ترى أخا العرب يقول[1]:

رَبَّ الــعِــبَــادِ مَــا لَــنَــا وَمَــا لَــكْ أَنْـزِلْ عَـلَـيْـنَـا الـغَـيْـثَ لا أَبَـا لَـكَـا

ومن سِيَرِ أحوالهم لذلك العهد؛ وبعدهم عن التنطُّع؛ وميلهم عن التكلف؛ لم يُستنكَر شيء من ذلك؛ وقد كان عروة بن مسعود الثقفي؛ كلما كلمه يوم الحديبية؛ أمسك بلحيته ﷺ؛ فلم يستنكف من ذلك؛ حتى يكون المغيرة بن شعبة؛ هو الذي يرخي يد عروة من قبل نفسه بنعل سيفه. وقد كان ﷺ؛ سهل الأخلاق؛ ليِّن الجانب؛ رقيق الحاشية؛ بعيداً عن أحوال الجبابرة والمتكبرين؛ لا يتميز عن أصحابه؛ ولا يدع أحداً يطأ عقبه؛ وهم ماشون معه على الفطرة؛ وسائرون بحسب السجيّة؛ تقال عثرتهم؛ وتغتفر جفوتهم؛ لإمعانهم في الصدق؛ وتحرزهم من الكذب؛ واتفاق ما بين ألسنتهم وضمائر قلوبهم؛ ثم لا يقاس بابن الخطاب غيره؛ ممن لم يسع بقدمه؛ ولم يطر بريشه؛ ولم يوافقه ربه؛ فلو قالها غيره؛ لظُنَّتْ به الظنون؛ وتخازرت له العيون؛ ولكنها العناية التي لا تضر معها الجناية.

وَيَـقْـبَـحُ مِـنْ سِـوَاكَ الـفِـعْـل عِـنْـدِي فَـتَـفْـعَـلُـهُ فَـيَـحْـسُـنُ مِـنْـكَ ذَاكَـا

المسألة الثانية: اختلف العلماء في الكتاب الذي هو عليه؛ فقيل مهمات الأحكام؛ وهو من البعد بمكان؛ لأنَّ ما طلبه من الكتف؛ وما كان فيه من الوقت؛ لا يتسعان لذلك. وقال سفيان بن عيينة: أراد أن يعيِّن أسماء الخلفاء من بعده؛ واختلفوا فيمن يريد أن يعيِّنَهُ؛ فقيل: أبو بكر؛ بدليل ما عند مسلم؛ من

---

(١) ذكر المبرد في الكامل في اللغة والأدب أن سليمان بن عبد الملك سمع رجلاً من الأعراب في سنة جدبة يقول:

رب العباد ما لنا وما لكا قد كنت تسقينا فما بدا لكا

أنزل علينا الغيث لا أبا لكا؛ فأخرجه سليمان أحسن مخرج، فقال: أَشْهَدَ أنه لا أبا له ولا ولد ولا صاحبة وأشهد أن الخلق جميعاً عباده.

قوله لعائشة: «**ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً؛ فإنِّي أخاف أن يتمنَّى متمَنٍّ؛ ويقول قائل: أنا أولى؛ ويأبى الله والمؤمنون إلّا أبا بكر**». وللبخاري معناه؛ ولا صراحة فيه؛ إذ الاستدعاء متردد؛ بين أن يكون للإشهاد على التأمير نفسه وبين أن يكون لأمر آخر؛ ولئن كان قوله: ويأبى الله . .الخ؛ قد يُرجِّح إرادة التأمير نفسه؛ فقد يكون له في أمر خاص؛ لا للخلافة العامة؛ ثم ما معنى استدعاء الولد؛ مع أن شهادته لا تنفع لأبيه؛ ثم يبعده في يوم الخميس كل البعد؛ اعتراض عمر؛ فإنه لو كان المراد يومئذ أبا بكر؛ لعرف عمر ذلك؛ ولو عرفه لسارع إليه؛ فكيف يردم الفجاج دونه؛ وهو منتهى رضاه وغاية هواه. ولا إشكال بكون النبي ﷺ؛ من المؤمنين المشار إليهم بقوله: «ويأبى الله والمؤمنون» لأنَّ المتكلم لا يدخل في عمومه كلامه؛ ولو خبراً إلّا بقرينة؛ كما صحَّحه النووي في كتاب الطلاق من الروضة؛ قال بعضهم: وهو التحقيق؛ وقال بعضهم: أراد أن يُعَيِّن علياً؛ وهذا هو الظاهر؛ ففي الصحيح: أنه قال له: «**أنت مني وأنا منك**»؛ وقال له أيضاً: «**أما ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى**» ولو لم يمت هارون قبل موسى لما كان خليفته سواه؛ إذ كان خليفته في حياته كلما غاب؛ وأخرج الترمذي والنسائي حديث: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**» قال الحافظ ابن حجر: وهو كثير الطرق جداً؛ وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد؛ وكثير من أسانيدها صحاح وحسان؛ وقد روينا عن الإمام أحمد قال: ما بلغنا عن أحد من الصحابة ما بلغنا عن علي بن أبي طالب (انتهى كلام الحافظ).

المسألة الثالثة: مع أي الطرفين كان الصواب؟ نقل الحافظ عن النووي؛ أنه قال: اتفق العلماء على قول عمر: حسبنا كتاب الله؛ من قوة فقهه؛ ودقيق نظره؛ لأنه خشي أن يكتب أموراً؛ ربما عجزوا عنها؛ فاستحقوا العقوبة لكونها منصوصة؛ وأراد أن لا يسدَّ باب الاجتهاد على العلماء؛ إلى آخر ما ذكره.

وأقول: إن أراد معرفة عمر؛ بأن المراد كتابة العهد إلى علي؛ وهو يخاف أن يخرج عليه ولا يطيعه؛ فنعم؛ وإن أراد غير ذلك؛ كما تشهد القرائن؛ فلا. ولا شك أنه لم يخرج من لسان قائله؛ على جلالة قدره؛ ورسوخ قدمه علماً؛ إلّا

وقد تأثر بتقديس عمر تأثراً عظيماً؛ حال بينه وبين النقد الطبيعي والتحليل العلمي؛ الذي لا يهتدي إليه؛ إلّا من نظر بعين المَعْدَلَةْ؛ وتجرَّد عن العواطف؛ واطَّرَح نظارة الإعجاب الخلابة؛ ولله در عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب؛ في قوله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس:

وَإنَّ حُسَيْناً كان شَيْئاً مُلَفَّفَا ... فَمَحَّصَهُ التَّكْشِيفُ حَتَى بَدَا لِيَا

وَلَسْتُ بِرَادٍّ عَيْبَ ذِي الودِّ كُلِّهِ ... وَلا نَاظِراً فِيهِ إذَا كَانَ رَاضِيَا

فَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٍ ... كَمَا أَنَّ عَيْنُ السخْطِ تُبدِي المَسَاوِيَا

ومعاذ الله أن أغُضَّ من قدر ابن خطاب؛ أو أحُطَّ من كرامته؛ وأنا الذي لا أذكر فضائله السامية؛ ومرتبته العالية؛ إلّا اهتزَّ بشري؛ ووقف شعري؛ وانتفش دماغي؛ وهو الذي فتح الفتوح؛ ومصَّر الأمصار؛ وأقام الحدود؛ حتى على ولده؛ فبحقٍّ يقول البوصيري فيه:

عُمَرَ بنَ الخَطَّابَ مِنْ قَوْلِهِ الفَصْـ ... ـلِ وَمِنْ حُكْمِهِ السَّوِيِّ السوَاءَا

والذِي تَقَرَّبَ الأبَاعِدَ فِي ... اللَّه وَالذِي تَبَعَّدَ القُرَبَاءَا

غير أن شيئاً من ذلك؛ لا يمنعنا من البحث والتدقيق؛ وأيُّ عقل يقبل؛ وأي فكر يتصور؛ تصويب الحيلولة؛ بين النبي ﷺ؛ الذي لا ينطق عن الهوى؛ وبين كتاب قال عنه: إنَّ الأمة لن تضلَّ بعده أبداً؛ هذا والله ما لا يَتَمَعْنَى بحال؛ فلا شك أنَّ ابن الخطاب جد غالطٌ في صنيعه؛ كما قاله ابن عباس.

إلّا أن هناك ضمائر مستترة؛ وأسرار مكنونة؛ جاشت عندها الجوائش؛ وتفتحت أبواب الكلام؛ ولولا خشية الإثقال والإملال؛ كُنَّا أجرينا اليراع فيها ملء فروجه؛ ولكن نقتصر على ما لا بدَّ منه؛ عائذين بالله من الرجم بالظنون؛ والتسوُّرْ على الغيب المخزون.

فنقول: الأقرب أن يكون الغرض من الكتابة؛ تعيين الخلافة؛ إذ لم يكن فيها؛ كما قال ابن أبي الحديد؛ نص صريح يفصل الأمر؛ ويقطع العذر؛ ويلجم

الخصم؛ ويسكت المنازع؛ وإنما كان فيها تعريض وتلويح؛ وقول ليس بالصريح؛ وكنايات محتملة؛ وإشارات مشتبهة؛ وتعريضات مختلفة؛ قد تؤول إلى التكافؤ وترجع إلى التساوي (انتهى).

وهو موافق لما في الكتاب الذي سيره له أبو بكر مع أبي عبيدة؛ من قوله: وكما عَرَّضَ بك؛ فإنه لم يسكت عن غيرك؛ كما أن هذا الكتاب؛ وما تعلق به؛ لم يكن إلّا من وضع أبي حيان؛ كما تشهد القرائن؛ وذكره الترمذي عن أبي الحديد؛ وقيل: إنَّ جانب علي أرجح؛ والإشارة إلى ترشيحه أفصح؛ وإنِّي لأعجب من ابن أبي الحديد؛ أن يقول ذلك؛ مع فرط غلوِّه في أمير المؤمنين؛ ولا سيّما قصائده العلويات؛ ولكنه إنصاف منه؛ يحملنا على اعتبار كلامه. ولو كان مع أحد؛ ما ينهض بالحُجَّة؛ ويصيب المحز؛ ويطبق المفصل؛ لأدلى به؛ عندما تشادقت الخصوم؛ وتقاولت القروم؛ وتخاطرت الفحول؛ فلا عطر بعد عروس؛ وقد جزم عمر بأنه ﷺ؛ لم يستخلف؛ واتفقوا على أن أبا بكر قال للأنصار يوم السقيفة: نحن الأمراء وأنتم الوزراء؛ فقال حباب بن المنذر له: والله لا نفعل؛ مِنَّا أمير ومنكم أمير؛ فقال أبو بكر: ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء؛ هم أوسط العرب داراً؛ وأعربهم أنساباً؛ فبايعوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة؛ ولو كان هنالك نص؛ لاحتجَّ به؛ فسكوته وإشارته بأحد الرجلين؛ مع النص عليه؛ لو كان مخالفة؛ يتنزَّه عنها مقام أجلاء الصحابة. وأخرج البخاري وغيره؛ عن ابن عباس؛ أنَّ علي بن أبي طالب؛ خرج من عند الرسول الله ﷺ؛ في وجعه الذي توفي به؛ فقال الناس: يا أبا الحسن؛ كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً؛ فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب؛ فقال: أنت والله بعد ثلاثٍ عبدُ العصا؛ وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا؛ إني لأعرف في وجوه بني عبد المطلب عند الموت؛ اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ؛ فلنسأله في من هذا الأمر؛ إن كان فينا علمنا؛ وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا؛ فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها؛ لا يعطيناها الناس؛ وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ؛ قال الحافظ: وزاد ابن سعد في مرسل

الشعبي: فلما قُبِضَ النبي ﷺ؛ قال العباس لعلي: ابسط يدك أبايعك؛ تبايعك الناس؛ فلم يفعل؛ وزاد عبد الرزاق عن ابن عيينة؛ قال الشعبي: لو أنَّ علياً سأله عنها كان خيراً له من ماله وولده (انتهى).

فتحصَّل: أنه لم يكن في الأمر نص جلي يرفع الالتباس؛ ولكنه ﷺ رشَّح علياً في كثير من الأحاديث؛ من أظهرها حديث الغدير؛ ولكنهم لم يقنعوا بأنَّ: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**»[1]؛ نص على الخلافة؛ لأنّ المولى له معانٍ كثيرة؛ ومن أقواها حديث: «**أقضاكم علي**»[2]؛ ومن المعلوم؛ أن لا قاضي بالمدينة سواه ﷺ؛ في أيامه؛ ومتى كان هو القاضي؛ وكان علي أقضى الناس؛ تعيَّن لها بعده. ولكنه أشار بأنها تكون لأبي بكر؛ والأوامر لون؛ والأقضية لون آخر. وعرف أنَّ بعض صناديد قريش؛ لا يريدها لعلي؛ وكأنَّه أراد أن يفصل الأمر؛ ويقطع الشبهة؛ بذلك الكتاب؛ فعارض عمر خوفاً أن تكون لعليّ؛ والمصلحة في نظره؛ أن لا يتولاها؛ ففي شرح النهج؛ عن ابن عباس عن عمر؛ قال: لقد أراد رسول الله ﷺ أن يذكر علياً للأمر؛ فصددته عنه؛ خوفاً من الفتنة وانتشار أمر الإسلام؛ فعلم رسول الله ﷺ ما في نفسي فأمسك؛ وأبى الله إلّا إمضاء ما حتَّم. وبه يتأكَّد ما استظهرناه قبيل المسألة الثالثة.

وقد أشرنا غير مرة؛ بأنَّ عمر يذهب بالمصالح المرسلة؛ ولا سيما فيما تدخله السياسة، فسكت رسول الله ﷺ؛ وأخرجهم؛ وما ذاك إلّا لأنه لم يجزم في الأمر؛ بل بقي على تَرَدُدٍ فيه؛ ولهذا توقف لأيسر عارض؛ ولا شك أنه علم بما يكون بعده؛ كُلّاً أو بعضاً؛ تفصيلاً أو إجمالاً؛ كما تصرح به أحاديث الملاحم؛ البالغة أو القريبة من التواتر؛ فبقي: بين أن يخالف اجتهاده؛ وهو غير سائغ؛ وأن

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) تكملة الحديث: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أُبي، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة» الراوي: ـ المحدث: الزرقاني ـ المصدر: مختصر المقاصد خلاصة حكم المحدث: صحيح.

يعمل به؛ وقد علم سبق الأقضية بما يخالفه؛ وربما ترجَّحت عنده مصلحة تولية علي؛ وخاف أن يفضي من بعده؛ إذا تراخى الأمر؛ إلى من لا يصلح من ذريته؛ فكم ولي منهم؛ سيئ سيرة وقبيح طريقة؛ كما فعل علي بن محمد بن جعفر الصادق؛ حينما أدار ولاية أبيه في الحجاز؛ أوائل عهد المأمون العباسي. ولا وحي عنده عليه السلام في شيء من الأمر؛ حتى يجزمه؛ وإلّا لبلَّغه ضربة لازب[1].

ومنه يُعْرَف أنَّ عمر كان مخطئاً؛ وأن الصواب كان مع رسول الله ﷺ في سكوته؛ ومع الطرف الذي حرَّض على الكتاب؛ تفادياً من الضلال؛ وامتثالاً لأمر رسول الله ﷺ. فإن قيل: كيف تُخَطِّئون عمر؛ وقد وافقه رسول الله ﷺ؛ بسكوته عن طلب الكتف والدواة[2]؛ وتصوِّبون أولئك؛ وقد خالفهم؟ قلنا في الجواب: أما رسول الله ﷺ؛ فإنه ينظر في صدور الأمور وأعقابها؛ بعين تخترق الحجب؛ وقد يفضي به الاجتهاد إلى غاية لا تسمح بنفوذها سوابق الأقدار؛ أو إلى مدى تترجح المصالح في صدوره؛ ثم لا تتوفر في عواقبه؛ فكان السكوت عند الاختلاف أحزم؛ واطِّراح الاختيار ألزم. وأما أولئك؛ فصوابهم أوضح من صديع الفجر[3]؛ بامتثالهم أمره ﷺ؛ وحرصهم على الأمر الذي يسلِّمُهُمْ من الضلالة فيما بعده؛ فلو كان أمر النبي ﷺ مجرداً من العلة؛ لكان واجب الامتثال؛ فكيف وقد صرح بما يترتب عليه من موافقته انتفاء الضلالة.

وأما أخطاء عمر؛ فمن ثلاث جهات؛ إن أجابوا عن بعضها؛ تعذَّر الجواب لا محالة عن الأخرى؛ **الأولى**: أنه مخالفة ظاهرة لرسول الله ﷺ؛ ورد صريح لأمره. **الثانية**: أنه لم يبق له منفذ إلى الاجتهاد؛ وقد سدَّ عليه أبوابه ﷺ بقوله: «**لن تضلوا بعده**»؛ **الثالثة**: أنه تمارى هو وأبو بكر في تأمير التميمين؛ فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد؛ وقال عمر: أمِّر الأقرع بن حابس؛ فقال أبو بكر: ما

---

(١) هذا من الأمثال ومعنى قولهم: صار ضربة لازب أي صار لازماً.

(٢) الكتف عضم عريض كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم (لسان العرب).

(٣) انصدع الصبح: انشق عنه الليل، والصديع: الفجر لانصداعه.

أردت إلّا خلافي! قال عمر: ما أردت خلافك؛ فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما؛ فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ. . .﴾[1][2]؛ أخرجه البخاري في عدة مواضع؛ وفي رواية عنده؛ عن ابن أبي مليكة: «كاد الخيران أن يهلكا رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ»[3] واقتص الحديث؛ وفي آخره؛ فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾[4] وابن الخطاب من سادات الأحرار؛ والحر تكفيه اللمحة؛ وتغنيه الإشارة؛ وتحسبه الغمزة؛ فكيف يليق منه؛ بعد ما سمع مُرَّ العتاب من جبار السماوات والأرض؛ أن يعود إلى مثلها؛ لولا استيلاء الدهشة؛ واستحواز الحيرة؛ وقد سامح الله الأمة في النسيان.

مَا سُمِّيَ الإنْسَانُ إلَّا لِنَسْيِهِ وَلا القَلْبُ إلّا لأنَّه يَتَقَلَّبُ

ويتأكد هذا؛ بما ذكره المؤرخون من كثرة نصيب عمر من النسيان؛

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١.

(٢) وجاء في تفسير البغوي لهذه الآية: عن ابن أبي مليكة، أن عبد الله بن الزبير أخبرهم، أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع معبد بن زرارة، قال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلّا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حتى انقضت. ورواه نافع عن ابن أبي مليكة، قال فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وزاد: قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر عن أبيه، يعني أبا بكر.

(٣) جاء في (صحيح البخاري؛ كتاب تفسير القرآن): حدثنا بسرة بن صفوان بن جميل اللخمي حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع وأشار الآخر برجل آخر قال نافع: لا أحفظ اسمه فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلّا خلافي قال: ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله ﴿﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ الآية قال فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ٢.

واستيلائه عليه بالآخرة؛ حتى رتَّب لنفسه من يُذَكِّرُهُ بأعمال الصلاة؛ أضف إلى ذلك؛ أنه راجع النبيّ ﷺ؛ في عدة أمور؛ فلم ينكر مراجعته؛ بل نزل في كثير منها على رأيه؛ وأشار ببعض أمور؛ نزل القرآن فيها بموافقته؛ فأطمعه ذلك فيما سواه؛ واسترسل في اعتماد ما يظهر لدرجة المصلحة فيه؛ فهو رضوان الله عليه؛ معذورٌ إن شاء الله تعالى.

أما الضمائر؛ التي قلنا إنها مستترة؛ وهي تلوح؛ والأسرار؛ التي ذكرنا في القضية أنها مخزونة؛ وعرفها يفوح؛ فقد عَرَّفنا بعضها في قصيدة؛ لا بأس أن نوردها بهذه المناسبات الكثيرة؛ وهي هذه:

فِيمَ التَّرَيُّثُ وَالأيَّامُ تُغْرِي بِي ... أَمَرُّ لِي المُكْث فَاسْتَحْلَيتُ تَغْرِيبِي

وَهَلْ يُعِينُ عَلى صرفِ الزَّمَانِ سِوَى ... صَلْيِّ الفيافي بإيسادٍ وَتَأويبِ

أَهَكَذا كُلُّ صِنْدِيدٍ تُعَاكِسُهُ ... أيَّامُهُ وَيَفُوزُ الفسْلُ بِالطِّيبِ

فَاضْرِبْ بِطَرفٍ أنَّى شِئتَ تَلْقَ أولـ ... ـى الأخْطَارِ فِي فِتَنٍ هُوجٍ وَتَعْذِيبِ

تَلْقَ اللئآمَ الليَالِي وَهْيَ بَاسِمَةٌ ... وَالأكْرَمِينَ بِتَعْبِيسٍ وَتَقْطِيبِ

وَانْظُرْ إلى حَالِ خَيْرِ المُرْسَلِينِ وَمَا ... لاقَاهُ فِي الله مِنْ حَرْبٍ وَتَكْذِيبِ

وَإثْرَهُ بِنْتُهُ مَاتَتْ بِغُصَّتِهَا ... سَحَّتْ عَلَيْهَا الأذَايَا بَالشَّآبِيبِ

وَآلُهُ؛ قَلَبَ الدَّهْرُ المِجَنَ لَهُمْ ... وَسَاسَهُمْ بِمَشَقَّاتٍ وتَقْصِيبِ

تَوَاصُلُ الحُزْنِ قَدْ أنْسَى عَقَائِلَهُمْ ... مَسَّ الدِهَانِ وتَزْجِيجِ الحَواجِيبِ

والمُرْتَضَى بَعْدَهُ مَا زَالَ فِي مَضَضٍ ... وَمُوجِعَاتٍ وَأيَّامٍ غَرَابِيبِ

مَا كَانَ ذَاكَ جَزَاءً لِلوَصِيِّ وَلا ... كُنَّ لِلمَقَادِيرِ أسرار وَتَرْتِيبِ

جَمُّ المَنَاقِبِ مَنْفُوخُ المَرَاتِبِ ... مَعْرُوفُ القَوَاضِبِ والصُّمِّ الأنَابِيبِ

فَكُلُّ ذَلكَ مَطْوِيٌّ عَلَى حِكَمٍ ... يَصُونَهَا الغَيْبُ مَلأى بِالأعَاجِيبِ

تَشَادَقَ القَومُ فِي نَصِّ الخِلافَةِ هَلْ ... يَصِحُ أَمْ لا؛ وَأكَّدُوا بَعْدَ تَنْقِيبِ

وِلِـلـنَّـبِـيِّ إشَـارَاتٌ نُـقِـرُّ بِـهَـا ... لِفَـهْـمِ مَنْ لَـمْ يُكَـابِرْ بَعْـضُ تَقْرِيبِ
قَدْ رَشَّحَ الـمُرْتَضَى يَوْمَ الغَدِيرِ لَهَا ... فِي خِطْبَةٍ قَالَـها بَيْنَ الأصَاحِيبِ
وَشَـاءَ تَـوثِـيـقَـهَـا يَـومَ الـخَـمِـيـسِ لَـهُ ... فَـصَادَفَ الرَّأي لَمْ يُقْبَلْ بِتَرحِيبِ
وَحَـيْـثُ لا وَحْـيَ فِـي شَـأنٍ فَـعَـادَتُـهُ ... فِـيـهِ الـسُّـكُـوتُ إذا أدَّى لِـتَـشْـغِـيـبِ
وَقَـدْ أشَـارَ إلَـى الـصِّـدِّيـقِ آوِنَـةً ... إشَـارَةً لَـمْ تُـكَـنْ نَـصّـاً بِـتَـهْـذِيـبِ
رَآهُ بِـالـكَـشْـفِ مَـوْلاهـا وَوَدَّ لَـهَـا ... أبَـا الـتُّـرَابِ اجْـتَـهَـاداً بَـعدَ تَـخْـرِيـبِ
لِـكَـنَّـهَـا انْـصَـرَفَـتْ عَـنـهُ لِـمَـصْـلَـحَـةٍ ... لَـهُ وَلِـلـدِّيـنِ وَالـشُّـبَّـانِ وَالـشِّـيـبِ
فَإنّهم لَوْ أصَابُوا المُلكَ مَا بَقِيَ النَّـ ... ـسلَ المُبَارَكَ حَيّاً فِي الأعَارِيبِ
إذْ كُـلُّ رَفْـعٍ مِـنَ الـدُّنْـيَـا إلـى ضِـعَـةٍ ... وَالـمُـلـكُ رَفْـعٌ وَمَـرْهُـونٌ بِـتَـقْـلِـيـبِ
وَكَـيْـفَ يَـخْـرُجُ عَـنْـهُـمْ إنْ نَـمَـوا وَسَـمَـوا ... وَإنَّـمَـا هُـوَ دُولاتٌ بِـتَـعْـقِـيـبِ
بِـدَعْـوَةِ الـمُـصْـطَـفَـى صِـيـنَـتْ سُـلالَـتُـهُ ... فِـي كُـلِّ كَـيْـدٍ مِـنَ الـعَـادِّي وَتَـألِـيـبِ
مِـلءِ الـنَّـوَاحِـي أعَـادِيـهِـم وَقَـدْ أمِـنُـوا ... وَالـعُـرْبُ تَـأمَـنُ بَـيْـنَ الـضَّـبْـعِ وَالـذِّيـبِ
يَـا أيَّـهـا الـخَـمْـسَـةُ الأرْوَاحِ لِـي بِـكُـمُـو ... تَـعَـلُّـق جَـاءَنِـي مِـنْ قَـبْـلِ تَـأدِيـبِـي
وَمَـا سِـوَى حُـبُّـكُـمْ نَـفْـسِـي تَـلُـوذُ بِـهِ ... يَـومـاً إذَا سُـمِـعَـتْ آيَـاتُ تَـرْحِـيـبِ
يَجِيشُ صَدْرِي بِجَزْلِ الشِّعرِ فِي غَرَضٍ ... فَـتَـذْكُـرونُ فَـأنْـسَـى كُـلَّ تَـرْكِـيـبِ
فِـيـكُـمْ يَـسِـيـلُ كَـمِـثْـلِ الـمَـاءِ مُـنْـحَـدِراً ... إلَـى الـقَـرَارِ وَأصْـغـي حِـيـنَ تَـشْـبِـيـبِـي
عَـلَـيْـكُـم مِـنْ صَـلاةِ الله أبْـلَـغُـهَـا ... مَـا هَـيّـجَـتْ شَـيِّـقـاً حُـمْـرُ الـجَـلابِـيـبِ

ثم رأيت ابن أبي الحديد[1] يقول؛ في شرح قوله؛ كرّم الله وجهه: فنظرت في أمري؛ فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي، وإذا الميثاق في عنقي لغيري، أنَّ رسول

(١) عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد؛ هو أحد أبرز علماء وكتاب المعتزلة في عصره. من كتبه كتاب شرح نهج البلاغة. توفي سنة ٦٥٦ هجرية.

الله ﷺ؛ أعلمه بأنه أولى بالخلافة من الناس أجمعين؛ وأنَّ في صبره على التأخُّر عند تقديم غيره؛ مصلحة للدين راجعة إلى المكلفين؛ وأنه يجب عليه أن يمسك عن طلبها؛ ويغضي عنها لمن هو دون مرتبته؛ فامتثل ما أمره به (اهـ). وهو وإن كان موافقاً لما في القصيدة؛ فإنَّ قوله: وإنه يجب عليه أن يمسك إلخ ..؛ غير مطابق للواقع؛ فقد طفق زمناً يدور بفاطمة على بيوت الأنصار في طلبها؛ حتى قال المنصور في كتابه المشهور؛ لمحمد بن عبد الله بن حسن المثنى[(١)]: ولقد طالب بها أبوك بكل وجه؛ فأخرجها تُخَاصِمْ؛ ومرَّضها سراً؛ ودفنها ليلاً (اهـ)؛ وإنما أحجب بالبيعة لأبي بكر بعد مدة؛ رأى فيها راجعة العرب عن الإسلام؛ فضَّحَى مصلحته، ويشهد لكثير مما قدمنا؛ ما جاء في خطبته؛ كرم الله وجهه؛ التي قالها حين عرض عليه العباس وأبو سفيان البيعة؛ عندما قبض رسول الله ﷺ:

هذا ماءٌ آجِنٌ[(٢)]؛ ولقمة قد يَغَصُّ بها آكلها؛ ومجتنِي الثمرة لغير وقت إيناعها[(٣)]؛ كالزارع بغير أرضه؛ فإن أقل؛ يقولوا: حرص على الملك؛ وإن أسكت؛ يقولوا: جزع من الموت. هيهات بعد اللتيا والتِي[(٤)]؛ والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه؛ بل اندمجتُ على مكنونِ علمٍ لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية[(٥)] في الطوِيِّ البعيدة[(٦)].

قال ابن أبي الحديد: وهذه إشارة إلى ما أوصى به من ترك النزاع؛ مبدأ الاختلاف، غير أن بعض ذلك؛ لا يلتئم مع ما قدمناه؛ ولا مع ما أخرجه هو عن ابن عباس؛ من قوله: كانت بين عليّ والعباس مباعدة؛ فلقيت علياً وقلت له: إن

---

(١) يسمى بمحمد النفس الزكية خرج مع أخيه إبراهيم على الخليفة العباسي المنصور فقتل إبراهيم بالبصرة وقتل محمد النفس الزكية بالمدينة ودفن بالبقيع.

(٢) الآجِنُ: المتغير الطعم واللون، لا يستساغ، والإشارة إلى الخلافة.

(٣) إينَاعُها: نضجها وإدراك ثمرها.

(٤) بَعْدَ اللَّتَيّا والتي: بعد الشدائد كبارها وصغارها.

(٥) الأرْشِيَة: جمع رِشاء بمعنى الحبل.

(٦) الطّوِيّ: جمع طويّة وهي البئر، والبئر البعيدة: العميقة.

كانت لك حاجة في النظر إلى عمك فآته؛ وإلّا فما أراك تلقاه بعدها؛ قال: تقدمني؛ ولما جاء استأذنت له؛ فدخل واعتنق كل منهما صاحبه؛ وأكَبَّ عليّ على يد عمه ورجله يقبلهما؛ ويقول: ارض عني يا عم؛ قال: قد رضيت عنك؛ ثم قال: قد أشرت عليك يا بن أخي بثلاثة أمور؛ فلم تقبل؛ ورأيت في عاقبتها ما تكره؛ أشرت عليك أن تسأل رسول الله ﷺ في مرضه عن هذا الأمر؛ فقلت: إن منعناها لا يعطيناها الناس؛ فمضت؛ ودعوتك إلى أن أبايعك أنا وأبا سفيان حينما قُبِضَ رسول الله ﷺ؛ فقلت: وهل يطمع فيها أحدٌ غيري؛ فلنا شغل بجهاز رسول الله ﷺ؛ مع أنا لا نخاف على هذا الأمر؛ فلم نلبث أن سمعنا التكبير من سقيفة بني ساعدة؛ فقلت: ما هذا؟ قلت لك: ما دعوناك إليه وأبَيْتَ؛ فقلت: وهل يكون هذا؟ قلت لك: قد كان؛ ثم نهيتك عن الدخول في الشورى؛ فأبيت؛ وأنا الآن أشير عليك برأي رابع؛ فإن قبلته؛ وإلّا ندمت؛ كأنّي بالعرب قد سارت إلى عثمان حتى تنحره؛ فإن كان ذلك؛ وأنت بالمدينة؛ لزمك الناس به؛ فلم تنل من الأمر إلّا ما لا خير فيه. وهذا الخبر موجود بجُلِّه؛ إن لم يكن بِكُلِّه؛ عند غير ابن أبي الحديد؛ ولكني آثرته؛ لأنه من الشيعة؛ ومن أهل الإنصاف؛ وأما بعضه؛ فقد جاء في الصحيح؛ وتكرر ما يشبهه في شرح النهج[1].

وقد ذهب بها بعيداً؛ من قال: إنَّ الإمام لم يرد أن يسأل رسول الله ﷺ عن الأمر؛ بمحضر العباس؛ إلّا خشية أن يرشحه لها؛ إذ لو كان ذلك؛ لسأله وحده؛ أو بمحضر غيره من أخِصَّائِه. وقد ذكر ابن قتيبة وغيره: أنَّ ابن عمر؛ لحق الحسين بن عليّ؛ على بعد ثلاث مراحل من المدينة؛ فناشده أن يرجع؛ لأن جبريل أتى النبيَّ ﷺ؛ فخيَّره بين الدنيا والآخرة؛ فاختار الآخرة؛ وقال له: إنَّكم بضعةٌ منه؛ والله لا تليها أنت؛ ولا أحد من أهل بيتك؛ وما صرفها عنكم؛ إلّا لما هو خير لكم؛ فارجع؛ فأبى؛ فاعتنقه وبكى؛ وقال: أستودعك الله من قتيل.

ومن وجوه المصالح؛ في انصرافها عن الإمام؛ ما ذكره العلامة الصوفي

(١) شرح نهج البلاغة للشريف الرضي.

ابن عربي: أنه لما سبقت الأقدار بولاية كل من الأربعة؛ كان ترتيبهم بحسب وفياتهم؛ ليقضي منها كُلٌّ وطرَاً؛ ولو تولاها عليٌّ من البدء؛ لما أفضت إلى أحد منهم؛ مع ظهور الألطاف بولاية كُلٍّ. ويبقى للكلام ذيل؛ وهو أن بعضهم طعن على ابن الخطاب؛ في احتجاجه بحديث الأئمة من قريش؛ ثم قوله: لو كان سالم مولى حذيفة حيّاً؛ لما تخالجني فيه الشك؛ وأجاب عنه ابن قتيبة؛ بأنه لم يرد الخلافة؛ ولكن ارتاده للصلاة مدة الاختيار؛ ولما توفي أجمع على صُهيب؛ فقدَّمه للصلاة؛ حتى يتفق القوم على اختيار واحد منهم.

وأقول: إن فيه بعداً؛ لأنَّ ذكره في مثل حالة عمر يومئذ؛ لا يكون إلّا عن ترشيحه لأمر عظيم؛ لا لإمارة يكون ظلها أقصر من ظِمْءِ الحمار[1]؛ لا سيّما وقد أخرج أحمد؛ كما قاله الحافظ؛ أنه قال أيضاً: إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي استخلفته؛ وإن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل؛ ومعاذ أنصاري لا نسب له في قريش؛ لكن الجواب: إنه لم يبلغنا عن أبي بكر؛ ولا عن عمر؛ أنه رفع يوم السقيفة حديث: «**الأئمة من قريش**»؛ ولم يكن احتجاجهما يومئذٍ؛ إلّا بأنَّ قريش أهل النبي ﷺ؛ وعشيرته؛ وأنَّ العرب لا تطيع غير قريش؛ وصدقا فيما قالا؛ وهو من نوع الخطابيات؛ قالاه من تلقاء أنفسهما؛ كما ذكره ابن جرير وغيره من المؤرخين. ونقل الحافظ؛ عن موسى بن عقبة؛ عن ابن شهاب؛ أنَّ أبا بكر قال في خطبته: وكنا معشر المهاجرين أول الناس إسلاماً؛ ونحن عشيرته وأقاربه وذو رحمه؛ ولن تصلح العرب إلّا برجل من قريش؛ فالناس لقريش تبع؛ وأنتم إخواننا في كتاب الله؛ وشركاؤنا في دين الله؛ وأحبُّ الناس إلينا؛ وأنتم أحقُّ الناس بالرضاء بقضاء الله؛ والتسليم لفضيلة إخوانكم؛ وأن لا تحسدوهم على خير؛ إلى آخر خطبته. نعم؛ ذكر الحافظ أيضاً؛ أنَّ أحمد أخرج:

---

(١) يقَال في الأمثال: «أقصر من ظِمْءِ الحمَار» لأن الحمار لا يَصْبر عن الماء أكثَرَ من غب لا يربع، والفرس لا بدَّ له من أن يُسقَى كل يوم، فالغِبُّ بعد الظاهرة، والرِّبعُ بعد الغب، والخمس بعده. . .

أنه لما توفي النبي ﷺ؛ وأبو بكر في طائفة من المدينة؛ واستاق القصة؛ ثم قال: فتكلم أبو بكر؛ فقال: والله لقد علمت يا سعد؛ أنَّ رسول الله ﷺ؛ قال؛ وأنت قاعد: «**قريش ولاة هذا الأمر**» فقال له سعد: صدقت (انتهى).

وأقول: هيهات هيهات أن يصح هذا؛ وقد اتفق الرواة على أن سعداً ذهب مغاضباً؛ ولم يبايع إلى أن قُتِلَ غيلة؛ وذكر بعضهم عن الزهري: أنَّ قولهم: إن الأمر في قريش؛ ليس بحديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ؛ وإنما هو من كلام أبي بكر. وكيفما كان الأمر؛ فالذي نراه أنَّ الشيخين لم يذكراه يوم السقيفة بصفته حديثاً؛ وإلّا لما احتاجا إلى شيء مما جرى؛ وكاد أن يفضي إلى الحرب؛ لولا وقاية الله؛ باختلاف الأنصار وتنافسهم؛ وقد قال عمر: كانت فلتة؛ لكن الله وقى شرَّها[1].

وأما ما جاء من قول عمر: لو كان سالم؛ وَذِكرِهِ استخلاف معاذ؛ فإمَّا أن يكون قبل اطلاعه على الحديث؛ وإما أن يكون فهم منه: ترجيح القرشي عند التساوي والتعادل؛ فأما إذا رجَّح غيره؛ فلا؛ وقد رجَحَ عنده أولئك؛ والله أعلم. والأمور البعيدة؛ كما قيل؛ يتعذر الوقوف إلى عللها وأسبابها؛ ولا يعلم حقائقها إلّا من شاهد ولابس؛ بل لعل كثيراً من الحاضرين؛ لا يعلمون بواطن الأمور؛ وخفيَّات الضمائر؛ وإنما ذلك جيل تغلبه النصاعة؛ والصحابة مثل البشر؛ فلهم أغراضهم وميولهم ومنافستهم؛ والقرآن من فاتحته إلى خاتمته؛ حاثٌّ على التدَبُّر والتعقل والاستنباط؛ فلا يليق أن نتخطى الحقائق؛ ونتجاوز الصرائح؛ ونعهد إلى التأويلات الشبيهة بتأويلات الباطنية.

أما الحديث نفسه؛ فقد أخرجه البخاري؛ عن ابن عمر مرفوعاً: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان**» ومن رواية معاوية بن أبي سفيان؛ بلفظ: «**إنَّ هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلّا كبَّهُ الله في النار على وجهه ما أقامُوا**

---

(١) كانت فلتة أي فجأة لم يرجع فيها إلى عوام المسلمين، وإنما بادر إليها كبراء الصحابة لعلمهم بأحقية أبي بكر بالخلافة، وأنه لا عدل له ولا كفء من أصحاب رسول الله ﷺ.

الدين» قال الحافظ: وقد جمعت طرقه عن نحو أربعين صحابياً؛ لما بلغني: أنَّ بعض فضلاء العصر ذكر؛ أنه لم يرو إلّا عن أبي بكر الصديق (اهـ).

أقول: وذلك الفاضل معذور بما سبق ذكره عن الزهري؛ أنه من كلام أبي بكر لا من روايته؛ ولكنَّ مَنْ حَفِظَ؛ حُجَّةٌ على من لم يحفظ؛ وقد ذكر له الحافظ شواهد في موضع آخر؛ منها عند البيهقي: «قَدِّمُوا قُرَيشاً ولا تَقَدَّمُوها» وعند مسلم: «**النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيش**»؛ ثم الأحاديث كثيرة في بقاء الأمر بيدهم؛ إلّا أن الله توعدهم في بعضها؛ إن لم يستقيموا ولم يحسنوا الرعاية؛ باللعن؛ وفي بعضها بأن يسلط عليهم من يبالغ في أذيتهم؛ ويلحاهم كما تلحى الجريدة؛ وفي بعضها بالحث على قتالهم؛ والإيذان بخروج الأمر عن قبضتهم. قال الحافظ: وبه يقوى مفهوم قوله: «**ما أقاموا الدين**» فإذا لم يقيموه خرج عنهم؛ ويؤخذ من بقية الأحاديث؛ أن خروجه عنهم؛ إنما يقع بعد حصول ما هددوا به من اللعن؛ الموجب للخذلان وفساد التدبير؛ وتسليط من يؤذيهم عليهم (انتهى بمعناه).

ثم ذكر في موضع آخر؛ مصداق الحديث؛ ببقاء طائفة من بني الحسن بن علي في نجود اليمن؛ لم تزل معهم البلاد؛ من أواخر المائة الثالثة؛ يقال لكبيرهم الإمام؛ وشرطه أن يكون عالماً متحريّاً للعدل. (انتهى كلامه بمعناه).

والأمر على نحو ما ذكر؛ وأولهم الإمام الهادي إلى الحق؛ المولود بالمدينة سنة ٢٤٥هـ؛ يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب؛ رضوان الله عليهم أجمعين[١].

---

(١) أول من بويع بالإمامة الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ وقد ولد الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم في منطقة الرس القريبة من المدينة المنورة سنة ٢٤٥هـ ولما شب رحل إلى طبرستان لإقامة دولة زيدية بها فوجدها مشغولة بأبناء عمومته فعاد إلى المدينة واتصل به جماعة من خولان ودعوه إلى اليمن؛ فدخل اليمن أول مرة سنة ٢٨٠هـ؛ واستوثق السمع =

سَـبْـعَـةُ آبَـاءٍ هُـمُـو مَـنْ هُـمُـو أَفْـضَـلُ مَـنْ يَـشْـرَبُ صَـوْبَ الـغَـمَـام

وفي شرح النهج؛ ومن رجالنا: القاسم بن إبراهيم طباطبا؛ صاحب المصنفات والورع؛ والدعاء إلى الله؛ والتوحيد والعدل؛ ومنابذة الظالمين؛ ومن أولاده؛ أمراء اليمن (اهـ) فالخلافة خالدة فيهم؛ إلّا أنها تنقبض تارة وتنبسط

= والطاعة من أهل صعدة وحارب القرامطة وقضى أربع عشرة سنة إماماً حتى توفي بصعدة سنة ٢٩٨هـ؛ وخلفه بعد وفاته ولده المرتضى لكنه أقال نفسه بعد عام وانقطع للعبادة حتى توفي سنة ٣١٠ هـ؛ ثم تسلسل من الأئمة بعد الهادي ثلاثة عشر إماماً حتى جاء الإمام عبد الله بن حمزة المولود سنة ٥٦١هـ وقد صارت بينه وبين السلطان الأيوبي طغتكين سنة ٥٨٥هـ وقائع وحروب وتوفي سنة ٦١٤هـ. أما الإمام يحيى بن حمزة فترتيبه العشرين بين الأئمة الذين حكموا اليمن؛ وهو حسيني النسب خلافاً لسائر بقية الأئمة فهم من الحسنيين وتولى الإمامة سنة ٧٢٩هـ واستمر قائماً بها إلى وفاته سنة ٧٤٩هـ وكان أكثر أئمة اليمن حباً إلى النفوس ورفقاً بالمسلمين واجتناباً لسفك الدماء.

وجاء بعده الإمام أحمد بن يحيى المرتضى وتوفي سنة ٨٤٠هـ؛ ثم جاء بعده الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين بن أحمد بن يحيى المرتضى ودعا لنفسه بالإمامة سنة ٩١٢هـ إبان عنفوان الدولة الطاهرية في زمن السلطان عامر بن عبد الوهاب وقد دعى مماليك مصر لغزو اليمن والقضاء على الدولة الطاهرية فكان أن دخلوا اليمن ثم انتهت دولة المماليك في مصر على يد السلطان سليم العثماني في سنة ٩٢٥هـ؛ ثم قام العثمانيون بدخول عدن والقضاء على آخر معقل للدولة الطاهرية وبدأت بعدها السيطرة العثمانية على اليمن والتي استمرت حتى عهد المؤيد محمد بن القاسم بن محمد في القرن الحادي عشر الهجري وتوفي الإمام شرف الدين سنة ٩٦٥هـ. ثم جاء القاسم بن محمد وولده المؤيد الذي توفي إماماً ملقباً بالمنصور سنة ١٠٢٩هـ وهو أقوى شخصية يمنية واجهت الدولة العثمانية باليمن؛ واستمرت مناوشاته مع الولاة العثمانيين وتوطد أمره حتى لم يعد الأتراك العثمانيون يسيطرون إلّا على صنعاء؛ ويعتبر بحق مؤسس الدولة اليمنية الموحدة. وبعد وفاته في سنة ١٠٢٩هـ خلفه ابنه المؤيد المتوفى سنة ١٠٥٤هـ وقد أشاع العدل وأقام شعائر الإسلام وتمكن أخواه الحسن والحسين من مواصلة توطيد حكم هذه الدولة القاسمية في جميع أرجاء اليمن بما فيها عدن؛ وخرج الأتراك من اليمن ولم يعودوا إليها إلّا في سنة ١٢٥٦هـ؛ وبقوا باليمن حتى انهزامهم في الحرب العالمية الأولى في سنة ١٣٣٦هـ أيام الإمام يحيى حميد الدين.

أخرى؛ كما في أيام الإمام الحالي؛ المتوكل على الله رب العالمين؛ يحيى بن محمد حميد الدين؛ فقد اتسعت؛ حتى شملت اليمن وتهامة؛ بعد أن زاحف الأتراك طوال السنين؛ وهو ممدوحي؛ وقد وردت عليه سنة ١٣٤٩هـ؛ واستنجدت به من الظلم والجور؛ واستثير حفاظه لما بدا من طلائع الدسائس الأجنبية[1]؛ وكان ذلك على ضوء وعدٍ منه؛ وبعقب مكاتبات دارت بيننا؛ كان أولها سنة ١٣٢٩هـ؛ ورأيت من كرم أخلاقه؛ ولين جانبه؛ ورقة ديباجته؛ ووقار ركنه؛ وثقوب ذهنه؛ وأصالة رأيه؛ وتفوقه في السياسة؛ وجميل مساعيه؛ ما لا يدخل تحت العبارة؛ ولي أماديح فيه؛ ومساجلات معه؛ وأخبار تقع في جزء حافل؛ سبق طبع يسير منها. وكان قدومي عليه بطريق الحديدة؛ وعليها إذ ذاك؛ من لم تر عيني أسمح نفساً؛ ولا أندى كفاً منه؛ وهو سيف الإسلام محمد ابن أمير المؤمنين؛ وقد توفي شهيداً؛ مُنَغَّص الشباب؛ في سبيل إنقاذه غريقاً ببحر الحديدة سنة ١٣٥٠هـ. وفي أول مواجهة بالروض مع أمير المؤمنين؛ كان الأمر كما قال البحتري:

وَلَمَّا وَرَدْنَا سُدَّةَ الإِذْنِ أَخَّرَتْ ... رِجَالاً عَنِ البَابِ الذِي أَنَا دَاخِلُهْ
فَأَفْضَيْتُ عَنْ قُربٍ إلى ذِي جَلالَةٍ ... تُقَابِلُ بَدْرَ التِمِّ حِينَ تُقَابِلُهْ
فَسَلَّمْتُ وَاعْتَاقَتْ لِسَانِيَ هَيْبَةٌ ... تُنَازِعُنِي قَوْلَ الذِي أَنَا قَائِلُهْ
إِلَى أَنْ تَجَلَّتْ لِي الطَّلاقَةُ وَانْتَحَى ... عَلَيَّ بِبِشْرٍ آنَسَتْنِي مَخَايِلُهْ

هناك أنشدته قصيدة؛ ساقت حفاظه؛ فتأثر وجهه؛ وتحادر دمعه؛ ووجدت

(١) كان الإمام ابن عبيد الله يعلم دسائس الدولة الأجنبية التي كانت خافية على كثير من العرب وكان يناصر الدولة العلية ويعمل لإخراج الإنجليز من حضرموت وقد اتفق كما ذكر في كتبه التاريخية مع الأمير سيف الإسلام على توحيد القبائل الحضرمية وإمدادها بالسلاح لمجابهة الإنجليز ولكن الإمام يحيى بنظرته السياسية ومعرفته بما يجري في العالم؛ نصحه بترك هذا الأمر لما فيه من الخطورة وعدم الفائدة؛ نظراً لقوة الدول الأجنبية في تلك الفترة وتعاظم شأنها خصوصاً بعد انتصارها على الدولة العثمانية.

بمجلسه ولي عهده؛ بإثر انتصاره على الزرانيق[١]؛ الذين عجزت الحكومة العثمانية عن إخضاعهم؛ فركب إليهم الليل؛ وجَرَّ عليهم الخيل؛ حتى افتتح بلادهم في أقصر مدة؛ بشجاعة خارقة؛ ينبعث أشعتها من عينيه النجلاوين الحمراوين؛ وقد خرج يودِّعني ويبشِّرني بقبول كلامي لدى أبيه؛ ولما أكثرت من التعجب منصرفي؛ من سمات شجاعته وسؤدده؛ قالوا لي: لقد رآه بعض رجال حاشد طفلاً؛ وهو لا يعرفه؛ فقال: لِيَهْنَ أبا هذا الغلام؛ فكأنما عيناه عينا نمر؛ فذكرت قول بكير بن الأخنس؛ وقد بصر بالمهلَّب بن أبي صفرة[٢]؛ غلاماً:

خُذُونِي بِهِ إنْ لَمْ يَسُدْ سَرَوَاتِهِمْ وَيَبْرَعَ حَتَّى لا يَكُونَ لَهُ مِثْلُ

وقول الحزين الكناني في الإمام زيد بن علي:

فَلَمَّا تَرَدَّى بِالحَمَائِلِ وَانْثَنَى يَصُولُ بِأطْرَافِ القَنِيِّ الذَّوَابِلِ
تَبَيَّنَتْ الأعْدَاءُ أنَّ سِنَانَهُ يُطِيلُ حَنِينَ الأمَّهَاتِ الثَّوَاكِلِ
تَبَيَّنَ فِيهِ مَيْسَم العِزِّ وَالتُّقَى وَلِيداً يُفَدَّى بَيْنَ أيْدِي القَوَابِلِ

فما أصدقها من مخيَّلة؛ وما أشرفه من ترقٍّ في معارج الفضيلة؛ ولله در الرضي في قوله:

إنْ مَرَّ أمْسُكَ كَانَ يَومَكَ فَوقَهُ وَيَقِلُّ عِنْدَ غَدٍ لِمَا يُتَوَقَّعُ

---

(١) الزرانيق: من أشهر قبائل تهامة اليمن. تقيم ما بين الحديدة، وزبيد، وأهم المدن التي تقيم فيها بيت الفقيه. ويقال: إن عدد نفوسها يبلغ ٩٠٠٠٠. وتعد هذه القبيلة من أشد القبائل بأساً ومراساً، فلم تستطع الدولة العثمانية كل مدة إقامتها باليمن إخضاعها، ولما استولى الإمام يحيى على تهامة والحديدة، ترك هذه القبيلة وشأنها، حتى وقعت الواقعة بين الإمام وجيرانه البريطانيين، واختلفوا على حدود ولاية محمية عدن، فثار الزرانيق، وأخذت عصابات منهم تسلب وتنهب، فقاتلهم الإمام حتى استسلموا له.

(٢) المهلب بن أبي صفرة من شجعان العرب وحكمائهم وكرمائهم قاتل مع سعد بن أبي وقاص في القادسية وفتح الفتوح بالسند وخراسان وكان أهم أمراء الأمويين على خراسان اشتهر بالحلم والكرم وحارب الخوارج تسعة عشر عاماً حتى قضى على شوكتهم وتوفي سنة ٨٢هـ.

وإني لأعجب من الحافظ ابن حجر[١]؛ إذ تخلف عن زيارة إمام ذلك العصر؛ مع اعتقاده بصحة خلافته؛ وقد ورد اليمن سنة ٨٠٠هـ؛ وخدم الأشرف إسماعيل بن العباس؛ وامتدحه؛ وأخذ جائزته؛ وأثنى عليه؛ ولعلَّ له عذراً؛ ونحن نلوم؛ إذ لا يبعد أن يكون الأشرف منعه؛ أو على الأقل؛ رأى الوفادة على الإمام مخالفة لرغبته[٢].

---

(١) الحافظ ابن حجر العسقلاني ولد بالقاهرة سنة ٧٧٣هـ ونبغ مبكراً وحفظ القرآن الكريم وهو ابن تسع سنين وكان قوي الحفظ ولم يبلغ الخمسة والعشرين إلّا وقد حصل من العلوم الشيء الكثير حج وزار كثيراً من البلاد ومنها اليمن التي طاف بكثير من بلادها له مؤلفات شهيرة منها فتح الباري في شرح صحيح البخاري وتوفي سنة ٨٥٢هـ.

(٢) شهدت اليمن في زمن دولة بني رسول والتي امتدت من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٨٥٨هـ نهضة علمية وحضارية عظيمة وكان ملوك هذه الدولة يشجعون العلم ويحتضنون العلماء ويبنون المدارس ويطلبون حضور مشاهير العلماء إلى اليمن ويكافئونهم بالمكافآت الضخمة بل وكانت لملوك بنو رسول مؤلفات علمية وفقهية جليلة وقد وصل ابن حجر العسقلاني لليمن في عهد الملك الأشرف إسماعيل بن العباس بن علي، سابع ملوك الدولة الرسولية، الذي تولى الملك بعد أبيه سنة ٧٧٨هـ، كان ملكاً حازماً مشاركاً في علوم مختلفة، وكان يحب جمع الكتب يكرم العلماء ويجبهم، حسن السيرة والسياسة، صبوراً ذا بأس شديد، ليس له مثيل في عصره، وقد كافأ القاضي جمال الدين الريمي، قاضي قضاة اليمن بثمانية وأربعين ألف درهم على مصنفه «التفقيه في شرح التنبيه» المكون من أربعة وعشرين مجلداً، وأمر أن تحمل المجلدات في أطباق الذهب ملفوفة بالحرير والديباج وسار بين يديه العلماء والقضاة والأمراء من بيت القاضي جمال الدين إلى دار السلطان ومن العلماء غير اليمنيين العالم المحدث النحوي اللغوي الفقيه مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الذي قدم إلى اليمن بطلب من الملك الأشرف، وحال وصوله أكرمه، وأنزله منزلة تليق بحاله وولاه القضاء الأكبر «قاضي القضاة» في أقطار المملكة اليمنية، وقد ألف الفيروزآبادي للملك الأشرف «القاموس المحيط»، وكافأه عليه، توفي الملك الأشرف إسماعيل بن العباس بمدينة تعز سنة ٨٠٣هـ هذا ولما ضعفت دولة آل رسول كون نوابهم من الطاهريين دولة قوية على أنقاض الدولة الرسولية وتمكنت الدولة الطاهرية من الاستمرار خمسة وستين عاماً وأشهر سلاطينها عامر بن عبد الوهاب الذي مد رقعتها على معظم اليمن من صنعاء إلى حضرموت بعد عدة حروب وعمل عدداً من الإصلاحات ثم انتهت بمقتله الدولة الطاهرية =

■ وهاهنا لطائف:

الأولى: حديث: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين**» كما مر عن معاوية؛ وكما أخرج الحاكم؛ وصححه على شرط الشيخين: «**الأمراءُ من قريشٍ ما عَمِلُوا فيكم بثلاث: ما رَحِمُوا إذا اسْتُرْحِمُوا وأقْسَطُوا إذا قَسَمُوا وَعَدَلُوا إذا حَكَمُوا**»، وقول الحافظ: بأنه لا يزال في أيدي أئمة اليمن، وشهادة الحسن بذلك؛ إلى يومنا هذا.

كل هذه الأمور الثلاثة؛ مقدمات صحيحة يتركب منها قياس صادق؛ يشهد لأئمة اليمن بإقامة الدين؛ وإلّا لتلاشى أمرهم؛ وسلط الله عليهم من يؤذيهم؛ وإنَّما لمزِيَّة عظمى؛ وبشارة كبرى؛ ونتيجة واضحة؛ لا ترقى إليها ظنّة؛ ولا يتعلق بها ريبة؛ وأنَّى وقد شهد بصدق مقدماتها؛ إمام الحديث؛ الحكم الذي ترضى حكومته عند الفرق؛ والشاهد العدل بين طوائف المسلمين. ولئن أخرج أحمد؛ أنه ﷺ؛ قال: «**كان هذا الأمرُ فِي حِمْيَرْ فَنَزَعَهُ الله منهم وصَيَّرَهُ في قريشٍ وسَيَعُودُ إليهِمْ**» فالظاهر أنه لا يكون إلّا قرب الساعة؛ بدليل ما في الصحيح من حديث أبي هريرة: «**لا تقوم الساعةُ حتى يخرجَ رَجُلٌ من قَحْطَانْ يَسُوقُ النَّاسَ بِعَصَاه**» فلا يغير شيئاً مما قلناه؛ والله أعلم بما في طيَّات الدهور؛ وتصاريف الأمور.

الثانية: لقد تكلمت من قديم؛ على ما أطال به الغزالي في معنى: أنه تعالى خلق آدم على صورته؛ السابق بعضه في الفائدة الخامسة عشرة؛ بقطع النظر عن كونه حديثاً مرفوعاً صحيحاً؛ كما هو الأصح؛ واستخرجت العبرة من الحاضرين؛ **بما حاصله**: أنه جلّ شأنه تفرد بعدم الأشباه؛ فليس كمثّله شيء وهو السميع البصير؛ ولكن؛ لمَّا كان الإنسان صفوته المتخيَّرة من بين المخلوقات؛ جمع فيه

= على يد قوات المماليك بالبحر الأحمر والتي كانت تطارد البرتغاليين وبمساعدة الإمام الزيدي وكان ذلك سنة ٩٢٣هـ؛ أما الأئمة الزيديون فكانوا يحكمون صعدة ومناطق الجبال وكانوا يشتبكون في حروب مع الدول الحاكمة لليمن وتتسع أو تتناقص مساحة نفوذهم بحسب نتائج هذه الحروب.

الأضداد؛ وجعله واسطة بين الشبيه واللاشبيه؛ فأما وجه التشابه: فإن الناس ملء الفضاء؛ وكظة الأرض[١]؛ ورقعة الوجه واحدة؛ والآلات كلها متشابهة؛ والأعضاء متفقة؛ وكفى بهذا تشابهاً؛ فكل إنسان نظير الآخر في أعضائه وآلاته؛ لا اختلاف إلّا بالذكورة والأنوثة؛ وأما وجه عدم التشابه؛ فقلَّما يشتبه اثنان حتى يعدم الفارق عند الانضمام؛ مع صغر رقعة الوجه؛ واتحاد الآلات؛ ولئن ظهر الشبه بين اثنين في غيبة أحدهما عن الآخر؛ تبيَّن البون البعيد والفرق الكبير في حالة الاجتماع؛ ولهذا قال جل شأنه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[٢] فقرن عظم هذه الآية الباهرة بخلق السماوات والأرض؛ لأنهما على قريب من السواء في الحكمة والإبداع؛ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾[٣] وكما أن الله جعل الإنسان في الوسط؛ لأنه أشرف الدرجات؛ ذكره في ثمانٍ وخمسين آية من الذكر الحكيم.

كذلك وردت الأحاديث: بأن لا يزال الأمر في قريش؛ وبأن لا يزال أهل البيت مع القرآن في قرن حتى يردوا الحوض؛ إلى غير ذلك من الأدلة المتكاثرة؛ إن لم تكن بالمتواترة في هذا المعنى؛ وهل يمكن أن يبقوا على الحق من دون أن يضرهم مخالفهم إلّا بدولة؛ وكيف تكون لهم الدولة؛ وهي أبلغ ما يكون من الارتفاع والعلو في الدنيا؛ وإن كانت دينية؛ بعد ما صح من قوله ﷺ: «**حق على الله ما رفع شيئاً من أمر الدنيا إلّا وضعه**»[٤]؛ وهو يريد أن تكون لهم الكلمة العالية إلى النهاية؛ وقد لقي آل حرب وآل مروان وآل العباس رفعة في الدنيا؛

---

(١) أي ملأ الأرض.

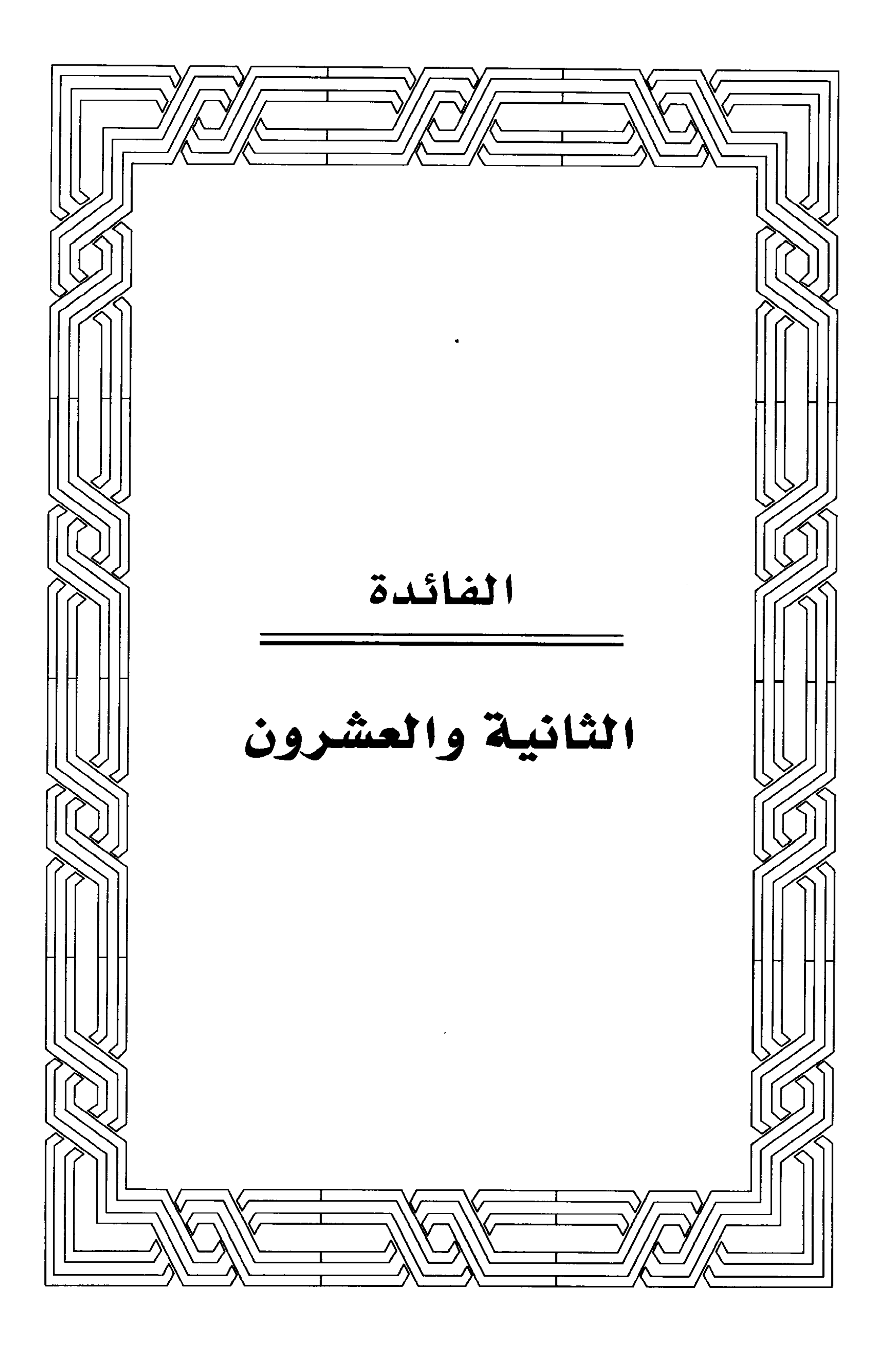
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٢.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

(٤) عن أنس قال: كانت ناقة لرسول الله ﷺ تسمى العضباء وكانت لا تسبق فجاء أعرابي على قعود له فسبقها فاشتد ذلك على المسلمين وقالوا: سبقت العضباء فقال رسول الله ﷺ: إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلّا وضعه.

ولكن انظروا: هل تحسون منهم من أحد أو تسمعون لهم ركزاً. فالخلافة اليمانية في الرتبة التي يحبها الله لعباده الصالحين؛ وهي الوسط؛ فلا دولة واسعة الأكناف؛ مترامية الأطراف؛ تقتضي العلو الذي لا بدَّ له من الانقراض. ولا إقرار بالضيم؛ وإغضاء على الذل؛ وخضوع للباطل. ولكن واسطة بين ذلك؛ لتصديق المواعيد النبوية؛ والأخبار المصطفوية؛ وبذلك تلتئم الأطراف؛ وتجتمع الأخبار؛ فلا إيراد ولا إيهام؛ ولكنها الحكمة الواضحة لأولي الأفهام؛ ولله في خلقه شؤون؛ وفي أقضيته أسرار؛ وفي أحكامه عجائب؛ فلقد صرف الله الخلافة العظمى عن أهل البيت؛ إبقاء عليهم من الانحطاط اللازم للارتفاع الدنيوي؛ إلى غير ذلك من الخواص؛ وإبقاؤها في طائفةٍ منهم؛ باعتبار لا يناقض الأول؛ تحقيقاً لما سبق به الوعد؛ من بقائهم على هذا الأمر ما أطاعوا الله؛ وما داموا قياماً على الحق؛ لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة. على أن مشارق الأرض ومغاربها؛ لم تخل قط من هاشميين؛ سوى أهل اليمن؛ قائمين بنصرة الحق؛ كما في المغرب والعراق وحضرموت؛ إلّا أن قيام أهل حضرموت بِنَصْرِه؛ ضَعُفَ أو تلاشى في الزمن الأخير؛ أي: من سنة ١٣٢٥هـ؛ أو ما قبلها بقليل؛ ولا أدري ما أحوال الآخرين؟ على أنه لم يقع لأحد ما وقع لأهل اليمن؛ من القيام بالخلافة؛ ومقارعة الباطل؛ مع اتساق حلقات الاتصال؛ ولهذا اقتصر عليهم الحافظ ابن حجر. والله أعلم بمراده؛ وأحكم بعباده؛ ونعوذ بالله من الرِّيَبْ؛ والتسَوُّرْ على الغيب؛ ونستغفره إنه هو الغفور الرحيم.





الفائدة

الثانية والعشرون

الفائدة الثانية والعشرون

اقترح مرّة من ينتسب إلى العلم ولا بصيرة له؛ أن يجتمع الناس حول المنبر يوم الجمعة؛ حتى إذا قامت الصلاة؛ أخذوا مصافّهم؛ فعارضت في ذلك؛ بحكم الاستصحاب المقلوب[1]؛ ولم يحضرني إذ ذاك دليل غيره؛ حتى مرَّ بنا اليوم حديث أبي سعيد الخدري؛ قال: «**كان رسول الله ﷺ يخرجُ يومَ الفِطْرِ والأضْحَى إلى المُصَلى؛ فأوَلُّ شَيْءٍ يَبْدَأُ به الصلاةُ؛ ثم يَنْصِرفُ فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ؛ وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلى صُفُوفِهِم؛ فَيَعِظُهُم وَيُوصِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ؛ فَإِنْ كان يريد بعثاً قَطَعَهُ؛ أو يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ؛ ثُم يَنْصَرِفُ**» إلى آخر الحديث. فقوله: «على صفوفهم»؛ صريح فيما تفقهته؛ إذا بقوا على صفوفهم من غير انتظار صلاة؛ فأحرى أن يأخذوا مصافهم في خطبة الجمعة لانتظارها؛ فالقياس أولوي[2]؛ ثم

---

(١) الاستصحاب المقلوب هو الاستدلال بثبوت الشيء الآن على أنه كان ثابتاً فيما مضى، أو بعبارة أخرى: استصحاب الثبوت الموجود في الحاضر على افتراض الثبوت في الماضي. ويسمى أيضاً (استصحاب العكس) أو (استصحاب الحال في الماضي) أو (تحكيم الحال) أو غير ذلك.

(٢) القياس هو المصدر الرابع من المصادر التشريعية المتفق عليها، بعد الكتاب، والسنة، والإجماع. وتعتبر مباحث القياس ذروة مباحث الأصول وأدقها، وينقسم القياس باعتبار تبادر الذهن إليه بلا تأمل، وعدم تبادره إليه إلّا بالتأمل إلى قسمين: قياس جلي (القياس الأولوي) وقياس خفي. أما القياس الجلي (الأولوي) فهو: ما قطع فيه بنفي تأثير الفارق بين الأصل والفرع ومثاله: قياس الأمة على العبد، فإن الفارق بينهما وهو: الذكورة والأنوثة مقطوع بنفي تأثيره، لأن الشارع لم يفرق في أحكام العتق بين الذكر والأنثى. وأما (القياس الخفي) فهو: ما لم يقطع فيه بنفي الفارق بين الأصل والفرع بأن يكون نفي =

رأيت ابن حجر الهيتمي يقول في تحفته: وأن يقبل عليهم بوجهه؛ لأنه اللائق بأدب الخطاب؛ ولما فيه من توجههم للقبلة؛ ولأنه أبلغ لقبول الوعظ وتأثيره؛ ومن ثَمَّ؛ كُرِه خلافه. نعم؛ يظهر في المسجد الحرام؛ أن لا كراهة في استقبالهم لنحو ظهره؛ آخذاً من العلة الثانية؛ ولأنهم محتاجون لذلك فيه غالباً؛ على أنه من ضروريات الاستدارة المندوبة لهم في الصلاة؛ إذ أَمْرُ الكُلِّ بالجلوس تلقاء وجهه؛ ثم بالاستدارة بعد فراغه؛ في غاية العسر والمشقَّة اهـ.

وهذا فوق الصريح في المقصود؛ وقد أخرج أحمد؛ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص؛ «**أنه نهى ﷺ عن التحلق قبل الصلاة يوم الجمعة**» قال المناوي[1]: لأنه ربما قطع الصفوف؛ مع كونهم مأمورين يوم الجمعة؛ بالتبكير والتراص في الصفوف الأُوَلْ. قال الترمذي: وهو حديث حسن؛ إلّا أنّ من رجاله عمرو بن شعيب؛ من دهاة قوم؛ واحتج به آخرون.

وقال ياقوت في معجم البلدان: كان منبر جامع البصرة في وسطه؛ فكان الإمام إذا خرج منه للصلاة يتخطى رقابهم إلى القبلة؛ فخرج عبد الله بن عامر بن كريز؛ وهو أمير على البصرة لعثمان؛ وعليه جبّة خز وكساء؛ فجعل الأعراب يقولون: جلد دبّ يلبسه الأمير؛ فلما استعمل معاوية زياداً على البصرة؛ قال: لا ينبغي للأمير أن يتخطَّى رقاب الناس؛ فحوَّل دار الإمارة إلى قبل المسجد؛ وحول منبره إلى صدره؛ فكان يخرج من باب داره؛ الذي في حائط القبلة إلى القبلة؛ ولا يتخطَّى أحداً اهـ.

ولا يعدم شاهداً لما نقرره؛ لأنَّ زياداً كره التخطي حتى للإمام؛ الذي لا

= الفارق مظنوناً. مثاله: قياس النبيذ على الخمر في الحرمة، لأنه لا يمتنع أن تكون خصوصية الخمر معتبرة، ولذلك اختلفوا في تحريم النبيذ.

(١) هو زين الدين الشيخ عبد الرؤوف محمد بن تاج العارفين المناوي القاهري الشافعي عالم فاضل ولد سنة ٩٥٢هـ أشهر مؤلفاته شرحه على الجامع الصغير والكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية توفي سنة ١٠٣١هـ.

يجد طريقاً بدونه؛ فنقل المنبر وفتح الباب، وعبارة التحفة[١]: ولا يتخطى رقاب الناس؛ للنهي الصحيح عنه؛ فيكره له ذلك كراهية شديدة؛ بل اختار في الروضة[٢] حرمته؛ وعليها كثيرون. نعم؛ للإمام التخطِّي للمنبر أو المحراب؛ إذا لم يجد طريقاً سواه (انتهى). ومتى جلس الناس على غير صفوفهم للصلاة؛ فلا بدّ وأن يقعوا عند انتقالهم إليها؛ في ما هوُ شرٌّ من التخطِّي.

ومن قول أبي سعيد في الحديث الأول: فإن كان يريد بعثاً إلى آخره. . . يُعْرَفْ ملاءمة خطبته؛ عليه السلام؛ لظروف الأحوال؛ وأنها ليست إلّا عبارة عن رسم خطط إصلاحية؛ يتأثرونها في دينهم ودنياهم. قال ابن القيِّم: وكان يخطب كلَّ وقت؛ بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم (انتهى).

وقد تَسَمَّتَهُ الراشدون من بعده؛ حتى لقد ذكر عمر مرّة؛ وهو يخطب؛ يتيمةً في حجره؛ فقال: من له في العفاف والصيانة والجمال؛ فقد ذكرت فلانة؛ فقال ابن عفان: أنا؛ فقال: زوجتكها؛ ثم رجع إلى حيث أراد من خطبته. وأخرج البخاري: أنَّ عمر بن الخطاب بينما هو قائم في الخطبة؛ يوم الجمعة؛ إذ جاء رجل من المهاجرين الأولين؛ من أصحاب النبي ﷺ؛ فناداه عمر: أيَّةُ ساعةٍ هذه؟ قال: إنِّي شغلت؛ فلم أنقلب إلى أهلي حتى سمعت التأذين؛ فلم أزد على أن توضأت؛ فقال: والوضوء أيضاً؛ وقد علمت أنَّ رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل. وأخرج أيضاً عن جابر بن عبد الله؛ قال: «**جاء رجل والنبي ﷺ يخطب الناس الجمعة؛ فقال: صليت يا فلان؟ فقال: لا؛ قال: قُمْ فَارْكَعْ**» وهذا الداخل؛ هو سليك الغطفاني كما صرَّح به مسلم. وأخرج النسائي؛ وأبو داود؛ وابن خزيمة وصححه؛ من حديث عبد الله بن بشير: أن رجلاً دخل يتخطى رقاب الناس والنبي ﷺ يخطب؛ فقال له: «**اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ**» وإنما قال له اجلس؛ ولم يقل له صَلِّ؛ لاحتمال أنه قد صلَّى التحية في مؤخر المسجد؛ ثم تقدَّم ليقرب من

(١) تحفة المحتاج بشرح المنهاج لابن حجر الهيتمي في الفقه الشافعي.

(٢) روضة الطالبين في الفقه الشافعي للإمام النووي.

سماع الخطبة؛ فوقع منه التخطِّي؛ فأنكر عليه؛ قاله الحافظ بمعناه؛ وكان الأليق بالرجل؛ أن يلزم مكان ما صلَّى التحية؛ وهو الذي نقرره. وقطع النبي ﷺ خطبته للحسن[١]؛ ثم عاد إلى منبره وأتَّمَهَا؛ وكانت خطبته على مقدار الحاجة؛ يطيلها تارة ويقصرها أخرى.

يَرْمُونَ بِالخُطَبِ الطِّوَالِ وَتَارَةً ... وَحْيَ المَلاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ

وأنشد أبو العباس المبرَّد في صفة خطيب:

طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ الكَلامْ ... فَلَمْ يَعْيَ يَوْماً وَلَمْ يَهْذُرِ

فَإِنْ هُوَ أَطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ ... قَضَى لِلْمُطِيلِ عَلَى المُقْصِرِ

وَإِنْ هُوَ أَوْجَزَ فِي خُطْبَةٍ ... قَضَى لِلْمُقِلِّ عَلَى المُكْثِرِ

فقولهم يقصر الخطبة؛ أغلبيّ[٢]؛ أو لأنَّ خطبته العارضة؛ أطول من خطبته الراتبة[٣]؛ وقد صرح الفقهاء بتأكيد البلاغة للخطبة؛ ومن البلاغة: موافقة مقتضى الحال؛ وهل يسترجع القلوب النافرة؛ ويسترد النفوس الجامحة؛ ويستميل الأبصار الطامحة؛ سوى البليغ من الكلام؛ الذي لا يزيد لفظه عن معناه. ولقد سئل بعضهم عن أوجز كلام؟ فقال: قول سليمان: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[٤]؛ فجمع العنوان؛ والحاجة

---

(١) من حديث بُرَيْدَةَ ﵁ قَالَ: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ﵄ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَعْثُرَانِ وَيَقُومَانِ فَنَزَلَ فَأَخَذَهُمَا فَصَعِدَ بِهِمَا الْمِنْبَرَ ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللَّهُ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ رَأَيْتُ هَذَيْنِ فَلَمْ أَصْبِرْ ثُمَّ أَخَذَ فِي الْخُطْبَةِ..».

(٢) أي على الأغلب.

(٣) كان من عادة النبي ﷺ أنه كان يخطب أصحابه الخطب الراتبة والخطب العارضة، أما الخطب الراتبة فمثل خطبة الجمعة وخطبة العيد وخطبة الاستسقاء وخطبة الكسوف، أما الخطب العارضة فإنها تكون إذا وجد سبب عارض فيقوم النبي عليه الصلاة والسلام خطيباً يخطب الناس.

(٤) سورة النمل، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١.

والهداية وإظهار الدين؛ في ثلاث من الجمل. وأحرَّ بالبليغ أن تتفتَّح له القلوب؛ وتهتز النفوس؛ ويذل الجامح؛ ويرجع الطامح؛ ويسهل الوعر؛ ويلين الصخر؛ ولله در المتنبي في قوله:

إذَا مَـا صَـافَـحَ الأسْـمَـاعَ يَـوْمـاً تَـبَـسَّـمَـت الـضَّـمَـائِـرُ وَالـقُـلـوبُ

وقد قيل في الكلام البليغ: إنه ليحط الجندل؛ ويثقب الخردل؛ قال أبو تمام:

مِـنَ الـسِّـحْـرِ الـحَـلالِ لِـمُـجْـتَـنِـيـهِ وَلَـمْ أرَ قَـبْـلَـهُ سِـحْـراً حَـلالا

وما أخذه إلّا من قوله ﷺ: «**إنَّ مِنَ البَيَانِ لِسِحْراً**».

وانظر بُعْدَ قومنا عن الحقيقة؛ وتعويلهم في الخطابة؛ على ما وُضِعَ لزمانٍ قبلهم؛ بألف سنةٍ مما يعدُّون؛ فكأنها عادة لا عبادة؛ وكأنَّ المقصود سماع الألفاظ؛ من دون تأثر ولا عمل بها. وما ذاك إلّا لأنها عَمِيَتْ عن السُّنَّةِ بصائرهم؛ وانتقضت عن نصرتها سرائرهم؛ وامتلأت بالتقيّة والحرص على الأغراض الدينيّة ضمائرهم.

ومن أقبح عاداتهم؛ الاستهانة بالخطيب؛ فطالما رأيته في مجالسهم وولائمهم؛ بمطرح النعال؛ ومسقط الهوان؛ وما ترى في أُمَّةٍ؛ أهونُ رجالها عليها؛ الخطيب؛ الذي تحتشد في أفضل أيامها؛ لِوَعْيِ كلامه؛ والجلوس تحت منبره؛ والائتمام به في أفضل عباداتها. ولكنَّ الدِّين؛ هان قدره؛ واطَّرَحَهُ أهله؛ ولم تبق إلّا رسومه؛ المعرضَّة أيضاً لأن يكتسحها التمدُّن الممقوت؛ بسيله الجارف؛ وريحه العاصف؛ وقد سبق في الفائدة السادسة كثير مما يتعلق بالخطابة.

نعم؛ لا بأس بالجلوس حول الخطيب؛ إذا لم تكن صلاة؛ ولا حاجة لتغيير هيئات المجالس؛ فقد أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري: أنَّ النبي ﷺ؛ جلس ذات يوم على المنبر؛ وجلسنا حوله؛ فقال: «**إن مما أخاف عليكم بعدي؛ ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها** . . .» إلى آخر الحديث.

فقال الحافظ[١]: وفيه جلوس الإمام على المنبر عند الموعظة في غير خطبة الجمعة؛ ونحوها؛ وفيه جلوس الناس حوله اهـ.

وقد استدَلَّ به؛ من لا يقول بوجوب القيام في الخطبة؛ قال الحافظ: وأجابوا عنه: بأن كان في غير خطبة الجمعة. وزعم بعض المترسمين بالعلم من أهل العصر؛ أن السنّة في الخطبة القيام مطلقاً؛ حتى في خطبة النكاح. فثقل عليَّ الأمر؛ لأنَّ الناس؛ ما علمنا؛ على خلافه؛ ولم يحضرني إذ ذاك نصٌّ؛ وفوق كل ذي علم عليم. ومن حفظ؛ حُجَّة على من لم يحفظ[٢]؛ ولكنه هو الآخر لم يُدْلِ بحُجَّة؛ سوى عموم القيام للخطابة؛ فهو محجوب بأمثال هذا الحديث. ثم رأيت الجاحظ في أوائل كتابه البيان والتبيين يقول: سئل ابن المُقَفَّع عن قول عمر بن الخطاب: ما تصعدني كلام؛ كما تصعدني خطبة النكاح؛ فقال: ما أعرفه إلّا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه؛ ونظر الحداق من قرب في أجواف الحداق؛ ولأنه إذا كان جالساً معهم؛ كانوا كأنهم نظراء وأكفاء؛ وإذا علا المنبر؛ صاروا سَوَقَة ورعيَّة. وقد ذهب ذاهبون؛ إلى أن تأويل قول عمر يرجع إلى أنَّ الخطيب لا يجد بُداً من تزكية الخاطب؛ فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه. ولكنه ردَّ هذا؛ مع أنه الصواب؛ ولو كان ابن المقفع أو الجاحظ خطيباً؛ لَعَلِمَ كما أعلم علم اليقين من نفسي؛ أنَّ الخطابة قاعداً؛ أيسر عليَّ بكثير من تسنُّم ذرى المنابر؛ وكُلاًّ أفعل؛ وكثيراً ما أتسنَّم ذروة المنبر؛ ولكني أخطب من قعود؛ فتدر شآبيب الكلام أكثر مما لو قمت. فالقول الأول ليس بشيء؛ لأنه مُعَارَضْ بالمحسوس الملموس. قال الجاحظ: وروى أبو مخنف عن الحارث الأعور قال: والله لقد رأيت عليّاً؛ وإنه ليخطب قاعداً كقائم؛ ومحارباً كمسالم؛ يريد بقوله: قاعداً؛ خطبة النكاح. وقال الهيثم بن عديّ: لم تكن الخطباء تخطب قعوداً إلّا في خطبة

---

(١) هو الإمام الحافظ عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن زين الدين المعروف بالحافظ العراقي؛ من كبار حفاظ الحديث؛ ولد سنة ٧٢٥هـ من كتبه: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار وألفية في مصطلح الحديث توفي سنة ٨٠٦هـ.

(٢) وهذا القول من القواعد الشرعية.

النكاح (انتهى). وفيه من الرد على ذلك المُتَعَمِّقْ ما يكفي؛ ووددت أنْ لو كان حيّاً فأشرقته به؛ لأنني قد استنكرته من يومئذٍ؛ ولكن كان الرجل عنوداً؛ فلم يقتنع بعمل الناس؛ وإنما حصل به الاستصحاب المقلوب. وإذا لم يقتنع بما سبق من قول البخاري؛ عن أبي سعيد الخدري: «**جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله...**» وذهب يتأول به؛ فبعيد أن يقتنع بما ذكرنا عن الجاحظ وسيقول: عنزة وإن طارت[١].

ونقل الحافظ: أنَّ أول من استراح في الخطبة يوم الجمعة؛ عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ وكان إذا أَعْيَا[٢]؛ جلس ولم يتكلم، وأول من خطب جالساً معاوية؛ حين كثر شحم بطنه؛ ولا حُجَّة فيه لمن أجاز القعود في الخطبة لما هنالك من العذر. (انتهى بمعناه). وقوله عن عثمان إذا أعيا جلس؛ ظاهر السياق: التعب من القيام؛ لا العيِّ عن الكلام[٣]؛ على أن هذا قد حصل أيضاً لعثمان؛ فارتُجَّ عليه وهو يخطب؛ فقال: إنكم إلى أميرٍ فَعَّال؛ أحوج منكم إلى أميرٍ قَوَّال؛ ثم جلس؛ ودخل الناس عليه بعقب ذلك يعزونه. وارتُجَّ على ثابت بن قطنة[٤]؛ فدخل الناس عليه فقال:

فَإِنْ لَمْ أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيباً فَإِنّنِي ... بِسَيفِي إِذَا جَدَّ الوَغَى لَخَطِيبُ

فقال أحدهم: لو قلتها وأنت على المنبر؛ لكنت أخطب العرب. وقيل: إنه

---

(١) يضرب هذا المثل للمعاندة والتمسك بالرأي الخطأ وقصته أن صاحبين رأيا سواداً على جبل فقال الأول: ذاك غراب وقال الثاني: بل ذاك عنز ثم طار هذا الشيء فقال الأول: أرأيت أنه غراب فقال الثاني: عنزة ولو طارت.

(٢) أعيا: أي تعب تعباً شديداً.

(٣) عيَّ في كلامه: عجز عنه فلم يستطع بيان مراده منه.

(٤) من شجعان العرب وأشرافهم يكنى أبا العلاء، وقطنة لقبه لقب به لأن سهماً أصابه في إحدى عينيه أثناء اشتراكه في حروب الترك، فكان يضع على العين المصابة قطنة فعرف بها. له شعر جيد وشهد الوقائع في خراسان (سنة ١٠٢هـ) حيث أصيب فيها بعينه واستمرت معاركه معهم إلى أن قتلوه في حدود عام ١١٠هـ..

قالها على المنبر؛ فأحسن اعتذاراً وأحرز افتخاراً؛ لكن الأول هو الثابت؛ وله يقول حاجب الفيل:

أَبَا العَلاء لَقَدْ لاقَيْتَ مُعْضِلَةً يَومَ العُرَوبَةِ مِنْ كَرْبٍ وَتَخْنِيقِ

تَلْوِي اللسانَ إذَا رُمْتَ الكلامَ بِهِ كَمَا هَوَى زَلَقٌ مِنْ جَانِبَ النِّيقِ

لَمَّا رَمَتْكَ عُيُونُ النَّاسِ ضَاحِيَةً أنْشَأتَ تَحْرِضُ لَمَا قُمتَ بِالرِّيقِ

وقال كعب الأسدي:

فَإِنْ لا أَكُنْ فِي الأَرْضِ أَخْطبُ قائماً فإنِّي عَلى ظَهْرِ الكُميتِ خَطَيبُ

وهو مثل ما أنشده ثابت؛ ولم تكن كلمة عثمان حين ارتُجَّ عليه؛ بدونهما؛ فله بها شرف.

وارتُجَّ على أبي العباس السفاح لما صعد المنبر؛ فنزل؛ ثم صعد وقال: أيها الناس؛ إن اللسان بضعة من الإنسان؛ يَكِلُّ بكلاله إذا كلَّ؛ ويرتجل لارتجاله إذا ارتجل؛ ونحن أمراء الكلام؛ بنا تفرعت فروعه؛ وعلينا تهدلت غصونه؛ ألا وإنَّا لا نتكلم هذراً؛ وإنما نقول مرشدين؛ ونسكت معتبرين. والروايات مختلفة في هذه القصة؛ وأصحَّها أنه لم يقدر على شيء من الكلام؛ وإنما اعتذر له عمه داود؛ لأنه أخطب بني أبيه؛ وقد نيَّفوا على العشرين بهذا أو بما يشبهه.

وارتُجَّ على خالد بن عبد الله القسري(١)؛ فقال: أطعموني ماءً؛ فعيَّره الشعراء بذلك وأكثروا؛ فمنهم ابن نوفل في قوله:

أَخَالِدُ لا جَزَاكَ الله خَيْراً وَلا حَيَّاكَ رِبِّي مِنْ أَمَيرِ

تَرُومُ الفَخْرَ فِي أعْرَابِ قَسْرٍ كَأنَّكَ مِنْ سُرَاةِ بَنِي جَرِيرِ

---

(١) من أمراء بني أمية ولاه الوليد بن عبد الملك مكة ثم ولاه هشام بن عبد الملك العراقين وكان شجاعاً كريماً على بغي فيه وقد قبض على التابعي الجليل سعيد بن جبير بمكة وأرسله للحجاج بالعراق فقتله وذبح الملحد الجعد بن درهم يوم عيد الأضحى واعتبره أضحية وتوفي سنة ١٢٦هـ.

صَـرَخْـتَ مِـنَ الـمَـخَـافَـةِ أطْـعِـمُـونِـي   شَـرَابـاً ثُـمَ بُـلْـتَ عَـلَـى الـسَّـرِيـرِ

وقال آخر:

بَـلَّ الـمـنـابـرَ مـن خـوفٍ وَمِـنْ دَهَـشٍ   وَاسْـتَـطْـعَـمَ الـمَـاءَ لـمَّـا جَـدَّ فِـي الـهَـرَبِ

وأجاب عنه بعضهم بقوله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ..﴾[١] الآية. وشتَّان ما بين الحالين؛ لأن يطعمه في الآية؛ إنما جاءت في مقابلة شرب؛ وإنما يُعْتَذَرُ له بها لو كانت: فمن طعمه فليس مني.

وحَصُرَ عبد الله بن عامر[٢] على منبر البصرة فنزل؛ وأمر وازع بن مسعود أن يقوم؛ فلم يدر ما يقول؛ فقال: والله ما أدري ما أقول لكم؛ ولكني أشهدكم أن امرأتي طالق؛ لأن الله قد رخَّص لي بعذر في القعود عن الجمعة؛ فأكرهتني على الحضور.

وصعد عتاب بن ورقاء[٣] منبر أصفهان يوم النحر؛ فَحُصِر فقال: لا أجمع عليكم بخلاً وَعِيّاً؛ ادخلوا سوق الغنم؛ فمن أخذ منكم شاة؛ فهي له وعليَّ ثمنها.

وصعد أعرابي المنبر ليخطب؛ فلما رمقته الأبصار قال: رحم الله امرءاً قَصَّرَ من لفظه؛ ورشق الأرض بلحظه؛ ووعى القول بحفظه. وكم للعرب من قول فصل؛ وكلام جزل؛ من غير استعانة ولا تعمُّل ولا استكراه ولا تصنُّع؛ إنما هي نفثات الصدور؛ وخلجات القلوب؛ وثمرات العقول؛ وبدائع البدائه؛ ينتكب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٢) عبد الله بن عامر بن كريز صحابي جليل فتح جميع إقليم خراسان وكان والياً لعثمان ثم عزله معاوية وهو شريف في قومه ومن أجواد العرب المشهورين وكان باراً بقومه وصولاً لرحمه.

(٣) عتاب بن ورقاء التميمي ولي أصبهان وكان كريماً يتذوق الشعر ويجزل العطاء للشعراء.

أحدهم سُبَّةَ قوسه؛ أو يتوكأ على عصاه؛ فتتيسر له الألفاظ؛ وتنثال عليه المعاني[١].

قالت الخنساء في أخيها:

كَأنَّ كَلامَ النَّاسَ جُمِّعَ حَوْلَهُ ... فَأُطْلِقَ فِي إحْسَانِهِ يَتَخَيَّرُ

وقال قيس بن عاصم:

خُطَبَاءُ حِينَ يَقُولُ قَائِلُهُمْ ... بِيضُ الوُجُوهِ مَصَاقِعٌ لُسُنُ

ومن محاسن الإيجاز في الكلام؛ ما ذكر أنَّ عثمان عاتب عليّاً وهو مطرق؛ فقال له: ما لك لا تتكلم؟ فقال: ما لك عندي إلّا ما تحب؛ وإن تكلمت لم تسمع مني إلّا ما تكره. وأطراه بعض مبغضيه؛ فقال له: أنا دون ما تقول؛ وفوق ما في نفسك. وقال المنصور العباسي لمعن بن زائدة الشيباني: أيَّما أحب إليك؛ دولتنا أم دولة بني مروان؟ قال له: هذا إليك؛ فكانت من محاسن الإيجاز. وخطب أعرابي إلى قوم؛ فقال: الحمد لله وليّ الإنعام؛ وصلى الله على محمد خير الأنام؛ وعلى آله وسلم؛ أما بعد: فإنِّي إليكم خاطب؛ وفي سبب الألفة بكم راغب؛ ولكم عليَّ في فتاتكم؛ ما يجب للصاحب على الصاحب؛ فأجيبوني بجواب من يرى نفسه لرغبتي محلاً؛ ولِمَا دعاني الطلب إليه أهلاً؛ فأجابه آخر وقال: توسلت بحرمة؛ وذكرت حقاً؛ وأمَّلت مرجُوّاً؛ فحبلك موصول؛ ورأيك مقبول؛ وقد أنكحنا وسلَّمنا؛ والحمد لله على ذلك. وخطب المأمون في إملاك؛ وقال: الحمد لله؛ والمصطفى رسول الله؛ وخير ما عمل به كتاب الله؛ وقد قال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]؛ ولو لم يكن في النكاح آية منزلة؛ وسنَّة متبَّعة؛ إلّا لما فيه

(١) وقد اشتهر الإمام ابن عبيد الله بخطبه البليغة التي تحوي درر الكلام يقولها على البديهة في المناسبات المختلفة وقد جمعت بعضها وربما طبعت في كتاب وربما تمكنا من إدراج أحدها في نهاية هذا الكتاب.

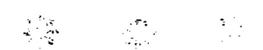
(٢) سورة النور، الآية: ٣٢.

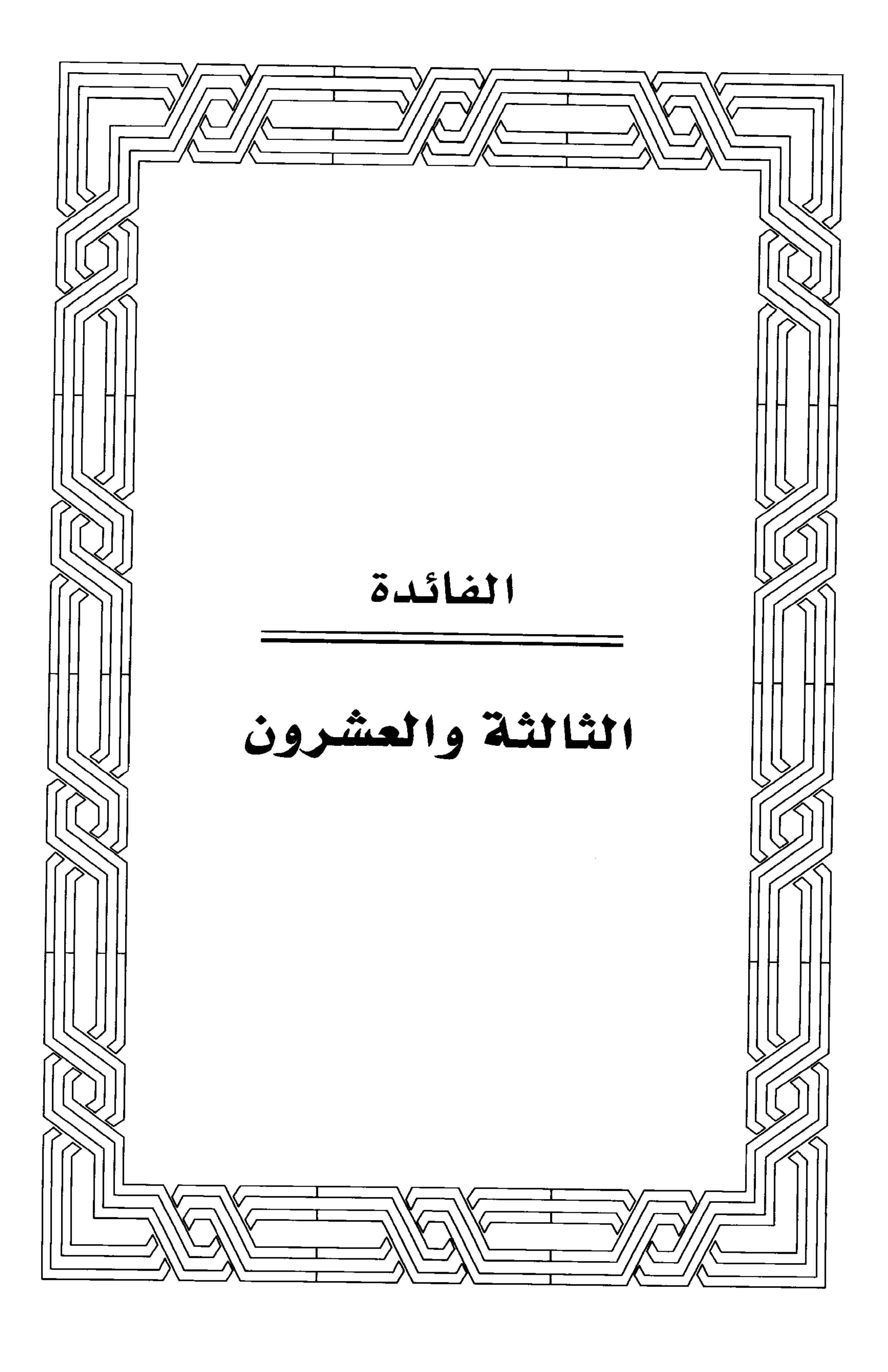
من تأليف البعيد؛ وإيواء الغريب؛ لسارع إليه العاقل اللبيب؛ وفلان من قد عرفتموه؛ في نسب لم تجهلوه؛ يخطب إليكم فتاتكم فلانة؛ ويبذل لها من الصداق كذا؛ فشفِّعوا الشافع؛ وانكحوا الخاطب؛ وقولوا خيراً تحمدوا وتؤجروا؛ وأستغفر الله لي ولكم. وقال العتبي: حدثني رجل؛ قال: حضرت ابن الفقير يخطب على نفسه امرأة من باهلة؛ فقال:

وَمَا حَسَنٌ أَنْ يَمْدَحَ المَرْءُ نَفْسَهُ وَلَكِنَّ أَخْلاقاً تُذَمُّ وَتُمْدَحُ

وخطبة أبي طالب؛ في إملاك النبي ﷺ بخديجة؛ مشهورة؛ وإنما توسعنا في ذيول هذه الفائدة باستطراد؛ مع ضعف المناسبة؛ لإيجازها؛ فاحتاجت إلى التزيُّد؛ والفائدة هي الضالة؛ والله أعلم.







الفائدة

الثالثة والعشرون

الفائدة الثالثة والعشرون

في حديث أبي هريرة قال: «أُرسِلَ ملكُ الموتِ إلى موسى عليه السلام، فلما جاءهُ صَكَّهُ، فرجعَ إلى ربهِ، فقال: أرسَلْتني إلى عبدٍ لا يُريدُ الموتَ، فردَّ اللَّهُ عليه عيْنَهُ، وقال: ارجع، فقُلْ له يضعُ يدَهُ علَى متْنِ ثورٍ، فلهُ بكلِّ ما غطَّت بهِ يدُهُ بكلِّ شعرةٍ سنةٌ. قال: أيْ ربِّ، ثم ماذا؟ قال: ثم الموتُ. قال: فالآن، فسأل الله أن يُدْنِيَهُ مِن الأرضِ المُقَدَّسةِ رميةً بحجرٍ» انتهى.

■ وفيه إشكالات:

الأول: قال الحافظ قال ابن خزيمة[1]: أنكر هذا بعض المبتدعة؛ وقالوا: إن كان موسى عرفه؛ فقد استخفَّ به؛ وإن لم يعرفه؛ فكيف لم يُقَدِمَنَّ نفسه. والجواب: إنَّ الله تعالى لم يبعث ملك الموت لموسى وهو يريد قبض روحه حينئذٍ؛ وإنما بعثه إليه تخييراً؛ فلطمه لأنه رأى آدمياً داخل داره؛ بغير إذنه؛ ولم يعلم أنه ملك الموت؛ وقد أباح الشارع فَقْءَ عين الناظر في دار المسلم بغير إذن؛ وعلى تقدير أن يكون عرفه؛ فمن أين لهذا المبتدع مشروعية القصاص بين الملائكة والبشر؟ ثم من أين له أن ملك الموت طلب القصاص فامتنع؟ وزاد

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة النيسابوري الشافعي (٢٢٣ ـ ٣١١هـ)، الحافظ الحجة الفقيه، الملقب بشيخ الإسلام، وإمام الأئمة. وصاحب كتاب صحيح ابن خزيمة. عرف بشفوف نظره في باب التعارض والترجيح في أصول الفقه حيث كان بارعاً في إيجاد أوجه الجمع بين النصوص الصحيحة المتعارضة في الظاهر فكان يقول: «من رأى نصين متعارضين فليأتني أوفق له بينهما».

الخطابي أنَّ موسى دفعه عن نفسه؛ لما رُكِّب فيه من الحدّة؛ وأن الله ردَّ لملك الموت عينه؛ ليعلم موسى أنه جاء من عند الله؛ فلهذا استسلم حينئذ. وقال النووي: لا يمتنع أن يأذن الله لموسى في هذه اللطمة امتحاناً للملطوم؛ وقال غيره: إنما لطمه لأنه جاء لقبض روحه؛ قبل أن يخَيِّره؛ لما ثبت أنه لم يقبض نبي حتى يُخَيَّر؛ فلهذا لما خيَّره في المرة الثانية أذعن؛ قيل: وهذا أولى الأقوال بالصواب؛ وفيه نظر؛ لأنه يعود أصل السؤال؛ فيقال: لِمَ أقدم ملك الموت على نبي الله وأخلّ بالشرط؟؛ فيعود الجواب: إنَّ ذلك وقع امتحاناً. (انتهى ما أردناه من كلام الحافظ بتلخيص).

ونقول: أما كونه لم يعرفه؛ فيُغَبِّر عليه قول المَلَكْ: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت؛ فنفيه إرادة موسى للموت؛ لا تكون إلّا بعد معرفته له؛ وكراهة ما معه. هذا من جهة، ومن أخرى؛ ما أخرجه الحاكم عن أبي هريرة: أن ملك الموت كان يأتي الناس عياناً؛ فأتى موسى بن عمران فلطمه موسى؛ ففقأ عينه؛ الحديث.

وأما قول النووي: لا يمتنع أن يأذن الله لموسى إلى آخره..؛ فيبعده كل البعد؛ أنَّ الكلام مسوق للإخبار عن موسى وحاله؛ لا عن المَلَكْ؛ وأما تنظير الحافظ في الجواب؛ المقول فيه: أنه أولى الأقوال بالصواب؛ فمما لا مجال له؛ لأنَّ السياق كالصريح في الدلالة على الامتحان؛ ولو كانت قصة عادية؛ لما استحقت الذكر والتكرار؛ ولكن لما اشتملت عليه من الأعاجيب الظاهرة في الامتحان وغيره؛ كانت بتلك المثابة.

وأحسن ما يكون في الجواب؛ بعد انتحال الكلام: أن ملك الموت جاء إلى موسى عليه السلام؛ فأساء الأدب لدخوله من غير استئذان أو نحوه؛ فعاجله موسى لحِدَّته بتلك اللطمة التي فقأت عينه؛ وسواء عرفه أم لم يعرفه؛ فمجيئه في الصورة الآدمية؛ يقتضي عليه تطبيق أحكامها. ثم إن كان ملكاً فلن تضرُّه؛ وإن كان بشراً فلم يستوف إلّا عقوبته؛ وقد قالوا: لا مؤاخذة في قتل الجنيّ؛ إذا تمثل في صورة

من يستحقه؛ بدليل ما حكاه ابن حجر الهيتمي؛ عن الحافظ ابن حجر؛ عن النعمان الأنصاري الهوسي المتوفى سنة ٨٠١هـ؛ أنه خرج عليه ثعبان مهرول فقتله؛ فاحتمل فوراً من مكانه؛ فأقام عند الجن؛ إلى أن رفعوه لقاضيهم؛ فادَّعى عليه وليُّ المقتول فأنكر؛ فقال القاضي: على أيِّ صورة كان المقتول؟ فقيل: على صورة ثعبان! فالتفت القاضي إلى من بجانبه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من تزيَّا لكم فاقتلوه**»؛ فأمر القاضي بإطلاقه؛ فرجعوا به إلى منزله. ونظير ذلك ما أخرجه ابن عساكر في تاريخه: أنَّ رجلاً دخل بعض الخراب ليبول فيه؛ فإذا حيّة فقتلها؛ فما هو إلّا أن نُزِلَ به تحت الأرض؛ فاحتوشه جماعة؛ فقالوا: هذا قتل فلاناً؛ فقالوا: نقتله؛ فقال بعضهم: امضوا به إلى الشيخ؛ فمضوا به إليه؛ فإذا هو شيخٌ حسن الوجه كبير اللحية أبيضها؛ فقال: ما قصتكم؟ فأخبروه؛ فقال: في أيِّ صورة ظهر المقتول؟ فقالوا: في صورة حيّة؛ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا ليلة الجن: «**من تصوَّر منكم في غير صورته فقتل؛ فلا شيء على قاتله**» خَلُّوه؛ فخلوني. قال ابن حجر الهيتمي: واعلم أن الاستدلال بهذين؛ ينبني على جواز الرواية عن الجن؛ وقد روى عنهم الطبراني؛ وابن عدي؛ وغيرهما؛ لكن توقف في ذلك؛ بعض الحفَّاظ؛ والتوقف متجِّه (اهـ)[1].

ونقول: إنه لا حاجة للاستدلال بهذين الحديثين على قتل الجنيّ في صورة الحيّة؛ لأن الأصل عدم التشكل؛ ولأن الأحكام إنما تقع على الصورة

---

(١) انظر لفظ المرجان في أحكام الجان للسيوطي ص١١٥. وممن ذكر الحديث ـ دون القصة ـ الإمام السخاوي في كتابه (المقاصد الحسنة) ص٤٠٧، حديث رقم ١٠٩٩، وقال بعد سياق الحديث: (ليس له أصل يعتمد، ويُحكى فيه حكايات منقطعة أنّ بعض الجان حدث به إما عن علي مرفوعاً، وإما عن النبي بلا واسطة، مما لم يثبت فيه شيء) انتهى. وقد ذُكر الحديث في: كشف الخفاء ٢ ص٢٣٩ حديث رقم ٢٤٣٣، وفي تمييز الخبيث من الطيّب ص١٨١ حديث رقم ١٣٦٧، وفي الفوائد الموضوعة ص١٠٨ حديث رقم ١٩٢، وفي الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ص٣٢٥ حديث رقم ٤٧٦ (عن مدونة الشيخ عبد العزيز بن محمد السدحان).

المشاهدة؛ **فإن قلت**: قد يشوش ما تحاولون؛ ما ورد من الأمر بإنذار حيَّات البيوت[(١)]؟ **قلنا**: الجواب من وجوه؛ **أحدها**: أن الإنذار مخصوص بحيات البيوت فقط؛ **ثانيها**: الأصح نسخه؛ **ثالثها**: أنه للندب؛ فلا تشويش.

وقد جاء في الصحيح مرفوعاً: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير**» وزاد الطبراني: القرد؛ قال الحافظ: وإسناده لا بأس به. وهو صالح للاستيناس به لما نحن فيه؛ لاحتمال كونه من نسل الممسوخين؛ وأظهر منه؛ ما ثبت فيه أنَّ الفارة من الفواسق التي تقتل في الحرم[(٢)]؛ مع احتمال ذلك؛ ففي الصحيح عنه ﷺ: « **فُقِدَتْ أمّةٌ من بني إسرائيل لا يُدْرَى ما فعلت؛ وإني لا أراها إلّا الفار**» الحديث. غير أن الحافظ يقول: صحَّ الحديث: بأن الله لم يجعل للممسوخ نسلاً ولا عقباً؛ ولعله ﷺ كان يظن ذلك قبل (انتهى).

وقد سئلت عن رجل من أهل بلادنا؛ يتصور بصورة الذئب؛ ويعدو على الغنم؛ فأفتيت بحِلِّ قتله ما دام على تلك الصورة؛ ولا سيّما في حال اعتدائه؛ وما كدت أصدق بذلك؛ حتى كادت تتواتر به الأخبار عن مشاهدة. وقد سبق في الفائدة الثانية كثير مما يتعلق بالتشكُّل.

وقال الحافظ: اختلف أهل الكلام في تشكل الجنيّ؛ فقيل: تخييل؛ وفيه

---

(١) لا تقتل حيات البيوت مباشرة، بل تنذر ثلاثة أيام ثم تقتل ولا بدّ من الإنذار؛ لنهي النبي «عن قتل حيات البيوت إلّا بعد الإنذار ثلاثاً» كما جاءت بذلك الأحاديث والآثار في سنن الترمذي وأبي داود ومسند الإمام أحمد، وجاء في صفة الإنذار أن يقال لها: «أنشدناكم بالعهد الذي أخذ عليكم نوح، وننشدكم بالعهد الذي أخذ عليكم سليمان ألا تؤذونا»، فإن عادت بعد الإنذار ثلاثة أيام حل قتلها. وإنما شرع إنذارها؛ لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن بالمدينة نفراً من الجن المسلمين فإذا رأيتم من هؤلاء العوامر شيئاً فآذنوه ثلاثاً، فإن ظهر لكم بعد فاقتلوه**».

(٢) عَنْ عَائِشَةَ ﵂: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: خَمْسٌ مِنْ الدَّوَابِّ كُلُّهُنَّ فَاسِقٌ، يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ: الْغُرَابُ، وَالْحِدَأَةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ.

أثر أخرجه ابن أبي شيبة عن عمر؛ وقيل: حقيقة؛ لكن لا باقتدارهم على ذلك؛ بل بضرب من الفعل؛ إذا فعله انتقل؛ كالسحر؛ وهو يرجع إلى الأول (انتهى النقل بمعناه). وبمثله نقول عن ذلك الإنسان؛ إذ لم نقدر على المكابرة والإنكار؛ وكأن الحافظ لم يمتنع عن القول بحقيقته؛ إلّا لما تهيَّب من الأثر الوارد عن عمر؛ والله على كل شيء قدير.

ومن الأعاجيب قول ابن حجر[١]: لو جاء المُتَوَلَّدْ بين الكلب والإنسان؛ على صورة الآدمي؛ حكم بنجاسته وتكليفه؛ ولكن يعفى عن مماسته؛ ولو مع الرطوبة؛ ويجوز له دخول المسجد؛ وأن يؤمَّ الخلق؛ لأنه لا إعادة عليه؛ وقال الرملي[٢] بطهارته حينئذٍ؛ وهو الصواب. وذكر بعضهم أن المُتَوَلَّدْ بين مأكولين؛ إذا جاء على صورة الآدمي؛ يصح منه أن يخطب ويؤمَّ الناس؛ ويجوز ذبحه وأكله؛ وهو من الغرابة بمكان. واختلف العلماء في حِلِّ آدميٍ مُسِخَ بقرةً؛ فنقل ابن حجر في فتاويه الحل عن الطحاوي؛ وقال: قضية كلامنا خلافه؛ وأغرب من ذلك قول الرملي: بجواز مناكحة الجن؛ وأنه يجوز وطء زوجته منهم؛ إذا غلب على ظنِّه أنها هي؛ وإن جاءت في صورة حمارة أو كلبة.

وهذا قد يخالف ما أفتينا به في الذئب؛ عند الظن أنه الآدمي؛ ومثله الحيَّة؛ بل وينافي ما ندلل به على لطمة موسى للمَلَكْ؛ إلّا أنا لا نرضاه؛ ونزيد

(١) أحمد بن محمد بن علي بن حجر، شهاب الدين الهيتمي، عمدة المتأخرين، (ت٩٧٤هـ)، طبع له العديد من المؤلفات، منها في علم الفقه: تحفة المحتاج شرح المنهاج، وحاشية على الإيضاح في المناسك للإمام النووي، وشرح على المقدمة الحضرمية، وفتح الجواد شرح الإرشاد، وغيرها.

(٢) محمد بن أحمد بن حمزة، شمس الدين بن شهاب الدين الرملي، (ت١٠٠٤هـ)، فقيه مصر ومفتيها، لقب بالشافعي الصغير، له عدة مصنفات، طبع منها نهاية المحتاج شرح المنهاج، وغاية البيان شرح زبد بن رسلان، وغيرها. أما والده فهو: أحمد بن حمزة شهاب الدين الرملي (ت٩٥٧هـ)، له مصنفات منها فتح الجواد شرح منظومة ابن العماد، وله الفتاوى جمعها ابنه شمس الدين، وكلاهما مطبوع.

في مسألة الصكة؛ ما صرح الفقهاء بأنه يجوز للحاكم تعزير من أساء الأدب في مجلسه؛ بل نقل السمهودي عن الشافعي ومالك؛ جواز التعزير للعالم؛ وإن لم يكن قاضياً. فلا تشويش إذن على ما قررناه؛ لا سيَّما إذا ضُمَّ إليه ما سبق عن ابن خزيمة؛ وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَحَذَفْتَهُ بِحَصَاةٍ فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ جُنَاحٌ**»، وفي لفظٍ فيهما: «**مَنِ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَفَقَؤُوا عَيْنَهُ فَلَا دِيَةَ وَلَا قِصَاصَ**» وفيهما: «**أَنَّ رَجُلاً اطَّلَعَ مِنْ جُحْرٍ فِي بَعْضِ حُجَرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَامَ إِلَيْهِ بِمِشْقَصٍ، أَوْ بِمَشَاقِصَ، وَجَعَلَ يَخْتِلُهُ لِيَطْعُنَهُ**»[١] وقد أخذ بذلك الشافعي وأحمد؛ ولئن لم ينهض للاحتجاج بالنسبة للمَلَكْ مع المعرفة به؛ ولا سيَّما على ما مرَّ عن الرملي؛ فإنه ينهض له على غيره؛ وكيف لا؛ مع إساءة الأدب؛ ومع كرامة موسى على ربِّه؛ ومع ما جُبِلَ عليه من الحِدَّة.

وقد أخرج أبو داود وغيره؛ عن عائشة؛ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا طلاق ولا عتاق في إغلاق**» قال أبو داود: أظنه الغضب؛ وليس هذا بأكبر من إلقائه الألواح؛ وفيها كلام مولاه؛ حتى تكسرت ولم يبق منها إلّا واحد؛ فلم يُثَرِّب عليه في ذلك؛ بشهادة قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] فبمجموع هذه الأمور؛ ينكشف الغبار؛ وينصع وجه الاعتذار؛ ولو كان لي من الأمر شيء؛ لقلت في طلاق الغضبان بنحو ما قالوا به في طلاق السكران؛ فإن كان الغضب مما يعذر فيه؛ لِحِلِّ سببه؛ منع نفوذ الطلاق؛ وإلّا نفذ. ولابن القيِّم في ذلك كلام نفيس لا يحضرني حاصله[٣].

---

(١) المشقص: نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

(٣) قال ابن القيم في رسالته التي سماها: «إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان» إن =

والإشكال الآخر في قول موسى عليه السلام: «**ثُمَّ ماذا**» فإنه يدل بظاهره؛ على الطمع في الخلود؛ وكيف يكون منه ذلك؛ مع علمه بما جرى قبله للمرسلين؟ ويجاب عنه: بأنه من سَوْقِ المعلوم مساق المجهول؛ لنكتة؛ ومنه قول النابغة الذبياني:

أَلَـمْـحَـةٌ مِـنْ سَـنَـا بَـرْقٍ رَأَى بَـصَـرِي ... أَمْ وَجْـهُ نُـعْـمٍ بَـدَا لِـي أَمْ سَـنَـا نَـارِ

والباعث عليه؛ ما حصل لموسى من الانكسار بعد الفيئة وسكون الغضب؛ وما لعله وقع فيه من التدَلُّهْ؛ لِمَا هجم على فؤاده من الخشية والمهابة؛ وقد قال جران العود في الدَّهَشْ:

يَـومَ ارتَـحَـلـتُ بِـرَحْـلِـي قَـبْـلَ تَـودِعَـتِـي ... وَالـقَـلْـبُ مُـسْـتَـوهِـلٌ بِـالـبَـيـنِ مَـشْـغُـولُ

ثُـمَ اعْـتَـضَـضْـتُ عَـلـى نَـضْـوِي لأَدْفَـعَـهُ ... إِثْـرَ الـحَـمُـولِ الـغَـوَادِي وَهْـوَ مَـعْـقُـولُ

ولا يبعد عنه حديث زكريّا؛ فقد ألحَّ على ربِّه في سؤال الولد؛ ولما أجاب دعاءه؛ قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾[1]؛ فاندهاشه من فرط السرور؛ جعله يذهب بالجائز مذهب

= الطلاق في حال الغضب، وهو الإغلاق، وإن هذا الطلاق لا يقع، بل يكون كاليمين اللغو. وأثبت ابن القيم أن القول بذلك هو مقتضى الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين وأئمة الفقهاء، ومقتضى القياس الصحيح والاعتبار وأصول الشريعة. وقد درس مسائل أخرى في الطلاق، وكان له فيها اجتهاده المتميز، كالطلاق المحرَّم، والطلاق الثلاث، وإبانة الرجل المرأة بطلقة، وطلاق الصبي، وطلاق السكران، وطلاق الهازل، وطلاق المُكْره، وطلاق المخطئ والجاهل، وطلاق الناسي والذاهل، والطلاق المعلق بشرط مُضمر، وسبق اللسان بالطلاق.. .. إلخ. وكثير من هذه الأنواع اجتمع فقهاء المذاهب الأربعة ـ في عصر ابن القيم ـ على إيقاعه، كطلاق الحائض، وطلاق الثلاث، وطلاق السكران، وطلاق الحالف، والطلاق في العدة، وطلاق الغضبان. حتى ظنه كثير من هؤلاء إجماعاً، وقاوموا كل اجتهاد بغير ذلك، مما أوقع الناس في الحرج؛ وأدى بهم إلى مصائب التحليل بعد خروج الزوجة من عصمة زوجها بالثلاث.

(١) سورة مريم، الآية: ٨.

المستحيل. فأما قول المرسلين في يوم القيامة: لا علم لنا؛ في جواب ماذا أجبتم؟ فإنه لون آخر. وليس منه ببعيد؛ ولقد يشبهه ما نحن بسبيله؛ ما حُكِيَ أنَّ أبا النجم العجلي؛ قال للعديل بن الفرخ: أرأيت قولك:

فَـإنْ تَـكُ مِـنْ شَـيْـبَـانَ أمِّـي فـإنَّـنِـي لأبْـيَـضَ مَـجْـلِـيٌّ عَـرِيـضُ الـمَـفَـارِقِ

أكنت شاكاً في أمِّك؟ قال له: وهل شككت أنت في نفسك؛ أو في شعرك يوم تقول: أنا أبو النجم؛ وشعري شعري؛ فاستحى وأمسك. وقال أبو الأسود الدؤلي(١) في مدح أهل البيت:

فَـإنْ يَـكُ حُـبُّـهُـمْ رُشْـداً أُصِـبْـهُ وَلَـسْـتُ بِـمُـخْـطِـىءٍ إنْ كَـانَ غَـيَّـا

فقالوا: أشككت يا أبا الأسود؟ قال: ألم تسمعوا ربكم يقول: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٢) (٣).

والإشكال الثالث: كيف يتوقف موسى عليه السلام عن اختيار الموت؛ وقد قال فيه من دونه من أصحاب رسول الله ﷺ: حبيبٌ جاء على فاقة. وثبت في الصحيح عن عبادة بن الصامت؛ عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه؛ ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**». وقال العبد الصالح: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا

---

(١) اسمه ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي الكناني، من سادات التابعين وأعيانهم وفقهائهم وشعرائهم ومحدثيهم ومن الدهاة حاضري الجواب وهو كذلك نحوي عالم وضع علم النحو وشكّل حروف المصحف، ووضع النقاط على الأحرف العربية ولد قبل البعثة وآمن بالنبي ﷺ لكنه لم يره فهو معدود في طبقات التابعين وصحب أمير المؤمنين علي الذي ولاه إمارة البصرة في خلافته، وشهد معه وقعة الجمل وصفين ومحاربة الخوارج.. وتوفي سنة ٦٩هـ.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٤.

(٣) تكملة الآية: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١)؛ **والجواب** عن ذلك من وجوه؛ **أحدها**: أنَّ قوله ذلك ليس عن تَمَكُّثْ في اختيار الرفيق الأعلى؛ وإنما جاء بتلك الجملة البديعة؛ تمهيداً له؛ وتشوُّقاً إليه؛ وكثيراً ما يتباله الإنسان؛ إذا بشر بما يَسُرُّهْ؛ كما سبق عن زكريا؛ وكما مرَّ في الكلام على حديث بدء الوحي من الفائدة الثالثة؛ فهو أمر معهود؛ وشيءٌ معلوم.

فما قال موسى: (إي رب؛ ثم ماذا) إلّا استعظام للمِنَّة؛ واستعجالاً للأمر؛ وإعلاناً بالذل؛ وإفصاحاً بالانكسار؛ وتعرضاً للرحمة؛ واستنزالاً للمغفرة؛ كما يفهم جميع ذلك من ندائه بالربوبيّة. **ثانيها**: لا يبعد أن يكون تردد أولاً؛ كراهية أن يكون آخر صنيعه في الدنيا ذلك العمل؛ الذي أخطأ محله؛ ولم يصادف موضعه؛ وهو مجازاته المَلَكْ على ما أساء من الأدب؛ بتلك اللطمة التي لا حرج عليه فيها؛ ولكن الألْيَقْ كان؛ أن يشملها الحلم؛ ويغشاها العفو؛ ويتغمدها الصفح؛ فكأنه روَّى قليلاً؛ لتكون وفاته على أحسن من تلك الحال؛ ثم عاد لما يليق به فيها؛ من سوْقِ الرجاء؛ وحفز الأشواق؛ فقال: الآن.

رَأَى الأمْـرَ يُـفْـضِـي إلَـى آخَـرٍ ... فَـصَـيَّـرَ آخـرَهُ أوَّلا

ثالثها: إيثار الحياة على الوانٍ؛ لأنه إما أن يكون رغبةً عمَّا في الدار الآخرة؛ وقناعة بما في الدنيا من مظاهر النعم؛ وهذا مذموم؛ وإما أن يكون خوفاً من التقصير في الأعمال؛ وصاحب هذا معذور؛ وإما أن يكون للاستزادة من الخير؛ وهذا محمود؛ ولن يكون موسى عليه السلام؛ إن رغب في الحياة؛ إلّا من أعلى طبقات هذا القبيل؛ فهو من كمال الأنبياء؛ إذ يوفون كل مقام حقه؛ بخلاف ذلك الصحابي؛ فقد ضيَّع الهيبة والنصح للأمّة؛ من حيث احتفظ بالرجاء وحده؛ كما قررناه غير مرّة.

أما حديث محبة لقاء الله وكراهته؛ فمحمولٌ على حالة المعاينة والاختصار؛ كما يتبيَّن من تمامه في الصحيح؛ ونصه: «**قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ**

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَأَمَّا الْكَافِرُ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ؛ فَكَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

وأما ما جاء في الآية؛ من قول العبد الصالح: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي. . .﴾ إلى آخر الآية؛ فليس المراد منه تمنٍّ؛ ولكن المراد منه تمني حسن الختام؛ فهو لا يستعجل الموت؛ ولكن يدعو ربه بأن يكون موته على الإسلام؛ وأن يلحقه بالصالحين.

ومعاذ الله أن نصدق ما أخرجه الحاكم عن ابن إسحاق؛ أنه قال: كان موسى صفي الله؛ قد كره الموت وأعظمه؛ فلما كرهه أحب الله أن يحبِّب إليه الموت؛ ويكرِّه إليه الحياة؛ فحُوِّلَتْ النبوة إلى يشوع بن نون؛ فكان يغدو إليه ويروح؛ فيقول له موسى: يا نبيَّ الله ما أحدث الله إليك؟ فيقول له يشوع بن نون: يا نبيَّ الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة؛ فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت تبتدئني به وتذكره؟؛ فلما رأى ذلك موسى؛ كره الحياة وأحبَّ الموت. فآثار الوضع عليه لائحة؛ فلا حاجة للكشف عن رجاله، وقد كان الله أكرم؛ من أن يعزل موسى عن ذلك المنصب الشريف؛ ويسترد منه تلك النعمة العظمى؛ وما كان يوشع ليسيء الأدب على موسى إلى ذلك الحد؛ وكيف ساغ له أن يقول له: يا نبيَّ الله؛ وقد تحولت نبوَّتُه إليه.

وما أرى المعرِّي[1]؛ إلّا من هذا الباب؛ دخل في إساءة الأدب؛ والتجرِّي على الأنبياء بمثل قوله:

---

(١) أبو العلاء المعري (٣٦٣ ـ ٤٤٩هـ) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري، شاعر فيلسوف وأديب من العصر العباسي. لُقب برهين المحبسين أي محبس العمى ومحبس البيت وذلك لأنه قد اعتزل الناس بعد عودته من بغداد حتى وفاته واختلف في ديانته فقيل إنه مسلم وقيل إنه متشكّك في الأديان.

وَخَوفُ الرَّدَى أَدَّى إلى الكَهْفِ أهْلَهُ ... وَعَلَّمَ نوحاً وابْنَهُ عَمَلَ السُّفْنِ
وَمَا اسْتَعذَبَتْهُ رُوحُ مُوسَى وَآدم ... وَقَدْ وُعِدَا مِنْ بَعْدِهِ جَنَّتَيْ عَدْنِ

وقال أبو الطيِّب:

أَرَى كُلَّنَا يَبْغِي الحَيَاةَ لِنَفْسِهِ ... حَرِيصاً عَلَيْهَا مُسْتَهَاماً بِهَا صَبَّا
فَحُبُّ الجَبَان النَّفْسَ أَوْرَدَهُ البَقَا ... وَحُبُّ الشُّجَاعَ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الحَرْبَا

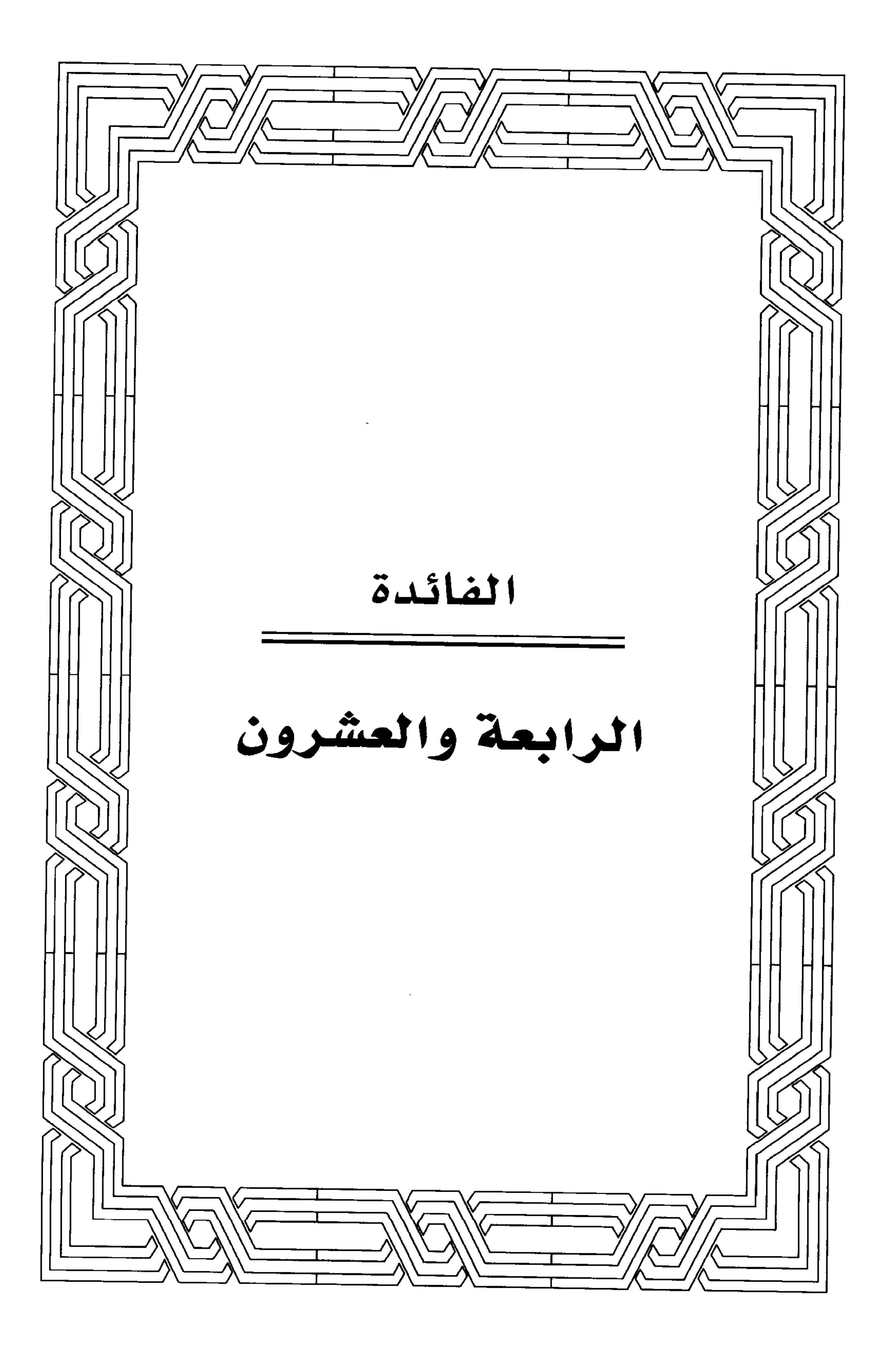
وقال:

وَلَذِيذُ الحَيَاةِ أنْفَسُ فِي النَّفْسِ ... وَأَشْهَى مِنْ أنْ يُمَلَّ وَأحْلَى
وَإذَا الشَّيْخُ قَالَ أُفٍّ فَمَا مَلَّ ... حَيَاة وإنَّمَا الضَّعْفَ مَلَّا
فَهْيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الغَدْرِ لا تَحْـ ... ـفَظُ عَهْداً وَلا تُتَمِّمُ وَصْلا
شيَمُ الغَانِيَاتِ فِيهَا فَلا أدْرِي ... لِذَا أَنَّثَ اسمَهَا النَاسُ أَمْ لا

وقال محمد بن وهيب الحميري:

وَنَحْنُ بَنُو الدُّنْيَا خُلِقْنَا لِغَيرِهَا ... وَمَا أَنْتَ فِيهِ هُوَ شَيءٌ مُحَبَّبُ

❋ ❋ ❋



الفائدة

الرابعة والعشرون

الفائدة الرابعة والعشرون

عَنْ عائشة قَالَتْ: «**دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ تُغَنِّيَانِ بِغِنَاءِ بُعَاثَ فَاضْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ وَحَوَّلَ وَجْهَهُ وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَانْتَهَرَنِي وَقَالَ: مِزْمَارَةُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: دَعْهُمَا فَلَمَّا غَفَلَ غَمَزْتُهُمَا فَخَرَجَتَا وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالدَّرَقِ وَالْحِرَابِ فَإِمَّا سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَإِمَّا قَالَ: تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ خَدِّي عَلَى خَدِّهِ وَهُوَ يَقُولُ: دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ حَتَّى إِذَا مَلِلْتُ قَالَ: حَسْبُكِ قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: فَاذْهَبِي**».

وأخرج في عدة مواضع عن الربيِّع بنت مُعوِّذ قالت: دخل رسول الله ﷺ غداة بُنِيَ عليَّ؛ وجويريات يضربن بالدف يندبن من قتل من آبائي يوم بدر؛ حتى قالت جارية: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد؟؛ فقال النبي ﷺ: «**لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين**».

■ وفيهما مسائل:

الأولى: فيها الدلالة على حل سماع الغناء من الأجنبية؛ لأن الجاريتين ليستا بمملوكتين له ﷺ؛ وإنما هما لعبد الله بن سلام؛ كما عند السلمي؛ أو هما حمامة وصاحبتها كما عند ابن أبي الدنيا؛ أو أحدهما لحسان بن ثابت؛ كما قيل. ولو فرضنا أنهما مملوكتان له ﷺ؛ فالاستدلال حاصل من سكوته ﷺ على سماع أبي بكر.

وقد ذكر ابن حجر في باب الشهادات من تحفته[١]؛ أن استماع الغناء لا يحرم من المرأة؛ إلّا عند خشية الفتنة؛ وقال بمثله الرملي في نهايته[٢]. ولكن الذي في النكاح منهما: أنَّه يحرم استماع صوت الأجنبية؛ ولو من غير غناء إذا التذَّ به؛ وإن لم يخش فتنة؛ وبين الكلامين بعد المشرقين.

وقالوا في باب الأذان: يحرم على المرأة رفع الصوت به عند قرب الأجنبي؛ للافتتان بصوتها؛ وإنما جاز غناؤها مع استماع الرجل له؛ لأنه يكره استماعه؛ وإن أمن الفتنة؛ والأذان يسن له استماعه؛ فلو جوَّزناه للمرأة؛ لأدَّى إلى أن يؤمر الرجل باستماع ما يخشى منه الفتنة؛ وإنما جاز لها رفع صوتها بالتلبية؛ لعدم سنِّ الإصغاء إليها؛ ولأنَّ كُلاً مشغول بتلبيته.

وقال الخطيب[٣] في شرحه على المنهاج: ينبغي أن تكون قراءتها كالأذان؛ لأنه يُسَنُّ استماعها اهـ. وفي النهاية: عدم الحرمة في رفع صوتها بالقراءة في الصلاة وخارجها؛ وقال[٤]: إنَّ والده أفتى به؛ ولابن حجر كلام لا يخلو عن التناقض في الموضوع؛ ساقه في تنبيه؛ أوائل كتابه الموسوم: بِكَفِّ الرعاع؛ فليُتَأمَّل؛ فإنِّي لم أنعم النظر إليه.

وفي الباب ما يروى مرفوعاً: «**لا يحلُّ بيع المغنيات ولا شراؤهن؛ ولا**

---

(١) تحفة المحتاج بشرح المنهاج لابن حجر الهيتمي.

(٢) نهاية المحتاج بشرح المنهاج لشمس الدين الرملي.

(٣) محمد بن أحمد الخطيب الشربيني القاهري، الإمام الفقيه المعتمد الولي الصالح، (ت ٩٧٧هـ)، له مصنفات مطبوعة أهمها: مغني المحتاج شرح المنهاج في أربعة مجلدات، والإقناع شرح متن أبي شجاع، والسراج المنير في التفسير في أربعة مجلدات، وشرح شواهد قطر الندى في النحو، وتقريرات على المطول في البلاغة، ومناسك الحج.

(٤) أي شمس الدين بن شهاب الدين الرملي، (ت١٠٠٤هـ)، فقيه مصر ومفتيها، لقب بالشافعي الصغير، صاحب نهاية المحتاج شرح المنهاج، أما والده فهو: أحمد بن حمزة شهاب الدين الرملي (ت٩٥٧هـ)، له مصنفات منها فتح الجواد شرح منظومة ابن العماد، في المعفوات، وله الفتاوى جمعها ابنه شمس الدين، وكلاهما مطبوع.

تحل التجارة فيهن؛ وأثمانهن حرام؛ والاستماع إليهن حرام»؛ ولكن في سنده عبيد الله بن زحر؛ عن علي بن يزيد؛ عن القاسم؛ عن أبي أمامة الباهلي. وعبيد الله بن زحر منكر الحديث. قال أبو حاتم[١]: وإذا روى عن علي بن يزيد؛ أتى بالظلمات. وعلي بن يزيد متروك الحديث؛ والقاسم بن عبد الرحمن لا يساوي حبلاً من مسد؛ فهي ظلمات بعضها فوق بعض؛ لا يرتفع معها الحديث عن وهاد الأرض بنانة؛ وهناك جملة من الأحاديث؛ ولكنها لا تنخرط إلّا في هذا السلك.

وفي كلام الفقهاء على تناقضه؛ تشدُّد لا يتفق مع سماحة الدين؛ ولا يلتئم مع كثير مما يروى عن السلف؛ فقد نقل الغزالي عن أبي طالب المكي؛ أنه قال: سمع من الصحابة: عبد الله بن جعفر؛ وابن الزبير؛ والمغيرة بن شعبة، قال: ولم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعونه في أفضل أيام السنة؛ وهي الأيام المعدودات التي أمر الله فيها عباده بذكره؛ كأيام التشريق؛ ولم يزل أهل مكة والمدينة مواظبين على السماع إلى زماننا هذا، فأدركنا أبا مروان القاضي؛ وله جَوَارٍ يُسْمِعْنَ التلحين قد أعَدَّهن للصوفيّة. قال: وكان لعطاء[٢] جاريتان تلحنان؛ وكان إخوانه يستمعون إليهما؛ قال: وقيل لأبي الحسن بن سالم؛ كيف تنكر السماع؛ وقد كان الجنيد؛ وسري السقطي؛ وذو النون يسمعون؟ فقال: كيف أنكره وقد أجازه وسمعه من هو خير مني. وقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع؛ وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع اهـ.

وقد رُوِيَ عن ابن سيرين؛ أن عبد الله بن عمر؛ كان سمساراً في بيع جارية

---

(١) أبو حاتم الرازي من الحفاظ ورواة الحديث ولد سنة ١٩٥هـ ورحل في طلب الحديث لعدة جهات وواجه صعوبات في أسفاره ونقل عنه أبو داود والنسائي وابن ماجه وتوفي بالري سنة ٢٧٧هـ.

(٢) الإمام شيخ الإسلام مفتي الحرم عطاء بن أبي رباح أسلم بن صفوان؛ من أهم الفقهاء والتابعين في القرن الأول والثاني الهجري، وُلد عطاء بن أبي رباح سنة ٢٧هـ في إحدى ضواحي مدينة تعز ونشأ بمكة، وتعلم من علمائها. وتوفي بمكة سنة ١١٤هـ.

مغنية؛ على عبد الله بن جعفر؛ بعد أن غنَّت وضربت على العود وهما حاضران؛ فلما انصرف بها عبد الله بن جعفر إلى منزله؛ أتاه ابن عمر وقال: إن صاحبي غبن في سبعمائة درهم؛ فإما أن تعطيه إياها؛ أو ترد عليه بيعه؛ فقال: بل نعطيه ذلك.

وذكر البيهقي عن بعض مشايخ المدينة؛ قال: كانت عند عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليهم؛ جارية مغنية يقال لها عمارة؛ فلما وفد عبد الله على معاوية؛ خرج؛ فزاره؛ يزيد ذات يوم وأقام عنده؛ فأخرجها إليه؛ فلما نظر إليها وسمع غناءها وقعت في نفسه؛ فأخذه عليها ما لم يتمالك معه؛ وكتم ذلك خوفاً من أبيه؛ مع يأسه من الظفر بها؛ فلم يزل كذلك حتى أفضى إليه الأمر[١]؛ فاستشار بعض من يثق به في شأنها؛ فقيل له: إن عبد الله لا يرام؛ وأنت لا تستجيز إكراهه؛ ولا يُغْنِي إلّا الاحتيال؛ فطلبا رجلاً ظريفاً له أدب ومعرفة ودراية؛ فكلفاه ذلك؛ وأعاناه عليه بكل ما طلب من الأموال والطرف؛ فشخص إلى المدينة؛ وأناخ بعرصة عبد الله بن جعفر؛ واشترى منزلاً في جواره؛ ثم توسل إليه وقال: أنا رجل غريب قدمت بتجارة أحب أن أكون في كنفك إلى أن أبيع ما جئت به؛ فبعث عبد الله إلى قهارمته[٢] وقال: أكرموا جارنا وأوسعوا عليه؛ فلما اطمأنَّ بعث إلى عبد الله بهدية فاخرة؛ وسأله بقرابته من رسول الله ﷺ أن لا يوحشه بردِّها؛ فأمر بقبض هديته؛ وعاد إلى منزله بعد انصرافه من الصلاة؛ فهب التاجر وقبَّل يده وسلَّم عليه واستكثر مجيئه إليه؛ ورأى أدباً وظرفاً وحلاوة وفصاحة؛ فأعجب به وسرّ بنزوله إليه؛ ولم يزل التاجر يوالي إرسال التحف والطرف إلى بيت عبد الله؛ فإنهما لكذلك إذ دعاه عبد الله؛ ودعا بجواريه؛ وفيهن عمارة؛ فلما طاب المجلس وسمع غناء عمارة؛ تعجب وجعل يزيد في عجبه؛ إذ رأى ذلك؛ يَسُرُ عبد الله؛ إلى أن قال له: رأيت مثل عمارة؟ قال: لا والله يا سيدي ما رأيت مثلها؛ وما تصلح إلّا لك؛ وما ظننت أن يكون في الدنيا مثل

---

(١) أي الخلافة.

(٢) القُهْرَمانُ: أَمينُ الملك ووكيلهُ الخاص بتدبير دَخْلِه وخَرْجِه. وهي كلمة فارسية معربة.

هذه! قال: كم تساوي عندك؟ قال: لا ثمن لها إلّا الخلافة؛ قال: إنما قلت هذا لتجلب سروري؛ ولعلمك برأيي فيها؛ قال: والله يا سيدي إني لأحب سرورك؛ وما قلت لك إلّا الجد؛ وبعد فإنني تاجر أجمع الدرهم إلى الدرهم في طلب الربح؛ ولو أعطيتها بعشرة آلاف دينار لأخذتها؛ قال: عبد الله بعشرة آلاف دينار؟ قال: نعم. ولم يكن في ذلك الزمان جارية بعشرة آلاف دينار؛ فقال عبد الله كالمازح: أبيعكها بعشرة آلاف دينار؛ قال التاجر: قد أخذتها؛ قال: هي لك؛ قال: قد وجب البيع وانصرف التاجر؛ ولم يشعر عبد الله إلّا وقد وافاه المال؛ فردَّهُ وقال: إنما كنت أمزح معك! قال: جعلت فداءك؛ إن الهزل والجدَّ في البيع سواء؛ فألحَّ عبد الله في المراجعة؛ وألحَّ التاجر في الجد والامتناع؛ وقال: قد ملكت ولا أعلم ما في نفسك؛ وبعثت بالثمن؛ وليست تحل لك بعد؛ فَفُتَّ في عضد عبد الله؛ ولم يجد بدّاً من الوفاء؛ ولو كانت فيه نفسه؛ فأمر بقبض المال؛ وتجهيز الجارية بما يشبهها من الثياب والخدم والمركب والطيب؛ فجُهِّزت بنحو ثلاثة آلاف دينار. فقبضها التاجر؛ ولما فصل بها من المدينة؛ قال لها: يا عمارة؛ والله ما ملكتك لنفسي؛ ولا مثلي يشتريك بهذا الثمن؛ وما كنت لأقدم على عبد الله بن جعفر فأسلبه أحبّ الأشياء إليه؛ مع حقارة الدنيا عنده؛ ولكنني دسيس من قبل يزيد بن معاوية؛ فأنت له؛ وفي طلبك بعثني؛ فاستتري مني؛ وسار بها؛ وما وصل دمشق حتى تلقاه الناس يحملون جنازة يزيد؛ فأقام الرجل أياماً؛ ثم دخل على معاوية بن يزيد وشرح له القصة؛ فقال: هي لك؛ فعاد التاجر على الجارية وقصَّ عليها الخبر؛ وقال: أشهدك أني قد وهبتك لعبد الله بن جعفر؛ وركب بها إلى المدينة؛ ونزل قريباً منه واستأذن عليه دخلة خفيفة؛ فلما دخل عليه بقر له الحديث؛ وحلف له بالمحرِّجات الثلاث[1]؛ أنه ما رأى لها وجهاً إلّا عنده؛ وساقها إلى منزله فلما رآها أهل الدار والحشم تصايحوا وقالوا: عمارة؛

---

(١) حلف بالمحرجات: الأيمان الموقعة في الحرج وهو الإثم والضيق. ويقال: المحرجات الثلاث وهي: الطلاق والعتاق والمشي إلى مكة وقيل: هي الطلاق ثلاثاً.

عمارة؛ فلما رأت عبد الله؛ خرَّت مغشياً عليها؛ وجعل عبد الله يمسح وجهها بكمِّه ويقول: يا حبيبتي؛ أيقظة هذا أم منام؟؛ فقال التاجر: بل ردَّها الله عليك بكرمك ووفائك؛ فأمر ببيع عير له بثلاثة عشر ألف دينار؛ وأمر بها للتاجر؛ فانصرف بها وافر المال كامل المروءة.

ومن نفوذ البيع بقول ابن الطيار: أبيعكها؛ يتأكد أنَّ المضارع كافٍ في الإنشاء؛ لكن الفقهاء لم يقولوا به للإنشاء؛ إلّا في أشهد؛ أما في البيع والضمان والنكاح والجزية؛ من التحفة وأشباهها؛ فلم يجعلوه صريحاً إلّا في الوعد فقط؛ وقد ذكرته بما فيه في صوب الركام(١).

ويروى عن عبد الله بن جعفر؛ أنه لقي ابن أبي عتيق(٢)؛ فقال له: لو غنَّتك فلانة؛ لإحدى جواريه؛ صوتاً ما أدركتك ذكاتك؛ قال: قل لها تفعل؛ وما عليك ضمان إنْ متَّ؛ فأخذ بيده إلى منزله؛ ثم أشار على الجارية أن تخرج فخرجت؛ فقال: هات فغنَّت:

بِهَوَاكَ صَيَّرَنِي العَذُولُ نَكَالا ... وَرَأى السَّبِيلَ عَلَى المَقَالِ فَقَالا
وَنَهَيتُ نَومِي عَنْ جُفُونِي فَانْتَهَى ... وَأَمَرْتُ لَيْلِي أَنْ يَطُولَ فَطَالا

فرمى ابن أبي عتيق بنفسه على الأرض: وقال: فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر.

فما يقول العلامة ابن حجر في هذا وأمثاله؟ أفيرى أنهم عصاة؟ أم يقول: إنهم لا يلتذون؛ وإنهم يدخلون تحت قول المتنبي:

أَصَخْرَةٌ أنَا مَا لِي لا تُحَرِّكُنِي ... هَذِي المُدَامُ وَلا هَذِي الأغَارِيدِ

---

(١) صوب الركام في أدلة الأحكام كتاب للإمام ابن عبيد الله في أدب القضاء (تحت الطبع).

(٢) اسمه محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق اشتهر بالدعابة والظرافة والمزاح حتى في المواقف المؤلمة ورغم ذلك كان من الصلحاء ومن رواة الحديث الثقاة.

وقد ذكر ابن قتيبة[١] عن ابن المبارك[٢] أنه قال: ألستم تعلمون أني قد أرميت على المائة؛ وينبغي لمثلي أن يكون في وهن الكرَّة؛ وموت الشهوة؛ وانقطاع ينبوع النطفة؛ وأن قد حطَّ من دواعي الباه؟ قالوا: بلى؛ قال: ولكني بعدما وصفت لكم؛ لا أسمع نغمة لامرأة؛ إلّا أظن أنَّ عقلي قد اختلس؛ ولربما تراءى فؤادي عن ضحك إحداهن؛ حتى أظن أنه قد خرج من فمي؛ فكيف ألوم عليهنَّ غيري؟ اهـ. والحديث أطول من هذا بكثير؛ ولكني اختصرته.

وأخرج ابن طاهر بسنده؛ إلى امرأة عمرو بن الأصم؛ قالت: مررنا ونحن جوارٍ بمجلس سعيد بن جبير؛ وهناك جارية تغنِّي ومعها دف وهي تقول:

لِئنْ فَتَنْتَنِي فَهْيَ بِالأمسِ افْتَنَّتْ سَعِيداً فَأمْسَى قَدْ قَلَى كُلَّ مُسْلِمِ
وَأَلْقَى مَفَاتِيحَ القِرَاءَةِ وَاشْتَرَى وِصَالَ الغَوَانِي بَالكِتَابِ المُنَمْنَمِ

فقال سعيد: تكذبين تكذبين. وأخرج بسنده إلى المريسي؛ قال: مررنا مع الشافعي وإبراهيم بن إسماعيل[٣] على دار قوم وجارية تغنيهم:

خَلِيلَيَّ مَا بَالُ المَطَايَا كَأَنَّهَا نَرَاهَا عَلَى الأعْقَابِ بِالقَومِ تَنْكُصُ

فقال الشافعي: ميلوا بنا نسمع؛ فلما فرغت؛ قال الشافعي لإبراهيم: أيطربك هذا؟ قال لا؛ قال: فما لك حِسٌّ. اهـ. فإبراهيم ممن ينطبق عليه بيت المتنبي السابق.

---

(١) عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣ ـ ٢٧٦هـ) أديب وفقيه ومحدث ومؤرخ له العديد من المصنفات أشهرها عيون الأخبار، وأدب الكاتب وغيرها.

(٢) عبد الله بن المبارك المروزي عالم وإمام مجتهد في شتى العلوم الدينية والدنيوية. ولد سنة ١١٨هـ وكان أعجوبة في طلب العلم فقد رحل إلى العديد من الأقطار ولم يتوقف عن كتابة العلم وسماعه طول حياته وتوفي بمرو خراسان سنة ١٨١هـ.

(٣) إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم، الإمام، العلامة، الحافظ، المشهور بابن عُلَيَّة، وهي أمه ولد سنة مات الحسن البصري سنة ١١٠هـ وكان فقيهاً، إماماً، مفتياً، ومن أئمة الحديث وقال عمرو بن زرارة النسابوري: صحبت ابن عُلَيَّة أربع عشرة سنة، فما رأيته تبسم فيها. قيل: ما في هذا مدح ولكنه مؤذن بخشية وحزن وتوفي سنة ١٩٣هـ.

وأخرج الأصفهاني بسنده؛ قال: لما دخل النعمان بن بشير[1] المدينة؛ في أيام ابن الزبير ويزيد؛ قال: اسمعوني؛ فقالوا له: لو وجهت إلى عزَّة الميلاء فإنها من قد عرفت؛ فقال: أي والله؛ إنها لمما يزيد النفس طيباً؛ والعقل شحذاً؛ ابعثوا إليها عن رسالتي؛ فإن أبت صرت إليها؛ فبعثوا لها بِنُجُبْ؛ فاعتلّت؛ فقام مع خواص أصحابه حتى طرقوها؛ فأذنت وأكرمت واعتذرت وغنّت:

أَجَدَّ بِعَمْرَةَ غُنْيَانُهَا فَتَهْجُرَ أَمْ شَأْنُنَا شَأْنُهَا

وَعَمْرَةُ مِنْ سَرَوَاتِ النِسَاءِ تَنْفَحُ بِالمِسْكِ أَرْدَانُهَا

قال: وهذا الشعر لقيس بن حطيم الأوسي في أمِّ النعمان بن بشير؛ وهي عمرة بنت رواحة؛ أخت عبد الله بن رواحة؛ قال فأشار بعضهم إلى عزة بذلك؛ فأمسكت؛ فقال النعمان: غنِّي فوالله ما ذكرت إلّا كرماً وطيباً ولا تغني سائر اليوم سواه. اهـ. وفي هذا الشعر حديث ظريف آخر ولكني لا أطيل به.

وأخرج الأصفهاني أيضاً قال: ختن زيد بن ثابت لبنيه وأولم؛ فاجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامة أهل المدينة؛ وحضر حسان وقد أضرّ؛ حتى إذا فرغ من الطعام؛ ثنيت له الوسادة؛ وأقبلت عزة الميلاء؛ وهي إذاك شابة؛ فوضع في حجرها مزهر؛ فضربت وتغنَّت وكان أول ما ابتدأت به قول حسان:

فَلا زَالَ قَصْرٌ بَيْنَ بُصْرَى وَجَلَّقٍ عَلَيْهِ من الوَسْمِي جُودٌ وَوَابِلُ

فطرب حسان؛ وجعلت عيناه تنضحان على خديه؛ وهو مُصْغٍ لها.

وأخرج أيضاً بسنده إلى عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير؛ عن شيخ من قريش؛ قال: إنِّي وفِتَيَةٌ من قريش عند قَيْنَة؛ ومعنا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت؛ إذ استأذن حسان فكرهنا دخوله؛ وشقَّ علينا؛ فقال ابنه عبد الرحمن: أيَسُرُّكم ألا

---

(١) النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي أول مولود ولد في الإسلام من الأنصار؛ تمتع بين الصحابة بمكانة كبيرة وبايع بعد وفاة يزيد لعبد الله بن الزبير فتنكر له أهل حمص وقتله أحدهم سنة ٦٥هـ.

يجلس؟ قلنا: نعم؛ قال: مروا هذه؛ إذا نظرت إليه أن تغني:

أَوْلادُ جِفْنَةَ حَولَ قَبْرِ أَبيهم قَبْرُ ابنُ مَارِيَةَ الكَرِيمِ المُفْضِلِ

يَغْشُونَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلابُهُمْ لا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ المُقْبِلِ

بِيضُ الوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أحْسَابُهُمْ شُمُّ الأنُوفِ مِنَ الطِّرَازِ الأوَّلِ

قال: فغنته؛ فبكى حسان حتى ظننا أنه سيلفظ نفسه؛ ثم قال: أفيكم الفاسق؟ قلنا: نعم؛ قال: لقد كرهتم مجلسي اليوم؛ وانصرف. فإن قلت: كيف يبكي حسان على ما مضى من زمانه في الجاهلية مع الجفنيين؛ وقد أبدله الله خيراً من ذلك في الإسلام؟ قلنا: لا بدَّ للكريم أن يحِنَّ إلى ما مضى من زمانه؛ لأنه يتصور فيه ثوب العيش قشيباً؛ وغصن الشباب رطيباً. قال ابن الرومي:

فَإذَا تَمَثَّل فَي الضَّمِيرِ رَأيتَهُ وَعَلَيْهِ أغْصَانُ الشَّبَابِ تَمِيدُ

فالحنين ليس إلى شيء من المكروه؛ ولكن إلى ما تعلم، على أنه لا يلام التائب عن الطلى[1]؛ في الحسرة على أيامها؛ وممن صرح بذلك القطب الحداد؛ في سياق له؛ وقد قال الحلي:

وَإذَا ذَكَرْتَ التَّائِبينَ عَنِ الطَّلَى لا تَنْسَ حَسْرَتَهُمْ عَلَى أوْقَاتِهَا

وكان تميم بن أبي مقبل؛ الشاعر المخضرم؛ جافياً يبكي في الإسلام على أهل الجاهلية؛ فقيل له في ذلك: فقال:

وَمَا لِيَ لا أبْكِي الدِّيَارَ وَأهْلَهَا وَقَدْ حَلَّهَا رُوَّادُ عَكٍّ وحِمْيَرَا

أتَاهُ قَطَا الأجبَاب مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَنَقَّرَ فِي أعْطَانِهِ ثُمَّ طَيَّرَا

ولم يمسه أحدٌ بسوء.

وتاب آدم بن عبد العزيز الأموي من الشراب؛ ثم دخل على من كان ينادمه

---

(١) الطلى هنا بمعنى الجاهلية.

عليه؛ وهو يعقوب بن الربيع؛ أخو الفضل بن الربيع؛ فنَحَّاه حينما أحسَّ بدخوله؛ فقال آدم: إنِّي لأجد ريح يوسف؛ فقال يعقوب: نعم؛ ولكن خشينا أن يثقل عليك فنحَّيناه من أجلك؛ فقال آدم؛ نعم يثقل عليّ بعد ما تركته لله تعالى؛ وأنشد في ذلك شعراً؛ ولكني نسيته[١].

وذكر المرتضى فيما دلل به على زندقة ابن المقفَّع؛ أنه مرَّ بعد إسلامه ببيت نار للمجوس؛ فتمثل بقول الأحوص:

يَا بَيْتَ عَاتِكَةَ التِي أتَغَزَّلُ حَذَرَ العِدَا وَبِهِ الفُؤادُ مُوَكَّلُ
إنِّي لأمْنَحَكِ الصُّدَودَ وَإنَّنِي قَسَماً إليكَ مَعَ الصُّدُودِ لأمْيَلُ

لكن الفرق ظاهر؛ بصراحة ما تمثل به ابن المقفَّع؛ في تمنِّي العود؛ بخلاف أولئك؛ فإنه لم يكن منهم إلّا الحنين إلى زمانِ أنْسِ المعصية؛ لا إليها؛ أما ابن المقفَّع؛ فكلامه ظاهر في ميله إلى الكفر؛ فلم يسعه ما وسعهم.

وقال ابن أبي مليكة: كان رجل ناسك من أهل المدينة يغشى عبد الله بن جعفر؛ فسمع جارية تغني:

بانَت سُعادُ وَأمسى حَبلُها انقَطَعا وَاحتَلَّتِ الغَمرَ فَالجُدَّينِ فَالفَرعا

فشغف بها وهام؛ وترك ما كان عليه؛ حتى مشى إليه عطاء وطاؤوس فلاماه؛ فلم يكن جوابه إلّا أن قال متمثلاً:

يَلُومُنِي فِيكِ أقْوَامٌ أُجَالِسُهُمْ فَمَا أُبَالِي أَطَارَ اللوم أَوْ وَقَعَا

فما كان من ابن جعفر إلّا أن اشترى له تلك الجارية بأربعين ألف درهم؛ وأهداها إليه مع ما يناسبها من الكفاية.

---

(١) ما يرويه الإمام من الآيات والأحاديث والأخبار والأشعار هي مما تختزنه ذاكرته العجيبة والأبيات التي قال إنه نسيها هي:

ألا هل فتى عن شربها اليوم صابر ليجزيه عن صبره الغد قادر
شربت فلما قيل ليس بنازع نزعت وثوبي من أذى اللوم طاهر

وقال ابن قتيبة: قال خلاد الأرقط: سمعت مشايخنا من أهل مكة يذكرون: أنَّ القسَّ؛ وهو عبد الرحمن بن أبي عمار؛ من بني جشم بن معاوية؛ كان عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن أبي رباح؛ وإنما سموه القس لفرط عبادته؛ ولكنه افتتن بسلَّامة؛ إذ سمع غناءها؛ وشغفت هي به أيضاً؛ فقالت له يوماً في خلوة: إني لأحبك؛ فقال: وأنا؛ قالت: فأنا أحِبُّ أن أضع فمي على فمك؛ قال: وأنا؛ قالت: وصدري على صدرك؛ قال: وأنا؛ قالت: فما يمنعك مع خُلوِّ المكان؟ فأطرق ساعة؛ ثم قال: إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]؛ وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك؛ عداوة يوم القيامة؛ ثم نهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها؛ وهو القائل فيها:

أَلَـمْ تَـرَهَـا لا يُـبْـعِـدُ الله دَارَهَـا ... إذَا طَـرِبَـتْ فِـي صَـوتِـهَـا كَـيْـفَ تَـصْـنَـعُ

تَـمُـدُّ نِـظَـامِ الـقَـوْلِ ثُـمَّ تَـرُدُّهُ ... إلَـى صَـلْـصَـلٍ فِـي حَـلْـقِـهَـا فَـتُـرجِّـعُ

وقال:

قَدْ كُنْتُ أعْـذُلُ فِي السُّفَاهَةِ أهْلَهَا ... فَـأعْـجَـبْ لِـمَـا تَـأتِـي بِـهِ الأيَّـامُ

فَـالـيَـوْمَ أرْحَـمُـهُـمْ وَأعْـلَـمُ أنَّـمَـا ... سُـبْـلُ الـغِـوَايَـةِ وَالـهُـدَى أقْـسَـامُ

وقال:

أَهَـابُـكِ أنْ أقُـولَ بَـذَلْـتُ نَـفْـسِـي ... وَلَـوْ أنِّـي أطِـيـعُ الـقَـلْـبَ قَـالا

حَـيَـاءً مِـنْـكِ حَـتَّـى شَـفَّ جِـسْـمِـي ... وَشَـقَّ عَـلَـيَّ كِـتْـمَـانِـي وَطَـالا

وفيه يقول ابن قيس الرقيَّات:

لَـقَـدْ فَـتَـنَـتْ رَيَّـاء وسُـلَّامـةَ الـقِـسَّـا ... وَلَـمْ تَـتْـرُكَـا لِـلـقِـسِّ عَـقْـلاً وَلا نَـفْـسَـا

فَـتَـاتَـانِ أمَـا مِـنْـهُـمَـا فَـشَـبِـيـهَـةُ الـ ... ـهِلالِ وَأخْرَى مِنْهُمَا تُشْبِهُ الشَّمْسَا

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

ولعزة الميلاء مع أجِّلاء الصحابة؛ أخبار مشهورة في الغناء وغيره؛ فكانوا لا يصدرون إلّا عن رأيها في اختيار الأزواج؛ ومن تلك الأخبار؛ مع ما يذكر عن سيدنا عبد الله بن جعفر؛ وغيره من السلف الطيب؛ من سماع أغاني القيان؛ ما يكاد يبلغ التواتر المعنوي؛ إذ قد حصل من جزئياته؛ مثل ما حصل من وجود حاتم؛ ولئن تشككنا في بعض الروايات؛ فلا مجال للشك في الأكثر. وقد سبق عن ابن حجر الهيتمي؛ أنَّ شرط حلّه؛ في نظره؛ عدم الالتذاذ. ولئن حملنا عليه صنيع أولئك الطاهرين؛ فليس معناه إلّا أننا لا نفهم ما نقول؛ أو ليست لنا عقول.

وإذ ذاك فلا يكفينا أن سماع الغناء من الأجنبية مع الالتذاذ بصوتها؛ لا يزيد على أن يكون صغيرة؛ إذا أمنت الفتنة؛ وأولئك قوم تغلب طاعاتهم معاصيهم؛ وتمحو سيئاتهم حسناتهم؛ فهو من قبيل ما نتمثَّل به كثيراً من قول أبي الطيب:

وَإِنْ يَكُنْ الفِعْلُ الذِي سَاءَ وَاحِداً فَأَفْعَالُهُ اللاتِي سَرَرْنَ أُلُوفُ

لا يكفينا هذا؛ وإن كنا لا نقدِّسهم؛ ولا نقول بعصمتهم؛ لإكثارهم من ذلك؛ ومن شرط تكفير الصغائر؛ عدم الإصرار عليها؛ ومعاذ الله أن يستهتروا في شيء مع اعتقاد حرمته؛ ولا إشكال لو كان إنما يتفق لهم في بعض الأحيان؛ لا على سبيل التهتُّك والاستمرار والاستعلان.

فلا شك أنَّ لابن جعفر ومن على شاكلته؛ ممن تأنَّق في ذلك الصنيع من السلف الطيِّب؛ مندوحة فيه؛ يؤكد سكوت الباقين عليه؛ وعلى ظهور أمر القيان المغنيات إذ ذاك؛ مع كثرة أهل الحق؛ الذين لا يخافون في الله لومة لائم. وقد مرَّ عن ابن حجر أنه يقول في بعض المواضع: إنَّ استماع الغناء من الأجنبية لا يحرم إلّا عند خشية الفتنة؛ وهذا من أقرب ما نتأوَّل به لهم؛ ولئن افتتن بعضهم؛ بعض؛ فالظن أنه لم يكن خائفاً من الفتنة؛ قبل. ويروى أن معاوية كان يلوم عبد الله بن جعفر؛ ثم رجع إلى رأيه؛ لما احتجَّ عليه.

والخطب في المسألة يسير؛ لأنَّ المسألة إذا كانت خلافية بين فقهائنا المتأخرين؛ على تقليدهم؛ فأولى بين المجتهدين الأولين؛ ولا إنكار على مختلف فيه؛ وإنما الغصَّة التي لا تسيغها العقول؛ ما سبق عن ابن حجر من قوله؛ في بعض المواضع: بالحرمة عند مجرَّد الالتذاذ.

وما نهى الله من الخضوع في القول؛ إلّا خشية الطماعية الداخلية في جنس الفتنة؛ لا مجرد اللذَّة؛ التي لا يحسم مادَّتها؛ إلّا بَتُّ حرمة المكالمة رأساً؛ ولم يقل بها أحد.

ثم عند السلف فرق بين الإماء والحرائر؛ فتراهم يتساهلون في سماع جوار الأخدان[1]؛ بمقدار ما يشتطُّون في الغيرة على نسائهم؛ حتَّى لقد كان ابن الخطاب يضرب الجواري على التحجُّبْ؛ ويقول لهن: أتتشبهن بالحرائر؟. غير أن هذه الفوارق لا قيمة لها عند فقهائنا؛ فلا سبيل إلى الاتفاق؛ إلّا بإزالة حجر العثرة الذي وضعه الهيتمي في مدرجته.

ثم كل ما سبق في سماع أغاني القيان[2]؛ أما مجرد السَمَاعْ[3]؛ فقد أفرده الإمام الغزالي بجزء في الإحياء؛ وجوَّد القول فيه بما لا يستغني الراغب عن مطالعته؛ وهو على ثلاثة أنواع:

أحدها: ما يكون بلا آلة؛ ومع أمن الفتنة والسلامة من المنكر؛ ولا يحصى من يقول بحلِّه ويعمله من الصحابة فمن بعدهم؛ وكثير منهم من يستحبه في الأفراح؛ وهم من أسعد الناس بالأدلَّة.

---

(١) المخادنة نوع من العلاقة بين الرجل والمرأة في الجاهلية بدون عقد ولا نكاح شرعي. ويكون الرجل خدناً للمرأة أي صديقاً لها، وتكون هي خدنة أي صديقةَ له. ومعنى جوار الأخدان هنا حسب مفهومي لها صداقة ملك اليمين هذا إذا صح النقل من المخطوطة ولم تكن الكلمة جوار الإخوان (المحقق).

(٢) القين وجمعها قيان وهي: الأمة صانعة أو غير صانعة وغلب إطلاقه على المغنية.

(٣) السماع: الإنشاد بالمدائح أو الذكر.

ثانيها: المصحوب بالدُّفْ والشَّبَابَةْ؛ وقد قال المالكيّة؛ وشارح المقنع من الحنابلة؛ وأبو بكر العامري من الشافعية؛ بندبه مع الدف في النكاح؛ وذهبت طائفة إلى إباحته مطلقاً؛ وعليه إمام الحرمين والغزالي. وأما الشَّبابة[1] فذهبت طائفة إلى تحريمها؛ ومنهم النووي وأكثر الشافعية؛ وقالت طائفة بإباحتها؛ منهم العامري؛ والرافعي في الشرح الصغير وقال: إنه الأظهر؛ وفي الكبير قال: إنه الأقرب؛ واختاره ابن عبد السلام؛ وابن دقيق العيد؛ وابن جماعة؛ ونقل عن الغزالي. وقال تاج الدين الشربيني: إنه مقتضى المذهب؛ وقال الرافعي: إنَّ نبي الله داود عليه السلام؛ كان يضرب بها في غنمه. قالوا: والشبابة تُجْرِي الدمع وتُرَقِّقُ القلب. ولم يزل أهل الصلاح والمعرفة والعلم؛ كأراكين العلويين بحضرموت؛ يحضرونها مع الدفوف؛ وتجري على أيديهم الكرامات. وقد صرح إمام الحرمين؛ والمتولي؛ وغيرهما؛ بامتناع وقوع كرامة على يد الفاسق.

ثالثها: سماع الغناء بالأوتار والمزامير؛ والمشهور من مذاهب الأئمة الأربعة حرمتها؛ وذهبت طائفة إلى الحل؛ منهم عبد الله بن عمر؛ وعبد الله بن جعفر؛ والنعمان بن بشير؛ وزيد بن ثابت؛ وحسان؛ وعبد الله بن الزبير؛ ومعاوية بن أبي سفيان؛ وخارجة بن زيد؛ وعبد الرحمن بن حسان؛ وسعيد بن المسيَّب؛ والشعبي؛ وعطاء بن أبي رباح؛ وابن أبي عتيق؛ وأكثر فقهاء المدينة. ونقل عن مالك سماعه؛ وليس ذلك بالمعروف في مذهبه.

وقال أبو بكر بن العربي في شرح الترمذي: وإنْ انضاف إلى الغناء عود؛ فهو داخل في قول أبي بكر: مزمارة الشيطان، وقد قال له رسول الله ﷺ: «**دعهم**». وحكى الماوردي إباحة الأوتار عن جماعة من الشافعية؛ ومال إليه الأستاذ أبو منصور البغدادي؛ وذكر أنه الذي اعتمده أبو إسحاق الشيرازي؛ وكان يفعله ولم ينكر أحد عليه.

---

(١) الشبابة: هي القصبة أو المزمار.

وأخرج الأصفهاني وغيره؛ أنَّ ابن سريج[١] عرض لعطاء بن أبي رباح فعذله؛ فقال له ابن سريج: بحق من تبعته من أصحاب رسول الله ﷺ؛ وبحق رسول الله؛ إلّا سمعت مني؛ فإن رأيت منكراً؛ أمسكت عنه؛ فقال له: قل؛ فاندفع يغني بقول جرير:

إنَّ الـذِيـنَ غَـدَوْا بِـلُـبِّـلـكَ غَـادَرُوا ... وَشَـلاً بِـعَـيـنِـكِ لا يَـزالُ مُـعِـيـنَـا

غَـيَّـضْـنّ مِـنْ عَـبَـرَاتِـهِـنَّ وَقُـلـنْ لِـي ... مَـاذَا لِـقَـيـتَ مِـنَ الـهَـوَى وَلَـقِـيـنَـا

قال: فلما سمعه عطاء اضطرب اضطراباً شديداً؛ وداخلته أريحية؛ فحلف أن لا يكلم أحداً بقية يومه؛ إلّا بهذا الشعر؛ وصار إلى مكانه من المسجد الحرام؛ فكان لا يجيب من سأله عن حديث أو حلال أو حرام؛ إلّا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى؛ وينشد هذا الشعر؛ حتى صلى المغرب؛ فلم ينكر على ابن سريج بعد ذلك.

وكان أبو السائب المخزومي؛ ناسك الحجاز؛ يسمع من الذلفاء[٢]؛ مغنية المدينة؛ ولما أنشدت قول العرجي[٣]:

---

(١) هو أبو يحيى عبد الله أو عبيد الله بن سريج مولى بني نوفل. ولد في مكة المكرمة في خلافة عمر وتعلم الغناء عن طويس وابن مسطح وسمع عزة الميلاء حتى أصبح من الذائعي الصيت. ثم تعلم الضرب على العود فأجاد به. وهو غير الإمام ابن سُرَيْج، شيخ الإسلام، فقيه العراقين أبو العباس، أحمد بن عمر بن سريج البغدادي، القاضي الشافعي، صاحب المصنفات. المولود سنة بضع أربعين ومائتين.

(٢) الذَّلفاء جارية ابن طرخان مغنية شاعرة، اشتراها سليمان بن عبد الملك بعد أن صارت إليه الخلافة.

(٣) هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان شاعر، غزل مطبوع، وكان من الأدباء الظرفاء الأسخياء، ومن الفرسان المعدودين. صحب مسلمة بن عبد الملك في وقائعه بأرض الروم، وأبلى معه البلاء الحسن.. ولقب بالعرجي لسكناه قرية (العرج) في الطائف. وسجنه والي مكة محمد بن هشام في تهمة دم مولى لعبد الله بن عمر، فلم يزل في السجن إلى أن مات.

بَـاتَـا بِـأَنْـعَـمِ لَـيـلَـةٍ حَـتَّـى بَـدَا ... صُـبْـحٌ تَـلَـوَّحَ كَـالأغَـرِّ الأشْـقَـرِ
فَـتَـلازَمَـا عِـنْـدَ الـفِـرَاقِ صَـبَـابَـةً ... أَخْـذَ الـغَـرِيـمُ بِفَضْـلِ ثَـوْبِ الـمُـعْـسِـرِ

قال: امرأته طالق إن نطق بحرف سواه حتى يرجع إلى بيته؛ فلقيه عبد الله بن حسن بن الحسن؛ فكلما سأله عن شيء أجابه بالبيت الأخير؛ حتى ظنه يتخبَّط من الجنون.

وقال أبو الزناد: كنا جلوساً ذات ليلة نصف الليل بالقمر؛ عند الحسن بن زيد العلوي؛ وبين أيدينا فريك نصيب منه؛ فأنشد الحسن قول داود بن مسلم؛ يمد به صوته ويطرب:

مُـعَـرَّسَـنَـا بِـبَـطْـنِ عَـرِيـتَـنَـاتٍ ... لِـيَـجْـمَـعَـنَـا وَفَـاطِـمَـةَ الـمَـسِـيـرُ
أَتَـنْـسَـى إذْ تـعَـرَّضَ وَهْـوَ بَـادٍ ... مَـقُـلَّـدُهَـا كَـمَـا بَـرَقَ الـصَّـبِـيـرُ
وَمَـنْ يُـطِـعِ الـهَـوَى يَـعْـرِفْ هَـوَاهُ ... وَقَـدْ يُـنْـبِـيـكَ بِـالأمْـرِ الـخَـبِـيـرُ
ألا إنِّـي زَفِـرْتُ غَـدَاةَ هَـرْشِـي ... وَكَـادَ يُـرِيـبُـهُـمْ مِـنِّـي الـزَّفِـيـرُ

فطرب أبو السائب المخزومي؛ وهو مشغوف بالسماع؛ وكان معنا؛ فأخذ طبق الفريك ورماه إلى السماء؛ حتى وقع الفريك على رأس الحسن؛ فقال له: أجننت؟ قال: أسألك بالله وبقرابتك من رسول الله؛ إلّا أعدته ومددت فيه أكثر مما فعلت؛ فجعل الحسن يردد الأبيات ويطيل المد في قوله؛ ومن يطع الهوى إلى آخره. وقال أبو الزناد: فقال لي أبو السائب: أما سمعت مَدَّهُ في ذلك البيت؟ فقلت: بلى؛ فقال: لو علمت أنه يقبل مالي بهذه الأبيات لدفعته له.

وفي هذه القصة فوائد: غناء الحسن ودماثه خلقه وقوة نفسه؛ إذ علم أبو السائب؛ أنه لا يقبل منه؛ إلى ما عرفه به أبو السائب من اللطف والظرف.

وكان ابن أبي عتيق عند إبراهيم بن هشام بالمدينة؛ وهو خال هشام بن عبد الملك؛ فغنَّى مُغَنٍ بقول الأحوص:

سُقْيَا لِرَبْعَكِ مِنْ حَيٍّ بِذِي سَلَمِ ... وَلِلزَّمَانِ بِهِ إِذْ ذَاكَ مِنْ زَمَنِ
إِذْ أَنْتِ فِينَا لِمَنْ يَنْهَاكِ عَاصِيَةً ... وَإِذْ أُجُر إِلَيْكُمْ سادِراً رَسَنِي

فما كان من ابن أبي عتيق إلّا أن رمى رداءه؛ وأقبل يسحبه حتى خرج من المنزل؛ ثم رجع على تلك الحال؛ فقال له إبراهيم: ما بك؟ قال: كنت سمعت هذا الشعر فاستحسنته؛ فآليت أن لا أسمعه إلّا جررت ردائي كما جرَّ الشاعر رسنه. وسمع هذين البيتين الرشيد من أخيه إبراهيم؛ فأجازه بألف بألف درهم.

وابن أبي عتيق: هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق؛ وكان ذا شرف وعفاف وورع؛ وكان خفيف الظلّ؛ كثير المجون؛ وافر النوادر؛ منها أنه لقي عبد الله بن عمر فقال: ما تقول فيمن هجاني بقوله:

أَنْفَقْتَ مَا لَكَ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ ... فِي كُلِّ مُومَسَةٍ وَفِي الخَمْرِ
ذَهَبَ الإِلَهُ بِمَا تَعِيشُ بِهِ ... وَقَمَرْتَ نَفْسَكَ أَيُّمَا قَمْرِ

فقال: أرى أن تأخذ بالفضل وتعفو؛ قال: كلا والله لأنيكنَّه؛ فانزعج ابن عمر من ذلك؛ لتشدُّدِّه؛ ثم تركه غير بعيد. وتعرَّض له أخرى؛ وقال له: أتدري ما فعلت بذلك الإنسان الذي هجاني بما قلت لك؟ قال: لا؛ قال: كُلُّ عبد لِيَ حُرٌّ إن لم أكن نكته حتى مللت؛ فكاد عبد الله يصعق؛ وأخذته رعشة؛ فقال له: هوِّن عليك أيها الشيخ؛ إنها زوجتي هجتني؛ وقد فعلت بها ما قلت؛ فقال له: ما تترك الهزل؛ وضحك. وكانت امرأته هي أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله.

ولما سمع[١]؛ أنين ابن ربيعة في أشعاره؛ من مغاضبة الثريا له[٢]؛ ركب من المدينة؛ ولما بلغ ذا الحليفة؛ قيل له: أحرم؛ فقال: ذو الحاجة ليس لدخوله

---

(١) أي: ابن أبي عتيق.
(٢) هو عمر بن أبي ربيعة وقد تألم لما هجرته الثريا وهي امرأة من شهيرات نساء قريش ذات جمال وكمال؛ هجرته بعد أن تغزل بأخرى فقال: هذا البيت يطلب من يصلح بينهما وكانت تصيف في الطائف.

مكة إحرام؛ وما زال يغدو السير حتى وصل الطائف؛ وقال للثريا: أنا رسول عمر إليك؛ فقالت: متى أرسلك؟ قال: حين قال:

مَـنْ رَسُـولِـي إِلَـى الـثُـرَيَّـا فَـإِنِّـي ضِـقْـتُ ذَرْعـاً بِـهَـجْـرِهَـا وَالـكِـتَـابِ

فما عرَّض إلَّا بي؛ وما أشار إلّا إليَّ، وما زال بها حتى أرضاها عنه؛ وأعطته صكاً ذهب به لعمر من فوره إلى مكة؛ ولم يخلط عمله ذلك بنسك؛ وقال: ما حلاوة الدنيا إذا لم يلتئم الصدع بين الثريا وعمر.

المسألة الثانية: أخذ بعضهم من الحديثين: حل الأوتار والمزامير؛ وهو أخذ ضعيف؛ إذ ليس فيهما أكثر من الدُّفْ؛ غير أنه لا يصح في تحريمها حديث صريح. وقد مرَّ اختلاف العلماء فيها؛ وأكثر ما في التحريم حديث نافع عن ابن عمر؛ قال: سمع ابن عمر مزماراً فوضع إصبعيه على أذنيه؛ ومال عن الطريق؛ وقال لي: يا نافع؛ هل تسمع شيئاً؟ قلت: لا؛ قال: فرفع إصبعيه من أذنيه وقال: كنت مع رسول الله ﷺ؛ فسمع مثل هذا؛ فصنع مثل هذا؛ أخرجه أبو داود ولم يصححه؛ بل قال إنه منكر؛ وفي إسناده سلمان الأشدق؛ وعنده كما قال البخاري مناكير؛ ولو كان حراماً؛ لم يكن لابن عمر أن يأمر نافعاً بالاستماع؛ ليُعَرِّفه الخبر.

ولئن قيل: إنه لم يبلغ بَعْدُ؛ وتعويد الصبيان على مجانبة المحرمات؛ مخصوصٌ بما لم تدع مصلحة كهذه لتركه. **قلنا**: لا بعد فيه؛ ولكن كان ابن عمر بالغاً سبع عشرة سنة؛ يوم وقع له ذلك مع رسول الله ﷺ؛ ولم يثبت أنه ﷺ نهى الراعي؛ مع قدرته عليه؛ فسقط الاستدلال به على فرض صحته؛ وهي محال.

وقال ابن حجر في تحفته: يحرم استعمال سائر أنواع الأوتار والمزامير واستماعها؛ لأن اللذَّة الحاصلة منها؛ تدعو إلى الفساد؛ ولأنها شعار الفسقة؛ والتشبُّه بهم حرام. وحكايةُ وَجْهٍ بِحِلِّ العودة مردودة؛ وألف بعض صوفية الوقت كتاباً؛ تبع فيه خراف ابن حزام؛ وأباطيل ابن طاهر؛ وكِذْبَهُ الشنيع في تحليل

الأوتار وغيرها؛ ولم ينظر لكونه مذموم السيرة؛ مردود القول عند الأئمة؛ حتَّى بالغوا في تسفيهه وتضليله؛ سيما الأذرعي في توسطه؛ ووقع بعض ذلك للكمال الأدفوي[١] في تأليفٍ له في السماع؛ وغيره. وكل ذلك يجب الكف عنه؛ واتباع ما عليه أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم؛ من تحريم بعض أنواع الغناء؛ وسائر الأوتار والمزامير؛ لا ما افتراه أولئك عن بعضهم؛ وحكاية ابن طاهر عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازي؛ أنه سمع العود؛ من جملة كذبه وتهوره؛ فلا يحل الاعتماد عليه. (اهـ بلفظ واختصار)، وفي النهاية[٢] قريب منه.

وأراني كتبت عليه في كتابي صوب الركام[٣] ما نصه وقوله: وكل ذلك يجب الكف عنه؛ الإشارة فيه إلى كلام ابن حزم؛ وابن طاهر؛ والكمال الأدفوي وغيره. وقوله: لا ما افتراه أولئك؛ إشارة فيه إلى المذكورين أيضاً؛ واعلم أنه لم ينبز ابن حزم أولاً إلّا بالتحريف؛ وأما ابن طاهر؛ فقد رماه بالعجر والبجر من أول وهلة. وأما الأدفوي؛ فتلقيبه بالكمال؛ يشعر باحترامه له؛ ولكنه انفجر لديه البركان؛ وفار التنور؛ فصبَّ عليهم سوط انتقامه؛ وقد سبقت الإشارة في (المسألة ٥٠)[٤]؛ إلى بعض ما هنا. (انتهى). والمشار إليه بالسبق في (المسألة ٥٠)؛ هو احتجاج ابن حجر بما نقله ابن حزم؛ من الإجماع على منع تتبع الرخص؛ ورده به على محقق الحنفيّة ابن الهمام وغيره.

وذكرت في صوب الركام: أنَّ القطب الحداد[٥]؛ ألان القول في العود؛ بل

---

(١) كمال الدين جعفر الأدفوي ينسب لمدينة أدفوا بمصر مؤرخ وأديب وفقيه شافعي له عدة تصانيف وتوفي بمصر سنة ٧٤٨هـ.

(٢) نهاية المحتاج بشرح المنهاج لشمس الدين الرملي.

(٣) صوب الركام في تحقيق أدلة الأحكام كتاب في أدب القضاء للإمام ابن عبيد الله وهو تحت الطبع.

(٤) كتاب صوب الركام مرتب على مسائل تزيد عن ألف وخمس مائة مسألة.

(٥) الإمام عبد الله بن علوي الحداد (١٠٤٤ ـ ١١٣٢هـ) فقيه وداعية إسلامي وشاعر ولد ومات بتريم وأضر في طفولته وله عدد من المصنفات المفيدة ترجم بعضها إلى لغات مختلفة.

ذكر الحبيب علي بن حسن العطاس[1] عنه؛ أنه كان يحضره؛ وكأن أحد أولاده يجيد الإيقاع عليه. وفي فتاوى حفيده؛ وهو السيد علوي بن أحمد الحداد؛ القول بِحِلِّه عند الأمن من جرِّه إلى الفساد.

أما كتاب الأدفوي؛ الذي أشار إليه ابن حجر؛ فقد سماه الإمتاع بأحكام السماع؛ وذكر فيه جماعة من مشاهير العلماء من أهل الغرب والشرق؛ منهم الإمام عز الدين بن عبد السلام؛ وفيه: قيل للشيخ تقي الدين بن دقيق العبد: ما تقول في هذا الأمر؛ يعني الرقص على سماع الأوتار؟؛ فقال: لم يرد فيه حديث صحيح بالحرمة ولا بالحل؛ فهي مسألة اجتهادية؛ فمن اجتهد وأدَّاه اجتهاده إلى التحريم؛ قال به؛ ومن اجتهد وأداه اجتهاده إلى الحل قال به اهـ.

ومن العجب أن ابن حجر يقول: ونَقْلُ الإسنوي عن ابن عبد السلام؛ أنه كان يرقص في السماع؛ يُحْمَلْ على مجرد القيام والتحرك لغلبة وجدٍ؛ وشهود واردٍ أو تَجَلٍّ لا يعرفه إلّا أهله؛ نفعنا الله بهم اهـ.

وأقول: إن هذا صرفٌ لِلَفْظٍ عن ظاهره؛ وهو لا يجوز؛ لأنه بعمل الباطنية أشبه؛ ثم إن العلامة ابن حجر؛ رَدَّ على من يقول بشهادة الصوفية الذين يرقصون على الدُّف؛ وقال مع ذلك كله؛ في فتاويه الحديثية؛ ما نصُّه: وقد صح القيام والرقص في مجالس الذكر والسماع؛ عن جماعة من كبار الأئمة؛ منهم عز الدين شيخ الإسلام ابن عبد السلام اهـ. وجزمه بكذب ابن طاهر؛ فيما حكاه عن أبي إسحاق؛ لا يوافق ما عليه الرجال؛ لما سيأتي عن ابن طاهر؛ ولأنه قد عاصر أبا إسحاق؛ فهو به عارف.

وقال ابن طاهر المقدسي: كل ما ورد في تحريم الأوتار غير ثابت عن رسول الله ﷺ؛ ولا خلاف بين أهل المدينة في حلها. ومن الدليل على إباحتها؛

---

(١) من كبار العلماء والدعاة بحضرموت (١١٢١ ـ ١١٧٢هـ) تخرج على يديه مئات العلماء وكان مؤرخاً وشاعراً ومصلحاً بين القبائل كما اهتم بالآثار القديمة وتوفي بحريضة بدوعن.

أنَّ إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف[١]؛ مع جلالته وفقهه وثقته؛ كان يفتي بحلِّه؛ ويضرب به؛ ولم تسقط عدالته بذلك عند أهل العلم؛ فكيف تسقط عدالة المستمع؟ وقد حلف إبراهيم هذا؛ بالعراق؛ أن لا يُحَدِّث حديثاً إلّا بعد أن يغنِّي على العود. ثم روى عنه أهل الحل والعقد؛ ومنهم الإمام أحمد بن حنبل؛ فلا شك أنهم سمعوا غناءه عليه؛ وقد أجمعت الأمة على عدالته؛ واتفق البخاري ومسلم على إخراج حديثه في الصحيح.

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة إبراهيم بن سعد؛ هذا بعد توثيقه؛ ما نصه: ونقل الخطيب أنَّ إبراهيم كان يجيز الغناء بالعود؛ وولي قضاء المدينة. (انتهى). ورأيته في لسان الميزان؛ يقول عن ابن طاهر: إنه ليس بالقوي؛ فإن له أوهاماً كثيرة؛ ثم نقل نضال الذهبي الطويل عنه؛ ولم يتعقبه؛ وذكر عن ابن منده وعن شيرويه أنه حافظ صدوق؛ وأطال في ترجمته؛ بما يكفي بعضه لرد كلام الهيتمي فيه؛ لأنه ليس من رجال الجرح التعديل؛ فكلام الذين عدَّلوا ابن طاهر؛ من رجال الحديث كما رأيت؛ أولى بالقبول.

وقد انتهت فتيا المدينة إلى عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون [٢]؛ وقال ابن عبد البر: كان فقيهاً فصيحاً؛ دارت عليه الفتيا وعلى أبيه من قبله؛ وكان مولعاً بسماع الأغاني؛ قال أحمد بن حنبل: قدم علينا ومعه من يغنيه؛ ذكره ابن خلكان في الوفيات؛ والحافظ في التهذيب؛ وشرعك بهما من ناقدين خبيرين.

ثُمَّ إنِّي من أشدّ الناس بعداً عن هذه الآلات وأهلها؛ لِمَا اشتطَّ فيه الفقهاء

---

(١) الإمام الحافظ الكبير أبو إسحاق القرشي الزهري العوفي المدني. (١٠٨ ـ ١٨٥هـ) كان من أكثر أهل المدينة حديثاً في زمانه. وقال أبو حاتم: ثقة. وكان ممن يترخص في الغناء على عادة أهل المدينة، وكأنه ليم في ذلك، فانزعج على المحدثين، وحلف أنه لا يحدث حتى يغني قبله.

(٢) كان عبد العزيز أبوه من أقران الإمام مالك وكان عبد الملك فقيهاً فصيحاً، تعلّم العلم من الإمام مالك ونشره في شتى بقاع الأرض، وتوفي في سنة ٢١٢هـ.

من شأنها؛ واتفقوا عليه من تحريمها؛ ولكنه الاطِّراح للتعصب؛ والخروج من الهوى؛ والاسترواح إلى الأدلة التي بين أيدينا؛ وعلّ عند المانعين من طرائح الحظر ما لم نطلع عليه؛ وأيننا من شأوهم؛ وإنما هي حريّة الضمير؛ ونتيجة التفكير؛ وعصارة التأمل[١].

وما سمعت العود طيلة عمري إلّا مرتين؛ قلدت فيها القائلين بالحل؛ الأولى بالشحر في رجب ١٣٢٤هـ؛ ألح عليّ في حضوره أحد عمومتي؛ وأمَّنني سخط والدي ومعاتبته؛ وكان الذي يغني على العود ليلتئذ رجل من يافع؛ مليح الطلعة حسن الشارة؛ يقال له سلطان؛ أطربنا للغاية بحسن إتقانه؛ فلا يزال يرنُّ في أذني صوته بالقصائد التي غنَّى بها؛ وإحداهن لابن معتوق ومستهلها:

خَفَرَتْ بِسَيفِ الغُنْجِ ذِمَّةَ مِغْفَرِي   وَفَرَتْ بِرُمْحِ القَدِّ دِرْعَ تَصَبُّرِي

والثانية للبهاء زهير؛ وهي المستهلة بقوله:

غَيْرِي عَلَى السُّلْوَانِ قَادِرْ   وَسِوَايَ فِي العُشَّاقِ غَادِرْ

والثالثة لابن المقري وأولها:

أتَاهَا رَسُولِي فَاعْلَمُوا مَا جَرَى لَهُ   فَقَدْ رَابَنِي لَمَّا سِمِعْتُ مَقَالَهُ

والرابعة أيضاً وصدرها:

خُذُوا لِي مِنَ الألْحَاظِ أمْناً عَلَى عَقْلِي   وَلا تَتْرُكُونِي فِي هَوَى الأعْيُنِ النُّجْلِ

وقد كاد قلبي يطير عند قوله:

فَإنْ عِشْتُ كَافَيتُ الصُّدُودَ وَإنْ أمُتْ   فَكَمْ حَسْرَة تَحْتَ الثَّرَى بِامْرِئٍ مِثْلِي

---

(١) يبيّن هذا الكلام عظمة الإمام ابن عبيد الله وعدم تشدده إلّا في الأمور المتفق على خلافها بين العلماء؛ ورجوعه إلى الحق عند مجابهته بالأدلة؛ والوقوف عن انتقاد الأكابر في مسائل الفروع التي لم يثبت فيها دليل قطعي؛ وإبداء العذر لهم بجهله عن معرفة دليلهم الذي رجعوا إليه (المحقق).

وفي هذا شرف لابن المقري[١]؛ وجمال ظاهر؛ وحجة تسلكه مع فحول الشعراء المجيدين؛ ولكنه محظوط عن قدره فيه؛ بما شغل الناس وجهرهم من علومه الأخرى. وهذا البيت نقيض قول قيس بن الحطيم:

مَتَى يَأْتِ هَذَا المَوتُ لا تُبْقِ حَاجَةً ... لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتَ قَضَاءَهَا

وقول زهير بن خباب:

أَبَنِيَّ إِنْ أَهْلَكْ فَإِنِّي ... قَدْ بَنَيْتُ لَكُم بَنِيَّة

وَتَرَكْتُكُمْ أَولادَ سَا ... دَاتٍ زِنَادُكُمُ دَرِيَّة

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الفَتَى ... قَدْ نِلْتُهُ إِلّا التَّحِيَّة

ولكن شعر ابن المقري؛ مثل قول بعض الأقدمين:

وَإِنِّي عَلَى مَا نَالَنِي وَأَصَابَنِي ... لَذُو مِرَّةٍ بَاقٍ عَلَى الحَدَثَانِ

فَإِنْ تَعْقُبُ الأَيَّامُ أَظْفَرْ بِحَاجَتِي ... وَإِنْ أَبْقَ مَرْمِياً بِي الدجَوان

فَكَمْ مَيِّتٍ مِثْلِي بِغَيْظٍ وَحَسْرَةٍ ... صَبَورٌ بِمَا يَأْتِي بِهِ المَلَوَان

وقول الآخر:

وَاحَسْرَتَا مَاتَ حَظِّي مِنْ وصَالِكُمُ ... وَلِلْحُظُوظِ كَمَا لِلنَّاسِ آجَالُ

إِنْ مُتُّ شَوْقاً وَلَمْ أَبْلُغْ مَدَى أَمَلِي ... كَمْ تَحْتَ هَذِي القُبُورِ الخُرْسِ آمَالُ

إلا أن بيت ابن المقري؛ غُرَّة شادخة؛ وَدُرَّة لامعة؛ فسبحان المانح.

والمرة الأخرى في المكلا سنة ١٣٣٠هـ؛ بتكليف من المغفور له السيد حسين بن حامد المحضار[٢]؛ وما كدت أرضى؛ حتى نزل المغني على علوٍّ

---

(١) هو الفقيه شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر الشرجي اليمني المعروف بابن المقري الزبيدي؛ ولد سنة ٧٥٤هـ وبرز في عدة فنون له في الفقه (الروض) و(الإرشاد) وهي من كتب الفقه المشهورة وتوفي سنة ٨٣٧هـ.

(٢) السيد حسين بن حامد المحضار وزير الدولة القعيطية؛ السياسي الداهية الذي مد رقعة =

منصبه؛ وهو السيد الفاضل عمر بن عبد الله بن محمد الحبشي على اقتراحي؛ فغنَّى بقصيدة ابن رزيق البغدادي؛ ثم وقف؛ لأنَّا لم نطرب؛ ولأنه إنما غنى متكرهاً متثاقلاً؛ جبراً لخاطر السيد حسين.

ثم هل هو عند القائلين بتحريمه؛ من الصغائر أو من الكبائر؟ صرح الرملي في حاشيته على الأسنى؛ بأن استماع الأوتار والمزامير من جملة الصغائر؛ ونقل إمام الحرمين عن العراقيين؛ أنه كبيرة؛ وعارضه ابن أبي الدم[1] فيما نقله؛ وقال: بل جزم الماوردي بأنه صغيرة. ورأيت بعضهم يقول: والأصح عند المتأخرين من الشافعية: أنه صغيرة وهو اختيار إمام الحرمين.

وبعد هذا كله ذكرت حديث البخاري ونصه: وقال هشام بن عمار؛ حدثنا صدقة بن خالد؛ حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر؛ حدثنا عطية بن قيس الكلابي؛ حدثني عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري؛ قال حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري؛ والله ما كذبني؛ سمع النبي ﷺ يقول: «**ليكونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أقوام يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ والحَرِيرَ والخَمْرَ وَالمَعَازِفَ...**» الحديث؛ وزعم ابن حزم؛ أنه منقطع فيما بين البخاري وهشام؛ وردَّ عليه الزركشي؛ وخطَّأه الحافظ ابن حجر في وجه الرد لا في أصله؛ وقال: أمَّا دعوى ابن حزم فقد سبقه إليها ابن الصلاح اهـ. ولعل صواب عبارته: فقد سبق إلى ردِّها ابن الصلاح؛ لأن كلامه مسوق لذلك.

= هذه الدولة على أغلب مساحة حضرموت مستخدماً الدهاء والسياسة والمهادنة والتهديد والحرب وكان دوره في حضرموت مقارباً لدور المستشار الحديدي بسمارك في ألمانيا وقد توطدت الدولة القعيطية برجال عظام منهم السلطان عوض القعيطي ومولاه الماس عمر والزعيم حسين بن حامد المحضار والمقدم باصرة حاكم لواء دوعن. وكان المحضار إلى جانب دهائه؛ شاعراً مجيداً ورجل دين من الطراز الأول وتوفي سنة ١٣٤٥هـ.

(١) هو الفقيه الشافعي والمؤرخ إبراهيم بن عبد الله الهمداني المعروف بابن الدم ولد سنة ٥٨٣هـ؛ تولى قضاء حماة ومن تصانيفه (كتاب التاريخ) و(التاريخ المظفري) وتوفي سنة ٦٤٢هـ.

ثم إن البخاري عاصر هشام بن عمار؛ فكلا الأمرين محتمل؛ الانقطاع والاتصال. وقال ابن منده: إنه تدليس؛ قال الحافظ: وتعقبه شيخنا بأن أحداً لم يَصِفْ البخاري بالتدليس. والذي يظهر لي؛ أن مراد ابن منده أنَّ صورته صورة التدليس؛ لأنه يورده بالصيغة المحتملة؛ ويوجد بينه وبينه واسطة؛ وهذا هو التدليس بعينه. لكن الشأن في تسليم أنَّ هذه الصيغة من غير المُدَلِّس؛ لها حكم العنعنة؛ فقد قال الخطيب؛ وهو المرجوع إليه في هذا الفن: إنَّ (قال) لا تحمل على السماع؛ إلّا ممن عرف من عادته أنه يأتي بها في موضع إسماع؛ مثل حجاج بن محمد الأعور؛ فعلى هذا فَارَقَ العنعنة؛ فلا تعطى حكمها؛ ولا يترتب عليها أثرها من التدليس؛ ولا سيَّما ممن عرف من عادته أن يوردها لغرض غير التدليس؛ وقد تقرر عند الحافظ: أنَّ ما يُعَلِّقْهُ البخاري بصيغة الجزم يكون صحيحاً إلى من عُلِّقَ عنه؛ ولو لم يكن من شيوخه؛ لكن إذا وجد الحديث المُعَلَّق موصولاً من رواية بعض الحفَّاظ؛ إلى من عَلَّقَهُ بشرط الصحة؛ أزال الإشكال. وقد ذكر شيخنا: أنَّ حديث هشام بن عمار؛ جاء عنه موصولاً في مستخرج الإسماعيلي؛ فقال: حدثنا الحسن بن سفيان؛ حدثنا هشام بن عمار (انتهى كلام الحافظ بنوع من الاختصار).

■ وفيه أشياء:

أحدها: أن المتبادر من كلام الخطيب؛ النزول (بقال) عن درجة (عن)؛ وقد عكسه الحافظ؛ فاستدل به على أنها أعلى؛ وهو نفسه قد صرح في شرحه على نخبة الفكر؛ بالتساوي بين قال وعن.

ثانيها: أن عنعنة المعاصر لا تُحْمَل على السماع من غير المدلس؛ إلّا بشرط ثبوت التلاقي ولو مرة؛ كما اختاره هو؛ في نخبة الفكر؛ تبعاً للبخاري وابن المديني وغيرهما من النقاد؛ ولم يذكر هنا لقاء بين البخاري وهشام بن عمار.

ثالثها: أن ما ذكره آخراً عن شيخه؛ من أنَّ حديث هشام جاء عنه موصولاً

في مستخرج الإسماعيلي إلى آخره؛ يؤكد ما قرره ابن حزم من الانقطاع في الصحيح؛ ولم يؤثره البخاري إلّا لوَهَنٍ يراه فيه؛ ومع ذلك فلم يورده في غير هذا الموضع من صحيحه. قال الحافظ: وليس لعطية بن قيس ولا لشيخه في البخاري إلّا هذا الحديث (اهـ). ثم راجعت ترجمة هشام بن عمار في تهذيب التهذيب[1]؛ فإذا به استغرق في جرحه وتوهينه صفحة كاملة؛ وحصة من التي بعدها.

وهنا نكتتان؛ لم أر من تَفَطَّن لهما:

الأولى: أنَّ البخاري بعد الترجمة بباب؛ ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه؛ قال: (و) قال ابن هشام بن عمار؛ فمجيئه بالواو زيادة في التوهين؛ وكأنه حرص على الحديث بجعله تأسيساً لما بوَّب عليه؛ ثم يجعل حديث هشام متابعة؛ فلم يتيسر له ذلك؛ وما كان حديث هشام بالذي ينبني عليه الأساس بمجرده عنده، فالسياق ظاهر في توهين الحديث؛ حتى يفرض الاتصال؛ لأنه لم يخرج عن عادته في مثله؛ بقوله؛ وقال؛ إلّا لشأن.

والثانية: أنه لم يعرِّج على شيء مما في حديث هشام؛ سوى الخمر؛ لما لها من الشواهد التي لا تحصى كثرة؛ عند أبي داود وابن حيان وابن ماجه والنسائي وأحمد والدارمي وابن أبي عاصم وابن وهب والبيهقي؛ وكلها في شرب الخمر؛ وتسميتها بغير اسمها؛ كما ذكره في الفتح. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

---

(١) تهذيب التهذيب هو كتاب يختص بعلم رجال الحديث ألفه الحافظ ابن حجر العسقلاني وهو مختصر لكتاب كبير في أسماء رواة الحديث وأحوالهم، ألفه الحافظ المقدسي الحنبلي وأسماه (الكمال في أسماء الرجال) وأودع فيه أقوال الأئمة في رجال الصحيحين والسنن الأربعة، معتمداً على تواريخ البخاري وكتاب ابن أبي حاتم (الجرح والتعديل)، ثم جاء الحافظ المزي فاختصر كتاب الحافظ المقدسي في (تهذيب الكمال)، ثم جاء الحافظ ابن حجر العسقلاني، فاختصره وزاد عليه أشياء فاتتهما وهي كثيرة وعقب عليهما، وسمى مختصره: (تهذيب التهذيب) ثم اختصره في كتاب (تقريب التهذيب).

وذكر ابن حجر الهيتمي في زواجره: أنَّ الحديث مرويّ عند أبي داود بسند صحيح؛ وأخطأ في ذلك؛ فليست لفظة المعازف موجودة عند أبي داود وهي موضع النزاع.

قال الشوكاني: وقد اختلف في الغناء مع آلة من الآت الملاهي؛ فذهب الجمهور إلى التحريم؛ وذهب أهل المدينة؛ ومن وافقهم من أهل الظاهر والصوفية؛ إلى الترخيص في السماع؛ ولو مع العود واليراع؛ وقد حكى الأستاذ أبو منصور البغدادي الشافعي أنَّ عبد الله بن جعفر يصوغ الألحان لجواريه؛ ويسمعها منهنَّ على أوتاره؛ وكان ذلك في أيام علي كرم الله وجهه. وحكي مثله عن القاضي شريح؛ وسعيد بن المسيب؛ وعطاء بن أبي رباح والزهري والشعبي.

وقال إمام الحرمين؛ وابن أبي الدم: إنَّ عبد الله بن الزبير كان له جوارٍ عوّادَات؛ وذكر الأدفوي أن عمر بن عبد العزيز كان يسمع من جواريه قبل الخلافة؛ ونقل ابن السمعاني الترخيص عن طاوس؛ ونقله ابن قتيبة وصاحب الإمتاع عن قاضي المدينة؛ سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الزهري؛ من التابعين. وحكى الروياني عن القفَّال: أن مذهب مالك إباحة الغناء بالمعازف؛ وذكر أبو طالب المكي: أن شعبة سمع طنبوراً في بيت المنهال بن عمرو المحدث المشهور؛ وقال الأدفوي: لم يختلف النقلة في نسبة الضرب إلى إبراهيم بن سعد؛ المتقدم الذكر؛ وهو ممن أخرج في المهمات عن الروياني والماوردي؛ وجزم الأدفوي بالإباحة.

هؤلاء جميعاً قالوا بتحليل السماع مع آلة من الآلات المعروفة؛ وقالوا: ليس في كتاب الله؛ ولا في سنة رسوله؛ ما يقتضي التحريم. واحتج المانعون بأدلة؛ منها حديث هشام بن عمار؛ وأجاب المُجَوِّزون بأجوبة؛ الأول: ما قاله ابن حزم من الانقطاع؛ وأجاب الحافظ بأنه معروف الاتصال؛ والبخاري قد يفعل مثل ذلك لكونه قد ذكر الحديث في موضع آخر من كتابه؛ والحال الكلام على

ذلك بما يشفي (انتهى كلام الشوكاني) وقوله في هذا الموضع؛ قاضي المدينة سعد بن إبراهيم؛ صوابه إبراهيم بن سعد؛ كما يعرف مما ذكرناه آنفاً ومما ذكره آخر كلامه؛ وما نسبه إلى شريح؛ تقدم مثله؛ ويؤيده ما أخرج ابن قتيبة عن الهيثم؛ قال: خرج شريح إلى مكة؛ فشيَّعه قوم؛ فانصرف بعضهم من النجف؛ وبقي معه قوم؛ فلما أرادوا أن يودِّعوه قال لهم: أما أصحاب النجف فقد قضينا حقهم بالطعام؛ وأما أنتم فأغنيكم؛ فرفع عقيرته وغنَّى:

إذَا زَيْنَبَ زَارَهَا أهلُهَا شَكَرتُ وَأكْرَمْتُ زوَّارَهَا
وإنْ هِيَ زَارَتْهُمُ زُرْتَهَا وَإنْ لَمْ يَكُنْ لِي هَوىً دَارَهَا

وهي زوجته زينب بنت حُدَيْر؛ وكان نقم عليها شيئاً فضربها ثم ندم؛ وقال:

رَأَيْتُ رِجالاً يَضْرِبُونَ نِسَاءَهَمْ فَشُلَّتْ يَمِينِي حِينَ أضْرِبُ زَيْنَبَا
أَأَضْرِبُهَا مِنْ غَيرِ جُرْمٍ أتَتْ بِهِ إليَّ فَمَا عُذْرِي إذَا كُنْتُ مُذْنِبَا
فَزَيْنَبُ شَمْسٌ وَالنِّسَاءُ كَوَاكِبٌ إذَا طَلَعَتْ لَمْ تُبْقِ مِنْهِنَّ كَوْكَبَا

وقوله: لكونه قد ذكر الحديث إلخ. ونقول: قد علمت مما سبق؛ أنَّ البخاري لم يورد هذا الحديث في موضع آخر من صحيحه؛ وأنَّ الحافظ لم يشف في الجواب.

ثم قال الشوكاني: والثاني أن في إسناده؛ صدقة بن خالد؛ وقد حكى ابن الجنيد عن يحيى بن معين؛ أنه ليس بشيء؛ ويجاب عنه بأنه من رجال الصحيح اهـ. أقول: وفي هذا غلط من الشوكاني؛ فقد جاء في الفتح: أن صدقة بن خالد ثقة عند الجميع؛ وأن المُتَكَلَّمَ فيه؛ إنما هو صدقة بن عبد الله السمين. وأعجب ما فيه؛ أنه ينقل من الفتح في المبحث نفسه؛ ثم يحصل له هذا السهو الفاحش.

ثم قال؛ أعني الشوكاني: وأجاب المُجَوِّزُون أيضاً عن الحديث؛ بالاختلاف في مدلول المعازف؛ فقد نقل القرطبي عن الجوهري؛ أنَّ المعازف الغناء؛ والذي في صحاحه أنها اللهو؛ وقيل صوت الملاهي؛ وفي حواشي

الدمياطي أنها الدفوف؛ وإذا كان اللفظ محتملاً لأن يكون للآلة ولغير الآلة؛ لم ينهض للاستدلال؛ لأنه إمَّا يكون مشتركاً؛ والمرجَّح التوقف فيه؛ أو حقيقة ومجازاً؛ ولا يتعين المعنى الحقيقي. ويجاب عنه: بأنه يدل على تحريم ما صدق عليه الاسم؛ والظاهر الحقيقة في الكل من المعاني المنصوص عليها؛ وليس من قبيل المشترك. على أنَّ الراجح جواز استعمال المشترك في جميع معانيه مع عدم التضاد؛ كما تقرر في الأصول اهـ.

وأقول: إن المقرر في الأصول؛ امتناع الجمع بين حقيقتين؛ كما قرره الغزالي في المستصفى؛ وقوّاه في المقصد الأسنى(١)؛ وأن المجاز الراجح مع الحقيقة؛ إجمال يوجب الوقوف إلى البيان كما قرره في الأصول. وإن خالفه بعضهم في الفروع؛ كما في كتاب الإيمان من التحفة؛ والقول باستعمال المشترك في جميع معانيه عند التجرد من القرائن؛ منسوب إلى الشافعي؛ وأنكر ذلك ابن تيمية؛ وقال: ليس للشافعي فيه نص صريح؛ وإنما استنبطوه من كلام له لا يعطيه. وقد أطال ابن حجر الهيتمي الرد عليه في فتاويه؛ ولكنه محجوج؛ ولا سيما بما قرره الغزالي في المقصد الأسنى؛ وما أظن الهيتمي استحضره حين كتب ذلك؛ وإلّا لما أمكنه الخروج عنه.

ثم قال الشوكاني: وقال المجوزون: يحتمل أن تكون المعازف الممنوعة؛ ما اقترنت بشرب؛ بدليل حديث ابن ماجه: «**لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُعْزَفُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ وَالْمُغَنِّيَاتِ**».. ويجاب: بأن الاقتران لا يدل على أن المحرَّم الجمع فقط؛ وإلّا لزم: أنَّ الزنا لا يَحْرُم إلّا عند شرب الخمر. فإن قيل: تحريم مثل هذه الأمور قد علم من دليل آخر، أجيب: بأن تحريم المعازف قد علم من دليل آخر أيضاً؛ على أنه لا ملجأ إليه حتى يصار له، وقالوا أيضاً: يحتمل أن يكون المراد يستحلون؛ مجموع؛ ومنه الأمور المذكورة؛ فلا يدل على تحريم واحد منها على الانفراد؛ وقد تقرر أن النهي عن

---

(١) المستصفى والمقصد الأسنى من كتب الإمام الغزالي في الأصول.

الأمور المتعددة أو الوعيد على مجموعها؛ لا يدل على تحريم كُلٍّ فرد منها؛ ويجاب عنه بما تقدم في الذي قبله اهـ.

وأقول: لا يخفى على ذي بصيرة أنّ قوله: ويجاب عنه بما تقدم؛ إعلان بالعجز عن الانفصال عن قولهم: وقد تقرر أن النهي إلى آخره. ومعلوم من الأصول؛ ضعف دلالة الاقتران؛ وأنَّ الجمهور على أن الاقتران في النظم لا يستلزم الاقتران في الحكم؛ وقد وهَّنُوا استدلال إمام دار الهجرة بقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً. . .﴾[1] على انتفاء زكاة الخيل؛ لمَّا قرب الله بينها وبين البغال والحمير التي لا زكاة فيها بالإجماع؛ وأما قوله: إن تحريم المعازف قد علم من دليل آخر؛ فهذا هو موضع النزاع؛ ومتى وجد دليل متفق عليه بين الطرفين؛ فما له ولهذا المختلف فيه.

ثم قال: واحتج المانعون بأحاديث كثيرة تكلم المُجَوِّزون في أسانيدها؛ ويجاب بأنها تنتهض بمجموعها لأن تكون من قسم الحسن لغيره اهـ.

وأقول: إن هذا الإجمال أشبه بتقرير قاعدة حديثية أو أصولية؛ منه بتقرير قضيّة جزئية فقهية؛ وإنما يقبل منه مثل ذلك في الفقه؛ إذا أورد الأحاديث وطرقها؛ حتى ينظر الناظر هل تبلغ درجة الحسن أم لا؟

ثم قال بعد الإطالة: وإذا تقرر جميع ما حررناه من حجج الطريقين؛ فلا يخفى على الناظر؛ أنَّ محل النزاع إذا خرج عن دائرة الحرام؛ لم يخرج عن دائرة الاشتباه؛ والمؤمنون وقَّافون عند الشبهات؛ كما صرح به في الحديث الصحيح؛ ومن تركها؛ فقد استبرأ لعرضه ودينه؛ ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه. (انتهى كلام الشوكاني بيسير تصرف ولقط واختصار؛ وآخره جَدُّ نفيس).

ولكني أقول لك: إنّني قد كنت متشدداً في تحريم هذه الآلات؛ بناء على ما

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨.

أصفق عليه فقهاء المذاهب؛ ولما نظرت في أدِلَّة التحريم؛ فإذا هي أوهى من خيوط العنكبوت؛ والله أعلم.

أما سماع الأوتار من الآلة الحاكية؛ فقد أفتى بحلّة جماعة؛ منهم أحد السادة المهادلة؛ متوكئاً على ما قرره ابن حجر؛ من حِلِّ النظر بشرطه إلى مثال المرأة في المرآة، ورد عليه الشيخ محمد على المكِّي؛ برسالة سماها أنوار الشروق في بيان حكم الصندوق؛ وقرَّضها السيد محمد عبد الحي الكتاني؛ والشيخ عبد الله النابلسي ثم المكِّي. والنظر متوجه إلى أدلّة الطرفين؛ ومع ما قدمناه من الاختلاف في الأصل؛ فلا حاجة إلى الإطالة في الفرع؛ ومهما يكن من الأمر؛ فكلام الأهدل هو الذي تميل إليه النفس. أمَّا سماعها من المذياع؛ فإنها هي بنفسها؛ فلا يتأتَّى فيه هذا الاختلاف؛ إلّا أنني رأيت الفقهاء يقولون في باب البيع: لو لم يسمع أحد العاقدين كلام الآخر؛ ولكن نقله إليه الريح؛ لم يكف؛ وهذا مما يستوقف النظر والله أعلم.

■ المسألة الثالثة:

قد علم من الحديثين؛ أن ما تُغنِّي به القيان إذ ذاك؛ هو المراثي؛ وقد أشكلت على كثير من الناس؛ المناسبة بينها وبين يوم العرس والعيد، والجواب من وجوه؛ أحدهما: أنَّ كل إنسانٍ محزون لا محالة؛ والتسبب باستفراغ الحزن وسيلة إلى نهاية السرور. فالمؤذي؛ إنما هو إخفاء الوجد والتكتُّم بالأحزان؛ بخلاف إظهارها؛ فإنه مجلبة الراحة منها. وخير الأوقات وأنسبها لاستجلاب الراحة والتداوي من الهموم والأحزان؛ هو يوم العرس؛ ويوم العيد؛ ويشهد لهذا قول امرئ القيس:

وَإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ لَوْ سَفَحْتُهَا   وَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوِّلِ

وقول الخنساء:

إِنَّ البُكَاءَ هُوَ الشِّفَاء   مِنَ الجَوَى بَيْنَ الجَوَانِح

وقول ذي الرمة:

لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً ... مِنَ الوَجْدِ أوْ يُشْفِي نَجِيَّ البَلابِلِ

وقول كثير:

وَقَالُوا نَأَتْ فَاخْتَرْ لَهَا الصَّبْرَ وَالبُكَاء ... فَقُلتُ: البُكَاء أَشْفَى إذَنْ لِغَلِيلِي

وقول الفرزدق:

سَأبْكِيكَ حَتَّى تُنْفِدُ العَينَ مَاءَهَا ... وَيُشْفِيَ مِنِّي الدّمْعُ مَا أتَوَجَعُ

وقوله:

فَقُلتُ لَهَا: إنَّ البُكَاءَ لَرَاحَةٌ ... بِهِ يُشْتَفَى مِنْ ظَنٍّ أنْ لا تَلاقِيَا

وقول أحد موالي بني أميّه؛ يرثيهم؛ وهو أبو سعيد مولى فائد[١]:

أُولئِكَ قَوْمِي بَعْدَ عِزٍّ وَثَرْوَةٍ ... تَفَانَوْا فَألَّا تَذْرِفُ العَينُ أكْمَدَا

وقول بشار بن برد:

وَجَدتُ دُمُوعَ العَينِ تَجْرِي غُرُوبُهَا ... أَخَفَّ عَلَى المَحْزُونِ وَالصَّبْرُ أجْمَلُ

وقول آخر:

شَجَاكَ مِنْ لَيْلَتِكَ الطُّولُ ... فَالدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيكَ مَسْبُولُ

وَهْوَ إذَا أنْتَ تَأمَّلْتَهُ ... حُزْنٌ عَلَى الخَدَّينِ مَحْلُولُ

قال الواقدي: وكان الأسود بن المطلب عَمِيَ؛ وكمد على من قتل من ولده يوم بدر؛ وكانوا ثلاثة؛ وأحب أن يبكي؛ فأبت عليه قريش؛ فإذا خُلِّيِ؛ ألقى لنفسه العنان في البكاء.

ولما احتضر أيوب بن سليمان بن عبد الملك؛ وكان ولي العهد؛ دخل أبوه

(١) أبو سعيد مولى فائد، وفائد مولى عمرو بن عثمان بن عفان ﷺ، وذكر أن اسم أبي سعيد إِبْرَاهِيم. وهو يعرف في الشعراء بابن أبي سنة مولى بني أمية.

وهو يجود بنفسه؛ ومعه عمر بن عبد العزيز وسعيد بن عقبة ورجاء بن حيوة؛ فجعل ينظر في وجه أيوب؛ فخنقته العبرة؛ وقال: إني أجد لوعة في قلبي؛ إن أنا لم أُبَرِّدها خفت أن يتصدع كبدي كمداً؛ فقال له عمر: يا أمير المؤمنين الصبر أولى بك؛ فلا يحبطَنَّ أجرك؛ قال سعيد بن عقبة: فنظر إليَّ؛ وإلى رجاء بن حيوة[1]؛ نظر مستغيث يرجو أن نساعده على البكاء؛ فأما أنا؛ فكرهت أن آمره أو أنهاه؛ وأمَّا رجاء فقال: يا أمير المؤمنين؛ إني لا أرى بذلك بأساً؛ ما لم يأت الأمر المفرط؛ وقد بلغني أن النبي ﷺ؛ دمعت عيناه لما مات إبراهيم؛ وقال: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلّا ما يرضي** ربنا، **وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»؛ فبكى سليمان حتى اشتد بكاؤه؛ وظننا أن قد انقطع نياط قلبه؛ فقال عمر بن عبد العزيز: بئسما صنعت يا أمير المؤمنين! فقال: دعه يا أبا حفص يقضي وطراً من بكائه؛ فإنه لو لم يخرج ما ترى من صدره؛ خفت أن يأتي عليه. ثم أمسك عن البكاء وغسل وجهه؛ وقضى الفتى؛ فأمر بجهازه وخرج يمشي أمام جنازته؛ ولله درّ القائل:

وَغُصَّةَ وَجْدٍ أَظْهَرَتْهَا فَرَقَّهَتْ ... حَرَارَةَ جَمْرٍ فِي الجَوَائِحِ وَالصَّدْرِ

وأما أبو تمام؛ فقد أخطأ في قوله:

أَجْدَرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ إِطْفَاؤُهَا ... بِالدَّمْعِ أَنْ تَزْدَادَ طُولَ وقُودِ

وروي عن أبي بكر بن عياش[2] أنه قال: كنت أتجلد في شبابي للمصائب؛ وأدفع البكاء بالصبر؛ وكان ذلك يؤذيني ويؤلمني؛ حتى رأيت أعرابياً ينشد «لعل

---

(١) رجاء بن حيوة الكندي، فقيه وخطاك، اشتهر بأنه أحد المهندسين الاثنين اللذين أشرفا على تفاصيل النقوش الإسلامية داخل قبة الصخرة في القدس عيّنه عبد الملك بن مروان وزيراً ومستشاراً بعد أن ذاع صيته بين العلماء، وكان من مستشاري سليمان بن عبد الملك وممن أشار عليه بتولية عمر بن عبد العزيز من بعده وكان ملازماً للخليفة عمر بن عبد العزيز ولم يصاحب خليفة بعد وفاته.

(٢) المحدث؛ شيخ الإسلام ولد سنة ٩٥هـ.

انحدار الدمع؛ البيت السابق. . .» فسألت عنه؛ فقيل: ذو الرمَّة؛ فأصابني بعد ذلك مصائب؛ فكنت أبكي فأجد لذلك راحة؛ فقلت: قاتل الله الأعرابي ما كان أبصره. وتحت قول امرئ القيس «لو سفحها» معنى شريف؛ يدل به على أنه كان قويَّ النفس؛ صليب العود؛ أبيّ القلب؛ عصيّ الدمع؛ وإذا اضطر إليه؛ تكتَّم به كما قال:

ظَلَلْتُ رِدَائي فوق رَأسِيَ قَاعِداً أَعُدُّ الحَصَى مَا تَنْقَضِي عَبَرَاتِي

فلم يقتنع إلّا تجلداً؛ كما قال مالك بن الريب:

أَجَبْتُ الهَوَى لمَّا دَعَانِي بِزَفْرَةٍ تَقَنَّعْتُ مِنَهَا أنْ أُلامَ رِدَائِيَا

وبعضهم يروي بيت امرئ القيس «وإن شفائي عبرة مهراقة» ولكن ليس فيه أنه أهرقها علناً؛ بل إما لم يهرقها أصلاً؛ أو أهرقها متستراً؛ كما في بيته الآخر. وقد تأثر أبو فراس الحمداني في التجلد إذ يقول:

أَرَاكَ عَصَيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ أَمَا لِلهَوَى نَهْيٌ عَلَيكَ وَلا أمْرُ

بَلَى أنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِيَ لَوْعَةٌ وَلَكِنَّ مِثْلِي لا يُذَاع لَهُ سِرُّ

إذَا الليلُ أضْوَانِي بَسَطتُ يَدَ الهَوَى وَأَذْلَلتُ دَمْعاً مِنْ خَلائِقِهِ الكِبرُ

وقوله:

لَقَدْ كُنْتُ أُوْلَى مِنْكَ بِالدَّمْعِ مُقْلَةً وَلكِنَّ دَمْعِي فِي الحَوَادِثِ غَالِي

إلّا أنه ربما لوحظ عليه؛ أن لا دمع للحمام[1]. وقد أخذت بنصيبي من هذا المعنى؛ وكررته في عدة قصائد رثائية ووداعيَّة؛ لا أثقل بشيء منها.

ثانيها: أن الغفلة في أيام الأعياد والأعراس تكون هي الغالبة؛ فلات التذكير بالموت؛ والتنبيه على الفوت؛ ومن هنا تجد كثيراً من الخطباء؛ يبالغون

---

(١) يشير الإمام إلى مطلع هذه القصيدة الشهيرة وهو:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتي لو تشعرين بحالي

في العظة بذلك أيام الأعياد؛ وبلغني عن بعض السلف الأجلاء من العلويين؛ إنكاره على مُنشِدٍ استَهَلَّ بمرثية في يوم عيد؛ وهو محجوج بما جاء في الحديثين.

ثالثها: أن يوم بُعَاث[١]؛ يوم قدمّه الله لرسوله ﷺ؛ فالمؤمنون يحصل لهم فرح بذكره؛ وتشفٍّ بمن قتل من سروات الأنصار؛ كذا زعم بعضهم؛ وهو بالنسبة لحديث عائشة بعيد؛ وبالنسبة لحديث الربيع مستحيل؛ وما زالت العرب أهلُ فِطَرٍ سليمة؛ وعواطف رقيقة؛ وأذواق صافية؛ وما زال الشعر العذب يستمطر شآبيب الدموع من سامعيه. ولو كانوا من أعداء المموَّل فيه؛ ألا ترى أنه ﷺ؛ بكى من رثاء قتيلة بنت النضر في أبيها؛ أو أخيها؛ وتمنى أن لو كان حيّاً فوهبه لها. ومن شأن العرب أن تتخالس المُهَجْ؛ وتتخاطف النفوس؛ وتتماصع بالسيوف؛ ثم ترجع إلى أواصر القرابة وفضول الأحلام؛ فتبكي؛ ولها في ذلك أشعار كثيرة؛ أولها فيما أعرف؛ قول المهلهل:

أَكْثَرتُ قَتْلَى بَنِي بَكْرٍ بِرَبِّهُمُ حَتَّى بَكَيتُ وَمَا يَبْكِي لَهُمْ أَحَدُ

وقوله:

بِكُرْهِ قُلوبِنَا يَا آل بَكْرٍ نُغَادِيكُم بِمُرْهَفَةِ النِّصَالِ
وَنَبكِي حِينَ نَذْكرُ كَمْ عَليكُمْ وَنَقْتُلُكُم كَأنَّا لا نُبَالِي

وقال قيس بن زهير؛ يرثي حمل بن بدر وأخاه عيينة؛ وكان قتلهما يوم جفر الهباءة[٢]:

شَفَيْتُ النَّفْسَ مِنْ حَمْلِ بن بَدْرٍ وَسَيْفِي مِنْ عُيَيْنَةَ قَدَ شَفَانِي

---

(١) يوم بعاث هي آخر معركة في الجاهلية بين الأوس والخزرج وتعدّ أشد معركة بينهم وقد وقعت قبل الهجرة بخمس سنوات وتركتهم مثخنين مما سهل دخولهم للإسلام وبعاث اسم المكان الذي دارت فيه الحرب.

(٢) يوم جفر الهباءة من أيام حرب داحس والغبراء وهي حرب طويلة نشبت بين عبس وذبيان وداحس والغبراء اسم فرسين.

وَإنْ أكُ قَدْ شَفَيتُ غَلِيلَ صَدْرِي فَلَمْ أقْطَعْ بِهِمْ إلَّا بَنَانِي

وقال حصين بن الحمام:

نُفَلِّقُ هَاماً مِنْ رِجَالٍ أعِزَّةٍ عَلَينَا وَهُمْ كَانُوا أعَقَّ وَأظْلَمَا

وقال العديل بن الفرخ:

وإنِّي وَإنْ عَادَيتُهُمْ أوْ جَفَوتُهُمْ لِتَألَمَ مِمَا عَلَّ أكْبَادَهم كَبدِي

وقال منصور النمري للرشيد؛ يصف ما فعله في آل عليّ:

وإنَّكَ حِينَ تُبْلِغُهُمْ أذَاةً وَإنْ ظَلَمُوا لَمُحْتَرِقِ الضَّمِيرِ

وقال المتنبي:

وَكَيفَ يَتِمُّ بأسُكَ فَي أنَاسٍ تُصِيبُهُم فَيُؤلِمَكَ المُصَابُ

وقصبة السبق في هذا المعنى؛ للبحتري إذ يقول:

تُقَتِّلُ مِنْ وَتَرٍ أعَزَّ نُفُوسَهَا عَلَيْهَا بَأيْدٍ مَا تَكَادُ تُطِيعُهَا

إذَا احتَرَبَتْ يَوماً فَفَاضَتْ دِمَاؤهَا تَذَكَّرت القُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعَهَا.

■ المسألة الرابعة:

قال الإمام الغزالي: لله سرّ في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح؛ حتى أنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً؛ فمن الأصوات ما يُفْرِحْ؛ ومنها ما يُحْزِنْ؛ ومنها ما ينوِّم؛ ومنها ما يُضحِكْ ويُطْرِبْ؛ ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها؛ باليد والرجل والرأس؛ ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر؛ وكيف يكون كذلك؛ وتأثيره مشاهدٌ في الصبي في مهده؛ فإنه يسكته الصوت الطيّب من بكائه؛ والجمل مع بلادة طبعه؛ يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الأحمال الثقيلة؛ ويستقصر مع سماعه المسافات الطويلة؛ وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه؛ فتراها إذا طالت عليها المرامي واعتراها الكلال؛ تحت ثقل المحامل والأحمال؛ إذا سمعت منادي الحداء؛ مدَّت أعناقها؛ وأصغت إلى

الحادي ناصبة آذانها؛ وأسرعت في سيرها حتى تتزعزع أحمالها ومحاملها.

وقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرِّقِّي؛ قال: كنت في البادية؛ فوافيت قبيلة من قبائل العرب؛ فأضافني رجل منهم؛ وإذا في خبائه عبد أسود مقيَّد؛ وجمال قد ماتت قريباً من البيت؛ وبقي منها جمل ناحل ذابل؛ كأنما تنزع روحه؛ فقال لي الغلام: أنت ضيف ولك حق؛ فتشفَّع في إطلاقي؛ فلما أحضروا الطعام؛ امتنعت؛ أو يَفُكَّ الغلام؛ فقال: إنَّ هذا العبد أفقرني؛ وأهلك مالي؛ فقلت: ما فعل؟ قال: إن له صوتاً طيّباً؛ وكنت أعيش من ظهور هذه الجمال؛ فحمَّلها أثقالاً؛ وحدا بها؛ حتى قطعت مسيرة ثلاث ليال في ليلة واحدة؛ من طيب نغمته؛ فلما حطَّت أثقالها ماتت كلها؛ إلّا هذا الجمل الواحد؛ ولكن أنت ضيفي ولكرامتك وهبته لك. قال فأحببت أن أسمع صوته؛ فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقي الماء من بير هناك؛ فلما رفع صوته هام الجمل وقطع حباله ووقعت على وجهي؛ فما أظن أني سمعت صوتاً أطيب منه.

قال: فإذاً تأثير السماع في القلب محسوس؛ ومن لم يحركه فهو ناقص؛ مائل عن الاعتدال؛ بعيد من الروحانية؛ زائد في غلظ الطبع وكثافته على الطيور والجمال؛ بل على سائر البهائم؛ فإنها جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة (اهـ بنوع من التصرف).

■ ولنا في هذا الكلام تعليقات:

الأول: على قوله فمن الأصوات ما يفرح إلخ. فإنه ما أخذه إلّا مما وقع لأبي نصر الفارابي[1] عند سيف الدولة؛ وذلك أنه أحضر القِيَانْ؛ وكُلَّ ماهرٍ في هذه الصنعة بآلاتهم؛ فلم يحرك أحد منهم آلته؛ إلّا وعابه أبو نصر؛ وقال له:

(١) أبو نصر محمد الفارابي ولد في تركستان في سنة ٢٦٠هـ فيلسوف وعالم مسلم قضى حياته في العلم وبرع في الطب والرياضيات والموسيقى كان كثير الأسفار لتلقي العلم وأقام في بلاط سيف الدولة بحلب لفترة وله عدة مصنفات ومات بدمشق.

أخطأت؛ فقال له سيف الدولة: وهل تحسن شيئاً في هذه الصنعة؟ قال: نعم؛ ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها؛ وأخرج منها عيداناً وركبها؛ ثم لعب بها فضحك كلُّ من في المجلس؛ ثم حلَّها وركبها تركيباً آخر؛ ثم ضرب بها فبكى كل من في المجلس؛ ثم فكَّها وغيَّر تركيبها وضرب بها ضرباً آخر؛ فنام كل من في المجلس؛ حتى البواب؛ فتركهم نياماً وخرج. ذكرها ابن خلكان في حديث أطول من هذا؛ ولكنا اختصرنا منه على المناسب؛ وهي موجودة عند كثير من المؤرخين.

الثاني: قد سبقت الإشارة إلى قصة العبد والجِمَالْ في فائدة سابقة بإيجاز؛ ولما حانت المناسبة اقتصصناها بحذافيرها؛ ولم نقتضب السياق؛ وفي أمثالها كثرة؛ ومنه ما ذكر عن البعلبكي؛ فقد أمر بتعطيش الإبل لعشر؛ ولما أطلقوها عليه بعد تلك المدة؛ ورأته في الحيضان مثل بطون الحيات؛ وفغرت بأفواهها فيه؛ شرع في الحداء؛ فرفعت رؤوسها وهامت؛ وسالت من محاجرها الدموع؛ ولله در كشاجم في قوله:

إِنْ كُنْتَ تُنْكِرُ أَنَّ فِي الـ ... أَلْحَانِ فَائِدَةً وَنَفْعَا
فَانْظُرْ إِلَى الإِبِلِ الَّتِي ... لا شَكَّ أَغْلَظُ مِنْكَ طَبْعَا
تُصْغِي لأَصْوَاتِ الحُدَاةِ ... فَتَقْطَعُ الفَلَوَاتِ قَطْعَا

وأما قوله: ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم الشعر إلخ؛ فصحيح؛ ولحميد بن ثور فيه شعر جميل لم يحضرني الآن(١)؛ وقال أبو تمام(٢):

وَلَمْ أَفْهَمْ مَعَانِيهَا وَلَكِنْ ... شَجَتْ قَلْبِي فَأَشْجَانِي شَجَاهَا

---

(١) ومنه تفهم أن كل ما في كتب الإمام من الفقه والشعر والأدب يقولها ويكتبها من ذاكرته الخارقة دون الرجوع إلى ديوان أو كتاب.

(٢) حُكيَ أن أبا تمام سمع جاريةً تُغني بالفارسية فشجاهُ صوتها فقال:

ولم أفهم معانيها ولكن ... شجَتْ قلبي فلم أحمل شجاها
فكنت كأنني أعمى مُعَنّى ... يحبُّ الغانيات ولا يراها

أو ما يقرب منه؛ وقد ثبت في الصحيح؛ قوله ﷺ: «**رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ**».

الثالث: ذكر الإمام الغزالي وغيره؛ من حوادث السماع؛ ومن مات عنده؛ الشيء الكثير؛ ومن أغربه ما ذكره ابن خلكان: أنَّ بعض تلاميذ ذي النون المصري[1]؛ قدم بغداد وحضر بها سماعاً فلما طاب القوم وتواجدوا؛ قام ذلك الفقير ودار؛ ثم صرخ فإذا هو ميت؛ فبلغ خبره الشيخ؛ فقال لأصحابه: تجهزوا حتى نمشي إلى بغداد؛ وساعة قدومهم إليها؛ قال الشيخ: ائتوني بذلك المغني فأحضروه؛ فسأله عن القصة فقصَّها؛ فقال له: مبارك؛ ثم شرع هو وجماعته في الغناء؛ فعند ابتدائه؛ صرخ الشيخ على ذلك المغنّي فوقع ميتاً؛ فقال: قتيل بقتيل؛ أخذنا ثأر صاحبنا؛ ثم أخذ في التجهيز والرجوع إلى الديار المصرية؛ ولم يلبث ببغداد؛ بل عاد من فوره.

قال ابن خلكان: وقد جرى في زماننا ما يليق أن نحكيه؛ وذلك أنه كان عندنا بمدينة إربل؛ مغن موصوف بالإجادة والحذق؛ يقال له شجاع جبريل ابن الأواني؛ فحضر سماعاً قبل سنة ٦٠٣ هـ؛ فغنى فيه بقصيدة ابن التعاويذي؛ التي يقول فيها:

وَلَّى إِلَى البَانِ مِنْ رَمْلِ الحِمَى طَرِبٌ ... فَاليوم لا الرَّمْلُ يُصْبِينِي وَلا البَانُ

وَمَا عَسَى يُدْرِكُ المُشْتَاقُ مِنْ وَطَرٍ ... إِذَا بَكَى الرَّبْعُ وَالأَحَبَابُ قَدْ بَانُوا

فلما انتهى إلى بيت منها؛ استعاده بعض الحاضرين؛ فأعاده مرتين أو ثلاثاً؛ وذلك الرجل يتواجد؛ ثم صرخ فإذا هو ميّت اهـ.

---

(١) اسمه ثوبان بن إبراهيم ولقبه ذو النون من أعلام التصوف ولد بمصر سنة ١٧٩هـ وتوفي سنة ٢٤٥هـ وكان من الفقهاء والمحدثين سافر إلى الشام والحجاز ويقال إنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع والمقامات والأحوال اتهم بالزندقة فاستجلبه المتوكل إلى بغداد فوعظه فبكى المتوكل فرده إلى مصر مكرماً معززاً.

ولكن في صياح ذي النون في وجه المغني بقصد قتله ما يشكل ظاهره، وكان على القاضي أن يشير إلى ما فيه؛ لأنه حاكم ووظيفته توجب عليه النظر في ذلك؛ ولكنه مع الأسف لم يفعل؛ وفي كتابنا العود الهندي طرف من أمثال هذه الوقائع. ويعجبني في تأثير الصوت الحسن قول بعض العصريين[١] في مغنٍّ:

يَسْمَعُ الليلُ مِنهُ فِي الفَجْرِ (يالَيل) فَيُصْغِي مُسْتَمْهِلاً فِي فِرَارِه

فإنه معنى جميل لم يسبق إليه؛ فما أظن إلّا أنه محتاج إلى لفظ أفصح؛ وتركيب أحلى؛ وقالب أبدع؛ أما الآن فهو كالراح في الخزفة. ثم رأيت بعض شعراء الأندلس تجاوز حدَّ الإحسان في قوله:

يُثْنِي الحَمَامَ عَنِ الرجوعِ لِوَكْرِهِ طَرَباً وَرِزْقُ بَنِيهِ فِي مِنْقَارِهِ

■ المسألة الخامسة:

قيل: إن أول من صنع العود مالك بن آدم عليه السلام لما مات ولده. وفي تفسير البغوي وغيره؛ أن أولاد قابيل اتخذوا آلات اللهو؛ من اليراع والطبول والمزامير والعيدان والطنابير؛ وانهمكوا في اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والزنا والفواحش؛ حتى أغرقهم الله بالطوفان في أيام نوح؛ ولم يبق من ذرية قابيل أحد؛ وإنما بقيت ذرية شيث بن آدم؛ وفي الجزء الأول من إكليل الهمداني: أن نوتيل الفاسق؛ من ولد قاين بن آدم هو أول من ابتدع الملاهي وأظهر الفسوق اهـ.

والجمهور على أن أول من اخترع آلة الطرب هو فيثاغورس؛ تلميذ سليمان عليه السلام؛ وغنى عليها بشعر في التوحيد والتزهيد؛ فأعرض به خلق عن الدنيا؛ واشتد إقبالهم على الآخرة؛ وزاد أرسطو نغمة في الطنبور؛ وكان غرضهم

(١) البيت للشاعر أحمد شوقي وقد لاحظت أن الإمام يتحاشى ذكر الشعراء العصريين بأسمائهم وكأنه لا يأبه بهم لأنه لم يعرف إلّا الفحول من أمثال البحتري والمتنبي وأبو تمام وأمثالهم لكنه يستمتع بأي معنى جميل أو غريب في أشعارهم فيأتي به منفرداً ولكنه قد يعلق عليه كما فعل بهذا البيت.

تشويق النفوس الناطقة إلى عالم القدس؛ وبهم اقتدى السادة الصوفية في السماع؛ إلّا أن بعضهم أفرط فيه؛ واستعمله في المساجد؛ فأنكر عليهم بعض أئمة الشرع؛ ومن أشدهم وطأة في الإنكار عليهم؛ الإمام ابن المقري[1] مؤلف الإرشاد والروض؛ وما أظنه يبالغ في ذلك؛ إلّا وقد رأى من متصوفة وقته ما يوجب ذلك عليه؛ حسبما يعرف من قوله:

وَأَنْتُمْ يَبِيتُ المَرْءُ فِي حِلقَةِ الغِنَا   وَبيْنَ المَلاهي رَاقصاً وَهوَ يُطْرِبُ
يَقُولُ ألا غَنُّوا فَهَذَا نَبيُّكُم   حَبيبُكُم بِه دَارُ الكَرَامَةِ يَثْرِبُ

أو ما يقرب من هذا؛ وكأنَّما نظر بلحظ الغيب إلى بعض أهل بلادنا حيث يقول:

سَقَاف نِسْنِس عَلَى الهَاجِرْ   وَحَكِّمُوا شَلَّة الدَّانْ
المُصْطَفَى بينَنَا حَاضِرْ   حَدرَاه ياعمش لا عَيَانْ

وأهل بلادنا يعرفون معنى هذا؛ فلا حاجة لشرحه.

وفي إغاثة اللهفان لابن القيِّم؛ نعيٌ على أفعالهم وتشهيرٌ بهم؛ وقال: من لم يطربه قرآن فلا شفاه الله أبداً. وقد تباينت المذاهب؛ واختلفت المشارب؛ ولله در المنازي في قوله:

لَقَدْ عَرَضَ الحَمَامُ لَنَا بِسِلعٍ   إذَا غَنَّى لَهُ رَكْبٌ ألاحَا
شَجَى قَلبَ الخَليِّ فَقَالَ غنِّي   وَبَرَّحَ بِالشَّجِيِّ فَقَالَ نَاحَا

وقال ابن حجر في فتاويه: ولا يحرم ذاك؛ يعني الرقص وضرب الدفوف في المسجد؛ إلّا أن يَضُرَّ المسجد؛ أو حُصَرِه؛ أو شوَّش على نحو مُصَلٍّ فيه؛ أو نائم.

---

(١) هو الإمام إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله الشرجي اليمني المعروف بابن المقري الزبيدي ولد سنة ٧٥٤هـ وتوفي سنة ٨٣٧هـ.

وقد رقص الحبشة في المسجد؛ وهو ﷺ ينظر إليهم؛ وأخرج الترمذي وابن ماجه عن عائشة؛ أنه ﷺ قال: «**أَعْلِنُوا هَذَا النِّكَاحَ وَاجْعَلُوهُ فِي الْمَسَاجِدِ وَاضْرِبُوا عَلَيْهِ بِالدُّفُوفِ**»؛ ففيه إشارة إلى جواز ضرب الدُّف في المساجد لأجله؛ وغيره مقيسٌ عليه اهـ.

وقال السيوطي: المشهور في المذاهب الأربعة تحريم آلات اللهو؛ وأجازها طائفة؛ منهم أهل الظاهر[1]؛ والمختار في هذه المسألة؛ ما ذهب إليه محققون منهم؛ وبسط عز الدين بن عبد السلام إباحة ذلك للصوفية خاصة؛ وتحريمه على غيرهم؛ وبسط ذلك في حواشي الروضة اهـ (وإنما عدنا لمثل هذا بعد أن خرجنا منه لما فيه من الفرق بين الصوفية وغيرهم)؛ وما أشار إليه عن عز الدين؛ لعله يعني قوله في قواعده: من كان عنده هوىً مباح؛ كعشق زوجته وأمته؛ فسماعه لا بأس به، ومن قال: لا أجد في نفسي شيئاً؛ فالسماع في حقه ليس بمحرَّم. وقال في فتواه للشيخ أبي عبد الله بن النعمان: سماع ما يحرك الأحوال السنية؛ المُذَكِّرة للإخوان؛ مندوب؛ وقاله الغزالي في الإحياء؛ وقال ابن فورك: من سمع الغناء؛ والقول على تأويلٍ نطق به القرآن؛ أو جاءت به السنة؛ أو على طريق الرغبة إلى الله والرهبة؛ فهنيئاً له؛ ومن سمعه على اعتقاد معنى في المسموع؛ في الأنبياء والأولياء؛ فحاله أتم ممن تقدم؛ وهو الذي يسمعه في جاريته وفي زوجته؛ ومن سمعه على حظ نفسه في القينات فليستغفر الله تعالى. ولهذا **قال الجنيد**: السماع على ثلاثة أضرب: العوام والزهاد والعارفون، فأما العوام: فحرام عليهم لبقاء نفوسهم، وأما الزهاد: فيباح لهم لحصول مجاهدتهم، وأما أصحابنا: فيستحب لهم. وإلى هذا مال أبو طالب المكي في القوت؛ والسهروردي في العوارف؛ وقال أبو طالب: إذا أنكرنا السماع من غير

---

(١) يختلف المذهب الظاهري بأن يعتمد على الظاهر من الكتاب والسنة ولا يعتمد الرأي ولا القياس ولا الإجماع وقد بدأ على يد داود الظاهري والذي كان بالأصل شافعياً ثم على يد ابنه ثم على يد ابن حزم الأندلسي إلّا أن هذا المذهب لم يعد موجوداً في الزمن الحالي إلّا لدى قلائل.

تفصيل؛ فقد أنكرنا على سبعين صديقاً. وقال بعض العارفين: السماع لما سمع له؛ كماء زمزم لما شرب له. وقال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**». وقال أبو الطيب:

وَقَدْ يَتَقَارَبُ الوَصْفَانِ جِدّاً وَمَوصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ

ولكن لا ذكر للآلات في كلام ابن عبد السلام ولا فيما بعده؛ وإنما هو في مجرد السماع؛ ولكن السيوطي أعرف بحالهم؛ وعبارته كالصريحة؛ في أن المراد من السماع ما اشتمل عليها.

وكان بعض المتكلمين يقول: قد اختلف الناس في السماع؛ فأباحه قوم؛ وحضره آخرون؛ وأنا أخالف الفريقين؛ وأقول: إنه واجب؛ لكثرة منافعه؛ وحاجة النفس إليه؛ وحسن أثر استماعها به. ومن الهند من يقدِّس الغناء إلى غاية بعيدة؛ حتى أنهم يزعمون أن بعض مطربيهم؛ إذا غنَّى بأناشيد النار اشتعلت المصابيح المطفأة؛ وإذا غنَّى بأناشيد الماء؛ انهلت الأمطار والسماء مصحية.

ولنصل الكلام بنادرة تناسب بعض فصوله؛ ذكروا أنَّ ابن عائشة[1]؛ وقف على رابية ليلةً من منىً؛ فمر به بعض أصحابه؛ وقال له: ما يعنيك هنا؟ قال: أعرف رجلاً لو تكلم لحبس الناس؛ فلم يذهب ذاهب؛ ولم يأتِ آتٍ؛ فقال صاحبه: من هو؟ قال: أنا؛ ثم اندفع يغني:

جَرَتْ سَنُحاً فَقُلْتُ لَهَا أجِيزِي نَوَىً مَشْمُولَةٌ فَمَتَى اللِّقَاءُ
بِنَفْسِي مِنْ تَذَكُّرِهِ سِقَامٌ أُعَانِيهِ وَمَطْلَبُهُ عَنَاءُ

فازدحم الناس؛ واضطربت المحامل؛ ومدت أعناقها الجمال؛ وكادت تقع الفتنة؛ فساقوه إلى هشام بن عبد الملك؛ فقال له: يا عدوَّ الله؛ أردت فتنة الناس؟ فلم يجبه؛ وكان تيّاهاً؛ فقال له هشام بن عبد الملك: نهنه من تيهك؛

---

(١) من المغنين لم يعرف اسم أبيه قالوا: وكان ابن عائشة يفتن كل من سمعه، وأخذ عن معبد ومالك بن أبي السمح، وكان تياهاً سيئ الخلق.

فقال: يحق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تيّاهاً؛ فضحك هشام وخلَّى سبيله.

وقال علي بن الجهم: وغنى بهذا الشعر ابن أبي الكنات؛ وكنا إذ ذاك على دجلة؛ وكانت عليها ثلاثة جسور؛ فامتلأت بالناس؛ وانقطعت الطرق. وكادت تضعضع الجسور من ثقل الازدحام؛ فَرُفِعَ إلى الرشيد؛ فقال: ماذا أردت يا عدو الله؟؛ قال: بلغني أنَّ ابن عائشة فعل هذا في أيام هشام؛ فأردت أن يكون في أيامك مثله؛ فأعجبه ذلك وأمر له بمال؛ واحتبسه عنده شهراً يغني له.

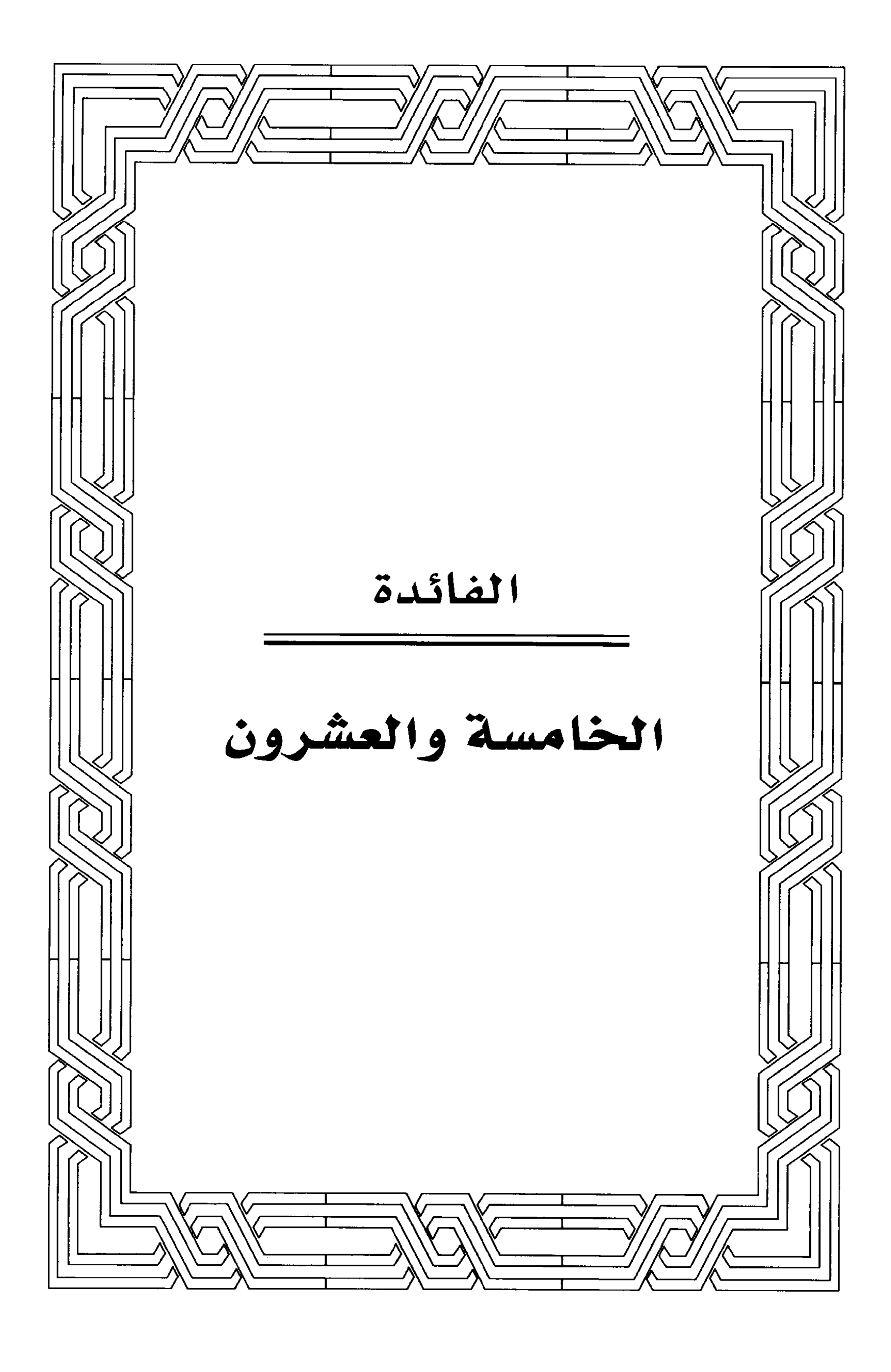
ثم إن ما خضعنا له من القول؛ وأطلنا فيه من الجول؛ مشروط بسلامة العاقبة؛ والأمن من مواقع الفساد؛ ومعاذ الله أن نعطي المجانين الحصى؛ أو نسقي سيون القطاع السم[1]؛ ولا ننكر أن السماع؛ ولا سيما إذا كان بلا آلة؛ قد يكون قربة؛ كما سبق؛ لمن تهتز روحه؛ وتتوالى فتوحه؛ وينقدح زناده؛ ويصوب عهاده؛ ويضطرب وساده؛ وتغور له نجاده؛ أولئك قوم تغشاهم اللوائح؛ ولا تثملهم الردائح؛ وتطربهم الصوادح:

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ ... لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوَى وَالدَّكَادِكِ

فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى ... دَعُونِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ



(١) هذه العبارة غير واضحة في المخطوطة.



الفائدة

الخامسة والعشرون

كتاب الزكاة

الفائدة الخامسة والعشرون

قوله ﷺ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**» وقوله: «**إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ**»؛ لا يظهر التئامه بقول عائشة أولاً؛ وحفصة ثانياً: «**إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رقيق إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعْ النَّاسَ مِنْ الْبُكَاءِ فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ. . .**» إلى آخر الحديث. فإن تلك لا تصلح لهذه؛ لولا أن في المسألة كميناً؛ وضميراً مستتراً؛ لا يحب الشرَّاح أن يوفوه حقه من التوضيح؛ إذ يبعد القول بأنهم لم يفهموه، وزن بعقلك ما نقول فيه؛ وتأمله بعين بصيرتك؛ وانبذ التقليد وراء ظهرك؛ وانظر بعين النقد البريء؛ والتحليل العلمي؛ واعتبره بما جُبِلَتْ عليه الطباع؛ وما يكون مثله في الغرائز؛ ونظيره في أخلاق الناس؛ وستجد شاهده من ذات نفسك.

وذلك أنه لا يخفى على أحدٍ؛ توقُّد عائشة فهماً؛ واشتعالها ذكاء؛ وتأججها غيرة؛ ولما عرفت أنه ﷺ جادٌّ في تقديم والدها لتلك الصلاة؛ عمدت إلى تأكيد ذلك بما يشبه الذَّم؛ وهو من أبلغ المدح؛ فقالت: إنَّ أبا بكر رجل رقيق؛ إذا قام في مقامك لم يُسْمِعْ الناس من البكاء؛ فأعاد الأمر بتقديم أبي بكر؛ حتَّى اطمأنت نفسها من رسوخ هذه العزيمة عنده؛ ﷺ؛ فأحبَّت أن تُعَرِّف حفصة بمجد أبيها؛ وشريف منزلته؛ وصريح أفضليته على عمر؛ هذا من جهة؛ وأن تؤيِّد كلامها؛ فيما ذكرته لرسول الله ﷺ عن أبيها؛ من مزيد شفقته به؛ وعطفه عليه؛ ورقته له؛ وكمال محبته إيَّاه؛ بشهادة ضرَّتها من الجهة الأخرى؛ فقالت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إن قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء؛ فَمُرْ عمر؛ فأجابت حفصة عن طيب خاطر؛ طمعاً في الرئاسة الدينية لأبيها؛ ولم تنتبه لما في طيَّات ذلك الكلام من الغميزة عليه؛ والإطناب في الثناء على أبي بكر؛ فأرسلته على عواهنه

بدافع الطمع؛ وهيهات أن تسمح ولا ببعضه؛ مع التفطُّن والروّية والتفكير؛ ولكنه ﷺ عرف دخيلة الأمر؛ وفطن لِخبْثه؛ وعلم أنَّ ذلك عن تعليم عائشة؛ وأنَّ حفصة إنما تريد بما ذكرت عن أبي بكر؛ التمهيد لما ترجوه من ورائه لأبيها؛ من نباهة الذكر وعظيم الشرف؛ فقال: «**مه إنكن لأنتن صواحب يوسف**» ولو لم يكن هذا مغزى الكلام؛ لما كان لقوله ﷺ: «**أنتن صواحب يوسف**» معنى؛ ولا التئام بما قبله قط.

عند ذلك أفاقت حفصة من سباتها؛ وانتبهت من غفلتها؛ وعرفت بُعدَ مرمى ضرَّتِها؛ فقالت لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً. وإني لأعجب من ظنِّها بعائشة الغفلة عما طمعت هي فيه، مع أنها خبيرة بنساء تيم؛ وعائشة أشدّهن؛ وفي رواية أنه ﷺ «أمر بأن يؤخذ عنها شطر العلم؛ وفي أخرى ثلثه» وإن تُكُلِّمَ فيهما؛ ولكنه الطمع؛ يُقَرِّب البعيد؛ ويصدِّق المستحيل؛ ويُغَطِّي بصر الحكيم. نعم؛ ربما يقول قائل: ما هو ذنب حفصة حتَّى يشركها مع عائشة في العتاب؛ بقوله: «**إنكن لأنتن صواحب يوسف**»؛ والمكيدة إنما هي لعائشة وحدها؛ والجواب: أنها لما حرصت لأبيها على رئاسة الصلاة؛ وأبعدت نجعتها في الآمال من وراء ذلك؛ وأدمجت غرضها في كلام ظاهره النزاهة؛ استحقت العتاب؛ ولا جرم؛ فكان الجواب لكلتيهما من باب واحد؛ وما زالت المرأتان تتكايدان؛ والحرب سجال؛ ففي الصحيح عن عائشة: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَطَارَتِ الْقُرْعَةُ لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ بِاللَّيْلِ سَارَ مَعَ عَائِشَةَ يَتَحَدَّثُ، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: أَلَا تَرْكَبِينَ اللَّيْلَةَ بَعِيرِي وَأَرْكَبُ بَعِيرَكِ تَنْظُرِينَ وَأَنْظُرُ؟، فَقَالَتْ: بَلَى، فَرَكِبَتْ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَمَلِ عَائِشَةَ وَعَلَيْهِ حَفْصَةُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلُوا وَافْتَقَدَتْهُ عَائِشَةُ، فَلَمَّا نَزَلُوا جَعَلَتْ رِجْلَيْهَا بَيْنَ الْإِذْخِرِ، وَتَقُولُ: يَا رَبِّ، سَلِّطْ عَلَيَّ عَقْرَباً أَوْ حَيَّةً تَلْدَغُنِي وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَهُ شَيْئاً**». وفي الحديث تأكيد ما سبق من حِدَّةِ عائشة؛ فقد أفضى بها سخطها من الانهزام؛ إلى ما يكاد يقرب من الانتحار.

وطعن بعض الشيعة في الحديث؛ بأنَّ أبا بكر مكتوب في غزوة أسامة؛

وأنكر ابن تيمية انتداب أبي بكر وعمر في ذلك البعث؛ ولكن جزم به الحافظ؛ ونقله عن الواقدي وابن سعد وابن إسحاق. وحينئذٍ فالجواب عن ذلك الطعن؛ بأنَّ الجيش لم ينفصل بعد؛ وإنما هو مُعَسْكِرٌ بالجرف؛ على مقربةٍ من المدينة؛ لا يزالون منه إليها في جيئةٍ وذهاب؛ والمأمورية لا تتحقق إلّا بانفصال الجيش ونفوذه؛ على أنَّ تقديمه؛ إن كان للصلوات كلها؛ قد يعتبر ناسخاً لاكتتابه في تلك الغزوة؛ وليس ذلك ما يقضي بأفضلية أبي بكر على عليّ؛ مع اشتغال الثاني بما هو أهم؛ وهو تمريضه ﷺ؛ وإيناسه؛ ولزومه له طيلة تلك الأيام؛ لزوم الظل للشاخص كما روي.

وهنا إشكال يتجسم كبيراً في عيون المحرومين عن النظر بعيون المعدلة؛ في أحوال السلف الطيب؛ وهو: كيف يتصور أن يكون عندهم شيء من الحرص على الدنيا؛ والرغبة في الرئاسة؛ أو يكون لهم أدنى ميل مع الهوى؟ **والجواب عن ذلك**: أنَّ هذا ليس إلّا قول الأغرار الجاهلين المجازفين؛ الذاهبين إلى تقديس صالحي السلف وإخراجهم عن طور البشرية؛ وادِّعاء العصمة لهم؛ وهو خرقٌ في الدين؛ وفسادٌ كبير؛ وفتنةٌ في الأرض؛ وجنايةٌ على المسلمين؛ وذمٌّ للسلف الصالح بنية الثناء عليهم؛ وقد جاء في الصحيح: «إن أيوب التقط الذهب وهو عريان». مع أنه من الأنبياء الذين لا يحد فضلهم بقياس؛ ولا تضرب بهم الأمثال للناس. وفيه أيضاً أنه تعجَّب من حرص العباس؛ وهو الذي يلوذ به الأنام؛ ويستسقي به الغمام؛ وقد جرى بين علي وعثمان ما لا ينكر من المنافسات؛ حتى قال ﷺ: « **أعياني أزواج الأخوات أن يتحابوا**» أو ما يشبه ذلك.

وفي حفظي عن الفتح: أن بعضهم صحَّحَ أن عائشة وحفصة اللتان أشارتا على ابنة الجون؛ بالاستعاذة منه ﷺ؛ لما رأتا من جمالها ووضاءتها[1]؛ ويا لها

---

(١) القصة المشار إليها هي قصة ابنة الجون التي تزوجها النبي ﷺ، فلما أدخلت عليه ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: لقد عذت بعظيم الحقي بأهلك. وهي قصة صحيحة في البخاري وغيره (عن موقع إسلام ويب ـ مركز الفتوى).

من كبيرة؛ لو صدرت من غير الحبيبة؛ لكان حكمها غليظاً؛ أما وقد كانت عائشة؛ فإن الأمر كما في البيت الذي نكرره وهو:

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الفِعْلُ عِنْدِي فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

ولولا شناعة؛ لا تليق بمقام الحبيبة؛ لتمثلنا بقول أبي فراس:

وَبَعْضُ الظَّالِمِينَ وَإِنْ تَعَدَّى شَهِيُّ الظُّلْمِ مَغْفُورُ الذُّنُوبِ

ولكني أتمثل لها بقول الآخر:

وَيَجْنِي الخَلِيلُ فاسْتَحْلِي جِنَايِتَهُ كَيْمَا يَدُلَّ عَلَى حِلمِي وَإِحْسَانِي

وقول بعض الصوفيَّة:

دَع الحبَّ يَصْلَى بالأذَى مَنْ مُحِبِّهِ فَكُلُّ الأذى مِمَنْ تُحِبُّ سُرُورُ

وقد تهاترت مع زينب بحضرته؛ ﷺ؛ كما ذكره البخاري في غير موضع؛ وعند مسلم؛ بسط القصة. وتعاقدت مع صواحبها على أن يقلن له: إن عسل زينب أو حفصة كريه الرائحة؛ وقالت أم رومان[1] كما في حديث الإفك: هوِّني على نفسك؛ فوالله لقلَّما كانت امرأة وضيئة قط؛ عند رجل يحبها؛ ولها ضرائر؛ إلّا أكثرن عليها. وهو شاهد بأن الناس مثل الناس؛ والطبع البشري؛ هو هو؛ إلّا ما فَضُلَ به الصحابة؛ من التغلب في الأكثر على العواطف بسلطان الإيمان.

وقد سبق خلال الفوائد؛ كثير من أمثال ذلك؛ ومنه قول ابن عمر؛ عن عبد الله بن الزبير: إنه لا يريد بصيامه ونسكه إلّا تلك البغلات الشُّهْب التي كان يحج عليهنَّ معاوية. وصرح كما في غير موضع من البخاري؛ بأنَّ قتالهم لم يكن إلّا على المُلْك.

وفي أول أجزاء العقد الفريد؛ أنَّ مالك بن أنس كان يذكر علياً وعثمان

---

(١) أم رومان بنت عامر الفراسية الكنانية، امرأة صالحة من الصحابيات وهي زوجة أبي بكر الصديق ووالدة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر وعبد الرحمن بن أبي بكر. أسلمت بمكة.

وطلحة والزبير فيقول: والله ما اقتتلوا إلّا على الثريد الأعفر. والعهدة عليه؛ ونحوه عند أبي العباس المبرد في الكامل. ولقد ترك ابن الزبير الصلاة على رسول الله ﷺ برهة من الدهر؛ وقال: ما يمنعني إلّا أن تشمخ رجالٌ بآنافها؛ كما في مروج الذهب وغيره. ولما صُلِبْ؛ نظر إليه عبد الله بن عمر فقال: يغفر الله لك ثلاثاً؛ فما علمتك إلّا صواماً قواماً؛ وصولاً للرحم؛ وإني لأرجو مع مساوىء ما أصبت؛ ألا يعذبك الله بعدها؛ أخرجه الحاكم وصححه؛ وأقرَّه الذهبي.

ومن أصرح ما في الموضوع؛ قوله تعالى عن أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم: ﴿. . . مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ . . . .﴾[1]؛ وكان على المسلمين يوم اليرموك أربعة قواد؛ هم أبو عبيدة؛ وشرحبيل بن حسنة؛ ويزيد بن أبي سفيان؛ وعمرو بن العاص؛ فتزاحموا على القيادة العامة؛ إلى أن كاد ما يعطبوا؛ حتى جاءهم خالد بن الوليد؛ وقال لهم في خطبته: إن الذي أنتم فيه؛ أشد على المسلمين مما غشيهم؛ وأنفع للمشركين من أعدائهم؛ ولقد علمت أن الدنيا فرَّقت بينكم؛ فهلموا فلنتعاور الأمارة فليكن عليها بعضنا اليوم؛ والآخر غداً؛ والآخر بعد غد؛ حتى يتأمَّر كلكم؛ وبهذا أصلح بينهم فانتصروا.

وحسبك أن ابن الخطاب لم يترك أحداً من الستة الذين توفي النبي ﷺ وهو عنهم راض؛ إلّا رماه بداهية؛ كما سبق ذلك في الفائدة العاشرة؛ إلى غير ذلك من الأخبار المتواترة في المعنى.

ومَنْ أوَّلها بغير الظاهر؛ فقد سلك مسلك الباطنية؛ وفتح الباب على مصراعيه للشك في الشريعة؛ وعدم الثقة بها؛ وكابر في المحسوس؛ وتكلم بما لا يتمعني ولا يُقْبَلْ؛ إلّا عند من وضع على عقله حجاباً؛ وعلى بصيرته غشاءً؛

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

كمصدِّقِي الرهبان فيما تنكره العقول؛ وتَمُجُّه الآذان؛ من الخرافات والتأويلات المنبوذة؛ كذكرهم تحول الأطعمة إلى جسم المسيح ابن مريم عليه السلام.

وأنَّى يسوغ شيء مما يتكلفه المتعمِّقون والعلماء؛ من أهل السنة وغيرهم؛ يؤولون الأدلة السمعية؛ والآيات القرآنية؛ لتتفق مع قانون العقل؛ وتسايره جنباً لجنب؛ ويعدُّون التمسك بالظواهر؛ من دون العرض على البراهين العقلية والأقيسة المنطقية؛ جزءاً من الكفر.

فلتكن على علم؛ بأن الصحابة رضوان الله عليهم؛ كسائر الناس في الطباع والرغائب والشهوات؛ إلّا أنهم فُضِّلوا بالإيمان الذي وقر في صدورهم؛ وخالط لحومهم؛ وامتزج بدمائهم؛ وتغلب على عواطفهم؛ وحجزها أن تنفذ؛ إلّا بسلطان منه في غالب أمورها؛ ونقَّى نفوسهم من الرذائل؛ حتَّى اتفقت عليه سرائرهم وعلانيتهم؛ وبذلوا في مرضاة الله أرواحهم وأموالهم؛ مع التشرف بالنظر إلى وجه النبي الكريم؛ والاستماع إلى كلامه الأحلى من الدر النظيم:

لَيْتَهُ خَصَّنِي بِرُؤْيَةِ وَجْهٍ زَالَ عَنْ كُلِّ مَنْ رَآهُ الشَّقَاءُ[١]

ومن هذه الحيثية؛ كان تفضيل خاصة البشر؛ على خاصة الملائكة؛ إذ لا توجد الفضيلة إلّا حيث يوجد مناط الرذيلة؛ فتكبح بشكيمة العدل؛ وتقاد بزمام الدين؛ وما جاء في وصف يحيى عليه السلام؛ بأنه حصور؛ فليس معناه العِنَّة كما توهمه بعضهم؛ إذ لا يمكن أن يمدح بذلك؛ وهو من العيوب؛ وإنما هو على القول بأنه الكفُّ عن النساء؛ العفة مع القدرة؛ وإلّا فله معانٍ أخرى.

وتأمل كيف قال الله عن يوسف: ﴿... وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾...، فقد أثنى عليه بفرط الميل مع شدة العفاف؛ إذ قد وصف من تبذُّل المرأة؛ واطِّراحها ما كانت عليه من العز والشرف والعفاف والأنف؛ ما لا غاية بعده؛ مما يشمله ذلك الإعجاز والإيجاز؛ ففسِّر الآية بما شئت؛ بعد أن تعتقد أنَّ

---

(١) من قصيدة الهمزية للبوصيري.

همه عنوان الكمال؛ وكفَّه لوازع الدين؛ مع توفر الدواعي وتأجج الميل؛ فكما أنَّ الحُبَّ انحطَّ بها إلى أدنى الدركات؛ ارتفع به العفاف إلى أعلى الدرجات.

وما دامت النفوس البشرية في قيود المادة؛ فمن المستحيل أو قريب منه؛ أن تتخلص من الأهواء والشهوات؛ إلّا إذا بطلت النواميس؛ وفسدت الطبائع؛ ولم يطلب الثِّقَلْ الأرض؛ ولا البخار الهواء. ولكنها لا تذم بشيء من ذلك؛ إلّا أن ألقت له الحبال على الغوارب؛ بخلاف ما إذا بقي العنان في كفِّ الدين؛ ونهاها برهان ربها عن اتباع الهوى؛ فإنه لا يكون إلّا زيادة في التشريف؛ ونهاية في التكريم.

فإن قيل: هل تنكر ما يؤثرونه عن الصوفية والفلاسفة؛ من التألّه والتّبَتُّل والانخلاع عن طبائع المادة؛ والانطلاق من قيود الشهوات البشرية؛ قلت: لا أنكره جملة؛ وإن أنكرت بعض ما فيه من التجازيف والمبالغة؛ وناقشت فيما لا يصح سنده من جزيئاته؛ ولكنني لا أفَضِّلْ من ذاك حاله؛ على صناديد الإسلام ولهاميم الرجال؛ ولا أستعظمه ولا أستغربه؛ لأنه صناعي في الابتداء؛ وقد أثِرَ عن ابن الخطاب؛ أنه سمع قول الحطيئة:

وإنَّ جيادَ الخيلِ لا تستفزَّنَا ولا واصِفاتِ الرَّبْطِ فوق المَعَاصِمِ

فقال: كذب؛ لو ترك ذلك أحد؛ لتركه رسول الله ﷺ؛ وقد سبق على فرس فجثى؛ وقال: «**إنه لبحر**» وهذا شبيه بما سبق في الفائدة السادسة؛ وفي الصحيح أنه ﷺ قال لعائشة: «**أَمِيطِي عَنَّا قِرَامَكِ هَذَا فَإِنَّهُ لَا تَزَالُ تَصَاوِيرُهُ تَعْرِضُ فِي صَلَاتِي**»[1] وفي الحديث الآخر: «**أَلْهَتْنِي أَعْلَامُ هَذِهِ...**».

فما يحصل للصوفية من التجرد عن العواطف والشهوات بعقب المجاهدة؛ رتبة عالية؛ ومقام جليل الخطر؛ شريف المنزلة؛ إلّا أنه ليس لأهله مزيَّة على الذين أتَقَيَّلُ آثارهم وأحتذي قدَّتهم؛ وإن بقي هؤلاء على ميولهم البشرية؛ وتجرد

---

(١) أي: أزيلي. (قرامك) القرام: هو الستارة، وكانت فيها صور.

عنها أولئك؛ لاجتماعهم على نقطة واحدة؛ هي عظمة سلطان الدين في نفوسهم؛ فَيَزَعَهُم في الغالب؛ عما لا يبيحه من الشهوات واللذات والانتقامات؛ وافتراقهم في نقطة أخرى؛ وهي: بقاء الداعية عند هؤلاء؛ وذهابها أو إضعافها عند أولئك بالمجاهدة والرياضة؛ فأيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأشدُّ تكليفاً.

وأيضاً؛ فإنه يفوت بإضعاف القوى البشرية خيرٌ كثير؛ إذ هي مفتاح السعادة؛ وسُلَّمُ الشرف؛ إذا اعتنى بها الإنسان؛ وساسها بالدين؛ كما أنها مدعاة الشرور؛ ومجلبة الثبور؛ إذا ألقيت سياستها للشيطان؛ وإدارة دفتها للهوى؛ كما يتوضح مما يأتي؛ ولله در الذي يقول:

إذا غابَ مَلَّاحُ السفينةِ وارتَمَتْ بِهَا الرِّيحُ يوماً دَبَّرَتْها الضَّفَادِعُ

أولا ترى أنه ﷺ؛ ولد بشراً كاملاً؛ بل أُعْطِي قوة عظيمة؛ وفي قلبه تلك العلقة الدموية؛ التي شرح الملائكة صدره لاستخراج ما فيها من حظِّ الشيطان؛ ولو شاء الله لخلقه بدونها؛ ولو خلقه بدونها لم تكمل بشريته؛ التي من أجلها كملت خصوصيته؛ والفرق بينه وبين من راض نفسه؛ حتى قتل شهوتها وأذاب طبيعتها؛ ظاهرٌ فلا إشكال.

ولهذا فأنا أرجِّح معنى السلامة في قوله ﷺ عن شيطانه: « **إلّا أَنّ اللّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ**». لولا الغصة بالزيادة التي عند مسلم؛ وهي قوله: «**فَلَا يَأْمُرُنِي إلّا بِخَيْرٍ**». وإن لي وطيد الأمل؛ أنْ تُعَلَّلْ أو تُأَوَّل على الأقل؛ لأن بقاء شيطانه على الكفر والعناد؛ أقوى لامتحانه؛ وذلك أشرف لقدرته؛ وأعلى لرتبته؛ ولأنه الأنسب بقول مولاه له: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]؛ وقوله: ﴿...وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]؛ وفي هاتين الآيتين ما يكفي لرد تلك الزيادة أو

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

تعليلها؛ فلا حاجة بي لأن أتعب نفسي في المراجعة؛ ومن ادَّعَى الإسلام بعدهما فعليه البيان.

وأراني بحاجة في هذا المبحث؛ إلى ما ذكره الحافظ ابن حجر؛ من إفراط قُوَّتِه ﷺ؛ حسبما سبق في الفائدة الثالثة عشرة. أما إذا أسلم شيطانه؛ فقد خفَّ امتحانه؛ وهو سيد الصابرين؛ وأفضل أولي العزم؛ ومن أواخر ما نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ...﴾[1]؛ ومعاذ الله أن أحصر فضله في جلائل الأعمال؛ وتحمُّل الأثقال؛ ومكارم الأخلاق. لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، وإن أثِرَ بعض ذلك عن عز الدين بن عبد السلام؛ وساعد عليه قوله ﷺ لعائشة: «**أَجْرُكِ عَلَى قَدْرِ نَصَبِك**»؛ لأنه مخصوص حتى في حقِّ غيره؛ كما بيَّناه في موضعه. فقد اختصته العناية بما لامطمع في اكتناهه؛ ولا مطمح إلى اكتشافه؛ من خصال الكرم والتفضيل؛ التي جمع بها الأضداد؛ فَوَفَّى كلَّ حالٍ نصيبه؛ وأعطى كُلَّ مقامٍ حظَّه.

فالسيد الفضيل[2] ما رئي ضاحكاً إلّا يوم مات ولده علي؛ من آية كررها من كتاب الله؛ فانشقت مرارته؛ ولكنه ﷺ؛ فاضت عيناه عندما تقعقعت نفس الصبي في حجره؛ وغير ذلك من المواطن؛ فأعطى الرحمة حقها؛ ولم يبخس الرضا نصيبه؛ بخلاف فضيل؛ فإنه ضيَّع الرحمة من حيث احتفظ بالتسليم. وبعض من لا بصيرة له؛ قد يتوَهَّم أنَّ ما فعله الفضيل من الكمال؛ وليس منه؛ فمن بقي فيه مناط الشهوات؛ مع ضبطه بزمام الشريعة؛ أفضل وأكمل ممن قطعه بالرياضة على التدرُّج؛ إذ هو على فضيلته؛ قريب من الخصاء؛ وهل يستوي من عفَّ عن الزنا؛ مع قوَّة شهوته؛ وقد دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ كما أسلفنا عن العبد

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٢) الفضيل بن عياض كان من أزهد الناس عاصر هارون الرشيد وكان في بداية حياته قاطع طريق ثم تاب وزهد في الدنيا وكان من رواة الحديث وقد ولد بأبيورد أو سمرقند ثم جاور آخر حياته بمكة ومات فيها سنة ١٨٧هـ.

الصالح؛ ومن عفَّ عنه بعد ذهاب شهوته؛ أو ضعفها؛ لشيءٍ من الطوارىء؛ وشَتَّان ما بين الإمام الغالب[١]؛ إذ يقول للدنيا: هيهات قد بتتك لا رجعة لي فيك؛ وهو الذي تجبى له الخزائن؛ ما عدا الشام؛ فهو الأحقُّ بقول أشجع:

تَجَافَى عَنِ الدُّنْيَا وقَدْ فَتَقَتْ لَهُ خَوَاصِرَهَا وَاسْتَقبلَتهُ مُتُونُهَا

وبين الشيخ عبد الله باعباد؛ ذلك الصعلوك الذي إن أدرك غداءه لا يدرك عشاءه؛ إذ ادَّعَى أنه طلَّق الدنيا؛ فقال له جدي المحسن[٢] رحمة الله عليهم: كلا؛ وإنما هي طلقتك؛ ولهذا بدأ في الرسالة القشيرية[٣]؛ بإبراهيم بن أدهم[٤].

وقد أخرج مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**»، وما ذلك إلّا لقِلَّة الدواعي لتلك المعاصي؛ فارتكابهم لها؛ شبيهٌ بالمعاندة والاستخفاف بأمر الله تعالى. ولا يدخل في الكبر؛ تيه الفقراء على الأغنياء؛ وترفُّعهم عنهم؛ فإن ذلك من محاسن الأخلاق؛ كما صرحوا به؛ إذ ليس فيه بطرٌ للحق؛ ولا غمطٌ للخلق. وأيضاً فإن من عالج القوة الغضبيّة حتى زالت؛ فقد ذهبت شجاعته؛ فلا تُرْجَى منه نجدة للإسلام؛ وإن ظهر بمظهر الشفقة على الأنام، ومثله يقال في إضعاف سائر القوى.

ولي بعد مناقشة مع الإمام الغزالي؛ فيما تشدد فيه من تهذيب النفس؛ ومجاهدة الطبيعة؛ والإلزام بالمشقة في تنقية الإخلاص؛ لأن كثيراً منه لا يتفق مع

---

(١) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

(٢) عالم وفقيه وقاضٍ وسياسي ومصلح اجتماعي ولد بسيئون حضرموت سنة ١٢١١هـ وتوفي بها سنة ١٢٩٠هـ.

(٣) الرسالة القشيرية في علم التصوف ألفها الإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري الشافعي المتوفى سنة ٤٦٥هـ ومن شراحها شيخ الإسلام زكريا الأنصاري المتوفى سنة ٩١٠هـ.

(٤) من الزهاد ومن أعلام التصوف السني كان من أبناء الملوك ثم زهد في الدنيا وكان كثير التفكر والصمت محباً للجهاد وتوفي سنة ١٦٢هـ.

سماحة الدين؛ ولا يلتئم مع سيرة السلف ورجالات الإسلام؛ الذين قام بهم عموده وحُرِسَتْ بهم حدوده. ويعجبني قول بعضهم عن الغزالي؛ ومنتقديه من ضعفاء العلماء والصالحين: إنه كالشجاع الذي ينغمس في الحروب؛ فيفِلُّ الصفوف؛ ويرعف السيوف؛ ثم يدخل في صفِّ أولئك وهم يصلُّون؛ وعلى ثوبه أثر دم من جهاده؛ فينكرون عليه صلاته بتلك الحالة؛ فتراهم ينتقدونه؛ على أنهم من غير شكٍّ دونه.

ولقد طال المقال؛ ولا يزال بحاجة إلى التنقيح ومراجعة الكتب؛ والتدليل له أو عليه؛ فالأمور تضطرب؛ والنصوص تشتبه؛ والصواب مظنون؛ والغلط غير مأمون؛ لا سيّما وقد جريت فيه مع الخاطر؛ وأخذت ما سمح من لسان القلم؛ مع هيبة المقام؛ وصفورة اليد؛ ووعورة الطريق؛ فلعلَّ الله يقيِّض له منصفاً؛ يمعن التحقيق؛ ويجيد غربلته؛ وبالله التوفيق.





الفائدة

السادسة والعشرون

الفائدة السادسة والعشرون

في حديث أبي هريرة عنه ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه؛ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء؛ هل تحسون فيها من جدعاء؟؛ ثم يقول: فطرة الله التي فطر الناس عليها**»[١]. اختلف العلماء في المراد من الفطرة؛ وقرأتُ كثيراً مما قالوا بصددها؛ ونسيت أكثر ما اطلعت عليه؛ وأنا ذاكر ما يظهر لي في المعنى؛ ممزوجاً بما بقي بذهني مما قيل فيه.

فنقول أحسن ما قيل في تفسير الفطرة: إنَّ المراد منها القابليّة الصرف؛ والتهيؤ البحت؛ لقبول ما يلقى إلى النفس من خير وشر؛ فما سبق إليها انتقش عليها؛ وما جاءها وهي خالية؛ تمكَّن منها؛ كما قال يزيد بن الطَّثَرِيَّة[٢]:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أنْ أعرِفَ الهَوَى فَصَادَفَ قَلْباً خَالياً فَتَمَكَّنَا

ثم الإدراكات محصورة في الحواس الخمس؛ وكل واحدة تلتَذُّ بما تحسه لذيذاً؛ بحسب إدراكها؛ وإن لم يناسب الحاسَّة الأخرى؛ فالخشن الجميل تلتذ العين برؤيته؛ وإن أنكر البدن مسّه؛ والمُرُّ الطيب الريح؛ يلتذُّ الأنف بشمِّه؛ وتكره اللهاة طعمه؛ والنفس إنما تلتذ بفعلها الخاص بها؛ بدون العلم والمعرفة والنظر والتمييز؛ الناتج عنهما الاختيار والإرادة؛ ثم ما تستفيده من المعلومات؛ تارةً يكون بواسطة الحواس فتميِّزه؛ وتتصرف فيه؛ وأخرى من دون واسطتها؛

(١) (بهيمة جمعاء) تامة الأعضاء مستوية الخلق (جدعاء) مقطوعة الأذن أو الأنف أو غير ذلك.

(٢) شاعر أموي توفي سنة ١٢٦هـ.

كالعلم بأن الواحد نصف الاثنين؛ وكاستحالة الجمع بين الضدِّين؛ وكامتناع الاجتماع والارتفاع بين النقيضين؛ إلى ما لا نهاية له من الإدراكات؛ التي تقتنصها النفس بأنشوطة الفكر والذكر والتخيُّل.

وقد اختلفوا في طبيعة الإنسان من بدئها؛ فقيل على الخير وقيل على الشر؛ والأول غير واضح؛ والثاني مردود؛ ولكننا لا نحكم بالغلط على أخي عبس في قوله:

إن المُحَكَّمَ مَا لَمْ يَرْتَقِبْ حَسَباً أو يُرْهِبَ السَّيف أو حدَّ القنا جَنَفَا

ولا على أبي الطيب في قوله:

وَالظُّلمُ من شِيَمِ النفوسِ فإنْ تَجِدْ ذا عِفَّةٍ فَلَعَلَّهُ لا يَظْلِمُ

لأنهم إنما أرادوا الشِّيَمَ المكتسبة من العوارض الطارئة عليها فيما بعد؛ لا من أصل الخليقة والجبلَّة؛ فهم لم ينظروا إلّا إلى ما يهمهم من أحوال الكاملين؛ لا على المراضع والأطفال.

فلا معنى للفطرة؛ سوى محض القابلية؛ وفي الإمكان إقامة الأدلة الكثيرة عليه؛ من السمع والعقل؛ ولو لم يكن منها إلّا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا. . . .﴾[1]؛ والإسلام علم؛ فكيف نفسر به الفطرة؛ ولا شك أنَّ هذا الدليل لا ينهض بِمُدَّعانا كلمة؛ لأنَّ العلم شيء؛ والميل شيء آخر؛ ولكن رأيتني قلت في كتابي؛ تأديب المجتري ما نصه: تجاذب الناس أطراف الحديث في المفاضلة بين العلم والعقل؛ وتشادقوا في مجالس النظر؛ ولو قيل إنهما شيء واحد لا يختلفان إلّا بحسب الاعتبارات؛ لم يكن بدعاً من الأمر؛ لأنَّ العلم الذي يكتسبه الإنسان؛ إنما يرفع به الحجاب عما أودع في فطرته من العقل؛ لا غير؛ كما أنه لا سبيل له بحال إلى اكتشاف ما لم يودع في فطرته؛ مهما كان فكره سديداً؛ وبصره حديداً؛ وكثيراً ما اعصوصبت

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٨.

صغائر المسائل على كبار الأفاضل؛ وقد أشار إلى هذا بعض الصوفية؛ فقال: كل ما قُسِمَ للإنسان من العلم فهو مطويٌّ في خلده؛ والشيخ بتعلمه له؛ إنما ينشر مَطْوِيَّهُ فقط.

دَوَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تُبْصِرُ ... وَدَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تَشْعُرُ

أَتَحْسَبُ أَنَّك جِرْمٌ صَغِيرْ ... وَفِيكَ انْطَوى العَالَمُ الأكْبَرُ

ثم رأيت بعض الأصوليين؛ نقل نحوه وضعفه؛ وهو كما قال؛ إلّا على سبيل المجاز كما يعلم مما يأتي:

ثم النفوس مختلفة في تلك القابلية؛ فمنها ما هو سريع التأثير؛ بطيء التغير؛ ومنها غير ذلك. فإن قلت: قد صحَّ تفسير الفطرة بالإسلام؛ بل قال ابن عبد البر: إنه المعروف عند عامة السلف؛ وأجمع أهل العلم على أن المراد بقوله تعالى: ﴿... فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا...﴾[1]؛ هو الإسلام؛ واحتجوا بقول أبي هريرة؛ في آخر الحديث: «**فطرة الله التي فطر الناس عليها**»؛ وهو مصادم لما ذُكِر؛ قلنا: لا مصادمة؛ وإنما هو مجاز مرسل؛ من ذكر الملزوم وإرادة اللازم؛ أو من حمل ما بالقوة على ما بالفعل؛ وكثيراً ما يُعَبَّر بالتنجيزي عن الصلوحي لتحقق الوقوع.

وبيان أن الإسلام؛ الذي هو الاعتراف بالربوبية؛ في حكم المعلوم؛ لقيام الأدلة الواضحة والبراهين الراجحة عليه؛ كما في أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]؛ فهو لازم لمجرد النظر؛ فما هي إلّا نظرة؛ تهجم العبرة؛ والنفوس ممنَّعَة بالحكمة؛ متهالكة في عشق الاستطلاع؛ وبأدنى تأمل؛ تعرف أنه تعالى منتهى كل جمال وكمال؛ ومصدر كل معروف وإحسان؛ وتلك هي دواعي المحبة؛ فباللازم الضروري أن

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

تصدر عنها أعمال الطاعة والعبادة؛ بوحي الفطرة؛ وسَوْقِ الطبيعة؛ ولئن اختلف الأصوليون في العلم الحاصل من صحيح النظر؛ أمكتسب هو؛ أم ضروري؟ فما هو إلّا في التسمية فقط؛ فالقائلون بأنه مكتسب؛ لَمَّحُوا إلى أنَّ حصوله بواسطة التحديق المكتسب للناظر؛ فقالوا: إنه أشبه بالكسب لذلك؛ والقائلون بأنه ضروري؛ قالوا: لأن حصول العلم بعقبه ضروري؛ لا قدرة للناظر على دفعه؛ ولا على الانفكاك منه؛ أولا ترى قريشاً في قولها: ﴿. . . . لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ. . .﴾[1] لأنهم لو استمعوه؛ لهجم على قلوبهم الإسلام طوعاً أو كرهاً.

فلما كانت الآثار تدل على المؤثِّر؛ والحكمة على الحكيم؛ والصنعة على الصانع؛ والأثر على المسير؛ وقد ساوى الله بين الناس في أصول رؤوس الأموال التي أعطاهم؛ وإن فارق بينهم في أنواعها وأوصافها؛ فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[2] وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[3]؛ لا جرم مع ذلك أطلق المسبب على السبب؛ والملزوم على اللازم؛ والدليل على المدلول؛ والعلة على المعلول؛ لأنه بأيسر نظر؛ مع سلامة الآلات؛ إلى تلك الآلات الظاهرة؛ والآيات الباهرة؛ يحصل العلم وتقتضي الطمأنينة؛ ولله در القائل:

وَكُنَّا ظَنَنَّا أنَّ ليلى تَبرقَعَتْ ... وَأنَّ حِجَاباً دونَها يمنعُ اللَّثْمَا

فَلاحَتْ فَلا والله مَا ثَمَّ حَاجِبٌ ... وَلَكنَّ طَرْفاً لا أرَاهَا بِهِ أعْمَى

وخير ما قيل في آية الأمانة؛ تفسيرها بوضع شواهد الربوبيّة في المصنوعات والظُّلم: بما يحدث للإنسان من إهمال القوة الغضبية؛ حتى تمرح في أرسانها. والجهل: بما يطرأ من إيثار الشهوات الصادَّة عن النظر في أعقاب الأمور. فلو ترك الطفل وشأنه؛ مُخَلَّى لَهُ سربه؛ ملقىً له خيله؛ مطلقاً له رسنه؛ لم تفتنه إشارة

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٧٨.

(٣) سورة البلد، الآيات: ٨ ـ ١٠.

قيِّم؛ ولا غمزة سائس؛ ولا عادة خليط؛ ولا نزعة أليف؛ لَمَا نشأ إلّا على أحسن ما يكون من الطهارة؛ والإقرار بالربوبية؛ كما يبينه تقدير غذاء يلائم بدنه؛ من ارتضاع اللبن حتى يصرفه عنه الصارف؛ ويلويه عنه المعارض؛ فالعلم به تعالى؛ مركوز في النفوس؛ معلوم بالبداءة؛ ألا تراها تفزع إليه في الخطوب الفادحة؛ والشدائد الطارقة ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1] هذا من جهة؛ والأخرى هي: أنَّ أعمال الخير بالأغلب أيسر معونة؛ وأقل مونة؛ من أعمال الشر؛ وإنما تخفق هذه؛ وتثقل تلك؛ عوارض الشهوات؛ وطواري النزغات؛ كما قد فصلناه أكثر من مرة في غير هذا الكتاب.

ولعل بعض المفسرين يذهب إليه؛ في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[2]؛ ولله درُّ الكميت في قوله:

وَلَـمْ أرَ بَـابَ الـشَّـرِّ سـهـلاً لأهـلِـهِ ... ولا طُرُقَ الـمـعـروفِ وَعْـثاً كـثِـيـبُـهَـا

فإن قيل: إنه مشكل بأمثال قوله تعالى: ﴿...وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[3]؛ **قلنا**: لا إشكال؛ بل الآية من جملة أدلتنا على ما نقول؛ لأنَّ الإنسان لولا ما يعرض له من الأنجاس؛ ويتجاذبه من الوسواس؛ لبقي على الطهارة؛ المفضية لا محالة إلى الخشوع؛ لأنه مخلوق على أحسن الأحوال؛ بشهادة أمثال قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[4]؛ وفحوى قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ...﴾ الآية أنها خفيفة على من صفته الخشوع؛ ولهذا قال سيِّدُ الخاشعين: «**وَجعلت قُرَّة عَيْني فِي الصَّلَاة**».

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الليل، الآيات: ٥ ـ ١٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٦.

(٤) سورة التين، الآيتان: ٤ ـ ٥.

ولسيدي الإمام عبد الله بن الحسين[١]؛ رسالة نفيسة في الموضوع؛ سيَّرها لبعض أولاده آنقتني وأثلجتني؛ وأجدني قاربت الرجوع في هذا؛ إلى القول بانطباع الإنسان على الخير؛ شئت أم أبيت؛ لكن لا بأصل الجِبِلَّة؛ فالقول الأول عندي بحاله؛ وإنما هو من حيث انفطار النفس على محبة الملائم؛ فالعين تميل إلى المنظر الجميل؛ والأذن إلى الصوت الحسن؛ والأنف إلى الريح الطيِّب؛ والنفس أولى بأن تميل إلى النافع، والخير أدنى إليها من الشر؛ لسهولة طريقه؛ وخفة محمله؛ وسلامة عاقبته؛ لولا ما يلقى في سبيله بعدد من أحجار العثار؛ ولا يدفع هذا من استحضار ما سبق في الفائدتين السادسة والسادسة عشرة؛ عن الروح؛ فإنه شديد التعلق بما هنا.

ولسائل أن يقول: متى يكون تهيؤ النفس الناطقة؛ لقبول ما يُلْقَى إليها من خير أو شر؟ **فنقول في الجواب**: إنَّ ذلك يكون قبل أن يوجد الإنسان بعشرات السنين؛ بل يمكن لنا أن نحدد تلك المدة بنحو مائتي ربيع؛ كما صرح به بعض الحكماء؛ ونطق بذلك لسان الشرع؛ فقد أخرج أحمد في مسنده عن وهب؛ قال: «**إن الرب سبحانه وتعالى قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل: إني إذا أطاعني العبد رضيت عنه؛ وإذا رضيت عنه باركت فيه وفي آثاره؛ وليس لبركتي نهاية؛ وإذا عصاني العبد غضبت عليه؛ وإذا غضبت عليه لعنته؛ ولعنتي تبلغ السابع من ولده**» وفيه: أنَّ قابليّة الخير ترجع إلى أكثر من المدة التي ذكرنا؛ وإنما تلك خاصة بقابليّة الشر؛ وهي فائدة.

ويروى عن جعفر الصادق في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[٢] أنه كان السابع. وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد؛ في الزهد؛ وابن أبي حاتم عن

---

(١) الإمام عبد الله بن حسين بن طاهر من كبار العلماء والمصلحين والدعاة بحضرموت ولد بتريم سنة ١١٩١هـ وتوفي بالمسيلة سنة ١٢٧٢هـ تعلم على كبار الشيوخ بحضرموت وبمكة والمدينة وله مصنفات أشهرها المجموع من رسائله.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

خيثمة؛ قال: قال عيسى ﷺ: «طوبى لذرية المؤمن؛ ثم طوبى لهم كيف يحفظون من بعده وتلا خيثمة هذه الآية». وفي الكشاف[١]: أن يعقوب ﷺ كتب إلى يوسف ما نصُّه: من يعقوب إسرائيل الله؛ ابن إسحاق ذبيح الله؛ ابن إبراهيم خليل الله؛ إلى عزيز مصر؛ أما بعد: فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء؛ أمَّا جدِّي فشدَّت يداه ورجلاه؛ ورُمي به في النار ليحرق؛ فنجاه الله تعالى؛ وجعلت عليه برداً وسلاماً، وأما أبي؛ فَوُضِعَ على قفاه السكين ليقتل؛ ففداه الله تعالى؛ وأما أنا؛ فكان لي ابن؛ وكان أحبَّ الأولاد إليَّ؛ فذهب به إخوته إلى البرية؛ ثم أتوا بقميصه ملطخاً بالدم؛ وقالوا قد أكله الذئب؛ فذهبت عيناي من بكائي عليه؛ ثم كان لي ابن؛ كان أخاه من أمِّه؛ وكنت أتسلى به؛ فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق؛ وإنك حبسته لذلك؛ وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً؛ فإن رددته عليَّ؛ وإلّا دعوت الله عليك؛ دعوة تدرك السابع من ولدك؛ والسلام. والحرف الأخير؛ هو الذي نقصده من إيراد الكتاب.

فإن قيل: إن قولكم باستعداد الإنسان لقبولها؛ يطرأ عليه راجح إلى تلك المدة؛ لا يتأتَّى إلّا على القول؛ بتقدم خلق الأرواح على الأجساد؛ وهو بخلاف ما قاله ابن سينا والغزالي؛ والسهروردي الحكيم المقتول؛ وغيرهم؛ من أنها لا تخلق إلّا عند استعداد المضغة لقبولها؛ **قلنا**: الأول هو الأصح؛ كما نقله القطب الشيرازي عن أفلاطون؛ وقال: إنَّه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ واستدل له بالأخبار على أن ما نحن فيه خارج عن موضوع الاختلاف. أما على الأول؛ فظاهرٌ؛ وأما على الثاني؛ فلأنَّ ما يتقدم من أخلاق الآباء والأمهات؛ هو المؤثر في قابلية الولد واستعداده؛ وإن تراخى بروزه إلى تلك المدة؛ فانتقاش الأخلاق؛ إمَّا أن يكون بالمباشرة على الأوَّل؛ أو بالواسطة على الثاني.

فإن قيل: إن قوله ﷺ: «**فأبواه يُهَوِّدَانَهُ**...» إلى آخره؛ كالصريح في انتفاء

(١) تفسير الكشاف للزمخشري.

القابلية؛ إلّا بعد وجوده؛ بل بلوغه؛ أو تمييزه وإدراكه. **قلنا**: لو كان الأمر كذلك؛ لم تُسْبَ الذراريّ ولم يلحقها الاسترقاق؛ هذا من جهة؛ والأخرى: أن قوله ﷺ: فأبواه إلى آخره . . إنما هو شبيهٌ بقوله ﷺ: «**الحَجُّ عَرَفَةٌ**»؛ وإلّا فهناك كثير من العوامل الخارجية المؤثرة في قابلية الطفل وأخلاقه؛ منها؛ كما ذكرنا؛ التوارث عن الآباء السبعة؛ ومنها ما جعله الله في حركات الأفلاك العلويّة؛ من الأسرار والتأثيرات بمشيئته؛ في المواليد السفلية؛ ومناسباتها لحين استقراره في الرحم؛ وحين الولادة[1]. ومنها حالة الأبوين ساعة الوقاع[2]؛ ومنها مادة النطفة التي يتكوَّن منها الولد؛ ومنها حالة الأم وزادها أيام الحمل؛ ومنها جوُّ البلاد؛ فللبقاع تأثير لا ينكر في الطباع؛ ولذا عرف الملائكة ما سيكون من البشر فقالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ**﴾[3].

فإن قيل: قد أخرج الحاكم وصححه من حديث ابن عباس: «أنه كان الجن في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي عام؛ فأفسدوا وسفكوا الدماء؛ فلما قال الله: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ**﴾؛ كما فعل أولئك الجن؛ قال إنِّي أعلم ما لا تعلمون»، **أجيب**: بأنه لا يلزم أن يكون الخلف كالسلف؛ ولا سيّما مع اختلاف الجنس والماهيّة؛ فلا يكفي ذلك لمعرفة الملائكة بشأن البشر؛ ولكن لِمَا انضم إليه من علمهم بطبيعة الأرض المقتضية للفساد؛ ولا بدّ أن يكون لسكان كُلِّ كوكب؛ إن كانوا؛ طبيعةٌ غير سكان الأخريات. ومنها أخلاق الأبوين؛ ومنها حالة المدرسة؛ ومنها شأن الخلطاء والعشراء والأتراب؛ وغيرها من العوامل؛ التي يشهد بها الحس وينتهي إليها العلم؛ ولا ندري بما في ضمائر الطبيعة وبطون الغيب مما وراء ذلك، ولكن أكبر

---

(١) من ذلك ما يتعارف عليه الناس حالياً من تأثير الأبراج على شخصية الإنسان المولود فيه.

(٢) عَنْ ابن عباس ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ: إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَداً**» (إضافة من المحقق).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

المؤثرات في حال الطفل هو نفسيَّة والديه؛ فلهذا أخرج الحديث ذلك المَخْرَجْ؛ ويُذْكَرْ أن إمام الحرمين تلحقه فترة عند المناظرة؛ قال إنها أثر رضعة ارتضعها من غير أمِّه؛ مع أن والده كان متحفظاً به؛ فاستفرغ ما في جوفه منها لمَّا علم؛ ومع ذلك فقد بقي بعض الأثر. وإذ تقرر أن أكبر مؤثر في أخلاق المولود أبواه؛ فلك أن تقول أيهما أوفر حظّاً من ذلك التأثير؛ ولم أر من ذكره. ويمكن أن يقال الأم؛ لأنَّ لحالها ولطعامها وشرابها تأثيراً في أخلاقه؛ من حين تستقر النطفة في رحمها؛ مع الاشتراك فيما سبق؛ ثم إنه لا يقع إلّا في حضنها؛ ولا يُرَبَّى إلّا في حجرها؛ ولهذا جاء: «**تخيَّروا لنطفكم فإن العرق دسَّاس**»[(١)]. وقال أبو عبيد العنبري:

وَأَوَّلُ خُبْثِ الْمَاءِ خُبْثُ تُرَابِهِ ... وَأَوَّلُ لُؤمِ الْقَوْمِ لُؤمُ الْحَلائِلِ

وقال عروة بن الزبير: ما رفع أحدٌ نفسه بعد الإيمان بالله بمثل مَنْكَحِ صدقٍ؛ ولا وضع نفسه بعد الكفر بمثل منكح سوء. وقال أبو عمرو بن العلاء[(٢)]: قال رجل: لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدي منها! قالوا: كيف ذلك؟ قال: أنظر إلى أبيها وأخيها؛ فإنها تجيء بأحدهما؛ وأنشد ابن الأعرابي:

إذَا كنتَ تبغِي أيِّماً بِجهالةٍ ... مِنَ الناسِ فانظر مَنْ أبُوهَا وخَالُها

فإنَّهُمَا مِنها كما هِيَ مِنْهُمَا ... كَقَدِّكَ نَعْلاً إنْ أُرِيدَ مِثَالُهَا

ومنه يتبين خطأ القائل:

وإنَّمَا أمُّهَاتُ النَّاسِ أوْعِيَةٌ ... مُسْتَودَعَاتٌ ولِلأحْسَابِ آبَاءُ

---

(١) حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا الْحَارِثُ بْنُ عِمْرَانَ الْجَعْفَرِيُّ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ وَانْكِحُوا الْأَكْفَاءَ وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ**». (سنن ابن ماجه رقم ١٩٦٨) وفي الزوائد: في إسناده الحارث بن عمران المديني قال فيه أبو حاتم: ليس بالقوي. والحديث الذي رواه لا أصل له؛ يعني هذا الحديث؛ عن الثقات وقال الدارقطني: متروك.

(٢) شيخ القراء ويقال عنه: أعلم الناس بالقرآن توفي سنة ١٥٤هـ.

على أن الماء يتلون بلون إنائه؛ وما هو إلّا ماء.

وفي حفظي من معاهد التنصيص: أن بعض رفاق الوزير المهلبي[١] جاء إلى قصره بعد موته؛ فألفى أحد أبنائه على حالة قبيحة من التوضيع؛ فقال له: هذا مكان أبوك؛ يضرب فيه الأعناق؛ ويفيض العطايا؛ فقال: نعم؛ وأنشأ يقول؛ وهو على تلك الحال؛ لم يتنهنه:

وَرِثْنَا المَجْدَ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ أَسَأْنَا فِي دِيَارِهِمِ الصَّنِيعَا
إِذَا الحَسَبُ الصَّمِيمُ تَعَاوَرَتْهُ بَنَاتُ السُّوءِ أَوْشَكَ أَنْ يَضِيعَا

وهذا الخبر موجود في غيرها؛ ومنه عيون الأخبار لابن قتيبة؛ إلّا أن الذي فيه: ألفاه راكباً على غلام؛ وهذه أهون. ولا عبرة بأن ينظر الولد إلى أبيه بعين المهابة؛ لأن ذلك لا يكون إلّا بعد تشبُّع النفس الناطقة؛ بما تشبعت به من الفاعليّة في تلك القابلية؛ فهو قريب من اقتباسه من أحوال المدرسة؛ وطباع الأتراب والعشراء والمخالطين؛ غير أن هذا كله مبنيٌّ على ما صرَّحت به الأخبار؛ من انعقاد الولد من مَنِيِّ الأبوين؛ وإلّا ربما انعكس الأمر؛ على أنَّ للجاذبية اختلافاً وتفاوتاً؛ فينجذب الولد إلى من كان فيها أشدّ بحسب المناسبة؛ كما يتوضح من قوله ﷺ الآتي: «**لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ**».

■ وهاهنا مسائل:

الأولى: جاء في الصحيح: «**أنَّ من سبق ماؤه نزع الولد**»[٢] فهل ينزعه في

---

(١) من ولد المهلب بن أبي صفرة الأزدي، من كبار الوزراء الأدباء الشعراء، اتصل بمعز الدولة بن بويه فكان كاتباً في ديوانه، ثم استوزره، وكانت الخلافة للمطيع العباسي، فقربه المطيع، وخلع عليه، ثم لقبه بالوزارة، فاجتمعت له وزارة الخليفة ووزارة السلطان، ولقب بذي الوزارتين، وكان من رجال العالم حزماً ودهاءً وكرماً وشهامة. توفي سنة ٣٥٢هـ ببغداد.

(٢) عن أنس ﷺ بلفظ: «إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت» (البخاري).

الخلقة والأخلاق؟ أم في الأولى فقط؟ كُلٌّ محتمل؛ والأول مذهب العرب؛ ولهذا كانوا يتعمدون إغضاب المرأة عند مظنَّة الإحبال؛ كي لا تغلب على الولد.

قال أبو كبير:

حَمَلَتْ بِهِ في لَيْلَةٍ مَزْؤُودَةً كَرْهاً، وعَقْدُ نِطاقِها لم يُحْلَلِ

وقال آخر:

ولو كُنْتُمْ لِمُكْيِسَةٍ لَكِسْتُم وَكَيْسُ الأُمِّ يُعْرَفُ في البَنينَا

وإنما ورد على لسان الشرع؛ الأمر بالملاعبة والتقبيل؛ لتوفية المرأة حظها من اللذَّة؛ فقد قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ...﴾: إني لأحبُّ أن أتزيَّن لزوجتي كما أحِبُّ أن تتزيَّن لي. وقد ورد في جنب ذلك الأمر بتخيُّر المرأة؛ ومتى كانت مختارة؛ فما على الرجل من بأس أن تنزع ولده إليها؛ فقد تمنَّى قيس بن عاصم المنقري؛ أن يكون ولده من بنت زيد الفوارس؛ مثل أبيها؛ فقال في ترقيصه(١):

اشْبِهْ أبا أمّكَ أو اشْبِهْ حَمَلْ وارقَ إلى الخيراتِ زناً فِي الجَبَلْ

فأخذته أمه واسمها نفوسة؛ وقالت:

اشْبِهْ أخِي أو اشْبَهَنْ أبَاكا أمَا أبَي فَلَنْ تَنَالَ ذَاكَا
تَقْصُرُ أنْ تَنَالَهُ يَدَاكَا

وللزبير بن العوام مقالة تناسب ما سبق عن ابنه عروة؛ وهي أنه قال: من أراد أن يتزوج امرأة؛ فلينظر إلى أبيها وأخيها؛ فإنها تأتيه بأحدهما.

والمسألة الثانية: قد يكون اثنان في بطن؛ وتتحد تربيتهما؛ ثم يكون أحدهما صالحاً؛ والآخر شريراً؛ فما هو السبب في ذلك؟ ويجاب: بأن العوامل

---

(١) أي وهو يهزه ويرقصه. ويعمل المصريون مثل ذلك في اليوم السابع لولادة المولود فيرقصونه ويقولون أبيات مشابهة.

كثيرة؛ فلعلَّ النطفة التي تكوَّنَا منها؛ كانت من طيِّب وخبيث؛ فذهب كل قسم بواحد؛ أو لعلَّ في الآباء صالحاً وطالحاً؛ فانجذب كُلٌّ إلى ما يناسبه؛ أو لعل في الأبوين الأدنين خيراً وشراً؛ فأفرغ الله كُلَّ قِسمٍ في زاوية من القالب. وقد قال ﷺ: «**لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ**».

المسألة الثالثة: قال ابن حجر الهيتمي في زواجره: **فإن قلت**: قد نجد في فروع العصاة صالحاً وبالعكس؛ ألا ترى إلى ابن نوح؛ وابن آدم؟ قلت: هذا مع ما قِلَّتِهِ لأمرٍ باطن لا يعلمه إلّا الله تعالى؛ فلو لم يكن منه إلّا إعلام الخلق بعجزهم؛ حتَّى الكُمَّلِ منهم عن هداية أقرب الناس إليهم. (اهـ باختصار).

وأقول: إن قوله ﷺ: «**لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ**» يفتح كل مغلق؛ ويحل عقدة كل مُعَّمَى. وذكر البغوي في تفسيره: أنَّ السامريّ الذي عبد العجل؛ كان اسمه موسى؛ ولما ولدته أمه في السنة التي يقتل فيها الأبناء؛ وضعته من خوفها عليه في كهف؛ فأمر الله جبريل عليه السلام بتربيته؛ لِمَا سبق في الأزل له وبه من الفتنة. (اهـ بمعناه)؛ وفي ذلك يقول القائل:

إِذَا الطِّفْلُ لَمْ يُكْتَبْ سَعِيداً تَخَلَّفَتْ ... ظُنُونُ مُرَبِّيهِ وَخَابَ المُؤَمَّلُ

فَمُوسَى الذي رَبَّاهُ جبريلُ كَافِرٌ ... وَمُوسَى الذي رَبَّاهُ فرعونُ مُرْسَلُ

وخطب أبو العذري إلى رجل من تميم؛ فقال: لو كنتَ مثلَ أبيك زوجتك! فقال: لو كنت مثل أبي لم أخطب إليك. وقيل لرجل من الأعراب: لِمَ لَمْ تشبه أباك؟ فقال: لو أشبه كُلُّ رجلٍ أباه كُنَّا كآدم. وقال عروة بن الزبير: لعن الله فلانة؛ ألفَتْ بني فلان بِيضاً طِوَالاً؛ فقلبتهم سُوداً قصاراً. وهذا الكلام له وجهان؛ إذ يحتمل من ردتهم؛ نزعها وخيانتها. وقيل لرجل: كان أبوك أقبح الناس خِلْقَةً؛ وأحسنهم خُلَقاً؛ وكانت أمُّك أحسنهم وجهاً؛ وأقبحهم خُلَقاً؛ فجمعت مساوئهما؛ فقال: ولكني دَلَلتُ على صحة نسبي بذلك؛ بخلافك. وقال حسان بن ثابت؛ يهجو أبا سفيان بن الحارث:

أَبُوكَ أَبٌ حُرٌّ وَأُمُّكَ حُرَّةٌ ... وَقَدْ يَلِدُ الحُرَّانِ غَيرَ نَجِيبِ

المسألة الرابعة: رأيتني قلت في رسالتي الموسومة: بأنفس الأغلاق في علم الأخلاق(١): الخلق حال تصدر عنه أفعال النفس بلا فكر ولا رويَّة؛ وقد اختلف الحكماء فيه؛ فقال قوم: إنَّ الخُلُقْ طبيعي؛ وعليه؛ فلا يمكن تغييره أبداً؛ إذ الطبيعي لا يتغير حاله؛ كحركة النار إلى فوق؛ فإنها لا يمكن أن تنعكس إلى تحت؛ وحركة الحجر إلى أسفل؛ لا يمكن ردّها إلى أعلى وهكذا.

وهذا شرّ من القول بالجبر؛ لأنه فوق ذلك يؤدي إلى إبطال العقل والشرع والسياسة؛ وترك الناس همجاً؛ إذ لا فائدة في طلب المحال؛ فهو فاسد. وقال قوم: كُلُّ خلق غير طبيعي؛ لأنه يتغير؛ وكل ما يتغير فهو غير طبيعي؛ والقياس صحيح؛ إلّا أن في المقدمات رخاوَةً وهَجَنَةً؛ والمختار: انقسام الخلق إلى قسمين؛ منه ما أصله طبيعي لا يتغير؛ كمن يحركه أدنى غضب؛ ويرتاع من أيٍّ خبر؛ ويضحك ضحكاً مفرطاً من أهون عجب؛ فأصل هذا طبيعي لا يتغير؛ مع أن فروعه قابلة للتغير؛ بالتأديب والاعتياد. والقسم الثاني ما يستفاد بالدربة؛ ويكون مبدؤه الرويَّة والفكر؛ فإذا داوم العمل به؛ وأكثر استعماله؛ صار مَلَكَةً له؛ إذ النفس من طباعها؛ المرونة. (انتهى).

ولا إشكال بما أخرجه أحمد عن أبي الدرداء؛ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ نتذاكر ما يكون؛ إذ قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ بِجَبَلٍ زَالَ عَنْ مَكَانِهِ فَصَدِّقُوا وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِرَجُلٍ تَغَيَّرَ عَنْ خُلُقِهِ فَلَا تُصَدِّقُوا فإنه يَصِيرُ إلى مَا جُبِلَ عليه**». لأن الجواب عنه معروف؛ من القول المختار في تقسيم الخلق إلى قسمين؛ ولهذا قال الطيبي(٢) في شرحه: فإذا سمعتم بالرجل الكيِّس صار بليداً؛

---

(١) تبين لي من تحقيق هذا الكتاب وغيره من كتب الإمام ابن عبيد الله أن له عدداً من الرسائل والكتب التي لا تزال حسب علمي مفقودة يذكرها في سياق كلامه مثل هذه الرسالة ومثل كتاب (ناديب المجتري) الذي ذكره سابقاً. ومثل قوله إن له رسالة ذكر فيها ما دار بينه وبين الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن من مناقشات خلال وجوده معه باليمن وهي أشياء نفيسة أتمنى أن يجري البحث عنها وطبعها.

(٢) هو الحسين بن محمد الطيبي الإمام المشهور صاحب شرح المشكاة وله مؤلفات من =

أو العكس؛ أو العاجز صار قوياً؛ أو العكس؛ فلا تصدِّقُوا. وكل ما جاء فيه عن أهل الشعر والأدب؛ فهو من هذا الباب؛ أو المبالغة والمغالاة؛ كما هو الغالب عليهم؛ ومنه قول ذي الأصبع:

وَمَنْ يَبْتدِعْ ما ليسَ مِنْ خِيمِ نفسِهِ يَدَعْهُ وَيَغْلِبهُ عَلى النَّفسِ خِيمَهَا

وقول زهير:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امرِئٍ من خَليقَةٍ وَإنْ خَالَهَا تَخْفَى عَنِ النَّاسِ تُعْلَمِ

وقول الأعور:

وَمَنْ يَقْتَرِفْ خُلقاً سِوَى خُلقَ نَفْسِهِ يَدَعْهُ وَتَغلَبْهُ عَليهَ الطَّبَائِعُ

وَأدْوَمُ أخلاقِ الفَتَى مَا نَشَأْ بِهِ وَأقْصَرُ أفْعَالِ الرجَالِ البَدَائِعُ

وقول حاتم:

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيسَ مِنْ خِيمِ نَفْسِهِ يَدَعْهُ وَتُرجِعْهُ إليهِ الرَّوَاجِعُ

وقول الآخر:

يَا أيُّهَا المُتَحَلِّي غَيْرَ شِيمَتِهِ إنَّ التَخَلُّقَ يَأتِي دُونَهُ الخُلُقُ

وقول بعض القدماء:

ظَلَمْتُ أمْراً كَلَّفتهُ غَيرَ خَلْقِهِ وَهَلْ كَانَتْ الأخْلاقُ إلّا غَرَائِزُ

وقول كشاجم:

وَيَأبَى الذِي فِي القَلْبِ إلّا تَبَيُّناً وَكُلُّ إنَاءٍ بِالذي فيهِ يَنضَحُ

وتلاعب به أبو الطيب المتنبي فقال:

وَأسْرَعُ مَفعُولٍ فَعَلتَ تَغَيُّراً تَكَلُّفُ شَيءٍ فِي طباعَكَ ضِدَّهُ

= أهمها «الخلاصة في أصول الحديث» وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح؛ المسمى بالكاشف عن حقائق السنن؛ توفي سنة ٧٤٣هـ.

وقال:

يُـرَادُ مِـنَ الـقَـلْـبِ نِـسْـيَـانُـكُـمْ وَتَـأْبَـى الـطِّـبَـاعُ عَـلَـى الـنَّـاقِـلِ

وصدره من قول كثير:

أُرِيـدُ لأنْـسَـى حُـبَّـهَـا فَـكَـأَنَّـمَـا تُـمَـثَّـلُ لِـي لَـيـلَـى بِـكُـلِّ سَـبِـيـلِ

وعجزه من قول الحكيم: نقل الطباع؛ من رديء الأطماع؛ شديد الامتناع.

وقال أيضاً:

لَـوْ كَـفَـرَ الـعـالَـمُـونَ نِـعْـمَـتَـهُ لـمَـا عَـدَتْ نَـفْـسُـهُ سَـجَـايَـاهَـا

وقال:

وَلِـلـنَّـفْـسِ أخْـلاقٌ تَـدَلُّ عَـلَـى الـفَـتَـى أَكَـانَ سَـخَـاءً مَـا أَتَـى أَمْ تَـسَـاخِـيَـا

وذكر المبرّد أن صالح بن عبد القدوس[1]؛ لما نوظر في الزندقة بحضرة المهدي؛ قال: أتوب وأرجع؛ فقال له: هيهات؛ ألستَ القائل:

وَالـشَّـيْـخُ لا يَـتْـرُكُ أخْـلاقَـهُ حَـتَّـى يُـوارَى فِـي ثَـرَى رَمْـسِـهِ

إذَا ارْعَـوَى عَـاوَدَهُ جَـهْـلُـهُ كَـذِي الـضَّـنَـى عَـادَ إلـى نَـكْـسِـهِ

ثم قتله وصلبه؛ وما ذاك إلّا لاختلاف العلماء في التوبة عن الزندقة؛ وكان من رأي المهدي أنها لا تقبل؛ لأن التوبة عند الخوف من نوع الزندقة؛ وبه قال بعض الشافعية؛ وغيرهم من المالكية؛ والكلام في ذلك منتشر.

وخير أحوال النفس؛ المرونة؛ وهي أخت الفطرة؛ إن لم تكن نفسها؛ ولله در أبي ذؤيب في قوله:

والـنَّـفْـسُ رَاغِـبَـةٌ إذَا رَغَّـبْـتَـهَـا وَإذَا تُـرَدُّ إلـى قَـلِـيـلٍ تَـقْـنَـعُ

(١) من شعراء الدولة العباسية وكان في شعره حكم وأمثال وآداب وكان يعظ الناس بالبصرة ثم اتهمه المهدي بالزندقة وقتل وصلب.

وقال كثير:

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزُّ كُلُّ مُصِيبَةٍ إذَا وُطِّنَتْ يوماً لَهَا النَّفسُ ذَلَّتِ

وقال البوصيري:

والنَّفسُ كَالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ وَإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

وإذا كانت البزاة[١] تؤدَّب؛ والفهود تعلّم؛ والقرود تُلقَّنْ؛ والغصون تُلايَنْ؛ والرماح تثقُف؛ والدوام يقطع في الحجر؛ والهمَّة رسول التوفيق؛ فأولى بالنفوس الناطقة؛ أن تُسَاس بالتصورات الحقَّة؛ والأميال الطاهرة؛ والأخلاق الكريمة؛ والأعمال الشريفة؛ والآداب الصالحة؛ حتَّى تتأهَّل لما رُشِّحت له من الأمر العظيم والفوز المبين.

ولله در ابن الرومي في قوله:

وَقَدْ يَتَظَنَّى النَّاسُ أَنَّ أَسَاهُم وَصَبرَهُمُ فِيهِمْ طِبَاعٌ مُرَكَّبُ

وَلَيسَ كَمَا ظَنُّوهُمَا بَلْ كِلاهُمَا لِكُلِّ لَبِيبٍ مُسْتَطَاعٌ مُسَبَّبُ

يُصَرِّفُهُ المُخْتَارُ مِنَّا فَتَارَةً يُرَادُ فَيَأتِي أَوْ يُرَادُ فَيذْهَبُ

فَلا يَعْذُرَنَّ التَّارِكُ الصَّبْرَ نَفْسَهُ بِأنْ قِيلَ إنَّ الصَّبرَ لا يُتَكَسَّبُ

وأنشد المبرد:

إذَا عَيَّرُوا قَالُوا مَقَادِيرَ قُدِّرَتْ وَمَا العَارُ إلَّا مَا تَجُرُ المَقَادِرُ

وقال غيره:

قَالت عُداتُك ليس المَجدُ مُكتسَباً مقالةَ الهُجن ليس السّبْقُ بالحُضرِ

ثم لنعد إلى توضيح ما أسلفنا الإشارة إليه؛ من التواء الأفهام عن اليهودية

---

(١) البزاة نوع الصقور وقال مجاهد: البزاة هو الطير الذي يصاد به من الجوارح التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾.

والنصرانية؛ لولا أنهم يوجرونها الأولاد كُرْهاً؛ ويضغطون على حرياتهم جوراً؛ ولا يسمحون لهم أن يعقلوا غير ما تلقيه إليهم رهبانهم وأساقفتهم؛ معكوساً كان أو منكوساً؛ ألا ترى للطائفة الكاثوليكية كيف يبطلون العقل والحس؛ ويزعمون أنَّ الخمر والخبز اللذين بين أعينهم؛ يتحولان بعد ألف وتسعمائة سنة من عروج المسيح؛ إلى لحمه ودمه في العشاء الربَّاني؛ فيعبدونهما ويسجدون لهما؛ ولهذا كانت الفرقة البروتستانتية تستهزئ بهم؛ والاستهزاء عائد إليهم أيضاً؛ لإبطالهم حكم العقل والبديهة في كثير من العقائد؛ ولهذا قال بعض علمائهم: لا تعلموا المسلمين المسائل الخلافية للعقل؛ لأنهم ليسوا حمقاء؛ كعبادة الصنم والعشاء الرباني[١] اهـ.

لا جرم لما في تلك الديانات من المحالات الملتوية على العقول؛ قال ﷺ: «**يهودانه. . . . . إلى آخره**» بخلاف الإسلام؛ فإنه الدين المعقول دليله؛ النيِّر سبيله؛ المعروضة للأفهام آياته؛ المجلوَّة للأبصار بيِّناته. ومن هنا ذهب الإمام أبو حنيفة وطائفة؛ إلى تعذيب من لم يعترف بالربوبية من أهل الفترة[٢]؛ بعد إمكان النظر؛ وقالت الماتريدية وطائفة من الأشاعرة[٣]: إن معرفة الله بالعقل؛

---

(١) العشاء الرباني عند المسيحيين هو عبارة عن قطع من الخبز مع كأس من الخمر ويعتقد النصراني عند أكله لهذا الخبز أنه يتحول إلى لحم المسيح وإن كان مذاقه خبزاً، وأن كأس الخمر تتحول إلى دم المسيح وإن كان مذاقها خمراً، ولا بدّ من الإيمان بذلك وإن كان مخالفاً للمحسوس وللحقيقة، وهذا العشاء ليس له وقت محدد فيؤكل يوم الفصح ويؤكل في أوقات أخرى ولكنه يؤكل في الكنيسة ولذلك يجب تبليغ الناس قبل موعده بأسبوعين؛ وطائفة البروتستانت لا تقبل بتحول الخبز والخمر إلى لحم ودم المسيح وإنما تجعله رمزاً لما حل بالمسيح عليه السلام وذكرى لصلبه من أجل البشر.

(٢) أهل الفترة هو مصطلح يطلق على الناس الذين لم ينزل إليهم رسول ولا أتاهم نبي ولم يتبعوا أحد الأديان السماوية.

(٣) الماتريدية: فرقة كلامية من أهل السنة والجماعة، تنسب إلى أبي منصور الماتريدي، قامت على استخدام البراهين والدلائل العقلية والكلامية في محاججة خصومها، من المعتزلة والجهمية وغيرهم، لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية. والأشعرية مثلها وتنسب =

وهو ما عليه المعتزلة. ولئن كان بعض الأشاعرة؛ بل أكثرهم: على أنَّ لا معرفة إلّا بالشرع؛ فالمعنى عليه: أنه تعالى خلق في الأطفال قابلية المعرفة؛ بما أعطاهم من التمييز الذي يعقلون به ما ثبت في الشرع من أول نظرة يلقونها في آياته؛ إذ لا يتميز للعقل؛ المطلوب كلّه بتفصيله؛ ولكنه ميزان يزن ما يلقيه إليه الشرع؛ فيجد أدلة التوحيد ناصعة ترتسم على صفحات القلوب؛ بمجرد ما تمر على الأسماع؛ لموافقتها للعقول ومسايرتها للبصائر، وآيات القرآن تستلفت الأنظار إلى التأمُّل والاستبصار؛ في ملكوت السماوات والأرض؛ وتستشير الاعتبار بجميع ذرات الكون؛ وتأخذ بأزِّمَةِ العقول إلى التفكُّر فيه؛ لأنَّ العلم به طريق الإيمان؛ وقد أكثر القرآن من ذكر الألباب؛ وجاء لفظ يعقلون؛ أكثر من خمسين مرّة؛ ومنه المراد من قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[١] وما أشد ارتباط قوله: القيِّم؛ بما سبق؛ فإنَّه القيِّم بلا اعوجاج، الواضح بلا اشتباه؛ البيِّن بلا التباس. وأراني قلت في كتابي؛ تأديب المجتري: لا ينكر فاضل (أنَّ شيئاً)[٢] من أسرار الربوبية؛ اندمجت عليه النفوس الناطقة بمحض الجود الإلهي؛ ليفضي بها إلى السعادتين؛ إلّا أنَّه لما كان بِمَهَبِّ العواصف؛ وموقع القواصف؛ ومُضْطَرَب الأمواج؛ ومُعْتَرَك الأفواج؛ لم يصحَّ الاعتماد عليه وحده؛ في التخلص من الضيق؛ والهداية إلى الطريق؛ فكان من لطف الله تعالى؛ أن بعث الرسل عليهم السلام؛ يقيمون الحُجَّة؛ ويوضِّحون المحجَّة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا . . .﴾[٣] ﴿. . . .وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٤] وقد جرت حكمة

= لأبي الحسن الأشعري وبين الطريقتين اختلافات بسيطة وإليهما ينتسب غالبية أهل السنة والجماعة.

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) الكلمة بين القوسين ممسوخة من المخطوطة وكتبتها بالمعنى.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

الله تعالى في الشرائع؛ على الوجه المناسب للعقول البشرية؛ في جميع أدوارها وسائر أطوارها؛ ألا ترى أنها لما بلغت أوج ارتقائها؛ فُتِحَت لها أبواب التفكُّر في الأكوان؛ بشهادة الكثير من آيات القرآن؛ وختمت هدايتها بالدين الإسلامي؛ الذي له باتفاقه مع العقل؛ الشفوف على سائر الأديان؛ الكافي نوره المبين لهداية بني الإنسان؛ إلى نهاية الأزمان.

وما جمحت بي الحريَّة هنا؛ إلّا طمعاً في الإصلاح بين الخصوم؛ في خصوص هذه المسألة؛ فاستوفيت هذا الشوط؛ يغضُّ من عناني فيه ابن الحاجب وأمثاله؛ ويرخِّيه لي الإمام الرازي؛ بما يَشْتَمُّ من ميوله للحكم العقلي فيما قبل ورود الشرع؛ ومن توهينه الاستدلال بتينك الآيتين؛ على إنكاره؛ مع ضعف الجواب عما أورده في ذلك؛ ضعفاً ينتهي إلى عدم الانفصال عنه؛ بل إلى حقيقة التسليم بمقتضاه؛ ولا خلاف في انتهاء تصرف العقل بعد البعثة؛ إلّا فيما تحيله الشريعة عليه من الأحكام العرفية. اهـ. ونعوذ بالله من زلات الأقلام؛ وشطحات الأفهام؛ ولكنه ما ظهر ولاح؛ وما أريد إلّا الإصلاح. وعلى الجملة؛ فالإنسان مرشَّح للسعادة الأبدية؛ والعز الدائم؛ غير أن لا بدَّ له من اعتراض العقبات الكأداء؛ والسهوب الفيحاء؛ والنجود الشنعاء؛ والثنايا العوجاء.

تَجْرِي الرِيَاحُ بِهَا حَسْرَى مُوَلَّهَةً ... حَيرَى تَلُوذُ بأطْرَافِ الجَلامِيدِ[1]

فالويل له من اختراقها؛ بلا ذخيرة من الدين؛ ولا بصيرة من اليقين.

وَمِنْ عَجَبٍ أنَّ المَطَامِعَ فِي الذّرَى ... وَأنَّ الخُطَى فِي سَيْرِهَا مُتَقَاعِسُ

وَفِي الزَّادِ قِلّ وَالطَّرِيقُ بَعِيدَةٌ ... ومعفأةُ المُومَاةُ والليلُ دَامِسُ

فإن انفسخت نيته من العوارض؛ أو وَهَنَتْ هِمَّتُه من العوائق؛ أو استبدل الأدنى من الشهوات؛ بالذي هو خير؛ أو رَضِيَ عن الملك الباقي بعيش البهائم؛ انتكث فتله؛ وانعكس أمره؛ واضطرب حبله؛ وتَعِسَ وانتكس؛ وإذا شيك فلا

---

(١) مسلم بن الوليد يصف الصحراء في هذا البيت.

انتقش؛ ومن حظ الإنسان أن يكرم أصله؛ ويشرف أهله؛ ويطيب مهده؛ فإنَّ الأمر كما قال رسول الله ﷺ: «**خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا**». وقال أبو عبادة:

لا عُـذْرَ لِـلْـشَّـجِـرِ الـذِي طَـابَـتْ لَـهُ أعْـرَاقُـهُ أنْ لا يَـطِـيـبَ جَـنَـاهُ

ثم يأخذ نفسه بالتجربة؛ ويزِمَّها بالتقوى؛ ويسوسها بالمروءة؛ ويتحيَّن الفضائل؛ حتَّى تنحدر في سبيلها السهل؛ وتتأثرها ولو على مهل؛ فبحسن التصور يوجد الشوق، وبإدمان السعي يحصل الذوق، عند ذلك تصير الخيرات مناها؛ وتفقد في مزاولتها عناها؛ ويطيب لها جناها؛ وتمتلك هواها؛ وتحفد وراها؛ ويصير داؤها دواءها. والباري جل شأنه يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ....﴾[1]؛ ولا مانع حسبما أشرنا قبل؛ من تفسير ذلك بنفس الفطرة التي ذكرناها؛ والقابلية التي قررناها؛ ثم الانتكاس بالميل إلى الرعونات؛ والانقطاع عن الكمالات؛ والخلود إلى الشهوات؛ والنكران للجميل؛ والتقصير في الشكر ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

وقال بعض العرب:

وكنتَ امْرِءاً لَوْ شِئتَ أنْ تَبْلُغَ المُنَى بَلَغْتَ بِأدْنَى غَايَةٍ تَسْتَدِيمَهَا
وَلِكَنْ فَطَامُ النَّفْسِ أثْقَلُ مَحْمَلاً مِنَ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءَ حِينَ تَرُومَهَا

وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ لا يبعد عن قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[3]؛ وصدق الله ورسوله.

---

(١) سورة التين، الآيات: ٤ ـ ٦.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

وما أخطأ الشعراء الذين أسلفنا كلامهم؛ فإنَّ الملكات الراسخة قَلَّمَا تجد لها حيلة ناسخة؛ ومتى تمكَّن الخلق السيئ من النفس؛ انقادت للجرائم؛ وارتبكت في العظائم؛ فلا تزال تتخبَّط في الشرور؛ حتى تنتهي إلى الفجور؛ وتقتحم في مهاوي الهلاك؛ حتى تستقر في درك الإشراك؛ فترى الهالكين بآيات الله يكفرون؛ وللأنبياء عليهم الصلوات يقتلون. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[1] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[3] ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[4] ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[5].

فَيَا رَبِّ إلَّا مَا شَرَحْتَ صُدورَنَا ... وَزَيَّنْتَهَا بِالحِلْمِ وَالعِلْمِ وَالتَّقْوَى

وَأَفْرَغْتَ فِيهَا الشَّوقَ لَلعَالَمِ الذِي ... بِهِ الرُّوحُ وَالرَّيْحَانُ وَالعِزُّ والتَّقْوَى

وَسَلَّمْتَنَا مِنْ كَيدِ إبليسَ والهوَى ... وَسَيَّرْتَنَا لِلمنهَجِ الصَّالحِ الأقْوَى

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١١.



الفائدة

السابعة والعشرون

الفائدة السابعة والعشرون

جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال: «**سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: «الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»**»؛ ومثله في مواقيت الصلاة من حديث ابن مسعود أيضاً؛ وهو مشكل بما جاء في كتاب الإيمان: «عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سُئِلَ: «**أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ حَجٌّ مَبْرُورٌ**» وفيه أيضاً عن ابن عمر: «**أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**» وأخرجه مسلم أيضاً. وفي حديث أبي موسى وعبد الله بن عمر: «**أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**». وصح في حديث عثمان: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»؛ وأمثاله في الصحيح كثيرة.

قال النووي: واختلف العلماء في الجمع بينها؛ فذكر الإمام الجليل أبو عبد الله الحليمي الشافعي[1]؛ عن شيخه العلامة المتقن؛ أبي بكر القفال

---

(١) هو القاضي العلامة، رئيس المحدِّثين والمتكلمين بما وراء النهر، أبو عبد الله، الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الشافعي. أحد الأذكياء الموصوفين، ومن أصحاب الوجوه في المذهب. وكان متفنناً، سيَّال الذهن، مناظراً، طويل الباع في الأدب والبيان. أخذ عن: الأستاذ أبي بكر القفَّال، والإمام أبي بكر الأُودَنيّ وتوفي سنة ٤٠٣هـ.

الشاشي[1]؛ قال الحليمي: وكان القفال أعلم من لقيته من علماء عصره؛ إنه جمع بينهما بوجهين:

أحدهما: أن ذلك اختلاف جواب؛ جرى على حسب اختلاف الأحوال والأشخاص؛ فإنه قد يقال خير الأشياء كذا؛ ولا يراد به أنه خير جميع الأشياء من جميع الوجوه؛ وفي جميع الأمور والأشخاص، بل في حالٍ دون حال أو نحو ذلك؛ واستشهد في ذلك بأخبار منها: عن ابن عباس ﵄؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**حجَّةٌ لمن لم يحج أفضل من أربعين غزوة؛ وغزوة لمن حج أفضل من أربعين حَجَّة**».

والوجه الثاني: أنه يجوز أن يكون المراد: من أفضل الأعمال كذا؛ أو من خيرها كذا؛ فحذفت (مِنْ)؛ وهي مرادة؛ كما يقال: فلان أعقل الناس وأفضلهم؛ ويراد أنه من أعقلهم وأفضلهم. ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ**». ومعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس؛ ومن ذلك قولهم: أزهد الناس في العَالِمْ جيرانه. وقد يوجد في غيرهم من هو أزهد منهم فيه.

هذا كلام للقفال ﵀؛ وعلى هذا الوجه الثاني: يكون الإيمان أفضلها مطلقاً؛ والباقيات متساوية في كونها من أفضل الأعمال والأحوال؛ ثم يعرف فضل بعضها على بعض بدلائل تدل عليها؛ وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ **فإن قيل**: فقد جاء في بعض الروايات: أفضلها كذا ثُمَّ كذا؛ بحرف (ثُمَّ) وهي موضوعة للترتيب؛ **فالجواب**: إن (ثُمَّ) هنا للترتيب في الفضل؛ كما قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا

---

(١) أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي المعروف بـ «القفال الكبير» (٣٦٥ ـ ٣٦٥هـ) أحد أعلام مذهب الإمام الشافعي، فقيه ومفسر وراوي حديث، ومن أشهر أئمة المسلمين عبر التاريخ. ويلقب بـ «القفال الكبير» تمييزاً له عن الإمام «القفال الصغير» أبو بكر عبد الله بن أحمد المروزي الذي عاش بعد المائة الرابعة، وكان أيضاً شيخ الشافعية في بلده.قام بالعديد من الرحلات لطلب العلم والحديث.

مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[(١)] ومعلومةٌ أن ليس المراد هنا الترتيب في الفعل؛ وكما قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟﴾[(٢)] إلى قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾[(٣)] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾[(٤)] ونظائر ذلك كثيرة وأنشدوا فيه:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ... ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهْ

وذكر القاضي عياض في الجمع بينهما وجهين؛ **أحدهما**: نحو الأول من الوجهين اللذين حكيناهما؛ قال: قيل اختلف الجواب؛ لاختلاف الأحوال؛ فأعلمَ كلَّ قومٍ بما بهم حاجة إليه؛ أو بما لم يُكَمِّلوه بَعْدُ من دعائم الإسلام ولا بلغهم علمه؛ **والثاني**: أنه قدَّم الجهاد على الحج؛ لأنه كان أول الإسلام؛ ومحاربة أعدائه؛ والجد في إظهاره.

وذكر صاحب التحرير هذا الوجه الثاني؛ ثم قال: والصحيح أنه محمول على الجهاد في وقت الزحف الملجئ والنفير العام؛ فإنه حينئذ يجب الجهاد على الجميع؛ وإذا كان هكذا؛ فالجهاد أولى بالتحريض والتقديم من الحج؛ لما في الجهاد من المصلحة العامة للمسلمين؛ مع أنه متعيِّن متضيِّق في هذا الحال؛ بخلاف الحج؛ والله أعلم. (انتهى كلام النووي بحذافيره ما خلا حذفاً يسيراً في موضعين منه).

---

(١) سورة البلد، الآيات: ١٢ ـ ١٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٤.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١١.

■ وفيه أشياء:

أحدها: وضوح الفرق بين ثَمَّ في الآيات والبيت؛ وبينها في ترتيب الأعمال؛ لأن السؤال في هذا عن الترتيب؛ وكان الجواب بِثَمَّ الظاهرة فيه؛ فإذا ألغيناها فكأنَّ لا جواب أصلاً؛ بخلاف الآيات والبيت؛ فإنما عرضت فيها عرضاً؛ وهذا ظاهرٌ من السياق لا يرتاب فيه عربيٌ قط.

ثانيها: أن السائل عن حقيقة التفاضل بين الأعمال؛ لا يخرج من هذا الكلام إلّا صفر اليدين؛ لا تنقع له لهاه؛ ولا ينال منه مشتهاه؛ وكأنما أمسك منه على ماء؛ مع تفريق الأصابع؛ ومعاذ الله أن لا تبل الأحاديث غَلَّته؛ مع كثرتها وطرحتها؛ ففيه تعطيل للظواهر؛ وإهمال للمفاهيم.

ثالثها: أنَّ اعتبار الأحوال والظروف لا يغني في الجواب؛ لأنه خارجي لا ذاتي؛ لأن بعض إفراده معلوم بالضرورة؛ إذ قد صرح الفقهاء بأنه يجوز قطع فريضة الصلاة لاستنقاذ من أخذ نعله وهو فيها. قال ابن حجر في تحفته: ومن ثَمَّ صرح بعضهم: بأنَّ من رأى حيواناً محترماً يقصده ظالم؛ أي: ولا يخشى منه قتالاً أو نحوه؛ أو يغرق؛ لزمه تخليصه؛ وتأخيرها أو إبطالها إن كان فيها؛ أو مالاً؛ جاز ذلك؛ وَكُرِهَ له تركه. اهـ. فوجوب إبطال الصلاة لاستنقاذ دجاجة من الغرق مثلاً؛ يُغْنِي عن تأكيد ندب الذب عن حوزة الدين؛ إذا ارتفع الشرار؛ وشخصت الأبصار؛ ويُغْنِي عن تفضيل المواساة عند غلبة الجهد واشتداد الأمر؛ وما أشبه ذلك؛ فما تحت الكلام الذي أطال فيه الإمام النووي؛ من حاصل توضع عليه اليد.

قال الحافظ ابن حجر: قد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة؛ ومع ذلك؛ ففي وقت مواساة المضطرين تكون الصدقة أفضل. وقال ابن دقيق العيد: الأعمال في هذا الحديث محمولة على البدنية؛ وأراد بذلك الاحتراز عن الإيمان؛ لأنه من أعمال القلوب؛ فلا تعارض حينئذٍ وبين حديث أبي هريرة: «أفضل الأعمال إيمان بالله. . . . . الحديث» (انتهى كلام الحافظ بحذف لما قد

سبق مثله في كلام النووي). وغاية ما فيه؛ انتفاء تعارض الأفضلية بين الإيمان والصلاة؛ مع السكوت عما بينهما وبين الجهاد وغير ذلك؛ ونقل في التحفة عن الغزالي؛ تفضيل القضاء على الجهاد؛ واستشكلته بادئ الأمر؛ ثم اتَّضح الجواب؛ بما في سبيل القضاء من المخاوف والهلكات؛ وكون صاحبه على شفا حفرة من النار؛ قَلَّمَا يسلم منها إلّا صحيح العزيمة في الدين؛ راسخ القدم في الهدي المبين؛ وإلّا تحوَّل إلى قطع طريق. ونقل فيها عن ابن أبي عصرون: أفضلية الجهاد على غيره من الأعمال، قال: واختاره الأذرعي؛ وذكر أحاديث صحيحة وصريحة بذلك؛ أوَّلَها الأكثرون؛ بحملها على خصوص السائل؛ أو الزمن؛ أو المخاطب. (انتهى).

وفي فتاوى الرملي وابن حجر: أنَّ مجالس الذكر أفضل من الرباط في سبيل الله؛ وعلى الجملة؛ فقد كثرت المفاضلة بين الأعمال في الأحاديث النبوية؛ ولا بدّ أولاً من اعتبار الحال والزمان؛ والفاعل ومشقَّة العمل؛ وأثره ونتيجته؛ ولا سيما في تهذيب النفس وتزكيتها؛ وتهيئتها للتدرج في مسالك الهداية؛ والتطوُّح في معارج السعادة؛ وما أشبه ذلك من وجوه الاعتبارات؛ التي لا يظهر أكثرها إلّا لعالم بأمراض القلوب؛ وغوائل النفوس؛ ومداخل الأهواء وشبهات الآراء؛ ومنافذ العلل؛ ومواقع الخلل ففي الصحيح عن أبي هريرة؛ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ. قَالَ: «**لا أَجِدُهُ**». قَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلا تَفْتُرَ، وَتَصُومَ فَلا تُفْطِرَ». قَالَ: «**وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟**»، ولا دلالة فيه لفضله على الجهاد؛ لأنه ﷺ؛ بشهادة السياق؛ لم يرد حقيقته؛ وكيف يريدها؛ وقد نهى عن مثل ذلك من التكُّلف؛ وإنما أراد التعجيز؛ لما عَرَفَ من كسل الرجل عن الجهاد؛ وعَلِمَ من ضعف نيته في العبادة. وما كُلُّ صلاة يزيد فضلها على الجهاد؛ ولكن صلاة الخاشعين؛ وليس هذا منهم؛ بدليل استثقاله ما وُصِفَ له؛ واعتباره إيَّاه من قسم المحال؛ ولا جرم؛ فهو ﷺ؛ العارف الخبير؛ والناقد البصير.

ثم لا يكفي اعتبار هذه الدواعي فقط لزنة الأفضليَّة وتعريفها؛ بل لا بدَّ

معها من استنتاج الأفضلية المطلقة؛ وحاصل ما انتحله العلماء من ذلك؛ أن أفضل العبادات الإيمان بالله تعالى؛ ثُمَّ العلم؛ ففرضه أفضل الفروض؛ ونفله أفضل النوافل؛ ثُمَّ الصلاة.

قال ابن حجر في تحفته؛ عند قول المنهاج في خطبته: فإن الاشتغال بالعلم من أفضل الطاعات: ففرضُ عينِهِ أفضل الفروض العينية؛ لتفرعها عليه؛ وأفضله معرفة الله تعالى؛ وفرض الكفاية منه أفضل فروض الكفايات؛ ونفله أفضل من بقية النوافل؛ وما تقرر من كونه أفضل؛ لا ينافي أنه من الأفضل؛ ويؤيده ما صح عن أنس: «**كان رسول الله ﷺ مِن أحسن النَّاس خُلُقاً...**» وما صح عن عائشة؛ من أنها قالت: «....**فَإِذَا انْتُهِكَ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ شَيْءٌ كَانَ مِنْ أَشَدِّهِمْ فِي ذَلِكَ غَضَباً...**»؛ فأتت (بِمَنْ) مع أنه أشدهم؛ فإذا تقرر أن الاشتغال بالعلم أفضل الطاعات؛ فلا فائدة لـ...(من)؛ إلّا الإشارة إلى التفصيل الذي ذكرته؛ بين فرض عينه؛ وفرض كفايته؛ وبين غيره من الثلاثة. (اهـ بمعناه).

وقال في باب صلاة النفل منها: وأفضل عبادات البدن بعد الشهادتين؛ الصلاة؛ ففرضها أفضل الفروض؛ ونفلها أفضل النوافل؛ ولا يرد طلب العلم وحفظ القرآن؛ لأنهما من فروض الكفايات؛ ويليها الصوم؛ فالحج؛ فالزكاة؛ وقيل أفضلها الزكاة؛ وقيل الصوم؛ وقيل الحج؛ وقيل غير ذلك. والخلاف في الإكثار من واحد؛ أي: عرفاً؛ مع الاقتصار على الآكد من الآخر؛ وإلّا فصوم يوم؛ أفضل من ركعتين؛ وقس على ذلك. نعم؛ العمل القلبي؛ لعدم تصور الرياء فيه؛ أفضل من غيره اهـ.

وهاهنا إشكال آخر: إذ ربما يقول قائل: كيف تكون الصلاة أفضل من الجهاد في سبيل الله؛ وإنما هي قيام وقعود وركوع وسجود؛ تقدر على الاستكثار منها كل عجوز؛ بل لا تجد كثرة العبادة إلّا عند العجائز؛ وقد كتب عبد الله بن المبارك وهو في ميدان الجهاد؛ إلى فضيل بن عياض يفتخر عليه:

يَا عَابِدَ الحَرَمَينِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا ... لَعَرَفْتَ أَنَّكَ فِي العِبَادَةِ تَلْعَبُ

يَا مَنْ يُخَضِّبُ نَحْرَهُ بِدُمُوعِهِ   فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ

والجواب عن ذلك: أن كلام ابن المبارك إمَّا مرجوح من تفضيل الجهاد؛ وإما ناظر إلى ظاهر الأمر دون خافيه، وكُلٌّ يؤخذ من كلامه ويترك؛ ما عدا صاحب القبر الأعطر ﷺ؛ وأما استطاعة العجائز على الاستكثار من العبادة؛ بمعنى الكرامة؛ فذلك ليس بِمُسَلَّم؛ لأنَّ من دون ذلك العلم الصحيح؛ والإحسان الكامل؛ والمراقبة التامة؛ وأنَّى بذلك؟ ولئن حصل؛ فذلك ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾. وقد قال إمام الحرمين بآخره: رجعنا إلى قوله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِدِينِ الْعَجَائِزِ**». ومنه تعرف أن ليس المراد من الصلاة؛ مجرد القيام والقعود والركوع والسجود؛ فإنَّ ذلك ما يستطيعه البر والفاجر والعالم والجاهل؛ والله تقدست أسماؤه يقول: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1]؛ ولكن المراد منها؛ الانكسار والخضوع؛ والإخبات والخشوع؛ والمراقبة والشهود؛ والاستغراق في تعظيم الجبار المعبود؛ الذي تخشاه ملائكة الصفيح؛ وتستغرق آناءها في التقديس له والتسبيح؛ فكم قائم لا يركع؛ وساجد لا يرفع؛ لا يلحقهم فتور؛ ولا يدركهم غرور وفي الحديث: «**أَطَتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَع أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لِلَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً. . .**»[2] الحديث؛ ومصداقه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٢) عَنْ أبي ذر، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَع أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لِلَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ**» (جامع الترمذي) ومعنى (أطَّت السماء): أي: صوَّتت، أي: أصدرت صوتاً. وأطيط الإبل: =

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

فمن دخل الصلاة ممتلئ القلب؛ بآلاء الباري وآياته وأسمائه وصفاته؛ فلا بدّ وأن يكثر فتوحه؛ وتطير روحه؛ ويُشرق يومه؛ ويُهيمن على جوارحه الإيمان؛ فلا ينفتل منها إلّا خاضعاً لأحكام القرآن؛ منقاداً لشريعة سيِّدِ ولد عدنان. ومن حسنت صلاته؛ حسنت سائر أموره؛ لأن الصلاة معراج الأبرار؛ ودخول في حضرة الملك القهّار؛ واتصال بجلال من يَكوِّرُ الليل على النهار.

والتقوى إنما هي ثمرة مراقبة الجبار؛ وإذا كان من وقف بين يدي عظيم من عظماء الدنيا؛ وأدَّى له واجب الخدمة؛ لا يخالفه بعد ما يخرج من عنده؛ ولا سيّما إذا عرف أنه بعينه؛ وأنَّ له رقيباً لا يغفل؛ وجاسوساً لا يذهل؛ فما بالك بمن يطَّلع على الضمائر؛ ولا يخفى عليه ما في السرائر؛ وقد سبق في غير هذه الفائدة؛ قول المرأة:

وإنِّي لأسْتَحْيِيهِ وَالتُّرْبُ بَيْنَنَا ... كَمَا كُنْتُ أسْتَحْيِيهِ وَهْوَ يَرَانِي

وقال الآخر:

كَأنَّ رَقِيباً مِنْكَ يَرْعَى خَوَاطِرِي ... وَآخَرَ يَرْعَى نَاظِرِي وَلِسَانِي

وقال جميل:

وإنِّي لأسْتَحيِيكَ حَتَّى كَأنَّمَا ... عَليَّ بِظَهْرِ الغَيْبِ مِنْكَ قَرِيبُ

وقال أشجع:

وَيَمْنَعَنِي مِنْ لَذَّةِ العَيْشِ أنَّنِي ... أخَافُ إذَا قَارَفْتُ لَهْواً تَرَانِيَا

= أصواتها وحنينها ومعنى (إلى الصُّعُدات) أي: الطرق. وقيل: المراد بالصعدات هنا البراري والصحاري.

(١) سورة الشورى، الآية: ٥.

وأنشد الفرَّاء:

كَأنَّ عَلى ذِي العَقْلِ عَيْناً بَصِيرَةً ... بِمَجْلَسِهِ أوْ مَنْظَراً هُوَ نَاظِرُه

يَحَاذِرُ حَتَّى يَحْسَبُ النَّاسُ كُلُّهُمْ ... مِنَ الخَوفِ لا تَخْفَى عَلَيهِمَ سَرَائِرُه

وقال الحاجري:

يُمَثِّلُكَ الشَّوقُ الشَّدِيدُ لِنَاظِري ... فَأَطْرِقُ إجْلالاً كأَنَّكَ حَاضِرُ

وذكروا أنه كان لبعض الأمراء غلام يُقْبِلُ عليه أكثر من غيره؛ ولم يكن بأكثرهم قيمة؛ ولا بأحسنهم صورة؛ فقالوا له في ذلك؛ فركب ومعه الجيش؛ وبالبعد منهم جبل عليه ثلج، أكثر الأمير النظر إليه؛ فركض الغلام فرسه؛ وما كان بأسرع من عوده يحمل قطعة من الثلج؛ فقال له الأمير: ما أدراك أنِّي أردته؟ قال: مِنْ نَظرِكَ إليه؛ ونظر السلطان لا يكون إلّا عن قصد؛ فقال: إنما أخُصُّه بإكرامي؛ لمراقبته لأحوالي؛ ومسارعته في مرضاتي.

وعرض بعض الملوك جوهرتين لإحدى حظاياه؛ فكسر لها الوزير عينه؛ إشارة إلى الحسنى؛ ففطن الملك لإشارته؛ فبقي الوزير كاسراً عينه خمسين سنة؛ فهذه مراقبة مخلوق؛ لا يضر ولا ينفع ولا يصنع ولا يرفع؛ أفليس الخالق أولى بذلك من المخلوقين؟. بلى؛ ولكنه جل ثناؤه؛ يقصر به عما يصنع بخلقه.

وراود بعضهم أعرابية عن نفسها؛ فقالت: أخاف أن يرانا أحد؟ فقال لها: ما علينا إلّا الكواكب! قالت: فأينك من مكوكبها؟. ويروى أن ابن عمر كان في سفر؛ فرأى غلاماً يرعى غنماً؛ فقال له: أتبيع واحدة من هذه الغنم؟ قال: إنها ليست لي؛ فأراد أن يختبره؛ فقال: وما يمنعك أن تقول أخذها الذئب؟ فقال الغلام: فأين الله؟ فكان ابن عمر يقول دائماً: فأين الله؟

فالداخل في الصلاة مع مراعاة الركن الثالث من حقائق الدين؛ وهو الإحسان؛ لا بدَّ وأن تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر؛ ومتى نهته عن ذلك؛ كانت العبادة عليه أسهل؛ وتيَسَّر له الطريق إلى التحقق بأجمع آية في القرآن للخير

والشر؛ كما صحت به الرواية عن ابن عمر وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١]. لِمَ لا؛ إنه لن تتسنَّم تلك المراقي إلّا بجانب من الصبرِ عظيم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ؛ بعقب رجوعه من بعض الغزوات: «**رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ**»

وأخرج الديلمي وأبو نعيم وابن النجار؛ من حديث أبي ذر: «**أَفضَلُ الجِهادِ أَن تُجاهِدَ نَفسَكَ وهَواكَ في ذاتِ الله**» وقد يستأنس لهذين الحديثين؛ عن طريق الإشارة؛ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ...﴾[٢] ولا أكفر لنعمة الله؛ من نفس الإنسان التي بين جنبيه. فإذا جاهدها؛ فقد سهل له كل حزن؛ وخف عليه كل وزن؛ وخلص له جهاد ما سواها. وقال عبيد العنبري:

يَعُدُّ الفَتَى أعْدَاءَهُ وَصَدِيقَهُ ... وَنفْسُ الفَتَى أعْدَى عَدُوٍّ يُحَاوِلُه

فأشد أنواع الجهاد الصبر على مخالفة الهوى؛ ومفارقة المألوف؛ وخرق العوائد؛ ومتى أُرْخِيَ الزمامُ للنفس في الشهوة؛ استعرَّت؛ ومتى التقى لِحْيَاهَا على ما تهواه تنمَّرَت.

وَلَمْ تَتَغَالَبْ شَهْوَةٌ وَمُرُوءَةٌ ... فَيَفْتَرِقَا إلّا وَللشَّهْوَةِ الغَلَبُ

وبذلك يتظاهر على الإنسان جندان من جنود الشيطان؛ لا يقوى الدين على حربهما؛ ولا تنقاد الجوارح مع منازعتهما؛ فليرضها ناشئة؛ فأكبر البليَّة أن يراض القارح ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾[٣].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة ص، الآية: ٢٦.

إن الهوى ما تولى يُصْمِ أو يَصَمِ[١]؛ وقال الأخطل:

وَإِنَّ امْـرِءاً لا يَـنْـثَـنِـي عَـنْ غِـوَايَـةٍ   إِذَا مَـا اشْـتَـهَـتـهَـا نَـفْـسُـهُ لَـجَـهُـولُ

وقال أبو تمام حبيب بن أوس:

وَعِـبَـادَةُ الأَهْـوَاءِ فِـي تَـطْـوِيـحِـهَـا   بِـالـدِّيـنِ مِـثـلَ عِـبَـادَةِ الأَصْـنَـامِ

وخير خصال النفس المرونة؛ كما قررنا في الفائدة التي قبل هذي؛ ولهذا قال أبو يزيد البسطامي[٢]: ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي؛ حتى صرت أسوقها وهي تضحك. وقوله: أسوقها وهي تضحك؛ لعله من باب المشاكلة؛ وإلّا فالسائق حينئذٍ من الضمير. وقال بعضهم: كابدت القرآن عشرين سنة؛ ثم تنعَّمت به عشرين سنة. ولعل نفس هذا المريد؛ كانت آلفة الحران؛ شديدة الجماح؛ قوية الطماح؛ وإلّا فمعشار هذه المدة يكفي للمكابدة.

فالصلاة معترك المنايا؛ بين النفس الناطقة؛ والشهوات البهيمية؛ والنزوات الشيطانية. وهناك تحمر الحدق؛ ويلجم العرق؛ ويثور القتام؛ ويقصر الكلام؛ ويخضع اللئام؛ ويعبر الكرام، ويضيق المخرج؛ ويتبين الإبريز من البهرج، وثَمَّ تطول العقاب[٣]؛ وتَخاذَلُ الهام والرقاب.

والـيَـومَ مِـنْ غَـسَـقِ الـعَـجَـاجَـةِ لَـيـلَـةٌ   وَالـكَـرُّ يَـخْـرَقُ سَـجْـفَـهَـا الـمَـمْـدُودَا

وَالـطَّـعْـنُ يَـغْـتَـصِـبُ الـجِـيَـادَ شِـيَـاتَـهَـا   وَالـضَّـرْبَ يَـقْـدَحُ فِـي الـتَّـلِـيـلِ وَقُـودَا

وَأَجَـلُّ مَـا عِـنْـدَ الـفَـوارِسِ حَـثُّـهَـا   فِـي طَـاعَـةِ الـهَـرَبِ الـجِـيَـادِ الـقُـودَا

هنالك الأسنَّة تشتجر؛ والأعنَّة تختلط؛ والجيوش تلتحم؛ ولا عاصم من

---

(١) فاصرف هواها وحاذر أن تولّيه   إنّ الهوَى ما تَوَلّى يُصْمِ أو يَصِمِ
(البردة للبوصيري).

(٢) أبو يزيد البِسطامِي، من متصوفي القرن الثالث الهجري.، ولد سنة ١٨٨هـ في خراسان له شطحات؛ من القائلين بوحدة الوجود.

(٣) العقاب: جمع عقب.

أمر الله إلّا من رحم؛ وفي الصحيح من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى**». والكلام على هذا الحديث يستدعي طولاً؛ فنقتصر منه على ذكر الحكمة في هروب الشيطان عند سماع الأذان؛ ورجوعه في الصلاة مع ما فيها من الذكر والقرآن؛ وخير ما فيه أن يقال: إنَّ الأذان هزّة صادقة؛ وحملة واحدة؛ وصيحة عامّة؛ وقارعة طامَّة؛ وأخذة رابية؛ ونفير شامل تزعزع به الأساطين؛ وتزلزل له الشياطين، ثم تنهنه ربوها؛ وتخفض بهرها؛ وتجمع جراميزها؛ وتلم شملها؛ وتتدارك فلَّها؛ وتعود لا بعلوية الهجوم العام؛ بل على سبيل الاختلاس؛ فتتخلل قلوب الناس؛ بالهواجس والوسواس.

وقد رأيت للحافظ؛ نقل عن ابن الجوزي وغيره؛ ما قد يحوم حوله؛ غير أنهم لم يقعوا عليه؛ وهو معنى شريف يتأكد بما جربه الكثير؛ من انفضاض المحاريب للتكبير؛ من المخلص المتفان الجهير؛ كما ذكروا عن القطب الحداد وغيره. وينضم إليه؛ أنَّ الشيطان لا يقدر على المرء في الصلاة؛ إلّا بما يذكّيه من نيران الثورة الداخلية؛ من النفس والدنيا والهوى، ومتى ألهبها باعتلاج الخواطر؛ فقد تيسر له السبيل؛ وأسهل الوعر؛ وأسلس الصعب. فما الأذان بأفضل من الصلاة؛ ولكن لأهميتها؛ يبذل جهده لإفسادها من الداخل؛ ومتى حصل الفساد بالانقسام الداخلي؛ انفتح له الباب على مصراعيه. ولم أر من ذكر هذا المعنى؛ ولكنه الصواب إن شاء الله؛ لأنَّ أمثلته محسوسة مشاهدة؛ وقلما يقع الانهزام بين المتحاربين؛ إلّا بالانقسام الداخلي؛ فهو شرّ المصائب؛ وأكبر النوائب.

وبعد فإن الصلاة نعيم القلوب؛ وغذاء النفوس؛ وقوادم الأرواح وخوافيها، تطير بها إلى جانب القدس العلي؛ وعلم النور السني؛ ولهذا كان ﷺ يقول: «**أرحنا يا بلال بالصلاة**» ويقول: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»، ويكون مع أهله

يضحك مما يضحكون منه؛ ويتعجب مما يتعجبون منه؛ فإذا أُذِّنَ بالصلاة؛ قام كأن لم يعرفهم ولم يعرفوه. وقال جلّ وعلا: ﴿... وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ...﴾[1] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[2] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾[3]. فالمصلّي حقيقة؛ لا يكون إلّا كريماً؛ والكريم لا يُبْطِرُه الغنى؛ ولا يذِلّه الفقر.

قال الشاعر:

غَنِينَا زَمَاناً بِالتَّصَعلُكِ والغِنَى   كَمَا الدَّهْرُ مِنْ آيَاتِهِ العُسْرُ وَاليُسْرُ
فَمَا زَادَنَا شَأواً عَلَى ذِي قَرَابَةٍ   غِناً وَلا أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الفَقْرُ

وقال خداش بن زهير العامري:

أَلَمْ تَعْلَمِي وَالعِلْمُ يَنْفَعُ أهلَهُ   وَلَيسَ الذِي يَدْرِي كَمَنْ كَانَ لا يَدْرِي
بِأَنَّا عَلَى سَرَّائِنَا غَيْرَ جُهَّلٍ   وَأَنَّا عَلَى ضَرَّائِنَا مِنْ ذَوِي الصَّبْرِ

وقال كعب:

لا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمُوا   قَوماً وَلَيسُوا مَجَازِيعاً إِذَا نُكِبُوا

وقال حسان:

لا فُرَّحٌ إِنْ أَصَابُوا مِنْ عَدُوِّهُمُ   وَإِنْ أُصِيبُوا فَلا خَوْرٌ وَلا جَزَعُ

ومرَّ عليٌّ بطلحة بن عبيد الله مجندلاً؛ فأنشد متمثلاً:

فَتَىً كان يُدْنِيهِ الغِنَى مِنْ صَدِيقِهِ   إذا مَا هُوَ اسْتَغْنَى وَيُبْعِدُهُ الفَقْرُ
فَتَىً لا يعدُّ المال رَبّاً وَلا يُرَى   بِهِ جَفْوَةً إِنْ نَالَ عِزّاً وَلا كِبْرُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٢) سورة المعارج، الآيات: ١٩ ـ ٢٣.

(٣) سورة المعارج، الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥.

فتىً كان يُعطِي السَّيفَ فِي الرَّوعِ حَقَّهُ إذَا ثَوَّبَ الداعِي وَتشفَى بِهِ الجزرُ
وهَوَّنَ وَجْدِي أنَّنِي سَوفَ أغْتَدِي على إثْرِهِ يوماً وإنْ نفسَ العمرُ

وقال إبراهيم بن كنيف النبهاني:

فَإنْ تَكُنْ الأيَّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ بِبُؤسَى وَنُعْمَى وَالحَوادِثُ تَفْعَلُ
فَمَا لَيَّنَتْ مِنَّا قَنَاةً صَلِيبَةً وَلا ذَلَّلتْنَا للذي ليسَ يَجْملُ
ولَكِنْ رَحَلنَاهَا نُفُوساً كريمةً تُحَمَّلُ ما لا يُستَطَاعَ فَتَحمِلُ

وقال الأحوص:

لَقَدْ عَجَمَتِ منِّي الحَوادِثُ مَاجداً صَبُوراً على غَمَّاءِ تلك البَلابِلِ
إذا سُرَّ لم يَفْرَح وَليسَ لِنَكبةٍ ألَمَّت بِهِ بِالخَاشِعِ المُتَضَائِلِ

وقال كُثيّر:

هُوَ المرْءُ لا يُبدِي أَسَىً مِنْ مُصَيبةٍ وَلا فَرَحاً يوماً إذا النَّفسُ سُرَّتِ
قَليلُ الألايَا حَافظٌ لِيَمينِهِ وإنْ بَدَرَتْ مِنهُ الأليَّةُ بَرَّتِ

وقال عروة بن أذينة:

كَمْ قد أفدتُ وَكَمْ أتلفتُ من نَشَبٍ ومِنْ مَعَارِيضِ رِزْقٍ غَيرَ مَمْنُونِ
فَمَا أشَرْتُ على يُسْرٍ ولا ضَرَعَتْ نَفْسِي لِخَلَّةِ عُسْرٍ جَاءَ يَبْلُونِي
خَيْمِي كَرِيمٌ وَنَفْسِي لا تُحَدِّثُنِي أنَّ الإلهَ بِلا رِزْقٍ يُخَلِّينِي

وقال الفقعسي:

إذا افْتَقَرَ المرَّارُ لَمْ يُرَ فَقْرُهُ وَإنْ أيْسَرَ المُرَّارُ أيْسَرَ صَاحِبُه

وقال المنتحل الهذلي:

أبو مالكٍ قَاصِرٌ فَقْره عَلَى نَفْسِهِ وَمُشَيِّعٌ لغِنَاهُ

وقال الأبيرد الرياحي:

فَتَىً إنْ هُوَ اسْتَغْنَى تَخَرَّقَ فِي الغِنَى ... وَإنْ قَلَّ مالاً لَمْ يَؤدْ مَتْنُهُ الفَقْرُ

وقال الزبير الأسدي:

ولا يَرَانِي عَلَى مَا سَاءَ مُكْتَئِباً ... وَلا يَرَانِي على مَا سَرَّ مُبْتَهِجَا

وقال طرفة:

إنْ نَنَلْ مَنْفَسَةً لا تَلْفَنَا ... تُرَّفَ الخَيلِ وَلا نَكْبُوا لِضُر

وقال أبو الوليد الأعرابي:

وَلَسْتُ بِتَيَّاهٍ إذَا كُنْتُ مُثْرِياً ... وَلِكَنَّه خُلْقِي إذا كُنتُ مُعْدَمَا

وإنَّ الذي يُعْطَى مِنَ المَالِ ثَرْوَةً ... إذا كانَ نَذْلَ الوَالِدَيْنِ تَعَظَّمَا

وقال آخر:

وأُعْرِضُ عَن ذِي المَالِ حَتَّى يُقَالُ لِي ... قَدْ أحْدَثَ هَذَا نَخْوَةً وَتَعَظُّمَا

وَمَا بِيَ مِنْ كِبْرٍ وَسُوءِ رِعَايَةٍ ... وَلَكِنَّهُ فِعْلِي إذا كُنْتُ مُعْدَمَا

وقال هدبة:

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إذَا الدَّهْرُ سَرَّنِي ... وَلا جَازِعٍ مِنْ صِرْفِهِ المُتَقَلِّبِ

وقال مسكين الدارمي:

ولستُ إذا مَا سَرَّنِي الدَّهْرُ ضَاحكاً ... وَلا خَاشِعاً مَا عِشْتُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ

ولا جَاعِلاً عِرْضِي لِمَالِي وِقَايَةً ... وَلَكِن أقِي عِرْضِي فَيُحرِزُهُ وَفْرِي

أعِفُّ لَدَى عُسْرِي وَأبْدِي تَجَمُّلاً ... وَلا خَيْرَ فِي مَنْ لا يَعِفُّ مَعَ العُسْرِ

وإنِّي لأسْتَحْيي إذا كُنتُ مُعْسِراً ... صَديقِي وإخواني بأنْ يَعلمُوا فَقْرِي

وقال إبراهيم بن العباس الصولي:

أسَدٌ ضَارٍ إذَا هَيَّجْتَهُ ... وَأبٌ بَرٌّ إذا مَا قَدِرَا

يَعْلَمُ الأبْعَدَ إنْ أثْرَى ولا ... يَعْلَمُ الأدْنَى إذا مَا أفْقَرَا

وقال:

فَتَىً غَيْرَ ممنوعِ الغِنَى عن صَديقِهِ ولا مُظْهِرَ البَلوَى إذا النَّعلُ زَلَّتِ

وقال أبو فراس الحمداني:

ولا رَاحَ يُطْغِينِي إذَا مَسَّنِي الغِنَى ولا بَاتَ يُثْنِينِي عَنِ الكَرَمِ الفَقْرُ

وَمَا حَاجَتِي فِي المَالِ أبْغَى وُفُورَهُ إذَا لَمْ أَفِرْ عِرْضِي فَلا وَفَرَ الوَفْرُ

والمُصَلِّي لا يكون إلّا عفيفاً؛ والعفَّة أحد أركان الأخلاق الأربعة؛ فهي وصف شامل يدخل في كل شيء؛ ولها مراتب؛ ولمَّا كان حظُّه ﷺ؛ أوفر ما يكون من ألطاف التكليف؛ أُمِرَ بالعفاف حتى عن النظر إلى زينة الحياة الدنيا؛ فالحريص ليس من المُصَلِّين؛ لأنه ليس بكريم؛ ولا يكون المصلي إلّا كريماً بالطبع؛ أو الاكتساب على الأقل؛ وما زالت العرب تفتخر بالعفاف من قبل الإسلام؛ فكيف فيما بعده؛ قال حاتم:

وإنِّي لَعَفٌّ عَنْ زِيَارَةِ جَارَتِي وإنِّي لَمَشْنُوءٌ إلَيَّ اغْتِيَابُهَا

إذا غَابَ مِنْهَا بَعْلَهَا لَمْ أكُنْ لَهَا صَدِيقاً فَلا تَأنَسْ إلَيَّ كِلابُهَا

ولَمْ أكُ طَلاباً أَحَادِيثَ سِرِّهَا وَلا عَالِماً مِنْ أيِّ حَوْكٍ ثِيَابُهَا

ويروى أن فاطمة بنت مر الخثعمية[1]؛ وكانت من سروات النساء؛ وذوات الجمال الباهر؛ تعرضت لعبد الله بن المطلب؛ لما رأت على وجهه من تلألؤ النور؛ وقالت في أصحاب لها:

يَا مُسْرِعاً وَالنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ يَسْعُونَ لَمْ يَأنَ لِغَادٍ رَوَاحْ

يَا مُطْرِقاً وَالنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ يزَيِّنُهَا حُسْنُ الوجوه الصَّبَاحْ

---

(١) فاطمة بنت مر الخثعمية. شاعرة كاهنة جاهلية، من أهل مكة. قرأت الكتب واشتهرت. وكانت معاصرة لعبد الله بن عبد المطلب (والد الرسول ﷺ) وقيل إنها عرفت فيه أنوار النبوة فعرضت عليه نفسها للزواج قبل أن يتزوج بآمنة.

عَــرِّجْ عَــلَـيْـنَــا سَــاعَــةً فَــأَقِــمْ   فَــعِــنْــدَنَــا إنْ شِــئــتَ رَوْحٌ وَرَاحْ

وراودته على نفسه فأبى؛ وقال:

أمــا الــحَــرَامُ فَــالــمَــمَــاتُ دُونَــهُ   وَالــحِــلُّ لا حِــلٌّ فَــأَسْــتَــبِــيــنَــه

فَــكَــيْــفَ بِــالأَمْــرِ الــذي تَــعْــنِــيــنَــهُ   يَــحْــمِــي الــكَــرِيــمُ عِــرْضَــهُ وَديــنَــه

وله في معناها أبيات أجزل وأفحل وأفصح؛ ولكنها غابت عن ذهني.

وقال حاتم أيضاً:

وَمَــا تَــشْــتَــكِــي جَــارَتِــي غَــيْــرَ أَنَّــنِــي   إذَا غَــابَ عَــنْــهَــا بَــعْــلُــهَــا لا أَزُورَهَــا

سَــيَــبْــلُــغُــهَــا خَــيْــرِي وَيَــرْجِــعُ بَــعْــلُــهَــا   إلــيــهَــا وَلَــمْ تَــسْــبِــلْ عــلــيَّ ســتــورَهَــا

وقال عنترة:

أغْــشَــى فَــتَــاةَ الــحَــيِّ عــنــدَ حَــلِــيــلَــهَــا   وإذَا غَــزَا فِــي الــجَــيْــشِ لا أغْــشَــاهَــا

وأغُــضُّ طَــرْفِــي مَــا بَــدَتْ لِــي جَــارَتِــي   حَــتَّــى يُــوارِي جَــارَتِــي مَــأْوَاهَــا

وقال أعشى باهلة في رثاء المنتشر:

لا يَهْتِكُ السِّتْرَ عن أنثى يُطَالِعُهَا   وَلا يَــشِــدُّ إلــى جَــارَاتِــه الــنَّــظَــرَا

وقالت الخنساء في أخيها:

لَــمْ تَــرَهُ جَــارَةٌ يَــمْــشِــي بِــسَــاحَــتِــهَــا   لِــرِيــبَــةٍ حِــيــنِ يُــخْــلِــي بَــيْــتَــهُ الــجَــارُ

وقالت أيضاً فيه:

ولا يَــقُــومُ إلــى ابْــنِ الــعَــمِّ يَــشْــتُــمُــهُ   وَلا يَــدِبُّ إلــى الــجَــارَاتِ تَــخْــوِيــدَا

وقال الحطيئة:

وَيَــحْــرُمُ سِــرُّ جَــارَتِــهِــمْ عَــلَــيــهِــمْ   وَيَــأْكُــلُ جَــارُهُــم أنْــفَ الــقِــصَــاعِ

وقال مسكين الدارمي:

أَعْــمَــى إذَا مَــا جَــارَتِــي بَــرَزَتْ   حَــتَّــى يُــوَارِي جَــارَتِــي الــخِــدْرُ

وَيَـصُـمُّ عَـمَـا كَـانَ بَـيـنَـهَـمَـا سَـمْـعِـي وَمَـا بِـي غَـيْـرَه وِقْـرُ

وقال عروة بن زيد الخيل:

وَلا أُخَـالِـسُ جَـارِي فِـي حـلـيـلـتـه وَلا ابـنَ عَـمِّـيَ غَـالَـتْـنِـي إذا غُـولُ

وما علمت أحداً تمدَّح بالعهار؛ سوى امرئ القيس؛ وقد علمت ما في أخلاق كندة؛ مما سبق في الفائدة السابعة؛ وفي شعر الفرزدق ما يقرب منه؛ إلّا أنه لا يزيد على الاعتراف. وقال أبو نواس:

كَـانَ الـشَّـبَـابُ مَـطَـيَّـةَ الـجَـهْـلِ وَمُـحَـسِّـنَ الـضَّـحِـكَـاتِ والـهَـزْلِ

وَالـبَـاعِـثِـي وَالـنَّـاسُ قَـدْ رَقَـدُوا حَـتَّـى أكُـونَ خَـلِـيـفَـةَ الـبَـعْـلِ

أما الجود فبيت قصيدهم؛ لا ينال ما قالوا فيه إحصاء؛ ولا يجوزه عدد؛ والحرص عندهم من من أكبر المذام؛ وبه فسر قوله تعالى: ﴿...فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا...﴾[1] وصح: «**لا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَداً**». ومن أحسن ما فيه؛ قول عمرو بن مالك الحارثي:

الحِرْصُ لـلـنَّـفْسِ فَقْرٌ وَالقُنُوعُ غِنَى وَالقُوتُ إنْ قـنـعـت بـالـرزق يـكـفـيـهـا

والنَّفْسُ لَوْ أن ما فِي الأرضِ حِيزَ لَهَا مَـا كَـان إنْ هِـيَ لـمْ تَـقْـنَـعْ بِـكَـافِـيـهَـا

وألمّ به أبو فراس الحمداني؛ وأحسن الاتباع؛ حيث يقول:

وَتَـعَـافُ لِـي طَـمَـعُ الـحَـرِيـصِ أبـوَّتِـي وَمُـرُوءتِـي وَفُـتُـوَّتِـي وعَـفَـافِـي

مَـا كُـلُّ مَـا فَـوقَ الـبَـسِـيـطَـةِ كَـافِـيـاً فَـإذا قَـنِـعْـتَ فَـكُـلُّ شَـيءٍ كَـافِـي

وما أراه إلّا يعرض بالمتنبي؛ في قوله:

لَـيْـسَ الـتَّـعَـلُّـلُ بَـالآمَـالِ مِـنْ أرَبِـي ولا الـقَـنَـاعَـةُ بـالإقـلالِ مْـنْ شِـيَـمِـي

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

والأشعار في ذلك كثيرة؛ وقد سقنا جملة منها في العود الهندي؛ فلا نحتاج إليها.

والمُصَلِّي لا يكون إلّا وفياً؛ ولا يكون إلّا أميناً؛ فالله جل شأنه يقول في وصف المصلين من سوة المعارج وسورة المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[1] ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[2] ويقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[3] ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾[4].

وقال قتادة: إن الله أكد حقَّ العهد في بضع وعشرين آية من القرآن. وقال ﷺ: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ**» وترجم عليه البخاري بباب: إثم الغادر للبر والفاجر؛ ويتأيد بأمثال قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[5] وقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[6] وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾[7] وحسبك أنه ﷺ؛ أخذ بيد اليمان؛ وابنه حذيفة[8]؛ وأخرجهما من الصف يوم بدر؛ لعهدٍ كان بينهم وبين المشركين؛ وقال لهما: «أوفوا لهم».

واضرب بطرفك أنَّى شئت اليوم في المسلمين؛ هل ينبع جود؛ وهل للأمانة وجود؛ وهل تجد من يفي بالعهود. فهل اختلَّ المقياس؟ أو ضُيِّعت الصلاة بين

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٠٥.
(٦) سورة التوبة، الآية: ٤.
(٧) سورة النحل، الآية: ٩١.
(٨) الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ولد في مكة وعاش في المدينة المنورة ومات سنة ٣٦هـ بالمدائن وأبوه الصحابي الجليل اليمان حسل أو حسيل بن جابر بن عمرو.

الناس؟ والأول باطل؛ فلزم الثاني؛ ومن ضيَّعها ضيعه الله، ولذا سلَّط الله عليهم الأجانب؛ وفسدت دنياهم فضلاً عن آخرتهم؛ إذ لا تنبني المعاملات؛ ولا تربح المتاجرات؛ إلّا عند وجود الثقة بالناس؛ والأمن من الخيانة والإفلاس. ولله درّ الذي يقول:

أَخْلِقْ بِمَنْ رَضِيَ الخِيَانَةَ شِيمَةً أنْ لا يُرَى إلّا صَرِيعَ حَوَادِث
مَا زَالَتْ الأَرْزَاءُ تُلْحِقُ بُؤسَهَا أَبَداً بِغَادِرِ ذِمَّةٍ أو نَاكِثِ

وأخرج الحاكم في المستدرك وصححه: «**لَنْ يُعَذِّبَ الله تعالى أُمَّةً حتَّى تَغْدُرْ**» وأيُّ عذابٍ أشد مما وقع فيه المسلمون اليوم؛ من الانقسام والاهتضام. وقد جاء في الحديث القدسي: «**أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ...**»[(١)] فما بالك بمن لا يفكر من أول وهلة في حصول الربح؛ إلّا من جهة الخيانة.

وقد عمل لي بطريق القراض جماعة من أبناء السَّادة بجاوا يترسم بعضهم بالعبادة والعلم؛ ثم لم يكن منه إلّا أن انتقص رأس المال؛ وتأثَّل لنفسه من أرباح العقار؛ الذي لن يتهنأ به إن شاء الله تعالى؛ كفانا الله شرَّ من أحسنَّا إليه[(٢)].

والمُصَلِّي لا يكون بخيلاً ولا ذليلاً؛ أما البخل وحده؛ فمثال قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[(٣)].

---

(١) قال أبو داود في السنن: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْمِصِّيصِّيُّ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الزِّبْرِقَانِ عَنْ أَبِي حَيَّانَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ: «أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَإِذَا خَانَهُ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا»». (٣٣٨٣).

(٢) ذكر الإمام اسم هذا الشخص في حاشية المخطوطة إلّا أن الاسم لم يكن واضحاً تماماً فخشيت أن أخطىء في الاسم لشدة التشابه في أسماء أبناء السادة (المحقق).

(٣) سورة الماعون، الآيات: ١ ـ ٧.

وأما الذِّلَّة معه فمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ...﴾[1] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2]؛ وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[3].

فإن قيل: ما تصنع بما أخرجه مالك عن صفوان بن سليم؟؛ قال: «**قُلْنَا يَا رَسُولَ اللّهِ: أيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جبَاناً؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْنَا: أفَيَكُونُ بَخِيلاً؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْنَا: أفَيَكُونُ كَذّاباً؟ قَال: لا**». **فالجواب**: أولاً: أنه لا ينهض لمعارضة ما سبق من القواطع؛ وما سمعناه من الآيات والأحاديث الكثيرة؛ ومنها ما أخرجه أحمد: «**لا يجتمع شُحٌّ وإيمَانٌ فِي قَلْبِ رَجُلٍ مُسْلِمْ**».

فتعيَّن حمل ما عند مالك؛ على الضعيف الإيمان؛ على أنْ ليس المقصود إلّا تهويل أمر الكذب.

فمن حضر في صلاته قَلْبُه؛ وعَظَّم في مشاعره ربَّه؛ وسألت من مهابته دموعه؛ وهدأ من الطمأنينة به روعه؛ فلا بدّ وأن يبقى معه أثر ذلك خارجها؛ وتنطبع نفسه من جَرَّائه على حركات؛ لا تصدر إلّا عن أحكام الدين؛ وشهوات مزمومة بأزِمَّةِ المتقين؛ ومن ارتكب بعدها المناهي؛ أو اتَّبع الشهوات والملاهي؛ فلا شك أنه من الساهين فيها؛ والغافلين عنها؛ لا يرجع من حقيقتها إلى فَيْء؛

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

وليس من القيام بها في شيء؛ فالصلاة منجاة من الغم؛ ومسرجة لدى الظُّلَمْ؛ ومعرج الفضائل؛ ومطهرة من لوث الرذائل؛ ومتى ذُلِّلَ بها الجماح؛ وعولج بها المران؛ صار الصعب إلى السهولة؛ والعسر إلى المياسرة؛ وانشرح الصدر لكل عبادة؛ وانحجز الميل إلى المخالفة؛ وانتفض عن الغل والحسد. فأعظم بها حينئذٍ من جهاد؛ وأحسن بها من خزامة تقاد بها النفوس إلى الرشاد.

وإذا عرفت مما مرَّ أن البخيل مُكَذِّبٌ بالدين؛ وأنه وإن أكثر القيام والقعود؛ معدود في جملة الساهين عن الصلاة والمُعْرِضِين؛ تبيّن لك أنه ليس بِمُصَلٍّ إلّا من امتلأ للدين حميَّة؛ ولم يخف في نصرته أذيَّة؛ وأنفق المال على حبِّه؛ وتسلط الإيمان على قلبه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١]؛ فمن أخذته في الله لائمة؛ لم تقم لإسلامه قائمة؛ وذلك أنَّ الله لم يجعل الخوف على نفسٍ أو مالٍ أو دارٍ أو حبيبٍ؛ عذراً عن الجهاد؛ أو رخصة في موالاة أهل الفساد؛ بدليل الآي السابقة؛ وأمثال قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ . . .﴾[٣] وقوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[٤].

فالقيام بالصلاة على وجهها؛ ملاك كل فضيلة؛ ونجاة من كل رذيلة؛ غير أنه لا يتيسر لأهل الهمم العاجزة؛ بل هو مستحيل؛ إلّا على نفس خرجت من ميدان الجهاد الأكبر؛ وهي فائزة؛ ولله در أبي الطيب في قوله:

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٧.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٧.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٢.

وَخَلِّ زِيّاً لِمَنْ يُحَقِّقُهُ ما كلُّ دامٍ جَبينُهُ عَابِدْ

إنما المُصَلُّون: الناصرون للمظلوم؛ الكاسبون للمعدوم؛ الآمرون بالمعروف؛ الصابرون إذا اقترعت السيوف؛ السابقون إلى الجود؛ الصادقون لدى الوعود؛ المصلحون ديناً ودنيا؛ الساعون لتكون كلمة الله هي العليا ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾[1] وصدق الله العظيم؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ ومن اقتدى بهم فيما كانوا عليه؛ فأولئك هم الفائزون ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[3].

ولعل هذا الكلام؛ يفي ببيان كبر ذلك الجهاد، ولتفضيل الصلاة على سائر الأعمال يكفي، وقد روي عن سيدنا عمر المحضار بن عبد الرحمن السقاف[4] أنه قال: لو علمت أن الله قبل لي تسبيحة؛ لأضفت أهل تريم على البر واللحم.

■ وفي هذا فوائد:

الأولى: أن قبول البعض؛ دليل على قبول الكل؛ لأن الله تعالى نهى بلسان رسول الله ﷺ؛ عن تفريق الصفقة[5]؛ وما كان جل شأنه ليعاملنا بما نهانا عن مثله.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩. (٢) سورة التوبة، الآية: ١١٢.

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٧.

(٤) تولى نقابة أشراف السادة العلويين بحضرموت وتوفي سنة ٨٣٣هـ وهو مؤسس مسجد المحضار بتريم الذي أعيد بناؤه على يد العلامة أبي بكر بن شهاب المتوفى سنة ١٣٤١هـ وتعتبر منارته الطينية الحالية من أعظم معالم العمارة الطينية.

(٥) تفريق الصفقة: هو أن يجمع بين ما يجوز بيعه وما لا يجوز بيعه وله ثلاث صور.

والثانية: أن مجرد القبول؛ عنوان التقوى؛ لقولـه تعالى: ﴿... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]؛ ومتى قبل له تسبيحة؛ فقد تبيّن أنه من المُتَّقِين؛ وأعمال المتقين بأسرها مقبولة؛ والعاقبة لهم محتومة؛ وهم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون. وقد وقف سائلٌ بباب ابن عمر ثم سكت؛ فقال ابن عمر: هل دفعتم إليه شيئاً؟ فقال له أحد بنيه: تقبل الله منك! فبكى؛ وقال: إنما يتقبل الله من المُتَّقين. وقد مرَّ أكثر هذا في المسألة الثانية من الفائدة العشرين؛ مع ما يناسبه؛ ولكن كانت العلاقة هنا أقوى؛ فأعدناه.

والثالثة: إن الأعمال الصغيرة كثيراً ما تسلم من الشوائب؛ بخلاف الكبيرة؛ وقد غفر الله لبغي في سُقْيَة كلب؛ كما في الصحيح؛ فما بالك مع هذا بمن صلاته عادة إذا دخلها؛ انفتحت الوساوس وازدحمت الهواجس؛ كما قال المجنون:

أُصَـلِّـي ولا أدْرِي إذَا مَـا ذَكَـرْتَـهَـا اثْنْتَينِ صَلَّيتُ الضُّحَى أَمْ ثَمَانِيَا

وكما قال آخر:

أُصلِّي الصَّلاةَ الخَمْسَ والقَلبُ غَافِلٌ وَأمَّا عَنِ الدُّنْيَا فَلستُ بِغَفْلانَا

وكما قال الآخر:

أَلِفْتُ هَوَاكَ حَتَّى صِرْتُ أَهْذِي بِذِكْرِكَ فِي الركُوعِ وَفِي السجُودِ

جاء بعضهم إلى الإمام الأعظم أبي حنيفة؛ وقال له: دفنت مالي في موضع ونسيته؛ فقال له: ليست هذه من مسائل الفقهاء؛ ولكن قد تجشَّمت لقاءنا؛ فَصَلِّ الليلَ كلَّه وَعُدْ إليَّ؛ فعاد في اليوم الثاني وأخبره بأنه ذكر موضع الخبء من أول الليل؛ فقال: قد علمت أنَّ الشيطان لم يكن ليدعك تصلي؛ فهلا أتممت الليل صلاةً شكراً لربك؟ قال: لا.

وبصر ﷺ برجلٍ يعبث بلحيته في الصلاة؛ فقال: «**لَوْ خَشَعَ قلبُ هذا**

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهْ» أو ما يقرب من هذا. وصلَّى رجل في سراول ضيِّق؛ فلم يتمكن من إتمام الركوع والسجود؛ وكان ذلك بمرأى من بعض العلماء؛ فقال له: هذه صلاة لا يرضاها الشافعي؛ فأعادها؛ ولما اطمأن انشق سرواله وبدت سوأته؛ فالتفت إلى ذلك العالم؛ وقال له: هل رضي الشافعي الآن؛ أم لا؟

وشبيه بذلك؛ أنه لما وقع الحصار على بغداد؛ من محمد بن محمود بن ملكشاه السلجوقي في سنة ٥٣٣هـ؛ جَدَّ المقتفي لأمر الله في حفظها؛ ونادى بأن من جُرِحَ في القتال فله خمسة دنانير؛ فحضر بعض العامة عند وزير المقتفي؛ وهو عون الدين بن هبيرة؛ مجروحاً؛ فقال له: هذا جرح صغير جداً لا يقال له جرح حتى تستحق عليه المرسوم؛ فعاد إلى القتال فأصيب؛ وخرَّت حشوته؛ فحملوه إلى الوزير؛ فقال له: هل أرضاك هذا يا مولانا؟ فضحك؛ وأمر له بصلةٍ؛ وأحضر من يعالجه.

وقد نقل الغزالي عن أبي طالب المكي؛ عن بشر الحافي؛ أنه قال: من لم يخشع فسدت صلاته. وقال الإمام الرازي: اتفق المتكلمون على أنه لا بدَّ من الحضور والخشوع؛ وقال: هب أنَّ الفقهاء بأسرهم حكموا بصحة الصلاة مع انتفاء الخشوع والحضور؛ أليس الأصوليون وأهل الورع ضيَّقوا الأمر؛ وزعم بعضهم أن الصوم أفضل من الصلاة؟ وقد سقناه فيما مرَّ عن ابن حجر؛ في معرض التوهين؛ مستدلاً ذلك البعض بحديث: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**» وردَّه الإمام الرازي؛ بأن الصوم ليس في ذلك إلّا بمثابة مواضع الصلاة؛ لأنه من جنس قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ...﴾[1]؛ وزعم آخرون أنَّ التبعات لا تتعلق بالصيام؛ وصرح ابن حجر بردِّه في عدة مواضع من تحفته.

وعلى الجملة فقد تكفل الله للمصلين بالخير الشامل؛ واللطف الكامل؛ كما ورد في كثير من الآيات والأحاديث؛ منها قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ

---

(١) سورة الجن، الآية: ١٨.

وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ...﴾[٢]. وقد كان ﷺ إذا حزبه أمر؛ فزع إلى الصلاة؛ وفي حديث: «**وما استصعب عليكم فاطلبوه بذكر الله**»؛ وخير الذكر الصلاة؛ كما قال تعالى: ﴿...وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[٣] وقد سبق خلال الفوائد الماضية كثير مما يتعلق بالصلاة؛ ولا سيما الفائدة الثامنة والعشرون.

ثم إن من المعلوم أن ترويض الجذع؛ أيسر وأهون وأقلّ عملاً من ترويض غيره؛ وأنَّ النفس ما عوَّدتها تتعوَّدُ؛ ومن هذا يتبيَّن لك الفرق الكبير؛ والشأو البعيد؛ بيننا وبين الصدر الأول؛ فقد نشأنا في مهده؛ ودرجنا في وكره؛ ثم لم يكن منه في أخلاقنا أثر يذكر؛ ولا سلطان يطاع؛ وجاءهم الإسلام شيباً وكهولاً؛ فهذَّب من طباعهم؛ وثقَّف من أخلاقهم؛ فانعكس قول سابق البربري:

قَدْ يَنْفَعُ الأدَبَ الأحْدَاث فِي مَهَلٍ وَلَيْسَ يَنْفَعُ بَعْدَ الكِبْرِةِ الأدَبُ

وما كان مالك بن دينار يكثر من إنشاده وهو:

أتَرُوضُ عَرْسَكَ بَعْدَمَا هَرِمَتْ وَمِنَ العَنَاءِ رِيَاضَةُ الهَرِمِ

وإنَّا لنسمع بمن بلغت به العتوَّة منهم؛ إلى حدّ دفن بنته حيَّة؛ وهي تنفض التراب عن بدنه من فرط الإشفاق عليه؛ ثم صار ألين من الزبد بالليل إذْ هبَّ عليه نسيم القرآن؛ وانتاطت بروحه عقائد الإيمان؛ وإن أحداً ليعيش فيه من نعومة أظفاره؛ ولا أثر له إلّا في لسانه وأوضاعه ورسومه.

ويتصل بموضوع البحث ما اشتملت عليه الفاتحة من بدائع اللطائف؛ التي تؤكد القول بتعيّنها للصلاة؛ كما عليه أكثر أهل العلم؛ بل كلُّهم؛ عملاً إن لم تكن فتيا؛ وهيهات أن تنضبط تلك الأسرار بحد؛ أو تدخل تحت عبارة؛ غير أنَّا

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٣) سورة طه، الآية: ١٤.

ذاكرون ما يشرق في الظهور؛ وتنشرح به الصدور؛ فإنه لمَّا كانت الصلاة بمثابة الانفصال عن الأغيار؛ والدخول في حضرة الملك الجبَّار؛ وكان من المعلوم أن النفوس لمواكب العظماء تشرئب؛ والعيون تتطلَّع؛ والأعناق تمتد؛ والأكُفّ تشير؛ والأفئدة تكاد تطير؛ ومن ذا الذي لا يتأثر منا لوصف البحتري موكب المتوكِّل العباسي يوم الفطر؛ بقصيدته المشهورة؛ التي منها قوله:

حَتَّى طَلَعتَ بِضَوءِ وَجْهِكَ فَانْجَلى ذَاكَ الدُّجَى وَانجَابَ ذَاكَ العِثْيَرُ

ومن ذا الذي لا يهتز لقول المتنبي:

بِمَنْ تَقْشَعِرُّ الأَرْضُ خَوفاً إذا مَشَى عَلَيْهَا وَتَرْتَجُ الجِبَالُ الشَّوَاهِقُ

وقوله:

بِمَنْ تَشْخَصُ الأَبْصَارُ يَومَ رَكُوبِهِ وَيُخْرَقُ مِنْ زَحْمٍ عَلى الرَّجُلِ البُرْدُ

وتُلْقَى وَمَا تَدْرِي البَنَانُ سِلاحَهَا لِكَثْرَةِ إيمَاءٍ إلَيهِ إذَا يَبْدُو

وقال بعضهم: كنت أنكر ما يدعيه الصوفية من مقام الغناء؛ حتى قَدِمَ بعض الأمراء؛ وكان جميل الطلعة؛ فخرج الناس لاستقباله في يوم مشهود؛ وموكبٍ معدود؛ فبينا نحن في شدَّة من فرط الزحام؛ وتزلزل الأقدام؛ ولُجْب الجيوش؛ وصهيل الخيول؛ إذ حسر اللثام؛ فدهشت لجماله؛ مع ما امتلأ به قلبي من عظمته؛ بما رأيت من شارات ملكه؛ وأبَّهة سلطانه؛ وفخفخة دولته؛ فأنسيت نفسي ولم أشعر بشيء مما أنا فيه؛ حتى أرسل اللثام؛ فأفقت من غشيتي؛ وانتبهت من نشوتي؛ وقد تمزقت ثيابي ولحقني أمرٌ عظيم.

وقضية كثير في بَرْيِهِ أطرافه؛ حتَّى لحقته عزَّة؛ مشهورة. وأبلغ منها؛ وأصدق؛ قوله جل شأنه: ﴿...فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1].

(١) سورة يوسف، الآية: ٣١.

فإذا كانت هذه الروعة وأمثالها لملاقاة المخلوقين؛ فما بالك بالخالق؛ وله المثل الأعلى؛ ولا سيما عند من له به معرفة؛ كما ذكرناه غير مرّة عن سيد المرسلين؛ وكما رُوِيَ عن زين العابدين؛ أنه كان يَصْفَرُّ إذا أحرم بالصلاة؛ وَيُغْشَى عليه إذا شرع في التلبية. وكثيراً من يشغله الحضور في صلاته عن كبار الحوادث؛ كما في تراجم السلف؛ وقد كانوا ينسبون ابن الزبير إلى التصنُّع والرياء في صلاته؛ حتى صبوا على رأسه ماء حميماً وهو ساجد؛ فلم يشعر به؛ ولما سلَّم وجد حسَّه؛ فقال: ما أصابني؟ فذكروا له القصة؛ فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل؛ ومكث زمناً يتألم من وجهه ورأسه.

لا جرم؛ لمَّا كان الأمر كذلك؛ كادت القوائم تتفسخ من الدخول في حضرة جبَّار السماء؛ والقلوب تنفطر من مناجاة خالق النار والماء؛ لهذا لا يقدر المرء مع غلبة الدهشة؛ واستيلاء الهيبة؛ واستحكام الروعة؛ أن يكافح ربَّه بالخطاب؛ فتلطَّف به مولاه؛ وجعل أول الفاتحة بصيغة الغيبة؛ وعَلَّمَهُ أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وهذا مثال عام؛ لما يقع يوم انتثار الجبال؛ وتلاطم الأهوال؛ لخصوص نبيِّنا ﷺ؛ فإنه إذا قصدته الأمم في طلب الشفاعة؛ إذْ ذاك؛ لا يجسر أن يخاطب ربَّه؛ وإنما يُلْهَمْ أن يسجد له ويحمده بمحامد تُيَسّر له؛ فيأذن الله له حينئذٍ في المخاطبة؛ ويقول له: «**يا مُحَمَّد ارْفَعْ رَأْسَكَ؛ وَقُلْ يُسمَعُ لَكْ؛ وَسَلْ تُعْطَ؛ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ...**»؛ ومن هذا تعرف وجوه البشائر؛ في إذن الباري لعبده بأثر ما سبق أن يخاطبه بـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهاهنا يجيء موضع ما أسلفناه آخر الفائدة الحادية والعشرين؛ من قول البحتري:

وَلَمَّا وَرَدْنَا سَدَّةَ الإِذْنِ أَخَّرَتْ ... رِجالاً عَنِ البَابِ الذِي أَنَا دَاخِلُه

إلى آخر الأبيات؛ فقاتله الله؛ ما أراه استنزلها إلّا من سماء أمِّ الكتاب؛ وفي ثنائها مثال للمتعارف بين الناس؛ فلا بدّ للمستجدي أن يستعطف من يقصده بشيء من المدح؛ أمام حاجته ونجواه؛ ولهذا قال البوصيري:

وَثـنَـاءً قَـدَّمْـتُ بـيـنَ يَـدَيْ نَـجْـ وَايَ إذْ لَـمْ يَـكُـنْ لَـدَيَّ ثـرَاءُ

ولما كان العبد عاجزاً عن الثناء على ربِّه؛ كما قال ﷺ: «**سبحانك لا نحصي ثناءً عليك؛ أنت كما أثنيت على نفسك**»؛ علمه ما يقول؛ وما كان ليُعَلِّمَهُ ويَرُدَّه؛ إلّا إذا أساء الأدب؛ وأخطأ طريق الأداء.

ونكتة ثالثة: وهي أنَّ الثناء في الفاتحة قصير؛ وهو دلالة الفضل الغزير؛ والجود الكثير؛ ومنه ما جاء في السنة من الاقتصاد في الدعاء. وقال ابن الرومي:

وإذَا امْـرُؤٌ مَـدَحَ امـرءاً لـنَـوالِـهِ وَأَطَـالَ فِـيـهِ فـقـد أرَادَ هِـجَـاءَهُ
لَـوْ لَـمْ يُـقَـدِّرْ فِـيـهِ بُـعـدَ الـمُـسْـتَـقَـى عِـنْـدَ الـوُرُودِ لـمَـا أَطَـالَ رِشَـاءَهُ

وقال:

نِـدَاكَ مَـعِـيـنٌ كـالـذِي قَـدْ عَـلِـمـتَـهُ وَلَـو كَـانَ غَـوْراً لالـتَـمَـسْـتُ رِشَـاءُ

وقال البحتري:

وأبْـيَـضَ نَـعْـمَـاهُ لا قُـصَـرَ مَـاتِـحٍ رَشَـاءً وَجَـدْوَاهُ لأوَّلِ مُـجْـتَـدِي

ولا أدري أيهما سبق الآخر؛ فإنهما متعاصران.

أما الإطناب في الثناء؛ لا لتمهيد المسألة؛ فإنه بابة أخرى؛ يدخل فيها قوله ﷺ: «**لا نحصي ثناء عليك . . إلخ**»؛ وما يكون من الملائكة في استهتارهم في التسبيح والتقديس. وقال أبو تمام:

بِـالـشِّـعرِ طُـولٌ إذا اصطَـكَّـتْ قَـصَـائِـدُهُ فِـي مَـعْـشَـرٍ وَبِـهِ عَـنْ مَـعْـشَـرٍ قِـصَـرُ

وقال أبو الطيب:

وَقَـد وَجَـدتَ مـكَـانَ الـقَـوْلِ ذا سَـعَـةٍ فـإنْ وَجَـدْتَ لِـسَـانـاً قَـائِـلاً فَـقُـلِ

وقال:

وَقَـدْ أطَـالَ ثَـنَـائِـي طُـولُ لابِـسِـهِ إنَّ الـثَّـنَـاءَ عَـلَـى الـتِّـنْـبَـالِ تِـنْـبَـالُ

ومن الغايات في البلاغة؛ أنَّ الباري جل شأنه؛ مضى في أمِّ الكتاب من ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ على مشافهة الخطاب على قوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ فعاد لما ابتدأ به من الغيبة؛ وما ذاك إلّا لأسرار عالية؛ وبشارات غالية؛ منها إشفاقه على عبده من إسناد الغضب إلى نفسه؛ في موقف تعرُّضِهِ لرحمته؛ وتقرُّبِهِ بمخاطبته؛ فأصرح بإسناد النعمة إليه في قوله: أنعمت عليهم؛ تحبباً إلى عبده وإيناساً له، وأفرغ صفة الغضب في قالب الغيبة؛ كيلا ينقطع نياطه من شدة خوفه؛ وسيأتي في غير هذا المكان نظيره؛ في قول سليمان للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1].

وقاتل الله المتنبي؛ فما أراه إلّا يتقيَّل هذا في كثير من أشعاره؛ كقوله:

لا أسْتَزِيدُكَ فِيمَا فِيكَ مِنْ كَرَمٍ   أنَا الذِي نَامَ إنْ نَبَّهْتَ يَقْظَانَا

فقد كان في إمكانه أن يقول: أنا الذي نمت؛ غير أنه تجافى ذلك آنفاً؛ لما في إسناد النوم إلى نفسه من الهجنة؛ كما نبَّه عليه العكبري[2]؛ وقال: من تأمَّل شعره وجده كثيراً ما يتبرأ من إسناد الذمِّ إلى نفسه؛ فيجرِّد شخصاً؛ ومتى كان في الضمير مدح؛ أعاده على نفسه كقوله:

وإنّي لَمِنْ قَوْمٍ كأنّ نُفُوسَهُمْ   بها أنَفٌ أن تسكنَ اللّحمَ والعَظمَا

وهذا من أدَقِّ شعره. اهـ بمعناه. ومن الغاية في البلاغة؛ ما جاء في الصحيح عن عائشة؛ «أنَّ وليدة كانت تأتيها فتحدثها وتقول: إنهم اتهموني بوشاح؛ فطفقوا يفتشون حتى فتشوا قُبُلَهَا»؛ فما أجمل ما انتقلت به الصدِّيقة إلى ضمير الغائب؛ بعد ما جرت في أوله على ضمير المتكلم، وما أشرف أدب الخضر عليه السلام؛ في قوله: فأردت أن أعيبها؛ وقوله: فخشينا أن يرهقهما؛ إذ أسند

---

(١) سورة النمل، الآية: ٢٧.

(٢) أبو البقاء العُكبَري (٥٣٨ ـ ٦١٦هـ) هو عالم بالأدب واللغة والفرائض والحساب. له كتاب شرح ديوان المتنبي وكتب أخرى.

إلى نفسه ما ظاهره الذَّم. ولما انتهى إلى ما لا يحتمل غير الخير؛ أسنده إلى ربِّه؛ مع أنه كله من عند الله؛ كما صرح به في قوله: وما فعلته عن أمري؛ إذ هو كما يرى الفقهاء في قاعدتهم يعود على الجمع.

وما ذكرته من أسرار الفاتحة غيض من فيض؛ وَرَشَّة من غدير؛ ومنه تظهر لك وجوه البلاغة التي تقصر عنها الفحول؛ وتَخِرُّ عنها العقول؛ وقد قالوا: إنَّ الالتفات خلاصة علم البيان؛ ومرقاته التي تزلُّ عندها الأقدام. وما قررته من المعاني خيرٌ مما فكر فيه علماء هذا الشأن؛ والإنصاف حَكَمٌ عَدْل؛ والذوق شاهدٌ مَرْضِيٌ.

ورأيت علامة المنار؛ السيد الجليل رشيد[1]؛ ذكر في سياق له: أنَّ بعض الأجانب اختصر الفاتحة؛ وجاء بما يحمل نقيضه في طيَّاته؛ وقد أشبعه الأستاذ ردّاً؛ إلّا أنَّ ردَّه عليه كان جافاً؛ لا تتندى له الخدود؛ ولا تقشعر له الجلود؛ وإذا قرأ ما قلناه؛ رجوت أن يكون فيه الدليل المفحم؛ والجواب الملجم؛ والنور الساطع؛ والوعظ البالغ؛ إن شاء الله.

وكأنِّي بمن يعترض ما سقته من التمثيل بالمواكب والمراسم؛ ويزعم أنه من التشبيه الذي لا يمكن إيراد مثله في حق الباري عز وجل، وليهنأ باله؛ وليفرح روعه؛ فإنه تعالى أجرى خطابه لعباده؛ طبق المتعارف بينهم؛ الجاري على قواعدهم. فذكر الكتاب والشهود والميزان في الآخرة؛ وما أشبه ذلك؛ من دون حاجة إليه؛ سوى الجري بهم فيما يعرفون. لقد ضرب لنوره مثلاً بمشكاةٍ فيها مصباح؛ وقال حبيب:

لا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دَونه   مَثَلاً شِرَاكاً فِي النَّدَى وَالباسِ
فاللَّه قَدْ ضَرَبَ الأقلَّ لِنُورِهِ   مَثَلاً مِنَ المِشْكَاةِ وَالمِقْبَاسِ

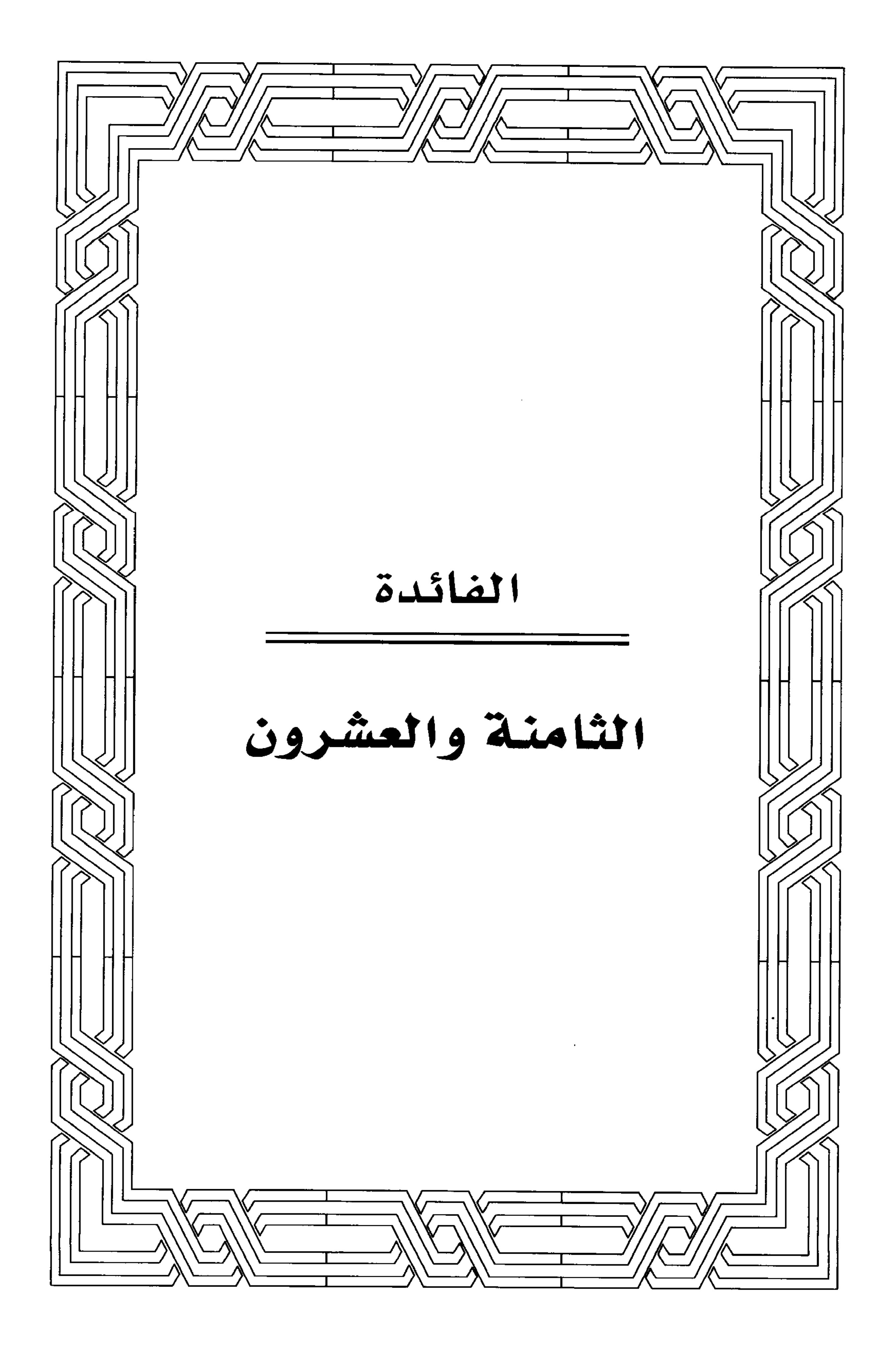
---

(١) محمد بن رشيد علي رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ) ولد بلبنان وعاش بمصر وتوفي فيها؛ أسس مجلة المنار الشهيرة؛ وكان من تلاميذ الإمام محمد عبده.

وفي الصحيح: **«الله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه؛ من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فلاة؛ فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه؛ فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظِلِّهَا؛ قد أيس من راحلته؛ فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده؛ فأخذ بخطامها ثم قال من شِدَّةِ الفرح: اللهم أنتَ عبدِي وأنَا رَبُّك؛ أخطأ من شدة الفرح»**.

ولقد شنَّع ابن القيم على من يضرب الأمثال في الوسيلة؛ بالمقرَّبين لدى عظماء الدنيا؛ غير أنه ناقض ذلك بنفسه؛ وجاء في كتابه طريق الهجرتين على توبة العاصي؛ تشبيه الباري عز وجل؛ بمن أَسَرَ له العدو محبوباً؛ فهرب منه؛ وهو عين المثال السابق عن الصحيح؛ وإذا جاء نهر الله؛ بطل نهر العقل، وذكر في كتابه الذي ألَّفه في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام؛ ما معناه؛ إن ذهب عني لفظه: إن العبد إذا اشتغل عن حاجاته؛ بسؤال المزيد من ربه في تشريف النبي ﷺ؛ فقد آثر ما يحبه الله ورسوله على ما يحبه هو؛ والجزاء من جنس العمل؛ فمن آثر الله على غيره؛ آثره الله على غيره؛ واعتبر هذا بما تجد الناس يعتمدونه عند ملوكهم ورؤسائهم؛ إذا أرادوا التقرب والزلفى لديهم؛ سألوهم الإنعام على من يعلمونه أحبَّ رعيتهم إليهم؛ وكلما ألحوا في سؤالهم الحِبَاء والإكرام والتشريف لهم؛ علت منزلتهم عندهم؛ وازداد قربهم؛ وعظمت حظوتهم لديهم؛ لأنهم يعلمون منهم إرادة الإنعام والتشريف والتكريم لمحبوبهم ذلك؛ فأحبُّهم إليهم؛ أشدهم سؤالاً ورغبة أن يُتِمُّوا عليه الإنعام؛ ويسبغوا عليه الإحسان، وهذا أمرٌ مشاهدٌ بالحس. (انتهى كلامه)؛ وفيه على رخاوته الإقناع الشافي؛ والجواب الكافي؛ والله أعلم.





الفائدة

الثامنة والعشرون

الفائدة الثامنة والعشرون

قوله ﷺ: «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنْ الْعَذَابِ يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ**». يقع في نفسي أن الحديث لا يخلو عن ذكر فرقة الأحباب؛ بدليل ما يصلح له من قوله: «**فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ**»؛ فمن البعيد جداً أن يذكر الدواء من دون تعريف بالداء. وأيضاً؛ فأعظم ما في السفر من المشاق؛ إنما هو تحمل الفراق؛ بل لا يذكر ما سواه إلّا ضميمة إليه؛ لسهولة مكابدته؛ ولا سيّما عند العرب الرحالة. وفي الطبقات لابن السبكي؛ أنَّ إمام الحرمين سُئِلَ أول ما جلس في موضع أبيه؛ لِمَ كان السفر قطعة من العذاب؟ فقال: لأنَّ فيه فراق الأحباب. وقال النجم الغزِّي: إنما اشتهرت هذه المقالة عن الأستاذ أبي القاسم القشيري؛ وهي بالصوفية أمَسّ؛ لأنهم أرقّ عواطف؛ وأكثر شوقاً وحنيناً. وفي حديث ثوبان: أنه تغير وجهه؛ وشحب لونه؛ لمَّا فارق النبي ﷺ أياماً قليلة؛ وخشي أن لا يراه في الآخرة؛ حتى فرَّج الله عنه بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم....﴾[1] الآية.

وقال امرؤ القيس:

كَأَنِّي غَدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا ... لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ

وقال:

ظَلِلْتُ رِدائي فَوْقَ رَأسيَ قاعداً ... أعُدّ الحَصَى ما تَنقَضي عَبَرَاتي

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨.

وقال النميري:

إنَّ الـمَـنـيَّـة وَالـفِـرَاقَ لَـوَاحِـدٌ أوْ تَـوْأمَـانِ تَـرَاضَـعَـا بَـلِـبَـانِ
فِـي فُـرْقَـةِ الأحْـبَـابِ شُـغْـلٌ شَـاغِـلٌ وَالـمَـوتُ أيـضـاً فُـرْقَـةُ الإخْـوَانِ

وقال ابن الملوح:

لَـعَـمْـرُكَ لَـوْلا الـبَيْـنِ مَـا مَـاتَ عَـاشِـقٌ وَلَـوْلا الـهَـوَى مَـا نَـاحَ بِـالـلـيـلِ آلِـفُ

وقال حبيب:

لَـوْ جَـاءَ مُـرْتَـادَ الـمَـنـيَّـةِ لَـمْ يَـجِـدْ إلّا الـفـرَاقَ عَـلـى الـنُّـفُـوسِ دَلِـيـلا

وقال أبو الطيب:

لـولا مُـفَـارَقَـةِ الأحْـبَـابِ مَـا وَجَـدَتْ لَـهَـا الـمَـنَـايَـا عَـلَـى أرْوَاحِـنَـا سُـبُـلا

وقال آخر:

لَـقَـتْـلٍ بِـحَـدِّ الـسَّـيْـفِ أهْـوَنُ مَـوْقِـعـاً عَـلَـى الـنَّـفْـسِ مِـنْ قَـتْـلٍ بِـثُـقْـلِ فِـرَاقِ

وقيل لجميل بن معمَّر: لو نأيت؛ لسلوت عن بثينة؛ فهذا ابن عمك زهير بن جناب؛ يقول:

إذا مَـا شِـئْـتَ أنْ تَـنْـسَـى حَـبِـيـبـاً فَـأكْـثِـرْ دُونَـهُ عَـدَدَ الـلـيَـالِـي
فَـمَـا سَـلَّـى حَـبِـيـبـاً مِـثْـلَ نَـاي وَلا أبْـلَـى جَـدِيـداً كَـابْـتِـذَالِ

فخرج ليلة؛ ثم عاد وهو يقول:

أشَـوْقـاً وَلَـمَّـا تَـمْـضِ لِـي غَـيْـرَ لَـيْـلَـةٍ رُوَيْـدَ الـهَـوَى حَـتَّـى تَـغِـيـبَ لَـيَـالِـيَـا
لَـحَـا الله أقْـوَامـاً يَـقُـولُـونَ أنَّـنَـا وَجَـدْنَـا طِـوَالَ الـنَّـأيِ لِـلـحُـبِّ شَـافِـيَـا

والأول مثل قول الآخر:

أشَـوْقـاً وَلَـمَّـا تَـمْـضِ لِـي غَـيْـرَ لَـيْـلَـةٍ فَـكَـيْـفَ إذَا سَـارَ الـمَـطِـيُّ بِـنَـا عَـشْـرَا

وقال الأصمعي: نزلت بوادي بني العنبر وهو عامر بأهله؛ وإذا فتية يريدون

البصرة فأحببت صحبتهم؛ فبِتُّ معهم وإني لوَصِبٌ محموم؛ أخاف أن لا أستمسك على الراحلة؛ فركب أحدهم خلفي يمسكني؛ فلما أمعن السير؛ تنادوا: ألا فتىً يحدونا؟ فإذا منشد في سواد الليل بصوت حزين يقول:

لَعَمْرُكَ إنِّي يَوْمَ بَانُوا لَمْ أَمُتْ ... خِفَاقاً عَلَى آثَارِهِمْ لَصَبُورُ

وَقُلْتُ لِقَلْبِي حِينَ خَفَّ بَهَ الهَوَى ... فَكَادَ مِنَ البَيْنِ المُشِتِّ يَطِيرُ

أَهَذَا وَلَمَّا تَمْضِ لِلبَيْنِ لَيْلَةٌ ... فَكَيْفَ إذَا مَرَّت عَلَيهِ شُهُورُ

وأصْبَحَ أعْلامُ الأحِبَّةِ دُونَهَا ... مِنْ الأرْضِ غولٌ نَازِحٌ وَمَسِيرُ

وأصْبَحْتُ نَجْدِيَّ الهَوَى مُتْهَمَ النوَى ... أزِيدُ اشْتِيَاقاً إنْ يَحِنُّ بَعِيرُ

عَسَى اللهُ بَعْدَ النأيِ أنْ يُسْعِفَ الهَوَى ... وَيَجْمَعَ شَمْلاً بَعْدَهُ وَسُرُورُ

قال الأصمعي: فزالت عنِّي الحمى؛ وقلت لرفيقي: اذهب إلى راحلتك فإني متماسك؛ وجزاك الله خيراً عن صحبتي.

وقال الأبيرد الرياحي:

لَقَدْ كُنتُ أسْتَعفِي الإلهَ إذَا شَكَى ... مِنْ الأجْرِ لِي فِيهِ وَإنْ سَرَّنِي الأجْر

وَأَجْزَعُ أنْ يَنْأَى بِهِ بَيْنَ لَيْلَةٍ ... فَكَيْفَ بِبَينٍ صَارَ مِيعَاده الحَشْر

وقال الحسين بن الضَّحاك فيما يشبه بعضه:

كَأنِّي إذا فَارَقْتُ شَخْصَكَ سَاعَةً ... لِفَقْدِكَ؛ بَيْنَ العَالمِينَ غَرِيبُ

ولم ينس منه حظه أبو الطيب فقال:

أَرَى أَسَفاً وَمَا سِرْنَا قَلِيلاً ... فَكَيفَ إذَا غَدا السَّيرُ ابْتِرَاكَا

فَهَذا الشَّوقُ قَبْلَ البَيْنِ سَيْفٌ ... وَهَا أنَا مَا ضُرِبْتُ وَقَد أحَاكَا

وقال:

وَمَا صَبَابَةُ مُشْتَاقٍ عَلى أمَلٍ ... مِنَ اللقَاءِ كَمُشْتَاقٍ بِلا أمَلِ

فلكم أَقَضَّ البَيْن جفناه، وأكثر دفناه؛ وأطال حسره؛ وأسال عبره؛ وأورى كروباً وأحرق قلوباً؛ وأصلى حرارة؛ وجَرَّع مرارة؛ وأثار بؤساً؛ وأذاب نفوساً. ولله درُّ القائل:

خَلِيلَيَّ مَا دَمْعاً بَكَيتُ وَإِنَّما ... هِيَ الرُّوحُ مِنْ عَيْنِي تَسِيلُ عَلَى خَدِّي

وقال بشار:

وَلَيسَ الذِي يَجْرِي مِنَ العَيْنِ مَاؤُهَا ... وَلكِنَّهَا رُوحِي تَذُوبُ فَتَقْطُرُ

وقال ديك الجن:

لَيْسَ ذَا الدَّمْعُ دَمْعَ عَينِي وَلَكِنْ ... هِيَ نَفْسِي تُذِيبُهَا أَنْفَاسِي

وقال ابن دريد:

قَلبٌ تَقَطَّعَ فَاسْتَحَالَ نَجِيعَا ... فَجَرَى وَصَارَ مَعَ الدُّمُوعِ دُمُوعَا

وقال:

لا تَحْسَبِي دَمْعِيَ تَحَدَّرَ إِنَّمَا ... نَفْسِي جَرَتْ فِي دَمْعِيَ المُتَحَدِّرِ

وقال أحمد بن إبراهيم الوزير:

لا تَحْسَبِينَ دُمُوعَ البَيْنِ غَيْرَ دَمِي ... وَإِنَّمَا نَفَسِي الحَامِي يُصَعِّدُهَا

وتلاعب به أبو الطيب في كثير من قصائده؛ وعلى كل حال: فالبين شؤم؛ والهوى غشوم؛ تندَقُّ به الرقاب؛ ويشتد به العقاب:

وَلَوْ نُعْطَى الخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا ... وَلَكِنْ لا خِيَارَ مَعَ اللَيَالِي

وقد قال المجنون:

كَأَنَّ القَلبَ لَيلَةَ قِيلَ يُغدى ... بِلَيلَى العَامِرِيَّةِ أو يُراحُ

قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فَباتَت ... تُجاذِبُهُ وَقَد عَلِقَ الجَناحُ

وقال المبرِّد: لقد قالت الشعراء قبله وبعده؛ فلم يبلغوه. وسمعت بعضهم يفضل قول عروة بن خزام:

كَـأَنَّ قَـطَـاة عُـلِّـقَـتْ بِـجَـنَـاحِـهَـا ... عـلـى كـبـدي مِـنْ شـدّة الـخـفـقـانِ

وقال قيس بن ذريح:

وَكُـلُّ مُـصِـيـبَـاتِ الـزَّمَـانِ وَجَـدْتُـهَـا ... سِـوَى فُـرْقَـةِ الأَحْـبَـابِ هَـيِّـنَـةُ الـخَـطْـبِ

وقال البحتري:

وَلَـوْ أَنَّ الـجِـبَـالَ فَـقَـدْنَ إِلْـفـاً ... لأَوْشَـكَ جَـامِـدٌ مِـنْـهَـا يَـذُوبُ

وقال ذو الرمة:

أَمَـا وَجَـلالُ الله لَـوْ تَـذْكُـرِيـنَـنِـي ... كـذكْـرَاكِ مَـا نَـهْـنَـهْـتُ لِـلـعَـيـنِ مَـدمَـعَـا

فَـقَـالَـتْ بَـلَـى والـلَّـهِ ذِكْـراً لَـوْ أَنَّـهُ ... تَـضَـمَّـنَـهُ صُـمُّ الـصّـفـا لـتـصـدَّعـا

وقال أبو الطيب:

قَـدْ كَـانَ يَـمْـنَـعـنِـي الـحَـيَـاءُ مِـنَ الـبُـكَـاء ... فَـالـيَـوم يَـمْـنَـعُـهُ الـبُـكَـاء أَنْ يُـمْـنَـعَـا

وهو من قول آخر:

وَكُـنْـتُ أَذُودُ الـعَـيـنَ أَنْ تَـرِدَ الـبُـكَـاء ... فَـقَـدْ وَرَدَتْ مَـا كُـنْـتُ عَـنْـهُ أَذُودهَـا

ومن قول أبي ذؤيب الهذلي:

وَلَـقَـدْ أَرَى أَنَّ الـبُـكَـاءَ سَـفَـاهَـةً ... وَلَـسَـوفَ يُـولَـعُ بِـالـبُـكَـاء مَـنْ يُـفْـجَـعُ

وقال أبو العتاهية؛ فيما لا يبعد عنه:

وَلَـمَّـا أَبَـتْ عَـيْـنَـايَ أَنْ تَـكْـتُـمَ الـبُـكَـاء ... وَأَنْ تَـحْـبِـسَـا فَـيْـضَ الـدُّمُـوعِ الـسَّـوَاكِـبِ

تَـثَـاءَبْـتُ كَـيْ لا يُـنْـكِـرَ الـدَّمْـعَ مُـنْـكِـرٌ ... وَلَـكِـن قـلـيـلاً؛ مَـا بَـقَـاءُ الـتَّـثَـاؤُبِ

وقد أطلت النفس عن هذا في العود الهندي[1]، وذكرت أنه متى تناهى

(١) العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي مجالس أدبية في ديوان المتنبي كتاب أدبي مطبوع للإمام ابن عبيد الله.

الحزن؛ قَلَصَ[١] الدمع؛ ودللت عليه بما يغني ويقني؛ وأزيد هنا ما ذكره ابن قتيبة؛ عن أبي حاتم عن العتبي؛ قال: حدثنا أبو إبراهيم وقال: لا يكون البكاء إلّا من فَضْلٍ؛ فإذا اشتد الحزن ذهب البكاء؛ وأنشد:

فَلَئِنْ بَكَيْنَاهُ يَحِقُّ لَنَا   وَلَئِنْ تَرَكْنَاهُ فَلِلْصَّبْرِ

فَلِمِثْلِهِ جَرَتْ العُيونُ دَماً   وَلِمِثْلِهِ جَمَدَتْ فَلَمْ تَجْسُرِ

وبه يتفَسَّر ما يحتاج إلى تفسير هناك.

ثم إن تحت قوله ﷺ: «**فَلْيُعَجِّل إِلَى أَهْلِهِ**» **لطائف**:

الأولى: أنه لا قيمة للحياة؛ ولا رغد للعيش؛ مع ابتعاد الأهل وافتراق الشمل؛ فهو من مزيد رحمته بأمَّتِه؛ وشفقته عليهم؛ وتمنِّيه الخير لهم. وقد قالت الأعرابية:

فَمَا أَحْسنِ الدُّنْيَا وَعِنْدِيَ خَالِدٌ   وَأقْبَحَهَا لَمَّا تَجهّزَ غَازِيَا

وقال آخر:

إذَا لَمْ تَكُنْ لَيْلَى بِنَجْدٍ تَغَيَّرَتْ   مَحَاسِنُ دُنْيَا أَهْلَ نَجْدٍ وَطِيبُهَا

وفي القصيدة المعروفة باليتيمة:

إنْ تُتْهِمِي فَتِهَامَةٌ وَطَنِي   أَوْ تُنْجِدِي إنَّ الهَوَى نَجْدِي

وقال دعبل:

مَا أَطْيَبَ العَيْشَ فَأَمَّا عَلَى   أَنْ لا أَرَى وَجْهَكَ يَوْماً فَلا

لَوْ أَنَّ يَوماً مِنْكَ أَوْ سَاعَةً   يُبَاعُ بِالدُّنْيَا إذَنْ مَا غَلَى

وأخذه أبو الطيب فقال:

بِمَا بِجفْنَيْكِ من سِحْرٍ صِلي دَنِفاً   يَهوَى الحيَاةَ وَأمّا إنْ صَدَدتِ فَلا

---

(١) قلص الدمع: أي قل أو نشف.

وقال القطب الحداد:

وَكُلُّ سُرُورٍ قَدْ خَلَى عَنْ وِصَالِكُمْ فَمَا هُوَ إلّا تِرْحَةٌ وَغُمُومُ

الثانية: قد عُلِمَ من هديه ﷺ؛ مشروعية السفر للتجارة؛ وإيلاف قريش معلوم؛ وآيات الضرب في الأرض كثيرة؛ ومنها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ . . .﴾[1] وفي الحديث: «**سافروا تغنموا**» وفي آخر قدسي[2]: «**أحدث لك رزقاً**».

وقال الكميت:

وَلَنْ يُرِيحَ هُمَومُ النَّفْسِ إنْ حَضَرَتْ حَاجَاتَ مِثْلَكَ إلّا الرَّحْلُ والجَمَلُ

وقال حبيب:

وَطُولُ مَقَامِ المرْءِ فِي الحَيِّ مُخْلِقٌ لِديبَاجَتَيهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ
فَإنِّي رَأيتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إلَى النَّاسِ أنْ لَيْسَتْ عَلَيهِمْ بِسَرْمَدِ

وقال آخر:

فَسِرْ فِي بِقَاعِ الأرْضِ تَلْتَمِسُ الغِنَا تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أوْ تَمُوتَ فَتُعْذَرَا
وَلا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بِدُونٍ وَلا تَنَمْ وَكَيفَ يَنَامَ العَيْنَ مَنْ كَانَ مُعْسِرَا

ومن المعلوم: أن لا نعمة في الدنيا أعلى ولا أشبه بنعيم الآخرة؛ من الاجتماع بعد الافتراق؛ ولهذا قال حبيب:

فَلَوْ عَرَفَ النّاسُ التّلاقي وَحُسْنَهُ لَحُبّبَ من أجلِ التّلاقي، التّفَرّقُ

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٢) قال ابن عبد البر وقال رسول الله ﷺ: «**سافروا تصحوا وتغنموا**» وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومنهم من يرفعه أنه قال: من سعادة ابن آدم أو من سعادة المرء أن تكون زوجته صالحة، وأولاده أبراراً؛ وإخوانه صالحين ورزقه في بلده الذي فيه أهله. وفي التوراة: ابن آدم أحدث سفراً أحدث لك رزقاً.

وصدق والله؛ فما سعادة الآخرة إلّا من هذا القبيل، إذ الأرواح من ذلك الملأ الأعلى؛ ففارقته إلى هذا العالم؛ وكابدت من وعثاء السفر؛ ونكد الفراق؛ ما كادت تذوب من أجله، ألا تراها كلما ذكر الفراق أنَّت؛ وكلما تنوشدت الأوطان حنَّت؛ وما كان هذا إلّا لطفاً من الله تعالى؛ ووسيلة إلى حسن المنقلب؛ وتمام اللذَّة؛ وتناهي السرور، ولهذا قال حبيب:

أآلفةَ النحيبِ كم افتراقٍ أَظَلَّ فكانَ داعِيةَ اجْتماعِ
وليستْ فرحةُ الأوباتِ إلا لَمَوْقُوفٍ على تَرَحِ الوداعِ

وقال أيضاً:

وَلَيْسَ يَعْرِفُ طِيبَ الوَصْلِ صَاحِبُهُ حَتَّى يُصَابَ بَنأيٍ أوْ بِهُجْرَانِ

وله فيما لا يبعد منه؛ قوله:

وَالحَادثَاتُ وإنْ أصَابَكَ بُؤسُهَا فَهْوَ الذِي أنْبَاكَ كَيْفَ نَعِيمَهَا

فمن لطف إرشاده ﷺ؛ ومحبته لهذه الأمة السعادة الدينيَّة والدنيوية؛ أرشدهم إلى استعجال هذه النعمة؛ ومبادرة هذه اللذَّة؛ ومسابقة الفوت بمواصلة الاجتماع؛ وهذا كله من ثقوب نظره؛ وغزارة حكمته؛ ومبلغ نصيحته؛ وكمال معرفته؛ وحرصه على تبليغ دعوته. وأحرَّ بمثل هذه المعاني أن تملك القلوب طمأنينة بصحة رسالته؛ وتزيد الهمم انبعاثاً في تأثير سنَّته والتزام إشارته.

الثالثة: نعرف منه؛ أن أوامره ﷺ؛ سائرةً مع المصلحة؛ جارية مع الطبيعة؛ فقلما ظفر إنسان بمطلوبه؛ إلّا حدثت في صدره ولولة؛ لا يتخلص منها إلّا بانصرافه إلى من يتحدث فيه معه؛ من خاصته وأهلِ وِدِّه؛ ولذا قال الطغرائي يتألم:

فِيمَ الإقَامَةُ بِالزَّوْراءِ لا سَكَنِي بِهَا وَلا نَاقَتِي فِيهَا وَلا جَمَلِي
وَلا صَديقٍ إليهِ مُشْتَكَى حَزَنِي وَلا أَلِيفٍ إليهِ مُنْتَهَى جَذَلِي

ومَنْ خاصةُ الإنسانِ؛ غيرُ أهله؟ الذين يسكن إليهم؛ ولم يكن شيء انتهى

إليه من لقائهم؛ ولا سيّما عند امتلاء راحته؛ ونزول الخير بساحته؛ ولله درُّ أبي عبادة في قوله:

مَلأتُ يَدَيَّ فَاشْتَقْتُ وَالشَّوقُ عَادَةٌ ... لِكُلِّ غَرِيبٍ زَالَ عَنْ يَدِهِ الفَقْرُ

وقد أشرنا لبعض هذا في فائدة سلفت؛ فلتكن على ذِكْرٍ من الناظر في هذا الموضوع.

أما إذا لم تنقض الحاجة؛ فلا بأس بإطالة الغيبة؛ لأنَّ من أسوأ الأحوال الرجوع بالخيبة؛ قال بشار:

وَأَوْبَةُ مُشْتَاقٍ بِغَيْرِ دَرَاهِمٍ ... إلَى أَهْلِهِ مَنْ أَعْظَمِ الحَدَثَانِ

والعرب تقول لمن جاء خائباً: (جاء على غبيراء الظهر)؛ و(جاء على حاجبه صوفه)؛ غير أنَّ الأولى بالحازم؛ أن يتحول عن وجهه ذلك؛ وينشئ سفراً إلى جهةٍ أخرى؛ وقد أنشد حبيب:

وإنَّ صَرِيحَ العزْمِ والرأيِ لامْرِئٍ ... إذا بلغته الشمس أن يتحولا

وفي سياق للغزالي؛ أنَّ من أحترف بحرفة؛ أو اتَّجَرَ في شيءٍ فلم يرزق منه مراراً؛ فليتجاوزه إلى غيره؛ أو ما يقرب من هذا؛ وجهات السفر من باب أولى.
ولله درُّ الذي يقول:

إذَا نَحْنُ ابْنَا سَالِمِينَ بِأَنْفُسٍ ... كِرَامٍ رَجَتْ أَمْراً فَخَابَ رَجَاؤُهَا
فَأَنْفُسَنَا خَيرُ الغَنِيمَةِ إنَّها ... تَؤوبُ وَفِيهَا مَاؤُها وَحَيَاتُهَا

وقال الآخر:

رَجَعْنَا سَالِمِينَ كَمَا بَدَأْنَا ... وَمَا خَابَتْ غَنِيمَةُ سَالِمِينَا

فبمثل هذا يتسلى المنجود ويتعلل المنكود:

الرابعة: قد يقال: ما هي الحاجة إلى أمره ﷺ؛ باستعجال الرجوع إلى الأهل بعد قضاء النهمة؛ مع ما ذكرتم من ارتكاز الحرص عليه؛ وشدَّة الميل إليه

في النفوس؛ واندماجه في الغرائز؛ **فيجاب عن ذلك**: بأنه وإن كان كذلك بالأغلب؛ ولا سيّما عند الكرام؛ لكن الحرص على الاستكثار؛ كما يتوضح من الخامسة؛ يعتلج في القلب مع تلك الداعية؛ فعمد ﷺ إلى تقويتها؛ وساق الأمة إلى ترجيحها؛ ولكن سوقاً رفيقاً؛ وبياناً دقيقاً؛ وفعل معهم ما لا تفعله الأم بفطيمها؛ إذا حرَّكت مهده؛ ووكل ما وراء ذلك إلى الدواعي؛ فجزاه الله أفضل الجزاء؛ من آسٍ حكيم؛ وناصحٍ عليم؛ وعارفٍ بأسلوب التعليم.

الخامسة: ليس المراد بالنهمة هنا؛ بلوغ الهمّة والشهوة؛ مما يبتغي الإنسان؛ فإنه لا غاية لذلك؛ وأنّى يكون كذلك، وحاجات من عاش لا تنقضي. وقد ورد عنه ﷺ: «**مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا**». وجاء في الحديث الصحيح القدسي: «**. . . وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ**»[1] ولكن القدر الكافي؛ كما يدل عليه حديث أبي سعيد الخدري؛ الذي يقول فيه: «**إِلَّا آكِلَةَ الْخَضْرَاءِ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ وَرَتَعَتْ**»[2] وهو شبيهٌ بقوله؛ الذي هو أصل الحكمة: «**فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»[3]. والبِطْنَة التي هي أكبر الداء؛ داخلة

---

(١) جزء من حديث تكملته: عَنْ أنس قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَادِياً ثَالِثاً وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ**».

(٢) جزء من حديث: حَدَّثَنَا عطاء بن يسار؛ أَنَّهُ سَمِعَ أبا سعيد الخدري ﷺ يُحَدِّثُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فَقَالَ: إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ تُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ وَلَا يُكَلِّمُكَ، فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ، قَالَ: فَمَسَحَ عَنْهُ الرُّحَضَاءَ، فَقَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ؟ وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضْرَاءِ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ وَرَتَعَتْ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ، وَالْيَتِيمَ، وَابْنَ السَّبِيلِ أَوْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ وَيَكُونُ شَهِيداً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(٣) جزء من حديث رواه الترمذي في صحيحه عَنْ المِقْدَام بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ: سَمِعْتُ =

في هذا بالأولى؛ ويدخل فيه؛ كلما جاء في فضل القناعة؛ ومنه قول الشافعي:

لَكِسْرَةٌ مِنْ جَرِيش الخُبْزِ تُشْبِعُنِي ... وَنَهْلَةٌ مِنْ زُلالِ المَاءِ تَرْوِينِي
وَقِطْعَةٌ مِنْ غَلِيظِ القُطْنِ تَسْتُرنِي ... حَيّاً وإنْ مِتُّ تَكْفِينِي لِتَكْفِينِي

وقد فسرت الحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[1]؛ بالقناعة. وقال جعفر الصادق: القناعة الراحة. وقال الحسين بن الضحاك:

يَا رُوحَ مَنْ عَظُمَتْ قَنَاعَتُهُ ... حَسْمَ المَطَامِعِ مِنْ غَدٍ وَغَدِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ لله مُتَّهِماً ... لَمْ يَمْسَ مُحْتَاجاً إِلَى أحَدِ

وقال سالم بن واصبة:

غَنِيَّ النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ حَاجَةٍ ... فَإِنْ زَادَ شَيْئاً عَادَ ذَاكَ الغِنَى فَقْرا

وقال سويد بن أبي كاهل:

إنَّ الغَنِيَّ الذِي يَرْضَى بِعِيشَتِهِ ... لا مَنْ يَبِيتُ عَلَى مَا فَاتَ مُكْتَئِبَا

وقال أبو العلا المعرِّي: الحمد لله الذي رزق غُفَّة من العيش؛ وستر بشعبة من القناعة، وفي ديوانه؛ الكثير الطيب من مدحها والتمدُّح بها؛ وليس هذا موضع الإطناب في القناعة؛ لأنَّ المعنيَّ غيرها؛ والمقصود هنا سواها.

السادسة: لا بدَّ من تَوْفِيَةِ الأهل حقوقهم؛ وَهَبْ أنَّ الإنسان لجأ في غربته؛ إلى كنفٍ من الراحة؛ وعثر بنصيب من الرفاهية؛ وسكن إلى ذلك؛ لغلظٍ في طبعه؛ فَمَنْ لأهله بمثل حاله؛ ولله درُّ القائل:

= رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِن بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ قَالَ أَبو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

وَارَحْمَتَا لِلغَرِيبِ فِي البَلَدِ النا زِحِ مَاذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا
فَارَقَ أَحْبَابَهُ فَمَا انْتَفَعُوا بِالعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ ولا انتَفَعَا

فإن تماثل أمره؛ واستقامت أحواله في دار هجرته؛ ونسي أهله؛ فهو اللئيم المذموم؛ وكفى بالمرء إثماً أن يضيِّعَ من يعول. وقد قالوا: إنَّ ألأَمَ شعرٍ قالته العرب هذا:

لا يَمْنَعَنَّكَ خَفْضُ العَيْشِ تَطْلُبُهُ نِزَاعَ شَوْقٍ إلى أهْلٍ وَأَوْطَانِ
تَلْقَى بِكُلِّ بِلادٍ إنْ حَلَلْتَ بِهَا أَهْلاً بِأَهْلٍ وَأَوْطَاناً بِأَوْطَانِ

وعندي أنَّ أوس بن حَجَر أَلأَمُ مِنه؛ حيث يقول:

لا تُحْزِنِيني بالفراق، فإنني لا تَسْتَهِلُّ من الفِراق شُؤوني

ومن يك هذا وصفه؛ فلا طمع في استصلاحه؛ إلّا برفعه إلى القاضي؛ وفسخ عقد نكاحه. وقد أفتى سيدنا القطب الجيلاني في غنيته[1]؛ بأن للمرأة الفسخ متى انتهت غيبة زوجها إلى ستة أشهر؛ وبنحوه يقول ابن الخطاب؛ وفي حفظي عن الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما؛ يزيد أحدهما على الآخر؛ أنَّ رجلاً كانت تحته امرأة يقال لها هند؛ فغزى فأصاب فرساً وجارية وضيئة؛ فقال:

ألا لا أُبَالِي اليَومَ مَا فَعَلتْ هِنْدُ إذَا بَقِيَتْ عِنْدِي الجُمَانَةُ والوَرْدُ
شَدِيدُ مَنَاطِ المَنْكِبَينِ إذَا جَرَى وَبَيْضَاءَ صِنَهَاجِيَّةٌ زَانَهَا العِقْدُ

فبلغها ذلك فقالت:

أَلا فَاقْرئهِ مِنِّي السلامَ وَقُلْ لَهُ غُنِينَا بِفِتَيانٍ غَطَارِفَةٍ مُرْدِ
إذَا شَاءَ مِنهُمْ نَاشِئٌ مَدَّ كَفِّهِ إلَى عِكَنٍ مَلْسَاءَ أو كَثْعَبٍ نَهْدِ

فلما انتهى إليه الشعر أقبل مسرعاً؛ فألقاها في مصلاها؛ فقال لها: أكنت فاعلة؟ فقالت: الله في عيني أجل؛ وأما أنت فأهون.

---

(١) كتاب (الغنية) من مؤلفات القطب عبد القادر الجيلاني.

وإن بقي يئن ويحن؛ فهو الكريم الجدير بأن ينقاد لإرشاد الشارع الحكيم؛ وكثيراً ما كان والدي رَحِمَهُ اللهُ يقول: لا بدَّ من عروض النكبات؛ لكل من قضى حاجته من سفره؛ واعتزم الرجوع ثم انفسخت نيَّتُهُ. وقد شهدت به التجربة؛ ودلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. ولقد اتجَّر أحد الحضارمة ببتاوى[2] من أرض جاوا؛ حتى بلغ إيراده من عقاره الذي تأثَّلَهُ بها؛ سبعة وعشرين ألفاً شهرياً؛ فهمَّ بالرجوع إلى بلاده؛ ثم عنَّ له أن لا يرجع حتى يُتِمَّها ثلاثين ألف؛ فاختلَّ؛ وتفرَّق شمله؛ ووقع في قرن الحمار.

السابعة: يستفاد من الحديث: أنه قلما يتجه الإنسان بنيَّة صالحة؛ وهمَّة صادقة؛ وعزيمة نافذة؛ ويحسن الثقة بربِّه؛ ويعتمد صحيح التوكُّل في كسبه؛ ويلتزم الأدب؛ ويراعي الحُرْمَةَ؛ ويؤدِّي الحقَّ؛ ويحفظ الوصيَّة في أهله؛ إلّا كان الظفر أدنى إليه من شراك نعله؛ بدليل اقتصار الحديث على التحذير من الاسترسال في إتباع النُهْمَة؛ وما ذاك إلّا لأن النجاح مضمون؛ والفشل مأمون؛ وبتأييد الحديث الآخر: **«لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً»**. ومما يؤثر عن الإمام الغالب؛ كرَّم الله وجهه أنه قال: ولو أنَّ الناس حين تنزل بهم المصائب؛ وتقع عليهم الشدائد؛ يرجعون إلى الله بصدقٍ من نيَّاتِهِمْ؛ وَوَلَهٍ من قلوبهم؛ لأصلح لهم كل فاسد؛ وردَّ عليهم كل شارد. وهنا تُسْتَنُّ الأقلام؛ وتُفْتَحُ أبواب الكلام؛ غير أنا نهاب الإثقال والملام؛ ويكفي من السوار ما أحاط بالمعصم؛ والسلام.

وبعد هذا كله؛ فلا شك في ترجيح احتمال سقوط تلك الزيادة؛ التي يضطر إليها السياق؛ ما لم نذهب إلى تأويل متكلف ونقول: إنها محذوفة إيجازاً للعلم بها من المقام؛ والاستغناء عنها بذكر المنع من الشراب والطعام؛ فلن يهنأ الشرب؛ غير الحظيِّ بالقرب؛ قال جرير:

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) بتاوى هي التي تسمى الآن جاكرتا.

كَيْفَ العَزَاءُ وَلَمْ أجِدْ مُذْ غِبْتُمُ قَلْباً يَقِرُّ وّلا شَرَاباً يَنْقَعُ

وقال الفرزدق:

لَمْ يَمْنَعْ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أنْ نَطَقَتْ حَمَامَةٌ فِي غُصُونٍ ذَاتَ أَوْقَالِ

وقال الصمَّة القشيري:

تَلَفَّتُ نَحوَ الحَيِّ حَتّى وَجَدتُني وَجِعتُ مِنَ الإصغاءِ لَيتاً وَأَخدَعا

فَإِن كُنتُم تَرجَونَ أَن يَذهَبَ الهَوى يَقيناً وَنَروى بِالشَّرابِ فَنَنقَعا

فَرُدّوا هُبوبَ الريحِ أَو غَيِّروا الجَوى إذا حَلَّ أَلواذ الحَشا فَتَمَنَّعا

وقال أخر:

فَمَا طَابَ طَعْمُ النَّومِ مُذْ فَقَدْتُكُمْ وَلا سَاغَ لَي بَيْنَ الجَوانِحِ رِيقُ

وقال الطغرائي:

ذَكَرْتُكُم عِنْدَ الزُّلالِ مَعَ الظَّمَأ فَلَمْ أنْتَفِعْ مِنْ بَرْدِهِ بِبِلالِ

وقال أبو الطيب:

وَمَا شَرَقِي بِالمَاءِ إلّا تَذَكُّراً لِمَاءٍ بِهِ أهْلُ الحَبِيبِ نُزُولُ

وقال الشريف الرضي:

وَلَيْسَ لِبَرْدِ المَاءِ لَمْ تَشْرِبِي بِهِ إلَى القَلْبِ مِنِّي يا أُمَيْم مَسَاغُ

فالبَّيْنْ؛ هو الذي يملأُ الجوف؛ ويطيل الخوف؛ ويطرد النوم؛ ويصل الليل باليوم.

قال امرؤ القيس:

فَيَا لَكَ مِنْ لَيلٍ كأنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مَغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

وقال خاله مهلهل:

كَأنَّ الجَدْيَ فِي مِثْنَاةِ رِبْقٍ أَسِيرٌ أوْ بِمَنْزِلَةِ الأسَيرِ

وقال النابغة: «وليلٌ أقَاسِيهِ بَطيءُ الكَوَاكِبِ»

ثم اعتورته أيدي المولدين؛ وتنوعوا فيه؛ ومن خير قولهم:

أُكَابِدُ هَذَا اللَيلَ حَتَّى كَأنَّهُ عَلَى نَجْمِهِ أنْ لا يَغُورَ يَمِين

وتلاعب به أبو الطيِّب. وما قيل في الفراق؛ وطرده الرقاد؛ ومنعه من الماء والزاد؛ لا يحويه العدُّ؛ ولا ينتهي إليه الحدُّ؛ ولله درُّ القائل الذي يقول:

لَهُ أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاه تَشْغَلُهُ عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيهِ عَنِ الزَّادِ

وأرجو أن يقيِّض الله؛ من يراجع دواوين الحديث لهذه الزيادة؛ فإن وُجِدَتْ؛ فبها ونعمت؛ وإلّا فقد يسَّرنا للتأويل الأعذار؛ ونَحَينا ما في طريقه من أحجار العِثَارْ.





الفائدة

التاسعة والعشرون

[illegible]

[illegible]

الفائدة التاسعة والعشرون

تكرر في الصحيح حديث المرأة التي أبصرت بالشاة موتاً فكسرت حجراً فذبحتها به. وقول عبد الله بن عمر راوي الحديث: فيعجبني أنَّها أمَةٌ وأنها ذبَحَتْ[(١)]. وأقول: لا عجب من مجرَّدِ ذبحِ الأمَةِ اليوم؛ فضلاً عنه في زمان؛ تتدفق نساؤه على حياض الموت؛ بصدور رحبة؛ وتقترع لحضور الزحوف؛ بنفوسٍ طيِّبةٍ؛ وتستبق إلى ميادين الحروب؛ بخواطرَ رخيَّةٍ. قال عمرو بن كلثوم:

ظَعَائِنُ مِنْ بَنِي جَشَمِ بنَ بَكْرٍ خَلَطْنَ بِمَيْسَمٍ حَسَباً وَدِينَا
يَقُتْنَ خيولَنَا وَيَقُلْنَ لَسْتُمْ بُعولَتَنَا إذا لَمْ تَلْحَقُونَا

وقال حسَّان بن ثابت:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كِدَاءُ
يُنَازِعْنَ الأعنَّةَ مُصْغِيَاتٍ عَلى أكْتَافِهَا الأسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ تُلَطِّمُهنَّ بِالخُمُرِ النِّسَاءُ

وأخرج الحاكم وصححه على شرط مسلم؛ عن عائشة قالت: «مَا قَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةً قَطُّ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، وَاللَّهِ إِنَّهَا لَعِنْدِي تَضْحَكُ

---

(١) عن كعب بن مالك عن أبيه: أنه كانت لهم غنم ترعى بسلع، فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتاً، فكسرت حجراً فذبحتها به، فقال لهم: لا تأكلوا حتى أسأل النبي ﷺ أو أرسل إليه من يسأله عن ذلك وأنه سأل النبي ﷺ عن ذلك أو أرسل إليه فأمره بأكلها. رواه أحمد والبخاري، قال: وقال عبيد الله: يعجبني أنها أمة وأنها ذبحت بحجر.

ظَهْرَ الْبَطْنِ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيَقْتُلُ رِجَالَهُمْ بِالسُّيُوفِ إِذْ يَقُولُ هَاتِفٌ بِاسْمِهَا: أَيْنَ فُلَانَةُ؟ فَقَالَتْ: أَنَا وَاللَّهِ، قُلْتُ: فَوَيْلَكِ مَا لَكِ؟ فَقَالَتْ: أُقْتَلُ وَاللَّهِ، قُلْتُ: وَلِمَ؟، قَالَتْ: لِحَدَثٍ أَحْدَثْتُهُ، فَانْطَلَقَ بِهَا، فَضَرَبَ عُنُقَهَا، فَمَا أَنْسَى عَجَباً مِنْهَا طِيبَةَ نَفْسِهَا، وَكَثْرَةَ ضَحِكِهَا، وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا تُقْتَلُ». وحال هند ابنة عتبة؛ معروف؛ ولا سيّما ما كان منها في يوم أُحد؛ والتمثيل بحمزة؛ والتَّمثُّلْ بقول الزرقاء الايادية:

نحن بنات طارق * نمشي على النمارق * إن تقبلوا نعانق

أو تدبروا نفارق * فراق غير وامق

تُحَمِّس القوم وتستثير الحفائظ. وحديث أسماء بنت أبي بكر مشهور؛ في مقابلتها لولدها يوم قتل، وفي قيامها عليه يوم صلب[1]، وفي جدالها الحجاج لمَّا تَهَضَّمه. وأخرج الحاكم أنها اتخذت خنجراً في زمن سعيد بن العاص في الفتنة؛ فوضعته تحت مرفقها؛ فقيل: ما تصنعين بهذا؟ قالت: إنْ دخل عليَّ لصٌّ بَعَجتُ بطنه؛ وكانت مع ذلك عمياء. وكذلك كانت أمُّ سليم؛ فقد أخرج ابن سعيد بسند صحيح؛ أنها اتخذت خنجراً يوم حنين! فقال أبو طلحة: يا رسول الله هذه أم سليم[2] معها خنجر؛ فقالت: يا رسول الله، إن دنا مني مشرك بقرت به بطنه.

وذكر المؤرخون وأخرجه الحاكم بسند صحيح على شرط الشيخين؛ أنَّ صفيَّة بنت عبد المطلب كانت تقول: أنا أول امرأة قتلت رجلاً؛ كنت في (فارع) حصن حسان بن ثابت؛ وكان حسان معنا في النساء والصبيان؛ حين خندق النبيُّ ﷺ. قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود؛ فجعل يطوف بالحصن؛ فقلت لحسان: إنَّ هذا اليهودي يطيف بالحصن كما ترى؛ ولا آمنه أن يدلَّ على عوراتنا

---

(١) ولدها هو عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

(٢) أمُّ سُلَيْم الغُمَيْصَاء ويقال: سهلة بنت ملحان الأنصارية الخزرجية من بني النجار وهي أم أنس بن مالك، ولما مات زوجها مالك بن النضر، تزوجها أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري. شهدت: حنيناً، وأُحداً. وكانت من أفاضل النساء.

مَنْ وراءنا من يهود؛ وقد شُغِلَ عنا رسول الله ﷺ؛ فقم إليه فاقتله؛ فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب؛ والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا؛ قالت صفية: فلما قال ذلك؛ ولم أر عنده شيئاً؛ احتجزت؛ وأخذت عموداً من الحصن؛ ثم نزلت إليه وضربته بالعمود حتى قتلته؛ ثم رجعت إلى الحصن؛ فقلت: يا حسَّان انزل إليه فاسلبه؛ فإنه لم يمنعني من سلبه إلّا أنه رجل؛ فقال: ما لي بسلبه من حاجة.

وذكر ابن عبد البر وغيره؛ أن أمَّ حكيم بنت الحارث بن هشام؛ كانت تحت عكرمة بن أبي جهل؛ فلما استشهد بأجنادين في حرب الروم؛ تزوجها خالد بن سعيد بن العاص؛ فلما كانت وقعة مرج الصفراء[1]؛ أراد أن يبني بها؛ فقالت له: لو تأخَّرت حتى يهزم الله هذه الجموع؟ فقال: حدثتني نفسي أنِّي مقتول؛ قالت: فدونك فاعرس بها عند القنطرة؛ فنسبت إليها؛ وقيل: قنطرة أم حكيم؛ ثم أصبح فأولم عليها؛ فما فرغوا من الطعام حتى وافتهم الروم؛ ووقع القتال واستشهد خالد؛ فشدَّت أم حكيم عليها ثيابها؛ وتبدَّت؛ وإنَّ أثر الخلوق عليها؛ فقتلت سبعة من الروم بعمود الفسطاط الذي بات فيه خالد مُعْرِساً بها.

وأخرج ابن منده؛ عن أمِّ عمارة؛ نسيبة النجّارية[2]؛ أنها قالت: خرجت أول النهار إلى أُحُد؛ ومعي سقاء فيه ماء؛ فانتهيت إلى رسول الله ﷺ؛ وهو في أصحابه؛ والريح والدولة للمسلمين؛ فلما انهزم المسلمون؛ انحزت إلى رسول الله ﷺ؛ وجعلت أباشر القتال؛ وأذِبُّ بالسيف عن رسول الله ﷺ؛ وأرمي عنه بالقوس؛ حتى خَلَصَت إليَّ الجراح.

---

(١) وقعة مرج الصفراء من معارك المسلمين الأولى مع الروم بالشام وحدثت قبل موقعة اليرموك الفاصلة.

(٢) أم عمارة من بني النجار؛ كانت ممن شهد بيعة العقبة كما شهدت أُحُداً والحديبية وخيبر وعمرة القضيّة وحُنَيْناً؛ وشهدت اليمامة مع خالد بن الوليد ومعها ابنُها عبد الله، وقطعت يَدُها في الحرب.

ومن وجه آخر عن عمر؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما التفت يوم أحد يميناً وشمالاً إلّا وأراها تقاتل دوني. وقالت بنت سعد الربيع: رأيت على عاتق نسيبه جرحاً أجوف له غور؛ فقلت: من أصابك بهذا يا أمَّ عمارة؟ فقالت: أقبل ابن قميئة يقول: دُلُوني على محمد لا نجوت إن نجا؛ فاعترض له مصعب ابن عمير في ناسٍ كنت فيهم؛ فضربني هذه الضربة؛ ولقد ضربته على ذلك ضربات؛ إلّا أنَّ عدوَّ الله كان عليه درعان. فقالت لها: ومن أصاب يدك؟ قالت: أصيبت يوم اليمامة؛ لمَّا انهزمت الأعراب؛ قالت الأنصار: أخلصونا؛ فأخلصت الأنصار؛ وكنت معهم؛ حتى انتهينا إلى حديقة الموت؛ فاقتتلنا ساعة حتى قُتِلَ أبو دُجانة على بابها؛ ودخلتها أنا أقصد عدوَّ الله مسيلمة؛ فعرض لي رجل قطع يدي؛ فما عرَّجت عليها؛ ولا كانت ناهية؛ حتَّى وقفت على الخبيث مقتولاً؛ وابني عبد الله بن زيد المازني يمسح سيفه وثيابه؛ فقلت: أقتلته؟ قال: نعم؛ فسجدت لله شكراً؛ وانصرفت.

وكان ضمرة بن سعيد يحدِّث عن جدته؛ وكانت قد شهدت أحداً تسقي الماء؛ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لمقام نسيبة اليوم؛ خيرٌ من مقام فلان وفلان**»؛ وكان يراها تقاتل أشدَّ القتال؛ حاجزةً ثوبها على وسطها؛ هي وزوجها وأبناؤها يذِبُّون عنه؛ ورأى النبي ﷺ رجلاً منهزماً ومعه ترس؛ فقال له: «**الق الترس إلى من يقاتل!**» فأخذته نسيبة وترست به على رسول الله ﷺ؛ وعرقبت فرس رجل فوقع على ظهره؛ فصاح النبي ﷺ: «**يا بن أمِّ عُمارة؛ أمّك أمّك**» فعاونها عليه حتى أوردته حياض المنية؛ وعمدت للرجل الذي ضرب عضد ابنها عمارة؛ فضربت ساقه فبرك؛ والنبي ﷺ يبتسم من فعلها؛ ثم ذففوا عليه؛ فقال لها رسول الله ﷺ: «**الحمد لله الذي ظفرك وأقرَّ عينك من عدوِّك**».

وفي البخاري عن أنس؛ قال: «لمَّا كان يوم أُحدٍ انهزم الناس عن رسول الله ﷺ؛ وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَأُمَّ سُلَيْم وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تَنْقُلانِ الْقِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا، ثُمَّ تُفْرِغَانِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ. . .»، وفي أسد

الغابة[1]؛ أنَّ سعد بن معاذ؛ مرَّ وفي يده حربة يقول: «لَبِّثْ قليل يلحق الهيجاء حمل» فقالت له أمُّه؛ كبشة بنت رافع الخزرجية: الحق يا بنيَّ قد والله أخَّرْت.

وذكر الطبري عن أمِّ كثير؛ امرأة همام بن حارث النخعي؛ قالت: شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص مع أزواجنا؛ فلما أتانا أنه فرغ من مناس؛ شددنا علينا ثيابنا؛ وأخذنا الهواري؛ ثم أتينا القتلى؛ فمن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه؛ ومن كان من المشركين أجهزنا عليه؛ وتبعنا الصبيان نولِّيهم ذلك ونصرفهم فيه. وحديث الخنساء في تشجيعها أبنائها يوم القادسية مشهور.

وذكر ابن عبد ربه؛ في العقد الفريد؛ خطبة الزرقاء بنت عدي بن قيس الهمداني[2]؛ تُحرِّض أصحاب عليٍّ على القتال؛ وهي على جملٍ أحمر. وخطبة عكرشة بنت الأطرش[3] وهي متقلِّدة بحمائل السيف. وخطبة أمِّ الخير بنت حريس بن سراقة البارقي؛ وهي على جملها الأرمك؛ وَذَكَرَ أيضاً وفادة بعضهن على معاوية؛ ومحاورتهن معه؛ فلم يجف لهنَّ ريق؛ ولم تلتبس عليهنَّ طريق. وكانت إزادة بنت الحارث بن كلدة؛ مع زوجها عتبة بن غزوان؛ وإخوانها من الأم؛ زياد وأبي بكر ونافع بن الحارث؛ في حروبهم بالبصرة مع العجم؛ وكانت تحرِّضهم وتقول في تحريضها: إن يهزموكم يولجوا فينا الغلف. وذكر الحافظ عن الرشاطي أن أمَّ موسى اللخميَّة؛ زوج نصير اللخمي؛ والد موسى فاتح الأندلس؛ شهدت يوم اليرموك مع زوجها؛ وقتلت يومئذ عِلْجاً؛ وأخذت سلبه؛ فكان عبد العزيز بن مروان يستحكيها ذلك؛ فتصفه له.

فإن قيل: كيف تنغمس هذه النساء في الحروب؛ مع ما قد أخرجه أحمد

---

(١) كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.

(٢) من همدان من أهل اليمن وكانت مع قومها في جيش الإمام علي في صفين ووقفت تخطب تحرض على قتال معاوية.

(٣) عكرشة بنت الأطرش بن رواحة من فضليات النساء وفصحائهن وقفت مع علي بن أبي طالب في صفين تحرض ضد معاوية وقد بلغت من العمر عتياً.

والنسائي؛ عن حشر بن زياد؛ عن جدَّته؛ أم أبيه؛ **قالت**: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر؛ وأنا سادس سِتّ نسوة؛ فبلغ النبيَّ ﷺ؛ فدعانا؛ فرأينا في وجهه الغضب؛ قال: «**ما أخرجكن؛ وبأمر من خرجتن؟**» قلنا: خرجنا نناول السهام؛ ونسقي السويق؛ ومعنا دواء للجرحى؛ ونغزل الشعر فنعين به في سبيل الله(١).

وما ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة؛ أنَّ أمَّ كبشة القضاعية؛ قالت: يا رسول الله ائذن لي أن أخرج في جيش كذا وكذا؛ قال: «**لا**»؛ قالت: يا رسول الله إني لست أريد أن أقاتل؛ إنما أريد أن أداوي الجرحى والمرضى؛ وأسقي الماء؛ فقال: «**لَوْلا أَنْ تَكُونَ سُنَّةً، وَأَنْ يُقَالَ: فُلانَةٌ خَرَجَتْ لأَذِنْتُ لَكِ، وَلَكِنِ اجْلِسِي**». وفي كتاب الجهاد والسير من البخاري؛ عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: استأذنا رسول الله ﷺ في الجهاد؛ فقال: «**جِهَادُكُنَّ الْحَجُّ الْمَبْرُورُ**».

قلنا: لا إشكال؛ لاحتمال أنه إنما كره خروج جرمة وصواحبها إن صحَّ؛ لأنه لم يكن بأمرِ من له الأمرُ عليهنَّ. وأما حديث كبشة؛ فإنما امتنع عن الإذن لها؛ لئلا يقال إنه يستعين بالنساء؛ لِوَهَنٍ في رجاله؛ كما في رواية عند ابن أبي شيبه: «**اجْلِسِي، لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّداً يَغْزُو بِامْرَأَةٍ**». وأما حديث عائشة؛ فليس فيه إلّا نفي العزيمة؛ ما لم يُحَطْ بالمسلمين؛ وإلّا توجَّه الخطاب على كل واحدٍ؛ كما نصُّوا عليه. فمشروعية الجهاد للنساء على حالها؛ قبل الحجاب وبعده؛ كما علمتَ من الأخبار الواردة بجهادهن؛ بعد فرض الحجاب في السنة الخامسة. ولقد كان ﷺ؛ لا يخرج إلى الحروب في الأكثر؛ إلّا ومعه بعض

(١) عن رافع بن سلمة الأشجعي، عن حشرج بن زياد الأشجعي، عن جدته أم أبيه، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة خيبر، وأنا سادسة ست نسوة، قالت: فبلغ رسول الله ﷺ أن معه نساء، قالت: فأرسل إلينا فدعانا، قالت: فرأينا في وجهه الغضب، فقال: «**ما أخرجكن، وبأمر من خرجتن؟**» قلنا: خرجنا معك نناول السهام ونسقي السويق، ومعنا دواء للجرحى، ونغزل الشعر، فنعين به في سبيل الله. قال: «**قمن فانصرفن**». قالت: فلما فتح الله عليه خيبر، أخرج لنا سهاماً كسهام الرجل، فقلت لها: يا جدة، وما الذي أخرج لكن؟ قالت: التمر. أخرجها أبو موسى.

أزواجه. وما كانت النساء لتلقي بأيديها إلى الموت؛ إلّا طمعاً في الأجر؛ فكيف يعقل أنها في ذلك متمرِّدَة على السنَّة؛ وقد أُثِرَ عنهنَّ من ذلك الشيء الكثير؛ حتى لقد روى غير واحد؛ أنه خرج من نساء النخع[1] في واقعة القادسية؛ ما لا يحصى منهنَّ. سبعمائة أرملة تزوجنَّ في تلك الغزاة؛ فكان النخع يدعون أصهار المهاجرين لذلك.

على أننا لسنا في شيء من مشروعية الجهاد للنساء؛ لا سلباً ولا إيجاباً؛ ولكننا في شجاعتهن. ولا تنسى ما ذكروه في أقضية ابن الخطاب ﷺ؛ من حال البنت التي قتلت الرجل الذي احتال عليها بزيِّ المرأة؛ حتى أخذ عرضها وهي نائمة. وذكر أبو الفرج؛ أنَّ امرأة من الخوارج مع قطري بن الفجاءة؛ يقال لها أمُّ حكيم؛ كانت من أشجع الناس؛ وأجملهم وجهاً؛ وأشدهم بالدِّين تمسكاً؛ وخطبها جماعة من الخوارج فردَّتهم؛ وحدَّث من رآها؛ تحمل على الناس في الحروب؛ وهي ترتجز:

أَحْمِلُ رَأساً قَدْ سَئِمْتُ حَمْلَهْ
وَقَدْ مَلَلْتُ دهْنَهُ وَغَسلَهْ
ألا فَتَىً يَحْمِلُ عَنِّي ثِقْلَهْ

وكانت الخوارج يفدونها بالآباء والأمهات؛ يقولون: ما رأينا قبلها ولا بعدها مثلها؛ وإيَّاها عنى قطري بن الفجاءة؛ بقوله:

فَيا كِبَداً مِنْ غَيرِ جُوعٍ وَلا ظَمَاً ... وَيَا كِبَداً مِن وَجْدِ أمِّ حَكَيمِ
فَلَوْ شَهَدْتْنِي يَومَ دِرلابَ أبْصَرَتْ ... طِعَانَ فَتىً فِي الحَربِ غَيرَ لَئِيمِ
غَدَاةَ طَفَتْ عَلْمَاءَ بَكرَ بنِ وَائِلٍ ... وَعِجْنَا صُدُورَ الخَيلِ نَحوَ تَمِيمِ
وَكَانَ بِعَبدِ القَيسِ أوَّلَ حَدِّهَا ... وَآبَ عَمِيدُ الأزْدِ غَيرَ ذَمِيمِ

---

(١) النُّخَع هي قبيلة يمنية قديمة يتواجدون في وسط وجنوب اليمن؛ أسلموا في القرن السابع الميلادي على يد معاذ بن جبل وكانوا من أبرز القبائل في معركة القادسية.

وقوله عَلْمَاء؛ يعني: على الماء. قال المبرِّد[1]: إذا التقت لامان في مثل هذا؛ فإن العرب تستجيز حذف أحدهما تخفيفاً؛ وكذلك كل اسم من أسماء القبائل؛ تظهر فيه لام المعرفة؛ فإنهم يجيزون حذف النون منه؛ فيقولون: فلان من بلعنبر؛ من بلهجيم.

ولا يخفى حديث خولة بنت الأزور[2]؛ ونكايتها مع صواحبها في الروم بأجنادين ومرج دابق. وحدثوا عن زوج الوليد بن عبد الملك؛ وهي أمُّ البنين ابنة عبد العزيز بن مروان؛ أنها قالت للحجاج في آخر توبيخها المشهور له: قاتل الله القائل حين ينظر إليك؛ وسنان غزاله بين كتفيك:

أسدٌ عليَّ وَفِي الحُروبِ نَعَامَةٌ ... فَتْخَاءَ تَنفِرُ من صَفيرِ الصَّافِرِ

هَلَّا بَرَزتَ إلى غَزَالَةَ فِي الوَغَا ... بَلَ كانَ قَلبَكَ فِي جَنَاحَيْ طَائرِ

وكانت غزالة هذه زوج شبيب بن يزيد الشيباني؛ وقد نذرت أنْ تصلِّي ركعتين في مسجد الكوفة؛ بالبقرة وآل عمران؛ فما زال شبيب يواصل الزحوف وهي معه؛ حتى اقتحم الكوفة؛ فوفت بنذرها. وكانت نُعْم أمُّ ولد دحية بن مصعب بن الأصبع بن عبد العزيز بن مروان؛ تقود جيش زوجها في أيام خروجه على المهدي العباسي؛ ولها يقول شاعرهم:

فَلا تَرْجَعَي يَا نُعْمُ مِنْ جَيشٍ ظَالِمٍ ... يَقُودُ جُيوشَ الظَّالِمِينَ وَيَجْنُبُ

وَكِرِّي بِنَا طُرّاً عَلى كُلِّ سَابِحٍ ... إِلينَا مَنَايَا الكافِرِينَ تقَرَّبُ

وحضَّ منصور بن عمَّار مرَّةً على الجهاد في سبيل الله؛ فطرحت في المجلس صرّة فيها شيء؛ فلما فتحوها إذا ضفيرتا امرأة كتبت معهما: رأيتك

---

(١) أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المعروف بالمبرد (٢١٠ ـ ٢٨٦هـ) أحد العلماء الجهابذة في البلاغة والنحو والنقد عاش في العصر العباسي.

(٢) خولة بنت الأزور كانت مضرب المثل في الشجاعة وكانت شاعرة وشاركت في حروب المسلمين بالشام وماتت آخر عهد عثمان بن عفان ﷺ وبعضهم ينسبها إلى الخيال.

تحضُّ يا بن عمار على الجهاد؛ ولا والله؛ لا أملك سوى ضفيرتيَّ هاتين؛ وقد ألقيتهما؛ فبالله إلّا ما جعلتهما قيدَ فرسٍ غازٍ في سبيل الله؛ فلعلَّ الله أن يرحمني بذلك؛ فارتجَّ المجلس ضجيجاً وبكاء.

والأقاصيص في شجاعة النساء وجرأتهن إذ ذاك كثيرة؛ ومن ذا الذي يجهل ما وقع من عائشة في أيام الجمل؛ حتى لقد كان هودجها شبيهاً بالقنفذ؛ لِمَا عَلِقَ به من كثرة السهام؛ فأنَّى يقع من امرأة ذبحت شاة؛ قد أرادت أن تموت؛ ولكن الغالب على الظن؛ أنه سقط من الرواية لفظ الحجر؛ وأن السياق كان مكرراً؛ «فيعجبني أنها أمة؛ وأنها ذبحت بحجر». فالذبح بالحجر من المرأة؛ هو مظنَّة استخراج العجب؛ وإن كان معهوداً حينئذ[1].

فقد أخرج الحاكم وصححه؛ على شرط مسلم: أن محمد بن صفوان أصاب أرنبين؛ فلم يجد حديدة؛ فذبحهما بمَرْدَةٍ[2]؛ وجاء إلى النبيِّ ﷺ فأخبره؛ فقال له: «**كل**». وأخرج أيضاً وصححه على شرط مسلم؛ عن عدي بن حاتم؛ قال: «**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَصِيدُ فَلَا نَجِدُ سِكِّيناً إِلَّا الظِّرَارَ وَشِقَّةَ الْعَصَا، فَقَالَ: أَمِرَّ الدَّمَ بِمَا شِئْتَ وَاذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ**» والضرار جمع ضرر؛ كصرد؛ وهو حجر صلب محدَّد.

---

(١) ومن شجاعة المرأة الحضرمية ورجاحة عقلها ما ذكره الإمام ابن عبيد الله في مخطوطة بضائع التابوت: أنَّ حاكم تريم الظالم الجبار عبد الله عوض غرامة حمل السادة بتريم على الإفتاء بقول مرجوح يوافق غرضه؛ ثم أرسل عبيده إلى السيد عبد الله بن عمر بن يحيى (١٢٠٩ ـ ١٢٦٥هـ) يطلب مصادقته على هذه الفتوى؛ وقال لعبيدة: إن لم يكتب المصادقة عليها بخطه فاقتلوه؛ ولما وصلوا عند الحبيب عبد الله بن عمر وأخبروه؛ شاور أمَّه؛ وكانت على جانب من العلم والفضل عظيم؛ فقالت: واعجبي منك يا عبد الله؛ أَوَفِي هذا رأي! لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسافرون المسافات البعيدة في طلب الشهادة؛ وقد جاءتك الشهادة إلى بيتك؛ فكيف تتأخَّر عنها؛ فمزّق الكتاب في وجوههم؛ حتى أفتخر بك إن قتلوك؛ وأحتسبك عند الله؛ ففعل ما قالت له أمُّه؛ ومزَّق الكتاب في وجوههم؛ وألقى الله عليهم الهيبة وكفاه شرهم. (انتهى بتلخيص بسيط ـ المحقق).

(٢) المرد: الغض من شجر الأراك.

وقد اختلف العلماء في ذبح المرأة الأضحية؛ قال الحافظ: نقل محمد بن الحكم عن مالك؛ كراهته؛ وفي المدوَّنة[١] جوازه؛ وفي وجه للشافعية يكره؛ وعند سعيد بن منصور؛ بسند صحيح عن إبراهيم النخعي؛ أنه قال في ذبيحة المرأة والصبي: لا بأس إذا أطلق الذبيحة وحفظ التسمية؛ وهو قول الجمهور؛ ومنه يعرف ضعف القول بالكراهية فضلاً عن الحرمة. نعم؛ الأفضل للأنثى أن توكِّل وأن تشهد الذبح؛ قاله في التحفة[٢]؛ وأخرج الحاكم وصححه؛ عن سعيد بن جبير؛ عن عمران بن حصين؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يا فاطمة قومي إلى أضحيتك فاشهديها؛ فإنه يغفر لك عند أول قطرة تقطر من دمها كل ذنب عملتيه؛ وقولي**: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٣]، قال عمران: قلت يا رسول الله؛ هذا لك ولأهل بيتك خاصة؛ أم للمسلمين عامة؟ قال: «**لا؛ بل للمسلمين عامة**».

وقال البخاري: وأمر أبو موسى رضي الله عنه بناته أن يضحِين بأيديهن. وأخرج الحاكم أيضاً وصححه؛ على شرط مسلم؛ عن جابر: أن النبيَّ ﷺ؛ مرَّ هو وأصحابه بامرأة؛ فذبحت لهم شاةٌ؛ واتخذت لهم طعاماً؛ فلما رجع؛ قالت: يا رسول الله؛ إنَّا اتخذنا لكم طعاماً فادخلوا فكلوا؛ فدخل النبي ﷺ وأصحابه؛ وكانوا لا يبدؤون حتى يبدأ النبي ﷺ؛ فأخذ لقمة فلم يستطع أن يستسيغها؛ فقال: «**هذه شاة ذبحت بغير إذن أهلها**» فقالت المرأة: يا نبيَّ الله إنَّا لا نحتشم من آل معاذ؛ ولا يحتشمون منا، نأخذ منهم ويأخذون منا. والمرأة في هذا الحديث؛ محتملة لأن تكون باشرت ذبح الشاة؛ وأن تكون أمرت؛ فإنها مترددة بين الحقيقة والمجاز الراجح.

وقد يقال: إن ذبح المرأة الذي كان منه التعجُّب؛ واقع بالحجر؛ فهو داخل

---

(١) المدونة كتاب موسع في الفقه المالكي.

(٢) تحفة المحتاج في شرح المنهاج لابن حجر الهيتمي.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢ ـ ١٦٣.

في غمار المُتَعَجَّبْ منه؛ سواء أصرح بلفظه أم لا. **ونجيب**: بأنه لا يمكن ذلك إلّا باستقبال وتكلُّف؛ وإن كانت الأسباب مزدوجة؛ لأنَّ الأولى بالتعجب أن ينصب على أظهر الأسباب المناسبة له؛ ليتضح بها تعليله؛ والله أعلم.







الفائدة

الثلاثون

الفائدة الثلاثون

أخبرني الدَّرَسَة أن بعضهم ألحد في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[1] قال: كيف يكون تعظيمه لشأن نبيِّه ﷺ بالنفوذ إلى هذا الحدّ؛ إزاء امرأتين ضعيفتين؛ مع أنه لو اجتمع على حربه كسرى وقيصر؛ لكان هذا التهديد العظيم؛ والتهويل المهيب؛ كافياً في خلع قلوبهم؛ وكسر نفوسهم؛ وجلب الرعب من كل ناحية إليهم؛ فما بالك بهاتين المرأتين؛ والإطناب في غير مكانه؛ مُخِلٌّ بالبلاغة.

والجواب: إنه إشكال متين ببادئ النظر؛ ولكن من فضله تعالى؛ أنْ منَّ على عبده العاجز؛ بِحَلٍّ له مرضي؛ أرجو أن يكون فيه فتح كنزه؛ وإيضاح رمزه؛ وقد راجعت روح المعاني[2] مع تأخُّرِهِ؛ وتصيُّدِهِ للشوارد؛ وتلقُّفِهِ للفوائد؛ فلم أره أتى بما يسمن أو يغني من جوع؛ سوى معنىً واحدٍ عليه مسحة من القبول؛ ولكنه لم يوضحه؛ بل مجمج الكلام فيه؛ **وحاصله بعد ترميمه**: أنه جعل اتجاه الخطاب للمرأتين من جنس قوله تعالى: ﴿. . .فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ. . .﴾[3] ومن نحو قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة؛ وهو دون ما أقول؛ وإن لم يدفع عن القبول. والذي سنح بالبال؛ أنَّ الأمر جارٍ على حكم الفطرة؛ وسَوْقِ الطبيعة؛

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي. ويعدّ كتاب الألوسي من كتب التفسير الهامة.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٧.

وسنة العرب المألوفة؛ وعاداتهم المُطَّرِدَة؛ وهم الذين بلسانهم نزل القرآن، وكانت الطريقة المسلوكة بينهم؛ والقاعدة المتَّبَعة في أجيالهم؛ أنهم لا يفتخرون بالأغلب إلّا إلى نسائهم؛ ولا يطلبون حُسْنَ الأحدوثة؛ متى ذلّلوا الصعاب؛ واقتحموا العقاب؛ إلّا عندهن؛ كما أنهم لا يتقدمون للكفاح؛ ويجعلون صدورهم دريّة للرماح؛ إلّا طمعاً في الشهرة بينهن؛ ولا يصبرون للأبطال؛ ويثبتون في مآزق القتال؛ إلّا خشية المعرَّة منهن؛ والسقوط من أعينهن؛ ولما كان ﷺ؛ سيِّد المتواضعين؛ لم ينطلق لسانه بالفخر؛ بعد أن عزم الله عليه بالتحدُّث بالنعمة؛ إلّا قدر ما يخرج به عن تلك العهدة؛ كقوله: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ**» وقوله: «**أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ. . .**» فشاء الله أن ينوِّه بفخره؛ ويبيِّن من عظيم قدره؛ وينطق بما سكت عنه من ذلك في الموضع؛ الذي تملأ العرب مواضيعها بالتبجُّح فيه؛ وتبسط ألسنتها بالتشادق لديه؛ ففي دواوينهم ما لامطمع في استقصائه منه.

قال بشر بن عوانة العبدي[1] في قصته التي بسطها البديع في مقاماته؛ يخاطب ابنة عمه فاطمة؛ ويصف لها قتله الأسد؛ في طريقه لتحصيل مهرها:

أَفَاطِمُ لَوْ شَهِدْتِ بِبَطْنِ خَبْتٍ ... وَقَدْ لاقَى الهِزَبْرُ أخَاكِ بَشْرَا

إذاً لَرَأيتِ لَيْثاً أمَّ لَيْثاً ... هِزَبْراً بَاسِلاً لاقَى هِزِبَرَا

وقال ربيعة بن مكدم:

إنْ كَانَ يَنفعَكِ اليقينَ فَسَائِلِي ... عَنِّي الظَّعينَةَ يومَ وادي الأخْرَمِ

وقال زيد الفوارس:

وَلِهتِ إنْ لَمْ تَسألِي أيَّ امْرِئٍ ... بَلوَى النَّقيعَةِ إذْ رجَالُكِ غُيَّبُ

وقال بشامة بن حزن:

---

(١) من شعراء الجاهلية الصعاليك خطب ابنة عمه فاطمة فطلب عمه منه ألف ناقة مهراً لتعجيزه فذهب يجمعها فلاقى أسداً بمفازة فقتله.

وإنْ دَعَوتَ إلى جُلَّى وَمَكْرُمَةً يَوماً سُراةَ كِرامِ النَّاسِ فَادْعِينَا

وقال عنترة:

هلا سَألتِ الحيَّ يا ابنةَ مالكٍ إنْ كُنتِ جَاهلةً بِمَا لم تَعلَمِي

وقال:

يا عَبْلُ لولا أنْ أرَاكِ بِنَاظِرِي ما كنتُ أرْكَبُ كُلَّ صَعبٍ مُنْكَرِ

وقال:

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوقِيعةَ أنَّنِي أغْشَى الوَغَى وَأعِفُّ عَنْدَ المَغْنَمِ

وقال:

قِفِي وانظُرِي يا عبلُ فِعلِي وَعَايِنِي طِعَانِي إذا ثَارَ العُجَاجُ المُكَرَّرِ

وقال:

دَعْنِي أجِدُّ إلى العلياءِ في الطَّلبِ وَأبلغُ الغَايَةَ القُصْوَى مِنَ الطَّلَبِ

لَعَلَّ عبلةَ تَضْحَى وهيَ راضيةٌ على سَوادِي وَتمحقْ صورَةَ الغَضَبِ

وكل ديوانه من فاتحته؛ يدور على هذا المحور؛ ويدندن حول هذه النقطة.

وقال السمؤال:

سَلِي إنْ جَهِلتِ النَّاس عَنَّا وَعَنْهُمْ فَلَيسَ سَوَاءً عَالِمٌ وَجَهُولُ

وقال زيد الخيل:

هَلَّا سَألتِ بَنِي نَبْهَان مَا حَسَبِي عِنْدَ الطِّعَانِ إذا مَا احْمَّرتِ الحُدُقُ

وقال حاتم:

رَأَتْنِي كَأشْلاء اللجَامِ وَلَنْ تَرَى أَخَا الحَرْبِ إلّا سَاهِمَ الوَجْهِ أغبرَا

أخُو الحَربِ إنْ عَضَّت بِهِ الحربُ عَضَّهَا وَإنْ شَمَّرَتْ عن سَاقِهَا الحربُ شَمَّرَا

وقال:

أَمَاوِيَ! إنَّ المَالَ غَادٍ وَرَائِحُ ... وَيَبقَى مِنَ المَالِ الأحاديثُ والذِّكرُ

وَقَدْ علمَ الأقوامُ لوْ أنَّ حَاتِماً ... أَرَادَ ثَرَاءَ المالَ كَانَ لهُ وَفْرُ

أمَاوِيَ! مَا يُغنِي الثراءُ عَنِ الفَتَى ... إذا حَشْرجَتْ نَفسٌ وَضَاقَ بِها الصَّدْرُ

وقال العباس بن عبد المطلب:

أَلَا هل أَتَى عِرْسِي مَكَرِّي ومُقْدَمِي ... بوادِي حُنَيْنٍ والأَسِنَّةُ شُرَّعُ

نَصرنَا رَسُولَ الله فِي الحربِ سَبعةٌ ... وَقَدْ فَرَّ منْ قَدْ فَرَّ مِنهُمْ وَأَقْشَعُوا

وقال أبو محجن:

لا تَسْأَلِي القَومَ عَنْ مَالِي وَكَثرتِهِ ... وَسَائِلي القومَ مَا فِعْلِي وَمَا خُلُقِي

وقال عمرو بن العاص؛ من كلمة له شاعرة؛ ولعله قالها قبل أن يتَّقِي القِرْمُ سُبَّته[١]:

فَلَوْ شَهِدَتْ جَمَلٌ مَقَامِي وَمَوقِفِي ... بِصَفينَ يوماً شِبْنَ مِنهَا الذَّوائبُ

غَداةَ أتَى أهلُ العراقِ كَأنَّهُم ... مِنَ البَحرِ لُجٌّ مَوجُهُ مُتَراكِبُ

وَجِئنَا إليهِمْ في الحديدِ كأنَّنَا ... سَحَابُ خريفٍ زعزعته السَّحَائبُ

فَقَالُوا لنا مِنْ رَأْيِنَا أَنْ تُبَايِعُوا ... عَلِيّاً فَقُلنَا بَلْ نَرَى أنْ تَضَارَبُوا

فَطَارَتْ إلينَا بالرماحِ كُمَاتُهُمْ ... وَطِرْنَا إليهِمْ وَالسُّيُوفُ قَوَاضِبُ

وَلَمَّا أرادُوا أنْ يقومُوا مَقَامَنَا ... أَبَيْنَا عليهِمْ أنْ تَزُولَ المَنَاكِبُ

وإنْ قُلتُ فِي نَفْسِي رَنُوا بَرَزَتْ لنَا ... كَتائبُ منهم وَارْجَحَنَّتْ كَتائبُ

---

(١) جاء في وصف الإمام علي لابن العاص: فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَآمِرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقِرْمَ سُبَّتَهُ (ولعل في ذلك إشارة لكشفه سوءته لما تقابل مع الإمام علي في صفين).

وقال بعض أصحاب المهلَّب:

لَيتَ الحَرَائرَ في العراقِ شَهِدْنَنَا وَرَأيْنَنَا بِالسَّفحِ ذِي الأجْبَالِ
فَنَكَحْنَ أهلَ الجدِّ مِنْ فُرْسَانِنا وَالضَّارِبينَ جَمَاجِمَ الأبطالِ

إلى ما لا حاجة للإطالة به من الشواهد في هذا الباب الواسع؛ لأن الأمر فيه كما قال المتنبي:

وَليسَ يَصَحُّ فِي الأفْهَامِ شَيءٌ إذا احْتَاجَ النهارُ إلى دَليلِ

لا جرم؛ لمَّا كان الافتخار إلى النساء سنَّةً ماضية؛ وعادة قاضية؛ بين العرب؛ جاء أبلغ الكلام على طِبْقِ ما عهدوه؛ وحَذْوَ ما ألفوه؛ فنطق من محامده ﷺ؛ وعبَّر عن مفاخره؛ وتحدَّث إلى نسائه بمناقبه؛ ونفوذ دولته؛ وعظيم جاهه؛ في أنسب موضع؛ وأليَقْ مكان من المعتبة؛ فهو كما ترى إعلانٌ للخلق كافة؛ بعليِّ شأنه؛ وعظيم سلطانه؛ في خطابٍ موجَّهٍ إلى حبيبات قلبه؛ ونجيَّات أنسه؛ في معرض المراجعة والعتاب؛ وذلك مما تكمل به المحبَّة؛ وتتوثق به الألفة؛ ويحلو به الوصل.

قال العربي:

إذا ذَهَبَ العِتَابُ فَليسَ وِدٌّ وَيبقَى الودُّ مَا بَقِيَ العِتَابُ

وقال المتنبي:

صارَ ما أَوْضَعَ المُخِبُّونَ فِيهِ مِنْ عِتَابٍ زَيَادَةً فِي الوِدَادِ

وقال:

وأحْلَى الهَوَى ما شَكَّ في الوَصْلِ رَبُّهُ وَفِي الهَجْرِ فَهْوَ الدَّهْرُ يُخْشَى وَيُتَّقَى

وقالت علية بنت المهدي:

إذا لم يكن في الحُبِّ سُخْطٍ وَلا رِضَىً فَأينَ حَلاوَاتِ الرَّسَائِلَ وَالكُتُبْ

وقال الخثعمي:

وَلَـمْ أرَ مِـثْـلَ الـصَّـدِّ أحـسـنَ مَـوقِـعـاً   إذَا كـان مِـمَّـن لا يـخـافُ عـلـى الـوَصْـلِ

وقال ابن المعتز:

وَعَـاتَـبـتُـكُـمْ يَـا أمَّ عـمـرو لِـحِـبِّـكُـمْ   ألا إنَّـمـا الـمـقـلـيُّ مَـنْ لا يَـعَـاتِـبُ

وقال آخر:

عَـلامَـةُ كُـلِّ اثـنـيـن بـيـنـهـمـا هَـوَىً   عِـتَـابُـهُـمَـا فِـي كُـلِّ حَـقٍّ وَبَـاطِـلِ

فما جاء الذكر الحكيم إلّا بالعادة المُطَّرِدَة؛ والسنَّة المتَّبعة؛ والأمر المُتَلقَى بالقبول؛ فلا يقال لماذا، وبه يعرف اندفاع الإشكال من أصله؛ وسقوط الإيراد من أساسه.

ثم في الكلام شاهد عظيم لشريف قدر المرأة في الجاهلية والإسلام؛ يؤكد ما سبق في الفوائد؛ السابعة والثامنة والتاسعة والعشرين. وفيه دليل على استعداد الأمة العربيّة للشرف؛ إذا كانت نساؤه لا تبلغ مرضاتهن إلّا بمحاسن الفعال وكريم الخلال. والمرأة أول المدارس وأفيدها؛ ومتى وجدت في نساء أمّة العرب؛ من تستطيع التمييز بين النافع والضار؛ والممدوح والمقبوح؛ فحدِّث ولا حرج؛ عن مبلغ شوطها في الجد؛ وبُعد مرامها في العز؛ ومطمح نظرها في الشرف. وأفهم سر قوله ﷺ: «**نعم المرأة الصالحة للرجل الصالح**»[1] وانظر لحاله ﷺ مع خديجة؛ فقد كانت تناصره وتسليه وتؤازره؛ وتزيل همه؛ وتكشف غَمَّه؛ وتشدُّ ساعده؛ وتصل جناحه؛ وهكذا كانت فضليات نساء العرب؛ لا يرضيهن من الرجال سوى خصال الشرف؛ من بُعْد الهمم؛ وإعلاء الكلم؛ وكشف الغُمَمْ. وقد ذُكر في الفائدة التي قبل هذه؛ مما تمثلت به هند بنت عتبة في يوم أحد؛ من قول الزرقاء الإيادية: نحن بنات طارق إلخ. وقول عمرو بن كلثوم:

يَـقُـتْـنَ خُـيـولَـنَـا وَيَـقُـلـنَ لَـسْـتُـمْ   بُـعُـولَـتُـنـا إذا لـمْ تَـلْـحَـقُـونَـا

(١) في الحديث: نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ.

وقالت إحدى بنات ذي الإصبع العدواني:

ألا ليتَ زَوجِي مِنْ أُناسٍ ذَوِي غِنىً ... حَديثُ شَبابٍ طَيِّبَ النَّشْرِ والذِّكرِ

لَصُوقٍ بِأَكبَادِ النِّسَاءِ كأنَّهُ ... خَلِيفَةَ جَانٍ لا يَنَامُ على وِتْرِ

وقال أبو عبادة:

تَذَمُّ الفتَاةَ الرَّودُ شِيمَةَ بَعْلِهَا ... إذا بَاتَ دُونَ الثأرِ وهوَ ضَجِيعُهَا

وبلغنا أن بعض الملوك أرسل هَدْياً للكعبة؛ على أن لا ينحره إلّا أعزَّ شاب بمكة؛ وصادف بناء أبي سفيان بهند؛ فلما دنى منها قالت له: لا يشغلك النساء عن الشرف يا أبا سفيان؛ اخرج للقلائص فانحرها؛ ثم إنِّي لن أفوتك؛ قال: لا أنحرها إلّا بعد سبع؛ ولئن نحرها غيري قبل ذلك نحرته؛ فقالت: الآن طاب المبيت؛ أو ما يقرب منه. وكانت المرأة من العرب؛ إذا فرَّ بعلها من قَرَنِه؛ حولت باب خبائها؛ وتلك علامة طلاقها إياه.

وهل أثار حفيظة جديس[(١)]؛ بعد أن لبثت دهراً في العذاب البئيس؛ إلّا قول امرأة من نسائهم:

فَلَوْ أنَّنَا كُنَّا رِجَالاً وَكُنْتُمُوا ... نِسَاءً لَكُنَّا لا نُقِرُّ لِذَا الذُّلِّ

فهل أصلح بين عبس وذبيان[(٢)]؛ بعد ما تفانوا وأشبعوا وحش الدر؛ وأسنقوا عقبان الجو؛ ودقوا بينهم عطر منشم[(٣)]؛ إلّا كلمة امرأة؛ ملأت أنف

---

(١) جديس هم قوم من العرب البائدة، الذين انقرضوا ولا يكادون يذكرون إلّا مع ذكر طسم. وهم أقوام عاد وثمود العماليق الذين كانت لهم حضارات عظيمة في وسط شبة الجزيرة العربية ثم بادوا.

(٢) كانت بينهما في الجاهلية حرب داحس والغبراء التي استمرت أربعين سنة وأفنت أقواماً منهم وسببها ما حصل من الغش في سباق الخيل؛ وداحس والغبراء أسماء خيل السباق.

(٣) أي اشتد الشر بينهم ومنشم اسم امرأة كانت تبيع العطور فيشترون منها عند بداية الشر والاستعداد للحرب.

زوجها حميَّة؛ وهزت عوده أريحية؛ فاطَّرَحَ العلالات؛ واحتمل الحمالات؛ وكانت الرجال لا تحرص إذْ ذاك على شيء؛ حرصها على المحمدة لدى عقائلها؛ بكل ما يصله الاجتهاد؛ وتلك آية السؤدد؛ وعلامة الكرم؛ وطالما مرَّ بك في دواوين السِّيَرْ؛ قولهم: خشية أن تعيِّرهم نساء قريش؛ وقال الأحوص:

وَيرتَاحُ للمَعْروفِ في طَلبِ العُلَى لِتُحْمَدَ يَوماً عِندَ لَيلَى شَمَائِلُه

وقال أبو الطيب:

وَمَا كُلُّ مَن يهوَى يَعِفُّ إذا خَلا عَفَافِي وَيُرْضِي الحِبَّ وَالخَيلُ تَلْتَقِي

وقال:

جَفَتنِي كَأنِّي لستُ أنْطَقَ قَومَهَا وَأطْعَنَهُم وَالشُّهبُ فِي صُورة الدُّهْمِ

فلن يستطيع الرجل تسنُّم ذرى المجد؛ إلّا بزوج؛ تنفخ فيه روح الشجاعة والهمة؛ وتهوِّن له المغامرة بالحياة في طلب العزِّ والرفعة؛ ومن ذلك تتوجه نظرتي وتتأكد صحتها؛ وهي أنه لما كاد اليأس يتغلب؛ من جهة إصلاح الرجال؛ لزمانة أمراضهم؛ وشدة إعراضهم؛ ومهانة نفوسهم؛ وانتكاس رؤوسهم؛ واندماجهم على اللوم والحسد؛ وانطباعهم على الذُّلِّ والملق؛ رأيت أنه لا يمكن إصلاح الأمة الحضرمية؛ إن بقي في القوس منزع؛ إلّا بالالتفات إلى النساء؛ وتعليمهنَّ المبادئ والأولويات؛ وتعريفهنَّ بمكارم الأخلاق؛ وحثِّهنَّ على تأدية الواجب؛ من نصيحة الرجال؛ وأجدر بها حينئذٍ؛ أن تهتز العواطف؛ وتحيى النفوس؛ وتتحرك القلوب؛ وتتوفر الدواعي؛ فالتأثير من محدِّثات الليل أكبر من كل تأثير.

وأذكر خبر الفرزدق وزوجته النوَّار؛ مع ابن الزبير وزوجه ابنة منظور بن زيان؛ الذي يقول فيه أبو فراس:

أمَّا البَنون فَلَم تُقْبَلْ شَفاعَتُهُمْ وَشَفَّعَتْ بنتُ مَنظُورَ بنُ زَيَّانَا

لَيْسَ الشَّفيعَ الذِي يَأتِيكَ مؤتزراً مِثْلَ الشفيعِ الذِي يَأتِيكَ عِريَانَا

وقد اتفق لابن الزبير نظيره؛ إذا التوت عليه حاجة كانت له إلى معاوية؛ فاستعان ببعض نسائه؛ فقضاها له، ولما عُيِّر ابن الزبير بذلك؛ قال: إذا تعذرت الأمور من أعاليها؛ طلبناها من أسافلها؛ فأخذه البحتري في قوله:

إِذَا مَا عَالِيَ الأَمْرِ لَمْ يُعْطِكَ المُنَى فَلا بَأْسَ فِي اسْتِنجَاحِهَا بِالأَسَافِلِ

فمن كان له واعظ من وسادته؛ وسائق ممن يعجبه كلامه؛ ورقيب ممن لا يفارقه في يقظته ومنامه؛ جديرٌ بأن يتحرك في مسيره؛ وينبعث من عمق ضميره.

وأذكر في الجواب ما روي عن ذي الرئاستين؛ الحسن بن سهل[1]؛ فقد كان يبعث بأحداث من أهل بيته؛ إلى شيخٍ يؤدِّبهم ويعلمهم الحكمة؛ فكانوا يستفيدون منه حتى قال لهم: أنتم أدباء؛ وقد تعلمتم الحكمة؛ ولكم نعمة؛ فهل فيكم عاشق؟ قال: فاستحيينا من قوله؛ وسكتنا؛ فقال: اعشقوا؛ فإن العشق يطلق لسان البليد؛ ويبسط بنان البخيل؛ ويشجع قلب الذليل. وليكن عشقكم لأهل الشرف والبيوتات؛ قالوا: فخرجنا من عنده وصرنا إلى ذي الرئاستين؛ فسألنا عما استفدناه؟ فهِبْنَا أن نخبره؛ فما زال بنا حتى بقرنا له الحديث؛ فقال: صدق وبرَّ؛ أتدرون من أين قال لكم هذا؟ قلنا: لا؛ قال: كان لبرهام جور ابن يرشِّحه للملك بعده؛ والاعتماد عليه في حياته؛ وجمع له المعلمين؛ فلم يزدد إلّا خولاً وسقوط نفس ودناءة همة؛ وكانوا يطالعونه بأحواله؛ وهو من ذلك على غيظٍ وقلق؛ حتى جاءه أحدهم فأخبره؛ بأنه رأى بنت الوزير فأعجبته وهَوِيَهَا؛ وصار يهذي بها ليله ونهاره؛ فقال: الآن رجوت فلاحه؛ اذهب فشجِّعه بمراسلة المرأة؛ وأوحى إليها أن تطمعه في نفسها؛ فإذا استحكم طمعه تجنّت عليه؛

---

(١) الحسن بن سهل (١٦٦ ـ ٢٣٦هـ) والفضل بن سهل كانا من أهل الرياسة في المجوس وأسلما مع أبيهما في عهد هارون الرشيد ثم سلم المأمون الفضل رئاسة الحرب والقلم ولقبه بذي الرياستين؛ وسلم أخاه الحسن ديوان الخراج؛ وكان الحسن من البلغاء المعدودين واشتهر بتوقيعاته وكان شديد الكرم واحتفل بزواج بنته من المأمون احتفالاً مشهوداً؛ ثم قتل المأمون الفضل وولى الحسن مكانه؛ ولكنه أصيب بالاكتئاب في آخر حياته واعتكف في بيته حتى وفاته.

وقالت: إنِّي لا أصلح إلّا لملك عظيم الهمَّة؛ بعيد القدر؛ أديب النفس؛ شجاع القلب. ففعلت؛ فأقبل الولد بجدّ على تعلم العلم والفروسيَّة؛ حتى عاد رأساً في ذلك؛ فلما انتهى إلى الغاية؛ التي لا مطمع وراءها نحو الشرف والنبل؛ شكا إلى أبيه الحال؛ فأنعم عليه؛ وزوجَّه بالمرأة؛ وأخبره بسرِّ القضيّة؛ وعرّفه بمنَّة المرأة عليه؛ وأنه كان عن تدبيره وإشارته. ثم قال ذو الرئاستين لأحداثه: سلوا الشيخ عن الذي حمله على ما أمركم به من عشق أهل البيوتات؛ قالوا: فسألناه فاقتص الحديث برمَّتِه. وقال العرجي:

أقبلتُ أمشِي على هولٍ أجشمُهُ تَجَشُّمُ المرءِ هولاً في الهَوى كَرَمُ

وقال آخر:

الحُبُّ شَجَّعَ قلبَ كُلِّ فَرَوقَةٍ وَالحُبُّ حَمَّلَ عَاجزاً فَأطَاقَا

ولا نذهب في شيء من كلامنا إلى تفضيل النساء على الرجال جملةً واحدة؛ ولكن من نوع ما سبق في الفائدة السابعة؛ من أنَّ قابليتهنّ محدودة؛ لم تنته بهنّ إلى ما وصل إليه الرجال من الخبث والدناءة والخسَّة والفساد والانحطاط؛ اليوم؛ بنفس الاستعداد الواسع عندهم في القابلية؛ كما قررناه هناك. ومن المعلوم أن الهبوط يكون بمقدار الصعود؛ فالرجل بما عنده من كبر الاستعداد؛ وقوّة الآلات؛ يبزُّ المرأة ويبرعها بروعاً يصعد به إلى عِلِّيين؛ إنْ اتَّجَه إلى الخير؛ وينحط به إلى أسفل السافلين؛ إن اتجه للشر. ولكن المرأة في كلا الأمرين؛ تبقى في حدّ الوسط؛ ومن لم يبلغ القرار؛ فاستنقاذه أيسر ممن غرقت أقدامه في تخوم الدرك الأسفل.

ثم لنرجع إلى الحكمة والتصوُّف؛ فالمحبة هي أشرف المراتب في الطريق؛ وما يلذ المحب شيئاً مثل التحدث إلى محبوبه؛ والحياة الزوجية هي أكبر مظاهر الحب في عالم الكون. ولئن كان الإنسان اللطيف من أضعف المخلوقات؛ باعتبار الظاهر؛ فهو أقواها باعتبار أنه للسر الأعلى؛ وفي هذا العالم أبدع المظاهر؛ إذ لا يتسق للكون نظامه؛ ولا ينحفظ للفلك قوامه؛ إلّا بناموس

الجاذبية؛ وليست غير المحبَّة؛ وهي في النساء مع ضعفهن؛ أجلى منها فيه مع عظمته؛ ومن ثمَّ جاء: «**لا يغلبهن إلّا لئيم**»، أي لم يشتم شيئاً من هذه الخاصة الشريفة؛ الدالة على كرم الطبيعة؛ وصفاء النميرة.

إذَا أنتَ لمْ تَعشَقْ ولمْ تعرِفَ الهَوَى ... فَكُن حَجَراً مِنْ يَابِسِ الصَّخرِ جَلمَدَا

ولله قول كثير:

ضَعَائِفُ يَقْتُلنَ الرجالَ بلا دَمٍ ... فيا عجباً لِلقاتِلاتِ الضَّعَائفُ

وقال عروة:

وَكَم مِن كريمٍ قد أضَرَّ بهِ الهَوَى ... فعَوَّده ما لم يُكنْ يَتعودُ

وقال المهدي للخيزران:

أمَا يَكفيكِ أنَّكِ تَملكِينِي ... وَأنَّ النَاسَ كُلُهُمُ عَبيدِي

وأنَّك لو قَطَعتِ يَدِي ورِجْلِي ... لَقلتُ مِنَ الرِّضَا: أحسنتِ؛ زِيدِي

وكان الرشيد يقول:

مَلكَ الثَّلاثُ الآنِساتُ عَنَانِي ... وَحَلَلْنَ مِن قَلبِي بَكلِّ مَكانِ

مَا لي تُطَاوِعُنِي البَرِيَّةُ كلُّهَا ... وَأطِيعُهُنَّ وَهُنَّ فِي عِصيَانِي

مَا ذَاكَ إلّا أنَّ سُلطَانَ الهَوَى ... وَبِهِ عَزَزْنَ أعَزَّ مِن سُلطَانِي

وكان يقول: إني لأهوى ابنة عمّي؛ يعني زبيدة؛ وأحب الدنوَّ منها؛ ولكني أهابها؛ وهو عين ما ذكره ابن أبي ربيعة؛ في قوله:

أَهابَكِ إجلالاً وَمَا بِكِ قُدْرَةٌ ... عليَّ ولكن مِلءُ عينٍ حَبيبُهَا

وقد أحب بعض ملوك بني مروان بالمغرب؛ أن يكون له مثل الرشيد؛ فقال:

وَتمَلَّكَتْ نَفسِي ثَلاث كَالدُّمَى ... زُهْرَ الوُجوهِ نَواعِمَ الأبْدَانِ

مَـا ضَـرَّ أنِّـي عَـبـدُهُـنَّ صَـبَـابَـةً ... وَبـنـو الـزَّمَـانِ وهُـنَّ مِـنْ عُـبْـدَانِـي
إنْ لَـمْ أُطِـعْ فِـيـهـنَّ سُـلطـانُ الـهَـوَى ... كَـلَـفـاً بِـهـنَّ فـلـسـتُ مِـن مَـروَانِ

وقال يزيد بن الطرثية:

بِـنَـفْـسِـيَ مَـنْ لَـوْ مَـرَّ بُـردُ بَـنـانِـهِ ... عَـلـى كَـبـدِي كـانـتْ شِـفَـاءً أنَـامِـلُـه
وَمَـنْ هَـابـنِـي فِـي كُـلِّ شَـيءٍ وهِـبـتُـهُ ... فـلا هُـوَ مُـعـطِـيـنِـي وَلا أنَـا سَـائِـلُـه

وقال أبو نواس:

أُضْـمِـرُ فِـي الـقـلـبِ عِـتـابـاً لَـهُ ... فَـإنْ بَـدا أُنْـسِـيـتُ مِـنْ هَـيـبـتِـه

ومما يروى للمأمون:

أيَا رَبَّةَ الحُسنِ التِي هَتكَتْ نُسْكِي ... عَلَى كُلِّ حَالٍ أنتِ لا بُدَّ لِي مِنْـكِ
فـإمَّـا بِـبَـذلٍ وَهْـوَ ألـيَـقُ بِـالـهَـوَى ... وَإمَّـا بِـعِـزٍّ وهـو ألـيـقُ بِـالـمُـلـكِ

وقال زفر بن الحارث:

تَـرَدَّيـتُ ثَـوبَ الـذُّلِّ يَـومَ لـقـيـتَـهَـا ... وَكَـانَ رِدَائِـي نَـخْـوَةٌ وَتَـجَـبُّـرَا

وقال عنترة:

إذَا جَـارُوا عَـدَلْـنَـا فِـي هَـوَاهُـمْ ... وَإنْ عَـزُّوا لِـعِـزَّتِـهِـمْ نُـذَلُّ
وَأرْضَـى بَـالإهَـانَـةِ مِـنْ أُنَـاسٍ ... أُرَاعِـيـهِـمْ وَلَـوْ قَـتْـلِـي أحَـلُّـوا

وقال العلوي:

نُـجَـاهِـدُ أبْـطَـالَ الـوَغَـى فَـنَـبِـيـدُهَـا ... وَيَقْتلُنَا فِي السِّلمِ لَحْظُ الكَوَاعِبِ

ومما أجمع أهل العلم على تفضيله في الموضوع؛ قول أبي الشيص الخزاعي:

وَقَـفَ الـهَـوَى بِـي حَـيـثُ أَنْـتِ ... فَـلَـيْـسَ لِـي مُـتَـأخِـرٌ عـنـهُ وَلا مُـتَـقـدِّمُ
أَجِـدُ الـمَـلامَـةَ فِـي هَـواكَ لَـذِيـذَة ... مِـنْ أجْـلِ ذِكـرِكِ فَـلْـيَـلُـمـنِـي الـلُّـوَّمُ

وأَهَنْتِنِي وَأَهَنتُ نَفسِي صَاغِراً ... مَا مَنْ يَهونُ عليكِ ممَّن يُكرَمُ

وذكروا أن ابن أبي عتيق؛ عاتب ابن ربيعة في قوله:

بَينَمَا يَنْعَتُنني أبْصَرْنَنِي ... مِثلَ قَيدِ المِيلِ يَعدُو بِي الأغَرْ

قَالتْ الكُبرَى أتَعرِفْنَ الفَتَى ... قَالتْ الوُسْطَى نَعَمْ هَذَا عُمَرْ

قَالَت الصُّغْرَى وَقَدْ تَيَّمتَهَا ... قَدْ عَرَفْنَاهُ وَهَلْ يَخْفَى القَمَرْ

وقال: لقد نسبت بنفسك؛ وإنما سبيلك لو صدقت أن تقول: لقيتهن فأمونني؛ ففرشت خدي بالأرض ووطئنه. فأخذه ابن المعتز وقال:

وَجَاءَنِي فَي قَمِيصَ الليلِ مُسْتَتِراً ... يَستَعجِلُ الخَطْوَ مِنْ خَوفٍ ومِنْ حَذَرِ

فَقُمتُ أفْرِشُ خَدِّي فِي الطَّرِيقَ لهُ ... ذُلاً وَأسْحَبُ أذْيَالِي عَلَى الأثَرِ

ثم تناوله ابن الفارض فغبر في وجوه العاشقين؛ فبحق يُدْعَى سلطانهم؛ وذلك حيث يقول:

وَلمَّا تَوَافَيْنَا عِشَاءً وَضَمَّنَا ... سَوَاءَ سَبِيلِي دَارَهَا وَخِيَامِي

وَمِلْنَا كَذا عَنْ سَاحَةِ الحَيِّ حيثُ لا ... رَقِيبٌ وَلا وَاشٍ بِزَوْرِ كَلامِي

فَرشتُ لهَا خَدِّي وِطَاءً عَلَى الثَّرَى ... فَقالَتْ لَكَ البُشْرَى بِلَثْمِ لِثَامِي

وما أحسن قول سبطة:

تَوَاضَعتُ ذُلاً وَانْخِفاضاً لِعِزِّهَا ... فَشَرَّفَ قَدْرِي فِي هَوَاهَا التَّوَاضُعُ

فَإنْ صِرتُ مَحفُوظَ الجَنَابِ فَحُبُّها ... لِقَدْرِ مَقَامِي فِي المَحَبَّةِ رَافِعُ

والكلام في ذلك منتشر جداً؛ وكله نازل عن حديث: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**..»[1].

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**» أخرجه مسلم.

وذكرت ما أخبرني بعض الإخوان؛ عن عالم ورد سنغافورة من أهل المغرب؛ فكان لا يتنفل؛ فقيل له في ذلك؛ فقال: إنّ في الصلاة لذُلاً؛ وأنا أكره الذُّل؛ فاقتصر منه على الواجب. ولو عرف المسكين؛ بَلَّةً من أسرار الدين؛ لعلم أنه على ضِدِّ ما يرى؛ وما أخطأ فيما أظن؛ إلّا من حيث وَهَمَ أميّة بن خلف[1]؛ إذ أخذ كَفاً من حصى ووضعه على جبهته؛ وقال: هذا يكفيني؛ وهو من أفحش الغلط؛ إذ لا عزَّ إلّا في الذُّلِّ له؛ ولا غِنىً إلّا في الفقر إليه؛ ولا حريَّة إلّا في صدق العبودية له، ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين.

وَإِذَا الـرجَـالُ تَـذلَـلَّـتْ بِـرِقَـابِـهَـا طَـمَـعـاً إلـيـكَ فَـعِـزُّهَـا فِـي ذُلِّـهَـا

وما أحسن قول أبي عبادة؛ لو أراد الله؛ بقوله:

وَيُـعْـجِـبُـنِـي فَـقْـرِي إلـيـكَ ولـم يَـكُـنْ لِـيُـعْـجِـبُـنِـي لـولا مَـحَـبَّـتَـكَ الـفَـقْـرُ

وما زلنا نستعظم ما صنع كُثيِرْ؛ عندما طلعت عليه عزَّة وهو يَبْرِي نبله؛ إذ شدَّه عن حسِّه؛ حتى برى أصابعه؛ ونجد مثله ينصع؛ في أبلغ الكلام؛ حيث يقول جلَّ جلاله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[2] ومتى عرفت الحبَّ وشأنه؛ والعشق وسلطانه؛ والوِدَّ وحلاوته؛ والوجد وصولته؛ فلن تستعظم الفرس ولا الروم؛ بل ولا الأفلاك ولا النجوم. وما أخرجه غير واحد من المحدثين؛ أنَّ الزهرة كانت امرأة افتتن بحبها هاروت وماروت؛ فمسخها الله كوكباً؛ لا يخرج عن ما نريد بل ينظر إلى ما نقرر لا من بعيد.

وقد أشار الباري جلَّ ذكره إلى بعض نفوذ سلطان المحبة بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[3]؛ إذ قال بعض المفسرين: معناه الضعف

---

(١) أمية بن خلف أحد كبار قريش ورؤسائها قتل مشركاً في معركة بدر.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٨.

عن حمل المحبة؛ ويشهد له مجيئه بعقب إحلال الحرائر والإماء من النساء. وقد جَوَّدتُ القول في العود الهندي؛ إذ تكلمت على حكمة هذه الدولة القاهرة؛ وسرِّ هذا السلطان النافذ؛ بما لم أُسْبَقْ إليه. **وحاصله**: أن ذلك من صفة العدل الإلهي؛ إزاء ما يلحقهن من الذُّلِّ الفاحش في طريق الحاجة إلى استبقاء النسل؛ فَعَوَضَهُنَّ بهذا. وكم لله من حُجَّةٍ بالغة؛ وحكمةٍ عالية؛ في جعله؛ مناط القوة؛ الضعف؛ ومظهر الحكمة؛ الصِّغَرْ. أولا ترى أنَّ الإنسان سرُّ الكون المُتَخَيَّر؛ وهو من أضعف الموجودات. فالشوكة تدميه؛ والرمضاء تؤذيه؛ والشهوة تملكه؛ والبعوضة تهلكه. وقد ضرب على ناصية الزمان؛ وعرك أذن العالم؛ وقاد الوجود بحزامه؛ وسخَّر المخلوقات في أحكامه ﴿. . .مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[١] موصوف في الآية الأخرى بأنه: ﴿. . .مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[٢]؛ ولقد قام بعض الملحدين يشكك في قوة جبريل عليه السلام؛ وقال: أنَّى تكون؟ وهو جسم لطيف؛ أو جوهر مجرَّد! فقيل له: ولم تنكره؛ وفي نفسك مثاله. فما مادة القوة والأَيْد منك؛ إلّا أضعف الأشياء من جسمك؛ وهو المخ؛ فانقطع. وقد أشرت إلى هذه المعاني؛ في قصيدة نبوية؛ بقولي:

لَوْ كَانَ لِلْحُبِّ لونٌ لاعتمدتُ لهُ ... طِبّاً ولكنه أعْيَى بِتَلْوِينِ

طَوْراً يُحَلِّقُ بِي جَوّاً وَيَهبِطُ بِي ... طَوْراً وَآوِنَةً أُخْرَى يُمَنِّينِي

لَهُ غَرَائِبَ تَسْتَهْوِي العقولَ وَلا ... يَرْمِي إِلَى كُنْهِهَا فِكْرٌ بِتَخْمِينِ

يَجُورُ لِكِنَّهُ عَدْلٌ فِي سَيَاسَتِهِ ... تَجْرِي عَلَى كُلِّ جَبَّارٍ وَمَسكِينِ

شَرِيعةٌ لِيسَ فِيهَا فُرْقَةٌ وَلَهَا ... عِلْمٌ درى مِن غيرِ تَلْقِينِ

وَدَولَةٌ مَا لَهَا حَامٍ مُهَيمِنَةٌ ... عَلَى النُّفُوسِ بِتأْيِيدٍ وَتَمْكِينِ

وَقُوَّةٌ مِلؤُها ضَعفٌ وَلا عَجَبٌ ... إِذْ كُلُّ ذِي قُوَّةٍ فِي الأَصْلِ مِن لِينِ

---

(١) سورة الطارق، الآيات: ٥ ـ ٧.

(٢) سورة المرسلات، الآية: ٢٠.

شُوسُ البَهَاليلِ فِي حُكمِ الهَوَى ركنوا لـلـذُّلِّ تَـحـتَ أُسَـارِ الـخُـرَّدِ الـعِـيـنِ
لـلَّـه فِـي الـحُـبِّ سِـرٌّ لا يُـكَـيِّـفُـه الإ نْـسَـانُ مَـا دَام فِـي ذَا الـقَـالِـبِ الـطِّـينِـي
وَفِـيـهِ لِـلـمَـرْءِ بِـالـتَّـوفِـيـقِ مَـدْرَجَـةٌ إلَـى الـسَّـعَـادَةِ فِـي الـدُّنْـيَـا وَفِـي الـدِّيـنِ

وما أظن أحداً يخالف؛ في أنَّ الزوجيّة الصحيحة من أقوى الروابط؛ وقد قال ﷺ: «**إن زوج المرأة من المرأة بمكان**»[1] قاله عندما صاحت حمنة في زوجها؛ ولم تزد على الاسترجاع في أخيها وخالها؛ يوم أحد. مع أن هذه الرابطة هي أضعف ما يكون؛ لانحلالها بكلمة تخرج من طرف اللسان؛ فهي من أعدل الشواهد لما نحن فيه.

والحاصل: أن أكبر مظاهر الباري في الكون؛ المحبة؛ التي قامت عليها السماوات والأرض؛ وأجلى مظاهر المحبة بأفقنا؛ في الإنسان اللطيف؛ فما كان تأثُّر العرب لتلك العادة عن كلالة؛ وما كان مجيء القرآن بموافقتهم في ذلك غريباً؛ وما كان الإطناب في وصف سلطانه ﷺ؛ إزاء امرأتيه؛ بِدْعاً؛ ولكن أراد الله تنبيه الأفكار؛ لما في طَيِّه من الأسرار. وكثيراً ما رأينا القرآن لا يأبه لعظمة ما نراه عظيماً في أنفسنا؛ لأنه لا يتعاظمه شيء. وإذا كان المتنبي يقول في مخلوق:

أَرَاهُ صَـغِـيـراً قَـدْرُهَـا عِـظَـمَ قَـدْرِهِ فَـمَـا لِـعَـظِـيـمٍ قَـدْرُهُ عِـنْـدَهُ قَـدْرُ

. . . فما بالك بعظمة الخالق الجبَّار؟ ومُكَوِّر الليل على النهار؛ وكثيراً ما يُنوِّهُ تعالى بأمر؛ نحن عنه غافلون؛ ليستثير اعتبارنا به؛ ويلفت أنظارنا إليه ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**. . .﴾[2] وقد نزلت هذه الآية

---

(١) لما نُعِي إلى حَمْنَة بنت جحش أخوها الذي قتِل في أُحُد، فاسترجعت واستغفرت، ثم نعي إليها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت، ثم لَمَّا نُعِي إليها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وبكت، فقال النبي ﷺ: «**إن زوج المرأة منها بمكان**» سيرة ابن هشام.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

دفعاً لما طعن به الملحدون؛ من ضرب الأمثال بالذباب والبعوض؛ مع أنه ليس خارجاً عن سُنَّةَ العرب، وأنهم لينظرون إلى أمثاله في أشعارهم عن كثب؛ مثل قول عنترة:

هَـزَجـاً يَـحُـكُّ ذِرَاعَـهُ بِـذِرَاعِـهِ فِعْلَ الـمُكِبِّ عَلَى الزِّنَادَ الأَجْذَمِ

وهو تشبيه للذباب؛ وقد أغْلَوا له القيمة؛ وزعموا أنه من التشبيهات العقيمة؛ وليس محبوباً على الإطلاق غير الواحد الخلاق؛ والناس بمراتبهم محجوبون بطبائع موادهم؛ عن إدراك هذه اللطائف من أنفسهم؛ مع وجودها بتفاوتها في سائر طبقاتهم؛ من سرِّ قوله تعالى: ﴿. . . . وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي. . .﴾[١] ولما كان الحبُّ المباح؛ مع سلامة الفطرة؛ وسيلة إلى التَّدَرُّج في معراج الحب الإلهي؛ لا جرم أن انتسج على مثاله؛ وأعطي نموذجاً لذي العفة من شرف حاله؛ وما أحسن ما وقع في ذلك للسان الدين ابن الخطيب[٢]؛ وقد عارض ديوان الصبابة لابن أبي حجلة[٣]؛ إذ يقول: جعلت الموضوع أشرف؛ حسبما يليق بالسن؛ ولا أنكر الهوى؛ بعد أن سكنت داره؛ وخضت بحاره؛ ورميت جماره ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[٤]؛ وكيف أنكره؛ وأنا الذي من عروقه نبَتُّ؛ وبعثت إلى الرصافة لأرِقَّ؛ فَذُبْتُ إلى أن تبيَّن الرُّشْدُ من

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

(٢) لسان الدين الخطيب هو محمد بن عبد الله بن سعيد السّلماني الخطيب؛(٧١٣ ـ ٧٧٦هـ) شاعر وكاتب وفقيه مالكي ومؤرخ وفيلسوف وطبيب وسياسي من الأندلس. قضى معظم حياته في غرناطة في خدمة بلاط بني نصر وعرف بذي الوزارتين: الأدب والسيف. نُقِشت أشعاره على حوائط قصر الحمراء بغرناطة.

(٣) ابن أبي حجلة هو أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني (٧٢٥ ـ ٧٧٦هـ): عالم بالأدب، شاعر، من أهل تلمسان. سكن دمشق، وولي مشيخة الصوفية بظاهر القاهرة ومات فيها بالطاعون. كان حنفياً يميل إلى مذهب الحنابلة ويكثر من الحط على أهل (الوحدة) وخصوصاً ابن الفارض، وامتحن بسببه. له عدة مصنفات منها (مقامات) وكتاب (ديوان الصبابة).

(٤) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

الغيّ؛ وصار النشرُ إلى الطَّيّ؛ وتصايح ولدان الحَيّ؛ كذلك كنتم من قبل؛ فمن الله عليَّ.

جَزَا اللهُ زَاجِرَ الشَّيْبِ خَيرَ مَا جَزَا نَاصِحاً فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيرِهِ
سَلَكْتُ طَرِيقَ الحُبِّ حَتَّى إذا انتَهَى تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللهِ عَنْ حُبِّ غَيرِهِ

أو ما يقرب من هذا؛ فالعهد به بعيد[1]؛ وكله مقتبس من مشكاة قوله ﷺ: «**حُبِّبَ إليَّ مِنْ دُنْيَاكُم النِّسَاءَ وَالطِّيب؛ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**»[2].

إذ من البعيد أن يبقى في قلبه ﷺ موضع لغير ربِّه؛ وهو سيِّدُ العارفين؛ الذي لا يحسُّ بألم قط مع فرحه بمولاه؛ وأنسه بقربه؛ ولهذا نهى من الوصال؛ ثم واصل؛ وقال: «**إنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ: إنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**».

لَهُ أحَادِيثُ عَنْ ذِكْرَاهُ تُشْغِلُهُ عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيهِ عَنِ الزَّادِ

وقد بدن في آخر عمره؛ لا عن كثرة غذاء؛ ولكن من وصال روحه؛ وتوالي فتوحه؛ وهذا لا يناقض ما قالوا في صفته؛ أنه كان متواصل الأحزان؛ لأنه كذلك؛ بين الخوف والرجاء؛ والهيبة والفرح؛ ولمَّا كان مجمع الكمالات؛ أعطى كل مظهر حقَّه من الاعتبار؛ وظهر بمظهر الاعتدال التام بين المقامين؛ فلم ترجح كفة أحدهما على الآخر عنده؛ فبينما هو يقول: «**لِي وَقْتٌ لا يَسَعَنِي فِيهِ غَيرُ رَبِّي**»[3] إذ خاف أن يستغرق في الشهود؛ ويشتغل بجمال الخالق عن إرشاد

---

(١) الإمام ابن عبيد الله ينثر هذا الكلام بالآيات والأحاديث والأخبار والأشعار من ذاكرته وقد قال: إن كل ما تعلمه كان قبل بلوغه خمساً وعشرين سنة ولم يتعلم بعد هذه السن شيئاً لذا فإنه يتذكر ما يكتبه هنا وهو في الخمسين أو الستين أي بعد خمسة وعشرين عاماً أو أكثر.

(٢) الحديث صحيح وقد رواه انس بن مالك وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) (حديث مرفوع): «لِي مَعَ اللَّهِ وَقْتٌ لا يَسَعُ فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»، يذكره المتصوفة كثيراً، وهو في رسالة القشيري لكن بلفظ: لي وقت لا يسعني فيه غير ربي، ويشبه أن يكون معنى ما للترمذي في الشمائل، ولابن راهويه في مسنده، عن علي في حديث طويل: كان ﷺ إذا أتى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءاً لله تعالى، وجزءاً =

المخلوق؛ فيقول: «**كلِّميني يا عائشة**»[1]؛ كي لا تميل شوكة الميزان إلى الجهة الروحانية التي يهواها؛ لأنها نعيم خالص لا يكدِّره شوب؛ ولا يلمُّ به لوث؛ ومثله القول في سائر بشرياته.

والحديثان مكرران في كتب الصوفية؛ ولا وقت عندي لمراجعتها. ولكن معناهما صحيح. وبينما هو ﷺ مع أهله كأحدهم؛ إذ أذَّن بلال بالصلاة؛ فقام كَأَنْ لم يعرفهم ولم يعرفوه. فلن تفنَ بشريته بقوة روحانيته؛ غير أنها قد تتسلط عليه أحياناً جملة؛ فيستحذي لها الجسم؛ وينقاد لسائر نواميسها؛ ويتجرد من طبيعته؛ كما وقع له ذلك ليلة الإسراء. وأخرى تتغلب الجسمانية؛ ويظهر أثرها عليه؛ فيعرف في وجهه الجوع. ولو فَنِيَتْ بشريته؛ لالتحق بالملائكة؛ ولو التحق بهم؛ لم يفضلهم. فقد يلتحق بالأرواح المجرَّدة؛ بعض من لا كمال له من الصوفية؛ وأهل الرياضة؛ حتَّى من غير أهل الملَّة. ولما بقي ﷺ بقوة البشرية؛ مع كمال الروحانية؛ كان أفضل الجن والإنس والملائكة أجمعين؛ كما هو الأصح؛ وهو عليه السلام؛ كما قلت من قصيدة نبوية:

مَعَ الملإِ الأعْلَى يَطُوفُ بِرُوحِهِ   وَمَا ذَاكَ عَنْ تَدْبِيرِهِ الخَلقَ شَاغِلُ

وإن توقف خاطرك عن قبول شيء مما ذكرنا؛ فارجع إلى ما سبق في الفائدة السادسة؛ عن المقامين (٦، ٧) من طريق السَّادة الخلوتية؛ وأعلم أنه ﷺ؛ لا يتراءى لأهل ذينك المقامين؛ إلّا كما نتراءَى الكوكب الدُّرِّي في الليلة السوداء المُصْحِيَة.

= لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس. (عن موسوعة الحديث العنكبوتية عن كتاب المقاصد الحسنة فيم اشتهر على الألسنة).

(١) جاء في الإحياء للإمام الغزالي: وقد كان استغراقه بحب الله تعالى؛ بحيث كان يجد احتراقه فيه إلى حد كان يخشى منه في بعض الأحوال أن يسري ذلك إلى قالبه فيهدمه؛ فلذلك كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحياناً؛ ويقول: كلميني يا عائشة؛ لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قالبه عنه (وقال المحقق لكتاب الإحياء: حديث كان يضرب يده على فخذ عائشة أحياناً ويقول: كلميني يا عائشة؛ لم أجد له أصلاً).

وأنّ كل ما يظهر من بشرياته المضبوطة بزمام التشريع؛ زيادةٌ في شرفه؛ وكمالٌ في مقامه؛ وقد كانوا يتحدثون كما في الصحيح؛ أنه أُعْطِي قوة ثلاثين؛ ومع ذلك فما على نفسه سلطان اللذَّة الماديَّة؛ ولولا ذلك؛ لما كان الغالب على شأنه؛ الثيوبة؛ ولما ترك زينب في روائها وغضارتها وبكارتها؛ وهي في قبضة يده؛ ثم اقترن بها؛ بعد أن قضى وطره منها مولاه وأحد عبيده؛ كما قد سبق هذا؛ في بعض ما سلف من الفوائد.

فَفَكِّر وَلا تَنْظُرْ إِلَى القِشْرِ وَانْتَبِهْ فَفِي كُلِّ حَالٍ لِلحَبِيبِ كَمَالُ

وأيضاً؛ فإنَّ مما يتوضح به الجواب؛ عن خطاب الله تعالى لزوجتَيْ نبيِّه؛ بذلك الإطناب العظيم؛ في وصف نفوذه المكين؛ مترسماً لطريقة العرب كما وقع؛ فإنه تعالى أجرى عباده على المتعارف بينهم؛ وإلّا فما هي الحاجة للحفظة والشهود واستنطاق الألسن والجلود؛ ووزن الأعمال وإحضار الدفاتر والسجلات؛ وهو أعدل الحاكمين؛ وأحكم العالمين؛ يعلم السرَّ وأخفى؛ وما هي نكتة تشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين؛ وهم لا يعرفونها؛ وتمثيله لنوره؛ بالمشكاة والزجاجة؛ وهي من دونه؛ لولا ذلك المعنى الشريف؛ والحكمة العالية؛ والسُّنَّة التي لا تتبدل.

ثم إن للمحبوب إدلالاً؛ يصغر به من الإساءة؛ العظيم؛ بل يزيد به من الجراءة؛ الجسيم؛ أو لا ترى إلى ما فعله ابن الخطاب؛ من المراجعات المرَّة مع سيِّد البشر؛ يوم الحديبية ويوم عبد الله بن أُبي؛ حتى جذب ثوبه؛ ويوم الخميس حسبما تقدم؛ وإلى قول عائشة: والله لا أقوم إليه؛ ولا أحمد إلّا الله؛ وما صدر منها من الأحوال الكثيرة؛ مِنَ التَّجَرِّي عليه ﷺ؛ لكن الأمر كما تكرر من قول الشبلي:

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الفِعلُ عِنْدِي فَتَفْعلُهُ فَيَحْسُنُ مِنكَ ذَاكَ

وقال ديك الجن:

لا يُوحِشَنَّكَ مَا استَحمَلتُ مِن سَقَمٍ فَإنَّ مُنْزِلَهُ بِي أحْسَنُ النَّاسِ

وقال الأخيطل:

إنَّ مَنْ أسْهَرْتَ لَيلَتَهُ　　لَقَرِيرُ العَينِ بِالسَّهَرِ

وقال الرستمي:

وإنِّي لأهْوَى الشَّيبَ مِنْ أجْلِ أنَّهُ　　وَإنْ نَفَرَتْ عَينِي لَهُ مِنْ فِعَالِهَا

وقال ابن الرومي:

إذَا مَا الفَجَائِعُ أكسَبَتنِي　　رِضَاكِ فَمَا الدَّهْرُ بِالفَاجِعِ

وقال بشار:

إذا رَضِيتُمْ بِأنْ يَخْفَى وَسَرَّكُمُو　　قَوْلُ الوُشَاةِ فَلا شَكْوَى وَلا ضَجَرُ

وأخذه المتنبي فقال:

إنْ كَانَ سَرَّكُمُو مَا قَالَ حَاسِدُنَا　　فَمَا لِجَرْحٍ إذا أرْضَاكُمُو ألَمُ

وفي ديوان ابن الفارض الكثير الطيِّب منه. وقد تكررت الإشارة إلى أكثر هذه المعاني في سوالف الفوائد؛ ولا ملامة في التكرار؛ فالمناسبات اقتضت ذلك. وقد ورد: اللهم اجعل سيئاتي سيئات من أحببت؛ ولا تجعل حسناتي حسنات من أبغضت[١]. وما مسامحة الغيرانة في كثير مما تفعل؛ كما جاء في السنَّة؛ إلّا لشريف المقام؛ وتأييد هذا الكلام.

ومن هنا أغضى رجال الطريق[٢] عن شطحات المحبِّين؛ وأقالوا عثراتهم؛ واحتملوا زلاتهم؛ وقالوا: ليس في الكلام بلسان المحبة من ملام؛ وما أحسن قول بعضهم:

سَقُونِي وَقَالوا لا تُغَنِّي وَلَوْ سَقَوْا　　جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقَونِي لَغَنَّتِ

---

(١) ورد هذا الدعاء في أوراد وأحزاب السادة الصوفية مثل الشيخ أبي الحسن الشاذلي ولم أعرف مصدره.

(٢) أي السادة الصوفية.

وقال عمرو بن براق:

وَلَوْ أَنَّ مَا بِيَ بِالحَصَى فَلَقَ الحَصَى ... وَبِالرِّيحِ لَمْ يُسمَعْ لَهُنَّ هَبُوبُ

وقد تقرر في الأصول: امتناع تكليف الغافل والمُلجئ؛ ولم يخالف الفقهاء فيما ذكره الصوفيَّة؛ إلّا أنهم تأوَّلُوا بغيبة الإحساس؛ وهو تأويل ليس به بأس؛ بل فيه قطع للالتباس؛ وقال القطب الحداد:

وإنَّ الذِي أبْدى مِنَ القومِ مَا ... سَبيلُهُ السِّترُ مَغلُوبٌ بِحَالٍ قَوِيَّة

يَفَارِقُهُ التَّمييزُ عِندَ وُرُودِهَا ... عَليهِ وَإنْ أخْطَأ فَلَيسَ بِمُعْنِتِ

ومن زَلَّ مع فقدان الشعور؛ فلا شك أنه معذور؛ وللشعراني كلام؛ يدافع به في الموضوع عن الشيخ الأكبر؛ أستأنس لبعضه بما روي؛ أنَّ عصفوراً قال في مراودته لحبيبته: أما تدرين أني لو شئت قلبت على سليمان عرشه!. وكان ذلك بِمَسْمَعٍ من سليمان؛ فعذره لما احتجَّ لديه؛ بأنه إنما يتكلم بلسان المحبَّة؛ وفي الكلام طول؛ وبعضه من الفضول. وقد أردنا الاختصار على اللب؛ لكن الاستطراد يغلب؛ وإذا كان بعض الباطل من الفخر في المحبة؛ به حق؛ فما بالك بما جاء عن فخره ﷺ في هذا الطريق؛ على لسان القرآن من الحق؛ والله أعلم[1].



(١) يلخص الإمام ابن عبيد الله في هذه الكلمة الأخيرة؛ بعد الإسهاب؛ الرد على هذا الملحد الذي ذكر خبره في أول هذه الفائدة.



الفائدة

الحادية والثلاثون

الفائدة الحادية والثلاثون

ذكر لي بعض الإخوان: أن صاحب المنار العلامة السيد رشيد رضا؛ يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[1]: إنَّ الله لم يمدح البدو بالجمال والحُسْن؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ؛ لا يلتفت إلى الحُسْن؛ ولا يحفل بالجمال.

وهذا وإنْ صحَّ منه؛ فما هو إلّا غلطٌ صريح؛ وسهوٌ قبيح؛ فقد كان ﷺ؛ أَرَقَّ الناس عاطفةً؛ وأعدلهم مزاجاً؛ وأصفاهم طبعاً؛ وأسلمهم ذوقاً؛ وأرجحهم عقلاً؛ وأخفهم ظلاً؛ ومِنْ لازِمْ ذلك؛ الميلُ إلى الجمال والأنس به؛ وكيف يخاطبه الباري عز وجل بقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾[2]؛ وهو لا يأبه بالجمال؛ ولا يعوِّل عليه؛ وقد جاء في صحيح مسلم وغيره: «**إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُ الجَمَالْ**». وأخرج أيضاً هو وغيره؛ أنَّ عائشة لما سئلت عن خُلِقِ رسول الله ﷺ؛ قالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ». قال السهرَوَرْدِي[3]: في قولها رمزٌ غامض؛ وإيماءٌ خفيّ؛ إلى الأخلاق الربانية؛ فاحتشمت أن تقول: كان متخلِّقاً بأخلاق الله. وقد تقرر عند العارفين؛ صلوحية أكثر أسمائه للتخَلُّقِ بها. ونقل مثله كثيرٌ من السادة الصوفية؛ منهم المرصفي وغيره. وقد فسَّر الإحصاء بالعمل؛ في

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٢.

(٣) هو شهاب الدين عمر السهروردي من أعلام التصوف السني عاصر الشيخ عبد القادر الجيلاني له كتاب عوارف العوارف وتوفي سنة ٦٣٢هـ.

حديث: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[١] وورد: «**تَخَلَّقُوا بِأَخْلاقِ الله**»[٢] أي بما يصلح التخلُّقُ به منها، لا نحو الكِبْر والجبرية؛ ولكن من محبة الجمال؛ مما يصلح التخلُّق به.

فيتركَّب من هذه المقدمات؛ قياسٌ صحيحٌ من الشكل الأول؛ ينتسف به ما قاله العلامة الرشيد؛ كالرماد اشتدَّت به الرياح في اليوم العاصف. فلا شك أنه ﷺ؛ يحب الجمال؛ كما أن ربَّ العزة جلال جلاله؛ يُحِبُّه، وكما أنَّ كُلَّ ذي ذوقٍ سليم؛ وطبعٍ صحيح؛ يحبه؛ فلو تفطن الرشيد لما في طيٍّ كلامه؛ لأيقَنَ أنها عشرة لا تقال. ولكنه ﷺ؛ مع محبته للجمال وللبكارة؛ يؤثر الدين ومصلحته على ذلك؛ ولهذا قال في الحديث المتفق عليه: «**تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**». أما النكتة في عدم التعرُّض للجمال؛ فهي؛ والله أعلم؛ من وجوه:

أحدها: ما سبق في علمه تعالى من اختيارهنَّ له ﷺ؛ وما كان ليكسر

(١) المستدرك للحاكم باب الإيمان.

(٢) في فتوى لدار الإفتاء المصرية: لا يوجد حديث عن النبي ﷺ بهذا اللفظ، ذلك أن الخُلق كما عبر عنه العلماء ملكة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة من غير فكر ولا روية، ولا يمكن أن يعبر عن صفات الله مثل الرحمة والعدل بأنها آثار لملكة راسخة في النفس. والذي ورد أن السيدة عائشة ﵂ سئلت عن أخلاق النبي ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن رواه مسلم وغيره، وجاء في زيادة: يغضب لغضبه ويرضى لرضاه. وقد علق العارف بالله عمر شهاب الدين بن محمد بن عمر السهروردي المتوفى ببغداد في المحرم سنة ٦٣٢ هجرية ـ في كتابه عوارف المعارف على قول السيدة عائشة بقوله: ولا يبعد أن قول عائشة ﵂: كان خلقه القرآن فيه رمز غامض وإيماء إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت الحضرة الإلهية أن تقول: كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى، فعبرت عن المعنى بقولها: كان خلقه القرآن، استحياء من سُبُحات الجلال، وستراً للحال بلطيف المقال، وهذا من وفرة عقلها وكمال أدبها. «الزرقاني على المواهب اللدنية ج٤ ص٢٤٦». فإذا جاء التعبير على لسان بعض رجال التصوف بلفظ «أخلاق الله» فلم يجىء هذا التعبير عن النبي ﷺ. وإن كانت صفات الله سبحانه معروفة.

خواطرهن في الكتاب المبين؛ المكرر على الأسماع أبد الآبدين؛ بما لا يمكن تلاشيه من تفضيل غيرهن عليهنَّ فيه؛ وهو الحُسْن والجمال.

الثاني: إنَّ في طيِّ ذلك الكتاب؛ الحثُّ على استباق الخيرات؛ والتزيُّد من تلك الأعمال الصالحات؛ فحداهن لما يدخل تحت الاستطاعة؛ الاستزادة منه؛ بخلاف الحسن والجمال؛ فإنَّه وراء جهدهن؛ وفوق قدرتهن؛ فلا يكون الغرض من ذكره؛ لو كان؛ سوى مجرد التبكيت؛ وَهُنَّ أكرم على الله من ذلك.

الثالث: إن ذلك خلقه وقدرته جلَّ شأنه؛ وما كان ليصَغِّر نعمة أنعم بها عليهنَّ؛ وقد فَضَّلَهُنَّ على كثير من الأنام.

الرابع: أنه لا يفيد الحسن ما لم يقترن بخفة الروح؛ والحظوة عند الزوج؛ فكم حُسْنٍ ممقوت؛ وحسب المرأة أن تكون مليحة في عين زوجها؛ وهو المراد من ندب اختيار الحسناء؛ ولولا اختلاف المشارب في ذلك؛ لما سُنَّ النظر وتكريره قبل الخِطْبَة. وقد رُوِيَ أنَّ عَزَّة[1] دخلت على عبد الملك؛ ولمَّا استعرفت إليه اقتحمتها عينه؛ وقال لها: أنت التي أفنى فيك شعره كثَيْر؟ فقالت: إنه كان ينظر إليَّ بعينين ليستا في رأسك. وما أحسن قول عمر بن أبي ربيعة:

وَلَقَدْ قَالَتْ لأتْرَابٍ لَهَا ذَاتَ يَوْمٍ وَتَعَرَّتْ تَتَبَرَّدْ
أكَمَا يَنْعَتنِي أبصَرْتِنِي عَمْرَكُنَّ الله أمْ لا يَقْتَصِدْ
فَتَضَاحَكْنَ وقَد قلنَ لهَا حَسَنٌ فِي كُلِّ عَينٍ مَنْ تَوَدْ

وقال ابن جعفر:

وَعَينُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيبٍ كَليلَةٌ كَمَا أنَّ عَينَ السُّخْطِ تُبدِي المَسَاوِيَا

---

(١) هي عزة بنت جميل الغفارية معشوقة الشاعر كثير بن عبد الرحمن الخزاعي وهو من أهل المدينة المنورة وقد قال فيها شعراً كثيراً ثم تزوجت عزة وسكنت مصر فذهب لمصر ونزل على صديقه عبد العزيز بن مروان فأكرم وفادته وتوفي كثير بالمدينة.

وأخرج ابن عساكر من عدة طرق؛ أنَّ جميلاً[١] قدم مصر على عبد العزيز بن مروان يمدحه؛ فرآه رجل؛ فقال: ما رأيت في بثينة؟ فوالله لقد رأيتها ولو ذُبِحَ بعرقوبها طائر لانذبح! فقال له جميل: إنك لم ترها بعيني. وفي كامل المبرّد؛ أن يزيد بن أبي مسلم؛ دخل على سليمان بن عبد الملك؛ وكان وزيراً للحجاج على دمامة فيه؛ فقال له سليمان: قَبَّح الله رجلاً آجرك رسنه؛ وأشركك في أمانته! فقال: لا تقل هذا! قال: وَلِمَ؟ قال: لأنك رأيتني والأمر عَنِّي مدبر؛ ولو رأيتني وهو مقبل؛ لاستحسنت مِنِّي ما استقبحت؛ واستعظمت مني ما استصغرت. ثم قال له: ويحك؛ أَوَقَدْ اسْتَقَرَّ الحجاج في قعر جهنم أم لا؟ قال: لا تقل ذلك؛ فإنه وَطَّأَ لكم المنابر؛ وأخضع لكم الجبابرة؛ ويأتي يوم القيامة عن يمين أبيك ويسار أخيك؛ فحيثما كانا كان. ولا يخرج عن المعنى الذي نحن فيه؛ قول كثير:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعتُ كَلامَهَا خَرُّوا لِعَزَّةَ سُجَّداً وَرُكُوعَا

الخامس: ما أشار إليه فقهاؤنا من كراهة الاقتران بذات الجمال البارع؛ لأنها قَلَّمَا تسلم من التَّطَلُّع أو التَّقَوُّلْ؛ ثم لا تكون في الأغلب إلّا مَزْهُوَةً بنفسها.

السادس: إنَّ الحظَّ منهنَّ بتفضيل البدل عليهن؛ فيما لا يمكن تداركه؛ وليس إليهنَّ شيء منه؛ مُساءَةٌ لسيِّد البشر ﷺ؛ مع ما سبق به العلم من أنهنَّ أزواجه إلى الأبد؛ كما سبق في الوجه الأول، وما كان الله ليخرج عاطفة أحبِّ الخلق إليه؛ بالغضِّ من جمال حبائبه؛ عليهنَّ الرضوان؛ في كتابٍ لا تَخْلَقُ جِدَّتُهْ ولا تنقضي مُدَّته.

السابع: ما قد أشرنا إليه في الفائدة الثامنة عشرة؛ من الإجماع على امتناع الغيبة فيما يتعلق بالخِلْقَة؛ بخلافه فيما يتعلق بالأخلاق والدين؛ فإنه يسوغ ولا

---

(١) هو جميل بن معمر من قبيلة عذرة التي اشتهرت بالجمال والعشق ومساكنهم وادي القرى بين المدينة والشام أحب جميل بثينة وتزوجت غيره قال فيها شعراً كثيراً قدم مصر ضيفاً على عبد العزيز بن مروان فأكرم وفادته وتوفي بمصر سنة ٨٢هـ.

سيّما عند المصلحة. ثُمَّ إنَّ هنا فائدة جليلة؛ تكفي وحدها لنقض ما ذكروا عن العلامة الرشيد، وهي الثيوبة؛ مما لا يتمادح به؛ ولهذا قالت عائشة كما في الصحيح؛ لرسول الله ﷺ: «**أرأيت لو نزلت بوادي رُعِيَ في بَعضِهِ وَلَمْ يُرْعَ فِي الآخر؛ فِي أَيِّهِمَا كُنْتَ تَرْتَعُ بِبَعِيرَك**»[1] أو ما يقرب من هذا افتخاراً ببكارتها. ويُرْوَى أنها افتخرت على فاطمة ببكارتها؛ وذكرت ثيوبة خديجة؛ فاشتكت فاطمة إلى رسول الله ﷺ؛ فقال لها: «**تعرَّضي لها ثانية وتَسَقَّطِيها في الكلام؛ حتى إذا عادت لمثل قولها؛ فقولي لها: إنَّ أمِّي أخذت بكارة أبي؛ وشَتَّان بين بكارتك وبكارته**»؛ ففعلت فأفحمت عائشة؛ ولكنها عرفت سرَّ القضية؛ وقالت لفاطمة: ليس هذا من كيسك؛ وإنما عَلَّمَكِ من هو أشدُّ حياءً منك. ومع ما ذكرناه من انتفاء التمادح بالثيوبة؛ فقد ذكرها جل شأنه في البدل؛ تطييباً لخواطرهنَّ؛ وجبراً لقلوبهنَّ؛ لأن الثيوبة كانت هي الغالبة عليهن؛ ولولا ذلك لاستوفت عائشة إلى أقصى شوط في التيه عليهنَّ؛ فانظر إلى هذا اللطف العظيم، وتأمَّل مبلغ الرفق بهنَّ والتكريم؛ وإذ انتهت بهن الألطاف إلى هذه الغاية؛ فأولى أن لا يُعَرَّضْنَ بنزورة جمالهن في الآية.

وما ذكره الأدباء في المفاضلة بين الثيبات والأبكار؛ كثير جداً؛ وممن أطال فيه الحريري في مقاماته؛ وقال علي بن الجهم: أَنشَدْتُ امرأة:

قالوا عَشِقتَ صَغيرَةً فَأجَبتهُمْ ... أشْهَى المُطِيَ إليَّ مَا لَم يُرْكَبِ

كَمْ بَيْنَ حَبّة لُؤلؤٍ مَثقُوبَةٍ ... نُظِمَتْ وَحَبَةُ لؤلؤٍ لم تُثقَبِ

فأجابت:

إنَّ المَطِيَّةَ لا يَلَذُّ رُكُوبُهَا ... حَتَّى تُذلَّلَ بِالزِّمَامِ وَتُرْكَبَا

---

(١) حدثنا إسماعيل بن عبد الله قال حدثني أخي عن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ﵂ قالت: قلت يا رسول الله: أرأيت لو نزلت وادياً وفيه شجرة قد أكل منها ووجدت شجراً لم يؤكل منها؛ في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «**في التي لم يرتع منها**» تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها.

وَالــدُّرُّ لــيــسَ بِـنَــافِــعٍ أرْبَــابَــهُ حَـتَّـى يُـجَـمَّـعَ فِـي الـنِّـظَـامِ وَيُـثْـقَـبَـا

وينبغي أن لا نطيل فيه؛ لأن من حق هذه الفائدة أن تضم إلى سابقتها؛ لأنها من لواحقها؛ وقد استفاض فيها القول.

ومن أكبر أغراضه ﷺ في تعدد الأزواج؛ انتشار سُنَّتِه؛ واختبار سيرته؛ واستمالة عشائر الأزواج لدينه ونصرته؛ وذلك اللائي عَرفْنَ ومَارَسْنَ؛ أرجى منه في الأبكار الفرائد؛ إلّا أن عائشة أنافت عليهن في ذلك؛ بما امتازت به من ثقوب الفهم؛ ونباهة الذهن؛ وحدّة المزاج.

وأظهر عيوب الثيوبة؛ الحنين إلى الأزواج السابقين؛ وهو مفقود فيمن تتزوجه ﷺ؛ لأنَّ محبته تنسي كل محبة؛ وأُلْفَتُهُ تغمر كل ألفة؛ ولله در القائل:

مَـحَـى حَـبُّـهـا حُـبَّ الألَـى كُـنَّ قـبـلَـهَـا وَحَـلَّـتْ مَـحَـلاً لـم يَـكُـنْ حُـلَّ مِـنْ قَـبـلُ



الفائدة الثانية والثلاثون

ذكر لي بعض الإخوان أيضاً؛ أنَّ بعضهم ألحد في الدِّين بقوله: إذا كنتم تزعمون في القرآن الخير العام؛ والشفاء التام؛ والنفع الكثير؛ والإعجاز الكبير؛ فهلَّا كان نزوله بغير العربية من اللغات التي يكثر بها الناطقون؛ أما العربيَّة؛ وإن كانت متَّسِعَة؛ فأهلها قليل؛ ولا سيّما لعهد نزول القرآن؛ وهل يليق بفائض الجود؛ أن يمنع الأمم من ذلك الخير الغامر؛ ويختص به تلك الفئة القليلة؛ بين الجبال القاحلة؛ والموامي السحيقة؛ والدياميم[1] المخيفة.

والجواب عن ذلك من وجوه:

أحدها: أن الأيام دول؛ كما في قوله تعالى: ﴿...وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ...﴾[2] وكم بعث في الأعاجم من الأنبياء؛ ولم يبعث من العرب إلّا القليل. فنحن نقلب الأمر على ذلك الملحد؛ ونقول: أليس من العدل أن يتدارك الله هذه الطائفة الضعيفة في البلاد النائية الفقيرة؛ بنبيٍّ يُعِزَّهَا بعد الذِّلة؛ ويُكْثِرهَا بعد القِلَّة؛ وَيُغنِيها بعد الفاقة؛ ويجعلها منبع الخيرات؛ ومصدر البركات؛ لسائر أمم الأرض. بلى وألف بلى، على أنَّ نفع هذه النبوَّة؛ لم يكن مقصوراً على العرب؛ بل للخلق كافة؛ كما سيأتي بيانه.

ثانيها: إن تقليل ذلك الملحد لأمر العرب؛ وتهوينه من شأنهم؛ هو نفس حُجَّتُنَا ودليلنا على وجه الحكمة؛ لابتعاثه ﷺ؛ منهم؛ وبلسانهم؛ لأنها سنة الله

---

(١) ديموم: صحراء واسعة لا ماء فيها وجمعها دياميم.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

التي لا تتبدَّل؛ وهو القائل في شأن بني إسرائيل: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا . . .﴾[١] ويقول في الآية الأخرى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا . . .﴾[٢] وفي هاتين الآيتين؛ ما ينفخ في النفوس روح الأمل؛ فيحلق بها في جوِّ المجد؛ ويطير بها إلى سماء السيادة؛ ولهذا كان ابن الخطاب يعجب من قول عبدة بن الطيب:

المرءُ ساعٍ لأمْرٍ ليسَ يُدْرِكُهُ وَالعَيشُ شحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ[٣]

وقد تعاورته أيدي الشعراء؛ ومن خير ما فيه قول الطغرائي:

أُعَلِّلُ النَّفْسَ بِالآمَالِ أَرْقُبُهَا مَا أَضْيَقَ العَيْشَ لَوْلَا فُسْحَةُ الأَمَلِ

فنحن نوافق الملحد على ضعف العرب إذْ ذاك؛ ولا ننكر ما قال فيهم؛ ونعترف بأنهم ما زالوا مطرَّدين عن الآفاق؛ محرومين عن خضرة الشام والعراق؛ وأنه لمَّا دعا النبي ﷺ على العرب؛ بسبعٍ كسبع يوسف؛ ضاقت بهم الأرض؛ حتى وفد حاجب بن زرارة[٤] على كسرى؛ والتمس منه أن يأذن للعرب في أطراف السواد بالعراق؛ فأذن له بعد أن توثَّق منه؛ واسترهن قوسه في خبره المشهور. ولكنهم كانوا أقوياء النفوس؛ أعلياء الهمم؛ وزادوا من ذلك؛ بما نفخ في مشاعرهم القرآن؛ من الآمال السائقة؛ والبشارات الصادقة. ثم كلما كان المطلوب أعظم؛ كان الطريق إليه أوعر؛ والامتحان فيه أكثر؛ ويأتي هنا ما يتعلق بالمحنة؛ مما سبق في الفائدة الرابعة.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.

(٣) قال عمر ؓ متعجباً لما سمع هذا البيت (والعيش شح، وإشفاق، وتأميل ما أحسن ما قسم!!).

(٤) حاجب بن زرارة من سادات العرب في الجاهلية؛ رهن ذات مرة قوسه عند كسرى على مال عظيم ووفى به. أدرك الإسلام، وأسلم.

ثالثها: إنَّ في العرب أنَفَة ممزوجة بحسدٍ شديد؛ فتراهم يأنفون من الخضوع لأحَدٍ منهم؛ وإن كانوا قد يرضخون لمن كان من غيرهم؛ ويحتملون من الأجنبي ما لا يحتملونه من القريب؛ وينافسون ابن العم الأدنى من منافستهم للأبعد. وفي حديث النعمان مع كسرى(١)؛ وخبر غيلان مع كسرى(٢) أيضاً؛ ما يدل لما قلناه؛ وقال طرفة بن العبد:

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أشَدُّ مَضَاضَةً ... عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

وقال الهيثم النخعي:

بَنِي عَمِّنا؛ إنَّ العَدَاوَةَ شَرُّهَا ... ضَغَائِنُ تَبْقَى فِي نُفُوسِ الأقَارِبِ

وقال آخر:

لِلظُّلمِ بين الأقرَبِينَ مَضَاضَةٌ ... وَالذُّلُّ مَا بَيْنَ الأبَاعِدِ أرْوَحُ

فَإذَا أتَتكَ مِن الرِّجَالِ قَوَارِصٌ ... فَسِهَامُ ذِي القُرْبَى القَرِيبَةِ أجْرَحُ

وأخرج ابن إسحاق عن عمرو بن العاص؛ قال: لما انصرفنا من خيبر؛ جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي؛ فقلت لهم: والله إني لأرى أمرَ محمدٍ يعلو الأمور عُلوّاً منكراً؛ وقد رأيت أن نلحق بالحبشة؛ فإن ظهر محمد على قومه أقمنا عند النجاشي؛ فلأن نكون تحت يديه؛ أحبّ إلينا من أن نكون تحت يديْ محمد؛ إلى آخر الخبر الذي انتهى بإسلام عمرو.

---

(١) النعمان بن المنذر كان ملك الحيرة ومن حلفاء كسرى فغضب عليه كسرى فاستدعاه فاستودع النعمان ماله وأهله وسلاحه عند هانىء بن مسعود الشيباني وذهب لكسرى فسجنه ثم قتله وأرسل كسرى يطلب ماله من الشيباني فرفض فقرر استئصال بني شيبان وأرسل جيشاً من الفرس والقبائل العربية الموالية له فجمع بنو شيبان قبائل العرب وهزموا الفرس لأول مرة في وقعة ذي قار.

(٢) غيلان بن سلمة من الصحابة وكان من سادات العرب في الجاهلية قدم على كسرى للتجارة بدون إذن فأعجب كسرى بحكمته وكلامه فاشترى ما معه بضعف الثمن وأرسل معه من الفرس من بنى له قصراً بالطائف.

وأخرج أيضاً: أنه لما انهزم الناس يوم حنين؛ ورأى بعض أهل مكة الهزيمة؛ تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن؛ فقال أبو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.

وقال أخو صفوان بن أمية: ألا بطل السحر اليوم! فقال له صفوان: اسكت فضَّ الله فاك؛ فوالله لأن يُرَبِّنِي رجل من قريش؛ أحبُّ إلي من أن يربني رجل من هوازن[١]. ولئن كان قول صفوان خروجاً عن القاعدة؛ التي نقرر؛ فقد علمت أن الأكثر عليها؛ وإنما شذَّ صفوان احتفاظاً بالجميل؛ ورغبة في المعروف؛ فقد حقن له رسول الله ﷺ دمه؛ وبسط مدته؛ وأرخى خناقه؛ وأعطاه بعد ذلك أكبر مما ظنَّه به؛ فأنهل أمله وأشبع رضاه وسوَّغه ما أهدى إليه من الغُنم.

وفي العجم ألفة وعصبيّة؛ فتراهم يجتمعون على أحدهم ولا يرضخون لمن سواهم؛ ففي بعثته ﷺ من العرب؛ كمال الامتحان والتكليف المقصودين من إرسال الرسل؛ كما أشرنا إليه في الوجه الثاني. ولو أنه كان من أمَّة أعجمية؛ ذات حَوْل وطَوْل وصَوْل؛ لأمكن أن تتبِّعه حميّة؛ ولا سيّما إذا كان من أشرافها وأولي ثروتها؛ وجاز أن ترضخ له العرب رهبةً ورغبةً؛ لا عن بصيرةٍ من إيمانها؛ ولا عن عقد القلوب بإذعانها؛ ألا وأنه سرعان ما ينفسخ ما كان من مثل ذلك؛ وفي المثل: جماعَةٌ على أقْذَاء؛ وجاء مرفوعاً: «**هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ**»[٢]؛ وقال زفر بن الحارث:

---

(١) قال الطبري في تاريخه عن غزوة حنين: ولما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، والأزلام معه في كنانته. وصرخ كلدة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية بن خلف، وكان أخاه لأمه، وصفوان يومئذ مشرك، في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ فقال: ألا بطل السحر اليوم؟ فقال له صفوان: اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن. وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبد الدار، قلت: اليوم أدرك ثأري، وكان أبوه قتل يوم أُحد.

(٢) اجتماع على أقذاء: معناه اجتماع بالأبدان وافتراق بالقلوب. والأقذاء: جمع قَذًى، وقَذًى: جمع قَذاة، وهذا معنى قوله ﷺ: «**هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ**» يضرب لمن يضمر أذى ويظهر صفاء.

وَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنَ الثَّرَى   وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا

وقال أبو تمام:

إِذَا مَا الجَرْحُ رَمَّ عَلَى فَسَادٍ   تَبَيَّنَ فِيهِ تَفْرِيطُ الطَّبِيبِ

وأخذه أبو الطيب؛ فقال:

فَإِنَّ الجَرحَ يَنفُرُ بَعدَ حِينٍ   إِذَا كَانَ البِنَاءُ عَلَى فَسَاد

أما الإيمان به؛ مع الإعجاز المفحم؛ والبرهان الملجم؛ فإنه لا تقرع مروءته؛ ولا تنفصم عروته. لأنه لا يكون إلّا عن استخذاء سريرة؛ وقُرَّة بصيرة؛ ووضوح حُجَّة؛ وبيان محجَّة؛ وبرود قلب؛ وطمأنينة خاطر؛ ثم إنَّا لا نحتاج الإطالة فيه؛ وقد تعرض الذكر الحكيم لدفع هذا الإيراد؛ بأمثال قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾(١)؛ وقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾(٢)؛ لأنَّ الإيمان لا يكون إلّا عن يقين؛ واليقين لا يكون إلّا عن البرهان.

ومن أين لهم الوقوف على إعجازه بغير لغتهم؛ أو بلغة لا يُتَصوَّر فيها إعجاز أصلاً. فأمَّا وقد برهم بإعجازه؛ وملك أهواءهم بفصاحته؛ واستبى خواطرهم ببلاغته؛ لم يبق فيهم مُكَذِّب؛ إلّا من غباوة وجمود؛ أو عداوة وجحود ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾(٣) وقال جل شأنه في تسليته ﷺ: ﴿. . . إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(٤)؛ وما أسرع ما يزول الجحود مع التصديق؛ وما أقرب ما تتلاشى دولته عند الحجَّة؛ فالغلبة منوطة بالحُجَّة؛ والتصديق معقود بالبرهان؛ ولو أنه كان من الأعجمين؛ لأمكن العرب الإذعان؛ واستحال عليهم الإيمان.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٨ ـ ١٩٩.
(٣) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.

أما الإذعان فلِمَا كان من الخضوع لملوك العجم؛ وحسبك أنه لما جاء أبرهة الحبشي لهدم معبدهم؛ لم يراجعه رئيسهم إلّا في إبله فقط. ولو أنه من جلدتهم؛ لزاحفوه ما قبضت أكفُّهم السيوف؛ وما بقي فيهم نافح ضرمة[١]. أما أنهم ليخضعون للعجم؛ مع بقاء أنوفهم على الامتلاء بالشمم؛ وناهيك أنَّ كسرى لا يعد النعمان بن المنذر؛ إلّا عبداً له؛ ولكنه لما خطب بناته وأخواته؛ احتملته الحميَّة على الإباء؛ فعرَّض نفسه لأنْ قَتَلَهُ شرَّ قتلةٍ؛ في سبيل الشرف؛ وحماية العرض عن غير الكفؤ.

أما استحالة الإيمان؛ فلأنَّ العرب مع شممها وهممها؛ لا تُصَادَرْ في عقولها؛ ولا تُذْعِن لغير ما تبرد عليه قلوبها؛ ولئن انخدعوا في جاهليتهم لبعض الأوهام؛ فإنما هو سلطان العادَّة؛ وآثار القادَّة؛ وتقليد الآباء؛ ومرور الأيام: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٢]؛ جل ثناؤه وتقدَّست أسماؤه.

رابعها: أنه جلَّ شأنه أراد من ابتعاثه ﷺ من أضعف الأمم؛ حتَّى جعل أنصاره وأتباعه بدياً أضعف الناس وأحقرهم؛ وقد قال ﷺ لعدي بن حاتم: «**لا يمنعك ما ترى من ضعف أصحابي وجهدهم؛ فكأنهم ببيضاء المدائن قد فتحت عليهم وكأنك بالظعينة تخرج من الحيرة حتى تأتي مكة بغير خفير**» فأبصره عدي كلّه؛ وانتصر الإسلام بقومٍ؛ حِلْيَةُ سيوفهم؛ الآنك والصلابيّ؛ وثالفهم شبيه بإبعار الشاء من جشوبة العيش. ويعجبني قول بعضهم[٣]:

قِفْ عَلَى اليَرمُوكِ وَاخْضَعْ جَاثِياً ... وَتَيَمَّمْ من صَعيدِ القَادِسيَّة

تُربَةٌ طَيِّبةٌ طَاهِرةٌ ... وَقُبورٌ مِنْ حَيَا الدَّمعِ نَدِيَّة

يَا قُبُوراً مُحِيَتْ وَانْدَرَسَتْ ... أنْتِ نِبرَاسَ الهُدَى وَالوَطَنيَّة

---

(١) ما بالدار نافح ضرمة: أي ليس فيها أحد.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

(٣) هو الشاعر السوري محمد بن سليمان الأحمد (١٩٠٠ ـ ١٩٨١) الملقب بدوي الجبل له قصائد وطنية وله قصيدة في مدح الفرنسيين.

هَا هُنَا مَثْوَى الصَّنَادِيدِ الأولَى دَوَّخوا الكُفْرَ بِبيضِ المَشْرِفِيَّة
دَوَّخُوا الرُّومَ وَثَلُّوا عَرْشَهَا وَطَوَوا حُمرَ البنودِ الفارِسِيَّة

ويأتي هنا ما سبق في الفائدة الرابعة؛ من مضار الترف؛ ومفاسد الحضارة؛ ونفض الأيدي من الخاصة وأهل الشرف والنخوة؛ واليأس من حصول الخير بواسطتهم ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1].

خامسها: وفيه تأييد وتوضيح لما قبله؛ وهو أنه لما كان في مبعثه ﷺ؛ الخير الدائم؛ والفضل الشامل؛ والبرهان الواضح؛ والسلطان المستمر؛ جعل منشأ ذلك من الضعف الذي لا نحتاج لوصفه؛ بعد مبالغة الخصوم فيه؛ إظهاراً للآية البيِّنة؛ والحُجَّة الدامغة؛ والمعجزة الكبرى؛ فشيءٌ يتكون من هذا الضعف؛ ثم يندفع على كبريات دول العالم؛ في أقل من نصف قرن؛ فيفلّ جيوشها؛ ويزلزل عروشها؛ ويبتزّ تيجانها؛ ويهدم قواعدها؛ ويملأ طباق الأرض؛ إنه لشيء عجاب؛ يتحيَّر له الباحثون؛ ويندهش له الناظرون؛ ويهتدي إلى سرِّه المنصفون. وما زال الضعف مادة القوّة؛ كما في نظرية لي قررتها غير مرة؛ وفي غير ما كتاب؛ وهاهنا يجيء موضع قولي السابق:

وَقَوَّةٌ أَصْلُهَا ضَعْفٌ وَلا عَجَبٌ إِذْ كُلُّ ذِي شِدَّةٍ فِي الأَصْلِ مِنْ لِينِ

وفي الفائدة قبل هذه؛ حروف من ذلك.

سادسها: أن العرب أفضل الناس شيماً؛ وأغلاهم قيماً؛ وأغزرهم دِيَماً؛ وأملاهم همماً وأوفرهم شمماً؛ كما يعترف الجمهور بذلك؛ إن حلفوا بالغَموس واجتهدوا؛ فقولهم: خاب سائلي القسم[2]. ولئن خالف الشعوبيّة في ذلك؛

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

(٢) اليمين الغموس هي التي تغمس الحانث فيها في الإثم قال المتنبي:
أو حَلَفُوا بالغَمُوسِ واجتَهَدوا فَقَوْلُهُمْ خابَ سائِلي القَسَمُ
والمعنى إذا حلفوا يميناً يخافون فيها الإثم عند الحنث حلفوا بخيبة سائلهم لأنها أعظم شيء عليهم.

فرأيهم مقهور؛ وعددهم منزور؛ ولا يضر بكرم مخائر العرب؛ وشرف طباعهم؛ وصفاء غرائزهم؛ أن يكونوا مستذَلِّين أو مستضعفين في أنظار الأعاجم؛ لأنَّ مكارم الأخلاق؛ وسمة الأذواق؛ شيء؛ والقوة والدولة شيء آخر. وقال ابن هرمة:

عَجِبَتْ أُثَيْلَةُ أنْ رَأتْنِي مُخْلِقاً ثَكَلَتْكِ أُمُّكِ أيُّ ذاك يروعُ

قَدْ يُدْرِكُ الشَّرَفَ الفَتَى وَرِدَاؤُهُ خَلِقٌ وَجَيْبُ قَمِيصِهِ مَرقُوعُ

ولقد تمثَّل بهذا شيخ العرب؛ يزيد بن عمر بن هبيرة(١)؛ حينما فطن لتعجُّب الناس من رُقْعَةٍ على قميصه. والناس معادن؛ والسيوف بنصالها؛ لا بحلية أغمادها. قال النمر بن تولب:

فَإنْ تَكُ أثْوَابِي تَمَزَّقْنَ عَنْ بِلًى فَإنِّيَ كَمِثْلِ السيفِ فِي خَلَقِ الغِمْدِ

وقال أبو هفان:

تَعَجَّبَتْ دُرُّ مِنْ شَيْبتِي فَقُلتَ لَهَا لا تَعجَبِي فَطُلوعُ الشَّمسِ فِي السَّدَفِ

وَزَادَها عَجَباً أنْ رُحْتُ فِي خَلَقٍ وَمَا دَرَتْ دُرُّ أنَّ الدُّرَّ فِي الصَّدَفِ

وقال شيخنا العلامة ابن شهاب؛ يعاتب أمراء حضرموت؛ لما أرْضَوْا بقطيعته؛ بعضَ أهل الثروة(٢):

هَلْ غَرَّكُمْ مِنهَا الحُطَامَ فَإنَّمَا بِنِصَالِهَا الأسْيَافُ لا أغْمَادَهَا

ولقد أسلفنا في الوجه الثالث؛ أنَّ المناذرة وهي سادة العرب؛ تفخر بالخطمة عند الفرس؛ والزلفى لديهم؛ والوفادة عليهم؛ وما كان يعتدُّهم كسرى

---

(١) من الفرسان الشجعان المؤيدين لبني أمية، وتولى لهم عدة إمارات.

(٢) تعرض الشاعر أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب (١٢٦٢ ـ ١٣٤١هـ) لمحنة ببلده تريم بسبب منافسة ذوي المال والجاه له بلغت إلى أن منع السلطان الناس من زيارته وأدى ذلك إلى هجرته إلى الهند ووفاته بها.

إلّا من جملة قِنِّه وعبيده؛ ولكنه لما خطب إلى النعمان عقائل أهل بيته[١]؛ في مكيدة دبرها له عدي بن زيد العبادي؛ ليشيط بدمه؛ ويثأر منه بأبيه؛ امتنع النعمان؛ ظناً بسروات نساء العرب؛ أن يتفخذها علوج الفرس؛ لأن في ذلك سُبَّة الدهر؛ وعار الأبد.

وَالعَارُ مَضَاضٌ وَلَيسَ بِخَائِفٍ مِن حَتفِهِ مَنْ خَافَ مِمَّا قِيلا

فلم يكن من كسرى إلّا أن استشاط غضباً؛ وأنكر أن يرغب النعمان عنه بنسائه؛ فقتله كما قدَّمنا شرَّ قتلةٍ؛ في قصة مشهورة؛ كانت خاتمتها تلك الحرب العوان؛ الواقعة بذي قار[٢]؛ وهو اليوم الذي انتصفت فيه العرب من الفرس؛ وأشار إليه الطائي بقوله:

وأنتُمْ بِذِي قَارٍ أمَالَتْ سُيُوفُكُمْ عُرُوشَ الذِّينَ اسْتَرهَنُوا قَوْسَ حَاجِبِ

وقال بديع الزمان: نحن إذا تكلمنا في فضل العرب؛ أردنا ما أحاطت به النفوس؛ ولا ننكر أن تكون أمة أحسن من العرب ملابس؛ وأنعم مطاعم؛ وأكثر ذخائر؛ وأبسط ممالك؛ وأعمر مساكن. ولكن العرب: أوقى وأوفر؛ وأوقى وأوقر؛ وأعلى وأعلم؛ وأحلى وأحلم؛ وأقوى وأقوم؛ وأبلى وأبلغ؛ وأشجى وأشجع؛ وأسمى وأسمح؛ وأعطى وأعطف؛ وأحصى وأحصف؛ وأنقى وآنق.

وقال لسان الدين ابن الخطيب: لم تفخر العرب قط بِذَهبٍ يُجمَع؛ ولا ذخر

(١) تحدث كسرى وعنده عدي بن زيد العبادي عن جمال نساء العرب فقال له عدي: إن بنات النعمان بن المنذر مثلهن وهو يعرف أنه لن يزوجه وأن رفضه طلب كسرى سيؤدي لقتله ليثأر بذلك لأبيه فأرسل كسرى يخطب بنات النعمان فرفض وكان ذلك سبب قتله.

(٢) يوم ذي قار هو أول انتصار أحرزه العرب على الفرس وسببه أن كسرى خطب بنات النعمان بن المنذر فرفض تزويجه فغضب عليه كسرى واستدعاه إلى عنده وقتله وكان النعمان قد استودع ماله وأهله عند هانىء بن مسعود الشيبان فطالبه كسرى بما عنده فرفض؛ فغضب كسرى وقرر استئصال بني شيبان وأرسل لهم جيشاً عرمرماً وجمع بنو شيبان حلفاءهم العرب ونشبت الحرب وانتصر العرب على الفرس لأول مرة.

يرفع؛ ولا قصر يُبْنَى؛ ولا غرسٍ يُجْنَى، إنما فخرها عَدوٌّ يغلب؛ وثَناً يجلب؛ وجُزرٍ تنحر؛ وحديث يذكر؛ وجودٍ في الفاقة؛ وسماح جهد الطاقة. ولقد ذهب الذهب؛ وفني النشب؛ وتمزقت الثياب وهلكت الخيل العراب؛ وكل الذي فوق التراب تراب، وبقيت الأعراض تُجْلَى وتصقل؛ والأخبار تُرْوَى وتُنْقَل. ولله درُّ أبي الطيب في قوله:

ذَكَرَ الفَتَى عُمْرَه الثَّانِي وحَاجَتَهُ ... مَا قَاتَهُ وَفَضُولِ العَيْشِ أشْغَالُ

سابعها: أن إعجاز القرآن ليس محصوراً في البلاغة؛ فما وراءها من وجوهه؛ كافٍ لإقناع الأمم المهذبة؛ الناظرة إلى المصالح بعيون المعدلة؛ مع السلامة من الحسد؛ أو نقص حظها منه عن الأمَّة العربية بالأقلِّ.

ثامنها: قد اعترف الملحد كما في صدر الفائدة؛ باتِّساع اللغة العربية[1]؛ وهو؛ لو لم يعترف به؛ أمر معقود عليه الاجماع؛ مؤيد بالحس واللمس؛ ولا مكابرة مع المشاهدة، ولا سيما مع ما فيها من المجاز والاشتقاق؛ ومتى كان الأمر كذلك؛ أفَمِنْ عدل الله أن يبقيها محصورة فيما ذكره الملحد؛ ولا ينشرها بمقدار سعتها بين أمم الدنيا وشعوب العالم؟ وَأَلَيْسَ من فضل الله على الأمم؛ أن ينعمها عيوناً بخير هذه اللغة الواسعة؟ بلى وألف بلى. ولا سبيل إلى ذلك بمثل أن يفرغ فيها الكتاب الخالد؛ الكافل مصالح الأمم وحضارتهم التامَّة؛ ومدنيتهم السابقة ونجاتهم من الخطوب؛ وسلامتهم من الحروب؛ إلى يوم القيامة. إنَّه لا داعي لانتشارها بين الأمم مثل ذلك؛ وكذلك كان.

تاسعها: إنَّ عجز مصاقع العرب وفصائحها عن معارضة القرآن؛ وهم أمراء الكلام؛ وصيارفة النثر والنظام؛ تسجيلٌ بالانهزام على سائر أمم الدنيا في ذلك

---

(١) في بحث حديث للمقارنة بين اللغات العالمية الرئيسية وجدوا أن عدد كلمات اللغة العربية ١٢,٣٠٢,٩١٢ كلمة وعدد كلمات اللغة الإنجليزية ٦٠٠,٠٠٠ كلمة وعدد كلمات اللغة الفرنسية ١٥٠,٠٠٠ كلمة وعدد كلمات اللغة الروسية ١٣٠,٠٠٠ كلمة وقد زاد في العصر الحالي عدد المتكلمين باللغة العربية في كثير من البلدان الأجنبية.

الميدان. وما زالت الحقيقة مجلوَّةً للأنظار؛ معروضةً للاختبار؛ ولم يبلغنا أنَّ إنسياً ولا جنياً؛ ولا ملحداً ولا فاسقاً؛ جاء بشيء يذكر في معارضته؛ ولو حصل؛ لَنُقِل؛ ولَضُرِبَتْ له الطبول؛ ونُشِرَتْ الأعلام؛ لتوفر الداوعي على طلبه؛ وشدَّة التطلُّع إليه. وقد كذَّب المحققون ما نسب إلى المعرِّي من ذلك؛ وقالوا إنما سَمِعَ بعضُ من يتهمه بالإلحاد بكتابه الموسوم بالفصول والغايات؛ فانتحل له فقرة أخرى من عنده؛ هي قوله في معارضة الآيات؛ وهو شيء لم يقله المعرِّي؛ ولم يخطر له ببال، ولا مناسبة بينه وبين كتابه ذلك؛ وسيأتي عنه ما ينافيه.

ثم كم من جبَّار عنيد يسجد لسماع الذكر الحكيم؛ كما فعل المشركون عند قراءته ﷺ سورة النجم؛ وكما فعل الأعرابي إذ سمع قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾[1] وأقسم أنَّ بشراً لا يقدر أن يقوله. وكم من جاحدٍ عنود؛ كمن في سواد الليل؛ لِيلْتَذَّ بسماعه؛ على ما تضمن من سبِّه وسبِّ آلهته؛ كما فعل الوليد وغيره؛ فهو الذي مهَّد المعنى؛ لحبيب؛ في قوله:

فَإنْ أنَا لَمْ يَمْدَحْكَ عَنِّيَ صَاغِراً عَدوُّكَ فَاعْلَمْ أنَّنِي غَيرُ حَامِدِ

والبحتري في قوله:

لَيُوَاصِلَنَّكَ رَكبُ شِعرِي سَائراً يَرْوِيهِ فِيكَ لِحُسْنِهِ الأعْدَاءُ

وأبو الطيب في قوله:

وأسْمَعُ مِنْ ألفَاظِهَا اللغةَ التي يَلذُّ بِهَا سَمعِي وَإنْ ضَمَنَتْ شَتْمِي

وابن نباته في قوله:

خُذْهَا إذَا أنْشَدَتْ فِي الحَيِّ مِنْ طَرَبٍ صُدُورهَا عُرِفَتْ مِنْهَا قَوَافِيهَا

يَنْسَى لَهَا الرَّاكِبُ العَجلانُ حَاجَتَهُ وَيصْبحُ الحَاسِدُ الغَضْبَانُ يُطْرِيهَا

وفي الصحيح: إن نساء المشركين وصبيانهم يتقصفون على أبي بكر إذا

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٠.

سمعوا القرآن؛ ومن هذا ومما قبله؛ يعرف أنَّ القرآن؛ ومن جاء على يديه؛ رحمةٌ لجميع الأمم؛ ونجاةٌ من سائر الغمم؛ وضياءٌ لكل حوالك الظلم؛ فيأتي موضع قول أبي الطيب:

تَفَرَّد العُربُ فِي الدُّنْيَا بِمُحْتَدِهِ وَشَارَكَ العُرْبَ في إحسَانِه العَجَمُ

فما زالت الطوائف تتفيأ ظلاله؛ وتجتني ثماره؛ وتأوي منه إلى رياض مؤنَّقَة؛ وغياطٍ مغدقة؛ هي أحق بقول المنازي أو المرأة الأندلسية:

وَقَانَا لفحةَ الرَّمضاءِ وَادٍ وَقَاهُ مُضَاعفُ النبتِ العَمِيمِ
نَزَلنَا دَوحَهُ فَحَنَى عَلَينَا حُنَوَّ المُرضِعَاتِ عَلى الفَطِيمِ
وَأرْشَفَنَا عَلَى ظَمَاءٍ زُلالاً أَلَذَّ مِنَ المُدَامَةِ لِلنَدِيمِ

ولا نزال من حين إلى آخر؛ نسمع صريح الإقرار له من أَلْسِنَةِ جاحديه؛ والخضوع بالأذقان لعجائبه؛ من مراجيح منكريه.

وَمليحَةٌ شَهِدَتْ لهَا ضُرَّتُهَا وَالفَضْلُ مَا شِهَدَتْ بِهِ الأعْدَاءُ

وهل ينكر أحد؛ أنَّ إشراق المدنيّة الآن بالقارة الغربية؛ ليس إلّا من ضيائه الساطع بالأندلس. ولا يضيره؛ إن كان أظهر وجوه الإعجاز فيه؛ وهو الفصاحة والبلاغة؛ لا ينكشف تماماً إلّا لمن عرف أسرار العربيّة؛ لأنَّ للبلاغة سلطاناً ما حتَّى عند من لا يعرفها؛ ولأنه إذا نكص فرسانها؛ وانهزم شجعانها؛ واستسلم أقرانها؛ وخضعت أذقانها؛ فماذا عسى أن يقول من سواها؟

والذِي يُعْجِزُ الصُّقُورَ مِنَ الطَّـ ـيرِ بَعيدٌ مَنَالُهُ للبُغَاثِ
وَلَقَدْ تَخْتَفِي الأمُورُ وَفَرْقٌ بينَ أُمِّ الطِّلَى وَأمِّ الكِبَاثِ

عاشرها: إن هذه المعجزة الخالدة التالدة؛ لا يتصور أن تجيء بغير اللغة العربية؛ كما يعرف مما مرَّ ومما يأتي في ثنايا الكلام؛ فلا حاجة لأن نتوسع بالزيادة؛ عما تخصص له من المؤلفات الضخمة؛ غير أنا نقول: إن معجزة القرآن هي أكبر معجزات الأنبياء وأفضلها؛ من جهات؛ نَعُدُّ منها ولا نعدِّدها.

منها: أنَّ معجزات الأنبياء قد انقضت؛ وهذه باقية؛ وأنَّ معجزاتهم كانت خبراً؛ وهذه معاينة؛ وليس الخبر كالعيان؛ فهي لا تزال بحالها معروضة في ميدان التحدِّي طول الأزمان ولله دَرُّ البوصيري في قوله:

فَانْقَضَتْ آيُ الأنبِياءِ وآيَا ... تُكَ فِي النَّاسِ مَا لَهُنَّ انْقِضَاءُ

والبحتري في قوله:

رَأيتُ مَجْداً عِيَاناً فِي بني أَدَدٍ ... إذْ مَجْدُ كُل قَبِيلٍ دُونَهُمْ خَبَرُ

فمن تشكَّك فيها؛ أو سوَّلت له نفسه معارضتها؛ فليطلع قرنه؛ وهيهات هيهات؛ وقد عجز عنها الأولون والآخرون. لقد كدم المُتَمَنِّي في غير مكدم، وسقط به العشاء على متقمر[1]؛ وذهب يلتمس قرناً فعاد بلا أذنين. وذكرت عند هذا قول ابن أبيَ عيينة:

فَدَعِ الوَعِيدَ فَمَا وَعِيدكَ ضَائِرِي ... أَطَنِينُ أجنِحَةِ الذُّبَابِ تضِيرُ

وقول جرير:

زَعَمَ الفَرَزْدَقُ أنْ سَيقتُلُ مَرْبَعاً ... أبشِرْ بِطُولِ سَلامَةٍ يا مَربعُ

وقول غيره:

تُوَعدُنِي لِتَقتُلَنِي نُميرٌ ... مَتَى قَتَلتْ نميرٌ مَنْ هَجَاهَا

وقول الآخر:

هَابَتْ الأعْدَاءُ جَانِبَنَا ... أفَتَغزُونا بَنُو سَلَمَة؟

ومنها: أنَّ خاصة الإنسان؛ إنما هي الناطقية؛ وهي مقولة بالتشكيك بين بني الإنسان؛ فبحسب ما عندهم منها؛ تتفاوت الطبقات؛ وتتمايز الدرجات. فأخذ القرآن بقصبة السبق في الميدان؛ والقدح المعلى في هذا الرهان؛ صعود

(١) كدم في غير مكدم وسقط به العشاء على متقمر: من أمثلة العرب تضرب لمن يطلب شيئاً في غير مطلبه.

إلى أشرف قلَّة[١] فوق الإنسانية؛ وبلوغ إلى أقصى شوط بعدها؛ وانتهاء إلى ما لا غاية له وراءها.

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ   لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ

ولا ننكر أن في غير العربيَّة محسنَّات؛ غير أنها لا تعد شيئاً مذكوراً؛ بالنسبة إلى ما في العربية من الاتساع؛ ولطائف الكنايات؛ وفرائد المجاز؛ ونوادر الملاحن والإشارات؛ وانظر بدائع الحكمة في أشعارها المقولة من قبل اليوم بألف وستمائة سنة؛ وقتما كانت الأمم الغربية ساذجة؛ تعيش عارية بين الأشجار والحقول؛ فهي لم تشتَم عبقة المدنية؛ إلّا بعد أن أشرق عليها شعاعه[٢]؛ ولم تعرف كيف تقارع الخصوم؛ إلّا بعد أن نجذتها حروبه. ولا ننكر أنها كانت مدنيات أمُّها الحميريّة[٣]؛ وهي من ديار العرب خرجت؛ وفي منازلهم درجت؛ فجاء القرآن بلسانهم؛ يجدد لهم منها ما دثر؛ ويحيي لهم منها ما اقشعر. ولقد استنُّوا فيها أشواطاً؛ لو صبروا بنور اهتدائه إلى الغايات لجاوزوا تلك النهايات؛ غير أنهم؛ ويا للأسف؛ وقفوا من بعد المأمون[٤]؛ وقفة الأعمى خَذَلَهُ القوَّاد، كما قلنا في الفائدة الأولى؛ وأخذ الغربيون يقتبسون وهم يحتبسون، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

ولقد طلب الأبلق العقوق[٥]؛ من رام ترجمة القرآن إلى غير العربية من اللغات؛ مع بقاء شيء من روائِه؛ فإنه مستحيل. إذ لا يؤدِّي أحد من البلغاء؛ بنفس العربية؛ كلام من هو أعلى كعباً منه؛ إلّا مع الإحالة؛ فكيف به مع

---

(١) قلة الشيء: أعلاه أو قمته.

(٢) أي الإسلام.

(٣) قامت الحضارة الحميرية أو مملكة حمير في اليمن قرابة ١١٠ سنوات قبل الميلاد وسمى المؤرخون ملوكهم بالتبابعة.

(٤) الخليفة العباسي المأمون والتي بلغت في عهده الحضارة العربية مبلغاً عظيماً.

(٥) طلب الابلق العقوق من أمثلة العرب ويضرب لما لا يكون ولا يوجد.

الترجمة؛ فلا يضير القرآن مجيئه كذا ثقيلاً في اللغات الأجنبية؛ لأنه ليس بقرآنٍ حينئذٍ؛ وإنما هو شبه التفسير المشوَّه؛ ولو أن أحداً ترجم: قفا نبك؛ أو ما شابهها؛ لما جاءت إلّا كجلمود صخرٍ حطَّه السيلُ من علٍ؛ إلى ما في الترجمة من فوات التناسب في الحروف؛ الذي له تأثيره؛ حسبما سبق في الفائدة الحادية عشرة.

وقد تخبَّط في مسألة الترجمة أقوام ضَلُّوا الطريق؛ لقِلَّةِ الزاد عندهم من التحقيق؛ مع أنها من البديهيات يذكرها الفقهاء في أركان الصلاة من صغار المتون. أما ما توسع فيه الإمام أبو حنيفة؛ من صحة الصلاة بالترجمة؛ حتى عجز أتباعه عن الانفصال عما أورده عليهم القفَّال[1] بصلاته المشوهة أمام السلطان ابن السبكتكين، كما فصله ابن خلكان وغيره؛ فقد ضَعَّفه صاحباه؛ إذ قيَّداه بحالة العجز؛ واعتذرا مع ذلك؛ بأنه مقام خضوع ومناجاة؛ لا مقام إعجاز ومباهاة، ومنه تعرف؛ أن لا نزاع في إحالة الترجمة.

ومنها: أن معجزة كل نبيّ موافقة لزمانه؛ ومن جنس ما يكون بيت القصيد[2] عند قومه؛ ولما كان نبينا ﷺ خاتمة المرسلين؛ جاءت معجزته العظمى مناسبة لسائر الظروف؛ غير قابلة للخلوقة بحال. أولا ترى السوق القائمة اليوم في أنحاء العالم؛ لنقد الكلام وغربلة النظام؛ وما يكون لأمرائه من الحفاوة والتجلّة؛ عند عارفي قدر الفضيلة؛ وعالمي سر البيان. حتى أنك لتجد كثيراً من الغربيين؛ ينقِّبون عن آثار نبغاء العرب؛ ويبحثون عن دفائنهم؛ ويعتنون بمخَدَّرات أفكارهم[3]؛ ويوفرون على التاريخ الكثير الطيِّب من تراجمهم؛ ويقتنون نفائس آثارهم وبدائع كتبهم؛ ويزيِّنون بها صدور خزائنهم.

---

(١) هو القفال المروزي المتوفى سنة ٤١٧هـ كان وحيد عصره في الفقه وأخذ عنه القاضي حسين وأبو محمد الجويني والد الإمام.

(٢) بيْتُ القصيد: الأمر المهم، أو خلاصة الموضوع، أو أحسن أبيات القصيدة وأنفسها.

(٣) مخدرات: أي مخفيات وتستخدم كلمة المخدرة في كتب الفقه لتصف المرأة التي لا تخرج من بيتها.

وبلغني عن بعض أهل العصر؛ أنه يقول: لو جاز أن يبعث نبيّ؛ لكانت معجزته من جنس معجزة سليمان ﷺ؛ وهي زَلَّة لا يقال لها عِثَار؛ وفلتة وقاه الله شرها؛ لاقتضائها أنَّ إعجاز القرآن قد انتهى؛ أو لم تبق فيه ملاءمة للعصر الحاضر؛ أو لم تعد له أهميَّة بين الأمم؛ والثالث مكابرة في المحسوس؛ وإنكار للملموس؛ والأوليَّان لا يخفى حكمهما؛ وما يقتضيانه من الحاجة إلى بعثة نبي؛ يجدِّد ما دثر؛ ويقوم بالحجَّة فيما غبر؛ أو لم يقرأ صاحب هذه المقالة ما جاء في سورة الحِجْر؛ من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[1]؛ أولم يتدبر ما اقتصَّه الباري عن أهل مكة؛ في مثل قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[2] فقد طلبوا منه نوع ما ذكره صاحب المقالة؛ ليؤمنوا؛ ولو طار لم يؤمنوا. ولو آمنوا؛ لكان إيماناً مخصوصاً لمن شاهد ومن علم؛ لكن العلم الصحيح الذي سبق الأزل؛ بتمحض الأيام الأخيرة به؛ لا يقتنع للتصديق بمجرد المعجزات الكونية؛ بل ربَّمَا اتَّخذ المكابرون منها شبهات؛ عكس المقصود. وأبلغ ما انتهى إليه كيد المشركين؛ أنْ قالوا إنه سحرٌ مبين؛ وسرعان ما كذَّبهم الحس؛ حتى كذَّبوا أنفسهم. ولو كانت معجزته من جنس الطائرات؛ لنفذت إليها شبهتهم بكل سهولة. فلم يشأ الله جلت قدرته؛ ووسعت حكمته؛ أن تكون معجزة نبيِّه؛ إلّا على أثبت ما يكون من القواعد؛ التي تقطع عنها ألسنة الإلحاد في كل وقت؛ وعلى أرسخ ما يكون من الدعائم المضادة لعواصف التُّرهات؛ وقواصف الشبهات؛ في كل زمان. وبه يعلم فُحْش غلط تلك المقالة؛ لولا ما يُرْجَى أن يغفر له به؛ من حسن النيَّة ومنتهى الجهد.

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ١٤ ـ ١٥.

(٢) سورة الإسراء، الآيات: ٩٠ ـ ٩٣.

وهل معجزة سليمان إلّا قطرة من بحر القرآن العذب؛ فإنه كما تحدث إلينا عن بساط سليمان؛ وتسخير الريح له؛ قد أرشد إلى وجوه اختراع الطائرات. وهل يحملها إلّا الريح المُسَخَّر له خاصة؛ ولنا عامة؛ بشهادة أمثال قوله جلَّ ذكره: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ...﴾[(١)] فإنه بعمومه ناصٌّ على إدخال الرياح فيما سخَّرَه لنا. ولكنها الأحلام تَضِلْ؛ والأقدام تَزِلْ؛ وصدق الله العظيم؛ وبَلَّغ رسوله الكريم ﴿....مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ...﴾[(٢)] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[(٣)].

وقد تحدث القرآن إلينا بأخرى؛ لم يظهر أثرها بعد؛ وهي سرعة نقل العروش؛ وأفادنا أنَّ الإتيان بعرش بلقيس؛ عن مقر ملكها إلى فلسطين؛ لم يكن إلّا عن علم صحيح؛ كما هو صريح قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[(٤)] مع أنه عرش عظيم؛ بشهادة الذكر الحكيم. قال البيضاوي[(٥)]: قيل: كان ثلاثين ذراعاً في مثلها عرضاً وسمكاً؛ وقيل: بل ثمانين في ثمانين. وقال الهمداني في الإكليل[(٦)]: وأعمدة العرش السفلى قيام إلى اليوم؛ لو اجتمع جيل على أن يصرعوا واحدة منها؛ لم يقدروا؛ لأنَّ كل عمود منها له

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

(٤) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٥) هو الإمام الفقيه الشافعي النحوي الأصولي المفسر عبد الله بن عمر البيضاوي له عدة مؤلفات أشهرها تفسيره مات بتبريز سنة ٦٨٥هـ.

(٦) أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني من أهل اليمن كان من أعظم الجغرافيين مع إحاطة بعلم الفلك والفلسفة والكيمياء وكان شاعراً واشتهر بالأخذ عن بطليموس وعن الكتب اليونانية والهندية والفارسية وله عدة مؤلفات أشهرها الإكليل روى فيه أخبار العرب والأمم السابقة وكتاب صفة جزيرة العرب وسجن في آخر حياته وتوفي باليمن في حدود سنة ٣٣٦هـ.

ثقوب في الصفاء ثم ألقم أسفله؛ وصب بينهما القطر اهـ. فهلا بحث أهل القرآن عن هذا العلم المُفْضِي إلى سرعة التواصل بهذا الحدِّ المدهش؟[١].

وما زالت الأيام تتمخَّض بالعجائب؛ ومتى حمَّ نتاجها بهذا الاختراع العجيب؛ فليكن منك على بال؛ أنَّ القرآن هو أبو عذرة اكتشافه؛ كما أنه يُتَلَمَّح من إشاراته؛ أنَّ في قوى الأمم السالفة من الغرائب؛ ما لم ينته إليه العلم اليوم. وفي ما استدرك الحاكم على الصحيحين؛ من حديث محمد بن جعفر عن أبيه؛ قال: أعطي سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها؛ وفي زمانه صنعت الصنائع العجيبة؛ التي ما سمع بها الناس؛ وسخرت له؛ في قصة أطول من هذا؛ إلّا أن الذهبي استنكرها؛ من أجل علي بن محمد بن جعفر؛ وأقرَّه الحافظ على ذلك؛ في لسان الميزان[٢]؛ غير أن ذلك لا يمنع من صدقها في الواقع.

وثالثة: أيضاً؛ وهي أنه لا بأس من معرفة كلام الطير؛ وتعلم لغة الحيوان؛ إذ قد أوتي مثله سليمان ﷺ؛ مع عدم منافاته لقوله: ﴿... وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾[٣] لأنَّ ذلك ليس هو كل ما أوتيه.

ورابعة: وهي وجود المذياع في أيام سليمان ﷺ؛ فلقد أخرج الحاكم وصححه؛ وأقرَّه الذهبي؛ عن أبي معشر عن محمد بن كعب: أنَّ الله أوحى إليه وهو يسير ما بين السماء والأرض؛ أنِّي قد زدت في ملكك أن لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلّا جاءتك الريح فأخبرتك. وهو صريح في أنَّ المذياع انتهى في أيامه إلى إتقان لم يبلغ إليه اليوم؛ إلى ما لا يأتي عليه العد من هذه الأمثال. ولكن واحسرتاه على أهل القرآن! إذ ضيَّعوه واستثمره غيرهم. طلع بدره في

---

(١) وصل العلم حالياً أي في سنة ١٣٣٥هـ إلى سرعة مدهشة في نقل الصور والكتابة والكلام لمختلف الأماكن والبلاد ولم يصل بعد إلى السرعة في نقل الكتل والأجسام.

(٢) لسان الميزان هو كتاب من كتب الحديث يختص بعلم الجرح والتعديل، ألفه الحافظ ابن حجر العسقلاني.

(٣) سورة ص، الآية: ٣٥.

ديارهم؛ فأشرق ضَوْؤهُ على من سواهم؛ ولله درُّ البحتري في قوله:

كَبَدْرٍ أَضَاءَ الأرضَ شَرْقاً وَمَغْرِباً وَمَوضِعُ رِجْلِي مِنهُ أَسْوَدُ مُظْلِمُ

وابن الرومي في قوله:

إِذَا كَانَ حَظُّ النَّاسِ سُقْيَا سَمَائِكُمْ فَحَظِّي وَمِيضُ البَرْقِ أَوْ زَجَلُ الرَّعْدِ

على أنَّ سليمان لم يجعل كل ما أوتي من العجائب إلّا عدلاً؛ لمعرفة الطير وقدمها. مع ذلك؛ ففيه ما لا غاية بعده من تفضيل العلم؛ إذ جعلها من أعوانه إزاء الملك وأدواته؛ ولله درُّ الإمام الغزالي في قوله: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة؛ أنَّ في الإمكان أصنافاً من العلوم العجيبة؛ لم تخرج بعد إلى الوجود؛ ثم اندرست؛ فلا يوجد في هذه العصور من يعرضها على وجه الأرض؛ وعلوم ليست في قوة البشر أصلاً؛ وإنَّما يحظى بها بعض الملائكة المقربين.

حادي عشرها: أنَّ النفوس مجبولة على حبِّ الحسن؛ وألا يمتنع مانع أو يعترض عارض(١)؛ ولما كان القرآن بتلك الدرجة السامية من الحسن؛ بجماله وإشراقه؛ والإحسان بهدايته وإرشاده؛ انجذبت له النفوس ومالت إليه القلوب؛ وقد سعد به من العجم أكثر ممن سعد به من العرب؛ وهل نصر الإسلام؛ وألَّف الكتب؛ ودَوَّنَ الدواوين؛ وحفظ السُّنَّة؛ وجمع القواميس؛ غير العجم؟. فلا شك أن نسبة العرب إلى العجم؛ في إحصاء العلماء والمؤلفات؛ تكون قليلة جداً. وقد كَثَّر مالهم فيه؛ قِلَّةَ نصيبهم من الحسد؛ بخلاف العرب؛ فإنهم يجاحدون ما لإخوانهم؛ ولا سيّما المعاصرين منهم؛ ويحاولون كتمانه بكل ما تنتهي مقدرتهم إليه؛ حتى أنهم يسلكون بعض علمائهم في عداد العجم؛ لأدنى مجاورة. وما أراه إلّا من هذا القبيل؛ فكيف يزعم الملحد؛ تخصيص العرب بهذه النعمة العظمى؛ والمنّة الكبرى؛ إنْ هذا إلّا اختلاق(٢).

---

(١) الجملة الأخيرة غير واضحة في المخطوطة.

(٢) هذا المفهوم العجيب الذي يفسر سبب تميز العجم على العرب في علوم السنة والشريعة =

وانظر إلى أساطين البلاغة؛ وأراكين البيان؛ تجدهم في الأغلب من علماء الأعاجم؛ وقد تضلَّعُوا من العربيَّة بما بزُّوا به أبناءها؛ وصدَّقوا به قوله تعالى: ﴿. . . وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾[1]؛ وقوله ﷺ: «**لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس أو قال: من أبناء فارس**»، أو كما قال. ولم يقل أحدٌ منهم؛ أنَّ ما دُوِّنَ من محسِّنات الكلام؛ وأسرار البيان؛ كان منقولاً عن السريانية أو الفارسية؛ أو غيرهما من اللغات؛ ولا يمكن اتهامهم بغمض ذلك؛ لو كان؛ إذ لا حَريجَةَ فيه من الدِّين؛ ولا نقصٍ به على الإسلام؛ وإنما لهم الشرف والجمال؛ ولكنهم أدُّوا الأمانة؛ فدَلَّ ذلك على عظم إنصافهم؛ وصحة إخلاصهم؛ في العلم وخدمة الدين الإسلامي. فلهم بذلك أكبر الفضل على الإسلام؛ وعلى العرب فيما مضى؛ إذ حفظوا لهم تراثهم لمَّا ضَيَّعُوه؛ كما أن أكثر الأمل معقودٌ بهم في المستقبل لذلك[2].

وقد تحدثوا بأنهم أخذوا علم الميزان عن اليونان[3]؛ ولم تلحقنا معرّة بذلك؛ ولم تعلق بهم تهمٌ فيه؛ على أنَّ الغزالي بيَّن لنا؛ كيف استخرج علم المنطق من القرآن؛ ومعه؛ فإننا لا نجحد اليونان فضيلة هذا العلم؛ ولكن المتفرنجين اليوم؛ يحبون أن يتزلفوا إلى الأجانب؛ بأكثر مما يرضيهم من الأكاذيب المكشوفة؛ كذلك الشاهد؛ الذي رشاه المُدَّعِي على أن يشهد بِحِمْلٍ من

= واللغة والذي أعتقد أن أحداً لم يسبق الإمام ابن عبيد الله ولا تعرض له ابن خلدون في مقدمته حسب علمي؛ وهذا المفهوم دليل واضح على دقة فهم الإمام وثقوب نظره وجلاء بصيرته؛ وقد أورد في هذا الكتاب الكثير من المفاهيم العجيبة والتفاسير الغريبة التي سيجدها القارىء بين ثنايا هذا الكتاب؛ بل إن الإمام ينثر بين ثنايا كتبه الأخرى في كثير من الأحيان مثل هذه المفاهيم.

(١) سورة محمد، الآية: ٣٨.

(٢) يقترب الإمام في رأيه عن العرب هنا من ابن خلدون في مقدمته الذي يقول: إن العرب أبعد الناس عن الصنائع والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعوا إليه من الصنائع وغيرها (مقدمة ابن خلدون ص٣٧٤ دار الكتاب العربي).

(٣) علم الميزان أو علم المنطق وسمي بالميزان إذ به توزن الحجج والبراهين.

الشعير؛ فشهد له بحملٍ من البُرْ؛ فقال له المُدَّعي: إنما هو شعير؛ ليطابق الدعوى؛ فقال الشاهد: **البر خير من الشعير**. وكالشاهد الآخر الذي طُلِبَ منه أن يشهد بديك؛ ولما وفَّرُوا له الأجرة[١] شهد بتيس **لأنه خير**. ولهذا تجدهم يتأوَّلون؛ لما لا تصله عقولهم الفاسدة من آيات القرآن؛ بل يتشككون فيها؛ كما لا يقابلون المستحيل؛ إذا جاء عن ساداتهم الأوروبيين؛ إلّا بغاية الإذعان.

ولقد يشتد تألمي؛ إذا بلغني؛ وكثيراً ما بلغني؛ عن بعض الأذناب الساقطين؛ أنه يترنَّم بمقالة لبعض الإفرنج؛ ويترنَّح عليها؛ ويعدُّها من جوامع الكلم؛ مع وجود أمثالها بكثرة لدينا؛ في الأدب الجاهلي والإسلامي والسنَّة والقرآن، وما ذاك إلّا لجهله من جهة؛ وخِسَّةِ نفسه وسقوطها من الأخرى وتزيُّنِه بادِّعاء معرفته بأدب الأجانب. من الثلاث ظلمات؛ بعضها فوق بعض؛ قاتلهم الله أنَّى يؤفكون[٢].

وبقيت مسألة عالقة بذهني عن لسان الدين ابن الخطيب؛ وهي أن إعجاز القرآن؛ لا يكون بعد الأعصر السالفة إلّا لمن عرف أسرار البلاغة[٣]؛ وارتاض عليها؛ وأنّى للكافة بذلك؛ بيد أن عندهم حظّاً وافراً؛ ونصيباً كاثراً؛ وحسبك أنه إذا جاء الكلام الخالص المنقَّح البليغ العذب؛ وفي أثنائه آية أو جملة مقتبسة من

---

(١) أي: زادوها.

(٢) عاش الإمام ابن عبيد الله في الفترة التى عظم فيها اهتمام أدباء مصر والشام بأدب الغرب وترجمته وإدارة ظهورهم للأدب العربي ولقد اجتمع الإمام ابن عبيد الله في رحلة حجه سنة ١٣٥٤هـ بعدد من أدباء مصر منهم الدكتور محمد حسنين هيكل وذلك في الحفل الذي أقامه الملك عبد العزيز آل سعود لكبار الحجاج بقصر السقاف بمكة وقد تكلم ابن عبيد الله في هذا الحفل فانتقد اهتمام الأدباء المعاصرين بأدب الغرب وبين تفوق الأدب العربي عليه مما حاز إعجاب الملك والحاضرين.

(٣) نلاحظ هنا أن فكرة العلماء السابقين عن إعجاز القرآن محصورة بالأغلب في بلاغته بينما انحصر اهتمام المعاصرين بربط إعجاز القرآن بموافقته لبعض المكتشفات العلمية أو حتى في عدد الآيات وأرقام الآيات؛ مما يشكل في نظري ابتعاداً عن المطلوب وربما كان العذر لهم في ذلك عدم تمكن المعاصرين من أسرار اللغة العربية وبيانها وبلاغتها.

الذكر الحكيم؛ نصعت نصوعاً؛ وبرعت بروعاً؛ حتَّى كأنَّها القمر بين النجوم؛ أو الدُّرَّة اليتيمة في أثناء العقد المنظوم، كلا والله بلا نسبة أصلاً؛ وإنما هي كالدر والصدف؛ والجوهر والخزف؛ ويشترك في إدراك ذلك الصغير والكبير؛ والأعمى والبصير؛ أو ما هذا معناه أو قريبٌ منه. ولقد كنت أستعظمه؛ وأستعظم من جاء على لسانه؛ ولقد علمت أنه مأخوذ من قول المعرِّي في إعجاز القرآن؛ إذ ردَّ على ابن الراوندي[١].

لهذا فعندما تستعرض أفصح كلام يقدر عليه المخلوق؛ يكون كالشهاب المتلألئ في جنح الليالي المزهرة؛ البادية في جُدُوبٍ ذات نُسُقْ. وهذا هو الذي أشرنا إلى منافاته لما زنَّه به بغض مبغضيه. **وأخرى**؛ وهي أنني طالما قررت؛ أنَّ أفضل أنواع فصاحة القرآن؛ خِفَّة ألفاظه على أسلَّةِ اللسان[٢]؛ حتى لو اقْتَرَأَ أحدٌ حصةً منه؛ واقترأ حصة أخرى مما سواه؛ بقدرها في الحروف؛ لجاءت مدة الأولى أقصر من الثانية؛ وإن كان الغير[٣]؛ مما يحفظه القارىء؛ ويألف درسه؛ ويمر فيه مرَّ السهم؛ وفي التجربة مقنع لمن لم يصدِّق. ومنه يتأكد ما سبق في بحث الفاتحة؛ آخر الفائدة السابعة والعشرين؛ من تعيُّنِهَا للصلاة؛ لأنَّ أكبر ما يحتجُّ به المخالفون في ركنيتها؛ إنما هو قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[٤]. قالوا: هو تخيير بينها وبين غيرها! **ونقول في الجواب**: لا يختلف اثنان؛ بأنَّ الفاتحة هي أيسر ما يكون على الألسنة من القرآن؛ حتى أنهم ليقولون في الثناء على من شاؤوا بقوة الحفظ؛ أنه على طرف لسانه كالفاتحة. وأيُّ مانع من تفسير التيسير؛ بالسهولة على اللسان؛ بل إنه المتبادر المُتَعَيَّن؛ بشهادة قوله

---

(١) أبو الحسن أحمد بن يحيى الراوندي ولد بفارس سنة ٢١٠هـ وكان في بداية أمره من أعلام المعتزلة ثم تركهم وهاجمهم وتحول إلى التشيع ثم انتقل من التشيع إلى الزندقة والإلحاد.

(٢) الأَسَلَة: طَرَف الشيء المُسْتَدِقُ، أَسَلَةُ النَّصْل، وأَسَلَةُ اللسان، وأَسَلَةُ الذراع.

(٣) أي غير القرآن.

(٤) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾(١)؛ وأسْرُهُ على اللسان؛ من سابق الزمان إلى الآن؛ هو الفاتحة؛ فهي المقصودة. فثبت البرهان ونصعت الحجة؛ حتى على تسليم عزوها(٢) للصلاة مع أنها لم تنزل إلّا في صلاة الليل.

وعلى الإجمال؛ فإعجاز القرآن لا ينتهي أبد الزمان؛ فلو لم ينوِّه الله جل شأنه؛ بأنَّ محمداً خاتم النبيين؛ لأغنى عن ذلك؛ حياة كتابه الباقية؛ وتجدُّد معانيه؛ وتجلِّي أسراره على طول الأمد. ومن سنَّتِه جلَّ جلاله؛ أن لا يبعث الرسل إلّا عند الحاجة؛ وقد انتهت بهذا القرآن الذي نسخ الظلام؛ ونشر السلام؛ وبيَّن الأحكام؛ وناسب تطور أحوال الأنام؛ وضمن مصالح العالم على اختلاف الأيام؛ وتعهد بحفظه؛ والناس مُضَيِّعون أو نيام؛ فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. ويا له من حفظٍ؛ يفتح به البلاد عفواً؛ ويخبط به البحر رهواً. وينتشر والدواعي كثيرة لاكتتامه؛ وينتصر والجيوش مرابطة لاهتضامه.

وَآيَاتُه لَمْ يَمتَنِعْ عنْ وصُولِها جِدَارٌ مُعَلّى أو خِبَاءٌ مُطَنَّبُ

ولو أنَّ أكبر عالم أخطأ في حركة حرفٍ؛ لقام بالردِّ عليه صبيان المكاتب(٣)؛ ولو لم يتكفَّل الباري بحفظه؛ لكُنَّا أضعناه؛ أو اشترينا به ثمناً قليلاً من زمانٍ بعيد. وهذا من خصوصيات هذه الأمُّة المرحومة؛ وإلّا فأهل التوراة كلفوا حفظها؛ ولم يتكفَّل لهم به؛ فسبحانه لا نحصي ثناءً عليه؛ هو كما أثنى على نفسه.

ولشدة ما بين الشجاعة والبيان من التناسب؛ وما في ذينك من حسن الأحدوثة؛ وجمال الذكر بين العرب؛ كان ﷺ منهما؛ بالمكان الذي ينحدر منه السيل؛ ولا يرقى إليه الطير.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٧.

(٢) هذه الكلمة غير واضحة في المخطوطة.

(٣) أي الكتاتيب.

فَلَو لَمْ تَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيرَ رُوحِهِ   لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ الله سَائِلُهْ

وقال[١]:

يَجودُ بِالنَّفس إذْ ظَنَّ الجَوَادَ بِهَا   وَالجُودُ بِالنَّفْسِ أقْصَى غَايَةَ الجُودِ

والتدليل على جزئيات ذلك مع تواتره؛ كالتدليل على ضوء النهار؛ فهو تطويل لا معنى له؛ وما نجد شجاعاً قط إلّا أحصيت له فرَّة؛ وذكرت له هفوة. فقد فرّ عامر بن الطفيل عن أخيه يوم الرقم[٢]؛ وهرب. وهرب عيينة والرماح تنوش أباه يوم النسار[٣]. وتولَّى بسطام بن قيس[٤] عن قومه؛ وقد أثخنتهم الحرب يوم العظالي[٥]؛ وآثر النجاة بجريعة الذقن[٦]؛ عتيبة بن الحارث بن شهاب يوم ثبرة[٧]؛ وترك ابنه حرزة؛ وكان بِكْرُه؛ فقتله بنو تغلب؛ وكان عمر رضوان الله عليه ممن هرب في يوم حنين؛ ونجا الحارث بن هشام يوم بدر[٨]؛ برأس طمرة ولجام.

---

(١) لم يتوضح اسم الشاعر في المخطوطة.

(٢) الرقم اسم واد وقعت به معركة بين قوم عامر بن الطفيل وبنو مرة فانهزم قوم عامر فلما رآهم منهزمين ألقى بسلاحه وفر هارباً وعامر بن الطفيل من سادات الجاهلية شاعر وفارس فتاك أدرك الإسلام ولم يسلم.

(٣) يوم النسار من حروب العرب المشهورة في الجاهلية وكان بين ضبة وتميم.

(٤) بسطام بن قيس؛ سيد بني شيبان، ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية ويضرب به المثل في الفروسية.

(٥) من أيام العرب في الجاهلية وكان بين بكر بن وائل وتميم وكان آخر أيامهم.

(٦) يقال: أفلت فلان بجريعة الذقن: أي: أفلت بعدما أشرف على الهلاك (حيث صارت روحه في فيه).

(٧) يوم ثبرة من أيام العرب في الجاهلية والثبرة الأرض السهلة.

(٨) من شجعان العرب أسلم يوم الفتح وجاهد في الشام بأهله وماله واستشهد في موقعة اليرموك؛ وكان قد شهد بدراً كافراً، فانهزم، وعُيِّر بفراره بأبيات مشهورة:

إن كنت كاذبة بما حدثتني   فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم   ونجا برأس طمرة ولجام =

وسيد المرسلين كان في أحرج موقفٍ على بغلة؛ ثم لم يكْفِهِ حتى ترجَّل؛ ثم زاد الطين بلة؛ وشَهَّرَ بنفسه؛ عندما زلت الأقدام؛ وتخاذلت الأيدي؛ واصطَكَّت الركب؛ واصفرَّت الجباه؛ واحوَلَّت العيون؛ وأخذ يقول:

أنَـا الـنَّـبِـيُّ لا كَـذِبْ ... أنَـا ابـنُ عَـبْـدِ الـمُـطَّـلِـب

وكله ناشئ عن صدق التوكل؛ وكمال الثقة؛ ومحض الاعتماد على الله؛ ولهذا كان رابط الجأش هنا؛ ويوم الغار؛ وإنما أخذه الخوف يوم بدر في العريش؛ وألحَّ على ربِّه في الدعاء؛ وقال لأصحابه: لا تجيبوا أبا سفيان؛ حين قال لهم: أفي القتلى محمد؟ في واقعةِ أحدٍ لأنَّ الأسباب إذ ذاك موجودة؛ فخشي أن يوجد عنده نوعُ التفاتٍ إليها؛ فيكله الله إليه؛ ومنه تعرف أنَّ ما كان من أبي بكر من القلق يوم الغار؛ والسكون يوم العريش؛ وما كان.........[1] من عمر لأبي سفيان بعد الفيئة؛ كل ذلك منحط بدرجات شاسعةٍ؛ عن كماله ﷺ؛ **والحاصل**: أنّ ما اجتمع في نفسه ﷺ؛ من محاسن الخلال؛ ومكارم الأخلاق؛ هو بعينه من المعجزات.

لَـولا عَـجَـائـبَ صُـنـعِ الـلَّـهِ مَـا نَـبَـتَـتْ ... تِـلـكَ الـشَّـمَـائـلُ فِـي لَـحْـمٍ وَلا عَـصَـبِ

وفوق ذلك؛ فمعجزة القرآن كما تقرر؛ خالدةٌ على مرِّ الليالي؛ فلم نعدم منه ﷺ؛ إلّا شخصه الكريم.

يَـا عَـيـنُ إنْ بَـعُـدَ الـحَـبـيـبُ وَدَارُهُ ... وَنَـأَتْ مَـنَـازِلُـهُ وَشَـطَّ مَـزَارُهُ

فَـلَـقَـدْ ظَـفِـرتُ مِـنَ الـحَـبـيـبِ بِـطَـائـلٍ ... إنْ لَـمْ تَـرِيـهِ فَـهـذِهِ آثَـارُهُ

لا تفنى على مرِّ الآباد؛ ولا تَخْلَقْ على كثرة التَّرْدَاذْ؛ بل لا يزدادها التكرار إلّا صِقَالاً؛ ولا كثرة التأمّل إلّا جمالاً؛ على حدّ قول أبي نواس:

= فاعتذر الحارث عن فراره بقوله:

الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى رموا فرسي بأشقر مزبد

(١) كلمة مطموسة في المخطوطة.

يَـــزِيـــدُكَ وَجــهُـــهُ حُــسْــنــاً إذا مَـــــا زِدتَـــــهُ نَـــــظَـــــر

وقوله:

لـــلــحُــسْـــنِ فِــي وَجَــنَــاتِــهِ بِــدَعٌ مَــا أنْ يَــمَــلَّ الــدَّرْسَ قَــارِيــهَــا

وقوله:

مَا يَرْجِعُ الطَّرفُ عَنهَا حينَ يُبصرُهَا حَتَّى يَعودَ إليهَا الطرفُ مُشتَاقَا

وقول البحتري:

مُشْرِقٌ فِي جَوانِبِ السَّمْعِ مَا يُخْلِقُـــ ـــهُ عَــودُهُ عُــلــى الــمُــســتَــعِــيــدِ

وقول أبي الطيب:

فَهْوَ الـمُـشَـيَّـعُ بِـالـمَـسَـامِـعِ إنْ مَضَـى وَهْـوَ الـمُـضَـاعَـفُ حُـسْـنُـهُ إنْ كَـرَّرَا

وقول ابن الخيمي:

مَـا يَـنـتَـهِـي نَـظَـرِي مِـنْـهَـا إلَـى رُتَـبٍ فِي الـحُـسْـنِ إلَّا وَلاحَـتْ فَـوقَـهَـا رُتَـبُ

وقال الآخر:

كَــأَنَّــمَــا عَــسَــلُ رُجْــعَــانَ مَــنْــطِــقُــهُ إنْ كَـانَ رَجْـعُ كَـلامٍ يُـشْـبِـهُ الـعَـسَـلا[1]

هذا والكلام طويل؛ والحديث شجون؛ والشوط بطين؛ وقد ازدحمت المعاني؛ وتداخلت الأعراض؛ وتعاظلت الشواهد؛ وتشابهت الوجوه؛ وازدوجت الفصول. ولا ملام فقد أخذنا من الفكر ما سمح؛ ومن الحفظ ما حضر؛ ومن البديهة ما حصل؛ ويعجبني قول الحطيئة:

فَـهَـذَا بَـديـهَـةٌ لا كَـتَـحْـبِـيـرِ قَـائِـلٍ إذا مَـــا أَرَادَ الـــقَـــولَ زَوَّرَهُ شَـــهْـــرَا

وأستغفر الله من الخطأ والخطل؛ ومن حصائد اللسان؛ وقبح الزلل؛

(١) يبدو أن عسل رجعان نوع فاخر من العسل وعند الحضارمة عسل جردان هو أفخر أنواع العسل.

وأعتذر عما في رواية الأشعار وعزوها من التحريف؛ لأنها من الذاكرة؛ بأنني رأيتهم يتسامحون في مثل ذلك؛ كما عند الجاحظ؛ وابن عبد ربه؛ وغيرهم؛ وعسى أن يكون ما ذهب به حفظي إليه؛ أحسن مما هو عليه في الواقع؛ ولن يساء صاحبه بذلك إن شاء الله.

والحمد لله أولاً وآخراً؛ وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم؛ وكان الفراغ منه في شوال من سنة ١٣٥٣ هـ؛ والله وليُّ القبول والتوفيق. **ويليه الجزء الثاني؛ وأوله الفائدة الثالثة والثلاثون**(١).



(١) وللأسف فإن الجزءين الثاني والثالث من هذا السفر العظيم لا زالا مفقودين ونسأل الله تعالى أن ييسر له من يبيِّن مكانهما؛ ويحفظ بيانهما.



السيف الحاد لقطع الإلحاد

تأليف

الإمام العلامة الفقيه المؤرخ اللغوي

عبد الرحمن بن عبيد الله بن محسن السقاف

الحسيني الحضرمي الشافعي رحمه الله

١٣٠٠ - ١٣٧٥هـ

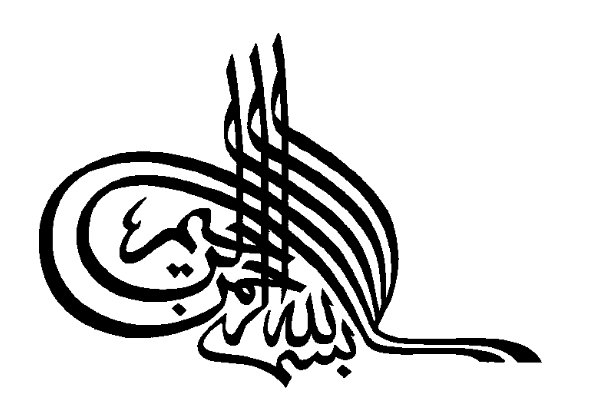
تحقيق

علي بن محسن بن علوي السقاف

سبط الإمام

الأميرة

للطباعة والنشر والتوزيع



مقدمة محقق الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وبعد.

تبيِّن هذه الرسالة القصيرة التي كتبها الإمام ابن عبيد الله؛ تنوع العلوم التي أتقنها هذا الإمام وتظهر أيضاً المعارف التي انفرد بها؛ فقد وجدناه في كتابه صوب الركام؛ فقيهاً متميزاً؛ ورأيناه في إدام القوت؛ مؤرِّخاً موسوعياً؛ وعرفناه في بضائع التابوت سياسياً وزعيماً؛ ورأيناه في العود الهندي أديباً متفنناً؛ ووجدناه في النجم المضيء ناقداً أديباً خبيراً؛ ورأيناه في بلابل التغريد فيلسوفاً وعالماً اجتماعياً؛ وقرأناه في ديوانه الشعري؛ شاعراً مبدعاً؛ كما رأينا صنوفاً أخرى من علومه؛ وأنواعاً أخرى من فنونه؛ في رسائله الأخرى المتعددة؛ والتي شملت أدب الرحلات؛ ومختصر المسرحيات؛ والأخلاق والاجتماعيات؛ بالإضافة إلى ما عرف من نوادره وملحه ونكاته مع خاصته وزُوَّاره ومحبيه والتي وردت طائفة منه في كتب محبيه ومرافقيه؛ مثل كتاب سيدي الوالد محسن بن علوي السقاف مذكراتي ومختاراتي.

وها نحن نلتقي بالإمام ابن عبيد الله في هذا الكتاب أو الرسالة؛ السيف الحاد لقطع الإلحاد؛ مدافعاً قوياً عن دين الإسلام ومنافحاً بليغاً عن سيد الأنام وخاتم رُسِلِ ربِّنا الملك العلام؛ سيدنا محمد ﷺ؛ بل ونكتشف أيضاً إلمام الإمام بالديانات الأخرى؛ وبأقوال الفلاسفة والملحدين؛ وما حصل في ديانة أهل الكتاب من التغيير والتبديل والتحريف.

وقد بيَّن الإمام ابن عبيد الله بسيفه الحاد؛ فساد رأي مؤلف كتاب توحيد

الأديان وقال: قد فرغت من بيان كفر أهل الكتاب؛ وحكم من شكَّ فيه، وخرجت من إثبات الحجة؛ بأنَّ أهل الكتاب لم يتم إيمانهم بكتبهم؛ لجحودهم ما فيها من البشائر بمحمد ﷺ (انتهى).

كما أورد الإمام ابن عبيد الله مستعيناً ببعض المؤلفات؛ ما بقي في كتبهم المقدسة من البشائر والآيات الدَّالة على الوعد الإلهي الذي محوه من كتبهم؛ وكتموه في صدورهم؛ بظهور خاتم الرسالات؛ ومتمِّم شريعة ربِّ البريات؛ وناسخ ما قبلها من الديانات؛ سيدنا محمد ﷺ. ويقول الإمام ابن عبيد الله: إنَّ ذلك خَفِي عليهم؛ ولو أدركوه وعرفوه لَمَحَوْه بماء عيونهم؛ ويستدرك الإمام ابن عبيد الله فيقول: ومعاذ الله أن نحاول إثبات نبوة سيِّد البشر من هذه البشائر، لأن ثبوتها قد ارتكز على أرسخ الأركان؛ وأركن الدعائم (انتهى).

ولا داعي في نظري للتعريف بما جاء في كتاب أو رسالة السيف الحاد؛ لأنَّ الرسالة على غزارة مادَّتها جاءت قصيرة ومُلَخَّصة؛ وليس بعد التلخيص والفذلكة؛ تلخيص؛ بل يكفي القارئ أن يتصفَّحَها؛ ليعرف ما فيها؛ ويُلِمَّ بِلُبِّها وحواشيها.

وكعادة الإمام في مصنفاته؛ فإنه ينثر بين الحين والآخر؛ العديد من المعلومات المُهِمَّة والمفاهيم الذكيَّة؛ فنراه في هذه الرسالة؛ يُقَدِّم مفهوماً جديداً؛ وتفسيراً غريباً لقول الله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ مستنداً إلى كروية الأرض؛ التي لم يعرفها المفسرون السابقون. كما استنتج الإمام أيضاً نشوب الحرب العالمية الثانية؛ قبل وقوعها بزمن؛ مع استبعاد حدوثها بتحكيم العقل والمنطق وتسلسل الأحداث.

إلّا أنني اندهشت من قدرة الإمام العجيبة على انتزاع الشواهد من آيات الذكر الحكيم؛ وهي في نظري مرتبة تعلو على مرتبة الحفظ؛ وهي نتيجة مؤكدة لقوة الحفظ مع الفهم العميق والإحاطة التامة بآي القرآن الكريم ومعانيها ودلالاتها. بل ويورد الإمام أيضاً؛ الأحاديث من الصحاح والأمهات؛ وكأنها

مشرعة أمامه؛ يقرأ من حيث يشاء ويختار من حيث يريد. بل إنني اندهشت جداً من اطلاع الإمام ابن عبيد الله على الأناجيل الأربعة؛ ورسائل بولس؛ وأعمال الحواريين. وسبب اندهاشي؛ أن ذلك تيسّر له في حضرموت؛ ذلك البلد المعزول؛ الذي تندر فيه كتب المسلمين؛ فضلاً عن كتب اليهود والنصارى والمشركين.

كما أبدى الإمام ملاحظة مهمة؛ على وصية المسيح المشهورة؛ والتي لم يطبِّقها المسيحيون وهي قوله: «من ضربك على خدِّك الأيسر؛ فأدر له خدَّك الأيمن» فعلق عليها بقوله: إنه لا يصلح أن يتأسس بها دين؛ يُنْزِلُ الناس منازلهم؛ ويضع الحقوق مواضعها؛ وينصف المظلوم من الظالم؛ ثم بيَّن الإمام خطورة تطبيق ذلك فقال: ولو تأثَّر الناس بذلك؛ لأفضى إلى الخراب؛ وانتهى إلى الانقراض (انتهى)

كما يستغرب الإمام جداً محاباة النصارى لليهود؛ وتقديمهم للمناصب العالية؛ وتعليتهم للرتب الرفيعة؛ رغم ما يضمرونه في قلوبهم للنصارى من الغلِّ والكره والبغضاء؛ من سابق الزمان.

ومن النكت الفقهية النفيسة التي جاءت بين ثنايا كلام الإمام؛ عند بحثه في مسألة التخيير بين الإسلام والجزية؛ قوله: حتَّى لو قال اللصوص لرجل: ادفع لنا مائة أو طلِّق امرأتك؛ وإلّا فعلنا بك كيت وكيت؛ فطَلَّق؛ نفذ طلاقه؛ لأنه لم يكره؛ وإنما خُيِّر فاختار، وهذه دقيقة يجهلها كثيرٌ من الناس (انتهى).

وقد كنت في شك في أنَّ كتاب توحيد الأديان؛ من وضع أحد المستشرقين؛ لأنَّ مثل هذه المناقشات والاستنتاجات يستبعد أن تأتي من هذا المؤلف المغمور؛ ولكن صَعُبَ عليّ التحقق من هذا الأمر؛ بعد مرور زمن طويل على هذه القضيَّة؛ فقد طبع الرد عليه؛ وهو كتاب السيف الحاد في سنة ١٣٦٩هـ؛ ومات أغلب معاصري الإمام ومعارفه. ولكن لحسن الحظ وجدت أحد الشيوخ؛ ممن عاصر الإمام ابن عبيد الله في شبابه؛ وعندما ذكرت له كتاب توحيد الأديان؛ بادرني بالقول: إن هذا الكتاب الذي تتحدث عنه هو من تأليف

أحد المستشرقين؛ وأنه قد أعطاه هذا المؤلِف العربي المسلم في عدن؛ لينشره ويضع عليه اسمه؛ فيكون الكتاب أكثر تأثيراً وأبعد أثراً؛ مما لو نشره المستشرق باسمه الصريح. فأكَّد لي هذا الكلام ما كان يداخلني من الشك.

ولا أدري هل أدرك الإمام ابن عبيد الله هذا الأمر؛ أو أنه قَصَرَ اهتمامه على مادة الكتاب أكثر؛ من اهتمامه بمؤلفه أو غير ذلك؟؛ ولكن العلامة علوي بن طاهر الحداد الذي أورد الإمام ردّه على كتاب توحيد الأديان؛ والذي عاش سنين طويلة بالشرق الأقصى وعمل لأكثر من عشرين سنة مفتياً لولاية جوهور؛ قال في ردِّه على كتاب توحيد الأديان: فقد رأينا مثله فيما يكتبه رجال جمعية التبشير بتوحيد الأديان؛ وهي جمعية معروفة؛ فيها نصارى ويهود وأقباط؛ وهي سياسية كالماسونية؛ وذلك أصل من أصول الديانة البوذية (انتهى).

والإنجليز بدهائهم المعروف؛ لا يهاجمون الإسلام مباشرة؛ بل يلتفون حول الأمور التي يريدونها؛ ولا يقصدونها مباشرة؛ ويثابرون على تحقيقها ولو بالأسلوب البطيء تبعاً لمبدئهم القائل: (بطيء ولكن مؤكَّد). وزيادة في التمويه والتخفِّي؛ فإنهم ينشرون الكتب التي كتبها كبار مستشرقيهم؛ ممن أتقنوا العربية؛ وسبروا أغوار دين المسلمين؛ وعرفوا المناطق التي يتسللون منها؛ والعورات التي ينفذون من خلالها؛ ثم ينشرونها بأسماء أوليائهم من المسلمين؛ لتكون مقبولة عند المسلمين؛ ومحترمة عند القارئين؛ وهذه من أساليبهم المعروفة منذ زمن بعيد.

ولا يبعد عن هذا الأمر كتاب الشيخ علي عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم الذي نشره إبَّان الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة ١٣٤٧هـ فأحدث ضجَّة؛ وحمل عليه الأزهر حملة شديدة وجرَّده من الشهادة العالمية الأزهرية. والشاهد هنا ما قيل؛ من إنَّ المستشرق (مرجليوث) هو الذي كتب مادته؛ بل قال الشيخ محمود شاكر: إن مرجليوث هو صاحب الأصل الذي نقل عنه طه حسين بحثه عن (الشعر الجاهلي)؛ وقد أحدث كتاب طه حسين؛ أيضاً ضجة؛ وكان له دور في التشويش والتشكيك على شباب المسلمين.

وكتاب توحيد الأديان واتحاد العالم؛ الذي وزع ببلدة سيؤون بحضرموت على الأعيان؛ وبعض طلبة العلم؛ هو من هذا القبيل؛ رغم غرابة هذا التصرف في بلد يقوم فيها عماد الحياة على دين الإسلام؛ ومنه خرج الدعاة الذين نشروا الإسلام في أفريقيا وشرق آسيا.

ولكن هؤلاء القوم لا ييأسون؛ ويستخدمون جميع الأساليب المتاحة لتحقيق أهدافهم؛ ومن ذلك قول الإمام ابن عبيد الله: بلغني بعد هذا أن إنكليزياً يقال له ديفي؛ جاء على بيحان[1]؛ وأراد أن يشوِّش على أفكار بعضهم بنوع من ذلك؛ فردُّوا عليه وأفحموه مع عاميتهم، وذكر لي بعضهم أن هناك جمعية تحاول ذلك وتدعو إليه؛ كما حاولت جمعية إخوان الصفا أن تجمع بين الفلسفة والشريعة (انتهى).

ولبساطة أهل العلم بحضرموت؛ وانقطاعهم إلى الزهد والعبادة؛ وابتعادهم عن أمور السياسة ومسائل الخلاف؛ فإنَّهم كما قال الإمام: لم يَرَوْا بكتاب توحيد الأديان بأساً؛ مما دفع الإمام ابن عبيد الله إلى القول: فعجبت من انطلاء ما فيه من الغش الظاهر على من يُعَدُّ في طلبة العلم (انتهى).

إلّا أن الله سبحانه وتعالى؛ الذي هيَّأ العديد من العلماء السابقين؛ وهيأ الأزهر وعلماء مصر المتأخرين؛ لحماية الدين؛ وحراسة بيضة المسلمين؛ وصدّ هجمات الملحدين والمشككين والمستشرقين؛ أوجد أيضاً في حضرموت؛ ذلك البلد المعزول؛ البعيد عن أحداث العالم؛ القليل الدراية والمعرفة بمثل هذه الأبحاث والقضايا؛ أوجد فيه سبحانه؛ من العلماء الأعلام من مثل الإمام ابن عبيد الله؛ ومثل العلامة علوي بن طاهر الحداد؛ ليذِبُّوا عن دين المسلمين؛ ويدفعوا عنه غوائل المعتدين؛ ويفسدوا مكر الماكرين؛ ويفنِّدوا دسائس المستشرقين.

---

(١) إمارات بيحان كانت إحدى المحميات البريطانية وهي اليوم ضمن الجمهورية اليمنية وتبعد عن عتق عاصمة شبوة ٢٠٠ كيلومتر.

هذا ومع اندحار هذه الموجة من الملحدين والمشككين في دين المسلمين؛ إلّا أنَّ المسألة قمينة بالعودة بين الحين والآخر؛ ومن هنا تظهر أهمية هذه الرسالة للإمام؛ كمستند متكامل للرد على هذه الدعوات ووأد هذه الافتراءات.

هذا وكعادة الإمام في كتبه الأخرى نراه يستدرك أحياناً كما فعل هنا؛ على الأئمة الكبار؛ كابن القيِّم والغزالي. وقال: إنَّ الإمام ابن حجر الهيتمي؛ نقل عن كتاب (تذييل الأرائك) للسيوطي دون عزوٍ إلى المصدر.

وقد وجَّه الإمام في كتابه هذا؛ كما فعل في بلابل التغريد؛ بعض الملاحظات القاسية إلى معاصريه وقومه في حضرموت؛ والذين تعرض منهم لحملات ومعارضات؛ سببها صراحته الشديدة وجرأته العنيدة؛ واعتراضه على كل ما يجده مخالفاً للفقه؛ لكنه قد يبالغ أحياناً؛ وقد اعترف في كتابه بضائع التابوت؛ بأنه قد يأتيه من ينقل إليه كلاماً غير صحيح؛ فينفعل على الفور ويعترض ويتكلم؛ ثم يندم ويتراجع عن ذلك؛ حين يتبيّن له عدم صحة ما نقل إليه من كلام؛ وما رفع إليه من أخبار.

كما أكثر الإمام في بعض الفصول من الاستشهاد بالأحاديث التي تقاربت معانيها مما وجدت نوعاً من الإطالة لكنه علَّل ذلك بقوله: الإكثار أبعد عن التأويل وأظهر للمنار، إذ التواتر أدمغ الحجج وأبلغ البراهين، (انتهى).

أتمنى أن يجد القارئ؛ وطلبة العلم؛ والباحثين؛ بغيتهم المنشودة في هذا الكتاب؛ أو الرسالة؛ والتي لم تتجاوز صفحاتها المائة؛ والتي قام الإمام بطبعها على نفقته؛ رغم ضعف ماليته؛ وطبعتها طبعة حجرية مكتبة الكمال بعدن سنة ١٣٦٩هـ؛ وذلك لشعوره بأهمية الموضوع؛ وخطورة ما يترتب على ترك هذه الفرية بدون تفنيد ولا توضيح.

وقد رأيت أن أضم هذا الكتاب؛ لكتاب بلابل التغريد؛ لتقارب مواضيعهما؛ ولأنَّ هذا الكتاب لو ترك الآن؛ فربما لم يقم أحد بعد ذلك بتحقيقه وطباعته. وقد قمت بتحقيق الكتاب في فترة شهرين وأضفته لكتاب الإمام بلابل

التغريد وكان الانتهاء من ذلك يوم الثلاثاء ١٢ صفر من عام ١٤٣٦هـ.

جعل الله عملي في هذا الكتاب خالصاً لوجه الله الكريم؛ وبراً بجدِّي لأمِّي الإمام العظيم؛ والحمد لله رب العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

علي محسن السقاف

مقدمة مصنف الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله كاشف الغمم، وباسط النعم، ودافع النقم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه خير الأمم.

أما بعد؛ فقد وصلني الغداة السيد عبد القادر بن سالم الحبشي؛ يحمل كتاباً سماه صاحبه «توحيد الأديان واتحاد العالم» وذكر أنه تحدث فيه مع بعض الدرسة بسيئون؛ فلم ير به بأساً؛ وأن الذي أهداه له؛ ووزَّع نسخاً منه على الأعيان في كل مكان؛ هو الفاضل السيد فلان، فعجبت من انطلاء ما فيه من الغش الظاهر على من يُعَدُّ في طلبة العلم، وكان عجبي أكثر؛ إذ تخطَّاني السيد فلان؛ وهو صديقي الكريم؛ ووليي الحميم؛ ولم يبعث له نسخة منه. إذ لم يكن ظنِّي به؛ إلّا بقاءه على صدق الثناء؛ وإخلاص الود (فما عدا مما بدا)! افتراه استقلني؟ كل ذلك يجوز والدنيا عجوز.

ولما صار وِدُّ الناس خِبًّا جَزَيْتُ على ابتسامٍ بابتسامِ
وصِرْتُ أشَكُّ فِيمَنْ أصْطَفيهِ لِعلمِي أنَّه بَعْضُ الأنامِ

أمَّا أنا؛ فبمجرد ما رأيته أنكرته. **أما أولاً**: فلأنه يحاول أمراً لم يُرِدْهُ ربُّه؛ كما في سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1]؛ وكما قال في سورة النحل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١]؛ وقال في سورة يونس: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢] وقال في سورة هود: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٣] وقال في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٤] وقال في سورة الزخرف: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٥].

ولكن صاحب ذلك الكتاب؛ الذي أُكَنِّي عنه فيما بعد؛ بالمؤلف؛ طمع فيما أيِسَ منه سَيِّدُ المرسلين؛ وأراد أن يُغْلِقَ أبواب جهنم؛ خلاف ما تمَّت به كلمةُ ربِّك؛ وجعل الناس كلهم أمَّةً واحدة؛ بغير إذن الله.

وردني السيد عبد القادر بذلك الكتاب؛ وأنا أشغل من ذات نَحْيَيْن؛ بتأليف معجم لبلاد حضرموت؛ طلبه مني الفاضل الوجيه عبد الله بلخير؛ لِيَضُمَّ ما ينويه؛ ناصر العلم؛ ولي عهد الحجاز ونجد؛ من تقويم بلدان شبه الجزيرة. ولكني رأيت هذا ألزم؛ والأخذ بنقده أحزم. وهزَّتني حَمِيَّة الدين، وأخذتني حِدَّة تليق

(١) سورة النحل، الآية: ٩٣.
(٢) سورة يونس، الآيتان: ٩٩ ـ ١٠٠.
(٣) سورة هود، الآيتان: ١١٨ ـ ١١٩.
(٤) سورة الشورى، الآيتان: ٧ ـ ٨.
(٥) سورة الزخرف، الآيات: ٣٣ ـ ٣٥.

بمثلي من المسلمين. فهجرت المهاد؛ وأخذت حظّي من الجهاد. واستعذبت الألم؛ واعتقلت القلم؛ وأنشدت ما قال بعض العلويين رحمه الله:

يَا قَلَمِي لِنُصْرَةِ الحَقِّ تَهِي مُبَسْمِلاً مُحَوْقِلا مِنْ غَيرِ عِي

وسأتكلم على ما يحتاج في فصول:

الفصل الأول

في إبطال استدلاله

الفصل الأول
في إبطال استدلاله

لقد استدلَّ بسورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، وسورة المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] دلَّلَ بذلك على تسميتهم مؤمنين؛ وإن لم يُقِرُّوا بمحمد ﷺ؛ ولا اتبعوه. فقال في صفحة (١٠): وهذه آية صريحة في الدعوة إلى الرجوع إلى أصول الأديان؛ وهي: الإيمان بالله، واليوم الآخر؛ والعمل الصالح؛ وأنَّ المؤمنين بها من كل دين؛ هم فائزون جميعاً. وقال في صفحة (١٢): لأننا نعتقد أنَّ دين الله واحد؛ وأنَّ أصول الأديان جميعها واحدة؛ وإنْ تعدَّدَت الفروع؛ وأنَّ الرجوع إلى تلك الأصول؛ هو الحلُّ الصحيح لاتحاد العالم؛ والإيمان الكامل.

فهو يجزم؛ ويصرِّح؛ ويمجمج؛ ويلوِّح: بأنَّ الأمم إذا آمنت بالله واليوم الآخر؛ والعمل الصالح؛ كفاها ذلك في النجاة من الخوف والحَزَنْ؛ وإنْ لم تؤمن بمحمَّد وتتبعه في فروع شريعته؛ إذ الاختلاف عنده لا يضرُّ فيها. ولا يخرج عن دائرة الإيمان؛ إلّا من جحد الله والدار الآخرة. وقال في صفحة (١٦): ولم ينشأ الإلحاد والشكُّ إلّا عند طائفة قليلة من الفلاسفة. وقال في صفحة (١٨):

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٩.

وقد قرر القرآن الكريم؛ أنَّ هذه الأصول؛ هي الأصول الأساسية لجميع الأديان؛ كما بيَّن وقرَّر أن المتبعين لهذه الأصول من أهل الأديان؛ هم جميعاً من المهتدين الفائزين؛ ولم يجعل ذلك وقفاً على المسلمين وحدهم إلخ. وقال في صفحة (٢٠): إن جميع أهل الكتب السماوية؛ وهم المُعَبَّر عنهم في القرآن؛ باسم أهل الكتاب؛ هم أهل هداية ورشاد؛ ما لم يخرجوا عن جادَّة الإيمان الصحيح بالله. وأعاد الآية الكريمة؛ للتدليل بها على الاقتصار على أصول الدين الثلاثة بزعمه؛ وهي: الإيمان بالله؛ والدار الآخرة؛ والعمل الصالح. وكلامه في قوة التصريح: بأنه لا يضر الاختلاف فيما سوى هذه الثلاثة. وقال في صفحة (٢٦): وزاد القرآن فاعترف بأن التابعين للأديان الأخرى؛ إذا آمنوا بالله واليوم الآخر؛ وعملوا العمل الصالح؛ فهم ناجون مهتدون؛ كما في الآية الجامعة (وأعادها). وقال في صفحة (٣٢): مما سبق يتضح لك: أنَّ الشروط الوحيدة للهداية والرشاد هي ما دعت إليها أصول الأديان كلها؛ وقد أجملتها الآية الكريمة (وأعادها). وعدَّدَ الأصول الثلاثة. ثم قال: «والمؤمن من أي دين كان؛ إذا أقرَّ واعترف بذلك فهو من المهتدين المفلحين». وصرح أثره: بأنه لا يضر الاختلاف في الفروع؛ فمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً؛ فهو مؤمن؛ سواء كان (في زعمه) يهودياً أو نصرانياً أو بوذياً أو غير ذلك؛ وإن لم يصدِّق بمحمَّد ﷺ؛ ولم يتبعه في فروع شريعته. لأنَّ مخالفتها لا تضر بزعمه؛ سبحانك هذا بهتان عظيم.

وعلى الجملة: فليس في كتابه شيء غريب؛ إلّا ما توهَّم أنه انفرد بفهمه من تلك الآية الشريفة؛ فبنى عليه الكتاب؛ وأبرق وأرعد وأرغى وأزبد وأغور وأنجد. وظنَّ كما في صفحة (١٨) أنه اهتدى لما ضلَّ عنه المفكرون قديماً وحديثاً. ليس في كتابه ما يزيد عن هذا؛ إلّا ما لا يحتاج إلى نقض؛ من الإلحاد المكشوف في صفحة (٥٠)؛ بمحاولته إنكار حقيقة سجود الملائكة لآدم؛ وتأويله بتسخير الكون بنواميسه وملائكته الموكّلين به؛ ومحاولته كذلك لإنكار حقيقة إبليس؛ وتأويله بالقُوَّة النزَّاعة إلى الشر.

فمثل ذلك؛ وإن كان مما تقف له الشعور؛ وتضيق به الصدور؛ غَنِيٌّ عن

الإبطال؛ لأنه بديهي الفساد؛ فهو مما يُعَيَّن على التدليل لفساد نيته؛ وكشف ما يريد من تغطية باطلة. فإن الحق لا يلتئم.

وأما الشق الأول؛ فنقول في الجواب عنه: لقد أجمع المسلمون؛ على أنْ؛ لا إسلام؛ لمن فرَّق بين الشهادتين أصلاً؛ ومن شكَّ في كفر اليهود والنصارى؛ فهو كافر؛ بإجماع العلماء؛ ومنهم الإمام الشافعي؛ الذي أطنب في مدحه؛ واحتجَّ بكلامه في الصفحات (٢٧ و٢٨ و٢٩) من كتابه. ولئن لم تكن عندي عبارة الأم[١]؛ فإن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى مراجعتها. وهذه بين يديَّ عبارة الروض[٢] في المُكَفِّرات ونصُّها: أو: شَكَّ في تكفير اليهود والنصارى اهـ. وعبارة أصله؛ الروضة[٣]؛ أو لم يُكَفِّر من دان بغير الإسلام؛ كالنصارى؛ أو شكَّ في كفرهم؛ أو صحَّحَ مذهبهم اهـ.

نعم! قال في جمع الجوامع[٤]: المصيب في العقليات واحداً؛ ونافي الإسلام مخطئ آثم كافر. وقال الجاحظ[٥] والعنبري[٦]: لا يأثم المجتهد؛ قيل

(١) كتاب فقه من تأليف الإمام الشافعي.

(٢) روض الطالب ونهاية مطلب الراغب تأليف العلامة اليمني شرف الدين ابن المقري المتوفي سنة ٨٣٧هـ ويختصر الفقهاء اسمه بالروض وهو عبارة عن اختصار لروضة الطالبين للإمام النووي وقد شرح الروض جماعة من العلماء منهم شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦) في كتابه أسنى المطالب شرح روض الطالب.

(٣) روضة الطالبين في الفقه الشافعي للإمام النووي.

(٤) جمع الجوامع في أصول الفقه لجلال الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية.

(٥) أبو عثمان الجاحظ (١٥٠ ـ ٢٥٥هـ) كان دميماً أسود البشرة وعاش فقيراً وله نهم للقراءة فكان يبيت في دكاكين الوراقين ويقرأ ما فيها من الكتب ويختزن ما يقرأ في ذاكرته له مصنفات عديدة أشهرها البيان والتبيين والبخلاء وكتاب الحيوان. له اطلاع على الثقافة اليونانية والفارسية وكان ميالاً للفكاهة.

(٦) عبيد الله بن الحسن العنبري كان من ثقة أهل الحديث، ومن كبار العلماء العارفين بالسنة، إلّا أن الناس رموه بالبدعة بسبب قول حكي عنه من أنه كان يقول: بأن كل مجتهد من أهل الأديان مصيب، حتى كفَّره القاضي أبو بكر الباقلاني وغيره؛ وقال مثل هذا القول أبو عثمان الجاحظ.

بشرط قبول الإسلام؛ وقيل مطلقاً اهـ. ومع سقوط هذا القول؛ لتقدُّم الإجماع عليه من الصحابة بقتال الكفار؛ وأنَّهم في النار؛ بلا فرق بين مجتهدٍ ومعاند؛ فقد جزم بعضهم؛ بأنَّ مراد العنبري: الاجتهاد فيما يختلف فيه أهل القبلة؛ ويرجع المخالفون فيه إلى آليات تحتمل التأويل. فأمَّا ما اختلف فيه المسلمون وغيرهم من أهل الملل؛ كاليهود والمجوس والنصارى؛ فيقطع فيه بصواب أهل الإسلام؛ وخطأ أولئك. لأنَّا لا نظنُ أنَّ أحداً من هذه الأمَّة؛ إلّا وهو يقطع بتضليل اليهود والمجوس والنصارى. وعليه ينبغي أن يحمل قول الجاحظ؛ لأنه من المسلمين؛ وبعد التنزُّل وافتراض أنَّ الرجلين أرادا ما هو أعمُّ من ذلك؛ فإنه إلحاد جزئي؛ لا يبلغ أصغرانية المؤلف[1].

أما كلامه[2]؛ فلولا سقوطه بذاته؛ لكان أدهى وأمر؛ وأقبح وأضر. والقول الفصل كتاب الله؛ فإن فيه الشفاء والرحمة للمؤمنين، ولو أردت استيعاب الأدِّلة القاطعة على ذلك؛ منه ومن سنة رسوله؛ لأوردت ربعاً من الأول؛ وجزءاً من الثاني، ولكني أتبرَّك بما ينير العقول ويقر العيون؛ بادياً بما على حبل ذراعه؛ وطرف الثمام منه؛ مما قبل الآية؛ في الموضعين فقبلها؛ في البقرة قوله جل ذكـــــره: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[3].

وموضع الشاهد: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ فإمَّا أن يقول: إن القرآن ليس منها[4]؛ وإمَّا أن يسلِّم؛ بأنه لا يصح إيمانهم بالله واليوم

---

(١) أي صاحب كتاب توحيد الأديان. (٢) أي هذا المؤلف.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦١.

(٤) أي آيات الله.

الآخر؛ إلّا بشرط الإقرار بها؛ وبمن جاء بها. فيرجع عما صرَّح به في تلك الصفحات السبع المشؤومة؛ وغيرها؛ من كتابه؛ ويستعيذ من الشيطان؛ ويجدِّد الشهادة، ولا يأنف أن يذهب كتابه هدراً؛ ويستحيل هباءً؛ فإنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم المعصومة؛ فضلاً عن كتبهم المهدرة.

وأما ما قبل الآية التي توكأ عليها في سورة المائدة، فقوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

وهل يتصور إقامة التوراة والإنجيل؛ بدون الإيمان بما فيهما من البشائر بمحمد ﷺ؟ (حسبما يأتي ذلك في الفصل الحادي عشر). أفليس المكابرون في رسالته؛ داخلين تحت من زادهم إرساله طغياناً وكفراً؟. بلى؛ وإنَّ الأمر لواضح؛ لا يتمارى فيه يهودي ولا نصراني. ولو كان لهم بشيء من ذلك أدنى مسكة؛ لتعلَّقُوا به؛ وملؤوا الدنيا ضجيجاً، ولكن ما أظن أحداً منهم يتشبث به لتفاهته؛ وإنْ ظنَّ المؤلف أنه فتح لهم الباب؛ ونهج السبيل.

ثم بلغني بعد هذا أن إنكليزياً يقال له ديفي؛ جاء على بيحان[٢]؛ وأراد أن يشوِّش على أفكار بعضهم بنوع من ذلك؛ فردوا عليه وأفحموه مع عاميتهم، وذكر لي بعضهم أن هناك جمعية تحاول ذلك وتدعو إليه؛ كما حاولت جمعية إخوان الصفا[٣]؛ أن تجمع بين الفلسفة والشريعة؛ وأسرت حسواً في إرثنا؛ واستقت بلا

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

(٢) إمارات بيحان كانت إحدى المحميات البريطانية وهي اليوم ضمن الجمهورية اليمنية وتبعد عن عتق عاصمة شبوة ٢٠٠ كيلومتر.

(٣) إخوان الصفا مجموعة من الفلاسفة المسلمين عاشوا في القرن الثالث الهجري بالبصرة واتحدوا على أن يوفقوا بين العقائد الإسلامية والحقائق الفلسفية فكتبوا في ذلك خمسين مقالة سموها (تحف إخوان الصفا) ووضع المجريطي القرطبي المتوفى سنة ٣٩٥هـ كتاباً على نمط هذه التحف وسماه (رسائل إخوان الصفا).

دلو ولا رشاء؛ ودللت على فسولتها وضعف نيتها؛ والله غالب على أمره. وكم كاد للإسلام خلقٌ في القديم والحديث؛ فنكصوا على أعقابهم خائبين؛ وكبوا لوجوههم خاسرين؛ كما قال أبو حيَّان[(١)]؛ مع أنه من المتَّهَمِين.

وإنما تلك الآيتان الشريفتان وسابقاتهما في الموضعين؛ شبيهتان بما اجتمع في سورة الحج؛ من قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[(٢)].

لأنَّ الله تعالى لما بيَّن فيما قبل الآيتين؛ من خالف أوامره وارتكب زواجره؛ نبَّه على أن مَنْ أحسن من الأمم السالفة؛ فله جزاء الحسنى؛ كما أنَّ من اتَّبَعَ النبيَّ الأمِّي؛ تكون له السعادة الأبديَّة. وكان إيمان اليهود في التمسك بالتوراة؛ وسنَّةَ موسى عليه السلام؛ صحيحاً نجيًّا إلى مجيء عيسى. فمن لم يتبعه يكون هالكاً؛ وإن بقي على التمسُّك بالتوراة؛ وسنَّةَ موسى. ثم إيمان النصارى بعيسى؛ واتِّباع الإنجيل؛ نافعٌ مقبولٌ إلى مجيء محمد؛ فمن لم يتبعه ويَدَعَ ما كان عليه من شريعة عيسى والإنجيل؛ فهو هالكٌ؛ كما ذكره المفسرون؛ ومنهم العلامة ابن كثير.

ولو أنَّ مؤلف كتاب توحيد الأديان تدبَّر؛ لأخذ المعنى من كتاب؛ لأنَّه قريبُ الخطوة منه. فلا أجد له مثلاً؛ إلّا الهدهد يبصر الماء من تحت طبقات الأرض؛ ثم يقع في الفخ؛ وما بينه وبينه؛ إلّا ذرَّات من الطين. نعم! لا ننكر أنَّ في الآية التي كرَّرَها؛ وفي أمثالها؛ وعداً جميلاً لمن آمن بمحمَّد من أهل الكتاب؛ يؤكِّدُهُ ما أخرجه الشيخان والنسائي والترمذي وأبو داود؛ من حديث أبي

---

(١) أبو حيان التوحيدي (٣١٠ ـ ٤١٤هـ) أديب ذو ثقافة واسعة وأسلوب رائع له كتاب البصائر والذخائر والامتاع والمؤانسة اتهمه الحافظ الذهبي وابن الجوزي وابن حجر العسقلاني بالإلحاد والزندقة وقال ابن الجوزي الزنادقة في الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي وأبو العلاء المعري وأبو حيان التوحيدي؛ وهو أخطرهم؛ لأن الاثنين صرحوا؛ وهو يمجمج. وقال عنه ياقوت إنه صوفي؛ ووصفه السيوطي في طبقاته بشيخ الصوفية.

(٢) سورة الحج، الآية: ١٧.

موسى الأشعري مرفوعاً: «**من كانت له أمة فعلمها وأحسن تعليمها؛ وأدَّبها فأحسن تأديبها؛ وأعتقها فتزوجها؛ فله أجران: وعبدٌ أدَّى حق الله وحق مواليه. ورجل من أهل الكتاب؛ آمن بما جاء به عيسى؛ وما جاء به محمد ﷺ فله أجران**» وما أخرجه الطبراني مرفوعاً من حديث أبي أمامة: «**من أسلم من أهل الكتاب؛ فله أجره مرتين؛ وله ما لنا وعليه ما علينا. ومن أسلم من المشركين؛ فله أجره؛ وله ما لنا وعليه ما علينا**». ومصداقه قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وهذه الفائدة وقعت في البين؛ فلنرجع إلى ما أخذنا فيه من التشرف بالآيات المقدسة. قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(٢). وتقديم الذين يؤمنون بالآخرة؛ دالٌّ على الاختصاص؛ كما هو مقرر في علم المعاني.

وقال في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣). أفيتمعني هذا التهديد مع النجاة؟ كلا والله. وقال فيها: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(٤) وما بعدها إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٦.
(٥) سورة المائدة، الآيتان: ٦٥ ـ ٦٦.

أفليس الإيمان في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مشروطاً بإقامة التوراة والإنجيل؛ المشتملين على عديد البشائر به ﷺ؟ (حسبما يأتي في الفصل الحادي عشر).

وبغض النظر عمَّا فيه؛ فنحن نعلم علم اليقين؛ أنَّه مُبَشَّرٌ به في كتبهم؛ كما تصرح به الآية (٢٩) من سورة الفتح[١]. والآية (٦) من سورة الصف[٢]. والآية (٥٧) الآتية عما قليل من سورة الأعراف. وقال جل ذكره في سورة الأعراف: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٣]؛ واللواتي بعدها.

فهل يقدر إنسيٌّ أو جنِّيٌّ؛ أن يخرج اليهود والنصارى والصابئين عن هذا الوعيد؛ بدون أن يؤمنوا بالقرآن؛ ومن أُنْزِلَ عليه؟ وكمثلها قوله منها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٤]. ولئن آمنوا هنا بالآخرة؛ فقد مرَّ في سورة الأنعام، الآية: ٩٢[٥]: إنَّ الذين يؤمنون بها؛ يؤمنون به؛ فالجحود لأحدهما جحود للآخر. وسنحيل أوائل الفصل الثالث عليها؛ وعلى أمثالها من الآية الشريفة الصريحة في المقصود. وقد قال جلَّ شأنه في الأعراف أيضاً: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأٓخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ

---

(١) ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾.

(٢) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٤٧.

(٥) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٖۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١). فلم يكتف بتقواهم وإيتائهم الزكاة وإيمانهم؛ حتَّى يؤمنوا بمحمد ويعزِّروه وينصروه. فالمسلِّم بإيمانهم؛ من دون اتباعهم لمحمَّد ﷺ؛ وتصديقه؛ كافرٌ بطائفةٍ كبيرة من القرآن؛ الذي لا نشك فيما أخبرنا به من التبشير بنبيِّنا في كتبهم. فأنَّى يصحُّ إيمانهم بأنبيائهم؛ دون أن يؤمنوا بما بشرُّوهم به؛ من بعثة نبيِّنا ﷺ؛ ورسالته إليهم. ولعمري لقد كان الأمر أهون؛ لو كان المؤلِّف يحاول إيمان أهل الكتاب عبثاً؛ أمَّا وقد حاوله بتكفير أهل القبلة؛ بل وبتكفيرهم هم أيضاً؛ فأيُّ ريقٍ لا يجف؛ وشَعَرٍ لا يقف؛ من هذا الأمر؛ الذي يتبجح به في الصفحة (١٨) وغيرها. وكأنَّه يؤمِّل من ورائه؛ أن يكون زعيم دعوة جديدة؛ يدخل تحت لوائها جميع أهل الكرة الأرضية؛ ما عدا قليلاً من الفلاسفة؛ الذين ينكرون الصانع الحكيم.

ولا شك أنه ينازع بذلك (سيد ولد آدم) في كثرة التابعين يوم القيامة؛ نعوذ بالله من سبات العقل؛ وقبح الزلل. وقال تقدست أسماؤه بعد هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾(٢). وقال في هذه السورة أيضاً: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٨ ـ ١٥٩.

مَتِينٌ﴾[١]. وقال في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٢].

قال السيوطي: فقد دلَّت هذه الآية؛ وكلام السلف في تفسيرها؛ على أنَّ المعاني التي تضمنها القرآن؛ موجودة في كتب الله السابقة. وقد نصَّ على هذا بعينه الإمام أبو حنيفة؛ حيث استدلَّ بهذه الآية على جواز قراءة القرآن بغير اللسان العربي. وقال: إنَّ القرآن مُضَّمَنٌ في الكتب السالفة؛ وهي بغير اللسان العربي. ويشهد لذلك وصفه؛ بأنه مُصَدِّقٌ لما بين يديه.

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج: أنَّ القرآن أمين على الكتب؛ فيما أخبرنا أهل الكتاب عن كتابهم؛ فإن كان في القرآن فصدِّقوا؛ وإلّا فكذِّبوا. وأخرج عن ابن يزيد؛ أنه قال: كلُّ شيءٍ أنزله الله؛ من توراة أو إنجيل أو زبور؛ فالقرآن مُصَدِّقٌ على ذلك (اهـ من صفحة ١٥٩ ج٢ من الحاوي للفتاوى)[٣]. وقد أخذ العلامة ابن الجحر الهيتمي في صفحة (١٣٢) من فتاواه الحديثية؛ بغير أمانة؛ ومن دون أدنى إشارة للسيوطي[٤]. وكان القطب الحداد[٥] ينكر على ابن حجر

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٨١ ـ ١٨٣.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢ ـ ١٩٧.

(٣) لقد حفظت اللغة العربية للنصارى علوم اليونان والرومان؛ وحفظ القرآن لهم ما جاء في التوراة والإنجيل والكتب السابقة؛ لذا فلا ينكر فضل العرب والمسلمين عليهم إلّا الظالم.

(٤) يتألم الإمام ابن عبيد الله كثيراً لظاهرة الأخذ بدون عزو بين العلماء والإمام ابن عبيد الله معروف بتحريه للصدق والأمانة وانتقاده لأي خطأ حتى لو أتى من الرجال الذين يجلهم وقد رأيناه في كتاب صوب الركام يقول: بأن جدّه علي بن عمر (١١٠٤ ـ ١٠٢٠هـ) أخطأ في فتواه وأن العلماء ابن سراج وباكثير وأحمد مؤذن اضجعوا في الجواب عليه مراعاة منهم لخاطره وذلك غير لائق بمقام العلم.

(٥) قطب الدعوة والإرشاد الإمام عبد الله بن علوي الحداد (١٠٤٤ ـ ١١٣٢هـ) ولد وعاش ومات بمدينة تريم بحضرموت له مؤلفات كثيرة مشهورة وديوان شعر.

أخذه كلام غيره؛ بدون عزو. وعلى ذِكْرِي علَّة لقول الإمام أبي حنيفة بجواز الترجمة؛ تَفْضُلْ ما ذكره السيوطي؛ وتبعه عليه الهيتمي؛ وهي: أن صاحبيه عللاه بأنه مقامُ خضوعٍ ومناجاة؛ لا مقام إعجاز ومباهاة. وفي هذا تأييد لاتحاد أصول الأديان؛ بأكثر مما قاله المؤلف؛ وسيعاد القول فيه بالفصل الثالث.



الفصل الثاني

الفصل الثاني

الفصل الثاني

فيما يشبه الأول؛ وفيه ما يشهد لعموم الرسالة؛ وإطلاق الكفر؛ على كُلِّ من لم يؤمن بها ويتبِّعها. وهذا فضاء واسع؛ لا تأتي على أطرافه النسور؛ ولكنَّا نأتي بما ينبثق به النور؛ وتنشرح به الصدور؛ ويستفيق به المغرور.

قال جلَّ ثناؤه في سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾(١) والآيات بعدها. وقال فيها: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾(٢). وقال فيها: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٩ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٩٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا

(١) سورة البقرة، الآيات: ١ ـ ٤.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٤٠ ـ ٤٢.

حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1]. وقال فيها: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[2].

وقد احتج بها ﷺ على هرقل؛ في كتابه إليه؛ الثابت في الصحيح[3]. وقال بعدها: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٦٥) هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٦٨) وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (٦٩) يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ (٧٠) يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[4]؛ والآية التي بعدها. وقال فيها: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾[5] وقال فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ (١٠٠) وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[6]. وقال فيها: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٣) صحيح البخاري.
(٤) سورة آل عمران، الآيات: ٦٥ ـ ٧٢.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٩٨.
(٦) سورة آل عمران، الآيتان: ١٠٠ ـ ١٠١.

مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(١)]. وقال فيها: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[(٢)]. وقال فيها: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[(٣)]. وقال فيها: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[(٤)] والآيات التي قبلها. وقال فيها: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[(٥)]. وقال فيها: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٦)]. وقال فيها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[(٧)]. وقال في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[(٨)] والآيات بعدها. وقال فيها: ﴿فَمَنْ

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٨٩ ـ ٩١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.

(٦) سورة البقرة، الآيتان: ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٨) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[١]؛ والآيات بعدها؛ وقال فيها: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[٢]؛ والآيات بعدها. وقال فيها: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[٣].

فهؤلاء المؤمنون؛ من اليهود والنصارى والصابئين؛ هم الذين تنطبق عليهم آية البقرة (٦٢) وآية المائدة (٦٩)؛ إذ المُطْلَقْ يُحْملُ على المقيَّد؛ تأخَّر القيد أو تقدَّم أو توسَّط. وقال في سورة النساء، بعدما ينتظم في سلكها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[٤]؛ والآيات بعدها إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٥]. وقال فيها: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٦]. والشقاق في هذه الآية مُفَسَّرٌ بما سبق في سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

ثم إن في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ ما يصلح شاهداً لقول الإمام الغزالي في فيصل التفرقة: بل أقول: إنَّ أكثر نصارى الروم والترك؛ في هذا

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٢ ـ ١١٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٩.

(٤) سورة النساء، الآية: ٤٧.

(٥) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٦) سورة النساء، الآية: ١١٩.

الزمان؛ تشملهم الرحمة، إن شاء الله تعالى؛ أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك؛ ولم يبلغهم اسم محمد ﷺ أصلاً؛ أو بلغهم؛ ولم يبلغهم نعته؛ بل سمعوا منذ الصبا؛ أنَّ كذاباً مُلَبِّساً اسمه محمد؛ ادَّعى النبوة؛ كما يسمع صبياننا بالمقفَّع. فهؤلاء عندي في معنى الأولِّين؛ إذ مثل ذلك السماع؛ لا يحرِّك داعية النظر في القلب. أما من بلغه اسمه ونعته ومعجزته؛ فأعرض؛ فهؤلاء الكفار الملحدون اهـ.

ثم قال: فمن قرع سمعه خروج النبي ﷺ؛ وصفته، والقرآن المعجز الذي تحدَّى به أهل الفصاحة؛ فعجزوا؛ وأعرض عنه وتولَّى؛ ولم ينظر فيه؛ ولم يبادر إلى التصديق، فهذا هو الجاحد الكافر؛ ولا يدخل في هذا أكثر الروم والترك؛ الذين بَعُدَتْ بلادهم عن بلاد المسلمين. **بل أقول:** من قرع سمعه هذا؛ فلا بدّ أن تنبعث به داعية الطلب؛ ليستبين حقيقة الأمر؛ إن كان من أهل الدين؛ ولم يكن من الذين استحبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة. فإن لم تنبعث منه هذه الداعية؛ لركونه إلى الدنيا؛ وخُلُوِّه من الخوف وخطر الدين؛ فذلك كفر. وإن انبعث منه الداعية؛ فقَصَّر في الطلب؛ فهو كفرٌ أيضاً. وإن أخذ بالنظر؛ فأدركه الموت قبل تمام التحقيق؛ فإنه مغفورٌ له (اهـ؛ بمعناه وأكثر لفظه).

ثم رأيت المقبلي؛ يقول في صفحة (٤٠٥) والتي بعدها من «العلم الشامخ»[1]: نقلوا عن العنبري[2]: أنَّ كُلَّ مجتهدٍ في العقليات كلّها مصيب.

---

(١) العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ لمؤلفه صالح بن مهدي المقبلي اليمني (١٠٤٧ ـ ١١٠٨هـ) وقد حمل في كتابه هذا على الصوفية. قال عنه الشوكاني: وقد أكثر الحط على المعتزلة في بعض المسائل الكلامية وعلى الأشعرية في بعض آخر وعلى الصوفية في غالب مسائلهم وعلى الفقهاء في كثير من تفريعاتهم وعلى المحدثين في بعض غلوهم (انتهى) وقد انتقده كثير من العلماء لتجاوزه الحدّ في مهاجمة كبار العلماء ولم يسلم منه حتى الإمام البخاري. وقال عنه الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين: استوفى نصيبه من الحمق والجهل صاحب الكتاب المسمى: بالعلم الشامخ؛ وقد عاب في كتابه ذلك على الإمام أحمد ونسبه إلى التعصب وطعن أيضاً على غيره من أئمة الحديث وأهل السنة.

(٢) عبيد الله بن الحسن العنبري المتوفى سنة ١٦٨، كان أحد سادات أهل البصرة وفقهائها =

وكأنه يريد من الناظر بذل جهده؛ وإذا أراد ذلك؛ كان عائداً إلى المنقول عن الجاحظ: أنَّه لا إثم على مجتهد. وقيَّد النقل بعضهم عن الجاحظ؛ بقبول الإسلام ولا ينبغي خلافه؛ وإلّا كان كإنكاره الضرورة من الدين. وهو أجلُّ من ذلك. وإنْ تحامل عليه مخالفوه في العقائد؛ فلا يَصْدُقُون عليه في جميع ذلك؛ وأصحابه المعتزلة أَخْبَرَ به؛ وهو عندهم من جملة العلماء؛ وعند الجميع مقدَّم الأذكياء الحكماء.

وقد مال الغزالي إلى قريب من هذا المذهب؛ أو يزيد عليه. فقال في سياق: إنَّ من لم تبلغه الدعوة معذور. ثم قال: وكذلك عندي رجل نشأ في الروم؛ إنمَّا يسمع بساحر ظهر في أرض العرب وادَّعى النبوة وهذا من تخبطاته، فإن الله قد أظهر دين الإسلام على الدين كله. ولم يأمر ﷺ بتحرير أدلته؛ لِبَلِه الناس؛ ونسائهم؛ بل كان يغيِّر عليهم؛ بعد انتشار الإسلام من دون تجديد دعوة. فالمعتبر؛ إنما هو التمكُّن؛ وهو يحصل بأن يسمع بالنبي ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ اهـ باختصار.

■ والرد عليه من وجوه:

أحدها: أن ما نقله عن الغزالي لم يكن بأمانة؛ وإنما نقل عنه من كتب خصومه؛ حسبما تعرفه من الوجه الثالث؛ وطالما نعى المقبلي على من يفعل ذلك؛ حتى في نفس البحث بالنسبة للجاحظ؛ فجاء موضع المثل المشهور: «رمتني بدائها وانسلت»[1].

ثانيها: كيف يكون الغزالي على قرب من رأي الجاحظ والعنبري؛ وهو

= وعلمائها وكان قاضيها وكان من ثقة أهل الحديث، ومن كبار العلماء العارفين بالسنة، إلّا أن الناس رموه بالبدعة بسبب قول حكي عنه من أنه كان يقول: بأن كل مجتهد من أهل الأديان مصيب، حتى كفَّره القاضي أبو بكر الباقلاني وغيره.

(١) (رمتني بدائها وانسلت) مثل عربي قديم يضرب لمن يُعيِّر صاحبه بعيب هو فيه.

الذي يركسهم ويركس غيرهم من المبتدعة في أحجارهم؛ ويرميهم بأحجارهم؛ ويمحو آثارهم؛ ويقلِّم أظفارهم.

قال الغزالي في ص٣٥٩ والتي تليها ج٢ من المستصفى[١]: ذهب الجاحظ إلى أن مخالف مِلَّة الإسلام؛ من اليهود والنصارى والدهرية؛ إن كان معانداً فهو آثم؛ وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور؛ وكذا إذا لم يعرف وجوب النظر فلم ينظر. وإنّما الآثم المُعَذَّب؛ المُعَانِدْ فقط. وهذا باطلٌ بأدِّلة سمعية ضرورية؛ فإنَّا نعلم بالضرورة؛ أنه أَمَرَ اليهود والنصارى بالإيمان به وإتباعه؛ وذمَّهم على إصرارهم على عقائدهم؛ وقاتل جميعهم؛ وكان يكشف عن مؤتزر من بلغ منهم؛ ويقتله. ونعلم قطعاً؛ أنَّ المعاند العارف؛ مما يقل؛ وإنما الأكثر؛ المُقَلِّدة الذين اعتقدوا دين آبائهم تقليداً؛ ولم يعرفوا معجزة الرسول ﷺ وصدقه. والآيات الدَّالة على هذا في القرآن؛ لا تُحْصَى. وقد نبَّه الله على أنه أقدرهم بما رزقهم من العقل؛ ونَصَبَ من الأدِّلة؛ وَبعَثَ من الرسل المؤيَّدِين بالمعجزات؛ الذين نبَّهوا العقول؛ وحرَّكوا دواعي النظر؛ حتى لم يبق على الله لأحدٍ حُجَّةٌ بعد الرسل.

وذهب عبد الله بن الحسن العنبري: إلى أنَّ كُلَّ مجتهدٍ مصيبٌ في العقليات. وقد استبشع المعتزلة من إخوانه؛ هذا المذهب؛ فأنكروه وأوَّلوه؛ وقالوا: أراد به اختلاف المسلمين في المسائل الكلامية؛ التي لا يلزم فيها تكفير؛ كمسألة الرؤية؛ وخلق الأفعال والقرآن؛ وإرادة الكائنات. لأنَّ الآيات والأخبار فيها متعارضة؛ فذهب كلٌّ فريقٍ إلى ما رآه أليق بعظمة الله؛ فكانوا فيه مصيبين ومعذورين.

ونقول: أما زعمه الإصابة فمحال عقلاً؛ لأنَّ هذه أمور ذاتية لا تختلف بالإضافة؛ فلا يمكن أن يكون القرآن قديماً ومخلوقاً؛ ولا الرؤية محالاً وممكنة؛ ولا المعاصي بإرادة الله وبدون إرادته. بخلاف التكليف؛ والحلال والحرام.

---

(١) هذه الأرقام من النسخة التي قرأها الإمام ابن عبيد الله وأوردناها كما ذكرها وقد تكون نسخة الإمام مخطوطة وينظر مكان هذا العزو في الطبعات الحديثة.

وإن أراد: أنَّ المصيب واحد؛ لكن المخطئ معذور؛ فليس بمحال عقلاً؛ لكنه باطل بدليل الشرع؛ لأنَّ اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به؛ جهل. والجهل بالله حرام مذموم (انتهى باختصار).

ثالثها: أن المقبلي لم يأخذ كلام الغزالي من معدنه؛ وإلّا لما وقع في الشطط. ولكنه اغترَّ بقول القاضي عياض[١] في الشفاء: وقد حكى القاضي أبو بكر الباقلاني مثل قول عبيد الله (يعني ابن الحسن العنبري) عن داود الأصفهاني؛ وقال: حكى قوم عنهما: أنهما قالا ذلك في كل من علم الله من حال استفراغ الوسع في طلب الحق من أهل ملتنا؛ أو من غيرهم. وقال نحو هذا القول؛ الجاحظ وثمامة؛ في أنَّ كثيراً من العامة؛ والبُلْه؛ والنساء؛ ومُقَلِّدة اليهود والنصارى وغيرهم؛ لا حُجَّة لله تعالى عليهم؛ إذ لم تكن لهم طباع يمكنها الاستدلال. وقد نحى الغزالي قريباً من هذا المنحى في كتاب التفرقة. وقائل هذا؛ كله؛ كافرٌ بالإجماع في كفر من لم يُكَفِّر أحداً من النصارى واليهود؛ وكل من فارق دين الإسلام؛ أو وقف في تكفيرهم أو شك. قال القاضي أبو بكر: لأن التوقيف والإجماع على كفرهم؛ فمن وقف في ذلك؛ كذَّب النص والتوقيف؛ أو شكَّ. والمكذب فيه؛ والشاك لا يقع إلّا من كافر اهـ.

وفيه خَلْفٌ وخَبْطٌ. أما الخلف؛ فبما يوهم أنَّ الحطَّ على الغزالي؛ من جملة مقول الباقلاني؛ وليس كذلك. إذ قد توفي الباقلاني سنة ٤٠٣هـ. وأما الخبط؛ فإنَّ الغزالي لا يقول في فيصل التفرقة[٢]؛ إن صحت نسبته إليه؛ فقد تشككت فيها؛ لأن ابن السبكي لم يذكرها في عداد مؤلفاته؛ لكني رأيت

---

(١) القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ) من أهل الأندلس ومن أصول يمنية بلغ مبلغاً عالياً في علم الحديث وله مؤلفات كثيرة شهيرة عمل قاضياً وكان فقيهاً مؤرخاً ومات مقتولاً لعدم اعترافه بابن تومرت بأنه المهدي المنتظر.

(٢) كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ. وضع فيه حداً لمن يعتبره مسلماً ومن يعتبره كافراً أو زنديقاً.

السيوطي؛ وهو الناقد البصير؛ يجزم بنسبتها إليه؛ وينقل منها؛ كما في ص١١٥ ج٢ من الحاوي[١]. فلا مجال للشك إذاً؛ والغزالي لا يقول فيها إلّا بنجاة من لم تبلغه الدعوة؛ ولم يقرع سمعه القرآن؛ ولا وَصْفُ النبيِّ ﷺ؛ وهو الأشبه بحال الفترة[٢]. وقد اتفق الفقهاء في باب الصلاة؛ على أن من وُلِدَ أعمى أصم أخرس؛ وإن لم تبلغه الدعوة؛ معدودٌ منهم. ولكن المقبلي يقول بمؤاخذة أهل الفترة؛ ويناقض ما سبق من قوله.

فالمعتبر؛ إنّما هو التمكن؛ وهو يحصل بأن يسمع إلخ. بل فرَّع البناني[٣] على تكليف أهل الفترة بقوله: فإذا سمع آية دعوة كانت إلى الله؛ وترك أن يستدِلَّ بعقله؛ وهو من أهل النظر؛ كان مُعْرِضاً عن الدعوة؛ فهو كافر (انتهى).

فاشترط سماع الدعوة والأخذ في الاستدلال؛ وهو الأليق بامتناع تكليف الغافل. وهو من لم يتَصَوَّر التكليف لا من لم يصدِّق. قال العلامة ابن قاسم[٤]: وهذا معنى ما قيل إن شرط التكليف هو التمَكُّن من العلم. وقال في فواتح الرحموت[٥]: فما لم يحكم الله ليس هناك حكم؛ ومن هنا اشترطنا بلوغ الدعوة في التكليف. فالكافر الذي لم تبلغه الدعوة؛ غير مُكَلَّف بالإيمان؛ ولا يؤاخذ بكفره في الآخرة اهـ. وهو مثل قول ابن السبكي في الجمع[٦]: ولا حكم قبل

---

(١) الحاوي للفتاوي للسيوطي.

(٢) أهل الفترة مصطلح يطلقه الباحثون في شأن العقيدة الإسلامية على الناس الذين لم ينزل إليهم رسول ولا نبي ولم يتبعوا أحد الأديان السماوية.

(٣) عبد الرحمن بن جاد الله البناني المغربي المالكي نزيل مصر فقيه أصولي من تصانيفه حاشية على شرح جلال الدين المحلي على جمع الجوامع في أصول الفقه توفي سنة ١١٩٨هـ.

(٤) هو أحمد بن قاسم الصباغي العبادي ثم المصري الشافعي الأزهري: كان فقيهاً فاضلاً له حاشية على التحفة وحاشية على شرح جمع الجوامع أسماها (الآيات البينات) وحاشية على شرح المنهج توفي سنة ٩٩٢هـ.

(٥) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت؛ المؤلف: عبد العلي محمد بن نظام الدين محمد السهالوي الأنصاري اللكنوي.

(٦) جمع الجوامع في أصول الفقه لجلال الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية.

الشرع؛ والصواب امتناع تكليف الغافل اهـ. فلا أشنوعة على الغزالي ولا اعتراض. ولكن عياضاً يطأ آثار المازري[١]؛ وهو أعدى عَدُوٍّ للغزالي؛ وإليه إشارته بالتذمُّر في أول كتابيه: الانتصار، وفيصل التفرقة. وقد نقل السيوطي ما في الانتصار بالصفحة ٢٦٦ والتي بعدها في الجزء الأول من الحاوي؛ وكان المازري معاصراً للغزالي؛ إذ ولادته في سنة ٤٥٦هـ ووفاته في سنة ٥٣٦هـ، وولادة الغزالي في سنة ٤٥٠هـ ووفاته في سنة ٥٠٥هـ. وحَرِيٌّ لما اشتهر به الغزالي من الفضل والعلم؛ أنْ يَشْرَقَ به الأقران؛ وانضم إلى ذلك جمود المازري على ما يقول الأشعري؛ لأنه مثلهم مالكي.

وحُرية الغزالي؛ وإمامه في الفكر[٢]؛ كما حققه ابن السبكي في ترجمة الغزالي من طبقاته؛ تأخذ بهما إلى مخالفة الأشعري في بعض الآراء؛ فيصعب ذلك جداً على المالكية؛ مع أن الباقلاني قد خالفه.

وثالثة الأثافي: أن يوسف بن تاشفين[٣]؛ كان كثير الثناء على الغزالي والمحبَّة له؛ يرفع الأسئلة إليه؛ ويتمنى وفادته عليه؛ فلا جرم أن تصير؛ الحبَّة؛ مما يتوهم الغلط فيه على الغزالي؛ قُبَّة في عين المازري؛ وأن يُفْتِي بكفره؛ وإحراق كتابه؛ الإحياء. وعياض يتقيَّل آثاره شبراً بشبر؛ وذراعاً بذراع؛ وهو الذي أتمَّ شرح المازري على صحيح مسلم؛ وسمَّاه الإكمال؛ وكانت ولادة

---

(١) هو محمد بن علي المازري كان فقيهاً مجتهداً اشتهرت فتاويه بغزارتها ومحتواها وشملت العبادات والمعاملات والعقائد وكانت ولادته بجزيرة صقلية وعاش طفولة صعبة ابتلي فيها باليتم والأمراض وتوطدت علاقته بمحمد بن تومرت الملقب بالمهدي وعاش معه بالأندلس والمغرب ومن تلاميذه القاضي عياض.

(٢) أعتقد أن المقصود إمام الحرمين عبد الملك الجويني.

(٣) يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وهم أتباع دعوة دينية سياسية ظهرت بين قبائل البربر الأمازيغ وتمكن يوسف بن تاشفين من استنقاذ الأندلس بعد سقوطها المحقق وأقام إمبراطورية إسلامية امتدت من تونس حتى غانا جنوباً والأندلس شمالاً وعرف بالزهد والشجاعة وكان سياسياً حازماً محباً لأهل العلم والدين.

عياض في سنة ٤٧٦هـ؛ فأدرك نحو ثلاثين عاماً من حياة الغزالي؛ والمعاصر لا يناصر؛ ولم يقل الغزالي أن لا حُجَّة لله على البُلْه والعامَّة والنساء؛ بل قد جزم بأن أكثر الكفار هم المُقَلِّدون كما مرَّ؛ فهذه فُرْيَةٌ عليه. وإنما منع التكليف قبل التمكُّن من العلم؛ أي للمتبوعين؛ بدليل قوله ﷺ لهم: «**فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**»[(١)].

ثم رأيت العلامة ابن حجر الهيتمي؛ ذكر في كتابه؛ الإعلام بقواطع الإسلام؛ ما اعترض به القاضي عياض على الغزالي؛ وأجاب عنه بنحو ما ذكرته؛ بل إنَّ جوابي أقوى وأوضح؛ مع أنه كان قبل اطلاعي على كلام ابن حجر؛ فللَّه الحمد والمِنَّة على الموافقة.

وقد اندفعنا في هذا؛ بقائد المناسبة؛ وفيه إنارة للحُجَّة؛ وتوضيع للمحَجَّة؛ وتكميل لما في الفصل الأول؛ ونكث لما فتله المؤلف؛ ونقض لسائر عُرَاه[(٢)]؛ لأنه إذا كان هذا كلامهم؛ مع حجة الإسلام[(٣)]؛ لِمَ لا يكون حَبَّة في فلاة؛ بالنسبة لما افتجره المؤلف؛ فما بالك بهم لو سمعوه؟

ولنرجع لما نحن بسبيله فنقول: وقال فيها؛ أعني سورة النساء؛ أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[(٤)].

---

(١) من كتاب رسول الله ﷺ إلى عظيم الروم وفيه: «بِسْم اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْد اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيم الرُّوم سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ» ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

(٢) يعود الإمام هنا للحديث عن كتاب توحيد الأديان.

(٣) أي الإمام الغزالي.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

وفي هذه الآية (كآية البقرة ٢٨٥)؛ تفسير الإيمان بحدِّه الجامع المانع؛ الذي يتلقاه صبيان المكاتب؛ وهو الذي لا بدَّ من حمل الإيمان عليه كلما أطلق؛ كما في الآيتين؛ اللتين خَفِيَ على المؤلف منهما؛ ما لا يخفى على أبناء الكتاتيب. وقال تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[1]. وقال تعالى فيها: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[2]. والآيات بعدها إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾[3]. واللواتي بعدها. وقال في سورة المائدة: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[4]. والآيات بعدها إلى قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[5]. وقال فيها: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٠.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١٩.

بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾(١). والآيات بعدها السابقة في الفصل الأول.

ومن بعدهنَّ الآية الصريحة في تقييد الآية المطلقة؛ التي توهم أنه أظفر منها بِعَلَقِ مَظَنَّة؛ لم يقع عليه أحد من الأولين؛ ولا من الآخرين، فبنى عليه العلالي والقصور؛ التي لن تبرح إلّا ريثما تأتي عليه رياح الحق؛ فتعود من جملة الهباء المنثور. وما الذي غطَّى بصره عما بعدها بآيتين؛ وهو قوله جلَّ ثناؤه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢). وقال فيها: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٣). والتي بعدها؛ وستجيء عليك في الفصل السابع؛ وقال فيها: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(٤). وقال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) سورة المائدة، الآيات: ٧٨ ـ ٨١.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٨٦.

ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[١]. وقال فيها؛ والضمير لليهود؛ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٢]. وقال في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣]. وقال في سورة التوبة: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[٤].

إلا أن بعض الفقهاء غلا في تفسير الصغار؛ بما تتبرأ منه سماحة الدين؛ الذي بلغ من تساهله؛ إلى حدّ أنَّ أمير مصر (وهو عمرو بن العاص) يجلس في قصره؛ ومعه العرب على الأرض؛ فيأتيه المقوقس؛ ومعه سرير الذهب محمول على الأيدي؛ فيجلس عليه أمامه؛ لا يغيِّر عليه، وفاءً له بما اعتقد معه من الذمة والعهد؛ كما ذكره ابن خلدون؛ في صفحة (٢١٧) من مقدمة تاريخه المطبوع بدار الطباعة ببولاق مصر القاهرة[٥]. وأيُّ صدرٍ لا ينشرح بالإسلام؛ وأيُّ خاطرٍ لا ينثلج به؛ إذا ميَّل[٦] بين أمثال هذه المعاملات؛ وبين ما جاء في (سفر التثنية) ونصه: (حين تقرب من مدينة لتحاربها؛ ادعها إلى الصلح؛ فإن أجابتك وفتحت لك؛ فكل الشعب الموجود فيها؛ يكون لك للتسخير؛ ويستعبد لك. وإن لم

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١٩ ـ ٢١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٧.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٩.
(٥) هذه الأرقام من النسخة التي قرأها الإمام ابن عبيد الله وأوردناها كما ذكرها وينظر مكان هذا العزو في الطبعات الحديثة.
(٦) مَيَّلَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ: تَرَدَّدَ وَرَجَّح بَيْنَهُمَا.

تسالمك؛ بل عملت معك حرباً؛ فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك؛ فاضرب جميع ذكورها بحدِّ السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم؛ وكل ما في المدينة؛ فتغنمها لنفسك؛ وتأكل غنيمة أعدائك؛ الذي أعطاك الرب إلهك، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً منك؛ التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب؛ التي يعطيك الرب إلهك نصيباً؛ فلا تستبق منهم نسمة).

ومما نحن فيه قوله؛ تقدَّست أسماؤه؛ في سورة الحج: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1] وقوله فيها: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[2]. وقال في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[3]. وقال في سورة النمل: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[4]. والآيات بعدها. وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[5]. والآيات بعدها. وقال في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[6]. وقال في سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[7]. وقال في سورة محمد: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ

(١) سورة الحج، الآيتان: ٤٩ ـ ٥٠.
(٢) سورة الحج، الآيتان: ٥٤ ـ ٥٥.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٤) سورة النمل، الآية: ٧٦.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٩.
(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.
(٧) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ﴾(١). وقال في سورة الفتح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(٢). وقال فيها: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾(٣). وقال في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾(٤). وقال في سورة الحديد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾(٥) الآية. وقد مرت في الفصل الأول. وقال في سورة المجادلة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(٦). وقال فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾(٧). وقال في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٨). وقال فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا

---

(١) سورة محمد، الآيات: ١ ـ ٣.
(٢) سورة الفتح، الآيتان: ٨ ـ ٩.
(٣) سورة الفتح، الآية: ١٣.
(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٥.
(٥) سورة الحديد، الآية: ٢٨.
(٦) سورة المجادلة، الآية: ٥.
(٧) سورة المجادلة، الآية: ٢٠.
(٨) سورة الحشر، الآيات: ٢ ـ ٤.

﴿أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[(١)]. وهذه السورة سورة «بني النضير» من اليهود؛ وقد سماهم فيها كفاراً مرتين.

وكانت اليهود ثلاث طوائف حول المدينة؛ وبينهم وبين رسول الله ﷺ؛ كتاب أمن، فشرقت بنو قينقاع بيوم بدر؛ وأظهروا البغي والحسد؛ فسارت إليهم جنود الله؛ للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة؛ وحامل اللواء حمزة بن عبد المطلب؛ فحاصروهم خمس عشرة ليلة. ثم قذف الله الرعب في قلوبهم؛ فنزلوا على حكمه ﷺ؛ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم. فَكُتِّفُوا ثم استوهبهم عبد الله بن أبي؛ بإلحاح؛ وكان حليفاً لهم؛ فوهبهم له؛ بشرط أن لا يجاوروه.

وتولَّى جمع أموالهم محمد بن مسلمة؛ فخُمِّست؛ وكانوا نحواً من ستمائة مقاتل. ثم نقض العهد بنو النضير؛ وهَمُّوا على اغتياله ﷺ؛ فنهض إليهم؛ وعليٌّ حامل لواءه؛ فحاصرهم حتى انتهى الأمر إلى جلائهم؛ أن يخرجوا بنفوسهم وذراريهم وما حملته الإبل؛ ما عدا السلاح، حسبما اقتصَّ الله أخبارهم في تلك السورة.

ثم غدرت بنو قريضة؛ فسار إليهم النبيُّ ﷺ؛ ولواؤه في يد عليٍّ؛ فحاصروهم خمساً وعشرين ليلة؛ ثم نزلوا على حكمه؛ فشفعت فيهم الأوس. ففوَّض أمرهم لسيِّدهم سعد بن معاذ، فرضوا؛ فحكم بقتل الرجال؛ وغنم الأموال؛ وسبي الذُّرِّيّة. فضربت أعناقهم؛ وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة[(٢)].

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١١.

(٢) نقل أبو الحسن الندوي قول أحد المستشرقين: إنه لو ترك الرسول ﷺ جريمة غدر بني قريظة، من غير أن يعاقبهم عليها، لم يكن للإسلام بقاء في جزيرة العرب، إن عملية قتل اليهود كانت ولا شك عنيفة، ولكن لم يكن ذلك حادثاً فريداً في نوعه في تاريخ الديانات (أبو الحسن الندوي السيرة النبوية دار الشروق صفحة ٢٦٥) كما ذكر الأستاذ أبو الحسن =

فهل كانوا مؤمنين؟ وقتله ﷺ؛ لهم؛ وأخذ أموالهم؛ وسبي ذراريهم؛ من الظلم والجور؟ أم ما يقول المؤلف في ذلك؟.. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾(١). وقال في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(٢). والآيات بعدها. وكثيراً ما يضرب الله الأمثال؛ بالأنعام؛ لمن ذرأه لجهنم من الجن والإنس؛ لكن لم يرض ذلك لليهود؛ حتى جعلهم أقلَّ وأذلَّ؛ فضرب لهم مثلاً بالحمير؛ حيث يقول في سورة الجمعة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٣). والآيات بعدها وقال في سورة البينة: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾(٤). إلى أن قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾(٥).

وبعضُ هذه الآيات المقدَّسة كافٍ لإصابة الغرض؛ وإزالة المرض. إذ لا يمكن أن يتخالج معها الشك أو تعترض مرية، وإنما لذة ذكرناها. أمَّا الشبهة فقد أنارت؛ وأما الظلمة فقد أسفرت؛ مما قبل الآيتين اللتين توكأ عليهما؛ بدون نصيب من الفهم؛ ولا أثارة من العلم. بل قد جاء في أمِّ الكتاب ما يقرر ما ذكرناه. إذ قال المفسرون؛ ومنهم العلامة ابن كثير: إنَّ المغضوب عليهم؛ هم اليهود؛ لأن أخصَّ أوصافهم الغضب؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ

= الندوي أيضاً أن الحكم الذي نزل في بني قريظة، هو حكم التوراة، وأورد من التوراة الآيات الدالة على ذلك.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨.

(٢) سورة الصف، الآية: ٦.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٤) سورة البينة، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٥) سورة البينة، الآية: ٦.

عَلَيۡهِ﴾[(١)]. وإن الضالين هم النصارى؛ لأن أخصَّ أوصافهم الضلال؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[(٢)].

فالمسلك سوي، والمنهاج لائح؛ والإيراد مدفوع من أصله، ولولا تراذل الزمان؛ وتوهم الانقطاع؛ من السكوت؛ لما أرهفنا اليراع بهذا الإسراع.

والمسلمون على اتفاق؛ حتى الجاحظ والعنبري؛ على بعثته ﷺ؛ إلى الأحمر والأسود؛ والنصوص قاطعة، والحجج دامغة. وإنما الخلاف في بعثته ﷺ إلى الملائكة. وقد قال ابن حجر الهيتمي؛ في فتاويه الحديثية: وحاصل المعتمد؛ أنَّ في إرساله ﷺ إلى الملائكة؛ قولين، والذي رجَّحه السبكي وجماعة من محققي المتأخرين؛ وردُّوا ما وقع في تفسير الرازي مما يخالفه؛ أنه أرسل إليهم. ويدل له؛ ظاهر قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[(٣)] وهم الإنس والجن والملائكة.

وفي قول شاذ: إنَّ الملائكة من الجن؛ فإذا رُكِّب مع القول الذي أجمع المسلمون عليه؛ من عموم رسالته للجن؛ لزم عموم الرسالة للملائكة؛ كذا قيل، وهذا لا يحتاج إليه وكفى بظاهر الآية دليلاً. ومن ثمّ أخذ شيخ الإسلام البارزي[(٤)]؛ أنه ﷺ؛ أُرْسِلَ إلى جميع المخلوقات؛ حتى الجمادات؛ بأنْ ركَّب فيها فهماً وعقلاً مخصوصاً؛ حتى آمنت به، وقد أخبر عنها ﷺ؛ بأنَّها تشهد للمؤذن، وقال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٤) هبة الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم البارزي، الملقب بشرف الدين، شيخ الإسلام، وإمام الفقهاء في عصره. ولد شرف الدين بحماة سنة ٦٤٥هـ بلغ مرتبة عالية في الفقه والعلم ومن تلاميذه تقي الدين السبكي والحافظ الذهبي والمؤرخ ابن الوردي تولى قضاء حماة أربعين سنة وتوفي بها سنة ٧٣٨هـ وكان مولعاً باقتناء الكتب وجمع منها مكتبة عظيمة.

﴿خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[١]؛ وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[٢]. اهـ. باختصار[٣].

وقد مسخ العلامة ابن حجر بهذا الجواب؛ مؤلفاً ضافي الذيول للحافظ السيوطي؛ سمَّاه «تزيين الآرائك»[٤] ولم يتفضل بإشارة حتى خفيَّة إليه؛ مع كثرة ما يقرر في مؤلفاته الفقهية؛ من دقائق المسائل في أبواب السرقة:

وليست ببكرٍ بل عَوَانٌ وقد مَضَى لها عن قريبٍ في رسالتِنَا مِثلُ

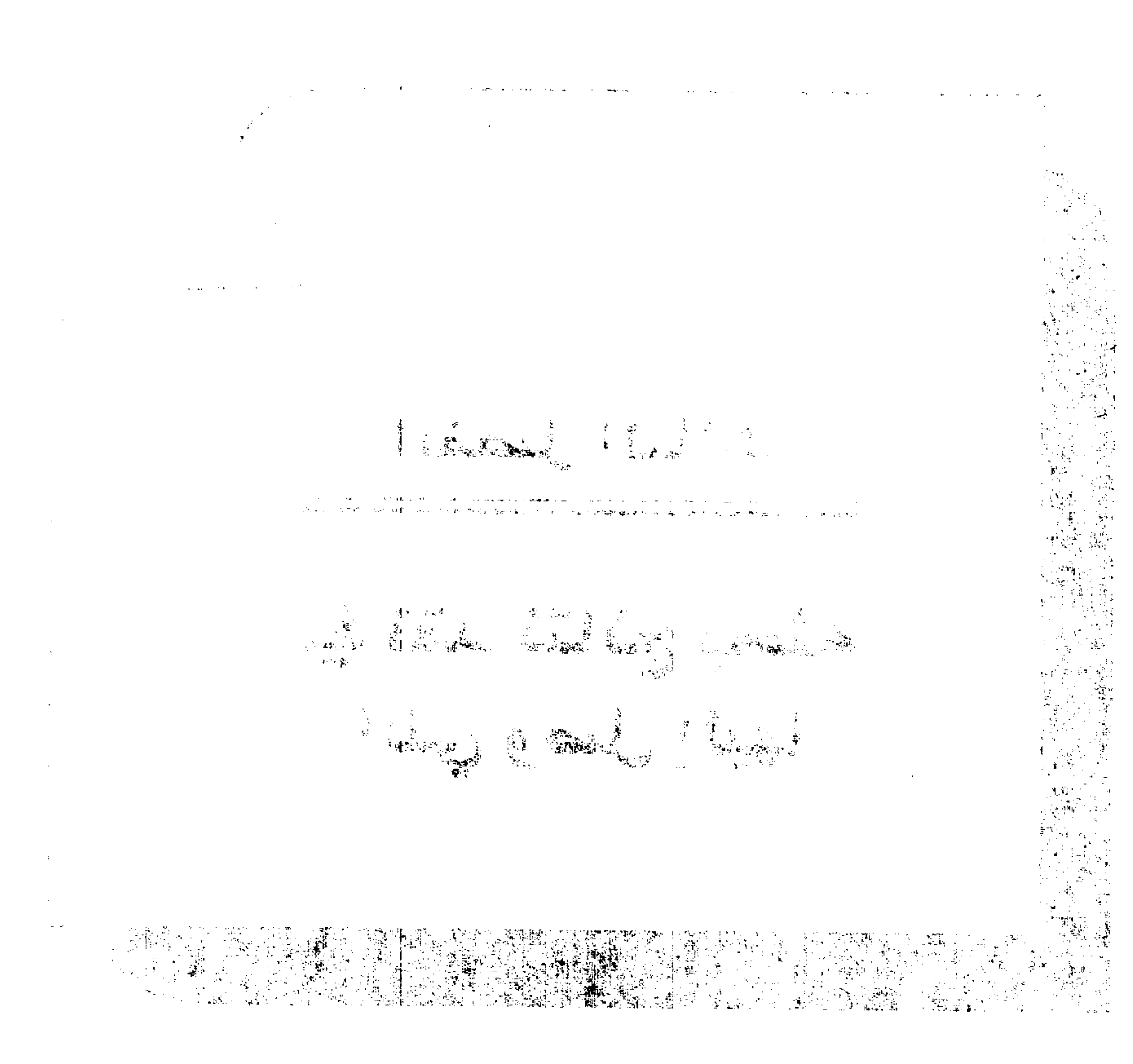


(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٣) وقد يفسر ذلك حنين الجذع إليه ﷺ كما جاء في البخاري عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحنَّ الجذع، فأتى النبي ﷺ فمسحه. وكذلك اهتزاز جبل أُحد ففي الحديث: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حِرَاءٍ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، قَالَ: «**اثْبُتْ حِرَاءُ، مَا عَلَيْكَ إلا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ**» (المحقق).

(٤) تزيين الأرائك بإرسال النبي ﷺ إلى الملائك.



الفصل الثالث

في نقد نتائج بحثه التي وصل إليها

الفصل الثالث
في نقد نتائج بحثه التي وصل إليها

وهي (كما في صفحة ٢٠)؛ **ثلاث**:

أولاها: أن جميع أهل الكتب السماوية؛ أهل هداية وإرشاد؛ ما لم يخرجوا عن جادة الإيمان الصحيح بالله تعالى. **والثانية**: أن صفة أهل الكتاب لا تختص باليهود والنصارى؛ بل تشمل كل من له كتاب من غيرهم. **والثالثة**: أن جميع الأنبياء والمرسلين؛ إنما بعثوا للتوحيد، فالأديان جميعها دين واحد إلخ.

ونقول:

أما الأولى: فقد فرغنا من إبطالها في الفصل الأول؛ بما قررنا: أن الإيمان بالله وحده؛ ليس بإيمان؛ ما لم يوجد معه الإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وذلك ما استهلّت به الآيات السابقة في الفصلين؛ الأول والثاني؛ ولا سيَّما آية البقرة (٢٨٥) وآية المائدة (١٢٦) وأمثالهما. وكأنه خاف صولة الحق؛ فَتَستَّر بقوله: «ما لم يخرجوا عن جادة الإيمان الصحيح». ولكنه كره أن يفوت عليه ما زعمه؛ أنه اهتدى إليه من بين الخلق أجمعين؛ من القول: بنجاة النصارى واليهود والصابئين على ما هم عليه الآن؛ ومن قديم الزمان؛ من التكذيب بمحمد ﷺ، وكتابه الذي لا يأتيه الباطل، ومع ما هم مجدّون في شوطه الطويل؛ من معاندته؛ بالدعاة والنشريات والتأليف؛ التي تغدق عليها جمعياتهم الأموال الضخمة؛ بسخاء لا تتصوره الأفكار.

أفلم يدر ما جرى بالأمس من الدولة الفرنساوية (التي أهانها الله في الحرب

الأخيرة بما نتمنى لها أكثر منه) من أخذها في تنصير البربر؛ بمقتضى صك أجبرت سلطان المغرب الأقصى؛ على التوقيع عليه في ١٧ ذي الحجة من ١٣٤٨هـ؛ بتنازله لها عن الإشراف على الأمور الدينية في الأمَّة البربرية؛ إنْ صحَّ ما تناقلته الصحف في ذلك. غير أنه يريبنا فيه؛ ما نعلمه من مسارعة بعض الأمراء والزعماء المسلمين؛ في هدم دينهم؛ وبيع ذممهم؛ إرضاءً للأجانب؛ بما لا يقدر عليه أحد من مبشرِّيهم. فلا نأمن أن يكون سلطان المغرب؛ من أولئك النفعيين؛ الذين يأكلون مع الذئب؛ ويبكون مع الراعي.

ومهما يكن من الأمر؛ فليس بخافٍ أنَّ الأجانب اليوم يؤجُّون[1] حنقاً على الإسلام؛ ويبذلون جهدهم في الكيد له. فبأيِّ شيءٍ مع هذا؛ نُفَسِّر إصرار المؤلف على القول بنجاتهم. إذ عاد بعد الإطلاق؛ إلى التخصيص والتقييد؛ فقال: بالله تعالى؛ ولم يشترطه بمحمد ﷺ؛ وما درى وما علم؛ أنَّ حقيقة الإيمان بالله؛ إنما هي ما يتلقاه صبيان المكاتب؛ من أنه: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. كما تصرح به كثير من الآي؛ التي ساقها بنفسه في كتابه. وقال تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى آخر الآية (٦٢). ونحوها سورة الأنعام (٩٢) السابقة في الفصل الأول؛ وسورة الفتح (١٣) وسورة الحجرات (١٥) السالفتين في الفصل الثاني. وما على غرارها من سوابق الآيات؛ الناصَّة على اشتراط الإيمان بالرسول ﷺ.

وقد استشكل المفسرون قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[2]؛ وقالوا كيف يجيء بلفظ الماضي؛ والذي سبق إنزاله وقت إيمانهم؛ إنما هو البعض؟ ولا بدَّ للإيمان من اشتماله على الجميع؛ سالفه ومترقَّبه. وهذا هو موضع الشاهد، **ثم أجابوا**: بأن المراد الكل؛ وإن كان بعضه مترقباً، تغليباً للموجود. أو لأنَّهم على تَهَيُّؤ للإيمان بما سينزل،

---

(١) أجَّت النار: أي تلهبت واضطرمت وتوقدت.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤.

فكانوا في حكم المؤمنين به جميعاً؛ بعضاً بالفعل؛ وبعضاً بالقوَّة.

فإن قلت: إنَّ في كلا المعنيين؛ لزوم الجمع بين الحقيقة والمجاز؛ قلت في الجواب: أمَّا على ما يقوله العلامة ابن حجر الهيتمي؛ من جواز ذلك؛ وزعمه النقل فيه عن الإمام الشافعي؛ فلا إشكال. وأمَّا على ما قرره الغزالي؛ واعتمدناه في غير موضع من كتبنا؛ من امتناعه؛ فلا إشكال أيضاً، لأن الجمع إنما يلزم إذا كان كل واحد منهما مراداً باللفظ. ولم يُرَد به هنا إلّا معنى واحداً؛ تركَّب من الحقيقة والمجاز؛ كما حققه الشريف الجرجاني (وسيأتي لهذه النتيجة تأكيد إبطال في الفصل الرابع).

وأما النتيجة الثانية: فالدعوى فيها عامة، وما نقله من الدليل عن الشافعي منقوض بأشياء: منها أن ما نقله بالصفحتين (٢٧) و(٢٨) خاص بالمجوس؛ وما نقله عنه بالصفحة (٢٩)؛ وهو قوله: ومن غزا المسلمون ممن يجهلون دينه؛ فإن ذكروا لهم أنهم أهل الكتاب؛ سئلوا متى دانوا به وآباؤهم؟ فإن ذكروا أنَّ ذلك قبل نزول القرآن؛ قبلوا قولهم اهـ.

وبينه وبين ما ادَّعاه؛ فرقٌ كبير؛ وبَوْن بعيد. لأنَّ الشافعي إنما يعتبرهم كتابيين لأجل الجزية؛ بشرط أن يدَّعوا أنهم أهل كتاب؛ وأن آباءهم تمسَّكوا به؛ قبل نسخه بمحمد ﷺ؛ فهو شاهد عليه؛ لا له؛ حيث كان يمنع نسخ الشرائع بنبيِّ الإسلام ﷺ.

وإليك نص ما استنتجه من كلام الشافعي: قال بعده في صفحة (٢٩): وعلى هذا وجب أن نعتبر جميع أهل الأديان الموجودة اليوم؛ أهل كتاب؛ لأننا نعلم أن جميع الأديان الموجودة؛ من يهودية ونصرانية ومجوسية وبوذية وبرهمية وغيرها، وجدت قبل نزول القرآن؛ على محمد صلوات الله عليه؛ وعلى جميع المرسلين اهـ. هذا هو الرد الأول.

والثاني: أنَّ للشافعي كلاماً غير هذا في النكاح. قال في المنهاج؛ مع تكملة له من الشرح: والكتابية؛ يهودية أو نصرانية، لا متمسكة بالزبور وغيره؛

كصحف شيث وإدريس وإبراهيم، فإن لم تكن إسرائيلية؛ فالأظهر حِلَّها؛ إن علم دخول آبائها في ذلك الدين؛ قبل نسخه وتحريفه. والسامرة من اليهود؛ والصابئون من النصارى[١]. فمن خَالَفَتْهُمْ في أصل دينهم؛ حَرُمَتْ؛ كالمرتدَّة. وقد تطلق الصابئة على قوم أقدم من النصارى؛ كانوا في زمان إبراهيم منسوبين لصابئ بن نوح؛ يعبدون الكواكب السبعة؛ ويضيفون إليها الآثار؛ ويزعمون أن الفلك حيٌّ ناطق؛ وليسوا مما نحن فيه؛ إذ لا تحل مناكحتهم؛ ولا ذبائحهم مطلقاً؛ ولا يُقَرُّون بجزية اهـ.

أما في الجزية فإنهم يتساهلون؛ تغليباً لحقن الدماء؛ وإنما لم يأخذ ﷺ؛ الجزية من يهود المدينة؛ لأنه لم يؤمر بها بعد؛ وإنما نزلت آية الجزية بعد غزوة تبوك؛ وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة.

والثالث: قد علمت من الفصل الأول؛ أنَّ مذهب الشافعي: تكفير من يُصَحِّحْ مذهب اليهود أو النصارى؛ أو يتشكَّكْ في كفرهم. فلا أجد للمؤلف مثلاً؛ إلّا ابن الرومي في قوله:

أحلَّ العراقيُّ النبيذَ وشُرْبه ... فَحُلَّت لنَا بَينَ اختلافِهِمَا الخَمْرُ

وقالَ الحَرَامَانِ المُدَامَةَ وَالسّكْرُ ... سَآخُذُ مِنْ قَوْليهِمَا طَرَفَيهِمَا

وقال الحجازيُّ الشَّرابَانِ وَاحِدٌ ... وَأشْرَبُهَا حِلّاً وَلِلْوَازِرِ الوِزْرُ

وشرح ذلك: أنَّ أبا حنيفة يقول: إنَّ شرب النبيذ حلال. وإنما يحرُم السكر والخمر، وقال الشافعي: هما سواء في الحرمة. وابن الرومي أخذ من قول أبي حنيفة: النبيذ حلال؛ وترك باقيه، وأخذ من قول الشافعي: هما سواء، وأعرض عن قوله في الحرمة. والمؤلف تمسك بشيءٍ من قول الشافعي في الجزية؛ وأعرض عما يقول في الرِّدَّة والنكاح. أليس المثال منطبقاً عليه أيها الناظرون؟

---

(١) الصابئة دين نصراني قديم يؤمن اتباعه بأربعة أنبياء من آدم إلى يحيى وموجود منهم اليوم حوالي مائة ألف يعيش معظمهم في العراق.

أما استدلال المؤلف في صفحة (٢٠) بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[١]، وقوله في سورة فاطر: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٢]، فاستدلال جميل. ولكن الشافعي لا يعتبر المظنة؛ وإنما يعتبر في الأغلب المئنة[٣]. وهذا كله إن أراد البشر؛ وإلّا فقد قال القاضي عياض: بكفر من ذهب إلى أنَّ في كُلِّ جنس من الحيوان نبيًّا؛ محتجاً بهذه الآية: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٤]، وأقره العلامة ابن حجر؛ ومنه يتوجه الانتقاد إلى قول المعرِّي:

نبيٌّ من الغربان ليسَ على شَرعٍ   يُحَدِّثُنا أنَّ الشُّعوبَ إلى الصَّدْعِ

وأما نتيجة الثالثة: فقد حام فيها حول الحقيقة؛ ولكن لم يصب المحز؛ ولم يطبق المفصل؛ بل خبط في عشوة؛ وتكلم في نشوة، فقال في صفحة (٢١): إذاً فإنَّ الأديان جميعها؛ هي دين واحد؛ وأصولها هي واحدة؛ وإن تعدَّدَتْ الفروع، وقال في صفحة (٣٢): فهذه هي أصول الأديان الأساسية؛ التي دعت إليها جميع الأديان؛ أما الفروع؛ فليس هناك بأس إذا هي اختلفت اهـ.

فإما أن يكون لا يفهم؛ أو لا يضبط مشاعره عند تحريك القلم. ولقد أصاب في قوله: إنَّ أصول الأديان واحدة؛ ولكن ليس ذلك من كيسه؛ ولا بشيءٍ جديدٍ جاء به من تلقاء نفسه، إنما هو الطريق المهيَعْ[٥]؛ المعلوم بالضرورة من الدين؛ كما اتفق عليه سائر المفسرين والمحدِّثين والفقهاء والمتكلمين. وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[٦]. وقال فيها أيضاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦. (٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.
(٣) المئنة: علامة الشيء الدالة عليه.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٤.
(٥) الطريق البيِّن.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[١]، وقال في سورة فصلت: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢].

ولئن قيل إن المقول هو: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ فالعموم أولى؛ بشهادة ما سبق؛ قبيل الفصل الثاني. وقال في سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٣]. والآيات في ذلك أكثر من الحصر، وأخرج مسلم بن الحجاج من عدة طرق صحيحة؛ بألفاظ متقاربة؛ هذا لفظ آخرها، قال ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة! قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: الأنبياءُ إخوة من عَلَّاتٍ، أمهاتهم شتى؛ ودينهم واحد؛ وليس بيننا نبي**»[٤]. وأخرجه البخاري وأحمد وأبو داود؛ وذكره القاضي عياض وغيره. وقال النووي: قال جمهور العلماء: معنى الحديث: أصل إيمانهم واحد؛ وشرائعهم مختلفة، فإنهم يتفقون في أصول التوحيد؛ وأصل طاعة الله؛ وإن اختلفت صفتها؛ وأما فروع الشريعة؛ فوقع فيها الاختلاف. وأخرج البخاري في باب خاتم النبيين أنه ﷺ قال: «**مثلي فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتاً وأكمله حتى إذا لم يبق منه إلّا موضع لبنة فأنا تلك اللبنة**». وقد جوَّدت القول في خطبة ألقيتها منذ أكثر من عشرين عاماً؛ في الجمع بين سورة المائدة؛ وهي قوله جلَّ ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) سورة فصلت، الآية ٤٢.

(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٦٣ ـ ٦٤.

(٤) قال العلماء: أولاد العَلَّات هم الإخوة لأب من أمهات شتى. وأما الإخوة من الأبوين فيقال لهم أولاد الأعيان.

عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١]؛ وسورة الشورى وهي قوله جلّ ذكره: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٢].

وقد ذكر غير واحد من المؤرِّخين؛ أن أحد بطارقة الروم؛ جاء مسلماً إلى ابن الخطاب. فسأله عن سبب إسلامه؟ فأخبره أنه سمع أحد أسرى المسلمين عندهم يقرأ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[٣]؛ قال: فتأمَّلتها؛ فإذا هي جامعة لكُلِّ ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة. وجاء في الصفحتين ٢٢ وص٢٣ ج٢٠ طنطاوي[٤]: أن الهنود البراهمة يوَحِّدون الله.

وقال الأستاذ الحكيم؛ الشيخ محمد عبده المصري[٥]؛ في بعض مقالاته: الدين دين الله؛ وهو دين واحد في الأولين والآخرين؛ لا تختلف إلّا صوره ومظاهره؛ وأما روحه؛ وحقيقة ما طولب به العالمون أجمعون؛ على ألسن الأنبياء والمرسلين؛ فهو لا يتغيَّر: إيمان بالله وحده؛ وإخلاص له في العبادة؛ ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير؛ وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) سورة النور، الآية: ٥٢.

(٤) أعتقد أن الإمام يشير إلى تفسير القرآن الكريم لجوهري طنطاوي.

(٥) الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ) من علماء مصر المجددين شارك في ثورة عرابي فنفي إلى بيروت ثم دعاه جمال الدين الأفغاني إلى باريس وأنشأ معه مجلة العروة الوثقى ثم عاد إلى مصر وعيّن أول مفتٍ للديار المصرية مستقلاً عن الأزهر له مجموعة من الفتاوى وشرح كتاب نهج البلاغة.

قدروا. ونعتقد أنَّ دين الإسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول. ومن أهمِّ وظائفه؛ إزالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب؛ ودعوتهم إلى الاتفاق والإخاء والمودة؛ وهذا ما عمل عليه المسلمون؛ قرناً بعد قرن؛ بحسب قوة تمسُّكِهِمْ بالإسلام (انتهى).

ومنه تعرف؛ أنَّ المؤلف[1] إنما يستقي منه؛ ومن أمثاله الموجودة بكثرة؛ في منشآت هذا الأستاذ الحكيم، ولكنه لم يتفضَّل بإشارة ما؛ إلى مأخذه منه؛ ليوهم الاختراع والابتكار؛ ويحرِّف بعض معانيه عن مواقعها. فإن الأستاذ الحكيم؛ لم يجعل الأديان ديناً واحداً؛ ولم ينحل ديناً منها؛ اسم غيره؛ وستأتي تتمة هذا البحث في الفصل العاشر.

وأما الذي خبط فيه فقوله: أما الفروع فليس هناك بأس إذا اختلفت. إذ ما بعد (لا بأس) أولى بالترك لا بالعمل، فإذا قلت لأحد: لا بأس أن تجيء؛ كان عدم المجيء أولى. وقضيته أنَّ عدم الاختلاف في الفروع؛ أولى بالحكمة منه فيها؛ وليس الأمر كذلك؛ بل اختلافها بحسب المصلحة؛ نظراً للأمكنة والأزمنة والأشخاص؛ هو الأولى.

قال البيضاوي[2]؛ على قوله تعالى؛ في آية المائدة؛ السابقة عما قليل: ليبلوكم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة؛ المناسبة لكل عصر وقرن؛ هل تعملون بها مذعنين أنَّ اختلافها مقتضى الحكمة الإلهية؟ أم تزيغون عن الحق وتفرطون في العمل؟

فإن قيل: إنما تقيَّل البيضاوي في هذه العبارة آثار الزمخشري[3]؛ وقد بناها

---

(١) لكتاب توحيد الأديان.

(٢) هو القاضي العلامة عبد الله بن عمر البيضاوي ولد بالبيضاء قرب شيراز وبرع في الفقه والأصول واللغة وله عدة مصنفات أشهرها تفسيره المسمى بمعالم التنزيل.

(٣) هو محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ) برع في الآداب وصنف =

على مذهبه؛ من القول والحكمة بالأفعال، **فالجواب**: إن القول بحكمة الله؛ أظهر من أن يُحْتَجَّ عليه لتقرير مسلم؛ سلم من تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها. ولذا تقِرُّ به العوام من كل فرقة، ويقرُّ به من لم يتلقن خلافه من اتباع غلاة المتكلمين. وقد جزم بإثبات حكمة الله في الأفعال؛ عشرة من الشافعية؛ وهم: الخطابي وعلي بن خلف بن بطال، والزنجاني، وابن كثير، والذهبي، والغزالي، والنووي، وابن الأثير، والدميري، والزركشي. وذكر في شرح جمع الجوامع: إثباته عن الحنفية؛ وعن الخطَّابي من الحنابلة. وهو المنصور لقِوَّته من حيث الفطرة؛ وآيات القرآن المجيد؛ وسلامته من الوهن والتعارض. وأمَّا الإمام الرازي فقد اختلف كلامه، وقال في (مفاتيح الغيب)[١]: إنَّ مسألة الأفعال وقعت في حيِّز التعارض؛ بحسب تعظيم الله تعالى؛ نظراً إلى قدرته؛ وبحسب تعظيمه؛ نظراً إلى حكمته. وأطال في ذلك العلامة ابن الوزير في (إيثار الحق)[٢] بما يتعين الوقوف عليه. وقد جاءت هذه الفائدة في البين[٣]؛ ولكنها يعذب بها الاستطراد؛ لأنها جَدُّ نفيسة.

ومن عشوته أيضاً؛ قوله في تلك الصفحة (أعني صفحة ٣٢): وعلى هذا فالمؤمنون جميعاً من مسلمين ومسيحيين ويهود وبوذيين وغيرهم؛ إذا أقَرُّوا واعترفوا بذلك؛ فقد أقرُّوا واعترفوا بجميع الأديان؛ وجميع الكتب والرسل؛ وأنهم من عند الله. ومعناه: أنهم إذا آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً؛ فقد أقروا بطريقة الالتزام؛ واعترفوا بجميع الأديان؛ تَضَمُّناً؛ شاؤوا أم أبوا. ولا يضر عنده تفريق الشهادتين؛ ولا جحودهم لرسالة محمد ﷺ، لأن المقصود عنده؛

= التصانيف وأشهرها تفسيره للقرآن وكان على مذهب المعتزلة في العقيدة حنفياً في الفروع وكان يجاهر باعتزاله.

(١) هو التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي.

(٢) محمد بن إبراهيم الوزير (٧٧٥ ـ ٨٤٠هـ) عالم موسوعي من اليمن أثنى عليه كبار العلماء وله عدة كتب منها العواصم من القواصم ومنها إيثار الحق على الخلق.

(٣) أي في ثنايا الكلام.

وجود الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح؛ فمتى وجدت هذه؛ كان صاحبها مؤمناً بسائر الكتب؛ لاتفاقها على طلبها من الإنسان.. وهذا والله هو الكفر الشنيع؛ الذي لم يأت بمثله أحد من العالمين. ولا ينطبق مع ذلك على شيء من المنطق واللغة. وأينه مما أنكره الناس على الشيخ الأكبر ابن عربي(١)؛ إذ يقول في الصفحة ٣٩٣ من آخر أجزاء فتوحاته(٢)؛ في الكلام على أنَّ العالم على صورته؛ فلذلك قلنا: إنَّ الحق غير الوجود؛ ومن هذه الحضرة جمع العالم كله على تسبيحه بحمده؛ وعلى السجود له. إلّا أنَّ كثيراً من الناس؛ ممن حقَّت عليه كلمة العذاب؛ سجد له في صورة غير مشروعة. فأُخِذَ بذلك؛ مع أنه ما سجد في المعنى إلّا لله؛ فافهم اهـ.

فإنه جزم بأنهم ممن حقَّت عليهم كلمة العذاب؛ بخلاف المؤلِّف؛ فإنه يقول بنجاة المكذِّبين بمحمد ﷺ؛ لأنهم وإن كذبوا به في الظاهر؛ فقد أقرُّوا بما جاء به من الإيمان بالله واليوم الآخر؛ والجزاء على الأعمال. وهذا القدر؛ هو الذي بنى كتابه على الاحتجاج على كفايته والتدليل لها، تعالى الله عما يشركون.



(١) محيي الدين بن عربي الأندلسي أحد أشهر المتصوفين يلقبه أتباعه بالشيخ الأكبر ولد في الأندلس سنة ٥٥٨هـ قبل عامين من وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني ودفن بدمشق عام ٦٣٨هـ.

(٢) أي الفتوحات المكية لابن عربي.

الفصل الرابع

الفصل الرابع

كنت توهمته ارْعَوَى عن الغيِ؛ ودنا من الظل؛ وقرع باب الصواب؛ بما جاء في الصفحات: (٨ و٢٢ و٢٤ و٢٥ و٣١ و٣٢). أما ما في صفحة (٨) فهو قوله: (فكان من حكمة الله تعالى؛ أن أرسل خاتم الأنبياء؛ وأمر القرآن بوجوب الإيمان لكل الأديان التي قبله؛ وجميع الكتب التي سبقته؛ وعموم الأنبياء الذين تقدموه؛ وجعل ذلك شرطاً أساسياً للإيمان؛ لا يكمل ولا يتم إلّا به.. إلخ).

فقد ذهب إلى وهمي؛ بداءة ذي بدء؛ بدافع الظن الحسن؛ أنه ينقض كلامه في الصفحات المشؤومة؛ ويجعل الإيمان بجميع الكتب شرطاً لإيمان اليهود والنصارى. ولما أعدت النظر؛ ألفيته كالصريح في العكس. وهو أن القرآن مأمور بالإيمان بكتب أولئك؛ لا أنَّهم مأمورون بالإيمان به. فكانت شرًّا من تلك الصفحات؛ وإنْ كانت كلها شرًّا وكفراً. هذا إن جعل القرآن مفعولاً؛ وإن جعله فاعلاً؛ كان الأمر كذلك. لأنَّ المقصود أمْرُ القرآن لأبنائه؛ بأن يؤمنوا بالأديان والكتب والرسل قبله؛ لا أنَّه يأمر أهل الكتاب؛ ومَنْ لَفَّهُمْ؛ بالإيمان به؛ وبمن أنزل عليه. وقد صرح في صفحة ٩: بأنه لا يقصد الدعوة إلى دين معيَّن؛ وإنما غرضه الرجوع إلى أصول الأديان. يعني دينه الجديد؛ وهو ظاهر في أنَّ لكُلِّ أهل دين؛ فروعهم. وهل من كُفْرٍ فوق هذا؟ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وأما قوله في صفحة (٢٢): (فكان القرآن هو الدعوة العامة للعالم كله؛ إلى دين الله؛ الذي أرسل به جميع الأنبياء؛ والرسل الذين تقدموه؛ وجعل ذلك شرطاً

أساسياً لازماً؛ لا يكمل الإيمان إلّا به؛ حتى يكون الدِّين كُلُّه لله). فأخذتني سلامة النية عند أول نظرة فيه؛ على أنه يجعل الشرط الأساسي للإيمان: هو التصديق بالقرآن؛ ولما أعدتها؛ إذا هو كما في السابقة بالعكس. والإشارة في قوله: (وجعل ذلك) عائدة إلى أقرب مذكور؛ وهو دين الله؛ الذي أرسل به جميع الأنبياء. إذاً؛ فهذه العبارة؛ أشبه بسابقتها؛ من الجرادة بالجرادة؛ والبيضة بالبيضة؛ والغراب بالغراب. وأما في الصفحة ٢٤؛ فقد ساق جملة من الآيات الكريمة؛ ومنها آية البقرة ١٢٦ وآيتها ٢٨٩؛ وقال: إنَّ المسلم لا يتم إسلامه؛ ولا يكمل إيمانه؛ إلّا بذلك. ولولا ما انكشف لي من صريح الغش في الصفحتين السابقتين؛ لتوَهَّمت أنَّ الإشارة بذلك؛ إلى ما جاء في الآيات من الإيمان التفصيلي بالملائكة والكتب والرسل؛ ولكنه لا يريد إلّا الإيمان بالدين؛ الذي اختصر أركانه؛ وردَّها إلى ثلاثة فقط؛ كما يتوضح ذلك من قوله في صفحة (٢٥): (وهذه الآيات مشيراً إلى ما في صفحة ٢٤) صريحة في أن القرآن يعتبر الأديان جميعها ديناً واحداً؛ وأنَّ الرسل جميعاً؛ إنما جاؤوا بدينٍ واحد. ويجعل ذلك شرطاً أساسياً لازماً في كمال الإيمان؛ وأنَّه لا يتم إيمان المرء ما لم يؤمن بذلك إلخ. فإن اسم الإشارة في «ويجعل ذلك» لا يحتمل رجوعاً إلى غير اعتبار الأديان جميعاً ديناً واحداً؛ خلاف ما فهمته أولَ بدءٍ؛ من ارعوائه واستفاقته. ومثل ذلك وقع لي؛ عندما رأيت قوله في صفحة (٣٢) السابق؛ مع نقده قبيل الفصل الرابع.

أما قوله في صفحة (٣١): (فماذا يعذرنا أن نعتبر ونعترف ونقر بجميع الأديان؛ وأنَّ اتباعها من المؤمنين المهتدين؛ إذا آمنوا بالله وعملوا صالحاً؛ ولم يخلطوا إيمانهم بشرك؛ حتى يكون الدينُ كلُّه لله؛ ويتم توحيد الأديان؟ وماذا يعذر أهل الكتاب أن يؤمنوا بجميع الكتب والمرسلين؛ ويعبدوا الله وحده؛ ويعملوا العمل الصالح؟ إلخ..). فلا شك أنَّ أوله؛ كمثل ما في الصفحات المشؤومة السابقة في الفصل الأول، وأما آخره؛ فقد يُتَوَهَّم أنه عليه شَمَّة من الحق؛ لو كان من قبيل الحتم والإلزام بالإيمان التفصيلي؛ إذ لا بدَّ من وجوب

الإيمان بمُحَمَّدٍ وبكلٍّ من نصَّ القرآن على اسمه من الأنبياء تفصيلاً. ولكنه لم يكن إلّا بصفة العرض.

وقد مرَّ اكتفاؤه من اليهود والنصارى ومن لَفَّهُمْ؛ بالإيمان الاستلزامي والتَّضَمُّنِّي؛ فهو الذي لا يعذرهم منه هنا. أما الإيمان المتبوع بحذو المثال وسلوك الطريق؛ فقد أعفاهم منه رأساً؛ نعوذ بالله من الخذلان. فهو وإن مجمج في بعض الكلام؛ وتذبذب في بعض العبارات، إخفاءً لمَكْرِه، فقد صدَّق كتابه سن بكره[1]؛ بل إنه لا يُلْزِمُهُمْ بالإيمان التضمني الإجمالي؛ وإنما يَعُدُّ موافقتهم على الإيمان بالله والبعث والعمل الصالح؛ هو الدِّين الذي يجمع شتى الأمم؛ ويضم منتشر الملل؛ وهو الذي يجب عليهم وعلى القرآن الإيمان به. وبما أن القرآن لا يؤمن بأن هذا الاختصار هو الدين الخالص؛ فماذا يكون حكمه عند المؤلف؟ نعوذ بالله من ركوب الغمَّة؛ والخبط مع العشوة.

ولئن توهم من آخر عبارته؛ القرب من حِمَى الحق؛ فقد أبدت الرغوة عن الصريح[2]؛ إذ قوله في أولها: (وإنَّ أتباعها من المؤمنين المهتدين)؛ صريحٌ؛ في الإصرار على تلك المَعَمَّة؛ والكفر الفاحش؛ والإلحاد القبيح. ولولا سقوط كلامه بذاته؛ بقطع النظر عن رَدِّي عليه؛ ونقض فتله وقطع حبله؛ لأُطْلِقَ عقال الفتنة؛ واستَوْرَى زناد الشر. وأما المسلمون حتى الجاحظ والعنبري؛ فقد اتفقوا على أنَّ لا إسلام؛ إلّا بكلمتي الشهادة؛ واتِّبَاعِهِ ﷺ في جميع ما جاء به عن الله تعالى.

وقد تضمنت كلمة الشهادة مع قِلَّةِ حروفها؛ جميع ما يجب على المُكَلّف معرفته من عقائد الإيمان؛ في حقِّه تعالى؛ وفي حقِّ رسله. ولاختصارها مع اشتمالها على ما ذكرناه؛ جعلها الشرع ترجمان ما في القلب من الإسلام. ولم يقبله من أحَدٍ إلّا بِهَا.

---

(١) المثل: «صَدّقَنِي سِنَّ بَكْرِهِ»؛ يضرب مثلاً في الصدق والبَكْرُ: الفَتِيُّ من الإبل.

(٢) أبدت الرغوة عن الصريح من أمثال العرب ومعناه ظهر الأمر المخفي.

وأخرج البخاري ومسلم؛ من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: **«من شهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله تبارك وتعالى الجنة على ما كان من عمل»**[1]. وأخرج الترمذي ومسلم عنه أيضاً: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من شهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله حرَّم الله عليه النار»**. وعن يونس بن عبد الله بن سلام؛ عن أبيه؛ قال: عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ سمع القوم وهم يقولون: أي الأعمال أفضل يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إيمان بالله وجهاد في سبيل الله وحج مبرور ثم سمع نداء في الوادي يقول أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله فقال رسول الله ﷺ: وأنا أشهد وأشهد ألا يشهد بها أحد إلّا برئ من الشرك»** رواه أحمد والطبراني في الكبير قال الهيتمي ورجال أحمد موثقون.

وفي حديث معاذ بن جبل الطويل؛ الذي أخرجه البزار والنسائي وابن ماجه والترمذي والإمام أحمد وغيرهم؛ بإسناد صحيح مرفوعاً: **«إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويشهدوا أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فإذا فعلوا ذلك فقد اعتصموا وعصموا دماءهم وأموالهم إلّا بحقها وحسابهم على الله عز وجل»**. وفي صحيح مسلم؛ أنه ﷺ؛ قال لعليٍّ يوم خيبر: **«قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله... إلخ»**. وأجمع ما في الباب؛ حديث جبريل الطويل؛ ومنه: **«أن قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمَّداً رسول الله؛ وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة؛ وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً.**

---

(١) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ ﷺ، يَقُولُ: **«مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ»**. أخرجه البخاري ومسلم.

قال: صدقت؛ قال: أخبرني عن الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كلِّه خيره وشره». وقد اتفق البخاري ومسلم وغيرهما على إخراجه وتصحيحه. وقد جمع أركان الإيمان والإسلام والإحسان. غير أن المؤلف اختصره اختصاراً قبيحاً جداً.

وفي حديث وفد عبد القيس؛ الذي اتفق عليه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وغيرهم: **«أنه ﷺ أمرهم بالإيمان بالله، ثم قال لهم: تدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: شهادة أن لا إله إلّا الله؛ وأنَّ محمداً رسول الله؛ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان؛ وأن تعطوا من المغنم الخمس»**. وفي حديث عمرو بن عنبسة الجامع لفرائض الدين؛ أنه قال: وما الإيمان؟ قال له ﷺ: **«تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث»**، أخرجه الطبراني وأحمد، ورجاله ثقات.

وعن جرير بن عبد الله من حديث طويل؛ أنَّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: علِّمني ما الإيمان؟ قال: **«تشهد أنْ لا إله إلّا الله وأنَّ محمداً رسول الله؛ وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت»**. قال: قد أقررت؛ ثم وقعت يد بعيره في بعض ما تحفر الجرذان؛ فاندقت عنقه؛ فقال ﷺ: **«عمل قليلاً وأُجِرَ كثيراً»** أخرجه الطبراني؛ وابن أبي حاتم في تفسيره؛ والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والخطيب البغدادي؛ والإمام أحمد بسند فيه زاد: أنْ وثَّقه قومٌ وضعفَّه آخرون.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ»** أخرجه الإمام أحمد وعبد الرازق. وأخرجه البخاري ومسلم والطبراني وأحمد أيضاً والنسائي والترمذي بدون: **«وأنَّ محمداً رسول الله»**. وفي كل الروايات بناؤه على خمس؛ فدلَّ على أن الشهادة لمحمَّد بالرسالة؛ منطوية في الشهادة بالتوحيد.

وعن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلّا الله؛ وإقام الصلاة؛ وإيتاء الزكاة؛ وحج البيت وصوم رمضان**»، قال الهيتمي: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير والصغير؛ وإسناد أحمد صحيح. وعن عليٍّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ، يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ**» أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم؛ وسنده جيد.

وعن السدوسي قال: «**أتيت رسول الله ﷺ لأبايعه؛ فاشترط عليَّ شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله؛ وأن أقيم الصلاة؛ وأن أؤدي الزكاة؛ وأن أحج حجة الإسلام؛ وأن أصوم شهر رمضان؛ وأن أجاهد في سبيل الله؛ فتلكأ في الصدقة والجهاد؛ ثم بايع عليهن كلهن**»[١]. قال الهيتمي رواه أحمد والطبراني في الأوسط الكبير، ورجال أحمد موثقون، وعن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لمَّا بعث معاذاً إلى اليمن؛ قال: «**إنك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله عز وجل افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» أخرجه الشيخان والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود. وأخرج مسلم وأحمد عن أبي موسى الأشعري؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**والذي نفسي**

(١) وفي المسند عن بشير بن الخصاصية قال: «أتيت النبي ﷺ لأبايعه، فاشترط علي شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله وأن أقيم الصلاة وأن أوتي الزكاة وأحج حجة الإسلام وأن أصوم رمضان وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله، أما اثنتين فوالله ما أطيقها، الجهاد والصدقة، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها وقال: فلا جهاد ولا صدقة! فبم تدخل الجنة إذاً؟ قلت: أبايعك، فبايعته عليهن كلهن» ملاحظة للمحقق: ويطلق على السدوسي ابن الخصاصية.

بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلّا كان من أصحاب النار»؛ وأخرجه أحمد أيضاً من حديث أبي هريرة. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله؛ فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم إلّا بحقِّها؛ وحسابهم على الله**». قال فلما كانت الردة قال عمر لأبي بكر: تقاتلهم وقد سمعت رسول الله يقول كذا وكذا؛ قال: فقال أبو بكر: نقاتلهم؛ والله لا أفرِّق بين الصلاة والزكاة؛ ولأقاتلنَّ من فرَّق بينهما؛ قال: «فقاتلنا معه فرأينا ذلك رُشْداً» أخرجه الشيخان. والشهادة لمُحَمَّدٍ بالرسالة؛ مندرجةٌ في شهادة التوحيد؛ كما تشهد الروايات السابقة والآتية. وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ثم قد حرم على دماؤهم وأموالهم، وحسابهم على الله عز وجل**» أخرجه أحمد والبخاري ومسلم من حديث ابن عمر. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله فإذا شهدوا واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلّا بحقها لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم**» أخرجه البخاري والترمذي والنسائي وأبو داود باختلاف في بعض الألفاظ.

وعن ابن مسعود قال: «**إن الله عز وجل ابتعث نبيَّه لإدخال رجل الجنة؛ فدخل الكنيسة؛ فإذا هو بيهود؛ وإذا يهودي يقرأ عليهم التوراة؛ فلما أتوا على صفة النبي ﷺ أمسكوا ـ وفي ناحيتها رجل مريض فقال النبي ﷺ: ما لكم أمسكتم؟ قال المريض: إنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا، ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة؛ فقرأ حتى أتى على صفة النبي وأمته، فقال: هذه صفتك وصفة أمتك؛ أشهد أن لا إله إلّا الله؛ وأنك رسول الله ثم مات، فقال النبي ﷺ: ولوا أخاكم**» أخرجه أحمد والطبراني وسنده جيد.

وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار **أَنَّ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسِهِ، فَسَارَّهُ يَسْتَأْذِنُهُ فِي قَتْلِ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَجَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،**

فَقَالَ: **«أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ؟»** قَالَ الأَنْصَارِيُّ: بَلَى وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: **«أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ؟»** قَالَ الأَنْصَارِيُّ: بَلَى، وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: **«أَلَيْسَ يُصَلِّي؟»** قَالَ: بَلَى، وَلا صَلاةَ لَهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أُولَئِكَ الَّذِينَ نُهِيتُ عَنْهُمْ»** أخرجه مالك وعبد الرازق في جامعه، وقال الهيتمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ؛ عاد عتبان بن مالك من وجع بعينيه؛ فتحدَّث أصحابه؛ وذكروا ما يلقون من المنافقين؛ وأسندوا عظم ذلك إلى مالك بن الدخشم، فقال النبي ﷺ: **«أليس يشهد أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله ﷺ فقال قائل: بلى وما هو من قلبه، فقال رسول الله: فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلّا الله يبتغي بذلك وجه الله»** أخرجه أحمد والشيخان من حديث محمود بن الربيع؛ وأخرجه البخاري وأحمد وأبو داود عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»**؛ يعني عشرة بعد عبد الله بن سلام؛ ومخيريق[1]؛ فيكون المجموع اثني عشر؛ وهم المشار إليهم في المائدة بقوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

---

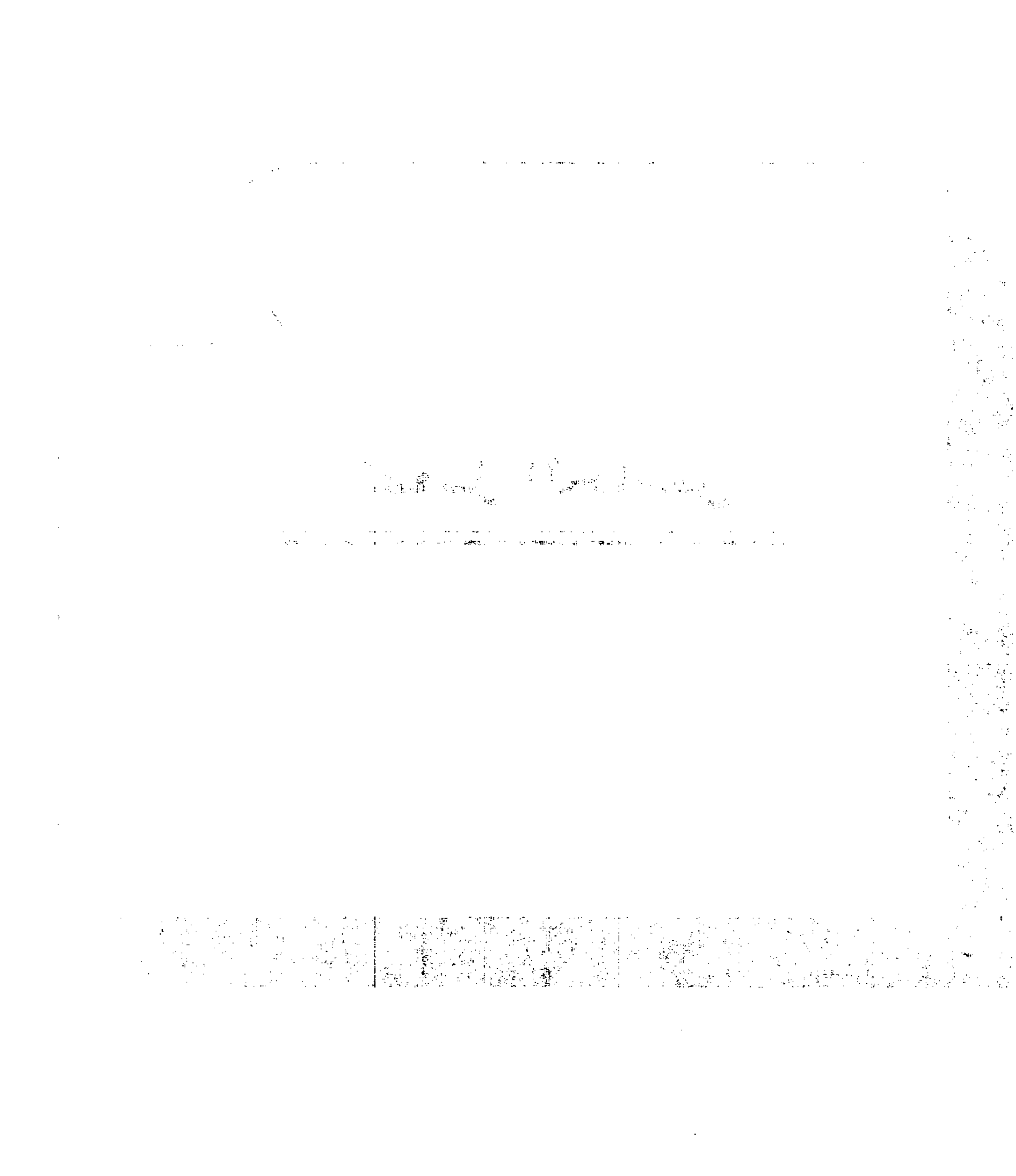
(١) مخيريق بن النضير كان من يهود بني قينقاع وكان من أغنيائهم؛ أسلم ودعا اليهود إلى مناصرة الرسول ﷺ يوم أُحد فلم يستجيبوا له فخرج وانضم إلى جيش المسلمين وقاتل حتى قتل وأوصى بماله لرسول الله ﷺ وكانت سبعة من البساتين وقال رسول الله ﷺ: **«مخيريق خير يهود»** وجعل أمواله صدقة للمسلمين.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.

وكان الاقتصار على بعض هذه الأحاديث الصحيحة أولى بالاختصار؛ ولكن الإكثار أبعد عن التأويل وأظهر للمنار، إذ التواتر أدمغ الحجج وأبلغ البراهين، وقد حصل بحمد الله وزيادة؛ وما توفيقي إلّا بالله؛ عليه توكلت وإليه أنيب.



الفصل الخامس



الفصل الخامس

لقد أطلنا القول في التشرف بسرد الآيات المقدسة؛ والأحاديث الثابتة؛ فلم نعدم فائدة وعائدة، غير أنَّا كمن يدفع باباً مفتوحاً على مصراعين؛ بينهما بُعد المشرقين؛ إذ لا يمكن أن ينطلي شيء من تلك الترهات على ذي عقل.

ونعود فنتساءل فيما بيننا؛ ماذا يُفَسَّر به العمل الصالح في دين المؤلف؟ أما الاعتراف بنبيِّنا محمد ﷺ؛ فتارة يكاد يصرِّح بعدم اشتراطه؛ كما في الصفحات السبع المشؤومة؛ التي قد فرغنا من ردِّها في الفصل الأول. وأخرى يخاف انهتاك الستر؛ ويهاب من غضب أهل القبلة؛ فيتذبذب ويمجمج القول؛ ويتوهَّم أنه يحفظ لنفسه خط الرجعة؛ بعبارات قد يفهم منها لأول وهلة: أن شرط الإيمان الأساسي هو الإيمان بسائر الأنبياء والكتب؛ دون تصريح بالواجب الذي لا بدَّ منه من التفصيل؛ ثم لا تنكشف الحقيقة عند إعادة النظر؛ إلّا عن إصراره؛ على أنه لا يلزم الإيمان إلّا بالدين الذي اختصره إلى ثلاثة أركان فقط؛ بل لا يظفر الناظر في كتابه بنتيجة قط؛ سوى أنَّ موافقة من سمَّاهم أهل الكتاب؛ على الإيمان بتلك الأسس الثلاثة؛ أو الاثنين والعمل الصالح؛ هو الدِّين نفسه؛ وإن لم يصحبه إيمان بالأنبياء والكتب بتفصيل ولا إجمال. وقد خرجنا من هذا بما في الفصل الرابع.

أما في هذا الفصل فنطالبه بتفسير «العمل الصالح» وعنده تنكشف الضمائر؛ وتُعْلَنْ السرائر؛ وتُنْصَبْ الموازين؛ وتُنْشَر الدواوين. فإن فسرَّه بالصلاة إلى قبلتنا؛ وبالحج والصيام؛ والزكاة والقيام؛ فقد اندفع الملام؛ والتأم الكلام؛

وصحَّ الإسلام؛ وصرنا أهل الكتاب إخواناً في الدين؛ كما يقرره؛ والسلام. وحينئذٍ نقدِّم له الاعتذار؛ ولا سيَّما إذ لم نتقدمه بالاستفسار والإنذار، ونطلب منه العفو إن لم نفهم ما يريد؛ فإنَّا لم نرد إلّا الحق؛ والله على ما نقول شهيد. وأما ما فسره بزمزمة الفرس وتعظيمهم للنار؛ وصلاة النصارى؛ التي يقول بشأنها ابن القيِّم؛ في الصفحة ٣٨٩ من «إغاثة اللهفان»: وأما تلاعب الشيطان بهم في صلاتهم؛ فمن وجوه: أحدها؛ صلاة كثير منهم بالنجاسة والجنابة؛ ومنها؛ صلاتهم إلى مشرق الشمس؛ وهم يعلمون أن المسيح لم يُصَلِّ إلى المشرق أصلاً؛ وإنما كان يصلِّي إلى قبلة بيت المقدس، ومنها؛ تصليبهم على وجوههم عند الدخول في الصلاة؛ والمسيح بريء من ذلك. فصلاة مفتاحها النجاسة؛ وتحريمها التصليب على الوجه[١]؛ وقبلتها المشرق؛ وشعارها الشرك؛ كيف لا تنفر عنها العقول أعظم نفرة؟ ويستحيل مجيئها في شيءٍ من الشرائع (اهـ بمعناه وبعض لفظه).

فإن فسَّر المؤلف[٢] عبادتهم بأشباه هذا؛ فليعلم أنه جاوز مسيلمة الكذاب من جهات؛ نَعُدُّ منها ولا نعدِّدها. منها: أنَّ مسيلمة لم يضع عن بني تغلب إلّا صلاة الفجر وصلاة العشاء؛ وقد جازف هذا بسائر الشرائع؛ فقدَّمها قرباناً لأهل الكتاب؛ وضَحَّى بها في استمالة قلوبهم؛ على حين أنهم يجرحون عواطف المسلمين بتقسيم بلادهم. ومنها أن مسيلمة لم يتبرع بتينك الصلاة؛ وإنما جعلهما صداقاً لسجاح[٣]؛ فماذا الذي يصل إلى المؤلف في مقابلة ذلك؟

---

(١) أي جعلوا التصليب مثل تكبيرة الإحرام في صلاة المسلمين.

(٢) أي مؤلف كتاب توحيد الأديان.

(٣) سجاح بنت الحارث من بني تميم ادعت النبوة وتزوجت مسيلمة الكذاب وحاربت المسلمين وقد أصدقها مسيلمة وضع الصلاتين عن أتباعه وكانت مشهورة بالكذب ولما بلغها سير بطل الإسلام خالد بن الوليد لقتال مسيلمة وانتصاره على مالك بن نويرة وطليحة بن خويلد سارت إلى العراق ثم لما قتل مسيلمة تابت وأسلمت وحسن إسلامها وماتت في عهد معاوية بن أبي سفيان.

نعم؛ قال في صفحة ٣٥: لا يتم الركن الثالث للدين «وهو العمل الصالح» إلّا بها؛ يعني العبادة اهـ. ولكننا نعيد السؤال نفسه؛ ونقول ما هي العبادة؟. فإنْ فسرَّها بشرائع الإسلام؛ وأَنْ لا بُدَّ منها لتوحيد الأديان واتحاد العالم؛ فقد اتفقنا. غير أن ذلك من المستحيل العقلي؛ مع ما سبق من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾[1]. وإن قال: بل لكُلِّ أمة عبادتها! انهد ركنه؛ وانهار بناؤه؛ لأنَّ الخلاف عنده؛ كان في الركن الثالث من أركان الدين؛ التي لا بدَّ من الاتفاق عليها.

أما في الصفحة (٥٩)؛ ففسَّر العبادات؛ بالصلاة والصيام والزكاة والحج، ولكن بعد أن تذبذب وموَّه الكلام؛ ولم يفصح بالمُوَجَّه إليهم الخطاب في ذلك؛ أهُمْ أهل الكتاب من سائر الأنام؟ أم أتباع محمد فقط عليه الصلاة والسلام؟ لا أراه بالأوَّل يطيب، بل قد قطع تصريحه في الفصل التالي؛ لسان كل خطيب.



(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٥.

الفصل السادس

الفصل السادس

قال في صفحة (٣٥): قد تحصل شبهة عند بعضهم؛ فيقول: كيف نُقِرُّ ونعترف بجميع الأديان؛ مع قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1]؛ والواقع أنه إذا فهم معنى الآية الكريمة من آل عمران أيضاً وهي: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ﴾[2]؛ يزول عنه الالتباس؛ ويدرك أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً.

ونقول: إن الكلام عليه من جهات: **أولاها**: أنه لا يعرف ما له مما عليه، ومن أمارة ذلك استدلاله بآية آل عمران؛ ولا مستمسك له فيها؛ بل هي عليه، إذ ليست إلَّا مثل سورة البيِّنة؛ كما يستهل بذلك سياقها مع أخواتها. قال جلّ ذكره: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١٨ ـ ٢٠.

والمعنى: ما اختلف اليهود والنصارى في دين الإسلام؛ فقال قومٌ: إنَّه حق؛ وقال آخرون: إنَّه باطل؛ وقالت فرقة ثالثة: إنَّه مخصوصٌ بالعرب؛ إلّا من بعد ما علموا حقيقة الأمر جيداً؛ ولو كانت الأديان تُسَمَّى إسلاماً من قبله؛ لكان جوابهم عن قوله تعالى: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ أن يقولوا: نحن مسلمون؛ وديننا إسلام؛ لكنهم لم يقولوا ذلك؛ فصحَّ أنَّ دينهم لا يُسَمَّى إسلاماً.

والثانية: لو كان له نصيب من التوفيق؛ لأمكنه الاستدلال بغيرها؛ فإنَّ المسألة ذات اختلاف؛ وواجب الأمانة يقضي علينا بالبيان؛ ولا نتخذ من خطئه؛ برهانه عليه؛ ينبني على المغالطة. وقد ألَّف السيوطي[١] رسالة سماها: (إتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأمة) أولها في صفحة ١١٥ من الجزء الأول من حاوي الفتاوي قال: اختلف العلماء هل يطلق الإسلام على كُلِّ دينٍ حق؛ أو يختص بهذه الملَّة الشريفة؟ على قولين؛ أرجحهما الثاني. وذكر له ثلاثة وعشرين دليلاً. وقال نقلاً عن السبكي[٢]: أنَّ الآية الواحدة والآيتين؛ قد يمكن تأويلها ويتطرق إليها الاحتمال؛ فإذا كثرت ترقَّت إلى حدّ يقطع بإرادتها ظاهراً؛ ونفي

(١) الإمام جلال الدين السيوطي المصري ولد بالقاهرة سنة ٨٤٩هـ كان أبوه من رجال العلم والدين ونشأ يتيماً وحفظ القرآن وبعض المتون في طفولته وبرع في علوم كثيرة وبلغت مصنفاته أكثر من أربعمائة منها في الفقه: الأشباه والنظائر وكتاب الحاوي في الفتاوي وفي الحديث جمع الجوامع وله مصنفات في التاريخ واللغة والنحو اشتهر بالابتعاد عن السلاطين والأمراء وقام برحلات للشام والحجاز واليمن والهند وقد نشبت بينه وبين معاصريه من العلماء عداوات منهم السخاوي فاعتزل الحياة العامة في الأربعين من عمره وتفرغ للتأليف وله مع عظمة مصنفاته مصنفات لطيفة منها: «منهل اللطايف في الكنافة والقطايف»، و«الرحمة في الطب والحكمة»، و«الفارق بين المؤلف والسارق»، توفي الإمام السيوطي سنة ٩١١هـ.

(٢) تقي الدين السبكي الحافظ المفسر النحوي اللغوي الأديب يلقب «بشيخ الإسلام وقاضي القضاة»، وهو والد الفقيه. برع في الكثير من العلوم وشرح المنهاج وكمّل كتاب «المجموع في شرح المهذب» وتخرّج على يديه كبار العلماء كالإسنوي والبُلقيني وابن النقيب المصري وابن الملقن وغيرهم توفي سنة ٧٥٦هـ.

الاحتمال والتأويل عنها اهـ. وذكر من أدلة القول الأول قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾[6].

وأجاب[7] عما عدا الأخيرة؛ بأنَّ في الملقبِّين بالإسلام أنبياء؛ وغيرهم؛ ضميمةٌ إليهم؛ والإسلام لا يطلق إلّا على أنبياء الأمم السالفة؛ وعلى هذه الأمة فقط؛ بشهادة أمثال قوله جل ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾[8]. وعن الأخيرة[9] بأجوبةٍ أمثلها: أنهم كانوا عازمين على الإسلام بمحمَّد؛ إذا جاء؛ من قبل مبعثه؛ لِمَا يجدونه في كتبهم من صفته والشهادة له؛ فكانوا مسلمين بالقوة من قبل ابتعاثه. ومن أقوى أدلّة الاختصاص: إطباق الألسنة؛ نساءً ورجالاً؛ صغاراً وكباراً؛ من كافة الفرق؛

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٣٥ ـ ٣٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ٨٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١١١.
(٦) سورة القصص، الآيتان: ٥٢ ـ ٥٣.
(٧) أي السيوطي.
(٨) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٩) أجاب.

على تسمية من كان على دين موسى يهوديًّا؛ ومن كان على دين عيسى نصرانياً؛ ومن كان على دين محمد مسلماً؛ لا يمتري في ذلك مسلم ولا كافر؛ ولا يهودي ولا نصراني؛ ولا غيرهم؛ بل لو قيل لليهودي: يا مسلم؛ لاشمأزَّ من ذلك. هذا ملخص تلك الرسالة بمزيد الاختصار. وفيها فوائد كثيرة؛ وقد اقتضبها العلامة ابن حجر الهيتمي في صفحة ١٣٠ من فتاويه الحديثية؛ ولكنه خرق العادة فأصرح هنا بالعزو إلى السيوطي[١].

والثالثة: أنَّ هذا كله؛ وقتما كانت الشرائع حقًّا قبل نسخها، أما بعد نسخها بمحمد ﷺ؛ فلا يطلق عليها الإسلام؛ قولاً واحداً؛ بإجماع المسلمين. وإنما خرقه المؤلف اليوم؛ بقوله الصريح في قبولها والاعتراف بحقيقتها إلى اليوم. ومن أظهر الأدِلَّة؛ على أنَّ اليهود والنصارى لا يُسَمَّوْن مسلمين؛ كما في سورة آل عمران السابقة؛ أوائل الفصل الثاني؛ وهي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٢].



---

(١) لشد ما رأينا الإمام يحمل على النقل بدون عزو وقد رأيناه ينتقد كثيراً من العلماء على ذلك في مواضع مختلفة من كتبه ولكنه كان شديد الوطأة على الإمام ابن حجر الهيتمي صاحب تحفة الإرشاد.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.



الفصل السابع

الفصل السابع

قال في صفحة (١٠): إن القرآن قد وضع حريَّة الاعتقاد في الدين؛ وأن لا إكراه فيه، وجعل أساس الإيمان الاختيار فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ . .﴾ إلى آخر ما ذكره. وقال في صفحة (٢١): فالقرآن لم يجبر أحداً على تغيير دينه، لأنَّ الدين المنزل على جميع الرسل؛ هو دينٌ واحد؛ وعلى هذه القاعدة سار المسلمون؛ واعترفوا بجميع الأديان؛ ولم يجبروا أحداً على تغيير دينه. وقال في صفحة (٢٧): والمسلمون عندما اعترفوا بجميع الأديان؛ واعتبروها؛ لم يَقْصُرُوا ذلك على اليهود والنصارى وحدهم، بل عمَّمُوا ذلك في جميع الأديان؛ وذلك بناءً على أمر الرسول؛ وعلى ما جاء في القرآن.

ونقول: أمَّا الإكراه في الدين؛ فلا إكراه؛ ولكن لنصوع الآيات وظهور البراهين: ﴿. . قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[1]؛ فما بين الإنسان والإسلام إلّا نظرة؛ ثم تهجم العبرة، ولذا اعتبر صلح الحديبية (كما أسلفنا) فتحاً مبيناً، لأنَّ المسلمين اختلطوا بالمشركين؛ فوصفوه لهم؛ فألفَوْا فيه ضالتهم المنشودة؛ وصار نشر كفرهم إلى الطي؛ وتبين لهم الرشد من الغي؛ فاعتنقه الكثير منهم. ثم إن كلام المؤلف هذا؛ مؤكِّدٌ لما سبق من إصراره؛ على أن اتفاق أهل الكتاب معنا؛ على الإيمان بالله وحده واليوم الآخر مع العمل الصالح؛ هو الدينُ كُلُّه؛ وإن لم يغيِّروا شيئاً من فروع دينهم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

وفيه بعد هذا شيئان؛ لا ندري أيُّهما أشدُّ نكارةً وفحشاً من الثاني؛ وهما: إنكار الجهاد، وإنكار النسخ. فأما عن الأول؛ فما زال الله يأمر نبيَّه وأصحابه؛ بالصبر والعفو والغضِّ والإعراض؛ حتَّى استقرت قدمه بالمدينة؛ وأيَّده الله بعباده المؤمنين؛ وألَّف بين قلوبهم؛ بعدما كانوا عليه من الأحقاد والتراث؛ فبذلوا أنفسهم دونه؛ وقدَّموا محبَّته على محبَّة الآباء والأبناء والأزواج. ولمَّا كان ذلك؛ رمتهم العرب واليهود عن قوس العداوة؛ وشمَّرُوا لهم عن ساق الحرب؛ وصاحوا بهم من كل جانب؛ فكان أول ما أذِنَ لهم به الله من الجهاد؛ قوله في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1] ثم فرض عليهم قتال من قاتلهم؛ بقوله جل ذكره: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾[2].

ثم لما نزلت سورة براءة؛ في سنة ثمان؛ أمروا بقتال من لم يسلم من العرب كافة؛ إلّا من عاهد؛ ولم ينقض شيئاً من عهده. ثم فرض عليهم الجهاد عامة؛ كما في قوله جلّ ذكره: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3]؛ وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾[4] وقوله في سورة التوبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ

(١) سورة الحج، الآية: ٣٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٤١.
(٤) سورة الصف، الآيات: ١٠ ـ ١٣.

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١] وقال فيها أيضاً: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[٢]. وقد أسلفنا هذه الآية مع بعض ما يتعلق بها في الفصل الثاني؛ وإنما أعدناها؛ لئلا يدَّعي مُدَّعٍ خصوصية الجهاد بالمشركين؛ لا عمومه لأهل الكتاب؛ فيدفع في صدورهم هذا النصل القاطع؛ ويلجمهم الحجر.

أما مثال قوله جلّ ذكره: ﴿... أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٣]؛ فقال بعضٌ: أنها منسوخة بآيات الجهاد؛ وقال آخرون: بل معناها أن الله لم يجر أمر الإيمان بالقسر؛ ولكن وكلهم على الاختيار. وقلّما يبقى الجحود عند تبيُّن الرشد الواضح المنار؛ الظاهر الآثار؛ بل لا يُتَصَوَّرْ الإكراه أصلاً في الإيمان؛ لأنه من أعمال القلوب. وإنما يتصور في الإسلام، لأنه من الأعمال الظاهرة، وقد ثبت أنه ﷺ أخذ الجزية من أهل آيلة[٤]؛ وهم من نصارى العرب، ومن أهل دومة الجندل[٥]؛ ومن المجوس؛ ومن يهود اليمن. وثبت أنه أنذر نصارى نجران بحرب؛ وكان وادي نجران مسيرة يوم للراكب؛ وفيه ثلاث وسبعون قرية؛ تضم مائة وعشرين ألف مقاتل. ولما قدم وفدهم عليه؛ سألوه عن عيسى؛ فقال: ما عندي فيه شيء يومي هذا؛ فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي فيه؛ فأصبح الغد وقد نزل عليه قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٤) أيلة مدينة إسلامية أنشئت على أنقاض أيلة الرومانية وأسسها الخليفة عثمان بن عفان وتقع أطلالها حالياً شمال غرب مدينة العقبة بالأردن.

(٥) تقع دومة الجندل حالياً في منطقة الجوف بالمملكة العربية السعودية شمال غرب مدينة سكاكا وكان لها تاريخ وقامت بها حضارات من قبل الميلاد وبها آثار تشهد بذلك منها قلعة مارد.

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[1] فأبوا أن يُقِرُّوا بذلك؛ فغدا عليهم رسول الله ﷺ من اليوم الثالث؛ مشتملاً في خميل له على الحسن والحسين؛ وفاطمة تمشي عند ظهره؛ للمباهلة؛ وله يومئذٍ تسعُ نسوة لم يَدْعُ واحدةً مِنْهُنَّ؛ فلمَّا رآه أسقف النصارى؛ (الذي لا راد بأمره؛ ولا معقِّب في نجران لحكمه)؛ أحجم عن المباهلة؛ ورضي بدفع الجزية، وهي أموال طائلة مُنَجَّمة في كل رجب وفي كل صفر.

والقصة ثابتة؛ لم يتركها أحد من المفسِّرين ولا من المؤرِّخين؛ وألفاظهم متقاربة في ذلك؛ وأنا أستعين حال رقم هذا؛ بزاد المعاد للعلامة ابن القيِّم، وهو لم يذكر علي بن أبي طالب؛ ولا يَضُرُّهُ عدم ذكره[2]، لأن وجوده خامس الخمسة؛ ثابت عند غيره؛ ومنهم مسلم بن الحجاج. وقد أخذ العلامة ابن القيم؛ منه ومن أمثاله؛ أنَّ إقرار الكتابي لرسول الله ﷺ؛ بأنه نبي؛ لا يدخله الإسلام؛ ما لم يلتزم طاعته ومتابعته؛ فإذا تمسَّك بدينه بعد هذا الإقرار؛ لا يكون رِدَّة منه؛ لأنَّه لم يخرج عنه بمجرد ذلك الاعتراف. ونظيره أن حبرين[3] سألاه عن ثلاث مسائل؛ فلما أجابهما؛ قالا: نشهد أنك نبي! قال: فما يمنعكما من اتِّبَاعِي؟ قالا: نخاف أن تقتلنا اليهود. فلم يَلْزَمهُمْ الإسلام بمجرد تلك الشهادة.

أقول: وقد جرى مثل ذلك لهرقل، فقد صدَّقه كما في الصحيح[4]؛ ولما

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٥٩ ـ ٦١.

(٢) يدل هذا الكلام على تسامح الإمام وعدم تعصبه وطلبه الحقيقة عند من يجدها عنده من العلماء دون التعليق على معتقده.

(٣) الحَبْرُ: العالِم وهو لقب يُطلق على عالم الدين وخاصة لغير المسلمين، مثل رئيس الكهنة عند اليهود، والبَطْرَك عند النَّصارى، وحَبْر الأمَّة: عالمها (وهو لقب ابن عباس رضي الله عنه).

(٤) أي صحيح البخاري.

حاص أصحابه حيصة حُمُرُ الوحش؛ احتال ليثبت مركزه عندهم؛ ويؤيِّد سلطانه عليهم؛ بقوله: إنما أردت أن أختبر شدَّتكم في دينكم. قال ابن القيِّم: ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة؛ من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له بالرسالة؛ وأنه صادق؛ فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام أمرٌ وراء ذلك؛ وليس المعرفة فقط؛ ولا الإقرار فقط. بل المعرفة والانقياد؛ والتزام طاعته ودينه؛ ظاهراً وباطناً. وقال: ومن فوائد هذه القصَّة: جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم؛ بل وجوب ذلك إذا ظهرت المصلحة؛ ولا يهرب من مجادلتهم؛ إلّا عاجز عن إقامة الحُجَّة؛ فليترك ذلك لأهله؛ وليُخْلِ بين المطيِّ وحاديها؛ والقوس وباريها؛ ولولا خشية الإطالة؛ لذكرنا من الحجج التي تلزم أهل الكتابين الإقرار؛ بما في كتبهم؛ وبما يعتقدونه منها؛ ما لا يمكنهم دفعه؛ ما يزيد على مائة طريق. ونرجو من الله إفرادها بمصنَّف مستقل.

ودار بيني وبين بعض علمائهم مناظرة في ذلك؛ فقلت له في أثناء الكلام: لا يتم لكم القدح في نبوَّة محمد إلّا بالقدح في الرب، ووجه ذلك: أنه إذا لم يكن محمد صادقاً؛ بل كان على ما تزعمونه؛ ملكاً ظالماً؛ والله يؤيده على الكذب والتحليل والتحريم؛ وفرض الفرائض ونسخ الملل؛ وضرب الرقاب وقتل اتباع الرسل؛ وسبي نسائهم وأولادهم؛ وغنم أموالهم وديارهم؛ ثلاثاً وعشرين سنة؛ ويهلك أعداءه؛ ويجيب دعاءه؛ وهو أحكم الحاكمين؛ وأرحم الراحمين. فقال: معاذ الله أن نقول إنه كاذب أو ظالم؛ ولكن لم يُرْسَلْ إلينا. فقلت: لا بدَّ من الاعتراف برسالته إليكم؛ إذ قد تواترت عنه الأخبار؛ بأنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين؛ أمِّيهم وكتابيِّهم؛ وقد دعا أهل الكتاب إلى دينه؛ وقاتل من لم يدخل منهم فيه؛ حتى أقرُّوا بالجزية والصغار؛ فبُهِتْ (اهـ مختصر بمعناه).

وقد حاك في نفسي شيء؛ مما كان من جنكيز خان؛ وحافده[1] هولاكو؛ وما سلَّطهم به الله على المسلمين؛ ولكن ابن القيِّم تنبَّه لمثل ذلك بقوله في

(١) حافده أي ولد الولد مثل الحفيد وقد ظننتها غلطة مطبعية.

المناظرة: ونحن لا ننكر أنَّ كثيراً من الكذابين قام في الوجود؛ وظهرت له شوكة؛ لكن لم يتم أمره؛ فلم تطل مدته؛ بل انمحق أثره وانقطع دابره اهـ.

ولكن بقي عليه أن يقول؛ بعد قوله: ثلاثاً وعشرين سنة: ثم بقي أتباعه؛ وانتشر أمرهم؛ ولا يزالون في زيادة من التكاثر والتزايد؛ مع توفر الدواعي لخنق دعوتهم؛ وحصد نبتتهم، فإنَّ الحُجَّة لا تتم إلّا بهذه؛ وقد أشار إليه بقوله: بل انمحق أثره إلخ. ولكنه مما لا تكفي الإشارة إليه؛ بل يتعيَّن الإصراح به، إذ هو ركن الحُجَّة الركين(١). ولقد صدق وبرَّ في ذلك؛ إذ جاء التتار ليبيدوا الإسلام؛ فأخرج الله من أصلابهم من يتولاه؛ ولو لم يكن في نقضنا لأباطيل المؤلف وأضاليله في ذلك (الكتَيِّب)؛ سوى ما في هذا الفصل لكفى. كيف ولم نأت بما فيه من كلام ابن القيم؛ إلّا داية وقهرمانة(٢)؛ لتلك العرائس المَجْلُوَّة؛ والآيات المَتْلُوَّة.

ثم إن في استنكاره مشروعية الجهاد؛ مكابرة في المحسوس وإنكاراً للملموس، ومن ذا الذي ينكر ما كان من جهاده ﷺ؛ وجهاد أصحابه؛ للفرس والروم والعرب واليهود والنصارى، وفتح بلادهم، وغنم أموالهم؛ وأسر رجالهم؛ وإجبارهم إيَّاهم على أحد الأمرين: إما الإسلام وإما دفع الجزية. غير أنَّ ذلك الإجبار؛ وإن كان ثابتاً بالتواتر؛ فإنه لا يسمى إكراهاً؛ كما قررته في كتابي «صوب الركام في تحقيق الأحكام» لأنَّ الإكراه إنما يكون على شيء مُعَيَّن؛ بخلافه على التخيير، وهو في قضيتنا: ادفع الجزية؛ أو أسلم؛ وإلّا ضربت عنقك، فإن هذا لا يسمَّى إكراهاً؛ حتَّى لو قال اللصوص لرجل: ادفع لنا مائة أو

---

(١) نلاحظ في كتب الإمام وفي كثير من الأحايين توضيح الإمام ابن عبيد الله لبعض الأمور التي خفيت على كبار الأئمة والعلماء فقد رأيناه في بلابل التغريد يناقش الإمام الغزالي في بعض مفاهيمه ويعارض بعض آراء وتصرفات الإمام ابن حجر الهيتمي وغيره من الكبار ونراه هنا يوضح ما كان لا بدَّ أن يقوله ابن القيِّم ولم يقله.

(٢) الداية: المرضعة أو الحاضنة أو المولدة والقهرمانة: مدبرة شؤون البيت.

طلق امرأتك؛ وإلّا فعلنا بك كيت وكيت؛ فطَلَّق؛ نفذ طلاقه؛ لأنه لم يكره؛ وإنما خُيِّر فاختار، وهذه دقيقة يجهلها كثير من الناس[١]. وقد ألَّف العلامة ابن حجر الهيتمي رسالة فضفاضة في ذلك وسماها بـ «الانتباه لعويص مسائل الإكراه» وقال القاضي عياض في الشفاء؛ بعد أن ذكر جماعة أسلموا من أهل الكتاب؛ وقد قرع إسماع اليهود والنصارى؛ بما ذكر أنه في كتبهم من صفته وصفة أصحابه؛ واحتجَّ عليهم بما انطوت صحفهم من ذلك عليه؛ وذمهم بتحريفه وكتمانه وليِّهم ألسنتهم ببيانه؛ ودعاهم إلى المباهلة؛ ليجعل لعنة الله على الكاذبين؛ فما منهم إلّا من فرَّ عن معارضته؛ ولو وجدوا خلاف قوله؛ لكان إظهاره أهون عليهم من بذل الأموال والنفوس اهـ.

وأخرى؛ وهي أنَّ فيه دسيسة نصرانية؛ فإنَّ النصارى يقولون: إنَّ الإسلام شرع القتال؛ الذي لم يشرعه الدين المسيحي؛ ويعيبون الإسلام بالشدَّة؛ ويثنون على دينهم بالتسامح.. ويقولون إنَّ من وصايا المسيح: (من ضربك على خدِّك الأيسر؛ فأدر له خدَّك الأيمن، ومن سخرك ميلاً فسر معه ميلين).

■ ونقول في الجواب:

أما أولاً: فلو لم يكن في المسيحية السلمية على ما يزعمون؛ إلّا ما يأتي من البوائق في الفصل التاسع؛ لكفى تفضيل الإسلام عليها؛ وإنْ رَمَوْه بكلّ قسوة؛ وحاشاه من ذلك.

وأما ثانياً: فقد نقل الشيخ محمد الطيبي عن الشيخ زيادة (الذي أكرمه الله باعتناق الإسلام؛ وألَّف في الرَّدِّ على النصارى؛ عن خبرة بدخيلة أمرهم) أنه قال: أما قتله الألوف في مغازيه الشريفة؛ فإنما كان للعاصين المتمردين؛ المعرضين عما فيه خيرهم وصلاحهم؛ ونجاتهم وسعادتهم في الدارين؛ من

(١) هذه من الدرر الفقهية والنفائس العلمية التي ينثرها الإمام في كتبه بين الحين والآخر والتي يسافر لمثلها طلبة العلم للأصقاع البعيدة والديار الغريبة.

شريعته الغراء؛ وقد كان يعظهم وينصحهم ويقيم عليهم الحُجَّة قبل القتال؛ ليردُّهم عن كفرهم إلى دينه المتين؛ فعندما يصرون على عدم قبول قوله؛ ويختارون الكفر والضلال؛ كانت الآيات تنزل على مقتضى الحال؛ تارة بمعاملتهم بالرفق؛ وتارة بأخذ الجزية؛ وتارة بالقتال؛ وأخرى بالإغلاظ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾[(١)]. وقد كان سيِّدنا موسى الكليم؛ والسيد يوشع بن نون؛ ومن بعده؛ يقتلون الألوف الكثيرة؛ مع أنهم لم يبتدئوا بالشر؛ كما تشهد به التوراة؛ ولم يُنْذَروا قبل القتال؛ حتَّى يتحقق منهم العصيان فيستوجبوا القتال؛ بل لمَّا سمعوا بقدوم بني إسرائيل؛ ليأخذوا تلك الأرض منهم ويستعبدوهم؛ نهضوا إلى المحاماة عن أنفسهم وأوطانهم؛ فكان سيدنا موسى ونوابه؛ يقتلون منهم الرجال والنساء والأطفال؛ ويحرقون بعضهم وبعض بلدانهم وحيواناتهم وكامل أمتعتهم؛ ومع ذلك لم يناف نبوَّتهم عليهم الصلاة والسلام؛ لأنه كان بأمر الله. فلا يقارن بما فعله نبينا ﷺ بأمر الله أيضاً؛ بعد أن حذَّر وأنذر؛ وكان يقتصر على أقل مجزئ من قتل الرجال فقط (اهـ بتصرف يسير وزيادة قليلة).

وأما ثالثاً: فلا ينكر اشتمال الحكمة العالية على الأمر بالجهاد؛ إذ لا يخفى على أحد؛ امتلاء العالم؛ لعهد ابتعاثه ﷺ؛ بالظلم والجور؛ واضطهاد القوي للضعيف؛ وتَحَكُّم الرؤساء الدينيين من أهل الكتاب؛ في أموال الناس وأرواحهم وأعراضهم؛ فجاء لتوطيد العدل وبث مكارم الأخلاق؛ كما في سورة النحل الجامعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[(٢)]. وهل في الإمكان تدعيم هذه الأركان وقضاء هذه الحاجة بغير السيف؛ وقد قال أبو الطيب:

مَن اقتَضَى بِسَوَى الهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ ... أجَابَ كُلَّ سُؤالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمِ

(١) سورة التحريم، الآية: ٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.

وشهد القرآن؛ بأنَّ اليهود كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه؛ كما في سورة المائدة؛ حسبما سبق في الفصل الثاني؛ من قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[١]. أفليس من رحمة الله بهم خاصة؛ وبالعالم أجمع؛ أن يُطَهِّر تلك اللعنة؛ ويقيم الأوَدْ؛ ويثقف العوج؛ ويأمر بالمعروف وينكر المنكر؟ فإن قيل: بلى؛ فلا بدَّ للاستعانة على ذلك؛ من الصفيح الأبلج؛ والقويم الأملج[٢]. فما كان الجهاد للإكراه في الدين؛ إذ لا يُتَصَوَّرْ الإكراه على أعمال القلوب؛ وإنما كان الجهاد لتأييد العدل؛ ودفع الظلم المتعذر بدون ذلك. أما تلك الآية المأثورة عن عيسى عليه السلام؛ فلا تشرِّف دينه؛ وإن ورد في آي الكتاب العزيز؛ من الحلم والصفح وكظم الغيظ؛ ما يغمرها. لكن المقام يقتضي التفصيل؛ كما أشار إليه القرآن؛ بأمثال قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾[٣]؛ وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾[٤]؛ وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[٥].

فالعفو إنما يحسن مع الكرام؛ لأنه يقتلهم؛ بخلافه مع اللئام. وقد أكثرت في منظومي ومنثوري؛ من الفرق بين ما عامل به النبي ﷺ قريشاً يوم الفتح؛ وما عامل به قريضة؛ يوم نزلوا على حكم سعد بن معاذ وقلت في نهج البردة[٦]:

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨ ـ ٧٩. (٢) كناية عن السيوف.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٣٩.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٤١.

(٦) قصيدة نسج البردة للإمام ابن عبيد الله عارض فيها قصيدة البردة للإمام البوصيري وجاءت في حوالي المائة والثمانين بيتاً وتميزت بالألفاظ الجزلة والمعاني القوية؛ وقد اعتاد الإمام قراءتها صباح كل جمعة في مجلس يحضره أولاده وزواره ومحبوه؛ واستمرت قراءتها بمنزله بسيئون إلى اليوم؛ يقوم بذلك أحفاده وتنتهي الجلسة قبل الجمعة بساعة؛ ويشكر على استمراريتها أحفاده الذين أنشؤوا مركز ابن عبيد الله الثقافي ويديره منهم محمد بن حسن السقاف.

والـعـفـوُ مَـعْـدِنُـهُ الـهَـادِي ألَـمْ تَـرَهُ فِي الفَتْحِ مِنْ وِرَاشِ القومِ بِالنِّعَمِ
وَفِي قُرَيضَة لَم يأتِ العشيِّ لهُمْ إلا وَقَدْ غُودِروا لحماً عَلَى وَضَمِ
أمَضَى النَّبِيُّ عَليهِمْ مَا قَضَاهُ لَهُمْ سَعدٌ فأعْدَمَ منهم كُلَّ مُحْتَلِمِ
وأشْكَلَ الحَالُ بين البَاحثِينَ ولا إشْكَالَ للفرقِ بين اللؤمِ والكَرَمِ
فالعفوُ أقتلُ شَيءٍ للكريمِ كَمَا لَمْ يَشْفِ دَاءَ لئيمٍ غيرَ سَفْكِ دَمِ
فالأمرُ مُفتَرِقٌ لوناً وَمُتَّفِقٌ إذْ كَانَ للفِرْقَتَينِ القَتْلُ عَنْ أمَمِ

فليست تلك الآية المأثورة عن المسيح؛ صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم؛ بالتي تميِّز شريعته؛ إذ لا يصلح أن يتأسَّس بها دين؛ ينزل الناس منازلهم؛ ويضع الحقوق مواضعها؛ وينصف المظلوم من الظالم. فليست بدعامة عز؛ ولا بقاعدة إنصاف؛ وغاية ما تمكن أن تكون؛ بذرة تصوف؛ وغراس فلسفة؛ يأخذ بها قوم تجرَّدوا عن العواطف؛ ولم يبق عندهم قدر للدنيا؛ ولا محلَّ للخلق. ولو تأثَّر الناس في ذلك؛ لأفضى إلى الخراب؛ وانتهى إلى الانقراض.

وقد اشتدَّت الديانة المسيحية في منابذة الغنى والأغنياء؛ وجاء في الإصحاح السادس من إنجيل متَّى: لا تقدرون أن تخدموا الله والمال. وقال في الإصحاح العاشر منه: لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم؛ ولا مزوداً للطريق؛ ولا ثوبين؛ ولا أحذية ولا عُصِي. وقال في التاسع عشر منه: الحق أقول لكم؛ إنه يعسر أن يدخل غني في ملكوت الله؛ وأقول لكم أيضاً: إنَّ مرور جمل من ثقب إبرة؛ أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله.

أما الدين الإسلامي فإنه دين العز والشرف والمجد والأَنَفْ[1]؛ ولله العزة

---

(١) وقد بسط المحقق في الفصل ٥٥ من كتابه الزاد إلى بلد خير العباد؛ بسط القول في تأثير الإسلام على العرب والعالم وتحدث عن مستقبل الإسلام ومما جاء في هذا الفصل: ولقد أدرك الغربيون المتأخرون حقيقة الإسلام وتأثيره على البشر ومن ذلك ما قاله الباحث الإنجليزي، لايتنر، في معرض كلامه عن رسول الله ﷺ: ولقد صار دينه الواسطة =

ولرسوله وللمؤمنين؛ فرجاله كما قال شاعر المعرَّة:

كانت تَضُمُ رِجَالاً بينَ أعْيُنِهِمْ مَعَاطِسٌ لَمْ تُذَلِّلْ عِزَّهَا الخُطَمُ

إلّا أنهم كانوا أعِزَّةً على الكافرين؛ أذِلَّةً على المؤمنين؛ أشِدَّاءَ على الكفار؛ رُحَمَاءُ بينهم. وهو دين العمران والحضارة؛ يأمر بعمارة الدنيا كما يأمر بعمارة الدين. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[1]؛ وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[2]؛ وقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3]؛ وما قال: لا

= لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبثوا غرقى في التوحش والهمجية، ولما كان هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام. (انتهى). هذا وقد شمل الاعتراف بفضل الإسلام كل المفكرين العالميين وليس الأوروبيين فقط، فهذا مثلاً الزعيم الهندي جواهر لال نهرو الذي يقول: والمدهش حقاً أن نلاحظ أن هذا الشعب العربي الذي ظل منسياً أجيالاً عديدة، بعيداً عما يجري حوله، قد استيقظ فجأة ووثب بنشاط فائق أدهش العالم، وقلبه رأساً على عقب، إنَّ قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وإفريقيا، والحضارة الراقية، والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم، هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ! إن الإسلام هو الباعث الفكرة لهذه اليقظة العربية بما بثه في أتباعه من ثقة ونشاط. ويقول نهرو: كانت ثقة العرب وإيمانهم عظيمين، وقد أضاف الإسلام إليهما رسالة الأخوة والمساواة والعدل بين جميع المسلمين، وهكذا ولد في العالم مبدأ ديموقراطي جديد، وإنك إذ تقارن رسالة الأخوة الإسلامية هذه بحالة النصرانية المنحلة، تعرف مقدار سحر هذه الرسالة وتأثيرها، لا على العرب وحدهم، ولكن على جميع شعوب البلدان التي وصل إليها العرب. (انتهى). ويقول الكاتب السويسري روجيه دوباسكويه عن الإسلام: الإسلام تصديق للرسالات السابقة، وخلاصة الإنعام الإلهي على البشرية، وهذا ما يعطيه قدرته المدهشة، على دمج المؤمنين من مختلف الأصول العرقية، في مجتمع واحد، مع احترامه لخصوصياتهم. وبيَّن باسكويه كيف انتشر الإسلام في بلاد البلقان، دون إكراه، وكيف أسلمت أندونيسيا وماليزيا وغيرها من البلاد، بواسطة التجار المسلمين، بعكس ما فعله الإسبان عند احتلالهم الفلبين مثلاً، حيث حاربوا الإسلام، كما حاربوه من قبل في إسبانيا، وفي شمال إفريقيا، وعملوا على إضعافه ومحاربة نفوذه.

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧. (٢) سورة الجمعة، الآية: ١٠.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٧.

يبيعون ولا يتَّجِرُون. وفي ذلك كثرة من الأمثال. وإنما أطنب في التزهيد؛ وقَّللَ من هذا؛ وُكُولاً إلى الداعية. وقد صرَّح الفقهاء بأن الحِرَفْ والصنائع من فروض الكفايات. وقال إمام الحرمين: إنَّ الاشتغال بفرض الكفاية؛ أفضل من الاشتغال بفرض العين. ومع ذلك؛ قالوا: لا يجب أمر الناس بذلك؛ لأنَّ سائق الضمير أبلغ من غيره، ولكن إذا قَصَّرَ أهلُ بلدٍ في شيءٍ منها؛ افترض جهادهم.

أما ما يزعمه النصارى من التسامح في دينهم[1]؛ فهيهات هيهات، وتأمَّل فرق ما بين آيات إنجيل[2] لوقا ١٤ و٢٥ و٢٦ وهي: وقال لهم يسوع: إن كان

---

(١) خصص المحقق الفصل ٥٣ من كتابه الزاد إلى بلد خير العباد للحديث عن التسامح في الإسلام وبسط القول فيه وأورد كلام المستشرقين ومما جاء في هذا الفصل: وقد عرف العالم كله، قديمه وحديثه، روح التسامح الإسلامية والأخلاق الإسلامية السامية، في السلم والحرب، وأشادوا بها، فقد قال المستشرق الفرنسي الشهير جوستاف لوبون ما يلي: وكان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم، الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم.. فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً مثل دينهم. ويقول لوبون أيضاً: ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة، فلم يرد عمر أن يدخل مدينة القدس معه غير عدد قليل من أصحابه، وطلب من البطرك صفرونيس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة، وأعطى الأهلين الأمان، وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم، وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعهم.

(٢) يتكوّن الكتاب المقدس لليهود والنصارى من قسمين رئيسيين يسمى الأول بالعهد القديم وهو التوراة وقد كتب بالعبرية والقسم الثاني سمي بالعهد الجديد أو الإنجيل ومنه أربعة كتب رئيسية كتبها متى ومرقس ولوقا ويوحنا وعرفت بأسمائهم؛ وكتبت باللغة اليونانية. ويعتقد المسيحيون أنها كتبت بإلهام الروح القدس وليست من تأليف بشر. وهناك عدد آخر من الأناجيل. وفي بحث للدكتورة سارة العبادي نشرته في كتاب عنوانه التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة عن دار طيبة الخضراء استوفت فيه البحث عن تاريخ الإنحيل وبيّنت أسباب التحريف ومواقع التناقض. كما نشر ملحق الرسالة لجريدة المدينة الجمعة ١٦ شعبان ١٤٣٠ استعراضاً للكتاب المهم (المسيح مفسراً)، والذي ألفه البروفسور بارت =

أحدٌ يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه؛ وامرأته وإخوته وأخواته؛ حتى نفسه أيضاً؛ فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً. وما في الباب ١٩ منه: أمَّا أعدائي؛ أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم؛ فأتوا بهم إليَّ هنا؛ واذبحوهم قدَّامي. وما في الإصحاح العاشر من إنجيل متَّى ونصه: لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض؛ ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً؛ فإنِّي جئت لأفَرِّق الإنسان ضدَّ أبيه؛ والابنة ضدَّ أمها؛ والكنَّة(١) ضد حماتها.

تأمل الفرق بين هذه الآيات؛ وبين قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢). وقوله في سورة الممتحنة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(٣). وقوله في المائدة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٤).

لهذا فأنا في شك من نسبة تلك الآيات إلى عيسى عليه السلام؛ ولا سيّما مع التعارض؛ فلعلها مما دخله التحريف الثابت في الكتابين؛ حتَّى بإقرار اليهود

= إيهرمان، أستاذ الدراسات الدينية بجامعة (نورث كارولينا) الأمريكية، وكشف فيه بمنهجية علمية، أن معظم أجزاء العهد الجديد في الإنجيل، الموجود بين أيدي الطوائف المسيحية، مزورة، وفسر المؤلف حرصه على تأليف كتابه، رغم أنه كان في شبابه أصولياً مسيحياً، يعتقد أن الإنجيل كلمة الله المعصومة، ويحفظ أجزاء منه، بأن رؤيته لتصرفات بعض المتدينين غير الإيجابية، وانتشار التعاسة والعذاب في العالم المسيحي، شككه بمعتقدات، يردد القساوسة أنها من كلمات الله في الإنجيل. (انتهى النقل).

(١) الكنة: امرأة الابن.
(٢) سورة لقمان، الآيتان: ١٤ ـ ١٥.
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٨.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٨.

والنصارى؛ كما حققه الشيخ زيادة؛ والشيخ رحمة الله الهندي وغيرهم. إلّا أنَّ النصارى؛ على اعترافهم بوقوع التحريف الفاحش في كتابهم؛ لا يسمونه باسمه غالباً؛ وقد يقرون به بالاسم الصريح؛ ولكن يزعمون أنه في مواضع قليلة. ومما أكد شَكِّي في آيات الإنجيل المشار إليها؛ وصف أتباع المسيح ﷺ؛ بجملة من الأوصاف الممدوحة في القرآن؛ كقوله في سورة المائدة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[١]؛ ولو لم يكن في دفع زعمه إيمان اليهود والنصارى[٢]؛ سوى هذه الآية؛ لكفت؛ إذ كيف تلتئم عداوتهم للمؤمنين؛ وهم في زعمه[٣]؛ منهم؟ نعوذ بالله من الخذلان. وقوله في سورة الحديد: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[٤].

وأما عن الثاني: (وهو إنكار النسخ)؛ فإنما تبع فيه أهل الكتاب؛ حيث منعوه؛ قالوا: لاقتضائه البداء[٥] على الله جل شأنه؛ وهو محال. والردُّ عليهم؛ وفي ضمنه الرَّدُّ عليه؛ لأن كلامهم وإياه في هذا؛ واحدٌ من جهتين: **الأولى**: أنهم اعترفوا بوجود النسخ عندهم؛ بالمعنى الذي يتنزّه عنه الباري عز وجل؛ كما ستعرفه مما يأتي، **والثانية**: ليس معنى النسخ أن الله تعالى أمر أو نهى؛ وما كان يعلم عاقبة ذلك؛ ثم بدا له رأي نسخ الأول؛ تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

(٢) الخطاب هنا موجه لمؤلف كتاب توحيد الأديان.

(٣) الضمير يعود لمؤلف كتاب توحيد الأديان.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

(٥) البَدَاءُ استصواب شيءٍ عُلِمَ بعد أنْ لم يُعْلَمْ.

وإنما النسخ في اصطلاح المسلمين: بيان مدة انتهاء الحكم العملي. فالله يعلم من قبل الحكم الأول؛ بأنه يبقى معمولاً به إلى الوقت الفلاني؛ ثم يعقبه حكمٌ آخر؛ يغايره أو يناقضه للحكمة؛ فكما أنَّ لله حكماً في تبديل مواسم الزمان؛ من صيف وخريف؛ وشتاء وربيع؛ وليل ونهار؛ كذلك له حكمة بالغة في نسخ الأحكام؛ إمَّا جليَّة وإما خفيَّة؛ نظراً إلى أحوال المكلفين والزمان والمكان. وقد أطال الغزالي الكلام في المستصفى على النسخ؛ إلّا أنه لم يذكر الحكمة فيه؛ مع أنه من القائلين بها[١]؛ حسبما قدمنا في الفصل الثالث. وقد كذَّب الله اليهود في قولهم: بمنع النسخ واستحالته؛ حيث يقول في آل عمران: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٢]. ومعلوم أنَّ بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم؛ فإذا كان كُلُّ الطعام حِلًّا له؛ فحرَّمت بعضه التوراة؛ فهو النسخ بعينه، قرره العلامة ابن القيِّم في صفحة ٤٠٠ من «إغاثة اللهفان». وأيضاً؛ فقد كان يعقوب عليه السلام متزوجاً بأختين: ليا وراحيل، وهما بنتا خاله لأبان[٣]؛ وقد جاء في التوراة؛ تحريم الجمع بين الأختين؛ فإما أن يكون نسخاً لما كان عليه إسرائيل؛ وإما أن يكون على الحرام، وحاشاه من ذلك. أما النصارى فقد اضطرب كلامهم في المسألة. وجاء في الآية (١٨) من الباب ٥ من إنجيل متّى: أنَّ المسيح عليه السلام يقول في حق التوراة: فإنِّي الحق أقول لكم؛ إلى أن تزول السماء والأرض؛ لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكمل الكل. وقد نسخ الحواريون بعد المشاورة التامة؛ جميع الأحكام العلمية للتوراة؛ حتَّى لم يبق إلّا أربعة وهي:

---

(١) أشرنا فيما سبق ما استدركه الإمام على ابن القيم وهو يعود هنا فيستدرك على الغزالي.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٩٣ ـ ٩٥.

(٣) لابان بن بيوتويل هو خال النبي يعقوب وزوج بنتيه ليا وراحيل.

حرمة قرابين الأوثان؛ والدم؛ والمخنوق؛ والزنا. بل لم يبق إلّا حرمة الزنا فقط.

وكان تحريم السبت أبدياً في شريعة موسى ﷺ؛ وقد جاء في الآية (١٦) من الباب الخامس من إنجيل متّى: ومن أجل ذلك طرد اليهود عيسى وطلبوا قتله؛ لأنَّه كان قد فعل تلك الأشياء يوم السبت؛ وقال بولس[١] في الباب الثامن من رسالته إلى أهل فولاسايس: فلا يدينكم أحد بالمأكول أو المشروب؛ أو بالنظر إلى الأعياد أو الأهلة والسبوت؛ فإن هذه الأشياء ضلال. فنسخ السبت وغيره. وكان الختان أبدياً في شريعة موسى؛ فنسخه الحواريون[٢] في عهدهم؛ كما هو مشروح في الباب (١٥) من أعمالهم، بل شدَّد مُقَدّسهُمْ بولس في نسخه تشديداً بليغاً. وقال في الباب الخامس من رسالته إلى أهل غلاطية: وها أنا بولس؛ إنكم إذا اختتنتم لن ينفعكم المسيح بشيء؛ لأنِّي أشهد أن كل مختون يُلْزَمْ بإقامة جميع أحكام الناموس، إنَّكم إن تزكيتم بالناموس؛ فلا فائدة لكم من المسيح؛ وسقطتم عن نيل النعمة؛ فإنَّ الختانة لا منفعة لها في المسيح؛ ولا للقلفة[٣]؛ بل الإيمان الذي يعمل بالمحبَّة. وفي الآية ١٢ من الباب الرابع من الرسالة العبرانية: لأنَّ الكهانة لما بُدِّلَتْ؛ بُدِّل الناموس[٤] أيضاً بالضرورة.

فالنسخ موجود عند أهل الكتابين؛ بالمعنى الفاحش؛ الذي يتنزَّه عنه الباري جل وعلا؛ وهو البداء؛ بشهادة الآية ١٨ من الباب الرابع من الرسالة العبرانية وهي: لأنَّ نسخ ما تقدم من الحكم قد عرض؛ لما فيه من الضعف وعدم الفائدة.

---

(١) بولس الطرسوسي هو أعظم شخصية عند النصارى بعد المسيح ويسمونه بولس الرسول وله رسائل يعتبرونها مقدسة.

(٢) الحواريون هم تلاميذ عيسى ﷺ وقيل إنهم اثنا عشر من بني إسرائيل.

(٣) القلفة رقيق فضفاض خالٍ من الشعر وغني بالألياف العضلية يغطي جزءاً من رأس القضيب وهي بمعظمها خصائص تسمح لها بأن تستجيب لتغيير طول القضيب أثناءها ويتم إزالتها في عملية.

(٤) الناموس: يقصد به الوحي أو الشريعة.

فقوله من الضعف إلى آخره. . ؛ هو الأمر الفاحش القبيح. أما عندنا؛ فالنسخ موجود؛ والفائدة موجودة من الابتداء إلى الانتهاء؛ ولا يجوز عدمها ولا ضعفها في حال من الأحوال؛ حسبما سبق في تفسير النسخ.

ومن جراء هذا تعرف سقوط استدلال المؤلف بما ذكره في صفحة ١٩ من قول الإنجيل: ما جئت لأنقض الناموس بل لأجدده. لأن غرضه منه إنكار النسخ، وقد تبيَّن لك بالأدلة الكثيرة؛ وجوده عند أهل الكتابين. ومن رجع إلى كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي وكتاب «البحث الصريح» للشيخ زيادة الذي أكرمه الله بالإسلام؛ عن تروٍّ وبصيرة؛ في القرن الحادي عشر؛ وجد ما يبرد الغليل ويشفي العليل.



الفصل الثامن

الفصل الثامن

قد تقرر اندفاع أهل الكتاب عن الإيمان بالله والدار الآخرة؛ ما لم يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ ويعزِّروه وينصروه ويتبعوا النور الذي أنزل معه؛ بما لا يحتاج إلى مزيد؛ إلّا حيث يحتاج وجود النهار إلى دليل. ولكنا نقول للمؤلف: فهل تؤمن بما بين أيدي اليهود اليوم من التوراة؛ وفيها أن لوطاً عليه السلام زنى بابنتيه؛ وحملتا بالزنا من الأب؟ كما هو مُصَرَّحٌ به في الباب التاسع من سفر التكوين؟ وأنَّ يهودا بن يعقوب عليهما السلام؛ زنى بثامار؛ وهي زوجة ابنه؛ وحملت منه بالزنا؛ وولدت توأماً؛ هما فارض وزارح؛ كما هو مُصرَّحٌ به في الباب الثامن والثلاثين من السفر المذكور؟ والحال أن داود وسليمان وعيسى عليهم السلام؛ كلهم من أولاد فارض؛ كما هو مُصَرَّحٌ به في الباب الأول من إنجيل متَّى. وأنَّ داود عليه السلام زنى بامرأة أوريا؛ وحملت منه بالزنا؛ فأهلك زوجها بالمكر؛ وأخذها زوجة له؛ كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني. وأنَّ سليمان بن داود عليهما السلام ارتَدَّ في آخر عمره؛ وصار يعبد الأصنام؛ ويبني لها المعابد؛ كما هو مصرَّحٌ به في الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول؟ وأنَّ هارون عليه السلام بنى معبداً للعجل؛ وأمر بني إسرائيل بعبادته؛ كما هو مصرَّحٌ به في الباب الثاني والثلاثين من سفر الخروج؟

فإن آمنت بها[1]؛ فقد كذَّبت بما أنزل على محمد ﷺ؛ من براءة هؤلاء

(١) الخطاب لمؤلف كتاب توحيد الأديان.

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم؛ في كتابه الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾.

أما نحن فلا نعتقد في الأنبياء إلّا ما يؤثر عن الإمام الغالب من قوله في وصفهم: فاستودعهم أفضل مستودع؛ وأقرَّهم خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب؛ إلى مطهرات الأرحام، كلما مضى منهم سلف؛ قام بدين الله خلف؛ حتى أفضت كرامة الله إلى محمد ﷺ؛ فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً؛ وأعز الأرومات مغرساً. وهل تصدق بقول الله في سورة التوبة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].

ومتى صدَّقت بهذا[2]؛ فهل يمكن إصرارك على القول بإيمانهم ونجاتهم معه؟ ثم هل تؤمن بما بين أيدي النصارى اليوم من الإنجيل؛ الذي هو مجموع كتب العهد الجديد؛ بما فيها من الابن والأب والتثليث؛ الذي لا نجاة لأحد عندهم بدون اعتقاده نبياً كان أو غير نبي. قال المقريزي: والنصارى فرق كثيرة، وكلهم متفقون على أن معبودهم ثلاثة أقانيم اهـ.

فإن صدقتهم في ذلك؛ فشأنك ونفسك؛ وقد قال الباري جل شأنه في سورة الكهف: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾[3]. وإن لم تصدِّقهم؛ فاعلم أنهم لم يؤمنوا بعيسى؛ فضلاً عن محمد. ولو آمنوا بعيسى

(١) سورة التوبة، الآيات: ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) الخطاب لمؤلف كتاب توحيد الأديان.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

لآمنوا بمحمد؛ لأننا نحن المسلمون؛ لم نؤمن بأولئك الأنبياء؛ إلّا كما أخبرنا بهم محمد صلى الله عليه وعليهم؛ فهو عليهم شهيد؛ ونحن عليه شهداء:

شَـهَـادَةٌ عَـنْ يَـقِـيـنٍ إذْ دَلائِـلُـهَـا مَحْسُوسَةٌ لَمْ نَهِمْ فِيهَا ولَمْ نَضَمِ[1]

وقد رُوِيَ أنَّ أحد النصارى قام يجادل المسلمين؛ ويقول لهم: قد اتفقنا نحن وأنتم على الاعتراف بعيسى؛ ولكنا لا نُقِرُّ بمحمد؛ فَمَنِ الأولى؟ المتفق عليه؛ أو المختلف فيه؟ فكاد أن ينقطع بعضهم؛ حتى انتصب إليه تلميذ صغير؛ فقال له: أعِدْ عليَّ ما قلت؛ فقال له: هل تؤمن بعيسى؟ فقال: إن كان الذي أخبرنا به محمد؛ وأنه مُبَشِّرٌ بِهِ؛ فنعم؛ وإلّا فلا. فانقطع النصراني.

وقال الإمام الرازي في الفصل الثاني من كتابه المسمي بـ «المطالب العالية»: وأما دعوة عيسى ﷺ؛ فكأنَّه لم يظهر لها تأثير إلّا في القليل؛ وذلك لأنا نقطع؛ بأنه ما دعا إلى الدين الذي يقول به هؤلاء النصارى؛ لأن القول بالأب والابن والتثليث؛ أقبح أنواع الكفر؛ وأفحش أقسام الجهل. ومثل هذا لا يليق بأجهل الناس؛ فضلاً عن الرسول المعظم المعصوم؛ فعلمنا أنه ما كانت دعوته البتَّة إلى هذا الدين الخبيث؛ وإنما كانت دعوته في التوحيد والتنزيه. ثم إن تلك الدعوة ما ظهرت البتَّة؛ بل بقيت مطويَّة غير مرويَّة؛ فثبت أنه لم يظهر لدعوته إلى الحق أثر البتة. اهـ.

وقال الإمام القرطبي في الباب الثالث من كتابه: «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام»: إنَّ الكتاب الذي بيد النصارى؛ الذي يسمونه الإنجيل؛ ليس هو الذي قال الله فيه على لسان رسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[2]. وأطال في الاستدلال على ذلك؛ إلى أن قال: فظهر من هذا البحث؛ أنَّ الإنجيل المُدَّعَى لم ينقل متواتراً؛ ولم يقم دليل على عصمة

---

(١) من قصيدة نهج البردة للإمام ابن عبيد الله.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٣ ـ ٤.

ناقليه؛ فإذاً يجوز السهو والغلط عليهم، وهذا كافٍ في رَدِّه؛ ولكنا مع ذلك نعمد إلى مواضع منه؛ يتبين فيها تهافت نقلته؛ ووقوع الغلط في نقله، ثم نقل تلك المواضع. وقوله لم ينقل متواتراً؛ فيه تنازل وإرخاء العنان للخصم؛ بل لا إسناد لهم فيه البتة؛ لا بتواتر ولا آحاد. وقد كان إسناد التوراة منقطعاً قبل زمان يوشيا بن أمون، والنسخة التي وجدت بعد ثماني عشرة سنة من جلوسه على سرير السلطنة؛ لا اعتماد عليها يقيناً؛ ومع ذلك فقد ضاعت قبل حادثة بختنصر[١]؛ وفي حادثته انعدمت التوراة؛ وسائر كتب العهد الوثيق عن العالم رأساً. ولما كتب عزرا هذه الكتب؛ على زعمهم؛ ضاعت نسخها وأكثر نقولها في حادثة أنتيوكس[٢]. ومن رأى الكتاب ٤٥ و٥٦ من كتاب حزقيال[٣] رأى كثرة اختلاف الأحكام بينه وبين سفر العدد. وحزقيال من أتباع التوراة؛ فلو كانت التوراة التي في زمانه موافقة للتوراة الصحيحة لما خالفها. وفي مواضع من التوراة؛ أنَّ الأبناء تؤخذ بذنوب الآباء إلى ثلاثة أجيال. وفي الآية ٢٠ من الباب ١٨ من كتاب حزقيال ما نصه: الابن لا يحمل إثم الأب؛ والأب لا يحمل إثم الابن؛ وعدل العادل يكون عليه؛ ونفاق المنافق يكون عليه. وهذا هو الحق الذي نزل القرآن بموافقته. وقال أحد فضلاء المسيحيين؛ وهو دكتر سكندر كيدس: ثبت لي بظهور الأدِّلة الخفية ثلاثة أمور جزماً: **الأول**: أنَّ التوراة الموجودة ليست من تصنيف موسى، **والثاني**: أنها كتبت في كنعان أو أورشليم، **والثالث**: لا يثبت تأليفها قبل سلطنة داود؛ ولا بعد زمان حزقيال؛ بل نسب تأليفها إلى زمان

(١) نبوخذ نصر أو بختنصر (٦٠٥ ـ ٥٦٣ق.م) أشهر ملوك الدولة البابلية الحديثة قاد الجيوش البابلية في معارك حاسمة على منطقة بلاد الشام ودمّر عدة ممالك منها مملكة يهوذا، وسبى الكثيرين من اليهود إلى بابل، وقام ببناء الجنائن المعلقة التي عدت من عجائب الدنيا السبع.

(٢) أنتيوكس هو ملك ملوك الفرنج الذي فتح أورشليم.

(٣) سفر حزقيال هو أحد أسفار العهد القديم. وهو السفر الرابع من القسم الرابع المسمى (الأنبياء).

سليمان ﷺ؛ يعني قبل ألف سنة من ميلاد المسيح؛ أو إلى زمان قريب منه؛ في الزمان الذي كان فيه هومر الشاعر[١]. فالحاصل أن تأليفها بعد خمسمائة سنة من وفاة موسى ﷺ اهـ. وجاء في الباب الأول من سفر العدد: أنَّ الصالحين للقتال من أبناء عشرين فما فوقها؛ من غير اللاويين[٢] كانوا أكثر من ستمائة ألف رجل. فإذا ضُمَّ إليهم اللاويون؛ والإناث والذكور الذين لم يبلغوا العشرين؛ من جميع الأسباط؛ لم يقلوا عن ألفي ألف وخمسمائة ألف[٣]. وهذا غير صحيح لأمور كثيرة؛ منها: أنَّ عدد بني إسرائيل حينما دخلوا مصر؛ كان سبعين فقط بين ذكر وأنثى؛ كما في سفر التكوين وسفر الخروج وسفر الاستثناء. وقد اتفق مؤرخوهم ومفسروهم؛ على أنَّ مدة إقامة بني إسرائيل بمصر؛ كانت مائتين وخمس عشرة سنة. فهل تعقل كثرة التناسل من سبعين؛ إلى هذا الحد؟ مع الاضطهاد وقتل الأبناء؟ هذا ما لا يكون. فتعيَّن افتراء تلك الآية وأمثالها. وقد أنكر ابن خلدون هذه الأعداد الهائلة في مقدمة تاريخه؛ وقال: إنَّ الذي بين موسى وإسرائيل[٤]؛ إنما هو ثلاثة آباء؛ على ما ذكره المحققون؛ ويَبعُدْ أن يتشعَّب النسل في أربعة أجيال إلى مثل ذلك العدد اهـ. ثم أيَّةُ أرضٍ تضُمُّهم؛ وأيُّ زادٍ يكفيهم بعد مخرجهم من البحر؟

وقال المقريزي في المجلد الأول من خططه: تزعم اليهود أنَّ توراتهم بعيدة عن التخليط، وتزعم النصارى أن توراة السبعين[٥] التي بأيديهم لم يقع فيها

(١) هوميروس شاعر ملحمي إغريقي يعتقد أنه مؤلف الملحمتين الإلياذة والأوذيسة عاش في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد.

(٢) مفرده لاوي وهو أحد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر وقد عهد إلى هذا السبط شؤون الخدمة الكهنوتية في المجتمع اليهودي. وسفر اللاويين أحد الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة ويشكل جزءاً من التوراة.

(٣) يعني مليونين وخمسمائة ألف.

(٤) إسرائيل هو يعقوب ﷺ.

(٥) وهي التوراة التي ترجمها سبعون شيخاً لبطليموس واتفق عليها اثنان وسبعون حبراً من أحبارهم.

تحريف ولا تبديل، وتقول اليهود فيها خلاف ذلك. وتقول السامرية[١]: إنَّ توراتهم هي الحق؛ وما عداها باطل. وليس في اختلافهم ما يزيل الشك؛ بل ما يقوِّي الجالبة له. وهذا الاختلاف بعينه؛ واقع بين النصارى في الإنجيل. وذلك أن له عند النصارى أربع نسخ؛ مجموعة في مصحف واحد؛ أحدها إنجيل متَّى؛ والثاني لمرقس؛ والثالث للوقا؛ والرابع ليوحنا. قد ألف كلّ من هؤلاء الأربعة إنجيلاً على حسب دعوته في بلاده؛ وهي مختلفة اختلافاً كثيراً؛ حتَّى في صفات المسيح عليه السلام؛ وأيام دعوته؛ ووقت الصلب الذي يزعمونه في نسبه أيضاً. وهذا الاختلاف لا يُحْتَمَلْ مثله؛ ومع هذا فعند كلّ من أصحاب مرقبون؛ وأصحاب ابن ديصان؛ إنجيل يخالف بعضه هذه الأناجيل. ولأصحاب ماني إنجيل على حدة؛ يخالف ما عليه النصارى من أوله إلى آخره؛ ويزعمون أنه الصحيح وما عداه باطل. ولهم أيضاً إنجيل يُسَمَّى إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس؛ والنصارى وغيرهم ينكرونه. وإذا كان الأمر من الاختلاف بين أهل الكتاب؛ كما قد رأيت؛ ولم يكن للقياس والرأي مدخل في تمييز حَقِّ ذلك من باطله؛ امتنع الوقوف على حقيقة ذلك من قبلهم؛ ولم يُعَوَّل على شيء من أقوالهم فيه. اهـ.

وقال صاحب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: إنَّ هذه التوراة التي بأيدي اليهود؛ فيها من الزيادة والتحريف والنقصان؛ ما لا يخفى على الراسخين في العلم؛ وهم يعلمون قطعاً أنَّ ذلك ليس في التوراة التي أنزلها الله على موسى؛ ولا في الإنجيل الذي أنزله على المسيح. وكيف يكون في الإنجيل الذي أنزله على المسيح؛ قصة صلبه؛ وما جرى له؛ وأنه أصابه كذا وكذا؛ وأنه قام من القبر بعد ثلاث؛ وغير ذلك؛ مما هو من كلام شيوخ النصارى. وقد ذكر غير واحد من علماء الإسلام ما بينها من التفاوت والزيادة والنقصان والتناقض؛ لمن أراد الوقوف عليه. ولولا الإطالة وقصد ما هو أهم منه؛ لذكرنا طرفاً كبيراً اهـ بلفظه.

---

(١) مجموعة عرقية دينية تنتسب إلى اليهود وتختلف عنهم حيث إنهم يتبعون الديانة المناقضة ويعتمدون أن توراتهم غير محرفة وأن ديانتهم هي ديانة بني إسرائيل الحقيقية.

فإن قيل: قد ورد في القرآن مدح النصارى والإنجيل؛ وأن فيه هدىً ونوراً؛ وأن التوراة يحكم بها النبيُّون، **أجيب**: بأن ذلك المدح منصرف إلى الإنجيل السالم من التحريف؛ والنصارى المنعقدة آراؤهم على ذلك الإنجيل الصحيح، وهو مفقود من زمان قديم. أما المخالفون؛ فلم يرد فيهم إلّا أمثال قوله جلَّ وعلا في البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. وكذلك يقال في التوراة؛ وكله قبل النسخ؛ أما بعده؛ فلا اعتبار لغير التوحيد والمواعظ.

وإذا تقرر لديك ما يوجد في الكتابين من التحريف والتخليط ضربة لازب[2]؛ سقطت الثقة لا محالة بها؛ وكيف يصحُّ إيمانهم بأنبيائهم وكتبهم على ما تقرَّرَ فيها. وقد أخرج البخاري في عدة مواضع من صحيحه بألفاظ متقاربة عن ابن عباس: كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ؛ أحدث؛ تقرأونه غضاً؛ وقد حدثكم أنَّ أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيّروه؛ وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله؛ وما هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم. لا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل إليكم؛ فأنتم بالطريق الأولى أن لا تسألوهم.

وفي كتاب الاعتصام من الصحيح: أنَّ معاوية يقول في حقِّ كعب الأحبار: إنَّه كان من أصدق هؤلاء المحدثين؛ الذين يحدثون عن أهل الكتاب؛ وإنْ كُنَّا مع ذلك لنبلو عليه الكذب. ومع هذا فقد أخرج له البخاري والترمذي والنسائي وأبو داود. وقد استعنت في هذا الفصل بـ (إظهار الحق) وبما نقله الطيبي عن كتاب الشيخ زيادة. ومن أحبَّ التزيُّد فليرجع إليهما؛ فإنَّ فيهما ما تنشرح به الصدور؛ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. ثم إن كثيراً من متقدمي النصارى لا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠١.

(٢) أي لازماً أو مؤكداً.

يقولون بالتثليث؛ ويؤولون ما جاء من الأب والابن في الإنجيل؛ بأنَّها أوصاف جاءت للتبجيل؛ كما يقال عند الاحترام: هذا أبي أو روحي؛ وعند المحبة: هذا ابني؛ فإذا قيل لهم: قد نصَّ الإنجيل على أن عيسى إله؟ قال المحققون منهم: لقد سُمي موسى في الإصحاح السابع؛ إلهاً؛ ولم يطلق عليه ذلك؛ والله أعلم.



الفصل التاسع

الفصل التاسع

قال المؤلف في صفحة (١١): إن القرآن قد فتح باباً جديداً للرقي العقلي والعلمي؛ ودعا إلى البحث والفكر والعلم؛ والحكم بطريق الحُجَّة والبرهان. وهو بذلك أثبت أن الدين نصير العلم؛ في حين كان الناس يظنون ويعتقدون؛ أنَّ العلم والدين لا يجتمعان؛ وأنهما عدوّان لدودان إلخ. ونقول: لقد علَّمك هذا الكلام من هو أشد لحياً منه؛ وقد قارن الأستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده[1]؛ بين أصول النصرانية وأصول الإسلام؛ فقال: أصل الأصول عند عامة المسيحيين؛ لا يختلف فيه كاثوليك ولا أرثوذكس ولا بروتستانت؛ أنَّ الإيمان منحة لا دخل فيها للعقل؛ وأنَّ من الدِّين الذي يجب الإيمان به؛ ما يناقض أحكام العقل؛ وأنه لا يسوغ التفَهُّم في الدين؛ إلّا من رؤساء الكنيسة؛ وأنَّ من خطر له ما يعارض أمور الإيمان المقررة؛ وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر؛ ولم تجر في شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة؛ حتَّى لقد تقرر في نفوس المسيحيين؛ أنَّ السلامة في التسليم، وتقرر لديهم: أنَّ الجهالة أمُّ التقوى، بينما أصل الإسلام

---

(١) الإمام محمد عبده من رواد الإصلاح والتجديد الإسلامي في مصر وهو تلميذ جمال الدين الأفغاني رافقه في مصر وزامله في إقامته بباريس وأسس معه مجلة العروة الوثقى ثم افترق عنه وعاش بلبنان حتى عفا عنه الخديوي عباس حلمي فعاد لمصر وعيّن كأول مفتٍ لمصر مستقل عن مشيخة الأزهر واستمر على منصب الإفتاء حتى وفاته سنة ١٣٢٣هـ له مجموعة فتاوى وشرح لنهج البلاغة وكتاب الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية وغيرها من الكتب.

الأول؛ النظر العقلي؛ حتى لقد اتفق أهل المِلَّة الإسلامية؛ إلّا قليلاً ممن لا يُنْظَرْ إليه؛ على أنه إذا تعارض العقل والنقل؛ أخذ بما دلَّ عليه العقل. وكان في النقل طريقان؛ إما التفويض في علمه إلى الله؛ وإمَّا التأويل؛ مع المحافظة على قوانين اللغة؛ حتي يتفق معناه مع ما يقرر العقل. أما النصارى فقد كانوا أعداءً للعلم. ولما خافوا ظهور العلم والفلسفة بسعي تلاميذ ابن رشد؛ ولا سيَّما في جنوب فرنسا وإيطاليا، أنشأوا محكمة التفتيش القاسية؛ وكان من وسائل التحقيق عندها؛ أن يُعَذَّب المتهم بأنواع العذاب؛ إلى أن يعترف بشيء من العلم الذي تلقاه؛ فيصدر الحكم الغاشم عليه. وقد أحرقت في مدة ثماني عشرة سنة؛ أولها سنة ١٤٨١م؛ عشرة ألف ومائتين وعشرين شخصاً بالنار؛ وهم أحياء. وحكمت على ستة آلاف وثمانمائة وستين شخصاً بالشنق بعد التشهير. وحكمت على سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بالعقوبات المختلفة. ولكن كان المنع إغراء؛ فهاجت الأفكار لتلَمُّس آثار ابن رشد؛ وإنارة العقول بها؛ وكل من وقعت عليه تهمة بشيء من تلك الأفكار؛ رفع إلى تلك المحكمة؛ حتى وقع الرعب في قلوب أهل أوروبا؛ وقال بعضهم لكثرة من يرد حياض المنايا منهم: يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحياً ويموت على فراشه. وقد انتهى عدد من أحرق بالنار حياً إلى سنة ١٨٠٨م نحواً من مائتي ألف؛ عدا من شنق أو عوقب بأفانين العقاب. وصدر الأمر في سنة ١٤٩٢م بأنَّ كلَّ يهودي لم يقبل المعمودية؛ في أي سن كان؛ وعلى أيِّ حال كان؛ أن يترك بلاد إسبانيا قبل شهر تموز؛ ومن رجع عوقب بالقتل والمصادرة. وفي فبراير سنة ١٥٠٢م صدر الأمر بطرد من لم يقبل المعمودية من المسلمين؛ بشرط أن لا يسلك طريقاً يؤدِّي إلى بلاد إسلامية؛ فكان النفي إلى القتل؛ أو الموت بالتعب والعُرِيِّ والجوع. ومن مساوي آل عثمان على كثرة محاسنهم؛ أنَّ السلطان محمد الفاتح؛ لم يصخ سمعاً لصراخ المسلمين؛ مما يلاقون من إسبانيا في الأندلس؛ بل قيل إنه اتفق مع ملكها فرديناند؛ ثم مع زوجته إيزابيلا؛ على تمكينها من إزالة بني الأحمر؛ آخر الدول العربية بالأندلس؛ إزاء ما قامت له به رومية؛ من خذلان الإمبراطورية الشرقية؛ عند مهاجمته

لمقدونيا ثم القسطنطينية؛ فلم يكن ثمنها بالرخيص؛ ولكن بضياع ألوف الألوف من مسلمي الأندلس؛ قتلاً وتنصيراً. وعند هذا يقام ميزان المصالح؛ الذي أشبعت القول فيه بـ «بضائع التابوت»[١]. ظهر القول بكروية الأرض؛ في أول خلافة بني العباس؛ فلم تتحرك له شعرة في بدن. ولكنه أحدث اضطراباً شديداً في عالم النصرانية؛ لا يتسع لما وقع بسببه من الحوادث المحال. وفي سنة ١٨٦٤م نشر البابا منشوراً؛ فيه لعن كلّ من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية؛ أو جواز أنْ يُفَسِّر أحدٌ شيئاً من الكتب المقدسة؛ على خلاف ما ترى الكنيسة؛ أو يعتقد أحدٌ بأنَّ المرءَ حرٌّ فيما يعتقد ويدين به ربَّه. وفي سنة ١٨٧١م غضب البابا على أستاذ في إحدى الكليات؛ لرأيٍ ارتآه لا يروق للحزب الكاثوليكي[٢]؛ فحَرَمَهُ وطلب عزله؛ لولا أنَّ عزيمة بسمارك[٣] كانت أشد؛ فلم يُنفِّذ أمر البابا؛ وأبقى الأستاذ على حاله. وكان البابا مرةً ألزم إمبراطور ألمانيا؛ بأن يقف ثلاثة أيام حافياً أمام قصره؛ في أيام الشتاء؛ يطلب منه الغفران. ورفس البابا برجله مرةً تاج ملك جرمانيا؛ وهو جاثٍ بين يديه في طلب الغفران. وربما يزعم زاعم؛ تخصيص هذا التَعَنُّت القاسي بالكنيسة الكاثوليكية. وجوابه: إن البروتستانت[٤] أنفسهم ذكروا في تاريخ الإصلاح؛ أنَّ عقوبة الإعدام استمرت

---

(١) بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت كتاب موسع في أربعة مجلدات ضخمة وما زال مخطوطاً.

(٢) المسيحية الكاثوليكية هي أكبر طوائف المسيحية ومركزها الفاتيكان مقر بابا الكاثوليك، وتتبعها الكنيسة الأرمنية والمارونية والقبطية وغيرها.

(٣) أوتو فون بسمارك (١٨١٥ ـ ١٨٩٨) رجل دولة بروسي كان داهية في السياسة وقام بتوحيد الولايات الألمانية وإنشاء الإمبراطورية الألمانية ثم عزله الإمبراطور فيلهلم ويلقب بالمستشار الحديدي.

(٤) البروتستانتية هي أحد مذاهب المسيحية. نشأت على يد مارتن لوثر في ألمانيا وقد انشقت الكنيسة البروتستانتية عن الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر، وتتفرع منها من ٢٨ ـ ٤٠ إلى كنيسة ومذهب. والبروتستانتية مذهب عدد من الدول الأوروبية مثل الدانمارك وبريطانيا والنرويج والسويد.

على من يخالف معتقد الطائفة البروتستانية؛ وقد أمر الزعيم الثاني؛ واسمه كالفان بإحراق سيرفيت في جنيف[١]؛ لأنه كان يعتقد أنَّ الدين المسيحي دخل عليه شيء من الابتداع؛ فكان جزاؤه أنْ شُوِيَ وهو حيٌّ بالنار. (انتهى بلفظ من كلام الأستاذ الحكيم مع زيادات كثيرة).

وإنه لطشة من غدير؛ مما نقله عنهم الشيخ؛ رحمه الله؛ في كتابه؛ إظهار الحق. ومنها القوانين التي سنها البروتستانت ضد الكاثوليك. (١) أن يرث الكاثوليكي تركة أبوية (٢) لا يشتري أرضاً بعد ما يجاوز عمره ١٨ سنة؛ إلّا أن يرجع إلى مذهبهم (٣) لا يكون لهم مكتب (٤) لا يشتغل بالتعليم وإلّا حُبِسَ مؤبداً (٥) على كلٍّ منهم مضاعفة الخراج (٦) من صلَّى من قِسِّهم فعليه ٣٣٠ روبية؛ ومن صلَّى؛ وهو غير قسيس فعليه ٧٠٠ روبية؛ وسجن سنة (٧) من أرسل ولده إلى خارج إنكلترا للتعليم؛ يقتل هو وولده وينهب ماله (٨) لا يُعطى لهم منصب في الدولة (٩) من لم يحضر يوم الأحد أو العيد في كنيسة البروتستانت؛ تؤخذ منه ٢٠٠ روبية شهرياً (١٠) من ذهب منهم عن لندن خمسة أميال؛ يؤخذ منه ١٠٠٠ روبية (١١) لا تنفذ عقودهم إلّا على طريقة كنيسة إنكلترا (١٢) لا تسمع استغاثة أحد منهم عند الحكام.. إلى آخر ذلك القانون المظلم؛ الذي لا أصدق بمثله؛ لولا أنَّ الراوي ثقة؛ فالعهدة عليه. وقد استغرق في أمثال هذه الموبقات؛ نحواً من ثمان صفحات؛ أولها صفحة ٢٠٤ من الجزء الثاني. ولئن كان البحث خاصاً بما كان من قطع طريق العلم؛ فإنَّ هذا لا يخلو عنه؛ واستطرد القلم بما سواه.

ثم قال الأستاذ الحكيم[٢]: وربما يقولون إن البروتستانت قاموا يطالبون

---

(١) ميغيل سيرفيت طبيب وعالم دين إسباني؛ لم يقبل عقيدة الثالوث المقدس في شخص واحد، فكتب وجهات نظره، فألقت محاكم التفتيش بإسبانيا القبض عليه، ثم هرب ثم قبض عليه وأعدم في جنيف بسويسرا بتهمة الهرطقة.

(٢) أي الإمام محمد عبده.

بالحرية؛ في فهم الكتب المقدسة؛ وبإبطال سلطة البابوات على غفران الذنوب؛ والتجارة ببيع الثواب والسعادة الأخروية، فيقال: لكنهم لم يبطلوا شيئاً من أصولهم؛ سوى الكف من غُلُوِّ الرؤساء وسلطتهم؛ التي أكدت لهم الآيتان ١٦ و١٩ من إنجيل متَّى وهما: أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات؛ فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تُحِلُّه على الأرض يكون محلولاً في السماء. وقوله: من الحق أقول لكم؛ كل ما تربطونه على الأرض؛ يكون مربوطاً في السماء؛ وكل ما تحلونه على الأرض؛ يكون محلولاً في السماء. فكان الرئيس الكهنوتي يقول للشخص: لست بمسيحي؛ فيصير كذلك. بينما القرآن العزيز يقول للنبيِّ ﷺ؛ لمَّا قال في يوم أُحدٍ؛ وهو يسلت الدم عن وجهه: «**كيف يفلح قوم دموا وجهَ نبيِّهم؛ وهو يدعوهم إلى الله؟**»: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[1].

وما زالت المسيحية محرومة من التقدُّم؛ حتى فصلت السلطة الملكية عن السلطة الدينية شيئاً فشيئاً؛ ومعناه أنَّ الحرب استمرَّ بين السلطتين تفيئة الحروب الصليبية؛ ولم تهزم الثانية تماماً إلّا في سنة ١٢٨٨ هجرية؛ لكنها بمجرد ما ضعفت؛ تقذف الأوروبيون على العلم والاختراع؛ مشياً على القاعدة المطَّردة في قوله:

مُنِعتُ شيئاً فأكثرتُ الوُلوعَ بِهِ   أحبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ مَا مُنِعَا

منذ ذلك اطمأن العالم؛ وانتشر العمران؛ وتقدمت أسواق المدينة؛ برغم معاطس البابوات؛ الذين لم يتسامح لهم الملوك بعدها؛ إلّا بما تحت أيديهم من الكنائس؛ وما لفَّها مما يجري مجراها، ولا يزال أولئك البابوات يحرقون الأرم من الغيظ؛ ولكنه غيظ الأسير على القد، أو غضب الخيل على اللجم. فالنصرانية لم تتقدم في العلم؛ إلّا بعد أن سرت لثام الدين وكشفت قناعه؛ وكسرت قيوده

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

وأغلاله؛ وعادت لا دين لها[١]؛ إلّا أنها اندفعت بحردٍ شديد؛ وشوق هائل إلى العلوم؛ بما كانت محرومة منها آباداً طويلة؛ وبما أراقت في سبيل الوصول إليها من الدماء الغزيرة؛ بخلاف المسلمين؛ فإنَّهم لمَّا كان العلم حلالاً لهم من أول وهلة؛ اطَّرحوه؛ وضيَّعوا ما تركه آباؤهم لهم من التراث الضخم الهنيء فيه؛ وتخاذلوا بالأغلب عنه؛ لأنهم لم يذوقوا حرارة الشغف به والشوق إليه، والمبذول مملول؛ ولكن لا غرابة أن يعودوا إليه؛ لا بصفة أن دينهم يحثهم عليه؛ بل لتهافتهم على الاقتداء بالأوروبيين؛ في كل جليل وحقير، وأحرَّ بهم إذا احتذوا مثالهم؛ أن لايدلوهم إلّا على التافه والقشور؛ وأن لا يعطوه رخيصاً؛ بل بنفس الثمن الذي بذلوه؛ وهو الانسلاخ من الدين[٢].

فما زال رجال العلم وحماة المدنية الأوروبية يتسلَّلون عن الدين؛ حتى لقد صارت الأمة الفرنسية من أشدِّ الناس عليه؛ مع أنها كانت تُدْعَى بنت الكنيسة. وقال أحد رؤساء البروتستانت في خطبة ألقاها سنة ١٩٠١م: إذا كان الدين المسيحي ليس شيئاً؛ سوى الكثلكة المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الروماني)؛ أو الكثلكة التي دخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستانتي)؛ فالقرن الموفي للعشرين (يعني الحاضر) لا يكون مسيحياً أبداً. وقد جاء في كلام هذا الخطيب؛ ما يصرِّح بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنىً آخر؛ ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين؛ فإن وُفِّق للنجاح؛ زال الخلاف إن شاء الله بين العلم والدين؛ بل بين المسيحية والإسلام[٣]. وقد أخذت أكثر هذا باللفظ تارة؛ وبالمعنى أخرى؛ بلفظ

---

(١) ربما نجد في كلام الإمام محمد عبده هنا حجة لمنتقديه الذين ادعوا بأنه كان جسراً لنقل الأفكار الأوروبية إلى المسلمين وإضعاف الشريعة الإسلامية والجرأة على أحكامها وقد قرأت أثناء تصفحي للإنترنت مقالات كثيرة في هذا الشأن مدعمة بنقد لمقالات الشيخ وفتاويه وآرائه التي كتبها وبيان ما فيها؛ وهو شيء كثير؛ مع هجومه المتكرر على الأزهر. ولعل الإمام ابن عبيد الله لم يطلع إلّا على الجانب المضيء من القمر.

(٢) وهذه الرؤية صائبة استشفت المستقبل من زمن بعيد وقد رأيناها تحدث في عصرنا الحديث.

(٣) هذا الكلام النفيس بدأت بشائره تظهر بكثرة الداخلين للإسلام من الأوروبيين كما توقع =

من مقالات الأستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده؛ في الموازنة بين النصرانية والإسلام؛ وهو موجود بإسهاب في إظهار الحق؛ ولكن كانت عبارة الأستاذ أعذب[١]؛ فلخصتها ونظمتها في سياقة واحدة. ومن تَذَوَّقَهَا؛ عرف حقَّ المعرفة؛ أنها هي التي يدندن حولها المؤلف؛ وعليها يحوم.

وَلَكِنْ بَينَ مَا يَصْطَادُ بَازٌ   وَمَا يَصْطَادُهُ الزُّنبُورُ فَرْقُ

وتخيلها: أنَّ المتمدنين من الأوروبيين اليوم؛ انسلُّوا من النصرانية؛ انسلال الشعرة من العجين؛ ورضوا بأن يكون ابن المُقفَّع[٢] أحزم منهم وأركن، فلقد ذكر ابن خلكان في صفحة (١٥٠) الجزء الأول من تاريخه[٣]: أنه جاء إلى عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس؛ وقال له: إنَّ الإسلام قد دخل قلبي؛ وأريد أن أسلم على يدك؛ فقال: ليكن ذاك بمحضر من القُوَّاد ووجوه الناس؛ فإذا كان الغد فاحضر! ثم حضر طعام عيسى عشِيَةَ يومه؛ فجلس يأكل ويزمزم على عادة المجوس[٤]؛ فقال له عيسى: أتزمزم وأنت على عزم الإسلام؟ فقال: أكره أن أبيت على غير دين[٥]. وفي رضا عيسى بتأخير الإسلام؛ ما لا يحتاج إلى إنكاره؛ لأنه معلوم.

= الإمام ابن عبيد الله في بلابل التغريد دخول إحدى الأمم الأوروبية الكبرى الإسلام فينتشر بواسطتها انتشاراً كبيراً كما أوردت في كتابي الزاد لبلد خير العباد في الفصل رقم ٥٥ بحثاً موسعاً عن مستقبل الإسلام موثقاً بقول كثير من كبار المستشرقين والعلماء الأوروبيين.

(١) تتميز كتابات الشيخ محمد عبده بجمال الأسلوب وقوة العبارة ويشابهه في ذلك شيخه جمال الدين الأفغاني وقد استمتعت لذلك بمقالاتهم المختارة من صحيفة العروة الوثقى في كتاب لا أذكر عنوانه الآن.

(٢) عبد الله بن المقفع من الأدباء المميزين عاصر الدولة الأموية والعباسية وكان مجوسياً فأسلم نقل إلى العربية كتاب كليلة ودمنة وله الأدب الصغير والأدب الكبير وقتل سنة ١٤٢هـ.

(٣) هذه الأرقام تعود للنسخة التي اعتمدها الإمام ولا شك أنها قديمة أو ربما مخطوطة ولا أدري موقعها في الطبعات الجديدة.

(٤) صوت المجوس عند أكلهم دون تحريك لسانهم أو شفاههم.

(٥) كأنما ابن المقفع أراد استعجال الإسلام وعرف أن تصرف عيسى فيه مخالفة.

لكن المؤلف[١] يجعلهم؛ بالرغم من اعترافهم؛ كما سمعت من خطبة الخطيب البروتستاني؛ مؤمنين بالله واليوم الآخر، فلا أجد له مثلاً؛ إلّا ذلك الشاهد؛ الذي أُرْضِيَ على أن يشهد بديك؛ فشهد بتيس؛ لأنه أكبر، والآخر الذي رُشِيَ على أن يشهد بشعير؛ فشهد بِـ. . بُرْ؛ فلما راجعه المُدَّعِي؛ لمناقضة الشهادة لدعواه؛ وقال له: تَذَكَّرْ؛ فإنَّما المشهود به شعير! قال له: البُرُّ خيرٌ لك.

وقال صاحب إظهار الحق؛ (لا أدري أناقل؛ أم من عند نفسه؛ فإنِّي لم أتمعَّن): لكن العجب من عقلاء كاثلك؛ ومن تبعهم؛ أنهم يبطلون حكم الحسِّ والعقل معاً؛ ويحكمون أنَّ الخبز والخمر؛ اللذين حدثا بين أعيننا؛ بعد مدة أزيد من ألف وثمانمائة سنة من عروج عيسى عليه السلام؛ يتحولان في العشاء الربَّاني؛ إلى لحمه ودمه؛ فيعبدونهما ويسجدون لهما. وتارة يبطلون العقل والبداهة؛ ويقولون بإمكان التثليث والتوحيد الحقيقيين في شخص واحد؛ في زمانٍ واحد؛ من جهةٍ واحدة. والعجب من فرقة بروتستانت؛ أنَّهم خالفوهم في الأولى دون الثانية. كما أن أهل التثليث يغالون في شأن المسيح؛ ويوصلونه إلى درجة الألوهية. فكذلك يفرطون ويعتقدون أنه لُعِنْ؛ وأنه نزل جهنم ثلاثة أيام؛ بعدما مات. وكان أحد المسيحيين واسمه سيل[٢]؛ حصَّل بعض العلوم الإسلامية؛ وترجم القرآن؛ وأوصى قومه بما هذا حاصل ترجمته: لا تُعَلِّمُوا المسلمين المسائل التي هي مخالفة للعقل؛ لأنهم ليسوا حمقاء؛ كعبادة الصنم؛ والعشاء الربَّاني. وكل كنيسة فيها هذه المسائل؛ لا تقدر أن تجذبهم إلى نفسها. اهـ. باختصار.

وأصل هذا؛ ما نقله الطيبي عن الشيخ زيادة: أنَّ بعض النصارى يعتقد ما

---

(١) مؤلف كتاب توحيد الأديان.

(٢) جورج سيل (١٠٩١ ـ ١١٤٩هـ) محامي إنجليزي وعضو بجمعية تعزيز المعرفة بالمسيحية تعلم اللغات الشرقية وقيل إنه أمضى بجزيرة العرب ٢٥ سنة وقيل إنه لم يغادر بريطانيا. عمل ترجمة لمعاني القرآن الكريم رغم عدائه للإسلام؛ وقد أعيدت طباعة ترجمته في العصر الحديث وفي سنة ٢٠٠٧ أقسم أول عضو مسلم منتخب في الكونغرس الأمريكي على نسخة قديمة من ترجمة سيل للقرآن.

قاله بولس؛ من أنَّ جميع البشر هالكون بخطيئة جدِّهم آدم عليه السلام؛ حتى إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام؛ وأنهم جميعاً في الأسر؛ تحت يَدِ إبليس وسلطانه؛ مفتقرون إلى إله يُخَلِّصْهُمْ، وبسبب اعتناء الله بالبشر؛ ألجأَهُ الحال إلى أن ينزل ابنه من السماء؛ ويسكنه في رحم السيدة مريم تسعة أشهر؛ ثم أخرجه منها؛ وألبسه ناسوتاً من دم السيدة مريم؛ فصلب فيه ومات؛ ونزل إلى جهنَّم؛ حتَّى يُخَلِّص إبراهيم وموسى؛ وبقية الأنبياء؛ والبشر الهالكين بالخطيئة. وكَأنَّ الخلاص لا يمكن إلّا بهذه الكيفية؛ لأنَّ عيسى هو ابن الله؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. اهـ.

■ تتمتان:

الأولى: على ما ذكر الأستاذ الحكيم؛ من إرخاء العنان للعقل؛ وتفويض الحاكمية المطلقة إليه؛ نذكر بعض ما تجاذبت حباله أراكين العلم في المسألة. فلقد اختلف الأشاعرة والماتريدية الحنفية[١]؛ في تكليف العقل قبل البعثة بمعرفته تعالى؛ فأنكره الأولون؛ وجزم أكثرهم بنجاة أهل الفترة[٢] على الإطلاق. وأثبته الآخرون؛ وقالوا: بتعذيب من لم يُوَحِّد الله من أهل الفترة، إذ لا عذر له مع

(١) الأشاعرة والماتريدية هما المكونان الأساسيان لأهل السُّنة والجماعة وقد نشأتا للرد على المعتزلة وغيرهم في مسائل العقيدة باستخدام نفس الأساليب نفسها التي لم يتقنها قبل أهل السُّنة حتى جاء أبو الحسن الأشعري وقد كان قبل مع المعتزلة واستخدم أساليب المعتزلة الكلامية كالمنطق والقياس في تدعيم مذهب أهل السُّنة في مواجهة المعتزلة وتوضيح بعض المسائل كخلق القرآن والقضاء والقدر. وكثير من كبار أئمة أهل السُّنة لأشعريين مثل النووي والغزالي والبيهقي والسيوطي وابن عساكر وابن حجر العسقلاني وغيرهم. ولا تختلف الماتريدية عن الأشعرية إلّا في بعض الفروع البسيطة حيث أغلب علماء الماتريدية من الأحناف بينما علماء الأشعرية أكثرهم من الشافعية والمالكية وأشهر كتب الماتريدية كتاب العقيدة الطحاوية للإمام الطحاوي الحنفي.

(٢) أهل الفترة هو مصطلح يطلقه الباحثون في شأن العقيدة الإسلامية على الناس الذين لم ينزل إليهم رسول ولا نبي ولم يتبعوا أحد الأديان السماوية.

ظهور الآيات الكونية الباهرة. ونقل السيوطي في صفحة ٢٠٩ ج٢ من الحاوي[١]؛ عن الأبي؛ أنَّ أهل الفترة على أقسام ثلاثة: **الأول**: من أدرك التوحيد ببصيرته؛ كقس بن ساعدة[٢]؛ وزيد بن عمرو بن نفيل[٣]؛ فكُلٌّ منهم ناجٍ؛ يبعثه الله أمَّةً وحده. **والثاني**: من بقي على حالِ غفلةٍ بدون إشراك؛ وهؤلاء هم أهل الفترة الناجون بالحقيقة. **والثالث**: من بدَّل وغيَّر وأشرك؛ ولم يُوَحِّد؛ وحلَّلَ وحرَّم؛ كعمرو بن لحي[٤]؛ فهؤلاء معذَّبون. وهذا هو الأنسب بما جاء في شرح مسلم للإمام النووي؛ من قوله: إنَّ من مات في الفترة؛ على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان؛ فهو في النار.

واتَّفق الأكثرون على استقلال العقل بإثبات الوحدانية؛ واختلفوا في الدليل النقلي؛ فقيل: يستقل بإثباتها؛ وهو رأي الفخر الرازي ومن وافقه، وقيل: لا؛ وعليه أكثر المحققين. إلّا أن بعضهم اشتَطَّ في تحكيم العقل إلى غاية بعيدة؛ حتى لقد زعموا أن العقل إذا خلا بنفسه؛ أدرك الأحكام الشرعية؛ لأنَّ ما أُدْرِكَ حسنه؛ إن كان الحسن فيه عظيماً؛ فهو واجب، أو غير عظيم؛ فمندوب. وما أدرك قبحه؛ إن كان قبحه شديداً؛ فحرام، أو غير شديد؛ فمكروه. أو؛ لا ذا؛ ولا ذاك؛ فمباح. ويقولون: إنما بُعِثَتْ الرسل تأكيداً للعقل. هذا ما يُنْقَل عن

---

(١) كتاب الحاوي للفتاوي للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ مطبوع حالياً في جزءين (والأرقام التي أوردها الإمام هي من نسخته القديمة) وقال في مقدمة الحاوي: استخرت الله في جمع نبذ من مهمات الفتاوي التي أفتيت بها على كثرتها مقتصراً على المهم والعويص وبدأت بالفقهيات مرتبة على الأبواب ثم بالتفسير ثم بالحديث ثم بالأصول ثم بالنحو والإعراب ثم بسائر الفنون؛ إفادة للطلاب؛ وسميته الحاوي للفتاوي.

(٢) من حكماء العرب في الجاهلية وخطبائهم المشهورين كان موحداً ومات قبل الهجرة بست وعشرين سنة.

(٣) نبذ عبادة الأصنام في الجاهلية ولم يقتنع بالنصرانية ولا اليهودية وبقي على الحنيفية وارتحل يبحث عن الإسلام ومات قبل البعثة.

(٤) كان من سادات العرب وأول من بدل الحنيفية الموحدة بإدخال الأصنام لتعبد في جزيرة العرب.

المعتزلة[١]. ومعاذ الله أن يجعلوا العقل حاكماً؛ وهم من أنصار الإسلام وينابيع العلم، وغاية ما يمكن أن يقولوا: إنَّ العقل مُدْرِكٌ للأحكام الشرعية[٢]. قال البناني: إنَّ المعتزلة لا يجعلون العقل هو الحاكم؛ بل يوافقوننا على أن الحاكم هو الله تعالى. بل جزم في فواتح الرحموت[٣]؛ أنَّ الخلف لفظي، فتقرب الشقة إذاً؛ بينه وبين ما طفحت به كتب أهل المذاهب؛ من إرداف الدليل بالتعليل؛ وما بنى عليه عز الدين بن عبد السلام كتابه[٤]؛ القواعد من المناسبات. وذلك هو الركن الركين للقياس؛ بل لقد استغنى المالكية بالعلَّة؛ على انفرادها؛ وهو القول بالمصالح المرسلة.

---

(١) المعتزلة فرقة من أهل السُّنة أسسها واصل بن عطاء واعتمدوا على العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه على النقل وقالوا بأن العقل والفطرة السليمة قادران على تمييز الحلال من الحرام بشكل تلقائي وقد ظهر المعتزلة في أواخر الدولة الأموية وتقووا في العصر العباسي ومن أشهر المعتزلة الجاحظ والخليفة المأمون والزمخشري صاحب التفسير.

(٢) كتب الإمام عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف في معجم بلاد حضرموت طبعة مكتبة الإرشاد صفحة ٢٣٧ ـ ٢٣٨: ولقد شهدت اجتماع الحموم بالشحر في سنة ١٣٣٣هـ متنازعين لدى السيد حسين بن حامد المحضار في كثير من القضايا المهمة؛ ولما تحير في تفصيلها قال له رئيسهم حبريش: ردها لي يا بن حامد وأنا أحكم فيها على شرطين أحدهما: أن تجعل لي ألف ريال؛ والثاني: أن أضع أنا ألف ريال؛ فإن نقض حكمي شرع أو عُرْف؛ كنت في حل من ألفي. قال ابن عبيد الله: فامتد عنقي لذلك البدوي الأغبر الذي لم أعرفه من قبل؛ وأكبرت تحدِّيه للشرع؛ وقلت له: هبك آمنت النقض من جهة العرف والعادة؛ لإتقانك لهما؛ فمن لك بالأمان من جهة الشرع؛ أفتعرفه؟ فقال: لا؛ ولكني سأحكم بالعدل؛ والعدل لا يتغير؛ ولا يمكن نقضه بحال؛ فأكبرت ما في طي تلك الأسمال البالية؛ وتحت تلك اللحية الشعثة من الحكمة؛ التي ابتعدت عن مجالس القضاة اليوم (الحموم قبائل قوية بحضرموت والسيد حسين بن حامد هو وزير الدولة القعيطية المطلق الصلاحية وهو من أعاظم الرجال علماً وحكمة ودهاء).

(٣) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت كتاب جامع للأصول العقلية والنقلية ومشتملاً على الفروع الفقهية ألفه ابن نظام الدين الأنصاري الهندي.

(٤) من أئمة الفقه الشافعي (٥٥٧ ـ ٦٦٠هـ) مصري الولادة والوفاة يلقب بسلطان العلماء لترفعه عن الحكام والملوك؛ شحذ الهمم لمواجهة غزو التتار لبلاد المسلمين.

وقال القرافي: إذا تتبعت فروع سائر المذاهب؛ وجدتهم قائلين بذلك؛ لأنهم يستغنون بالمناسبة في إثبات كثير من تلك التفاريع؛ ولا تتسع مسافة الخلف؛ لمن تدبر بينه وبين أمثال قول أبي مظفر السمعاني: إنَّ العقل لا يُوجِبُ شيئاً ولا يحرِّمه؛ ولا حظَّ له في شيء من ذلك؛ ولو لم يرد الشرع بحكم؛ ما وجب على أحد شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2]؛ ونحو ذلك من الآيات. فمن زعم أن دعوة رسل الله؛ عليهم الصلاة والسلام؛ إنما كانت لبيان الفروع؛ لزمه أن يجعل العقل هو الداعي إلى الله دون الرسول. ويلزمه أنَّ وجود الرسل وعدمه؛ بالنسبة إلى الدعوة إلى الله؛ سواء؛ وكفى بهذا إضلالاً.

ونحن لا ننكر أن العقل يرشد إلى التوحيد، وإنما ننكر أن يستقل بإيجاب ذلك؛ حتى لا يصح إسلام إلّا بَطَرِيقِهْ؛ مع قطع النظر عن السمعيات؛ لكون ذلك خلاف ما دلَّت عليه آيات الكتاب والأحاديث الصحيحة التي تواترت بطريق المعنى. (اهـ مختصراً). وهو كالصريح في مخالفة ما سبق؛ من استقلال الدليل العقلي بالتوحيد، ولكنه الأنسب بأمثال قوله جلَّ ذكره: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3]؛ وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[4]؛ مع ما تقرر في الأصول؛ من امتناع تكليف الغافل. والملجأ والكلام في الموضوع طويل؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أما ما أشار إليه الأستاذ الحكيم[5] بقوله: إلّا قليلاً ممن لا يُنْظَرْ إليه؛ فإن أراد بهم الحنابلة؛ فقد جازف عليهم بما هم براءٌ منه؛ إذ لا بدَّ وأن يُؤولوا المعيَّة

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٤) سورة يس، الآية: ٦.

(٥) يقصد الإمام محمد عبده.

بالعلم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[٢].

وقال الغزالي في التفرقة: سمعت الثقاة من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون: إنَّ أحمد بن حنبل رحمه الله؛ صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط: **أحدها**: (الحجر الأسود يمين الله في الأرض) **والثاني**: (قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن) **والثالث**: (إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمين)؛ وإنما اقتصر عليها؛ لأنه لم يمعن في النظر العقلي. ولهذا تجاوزه الأشعري والمعتزلي لإمعانهم النظر فيه؛ وكانت المعتزلة أشدَّ توغلاً في التأويلات؛ أما الأشعري فأقرب إلى الحنابلة؛ ولا سيَّما في أمور الآخرة؛ إلّا أنهم اضطروا إلى تأويل وزن الأعمال؛ فذهبوا إلى المجاز؛ وقالوا: توزن صحائفها، وجعله المعتزلة كناية عن السبب الذي ينكشف به لكل واحد مقدار عمله، وهو أبعد عن التعسف في التأويل. فَكُلٌّ مضطر إلى التأويل؛ إلّا أن يجاوز الحدَّ في الغباوة؛ فيقول: إنَّ الحجر الأسود يمين الله حقيقةً. (اهـ. بمعناه وأكثر لفظه مع الاختصار). والجزء الأخير منه؛ هو الذي ينطبق عليه وحده قول الأستاذ.

وقد صرح ابن حجر الهيتمي في ص ١١١ من فتاويه الحديثية[٣]: بأن السلف والخلف على اتفاق؛ في صرف النصوص الموهمة عن ظواهرها؛ وإنما الخلاف في التأويل التفصيلي. فالسلف يرون الإمساك عنه؛ والخلف يرجِّحون أولويته؛ لاحتياج زمانهم إليه اهـ. وقد قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٤].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤. (٢) سورة المجادلة، الآية: ٧.

(٣) هذه الأرقام من النسخة التي قرأها الإمام ولم أبحث عن موقعها في الطبعات الجديدة.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧.

على أنَّ للعلامة ابن تيمية كلاماً جميلاً؛ منه: أنه لا يجوز تعارض دليلين قطعيين؛ سواء كانا سمعيين أو عقليين؛ أو أحدهما سمعي؛ والآخر عقلي. وأما إذا كان أحدهما قطعياً والآخر ظَنيّاً؛ فتقديم القطعي لازم. وكذلك تقديم الأرجح من الظَّنَّيْن أيًّا كان. فإذا رجح الدليل العقلي؛ فليس لأنَّ العقل هو الأصل؛ ولكن من جهة القطع أو الرجحان (اهـ. بمعناه) وهو جَدٌّ نفيس؛ ولولا أن طوله يبعد بنا عن المقصود؛ لاستوفيناه. وما أظن الشيخ محمد عبده اطَّلع عليه؛ وإلّا؛ لارعوى عما قال.

والثانية: على ما ذكره الأستاذ من كروية الأرض. بينما أنا أتلو سورة الرحمن في الوقت القريب؛ وقفت هنيهة على قوله تعالى فيها: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[١] وتذكرت أن المفسرين قالوا: إنَّ المراد مشرقا الشتاء والصيف؛ ومغرباهما؛ فلم أرتض ذلك؛ ورأيت أنه يكفي عنه قوله: (برب المشارق والمغارب). وظهر لي في وضوح؛ لا يحتمل التأويل؛ أنَّ كلًّا من الجهتين الغربية والشرقية؛ يقال لها مشرق ومغرب؛ إذ لا مشرق ولا مغرب من كروية الأرض؛ إلّا في رأي العين فقط. لأنَّ الشمس لا تشرق من جهة على قوم؛ إلّا وهي تغرب عند آخرين، فأفادنا القرآن العزيز الذي لا تنفد عجائبه؛ بكروية الأرض في هذا الأسلوب العذب الدقيق؛ بصفة تلوح سافرة اللثام للناظرين؛ بدون أن تحدث تشويشاً في سابق الزمان على أفكار الأميين. وقد تأكد اشتقاقي من هذا المعنى؛ بقوله جل ذكره في سورة الزخرف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[٢].

إذ لا مجال للقول بالتغليب مع إشراق الحقيقة؛ إذ كُلٌّ من الجهتين بشهادة الحس والعيان؛ مشرقٌ ومغرب معاً. وقد أمرت رادَّتي[٣] بالكشف عنه؛ في غيبة

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٨.

(٣) أي الطوافين أو الزائرين لي.

أمثاله من المعاني؛ وهو تفسير طنطاوي جوهري؛ لأحمد الله على الموافقة؛ إن وُجِدَتْ؛ وأغتبط بجميل الاستنباط؛ إن لم توجد. فلم ينهض لذلك إلّا الفاضل الشيخ مبارك باحريش (قاضي سيئون الآن)؛ فلم يجدها في الموضعين؛ فكدت أن أخرج عن جلدي من الفرح؛ بما ترك لي من الخبء العظيم؛ والكنز الثمين؛ الذي لا يوجد نظيره؛ في التدليل على هذه النظرية؛ من التنزيل. والحمد لله الذي هدانا لهذا؛ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله[1].



(١) أي أنه لم يجد أحداً سبقه إلى هذا التفسير.

الفصل العاشر

الفصل العاشر

مرّ بك في الفصل الفائت؛ قول الأستاذ الحكيم في تعليقه على كلام الخطيب البروتستانتي، وقال في موضع آخر: لا بدَّ أن ينتهي أمد العالم إلى تآخي العلم والدين؛ على سنّة القرآن والذكر الحكيم. ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذي صحَّ معناه: «**تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله**»، وعند ذلك يكون الله قد أتمَّ نوره ولو كره الكافرون، وليس بينك وبين ما أعدك به؛ إلّا الزمان الذي لا بدَّ منه؛ في تنبيه الغافل؛ وتعليم الجاهل؛ وتوضيح المنهج وتقويم الأعوج؛ وهو ما تقتضيه السُّنة الإلهية في التدريج ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[(١)] إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً اهـ.

ولا شك أن المؤلف اطلع عليه؛ وعلى أمثاله الموجودة بكثرة في منشآت الأستاذ الحكيم؛ فأحبَّ أن يتعلق بأذيالها؛ وتمنَّى أن لو كان له مثلها، فأخطأ الشاكلة، وحاد عن الرَّمْيَة؛ وأخروط به الطريق، ولم يصاحبه رفيق يقال له التوفيق. وشتَّان بين ما يقول الأستاذ الحكيم؛ وبين ما يمضغه المؤلف؛ مضغ العجائز الكرش؛ فإن الأستاذ؛ يتفرس ويرتجي، والمؤلف يُمَوِّه الحقائق ويَدَّعي. وقد قلت أنا في الفائدة الأولى من كتابي «بلابل التغريد» إذ تكلمت على حديث مسلم بن الحجاج: «**بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ**» إلخ، إن له معنيين:

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

أحدهما المتبادر، والثاني أن ظهور الدين بادياً كان بسرعة مدهشة لم يعهد لها نظير في تاريخ انتشار الأديان ولم يسبق لها مثيل في حوادث انقلابات الأكوان، ثم جنى عليه أبناؤه وتلاعب به المتمسكون بأهدابه؛ واطَّرَحَهُ المنسوبون إليه؛ وانتهكه حماته، وأضاعه رعاته؛ وخذله أنصاره؛ خذلة القائد للأعمى؛ في أثناء الطريق المُضِلَّة؛ فجاء هذا الحديث؛ يَعِدْ بأنَّ له كرَّةً أخرى إلى الظهور والانتشار؛ بطريقة غريبة؛ وسرعة عجيبة؛ تعيده سيرته الأولى، إلى آخر مما أطلت فيه من ذلك، وقد خرج هذا عنِّي قبل أكثر من عشرين عاماً؛ وما اطلعت على مقالات الأستاذ الحكيم؛ إلّا منذ زمن قريب لا يزيد عن سنتين، وكذلك كان قولي في نهج البردة؛ التي كنت أنشأتها في سنة ١٣٦٠هـ:

وَمَا بِغَيرِ الذِي تقْضَى شَريعَتُهُ ... لِلنَاسِّ مَنْجَى مِنَ الأَرْزَاءِ والغمَمِ

إذْ لا يوازيه دينٌ في عدالته ... ولم يكُنْ مع إصلاحٍ بِمُصْطَدِمِ

أمَّا شريعةُ عيسى فالنجاةُ بها ... مَعَ التَّمَدُّنِ شيءٌ غَيرُ مُلْتَئِمِ

وَلا سِيَاجَ لنُعْمَى السلم يحفظها ... إلّا تعاليمُهُ من صمَّةِ الصَّمَمِ

وعن قريبٍ تُرُدُّ الناسَ قاطبةً ... لهُ الحروبَ التي يُمْطِرنَ بِالنِّقَمِ

وَلَو أرادوا كما قالوا النظامَ لمَا ... حادُوا عن الدِّينِ فهو الطِّبُّ للسَّقَمِ

ولكن تنشب شيصة[١] في اللهاة؛ إزاء هذه الأماني العذبة، وتلك هو ما ثبت في الصحاح: أنَّ الزمان إلى تراذل؛ فقد أخرج البخاري والترمذي من حديث أنس بن مالك؛ وقد شكا إليه ما لقي الناس من الحجَّاج، فقال: اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمان؛ إلّا الذي بعده شرٌّ منه؛ حتى تلقوا ربكم؛ سمعته من نبيكم ﷺ. وقد اسْتُشْكِل هذا الإطلاق؛ مع أنَّ بعض الأزمنة تكون أقلَّ شراً من التي قبلها، ولو لم يكن إلّا زمان عمر بن عبدالعزيز بعد زمان الحجاج.

---

(١) شيصة: تمر رديء لم ينضج واللهاة اللحمة المشرفة على الحلق والمعنى أنها تنحشر في الحلق وكذلك الكلام الذي لا يقبل معناه.

وقد حمله الحسن البصري على الأكثر الأغلب، وقال بعضهم: إنَّ المراد تفضيل مجموع العصر على مجموع ما بعده؛ وقد كان زمان الحجاج أفضل بكثرة من فيه من الصحابة، وقد انقرضوا في أيام ابن عبد العزيز؛ والزمان الذي فيه الأصحاب؛ خيرٌ من الزمان الذي بعده؛ لقوله ﷺ: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم**» وهو في الصحيحين؛ وقوله: «**أصحابي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي فإذا ذَهَبَ أصحَابِي أتى أمتي ما يوعدون**» أخرجه مسلم.

قال الحافظ ابن حجر: ثم وجدت التصريح بالمراد عن ابن مسعود؛ فيما أخرجه ابن أبي شيبة عن زيد بن وهب؛ قال سمعت ابن مسعود يقول: «لا يأتي عليكم يوم؛ إلّا وهو شرٌّ من اليوم الذي كان قبله؛ حتى تقوم الساعة؛ لست أعني رخاءً من العيش يصيبه؛ ولا مالاً يفيده؛ ولكن لا يأتي عليكم يوم؛ إلّا وهو أقلُّ علماً من اليوم الذي مضى؛ فإذا ذهب العلماء؛ استوى الناس؛ فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر؛ فعند ذلك تهلكون». وأخرج مسلم والحاكم وصححه؛ عن عبد الله بن عمر؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج الدجال فيلبث في أمتي أربعين؛ ثم يبعث الله عيسى فيطلبه حتى يهلكه؛ ثم يبقى الناس بعده سبع سنين؛ ليس بين اثنين عداوة؛ ثم يبعث الله ريحاً باردة؛ تجيء من قبل الشام؛ فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان؛ إلّا قبضت روحه؛ حتى لو أنَّ أحدكم في كبد جبل؛ لدخلت عليه حتى تقبضه، ثم يبقى شرار الناس؛ فيجيئهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان؛ فيعبدونها**».

والأخبار والآثار في تأخر الدِّين مع تقادم الأيام؛ كثيرة؛ لا تقصر عن التواتر المعنوي، ولكن لا يذهب ما تفرسه الأستاذ الحكيم ضياعاً؛ لأن الآيات السابقة في غُرَّة هذه الرسالة[1]؛ وفي هذا الفصل؛ إنما يُنْذِرَان بِتَقَلُّل الأخيار؛ وتكاثر الأشرار. وأما تَقَدُّم العمران والحضارة؛ التي لا بدَّ لها من العدل؛ فلا يبعد أن تتهافت الأمم عليه؛ لأنَّ فيه نجاتها من المظالم والحروب، وأن تجيء بما يقرب

(١) أي في بداية هذا الكتاب الذي سماه رسالة لقصره.

من قواعد الدين الإسلامي. وحسب الأستاذ أن نأول كلامه حتى يتفق مع النصوص؛ إذ لا يمكن العكس؛ كما قال صاحب روح المعاني[١] في قريب منه.

وقد رأيت فيما لا أذكر اسمه الآن من المجلات: أنَّ نابليون بونابرت الفرنساوي؛ الذي قيل إنه أسلم؛ وإنْ لَمْ؛ فقد كاد؛ كان يهتم بتأليف قانون؛ يتكفل بحفظ العدالة؛ ويضم سائر الأحكام، وبينا هو يُفَكِّر في جمع الاخصاء له من شرق الأرض وغربها؛ ويقدر له مئات الألوف من الدنانير؛ إذ ورد مصر؛ واختلط بالعلماء؛ وأظهر التملق لرئيسهم إذ ذاك في ظاهر الأمر؛ وعمل ما يسقط حرمته؛ ويغض من شرفه في الخفاء؛ كما رأيته منذ زمن طويل في تاريخ؛ آنقني كثيراً؛ للصحافي القديم حافظ عوض؛ صاحب المنبر الأغر؛ ولما احتك بالعلماء؛ وثاقهم بالكنالة؛ أعجب بما رآه من مذهب الإمام مالك؛ فأمر بترجمته إلى الفرنساوية بيسير من التصرف؛ فكان هو القانون المعمول به في القارة الأوروبية بأسرها[٢]؛ إلّا أنهم لا يزالون يتعقبونه بالتحوير والتعديل شيئاً فشيئاً، وإلّا فالأصل من مذهب مالك، كذا رأيته. وقد أكثرت من ذكره؛ والافتخار به في كلامي؛ نظماً ونثراً، ومنه قولي في نهج البردة:

لكنهم أخَذُوا من دِينِنَا نُتَفَاً ... كَانَتْ لِنَهضَتِهِمْ من أشرفِ الخَدَمِ

فَمَا قَوانِينُهُم إلّا مُتَرجَمَةٌ ... عَنْ مَذْهَبِ النَّجمِ مُفتِي النَّاسِ بِالحَرَمِ

---

(١) يقصد الألوسي صاحب تفسير روح المعاني واسمه محمود الألوسي عراقي مؤرخ وعالم بالأدب والدين (١٢٧٣ ـ ١٣٤٥هـ).

(٢) أمر نابليون عام ١٢١٤هـ بوضع قانون مدني واحد لفرنسا أي بعد غزوه مصر سنة ١٢١٣هـ وبقائه بها ثلاث سنوات. ويؤيد كلام الإمام ابن عبيد الله أن أحد علماء الأزهر واسمه سيد عبد الله حسين ذهب لدراسة القانون في فرنسا فراعه التشابه الشديد في كثير من الأحكام بين مذهب الإمام مالك وبين القانون الفرنسي الذي وضعه نابليون والذي يعتبر إلى اليوم من أعظم أعماله؛ وقام هذا العالم الأزهري بتأليف كتاب للمقارنة بين مذهب الإمام مالك وبين القانون الفرنسي سماه (المقارنات التشريعية) وطبع سنة ١٣٦٦هـ. وقال في مقدمته: إنه من هذه الحوادث التاريخية القاطعة يتبيّن أنه كان للشريعة الإسلامية عموماً ولمذهب الإمام مالك خصوصاً دخل في التشريع الوضعي بأوروبا.

وبلغني أن بعضهم أنكر ذلك عليَّ بظهر الغيب؛ فاشتدَّ أسفي لعدم ضبط المرجع الذي حفظت عنه ذلك؛ ولكنني لا أزال على ثقتي به، وقد اطلعت بعد ذلك على جملة شواهد عليه؛ في تفسير طنطاوي جوهري ﷺ. فكانت الخلاصة أنَّ الأوروبيين تقيَّضُوا آثار الإسلام؛ واستنهجوا طريقة في الأحكام كلها؛ أو أكثرها؛ حسبما تفرسه الأستاذ الحكيم؛ وستضطرهم أيامى الحرب؛ إلى تعدد الزوجات؛ شاؤوا أم أبوا؛ وإلّا وقعوا في الخراب؛ وآلوا إلى الدمار.

وإنا لنرجو أن تعتنق الإسلام أمة ذات حول وطول؛ فتعود به سيرته الأولى من النصاعة؛ والسلامة من البدع والمحدثات؛ فيتم ظهوره على الدِّين كلِّه[(١)].

أما اجتماع الأمم على الدخول فيه؛ والتلزُّم به تماماً؛ فلا يقع إلّا في أيام نزول عيسى عليه السلام، فالأستاذ محمد عبده بارٌّ في كلامه؛ ولا سيما لمَّا أشار بالآيتين؛ وهما قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[(٢)]؛ لأنهما من سورة المعارج عن يوم القيامة. ونزول عيسى من أشراطها؛ فهو على غاية الاتفاق مع سورة الحج (٥٥)؛ السابقة في الفصل الثاني؛ ومع ما قررنا في هذا الفصل من الأدلة؛ وما سبق في فاتحة هذه الرسالة؛ وما سيأتي من التعليق على القصيدة الآتية في الفصل الثاني عشر.

---

(١) من أقوال نابليون حول مصر:
١ ـ لو حكمت مصر لن أضيع قطرة واحدة من ماء النيل، وسأقيم أكبر مزارع ومصانع أطلق بها إمبراطورية هائلة، ولقمت بتوحيد العالم ويسود العالم السلام الفرنسي.
٢ ـ في مصر قضيت أجمل السنوات، ففي أوروبا الغيوم لا تجعلك تفكر في المشاريع التي تغيّر التاريخ، أما في مصر فإن الذي يحكم بإمكانه أن يغيّر التاريخ.
٣ ـ لو لم أكن حاكماً على مصر لما أصبحت إمبراطوراً على فرنسا.
٤ ـ بنى محمد ﷺ من لا شيء ومن شعب جاهل؛ بنى أمة واسعة ومن الصحاري القفار بنى أعظم إمبراطورية في التاريخ.
٥ ـ حلمي تجسد في مصر بينما كاد يتحول إلى كابوس في الغرب.

(٢) سورة المعارج، الآيتان: ٦ ـ ٧.

ومن المعلوم أن اليهود والنصارى؛ عجزوا عن تنفيذ ما بقي بأيديهم من أحكام كتابيهم؛ فإنَّ اليهود لا يقتلون الزاني؛ ولا من شتم أباه؛ ولا من أحلَّ السبت. وعجزت النصارى عن تحويل الخدّ الأيسر لمن ضرب منهم الخدّ الأيمن؛ وأبَوْا إلى القصاص؛ بل أكثر منه. وأكبر من ذلك انضراجهم على الزهادة المفروضة عليهم؛ وتكسير أغلالها؛ وفك قيودها؛ والتخلص من أثقالها؛ التي تتفسح منها الأقدام؛ فلجأوا إلى قانون الإسلام وحوَّرُوه؛ واعترف كثير من علمائهم بفضله عليهم. ولئن جحده الكثير؛ فالمثبت مُقَدَّم على النافي؛ وأشعة العلوم الزاهية لم تنتشر في ربوعهم؛ إلّا من إشراق ضيائها بين المسلمين في الأندلس؛ وعدالة الأحكام لم تتمهد في بلادهم؛ إلّا بما اقتبسوه عن مذهب النجم الهادي؛ حسبما قررناه.

ورأيت بعض الباحثين يستشكل رجم الزاني؛ وقطع يد السارق في الإسلام، وقد تحيَّر فيه المعرِّي فقال:

يَدٌ بِخَمسِ مئينٍ عسجدٍ وُدِيَتْ ما بالها قُطِعَتْ في رُبعِ دينارِ
تَنَاقُضٌ ما لنا إلّا السكوتَ لَهُ وَأنْ نَعُوذَ بمولانا من النارِ

فأجابه صديقه القاضي عبد الوهاب المالكي؛ بقوله:

عِزُّ الأمانَةِ أغلاها؛ وأرْخَصَها ذُلُّ الخيانة؛ فافهم حِكْمَةَ البَارِي

ومع هذا فليهدأ بالهم؛ وليفرخ روعهم، فإنَّ في قوله ﷺ: «**ادرؤوا الحدود بالشبهات**» ما يحل العقدة؛ ويكشف الحيرة، إذ لا يُمْكِنْ الرجم ولا القطع؛ إلّا باختيار الفاعل؛ وإقراره المُكُرَّرْ المُفَصَّلْ. ولا إشكال فيمن يرضى على نفسه، أما من لا يُحِبُّ ذلك؛ فلا يلزم عليه؛ لسقوطه بأدنى شبهة. حتى لو زعم السارق أنَّ المسروق ملكه؛ سقط القطع للشبهة؛ وإن كان كاذباً. وكذلك الزاني؛ وإن ثبت زناه بالبيِّنة. على أنه لم يثبت زِناً قط ببيِّنة في الإسلام، وناهيك بما اشتهر من زنا المغيرة بن شعبة بأمِّ جميل؛ فقد شهد عليه ثلاثة من عدول الصحابة؛ بأنهم رأوا ذكره داخلاً فيها؛ كالميل في المكحلة، واندرأ عنه الحد، لقول

الرابع؛ وهو زياد ابن أبيه: رأيته يتفخَّذها وكأنِّي أنظر إلى تشرين جدري بفخذها؛ ورأيت إسْتاً؛ تنبو؛ ونَفَساً يعلو؛ ورجلين كأنهما أذني حمار؛ وليس عندي ما أحقَّ القوم؛ من سلوك ذكره في فرجها. فسقط عنه الحد؛ بهذه الشبهة المؤكّدة للواقع في الجملة. ولقد كان المغيرة واثقاً من السلامة؛ حتى لقد كان رخِيَّ البال؛ ساكن الجأش، وهل يمكن لخائف من الرجم؛ أن يتزوَّج في أثناء قدومه على عمر؛ لولا معرفته بسماحة الدين الإسلامي؛ ويقينه من النجاة. فالإشكال من هذه الناحية؛ مدفوعٌ من أصله. على أنَّ الزناة بمثابة الكلاب العاقرة؛ ومن ذا الذي يرثى لها من الرجم؛ وما بُعِثَتْ الرسل؛ وأنزلت الكتب؛ إلّا لحفظ الكُلِيَّات الخمس؛ وهي: الدين؛ والعرض؛ والروح؛ والمال؛ والعقل. فما يعرض في سبيل ذلك؛ لا بدَّ من إزالته أيًّا كان.

أما القصاص فلا حياة للأمم بدونه؛ كما في تلك الآية؛ التي خرَّت البلغاء سجوداً؛ من أخذها بآفاق البلاغة والبيان، إذ قد اتفقوا على أنها أفضل من قولهم: «القتل أنفى للقتل». وقال الطائي:

وأخافَكُم كَيْ تُغْمِدُوا أسيافكم أنَّ الدَّمَ المُعْتَرَّ يَحْرُسُهُ الدَّمُ

ولذا ترى القتل يكون بكثرة فاحشة في البلاد التي استبدلته بالحبس المؤقت، فأدَّى ذلك إلى اضطراب الأمن وتمرُّد العصاة. إذاً؛ فالقصاص من أفضل محاسن الشرائع، قال في تحفة ابن حجر: روى البيهقي عن مجاهد وغيره: أنَّ شريعة موسى عليه السلام تُحَتِّم القَوْد[1]، وعيسى عليه السلام تحتم الدِّيَة، فخفف الله عن هذه الأمة وخيَّرهم بينهما اهـ.

وقد جزمت في بضائع التابوت[2] بلزوم القَوْد من المسلم للذِّمي، وقررت

---

(١) القود: هو القصاص وقتل القاتل بدل القتيل.

(٢) بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت كتاب تاريخي للإمام في ثلاثة مجلدات من القطع الكبير وما زال مخطوطاً.

ما ذهب إليه أبو حنيفة من ذلك؛ بما يشفي ويكفي، لأنَّ العهود بالاعتبار الأول عند صاحب الشريعة الإسلامية. وقد ورد احترامها في بضع وعشرين آية؛ كما يقوله قتادة السدوسي؛ من الذكر الحكيم. أما قول الأستاذ الحكيم في أول هذا الفصل: وعند ذلك يكون الله قد أتَمَّ نوره.. إلخ؛ فعليه شمَّة أنَّ ذلك لم يقع بعد. ولكن ذهب كثير من العلماء إلى وقوعه فيما سلف؛ وتَوَقُّع عوده؛ حسبما تفرس الأستاذ؛ فيما يأتي، وأنَّى يُنكَرْ وقوعه؛ وقد دخل الناس أفواجاً في هذا الدين القويم؛ وتحقق التمكين الموعود به في قوله جل ذكره: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ﴾[1]. وقد حصل؛ كما قال الشيخ رحمه الله الهندي؛ أنْ سَلَّط الله المسلمين في حياته ﷺ؛ على مكة وخيبر والبحرين ومملكة اليمن؛ وأكثر ديار العرب. وصار إقليم الحبشة دار إسلام؛ بدخول النجاشي في هذا الدين الحنيف. وكان ناس من هَجَر وبعض المسيحيين قبلوا الطاعة وأدّوا الجزية. وفي أيام أبي بكر؛ تَسَلَّط المسلمون على بصرى ودمشق؛ وبعض الديار الأخرى من الشام؛ وعلى بعض ديار فارس. وزاد التمكين في أيام عمر؛ فأخذوا سائر بلاد الشام؛ وجميع مملكة مصر؛ وأكثر ديار فارس. وامتد سلطانهم في أيام عثمان؛ إلى أقصى الأندلس والقيروان غرباً؛ وإلى جدار الصين شرقاً؛ فلم يبعد الطائي عن الصدق في قوله:

فالصِّين منظومٌ بأنْدُلُسٍ إلى ... حِيطَانِ رُومِيةَ فَمُلْكُ ذِمَارِ

وسيظهر الوفاء الكامل للوعد؛ في قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[2] من قريبٍ على ما هو المرجُو إن شاء الله. لكن ربما يكون الوعد منوطاً بِصِحةِ الإيمان؛ الذي تبيَّن تقصير الأمَّة

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

فيه؛ وإلّا فقد قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]؛ ولكنه قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2]؛ فكان مشروطاً بعدم التنازع؛ ولو كان لأحدٍ أن ينصره الله معه؛ لكان أولى الناس بذلك أصحاب رسول الله ﷺ.

ولمَّا حصل عندهم نوع منه في يوم أُحدْ؛ دارت الدائرة عليهم؛ مع أنَّ الوحي ينزل؛ والملائكة في الجناحين؛ وسيد المرسلين ﷺ في الطليعة. ولكن هذا دين التأديب والتهذيب؛ وربط المُسَبِّبَات بالأسباب؛ ولو شاء الله عز وجل؛ أن يحمل أعداءَ نبيِّه على خافية من خوافي جبريل عليه السلام؛ لفعل. ولو فعل لخفَّت المحنة؛ وسقطت الحِكْمَة؛ واتَّكَلَ الناس. فلم يكن الخير إلّا فيما كان. ولله درُّ أبي تمام في قوله:

فَقَسَا لِيَزدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً   فَلْيَقْس أحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

ومن قصيدة لي؛ أرُدُّ بها على بعض الملحدين؛ أقول:

إنَّما التكليفُ ألطافٌ أتَتْ   لِبَنِي الإنسان مِنَ رِبٍّ شفيق

عِندَه سُبحَانَهُ فِي طَيِّهَا   حِكْمةٌ تَعْلو عَلَى الفَهْمِ الدَّقِيقْ

والذي يظهرُ مِنْهَا سَوقَهُمْ   لِسَبيلِ الفوزِ بِالسَّوْقِ الدَّفِيقْ

وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ سَائِرَهُم   وَمِنَ الرَّحْمَةِ إعْدادُ الحَرِيق

وقد أطنبت في الموضوع بغير هذا الكتاب. وإنَّ في هذا لذكرى لأولي الألباب.

* * *

(١) سورة الروم، الآية: ٤٧.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

الفصل الحادي عشر

في البشائر الموجودة في الكتب المقدسة ببعثة نبينا محمد ﷺ

الفصل الحادي عشر: في البشائر الموجودة في الكتب المقدسة ببعثة نبينا محمد ﷺ

■ البشارة الأولى:

جاء في الجزء ١٤ من دساتير؛ وهو أحد الكتابين المقدسين عند الفرس؛ المقرون باسم ساسان الأول؛ بعد ذكر ما يكون في فارس من اختلال النظام وفساد الأحوال؛ ما نص ترجمته هذا: إذا انحط أهل فارس في الآداب (يعني الأخلاق) يولد رجل في بلاد التازيين (يعني العرب) يقلب أتباعه عرشهم (يعني أهل الفرس) ومملكتهم ودينهم؛ وكل شيء؛ وصناديد الفرس وأبطالهم سيغلِبون، والبيت الذي بُنِي (يعني الكعبة التي بناها إبراهيم) وُوضِعَتْ فيها أصنام كثيرة؛ سَينظَّفْ من الأصنام؛ وتستقبله الأمة في صلواتها. وأتباعه سيفتحون مدن فارس وطوس وبلخ؛ ومواضع أخرى عظام حولها، وتقع هوشات واضطرابات في الناس. وحكماء الناس من أهل فارس وغيرهم سيكونون من أتباعه اهـ.

فهذه البشارة صريحة لا تحتمل صرفاً ولا تأويلاً؛ وقد كان متَّى ماهراً في تحريف النصوص من الكتب المقدسة؛ فيحرِّفها؛ ويُلْبِسُهَا معانٍ يخترعها من عنده؛ حتى يجعلها مناسبة لعيسى عليه السلام. وما كاد يسمع بهذه البشارة؛ حتى صاغ أسطورة على عادته، وعبثاً حاول صرفها عن محمد ﷺ؛ فلم يحصل إلّا على الأفن والتكذيب؛ حتَّى من قومه النصارى؛ فتركوها له وحده؛ ولم يشاركه فيها

أحدٌ منهم قط. وكتاب الفارسيين هذا؛ لم يزل في أيديهم يتداولونه؛ جيلاً بعد جيل؛ وقد انتظروا بعثة هذا النبي العربي آلافاً من السنين؛ حتى حقق الله هذه البشارة تماماً؛ بما لا حاجة إلى وصفه؛ لأنَّ ما بين العينين لا يوصف. وقد اعتنى بخدمة الإسلام كثير من الفارسيين؛ ظهر بهم مصداق قوله ﷺ: «**لو كان الإسلام بالثريا لناله رجال من فارس**». وقد ذكر بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾[1]؛ أنَّ البدل من فارس.

البشارة الثانية:

في الباب الأول من سفر الاستثناء: فقال الرب لي نعم جميع ما قالوا؛ وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بني إخوتهم؛ وأجعل كلامي في فمه؛ ويكلمهم بكل شيء آمره به؛ ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي؛ فأنا أكون المنتقم من ذلك.

فهذه البشارة متوجهة إلى نبيِّنا ﷺ. وزعم بعض اليهود أنها بيوشع، وزعم البروتستانت أنها بعيسى. وذلك مردود لوجوهٍ كثيرة، لأن يوشع وعيسى من بني إسرائيل؛ ولا يمكن أن يقوم أحدٌ فيهم مثل موسى؛ لما جاء في الآية العاشرة من الباب ٣٤ من سفر الاستثناء وهي هكذا: ولم يقم بعد ذلك في بني إسرائيل مثل موسى؛ يعرفه الرب وجهاً لوجه (اهـ). فإذا قام أحدٌ مثل موسى بعده من بني إسرائيل؛ لزم تكذيب هذه الآية.

ثم لا مماثلة بين موسى ويوشع، إذ لا شريعة ليوشع؛ وإنما هو خادمٌ لموسى؛ وعلى شريعته. ولا مماثلة بين موسى وعيسى، لأن الثاني لم يكن عبداً؛ بل إلهاً في زعمهم. وفي شريعة موسى: الحدود؛ والتعزيرات؛ وأحكام الغسل؛

(١) سورة محمد، الآية: ٣٨.

والطهارة؛ والمحرمات. ولم يكن في إنجيل عيسى شيء من ذلك. وكانت شريعته موسى عدلية، وشريعة عيسى فضلية، وإنذار موسى بالغنى وحسن الحال؛ وإنذار عيسى بالزهد والتبتُّل. وكان لموسى سيف؛ ولم يكن لعيسى سيف، فلا مماثلة أصلاً. وهذا لا ينافي ما سبق من آيات الإنجيل السابقة؛ في الفصل السابع؛ لأنَّ السيف الذي يريد عيسى عليه السلام أن يلقيه؛ لم يقع في أيامه.

وإنما تتحقق المماثلة بين موسى ومحمد صلى الله عليهم؛ فكُلٌّ منهما (١) عبد الله ورسوله (٢) وذو والدين (٣) وذو نكاح وأولاد (٤) وشريعة كُلٍّ مستقلة؛ ومشتملة على السياسة المدنية (٥) وكون كل منهما مأموراً بالجهاد (٦) واشتراط الطهارة (٧) ووجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء (٨) واشتمال شريعة كُلّ على العبادات البدنية والرياضات الجسمية (٩) وتحريم الربا (١٠) والأمر بالتوحيد الخالص (١١) والموت على الفراش (١٢) والدفن (١٣) والسلامة من الصلب واللعنة؛ ودخول جهنم لأجل الشفاعة[(١)]؛ وغير ذلك. ولذا جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾[(٢)].

وكان من إخوة بني إسرائيل؛ لأنه من بني إسماعيل؛ وأنزل عليه الكتاب؛ وكان أمياً فجعل الله كلامه في فمه؛ فنطق بالوحي كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[(٣)]. وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش؛ ومن الأكاسرة والقياصرة وغيرهم.

وقد جاء في هذه البشارة في الآية ٢٠ منه: فأما النبي الذي يجتري بالكبرياء ويتكلم في اسمي ما لم آمره بأنه يقوله؛ أم باسم آلهةً غيري؛ فليقتل. وهذا تصريح بأن النبيَّ الذي ينسب إلى الله ما لم يأمره به؛ يُقْتَلْ. ولم يُقْتَل

---

(١) أي والسلامة من دخول جهنم لأجل الشفاعة كما سبق من قول النصارى ذلك عن عيسى عليه السلام.

(٢) سورة المزمل، الآية: ١٥.

(٣) سورة النجم، الآيتان: ٣ ـ ٤.

محمد؛ بل عصمه الله من الناس؛ بشهادة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[(١)]. ولا قال على الله ما لم يأمره؛ وقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾[(٢)].

ولو كانت هذه البشارة منصرفة إلى عيسى عليه السلام؛ لدلَّت على أنه كان نبيّاً كاذباً؛ كما زعمته اليهود؛ لأنه قتل وصلب؛ كما تزعمه النصارى؛ وهو مُنَزَّهٌ من جميع ذلك. وقد اعترف اليهود بأنه مُبَشَّرٌ بِهِ في التوراة[(٣)]؛ ولذا أسلم بعضهم؛ وأصرَّ الباقون على الكفر والعناد.

■ البشارة الثالثة:

جاء في الآية ٢١ من الباب ٣٢ من سفر الاستثناء ما نصه: هم أغاروني بغير الله؛ وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة؛ وأنا أيضاً أغَيِّرهم بغير شعب؛ وبشعب جاهل أغيظهم. وكان اليهود يحتقرون العرب؛ لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال؛ ولأنهم من أولاد هاجر؛ وهي أَمَةٌ مملوكة، فمعنى الآية: أن بني إسرائيل أغاروني بعبادة المعبودات الباطلة؛ فأغَيِّرهم باصطفاء المحتقرين الجاهلين؛ فبعث فيهم هذا النبي الكريم؛ كما قال في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(٤)].

■ البشارة الرابعة:

جاء في الباب ٣٣ من سفر الاستثناء؛ ما نص ترجمته: وقال جاء الرب من سيناء؛ وأشرق لنا من ساعير؛ واستعلن من جبل فاران؛ ومعه ألوف الأطهار. في

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤ ـ ٤٦.

(٣) أي نبينا محمد ﷺ.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٢.

يمينه سنة من نار. فمجيئه من سيناء؛ إنزاله التوراة على موسى؛ وإشراقه من ساعير؛ إنزاله الإنجيل على عيسى؛ واستعلانه من جبل فاران؛ إنزاله القرآن. لأنَّ فاران جبل من جبال مكة؛ وقد اعترفوا بأن المراد بمجيئه من سيناء؛ الوحي؛ فلزم مثله في ساعير وفاران.

■ البشارة الخامسة:

جاء في الآية (٢٠) من الباب السابع من سفر التكوين؛ ما نصُّ ترجمته: وعلى إسماعيل استجيب لك؛ هُوَ ذَا؛ أباركه؛ وأكبره؛ وأكثره جداً؛ فسيلد اثني عشر رئيساً؛ وأجعله لشعب كبير. ولم يكن في ولد إسماعيل من كان لشعب كبير سوى محمد ﷺ، وقد قصَّ الله علينا من دعاء إبراهيم وإسماعيل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]. وقد ظهر تصديق هذه الآية في الحس، فإن العرب اليوم يزيدون عن ثمانين مليوناً[2]؛ ويكثرون اليهود بخمسة أضعاف.

■ البشارة السادسة:

جاء في الآية العاشرة من الباب ٤٩ من سفر التكوين ما هذه ترجمته: فلا يزول القضيب من يهوذا؛ والمدبر من فخذه؛ حتى يجيء الذي له الكل؛ وإيَّاه تنتظر الأمم. وقد حصل اختلاف في ترجمة هذه الآية بمعان متفقة وألفاظ متقاربة. ووجه التبشير من هذه الآية: أنَّ اليهود ما زالوا ممتازين محترمين في أقطار العرب؛ وكانوا مستقلين؛ أولي أملاك وحصون؛ كما في خيبر وغيرها؛ إلى أن بُعِثَ محمد ﷺ؛ فأخذ منهم القضيب والمدبر؛ وضُرِبَتْ عليهم الذِّلة والمسكنة؛ واجتمعت الشعوب على محمد ﷺ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٢) بلغ عدد سكان الوطن العربي الكبير في عام ٢٠٠٧: ٣٣٨,٦٢١,٤٦٩ نسمة بينما يوجد في العالم كله حوالي ١٤ مليون يهودياً.

■ البشارة السابعة:

جاء في الزبور ٤٥؛ عدة آيات؛ يُسَلِّم أهل الكتاب أنها بشارة بنبي يأتي بعد زمانه؛ ويَدَّعي علماء بروتستانت أنه عيسى. ويقول المسلمون إنه محمد، لأن الصفات المذكورة في آيات الزبور تنطبق عليه؛ وهي: (١) كونه جميلاً (٢) كونه أفضل البشر (٣) كون النعمة منسكبة على شفتيه (٤) كونه مباركاً إلى آخر الدهر (٥) كونه متقلداً بالسيف (٦) كونه قوياً (٧) كونه ذا حق ودعة وصدق (٨) كون نُبْلُهُ مسنونة (٩) سقوط الشعب تحته (١٠) كونه محباً للبر مُبْغِضاً للإثم (١١) خدمة بنات الملوك له (١٢) إتيان الهدايا إليه (١٣) انقياد أغنياء الشعب له (١٤) كون أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم (١٥) كون اسمه مذكوراً جيلاً بعد جيل (١٦) مدح الشعوب له إلى دهر الداهرين.

وقد اجتمعت هذه الصفات في رسول الله ﷺ؛ على أكمل وجه؛ وأوضح بيان. ولولا خشية الإطالة لذكرنا شواهدها؛ ولكن الحق واضح؛ ولا يطلب على وجود النهار دليل.

■ البشارة الثامنة:

جاء في الزبور ١٤٩ عدة آيات تُبَشِّر بملك يطيعه الأبرار؛ ويشرفهم الله بالخلاص؛ لأنهم متواضعون؛ ولأنهم يفتخرون بالمجد. يحملون السيوف وينتقمون من الأمم؛ ويأسرون الملوك ويصفدونهم بالأغلال والقيود. وهذه الأوصاف لا تنطبق إلّا على محمد ﷺ؛ وعلى أصحابه رضوان الله عليهم.

■ البشارة التاسعة:

جاء في الباب ٤٢ من كتاب أشعيا؛ عدة آيات تشير إلى عبادته على المنهج الجديد في شريعته؛ وإلى عموم رسالته؛ وإلى أنه من ولد قيدار بن إسماعيل؛ وإلى صياح أمته بالتلبية في الحج من رؤوس الجبال؛ وإلى الأذان الذي ينتشر في أقطار العالم بالجهر في الأوقات الخمسة؛ وغير ذلك.

■ البشارة العاشرة:

جاء في الباب ٥٤ من كتاب أشعياء ١٧؛ آية تشير على مكة المشرفة؛ بالتسبيح والتهليل وإنشاد الشكر؛ على ما فضَّلها الله به من أولاد هاجر؛ وشرَّفهم على أولاد سارة؛ ببعثة نبيٍّ منهم؛ خلق لإهلاك المشركين؛ وبما جعل فيها من المعبد الذي لا نظير له في العالم؛ وبشرَّها بالرحمة الأبدية؛ وأنه لا يغضب عليها؛ وأنَّ زرعها يرث الأمم ويعمر المدن؛ وغير ذلك مما ظهرت آثاره بمحمد ﷺ.

■ البشارة الحادية عشرة:

جاء في الباب الثاني من المشاهدات: ومن يغلب ويحفظ أعمالي إلى النهاية؛ فسأُعْطِيه سلطاناً على الأمم؛ فيرعاهم بقضيب من حديد؛ كما تكسر آنية من خزف؛ كما أخذت أيضاً من عند أبي؛ وأعطيه كوكب الصبح من أذن له؛ فليسمع ما يقول الروح بالكنائس.

فهذا الغالب الذي أعطي سلطاناً على الأمم؛ فهو يرعاهم بالقضيب، إنما هو محمد ﷺ؛ وقد سماه سطيح الكاهن: صاحب الهراوة. وقال الفاضل عباس علي الجاجموي(١): قلت للقسِّيسين عند المناظرة: إن صاحب هذا القضيب؛ هو محمد ﷺ؛ وقالا: إنه عيسى بالكنيسة المشار إليها في البشارة؛ فلا بدّ أن يكون ظهور الشخص الموعود به في تلك الناحية. قلت لهم: أيُّ ناحية هي؟ قالوا بعد المراجعة: هي في أرض الروم قريبة من استانبول! قلت: لقد وضح الدليل، إذ قد راح أصحاب محمد ﷺ إلى تلك البلاد وفتحوها؛ ثم تسلَّط عليها المسلمون بعد ذلك، وما زالت القسطنطينية تحت سلاطين آل عثمان إلى الآن. فهذا الخبر صريح في حقِّ محمد ﷺ.

---

(١) من الهند وله كتاب في الرد على النصارى اسمه صولة الضرغم على أعداء ابن مريم. وهو يشبه عندي الشيخ ديدات الهندي الذي اشتهر في العصر الحالي بمناظرة النصارى.

■ البشارة الثانية عشرة:

وهي في آخر أبواب إنجيل يوحنا؛ في الباب ١٤ منه: إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي؛ وأنا أطلب من الأب؛ فيعطيكم فارقليطاً آخر ليثبت معكم إلى الأبد؛ والفارقليط؛ روح القدس الذي يرسله الأب باسمي؛ وهو يُعَلِّمكُم كل شيء؛ وهو يذَكِّركُمْ كل ما قلته لكم، وإذا جاء روح الحق ذاك؛ فهو يعلمكم جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عنده؛ بل يتكلم بكل ما يسمع؛ ويخبركم بما سيأتي.

وقد نقلت هذه البشائر ما عدا الأولى؛ من كتاب إظهار الحق؛ للعلامة الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن؛ بغاية الاختصار. ومن أراد التزيُّد فليرجع إليه؛ فإن فيه ما يلزم الحُجَّة؛ ويوضح المحَجَّة؛ ويدفع الشبهات؛ ويكشف الظلمات. وقد أطال على البشارة الأخيرة الكلام؛ وذكر أنَّ الفارقليط؛ هو اسم محمد؛ وأحمد؛ وأنَّ عيسى عليه السلام كان يتكلم بالعبرانية؛ وقد ترجم النصارى كلامه إلى اليونانية؛ ثم تُرْجِم إلى العربية؛ فإن حصل نوع اشتباه؛ فإنما هو بواسطة الترجمة؛ وإلّا فالبشارة صريحة بمحمد ﷺ.

وكان اليهود والنصارى لِعَهْدِ بَعْثِهْ؛ على قريب من الإجماع في انتظار نبيٍّ يُبْعَثْ؛ ولما وصل كتابه للنجاشي وهو نصراني؛ قال في جوابه: أشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً؛ وقد بايعتك وبايعت ابن عمك؛ وأسلمت على يديه لله رب العالمين.

وقال المقوقس ملك القبط في جوابه لرسول الله ﷺ: لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط؛ سلامٌ عليك؛ أما بعد فقد قرأت كتابك؛ وفهمت ما ذكرت فيه؛ وما تدعو إليه؛ وقد علمت أنَّ نبيًّا بَقِي؛ وكنت أظن أن يخرج بالشام؛ وقد أكرمت رسولك.

وكان الجارود بن العلاء نصرانياً من علمائهم؛ فجاء في قومه على رسول الله ﷺ وقال: والله لقد جِئْتَ بالحقِّ؛ ونطقت بالصدق. والذي بعثك نبياً؛ لقد وجدتُ وصفك في الإنجيل؛ وبَشَّر بك ابن البتول فطول؛ التحيَّة لك؛ والشكر

لمن أكرمك؛ لا أثر بعد عين؛ ولا شك بعد يقين؛ مُدَّ يدك؛ فأنا أشهد أن لا إله إلّا الله؛ وأنك محمد رسول الله؛ ثم أسلم وقومه.

أما البشارة الأولى فقد أخذتها من مقال لمحمد تقي الدين الهلالي[1]؛ نشرته جريدة الفتح الصادرة بالقاهرة في عددها ٣٧٣ بتاريخ ١٢ شعبان من سنة ١٣٥٢ عن مجلة مسلم رفايفل.

■ البشارة الثالثة عشرة:

قال الطيبي؛ ناقلاً عن كتاب البحث الصريح للشيخ زيادة: مما يشهد له ﷺ؛ ما ذكر في تثنية الاشتراع؛ في الإصحاح الثامن عشر؛ والعدد الخامس؛ مِنْ أنَّ سيِّدنا موسى عليه السلام؛ قال لقومه: إنَّ نبيّاً من بنيك ومن إخوتك؛ مثلي؛ يقيمه الرب، ويوضِّحها ما جاء في العدد الثامن منه؛ من قول موسى عليه السلام لقومه: إنَّ الرَّبَّ إلهكم؛ سيقيم نبياً من إخوتكم مثلي؛ فاسمعوا له؛ وكُلُّ نفسٍ لا تسمع لذاك النبي؛ ولا تطيعه؛ تُسْتَأصل تلك النفس من أصلها.

وهذه البشارة دالة على نبيِّنا ﷺ بالمطابقة؛ لأنه من ذرية إسماعيل؛ وهو وذريته؛ يُدْعَوْنَ إخوة لبني إبراهيم، ومعلوم أن إسحاق أبا إسرائيل؛ كان أخاً لإسماعيل؛ ولا مماثلة بين موسى ويوشع؛ ولا بينه وبين عيسى؛ كما سبق في البشارة الثانية.

■ البشارة الرابعة عشرة:

ما جاء في إنجيل يوحَنَّا في الإصحاح الأول والعدد ٢١ من قوله: وأرسل

---

(١) محمد تقي الدين الهلالي (١٣١١ ـ ١٤٠٧هـ) محدث وأديب وشاعر ورحالة مغربي تنقل للدراسة والعمل بين عدد من البلاد وتزوج بها شملت مصر والعراق والهند وفرنسا وألمانيا والسعودية؛ وأقنع هتلر بإذاعة عربية وأدارها له مع يونس بحري وساهم في تحرير بلاده من الاستعمار وفي ذلك يقول:

أعادي فرنسا ما حييتُ وإن أمت ... فأوصي أحبائي يعادونها بعدي

الفريسيون يسألون يوحنا المعمداني قائلين: أَنَبِيٌّ أنت؟ فأجابهم: كلا! فأجابوه: ما بالك تُعَمِّدْ؛ إن كنت لست المسيح؛ ولا إيليا؛ ولا النبي؟ فدَلَّ كلام الفريسيين (وهم علماء اليهود)؛ بمنطوقه ومفهومه؛ أنهم في انتظار ثلاثة نفر عظام؛ بَشَّر الأنبياءُ السابقون بمجيئهم وهم: المسيح، وإيلياء[1]، والنبي عليهم الصلاة والسلام. فسقطت دعوى اليهود؛ بأنَّ المُبَشَّر به في كلام موسى؛ هو يوشع بن نون؛ لأنه لو كان صاحب البشارة؛ لم تنتظر علماء اليهود النبيَّ الموعود به إلى زمن عيسى؛ وتسأل المعمداني (وهو سيدنا يحيى) عنه، وسقطت دعوى النصارى بأنه المسيح؛ لأنَّ عطفه عليه صريح في المغايرة.

■ البشارة الخامسة عشرة:

ما قاله زكريا عليه السلام في الإصحاح الثامن؛ ومعناه بالعربية: يقول الله ربُّ الأجناد: في تلك الأيام يتجمعون عشرة رجال؛ من كل ألسنة الشعوب ويتمسكون بذيل رجل حميد؛ ويقولون: لنذهب معك لأننا سمعنا الله معك.

■ البشارة السادسة عشرة:

ما قاله أشعياء في الإصحاح التاسع؛ والعدد السادس؛ وهو: إنَّ ولداً يولد لنا أُعْطِي لنا؛ وتكون علامة سلطانه على كتفه؛ ويدعي اسمه عجيب؛ مشاوراً طائقاً؛ جبَّاراً؛ أبا الأخير؛ سيِّد السلام؛ ليكثر سلطانه؛ ولسلامه ليس قياس على كرسي داود وعلى مملكته؛ يجلس ليرتبها ويساعدها بالعدل والصدقة. قال الطيبي: إلى غير ذلك مما يدل على نبيِّنا ﷺ؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[2].

وفيما ذكرناه كفاية، إذ الذكي يدرك بالمقال الواحد؛ ما لا يدركه الغبي

---

(١) من أنبياء اليهود الذي ورد ذكره في كتبهم واعتقدوا أنه هو يحيى (يوحنا).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

بألف شاهد. ومن أراد الزيادة فعليه بكتاب «البحث الصريح» للشيخ زيادة رحمه الله[١]؛ فقد استقصي فيه ما يشفي الغليل؛ مع توضيح المعنى وبيان وجه مطابقة الدليل؛ فلا ينبغي إهماله سيّما والفضل للمتقدم اهـ.

وقد تركت كثيراً مما أورده الشيخ رحمه الله في «إظهار الحق»[٢] من البشائر لأنَّ عبارته لم تكن من الجودة؛ بمرتبة عبارة الطيبي والشيخ زيادة؛ فاطَّرَحتُ الكثير النافع بمعناه منها. ولو أنني استعنت في البشارة الثانية بكلام الطيبي لكان أوضح وأفصح؛ ولكن قد مضى الحال بما فيه، وأنا ألخص الآتي عن مقال للعلامة مصطفى الرفاعي اللبان؛ نشرته جريدة الفتح في عددها المشار إليه آنفاً.

■ البشارة السابعة عشرة:

جاء في سفر التكوين ١٢ : ٧: ظهر لإبرام وقال: لِنَسْلِكْ أُعْطِي هذه الأرض. وإبرام هو سيدنا إبراهيم ﷺ؛ والمشهور من أولاده: إسماعيل وإسحاق ﷺ؛ والأرض التي وعد بها نسل إبراهيم؛ هي أرض كنعان؛ التي عرفت بعد باسم فلسطين. وفي هذه الآية بشارة؛ بأنَّ أرض فلسطين ستعطى لنسل إبراهيم؛ فَلْنَرَ ما يقول التاريخ في ذلك:

خرج بنو إسرائيل من مصر إلى فلسطين؛ في عهد منفتاح بن رمسيس الأكبر؛ من الأسرة التاسعة عشرة؛ وذلك في نحو سنة ألف قبل الميلاد أو أكثر؛

---

(١) كتاب «الأجوبة الجلية لدحض الدعوات النصرانية» للشيخ زيادة بن يحيى وكان نصرانياً وأسلم في القرن الحادي عشر الهجري واختصره عبد الرحمن الطيبي وهو من أهل دمشق؛ تعلم بها وبمصر؛ وله إلمام بالهندسة والفرائض؛ ومعرفة بالفقه والأدب وتوفي سنة ١٣١٧هـ.

(٢) كتاب إظهار الحق من أهم الكتب في مقارنة الأديان ومؤلفه الشيخ رحمه الله الهندي الكيرواني؛ وقد رد فيه على مطاعن المستشرقين في الإسلام وقام في الهند بمناظرة المنصرين الإنجليز ومنهم القس فاندر وانتصر عليهم فأرادوا قتله فهاجر إلى مكة واستقر بها وأسس بها المدرسة الصولتية.

ولم يصيروا مالكين فعلاً؛ إلّا في زمن داود عليه السلام؛ واستمر ملكهم الحقيقي سبعين سنة؛ ثم ضعف ملكهم بعد موت سيدنا سليمان عليه السلام؛ وما زالوا في نزاع وخصام مع سكان البلاد الأصليين؛ وطالما أُخْرِجُوا وأُخِذُوا أسَارَى؛ وأفل نجمهم سريعاً؛ وأُجْلُوا أخيراً من ديارهم إجلاءً تاماً؛ وتشَتَّتُوا في أنحاء الأرض. فلم تكن لهم فلسطين إلّا فترة قليلة؛ لم يصح أن تسمّى ملكاً إلّا من قبيل التجاوز. وبأثر جلاء بني إسرائيل؛ صارت فلسطين رومانية عدة قرون؛ إلى أن فتحها العرب أبناء إسماعيل؛ وملكوها ملكاً حقيقياً ثلاثة عشر قرناً؛ لم تخرج عنهم فيها إلّا فترات قصيرة لا تذكر. ولا يزال نسل إسماعيل هو المالك عليها؛ رغم الانتداب البريطاني؛ وإقحام اليهود بالقوة الزائلة إن شاء الله تعالى.

فإن كان في هذه الآية جزء من البشارة لليهود؛ فللعرب أربعة عشر جزءاً؛ بنسبة زمان الملك، والعرب هم المسلمون الذين اتبعوا النبي الأمين ﷺ؛ فالآية بشارة صريحة به ﷺ. وهذا الكلام جيد؛ لا ألاحظ عليه؛ إلّا أنه سلك السلطنة العثمانية؛ التي امتدت قروناً؛ في سمط السلطنة العربية؛ بجامع الإسلام؛ الذي أشار إليه بالآخرة في قوله: والعرب هم المسلمون. ولولا بحث العرب عن حتفهم بأظلافهم؛ واختلافهم مع الترك؛ الذين كانت دولتهم أهون شراً؛ وأكثر خيراً بكثير من سابقاتها؛ لما نازلهم الانتداب؛ وها هم أولاء اليوم؛ يذوقون من جَرَّائه شديد العذاب[1].

■ البشارة الثامنة عشرة:

جاء في السفر نفسه (١٦ : ٩ وما بعدها): فقال لها (والضمير لهاجر):

---

(١) يبين الإمام هنا رأيه المعروف عنه في مناصرته الدولة العثمانية وعدائه لتدخل الأجانب في شؤون المسلمين وقد كان مناصراً للأتراك أثناء الحرب باغضاً لمن خالفهم؛ رغم بسط الإنكليز نفوذهم على بلده؛ وخطر ذلك عليه؛ حتى أنهم وضعوا جائزة لمن يغتاله؛ كما كان من المعارضين للثورة العربية التي قال عنها بأنها دسيسة أجنبية وقد بيّنت الأيام صحة رأيه.

ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك؛ واخضعي تحت يديها؛ وقال ملاك الرب: تكثيراً أكثر نسلك؛ فلا يعد من الكثرة؛ وقال ملاك الرب: ها أنتِ حُبْلَى فتلدين ابناً؛ وقد عيَّن اسمه إسماعيل؛ لأنَّ الربَّ قد سمع مَذلَّتِك؛ وأنه يكون إنساناً وحشياً؛ يده على كلّ واحد؛ ويد كل واحد عليه؛ وأمام جميع إخوته يسكن.

السيدة هاجر امرأة مصرية؛ أهداها فرعون إلى سيدنا إبراهيم؛ إكراماً له؛ وترضيةً عما اقترفه من التعرض لسارة؛ ولما رأت سارة عقم نفسها؛ أذنت للخليل أن يتسرَّاها؛ فلما حملت؛ عَوَّلَتْ على طردها؛ وقد بشرها الله بأنها تلد إسماعيل؛ وأنه يكثر نسله حتى لا يُعَدْ؛ وأنه يكون وحشياً؛ صاحب حرب وصيد وحزم وقوة؛ وأنه يسكن أمام إخوته. وقد أصهر إلى جُرْهُمْ[1] أمراء مكة المشرفة؛ وبقي نسله في منعةٍ وعزة؛ في الوقت الذي يلاقي فيه نسل إسحاق سائر المتاعب. وما طمع أحدٌ في أخذ استقلال الحجاز؛ حتى كان ختم ذلك مِسْكاً؛ برسالة محمد ﷺ؛ وامتد سلطانه حتى دخلت فيه فلسطين؛ التي طرد منها نسل إسحاق. فهذه الآية بشارة ناصعة بنبُوَّة محمد ﷺ. ويأتي هنا كل ما قيل في مدح البادية؛ وهو الشيء الكثير؛ ومنه قول ابن الرومي:

هَذَا أَبُو الصَّقرِ فَرْداً فِي مَحَاسِنِهِ ... منْ مِثلِ شَيبَان بينَ الضال والسلمِ

وقول المعرِّي:

الـمُوقِدُونَ بنجدٍ نَارَ بَادِيَةٍ ... لا يَحْضُرُون وفَقْدُ العِزِّ فِي الحَضَرِ

وقد أطلت القول عليه في (العود الهندي)؛ وذكرت ما تقول ألسنة الشرع من التفصيل.

■ البشارة التاسعة عشرة:

وفي السفر نفسه (١٧ : ٧ وما بعدها): وأقيم بيني وبينك عهداً أبدياً؛

(١) جرهم قبيلة يمنية قديمة من حمير وقيل من عاصرت النبي إسماعيل وقد تزوج منهم.

لأكون إلهاً لك؛ ولنَسْلِكَ من بعد؛ وأعطي لك؛ ولنسلك من بعدك؛ أرض غربتك؛ كل أرض كنعان ملكاً أبدياً؛ وأكون إلههم.

وهذا العهد من الله؛ لأن يعطي إبراهيم ونسله أرض كنعان ملكاً أبدياً. وشرط الملك استطاعة التصرف في المملوك؛ ولن تكون البشارة صادقة؛ إلّا إذا شملت أبناء إسماعيل، وإلّا لم تكن البشارة صادقة؛ لأنَّ ملك بني إسرائيل لا يتجاوز سبعين عاماً؛ ثم كانت الاضطرابات مستمرة والخصومات دموية. فلا مفرَّ عن اعتبار البشارة عامة لأبناء إبراهيم؛ لأنها تصدق على العرب الذين ملكوا فلسطين؛ أكثر من عشرة قرون؛ لا على اليهود الذين لم يتحقق ملكهم عليها؛ أكثر من سبعين سنة؛ فعلى من البشارة أصدق؟ والمسلمون هم أتباع محمد ﷺ؛ فهي من جملة البشارات.

■ البشارة العشرون:

جاء في الإصحاح (٢١: ١٣): وابن الجارية أيضاً؛ سأجعله أمّة لأنه نسلك. هذه البشارة شبيهة سابقاتها؛ ولا ينقص من قدر إسماعيل؛ كونه ابن جارية.

■ البشارة الحادية والعشرون:

ما جاء في الإصحاح نفسه الآية (١٧) وما بعدها: فسمع الله صوت الغلام؛ ونادى ملاك الله هاجر من السماء؛ وقال لها: ما لك يا هاجر لا تخافي؛ لأنَّ الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو؛ قومي احملي الغلام؛ وشدِّي يدك به؛ لأني سأجعله أمَّةً عظيمة.

وفي هذه الآية كالثامنة عشرة؛ مزية عظمى لهاجر؛ وتصريح بالوحي لها؛ مع أنه لم يُوحَ إلى سارة؛ فليس في ولادتها لسيدنا إسماعيل إلّا مزيد التشريف له.

هذه نبذة من البشائر؛ الموجودة إلى اليوم؛ في كتب أهل الكتاب؛ ولولا أنهم عَمُوا عما فيها من الحق الصريح؛ لأتْبَعُوهَا؛ بما كتموه من أخواتها التي لا

تحصى بالمئات. وقد جاء في التوراة التصريح؛ بماد ماد؛ وهو اسم محمد ﷺ؛ كما صرَّح به القاضي عياض في الشفاء.

ومعاذ الله أن نحاول إثبات نبوة سيِّد البشر من هذه البشائر، لأن ثبوتها قد ارتكز على أرسخ الأركان؛ وأركن الدعائم؛ كما قلت في نهج البردة:

أَحْيَت نفوسَ الوَرَى بِالعِلمِ بَيِّنةٌ ... غَرَّاءَ جِئتَ بِهَا عَنِ بَارِئِ النَّسَمِ

أَضْحَتْ شَواهِدُهَا للغيِّ دامغة ... تَفْتَرُّ أنْوارُهَا بِيضاً بَلا لَثَمِ

بَلاغَةٌ أزْعجَتْ شُمَّ المَصَاقِعِ عَنْ ... لِينِ المَضَاجِعِ مِنْ وَهْمٍ ومِنْ حلمِ

وعِنْدَمَا سمعوها مُرْغَمينَ هووا ... لهَا سُجُوداً مِنْ الإجلالِ والعِظَمِ

تَبَيَّنُوا الحقَّ لكنْ كَابَرُوه وَمَا ... كَانَ ابنُ آمنةَ فيهِمْ بِمُتَّهَمِ

وَحَاوَلُوا أنْ يُغطُّوا نُورَ مِلَّتِهِ ... وَمَا الصَّبَاحُ لِذِي عَينٍ بِمُنْكَتِمِ

وأفْرَغوا الجهْدَ فِي تَكذِيبِ حُجَّتِهِ ... والأمرُ أظْهَرَ مِنْ نَارٍ عَلى عَلَمِ

غَذِيٌّ صِدْقٍ يَتَيمٌ مَا تَلا كُتُباً ... يَأتِي بِمُعْجِزَةِ الأجْيَالِ وَالأمُمِ

أنَّى يُكَدِّرُهُ رِيبٌ وَيُعْجِبُنِي ... فِي البَحْثِ فَصْلٌ لمُفْتِي دَارَةِ الحِكَمِ

وَذَلكَ الفَصْلُ مَأخُوذٌ بِرِمَّتِهِ ... مِنْ قَولِ بُرْدَةِ مَدْحِ الطَّاهِرَ الشِّيَمِ

كَفَاكَ بِالعِلمِ فِي الأمّيِّ مُعْجِزَةً ... فِي الجَاهِليةِ وَالتَّأدِيبِ فِي اليُتِمِ

والبَيْتُ مِن آيَةٍ تُنفِي التِّلاوَةَ مِنْ ... قَبْلِ النُّبَوَّةِ والتَّخْطِيطِ بِالقَلَمِ

وَلَوْ تَقَدَّمَ عَنْهَا مِنْهُمَا أثَرٌ ... إذاً لأرْجَفَتِ الأعْداءُ بِالتُّهَمِ

والفصل الذي إليه الإشارة؛ هو ما جاء في رسالة محمد؛ من رسالة التوحيد؛ لمفتي مصر الأستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده، ودارة الحكم؛ هي مصر.

وإنما الغرض من إيراد هذه البشائر؛ أنها بقيت موجودة بأيدي أهل الكتابَيْن إلى اليوم؛ لم يهتدوا إلى حذفها ولا إلى تحريفها، لِمَا أراد الله من تكذيبهم

بأنفسهم؛ ولو أنهم تفطَّنوا لما فيها؛ لمحوها ولو بمياه عيونهم. وكيف يُتَصَوَّر أن يُقَالْ إنهم أقاموا التوراة؛ وهي أصل المسيحية؛ والإنجيل وهو كتابهم الرسمي؛ وقد كذَّبُوا بما يتلى فيهما إلى اليوم؛ من تلك البشائر الناصعة؛ وأمثال أمثالها؛ على حين أنهم يعرفونه؛ كما يعرفون أبناءهم.

أخرج ابن هشام؛ عن ابن إسحاق؛ عن عاصم بن عمر بن قتادة؛ عن رجال من قومه؛ قالوا: إنَّ مما دعانا إلى الإسلام؛ مع رحمة الله وهداه؛ أنَّا كُنَّا أهل شرك وأوثان؛ وكانت اليهود أهل كتاب؛ عندهم ما ليس عندنا من العلم؛ وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرورة؛ فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون؛ قالوا لنا: إنه قد تقارب زمانُ نَبِيٍّ يبعث الآن؛ نقتلكم معه؛ قتل عاد وإرم. فكُنَّا كثيراً ما نسمع ذلك منهم؛ فلما بعث الله رسوله ﷺ؛ أجبناه؛ وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به؛ فبادرناهم إليه؛ فآمنَّا به وكفروا به؛ ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

وقد أسلفنا هذه الآية الكريمة في عداد الآيات من الفصل الثاني. وأخرج عنه بسنده إلى سلمة بن سلامة بن وقش؛ وكان ممن شهد بدراً؛ قال: كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل؛ فخرج علينا يوماً من بيته؛ حتى وقف على بني عبد الأشهل؛ وأنا أحْدَثُ من فيهم سناً؛ فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار؛ فقالوا: ويحك أَوَتَرَى هذا كائناً؟ قال: نعم؛ والذي يحلف به؛ ليود؛ أنَّ له بحظه من تلك النار؛ أعظم تَنُّور؛ يحمونه ثم يدخلونه إياه؛ ثم يطيفونه عليه؛ بأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: فما آية ذلك؟ قال: نَبِيٌّ مبعوث من نحو هذه البلاد؛ وأشار بيده إلى مكة واليمن. فقالوا: ومتى تراه؟ قال: فنظر إليَّ وأنا أحدثهم سناً؛ فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره؛ يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً ﷺ؛ وهو حَيٌّ بين

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

أظهرنا؛ فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً؛ قال: فقلنا له: ويحك يا فلان؛ ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى؛ ولكن ليس به.

وأخرج عنه؛ عن عاصم بن عمر بن قتادة؛ عن شيخ من بني قريضة؛ قال: قال لي: هل تدري عَمَّ كان إسلام ثعلبة بن سعية؛ وأسيد بن سعية؛ وأسد بن عبيد؛ نفر من بني هدل؛ إخوة بني قريضة؛ كانوا معهم في جاهليتهم؛ ثم كانوا سادتهم في الإسلام؟ قال: قلت: لا؛ قال فإن رجلاً من يهود أهل الشام؛ يقال له ابن الهبيان؛ قدم علينا قبل الإسلام بسنين؛ فحلَّ بين أظهرنا؛ لا والله ما رأينا رجلاً أفضل منه؛ فأقام عندنا؛ فكنا إذا قحط منا المطر؛ قلنا له: اخرج يا بن الهبيان فاستسق لنا؛ فيقول: لا والله حتى تقدِّموا بين يدي مَخْرَجَكُم صدقة! فنقول له: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر أو مُدَّين من شعير، قال: فنخرجها؛ ثم يخرج بنا إلى ظاهر حَرَّتِنا فيستسقى لنا؛ فوالله ما يبرح من مجلسه حتى تمر السحابة وَنُسْقَ. وقد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً؛ ثم حضرته الوفاة عندنا؛ فلما عرف أنه ميِّت؛ قال: يا معشر يهود؛ ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: أنت أعلم! قال: فإنِّي إنما قدمت هذه البلدة؛ أتوكف خروج نبيٍّ قد أظل زمانه؛ وهذه البلدة؛ مهاجره؛ فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه. وقد أظلكم زمانه؛ فلا تُسْبقنَّ إليه يا معشر يهود؛ فإنَّه يبعث بسفك الدماء؛ وسبي الذراري والنساء ممن خالفه؛ فلا يمنعنكم ذلك منه. فلما بُعِثَ رسول الله ﷺ؛ وحاصر قريضة؛ قال هؤلاء الفتية (وكانوا شباباً أحداثاً): يا بني قريضة؛ والله أنه للنبِيِّ الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهبيان، قالوا: ليس به، قالوا: بلى؛ والله إنه لهو بصفته؛ فنزلوا وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم. قال ابن هشام؛ قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود اهـ.

وأقول: إنَّ الأخبار من هذا النوع؛ تخرج عن حدّ التواتر المعنوي؛ وقد مرَّ لمخيريق ذكر في الفصل الرابع، وكان حبراً عالماً كثير المال من النخل؛ وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته؛ وغلبت عليه أُلْفَةُ دينه؛ فلم يزل على ذلك؛ حتى كان يوم أُحد؛ وكان يوم السبت؛ فقال: يا معشر اليهود؛ والله إنكم لتعلمون أنَّ نصرَ

محمَّدٍ عليكم لَحَقٌّ! قالوا: فإن اليوم يوم سبت! قال: لا سبت؛ ثم أخذ سلاحه وخرج؛ حتى أتى النبيَّ ﷺ بأُحِدْ؛ وعهد إلى من ورائه من قومه: إنْ قُتِلْتُ هذا اليوم؛ فمالي لمحمد؛ يصنع فيه ما أراه الله تعالى. فقاتل حتى قُتِل؛ فكان رسول الله ﷺ يقول: «**مخيريق خير يهود**» وقبض أمواله؛ فعامَّةُ صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها. وعن أبي هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ بيت المدراس(١)؛ فقال: اخرجوا إليَّ أعلمكم، فقالوا: هو عبد الله بن صوريا؛ فخلا به رسول الله ﷺ؛ فناشده بدينه؛ وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم؛ من المن والسلوى؛ وظللهم من الغمام: أتعلم أنِّي رسول الله؟ قال: اللهم نعم؛ وإنَّ القوم يعرفون ما أعرف؛ وإنَّ صِفَتَك ونَعْتَكْ لمُبَيَّنٌ في التوراة؛ ولكن حسدوك. قال: فما يمنعك أنت؟ قال: أكره خلاف قومي؛ عسى أن يتبعوك ويسلموا؛ فأسلم. وعن صفية بنت حُيَيْ؛ رضوان الله عليها؛ قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة؛ ونزل قباء؛ غدا عليه أبِي؛ حُيَيْ بن أخطب؛ وعَمِّي أبو ياسر بن أخطب؛ مُغَلِّسِين(٢)؛ فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس؛ فأتيا كَالَّيْنِ؛ كسلانين؛ ساقطين؛ يمشيان الهوينا؛ فهششت إليهما؛ فما التفت إليَّ أحدٌ منهما؛ مع ما بهما من الهم؛ فسمعت عمِّي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ (يعني المبشر به في التوراة) قال: نعم والله، قال أتثبته؟ قال: نعم؛ فقال: في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بَقِيت.

وأخرج ابن هشام؛ عن ابن إسحاق؛ قال: اجتمع أربعة نفر نجيًّا عند صنم من أصنامهم؛ يُعَظِّمُونه وينحرون له، وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل. وتعاهدوا على أن يتصادقوا؛ ولا يكتم بعضهم بعضاً شيئاً؛ فقال بعضهم لبعض: والله ما قومكم على شيء؛ يطيفون بحجر؛ لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع؛ فالتمسوا لأنفسكم. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفيَّة، فأما ورقة فاستحكم في النصرانية؛ وكان من تصديقه

(١) بيت المدراس: هو بيت يدرس فيه اليهود التوراة.
(٢) الغلس: ظلمة آخر الليل اذا اختلطت بضوء الصباح.

لرسول الله ﷺ؛ عند بدء الوحي؛ ما هو معروف في الصحيح. وأما عبد الله بن جحش؛ فأقام على ما هو عليه من الالتباس؛ حتى أسلم وهاجر إلى الحبشة؛ ففارق الإسلام؛ ومات نصرانياً. وأما عثمان بن الحويرث؛ فقدم على القيصر وتَنَصَّر؛ وحسنت منزلته عنده؛ وله خبر طويل.

وأما زيد بن عمرو؛ فكان يقول: يا معشر قريش؛ والذي نفسُ زَيْدٍ بيده؛ ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري! ثم يقول: اللهم إنِّي لو أعلم أيَّ الوجوه أحبُّ إليك؛ عبدتك به؛ ثم يسجد على راحته؛ وله في ذلك أشعار كثيرة. ثم خرج يطلب دين إبراهيم؛ ويسأل الأحبار والرهبان؛ حتى بلغ الموصل والجزيرة، ثم أقبل وجال الشام كلها؛ حتى انتهى إلى راهب بميفعة من أرض البلقاء؛ كان ينتهي إليه علم النصرانية فيما يزعمون؛ فسأله عن دين إبراهيم؛ فقال له: ما أنت بواجِدٍ من يحملك عليه اليوم؛ ولكن قد أَظَلَّ نبيٌّ؛ يخرج من بلادك التي خرجت منها؛ يبعث بدين إبراهيم؛ فالحق بها؛ فإنه مبعوث الآن؛ هذا زمانه. وكان زيد قد شام اليهودية والنصرانية؛ فلم يرض شيئاً. فخرج حين ما قال له الراهب ما قال؛ سريعاً يريد مكة؛ حتى إذا توسط بلاد لخم؛ عَدَوا عليه فقتلوه؛ فرثاه ورقة بن نوفل بما هو معروف.

وأخرج ابن هشام عن ابن إسحاق؛ أنه كان موجوداً في الإنجيل قول عيسى عليه السلام: من أبغضني فقد أبغض الرب، ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي؛ ما كانت لهم خطيئة، ولكن من الآن بطروا؛ وظنوا أنهم يعزُّونني؛ وأيضاً للرب؛ ولكن لا بدَّ من أن تتم الكلمة التي في الناموس؛ أنهم أبغضوني مجاناً؛ فلو قد جاء؛ المنحمنا؛ هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب؛ روح القدس؛ هذا الذي من عند الرب؛ إذا خرج فهو شهيد علي؛ وأنتم أيضاً؛ لأنكم قديماً كنتم معي في هذا؛ قلت لكم؛ لكيما تشكوا.

والمنحمنا بالسريانية؛ محمد؛ وهو بالرومية الفارقليط؛ ﷺ؛ فقد أخذ الله الميثاق على كُلِّ نبيٍّ بعثه قبله؛ بالإيمان به؛ والتصديق والنصر له على من خالفه؛ وأخذ عليهم أن يؤدُّوا ذلك؛ إلى كُلِّ من آمن بهم وصدقهم؛ فأدَّوا من ذلك ما

كان عليهم من الحقّ فيه، وقال جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[١].

وقد سبق عن القاضي عياض؛ أن اسمه ﷺ؛ مادماد. وقد بدا لي أن أذكر عبارته بنَصِّها؛ قال: ومن أسمائه في الكتب ﷺ: المتوكل، والمختار، ومقيم السنة، والمقدس، وروح القدس، وهو معنى الفارقليط في الإنجيل؛ وقال ثعلب: الفارقليط هو الذي يُفَرِّق بين الحق والباطل. ومن أسمائه في الكتب السالفة: مادماد؛ ومعناه طيِّبٌ طَيِّبٌ؛ وحطيا، والخاتم، والحاتم؛ حكاه كعب الأحبار. قال ثعلب: فالخاتم الذي ختم الأنبياء، والحاتم؛ أحسن الأنبياء خلقاً وخلقاً؛ ﷺ اهـ.

والشوط بطين؛ والشأو بعيد؛ والفضاء واسع؛ والبحر عميق. وما أدري أيرجع المؤلِّف[٢]؛ وفقنا الله وإيَّاه؛ بعد هذا؛ إلى الصواب؛ ويرجع عن قوله: بإيمان اليهود والنصارى اليوم؛ على حالهم؛ أم يصر ويقول: معزى وإن طارت[٣].

■ دفع شبهة، وتأكيد حجة:

ربما يشكل على من لا رويَّة عنده؛ عدم اطلاع سلمان الفارسي على البشارة الأولى؛ مع أنها بشارة كتابه؛ ونتيجة علم قومه؛ فكيف خَفِيَتْهُ؛ مع شِدَّة تطلُّعِه؛ وكثرة تشوُّقِه؛ حتى طاف البلاد؛ وتقلَّب في الأخذ عن الأساقفة؛ إلى أن انتهى إلى صاحب عمُّورية؛ فقال له: أي بني؛ والله ما أعلم؛ أصبح اليوم أحد على مثل ما كُنَّا عليه من الناس؛ آمرك به أن تأتيه؛ ولكن قد أظَلَّ زمان نبيٍّ؛ هو

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) مؤلف كتاب توحيد الأديان.

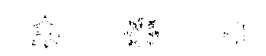
(٣) مثل معناه الاستمرار على الخطأ مع بيان الحق وقد سبق شرحه.

مبعوث بدين إبراهيم؛ يخرج بأرض العرب؛ مهاجره إلى أرضٍ بين حرَّتين؛ بينهما نخل؛ به علامات: يأكل الهديَّة ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة؛ فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فأفعل.

والجواب: اندفاع الأشكال من أصله؛ بما جاء في قصته؛ من قول أبيه له: دين آبائك خير من دين أصحاب الكنيسة؛ فقلت له: كلا؛ فلما خافني؛ جعل في رجلي قيداً.

فمن انتهى به الخوف من تعلُّم ابنه؛ إلى أنْ قَيَّدهُ؛ كيف يُمَكِّنه من الاطلاع على تلك البشارة؛ التي فيها سقوط دينه؟؛ والله أعلم.





الفصل الثاني عشر

الفصل الثاني عشر

قد فرغت من بيان كفر أهل الكتاب؛ وحكم من شكَّ فيه، وخرجت من إثبات الحجة؛ بأنَّ أهل الكتاب لم يتم إيمانهم بكتبهم؛ لجحودهم ما فيها من البشائر بمحمد ﷺ؛ فضلاً عما يدَّعيه المؤلِّف من كونهم مؤمنين؛ وأنهم ناجون؛ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ولو أن المؤلف دعا إلى التسامح والتصالح؛ والتعاون على ما يعمر البلاد ويفيد العباد؛ ويكون سياجاً للأمن والعدل؛ ومنجى من الفساد؛ لكان الأمر ممكناً؛ لأن الإسلام لم يجرح خاطر أحد بِذَمِّ نبيِّه؛ والغضِّ من زعيم دينه؛ بل جاء بتصديق جميع الأنبياء؛ والثناء عليهم؛ والشهادة لهم بأداء الأمانة؛ وتبليغ الرسالة على أحسن وجه وأتم حال؛ ولأنه لا يأبى الصلح الشريف، وقد قال جلّ ذكره؛ في سورة الأنفال: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]. وكان من المكارم التي بعث لإتمامها ما انطوى عليه قول زهير:

وَمَنْ يَعصِ أطرافَ الزُّجَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ العَوَالِي ركبَّتْ كُلَّ لَهْذَمِ

بل قد أجاب قريشاً ومن لفَّهم؛ إلى صلح الحديبية؛ وفي ظاهره الغبن؛ حتى لقد تذمر منه ابن الخطاب، ولكن كان في طيِّه اختلاط المسلمين بالمشركين؛ فعرفوا من نواميس الدين؛ ما لا يبقى معه الجحود إلّا للمعاندين؛

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

فصحَّت تسميته بالفتح المبين. وقد استدل الأستاذ الحكيم على تسامح الإسلام، بقول أحد مؤرخي الأمريكان (واسمه درابر): إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء؛ لم يقتصروا في معاملة أهل العلم؛ من النصارى النسطوريين؛ ومن اليهود؛ على مجرد الاحترام؛ بل فوَّضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام؛ ورقُّوهم إلى المناصب في الدولة؛ حتَّى إن هارون الرشيد؛ وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه (هو حنا ابن ماسويه الشهير)، وبقوله أيضاً: كانت إدارة المدارس مفوَّضة؛ مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء؛ إلى النسطوريين تارة؛ وإلى اليهود أخرى. ولم يكن يُنْظَرْ إلى البلد الذي عاش فيه العالم؛ ولا إلى الدين الذي ولد فيه؛ بل لم يكن يُنْظَرْ إلّا إلى مكانته من العلم والمعرفة. ثم ذكر الأستاذ طائفة ممن حظِيَ من الأجانب لدى خلفاء الإسلام.

وفيه من الدلالة؛ على أن الإسلام رحب الجانب؛ واسع الفناء؛ سهل الشريعة؛ ما لا مزيد عليه. ولكن يعلم الله؛ هل كان داربر يقول ذلك؛ عن طبيعة خاطر؛ وسلامة نيَّة؛ أو يريد به غشَّ المسلمين؛ واستغواء المخدوعين منهم؛ حتى يلقوا إليهم بأزِمَّة التعليم؛ فيتمكنوا من إضلال أبنائهم؛ أو تنصيرهم كما يشاؤون، فإنَّ الخلفاء إنما كانوا يعتمدون على أهل الكتاب؛ في التعليم وغيره من الأمور المهمة؛ إنْ صَحَّ ذلك؛ عند القوَّة؛ والثقة بالتمكن من إبعادهم عند أية تهمة تحوم عليهم. أما عند الضعف؛ فلا يمكن مثل ذلك؛ لأنَّ فيه خروج الأمر عن الضبط. ولقد كان ابن الخطاب يولِّي بعض الفجرة الأقوياء؛ ثِقَةً؛ بأنَّ رجله على أصمختهم؛ ويستبر من أخبارهم في كل ممسى ومصبح؛ كأنما يبيت مع أحدهم في فراش واحد؛ فيكونون نعمةً عليه؛ له قُوَّتُهُمْ وعليهم فجورهم. وقد أراد عثمان أن يتقيَّل هذه الآثار؛ ويتخذ له مبرراً من صنيع ابن الخطاب؛ فوقع فيما لا تحمد عقباه.

وما عن تقصير أخَّرت بعض ما أريد ذكره؛ عن سماحة الدين الإسلامي؛ من السُنَّة المطهرة؛ ولكن ليكن ختم ذكره مسكاً. فقد أخرج الطبراني في الكبير؛ وأبو يعلى في مسنده؛ عن ابن عباس؛ قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ الأديان أحب؟

قال: «**الحنيفة السمحة**». أقول ومصداقه قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[١] وقوله في المائدة: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[٢]. وأخرج الطبراني وأبو يعلى أيضاً؛ أنه ﷺ؛ قال: «**أيها الناس إن دين الله عز وجل في يسر، يقولها ثلاثاً**». وفي الحديث المتفق عليه: «**يَسِّرا ولا تُعَسِّرَا**». وقوله: «**الدين يسر؛ ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلّا غلبه**»، ومر في الفصول السابقة من هذا النوع؛ ما لا حاجة معه إلى الإسهاب. وأما النصارى؛ فلما جبلهم الله عليه من محبَّة المؤمنين؛ واطِّراح الكبر؛ ولِمَا بناهم عليه من الرأفة والرحمة؛ حسبما مرَّ في غير هذا الفصل؛ من سورتي المائدة والحديد.

أما التسامح بيننا وبين اليهود؛ فإنه كالمُتَعَسِّرْ؛ إن لم يكن بالمُتَعَذِّرْ؛ لغِلِّ قلوبهم؛ وضِغْنِ صدورهم؛ واندماجهم على اللؤم؛ كما سبق في الفصل السابع. وقد جاء في الخبر المرفوع: «**ما خلا يهودي بمسلم قط إلّا همَّ بقتله**». هذا فيما بيننا وبينهم، أما فيما بينهم وبين النصارى؛ فالغل القمل والجرح الذي لا يندمل. وهل يمكن للنصارى أن يغُضُّوا الطرف عنهم؛ ويطووهم على غرهم؛ والحال أنهم يستهلون بأنَّ عيسى عليه السلام؛ ولد بغيّة؛ وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم؛ كما سبق في البشارة الثانية؛ من الفصل الحادي عشر: إنَّه كان كاذباً؟ هذا والله ما لا تبرك عليه الإبل؛ ولا يُسَلِّم به من يعقل. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٣].

ومع ذلك فإن اليهود لا يزالون يبتغون للنصارى الغوائل؛ ويحفرون لهم الحفائر؛ ويتربصون بهم الدوائر؛ ويدبِّرون لهم الضرَّاء؛ ويفتلون لهم في الذرى والغوارب؛ وإنما كان الأمر كما قال سديف:

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٣.

ذُلَّهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ مِنْهَا وَبِهَا مِنْكُمُ كَحَزِّ المَوَاسِي

وكم قال المتنبي:

أبْدَى العِدَاةُ بِكَ السُّرورَ كأَنَّهُمْ فَرِحُوا وَعِنْدَهُمُ المُقِيمُ المُقْعَدُ

ولقد أخطأ النصارى خطأً فاحشاً؛ وأساؤوا إلى المسيح وإلى العذراء؛ إساءة لا ينالها التكفير؛ ولا يؤثر فيها التعميد؛ بتقريبهم من المناصب؛ وتقديمهم في المراتب، أفكان ذلك طمعاً في أموالهم التي تكبروا بها حتى على مولاهم؛ كما في الآية ١٨١ من آل عمران السابقة في الفصل الثاني؟. وكيف يكون ذلك؛ والنصارى على ثروة ضخمة؛ قد ألقوا بأيديهم على ناصية الزمان؛ وعركوا أذن الدهر، والله جل شأنه يقول للفقراء من المسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟[1].

أفيحسب النصارى؛ أنَّ اليهود نسوا ما صار عليهم من قسطنطين؛ قبل الهجرة بثلاثة مائة سنة؛ من قطع آذانهم؛ ثم طردهم؟ وما كان في القرن المسيحي الخامس؛ من طردهم؛ وهدم كنائسهم؛ ومنع عبادتهم؛ وإبطال شهادتهم؛ وقتل الكثير منهم؛ ونهب الأموال جميعاً.

ولم يكف ملك الملوك الرومي ارتكاب ذلك منهم؛ حتى هيَّج عليهم ولاة الممالك الأخرى؛ فتحملوا من آسيا إلى أقصى أوروبا. ثم كُلِّفُوا قبول المسيحية في فرنسا وإسبانيا؛ كما نقله الشيخ الهندي رحمه الله؛ عن رجال اليهود.

ثم نقل عنهم؛ أن الكاثوليك كانوا يسمونهم كفاراً؛ ويجرون عليهم أحكاماً قاسية. منها انتزاع أولادهم ليتربوا في المسيحية؛ ونُقِلَ عنهم: أن اليهود أُجْلُوا من فرنسا سبع مرات؛ وأنَّ اليهود الذين أجلوا من إسبانيا؛ لا يقلون عن مائة ألف وسبعين ألف بيت. وقتل منهم ونهب؛ في النمسا؛ العدد الكثير؛ وما نجا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

إلّا الذين تنصروا. وكان الإنكليز اتفقوا على ظلم اليهود؛ فقتلوا أنفسهم؛ وصاروا أذِّلاء في هذه المملكة؛ يقتلونهم وينهبونهم؛ إلى آخر ما أسهب فيه من ذلك القبيل؛ وهو في الصفحتين ٢٠٤ و٢٠٥ من الجزء الثاني من إظهار الحق.

أفَيَتَوَهَّمْ النصارى أنهم نسوا تلك الأحقاد؛ وأنها استحالت الصهباء؟ لا والله؛ وإنَّ تحت الرماد لوميض نار؛ وإن الحسائك لترامي بالشرار[١]. وهل من بغضاء أكبر من قذفهم للصديقة مريم العذراء؛ المبرأة في كتاب الله العزيز؛ الذي لم يأت ببراءة أحد من النساء سواها؛ وسوى عائشة الصديقة؟

فلينظر الناظر؛ فرقان ما بين المسلمين واليهود؛ في العواطف والنيَّات نحو مريم ابنة عمران عليها السلام؛ التي أحصنت فرجها. وايم الله؛ ليلاقُنَّ منهم يوماً عصيباً؛ إن لم يخنقوا الشرَّ في مهده؛ ويُعِدُّوا للأمر عدَّتُه؛ وينتبهوا له قبل وقوعه؛ وينظروا إلى دسائهم بعين الحزم والحذر. وسيذكروا ما أقول لهم؛ والله عليه وكيل. فإني لم أقله إلّا من العيون الصافية؛ ولم أستَقِهِ إلّا من الينابيع العذبة الباردة؛ ولم أُعَوِّل فيه إلّا على الآيات المقدسة[٢]؛ التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وفي حفظي من زمن بعيد؛ بالواسطة عن التلمود (وهو كتاب ألّفه فقهاؤهم؛ أعني اليهود بالتدريج؛ جيلاً بعد جيل؛ كالتفسير للتوراة؛ حتَّى انتهى حجمه إلى نصف حمل بغل؛ وكانوا يزعمون أنهم يسمعون صوت الإلهام؛ إذا اختلفوا عند تأليفه؛ يقول لهم: إنَّ الحق مع فلان) أنْ قد جاء فيه ما معناه: إنَّ الله سخر لنا هذين النوعين من الخلق؛ وهم النصارى والمسلمون؛ حلالٌ لنا دماؤهم وأموالهم. نأخذها بأيِّ حيلة؛ وننتزعها بأيِّ وسيلة؛ نهباً؛ أو سرقة؛ أو غيلة؛ أو سمًّا؛ أو اختلاساً. وعلينا أن نساترهم العداوة؛ ونظهر لهم الصداقة؛ ونعمل

(١) لا زالت كتب المؤلفين من مشاهير النصارى تصدر وتظهر فيها العداوة الشديدة لليهود ومن أمثلتها كتاب اليهودي العالمي لهنري فورد وغيرها كثير.

(٢) من القرآن الكريم.

على كل ما يضرُّهم في الأموال والنفوس؛ ونأمر بناتنا بالتحرُّش بهم؛ حتى يقدِرْنَ على شيءٍ من أموالهم وأرواحهم. أو ما يقرب من هذا على قاعدة (إذا لم تغلب فاخلب).

وعلى بعضه شاهد عندنا من كتاب الله تعالى؛ حيث يقول في سورة آل عـــمـــران: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١]. وما أظن شيئاً مما في تلمودهم يخفى على النصارى؛ وهم قد فتَّشوا سمع الأرض وبصرها؛ حتى تطلعوا إلى اكتشاف النجوم؛ واعتزموا الرحلة إلى بعض السيَّارة. وإذا كانوا يعرفون ذلك؛ وهم على ما هم عليه من إدناء اليهود وموالاتهم، فما هو إلّا خطبٌ إد؛ وإشكال عويص؛ يتعذَّر حله على المنطق. وما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن؛ ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

أما ما يكرره المؤلف في غير موضع من كتابه؛ من عدم إمكان تأكد السلام في الأرض إلّا بالوازع الديني، فهو الذي أنطقني الله به من قبله؛ حسبما سمعت فيما مرَّ عن نهج البردة في الفصل العاشر، إذ الدين وحده هو الذي يعرف بالغاية من الإيجاد؛ ويقرر الصلة بين الخلق وبين الذي أوجده؛ ويُعَرِّف كل واحد بما يلزمه لنفسه وأهله؛ وعدوِّه وصديقه؛ ووطنه؛ وخاصة الناس وعامتهم؛ وهو الذي يرشده إلى سياسة الشهوات؛ وزَمِّها بزمام العقل؛ وإبقاء ثنيه في يديه، إذ الإنسان مملكة تامة بمفرده؛ تضمُّ من الشهوات المختلفة أحزاباً؛ ومن الرغائب المضطربة أفواجاً. وما يريش جناح الفتن؛ ويستورى زناد الشرور؛ كالانشقاق الداخلي، ولم نر أُمَّةً قط انهزمت انهزاماً فاضحاً؛ إلّا من تلك الناحية[٢]، وأنَّى يُتَصَوَّرْ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

(٢) كأنما الإمام يستشف من قبل سبعين سنة ما سيحدث في هذه السنوات في العالم العربي من الاضطراب والفوضى وسقوط الحكومات ولولا أن الوازع الديني بقي يزم الأمور ويكبت الشهوات ويحفظ الأموال ويصون الأعراض لانتهى الأمر إلى فساد كبير وشر مستطير.

الإصلاح في الخارج؛ بدونه في الداخل؛ وفاقد الشيء لا يعطيه.

ومن هنا ينفتح باب واسع؛ لا ينبغي أن يكون ضميمة إلى غيره، بل لا بدَّ من إفراده بمقال فضفاض؛ من لسان نضناض[١]. فلزم العود على البدء؛ من استحالة اندفاع البوائق؛ وانكفاف الطوارق؛ إلّا بالدِّين، إذ لا يمكن بسواه ضم الشت؛ ونظم الشمل؛ ومعاذ الله أن يؤتمن من لا عدالة له في دينه. وليت شعري؛ هل لِمَا يسمونه مجلس الأمن اليوم؛ التفاتٌ إليه؛ وتعويلٌ عليه؛ أم؛ لا؟ فإن كانت الأخرى؛ فما هو إلّا على شفير شَرٍّ هائل، وهلاك عاجل، وعناءٍ وبؤس، وحربٍ ضروس، وإن توَهَّموا أنهم يحسنون صنعاً. وإن كانت الأولى؛ فأحرَّ بأن تخمد النائرة[٢]، وتسكن الثائرة؛ نوعاً ما، إذ لا يستحيل ذلك؛ وإن اختلفت الأديان؛ لأن الأصول كما تقرر؛على اتفاق.

وَلَكِنْ فِطَامَ النَّفْسِ أثْقَلُ مَحْمَلاً مِنَ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ حين تَرُومَهَا

وعند وجود شيء من الإنصاف؛ يعفو ما تعذَّر، ويَسْهُل ما توعَّر. أمَّا مع عدمه؛ فلا.

فَلَمْ تَزَلْ قِلَّةَ الإنْصَافِ قَاطِعَةً بَيْنَ الرِّجَالِ وَلَو كَانُوا ذَوِي رَحِمِ

ولشدّ ما أحكم المتنبي نسجه؛ وأبدع نظمه؛ فصار أحقَّ به من الأول؛ الذي يقول:

إذَا أنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الهُجْرَانِ إن كَانَ يَعْقِلُ

ولئن دلَّت الآيات والأخبار على امتناع ذلك كله الآن؛ فليست بالمانعة من بعضه؛ ونحن مع النصارى واليهود وغيرهم؛ على اتفاق؛ في انتظار الشخص الذي تنتهي به الحروب؛ وترتفع الشحناء؛ ويفيض العدل؛ وتضع كل ذات حِمَّة حمَّتها؛ وتطبع السيوف سككاً؛ والرماح مناجل. إلّا أنَّا مختلفون في تعيين

(١) أي متحرك كناية عن الفصيح.

(٢) النائرة: العداوة والشحناء.

الاسم، والخطب إذاً يسير؛ والتقارب من اليوم غير عسير.

وَمَا الحَرْبُ إلّا مَا عَلِمتُم وَذُقتُمُ   وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيثِ المُرَجَّمِ

فَإنْ تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً   وَتَضْرَمُ إن أَضْرَمْتُمُوهَا فَتضَرَمِ

وسأختم هذا الفصل بقصيدة في ذلك؛ أنشأتها في ٢٩ من شوال سنة ١٣٦٥؛ تحوي جملة من الحقائق؛ المستنتجة من التنزيل والسنة الثابتة.

ولقد تقدم إليَّ؛ أحد الشبان المتنورين في تريم؛ بسؤال؛ قبل أن تنشب الحرب الأخيرة بنحو من ثمانية أشهر؛ فأمليت عليه الجواب؛ بشرط أن يبادر بنشره؛ فلم يَفِ بوعده؛ بل أضاعه، ولو شئت لسمَّيته.

وملخص السؤال: هل تكون حرب أم لا؟ ومن معنى الجواب:

إنَّ الأوروبيين انتهوا من حصافة العقل؛ ورجاحة الرأي؛ وغزارة العلم؛ إلى ما لا غاية بعده؛ وهم أحرص الناس على السِّلْم؛ لئلا تصاب مدائنهم الزاهية؛ ومصانعهم العامرة؛ بشيء من الأذى والتخريب، وظنِّي أن لو طلبت منهم قارة من الذهب التبر؛ في سبيل التفادي من الحرب؛لنجعوا بها طيِّبَةً نفوسهم؛ باردةً خواطرهم؛ ولكن لا بدَّ من قوع الحرب. ومتى وقعت؛ فسينال الغادي والرائح؛ والقاعد والقائم؛ منها شرٌّ كثير، ولكنه رخيص بالنسبة إلى ما يقع إزاءه؛ من طمأنينة القول بالإيمان بوجود الصانع الحكيم؛ الذي إذا أراد أمراً؛ سلب ذوي العقول عقولها؛ حتى تصبح مختارة لما قضاه عليها؛ مما يصادم ألبابها؛ ويخالف تدبيرها. ويُرَكِّب فيها من شهوات الانتقام؛ ما يُغَطِّي على سرائر العقول. فترى الذين يسهرون على الأمن؛ ويحافظون على السلام؛ ويبذلون جهدهم في نشر الإخاء؛ كيف يخرجون عن طباعهم؛ فيلبسون جلود النمور؛ ومخالب النسور. وتستحيل رأفتهم غِلْظَة وقسوة؛ فلا يفكرون إلّا في اختراع الآلات لحصد الأرواح؛ وإيتام الأطفال؛ وهدم المدائن؛ وتحريق العمائر؛ كتلك الرعناء التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

فإذا وقعت هذه الحرب؛ فلتزدادوا إيماناً بالله وعلماً؛ بأنَّه لا يقدر أحد على

أن يُدَبِّر لنفسه؛ وإن الحكم لله العليِّ العظيم، وقد قال من لا يرقى إليه الطير: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ. . .﴾[١].

وقال القطامي:

وَمَا يَعلمُ الخيرَ امرؤٌ قبلَ أنْ يَرَى وَلا الشَّرَّ حتَّى تَسْتَبينَ دَوَائِرُه

نعم والله؛ لا بُدَّ من نشوب حربٍ طاحنة؛ لا ينجو الغالب منها؛ إلّا بجريعة الذقن[٢]. والأدلة على ذلك قائمة[٣].

أمَّا من كتاب الله تعالى فقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[٤]. فبمجرد نزولها؛ عرف ﷺ أنه نُعِيَتْ إليه نفسه؛ فودَّع الناس. وكذلك عرف أذكياء الصحابة؛ رضوان الله عليهم؛ أنها أمارة وفاته ﷺ. وهل بقي في نضارة العمارة؛ وغضارة الحضارة؛ في القارة الأوروبية اليوم؛ قيد شعرة من النقص؛ حتَّى تحتاج إلى التمام والكمال؟ كلا؛ وليس بعد ذلك إلّا الانهيار والاندثار[٥].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) أفلت بجريعة الذقن: من الأمثال العربية؛ ومعناه: أفلت بما بقي من روحه أو بعد إشرافه على الهلاك.

(٣) يظهر لنا من كلام الإمام هنا؛ بعد نظره؛ وثاقب رأيه؛ ودقة فهمه؛ وحكمة سياسته؛ في استنباطه الأسباب المانعة للحروب ومعرفته الأسباب المؤدية للحروب ولم أقرأ مثل هذا الكلام الحكيم من قبل؛ ولم أسمع شخصياً بمثله؛ وهو شاهد على عبقرية هذا الإمام حيث لا يقول مثل كلامه هذا إلّا من كان يعيش في قلب أحداث العالم؛ بينما هو يعيش في عزلة عن العالم؛ في حضرموت أكثر بلاد الدنيا عزلة عن أحداث العالم في ذلك الزمن.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٥) يشبه كلام الإمام هنا نظرية نهاية التاريخ لفوكاياما ولكن بمفهوم إسلامي مختلف؛ فهو يعتقد أنَّ في تمام كل شيء بداية نهايته وقد دلّل على كلامه بعدة شواهد كما أن لابن خلدون كلاماً مشابهاً في مقدمته وقد أثبتت الأيام فشل نظرية فوكاياما وصحة المفهوم الإسلامي.

وأمَّا من السُّنَّة فما صَحَّ أنَّه ﷺ؛ كانت له ناقة لا تُسْبَقْ؛ فجاء أعرابي على قعود له؛ فسبقها. ولما عرف النبي ﷺ الكراهية في وجوه الأصحاب؛ قال لهم: «**حَقٌّ على الله؛ ما رفع شيئاً من أمر الدنيا إلّا وضعه**». وما سمع الناس بمثل الارتفاع الدنيوي الذي انتهت إليه الديار الأوروبية؛ اليوم؛ فلا بدّ ضربة لازب من الاتِّضَاع[١]. وأما من أمثال الناس فقولهم:

إذا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقْصُهُ ... تَوَقَّع زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمْ

وقول أبي العتاهية: أَسْرَعَ في نقضِ امرئٍ تَمَامُه.

وقول المعرِّي:

إذَا كُنْتَ تَبغِي العِزَّ فَابْغِ تَوَسُّطاً ... فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ المُتَطَاوِلُ

تُوَقَّى البُدُورُ النَّقْصَ وَهِيَ أَهِلَّةٌ ... وَيُدْرِكُهَا النُّقْصَانُ وَهْيَ كَوَامِلُ

والشواهد عليه كثيرة جداً.

وأما من الطبيعة التي لا تتبدَّل؛ والسُّنَّة التي لا تتغيَّر؛ فهو أنَّ كُلَّ ما لا يطير من الحيوان؛ إذا أراد الله إهلاكه؛ خلق له أجنحة فطار؛ كالأرضة وأنواع النمل. قال عبد الحميد الكاتب[٢]: لو أراد الله بالنملة صلاحاً؛ لما جعل لها جناحاً، وقال أبو نواس:

وإذَا اسْتَوَتْ لِلنَّمْلِ أجْنِحَةٌ ... حَتَّى يَطِيرَ فَقَدْ دَنَا عَطَبُهْ

وحكم الله في بريته واحد، وقد طار الإنسان؛ فاقتضت سُنَّةُ الله؛ التي لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً؛ أنْ يهلك. فإذا تَرَكَّب القياس من المقدمات

---

(١) كما توقع الإمام قبل سبعين سنة بدأنا نشاهد في هذه الأيام بوادر التضعضع على الأمم الأوروبية في الشؤون الاقتصادية والصناعية؛ وغيرها من مظاهر القوة. بينما نشاهد ارتفاع الأمم التي كانت مستضعفة مثل الهند والبرازيل والصين وماليزيا.

(٢) عبد الحميد الكاتب من مشاهير الكتاب فارسي الأصل عربي النشأة عمل كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ثم قتله العباسيون مع هذا الخليفة. اشتهر برسائله البليغة.

الصحيحة؛ كانت النتيجة لا محالة الهلاك[١].

وَلا عِلْمَ لِي بِالغَيْبِ إلّا طَلِيعَةٌ مِنَ الرَّأيِ لا يَخْفَى عَلَيهَا المُغَيَّبُ

نسأل الله أن يلطف بنا في قضائه؛ وأن يعافينا من بلائه. ومما أجازني فيه بعض علماء اليمن؛ هذا الدعاء؛ فأنا أكرره في هذا الموضع:

(يا رب يا رحيم؛ يا رب يا رحيم؛ ألطف بي في قضاك؛ ولا تجعل أمري لأحدٍ سواك؛ حتى ألقاك). هذا ما بقي بالذكر من الجواب؛ والله أعلم بالصواب.

وربما يقول قائل: إنَّ ما وُصِفَ به النصارى في سورتي المائدة والحديد؛ إنما كان قبل انفصالهم عن دينهم؛ أما الآن فلا؟ **فالجواب**: قد يكون ذلك؛ لكن الحسَّ يشهد ببقائه؛ وإن انحرفوا عن دينهم؛ على شيءٍ منه؛ وقد ظهر أثره وقتما اشتدَّت المجاعة بحضرموت. ولا يزال أخذهم بناصر الحرث؛ الذي لولاه لاقشعَرَّ النخل؛ وصوَّح الزرع إلى اليوم[٢]. أما نقصانه؛ فلا شك أنه من آثار انسلالهم لواذاً عن دين المسيح، ولله في خلقه شؤون.

■ وهذه هي القصيدة (٣):

اليومَ قد وَضَعَتْ أوْزَارَهَا الفِتَنُ فَهَلْ تَجَلَّتْ وَوَلَّت إثْرَهَا المِحَنُ

---

(١) وقد ترتب على طيران الإنسان؛ واستخدام الطائرات في الحروب؛ إهلاك أعداد كبيرة من البشر؛ كما يتسبب سقوط الطائرات المدنية في إهلاك مجموعات من البشر.

(٢) قامت السلطات البريطانية بمشروع لتشجيع الزراعة بحضرموت أثناء الحرب العالمية أو بعدها وجلبت المضخات الزراعية وأعطت القروض للمزارعين ووفرت ورشة لصيانة المضخات كما قامت بعملية الإرشاد الزراعي للمزارعين.

(٣) وردت القصيدة في الأصل كاملة بحواشٍ سفلية مطولة وقد ارتأيت أن أوقف الاسترسال في القصيدة وأورد الشرح ثم أستكمل الأبيات وهكذا أعمل كلما ورد تعليق على الأبيات في حاشية سفلية مطوَّلة. وقد قال هذه القصيدة بمناسبة انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة ١٣٦٥هـ.

واليومَ عِيدُ سُرُورٍ بَالسَّلامِ فَهَلْ يَدُومُ ذلكَ أم يَلْوِي بِه حَزَنُ
غَيْبٌ بِهِ استَأثَرَ البَارِي وَلَيْسَ لَهُ مَدَى تُطِلُ عَلَى مَكْنُونِهِ الفِطَنُ
لَكِنَّ تَفصَيلَ مَا يَأتي بِأجْمَعِهِ كَمِثْلِ مَا مَرَّ فِي التَّنْزِيلِ مكتَمِنُ
وَفِي لَوائِحِه قُربٌ لِمُلْتَفِتٍ بالسَّمْعِ إنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ دَرَنُ
وَقَدْ تَقَرَّأتَهُ فِي القُرْبِ فَانكَشَفَتْ لِي مِنْ خَفَايَاهُ مَا مِثْلِي بِهِ قَمِنُ
قَدْ جَاءَ فِي الرَّعْدِ أنْ لا بُدَّ مِنْ حَدَثٍ لِلْمُلْحِدِينَ قَرِيبٌ مَسُّهُ خَشِنُ

الإشارة بهذا إلى آخر الآية (٣١) من الرعد وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ونحوها الآية ٧٣ من المائدة وهي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أضف إلى هذا ما سبق من جوابي؛ عن وقوع الحرب الأخيرة؛ قبل أن تكون؛ فإنَّ التدليل بما فيه باقٍ على الصلوحية.

وَغيرَهَا قَالَ إنَّ الحَرْبَ وَاقِعَةٌ وَالانْهِزَامُ لِمَنْ مَعْبُودُهُ وَثَنُ
أنَّى يَبُوحُ لَظَاهَا وَهْيَ كَامِنَةٌ وكُلُّ صَدْرٍ مِن القُوَّادِ مُضْطَغِنُ
لَئِنْ تَجَلَّتْ غُيُومُ الحَرْبِ وَانكَشَفَتْ فَلِلْسيَاسَةِ أيضاً عَارِضٌ هَتِنُ
وَلا سَلامَةَ وَالأحْشَاءُ مُوغِرَةٌ مِنَ الحَسَائِكِ تُذْكِي نَارَهَا الإحَنُ
وَلا نَجَاةَ وَأطْمَاعُ الرُّؤوسِ فَشَتْ وَعِلَّةُ الرَّأسِ مَوفٌ لَهَا البَدَنُ
فَالنَّاسُ مِنْ أمْرِهِمْ هَذَا عَلَى وَجَلٍ لأنَّ هُدْنَتَهُمْ مِنْ تَحْتِهَا دَخَنُ
وَلَنْ تُقَلَّم أظْفَارُ الشُّرُورِ بِلا دِينٍ فَلا مَعْقِلٍ يُغْنِي وَلا جَنَنُ
وَقَدْ تَفَسَّخَتْ الألبَابُ مِنْ نَبَأٍ كَأنَّمَا الطِّفْلُ مِنْ أهْوَالِهِ يَفِنُ

قَذِيفَةٌ تَنْسِفُ الدُّنْيَا رَوَاجِعُهَا   إنْ طَالَ فِي صُنْعِهَا للصَّاغَةِ الرَّسَنُ[(١)]
وَلا سَبِيلَ إِلَى تَحرِيمِهَا بِسِوَى   عَهْدٍ وَثَيقٍ مِنَ الإِيمَانِ يُؤتَمَنُ
لا كَهْفَ إلَّاه واقٍ مِنْ فَجَائِعِهَا   إنْ قَدَّسُوهُ عَلَى قَانُونِهِمْ أمِنُوا
لا يَحْسِمُ الدَّاءَ إلَّا الاعتِقَادُ مَتَى   أَرْسَى الدَّعَائِمَ طَابَ العَيْشُ وَالزَّمَنُ
وَكُلُّ دِينٍ وإنْ طَالَتْ طَوائِلُهُ   غَيْرِ المَسيحِيِّ وَالإسْلام يُمْتَهَنُ
أمَّا هُمَا فَإلى يَوْمَ القِيَامَةِ وَالدُّنْيَـ   ـا لِمَلْكَيهما أصقَاعِهَا وَطَنُ

أما بقاء الإسلام محفوظاً إلى يوم القيامة؛ فالأدِّلة عليه تفوت الحصر، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، والحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما؛ من طرق كثيرة: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله**»، وألفاظهم متقاربة، وفي رواية لمسلم وأحمد: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق إلى يوم القيامة فينزل عيسى ابن مريم؛ فيقول أميرهم: تعال فصلِّ بنا؛ فيقول: لا إنَّ بعضكم على بعض أمير**».

وأما الدين المسيحي فشاهده ما أخرجه مسلم في صحيحه؛ عن المستورد القرشي؛ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**» فقال له عمرو بن العاص: أبصر ما تقول! قال: أقول ما سمعته من رسول الله ﷺ، قال لئن قلت ذلك؛ إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة عند مصيبة، وأوشكهم كرَّة بعد فرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف؛ وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك.

هَذِي حَقَائِقُ مِنْ فَحْوَى الكِتَابِ وَمِنْ   قَوْلِ النَّبِيِّ فَلا وَهْمٌ ولا ظَنُّ
وَقَدْ تَفَرَّسْتُ لِلْحَرْبِ التِي سَكَنْتْ   فَجَاءَ مَا قُلْتَ حَقاً مَا بِهِ أفَنُ

(١) يشير هنا إلى القنبلة الذرية التي ألقيت على اليابان في نهاية الحرب العالمية ويبيّن في الأبيات التي بعدها أنه لا يقي من شرها ويحرم استعمالها مرة ثانية إلّا الإيمان والدين.

مِـنْ آلِ عِـمْـرَان قَـدْ بَـيَّـنـتُ غَـايَـتَـهَـا   أَيَـامَ تَـغْـرَقُ فِـي أثْـبَـاجِـهَـا الـسُّـفُـنُ

(١) وخبر ذلك؛ أنَّ الضابط السياسي إنجرامس[1]؛ وهو الآن حيٌّ يرزق؛ تردَّد عليَّ أيام سطوة الألمان؛ وهبوب ريحهم؛ وتَغَلبهم على أكثر القارة الأوروبية؛ وإثخانهم في البحر والبر، وقال لي: ما رأيك في هذه الحرب؟ فقلت له: أكُلٌّ النازيون الذين يَشِبُّونها مسيحيين أم ملحدين؟. قال: بل ملحدون؛ وقد تمرَّدُوا على النصرانية؛ وتبرأوا منها، قلت له: إذاً فأنا وَكُلُّ مسلم نعدك وعداً صادقاً؛ نشهد شهادة الحق عليه؛ بأنْ ستدور عليهم الدائرة، لأن الله جل شأنه يقول في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[2]. والمقصود هنا من الاتِّباع؛ الكافي للنسبة إلى المسيحية؛ وإن لم يكن إلّا اسمياً فقط؛ فلا يخالف ما ننكره من الإيمان الكامل؛ الذي لا بدَّ له من العمل بسائر مقتضياته؛ التي منها الاعتراف بنبيِّنا؛ والجري على ما بُشِّروا به منه في كتابهم، إذ تلك حقيقته؛ التي لا يوجد مثلها حتَّى عند المسلمين؛ باعتبار دينهم. ولقد صدق عليهم من أزمان الحديث المتفق عليه: «**لتتبعن سنن من قبلكم؛ يعني اليهود والنصارى؛ شبراً بشبر وذراعاً بذراع**»[3] أو ما يقرب منه.

---

(١) هارولد انجرامس داهية من دواهي الإنجليز خبر حضرموت وأهلها وطباعها وتاريخها وثبَّت عليها السيادة البريطانية وتولى السلطة الحقيقية في الدولتين الكثيرية والقعيطية وأخضع قبائل حضرموت لمشيئة بريطانيا وكان في حضرموت عام ١٩٣٤ وكان يزور الإمام ابن عبيد الله ويحترمه لكن لم ينصفه فيما بعد في كتبه كعادة الأجانب والمستشرقين.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٣) (حديث مرفوع) حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْنُ يَحْيَى، ثنا ابْنُ مَرْيَم، أنبا أَبُو غَسَّان، حَدَّثَنِي زَيْد بْنُ أَسْلَم، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدَرِي، أَنّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ؟**». (من كتاب السنة للمروزي عن موسوعة الحديث).

ولقد نجمت في الإسلام أضاليل وأباطيل؛ يُتَبَرَّأُ منها. ولولا ضيق الوقت؛ لزدت فصلاً؛ أصف به ما طار في نصيب بلادنا؛ من لقاح الرهبانية؛ ومتاجرة منتحليها بالمغفرة؛ والدرجات العُلَى؛ وفتنة أتباعهم. بما يتذمر له الإسلام؛ ويملأ قلبه غيظاً؛ ويحشو صدره قيحاً. فإنك لترى أحدهم؛ إذا اجتهد في الحَلْف؛ حلف بمتبوعه منهم؛ فلا يحنث إذاً ولا يكذب؛ ولكنه يحنث ويكذب إذا حلف بالله. وإنهم ليطلبون من مشايخهم؛ دون الله: غفر الذنوب؛ وستر العيوب؛ وتيسير الأرزاق؛ وما أشبه ذلك. وما علموا أن أئمتهم من القَسَسْ[1]؛ قد دُفِعُوا عن هذه السلطة، فما لهؤلاء في تأريبها وتأكيدها؟

ولكن قد أدركني الملل ولحقتني السآمة؛ وفي منثوري ومنظومي ما يقوم بذلك. فلقد وقفت نفسي عليه قبل العشرين؛ وها أنا قد ذرفت فيه على الستين. فلا بلاغ إلّا بالله؛ فأسأله الثبات إلى الممات؛ على أحسن خاتمة وأقوم سبيل.

وما تزال طوائف الحلفاء مع تمرُّدِهم على أوامر الكنائس؛ يرعون ذمامها؛ ويعتقدون حرمتها. ولقد قرأت قصة تتويج عاهل الإنكليز الحالي[2]؛ فتندَّى خَدِّي؛ لأنها دينيَّة محضة.

ومن هذه التعليقات الثلاثة؛ ينتصب أيضاً دليل على قولي: «وغيرها قال إنَّ الحرب واقعةٌ» إلخ.. إذ قد غاب عن فكري الآن؛ الدليل الذي بنيت عليه البيت؛ والحفظ يخون؛ لا سيَّما لمن وقف مثلي على منصف دقاقة الرقاب. فلقد صرت أتلعثم في الشاهد؛ الذي كنت أمر فيه مرَّ السهم؛ ثُمَّ لا تنطلق به لساني؛ إلّا إذا عدت ما قبله بإدراج؛ فقاتل الله ابن الرومي؛ لكأنَّمَا لحظني بطرف الغيب؛ إذ يقول:

(١) أعتقد أنه يقصد القسس الذين كانوا يمنحون النصارى صكوك الغفران بمقابل كبير ثم اختفوا مع ظهور النهضة بأوروبا.

(٢) الملك جورج السادس والذي تولى بين ١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ وعاصر الحرب العالمية الثانية وله بنتان مرجريت والثانية إليزابيث التي هي ملكة بريطانيا الحالية وقد حضر حفل تتويجه عدد من زعماء العالم ومنهم السلطان القعيطي.

وَتَــالٍ تَــلا يــومــاً فَــأُنْــسِــيَ آيَــةً فَـأَعْـيَـتْ عَـلـيـهِ حِـيـنَ رَامَ انْـتِـهَـازَهَـا
فَـكَـرَّ عَـلـى مَـا قَـبْـلَـهَـا مُـتَـدِّبـراً فَـثَـابَ لَـهُ فِـكـرٌ فَـأَفْـضَـى حِـجَـازَهَـا
فَـشَـبَّـهْـتُـهُ بِـابـنِ الـسَّـبِـيـلِ تَـعَـرَضَـتْ لَـهُ وَهْـدَةٌ فَـاسْـتَـصْـعَـبَـتْ حِـيـنَ رَازَهَـا
فَقَهْقَرَ عَـنْـهَـا قَـيْـسَ عِـشـرِيـنَ خُـطْـوَةٍ فَـجَـاشَ إِلَـيْـهَـا جِـيـشَـةً فَـأَجَـازَهَـا

نعم؛ جاء أنَّ الأمم تجتمع قبيل قيام الساعة على عيسى؛ وتكون كلها أمة واحدة دينها الإسلام؛ وهذا لا ينافي ما نقول به من بقاء المسيحية إلى يوم القيامة؛ لأنها إنما انجلت من الشوائب؛ وصفت من الكدورات؛ ولبست بردها الطاهر القشيب. وعليه دليل من كتاب الله جلَّ وعلا وهو قوله في سورة النساء: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1]. وأيضاً فزمانه قصير جداً؛ لا يُعَدُّ شيئاً مذكوراً؛ بالنسبة لما سبقه من الاختلاف. ولهذا لا يخرم شيءٌ منه؛ ما سبق في المقدمة؛ والفصل العاشر؛ ولا يُغَبِّر عليه، ولأنه يعقبه شرٌّ كبير؛ بشهادة ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن مسعود مرفوعاً؛ ولفظ الأول: «**من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء**»، ولفظ الثاني: «**لا تقوم الساعة إلّا على شرار الخلق**». وقد مرَّ في الفصل العاشر؛ حديث مسلم؛ في الريح الليِّنة التي تقبض روح كلّ مؤمن. وله في آخر حديث النواس ابن سمعان الطويل؛ في قصة الدجال وعيسى ويأجوج ومأجوج: «**إذ بعث الله ريحاً طيبة فتقبض روح كلّ مسلم ومؤمن؛ وتبقى شرار الناس؛ يتهارجون تهارج الحمر؛ فعليهم تقوم الساعة**». ولمسلم أيضاً: «**لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله**». وهو عند أحمد أيضاً بلفظ: «**لا تقوم الساعة على أحد يقول لا إله إلّا الله**».

والجمع بينها؛ وبين حديث: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة**»، السابق ذكره عن الصحيحين؛ وغيرهما؛ ظاهر. لأنَّ هذا من

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

أشراط الساعة؛ فهو مثل قيامها؛ وبمثله نقول في اجتماع الأمم على عيسى عليه السلام. ومن الأحاديث الواردة بشأنه في الصحيحين؛ قوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً؛ فيكسر الصليب؛ ويقتل الخنزير؛ ويضع الجزية؛ ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**». وفي حفظي عن بعض روايات مسلم ما معناه: «**ويطوف الأرض ويترك القلاص**»(١)، إشارة إلى استغنائه عنها بنحو الطائرات. وفيها أيضاً: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم**».

أما المهدي؛ فقد جمع السيوطي من أحاديثه؛ وأوعى بما يتعذر معه العد؛ ولولا اختلافها في الوصف؛ لانتهت إلى التواتر المعنوي؛ أو زادت عليه. ولا شيء منها في الصحيح(٢)؛ ولم أر فيها ما يصرِّح باجتماع الخلق عليه؛ أُمَّةً واحدة مسلمة، ولكن في حديثٍ عن عليٍّ: بنا يصبحون بعد عداوة الفتنة إخواناً؛ كما أصبحوا بعد عداوة الشرك إخواناً في دينهم. وفي آخرَ عن أبي هريرة: «**لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتي؛ فيضربهم حتى يرجعوا إلى الحق**». وفي آخرَ عن حذيفة: «**حتى يملك رجل من أهل بيتي تجري الملاحم على يديه ويظهر الإسلام**». وفي آخر: «**يستخرج الكنوز ويفتح مدائن الشرك**». وفي آخر: «**يقوم بالدين في آخر الزمان؛ كما قمت في أول الزمان؛ ويملأ الأرض عدلاً؛ كما مُلِئَتْ جوراً**». وفي آخر: «**وتستقيم له البلدان ويفتح الله على يديه القسطنطينية**». ولكنها قد فتحت من زمان؛ غير أنَّ بعضهم يذكر أخرى؛ ويصفها بما يقرب من صفة إرم ذات العماد. وفي آخر: «**حتى ينزل بيت المقدس؛ وتنقل إليه الخزائن؛ ويدخل العرب والعجم وأهل الحرب والروم في طاعته؛ من غير**

---

(١) وفي رواية مسلم عن أبي هُريرة أنهُ قال قال رسُولُ الله ﷺ: «**ولتُتركن القلاصُ فلا يُسعى عليها ولتذهبن الشحناءُ والتباغُضُ والتحاسُدُ وليدعُون إلى المال فلا يقبلُهُ أحدٌ**». والقلاص جمع قلوص وهي أشرف الإبل ومعناهُ أن يُزهد فيها ولا يُرغب في اقتنائها لكثرة الأموال، وقلة الآمال، وعدم الحاجة، والعلم بقُرب القيامة. وجاء الإمام هنا بمعنى بديع في قوله أن سبب ترك كرائم الإبل هو الاستغناء عنها بالطائرات كما نشاهده حالياً.

(٢) صحيح البخاري.

قتال؛ حتى يبني المساجد بالقسطنطينية وما دونها». وفي آخر: «**يملك الدنيا بأسرها**». وفي آخر: «**يستخرج أسفار التوراة من أحد جبال الشام فيحاج بها اليهود فيسلم على يديه جماعة منهم**». وفي آخر عن سلمان بن عيسى؛ قال: «**بلغني أنه يظهر على يديه تابوت السكينة؛ فإذا نظرت إليه اليهود أسلمت؛ إلّا قليلاً منهم**»(١). وأخرج ابن ماجه عن أنس مرفوعاً: «**لا تقوم الساعة إلّا على شرار الخلق؛ ولا مهدي إلّا عيسى ابن مريم**». قال القرطبي: وإسناده ضعيف.

وقد أخذ العلامة ابن حجر ما أخذ عن السيوطي في فتاواه الحديثية؛ بدون عزو؛ وأحال على تأليفٍ له؛ سمَّاه: المختصر في علامات المهدي المنتظر. وما أحاله إلّا على رسالة السيوطي. وأطال ابن خلدون في الفصل (٥٣) من الفصل الثالث؛ من الكتاب الأول؛ في أخبار المهدي؛ وبالغ في توهين أحاديثه وخروجه؛ مبالغة نُسِبَ فيها إلى التعصُّب؛ وكان يَزِن بشيءٍ من النصب. وقال الحافظ ابن حجر: تواترت الأخبار النبويَّة؛ بأنَّ المهدي من هذه الأمة؛ وذكر عدة أحاديث؛ منها حديث الصحيحة الذي أسلفناه: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم**». وكلهم على اتفاق؛ أنه من ولد علي؛ إلّا المتنبي في قوله:

فَإِنْ يَكُنِ المَهْدِيُّ مَنْ بَانَ هَدْيُهُ ... فَهَذَا؛ وإلّا فَالهُدَى ذَا؛ فَمَا المَهْدِي؟

والحمد لله رب العالمين؛ حمداً يوافي نعمه؛ ويكافئ مزيده؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم:

لِلخَلْقِ رَبٌّ كَرِيمٌ قَادِرٌ نَفَذَتْ ... فِيمَا مَضَى وَالذِي يَأتِي لَهُ سُنَنُ

جَلالَةٌ لا يَنَالُ الوَهْمُ أقْرَبَهَا ... قُوَى الخَلائِقِ طُرًّا عِنْدَهَا وَهَنُ

عَمَّ الأنَامَ بِجُودٍ مِنْهُ أسْبَغَهُ ... تَهْمِي عَلَيهِمْ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ المِنَنُ

---

(١) حديث مقطوع: عن سليمان بن عيسى قال: «بلغني أنه على يدي المهدي يظهر تابوت السكينة من بحيرة الطبرية، حتى يحمل فيوضع بين يديه ببيت المقدس، فإذا نظرت إليه اليهود أسلمت إلّا قليلاً منهم، ثم يموت المهدي» (كتاب الفتن لنعيم بن حماد؛ عن موسوعة الحديث).

لَنْ يَرْضَى بِالجُورِ فِي أمْلاكِهِ وَعَلى فَضِيلَةِ العَدْلِ يَبْنِي صُنْعَهَا الحَسَنُ
هَلْ يَتْرُكُ العَادِلُ المَظْلُومَ مُضْطَمِراً وَالظَّالِمِينَ لَهُمْ مِنْ رِيقِهِ السِّمَنُ
حَاشَا وَكَلَّا ولكن قد يُؤَخِّرُ أفْرَاداً بِحِكْمَتِهِ يَبْلو وَيَمْتَحِنُ
أمَّا الشُّعوبُ فَبِالطُّغيَانِ يَسْلُكُهَا إلى الهَلاكِ وَإنْ طَالَ المَدَى قَرْنُ
مَا عُذِّبَتْ أمَّةٌ إلّا بِمَا اجْتَرَمَتْ كُلٌّ بِمَا كَسَبَتْ كَفَّاهُ مُرْتَهِنُ
فِي حَالِ عَادٍ وَفِيمَنْ بَعدَهُمْ عِظَةٌ بَغَوْا وَبَادُوا فَلا أَصْلٌ وَلا فَنَنُ
وَحَالَةُ العُرْبِ فِيهَا عِبْرَةٌ فَبِهِ تَقَاسَمَتْ دَهْرَهَا عَدْنَانُ وَاليَمَنُ
لَكِنْ عَلَى جَهْلِهِمْ فِي جَاهِلِيَتِهِمْ تَشَرَّفُوا إذْ تَسَاوَى السِّرُّ وَالعَلَنُ
فَمَا لَهُمْ قَطُّ سُلْطَانٌ سِوَى ذِمَمٍ مَصْقُولَةٍ بَيْنَهُمْ مِنْ دُونِهَا القِنَنُ
هُمُ الشّياطِينُ إبَّانَ الحُرُوبِ وَهُمْ إذَا التَقَوا فِي السَّلامِ المَاءُ واللِّينُ
لا يَغْدُرُونَ إذَا شَدُّوا وَإنْ نَطَقُوا فَمَا عَلَى فِرْيَةٍ أوْ سَوْءَةٍ مَرِنُوا
وَخزُ الكَلامِ لَدَيْهِمْ كَالسِّهَامِ وَمَا مِثْلُ الذِّمَامِ لِشَيءٍ عِنْدَهُم ثَمَنُ
مَاتُوا قَدِيماً فَأَحْيَتْهُمْ مَكَارِمُهُمْ إنَّ المَكَارِمَ أعْمَارٌ لِمَنْ دُفِنُوا
واليَومَ أبْنَاؤُهُمْ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ سُوءِ أعْمَالِهِمْ فِي مَجْدِهِمْ طَعَنُوا
لَهُمْ بُقَاقٌ وَأَوْرَاقٌ يُنَمِّقُهَا تَمَلُّقٌ وَنِفَاقٌ وَالوَفَا زَمِنُ
قالوا نُهُوضٌ وَلَكِنْ لِلْوَرَى وَلَهُمْ عَزْمٌ وَلَكِنَّهُمْ كَلُّوا وَمَا ظَعَنُوا
حَادُوا عَنَ الدِّينِ فَانْحَطَّتْ مَرَاتِبُهُمْ عَنِ الذُّرَى وَبِشُومِ الافْتِرَاقِ مُنُوا

وقد اتفق أن مؤلِّف توحيد الأديان؛ زار مفتي جُهُور العلامة السيد علوي بن طاهر الحداد[1]؛ بمكة المشرفة سنة ١٣٦٨؛ فزجره ونهره. فكتب إليه يعاتبه؛

(١) ولد العلامة علوي بن طاهر الحداد ببلدة قيدون بحضرموت عام ١٣٠١هـ وتميز بحافظة قوية ورغبة شديدة في العلم؛ وأخذ العلم بقيدون عن الإمام أحمد بن حسن العطاس =

فأجابه حضرة السيد علوي بن طاهر بكتاب مُطَوَّل نلخِّص منه ما يأتي:

أما بعد فقد وصلني خطابك المؤرخ ١٤ ذي الحجة الجاري؛ وذكرت فيه شدتي عليك؛ ومفاجأتي لك بغير اللطف؛ واستعمالي معك طريق العنف. والأمر كما ذكرت؛ وإنما هي غضبة والد على ابنه الذي يشفق عليه؛ وما له عنده إلّا محض النصح. قلت لي في كتابك: إنَّ كتاب توحيد الأديان؛ أيها السيد الكبير؛ لم يؤلف إلّا للدعوة لدين كله الإسلام؛ الذي أنزله على خاتم رسله؛ إلى آخر ما ذكرت. ولكني رأيت في رسالتك؛ التي سمَّيتها توحيد الأديان؛ ما يخالف ذلك مخالفة صريحة؛ أو ظاهرة؛ أو مكسوة بستار من الدعاية؛ يكفي في الدلالة على ذلك قولك في صفحة ٩: وأصرِّح أنني لست أقصد الدعوة إلى دين معيَّن؛ وإنَّ غرضي من التوحيد؛ هو الرجوع إلى أصول الأديان جميعاً؛ كما سترى؛ هكذا قلت، وأصول الأديان اليوم؛ مناقضة لأصول دين الإسلام؛ في الإيمان بالله ورسله؛ وقد نهى الله ذلك على اليهود في سورة البقرة؛ فذكر تحكمهم في الأديان؛ وكفرهم بما يجب به الإيمان؛ وبطلان إيمانهم باليوم الآخر؛ وعدم إيمانهم بما أنزل الله من الحق. ومن الخطأ جعل المعنى واحداً؛ في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾[2] من ربهم؛ فجعل عملهم كفراً؛ وذكره في

= وغيره من العلماء؛ وحفظ القرآن الكريم وألفية ابن مالك في ثلاثة أشهر؛ وتصدر للتدريس وعمره سبعة عشر؛ وبرع في علوم الفقه والحديث والتفسير والتصوف والأدب والتاريخ وعلم الفلك كما تميزت كتاباته بالبلاغة قوة الحجة وجمال الأسلوب وقوة العبارة ودقة الملاحظة. وقد ارتحل في شبابه إلى أثيوبيا والسواحل الإفريقية لطلب الرزق كما هي عادة أهل دوعن وقيدون في زمنه ثم سافر إلى أندونيسيا ثم استقر به المقام في ماليزيا وتولى منصب الإفتاء بولاية جوهور واستمر عليها خمساً وعشرين سنة حتى وفاته بها سنة ١٣٨٢هـ. له مؤلفات كثيرة منها: المدخل إلى تاريخ الإسلام بالشرق الأقصى وكتاب الشامل في تاريخ حضرموت ومجموعة فتاوى وكتب أخرى متنوعة.

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩١.

عدة آيات كريمة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[١]؛ وهو هذا الإسلام الذي أنزل على محمد؛ وليس المراد بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا . . .﴾[٢]؛ أنَّ الأديان المخالفة لدين الإسلام؛ هو مما شرعه الله لنا؛ ولا أنَّ دين اليهود والنصارى والمجوس والبوذيين؛ كما تقول؛ هو الدين الذي شرعه الله، ومن لم يؤمن برسول الله ﷺ؛ وبما جاء به جميعاً؛ فليس بمؤمن ولا مسلم.

وسائره، قد رأينا مثله فيما يكتبه رجال جمعية التبشير بتوحيد الأديان؛ وهي جمعية معروفة؛ فيها نصارى ويهود وأقباط؛ وهي سياسية كالماسونية؛ وذلك أصل من أصول الديانة البوذية.

وأنت اغتررت بما عرفه الناس قبلك؛ وعرفوا ما يراد به؛ وليست أول سارٍ غرَّه القمر. وفي رسالتك مثل الذي أشرت إليه؛ وأكثر.

ثم ساق جملة من الآيِّ المذكورة في السيف الحاد؛ وقال بعدها: وإذْ قد ثبت أن القرآن سجَّل على اليهود والنصارى؛ كفرهم بالله واليوم الآخر؛ فما معنى توحيد أديان؛ كلها كفر وضلال واختلاف؛ بدين كُلُّه إيمان وإسلام وحق وهدى. ثم ساق آيات مذكورة في السيف؛ آخرها قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾[٣]. فهذه الآيات صريحة في النصِّ على أن الذي تزعمه لن يكون أبداً.

ولا يمكن؛ يهودياً ولا نصرانياً ولا مجوسياً؛ أن يكون مسلماً؛ مع بقائه على يهوديته أو نصرانيته أو مجوسيته. وإذا أسلم أحدهم؛ فقد انخلع عن اليهودية أو النصرانية أو المجوسية التي كان عليها؛ وصار مسلماً.

ثم إنَّ السند إلى الأنبياء السابقين مفقود؛ وما جاؤوا به غير محفوظ؛ ولو

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٥.

وصل إلينا كما هو؛ فالفرض علينا اتباع رسول الله ﷺ وآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ. . .﴾(١)؛ نَصٌّ في ذلك.

وجمعية توحيد الأديان؛ لا شأن لها في الإيمان بالرسل؛ ولا نصوص لما جاؤوا به؛ إلّا بقدر ما يستعينون به على تزيين دعوتهم؛ ولما وجدوا جُلَّ الأديان تدعو إلى عبادة الله؛ والعمل الصالح؛ وتُخْبِرْ بالجزاء؛ أرادوا بعقولهم وضع دين جديد؛ مشتمل على هذه الأصول؛ ليجمعوا الناس عليه. فإذا دَعَوا مجوسياً ذكروا جُمَلاً مما في كتب المَجُوس. وإذا دعوا اليهود ذكروا شيئاً مما في التوراة. وكذلك يفعلون في دعوتهم للنصارى؛ يذكرون شيئاً مما في الأناجيل.

وإذا دعوا المسلمين فعلوا كما فعلت؛ من تقطيع آيات القرآن؛ وحملها على ما وضعوه؛ ولا يغتَرّ بأعمالهم مسلم يفهم معنى الإسلام. وفي رسالتك؛ مثل الذي أشرت إليه وأكثر؛ ولو جِئتَ؛ لبيَّنتُهُ لك؛ وقد قال الله تعالى في أهل الكتاب جميعاً: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾(٢) (٣)؛ وقال فيهم: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾؛ فسجَّلَ عليهم بطلان الدين؛ والكفر بالله واليوم الآخر. وزعمت أنت أنها من أصول أديانهم؛ فإن أردت أنها كانت كذلك؛ ثم نُسِيَتْ أو حُرِّفَتْ فذاك؛ ولكن مجموع ما قلته في رسالتك؛ يدُلُّ على غير ذلك. هذا وعسى الله أن يتوب علينا جميعاً؛ ويردُّنا إليه مرداً جميلاً والسلام.

كاتبه علوي بن طاهر الحداد

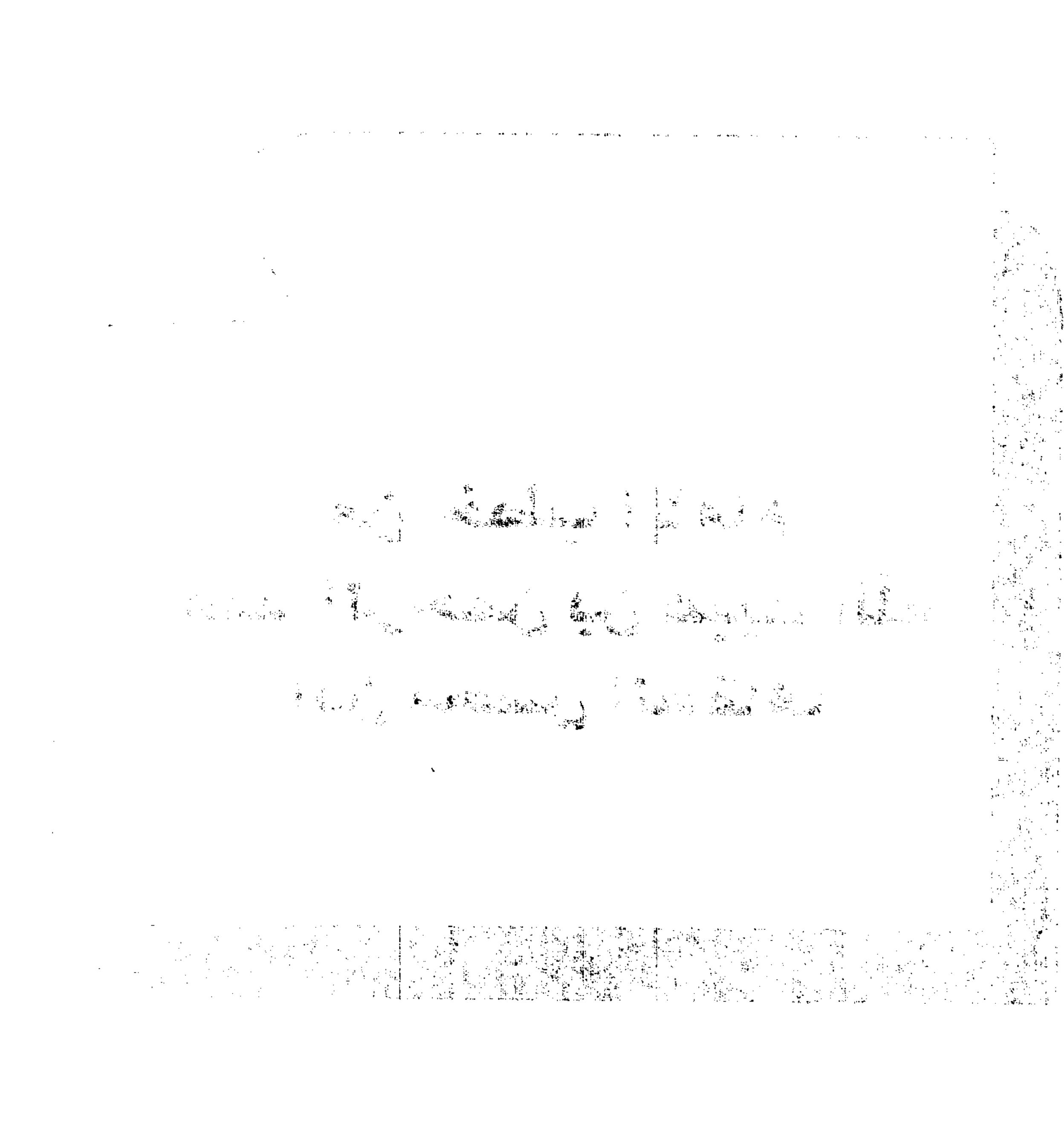
شعبان ١٣٦٩ الموافق يونيه ١٩٥٠



(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

(٣) ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].



من خطب الإمام
عبد الرحمن بن عبيد اللّٰه
ابن محسن السقاف

مقدمة

بعد أن استمتعنا واستفدنا من كتب الإمام السابقة أحببت أن أطلع السادة القراء على خاصية أخرى من خصائص هذا الإمام العظيم وهي في كونه من الخطباء المفوهين؛ وكان يرتجل الكلمات البليغة؛ بلا تحضير مسبق؛ فيأتي فيها بالعجب العجاب. وبذلك نكون قد عرفنا الإمام ابن عبيد الله في كتابه العظيم صوب الركام كإمام من أئمة الفقه؛ يعرف دقائقه؛ ويفهم حقائقه؛ ويلم بطرائقه؛ ثم رأيناه في كتابه الشهير العود الهندي أديباً مبدعاً؛ وكاتباً مدهشاً؛ شهد له بذلك كل من قرأه من العلماء والأدباء والشعراء. ثم رأينا الإمام في كتاب النجم المضيء إماماً في النقد الأدبي؛ والتذوق الشعري؛ مع حافظة قوية سردت لنا ما لا يُحصى من أبيات الشعر قديمه وحديثه مع العديد من القصص والنوادر. كما يعتبر ديوان شعرالإمام ابن عبيد الله؛ الذي نحن بصدد إعادة طبعه؛ ديوان علم وأدب؛ ودين وأخلاق؛ وتاريخ وسِيَرْ. كما قيَّمه بذلك الشيخ حسنين مخلوف؛ الذي أشرف على إخراجه وطبعه. ولا نحتاج هنا للتعليق على كتابي بلابل التغريد؛ والسيف الحاد؛ لأنهما الآن بين يديك أيها القارئ الكريم؛ تتصفحهما وتستمتع بقراءتهما؛ وقد قلنا عنهما في المقدمة ما تيسر من الكلام.

كما أن للإمام ابن عبيد الله مجموعة من الخطب البليغة؛ قالها في العديد من المناسبات ومن حسن الحظ أن بعضها قد سجله بعض طلبته وجمعها؛ ولكنها لا زالت إلى الآن مخطوطة؛ لكنني أحببت أن لا ينتهي القارئ من قراءة بلابل التغريد والسيف الحاد؛ إلّا وقد تعرف على أسلوب الإمام في خطبه وكلماته؛ حتى نوفِّي هذا الإمام العظيم؛ والذي لم يسمع به الكثيرون خصوصاً خارج حضرموت؛ حتَّى نوفِّيه حقَّه من التعريف والتنويه. وقد دفعني لتقديم خطبة من

خطبه في هذا المقام كونه قد يمضي وقت طويل على مخطوطة خطب الإمام قبل أن تسلك الطريق إلى التحقيق والطبع؛ فيحرم القراء من التعرف على خطبه؛ كما قد يكون ذلك دافعاً للإسراع بطبع مخطوطة هذه الخطب والكلمات.

أما زعامة الإمام ابن عبيد الله السياسية؛ وتحركاته الدبلوماسية؛ فلن نعرفها إلّا بعد أن نتمكن من تحقيق وطبع كتابه العظيم؛ بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت؛ وهي في ثلاثة مجلدات من القطع الكبير؛ ولن تكون بعد طبعها في أقل من عشرة مجلدات أو أكثر من عشرة من المجلدات العادية؛ ونسأل الله تعالى أن يتيسر لنا ذلك في المستقبل القريب؛ لأنَّ فيها من الفوائد العلمية؛ والمعلومات التاريخية؛ والمعاهدات السياسية؛ والنكت الفقهية؛ الشيء الكثير جداً؛ وسيكون كتاب بضائع التابوت؛ إن شاء الله؛ بعد تحقيقه وطبعه؛ مرجعاً أساسياً مهماً؛ لكل من يريد أن يكتب عن حضرموت وعن اليمن وعن جزيرة العرب على وجه العموم. والآن إلى خطبة من خطب الإمام عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ألقاها في ليلة الواحد والعشرين من رمضان من سنة ١٣٣٨هـ بمسجد طه؛ أشهر مسجد بمدينة سيئون ببلد حضرموت.

خطبة وعظ وتذكير

للإمام عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ألقاها في ليلة الواحد والعشرين من رمضان سنة ١٣٣٨هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العظيمة منَّتُه، السابغة نعمته، البالغة حجته، السابقة رحمته، القاهر سلطانه، العميم إحسانه، الواضح برهانه، البعيدة صفاته، التامة كلماته، الباهرة آياته، المتقدِّسُ بعزته، المنفردُ بوحدته، المتجبِّرُ بعلوِّه، المتكبِّر بسموه، لا تدركه الأبصار، ولا تتصوره الأفكار، وسع كل مسرف حلمه، وأحاط بكل شيء علمه، يعلم مقرَّ الأمشاج من الأرحام، ومواقع القطر في حناديس الظلام، ودبيب النمل على ذرَّات الرمال، وأوكار الطيور في صياخيد الجبال، فسبحانه من ملك حليم، رؤوف رحيم، علم فستر، وعُصِيَ فغفر، وملك فقهر، أحمده حمد أوَّاهٍ منيب، مطيعٍ مستجيب، تائبٍ عما اقترفه، نادمٍ على ما أسلفه، وأشهد أن لا إله سواه، جلَّ عن الشريك والنضير، والمعين والمشير، والحاجب والوزير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأشهد أن أبا القاسم رسوله وحبيبه وخليله، بعثه وشهب الشرِّ منقضَّة، والأفئدة عن التوحيد منفضَّة، فعارضهم بآياته، وكافحهم براياته، وأظهر حصرهم بالقرآن، وأبلى جيوشهم بالغرارة والسنان، ومحَّص الشرك وأباده، وأظهر الدين وأشاده، أرسله بالهدى، وزعزع به الردى، وجعله رحمة لعبيده، ومنذراً بوعيده، ختم به نبوَّته، وأسعد به أمته، وأقام به حجَّته، وأوضح به محجَّته، فضاعف اللهم له الصلاة والسلام، واعبق اللهم ضريحه الأزهر بالتحية والإكرام، ما هدر

الحمام بروضته، وتنفس الريحان من حضرته، وتهجَّد الخاشعون بمسجده، وشابوا لجين دموعهم بعسجده، واشتاق المحبُّون لعقيقه ومحجره، واعتكف المعتكفون ما بين قبره ومنبره.

أما بعد عباد الله؛ فأوصيكم بتقواه، فإنها أوضح منهاج، وأنور سراج، لا يَضِلُّ صاحبها المسلك،ولا يضام من تمسَّك بحبلها ولا يهلك، فتراكضوا جياد أعماركم في مضمار العمل، قبل أن تبلغوا غايته وهو حلول الأجل، فإن الظعن واقع، والطريق شاسع، فلا بدّ له من حسن الارتياد، وتهيئة قدر البلاغ من الزاد، وقد أرشدنا الله إلى زاده، وحثَّنا على استعداده، واعلموا أن شهركم هذا شهر كريم، فيه أُنْزِلَ القرآن العظيم، جعله الله للعالم مصباحاً، ولليلِ السيئات صباحاً، يبذل فيه رحمته، ويغلُّ فيه جنته، ويزيد فيه تنمية صدقته، وتضعيف حسناته، وهو موسم الخيرات وعكاظها، وفيه زيادة الأرباح ونضاضها، تغلق فيه أبواب النيران، وتفتح أبواب الجنان، وتُزَيَّنُ الحور، وتزخرف القصور، وهو شهر المواصلة والمواساة، والتلاوة والمناجاة، فقوموا بما فيه من الحقوق، وإيَّاكم والرفث والفسوق، واجتنبوا الخمس الموبقات، فإنهنَّ للصائم مفطرات، وألجموا لقالقكم؛ فإنَّ حصائدها تكِبُّ في النار، وأرسلوا أعنَّتها في الدعاء والاستغفار، وعليكم بقراءة القرآن، فإنه الحبل المتين، والنور المبين، والترياق النافع، والكلام الجامع، لا تُخْلِقُهُ كثرة الترداد، ولا يُفْنِي عجائبه مرُّ الآباد، وقد خُصَّت هذه الأمة، بواسطة نبي الرحمة، بليلة خير من ألف شهر، ألا وهي ليلة القدر، لا دعاء فيها إلّا يسمع، ولا عمل إلّا يرفع، لا يُرَدُّ فيها سائل، ولا يُخَيَّبُ فيها آمل، ألا وإن شهركم قد قوَّض خيامه، وأزمع انصرامه، وآذن شمله بالانصداع، ووقف على ثنية الوداع، فاعتنقوه بعمل البر، وودعوه بصدقة السرّ، والتزموه معولين؛ وشيعوه محزونين، السلام عليك يا شهر رمضان، السلام عليك يا شهر الإحسان، السلام عليك يا شهر التراويح، السلام عليك يا شهر المصابيح، فيا ليت شعري مَنْ العائِدُ منا إلى قابل، ومن تفترسه مخالب الحِمَام، وتندبه الثواكل، ومن المقبول ومن المطرود، فتداركوا بقيَّته، والتمسوا فيها ليلته، فإنها

تنتقل في ليالي الشهر، واعتمد الجمهور أنها في هذه العشر، وأرجى ما تكون عند المحققين، ليلتكم هذه؛ ليلة إحدى وعشرين، وهذا القول نصَّ ابن إدريس[١] على ترجيحه، وأيَّد ما أخرجه أبو عبد الله[٢] في صحيحه، وقد كان نبينا لدخول العشر يَشُدُّ مئزر جدِّه، ويُفْرِغُ في اقتناص الخير غاية جهده، ويحيي ليله، ويوقظ أهله، ولا يغفل عن المراقبة؛ قدر سِنَةْ، وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، فرحم الله امرأً أبرز همَّته، وصمَّمَ عزمته، وأنضى في العبادة قعدته، وكسر شهوته، وانتهز فرصته، والويل لمن أنفق عمره في الباطل، ولم يعثر منه بطائل، وضيَّع في اللهو أوقاته، وسَوَّفَ بالمتاب حتى فاته، فتطهروا من الأدناس، وتخلصوا من الأرجاس، بماء التوبة والنزوع، والندم والرجوع، فإنها أول باب يُقْرَعْ، والعمل من دونها لا ينفع، وقوموا بوظائف العبادة، لتفوزوا بالحسنى وزيادة.

فالصلاة قاعدة الدين وأساسه، وعموده ورأسه، من تعمَّد تركها؛ أو أخرج فرضاً عن وقته، باء من الله بسخطه ومقته. والزكاة حق محتوم، وفرض من الدين بالضرورة معلوم، وكم جاء في تركها من الوعيد، والإنذار الشديد، صرح به القرآن وشفى، ولو لم يكن إلّا قوله: إن الذين يكنزون لكفى، وقد حان وجوب زكاة البدن، على من فَضَلَ معه عن حاجة يوم العيد وليلتها من المؤن، وهي على المسلم، وعن كُلٍّ مِمَّنْ في نفقته من خادم وولد، صاع سليم من العيب من غالب قوت البلد، ووقت وجوبها أول جزء من شوال، حين تقسم على الصوام الجوائز، وتعجيلها من المالك إلى الولي من أول رمضان جائز، وبَقِيَّةُ أحكامها محقَّقَةٌ في كتب العلماء، وقد جاء أن الصوم قبل إخراجها مُعَلَّقٌ بين الأرض والسماء، فدونكم إخراجها من أعزِّ ما تُحِبُّون، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون.

وأما الصوم فقد اصطفاه الله له، ووعد صاحبه أوفر جزاء وأجزله، وأما

---

(١) أي الإمام الشافعي.

(٢) أي الإمام البخاري.

الحج فواسطة عقد النظام، وجديرٌ بمن تركه مستطيعاً سوءُ الخِتَامْ، ودونكم الصدقة فإنها تُطفئ غضب الجبَّار، وتمَحِّص الذنوب والأوزار، فإنَّ لصبر الفقراء دوله، وزهواً يوم القيامة وصوله، فاتخذوهم للحسنات أجمالاً، واجعلوهم لزاد سفركم حُمَّالاً، وإياكم والمعاصي، ومخالفة مالك النواصي، واحذروا الشهوات؛ فالشفاء في ضمنها مدمج، واقتحموا المكاره فإن الفوز في طيها مدلج.

واعلموا أن الله جلَّ سلطانه، وعلا شأنه، ليس بينه وبين خلقه سبب، ولا صهر ولا نسب، ما هو إلّا امتثال أمره، والقيام بشكره، فاكدحوا أعانكم الله للميعاد، وازرعوا في أيام مهملتكم للحصاد، وليغنم كل منكم صحته قبل سقمه، وشبابه قبل هرمه، وغناه قبل قِلِّه، وفراغه قبل شغله، فبينما الإنسان جانحٌ إلى غَيِّه، جامحٌ في بغيه، إذ وعكته الآلام، وشقته الأسقام، ونهكه المرض، وتجرَّع المَضَضْ، وكثر عُوَّادُه، وحزن أولاده، واستعان كلّ ذي وِدٍّ وقريب، بكل حكيم وطبيب، واستمر على ذلك زماناً، لا يزداد إلّا وهناً وزِمَاناً، فملَّه طبيبه، ويئس منه حبيبه، ونكره أصحابه، وأتاح له الحمام كأسه، وصعدت بالزفرات أنفاسه، أحضره أهله ضارعين لما نزل به، مشفقين عليه من الموت وكربه، لا يغنون عنه دفعاً، ولا يملكون له نفعاً، فبينا هو يراجعهم الكلام، ويصف لهم الآلام، إذ خُتِمَ على لسانه؛ فشخص ببصره، وطمح بنظره، يسمع خطابهم، ولا يَرُدُّ جوابهم، ثم اسْتُلَّت روحه، وسكنت ريحه، ورشح جبينه، ولان عرينه، وانقطع أنينه، وفغر فاه، وأُلْقِيَ على قفاه، ونعاه أبواه، وقامت نوادبه، وصاحت أقاربه، وتأيّمت زوجته، ويُتِّمَتْ صبِيَّتُه، ونُشِرَ كفنه، وشُدَّ ذقنه، وأُرْكِبَ على العود، وأُخْرِجَ إلى اللحود، ووضع في رمسه، وأفضى إلى ما قدم في أمسه، وأهيل عليه التراب، وتبدل به الأحباب، وَانْتُهِبَ ماله، ولزمته أعماله، وَوَدَّ أن يعود فيتدارك ما فات، ويستعدَّ بصالح العمل وهيهات، فاذكروا أيها الغافلون، وشمِّروا أيها المقصرون، واطلبوا الخير جهدكم، واهربوا من النار دهركم، فإن الجنَّة لا ينام طالبها، وإن النار لا ينام هاربها، وقد أبلغ الله في معذرته، وبالغ في عظته،

فالحق أبلج، والباطل لجلج، ما لي أراكم عن المواعظ ناعسين، وعن الرتب العَلَيَّةِ متقاعسين، كأنَّ الموت على غيرنا كُتِبْ، وكأنَّ الحقَّ على غيرنا وجب، وكأنا قد سالمنا الحِمَامْ، وعلقنا من الزمان بذمام، كلا والله؛ إنَّه كأسٌ لا بدّ من تجرُّعِه، ووطيسٌ لا بدَّ من مصرعه، ألا وإنه أسرع من البريد، وطالب الأبق الشديد، فكم جَمْعٍ فَرَّقَهْ، وشبابٍ مزَّقَهْ، وعالٍ وضعه، ووضيعٍ رفعه، وجبَّارٍ قمعه، وشامخٍ أرغم أنفه، وآمِنٍ أراه حتفه، لا يُدْهَنْ ولا يُرْشَى، ولا يهاب أحداً ولا يخشى، فصوِّرُوا نزوله، واستشعروا حلوله، فإنه مُعَمَّى، وكُلٌّ يجري لأجلٍ مسمى. الجد الجد للنُّقْلَهْ، والاستعداد الاستعداد قبل الرحلة، واعزبوا عن الدنيا فإنها ليست لكم بدار، ولا لأحدٍ فيها قرار، دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، كثيرٌ عناؤها، سريعٌ فناؤها، بينما أهلها في سرور وحبور، إذ قمصت بأرجلها، وقنصت بأحبلها وقلبت مجَنّها، وأظهرت حزنها، وما هي وسرعة زيالها، وانمحاق خيالها، إلّا كالفيء الذاهب، والخيال الكاذب، ألا تعتبرون بنعيٍ سمعتموه، وميِّتٍ شيَّعتموه، ألا تتعظون بمن قضى في سالف الأحقاب. إنَّ في قصصهم لعبرةً لأولي الألباب، كانوا أطول منكم أعماراً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، قد أصبحت أصواتهم هامدة، وآثارهم خامدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وعُوِّضوا عن القصور المشيدة، بالأحجار المسندة، لا يستأنسون بالعمران، ولا يتزاورون كالجيران، وأنَّى وقد طحنهم البلاء بكلكله، وأكلهم الثرى بجندله، فأصبحوا بعد الحياة أمواتاً، وبعد غضارة العيش رفاتاً، وشحبت أجسامهم بعد بِضَّتَهَا، وانمحقت وجوههم بعد نُضْرَتِهَا، فُجِعَ بهم الأحباب، وظعنوا فليس لهم إيَاب، أين من بنى وشاد؛ وطغى في البلاد، أين من دوَّن الدواوين، ورفع الأواوين؟، أين من فرض الأُعْطِيَة، وعقد الألوية؟، بل أين الآباء والأمهات، أين الإخوان والأخوات؟، ألبسهم المحاق قميصه، وشرح بهم البلاء عويصه، واهتصرتهم يد المنيَّة، وحالت بينهم وبين الأمنية، ووردوا على ما أسلفوا، وندموا على ما خلَّفوا، وخَلوا في أجداثهم الضيِّقة بالسعادة أو الشقاء، وتمنوا أن لو استظهروا لذلك اللقاء، قد تبدلت صورهم، وانقطع خبرهم. أرأيتم

لو كُشِفَ لكم عن إخوانكم وآبائكم وخِلَّانكم، فَحُشِروا من قبورهم، يسيل صديدهم على نحورهم، بوجوهٍ باسرة، وعظام ناخرة، فماذا يكون إشفاقكم، ووجلكم، واحتراقكم، فتخيَّلوا حالهم، وتذَّكروا مآلهم، فكأنَّكم قد صرتم إلى ما صاروا إليه من الوحدة، وعاينتم ما حل بهم من الشدَّة، وارتهنتم في ذلك المضجع، وضَمَّكم ذلك المستودع، حتى ينفخ في الصور، وتُدْعَوْنَ إلى النشور، وبعثرت القبور، ويحصَّل ما في الصدور، في موقف مُهِيلْ، ومشهدٍ جليل، يأخذ للمظلوم من الظالم، قد علم كلَّ قضيةٍ قضاها، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، وكيف بكم إذا أوقفتم للحساب، بين يدي شديد العقاب، وقد ماج عرشه، واشتدَّ بطشه، فطارت القلوب إشفاقاً من سالف الذنوب، وكَثُرَ الصياح، وظهر النواح، وهُتِكَتْ الأستار؛ وظهرت الأسرار، وأُعْلِنَتْ القبائح، وشهدت الجوارح، وغلق الرهن، وصارت الجبال كالعهن، هنالك ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، و﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، فأما العاصي فإلى النار لا يهدأُ زفيرها، ولا يُفَكُّ أسيرها، وأما من زحزح عن العذاب، وسبقت له السعادة في أمِّ الكتاب، فإلى ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾، ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾. ماؤها سلسبيل، ممزوج بزنجبيل، ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، وآثَرَ مرضاته وقربه. اللهم اجعلنا من أهلها، واسقنا من نهلها، وكُنْ لنا يوم التناد، ولا تفضحنا على رؤوس الأشهاد، اللهم أنت العليم بما أخفينا، والمحيط بما آتينا، فلا تؤاخذنا بما جنينا، وامطر سحائب رحمتك علينا، ولا تقطع عادتك من الإحسان إلينا، اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

فهرس كتاب بلابل التغريد

فهرس كتاب السيف الحاد لقطع الإلحاد